

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

\*

**صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين**

**رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب**

\*\*\*

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق

# السير

پلوتارك "فلوطرخوس"

# السير

پلوتارك "فلوطرخوس"

ترجمة:

جرجيس فتح الله

الجزء الثالث

اسم الكتاب: السير - الجزء الثالث  
تأليف: پلوتارك (فلوطرخوس)  
ترجمه: جرجيس فتح الله  
من منشورات آراس رقم: ٤٠٥  
التصحيح والإخراج الفني: شاخوان كركوكي  
التنضيد: نثار عبدالله  
الغلاف: آراس أكرم  
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود  
الطبعة الأولى: اربيل - ٢٠٠٥  
رقم الإيداع في المكتبة العامة في اربيل: ٢٠٠٥/٨٢٩

الاسكندر

**ALEXANDER**

356\_323

فضلاً عن هذا، فقد شوهدت مرة أفعى مستلقية في الفراش مع [اولمپياس] وهي نائمة. فكان هذا أهم عاملٍ في خمود عاطفة فيليب نحوها. وسواء في ذلك أكان مأتى برود عاطفته خوفه منها بوصفها ساحرةً، أو ظنّه بأن لها علاقة باحد الآلهة فعد نفسه غير مرغوبٍ فيه، فإن رغبته في مكالمتها قلت.

وقال آخرون بأن النساء في بلادها كن شديدات التمسك بممارسة الطقوس الأورفيّة -Ar-phic<sup>(١)</sup> المتعصبة، وعبادة [باخوس] المتطرفة (ولهذا السبب سُميَن [كلودونس Clodones] و[ميمالونس Mimalones] مقلدات في أمور كثيرة ما تمارسه النساء (الايديونيات Edoni-ans) والشراقيّات قريباً من جبل [هايموس Haemus]). ومن هذا يبدو أن كلمة [ترسكووين Threskeuein] قد اشتقت فصارت تعبيراً يطلق على السطحي والغريب جداً من العبادات. ان [اولمپياس] التي كانت شديدة التمسك بهذه الطقوس والعبادات المتعصبة الجنونية. كانت تمارس الرقص الذي هو جزءٌ من تلك الطقوس، بعد أن تلفّ أفاعي عظيمة مدججة على جسدها كما تفرضه تلك العبادات، فتخلف في الناظر أثراً مرعباً متوحشاً. كانت تلك الافاعي تلتفّ أحياناً حول الرماح المقدّسة، وأكاليل الرؤوس فلا يقوى الرجال على ادامة النظر خوفاً.

بعد هذا الحلم، بعث [فيليب] بـ[خيارون Chaeron] الميغابوليسي، ليستشير عرافة ابولو في دلفي. فورد الأمر بأن يقدم قرباناً، وان يخص من الآن فصاعداً، الاله [أمون] من بين سائر الآلهة باكبر التعظيم والتكريم. وأنذر بأنه سيفقد يوماً ما تلك العين التي خيل له بأنه أختلس النظر بها من شقّ الباب فرأى الإله وهو على شكل حيّة مع زوجته. ويقول [ايراستينيوس Erasthenos] بأن [اولمپياس] عندما رافقت الاسكندر وهو في طريقه للانضمام الى الجيش والمشاركة في اول قتال له، كشفت له عن سرّ ولادته وطلبت منه أن يتحلّى بالشجاعة والإقدام الجديرين بأصله الآلهي. ويؤكد آخرون أيضاً أنها نفت نفيّاً قاطعاً اي ادعاءً من هذا القبيل وكانت تردد دائماً قولها شاكية:

- متى يكفّ الاسكندر عن الافتراء علي عند [جونو]؟

ولد الاسكندر في السادس من شهر [هيكاتومبيوس] الشهر الذي يسميه المقدونيون [لوس Lous]. وهو يتفق واليوم الذي احترق هيكل [ديانا] في [أفسس]. وهي مناسبة تافهة

(١) نسبة الى [اورفيوس] الذي ورد ذكره في اسطورة أغريقية تقول أنه كان موسيقياً لحق بامرأته [يورديس] الى عالم الأموات. وقد سحر [بلوتر] بالحنان فأجاز له اخراج امرأته من ذلك العالم شريطة ان لاينظر خلفه عند خروجه إلا انه فعل ذلك في آخر لحظة ففقدتها.

ما صحت نيتي على كتابة سيرة حياة الملك الاسكندر و[قيصر] الذي انتصر على [پومپي] وجدت أن وقائعهما المجيدة تشمل فضاءً واسعاً، ان لم ابادر معتذراً الى تنبيه قارئتي بأنني سأفضل الاختصار على الاسهاب في كل واقعة او حادثة خاصة، فسأقع تحت طائلة الانتقاد والمأخذة. وليكن معلوماً أيضاً بأن هدفي ليس تدوين التاريخ بل كتابة السير. واعظم المآثر واجلها شأناً لا تزودنا دائماً بأوضح المعلومات عن الفضائل والردائل البشرية. فأحياناً تجد في احدوثة صغيرة قليلة الأهمية، كعبارة أو نكتة من النكات خير دليل على الاخلاق والميول لا تعدله أعظم وقائع الحصار المشهورة واشدّ المعارك هولاً، واضخم التجريبات العسكرية وما الى ذلك. لقد كان رسامو الصور دوماً، ادق في رسم خطوط الوجه وملامحه، من رسم سائر الاجزاء الأخرى من الجسم، لأن خلق المرء يبدو على اساريه. لذلك ارجو أن يسمح لي بصرف جُلّ اهتمامي الى ما تستدل به على النفوس من علامات و اشارات. وفي الوقت الذي سأعمل جهدي في رسم صور حياتهم بواسطة ذلك، تاركاً أموراً تبدو أكثر أهمية، ومسقطاً عن بحثي سرد معارك حربية عظيمة، تاركاً معالجتها لغيري.

اتفق الكتاب جميعاً على أن الاسكندر انحدر من ناحية ابيه من [هركليس] عن [كارانوس Caranus] ومن ناحية أمّه من [اياكوس Aecus] عن [نيوپتليموس] وقد كان ابوه فيليب يقطن [ساموثراكي] وهو شاب يافع، عندما وقع في حبّ [اوليپيماس Olympias] التي كان قد كرس معها دينياً في احتفالات البلاد، ومات عنها ابوها وأمّها بعد ذلك بوقتٍ وجيز. فتزوجها بموافقة أخيها [اريمباس Arymbas]. وفي الليلة السابقة لزوجها حملت بأن صاعقة انقضت على جسدها فأشعلت ناراً عظيمة تفرقت سنتها فيما حوالها ثم خمدت وبعد مرور زمن على الزواج رأى [فيليب] في الحلم بأنه ختم على جسد امرأته بختم خيل له أن النقش المحفور عليه يمثل صورة أسد. وقد فسر بعض العرافين هذا الحلم بأنه تحذير [لفيليب] ليشتمد في مراقبة زوجه. إلا أن [اريستاندر Aristander] [التلمسوسي Telmessus] أكد أن حلمه يعني بأن الملكة قد حبلت بجنين ذكر سيكون في مستقبل الأيام قوياً شجاعاً كالأسد الضرغام. وقد توصل الى تفسيره هذا بعد أن تبين وجه استحالة ختم شيء فارغ.

يجعلها [هيجسياس Hegesias] المغنيزي سبباً لوقف النار وانطفائها، اذ يقول ان النار شبت في المعبد فاحترق، اثناء غياب سيدته التي ذهبت لمساعدة [اوليمپياس] اثناء المخاض بالاسكندر. ان العرافين الشرقيين الذين صادف وجودهم في أفسس اثناء الحريق، اتفقوا كلهم بأن خراب الهيكل ما هو الا مقدمة لمصيبة اخرى فأخذوا يتراكمون في انحاء المدينة وهم يلطمون ويصرخون قائلين ان أمراً جلاًلاً سيتمخض به هذا اليوم وسيكون فيه القضاء والدمار لآسيا كلها.

ما أن استولى [فيليب] على [پوتيديا Potidæa] حتى تسلم رسائل ثلاثاً في آن واحد. الأولى تعلمه بأن [پارمينيو Parmenio] قد هزم اللبيريين في معركة عظيمة. والثانية تنبئه بأن حصانه قد خرج فائزاً في سباق الالعاب الأولمبية. والثالثة تبشره بولادة الاسكندر. فكان اغتباطه عظيماً بطبيعة الحال. وقد زاد في سروره أن العرافين أكدوا له بان ابناً صادفت ولادته مثل هذه البشائر الثلاثة بلا شك هو جبار لا يغلب.

إن اقرب التماثيل شبهها بالاسكندر هي بلا جدال، التماثيل التي صنعها له [ليسيپوس Ly-sippus] بأذن خاصٍ منه. وإن تلك المميزات غير المألوفة حاول كثيرٌ من خلفائه واصدقائه محاكاتها فيما بعد. مثل ميلان رأسه قليلاً الى جانب من جهة كتفه اليسرى. وعينه الناعسة مما بلغ النحات في تصويره غاية الدقة والاتقان. إلا أن [أپيلليس Apelles] الذي صوره ممسكاً بيده صاعقةً، جعل بشرته أكثر اسمراراً ودكنةً مما هي في الواقع، اذ كان أشقر أبيض البشرة مع شيء من الحمرة في الوجه والصدر منه. ويحدثنا [ارسطوكزينس] في مذكراته بأن أطيّب ريح كانت تفوح من جلده وأن انفاسه وجسده كانت معطرة بصورة طبيعية حتى أنها كانت تعطر الشياب التي تلي بشرته. ولعل سبب ذلك يعود الى مزاجه الحار الناري. فالرائحة الزكية على قول [ثيوفراستوس] تتأتى من تآلف الاخلاط الاربعة<sup>(٢)</sup> الرطبة مع الحرارة. وهذا هو السبب في أن تلك الاجراء التي هي أكثر جفافاً وتعرضاً لحرارة الشمس من العالم تنتج أحسن التوابل وأكثرها، لأن حرارة الشمس تستنزف كل الرطبة الخارجية التي تكسو سطح الاجسام تلك الرطوبة التي من شأنها أن تحدث الفساد والعفونة. ان هذا التركيب الحار قد يكون السبب في ادمان الاسكندر شرب الخمر، وفي سرعة غضبه. أما اعتداله فيما يتعلق بملذات الجسد فقد وضع فيه منذ نعومة اظفاره. فقد كان يصعب جداً اثارته من هذه الناحية، وظلّ يمارسها أبداً بكثير من الاعتدال. امّا في الأمور الأخرى فقد كان شديد التطرف والحرارة. لقد أظهر في حبه المجد، وفي جدّه ومتابعته له جلدًا وثباتاً تمازجه روح عالية وشهامة أكبر

(٢) في الطب القديم: الاخلاط الاربعة هي الدم والبلغم والسوداء والصفراء.

بكثير من عمره. فلم يتطلبها أو يؤثرها في كل مناسبة تتفق له كما كان يفعل ابوه [فيليب]. (كان ينتهز كل فرصة لإظهار فصاحة لسانه الى حدّ الحذقة، وكان يعمد الى أن نقش صور عجلات سباقه في الالعاب الاولمبية على سكتته)، فعندما سأله أحد اصحابه هل سيدخل في سباق الالعاب الاولمبية بوصفه عداءً سريعاً، أجابه بقوله انه سيفعل ذلك لو كان المتسابقون معه ملوكاً مثله. والواقع انه كان يبدو عموماً عديم الاكتراث بالرياضيين المحترفين ان لم يكن يكرههم وكثيراً ما كان يضع جوائز لا يستنافس عليها الممثلون والموسيقيون والزمارون واللاعبون على القيثارة وحدهم، بل لشعراء الحماسة ايضاً. وكان يهوى كل انواع الصيد، والمبارزة بالعصي إلا أنه لم يكن يشجع اي نزال ملاكمة أو مصارعة حرّة.

وكان وهو في مطلع شبابه يستقبل السفراء القادمين من ملك الفرس في غياب ابيه. ويدخل معهم في مناقشات كثيرة فينال احترامهم بدمائته وطيب مجلسه، وكانوا يعجبون كثيراً بأسئلته التي تسمو عن الفهاة والصيبانية. فمثلاً يستفسر منهم عن احوال الطرق وطبيعة المسالك الى داخل آسيا، وعن عادات ملكهم وكيف يواجه اعداءه في الحرب وكم هي القوات التي يستطيع زجّها في ساحة القتال. فيمتلئون اعجاباً بع فيعدون كفاءة فيليب المشهورة التي طبقت شهرتها الآفاق لا شيء بالمقارنة الى النضوج المبكر بدأ في ابنه في المبدأ، وفي شرف الأغراض التي يتوخاها.

وبدل أن يداخل الاسكندر الابتهاج عند سماعه نبأ استيلاء ابيه على مدينة هامة او نال نصراً مؤزراً، تراه يشكو لرفاقه قائلاً أن أباه سيستولي على كل شيء ولن يترك لهم وله أية فرصة لتحقيق مآثرة عظيمة أو عملٍ مجيد. ولأنه كان أكثر ميلاً للمجد والعمل من الثروة والمسرات، تراه يعتبر ما سيرثه من ابيه تافه القيمة ومانعاً يعيقه عن اطلاق المجد في المستقبل. وكان يفضل أن يرث مملكةً يسوها الفوضى وتتجاذبها الحروب لتتيح له أكبر الفرص في اظهار شجاعته واستخداماً، ولتكون ميداناً فسيحاً لمآثر وعظائم الأعمال، على أن يجلس على عرش مملكة وطيدة الأركان مزدهرة، فيرث حياة هادئة خالية من النشاط، يحفّ بها الترف والثروة.

ولقد أنيط أمر تعليمه كما هو مفروض، بكثير من الخدم والمدرين والمعلمين، في مقدمتهم [ليونيداس] وهو من اقرب اقرباء [اوليمپياس]. رجل صارم الخلق لم يرفض هو نفسه عنواناً لمنصب كان في الواقع مشرفاً ورفيعاً، إلا أن وقاره ومهابته ودرجة قرابته على العموم أكسبته لقب الأب التربوي للاسكندر من دون سائر الآخرين. إلا أن [ليسيماخوس] [الكرناني Acr-Inanian] هو الذي أحتل الصدارة في تهذيبه، فقد رسم ووضع منهاج تعليمه، ومع أنه لم

يتميز بميزة خاصة تؤهله لهذا المركز، إلا أن ميله الى تلقيب نفسه بـ [فيونكس] وتسميته الاسكندر بـ [أخيل] واطلاقه اسم [پليوس Pelleus] على [فيليب]، كانت سبباً في الحظوة التي نالها ليلي [ليونيداس] في هذا المنصب.

أقبل [فيلونيوكوس Philonicum] التسالي على فيليب وسامه على شراء الحصان المسمى [بوكيفالوس Bucephalus] بمبلغ ثلاثة عشر تالنتاً فأخذ الى ميدان الطرد لتجربته، فتبين بأنه شرسٌ للغاية، جموح لا يسلس قياده، نفور لا يتحمل صوت اي خادم من خدم [فيليب] فأبى شراءه وفيما كانوا يخرجونه قال الاسكندر الذي كان بين الواقفين:

- أسفاً على هذا الحصان الممتاز. لقد خسروه لأن الجرأة والبراعة في ترويضه تنقصهم.

في مبدأ الأمر لم يأبه [فيليب] بملاحظة ابنه، ولكنه أصاح سمعه عندما راح الاسكندر يردد ذلك مرات، وهو متميز غيظاً فابتدره قائلاً:

- أنتنقد اولئك الذين يكبرونك سنناً، كأنك أفهم منهم، وكأنك أقدر على ترويضه؟

فأجابه الاسكندر بقوله: اي نعم، ان بوسعي معالجة أمر هذا الجواد بشكل يفضل عن الآخرين.

قال [فيليب]: فان عجزت عن ذلك. فما هي الغرامة التي تدفعها جزاء تهورك واندفاعك؟

أجاب الاسكندر: اني أدفع ثمن الجواد برمته.

فضحك كل الحاضرين. وتمّ الرهان بين الأب والأبن. واعيد الحصان فأسرع اليه الاسكندر وامسك بلجامه وادار رأسه باتجاه الشمس اذ لاحظ - كما يظهر - أن الحيوان مضطرب وجل من حركة ظلّه. وبعد ذلك تركه يسير الى أمامٍ قليلاً وهو ممسك بالإعنة، يرتب على جسمه رتبات رفيقة هينة كلما وجد امارات القلق والجموح تراوده. ثم ترك معطفه الخارجي يسقط عنه بهدوء ويقفزة واحدة رشيقة اعتلى ظهره وشدّ ساقيه شداً محكماً عليه وما أن أستقرّ على صهوته حتى راح يجذب الأعنة اليه رويداً رويداً حتى شكمه دون أن يحتاج الى ضربه أو حثه. وعندما تبين له أن كل أثر للهباج قد زال منه، وان قلقه مدّ قضي عليه أطلق له العنان فجرى بأقصى ما وسعه، وهو يحتثه بين الفينة والفينة بصوت أمرٍ ويحثه همزاً بكعب قدمه. وكان [فيليب] واصحابه ينظرون الى النتيجة بقلق صامتين، حتى اذا رأوه يستدير عند نهاية الميدان ويعود ادراجه فرحاً ظافراً لما حققه، أنطلقت الحناجر تهتف استحساناً وتصرخ اعجاباً.

وقيل أن أباه بكى فرحاً وعانقه بعد ان ترحل. وابتدره وهو في نشوة جبوره:

- مرحى لك عن مملكة جديدة بك ولائقة.

بعد هذه الحادثة، اقتنع [فيليب] بأن خلق ابنه ومعدنه يستوجب أن يستخدم من العقل والمنطق، لا القوة والإكراه، فكان دائماً يقدم اسلوب الإقناع على اسلوب الارغام والأمر. كذلك تبين له أن تهذيب وتعليم هذا الابن الشاب أصعب وأهمّ من أن يناط بمعلمين للموسيقى والشعر والمألوف من العلوم المدرسية عاديين، وانما يقتضي له «اللجام والمقود معاً».

على حدّ قول [سوفوكليس] أرسل يتقدم [ارسطاطاليس] اثقف واشهر فلاسفة عصره. واغدق عليه العطايا بسخاءٍ يوازي ويناسب العناية التي بذلها في مهمة تعليم ابنه. فمن ذلك أنه اعاد الحياة الى [ستاگرا Stagira] مسقط رأس الفيلسوف وكان قد دكّها قبل زمن قصير واعاد اليها كل سكانها الذين كان قد نفاهم اوباعهم عبيداً. وخصص هيكل [الحوريات Nympha] المجاور لمدينة [ميزا Mieza] ليكون محلاً للدراسة والتدريب. والناس في يومنا هذا يدلونك على مقاعد [ارسطاطاليس] الحجرية التي كان يجلس عليها، والممرات الظليلة التي كان يرتادها.

وقد يخيل للمرء أن الاسكندر أخذ عن هذا الفيلسوف مبادئه في الأخلاق والسياسة فضلاً عن جانبٍ من تلك النظريات الاكثر عمقاً وغموضاً، التي يدعي أولئك الفلاسفة (كما تدل الاسماء التي يطلقونها عليها) بأنهم يدخرونها للحوار الشفوي للمبتدئين، ولايسمحون لسواد الناس بالتصرف عليها بنشرها كتاباً. وعندما كان الاسكندر في آسيا سمع أن [ارسطاطاليس] نشر رسائل من هذا النوع فكتب اليه رسالته التالية مستخدماً أبسط لغة فلسفية:

«من الاسكندر الى ارسطاطاليس، تحيةً. لقد أسأت صنعاً في نشرك كتبك حول المبادئ الشفوية. ماذا بقي لنا بعد هذا لئتمناز به عن الآخرين في هذه الأمور التي تثقفنا بهذا بصورة خصوصية، عندما صارت متاحة للجميع؟ وانا اوكد لك من جهتي، بأني افضل أن أمتاز عن الآخرين في معرفة ما هو رفيع سام، على أن أكون في طليعة الاخرين في توسيع سلطاني وأفاق حكمي. والسلام».

ويتكلم ارسطاطاليس عن هذه المبادئ مخففاً من شدة شغف الاسكندر بالمحافظة على تلك المبادئ فيقول:

إنها منشورة وغير منشورة في الوقت نفسه. وان تحرينا الواقع فكتبه عن الميتافيزيقا كتبت بأسلوب تبدو فيه وهي معدومة الفائدة للتعليم الاعتيادي كما تبدو مفيدة كمذكرات لأولئك الذين ضربوا بسهم وافر في هذه العلوم.

محبّة [فيليب] له. فلم يكن يُسرّه شيءٌ قدر سماعه رعاياه يمدحون قائدهم «فيليب» وينادون ابنه الاسكندر ملكهم.

إلا أن الشقاق الذي حصل في الأسرة، وسببه الرئيس تعود زيجات فيليب وارتباطاته بالمصاهرة اثارت انواع الخلافات والأحقاد فيما بينهما، اتباعاً للقول المأثور: ان المشاكل التي تبدأ في حجرات النساء تنتهي بالانتشار الى سائر انحاء المملكة. وقد زاد من هذه الخلافات حدة «الطبع الحاد العنيد الذي تمتاز به [أولمبياس] وكانت امرأة شديدة الغيرة والحقد. فقد أخذت تدفع بابنها [الاسكندر] وتعرضه ضد ابيه. والحادثة التالية تعتبر في مقدمة الاسباب التي أدت الى القطيعة.

وقع [فيليب] في حُبِّ [كليوباترا] وكانت أصغر منه بكثير، فتزوجها. وفي ليلة العرس راح عمّها [اتالوس] في مجلس الشراب يبتهل الى الآلهة حتى تم على المقدونيين بوارث شرعي لمملكتهم، ثمرة من أحشاء بنت أخيه. فتميّز الاسكندر غيظاً وتناول قدحاً وقذف به [اتالوس] فشح رأسه وهو يصيح به محتدياً:  
- أنا نغل اذن؟ تباً لك ايها النذل.

وعندها نهض [فيليب] ليتخذ جانب [اتالوس] وكاد يفتك بابنه لو لم يعمل حسن الصدف عمله فقد شاء ان يعثر فيسقط على الأرض، اما بكثرة ما عبّ من الخمر واما للعجلة المتأتية من هياجه. فوقف الاسكندر يسخر منه بشكل مهين قائلاً - انظروا الى الرجل الذي يستعد للعبور من اوربا الى آسيا كيف هوى على الأرض عندما اراد الانتقال من مقعدٍ الى آخر؟  
بعد هذه الفضيحة انفصل الاسكندر هو وامّه عن [فيليب] ورحلا عنه. فأستقرت هي في [ايبروس] وانسحب هو الى [الليريا].

في ذلك الزمان، أقبيل [ديماراتوس] الكورنشي على [فيليب] زائراً. وكان صديقاً للأسرة جدّ مقرب له حرية مطلقة في قول ما يريد دون أن يخشى بأساً. وبعد التمهيد والعناق والسلام والتحايا، بادره [فيليب] سائلاً:

- ما حال الاغريق؟ أهم على صفاء ووثام بعضهم مع بعض؟

فأجاب [ديماراتوس] بقوله: لا أرى من حقك أن تهتمّ باحوال الاغريق مطلقاً. وقد ورطت بيتك في هذه المآسي والخصومات.

فوقع كلامه هذا في نفس [فيليب] وادرك أصالة اللوم الذي تضمنه فأرسل فوراً يستدعي ابنه وتوسّط [ديماراتوس] فنجح في اقناع الابن بالعودة الى ابيه، إلا أن هذا الصلح لم يدم

مما لاشك فيه ايضاً ان الاسكندر مدين ايضاً لارسطاطاليس بميوله، لا في العلوم الطبية النظرية وحدها، بل في الطبّ التطبيقي العملي. وكنت تجده - عندما يصاب صديق له بداء - ينظم له الحمية، ويصف له الدواء الأصلح كما تجد ذلك واضحاً في رسائله. وكان بطبعه من أعظم محبّي كل انواع المطالعات والبحوث العلمية ويحدثنا [اونيسقريطوس Onesicritus] بأن الاسكندر كان يحتفظ دائماً بالنسخة التي صححها ارسطو من الياذة [هوميرس] المعرفة «بالنسخة المعلقة» تحت وسادة سريره مع خنجره. وهو يصفها قائلاً: إنه يعدها كنزاً مغنياً سهل الحمل والنقل - جمعت كلّ الفضائل العسكرية ومعارفها. وكان وطابه خالياً من الكتب وهو في آسيا الشمالية فأمر [هارپالوس Harpalus] بارسال طائفة منها اليه. فزوده بتاريخ [فيلستوس Philistus] وبعدهد جدّ كبير من تمثيلات [يورپيدس]، و[سوفوكليس] و[اسخيلوس] وبععض الملاحم الشعرية الحماسية من نظم [تيلستس Telestes] و[فيلوكزينيس Philoxenus]. وقد ظلّ زمناً مولعاً شغوفاً بارسطاطاليس وانزله منزلة لا تقل عن ابيه في نفسه كما كان يصرح هو نفسه. معللاً ذلك بأن احدهما منحه الحياة، وثانيهما علمه كيف يعيش أفضل حياةٍ إلا ان علاقتهما الصميمة وتوادهما العميق اخذاً يفتران فيما بعد، بسبب شكّ ساور الاسكندر فيه ولم يكن هذا الشكّ من الخطورة بحيث يدفعه الى اذيته. وعلى أية حال فقد خبت نار تلك العاطفة حتى ادت الى القطيعة. على أن توقانه الشديد وشغفه بالعلم ظلاً في نموّ مطردٍ بعد أن رسخت جذورها فيه، ولم تخب شرارتها مطلقاً. ويدل على هذا تكريمه [لاناكسارخوس]، واعطاؤه هدية مالية [الكزينوقريطس] قدرها خمسون تالنتاً. وعنايته الخاصة وكرامه لكلّ من [دانداميس Dandamis] و[كالانوس Cal-anus].

عندما جرّد [فيليب] حملته على [البيزنطيين] عين الاسكندر نائبه في مقدونيا وهو لم يتجاوز الستة عشر ربيعاً وفوض اليه ختمه. فلم يركن الاسكندر الى العطالة وجرّد حملة على [الميدي Maedi] الثائرين وأخضعهم. واستولى على مدينتهم الكبرى عنوةً وطرد سكانها البرابرة، واسكن في محلهم مستعمرين من عدة قوميات. واعاد تسمية المدينة باسمه: [اسكندروبوليس]. وفي موقعة [خيرونيا] التي خاضها أبوه ضدّ الأغرقي، قيل أنه كان أول جندي في الجيش هجم علي «العصبة الثيبية المقدسة». وعلى ما أذكر أن شجرة بلوط بالقرب من نهر [كفيسبوس] يطلق الناس عليها اسم «بلوطة الاسكندر»، كانت قد أضلت خيمته التي ضربت تحتها في حينه. ويرى المشاهد على مسافة منها قبور المقدونيين الذين خروا صرعى في تلك المعركة. هذه البسالة التي اباها الاسكندر وهو في مقتبل عمره زادت من

طويلاً فقد بدأ الخصام ثانية، عندما أرسل [بكسودوروس Pixodorus] نائب ملك [كاريا Caria] رسوله [ارستوقريطس] للتوسط في عقد زواج ابنته الكبرى على [اريدوس Ar-rhidæus] ابن فيليب مؤملاً أن يضمن من هذه المصاهرة، معونة الملك المقدوني وقت الضرورة. فبادرت أم الاسكندر وبعض المتظاهرين بالصدقة يملأون رأس الاسكندر بحكايات وتخربات تدور كلها حول هذا.

ان [فيليب] بهذه المصاهرة الممتازة والتحالف الهام، انما يرمي الى تمهيد الطريق لاستخلاف [اريدوس] على عرشه وحرمان بكره. ودفع به الخوف من ذلك الى ان يعث بـ [تيسالوس Thessalus] التراجيدي الى [كاريا] لتشويه سمعة [بكودوروس] وتحقير [اريدوس] كلاهما بوصفهما ابني سفاح وبأحمقين. كما خوله أن يحاول أقناع الاول منهما بقبوله زوجاً لابنته. فتم له ما اراد لأن العرض الثاني. كان أفضل بكثير من الاول وما ان علم [فيليب] بما يجري حتى قصد مسكن ابنه الاسكندر يرافقه [فيلوطاس ابن ارمينو] من أخلص اصداقائه قاتلاً ابنه وعشرائه، وهناك اشدت في توبيخه وتقريعه، وقسا في تعنيفه قائلاً:

- ان حطة الخلق بلغت به غاية التدني، فهو والحالة هذه غير جدير بالسلطة التي سيخلفها له طالما رغب في مصاهرة [كاريا] وضع المنبت، لايزيد عن عبد لأمير بربري. حتى هذا لم يطفئ في سورة غضب فيليب، فكتب يأمر القورنثيين بأن يرسلوا اليه [تيسالوس] مصفاً بالاغلال، وامر بنفي [هاربالوس] و[ينارخوس] و[بطليموس] و[ايريغيوس Erigyuis] اصفياء الاسكندر وعشرائه، إلا ان هذا اعادهم فيما بعد ورفعهم الى اعلى المناصب وكرمهم غاية الاكرام.

وبعد هذا بقليل وقع على پاوسانياس Pausanias اعتداءً لتحريض اتاليوس [وكليوباترة] ولما وجد نفسه عاجزاً عن الانتصاف لنفسه من ذلك العار الذي أصابه على يد فيليب، أخذ يترصب به حتى تمكن منه وقتله. وقد حُملت [اوليمپياس] معظم وزر هذه الجريمة اذ اشيع انها حرضت وأستفزت في نفس الفتى الغاضب روح الانتقام. وقد حام شيء من الشك حتى على الاسكندر نفسه، اذ قيل أنه عندما أقبل عليه [پاوسانياس] شاكياً مالحقه من غدر، ردد على مسامعه مقطوعاً من مسرحية [ميديا Medæ] ليوريديس: «على الزوج، وعلى الأب، وعلى العروس»

وعلى أية حال فإن الاسكندر بذل الجهود لاكتشاف شركاء القاتل في مؤامراته وعاقبهم بصرامة؛ وكان شديد الغضب من أمه لأنها عاملت [كليوباترا] زوج ابيه معاملة قاسية لا انسانية في اثناء غيابه.

كان للاسكندر من العمر عشرون سنةً عندما قتل أبوه وخلفه في حكم المملكة التي كانت تكتنفها المخاطر العظيمة وتمزقها الفوضى ومكائد الاعداء الحاقدين. ومن ذلك أن الشعوب البربرية التي كانت تحاد مقدونيا ابنت ان يحكمها إلا أميراً من امرائها. ومع ان [فيليب] حقق انتصاراته الحاسمة على الاغريق إلا أن الوقت لم يتسع له لإكمال فتوحه وتعويد تلك الشعوب طاعته والخضوع لسلطانه، ولهذا نزل تلك الشعوب وهي في حال لا توصف من الفوضى والغليان، وكانت تلك الفترة بالنسبة للمقدونيين أخرج فترة. وودَّ بعضهم لو تمكنوا من اقناع الاسكندر بالتخلي عن فكرة ابقاء الاغريق تحت سلطانه، ونصحوه باتباع سياسة اللين والرقه لكسب ولاء العشائر التي كانت تنوي الثورة عليه. وشاروا عليه بتجربة اسلوب العفو والغفران لوقف اولى بوادر الثورة. لكنه رفض تلك النصائح بوصفها من دلائل الاستخذاء والضعف. وكان يرى خلاف ذلك أنه من بعد النظر والحكمة تثبيت سلطانه بالعزم والصرامة والمثابرة لأنها خير من الازعان والاستكانة لأنهما يشجعان الجميع على الانتفاض والثورة. وتطبيق فكرته هذه تمكن من القضاء على ثورة البرابرة. وبدد كل فكرة قد تراوهم بشن حرب، فقد قاد حملة مفاجئة على بلادهم وصل بها الى ضفاف الدانوب ووقع هزيمة نكراء بـ [سيمروس Symrus] ملك الترياليين Triballians في معركة فاصلة. ولما وردته انباء قيام [الثيبين] بثورة عليه زحف عليهم باتفاق مع الآثينيين. من وضيق [ترموبيلي] قائلاً قولته المأثورة:

- لقد سماني [ديموستينس] «طفلاً» عندما كنت في «الليريا» وفي بلاد «ترياليا» وسماني «شاباً» عندما كنت في «تساليا». ولكنني سأبدو له رجلاً عند وصولي اسوار آثينا!

وصل الاسكندر الى [ثيبه] واراد إظهار مبلغ رغبته في الصفح عن أهاليها وقبول دخالتهم بعدما فعلوا. ولم يطلب منهم غير [فيونيكس Phoenex] و[پروثيتوس Prothytes] وهما الرجلان اللذان تزعموا العصيان. وأعلن ايضاً العفو العام عن كل ينضم اليه، إلا ان الثيبين ردوا على بيانه هذا بيان آخر طالبه فيه بتسليم كل من [فيلوطاس] و[انيتباطرا]، وأعلنوا من جانبهم الدعوة لكل من يؤيد حرية اليونان وأستقلاله بأن ينضم اليهم، وهنا لم يسع الاسكندر إلا أن يمارس معهم أمر وأقسى جانب من الحرب. والواقع ان [الثيبين] دافعوا عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً وابلوا أحسن البلاء. لكن عندما كرت عليهم الحامية المقدونية من القلعة وجدوا أنفسهم مطوقين من كل جهة بحيث ان القسم الاعظم منهم خرسياً في ساحة القتال. وتم فتح المدينة عنوة ونهبت ثم دكت دكاً. وكان الاسكندر بهذا يريد ان يضرب مثلاً لارهاب بقية شعوب الاغريق وارغامهم على الوضوح لحكمه بمثل هذا العقاب الصارم كما كان



يريد أيضاً شفاء غليل حلفائه الفينيقين و[البلاتانيين Plataens] من أعدائهم المقهورين. وهكذا لم يبق من سكانها البالغ تعدادهم ثلاثين ألفاً، غير الكهنة ونفر قليل ظلوا على صداقتهم وعلاقتهم مع المقدونيين، وأسرة الشاعر [بندار] وأولئك الذين عرفوا بمعارضتهم الحرب اثناء التصويت العام عليها. وهكذا بيع جميع السكان في سوق العبيد وقضي على ستة آلاف بحدّ السيف.

ومن البلايا الأخرى التي انصبت على المدينة، هو ان بعض الجنود الثراقيين اقتحموا بيت واحدة من عقائل المدينة وعرفت بالخلق العالي وكرامة المحتد، تدعى [تيموكليا Timoclea] ويعد أن أغتصبها قائد الجنود، طلب منها ارضاءً لجشعه بعد ارضاء شهوته، أن تدله على مكان مالٍ مخفي فأسرعت تقول انها تعلم بوجود مالٍ وطلبت منه أن يتبعها الى الحديقة حيث ارشدته الى بئرٍ وقالت له أنها قد ألقت في اعماقه بأثمن ما في حوزتها عندما هوجمت المدينة. فانحنى الثراقي الجشع ليتفحص الموضع الذي توهم وجود الكنز منه فتقدمت منه ودفعته الى اعماق البئر ثم راحت تقذف باحجار كبيرة فوقه حتى قضت عليه. فقادها الجنود وهي موثقة الى الاسكندر. وسرعان ما اثبتت له شجاعتها وثبات قدمها في سيرها بأنها امرأة ذات منزلة وعقل راجح لا يسمح باي امارة للخوف أو الاندهاش. وسألها الملك عمن تكون فأجابته قائلة:

- أنا أخت [ثايجينيس Theagenes] الذي خاض غمار معركة خيرونيا مع ابيك [فيليب] وخرّ صريعاً في سبيل حرية بلاد الأغرريق.

فكان عجب الاسكندر شديداً مما قالتها وما فعلته، فلم يسعه الا أن يمنحها هي واولادها الحرية، والأمان بالتوجه أني شاءت.

ثم انه قبل ندامة الآثينيين، وبالغ في اكرامهم مع انهم ساهموا مساهمة كبيرة في نكبة [ثيبا]. وعلى سبيل التفكير والتعبير عن أسفهم لما وقع الغوا الاحتفالات بعيد الأسرار. وأكرموا وفادة أولئك الذين سلمت ارواحهم. وعاملوهم أفضل معاملة انسانية ولسنا اندري أكان الاسكندر كذلك الأسد الذي خمدت سورة غضبه بعد أن ارتوت نفسه، أو أنه أراد أن يبدو رقيقاً رحيماً بعد أن خرب هذا المثل المتناهي في الصرامة. وعلى ايه حال فقد كان تبدله هذا من حسن حظ الآثينيين. ولم يكتف بالصفح عن زلاتهم الماضية، بل توجه اليهم ناصحاً بأن يعالجوا شؤونهم بالحكمة واليقظة متذكراً بأنه ان أخفق في اعماله، فان الآثينيين على أغلب الاحتمال سيكونون بمثابة الوسطاء للأغرريق، ومن الثابت كذلك انه ندم كثيراً على ما فرط منه من قسوة بحق الثيبينيين. وكان لأسفه هذا أثره الشديد على خلقه، فقد بات أقل شدة

وصرامة من الآخرين. ألصقت به أيضاً تهمة قتل [كليتوس Clitus]، في مجلس شراب. كما أن اباء المقدونيين اطاعة امره بالزحف لقتال الهنود، وتهديد مشاريعه بالفشل، ومجده بالزوال كان من اثر سخط وانتقام [باخوس] حامي [ثيبية]. وقد لوحظ انه كان يغضي الطرف عن ايّ [ثيبية] نجا من الموت، ويحقق له كل سؤله ونبيله مطلوبة ولا يردّ لهم طلباً مهما كان.

بعد هذا كله أجمع الأغرريق في [الاسموس] وعلنوا اعتزامهم الانضمام الى الاسكندر في حربه مع الفرس كما أمره قائداً عاماً لهم. وأقبل عليه اثناء وجوده هناك، عدد كبير من عظماء الكهنة والفلاسفة وتقاطروا من شتى الارحاء لزيارته وتهنئته بمنصب القائد العام. إلا أن [ديوجينيس] السينوبي الذي كان يقطن في [كورنث] لن يأبه به ولم يحتف بمقدمه خلافاً لما كان الاسكندر يتوقعه. ولم يتحرك قيذاغلة من ضاحية [كرانيوس] حيث وجده الاسكندر مستلقياً في اشعة الشمس. وعندما وجد هذا الفيلسوف الحشد العظيم بالقرب منه رفع نفسه قليلاً وتنازل بالنظر الى الاسكندر فسأله هذا بلطف عما اذا كان يريد يحقق له حاجةً فأجابته الفيلسوف قائلاً:

- أجل لي حاجة لدي، انك تحجب الشمس عني فأريدك أن تتنحى قليلاً.

فأصيب الاسكندر بصدمة وذهل من هذا الطلب ولم يسعه الا الاعجاب بعظمة هذا الرجل الذي لم يلحظ حتى وجوده، وما كان منه إلا أن التفت الى ابتاعه وهو عائد وكانوا يتضاحكون من نكد مزاح الفيلسوف، وقال لهم: «لو لم أكن الاسكندر لأخترت أن أكون [ديوجينيس]. ثم أنه قصد [دلفي] لاستخارة [اپوللو] حول نجاح الحرب التي باشرها. واتفق انه وصل في احد الأيام المحرقة، التي لم يكن من المناسب ان تنتبأ العرافة فيها فأرسل يطلب من الكاهنة مباشرة المراسيم المعتادة فرفضة معتذرة بالمخطور الشرعي، فذهب اليها هو بنفسه وراح يجذبه بقوة الى الهيكل وهي تنازعه حتى ادركها التعب وغلبها اصراره فقالت:

- إنك لا تغلب يا بني.

فتمسك [الاسكندر] بقولها وصرح بأنه ظفر بالجواب الذي جاء [دلفي] لأجله ولم تعد به حاجة الى استخارة الإله.

ومن بين الخوارق التي صاحبت مسيرة جيشه، أن صورة [اورقيوس] في [ليبثرا Libethra] التي كانت قد نحتت من خشب السرو، بدت وهي تتصب عرقاً غزيراً، وهذا مما اولد القلق الشديد في نفوس الكثيرين. إلا أن [ارستاندر] قال له ان هذه ليست مطلقاً دليل شؤم وانما تشير الى أنه سيحقق اعمالاً عظيمة وامجاداً بحيث يتغنى بها الشعراء وينشدها الموسيقيون

في العصور القادمة وهم مجهدون ينضح العرق من جسامهم اثناء قيامهم بوصف تلك المآثر والاحتفال بذكراها .

واختلف الناس في تقدير عدد جيشه فأولئك الذين مالوا الى التقليل منه قالوا انه كان يتألف من ثلاثين ألفاً من الرجال واربعة آلاف من الخيالة. امّا أولئك الذين بالغوا في رفع عدده فقد قالوا أنه كان في حدود اربعة وثلاثين ألفاً من الرجال وثلاثة آلاف خيال. ويقول [ارسطوبولس] ان الاسكندر لم يكن لديه مالٌ لدفع مرتبات جنوده أكثر من سبعين تالنتاً. ولم يكن لديه من الارزاق ما يكفيهم لأكثر من ثلاثين يوماً، لو أننا صدقنا أقوال [دوريس]. لكن [ارسطوقريطس] يحدثنا بأن الاسكندر كان مديناً بمئتي تالنت. ومهما بدت مقدمات تلك الفتوحات العظيمة صغيرة محدودة غير متكافئة مع الاستعدادات، فالواقع هو ان الاسكندر لم يخرج بجيشه للقتال الا بعد أن تأكد بنفسه أن اصدقاءه الذين رافقوه، قد طمنت كل حاجة لهم واستجيب مطالبهم. وفي هذا السبيل منح لبعضهم مزارع ولآخرين أقطع قرى أو غلات قرى أو عوائد مرفأً بلددةً وهكذا حتى أنه أقطع ومنح وأوقف كل الأملاك العائدة للتاج المقدوني مما دفع [بيرديكاس] للقول:

- ماذا ستبقى اذن لنفسك؟  
فأجابه الاسكندر: آمالي.

فردّ [بيرديكاس] عليه بقوله: اذن سيكون جنودك شركاء لك في ذلك.

ورفض أن يقبل ضيعة أقطعها له الاسكندر. وتبعه في ذلك اصدقاء آخرون في رفضه. اما أولئك الذين كانوا راغبين في عطائه فقد كان معهم سخياً، بقدر ما استنفذ كل الأملاك التي ورثها في مقدونيا. فقد ذهب معظمها في هذا السبيل.

بهذه العزيمة الثابتة وبتلك الفكرة الرضية عبر الاسكندر [المضايق] وفي [طرواده] ضحى [لمنيرقا] وكرم ذكرى الابطال الذين ثوت رفاتهم هناك، بسكب قرابين الخمر في احتفال رسمي وخصّ قدم [آخيل] بالاكرام فدهن شاهده بالزيت وطوفّ هو واصدقاؤه حول القبر راكضين وهم عراة وضفر أكاليل الزهر عليه وصرح قائلاً: إن ساكن القبر يعتبر من أسعد الناس لأنه كان يملك صديقاً يمثل هذا الاخلاص في حياته، ولأنه بعد مماته قبض له شاعر يمثل هذه الشهرة لتمجيد اعماله. وفيما كان يجول متفرجاً على الآثار والمرايع التاريخيه في تلك المواضع قبيل له أن بإمكانه ن يرى قيثارة [پاريس Paris] لو رغب. فأجاب انه لايعتبرها مما يستحق المشاهدة. لكنه سيكون مسروراً لو شاهد قيثار [اخيل] التي كان يعزف عليه اثناء

تغنيه بالاعمال العظيمة التي انجزها صناديد الرجال.

وفي الوقت نفسه كان قادة جيوش [داريوس] قد حشدوا قوات ضخمة وعسكروا على الضفة الشرقية لنهر [غرانيقوس Granicus] وكان من الضروري والحالة هذه القتال على تخوم آسيا لأجل اقتحامها والنفوذ الى اراضيها. وكان عمق النهر وعدم استواء الضفة المقابلة وصعوبة ارتقاء مرتفعاتها من الاسباب التي تجعل الاستيلاء عليها مستحيلاً الا باستخدام القوة الرئيسية من الجيش، وها ما ادى الى احجام معظم ذوي الرأي عن القتال، فقال فريق أن الوقت غير ملائم للاشتباك مع العدو لأن ملوك مقدونيا لم يتعودوا الشروع في حملاتهم العسكرية خلال شهر [دياسيوس Daesius] الا ان الاسكندر تخطى هذه الاعراف وتجاهلها بقوله:

- يمكنكم أن تطلقوا على هذا الشهر اسم [ارتموسيوس الثاني Artemosius].

ونصحه [پارمينيو] بأن لايحاول أمراً في ذلك اليوم بالذات لأن النهار قد تقدم فرد عليه بقوله:

- اني سألق العار [بالهلسپونت] ان خفت من نهر [غرانيقوس].

وهكذا تفادى الحديث الكثير وتمكن من الاستيلاء على النهر فوراً بثلاثة عشر رعيلاً من الخيالة. اذ تقدم نحوه مواجهاً وابلأ من الرماح المقدوفة عليه من الجهة المقابلة المرتفعة الشديدة الانحدار التي كانت تعجّ بقوات لا تخص من خيالة العدو ورجالته. ولم يبال بعوائق الأرض وسرعة تيار النهر ولذلك غلب على القتال الحماسة والاستمانه والاستبسال، أكثر مما بدأ فيه من الخدمة والمهارة، وتشبث بكلّ عناد لأجل الاستيلاء على نقطة عبور. وأخيراً تمكن بعد لايءٍ من شق طريقه الى أعالي الضفاف وكانت موحله زلقةً للغاية. واضطر أن يخوض فوراً معركة اليد باليد مع العدو امتازت بالاضطراب الشديد وفقدان النظام. قبل أن ينجح في تنظيم صفوف رجاله الذين كانوا مستمرين في عبور النهر وكان العدو يكر عليه بهجمات متتالية وهو يطلق صيحات الحرب داويةً تشق عنان السماء ثم تهجم الخيالة على الخيالة بالرماح المشرعة. وبعد أن تتكسر تلك الرماح ولايعود فيها نفع يلجأ المقاتلون الى السيوف. وكان الاسكندر يسهل تمييزه بترسه ومجتمتين كبيرتين من الريش الأبيض على جانبي خوذته. ولقد هوجم شخصه من كل جانب الا أنه لم يصب بجرح، وان كان قد ثقب درعه من أحد المفاصل بطعنة رمح. وكرّ عليه القائدان [ريوساكيس Rhaesaces] و[سپيثيرداتس Spith-iridates] معاً. فحاد عن ثانيهما ووجه الى اولهما طعنةً فجلاء بلغت من القوة ان رمحه

انكسر في يده بسبب مناعة درعه وجودته. ولذلك لم يعد للاسكندر إلا سيفه فجرده لمواجهة سپيثريداتس الذي شدّ عليه من جانب اثناء ما كان منشغلاً مع الأول. فأنهض نفسه فوق سرج حصانه وأهوى على خوذته بفأسه الحربية مودعاً في ضربته كل ما فيه من قوة فأطاحت بعرف الخوذة وضبة من ضبتي الريش، ولم ينقذه من الهلاك إلا صلابة تلك الخوذة فقد مست شفرة الفأس شعر رأسه عندما فلققتها. وفيما كان مهاجمه بهمّ بتكرار الضربة تصدى له [كليتيوس] المعروف بـ [كليتيوس الأسود] واخترق جسمه بطعنة نجلاء من رمحه. وفي الوقت نفسه تمكن الاسكندر من غريمه الآخر [روساكييس] واراده قتيلاً بسيفه وفيما كانت الخيالة مشتبكة في قتال خطير، اتمّ الفلانكس المقدوني عبور النهر وتقدمت المشاة من كل جهة للمشاركة في المعركة. إلا ان العدو الذي لم يتمكن من صدّ أول كرة إلا بشق الأنف، ما لبث أن زحزح عن مواقعه ثم انكفأ على أعقابها لا يلوي، باستثناء المرتزة الأغريق الذين صمدوا في رابية فقد رغبوا في التسليم، إلا أن الاسكندر غلبت عليه عاطفة الحق وترك التروى جانباً، فرفض طلبهم وكرّ عليهم بنفسه أولاً فقتل تحت حصانه (حصان آخر غير بوكيفالس المار ذكره) ولقد كلفه عناده واصراره على ابادته هؤلاء المقاتلين المجرمين اليائسين ارواح عددٍ من رجاله يفوق ما كلفه كل القتال الذي جرى قبل ذلك، دعك من الجرحى. وفقد الفرس في هذه الوقعة عشرين ألف راجل والفين وخمسماية من الخيالة. ومن جانب الاسكندر يقول [ارسطوبولس] انه لم يفقد أكثر من ثلاثة واربعين، تسعة منهم مشاة. وأمر الاسكندر تخليداً لهم، بنصب عدد من التماثيل النحاسية من صنع المثال [ليسيپوس]. ولأجل اشراك الاغريق في شرف النصر الذي حازه، ارسل اليهم جانباً من الأسلاب، وخصّ الاثينيين بثلاثمائة درع تعش عليها العبارة التالية:

«إن الاسكندر ابن فيليب والاغريق ما عدا اللقيديين هم الذين غنموا هذا من البرابرة سكان آسيا»

وأرسل لأمه على سبيل الهدية كل الصحف والحلل الارجوانية وما جرى مجراها، التي غنمها من الفرس، ولم يستيق لنفسه إلا مقداراً ضئيلاً.

سرعان ما احدثت هذه المعركة تغييرات عظيمة لصالح الاسكندر فقد استسلمت له [سارديس] تلك القلعة العظيمة التي ارتكزت فيها قوة البرابرة وسيطروا منها على سائر الأقاليم البحرية، اضافة الى كثير من المواقع الهامة الأخرى. باستثناء [هاليكارناسوس] و [ميليتس] فقد امتنعتا عليه فاستولى عليهما عنوة مع كل البلاد التي تناخهما. وبعد هذا ادركه قليل من التردد بخصوص خططه المقبلة، فكان أحياناً يرى الأخرى أن يتعقب

[داريوس] بأسرع ما يمكن ويغامر بكل شيء في معركة. وكان يرى أنّاً ان يعمل على اخضاع السواحل ولا يتعقب العدو حتى يوطد سلطانه فيها ويؤمن لنفسه الارزاق والموارد من تلكم الاقاليم. وفي اثناء ما كان يقلب وجوه الرأي هكذا، اتفق ان غدير ماءٍ بالقرب من مدينة [كسانتوس] في [ليكييا] فاضت مياهه على الجانبين بشكل آنيّ تلقائي وطرحت على الضفة صحيفة من النحاس نقش حول حوافها كتابة قديمة تفيد، بأن الزمن سيأتي حين يقوم الاغريق بالقضاء على امبراطورية الفرس. فشجعت هذه المصدفة الغربية وياشر باخضاع الاجزاء الساحلية من [كيلكيا] و [فينقيا] وزحف بجيشه على طول ساحل البحر في [پامفيليا] بسلسلة من الحملات العسكرية دفعت كثيراً من المؤرخين الى وصفها وتعظيم شأنها بأبلغ عبارات الاعجاب والاطراء وانزلوها منزلة المعجزات او المآثر الفائقة للعادة وعزوها الى خطوته لدى العناية الالهية وكمثل لذلك ليس أبلغ من تلك الأمواج التي تقبل من صدر البحر صاخبة متلاطمة فلا تخلّف غير ساحل ضيق، ما تلبث ان تنكشف عن الجرف المتكسر في اي وقت وتنسحب على حين غرة لتؤمن له طريق مرور! ولقد أشار [ميناندر] في إحدى كوميدياته الى هذه المعجزة فقال:

أنال الاسكندر حظوة الهية أكثر من هذا؟ أهنالك حظوة اعظم من أن ألقى على باب داري من اتمنى رؤيته من الناس؟ وان أطلب عبوراً من خلال البحر، فلا اشك بان البحر لن يفسح طريقاً اكراماً ليّ.

على ان الاسكندر نفسه في رسائله لا يذكر شيئاً غير اعتيادي عند سرده هذه الوقائع، بل يقول انه سار من [فاسليس Phaselis] وأخترق ما يطلقون عليه [السالام] وفي فاسليس مكث قليلاً وعشر على تمثال [ثيودكتس Theodectes] وكان مواطناً من أهل المدينة توفي منذ زمن. فبادر الى نصب التمثال في الساحة العامة. وبعد أن تعشى وشرب مقداراً غير قليل من الخمر، خرج ورقص حول التمثال وتوجه بقلائد الزهر. وهكذا أكرم برياضته هذه ذكرى فيلسوف كان قد استمتع بمحاوراته عندما كان متتلماً على ارسطو.

وبعد ذلك اخضع الاسكندر [الپيسيديين Pisidians] الذين انقضوا عليه ثم قهر الفريجيين وفي عاصمتهم [گورديوم Gordium] التي قيل انها كانت عاصمة ميداس الغابر، وجد العجلة الشهيرة التي كانت تشد بحبال مصنوعة من لحاء شجرة القرانياً. وكانت التقاليد المتناقلة عن المدينة تقول ان من يقوى على حلها يدين له العالم بالطاعة. ويقصّ معظم الكتاب الحكاية التالية حول هذه العجلة: وجد الاسكندر نفسه عاجزاً عن حلّ عقدة الحبال لأن النهايتين عقدتا بطريقة سرية واخفيتا تماماً فلم يكن منه إلا وقطعها بحدّ سيفه. على ان

[ارسطوبولس] يحدثنا بقوله أنه حلّها سهل عليه بقلعه المسمار من المحور الذي ربط به النير، ثم انه قام بفكّ النير نفسه من تحت.

وتقدم زاحفاً الى [پاموفلاگونيا Pamphlagonia] وكبادوكيا وسرعان ما أخضع هذين البلدين. ثم سمع بموت [ممنون Memnon] خير قواد [داريوس] على ساحل البحر. ولو عاش هذا القائد لكان كما يقدرون قميناً بوضع كثير من العراقل والمصاعب في طريق تقدم جيش الاسكندر. ان هذا الحدث شجعه على نقل الحرب الى اقاليم آسيا العليا.

كان داريوس في اثناء ذلك يتقدم بجيوشه من [سوسه] وهو عظيم الثقة، لا بعدد مقاتليه الذين بلغوا ستمائة الف، بل كذلك بحلم له فسره المشعبذون الفرس مجاملة له وقلقاً تفسيراً طبيياً أكثر مما فسروه وفقاً للطواريء الطبيعية. حلم داريوس بانه رأى الفلانتكس المقدوني وقد التهمته النيران كما رأى خصمه الاسكندر وهو يقوم على خدمته مرتدياً عين الثوب الذي كان هو نفسه يرتديه عندما كان واحداً من سعاة الملك الذي سبقه على العرش، ورآه بعد ذلك يتوجه الى هيكل [بيلوس Belus] ثم ما لبث ان تواري عن ابصاره. كان يجب ان يفهم الحلم بأنه دليل من السماء على الاعمال العظيمة التي قدر للمقدونيين اصطناعها. وان يرى فيه نذيراً يعلمه بأن الاسكندر - سيرتفع مثلما ارتفع هو من مركز ساع بسيط الى عرش ملك وسيغدو سيداً لآسيا، وانه لن يعيش طويلاً بعد فتوحاته تلك، وسينهي حياته بالسؤدد والمجد. وزادت ثقة داريوس بنفسه لأن الاسكندر تسكع طويلاً في كيليكيا، الأمر الذي عزاه الى جن فيه واحجام، على ان الحقيقة هي غير ذلك فقد اعاقه المرض الذي عزاه بعضهم الى الارهاق، وعزاه آخرون الى سباحته في نهر [قدنوس Cydinus] الذي كانت مياهه في منتهى البرودة. على أية حال سقط الاسكندر مريضاً ولم يقدم اي طبيب من اطبائه على معالجته بالدواء فقد خيل لهم ان داءه عياء ولا امل في شفائه، وادركهم رعب وفرق من شك المقدونيين فيهم وما سينتظروهم منهم ان هم اخفقوا في شفائه. حتى قرر فيليب الاركارناني Acarnian أن يستخدم آخر مجهود منه بعد أن تبين خطورة حالته، معتمداً على عرى الصداقة الوثيقة المشهورة التي تشدّ فيما بينهما. مفضلاً المخاطرة بسمعته وحياته على ان يترك صديقه يموت دون علاج. ويادر الى ممارسة طيبه فيه بثقة نفس وشجعه على تناول الدواء من دون تردد ان اراد الاسكندر الشفاء العاجل ومواصلة الحرب. وفي عين هذا الوقت ارسل بارمينو Parmino الذي كان في المعسكر رسالة الى الاسكندر يطلب منه ان يحذر من فيليب الطبيب لأنه هو الشخص الذي ارشاه (داريوس) بمبلغ كبير من المال ووعدته بتزويجه بنته ان هو افلح في قتله بعد أن قرأ الاسكندر الكتاب وضعه تحت المخدة دون أن يريه لأحد من اصدقائه حتى المقربين.

واقبل فيليب الطبيب حاملاً جرعة الدواء فتناوله الاسكندر منه بثقة واستبشار لا نهاية لهما، ويادر الى اعطائه رسالة بارمينو وطلب منه قراءتها. انه والحق يقال لموقف يستحق المشاهدة. ترى الاسكندر يتناول جرعة الدواء وترى فيليب يقرأ الكتاب ثم تراهما يلتفت أحدهما الى الآخر ويتبادلان النظرات بمشاعر مختلفة، ذلك لأن نظرات الاسكندر كانت نظرات الاستبشار والصراحة التي يريد بها اظهار مدى عطفه على الطبيب ومبلغ ثقته فيه، أما نظرات الآخر فقد كانت تعتبر مجموعها عن الدهشة والخوف من التهمة وكان فيها ضراعة الى الآلهة واستنجداد بها لتشهد على براءته مما الصق به. فكان حيناً يرفع يديه الى السماوات، وكان حيناً يرمي بنفسه الى الارض بالقرب من فراش المريض مناشداً اليه ان يلقي جانباً بكل خوف قد يساوره، وان يتابع تطبيق تعليمات دون تردد.

وكان أول تأثير للدواء من القوة بحيث دفع كل قوى الاسكندر البشرية الى الاحشاء الباطنية على حدّ ما يعبرون عنه - فقد نطق وراح في غشبية وتلاشى بنصه وفقد شعوره. ومهما يكن من أمر فإن صحته وقواه ما لبثت أن عادتا كالسابق بفضل عناية فيليب. وظهر للملأ من المقدونيين سليماً معافى وكانوا في خوف مستمر وفي حال من الأسى، فسكن قلقهم.

في ذلك الزمان كان في جيش داريوس لاجيء مقدوني يدعى آمينتاس Amyntas، على معرفة تامة باخلاق الاسكندر، ما ان ادرك نية داريوس في مباغته الاسكندر بالهجوم من ناحية المضائق والشعب الجبلية حتى راح يلجّ في نصحه بالأفعال، وبان يظّل في السهول المترامية الفسيحة والأرض المنفتحة. لأن افضلية الجيش اللجب الكثير العدد هو في احراز الميدان الفسيح الكافي عند اشتباكه في قتال مع عدوّ أصغر منه عدداً. فلم ترق لداريوس الفكرة وقال لامينتاس: «أخشى ان يلوذ العدو بالفرار وينجو الاسكندر من يدي.» فأجاب امينتاس:

- لا مبرر ثم لهذا الخوف. كن متأكداً أنه ينوي خلاف ما تعتقده، لن يتحاشاك بل سيسرع اليك ويعمل جهده لملاقاتك، ومن المتحمل انه يزحف عليك الآن.

وهكذا ذهبت نصيحة امينتاس ادراج الرياح. فقد أمر داريوس فرفع معسكره فوراً وزحف داخل كليكيا. وفي الوقت نفسه تقدم الاسكندر الى سورية ودخلها لملاقاته. وفقد كلاهما أثر بعضهما بعضاً ليلاً وانكفاً على عقبيهما. وقد سرّ الاسكندر بهذا الحدث سروراً عظيماً وبذل جهده لأجل أن يحصل الاشتباك في الشعب. وبذل داريوس جهده للعودة الى مواضعه السابقة وسحب جيشه من هذه المواقع غير الملائمة. فقد بدأ يدرك خطأه في اختياره ميداناً للقتال هذه

الأراضي البعيدة جداً، حيث هناك البحر والجبال ونهر بيناروس Pinarus الذي يجري في وسطها. وهذه الموانع قد تضطره الى تجزئه قواته، وتجعل خياله غير نافعة تقريباً. مواضع سيكون من شأنها أن تزيد من مناعة عدوه وتغطي ضعفه وتحميه ليس الأ. وما كان «الحظ» بقادر على أن يوتي الاسكندر أكثر من هذا ولا أكثر رعاية له في جعلها لمنفعة. فهو أقل من خصمه عدداً الى الحد الذي لم يكن ليسمح لنفسه بالتعرض لخطر التطويق. ولذلك فانه مدّ ميمنته مدداً أبعد بكثير مما مد العدو من ميسرته وقاتل بشخصه في هذا الموقع متصديراً الصفوف الأولى وواقع الهزيمة بالبرابرة واصيب بجرح في فخذه بيد [داريوس] على ما يدعيه [خارس Chares] اذ انهما اشتبكا معاً الا ان الاسكندر. في الرواية التي حكها [لانتيباطر] عن المعركة ايدياً اصابته بجرح غير خطرٍ في فخذه الا أنه لم يتثبت من هوية الشخص الذي جرحه.

لم يكن يعوز الاسكندر لإكمال نصره الذي هزم فيه أكثر من مائة وعشرة آلاف من جنود عدوه، غير أسر [داريوس] الذي أفلح في النجاة بالفرار، بشق الأنفس. ولم يطارده الاسكندر بل قنع بالعودة بعد ان غنم منه عجلته وقوسه، فوجد رجاله ينهبون معسكر البرابرة، وكان يحوى الكثير جداً، من النفائس مع انهم تركوا معظم الاثقال في دمشق محاولة منهم التخفيف من احمالهم. وابقوا من النهب خيمة [داريوس] لتكون من نصب (الاسكندر) وكانت مكتظة بالاثاث الفاخر وبمقادير كبيرة من الذهب والفضة. نزع الاسكندر شكة سلاحه وقصد الحمام وهو يقول:

- ألا فانزل عن اجسامنا مشاق الحرب في حمام داريوس.

فردّ عليه أحد اتباعه: ليس الأمر كما تقول، فالحمام هو حمام الاسكندر، لأن ما ملكه المغلوب، يجب أن يدعى ملكاً للغالب.

ووقعت نظاره على اوعية الاستحمام وقدور الماء وصناديق الادهان والاحواض وكلها من الذهب العجيب الصياغة. وشم الروائح الزاكية التي كان ريحها يذوق في جوانب الحمام بصورة جذابة. ومن هناك دخل مقصورة واسعة جداً مرتفعة السقف حيث الطنافس والمقاعد والموائد بالغة الفخامة وكأنها مهيئة لأقامة مادية. فالتفت الى المتحلقين به وقال:

- تلك هي مظاهر الملكية على ما يبدو.

وفيما كان يهم العشاء، أبلغ ان أم داريوس وزوجه وبنته الباكرتين اللاتي كن بين الأسرى، قد غشيهن كرب عظيم وحزن أليم لما شاهدن عجلته الحربية وقوسه فتوهمن أنه قتل. فظلل

برهة ساكتاً وقد غلب تأثير حزنهن فيه على تأثير نصره. وأرسل اليهن [ليوناتس Leuna-tus] يعلمهن بان داريوس مازال حياً ولا حاجة تدعو الى الخوف من أي أذى يلحقه الاسكندر بهن، لأنه لم يشن الحرب على وليهن إلا لغرض فتح الامصار. وأمر أن يعطين كل ما اعتدن الاستمتاع به عند داريوس. ولم يسع السيدات الأسيرات الا أن يرحبن بهذه الرسالة أجمل ترحيب لاسيما بعد اقترانها باعمال أخرى عنها انسانية وكرماً. فقد يستخدمن لهذه المناسبة لا تقل ما اخترن من الثياب والاشياء الأخرى التي يجدهن مناسبة للمقام والظرف من بين الغنائم. ولم يعتمد الى انقاص عددٍ من بطانتهم وخدمهن ولا من تقليل الاحترام الذي كن يتمتعن به.

وزاد في النفقات التي كانت تجرى لهن سابقاً. على أن أشرف وأنبل تصرف خليف بالملك، قام به تجاههن، هو أنه عامل تانك السيدات العظيمات حسب مقتضى مقامهن وأخلاقهن. فمنع ان يسمعن أو ينبلن أو يجابهن بأي شيء غير لائق. فبدأ لهن وكأنهن لا يعشن في معسكر عدوٍ بل في هيكل أو في هجرات مقدسة مخصصة للعداري حيث يستمتعن بخلواتهن المصانة المحرمة. وكانت زوج داريوس تعد اجمل اميرات زمانها كما كان زوجها أطول واجمل رجال زمانه، ولم تكن بنتاهما بأقل من والديهما أوصافاً وميزات.

إلا أن الاسكندر الذي وجد الأليق بالملك ان يشكموا أنفسهم من ان يدلوا اعداءهم، لم يحاول مطلقاً مطارحة اية واحدة منها الحب. بل لم يعتمد الى الاجتماع باية امرأة قبل الزواج خلا [بارسينة Barsina] ارملة [ممنون Memnon] التي أخذت أسيرة في دمشق. كانت [بارسينة] هذه قد ضريت بسهم وافر في العلوم الاغريقية. وعرفت بلين العريكة ولطف الخلق، وبأنها سليلة الملك حيث انه اياها كان [ارطاباز]. وقد زاد من رغبته فيها تشجيع توسط وتشجيع [پارمينو] على حد ما يخبرنا به [ارسطوبوليس] فقد كانت بارزة الشخصية لطيفة المعشر حقاً. ولم يظهر اهتماماً قط ببقية الأسيرات الفارسيات، مع جمالهن الباهر، ورشاقتهن واستواء اعضائهن وتناسقها، أكثر من قوله مازحاً: ان الفارسيات هن قذى للعين فظيع، مقارناً ذلك بمظهر جمال خلقه وفرط ضبط نفسه. وقد أمر بأخذهن بعيداً عنه كما ترفع من امامه الكثير من التماثيل والصورة الجامدة الخالية من الحياة.

عندما كتب اليه قائده [فيلوكزينوس Philoxenus] على جميع الساحل يستمزج رأيه في الموافقة على ان يشتري له ولدين صغيرين في نهاية الحسن والظرف يريد صاحبهما المدعو [ثيودوروس] بيعهما. شعر الاسكندر بوقع الاهانة، الى درجة أنه راح يردد بين اصدقائه متسانلاً:

- اي خسة ودناءة وجد [فيلوكزينوس] فيّ، ليقدم لي مثل هذا العرض الحقير.

ثم بادر الى كتابة ردّ شديد قال فيه: «الا فليذهب ثيودوروس ويضاعته الى سقر مشيعاً بتمنيتاتي الطيبة».

ولم يكن مع [هاغنون] بأقل من ذلك صرامة. فقد بعث اليه يقول انه سيستعاض له شاباً كورنثياً اسمه كروبولوس [Crobulos] ويقدمه هدية. وسمع بأن دامون [Damon] وطيموثيوس [Timotheus] وهما جنديان من جنود بارمينيو المقدونيين قد اعتسدا على زوجات بعض الاجانب المرتزقة في جيشه، فكتب الى بارمينيو يطلب منه بشكل لا مردّ له، ان ينفذ فيهما حكم الموت ان وجدتهما مذنبين كما ينفذ الحكم في اي حيوانين مفترسين لم يخلقا الا لإتارة المتاعب والفوضى للبشرية. واذاف يقول في رسالته هذه. بأنه لم يكن قطّ ليرى أو ليريد ان يرى زوج داريوس كلاً، ولا ان يسمح لأي احد ان يتكلم عن جمالها بمحضر منه. كان يريد القول ان النوم والعمل الجنسي يجعلانه يشعر بأنه بشر فان قيل كل شيء، مثلما لو قيل ان التعب واللذة يصدران عن حيوانية وضعف في الطبيعة البشرية.

كان في طعامه وشرايه معتدلاً كما يبدو مما قاله لآدا Ada التي اتخذها أما قانونية له، ثم جعلها فيما بعد ملكة على [كاريا Caria] ومما يذكر عنها - بعد اسقاط الكثير - ان الخنان كان يدفعها الى ان ترسل له يومياً الكثير من اصناف الطعام النادرة، ومن الحلوى وتبعث اليه بطهارة وحلواتية ممن تجد فيهم البراعة والتفنن في الصناعة، فيرفض ما ترسله قائلاً ان مدرّب الخاص [ليونيداس] يقدم له خير ما يصبو اليه، وهو مسيرة ليلية تهيئاً للفظور، وفظور بسيط جداً ليخلق فيه شهية للعشاء. ويضيف قائلاً ان [ليونيداس] تعود فتح الصناديق والخزائن والقماطر وتفتيش الأثاث في غرفته ليتثبت من ان امه لم تترك له شيئاً فيه طابع الرقة والخنوثة. وكان أقل حباً بالخمر مما عُرّف عنه. والعلّة التي دفعت الناس الى الاعتقاد بأنه أليف الخمر، هو انه كان وقت فراغه يؤثر الجلوس الطويل على مائدة الشراب ومبادلة الاحاديث، وكان يطيل الكلام كثيراً خلال شربه كأساً واحدة.

ويعكس ما اعتاده القادة الآخرون، لم تكن الخمر أو النوم أو اللهو او مطارحة الحبّ أو أي عارضٍ آخر ليوخره عن عملٍ عندما يتطلب منه ذلك. وليس ثم دليل أقوى من تحقيقه هذه المآثر العظيمة والكثيرة في مثل هذا الزمن القصير. لقد اعتاد في الاوقات الاعتيادية الاستيقاظ مبكراً والتضحية للآلهة. ثم يتناول الفطور، ويقضي بقية النهار في الصيد والقنص، أو في كتابة المذكرات أو اصدار القرارات في الأمور العسكرية أو في المطالعة وتراه في التجريدات الحربية التي تتسم بطابع العجلة والسرعة لايني يتدرب على الرمي أو ان

يركب عجلة ويترجل منها وهي تجري باقصى سرعتها، ويخبرنا في يومياته انه كان أحياناً يصطاد الثعالب أو الطيور لأجل الترييض فحسب. وبعد عودته مساءً يغتسل ويدهن جسمه ثم يدعو جنازيه ورؤساء طهاته ليتأكد من ان عشاءه جاهز ولا يتناوله الا بعد ان ينصرم جانب من المساء ويسود الظلام وكان كثير الحفاوة والاهتمام بضيوفه ويوجب ان يخدم كل من يتكئ معه مثلما يخدم هو، وان يتلقى الرعاية والاحترام اللذين يقدمان له. وكما ذكرنا آنفاً كان غرامه بالنقاش والحديث يجعلانه مجالساً مطيلاً في مجلس الشراب. وكان ثم هنة واحدة تشوب مجلسه، وهو انسياقه في مجال الغلو والادعاء والمباهاة الحربية، مما يتيح للمتزلفين فرصة عظيمة لامتنائه والتأثير عليه، وهذا ما يجعل اصدقاءه المخلصين في نهاية الضجر والضيق، ولولا ذلك لكان مجلسه لا يضاويه مجلس اي ملك من الملوك مهما ارتفع شأنه. كان اصدقاءه يجدون من الحطة والدناءة ان يتسابقوا الى التزلف اليه، الا انه كانوا مع ذلك يجدون من الخطر أن يسكوا عن التزلف، وبين الخطر والعار تجدهم في أصعب موقفٍ حول سلوكهم.

بعد أن يرفُض المجلس، يجد الاسكندر طريقه الى الحمام حيث يغتسل ثم يؤوب الى فراشه ولا يستيقظ حتى الظهر، وقد ينام النهار بطوله.

كان قليل الطعام بعيداً عن النهم. فان ارسلت اليه سمكة مثلاً أو فاكهة نادرة، فرقها على اصحابه، وفي أغلب الأحيان تراه لا يحتفظ بشيء ما منها لنفسه. ومع ذلك فان مصاريف سماطه كانت تزداد بارتفاع شأنه وسطوح نجمه حتى بلغ ما يصرف عليه يومياً عشرة آلاف دراخما. ووقفت عند هذا الحدّ ولم تزد النفقات. ولم يقبل أن تزيد نفقة اية مأدبة يقيمها له الآخرون عن هذا الحدّ.

بعد فوزه في موقعة [ايسوس]، أرسل الى دمشق من نفذ اوامره بوضع اليد على كل ما يعود للفرس من أموال واثقال وزوجات واولاد. وفاز الخيالة التساليون بأعظم الانصبه متفقة مع شجاعتهم. وحصلت بقية الجيش على نصيب وافر من الاسلاب ايضاً مما اغناهم جميعاً، واتيح للمقدونيين بذلك اول قصة لهم لتذوق الترف الفارسي، ومعاشرة النساء الفارسيات، والاستمتاع بلذة العيش البربري مما شجعهم وبث منهم روح الحماسة للمضي في نهجهم السرعة التي يعود بها الكلب السلاقي وراء رائحة القتيصة.

قبل ان يستأنف الاسكندر زحفه وجد من الضروري ان يتأكد من سلامة الساحل. فضم حكام جزيرة قبرص الى اتباعه واستسلمت له بلاد الفنيقيين كلها ما عدا صور، فالقى الحصار عليها سبعة اشهر وبنى تلولاً ترابية ونصب آلات الحصار والهدم الى جانب محاصرتها بمائتي بارجة من جهة البحر. وفي اثناء ذلك حلم بأنه رأى [هرقل] فوق الأسوار ماداً اليه يديه

يستدعيه، كما تخيل كثير من أهالي صور أنهم رأوا في نومهم [إبولو] الذي أخبرهم بأنه ليس براصٍ عن أعمالهم وأنه لم يلبث أن يترك جانبهم وينحاز إلى الاسكندر. وعندئذ ما كان منهم إلا أن قبضوا عليه بشخص تمثاله، كان الآلهة جندي هارب من الخدمة، وربطوه بالحبال وسمروه في القاعدة. وأخذوا يلقون عليه الملام لمشايعته الاسكندر. ورأى الاسكندر في المنام - بمناسبة أخرى انه شاهد عن كذب مسخاً (ساتيراً) يسخر به فهم بامساكه فهرب وافلت ولم يتمكن منه إلا بعد مطاردة طويلة ومناورات عديدة. وفصل المشبعون لفظة [ساتيروس] إلى كلمتين وهم بصدد تفسير الحلم وأكدوا له، أن [صور] ستسقط بين يديه. ويعرض أهالي المدينة إلى يومنا هذا على الزائر، نبع ماءٍ قائلين ان الاسكندر نام قربه عندما رأى الساتيروس في منامه.

وفيما كان معظم الجيش أمام صور، قام الاسكندر بشن حربٍ على العرب الساكنين جبال [آنتي لبنان] وتعرضت حياته لخطر أكيد، عندما قام بانقاذ معلمه [ليسيماخوس] الذي شاء وأصرَّ أن يصحبه في حملته هذه قائلاً: انه ليس باكبر عمراً ولا بأقل شجاعة من [فيونكس] وصي [آخيل] فعندما تركوا خيولهم، بدأ يتوغلون الجبال مشياً على الاقدام فسبقتهم بقية القطعات واضحت المسافة بين الصنفين كبيرة. وأقبل الليل وكان العدو قريباً. واضطر الاسكندر إلى التخلف في المؤخرة وقتاً لبث روح الشجاعة في جنود المتعبين والمتقدمين في السن، ومد يد العون للمتسكعين، وهكذا وقيل أن يظن إلى تآزم الوضع، وجد نفسه بعيداً عن بقية القطعات مع عدد قليل من الاتباع. واضطر إلى قضاء ليلة شديدة البرد، والعمتمة، وفي موضع غير مريح مطلقاً. وشاهد وهو على هذه الحال نيراناً عديدة كبيرة للعدو منتشرة في رقعة واسعة من الأرض. فوضع ثقته في خفة حركة جسمه، وبطول معاناته المشاق والمصاعب، مستهدفاً زرع الثقة في جنوده ومعاونتهم في المآزق والشدائد، واتجه رأساً إلى اقرب نارٍ واردى بخنجره اثنين من البرابرة كانا جالسين يصطليان حوله واختطف مشعلاً ملتهباً وعاد به إلى رجاله فاوقد به ناراً عظيمة أوقعت الرعب في قلوب العدو وهرب معظمهم اما الذين ثبتوا للقتال فهم فقد هزموا، وأمن الرجال من هجوم مباغت طوال الليل، هذا ما كتبه [خاريس] حول الموضوع.

ونعود إلى حصار صور. لقد كانت نتيجته كما يلي: شاء الاسكندر ان يريح جيشه بعد الارهاق الذي اصابه جراء الهجمات السابقة. وقاد بجزءٍ يسير منه، هجوماً على الاسوار قاصداً اشغال العدو بصورة متواصلة وعدم ترك مجال للراحة له. واتفق ان [اريستاندر] المشعبذ بعد ان ضحى وفحص احشاء الاضحية، أكد للواقفين قربه بان المدينة ستفتح ابوابها

للغازي في غضون هذا الشهر. فكان ثم ضحك وشيء من التعليقات الساخرة بين الجنود لأن يوم النبوة كان آخر يوم في الشهر! ورأه الملك حائراً، وكان معتاداً أن يخف لنجدة النبوءات فأسرع يصدر أمراً بأن لا يعتبروا هذا اليوم الثلاثين من الشهر بل الثالث والعشرين. وامر بنفخ الابواق وهجم على الاسوار هجمة صادقة شديدة والهيب زخم الهجوم وحماسته بقية قواته فتركت معسكرها وهي غير قادرة على ضبط نفسها عن التقدم لدعم الهجوم الشديد الذي اجبر الصوريين على التراجع. وتم الاستيلاء على المدينة في اليوم نفسه. وكانت [غزة] المدينة الثانية التي القى الاسكندر الحصار عليها. وهي واحدة من اكبر مدن سورية. فحصلت له اثناء الحصار الحادثة التالية. بينما كان طير يحلق فوقه، سقطت منه قطعة تراب فوقعت على كتفه، ثم حط الطائر على آلة من آلات الحصار فاشتبكت اطرافه حالاً في الشبكة المصنوعة من أوتار شدت لحماية الحبال التي تعمل بها تلك الآلات. وكان هذا طبق ما تنبأ به [اريستاندر] وملخص نبوءته هو ان الاسكندر سيصاب بجرح، وان المدينة ستسقط.

ومن هناك بعث بجزء كبير على اصدقائه دون استثنا ومنهم ليونيداس معلمه، الذي اصابه مازنته خمسمائة تالنت من البخور، ومازنته مائة تالنت من المر، تذكيراً له بالأمال التي عقد عليه واشاد بها مرةً اثناء ما كان الاسكندر صبياً. اذ يقال ان ليونيداس كان يقف قريباً منه اثناء قيامه بالتضحية مرة، فرآه يتناول ملء كفيه من البخور ويقذف بها إلى النار فقال له، قمين بك أن تكون اشد حرصاً في تقدماتك وان لا تكون كثير بالبذل إلى ان تغدو وسيد تلك البلاد التي ترد منها هذه التوابل واللبان الزاكي الرائحة، فتذكر الاسكندر هذا وكتب اليه يقول:

«لقد بعثنا اليك بالكثير من المرّ والبخور، لكيلا تكون في المستقبل بخيلاً على الآلهة»

ومن بين الكنوز وغير ذلك من الاسلاب التي غنمها في داريوس، وجد صندوقاً ثميناً جداً اختص به لغرابته وندرته. وسأل من كان يحيط به عن أفضل شيء يودع فيه فأدلى كل برأي، ولكنه قال انه سيضع فيه اليادة هوميرس. لقد ايد هذه الحكاية ورواه ثقات. واذا كان أولئك الكتاب الاسكندرانيون المعتمدون على [هيراقليدس] صادقين فيما يروون فان هوميرس لم يكن مزاملاً كسلان للاسكندر أو محدثاً لا فائدة فيه. فحينما اصبح سيد [مصر] فكر في استحداث مستعمرة اغريقية، وقرر بناء مدينة واسعة الارحاء كثيرة السكان يطلق عليها اسمه. ففاس الأرض وحددها بمشورة افضل المعمارين، ثم اتفق في ليلة ما، ان رأى في نومه رؤيا عجيبة، رأى رجلاً هراً اشيب الشعر ذا سيماء مهيبه يقف جنبه وينشد هذه الأبيات:

هناك جزيرة تدعى فاروس Pharos حيث زمجرة الموج عالية صاحبة على الساحل المصري.

ونهض الاسكندر في الحال وذهب الى فاروس، وكانت في ذلك الزمن تقع فوق القم القينوبي Conobie من نهر النيل بشيء قليل، وان كانت اليوم قد اتصلت بالأرض الرئيسية بلسان ارضي. وما ان شاهد حالة الموضع ومناسبته، وهو عنق طويلة من الأرض تمتد كالبرزخ بين البحيرات الواسعة، مياة ضحلة من جانب والبحر من جانب وهو في نهايتها، يصلح لميناء واسع حتى قال:

- كان هوميروس الى جانب عبقرياته الأخرى مهندساً معمارياً مجيداً.

ثم امر ان يخطط تصميم المدينة بشكل يلائم هيئة الموقع ولافتقاره الى الطباشير لأن التربة كانت سوداء، فقد تعوض عنه بدقيق القمح، مثباً قطعة أرض وسطية على هيئة منقلة [نصف دائرة] وأخذ يرسم في داخل هذا النصف خطوطاً مستقيمة متساوية من كل نهاية، وهكذا اعطاها هيئة شبيهة بالمعطف، او القلنسوة، وفيما هو يمتع نفسه بتصميمه هذا، خرج فجأة من أعماق النهر والبحيرة عدد لا يحصى من الطيور الكبيرة المختلفة انواعها، وانتشر مثل سحابة سوداء افتترست كل الدقيق الذي استعمل لرسم خطوط المدينة. واضطرب على هذا النذير حتى الاسكندر نفسه، الى ان اعاد الكهنة العرافون الى نفسه الاطمئنان، اذ قالوا ان ذلك لاشارة بان المدينة التي يزمع بناؤها ستكون ذات خير عميم، فضلاً عن كونها ستطعم وتعين كثيراً من المدن. فأمر العمال مباشرة البناء، بينما ذهب هو لزيارة معبد آمون.

وكانت رحلة طويلة شاقة، وخطرة من جهتين: فلو انهم فقدوا مخزنهم من الماء لأن الحصول عليه كان متعذراً عدة ايام، ولو هبت ريح الجنوب العنيفة عليهم وهم في رحلتهم بجوسون الصحراء الواسعة برمالها السميكة، كما جرى عندما قاد (قمييز) جيشه في هذا الطريق تدفع الرمال أكداساً وأكواماً وترفع الصحراء كلها الى الأعلى مثل بحر، فتسفيه عليهم حتى ابتلعت منهم خمسين الفاً وقضت عليهم. لقد وزنت كل هذه المصاعب وشرحت له، الا ان الاسكندر لم يكن ممن اولئك الذين ينشون عما اعتزموه بسهولة، لأن الخطر حتى ذلك الزمن كان الى جانبه في كل ما يعتزمه مما جعله رجلاً قوي الارادة ثابت العزم في كل ارائه، واقدامه كان يدفع نوعاً من العاطفة فيه لاقتحام الصعاب والتغلب عليها، كأن لم يكن يكفيه ان يكون منتصراً دائماً في ميدان القتال، بل يريد ان تخضع لارادته البلاد والفصول والطبيعة. وفي رحلته كانت الراحة والرعاية التي اسبغتها عليه الآلهة وهو في مأزقه أكثر ظهوراً واثباتاً من النبوءات التي ابلغ بها فيما بعد والتي كانت على اية حال قد انهيت اليه فيما بعد،

والتي كانت على اية حال قد ثمنت وقدرت أكثر بسبب هذه الظواهر التي تلتها فأولاً ان الامطار الغزيرة التي سقطت صانتهم من خشية الهلاك عطشاً وبللت جفاف الرمال المحرقة، فأضت رطبة متماسكة صالحة للسير، ونقت الجو وظهرته. فضلاً عن ذلك، عندما كانوا يسيرون على غير هدى متحيرين بين الشمال وبين اليمين لا يدرون وجهتهم الصحيحة لاقتقارهم الى علامات واضحة ترشد الادلاء، فاضطربت احكامهم وضلوا سواء السبيل، اذ بهم فجأة يهتدون اليها بسرب من الغربان كانت تطير امامهم وهم يسيرون، تنتظرهم عندما يقفون او يتباطئون في سيرهم. وأعظم الخوارق التي صادفتهم على ما يخبرنا كالليستينس [Callisthenes] هو ان هذه الغربان. عندما تضل سريّة سبيلها وتنقطع عن القسم الاكبر من الجيش ليلاً، تثير ضجة وتنعق نعيقاً عالياً الى ان تعود الوحدة الضالة وتتضم الى البقية.

وبعد أن قطع الاسكندر تلك المجهل، بلغ موضعاً حيث رحب به الكاهن الاكبر عند اول السلام، ترحيباً صادراً عن ابيه [آمون] وسأله هل بقي أحد من قتلة ابيه [فيليب] بمنجى من العقاب بعد، طلب أن يكون لهجة كلامه عن ابيه أكثر احتراماً لأن أباه لم يكن من البشر الفاني، فغير الاسكندر من لهجته وطلب منه ان يعرفه اذا كان قد بقي واجد من أولئك الذين قتلوا [فيليب] دون عقاب حتى الآن وبخصوص السلطة هل ان سيادة العالم قد حفظت له؟

فأجاب الآله قائلاً: انه سيملك العالم وان مقتل فيليب قد تم أخذ ثأره كاملاً. ففرح الاسكندر بذلك فرحاً عظيماً دفعه الى تقديم اعطيات فاخرة جداً [لچوپترا] ومنح الكهنة هدايا ثمينة. هذا ما كتبه معظم الكتاب عن النبوءات. إلا ان الاسكندر بعث رسالة الى والدته قال فيها: انه كان ثم اجوية سرية من الآله سيكشفها لها وحدها عند عودته. ويقول آخرون ان الكاهن رغب في مخاطبته بالاغريقية عن طريق المجاملة والحفاوة ولما اراد أن يقول [يابايديون Paidion] زل به اللسان وعوضاً عن لفظه حرف النون لفظ حرف السين فقال «ياپايدوس»، وكانت عشرة لسان سر لها الاسكندر كثيراً. وشاع القول ان النبوءة هي التي قصدت دعوته بهذا.

من بين الحكم المأثورة، قول للفيلسوف [بسامون Psammon] الذي سمع الاسكندر في مصر عنه ووثق به: ان كل الناس مسيرون بامر الله، ذلك لأن كل ما هو رأس، وكل أمرناه هو آلهي. إلا ان ما فاه به الاسكندر حول الموضوع نفسه كان أقرب الى قول الفيلسوف. قال: ان الله هو أب كلنا بدون استثناء. لكنه بصورة خاصة أبو خيرنا، وهو أفضلنا.

وكان يعامل البرابرة بترفع وانفه، أما الاغريق فيظهر لهم اللطف، والاعتدال وباقل ما يمكن من التظاهر بالالوهية خلاً مرة واحدة، عند الكتابة الى الآتينيين حول [ساموس] فقد قال لهم



بانه لن يمنحهم تلك المدينة المجيدة الحرة «انكم حزموها بفضل من ذلك الذي كان يدعى بسيدي وابي». يقصد فيليب. ومهما يكن فبعد أن جرحه السهم وشعر بالألم الشديد التفت الى من كان معه وقال لهم:

- هذا يا صدقاني هو دم حقيقي يجري مني وليس [ايخور Ichor]<sup>(3)</sup> الذي اعتادت الآلهة سفكه.

وفي مرة أخرى أرعدت الدنيا إرعاداً عظيماً، حتى دب الخوف في قلب كل انسان فسأله [اناكسارخوس] المتصوف، هل يمكنه بوصفه ابناً لچوپتر ان يفعل شيئاً كهذا؟ فأجاب الاسكندر ضاحكاً:

- كلاً، لا رغبة في أن ابدو جباراً في عين اصدقائي. كما ستجدوني، باستصغاركم مائدتي لوجود السمك فيها، وليس رؤوس حكام الأقاليم.

في الواقع انه روى ما عدّ حادثاً حقيقياً، أن [اناكسارخوس] عندما رأى هدية تتألف من اسماك صغيرة الحجم ارسلها الملك [هيفاستيون Hephastion] استخدم هذا التعبير بشكل من اشكال السخر والتنكيت والاستخفاف بأولئك الذين يتكبدون العناء الكبير ويركبون المخاطر والاهوال في سبيل الفاخر من الاشياء التي لا تمنحهم من المسرة والسعادة اكثر مما احزته الآخرون منهما. ومما بينت حول هذا الموضوع يبدو ان الاسكندر لم يكن من الغباء بحيث يتوهم، ولا من التيه والمكابرة بحيث يظن نفسه إلهاً حقيقياً وإنما كان يستخدم هذا الادعاء بالالوهية كوسيلة للاحتفاظ بعامل التفوق والسيادة على الآخرين ليس إلا.

على اثر عودة الاسكندر الى فينيقيا من مصر، ضحى للآلهة، ونظم مواكب دينية عديدة مضيئاً اليها مشاهد من الرقص الغنائي وتراجيديات تستهوى اللب بفخامة اخراجها وروعته فضلاً عن المنافسة الشديدة بين من تولى عرضها واخراجها. كان ملوك قبرص المعارضين بعين الطويقة التي اعتادها اولئك الذين يتم اختيارهم بالاقتراع بين القبائل وهكذا اشتد التنافس فيما بينهم الى اقصى درجة احدهم يريد سبق الآخر، ويذكر بصورة خاصة [نيكوكريون Nicor-eon] ملك سلاميس، و[پاسكريتوس Pasicrotes] السولي Soli اللذين قاما بتهيئة الجوق ودفع مصاريف اشهر الممثلين وهما [اثينودوروس Athenodorus] و[ثيسالوس Thessal-us] فقد مثل الأول لأجل پاسكيرتوس، والثاني لأجل نيكوكريون. وغلب الاسكندر

(3) في الاساطير اليونانية ان الايخور هو السائل الاثيري الذي جرى في عروق الآلهة بدلاً عن الدم البشري.

ثيسالوس، ولم يظهر تفضيله الا بعد أن أعلن عن فوز اثينودوروس بأغلبية اصوات المحكمين فقال وهو يغادر المحل - المحكمون يستحقون التهنئة لقرارهم. الا اني لأفضل ان اتنازل مختاراً عن جزء من مملكتي على مشاهدة ثيسالوس مغلوباً.

ومهما يكن فان الاسكندر دفع لاثينودوروس مبلغاً كافياً من المال عندما علم ان الاثينيين فرضوا عليه غرامة لغيابه في اعياد [باخوس] لتسديدها بعد ان رفضوا استجابة طلب الغائها بكتاب توسط بعث به اليهم. ومرة اتفق ان [ليكون Lycon] السكرافباني Scraphia] لقي استحساناً عظيماً في تمثيله وسأل الاسكندر في شعر القاه ضمن دوره الهزلي - هبته قدرها عشرة تالنتات، ضحك الاسكندر وأمر له بها.

وكتب اليه [داريوس] رسالة وارسل اصدقاء له للقيام بدور الوساطة في قبول ألف تالنت فدية للاسرى ومبادلة الصداقة بالصداقة وضم كل البلاد التي هي في هذه الجهة من نهر الفرات في حلف معه، واعطائه احدى بناته زوجة فعرض الاسكندر هذه الشروط على اعوانه وخلصائه. وعندما قال له پارمينيو انه ليقبل بها لو كان في محله، اجاب:

- كذلك انا، لو كنت پارمينيو.

وكان جوابه على مقترحات داريوس هذه هو انه لو جاء عارضاً الخضوع والاستسلام فسيعامله بأكبر عطف وحفاوة وان لم يفعل فإنه اي الاسكندر مصرّ على ان يطارده ويجدّ في طلبه.

على ان وفاة زوج داريوس في الأسر اثناء وضعها جعله يندم ويأسف على جزء من رده على الأقل. وبدأ كاسف البال متألماً لأن الحادث حرمه من فرصة لظهار لطفه وطيب نفسه للذين ظهراً جلياً بالتشجيع العظيم الفخم الذي أمر به للمتوفاة.

كان ثم شخص من بين الخصييان الذين أخذوا أسرى مع النساء في خدمة الملكة يدعى [تيريوس Tirus]. هذا الخادم تمكن من ترك المعسكر والهروب على ظهر جواد الى داريوس ليخبره بوفاة زوجه ومثل امامه وما أن اسمعه القصة حتى ضرب داريوس رأسه بيده وانفجر باكياً نادياً وصاح:

- وا اسفا! ما أعظم النكبة التي مني بها الفرس. الا يكفي أن تقع زوج ملكهم واخته اسيرة لتدفن الأولى دفنة حقيرة كما يدفن رعاع القوم ونكراتهم؟

فقال له الخادم:

- أما عن موضوع جنازتها ايها الملك، وعن الاحترام والتكريم اللذين لقيتهما، فليس ثم ما

يدعوك الى ندب سوء حظ بلادك، فعلى مدى معرفتي، لم تكن الملكة زوجك ولا ولدك في حاجة الى شيء وهم في حياتهم السالفة السعيدة معك، غير نور وجهك الذي لا أشك في ان الاله [اهورمزدا] سيعيده الى مجده السالف. واني اوكد لك بأنها حظيت بعد موتها بكل ما هو جدير بمقامها من مظاهر التكريم فضلاً عن انها أكرمت ايضاً بدموع اعدائك انفسهم. فان الاسكندر ان كنت لاتدري، رقيق القلب بعد النصر قدر ما هو مخيف في ميدان القتال.

وزاد داريوس حزناً وأسى بعد هذا الكلمة الى الحد الذي وصل به الى اعظم الشك في اقوال الخادم فأخذه الى ناحية قصية من خيمته بعيداً عن الفضوليين وشرع يستجويه بقوله:

- لعلك تخليت انت ايضاً عني كما تخلى عين حسن حظي واصبحت مقدونيا في سرك. أما إن كنت باقياً على ولائك لسيدك داريوس فإني أمرك بان تصارحني، وأستحلفك بحرمة نور [ميشرا] وبحرمة هذه اليد اليمنى التي يدها اليك ملك. ان تصارحني القول هل أقلل من بكائي وحزني على سوء مصير [ستاتيرا] ام تراني اصبت بعارٍ وحزن بسببها اثناء حياتها يزيد عما مما اصابني الآن؟ هل لا كنت شقيماً بأقل العار لو اني لقيت عدواً أكثر قسوة من الاسكندر وأقل منه انسانية؟ اني لأعجب كيف يمكن لشابٍ مثله ان يحيط زوج خصمه بهذه الرعاية السامية ويضعها في هذا المقام العظيم لو لم يدفعه دافع من شأنه ان يصيبني بالعار؟

فألقى تيريوس بنفسه عند قدميه وشرع يتوسل به أن لا يخطيء بحق الاسكندر، ولا بحق زوجه واخته الى هذا الحد، بابدائه مثل هذه الشكوك التي من شأنها أن تحرمه من أعظم عزاء تبقى له وهو في محنته الراهنة. اعتقاد يجب أن يتغلب عليه بفضل رجل رفعته فضائله الى ما فوق الطبيعة البشرية، وان عليه ان ينظر الى الاسكندر نظرة مختلفة، وان يحمل نفسه على حبه والاعجاب به بعد ان قدم كل الدلائل على احترامه لعقائل القرس قدر ما أظهره من الدلائل على شجاعته بين الرجال. وأكد الخادم كل ما قاله في السابق ووثقه بأعظ الايمان واهولها. وراح يطنب ويسهب في وصف سماحة الاسكندر واعتداله وعظمته في مناسبات أخرى. واذا بداريوس يتحركه فجأة ويقصد الزاوية الأخرى من الخيمة حيث كانت الحاشية والاتباع، ورفع يده الى السماء ونطق بالدعاء التالي:

- يا آلهة اسرتي ومملكتي! لو شئتم فإني اضرع اليكم جميعاً بان تعيدوا مجد بلاد الفرس الأقل وان اترك الدنيا وهي بعين الازدهار والعظمة التي وجدتها بها حين تسلمت الملك. وان تمنحوني الفرصة على رد جميل الاسكندر ورعايته رداً مناسباً لائقاً لقاء ما اظهره

من طيبة وانا في محنتي، لاعز الناس الي. أما اذا حكم القدر، وحل الوقت الذي سيتخلى اسرة ملوك الفرس عن الحكم لفترة من الزمن، وان كان دمارنا هو الدين الذي يجب دفعه الى الغضب الالهي وصرور الدهر واهوائه. فأنى اضرع اليكم ان تقضوا بألاً يجلس على عرش كورش رجل آخر غير الاسكندر.

تلكم هي الحكاية التي اوردها معظم المؤرخين في هذا الصدد، ولنعد الى الاسكندر. فيعد ان اخضع آسيا برمتها الواقعة على الجانب الغربي من الفرات تقدم نحو داريوس الذي كان يزحف نحوه على رأس مليون مقاتل. وفي اثناء تقدمه وقعت حادثة سخيطة. وهي ان الخدم الذين لحقوا بالمعسكر عمدوا على سبيل التسلية والمزاح الى ان جعلوا من انفسهم فريقين اطلقوا على قائد الفريق الأول اسم الاسكندر وعلى الفريق الثاني اسم داريوس. وراحوا في مبدأ الأمر يضرب احدهم الآخر بقطع الطين، ثم انقلبت الحال وانتقلوا الى التلاحم بالأيدي، وبالأخير بعد ان حمي وطيس المعركة الزائفة، تطور الأمر الى قتال جدي بالحجارة والهراوات، ولم يتم التفريق فيما بينهما الا بعد الجهد الجهيد. وابلغ الاسكندر بالاخير رئيسي الفريقين بأن يقررا نتيجة معركة فريقيهما بمبارزة فردية يخوضاتها. وقام هو نفسه بتسليح الرئيس الذي اتخذ اسمه. في حين قام فيلوطاس بنفس العمل لقائد الفريق الذي اتخذ اسم داريوس وخرج الجيش كله لمشاهدة هذا النزال والكل يريدان يستخلص فائلاً لنجاتهم المقبل. وبعد أن تقابل الخصمان وحمل وطيس النزال بينهما، ما لبث ان استظهر ذلك الذي يحمل فريقه اسم الاسكندر، فمنحه مكافأة، اثنتي عشرة ضيعة مع امتياز ارتدائه الثياب الفارسية. هذا ما حدثنا به [ايراستينيوس].

على أن أعظم المعارك التي خاضها الاسكندر ضد [داريوس] لم تكن في مدينة [اربيلا] مثلما ادعى معظم الكتاب. بل في [گوگمىلا Gaugamela] وهذه الكلمة في لغتهم معناها «مناخ الجمل» وقد سمي الوضع بهذا الأسم لحادثة وقعت فيه، وهو ان احد ملوك الفرس القدماء نجا من مطاردة اعدائه على ظهر جمل سريع. فأعترافاً بفضل هذا الحيوان اسكنه هنا ووقف قرى وريع مسقفات للعناية به. وقد اتفق انه في هذا الشهر المسمى [بويدروميون Boëdromion]، بمبداء عيد الاسرار على وجه التقريب في اثينا، ان حدث خسوف. وبعد الليلة الحادية عشرة من هذا الخسوف اصبح الجيشان على مرأى احدهما من الآخر. وابقى داريوس رجاله شاكي السلاح وفي حال تاهب واستعرضهم على ضوء المشاعل في حين قضى الاسكندر تلك الليلة امام خيمته مجتمعاً بعرفه [ارستاندر] مبشرين طقوساً سرية معينة ومضحيان لاله الخوف. في حين كان جنوده يغطون في نومهم. وشاهد أقدم قواده ولاسيما

[پارمينيو] السهل جميعه ما بين جبلي [نيفاتس Niphates] و[گورديان Gordyaeon] وهما يشعان بالنيران العظيمة التي أوقدها البرابرة، وسمعوا الاصوات والاصداء المضطربة الآتية من معسكرهم مثل بحر هدير خضم آتٍ من بعيد، فادركهم الذهول والعجب عند التفكير بهذا الحشد العظيم وبعد مداولة فيما بينهم توصلوا الى ان الاشتباك بالعدو المتفوق عليهم تفوقاً ساحقاً لهُو أمر عسير محفوف بالمخاطر. والتقوا بالملك وهو راجع بعد تقديمه القرابين وراحوا يلحون عليه بأن يهاجم داريوس ليلاً، قائلين ربما حجب الظلام اخطار المعركة فرد عليهم بجوابه المشهور:

- إنِّي لا أسرق النصر!

قول حسبه بعضهم في حينه، قولاً صبيانياً ينطوي على تسرعٍ وعدم شعور بالمسؤولية، حتى لكأن صاحبه يلعب بالخطر لعباً الأً فريقياً اتخذهُ دليلاً على ثقة الاسكندر بالوضع الراهن. واصابته في حسابه، وفسروا قراره بأنه في حالة هزيمة داريوس، لا يبقى له فرصة أخرى لتجربة حظّه ثانية، الحظّ الذي افترض انه يقف الى جانبه بأن يعزو هزيمته الى عامل الليل الذي كان ضده كما عزاها من قبل عندما هزم في الجبال والشعاب الضيقة والبحر.

ففي الوقت الذي كان يوجد تحت تصرفه هذا القدر العظيم من القوات، والممالك الواسعة، ولايشكو نقصاً لا في الرجال ولا في السلاح يتعلل به لرفض الاشتباك، لا يكون سبب الاحجام غير الافتقار الى الشجاعة وفقدان المعنويات والايقان بالهزيمة مسبقاً.

بعد أن أجاب الاسكندر قواده بهذا الجواب انصرفوا عنه فاضطجع في خيمته ونام بقية الليل نوماً أهدأ واعمق من المعتاد الأمر الذي عجب له القادة حين اقبلوا عليه صباح اليوم الباكر وهم يريدون منه اعطاء الأمر بإفطار الجنود ولم يسمح لهم الوقت بالانتظار فتقدم پارمينيو من سريره وناداه باسمه مرتين او ثلاثاً حتى استيقظ وسأله كيف امكنه أن ينام هذا النوم العميق كأنه نوم غبّ نصرٍ، في حين انه مزعم ان يخوض اعظم معركة له؟ فأجاب الاسكندر باسماً:

- أولسنا كذلك في الواقع؟ لاسيما بعد ان تخلصنا من متاعب مطاردة داريوس في بلاد واسعة جرداء مؤملين عبثاً أن يقاتلنا؟

بدت عظمته للعيان لا قبيل المعركة فقط بل عندما بلغ الخطر اقصاه. وظهر مقدار ضبط النفس المتناسب مع بعد النظر والثقة. فلقد ظلت المعركة مدة طويلة غامضة، لا ترجح كفة جانب على آخر واشتد هجوم خيالة البختيارية Bactria على الميسرة التي كانت بأمره

پارمينيو الى الحدّ الذي دبّ الخلل في صفوفها فاضطر الى التقهقر قليلاً وفي الوقت عينه ارسل [مازيوس Mazaeus] وحدة للالتفاف ومباغته القائمين على حراسة الاثقال من الخلف مما أقلق [پارمينيو] فأرسل سعاة الى الاسكندر يعلمه بالخطر الذي يهدد الاثقال في المؤخرة، وانها مهددة بالضياع اذا انقذها بنجدة قوية يتم سحبها من الجبهة الامامية. وصلت الاسكندر هذه الرسالة وهو يعطي اشارة الهجوم لاعدوانه القريبين منه. فأمر السعاة بالعودة حالاً الى پارمينيو والقول له لاشكّ انه فقد رجاحة عقله وهي في وسط قلقه. كيف ينسى بأن انتصار الجيش يجعله سيداً لاثقال العدو وان هزيمته تحتم عليه فحسب القتال ببسالة والموت بشرف لا الاهتمام بما يمتلك من مال أو عبيد. قال هذا واعتمد بلامته وتقلد بقية سلاحه قبل خروجه من الخيمة وهو بجملته زرد صقلي الصنع وحزام جلدي مشدود حوله شداً وفوق ذلك صدار كتاني مقصب ثمين كانت من الاسلاب التي غنمها في موقعه ايسوس. واللامة التي هي من صنع ثيوفيلي وان كانت من الحديد فهي مصبوبة ومطروقة طرقاتاً جيداً بحيث بريقها لم يكن باقل من بريق الفضة. واكمل شكة سلاحه بواقية عنق من المعدن نفسه مكفّته بالاحجار الكريمة. وكان سيفه الذي يحمله عادة في القتال، هدية ملك الكتيانيين ويمتاز بخفته العجيبة، ومعدنه الرائع. والحزام الذي يتمنطق به في كل المعارك، كان من ابداع ما اخرجته يد الصناع، ويستظهر على كل قطع سلاحه الأخرى، هو من عمل [هيلقون Helicon] السالف ذكره قدمه الروديون Rodians دليلاً على الاحترام الذي يكون له.

ترك حصانه المفضل [بوكيفالس] اثناء تفتيشه الصفوف وتنظيمها والانتقال بينهما لأعطاء الاوامر وتعيين الاتجاهات واستعراض الرجال، فهذا الجواد كان متقدماً في السن. على انه ارسل في طلبه عند بدء الهجوم وامتطاه حين بدأ القتال.

في هذا اليوم المشهود القى اطول خطبة له في الثساليين وغيرهم من الاغريق، فردوا عليه بصياح وهتاف عظيمين. طالبين ان يتقدمهم الى الأمام ضدّ البرابرة وعندها نقل رمحه الى يسراه ورفع يمينه الى السماء راجياً من الآلهة على قول [كالليتسنيس] «ان كنت ابن جويتر حقاً، فمن الواجب ان تساعد الاغريق وتشد ازرهم». في الوقت نفسه تقدم العراف [ارستاندر] راكباً مشتملاً بعبادة بيضاء وعلى رأسه تاج ذهبي. واطهر للجنود صقراً اطلقه فحلّق فوق الاسكندر واتجه نحو العدو فدبت في الناظرين حماسة عظيمة وبعد استنهاض همم بعضهم بعضاً وتشجيعهم هجمت الخيالة باقصى السرعة وتبعها فلانكس المشاة جميعه كتلة متراصة واحدة. لكن البرابرة - انكفأوا الى الخلف قبل الاشتباك بين الصفوف الامامية فجذب الاسكندر في اثرهم ودفع بأولئك المنهزمين من امامه الى وسط المعركة حيث كان داريوس،

ولمحه الاسكندر من بعيد على رأس الصفوف الأمامية يحيط به حرسه الخاص، وكان رجلاً فارح الطول وسيماً، يقود عجلة فخمة يحميها عدد كبير من أفضل الفرسان من كل جانب وهم في ابداع نظام واتم الاستعداد لاستقبال هجمة العدو. إلا ان تقدم الاسكندر كان مخيفاً ساحقاً بحيث اجر المتقهقرين على الارتماء فوق اولئك الذين ظلوا ثابتين في مواضعهم وهكذا هزمهم وفرقهم شذر مذر. وحاولت قلة الصمود وهي نخبة من اشجعهم فقتلوا عن آخرهم بمشهد من ملكهم. كانوا يتساقطون أكداً واحداً فوق الآخر وهم يحاولون اثناء احتضارهم الامسك بالخيال المتقدمة لوقفها. واتضح لداريوس بان كل شيء قد ضاع وان اولئك الذين وضعوا في الصفوف الامامية لحمايته قد انكسروا ودفعوا الى الخلف عليه. ووجد ان الاستدارة متعذرة ولم تتخلص عجلته إلا بعد الجهد الجهيد لأن عجلاتها اشتبكت وتعثرت بجثث القتلى التي كانت مكدسة أكداً شيء فوق شيء فأوقفت الخيل بل غطيتها فأجعلت وانكفأت الى الخلف وجمحت ما سقط في يد سائق العجلة ولم يعد بواسطة السيطرة عليها واهتبل قرصته وهو في هذا المأزق، بترك عجلته واسلحته وامتنطأ مهرة أخذت من فلوها (على ما قيل) وبهذه الوسيلة نجا، على ان النجاة كانت بعيدة عن متناول يده لو لم يرسل پارمينيو سعاة آخرين الى الاسكندر يطلب انجاده ضد اعداد كبيرة من الاعداء الذين ما زالوا صامدين في مواضعهم. في الواقع ان [پارمينيو] كان في هذه المعركة هدفاً لانتقاد الجميع فقد بدأ متراخياً لا خير فيه ربما لأن كبر السن احدث اثره في اقدامه واشجاعه، او كان - على حد قول [كاللتسينوس] يكره في سره تنامي عظمة الاسكندر ويحسده عليها ان الاسكندر لم يدركه اقل السخط لاستدعائه، واضطراره الى التخلي عن استكمال نصره، إلا ان اخفى السبب الحقيقي عن رجاله وأمر بضرب بوق الوقوف، كأنما تأخر الوقت بهم لمتابعة النصر هو السبب، واتجه الى ناحية الخطر من المعركة ولكنه ابلغ نبأ هزيمة العدو وهو في طريقه.

اما وقد انتهت المعركة بهذه النتيجة فقد بدأ وكأنها وضعت نهاية محتومة لامبراطورية الفرس. وقام الاسكندر الذي أعلن ملكاً على آسيا بتقدم شكره للآلهة بقرايين فخمة وأغدق على اصدقائه واعوانه المكافآت المالية ومنحهم الاراضي وامرهم على الممالك والاقاليم. ودفعته رغبته الى كسب احترام الاغريق وثقتهم الى الكتابة اليهم بعهد قطعه على نفسه وهو قيامه بالغاء كل حكومات الطغاة والمستبدين ومينيهم بالعيش في ظل الحرية وبحماية قوانينهم، وذكر بصورة خاصة [البلاطيان Plations]. ووعدهم بأن يبني مدينتهم لأن مواطنيهم كانوا في غابر من الزمن قد سمحوا أن يجعلوا من بلدهم مركزاً لادارة الحرب عندما نشب القتال مع البرابرة دفاعاً عن حريتهم المشتركة. وبعث ايضاً بجزء من الغنائم الى ايطاليا

[للكرتونياتيين Crotoniats] تكريماً لشجاعة وحمية مواطنهم [فايالوس Phayllus] المصارع الذي انضم الى الاسطول في سلاميس ليكون له سهم في المخاطر والاهوال بسفنه التي سيرها على حسابه الخاص ومشاركته في الحروب الميدية في الوقت الذي تنكرت لأصلها المستعمرات الاغريقية الأخرى في ايطاليا وتخلت عن بلاد اليونان. كان الاسكندر شديد التعلق بكل انواع الفضائل، وكان ايضاً يهتم كثيراً بحفظ ذكرى الاعمال والمآثر الجديرة بالثناء التي يقوم بها الغير.

ومن هناك زحف الى بلاد البابليين ودخلها وسرعان ما دانت له بالولاء. وفي [اكتباتانا] ادركه شديد العجب لمنظر النار الدائمة الصادرة من نبع مثل نبع ماء لا ينقطع مجراه ينبط من باطن الأرض. ومسيل النفط وهو لا يبعد كثيراً عن تلك البقعة، يتدفق بكمية كبيرة جداً حتى انه يؤلف ما يشبه البحيرة. ان هذا النفط وهو من بعض النواحي يماثل الزفت سريع الاتقاد بحيث تراه يتقد بملامسة الضوء قبل وصول اللهب اليه. وكثيراً ما يشعل الهواء المتوسط ايضاً. ولكي يظهر البرابرة قوته وطبيعة عمله فقد رشوا الشارع المؤدي الى مسكن الملك بقليل من قطراته وعندما حل المساء وقفوا عند احدى نهايتي الخط ويدهم المشاعل ثم قربوها من النفط المرشوش وما أن تسلمت النار حتى كان الخط كله ناراً من طرف الى طرف في ومضة عين، وبدأ الشارع وكأن النيران قد التهمت. وكان ثم شخص يدعى اثينوفانس Athen-ophanes وهو مواطن آثيني يقف بخدمة الملك وانتهاز المناسبات لتسليته عند اغتساله، ويدهن جسمه بالزيت، الاسكندر من طلب هذا الرجل أن يجرى تجربة على استفانوس بالنفط، وهو شاب قبيح الطلعة وجهه يضحك الشكلي بارع في الغناء. كان يقف منتظراً في مواضع الاستحمام عنده، قائلاً:

- لو انها (اي النار) اشتعلت فيه بدون ان تطفأ فلايد وانها ذات قوة لاتقهر.

نيادر الشاب يعطي موافقته على التجربة فزهن جسمه بالنفط وما ان فرك جلده حتى اشتعلت النار فيه فأستولى القلق والاضطراب الشديد على الاسكندر، ولولا جمع قريب من الناس بادروا بالماء وصبوا عليه لحسن الحظ لانتتهت حياته واتت عليه النيران على ان جسمه أصيب بحروق كثيرة ومرت مدة طويلة حتى اندملت وتماثل للشفاء. وهكذا فانه لم يكن خالياً من العذر المقبول اجتهد القائلين ان النفط هو العقار الذي ذكرت التراجيديات بان [ميديا Medea] وهنت به التاج والخمار اللذين اعطتهما لابنة [كريون Creon] فلا الاشياء بذات نفسها ولا النار نفسها بقادرة على الانتقاد ذاتياً، وانما يتم ذلك بنقعها بالنفط فلا ترى نفسها الا وهي تنجذب الى النار وتشتعل دون وسيط عند يتفق وان يقرب منها لهب. ان

اشعاع وفيض وانبثاق اللهب من بعيد لا أثر له على بعض الاجسام أكثر من اعطائها حرارة أو ضوء. ولكن في بعضها الآخر حيث تصادف جفافاً فيه تيار هوائي، وكذلك رطوبة غنية كافية فانها تتجمع الى نفسها وما تلبث أن تلتهب وتحترق المنشود وعلى اية حال فان طريق استخراج النفط يطلق عنان الفكر في دروب مختلفة من الآراء. هل ان هذه المادة السائلة التي تغذي اللهب، تصدر من التربة التي هي زيتية القوم ومولدة للنار، مثل اقليم بابل حيث الأرض على درجة حرارة عالية جداً بحيث ان حبّ الشعير في اغلب الاحيان تقفز احياناً عن قشرة سنبلتها وتنفذ الى الخارج، وكان اللهب العنيف قد جعل الأرض تخفق خفقاناً. عندما تصل درجة الحرارة اقصاها هناك يعمد الناس الى النوم على جريان مملوءة ماءً. ان [هريالوس Harpalus] الذي تركه الاسكندر حاكماً لهذه البلاد، وكان ولوعاً بتزيين حدائق القصر ومما شبهه بانبتة اغريقية نجح في استنبات كل ما غرسه عدا اللبلاب الذي لم تكن التربة تتحملة بل نقلته فوراً لانه من النباتات التي تحب التربة الباردة ومزاج هذه الأرض الحارة النارية لم يناسبها. [ان امثال هذه الاستطرادات التي اوردها قد يكون القارئ النافذ الصبر أكثر ميلاً الى غفرانها لو بقيت مقصورة ضمن دائرة معتدلة].

عند الاستيلاء على [سوسه] وجد الاسكندر في القصر الملكي اربعين ألف تالنت نقداً مسكوكاً الى جانب ما يقصر عنه الكلام وما يتعذر تحديد مقداره من الاثاث والكنوز من بين ذلك ما تبلغ قيمته خمسة آلاف تالنت من الارجوان الهرميوني ظل مكنوناً هناك زهاء مائه وتسعين عاماً وما زال محافظاً على لونه جديداً قشيباً، ويقال أن السبب في ذلك يعود الى استعمالهم العسل في صبغ الأرجوان كما يستعملون الزيت الأبيض وكلاهما يحافظان على تألق القماش ومرونته بعد مرور هذه الحقبة من الزمن. ويحدثنا [دينون Dinon] ايضاً أن ملوك الفرس كانوا يجلبون ماءً من نهري النيل والدانوب ويختزنونه عندهم استشهادهماً بعظمه سلطانهم وسعة امبراطوريتهم.

كان دخوله بلاد الفرس من اراض وعرة جداً يسهر عليها انبل الفرس، وقد لجأ اليها داريوس نفسه. على ان الصدف هدت الاسكندر الى دليل تتفق اوصافه تماماً مع ما تنبأت به [پيثيا] في طفولة الاسكندر، وهي ان [ليقوسياً] سيقوده الى بلاد فارس. ومعمونة شخص ابوه ليقى وامه فارسية يتكلم اللغتين، دخل البلاد بطريق غير مباشرة ولكن دون كثير من اللف والدوران. وفي هذا الموضع وضع السيف في رقاب كثير من الأسرى، كما اقرّ هو نفسه بذلك اعني انه امر بقتلهم معتقداً أن في ذلك مصلحة. وادعى أن الأموال المنقولة والنفائس هناك وضع يده على ما يربو عن عشرة آلاف زوج من البغال وخمسة آلاف جمل اخذها عنوة. ووجد

تمثالاً كبيراً لزركسيس ملقى باهمال بسبب ما عم من الفوضى والاضطراب اللذين اثارهما الجم الغفير من الجنود المتدافعين نحو القصر، فوقف ساكناً ويادره بالكلام كما لو كان بشراً حياً: - أتتوقع ان نمرّ بك مروراً عابراً وانت ملقى على الأرض لأنك غزوت يوماً ما بلاد اليونان؟ ام ترانا نقيمك على قاعدتك مقدرين عظمة عقلك ومضائلك الأخرى؟

وبعد ان فكر ملياً مقلباً الأمر من شتى وجوهه، واصل سيره دون أن يعره أكثر من ذلك اهتماماً. واتخذ من هذا الموضع مقراً شتوياً له ومكث اربعة أشهر لراحة جنوده. ومما أثر عنه انه عندما جلس لأول مرة على عرش ملوك الفرس تحت مظلة من ذهب، ما كان من [ديماراتوس Demaratus] الكورنثي وهو أحد أقرب خلصائه وواحداً من اصدقاء ابيه إلا ان انفجر باكياً بكاء الرجال المتقدمين بالعمر، وراح يندب سوء حظ أولئك الاغريق الذين حرّمهم الموت من لذة رؤية الاسكندر جالساً على عرش [داريوس].

وقرر أن يبدأ زحفه على داريوس وقبل أن يباشر ذلك راح يسلي نفسه وقواده بحفلات شرب وغير ذلك من وسائل قضاء الوقت وانغمسوا في ذلك الى الحد الذي سمح فيه لكل خطية بان الجلوس الى جنب صاحبها وتساقيه. وكانت تاييس Thais الأثينية مخطبة بطليموس ملك مصر المقيم أشهرهن. هذه المرأة نطقت بقول موجه الى الاسكندر يمتاز بالبراعة من جهة، وبالفاكاهة وسرعة البديهة من جهة أخرى اثناء ما كانت كؤوس الراح تترع وتدار فلعبت الخمر برأسها الى الحد الذي فاهت بكلام لا يمكن اعتباره غير جدير بطبائع موطنها وكان ارفع بكثير من مكانتها وصفتها. قالت:

- ان قيامي اليوم بالخدمة. وبإمكاني أن أشتم ملوك الفرس في قصرهم، فيه بعض تعويض عما كابدته من المتاعب والمشاق بمتابعة الجيش في تنقلاته في ارجاء آسيا. لكن قد يزيد في سروري كثيراً لو يسمح لي - على سبيل العبث والتسلية لا غير في ان اشعل النار بيدي في قصر [زركسيس] الذي احال مدينة آثينا الى رماد، والاسكندر ينظر الى المشهد.

وهكذا سيسجل للاجيال القادمة بان المرأة التي تبعته قد تأثرت من الفرس للمآسي والاهانات التي تلقاها الاغريق منهم، وهو انتقام أشد وانكى من اي انتقام ناله القواد العسكريون منهم بحراً أو برأ.

وأستقبلت كلماتها بارتياح عام وغمغمه استسحان دليلاً على تشجيع المحتفلين وتحبيذهم حتى ان الملك نفسه لم يسعه غير الموافقة مع الإجماع فنهض من مجلسه وعلى رأسه أكليل

الزهر وييده مشغل متقد، وسار على رأس الجمع وهم في أثره محدثين ضوضاء وضجة والكل يرقص ويهتف فينادي بأعلى صوته فترجع اجواء القصر اصداها. وبمشاهدة المقدونيين الموكب استخفهم الطرب وراحوا يتراکضون هنا وهناك وبأيديهم المشاعل وكانوا يتوقعون حرق وتدمير القصر الملكي متخذين من شوق الاسكندر الى الوطن وعزوفه عن السكنى بين البرابرة دليلاً.

هذا ما سجله بعض الكتاب حول الحادث في حين ذكر آخرون ان مباشرة الحريق كان متعمداً وليس عفويًا. إلا أن الفريقين يتفقان بان ندم الاسكندر كان سريعاً أنياً فأصدر امره باخماد النار فوراً.

كان الاسكندر بطبيعة حاله جواداً معطاءً. يزداد سخاء كلما سما به حظه. وكان يقرن هباته بضروب لطيفة من المجاملة وحسن التصرف واللباقة وهي امور ضرورية جداً لتجعل اية منحة فضلاً مشكوراً لا تعويضاً وسأورد بعض الأمثلة على ذلك:

فتك اريسطون قائد اليبانيين [Paeonians] بمقاتل من الاعداء وحمل رأسه الى الاسكندر قائلاً ان هدية كهذه تعوض في عرف بلاده بكوب من الذهب الخالص فرد الاسكندر باسمًا:

- بكوب خال من الحمر. ولكنني اشرب نخبك بهذا الكوب الذي اقدمه اليك مترعًا!

من مناسبة ثانية كان أحد الجنود يسوق بغلاً محملاً باموال تعود للملك فادرك الحيوان النصب. فيادر الجندي الى نقل الحمل الى عاتقه وسار يستاق البغل المتعب خلفه فشاهده الملك ينوء تحت ثقل ما يحمل فسأله عما حدا به الى ذلك فاجابه وهو يهيم بانزال حملة من فرط التعب، فقال له الاسكندر:

- لاتهن الآن وتماسك وأكمل رحلتك وخذ ما تحمله الى خيمتك فهو ملك حلال لك.

وكانت نفرتة وانزعاجه من رافضي هباته أكثر ممن يستجدونها منه ولذلك كتب الى فوكيون Phocion يقول «اني ان اعتبرك في عداد اصدقائي ان ظللت ترفض قبول عطايي.

ولسيرابيون وهو أحد الشبان الذين كان يلاعبهم بالكرة لم يعط شيئاً لانه لم يطلب منه، وفي يوم ما جاء دور الشاب في قذف الكرة فراح يتوجه بقذفاته الى اللاعبين الآخرين متجاهلاً الاسكندر فسأله هذا عما يحده الى هذا فاجاب الشاب قائلاً:

- لأنك لم تطلب مني.

فسرته الاجابة وانبسط يده له غاية الانبساط.

وكان ثم آخر اسمه [Proteas] وهو رجل لطيف خفيف الظل ضاحك الثغر مزاح

شريب خمر، كان قد اغضبه يوماً لسبب ما. فدفع اليه باصدقا متوسطاً مستشفعاً طالباً عفوه وهو باك حتى نجحت المساعي وصرح الاسكندر ان قلبه قد صفا له وانه عاد الى وده. فقال پرويتاس

- لايسعني تصديق ذلك ما لم تعطني جهداً.

ففهم الملك قصده وامر فوراً بمنحه خمسة تالنتات.

وتبدو روعة اخلاقه وسموه في اغناء اتباعه والواقفين على خدمته من رسالة كتبت لها له [اولمبياس] اوصته فيها بان يقبض يده قليلاً في مكافأة المحيطين به معللة ذلك بقولها:

- انك الآن تساوهم بالملك، فتمنحهم السلطة، وتتيح لهم الفرصة في أن يجمعوا حواليلهم حاشية من الاصدقاء ويختصون بهم في حين ينفذ من حولك الاصدقاء.

وكثيراً ما كانت تكتب اليه حول ذلك، ولكنه لم يكشف عن محتويات تلك الرسالة الى أحد خلا رسالة واحدة فضها وهيفايستيون Hephaestion واقف معه فأجاز له مطالعتها معه كما نقضي به العادة. وبعد ان فرغ هيفايستيون من القراءة اسرع الاسكندر فخلع خاتمه ووضع ختمه على شفتي صديقه!

كان [المازيوس Mazaeus] أكبر الاشخاص مقاماً في بلاط داريوس ابن قلد وظيفه حاكم اقليم. فجعله الاسكندر حاكماً على اقليم آخر أفضل من الأول. فرفض ذلك على كل تواضعاً منه وقال له انه بدل [داريوس] واحد، يخلق عدة نسخ من الاسكندر. ومنح [پارمينيو] ونزل [بغواس Bagoas] فوجد المالك الجديد فيه مستودعاً من الثياب والحلل ما تربو قيمته عن ألف تالنت. وكتب الى [انتيباطر] يأمره أن يتخذ لنفسه حرساً خاصاً دائماً للمحافظة على حياته من المتآمرين، وارسل الى امه الكثير من الهدايا الا انه لم يمنحها اي مجال للتدخل في أمور السياسة والحرب ولا أن تستخدم ميلها الى التدخل، ولا أن تتبع فضولها. وعندما نشب الخلاف بينهما بهذا الخصوص تحمل حدة طبعها بكل صبر واناة، بل ارتفع حلمه معها الى الحد الذي قال بعد أن قرأ رسالة اتهام لانتيباطر طويلة ضدها حررها له [انتيباطر].

- ان انتيباطر لايدري ان دمة واحدة نذرفها عين ام تحي الف رسالة كهذه.

لكن عندما تبين ان اخلصاه غرقوا في اسباب الترف وتمادوا في الاسراف والبذخ، حتى ان هاكنون Hagnon التاياني خصف احذيته بمسامير من الفضة، و[ليوناتسي] ارسل العدو العديد من الجمال لحمل التراب الدقيق من مصر، وفرشه على أرض المصارعة. وان [فيلوطاس] اصبح لديه من شبك الصيد ما يبلغ طوله مائة فرلنك، وان الكثيرين يستخدمون

ارهاناً واطياباً غالية الثمن بدل الزيت الاعتيادي عند الاستحمام، وانهم يصحبون الخدم والحشم حيثما انتقلوا وسافروا لتدليكهم والقيام عليهم في حجراتهم - عندما تبين كل ذلك بدأ يعنفهم بلحجة رقيقة معتدلة فيقول لهم مثلاً:

- اني لأعجب منكم، انتم الذين خاضوا غمار المعارك والنزال الفردي الكثير، كيف لم تعلمكم التجارب بأن المرهقين من عمل اليوم ينامون أنها النوم وأعماقه، لا كأولئك الذين يعمل الآخرون من أجلهم. كيف عميت بصيرتكم عن الرؤية، فما عدتم تقارنون طراز العيش الفارسي بطرز عيشتكم، أن أبغض شيء وأحقره هو ان يكون المرء شهوانياً على ان أنبل حالة من حالات البشر وأسماها هي في أن يعاني الألم ويتمرس في الآفات.

وناقشهم أيضاً في ادعاء المرء بانه جندي ولكنه لا يعني بحصانه أو ينظف شكة سلاحه ويصقلها دوماً لتكون دائماً في حالة جيدة، ان الجندي هو ذلك الذي يهتم بالدرجة الأولى في ان تكون يديه نافعتين لأقرب الاشياء اليه وهو جسده وكيانه. وقال أخيراً:

- أبحاجة انتم الى ان تتعلموا بأن نهاية انتصاراتنا وكما لها، يتحقق في اجتناب رذائل ونقائص من استظهرنا عليهم؟

ولدعم حجته بالبرهان الحسيّ. انصرف الى العيد والقنص انصرفاً مضاعفاً، وخرج كثيراً في تجريدات عسكرية مهتبلاً كل الفرص لتعريض نفسه للمشاق والاحطار حتى اتفق ان اللقيدييين الذين كانوا قد وفدوا عليه في سفارة، حضروا مناظرة بينه وبين أسدٍ ضخم فتمكن منه وصرعه فقالوا انه قاتل الحيوان الضاري ببسالة فأى الاثنين يجب ان يكون الملك؟ وقام [كراتيروس Craterus] بعمل نقش بارز لهذه المناظرة ظهر فيه الاسد والكلاب والملك وهو يصارع الوحش وهو نفسه قادم لمعونته - وكان النقش على النحاس بتماثيل بعضها من صنع [ليسبوس Lysippus] وبعضها من صنع [ليوخارس Leochares] ووضع هذا يعرض نفسه للمهالك والاحطار قاصداً تعويد نفسه عليها وحث غيره على الاعمال النبيلة والاقدام.

إلا ان اتباعه الذين اغتنوا وارتبوا وادركتهم الخيلاء بسبب ذلك، مالوا الى الانغماس في الملذات والقوا حياة الخمول والكسل، بدأوا يضيّقون ذرعاً بالمسيرات والحملات العسكرية وقادوا الى الحد الذي امسكوا عن الحديث الطيب عنه وراحوا يغتابونه. في بادئ الأمر تحمل منهم ذلك متحلياً بالصبر الجميل وقال:

- تلك هي العادة، مهما أحسن الملوك عملاً فان السنة السوء تنالهم بالقدح.

ومع ذلك لك يكف عن عطفه عليهم فينتهز أقل مناسبة لابدائه لهم، ان دلائل رفته

واحترامه لهم لا تحصى. سمع مرة ان [پيوكستس Peucistes] قد عضه دب فكتب اليه يقول:

- اني لا أقبل ان اسمع من الآخرين هذا النبأ، بل اريد أن تخبرني به انت، لكن مادام الأمر قد حصل فدعني اعرف كيف انت وان كان قد تنكر لك أي صاحب من اصحابك ساعة الخطر حتى انزل به العقاب.

وارسل الى [هيفاسيتون] الذي كان قد سافر لمهمة - رسالة يذكره فيها كيف ان رمح [پيردكاس Perdeccas] اخترق فخذي كراتيروس بمحض الصدفة اثناء ما كان يصارعان نمساً ضارياً على سبيل التسلية. وعند شفاء [پيوكستس] من مرض ألم به ارسل كتاب شكر لطبيبه [الكسيبوس Alexippus] وعندما لازم كراتيروس الفراش مرة، رأى حلماء في نومه فقام على اثره بتقديم القرابين لأجل شفائه وطلب منه ان يفعل المثل. وكتب ايضاً الى پواسانياس Pausanias الطبيب الذي كان يهتم بتطهير احشاء [كرايتروس] بالحريق، شعوراً منه بالقلق الشديد عليه من ناحية وتذكرة له في ان يكون حذراً باستعماله هذا العقار السام من جهة أخرى.

وكان رقيقاً وغيوراً على سمعة اصدقائه الى الحد الذي عمد فيه الى ايداع كل من [ايفيالتس Ephialtes] و[كيسوس Cissus] السجن لانهما كانا أول من اخبراه عن هرب [هارپالوس Harpalus] من خدمته؛ خشية أن تكون تهمة مزيفة. وعندما اعاد العجزة وكبيرى السن الى الوطن، عمد [يوريلوخوس Eurylochus] وهو مواطن ايجي، الى تسجيل اسمه في قائمة العاجزين في حين كانت صحته على ما يرام. ولما افتضح أمره، اعترف بانه يحب فتاة اسمها [تيليسپا Telesippa] وقد اراد ان يلحق بها الى الساحل. فاستخبر الاسكندر عن وليّ أمر الفتاة فتيل له انها محظية حرة بالولادة فقال [ليوريلوخوس] الجندي.

- سأعينك في حبك هذا. إن امكن الفوز بمعشوقتك بالهدايا أم بالوساطة ولكن علينا الا نستخدم وسائل أخرى لأنها حرة.

انه لمن الغريب حقاً ان يتعنى الاسكندر كتابة الرسائل وتوجيهها في قضايا بسيطة تافهة خدمة لاصدقائه. ككتابته رسالة حول البحث عن فتى مفقود يعود [لسلوقس] هرب الى كيليكيا وتوجيهه رسالة شكر وتقدير الى [پيوكستس] لقبضه على [نيقون] خادم [كراتيروس]. وكتابته رسالة [ميگابيزوس Megabyzus] حول عبد لجأ الى معبد لاندأ. فصدر تعليمات تقضي بعدم التعرض له طالما هو في الداخل. ولكن ان استطاع سيده حمله

على الخروج بوسائل مشروعة فلا بأس من القبض عليه.

وقد أثروا عنه انه لما جلس مجلس القضاء للمرة الأولى في قضايا تتضمن احكام موت وضع يداً على أذن عندما أخذ المدعى يعرض دعواه، لابقائها حرة غير منحازة لمسمع المدعى عليه. لكنه فقد عطفه ورقته هذه عندما كثر عرضى القضايا الجنائية عليه وكان معظم التهم صحيحاً ولها كانت احكامه خاطئة ظالمة أحياناً. واخذ يميل الى تصديق الزائف من التهم ايضاً. ولاسيما عندما يتعرض احد لشخصه بالغيبة. فانه ينسى نفسه، ويغدو قاسياً لا يعرف للرحمة معني. مفضلاً مجده وشهرته على حياته ومملكته.

كما قلنا سابقاً، انطلق الاسكندر وراء [داريوس] متوقعاً ارغامه على الدخول في معركة أخرى. وسمع ان [بسوس] تمكن من القبض عليه وحبسه وما ان سمع بذلك حتى بادر باعادة التساليين الى ديارهم ومنحهم هبة قدرها ألفا تالنت، علاوة على ما يستحقونه من اعطيات. وتعب جنوده من مطاردته داريوس [قطع في احد عشر يوماً، ثلاثة آلاف وثلاثمائة فرلنگ] وغدا معظمهم على اتم الاستعداد للالتناء عنه بسبب قلة الماء. وبينما هم في محتهم هذه، اتفق ان وحدة من المقدونيين الذين جاؤا بماء في جريان على بغالهم من نهر صادفوه، انهم وصلوا حوالي الظهر الى الموضع الذي عسكر فيه الاسكندر فوجدوه يكاد يموت عطشاً فيبادروا الى ملء لامة وتقديمها له. فسألهم لمن يحملون الماء فقالوا لأولادهم. وازدادوا قائلين أن ما بهمهم حياته فحسب فلو سلمت لكان فيها الكفاية ولو هلكوا هم جميعاً، اذ سيكونون قادرين على تعويض الخسارة. فتناول اللامة وتلفت فرأى اعناق القريبين منه تمتد متلهفة للماء، فاعاد الوعاء شاكراً دون ان يشرب قطرة واحدة وقال:

- إن أصبت أنا وحدي من مائكم. فستنهار معنويات الباقين.

ما ان تبين الجنود عظمة تصرفه حتى أخذت الحماسة مأخذها منهم فهتفوا هتاف رجل واحد وطلبوا منه ان يتقدمهم ويدأوا يسوطون خيولهم. وقالوا: مادام ملكنا بهذه الصفة، فنحن نتحدى التعب والعطش. واننا لنعد انفسنا كائنات لا تقل كثيراً عن مستوى الآلهة الخالدين. لكن ومع هذه الرغبة والاستبشار فان الذي قدروا على متابعة الزحف على ما قيل لم يكن يزيد عن ستين فارساً، هجموا على معسكر الاعداء في غفلة منهم ووضعوا ايديهم على كميات لا تقدر من الذهب والفضة وكانت مبعثرة هنا وهناك ومروا بحسد كبير من العجلات ممتلئة بالنساء ومتفرقة في رقعة واسعة وليس فيها سائقون. وجدوا في ادراك اول الهاربين املاً في العثور على داريوس معهم. وقد عثروا عليه فعلاً بعد كثير من الجهد. وكان ملقى في عجلة مثخناً بالجرارح على شفا الموت. فطلب من أسريه مشربة ماء. وعندما نال قليلاً من

الماء البارد قال لساقيه [پوليستراتوس Polystratus] انه بلغ آخر درجة من الشقاء وسوء الحظ عند قبوله هذه الحسنة وعجزه عن ردّها وازداد:

- لكن الاسكندر الذي ارجو من الآلهة ان تكافئه لعطفه على أمي وزوجي واولادي، سيسكر دون شك لانسانيتك معي. فقل لي عني اني امد اليه يدي اليمنى دليلاً على شكري وتقديري.

وقبض على يد [پوليستراتوس] ولفظ آخر انفاسه.

وظهر الحزن العميق على الاسكندر عند وصوله اليه، ونزع معطفه والقاه على جسده. وبعد مرور فترة من الزمن أسر [بيسسوس] فأمر به ان يمزق شلوا على الوجه التالي: شدوه الى شجرتين متقابلتين بعد ان احنوا جذعيهما وضموهما الى بعض بقوة عظيمة ثم أطلقوهما فعادتا الى وضعهما وقد نالت كل واحدة منهما للجزء من الحسد المشدود اليها. واسجي جسد داريوس في نعش مكشوف وأرسل الى امه بابهة تليق بمقامه. وجعل اخاه [اكساثريس Ex-athres] واحداً من اخلص اصدقائه واقربهم. وزحف بزهرة جيشه نحو [هرقانيا Hyrcania] فوجد امامه ساحلاً واسعاً وبحراً مفتوحاً لا تقل سعته عن بحر قزوين Euxaine ماؤه اعدب من المياه الأخرى. الا انه لم يتحقق منه. وبدا له ان كل الاحتمالات تشير الى كونه ذراعاً صادراً من بحيرة ميوتس Moetis. على ان علماء الطبيعة قبله كانوا أخبر منه فقد توصلوا الى الحقيقة قبل حملته بعدة سنين فاثبتوا انه من الجلبحان الاربعة التي تدخل الى القارة من البحر الرئيس عند هذا الخليج الذي لايعرف بغير اسم (قزوين) ويقع في اقصى الشمال كالبحر الهرقاني، التقى البرابرة بنفر كانوا يقودون جواده الخاص [بوكيفالوس] فأخذوهم اسرى ووضعوا ايديهم على الحصان فاستشاط غضباً وارسل اليهم منادياً يهددهم ويطلب اعادته أو سيضع السيف في رقابهم جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً دون ان تداخله فيهم اية رحمة. على انه عاملهم معاملة لطيفة عندما أعلنوا الطاعة وسلموا له مدنهم وزاد في لطفه بان افتدى حصانه ممن نهبه.

ومن هنا زحف الى پارثيا. ووجد نفسه هناك عاطلاً لا عمل لديه فاشغل نفسه بأموار ثيابه كلبسه الزي البربري. ولعله اقدم على ذلك للتقرب من قلوبهم وليسهل مهمة تحضيرهم. اذ ليس ثم ما يجذب قلوب الناس كتبني عاداتهم وكالتخلق بطباعهم او ربما كانت منه اول محاولة يستنتج منها مدى استعداد المقدميين لعبادة شخصه كما يعبد البرابرة ملوكهم بتعويدهم شيئاً فشيئاً على التغييب الطاريء في حكمه واسلوب حياته وغير ذلك من الأمور. وعلى اية حال فانه لم يتخذ الزي الميدي لباساً فقد كان بنظر مواطنيه اجنبياً تماماً وغير



مألوف. فأقتبس بعضه ولم يتخذ السراويل ولا الصدار ذا الاكمام ولا القلنسوة، أعنى انه اختار الطريق الوسط بين الزيّ الفارسي والمقدوني واهتم بحيث لا تكون زاهية صارخة الالوان كالأولى ولا فخمة فاخرة كالثانية. وكان في مبدأ الأمر لا يرتدي زيه الجديد هذا الا عند اجتماعه بالبرابرة أو عندما يكون في خلوة بين اتباعه واعوانه الاقربين. الا انه ظهر بها فيما بعد وكان منظره بها يحزن المقدونيين الا انهم كانوا يسكتون عنها ويتجاوزون بسبب فضائله وحسن اخلاقه الى الحد الذي يشعرون معه بأن من العدالة أن يترك وشأنه يرضي اهواءه وميله الى المجد والظهور، بعدما عرض نفسه الى المخاطر والأهوال. ومن العوارض الخطيرة التي أصيب بها مؤخراً ان سهماً أخترق ساقه فغنت عظم القصبه واخرجت منها شظايا. كذلك اصيب في مؤخر عنقه بضربة حجرٍ عنيفة جداً اضعفت باصرته وغداً ضعيف الرؤية مدة طويلة. ولم يمنعه كل ذلك من تعريض نفسه للمزيد من الأخطار باستهتار عجيب فقد عبر نهر [اوركزارتس Orexartes] الذي حسبه نهو [تانايس] وهزم الصيحيين وطاردهم زهاء مائة فرلنگ وهو يعاني طوال ذلك من الاسهال الشديد.

ويؤكد الكثيرون انه في هذه البلاد حظي بزيارة الامازونات هذا ما يزعمه [كليتارخوس Clitarchus] و[بوليكليتيوس Polyclitus] و[اونيسكريتوس Onesicritus] و[انتيكينيس Antigenes] و[استر Ister] الا ان كلاً من [ارسطبولس] و[خاريس] اللذين اشغلا وظيفة المبلغين عن الالتماسات والعراض، و[بطليموس] و[انتقليدس Anticlidis] و[فيلون] و[تيسان Theban] و[فيليب] التيسانجيلي Theangela، و[هيكاتيوس Hecataeus] الارتراني Eretrian و[فيليب] الخلقيدوني، و[دوريس] الساميان Samian، يقولون ان الحكاية كلها هي من نسج الخيال. والواقع ان الاسكندر نفسه يؤيد ادأي الاخير اذ انه يقص في رسالة موجهة الى انتيباطر تفاصيل ما حصل خلال الحملة. فيخبره ان ملك الصيحيين عرض ابنته عليه زوجاً. ولا يذكر شيئاً عن التقائه بالامازونات وبعد عدة سنين كان [اونيسكريتوس] يقرأ هذه الحكاية في كتابه الرابع الى ليسسيماخوس الذي كان ملكاً آنذاك فضحك ليسسيماخوس ضحكة هادئة وعقب قائلاً:

- اين كنت في ذلك الوقت يا ترى؟

ولو سلمنا جديلاً بصحة الحكاية فايه فائدة في ذلك للاسكندر ومن المؤكد انه بعد ان ادركه الملل من متابعة الحرب، ترك القسم الاكبر في مقراته بهرقانيه، واحتفظ بنخبة من الرجال يبلغ عددهم عشرين ألفاً من الرجالة، وثلاثة آلاف من الخيالة، وتوجه اليهم بهذه الخطبة:

- انكم حتى هذه الساعة لم تروا البرابرة الا في احلامكم. فان كنتم تملون انفسكم بالعودة

دون ان تفعلوا شيئاً بعد أكثر من ارهاصكم اسيا دون الاستيلاء عليها، فإن اعداءكم سينقضون عليكم كما ينقضون على نساء. اني لن استبقي احداً رغم أنفه، وبامكانكم ان تذهبوا حيث شئتم، فليس لي غير رفع صوتي بالاحتجاج على المقدونيين والراثاء لهم، لأنني تركت وحدي مع حفنة من الاتباع والمقطوعين، وانا في سبيلي ان أجعل منهم سادة الدنيا.

ذلك هو طبق ما دونه [انتيباطر] حرفاً بحرف. واذاف يقول انه حين خاطبهم بهذا الكلام صاحوا قائلين: سنتبعك حيثما شئت ان تقودنا. وبعد نجاحه هذا لم يكن من الصعب ان يستميل القسم الاكبر الذين انضموا الى النخبة. والآن ايضاً روض نفسه على العيش كالمواطنين المحليين وحاول تقربهم الى مدينة المقدونيين قدر الامكان، (وهو منشغل في حملة كانت ستقذف به الى مسافة بعيدة) مفكراً بدياية ويعد نظر، انه زيادة في الحكمة هو الاعتماد على حسن النية المتأتمية من الاختلاط والامتزاج منهما الوسيلتان الفعالتان للتوصل الى الهدوء والاستقرار، دون اللجوء وسيلتي الى القوة والاكراه، ولذلك اختار ثلاثين ألفاً من الصبيان واسلمهم الى مربين لتعليمهم لسان الأغرقيق وتدريبهم على استعمال السلاح على اصول الضبط والربط المقدونيين. واما عن زواجه بروكسانا Roxana التي سحرته بفتوتها وجمالها في حفلة شرب. حيث وقع نظره عليها لأول مرة وهي ترقص، فكانت مسألة حب لا غير. ومع هذا فقد بدت القضية وكأنها جزء من الخطة التي يتولى امر تحقيقها. اذ انه لما يرضي الشعب المغلوب ان يختار الغالب زوجه منهم فيشعرهم باشد الميل له. فالحب وهو العاطفة الوحيدة التي تمكنت منه واستقوت عليه وهو ارق الناس والطفهم جعلته يتحمل بالصبر والتأني حتى يحصل على روكسانا بطريق شرعية شريفة.

وتبين ان هيفاسيتون كان أكثر اصدقائه وخلصائه موافقة له على تصرفاته واسرعهم الى محاكاته في تغيير زيه في حين بقي [كراتيروس] اميناً على عادات بلاده وتقاليدها. فعمد الاسكندر الى استخدام اولهما عند تعامله مع الفرس، والاعتماد على الثاني عند تعامله مع الاغرقيق والمقدونيين. وكان على العموم يظهر لهيفاستيون أكثر الحب والإعزاز ويظهر لكراتيروس اكثر الاحترام والاكبار. لأن هيفاستيون (كما يقول) هو صديق الاسكندر، في حين ان كراتيروس هو صديق الملك ولذلك حقد احدهما على الآخر وكان الخلاف ينشب فيما بينهما فترة وفترة حتى بلغ الخلاف بها حداً في الهند ان هما بالاشتباك بالسلاح وقد اشهره وكادا يلتحمان وانحاز الى كل واحد اصدقاؤه يشجعه ويدفعه للنزال فأسرع الاسكندر يحث مطيته اليهما وراح يعنف [هيفاستيون] علانيةً ووصفه بالرقاعة والجنون. ونسيانه بأنه لم يكن شيئاً

مذكوراً لولا فضله، وويخ [كراتيروس] في السرِّ، ثم أجبرهما على المصالحة مقسماً بالآله آمون وبقيية الآلهة انه يحبهما حباً لا يعدله حبه للبقية ولكن إن علم انهما عادا الى الخلاف والتنازب فسيقتلتهما أو سيقنتل المعتدي منهما على الاقل. وتحاشى احدهما اثاره الآخر او ازعاجه باقول أو الفعل حتى على سبيل المزاح.

ولم يكن أحدُ يداني [فيلوطاس] ابن [پارمينيو] في مكانته السامية عند المقدونيين فالى جانب شجاعته ومقدرته على احتمال متاعب الحرب ومشاقها، كان يأتي بعد الاسكندر في السخاء وبسط اليد، والتعلق باصدقائه. سأله أحدهم مالاً فأمر وكيله بان يعطيه. فأخبره بأنه لا يوجد فقال:

- اما عندهم صحيفة او ثياب لي؟ اذهب معها واعطه.

الآن انه بلغ حدَّ الافراط في غطرسته وكبريائه وتظاهره بالفن الى حدِّ الادعاء الكاذب، غير اللائق بالانسان السوي. كان يبدو كل مظاهر الترفع والانفة غير مفلح في اظهار رقة العظيمة وجمالها بهذا التعاطم المغلوط الزائف نال القدر الكبير من الحسد والحفاظ. وكان [پارمينيو] ينذره أحياناً بقوله:

- من الافضل يا بني ان لا يكون البشر متعاطماً الى هذا الحدِّ.

رفع أمره الى الاسكندر منذ زمن والصقت به التهم وبصورة خاصة عند هزيمة داريوس في كيليكيا، والاستيلاء في دمشق على كميات هائلة من الغنائم. وكان من بين الأسرى الذين جيء بهم الى المعسكر، [انتيجون] البدينية [Pydna] الفائقة الجمال التي وقعت من نصيب [فيلوطاس]. فجعلها مخطية له، وفي يوم ما قال لها وهو في مجلس شراب. أن كل الأعمال العظيمة انما حققها هو وابوه، وبها نال ذاك الصبي الاسكندر المجد وجنى الفائدة الى جانب لقب الملك. ولم نستطع كنتم ذلك فاقضت بما سمعت الى احد معارفها، وكما جرت العادة نقله هذا الى ثالث حتى وصلت الحكاية اذن [كراتيروس] الذي أخذ المرأة الى الاسكندر سراً. وبعد ان سمع منها ما جاءت للاقضاء به أمرها بالاستمرار في الانصات الى ما يتفوه به فيلوطاس ونقله اليه.

هكذا سقط [فيلوطاس] في الفخ بغفلة منه. كان يطلق لنفسه العنان ارضاء لنوية غضبٍ تجتاحه، وانسياقاً بحبه للزهو والخيلاء، فينطق بالعبارات الحمقاء الطائشة ضدَّ الملك في محضر من [انتيجون] فما تلبث انه تبلغ الاسكندر ومع أنه بدأ مقتنعاً بهذه الدلائل القوية الا انه لم يأبه بها ولم يتخذ اي اجراء سواء في ذلك بسبب وثوقه من حب پارمينيو واخلاصه او

خوفاً من نفوذهما وعلو شأنهما في الجيش. ولكن من حدود هذا الزمن بدأ شخص من [خالاسترا Chalastra] يدعى [لمنوس Limnus] بالتأمر على حياة الاسكندر، وافضى بنيته هذه الى شاب كان مولعاً به اسمه [نيقوماخس] لعله ينضم اليه فرفض نيقوماخس وكشف الأمر لآخيه [بالينوس Balinus] الذي بادر فوراً بالطلب من [فيلوطاس] ان يأخذهما الى الاسكندر فلدبهما شيء بالغ الأهمية يريدان ان يغضيا به اليه فلم يعرهما اذناً صاغية والحا عليه مرة أخرى دون جدوى فقصداً غيره وتمكناً عن طريقه من الوصول الى الاسكندر. فكشفا له بمؤامرة [لمنوس] وأظهرا بسياق ذلك اهمال [فيلوطاس] وكيف انه رفض ايصالهما اليه مرتين. وهناك استنشأ الاسكندر غضباً وزاد انزعاجاً لما علم ان [لمنوس] دافع عن نفسه وقتل بيد الجندي الذي ارسل لاعتقاله لأنه فقد بموته الوسيلة الوحيدة للكشف عن خيوط الدسياسة. وما ان أخذ استيواؤه من [فيلوطاس] يبدو حتى هبَّ اعداء هذا الشاب وراحوا يسلقونه بالسنة حداد قائلين ان الملك سهل الاستغفال اذ كيف يتصور ان شخصاً تافهاً لا وزن له [كلمنوس] يقدم بنفسه ويتدبيره الخاص على مثل هذه العملية الضخمة؟ وان اقرب الاحتمالات، هو أنه لايزيد عن اداة يحركها لولب كبير. وانه يجب ان يحقق مع كل من له مصلحة في التأمر على حياة الاسكندر تحقيقاً دقيقاً وهكذا ملأوا اسماع الملك بمثل هذا الدسّ ثم شرعوا يظهرن الف سبب وسبب للشك في [فيلوطاس] حتى نجحوا في حمل الملك على اعتقاله وتسليمه للتعذيب فجرى ذلك امام كبار الضباط، وجلس الاسكندر نفسه وراء ستارة يتسمع الى ما يجري. واصغى الى اللهجة الذليلة والخنوع اللذين كان [فيلوطاس] يتوجه بهما الى [هيفاستيون] وقيل انه هتف من مجلسه:

- ما أجنك وأخسّ نفسك يا فيلوطاس ومع ذلك تجد في نفسك القدرة على المشاركة في مثل هذه المؤامرة الخطيرة.

وبعد موته أرسل الى ميديا يأمر بقتل ابيه [پارمينيو] ذلك القائد التي اتى بضروب من الشجاعة والاقدام تحت أمرة [فيليب] وكان الرجل الوحيد من اصدقائه القدامى ومستشاريه الذين شجعوا الاسكندر على غزو آسيا. كان لپارمينيو ثلاثة ابناء في الجيش. فقدمتهم اثنين قبلاً وها هو الآن يموت من ثالثهم.

هذه التصرفات جعلت الاسكندر مصدر رعب كثير من اصدقائه، ولاسيما [انتيباطر] الذي أخذ يجمع من حوله الانصار ويقوى نفسه بارسال موفدين الى [الياتولين Aetolians] في السرِّ، توخياً لعقد حلف معهم، وكانوا ممن يهاب الاسكندر، لأنهم دمروا مدينة [أونيادي Oe-niade]. وعندما اخبر الاسكندر بذلك قال هازئاً ليسوا بحاجة الى الثأر لحرب والدهم،

فسأتولى عنهم انا شخصياً انزال العقاب بالياتولين. ولم يمر طويل زمن على هذا، حتى كانت مأساة كليتيوس المؤلمة وهي حادثة قد تبدو لمن سمع منها طرفاً بسيطاً، أقسى وابعد عن الانسانية من حادثة [فيلوطاس]، اما لو تدبرناها بظروفها ودرسناها بدوافعها الآتية ووزنا العلة والمعلول، فسنجد انها كانت مجرد سوء طالع صادفه الملك الذي، أفسح غضبه الناري وافراطه في الشرب، المجال لظهور الروح الشرير في كليتيوس.

جاءت الاسكندر من ساحل البحر فاكهة يونانية على سبيل الهدية فأعجب بجمالها وطراوتها فبعث يستدعي كليتيوس ليراها وليقاسمه اياها. كان كليتيوس وقتئذ، يضحي للآلهة، فترك قربانه فوراً واقبل متبوعاً بثلاث شباه كان قد صبّ عليها الخمر تمهيداً لتضحيتها. وعندما انبىء الاسكندر بهذا سأل عرافيه [اريستاندر] و[كليوماتس Cleo- mantes] اللقيدي عما يعني هذا فأكد له انه فال سيء. فامرهما ان يعجلا بتقديم قربانين لاجل سلامة [كليتيوس] فقد رأى فضلاً عن ذلك حلماً غريباً قبل ثلاثة ايام عن كليتيوس. لأه في ثياب الحداد جالساً مع ابناء [پارمينيو] الماتين. وعلى كل فان [كليتيوس] لم يمكث لانهاء تضحية، وانما اقبل رأساً لتناول العشاء مع الملك الذي قام بالتضحية لكل من [كاستور وپولوكس] وعندما افراط في الشرب باشر بعض الجالسين بغناء اشعار المدعو [پرانيوخوس Pranichus] أو [پيريون Pierion] على حدّ زعم آخرين. نظمت تلك القصائد بهجاء وتحقير أولئك الضباط الذين هزمهم البرابرة مؤخراً. فجرحت مشاعر اكبر الحاضرين سناً ووبخوا الناظم ومنشدي قصائده توبيخاً شديداً في حين كان الاسكندر والشباب الآخرون المحيطون به في اقصى درجة من الاستمتاع بها وشجعوا المنشدين على الاستمرار، الى ان خرج [كليتيوس] عن طوره ولم يقو على ضبط نفسه وكان قد شرب كثيراً، وهو بالاصل ذو مزاج حاد عنيد لايسلس له قياد. نهض وقال:

- ليس من اللائق فضح المقدونيين امام البرابرة واعدائهم، اذ مع شقائهم بهزيمتهم فما اكثر الرجال الذين يفضلون الهازئين بهم.

فعقب الاسكندر قائلاً: ان كليتيوس انما يدافع عن نفسه بهذه الاقوال، مسمىاً الجبن سوء حظ. فعاد كليتيوس يصيح قائلاً: هذا الشيء الذي اخترت تسميته بالجبن، انقذ حياة ابن الآلهة عند هروبه وحسام [سپيثريداتس Spithridates] يتعقبه، وكانت نجاته على حساب الدم المقدوني، بهذه الجراح ارتفعت الى هذا المقام الذي مكّنك من بنوتك لفيليب وتسمية نفسك بابن [أمون].

فصاح الاسكندر فهو في أشدّ حالات الغضب: أيها الحقير، اتظن بأنك ستظلّ تنطق بهذه الأمور في كل مكان عني، وتحرض المقدونيين على العصيان، وانت في منجى من العقاب؟

فأجاب [كليتيوس]: لقد نلنا من العقاب ما نستحق، اذا كان هذا ما نكافأته عن جهودنا وتعبنا. ما اسعد أولئك الذين ماتوا لكي لا يروا اليوم مواطنيهم يجلدون بسياط ميديّة. ويضطرون الى الرجاء من الفرس للسماح لهم بمقابلة الملك.

وراح يتكلم على هذه الشاكلة دون ضابط او رادع فأنهض أقرب الرجال من الاسكندر وراحوا يشتمونه وعمل كبار السنّ كل ما في وسعهم لتسكين الهياج. والتقت الاسكندر الى كل من [كزينودوخوس Xenodochus] [الپاردى Pardon] و[اريتسميوس Aretemius] [الكولوفوني Colophonian] وسألهما: الا يعتقدان ان الاعريق اذا قورنوا بالمقدونيين، قد تصرفوا ككثير من انصاف الآلهة تجاه هؤلاء الأخيرين؟ لكن [كليتيوس] مع هذا لم تهدأ ثأثرته، وسأل الاسكندر: أليديه ما يضيفه الى اقواله السابقة، والأ لماذا يدعو الى طعامه رجالاً أحراراً بالولادة اعتاد أن ينطقوا بما يجول في رؤوسهم دون قيد ولا خوف، خير له ان يعيش ويتحدث الى البرابرة والعبيد فلا مانع لدى هؤلاء من الركوع لزناره، وجلبابه الفارسيين.

بهذا استفزّ الاسكندر الى الحدّ الذي عجز هذا عن ضبط نفسه وكظم غيظه فتناول تفاحة من فوق المائدة وقذف بها كليتيوس فاصابته ثم دار يبصره يريد سيفه. إلا ان [اريستوفانس] احد افراد حرسه الخاص، كان قد ابعده عنه سلاحه وقام اليه آخرون وأخذوا يتوسلون به عبثاً، فقد انفلت منهم وصاح بصوت عالٍ منادياً حرسه باللغة المقدونية، وتلك اشارة أكيدة بانه يعاني اعظم الاضطراب. وأمر نافخ بوقه بالنفخ مسدداً اليه لكمة بقبضة يده، فلم يطعه فوراً وتلكاً (وقد نال هذا الرجال شكره وتقديره فيما بعد لعصيانه أمراً كاد يوقع فتنة في صفوف الجيش) وتكبد اصدقاء كليتيوس كثيراً من العناء باخراجه من القاعة وهو ما زال مصراً على موقفه وعناده. فقد عاد ثانية من باب آخر وهو ينشد شعر [يورپيدس] عن لسان اندروماك بثقة نفس واستهتار في اليونان، وأسفي الى اي درك شيء ترددت الاحوال!

وعندها أختطف الاسكندر رمحاً من احد من أحد الجنود واعترض كليتيوس وهو يتقدم حتى اصبح امام الستارة المرخاة على الباب ودفن الرمح في جسمه فسقط على الأرض في الحال ولم تصدر منه غير صرخة وأنة. وتلاشى غضب الملك وعاد الى حالته الطبيعية في الحال، ولما شاهد اصدقاءه حوله يخيم عليهم الوجوم والصمت العميق نزع الرمح من الجسد الهامد وهم بدفنه في عنقه رقاد ينجح لو لم يقبض الحرس على يديه، وينقلوه رغم انفه الى غرفته الخاصة

حيث ظل يبكي طوال الليل والنهار الذي تلاه بكاءً مرأً ولما انهكه الندب والعيول انطرح بدون كلام خلا تنهدات عميقة.

وخشي اصدقاؤه من ضرر يلحق صحته فاقترحوا الغرفة عليه الى انه لم يلتفت الى اقوالهم ولم يعبأ بوجودهم. حتى تمكن اريستاندر من تحويل اهتمامه الى الرؤيا التي يشاهدها عن [كليتوس] والظاهرة العجيبة التي تلتها. يريد ان كل ما حصل كان مكتوباً ومسطراً في لوح القدر ولا مرد له. وعندها بدأ حزنه يخفّ وجاؤه [بكاللستينوس] الفيلسوف صديق [ارسطو] المقرب واناكسارخوس الابديري. واستخدم اولهما لغة الاخلاق ووسائل تسكين رقيقة مؤملاً أن يجد سبيله الى الكلام العقول. والنجاح في السيطرة على العاطفة. الا ان اناكسارخوس الذي كان لا يحميد مطلقاً عن طريقته في الفلسفة، مع اشتهاه باحتقار معاصريه والتقليل من شأنه صاح فور وصوله:

- اهذا هو ذاك الاسكندر الذي تنظر اليه الدنيا كلها.

مستلق هنا يبكي كالعبد خوفاً من لوم الناس وانتقادهم. وهو قانونهم وميزان العدالة لهم، ان استعمل الحق الذي منحها له فتوحاته بوصفه السيد الأعلى والحاكم على الجميع، يجب ان لا يكون ضحية للرأي الخطل. الا تدري ان [جوتير] يرسم بيدين: الواحدة منهما تحمل العدل والثانية ترفع القانون تعبيراً عن قانونية وعدالة اعمال الفاتح كلها.

بهذه وامثالها من الافكار تمكن [اناكسارخوس] ان يهديء الملك ويزيل عنه الألم. على انه أفسد خلقه من ناحية أخرى فقد زادته تهور واجترأ على القانون. ولم يتوان هذا الفيلسوف بمثل هذا الكلام عن التقرب منه والتسلل الى قلبه وجعل صحبة كاللستينوس (وهي صحبة لم تكن قط بالشيء المرغوب فيه) ثقيلة مكروهة بسبب تزمته.

واتفق ان هذين الفيلسوفين التقيا في حفلة دارت المناقشة منها الى موضوع المناخ ودرجه حرارة الجو، فأنضم [كاللستينوس] الى القائلين بان تلك البلاد ابرد جواً من بلاد اليونان، وشتاؤها اقسى من شتائه. ولم يقبل [اناكسارخوس] بهذا القول مطلقاً وناقشه بشيء من الحدة. فقال [كاللستينوس]:

- بالتأكيد، ليس بوسعك الا الاقرار بان هذه البلاد أشدّ برداً من بلاد اليونان. فهناك اعتدت ان لاتلبس غير عباءة منسلة الخيوط لتدري عنك اقسى شتاء، وهنا ترتدي ثلاث عباءات سميكة واحدة فوق الأخرى!

هذه المزحة ازعجت [اناكسارخوس] وغيره من ادعياء المعرفة. ولم يستطع جماعة المتملقين

ان يتحملوا رؤية كاللستينوس موضع الاعجاب الشديد ومؤيداً من الشبان والشيوخ على حد سواء بسبب حياته المثالية واتزانه وقناعته بحاله. وتأكيده انه ما قام بزيارة الاسكندر الا ليتوسط لاعادة مواطنيه المنفيين وبناء المدينة وتأهيلها من جديد. مفضلاً عن الحسد الذي تسببه له سمعته الحميدة فان تصرفاته الشخصية تفسح السبيل لسيء النية للاضرار به. كان يرفض في معظم الاوقات حضور الحفلات العامة واذا حضر احدها أفسد المجلس بتعاليه وحمته الذي يدل على عدم موافقته على ما يسمح ويرى. وقال الاسكندر يقصده:

هذا الادعاء الكاذب بالحكمة... اني امقته حين يعمى المرء عن رؤية مصلحته

كان في حفلة عشاء اقامها الملك. والمدعون كثيرون. فطلب منه عند وصول الكأس اليه ان يرتجل خطبة في تقرير المقدونيين ففعل وبلغ الذروة في بلاغته وحسن تعبيره. حتى ان الحاضرين نهضوا جميعاً لتحيته والتصفيق له والقاء اكاليل الزهر عليه. الا الاسكندر فقد انشد ابيات [يوربيدس]:

لست بمستغرب لانك اجدت القول الى هذا الحد فليس اسهل على المرء ان يكون بليغاً في المواضيع السهلة وعقبها بقوله: لذلك، فان انت أظهرت قوة عارضتك بمصارحة مقدونيين باخطائهم وتعداد نقائصهم فلعلهم يتلاقونها عندما تذكر لهم.

فاطاعه [كاللستينوس] في الحال وبادر الى نقض كل ما قاله فيم مندداً بهم دون ضابط. وختم اقواله بهذا:

- أن السبب الرئيس في نجاح [فيليب] واتساع سلطانه هو تفرق الاغريق. ودعم قوله هذا بالبيت الآتي:

في المنافسة السلمية يشتهر حتى الاندال

وهو ما جرح مشاعر المقدونيين الى الحد الذي اصبح ممقوتاً منهم وقال الاسكندر انه عوضاً عن اظهار قوة عارضته فيما تكلم، أظهر سوء نيته فحسب. ويؤكد لنا [هرميپوس - Hermipus] ان المدعو [ستروبوس - Stroeus] (خادم لكاللستينوس كان يقرأ له) انهى بكل هذه التفاصيل الى ارسطو فيما بعد وانه عندما ادرك ان كره له الملك يزداد ردّد هذه الابيات مرتين او ثلاثاً قبل سفره:

ادرك الموت أخيراً [باتروكلس] العظيم ايضاً

وان كان ارفع منك فضائل بكثير

ولم يكن اعتباطاً منه ان يصف شخص [كاللستينوس] بقوله انه خطيب مصقع ولكنه خطر الرأي، ومن المؤكد انه وضع الفيلسوف في مكانه الصحيح عند رفضه عبادة الاسكندر. والكلام علانية ضد ذلك الرجل الذي لم يكن يجرأ أعظم المقدونيين وأعلامهم مكاتنة على الشكوى من تصرفاته الأ في السر. انه انقذ الاغريق والاسكندر نفسه من أكبر العار عندما ابطل ممارسة هذه العبادة الآ انه دمر نفسه لأنه لم يكن لبقاً وآثر استخدام اسلوب خشن فظ كأنه يريد ارغام الملك على ذلك. في حين كان ينبغي له ان يسلك سبيل العقل والمحاجة. ويكتب [خاريس] و[ميتلين] ان الاسكندر في مجلس شراب له، قدم كأسه الى احد اصدقائه بعد ان شرب منها فما ان تسلمها هذا حتى نهض متوجهاً الى مذبح في البيت. وبعد ان شرب سجد الاسكندر اولاً ثم قبله وعاد الى مجلسه مع الباقيين الذي أخذوا يقومون بالعمل نفسه تباعاً الى أن جاءت نوبة [كاللستينوس] الذي تناول الكأس وشرب في حين كان الاسكندر غافلاً عنه، منشغلاً بمحادثة هيفاستيون. ثم تقدم يريد تقبيله فتدخل [ديميتريوس] الملقب [فيدون] قائلاً:

- مولاي! لاتدعه يقبلك فهو الوحيد بيننا الذي رفض عبادتك. فرفض الملك القبلة. وكان كل ما أظهره كاللستينوس من اهتمام هو قوله بصوت مرتفع:

- فأنا اذن أعود ناقصاً عن الآخرين قبلة.

ان الاستياء الذي احده بهذا العمل رفع من قدر تصريح هيفاستيون الذي قال انه رجع عن تعهده في ان لا يقدم للملك نفس العبارة التي يقدمها الآخرون بعد ان تعهد ان يفعل ذلك مخلصاً.

ولأجل أن يكمل دماره تقدم عدد من الرجال كليسماخوس و[هاغنون Hagnon] يؤكدون ان هذا الفيلسوف السوفسطائي يتجول في كل مكان متباهياً بوقوفه في وجه السلطة المستبدة وان الشباب جميعاً يتبعونه ويكرمونه بوصفه الوحيد بين الألاف المؤلفه الذي ملك من الشجاعة ما حافظ به على حريته. ولذلك فحينما أكتشفت مؤامرة [هرمولوس Herno-] [Iaus] سهل تصديق التهم التي الصقها به خصومه ولاسيما عندما سأله الشاب عن الوسيلة التي تمكته من أن يصير أشهر رجل على وجه البسيطة؟

فأجابه ان أضمن واسرع سبيل الى ذلك هو القضاء على ذلك الذي سبق له فحاز هذه الصفة. ولأجل حثه على تنفيذ العمل اوصاه بالآ تروعه اريكة الذهب وان يتذكر بان الاسكندر هو انسان ضعيف عرضة للموت مثل سائر الناس. على ان شركاء [هيراوموس] لم يذكروا ان

[كاللستينوس] كان بين المساهمين في المؤامرة لا من قريب ولا من بعيد. والاسكندر نفسه في رسائله التي كتبها بعدها مباشرة لكل من [كراتيروس] و[اتالوس] و[الكينياس Alcetas] يذكر ان الشبان الذي عذبوا، اقرروا بأنهم انضموا الى المؤامرة من تلقاء انفسهم، دون دفع أو تحريض من أحد. وليس ثم مذنب غيرهم. ومع هذا ففي رسالة كتبها [لاتتياطر] نجده يتهم [كاللستينوس] حين يقول:

- تولى المقدونيون رجم الشبان حتى الموت. أما السوفسطائي (يقصد كاللستينوس) فانا مزعم معاقبته ايضاً مع أولئك الذين بعثوا به الي وأولئك الذين آوا في مدنهم كل من تأمر على حياتي.

وفي العبارة الأخيرة اشارة لا لبس فيها الى (ارسطو) الذي كان (كاللستينوس) قد ربي في بيته لقرابة بينهما. فهو ابن بنت [هيرو Hero] أخت ارسطو. واختلفت الرواة في اسباب موت الفيلسوف. فقال بعضهم أنه شق بأمر من الاسكندر. وقال آخرون انه مات في السجن بمرض ألم به على ان [خاريس] يكتب بهذا الصدد انه ابقى مكبلاً بالاغلال سبعة أشهر بعد القاء القبض عليه تمهيداً لمحاكمة أما مجلس قضاء كامل وبحضور [ارسطو]. فافرط في البداهة، واصيب بمرض طفيلي مات به هناك وقت أصيب الاسكندر بجرحه الخطير في اقليم [مالي اوكسيدراكي Malli Oxydraca] بالهند. وسنأتي الى تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

ولأجل ان نواصل السرد بالترتيب الزمني نقول، ان ديماراتوس الكورنثي الذي غداً شيخاً في اراذل العمر - كان في حدود ذلك الزمن قد بذل اقصى الجهود ليحظى برؤية الاسكندر ولما نال بقية ابتداره قائلاً: أنه لياسف لسوء حظ أولئك الاغريق الذين ماتوا قبل ان يروا الاسكندر جالساً على عرش [داريوس] ولم يتمتع [ديماراتوس] بالنعم التي حباه بها الى الملك فسرعان ما ركبه المرض وتوفي فشيح تشييعاً فخماً ورفع له الجيش نصباً تذكاريماً من التراب ارتفاعه ثمانون كيويتيا ومحيطه في غاية السعة. ونقل رماده في عجلة فخمة تجرها اربعة جياد حتى الساحل.

وقرّ عزم الاسكندر على الشروع في حملته الهندية. وكان يدري ان جنوده قد اتخموا بالغنائم واثقلوا بها وانها تعرقل المسير. فعمد في فجر يوم الحركة وفور تحميل العربات ائقال الجيش، الى اشعال النار في سهمه من الغنائم ثم احراق ما يعود منها لأصدقائه ثم أمر باحراق ما يعود منها الى افراد الجيش الباقيين. وهو عمل يبدو عند التفكير بالاقدام عليه أكثر خطورة واصعب اجراء مما بدأ عند تنفيذه.

فلم يشك منه غير قلة. وأطلق معظم الجنود كأن وحياً نزل عليهم - هتاف الموافقة وصيحات القتال وتزودوا بما هو ضروري فقط وأحرقوا واتفوا كل ما هو كمالي. فكان منظرًا فريداً ضاعف من حماسة الاسكندر ومن عزمه على المضي في الخطة التي رسمها. في الحقيقة أنه غداً في تلك الأيام صارماً قاسياً الى ابعده الحدود. عنيداً لا ينثني في انزال العقاب بمن يقدم على اي خطأ مهما صغر. فقتل [ميناندر] احد اصدقائه لأنه أخلى قلعة كان قد استأمنه عليها. وقتل برمييه سهم من يده [اورسوداتس Orsodates] أحد البرابرة عندما شق عليه عصا الطاعة.

وفي ذلك الزمن اتفق أن نعمةً ولدت ولدت حملاً بهيئة ولون قلنسوة على الرأس وبخصيتين على كل جانب. النبوءة التي تطير منها الاسكندر الى الحد الذي أمر كهنة البابليين يتطهيره (كانت عاداته ان يأخذ هؤلاء الكهنة معه لمثل هذه الاغراض) وقال لاصدقائه ان اهتمامه بالموضوع لا يعود الى شخصيه بل بهم فهو يخشى أن تعتمد القوى السماوية الى نقل امبراطوريته بعد موته الى شخص عاجزٍ فاسدٍ، لكن سرعان ما تبدد خوفه هذا بأمر عجيب حصل بعدها بوقت قصير. اعتبره بشير خير. وتفصيله أن [بروكسينس Proximus] المقدوني الذي كان رئيس المشرفين على بيت الملك، كان يحفر في الارض قرب نهر [اموداريا Oxus] لاقامة الفسوط الملك. فاذا به يكتشف نبعاً يخرج منه سائل ثخين زيتي القوام، بعد أن أزيل ما يعلوه أخذ يجري زيتاً نقياً لا يختلف عن الزيت العادي مذاقاً ورائحة. ونعومة وشفاء في بلاد لا ينمو فيها شجر الزيتون على الاطلاق. ولقد قيل والشيء بالشيء يذكر أن مياه نهر [اموداريا] بدرجة من النعومة والرقعة لاتعد لها مياه اي نهر آخر، ويذكر انه يترك لمعةً على بشرة من يستحم به. وايا كان السبب فمن المؤكد أن الاسكندر سرّ بهذا الاتفاق غاية السرور، كما يتضح ذلك من رسائله الى [انتيپاتر] فقد وصف الحدث بأنه أروع من كل البشائر والفأل الحسن التي خصه الله بها. ثم ان العرافين فسروا له الأمر بقولهم ان يشير الى المجد الذي سيناله من حملته العسكرية ومكانها في التاريخ. على انها ستحفل بالمشاق والصعاب. فالزيت على حد تفسيرهم هو هبة آلهية للبشر ينعش اجسادهم من متاعها ويرطب امزجتهم.

ولم يكونوا في حكمهم هذا مخطئين فقد تعرض الاسكندر لكثير من المخاطر في المعارك التي خاضها واصيب بجراح بليغة جداً. على ان اعظم خسارة حاقت بجشيه انما كانت بسبب فساد الهواء وشح الارزاق. وكان الاسكندر كالعهد به دوماً يقدم على الخطر فيركبه ويجتازه بعزمه ومتانة خلقه مهما عانت. فهو يرى الآ شيء مستحيل امام الشجاعة الحقة ولا شيء ثابت أو مضمون امام الجبن وخور العزيمة. ويقال انه في حصار [سيسميثريس Sisimithres]

الذي صمد كالصخرة المنيعه في وجهه حتى ادركه اليأس من التغلب عليه يدب في جنوده سأل [اوكسيارتس Oxyertes] هل ان [سيسميثريس] هو رجل شجاع فأكد له بأنه أجبين الأحيار طراً فقال الاسكندر:

- اذن قل لي ان الموضوع يسهل اقتحامه مادام المدافع عنه ضعيفاً.

وشد الخناق على [سيسميثريس] وفي وقت وجيز تم له الاستيلاء على الموقع. وفي هجوم شنه على موقع منيع مثله بقسم من جنوده المقدونيين، نادى سميّاً له بين افراد الجيش قائلاً لا سبيل لك الاّ البلاء الحسن والاقدام ان لم يكن لشيء فللاسم الذي تتسمى به فقاتل الشاب ببسالة حتى قتل. وقد ألمه ذلك جداً. وفي مناسبة أخرى، لاحظ ان جنوده يتباطؤون في سيرهم، ويتفაცسون عن حصار موقع يدعى [نيسا Nysa] بسبب النهر العميق الذي يصعدهم عن المدينة فتقدم الاسكندر حتى الضفاف وقال:

- ما أشقاني من رجل لأنني لم اتعلم السباحة!

وحيل بينه وبين محاولته العبور على ترسه بكل صعوبة. وبعد نهاية هذا الهجوم أقبيل عليه سفراء المدن العديدة التي القى عليها الحصار يعلنون الطاعة ويرغبون في الصلح، وعجبوا حين راؤه بكامل شكة سلاحه ودروعه وليس ثم خادم أو حارس يقف بين يديه، أخيراً جيء له بوسادة فأجلس عليها [اكوبيس Acophis] أكبرهم سنّاً. فذهل الشيخ لهذا التصرف النبيل والحفاوة وسأله: ماذا ينبغي لمواطنيه ان يعملوا ليستحقوا صداقته؟ فأجاب الاسكندر:

- أريدكم ان يختاروك حاكماً عليهم وان يرسلوا مائة من وجهائهم واعلاهم مقاماً لابقبيهم رهائن عندي.

فضحك [اكوبيس] وقال:

- سيكون حكمي لهم اسهل بكثير لو ارسلت لك مثل هذا العدد من اردئهم لا من افاضلهم!

من المعروف ان رقعة الارض التي امتد اليها حكم الملك [تاكسيلس Taxiles] تساوي مساحة ارض مصر، وهي كثيرة المراعي حسنتها. يخرج منها أفضل الفاكهة. وقد اشتهر ملكها هذا بالحكمة فقد كان كلامه للاسكندر عند اول لقاء ما يأتي:

- اي غاية نتوخى من قتال بعضنا بعضاً، إن لم يكن غرضك من القDOM الينا سرقة مائتا أو طعامنا الضروري، وهما الشيطان الوحيدان اللذان يدفعان عقلاء الرجال الى القتال في سبيلها.

واما بخصوص متاع الدنيا الاخرى كما يعتبر في اعين الناس، فان كنت احرز الأكثر منه فهي

أنا على استعداد لمقاسمتك أيّاه. ما تعطيني منه شاكراً.

وكان سرور الاسكندر بهذا القول عظيماً بحيث وثب عليه وعانقه قائلاً:

- اتعتقد أن كلماتك الرقيقة ومسلحك الحميد، لن تلقى صنوها، أستبقى دون مقابل؟ كلاً انك لن تهرب مني. وسأنافسك وادخل معك في معركة لانستطيع ان تهزمني فيها مهما بلغت من اللطف والكرم.

وبعد ان قبل بعض الهدايا منه، تحفه بهدايا اثنى وأعلى قيمةً. وزاد عليها فنحنه ألفي تالنت من النقود المصكوكة. فأثار بذلك استياء اصدقائه القدماء، ولكنه كسب بها قلوب البرابرة.

لقد تولى الدفاع عن المدن الهندية افضل المقاتلين الهنود وقالوا قتالاً شديداً وظهروا من الشجاعة الاقدام ما اتعب الاسكندر ووضعه في مواقف خطيرة، وبالآخر عند استسلامهم وفتح مدنهم أعمل السيف في رقابهم جميعاً أثناء انسحابهم فلم ينج منهم أحد. وكان هذا حثاً بالعهد الذي قطعه لهم وسجل له لطفة سوداء في حين ماثره الحربية التي كانت تمتاز بالنبل والعدالة وبها اصبح ملكاً. ولم يكن أقل غيظاً من الفلاسفة الهنود الذين ندوا تنديداً بمن حالفه من امراء الهند، ودعوا الشعوب غير المغلوبة الى مقاومته. فأعتقل عدداً منهم وقتلهم.

ويورد الاسكندر تفاصيل حربه مع [پورس Porus] في رسائله الخاصة. يقول ان نهر [هيداسپيس Hydaspes] كان بفضل ما بين الجيشين، وعلى احدى ضفافه كان پورس قد جرد فيالقه وهياها ووجهها نحو الضفة المقابلة للحيلولة دون عبور العدو. اما الاسكندر فقد أمر بمواصلة احداث الضوضاء والضجة في معسكره لتبديد مخاوف البرابرة من هجوم مباغت عليهم. ثم انتهز فرصة في يوم مظلم مليء بالعواصف فسار مستتراً مسافةً عن الموضع الذي عسكر فيه العدو وعبر النهر الى جزيرة صغيرة بجزء من رجالته ونخبة من خياله. وهبت اشدّ واعنف عاصفةً مطرية مصحوبة ببروق وزوايع رعدية. وسقط امامه بعض رجاله مصعوقين. ثم ترك الجزيرة مباشرة العبور الى الضفة العدو. وكان النهر بعد العاصفة قد فاض وزادت سرعة جريانه بحيث حدث له ثغرة في الضفاف تدفق منها ماؤه واغرق مساحات شاسعة من الأرض ولذلك عجز عن تثبيت اقدامه بعد عبوره، لأن الأرض غدت موحلة زلقة معرضة لقوة التيار من الجهتين في هذا الموقف يؤثر عنه انه قال:

- أيها الآثينيون! انكم لن تصدقوا الحديث عن الأخطار التي اتعرض لها لاستحق رضاكم.

هذه الرواية اوردها [ارنسكربتس] على كل حال. ويتابع الاسكندر وصفه ليقول: هنا ترك الرجال قواربهم وعبروا الفتحة بسلاحهم وكان الماء يغطيهم حتى الصدور. وزحف بخياله حوالي عشرين فرلنك تاركاً المشاة خلفه، معتداً أن العدو لو هاجمه بخياله فسيكون متفوقاً عليهم، واذا هاجمه بمشاته فان جنوده المشاة سيدركونه في الوقت المناسب لاسناده وكان مصيباً في تقديره فقد هاجمه العدو بألف من الخيالة وستين عجلة حربية مجهزة بالسلاح تعرضت له قبل ان يتعرض له القسم الأكبر، فأستولى عن جميع العجلات، وفتك باربعمائة من الخيالة في الموقع نفسه، وقد قدر [پورس] في الوقت نفسه ان الاسكندر عبر النهر بشخصه فتقدم بكامل جيشه عدا وحدة تركها لمشاغلة المقدونيين الذين لم يعبروا وايهامهم في حالة اقدامهم على العبور، وخشي الاسكندر من تفوق خصمه العدو. فلأجل ان يتحاشى صدمة فيلتهم، قسم قواته، وهاجم ميسرتهم بنفسه، وأمر [كوينوس Coenus] بالهجوم على ميمنتهم ففعل بنجاح كبير. وبهذه الخطة انكسر الجناحان، فأنكفأ العدو على اعقابه في القلب وتحاشدت جموعه حول فيلته. وهناك لم العدو شعته وبدأوا قتال اليد باليد، ولم تتم هزيمتهم الكاملة الا في الساعة الثامنة نهاراً. هذا الوصف تركه لنا الفاتح نفسه في رسائله الخاصة.

ويكاد جميع المؤرخين يتفقون على القول بأن [پوروس] كان رجلاً فارح الطول يبلغ طوله اربع كيوبتات وسيانا واحداً. وانه حين يعلو ظهر فيله، يبدو جسمه متناسباً مع هيكل الفيل. حتى لكأنه ممتط جواداً. مع ان فيله الخاص كان من اضخم الفيلة. قدم هذا الحيوان اثناء المعركة العديد من الدلائل على حكمته وذكائه، ولاسيما رعايته للملك الذي كان يدافع عنه بكل شجاعة طالما هو قادر على مواصلة القتال فتراه يدفع الى الوراء بهيكله أولئك الذين يطبقون عليه. ولما ادرك ان سيده عجز عن القتال لكثرة الجراح التي اصابته من الرماح. حال دون سقوطه عن ظهره بركوعه بكل لطف ونزع الرماح من جسمه بخرطومه. ولما وقع (پوروس في الأسر، سأله الاسكندر ماذا توقع ان تكون معاملته أجاب:

- كملك.

كانت الجملة المقتضية جامعة وقد كررها عند القى عليه السؤال نفسه ولم يكتف الاسكندر بابقائه على عرشه في مملكته لكن تحت سلطانه بل ضم الى حكمه اقاليم مختلف القنابل المجاورة التي تم اخضاعها. اقاليم قيل انها تأوي خمسة عشر شعباً وخمسة آلاف بلدة عامرة فضلاً عما لا يحصى من القرى. وعين [فيليب] احد اصدقائه حاكماً لمملكة أخرى تبلغ مساحتها ثلاثة اضعاف الأولى.

بعيد معركة المراجع - نفق جواد الاسكندر المسمى بوكيفالس كم يذكر معظم المراجع متأثراً

كان يحكم إذاك، عرف بحياته الفاسدة ووضاعة المنبت. وكان مبغضاً محتقراً. وهز الشوق الاسكندر لرؤية البحر المحيط. فأمر ببناء اطواف وقوارب مقطورة وزوارق كبيرة، يرسلها تجوب الانهار على هدفه وتمضية لوقت فراغه. على ان ملاحظته لم تخل من فائدة. فقد كان ينزل الضفاف بين الفينة والفينة فيستولى على مدن محصنة وعلى الأراضي الواقعة فيما يلي ضفتيها. وتعرضت حياته الى اعظم الخطر عند حصاره عاصمة المالبيين [Mallians] الذين اشتهروا بانهم اشجع شعوب الهند. فبعد ان دحر المدافعين بامطارهم بوابل من السهام، تقدم الجميع وأعتلى السور بسلم الا ان السلم انكسر بعد وصوله مباشرة وتركه وحيداً معرضاً للمقذوف من الرماح التي كان يوجهها اليه البرابرة من اسفل السور. وتحاشاها بخير ما امكنه ثم قفز الى الاسفل ليجد نفسه وسط اعدائه، وشاءت الصدفة ان يهبط على رجليه. وان يوهم بريق سلاحه وقعقتها البرابرة بانهم يرون اشعة ضوئية أو شبحاً ساطع النور يتراقص امام جسده. فأخافهم فتفرقوا من حوله وهربوا. حتى اذا التفتوا ووجدوه وحيداً الا من حارسين له. كروا عليه والتحموا معه، وحاول بعضهم تسديد طعنة اليه من خلال مفاصل دروعه بسيوفهم ورماحهم. ورشقه احدهم بسهم صائب من مسافة قريبة، فوجد له منفذاً واستقر في ضلع ما تحت الصدر. كانت اصابته شديدة بحيث اجبرته على التراجع واسناد ركبته الى الارض، واسرع الرامي نحوه وسيفه مشرع يريد القضاء عليه وكاد أن يفعل لولا تدخل [بيوكستس] و[اليمينوس Limnaeus] وكان كلاهما جريحين مثله. لمينوس كان جرحه قاتلاً أما بيوكستس فقد ثبت في موضعه بينما وقَّع الاسكندر في قتل البربري. على ان الخطر ظل يحوم حوله، فالى جانب الجراح الكثيرة التي اصيب بها. نزلت على عنقه ضربة دبوس ثقيل فأضطر الى اسناد ظهره الى الحائط وظلَّ مواجهاً للعدو وبهذا الموقف الحرج شق المقدونيون لهم طريقاً الى الداخل والتفوا حوله، ورافعوه الى أعلى السور وقد بدأ يفقد وعيه، ولم يعد يحس بما يجري حوله. ثم حُمِل الى خيمته، وانتشر خبر موته في المعسكر كله. وامكنهم بعد لأي وبعد كثير من الآلام فصل قصبه الرمح الخشبية بالمنشار، وتكبدوا نفس العناء في نزع درعه، وبعدها بدأوا بقطع النصل وكان بعرض ثلاثة اصابع وطول اربعة. وهو نافذ في العظم لصيق به وراح في غيبوبة الاحتضار اثناء العملية، لكنه رجع الى وعيه بعد اخراجه. ومع ان كل خطر زال عنه فقد بقي اياماً الدقيقة الصارمة حتى اذا سمع يوماً هتاف المقدونيين خارج خيمته وقد برح بهم الشوق الى رؤيته، أشتمل بجبته وخرج اليهم. وبعد ان ضحى للالهة ركب السفينة وانطلق لاختضاع البلاد الواقعة على الضفاف وعدد لا يستهان به من كبيرات المدن.

من جراحة. او كما يقول [اونيسكريتوس] بسبب الراهاق وكبير السن فقد بلغ الثلاثين. وتألَّم الاسكندر لموته كألَّمه لموت رفيق قديم او صديق مقرب. وبنى مدينة سماها [بوكيفاليا] تخليداً له، على ضفة نهر هيداسپس. وقيل أيضاً بنى مدينة أخرى وسماها باسم كلب اثير على قلبه اسمه [پريتاس: Peritas] كان قد رياه بنفسه. يؤكد [سوتيون Sotion] بانه سمع هذا من [پوتامون Potamon] و[ليسبون Lesbon] لكن هذه المعركة الأخيرة مع [پوروس] فلت من غراب شجاعة المقدونيين وجلدهم، وحالت دون تقدم آخر لهم داخل الهند. فقد وجدوا من الصعوبة بمكان ان يدحروا عدواً لم يستخدم في المعركة أكثر من عشرين ألفاً من المشاة والفين من الخيالة. فحكوا أن لديهم سبباً وجيهاً في معارضة قرار الملك الذي كان يقضي بعبور نهر [الگانج] فقد قيل لهم انه عرضه اثنان وثلاثون فرلنگ وعمقه مائة فاتوم<sup>(٤)</sup> وان لجيشاً لجباً يحمي ضفتيه. وقيل لهم ان ملوك [القندرستان Gandasitan] و[الپريزيان Praesian] ينتظرونهم هناك بحشد من العجلات الحربية يبلغ ثمانية آلاف، فضلاً عن ستة آلاف فيل مقاتل. ولم يكن بالخبر الكاذب أو المبالغ فيه اذيع لتخويفهم. [فاندروكوتوس Androcotus] الذي ما عاد اليوم يحكم تلك الاقاليم، أهدى فوراً سلوقوس خمسمائة فيل، واخضع الهند بجيش قوامه ستمائة ألف. غضب الاسكندر، وتألَّم في باديء الأمر لتردد جنوده فحبس نفسه في خيمته والقى بنفسه على الأرض وصاح قائلاً:

- ان لم تعبروا الگانج فاني لست مديناً لكم، ولا بالشكر عن اي شيء عملتموه. ان الانسحاب الآن يعني الاعتراف الصريح بانكساري وخذلاني.

إلا ان الحجج الدامغة ووسائل الاقتناع المنطقية التي حاولها معه اصداقاه وصيحات جنوده الذين كانوا يتجمعون امام مدخل الخيمة بهيئة المتضرعين المستوكفين - نجحت أخيراً في حمله على التفكير بالعودة على أنه لم يتمالك نفسه من ان يترك خلفه عدداً من انصاب النصر الزائفة تخليداً لحملة، وتضخيماً لمجده، فخلّف صور اسلحة أكبر حجماً مما يستخدم عادة. ومعالف للخيول بلجم وشكائهم أكبر من العادية اقامها في عدة مواضع، كما بنى أيضاً مذابح للالهة ظلَّ يحترمها ملوك [الپريزيان] الى يومنا هذا حين عبورهم النهر، ويقربون الاضاحي عليها بالطريقة الاغريقية.

كان [اندروكوتس] صبياً آنذاك حين وقعت عينه على الاسكندر وكثير ما قيل فيما بعد انه سُمع وهو يقول:

- لم يخطيء الاسكندر في جعل نفسه سيداً على كل هذه البلاد الا بقدر يسير. فملكها الذي

(٤) قامة. مقياس للاعماق مقداره ست اقدام.



في اثناء هذه الرحلة قبض على عشرة من فلاسفة الهند وكانوا أكثر زملائهم نشاطاً في تحريض [سبّاس Sabbas] على الثورة فاذاقوا المقدونيين الأمرين جراء ذلك. هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم السوفسطائيين التجريديين [Gymno Sophist] عرفوا بسرعة البديهة واحكام الاجابة. فقام الاسكندر بالتحقيق من هذا بتوجيه اصعب الاسئلة اليهم . واندرهم بانه سيقنتل من لا تتفق اجابته مع السؤال، وجعل اكبرهم سنأ حكماً في ذلك. سُئل اولهم:

- ايهما أكثر عدداً في رأيك، الاحياء من البشر ام الأموات؟

فأجاب: الاحياء. لأن الموت ما عاد لهم وجود مطلقاً.

وطلب من الثاني ان يعلمه أيهما مصدر اكبر الوحوش، ألبر أم البحر؟ فأجابه:

- البرّ لأن البحر جزء من البرّ.

كان سؤاله الثالث: اي من الحيوانات اشدّ ذكاءً؟

فأجاب: تلك التي لم يعرفها الانسان بعد.

وطلب من الرابع أن يخبره بالوسيلة التي استخدمها لاقتناع [سپاس] بالثورة عليه.

فأجابه: قلت له عليك ان تختار بين العيش وبين الموت ميتة شريفة.

وسأل الخامس: أيهما أقدم النهار والليل؟

فأجاب الفيلسوف: النهار أقدم، بنهار واحدٍ على الأقل.

وادرک ان الاسكندر لم يقنع بإجابته فاسترسل: عليك ان لاتستغرب. فالأسئلة الغريبة تلقى اجوبة غريبة مثلها.

ثم توجه الى السادس منهم بالسؤال التالي: ماذا يفعل المرء ليكون محبوباً غاية الحب؟

فأجاب: ان يكون عظيم السلطان، دون ان يجعل نفسه مصدر خوف.

وسأل السابع: كيف يغدو المرء آلهاً؟

فأجاب: بإتيانه اعمالاً تقصر عنها طاقة البشر السويّ.

وسأل الثامن: أيهما أقوى؟ أموات أم الحياة؟

فأجاب: الحياة أقوى من الموت لأنها تتغلب على الكثير من الرزايا والبلايا.

وسأل الأخير: كم يناسب المرء أن يعيش من السنين في رأيك؟

فأجابه: حتى يبدو له الموت أطيب من الحياة.

ومن ثم التفت الاسكندر الى العاشر الذي جعله حكماً وطلب منه أن يصدر قراراً. فقال:

- كل ما يمكنني الحكم به، هو أن كلّ اجابة كانت أسوء من الأخرى. فقال الملك:

- اذن فستكون اول من يموت لأعطائك مثل هذا الحكم. فردّ الفيلسوف قائلاً:

- قولك هذا ليس بصحيح، والأجدر أن تقول كاذباً: ان ذلك الذي كان اسوء الجميع اجابة يجب ان يكون اول الموت.

بعد هذا حملهم الهدايا الكثيرة وأطلقهم.

على انه بعث [اونيسكراتس] أحد تلاميذ (ديوجينيس) الساخر الى فريق الفلاسفة الذين تمتعوا بأعظم السمعة وطلقوا الحياة العامة، طالباً قدومهم. وقيل ان [كالانوس Calanus] أمر الاسكندر بكلّ فظاظة وصلافة، أن ينضو عنه ثيابه ويصغي لأقواله وهو عارٍ والّا فانه لن ينيس امامه بينت شفة وان كان من نسل جويتير نفسه. الاّ ان [داندامس Dandamis] كان لطيفاً فاسمعه الرسول طرفاً من محاورات سقراط وفيثاغوراس وديوجينيس، فقال الفيلسوف الهندي، انه يراهم رجالاً ذوي مواهب عظيمة، ولا يجدّ علةً في آرائهم سوى احترامهم الفائق الحدّ لقوانين بلادهم وعرفها. ويقول آخرون ان [داندامس] سأله لماذا تكبد الاسكندر عناء مثل هذه الرحلة الطويلة الى بلاده. ومهما يكن فقد تمكن [تاكسيلس] من اقناع [كالانوس] بأن يبقى عند الاسكندر. و[كالانوس] ليس اسمه الحقيقي وانما هو [سفينس]. وقد غلب عليه اللقب الأول لكثرة ترويده لفظة [كاله] وهي شكل من أشكال التحية باللسان الهندي. كان يلقيها على كل من يصادفه. فلقيه الاغريق بـ[كالانوس] وقيل انه أوضح للاسكندر المقصود بالحكم بالتجربة التالية.

جاء بجلد متغضن غير مدبوغ وبسطه على الأرض وطيء حافته فأرتفع في موضع. وهكذا كلما وطيء جزءاً، ارتفع جزءاً. ثم وضع قدمه فوق مركز القطعة فاستقرت القطعة على الأرض دون ان يرتفع منها شيء. وقد قصد من هذا أنه يجب ان يسكن في وسط امبراطوريته وان لا يقضى وقتاً طويلاً في حدودها.

أمتدت رحلاته النهرية سبعة أشهر. وعندما بلغ البحر أبحر الى جزيرة سماها [سكليستوس Scillestus] وسماها آخرون [پسلتيّس Psiltucis] وفيها ضحىّ للآلهة وادى ما تيسر له من المراسيم الدينية، بسبب طبيعة البر وساحله خير المأمونة. وبعد أن التمس من الآلهة بان لاتدع رجلاً غيره يتعدى حدود مملكته التي فتحها بجيشه. أمر اسطوله بالعودة. وعين نيارخوس اميرالاً، [واونسكربتوس] رئيس الملاحة. ومخر العباب وساحل الهند عن يمينه أما هو فعاد

عن طريق البرّ ماراً ببلاد [اوريتيس Orites] وعانى مشقة كبيرة من جيش قوامه مائة وعشرون ألفاً من الرجال، خمسة عشر ألفاً من الخيالة، لم يعد من الهند إلا الربع وقد فقدته بسبب الأمراض وسوء الطعام والحرارة المحرقة. وبالأخص الجوع. كانت مسيرتهم عبر أراضي بور سكانها فقراء يعيشون عيشة ضنك ولا يملكون إلا النزر اليسير من الاغنام والتي هي من ارداد الانواع. ولحمها عفن غير صحي لأنها تقتات على السمك البحري.

بعد ستين يوماً من السير في بلغ الاسكندر [گدروسيا Gedrisia] حيث وجد الوفير من كل شيء هبأه له ملوك البلاد وحكام الاقاليم المجاورة حال سماعهم بمقدمه. فراح جيشه هنا ثم واصل السير في [كرمان] وهو بأدب ويحتفل طول الطريق زهاء سبعة ايام متواصلة. وشاركه اصداؤه فراحوا هم أيضاً يقيمون المآدب والحفلات ويقصفون ويشربون اثناء الليل اطراف النهار، فوق منصة نصبت على صقالة ضخمة تجرها ثمانية من الخيل جراً بطيئاً، ويسير خلفها عدد كبير من العجلات غطي بعضها بالارجوان والمظلات المطرزة وبعضها زين بالاغصان الخضراء التي كانت تستبدل باستمرار قبل ان تزدوى وفيها بقية اصداؤه وقواده يشربون تتوج هاماتهم أكاليل الزهر. فما عدت ترى اثرأ لدرع او ترسا او خوذة او رمح. بل تجد بدل الدرع الكأس والطاس واوعية الشراب [التركلينية Therician] التي كانوا يغطسونها طول الطريق في الجرار الكبيرة والقصاع ثم يسرب بعضهم نخب صحة الآخر، بعض راكب وبعض راجل والجو كله ترجع اصداء المزمارة والسرناي والأغاني وأوتار القيثارة. والنسوة يرقصن كأنهن في صلاة لباخوس. هذه المسيرة المضطربة والفوضى الى جانب الشراب وكل ما نتصوره من المزاج واللعب والعريضة الباخوسية. كأن الأله نفسه قد حضر لتصدر الاحتفال وتشجييعه.

وفور وصول الاسكندر القصر الملكي في [گدروسيا] أراح نفسه وأمر بالمآدب والحفلات لجيشه. وفي يوم ما بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر - قيل أنه خرج لرؤية مسابقة في الرقص نال [باغواس Bagoas] فيها المرتبة الأولى فأجتاز المسرح وهو في ثياب الرقص وجلس الى جانب الملك مما سر له المقدونيون حتى بدأوا يهتفون ويصيحون طالبين منه معانقة [باغواس] ولم يتوقفوا عن التصفيق والهتاف حتى أحاط الاسكندر عنقه بذراعيه وقبله.

هنا جاءه اميراله [نيارخوس] واشاع السرور في نفسه عندما قص عليه رحلته البحرية. حتى انه قرر أكمال رحلته بحراً حتى فم الفرات باسطول كبير يدور به حول جزيرة العرب وافريقيا ثم يدخل به البحر المتوسط في اعمدة هرقل. ولأجل ذلك أمر ببناء مختلف انواع السفن في [تباسقوس] وجمع كميات كبيرة من الارزاق والبحارة والملاحين من كل مكان. لكن

انباء المصاعب التي عاناها في حملته الهندية والمخاطر التي تعرض لها شخصياً على يد [الماليين] والخسائر الفادحة التي فيما بها جيشه والشك العام بخصوص سلامته فسح المجال للثورة بين كثير من الشعوب المغلوبة ولأعمال الظلم الفادح والاستغلال. والاهانات التي كان حكام الاقاليم والقادة يصبونها على رؤوسهم لذلك فقد بدأ التملل بذر قرنه وروح الثورة تستنفذ بين كثير من الشعوب المقهورة. وبدا الميل العام الى التغيير واضحاً حتى في الوطن نفسه فقد ألبت (اولمپياس) و(كليوپاترا) حزباً ضد (انتيباطر) وقسمتا رقعة حكمه فيما بينهما. فحازت الأولى (ايبروس) واستأثرت الثانية بمقدونيا. وعندما ابلغ الاسكندر بذلك قال ان أمه أختارت أحسن الاقليمين لأن المقدونيين لا يحتملون قط حكم امرأة، وعلى أثر ذلك ارسل نيارخوس ثانياً الى الاسطول وأمره بشن الحرب على بلاد الساحل. وكان في اثناء مسيرته البرية، ينزل العقوبات بالقادة والحكام الذين أساءوا التصرف ولاسيما اوكسيارتس Oxyartus احد ابناء (ابوليتس Abuletes)، فقد قتله بطعنة رمح وعندما قدم له هذا ثلاثة آلاف تالنت من النقد المصكوك بدلاً من الارزاق التي كان ينتظرها منه. القاها الى الخيول وقال:

- اي نفع ترى في هذه الارزاق.

ثم اودعه السجن.

بلغ الاسكندر بلاد فارس، فوزع النقود على النساء جرياً على عادة ملوكهن عند قدومهم هذه البلاد في زيارة. اذ يمنحون كل انثى بالغ قطعة واحدة من الذهب. وبسبب هذه العادة قيل ان بعض هؤلاء الملوك ما كان يزور هذه البلاد الآماماً بسبب هذه العادة. وكان [اوخوس Ock-US] احد ملوكهم يخيلاً طماعاً فلم يزر مسقط رأسه طوال فترة حاكمه لئلا يضطر الى تطبيق هذه العادة.

وجد الاسكندر قبر [كورش] مفتوحاً ومسروقاً فأمر بقتل الفاعل [بوليماخوس Polymachos] وكان مواطناً مقدونياً من [پللا Pella]، له مكاتنه وشهرته. وبعد أن قرأ النقش على الضريح أمر بأن تنقش الكتابة التالية في الاسفل، باللغة اليونانية:

«ايها الانسان كائناً من كنت، ومهما كان موطنك (لأنني اعرف من اين جئت)، أقول لك أنا كورش مؤسس امبراطورية الفرس، لاتحسدني على هذا القطعة الصغيرة من الأرض التي تغطي جسدي».

وقد هزت هذه العبارة مشاعر الاسكندر ومست اوتار قلبه وملأته بالقلق والكآبة والأيمان ابعد ارستقراطية في احوال البشر. وكان الفيلسوف [كالانوس] يشكو إذذاك من مرض في

المثانة شعر به لفترة قصيرة من الزمن فرجا الملك أن تقام له محرقة فأقبل حيث نصبت وهو ممط حساناً وبعد ان تلا صلاة ورش نفسه بالماء وقطع حصلةً من شعره وقذفه الى النار قبل صعوده اليها، عانق المقدونيين الموجودين عناق الوداع الأخير واستأذنهم، وطلب منهم ان يقضوا ذلك اليوم في لهو وانسراح وأن يسودهم روح الالفة والمحبة للملكهم الذي لايشك في انه سيلقاه ثانية وبعد زمن قصير.

في بابل! وبعد أن فرغ من قوله استلقى فوق المحرقة وغطى وجهه ولم يأت بحركة عندما اقترب اللهب منه وظل ساكناً حتى خرجت روحه، وضحيًا بنفسه على عادة فلاسفة هذه البلاد القديمة. وقد أقدم هندي آخر على هذا العمل بعدها بسنوات عديدة، في اثينا حيث جلبه القيصر معه. وما زال الناس حتى يومنا هذا يشيرون لها «نصب الهندي» هناك.

بعد عودة الاسكندر من المحرقة دعا عدواً كبيراً من اصدقائه وكبار ضباطه للعشاء واقترح مباراة في شراب الخمر يقدم فيها للفائز تاج فشرّب [پروماخوس Promachus] اثني عشر غالوناً من الخمر وريح المجائزة. وكانت تالنتاً واحداً. لكنه مات بها بعد ثلاثة ايام. ولحق به على ما يقول (خاريس) - احد واربعون بسبب افراطهم في الشرب. وحلّ بردٌ شديد جداً بعدها بقليل.

في سوسه تزوج [الاسكندر] من [ستاتيرا Statira] بنت [داريوس] واحتفل كذلك بزواج اصدقائه، مانحاً انيل السيدات الفارسيات، لأفضل المستحقين منهم. وجعل ذلك مناسبة لتكريم المقدونيين الآخرين الذين سبقوا اقرانهم في الزواج. ذكر ان عدد المدعوين الذين حضروا هذه الوليمة كان زهاء تسعة آلاف. أعطى لكل واحد منهم كأس ذهب للقرايين. ويتجاوزنا المناسبات الأخرى التي أظهر فيها اعماله العجيبة، نذكر انه دفع ديون افراد جيشه التي بلغت تسعة آلاف تالنت وثمانمائة وسبعين. من جيبه الخاص. إلا ان [انتيگينس] الذي فقد إحدى عينيه لم يكن مديناً لأحد لكنه سجل نفسه في قائمتهم وأتى بشخص زعم ان دائنه وانه امدته بالمال من المصرف، فتسلم المال. ومالبث حيلته ان انكشفت فتميز الاسكندر غيظاً وطرده من البلاد وجرده من رتبة القيادة مع انه كان جندياً ممتازاً وشجاعته لا تنكر. ففي زمن شبابه كان تحت امره [فيليب] في حصار [پيرنتوس Perinthus] فاصابه سهم منجنيق في عينه، فأبى أن ينزع ولم يترك ميدان القتال حتى صد هجوم العدو وارغمه على التراجع والدخول الى المدينة. لذلك لم يكن في وسعه تحمل الذل والعار باي قدر من الصبر، وكان متوقعاً ان الحزن واليأس سيدفعانه الى قتل نفسه. فخشي الملك هذه العاقبة ولك يكتف بالعفو عنه وانما تركه يستمتع بالمال الذي عاد اليه من حيلته.

وشاع السرور العظيم في نفسه للتقدم الذي اخمده الصبيان الثلاثون الفاً الذين تركهم وراءه بين ايدي المدرسين والمعلمين فقد اشتدت سواعدهم وحسنت وجوههم، وصاروا يؤدون تمارينهم ببراعة وضفة مدهشتين. فاغتم المقدونيين للاهتمام الذين ابداه الملك بهم وخافوا ان يصبحوا لديه ثانوين. وعندما شرع في اعادة الزمن والعجزة والمشوهين من الجنود الى الوطن بحراً.

احتجوا قائلين: ان هذه المعاملة خلت من العدالة، والتقدير فبعد أن نالت منهم الخدمة العسكرية ما نالت في تلك الظروف الصعبة ها انهم يعاملون بزراية واحتقار فينتقلون الى الوطن ليعيشوا بين اقربائهم واصدقائهم عيشة اسوء مما كانوا يعيشونها قبل مغادرتهم اياه. لذلك فخير له ان يستغني عنهم جميعاً وان يعتبر مواطنيه المقدونيين سقط متاع لا يرجى منهم نفع بعد أن اصبح لديه عدد كاف من الراقصين الصبيان، بامكانه ان شاء أن يقودهم لفتح الدنيا.

فوتخهم أشدّ توبيخ ثم طردهم من حضرته وأسلم واجب الحراسة للفرس واختار منهم الحجاب والحرس. وتلاشت معنويات المقدونيين عندما وجدوا انفسهم متبوزين مجلدين بالعار، وملكهم يصاحب هؤلاء الرجال. وبلغت الغيرة والحقد بهم حدّ الخبال. ثم ادركهم الندم وقصدوا خيمة الاسكندر عزلاً وليس عليهم غير ثيابهم الداخلية يبكون ويصرخون طالبين منه ان يعاملهم المعاملة التي تستحقها وضاعتهم وجحودهم، فلم يفدهم ذلك. على ان غضبه انفضاً بعض الشيء. لكنه ابى استقبالهم فلم يتفرقوا وظلوا حيث هم يومين وليلتين كوامل يتباكون ويتنادبون ويتوسلون به ان تداخله الرحمة منهم وفي اليوم الثالث خرج اليهم وتبين حالة الذلّ فيهم فبكى ملياً ثم شرع يلومهم برقة، وبعدها أخذ يحادثهم بلطف. ثم انه سرّح من لم يعد صالحاً للخدمة مزوراً بعطايا كثيرة. وموصياً انتياطر ان يكرم مشواهم عند عودتهم الى الوطن فيخصص لهم أحسن المقاعد وأقربها عند حضورهم الاحتفالات العامة والمسارح وان يتوجوا بأكاليل الزهر وغير ذلك من ضروب التكريم. وأمر ان يصرف للصبيان الذين فقد آباءهم في الحرب رواتب آبائهم بانتظام.

بعد وصوله [اكبتانا] وانجازته الاعمال العاجلة انصرف الى تسليية نفسه باقامة الحفلات العامة وضروب النشاط الفني وحشد لذلك ثلاثة آلاف فنان وممثل استفدمهم من اليونان ولكن منهاجه هذا قطع فجأة بمرض [هيفاستيون] بالحمى كان [هيفاستيون] جندياً وشاباً فلم يسعه تقييد نفسه باصول العلاج والحماية. وانتهاز فرصة ذهاب طبيبه [گلاوكوس Glaucus] الى المسرح فأكل دجاجة وشرب مقداراً كبيراً من الخمر فتفاقم المرض وساءت حالته وتوفي بعد قليل. وبلغ الحزن بالاسكندر مبلغاً عظيماً حتى خرج به عن طوره. واظهاراً لمدى حزنه أمر

برادء الملك ويعتمر يتاجه ويجلس حيث وجدوه ولا يتفوه بكلمة. عندما سمع الاسكندر بهذا، أمر به فقتل بعد استشارة العرافين.

وعلته الكآبة وفقد ثقته بحماية الآلهة ومعنويتها وزاد شكه في اصدقائه وكان أعظم مخاوفه متأتيةً من [انتبياطر] واولاده وأحدهم [ايولوس Iolous] هو رئيس سقائه والآخر [كساندر] كان قد ربي تربيةً اغريقية صرفة. رأى لأول مرة البرابرة يقدمون فروض العبادة للملك فلم يتمالك نفسه من الضحك عليهم بصوت مسموع فأغضب الاسكندر الذي امسك به من شعره بكلتا يديه وأخذ يضرب الحائط برأسه. وفي مناسبة أخرى قال [كساندر] شيئاً في معرض الدفاع عن [انتبياطر] في وجه متهميه فقاطعه الاسكندر قائلاً:

- ما هذا الذي تقوله؟ أو تظن الناس يتكبدون عناء مثل هذه الرحلة الافتراء على ابيك. ان لم يصبوا باذى؟

فأجابه [كساندر]: ان سفرهم الطويل الذي ابعدهم عن دليل الاثبات، لهو شهادة بزيغ التهم. فابتسم الاسكندر وقال: ذلكم هو شيء من سوفسطائية ارسطو فهو قول يصلح لطرفي في القضية.

ثم اضاف يقول: سأنزل بك وبوالدك اشد العقاب اذا ثبت ارتكابكما أقل الظلم بحق الشاكين. أحدث هذا التهديد أثراً من الرعب في كساندر لم يقو الزمن على ازالته. فبعد مرور سنين عديدة وصيرورته ملكاً على مقدونيا وسيّد اليونان كان يتمشى يوماً في دلفي ويتأمل التماثيل فيه وما ان وقعت عيناه على تمثال الاسكندر حتى استبد به القلق الشديد وراح جسمه يرتجف من اعلى الى اسفل وزاغت عيناه ودارت به الأرض. ولم يعد الى وضعه الطبيعي الا بعد زمن.

ما أن ركبت الاسكندر المخاوف من سلطان ما وراء الطبيعة حتى غمّ على عقله وأصبح ينزعج لاتفه الحوادث اذ كان يرى فيه نذيراً أو بشيراً. وأكثرت بلاطه بالعرافين والكهان الذين لم يعد لديهم عمل غير التضحية والتطهير وكشف المستقبل. ما اقبح الشك والاستخفاف بالقوى الالهية. وما اقبح الايمان بالخرافات فهو كالماء المنخفض المستوى، يندفع ولا يقف في جريانه لميلاً العفو بالمخاوف التافهة والحماقات. تلك كانت حالة الاسكندر. لكن اجوبة معينة وردته من العراف بخصوص [هيفاستيون]. نبذ احزانه جانباً وعاد الى معاقره الخمر وتقديم الاضاحي. بعد أن انتهى من مأدبته الفخمة التي ادبها [لينارخوس] واستحم كعادته قبل ان يأوي الى فراشه خرج ليتعشى مع [ميسوس Mesius] بناء على الحاحه في الرجاء واستمر

يقطع اعراف وذبول كل خيله وبغاله ويهدم اسوار كل المدن المجاورة وصلب الطبيب المسكين ومنع النفع بالناي والضرب على أية آلة طرب في المعسكر لفترة طويلة الى ان جاءته نبرة عراف آمون التي فرضت عليه اكرام [هيفاستيون] والتضحية له كما يضحي للباطل، وترائ له ايضاً ان الحرب قد تصرف عنه احزانه فأنطلق الى قنص الرجال ومطاردتهم ووقع [بالكوسيين Cossaeans] وافناهم بحدّ السيف وسميت وقعته معهم «بالتضحية لخيال هيفاسيتون واعتزم ان ينفق على بناء ضريحه ونصبه التذكاري عشرة آلاف تالنت. وقرر ان تكون روعة التصميم وجمال الصنع مما يزيد عن نفقات واختار من بين النحاتين [ستاسكراتيس Stasicrates] لأنه كان يخرج دائماً بشيء جديد غير مسبوق في تصاميمه. التقيا مرة فقال النحات له: ان جبل آتوس في تراقيا هو أصلح كل الجبال التي عرفها لنحتته وتهذيبه ليكون على شكل انسان فان اعجبه المشروع فبإمكانه ان يجعل من هذا الجبل اجمل وابقى تمثال بشر في العالم، يمسك بيده اليمنى مدينة نفوسها عشرة آلاف ويخرج من يسراه نهر غزير المياه ليصب في البحر. وقد رفض الاسكندر مشروعه، الا أنه صار يصرف جل اوقاته مع النحاتين والصناع لاستنباط تصاميم وابنية أكثر فخامة وروعة.

وكان في طريقه الى بابل عندما وصل [نيارخوس] مصب نهر الفرات، فانبأه بأن بعض العرافين الكلدانيين الذين التقى بهم حذروه من ذهاب الاسكندر الى بابل. إلا أنه لم يأبه واستمر حتى اذا بلغ اسوار المدينة شاهداً اعداداً كبيرة من الغربان يقاتل أحدها الآخر في الجو، وسقط بعضها بالقرب منه. واسرّ اليه احدهم ان [ابولودوروس Appollodorus] حاكم بابل قدم قرباناً ليعرف ما سيكون مصير الاسكندر. فارسل يستقدم الكاهن [فيتاغوراس] فأكد له صحة الخبر فسأله: باية حال وجد الأضحية؟ فقال كانت شحمة الكبد معيبة فقال الاسكندر:

- بشير خير عظيم دون شك!

ولم يتعرض للعراف بسوء، الا ان الاسف ادركه لأنه أهمل تحذير [يفارخوس] وانفق جل وقته خارج المدينة، ينقل سرادقه من موضع الى آخر، ويمخر عباب الفرات جيئةً وذهاباً. وصارت تقلقه ظواهر طبيعية أخرى منها ان حماراً مروضاً هجم على أكبر واجمل أسوده فقتله بنفسه من رجله. ونزع ثيابه ذات يوم ليدهن جسمه وكان يلعب بالكرة ولما راحوا لجلب ثيابه لمح الشبان اللاعبون رجلاً مرتدياً ثياب الملك وتاجه على رأسه يجلس ساكناً على عرشه. فتقدموا منه وسألوه عمن يكون فظلّ برهة لا يجيب ثم افاق من استغراقه وقال انه اسمه [ديونيسيوس] وانه من [مسينيا] وقد جيء به من الساحل لجرمة اتهم بها وله في السجن مدة طويلة، حتى ظهر له [سيرابيس] وحرره من اغلاله وقاده الى هذا المكان وامره ان يشتمل

يشرب الراح لديه حتى اليوم التالي واصيب بالحمى التي لازمته حتى وفاته. ولم يسكن سببها شربه من وعاء هرقل كما كتب بعضهم، ولم يشعر بأي ألم فجائي في ظهره كما لو كان قد أصيب بطعنة رمح فكل هذا في مستنبتات بعض المؤلفين الذين توهموا أن الواجب يقضي عليهم حشر عظيم الاحداث في العضل الأخير من عمر الاسكندر، محرراً للعواطف مأساوياً. ويحدثنا [ارسطوبولس] ان سعار الحمى زاد في عطشه فشرب غالوناً من الخمر وراح على اثرها يهذي وتوفي في الثالث عشر من شهر [دايسوس Daesius].

الآن المدونات التي وصلتنا تفصل الأمر بالشكل التالي:

في الثامن عشر من الشهر، نام في حمامه بسبب الحمى. وفي اليوم التالي استحم ونقل الى غرفته الخاصة وقضى وقته يلعب [ميدوس] الشطرنج. وعند المساء استحم ثانية وصحا واكل ما رغب في آكله ولازمته الحمى طوال الليل. وفي العشرين أكمل التضحيات المعتادة واستحم واستلقى في الحمام مستمعاً الى تقرير [نيارخوس] عن رحلته وعن ارساده في البحر الأعظم، وقضى اليوم الحادي والعشرين كذلك، وكانت حرارته في صعود. وتألم كثيراً اثناء الليل. وفي اليوم التالي بلغت الحمى اوجها فرفع ونقل الى سريره والقريب من الحمام الكبير، واجتمع بكبار ضباطه وتداول معهم حول انتقاء رجال ملائمين لملء الشواغر في الجيش. وساءت حاله جداً في اليوم التالي (الرابع والعشرين) ونقل من سريره للمشاركة في التضحية، واصدر أمراً بان يبقى جنرالاته في حالة انذار في البلاط. وان يقوم صغار الضباط بالخفارة خارج القصر، وفي اليوم الخامس والعشرين نقل الى قصره على الضفة الأخرى من النهر، ولم ينم الاً سيراً. على ان حرارته بقيت كما هي. وعندما دخل قواده الى غرفته وجدوه هامداً لا يقوى على الكلام. وظل كذلك طول اليوم التالي. وظن المقدونيون انه قضى نحبه فأندفعوا بصياح عظيم الى مداخل القصر، وهددوا اصدقاءه حتى اضطر هؤلاء الى اخلاء الطريق لهم وادخلوها جميعاً وهم عزل حتى فراشه. وفي اليوم نفسه ارسل [پيتون Python] وسلوقوس الى هيكل [سيراييس] للاستفسار عما اذا كان يجب ان ينقل الاسكندر اليه. فأجابهم بالنفي. وفي مساء الثامن والعشرين لفظ آخر أنفاسه. معظم هذه الرواية منقولة حرفاً بحرف من اليوميات.

في حينه لم يقم اي شك حول تسميمه ولكن قبل بعد ست سنين واستناداً الى بعض الاشاعات ان [اولمپياس] قتلت كثيرين وذرت رماد بقايا [ايولاوس] الذي كان قدمات، كأنها تنفذ فيه حكم الموت. لكن اولئك الذين يؤكدون بأن ارسطو نصح [انتيباطر] بأن يقدم على دس السم، وان السم جيء به عن طريقه، يوردون اسم [هاگنوتيميوس Hagnothemi-

[US] مرجعاً لهم، ويقولون انه سمع [انتیگونس] الملك يرويها ويضيف السم بأنه كان سائلاً بارداً كالثلج استقطر من صخرة في ناحية [نوناكريس Nonacris] وجمع كما تجمع قطرات الندى الرقيق القوام وحفظ في حافر جحش لكونه شديد البرودة يخترق كل اناءٍ يحتويه غير هذا. ومهما يكن فالغالبية ترى انها حكاية موضوعة. ان الجسد بقي طرياً نقياً البشرة طوال فترة النزاع الذي نشب بين ضباطه واستمر عدة أيام. ولم يظهر عليه اي اثر للتفسح والفساد مثلاً مع انه ظل مسجى في موضع صغير شديد الحرارة والرطوبة. هذا يقوم دليلاً لا يستهان به على كذب الرواية.

كانت [روكسانا] حاملاً. ولهذا السبب حباها المقدونيون بالتكريم وكانت تغار من [ستاتيرا] فبعثت تستقدمها برسالة مزيفة من الاسكندر كأنه ما يزال حياً وعندما وقعت في قبضتها قتلتها هي وأختها واقت بجثتيهما في بئر واهالوا التراب عليهما. وكان [پرديكاس] يعينها في ذلك. وقد مارس سلطاناً عظيماً بعد موت الاسكندر ملقباً نفسه بـ[اريدايوس Arrhidæus]. ولم يكن في حياته غير حارس شخصي اما [اريدايوس] ابن فيليب من امرأة خاملة النشأة اسمها [فيلينا Philinna] فقد كان ضعيف العقل، لا بسبب عاهة في عقله أو بدنه (بالعكس فقد تميز في طفولته بالخلقة السليمة، والعقل السوي) بل بسبب حالة مرضية على اثر تناوله ادوية كانت [اولمپياس] تسقيها له فاتلفت صحته وعقله.

١٩٧١/١٢/٢٢



كلوديوس  
(حوالي ٤١ ق.م.)



قيصر

يوليوس قيصر

CAESAR

(Gaius Julius)

101 \_ 44

ضحك [قيصر] من القرصان عندما حدوداً فديته بعشرين تالنتاً وهزء بهم قائلاً أنهم لم يقدرُوا قيمة أسيرهم تقديراً صائباً وتعهد لهم من تلقاء نفسه ان يرفع الفدية الى الخمسين وارسل في الحال بعضهم الى عدة اماكن لجمع مال الفدية. وترك بين يدي جماعة من القرصان الكيليكين، احطّ خلق الله، وأكثرهم تعطشاً للدم، وليس معه غير ضلّ واحدٍ وخادمين. وكان يحتقر أسريه ولا يأبه بهم حتى انه كان وقت نومه يرسل اليهم أمراً بالآ يحدثوا صوتاً. وظل يسرح ويمرح بينهم زهاء ثمانية وثلاثين يوماً، ويروح عن نفسه بمشاركتهم في العابهم وتمارينهم كأنهم ليسوا اسريه بل حراساً له. وكان ينظم القصائد ويكتب الخطب ويسمعهم اياها. ويصيح في وجه من لا يبدي اعجابيه بها بأنه جاهل بربري، وكثيراً ما كان يهددهم بالشنق على سبيل المزاح، — كثيراً ويعزون انطلاقاته هذه في الحديث الى نوع من السذاجة والجرأة الصبيانية. ووردت فديته من [ميليتس Miletus] فدفعها وأطلق سراحه فشرع فوراً في اعداد بعض السفن في ميناء [ميليتس] وأنطلق يطارد القرصان وباغتهم مع سفنهم وهم بعدُ في الجزيرة واسر معظمهم وأستولى على اموالهم وادع الأسرى سجن [برغاموس] وراجع [جونوس Junius] الذي كان وقتذاك حاكم آسيا، لتحديد عقوبتهم بمقتضى صلاحيته باعتباره [پريتورا] ولطمع [جونوس] بالمال (وكان كبيراً) أخذ يماطل في تقرير مصير السجناء، فما كان من قيصر الأ وعاد الى [برغاموس] وأمر باخراج القرصان من السجن وصلهم - عقوبة طالما كان يهددهم بها لما كان أسيراً عندهم فلا يحملون بأنه كان جاداً.

في الوقت نفسه بدأ سلطان [سللاً] ينتابه الضعف فنصحها اصداقائه بالعودة الى روما. الآ انه سافر الى [رودوس] وانتمى الى مدرسة [اپولونيوس] ابن [مولون Molon] معلم البلاغة والبيان الشهير. وكان رجلاً معروفاً بالعلم والفضل ومن تلاميذه [شيشرون].

قيل ان [قيصر] خلق ليكون رجل دولة وخطيباً في الوقت نفسه، فقد زودته الطبيعة بكل مقوماتهم وحكمت عليه ان يتكبد العناء ويركب الصعاب في صقل مواهبه فيحوز المرتبة الثانية بلا شك في الخطابة. ولكن هدفه لم يكن هذا بل اختار الكفاح لأجل ان يكون الأول بين رجال الحرب والسياسة. فلم يرتفع الى مقام البلاغة التي كانت سترفعه الطبيعة اليها.

واستأثرت باهتمامه تلك الحملات والخطط التي ربح بها الامبراطورية فيما بعد. فتجده في جوابه على رسالة التقرير التي كتبها [شيشرون] بحق [كاتو]، يطلب من قارئه ان لا يقارن كتابة الجندي البسيطة ببلاغة الخطيب الذي زاد على موهبته الجميلة، انه اوقف حياته كلها على دراستها وصقلها.

عند عودة [قيصر] الى روما، إتهم [دولابلاً Dolabella] بسوء الادارة. واقبلت وفود من

## قيصر

بعد ان استتب الأمر لـ(سيللا) رغب في حمل قيصر على طلاق زوجته [كورنيليا] بنت [چنا Cinna] آخر حاكم مطلق على جميع الامبراطورية الرومانية. لكنه عجز عن تحقيق ذلك سواء باستخدام الوعد أو الوعيد فنقن من ذلك بمصادرة مهرها.

وأصل العداء بين (سيللا) و(قيصر) هو قرابة أخيرهما لـ(ماريوس). فد(ماريوس) الأب كان بعلاً لـ(يوليا) عمة (قيصر) وقد انجبت له (ماريوس الأصغر) الذي هو والحالة هذه ابن عمته. في مبدء الأمر أغفل (سيللا) قيصرًا وتجاوزته من العديد الذين فتك بهم بسبب المشاغل والاهتمامات الأخرى التي الهته عنه لكن (قيصر) بقي يلفت الانتظار بنشاطه. اذ قدم نفسه للشعب مرشحاً لرتبة الكهانة، مع صغر سنه. فلم يقدم (سيللا) على معارضته بصورة مكشوفة وأما عمد الى اتخاذ تدابير لإسقاطه. ثم شاور اعوانه في القضاء عليه. فالحوا عليه بالعدول عن ذلك قائلين، ان قتل صبي ليس شيئاً مهماً» فقال ماريوس:

- ان الذين لا يرون في الفتى (قيصر) أكثر من (ماريوس واحد، هم جهلة لا يعرفون شيئاً).

ولما بلغ ذلك (قيصر) سارع الى الاختفاء متحاشياً الظهور برحيله الى اراضي (السيين) حيث مكث فيها مدة طويلة.

كان اثناءها يغيّر مخبأه كثيراً، حتى وقع في احدى الليالي - اثناء انتقاله من بيت الى آخر بسبب سوء صحته - في ايدي جنود [سيللا] الذين كانوا يقومون بالتفتيش في تلك الانحاء للقبض على من أفلت من المذبحة، وأفلح [قيصر] مع الضابط [كورنيليوس] فأخلى سبيله برشوة قدرها تالنتان، وركب البحر متجهاً نحو [بيثينيا] وبعد مكوثه هناك ضيفاً على الملك [نيقوميديس]، عاد ادراجه إلا ان القرصان اعترضه في البحر قرب جزيرة [فارماكوزا Phar-macosa] وكان هؤلاء في تلك الفترة قد دوخوا البحار في كل مكان باساطيل كثيرة من السفن الكبيرة وما لا يحصى من السفن الصغيرة.

مدن اغريقية عديدة لتعزيز اتهامه لكن [دولابلا] بُريء. وقابل [قيصر] هذه المساندة التي نالها من الاغريق بمساندتهم في اتهامهم [يوبليوس انطونيوس] بفساد الادارة امام [ماركوس لوكولوس] پريتور مقدونيا. ونجح في هذه القضية نجاحاً الجأ المتهم الى استئناف حكمه امام تريبون روما زاعماً أنه لا يمكن ان ينال محاكمة عادلة في اليونان وفي مرافعته بروما نال قيصر ببلاغته وقوة عارضة تقديراً كبيراً ومكانة سامية. ولم يكن نصره هذا باقل اثراً من انعطاف قلوب الجماهير نحوه، بسبب دماثته ولطف حديثه الذي كان يستبطن اللباقة وحسن التقديرات لمشاعر الآخرين مما لا يتوقع صدوره من شخص في مثل عمره. وكان بيته مفتوحة في وجوه قصاده، لا ينقطع فيه المآدب والحفلات. ويتجلى فيه طراز الحياة العالي التي يحياها. كل ذلك ساهم بالتدرج في خلق نفوذه السياسي وازدياده. واستخف خصومه بتنامي سلطانه في مبدأ الأمر مقدرين أنه ما يلبث أن سلبت أن يتلاشى عندما يخلو وفاضه من المال، في حين كان آنذاك يزداد قدراً ومكانة عند العامة، حتى ثبت نفوذه ولم يعد في الامكان ازاحته. فمال بصورة مكشوفة الى تغيير نظام الحكم كله وجاء ادراكهم متأخراً بأن ليس ثم بداية تعدد تافهة عندما يقبل بها الهمة والدأب المتواصل الى اعلى درجة. وان الاستهانة بالخطر في البداية ستعجله في النهاية ما حقاً تتعذر مقاومته. وكان [شيشرون] اول من داخله الشك في غايته وهدفه وهو الاستيلاء على السلطة وتبين مزاج قيصر التأمري من خلال تفكره برقة الحاشية ولين العريكة مثله مثل الملاح الذي يتوقع هبوب العاصفة عندما يكون البحر في اهدأ واصفى حالاته. ولقد قال في هذا:

- لقد تحسست بطموحه الى السلطان المطلق في كل ما أقدم عليه من أعمال. لكنني عندما أرى شعره مصففاً بعناية كبيرة، وعندما اتابعه وهو يسوي خصلاته باصبع واحدة، لايسعني الخيل بأن في رأس هذا الرجل افكاراً ستؤدي الى تقويض نظام الحكم الروماني.

وسنعود الى ذلك بمزيد من التفصيل فيما بعد.

وكان فوزه بمنصب التريبون العسكري في عملية الاقتراح، اول دليل على تعلق الناس به. وقد جاء اسمه بين الفائزين قبل اسم [كايوس يوبليوس] نفسه. وثم دليل آخر على تعلق الجمهور به اقوى من هذا انه ألقى خطبة ممتازة في تأييد عمته [جوليا] امرأة ماريوس من الفوروم] وبلغ من الجرأة في تشييع جنازتها أن جلب صور ماريوس وابرزها للملا. أمر لم يقدم أحدٌ عليه منذ أن تفرد [سللاً] بالسلطة واعلانه ان اعضاء حزب ماريوس هم اعداء الدولة. فبدأ بعض الحاضرين يستنكر ذلك ويؤلب الخواطر ضده فرد الجمهور عليهم بصيحات تشجيع

مدوية وتصفيق ينم عجبته وسروره لاجراجه امجاد [ماريوس] من القبر بعد ان طردت هذه الفترة الطويلة.

جرت العارة في روما أن تلقى خطب تأييد في اجنازات النساء الشهيرات المتقدّمات في السن. ولم تكن ثم سابقة في تأييد امرأة صغيرة السن حتى بدأها [قيصر] بتأييد امرأته الراحلة وهذا ما زاد في شعبيته ايضاً. فلقد اجتذب مشاعر العامة اليه بأظهاره محبته لها بهذه الطريقة، وراح الناس ينظرونه رجلاً عامراً القلب بالحنان والرقّة. وبعد ان وارى زوجه التراب رحل الى اسبانيا بمنصب [كويستور] تحت أمرة بزيطور اسمه [فيتوس Vetus] ظل يذكره بالخير ويعزه الى الأخير.

وعندما تقلّد هو منصب البريتور، بادر الى ترفيع ابن رئيسه السابق الى نفس الوطنية التي كان يتقلدها عند ابيه. وبعد ختام مدته في اسبانيا عقد قرانه على [پومپيا] زوجه الثالثة وكان له من [كورنيليا] زوجه الأولى، بنت اعطاها لـ [پومپي الاكبر]. وقد اثر عنه التبذير الشديد وسعة الانفاق، حتى بلغت ديونه الفاً وثلاثمائة تالنت. وكان من رأي الكثيرين أن الانفاق الكثير سعياً وراء كسب حبّ الناس، ما هو الا استبدال الثابت الجيد، بما قد لا يكون أكثر من بديل غير مؤكد. والواقع انه كان يبتاع بالثمن الزهيد، ما لا يمكن تحديد قيمته. وعين مشرفاً عاماً على طريق [آپيا Appia] فلم يقف في صرفه عليه عند المبالغ المخصصة له من الخزينة العامة بل انفق عليه من جيبه الخاص مبلغاً كبيراً. وفي اثناء توليه منصب [الايديل] جلب عدداً كبيراً من المصارعين واتحف الجمهور بثلاثمائة وعشرين مبارزة. واما اغراقه ولحاجته في اقامة الحفلات والمهرجانات العامة وتمثيل المسرحيات فقد طمس به كل ما عمله اسلافه في هذا المجال. وكان تعلق الناس به لا يمكن وصفه الا بشدة رغبتهم وتسابقهم في اقتراح المناصب والانعامات الجديدة له.

كان في روما آنذاك حزبان سياسيان: حزب [سللاً] وهو الحزب القوي المسيطر، وحزب [الماريوس] الراحل وهو في أشدّ حالات الضعف والإنهيار. فاعتزم قيصر احياء هذا الحزب، واتخاذة حزياً له. وانتهاز فرصة اعجاب الناس به، وسمعتة الصاعدة بالحفلات التي يقيمها بصفته [ايديل] فأمر - تحقيقاً لمطلبه هذا - أن تنقل خفية صور [ماريوس] وتمثيل النصر وهي حاملة تذكارات الحرب، فتم نقلها ليلاً ونصبت في الكاپيتول. وشاهد بعضهم في صبيحة اليوم التالي هذه التماثيل — وهي تتوهج وتختال بجمالها وبالكتابات التي خلدت انتصارات [ماريوس] على الكمبري. فأدركهم العجب لجرأة من نصبها. ولم يكن من الصعب التكهّن بهويته. وانتشر النار في الهشيم وقامت الضجة الكبرى وجرت الاجتماعات العامة،



الاعتداء، والشر. وانحنى [كاتالوس] و[بيزو] باللائمة على [شيشرون] لأنه اتاح له فرصة النجاة في مؤامرة [كاتيلين] بعد ان اتاح هو نفسه للحكومة اعظم الفرص لادانة قيصر. وتفصيل الأمر هو أن [كاتيلين] لم يكن ينوي من مؤامرة احداث انقلاب كامل في الوضع السياسي فحسب، بل كان يرمي فضلاً عن ذلك الى بسط سلطانه المطلق على الامبراطورية ويقتضي على الجميع. وقد هرب قبل ان تتجمع الادلة الكافية ضده، وقبل انكشاف اهدافه النهائية انكشافاً تاماً. على انه ترك [لنتولوس] و[كثيغوس Cethegus] في المدينة لينوبا عنه في العمل. ولم يكن ثم ما يعزز الشك في انهما حظياً بتشجيع قيصر ومعاونته من طرف خفي. وكل ما في الأمر أن مجلس الشيوخ اذ ان هذين الشخصين بالاجماع. ثم طلب [شيشرون] من اعضاء المجلس أن يحددوا شكل العقوبة، فارتأى الاعضاء الذين ادلوا باصواتهم قبل قيصر أن تفرض عليهما عقوبة الموت، وحين دور قيصر فألقى خطبة معدة، جاء فيها: انه ليرى من الظلم ان تنتزع حياة شخصين كريمي المحتد لهما هذه المكانة الرفيعة قبل ان يحاكما محاكمة عادلة. وهو أمر غير مسبوق الا اذا كانت هناك ضرورة ملحة. وهو يقترح أن يحتجزا في أية مدينة ايطالية يختارها [شيشرون] حتى تتم هزيمة [كاتيلين] وعندئذ سيتاح للمجلس في الظروف السليمة أن يقرر بأناة وروية ما هو مناسب بحقهما.

وكانت عباراته تحمل كثيراً من المعاني الانسانية، وزاد من وقعها في نفوس سامعيها صياغتها البليغة، فتبنى رأيه هذا كل من تلاه، وخف الذين سبقوه الى العدول عن رأيهم الأول والموافقة على اقتراحه، ثم جاء دور [كاتالوس] و[كاتو]، للكلام فعارضا الرأي وسفهاه بشدة. وأثار [كاتو] في خطابه الشك حول [قيصر] نفسه والح في وجوب تسليم المجرمين الى نزع الجلاد الحاحاً شديداً. وبينما كان قيصر يهجم بالخروج من مجلس الشيوخ، لحق به جم غفير من الشبان القائمين على حراسة [شيشرون] انذاك، وجرودوا سيوفهم وأطبقوا عليه، الا ان [كيوريو Curio] ألقى رداءه فوجه وقاده بعيداً عنهم - على ما قيل، وشيشرون نفسه عندما التفت اليه الشباب ينتظرون قضاءه في قيصر، ابدى لهم اشارة الكف عنه، إماً خوفاً من العامة، واما لأنه كان يجد في القتل عملاً غير شرعي. ان صح هذا فلا يسعني الا العجب لاغفال شيشرون ذكر الحادث في كتابه عن قنصليته. وعلى اية حال فقد تعرض الى اللوم فيما بعد، لأنه لم يستفد من تلك الفرصة الذهبية ويتخلص من قيصر وتركها تفلت من يده خوفاً من العامة المتعلقين بقيصر والمنحازين اليه انحيازاً ظاهراً.

وبعد زمن نهض في المجلس يريد تبرئة نفسه من الشكوك التي تحوم حوله، فارتفع الضجيج ودوت صيحات الاستنكار ضده ودامت الجلسة اكثر من المعتاد بسبب ذلك، واحتشد الجمهور

واحتج بعضهم قائلاً انها محاولة مكشوفة لقلب نظام الحكم، باحياء امجاد طوتها قوانين مجلس الشيوخ ومراسيمه. وان قيصر، ما أقدم عليها إلا يجس نبض الشعب وليتأكد من مدى استعدادده، بعد اعداده لهذه النهاية وترويضه ترويضاً كافياً لاطاعة نزواته، وأن يتقبل بهدوء ما يطلع به عليهم قيصر من مخططات. ودبت الشجاعة من الجهة الثانية بمشايحي ماريوس واعضاء حزبه. وكان عجيباً حقاً أن يجد لماريوس مثل هذا العدد الهائل من الاتباع، بعد أن اخرجهم هذا العمل من مكامتهم فقد تدفقوا حشوداً الى الكايسنول هاتفين، وصار بعضهم يصرخ كالمجانين عند رؤيته صور [ماريوس]. وارتفع قدر قيصر كثيراً لأنه كان القريب الوحيد الجدير بانتمائته لماريوس من بين اقربائه الآخرين. وعلى أثر هذه الفعلة، اجتمع مجلس الشيوخ ونهض [كاتالوس لوتاتيوس Catalus Lutatius] وهو من أكبر الرومان قدراً وهاجم قيصر، وختم خطبته قائلاً:

- ان قيصر لا يحفر الغاماً لنسف الجمهورية، واما ينصب آلات هدم لتقويض صرحها، ولما اعتذر قيصر وارض مجلس الشيوخ راح اشد المعجبين به يشجعونه ويقوون من عزيمته ونصحوه بالانكص على أعقابهم ولا يتراجع عما انتواه بتأثير من الغير. مادام واثقاً انه سيتظهر على الجميع بعد زمن يسير بفضل منزلته الشعبية. فيكون الرجل الأول في الجمهورية.

في ذلك الزمان توفي [ميتلوس] الكاهن الأكبر وتنافس على المنصب الشاغر كل من [كاتالوس] و[ايساوريكوس Isauricus] وكلاهما من ذوي المكانة الرفيعة، والنفوذ الكبير في مجلس الشيوخ. إلا ان قيصر لم يتركهما في الميدان وحيدين وتقدم الى الشعب مرشحاً نفسه للمنصب وبدت الآراء والاحزاب في الظاهر منقسمة بصورة متساوية على المرشحين لا ترجح الواحد منهم على الآخر، وكان [كاتالوس] أكثرهم تخوفاً من النتيجة. ففي حالة فشله ستكون خسارته في مكانته وسمعته أكثر من المرشحين الآخرين فبعث لقيصر، يريد شراءه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال فكان جواب قيصر:

- اني على استعداد لاستدانة مبلغ أكبر مما عرضته، حتى اواصل معركة الانتخاب.

وفي اليوم المعين للاقتراع قال لأمه التي رافقته باكية حتى باب الدار:

- يا ام! هذا اليوم سيراني أحد رجلين، اما منفي، واما كاهن اعظم.

وخاض معركة انتخابية حامية، ويفرز الأصوات فاز قيصر، فأحدث فوزه موجة قلق في نفوس الاشراف واعضاء مجلس الشيوخ وخافوا أن يدفع العامة الى كل نوع من انواع

في الخارج ثم صعدوا الى دار المجلس بحشودٍ عظيمةٍ واحدقوا به وصاحوا يريدون [قيصر] ويطلبون اسقاط التهم عنه. وخشى [كاتو] من ثورة تسري بين الفقراء من المواطنين اول موقدٍ للهب بين الشعب - كما خشى أن يضعوا كل آمالهم في قيصر. فأقنع مجلس الشيوخ بالاعتراع على منحهم علاوة شهرية من القمح. وكان وجهاً من وجوه الصرف وضع الخزينة في حالة عجزٍ كبير، قدره سبعة ملايين وخمسمائة الف درهم سنوياً. الا ان نجاحه في ازالة خطر الثورة، كان عظيماً. واضعف نفوذ [قيصر] الى درجة كبيرة، وكان في ذلك الحين يوشك ان يتسلم منصب [الپريتور] ليغدو أكثر منعة وقوة بحكم منصبه.

على أن فترة [پريتوريتيه] انقضت دون ان يحدث ما يكدر، خلا ما لقيه من سوء حظٍ في اموره العائلية، وكان [پوبليوس كلوديوس] من طبقة الاشراف مشهوراً بغناه، وذلاقة لسانه على انه سبق أشهر فساق زمانه بتهتكه وخلاعته. وقد وقع في غرام [پومپيا] زوج قيصر ولم يجد منها صدوداً. وفرضت رقابة شديدة على مشاها. ولازمتها والدة قيصر [اوريليا] وهي امرأة صارمة، ولم تفارقها لحظة واحدة مما جعل اي وصال بين الآتين يتسم بالخطورة والصعوبة. وكان الرومان يتعبدون لآلهة انشى يطلقون عليها اسم [بونا Bona] وهي التي يسميها الاغريق [غينياكيا Gynaecea]. والفريجيون الذين ينادونها باسم غريب، يدعون انها امّ [ميداس] ويقول الرومان انها واحدة من ال[درايد Drydes] تزوجت [فاونس Fau-nus] ويؤكد الاغريق بأنها والدة [باخوس] الذي يحب الا ينطق باسمها. ولهذا السبب فان النسوة اللاتي يحتفلن بعيدها، يعمدن الى تغطية الحميم باعضان الكرم. وتمشياً مع الخرافة، توضع حية مقدسة الى جانب صورة الآلهة. ويحظر على الرجل ان يكون قريباً او أن يكون في البيت عندما تقام الشعائر الدينية بهذه المناسبة. فالنسوة وحدهن يقمن بها ويقال ان المراسيم لا تختلف عن تلك التي تقام في عيد [اورفيوس Orpheus]. بحلول يوم العيد يترك الزوج الذي يكون إما قنصلاً أو پريتورا. بيته مع كل الذكور الموجودين فيه، فتتوب الزوج منابه في الاشراف عليه. وتقام المراسيم ليلاً، ويتلهى النسوة فيما بينهم باللعب عند توليهم الخفارة وتصدح انغام الموسيقى في ارجاء الدار دون انقطاع. واراد [كلوديوس] ان ينتهز فرصة احتفال [پومپيا] بهذا العيد، فخيّل له ان يستطيع الدخول الى دارها دون ان يفتضح أمره، فتنكر بثياب مغنينة وتزين بحليها وحللها فبدأ وكأنه فتاة لأن لحيته لم تثبت بعد واقبل ليجد الأبواب مفتوحة وخادم پومپيا بانتظاره، فأدخلته في الحال. وأسرعت لابلاغ سيدتها، لكنها تأخرت، فداخله القلق، وترك موضعه وأخذ يتجول في الدار من غرفة متحاشياً للنور، والتقت به أمة [اوريليا] ودعته للعزف معها، جرياً على عادة النسوة.

فأبى فدفعته امامها وسألته عن يكون ومن اين جاء. فقال انه ينتظر [أبرا Abra] خادم [پومپيا]. وهو اسمها الحقيقي ففضحه صوته الخشن فصرخت الخادم وهربت حيث النساء مجتمعات واخبرتهن بوجود رجل في الدار. فأخذ الرعب مأخذه من سائرهن وغطت [اوريليا] الاشياء المقدسة ووقفت الطقوس والمراسيم وأمرت باغلاق الابواب وانطلقت دون نورٍ تبحث عن [كلوديوس] الذي كان قد التجأ الى غرفة خادم [پومپيا] وكبسته هناك. وتعرفت عليه النسوة ودفعنه خارج الدار. ثم ادلين بالحكاية الى ازواجهن. وفي الصباح تبين ان الخبر منتشر في ارجاء المدينة، والناس كلهم يتحدثون بمحاولة [كلوديوس] السافلة ويطالبون بانزال العقاب به لانه مجرم تجاه الاشخاص الذين تلم شرفهم وتجاه الرأي العام والآلهة جميعاً. فرجع أحد التريونات الشكوى ضده واتهمه بتدنيس الشعائر الدينية.

واتفقت كلمة طائفة من الشيوخ عليه، وادلوا بشهادات ضده واتهموه بعدد من الجرائم المخزية. منها موقعة أخته، التي هي زوج [لوكلوس]. الا أن الجمهور وقف ضدّ هذا الاتهام وادفعوا عن [كلوديوس]. مما كان له لاثره الكبير في نفوس القضاة، فقد ذعروا وخافوا سوء العقاب ان هم جرحوا مشاعر العامة. وأسرع [قيصر] فطلق [پومپيا] لكنه دعي كشاهد اثبات ضد [كلوديوس] فقال أنه لا يتهمه بشيء. وبدا هذا تناقضاً منه وسأله رافع الشكوى:

- اذن ما الذي دعاك الى طلاق زوجك؟

فأجاب قيصر: لا اريد أن تكون زوجي أكثر من مظنونة.

قال بعضهم ان جواب قيصر كان واقع ما يشعر به فعلاً، وقال آخرون انما اجاب بذلك ارضاء للعامة الذين عقدوا النية على انقاذ [كلوديوس] وعلى اية حال فقد برءي. لأن القضاة اعطى رأيه مكتوباً بشكل يتعذر قراءته، وقد تعمدوا ذلك حتى يكونوا بمأمن من العامة، ولكي لا يصيبهم عار أمام الاشراف باخلاتهم سبيله.

وعين حاكماً لاقليم [اسپانيا] بمقتضى منصب [الپريتور] الذي يتقلده. إلا ان اوضاعه المالية كانت في غاية الارتباك مع دائنيه الذين تكالبوا عليه قبيل سفره وهم يلحون ويلحفون، فلم ير بدأ من مراجعة [كراسوس] أغنى اغنياء روما وكان هذا بحاجة الى عزم [قيصر] الفتي لإسناد المعارضة التي يتزعمها [كراسوس] ضدّ [پومپيا] فتعهد له بارضاء أكثر الدائنين الحافاً، وسداد جميع الديون التي لم تعد تحتمل التأجيل ودفع عنه مبلغاً قدره ثمانمائة وثلاثون تالنتاً، ولم يبق عائق امام سفر [قيصر] فأنطلق الى اسپانيا مجتازاً الالب. ومرّ بقرية بربرية صغيرة فيها قلة من الناس الفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً. وأخذ

ضباطه يمزحون فيما بينهم بقولهم «أيوجد هنا منافسة على الاصوات الانتخابية؟ أو نزاع حول المنصب الأول؟ أو ثارات بين كبار القوم؟». وأجاب قيصر على هذا وهو في غاية الجِدِّ.

- انا شخصياً أفضل أن أكون الرجل الأول بين هؤلاء القوم على أن أكون الرجل الثاني في روما.

وقيل انه كان يقضي اوقات فراغه في اسبانيا بمطالعة تاريخ الاسكندر، وفي احدى المرات دمعت عيونه وبكى بعد فراغه من قراءة جزءٍ فعجب اصحابه وسألوه عما ابكاه فقال:

- اما ترونه سبباً وجيهاً للبكاء عندما افكر بأن الاسكندر اخضع مثل هذا العدد من الشعوب والأمم وهو في مثل عمري في حين اني لم أنجز عملاً مذكوراً حتى الآن؟

وأظهر نشاطاً جماً حال مباشرته حكم اسبانيا. فاضاف عشر كتائب جديدة الى العشرين الموجودة. وزحف بها على [الكالايجي Calaici] و[اللوزيتاني Lusetani] واخضعهما، ثم تقدم حتى بلغ المحيط، باسطاً سلطان روما على تلك القبائل التي لم تدخل في طاعتها من قبل. وكان نجاحه العسكري الطيب يوازي نجاحه في المسائل المدنية. فقد اهتم باحلال المودة والتفاهم بين عدة دول اقليمية تابعة وازال الخلافات المحترمة بين الدائن والمدينين فأصدر قراراً يقضى بأن يتسلم الدائن ثلثي دخل المدين السنوي وترك المدين حر التصرف في الثلث الآخر حتى يتم تسديد الدين كله. كل هذا جعله لا يترك اقليميه الا وقد خلف وراءه اسماً طيباً وسمعة حسنة. وقد اغتنى وأغنى جنوده فكافأوه بأن خلعوا عليه لقب [امبراطور].

يقضي القانون الروماني على القائد المنتصر المطالب بموكب نصر أن يبقى خارج اسوار المدينة منتظراً الموافقة. ويقضي قانون آخر بأن على من يرشح نفسه للمنصب القنصلي أن يحضر بشخصه محلّ الاقتراع. وكان قيصر قد بلغ مشارف روما اثناء موعد الانتخاب القنصلي فوقع بين نارين وتحير بين القانونين. وبعث يطلب من مجلس الشيوخ أن يسمح له بانابة اصحابه في ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لاضطراره الى البقاء خارج روما. في بادئ الأمر عارض [كاتو] الطلب وكان القانون في جانبه. ولكن عندما تبين ان أغلبية المجلس تؤيد ترشيح [قيصر] دون اعتبار لصراحة القانون. حاول جهده لكسب الوقت وراح يبدد اليوم بالكلام والخطب، ففضل قيصر ان يصرف النظر عن موكب النصر وأن يتابع ترشيحه للقنصلية فدخل المدينة معلناً عن ترشيحه لنفسه، ومستعيناً بحيلة انطلت على الجميع خلا [كاتو]. فقد

نجح مسعاه في مصالحة [كراسوس] مع [پومپي] وكانا أقوى شخصيتين في روما، وبينهما خلاف شديد فنجح قيصر في ازالته. فقوى نفسه بقوتيهما المتحدتين. وحدث انقلاباً في الحكم تحت ستار العمل الطيب.

اذ لم يكن الخلاف بين [قيصر] و[پومپي] سبب تسعير نار الحرب الاهلية. بل بالأحرى اتحادهما وتأمرها من المبدأ على تدمير الارستوقراطية ولهذا نشب النزاع فيما بينهما بعدئذ. و[كاتو] الذي تنبأ أكثر من مرة بما ستكون عاقبة هذا التحالف، بدا وقتئذ رجلاً مناكداً فضولياً. ولكنه خرج بالأخير قنصلاً حكيماً بعيد النظر، الا أنه فاشل.

وهكذا تضاعف دعم [قيصر] بنفوذ [كراسوس] و[پومپي] فتسنى لمنصب القنصلية مع [كالپورينوس بيبولوس Calpurnius Bibulus] وحال مباشرته مهام منصبه أصدر لوائح ومراسيم لا تصدر عادة من القنصل بل من اشدّ التريبونات جراءة، منها اقتراحه اقامة مستعمرات [مستوطنات] وتقسيم الاراضي، ارضاء للعامة ليس الا. وعارض اللاتحة أفضل الشيوخ وأكثرهم شرفاً. فاهتبل [قيصر] الفرصة التي كان ينتظرها منذ وقت الطويل. وتسليح بهذه الذريعة الخادعة واحتج بأعلى صوته قائلاً:

«انه ليكره ان يرغم على طلب العون من الشعب، وان سلوك المجلس القاسي المهين لم يبق له غير سبيل واحدة وهي ان يوقف نفسه على رعاية مصلحة العامة وتبني مشاكلهم».

واسرع بالخروج من المجلس وتقدم من الجمهور وهو بين [كراسوس] و[پومپي] وسألهم «اتوافقون على اللوائح التي اقترحتها» فأجابوا «أنا موافقون» وعندئذ طلب منهم أن يساندوه ضد أولئك الذين هددوه بسيفهم. فردوا قائلين انهم معه. و[پومپي] قائلاً: انه سيلقى سيفهم بسيف وترس أيضاً. وامتنع الاشراف من هذا القول امتعاضاً شديداً. اذ لم يكن يليق بوقاره، ولا بالتوقير الواجب لمجلس الشيوخ. وكان بالأحرى أشبه بحماسة صبي أو هذيان مجنون. لكنه وقع موقعاً حسناً لدى العامة.

وحكم [قيصر] قبضته على [پومپي] بتزويجه ابنته [جوليا] التي كان معقوداً عليها [لسرقيليوس كيسيپو Servilius Caepio]. وارضى هذا الخطيب بأن أعطاه ابنة [پومپي] التي كانت بدورها مخطوبة [لفاوستوس Faustus] ابن [سللاً] وقد فترة تزوج قيصر [كالپورنيا Calpurnia] بنت [پيزو Piso] وظفر لأبيها بمنصب القنصل للسنة التالية. فتعالى صوت [كاتو] بالاحتجاج والسخط وقال بكثير من الحرارة.

- انه لما لا يمكن التسامح فيه قط أن تُستفحب الحكومة عن طريق الزواج، وان يدفع الفاعلون

أحدهما الآخر الى قيادات الجيوش وحكم الاقاليم وغير ذلك من المناصب الكبيرة عن طريق النساء.

ولزم [بيبولوس] زميل قيصر في القنصلية، داره يعد ما بقى له في ايام قنصليته، بعد أن عجز عن معارضة قراراته ومراسيمه الا اذا شاء ان يقتل في الفورم. وحذا [كاتو] حذوه للسبب عينه. وبعد تمام زواج [يومبي] بادر الى ملء الفورم بالجنود. واعان الجمهور في ابرام القوانين الجديدة. وامن لقيصر حكم كل بلاد الغال أعني الجزء الواقع جنوب جبال الألب والقسم الذي يقع ما وراءها، الى جانب [إيليريكوم]، وأمره على خمس فرق لمدة خمس سنوات. ويدر من [كاتو] بعض المحاولات لاحباط هذا الاجراءات فاعتقله [قيصر] واقتاده الى السجن بنفسه، وكان يتوقع منه أن يراجع التريبونيات متظلماً. ولكنه وجد [كاتو] يسير معه الى السجن طائعاً دون ان ينس بحرف وان الاستهجان لم يقتصر على الاشراف بل تعداه الى العامة. اذ راحوا يتبعون خطى [كاتو] صامتين مكتئبين اجلالاً لمقام السجين وأكباراً لفضائله وتمنى [قيصر] في تلك الساعة ان يخف أحد التريبونيات لنزع [كاتو] من يده. ومنذ ذلك الحين لم يعد يحضر المجلس الأقلة من الشيوخ. واضرب عنه الباقون وقد امتلأت أنفسهم قرفاً واشمئزاً من الوضع. وانتهز [كونسيديوس Considius] وهو شيخ عجوز في آخر العمر، فرصة يوماً ما فقال لقيصر:

- ان الشيوخ لا يحضرون المجلس خوفاً من جنودك.

فسأله قيصر: ولم لا تلازم بيتك انت ايضاً؟ مدفوعاً بذات الخوف؟

فأجابه كونسيديوس: ان عمري يعصمني من الخوف. والقليل الباقي منه لا يستأهل الكثير من الحذر.

وأكبر الفضايح التي وقعت في فترة قنصليته، هي معاونته لكلوديوس في حصوله على منصب [التريبيون]، وهو عين كلوديوس الذي حاول النيل من عفة زوجه فأقتحم بيته ودنس العبادات السرية. لقد عاونه لكي يضمن سقوط [شيشرون] فلم يغادر قيصر المدينة لقيادة جيشه الأبعد أن تغلب على [شيشرون] وطرده من ايطاليا.

نقف عند هذا الحد في تتبعنا مساعي القيصر واعماله قبل نشوب الحروب الغالية. فهذا هو ذا الآن يعود الى سلوك السبيل الذي اختطه لنفسه. لبيداً الحياةً جديدة وبياسر أعمالاً جديدة. لقد برز في هذه الحروب والحملات العديدة التي اخضع بها الغاليين، جندياً وقائداً لا يقل باي حال عن أعظم من ظهر من القادة، وأكثر من قادوا الجيوش استدراراً للإعجاب. فان نحن

قارناه بالقواد الذين انجبتهم أمر آل فابي وآل ميتيلي وآل سكيبيو. او بأولئك الذين عاصروهم أو سبقوه بقليل مثل سلالاً وماريوس ولوكولوس الاول والثاني او حتى [يومبي] الذي ارتفعت به امجاده الى السماكين لما ابداه من براعة في حروبه، فسنجد ان قيصر فاقتهم جميعاً. وقد جاء تفوقه هذا من عدة جهات. منها وعورة الأرض التي كانت ميداناً لحروبه، ومنها مساحة الاراضي التي استولى عليها. وعدد العدو الذي دحره وقوته، وشراسة القبائل واساليبها الغادرة. تلك الطبيعة التي تمكن بلطفه وملكاته من التغلب عليها واسترضائها. ومنها انسانيته ورأفته بالعدو المغلوب. ويقول آخرون ان تفوقه على القادة الذين سبقوه، انما يعود الى عطفه على جنوده وعطاياه ومكافأته لهم. والجميع يتفقون بأن تفوقه العتيدي متأت من عدد المعارك التي خاضها وكثرة الاعداء الذين أهلكهم. فقد خاض حرباً متواصلة في بلاد الغال دامت عشر سنوات كوامل وفتح عنوة ما يربو عن ثمانمائة مدينة وقوض ثلاثمائة حكومة ومن الملايين الثلاثة من المقاتلين الذين قاتلهم عن مرات. اهلك مليوناً وأسر مثل هذا العدو.

كان قيصر عطوفاً رقيقاً حسن النية تجاه جنوده وكان بارعاً في اظهار طبعه هذا باسداء كل خدمة يريدونها. حتى ان الرجال العاديين يبدون تحت امرته من الاقدام والاستماتة مما لا يمكن الوقوف في وجهه أو التغلب عليه. ولاسيما عند تعن لهم الإخطار وتحديق بهم، وكمثل على ذلك [اچيليسوس Acilius] الذي بترت يده اليمنى ضربة سيف اثناء القتال البحري قرب [مارسيليا] فلم يلق ترسه وبقي في يده اليمنى يضرب به وجوه الاعداء المهاجمين، حتى دفع بهم الى الورا واستولى على سفينتهم، ثم [كاسيوس سكيثا Cassius Scæva] الذي رشق بسهم فاصاب إحدى عينيه في اثناء القتال بالقرب من [داركيوم] ثم اصيبت ذراعه بطعنه رمح، ثم اصيب فخذة بطعنه أخرى ورشقت درقته بمائة وثلاثين رمحاً خفيفاً فنادى العدو كأنه يريد أن يستسلم. ولما تقدم منه اثنان قطع كتف احدهما بضربة من سيفه وأهوى بضربة على وجه الآخر فاجبره على الانسحاب. حتى كتبت له النجاة عندما خف اليه اصحابه. وفي ايطاليا وجد بعض ضباط الطليعة المتقدمة من جيشه، أنفسهم في مستنقع كثير المياه، وفيما هم يفكرون بطريقة للخروج هاجمهم العدو، فقتل جندي بسيفه نفسه في وسطهم - والقيصر واقف ينظر الى المشهد. وأبدى ضروياً عجيبية من الشجاعة حتى تيسر له انقاذ الضباط وهزم البرابرة. وعصي هذه الجندي في الطين بالأخير، وبعد كثير من الجهد خرج سابحاً آنأً وخائضاً آنأً، ولكنه فقد ترسه. وكان قيصر وضباطه يتابعونه بانظارهم موجبين. ثم توجهوا للقائه مبتهجين. لكن الجندي الذي كان شديد الحزن لفقدانه ترسه، القى بنفسه عند قدمي قيصر طالباً المغفرة لهذه الهفوة. ومرة أخرى استولى [سكيبيو] في افريقيا على سفينة كان

فيها [خرانيوس پترو Garnius Petro] المعين حديثاً بمنصب [كويستورا] فوزع [سكيبيو] ركاب السفينة على جنوده كغنائم حرب، ولكنه وجد من حسن الذوق ان يعتق الكويستور وبهبه حياته لكن هذا قال

- ليس من المعتاد أن يتقبل جنود قيصر الرحمة، بل أن ينجحها وانتضى سيفه وسقط عليه فمات.

ونفخ في جنود روح التفوق، وتشربوا حبه للمجد. وبتوزيعه المال والعطايا عليهم دون حساب برهن لهم انه لا يكدر الثروة التي غنمها لنفسه ولا لأجل ان يتمتع بها شخصه، بل أن ما كسبه هو ملك عام مخصص لمكافأة وتشجيع البسالة والاقدام وانه يعتبر زيادةً في غناه، كل المنح التي اعطاها للمستحقين منها جنوده. زد على ذلك أنه ما كان ليتردد قط في تعريض نفسه للأخطار من غير تعلق أو احجام أو شعور بالتعب ولم يكن جنوده يستغربون منه استهانته بالخطر لأنهم كانوا على ادراك تام بمدى حبه للشهرة إلا ان مصدر عجبهم كان همته التي لا تتناسب مطلقاً مع قابليته الجسدية وتكوينه الطبيعي فقد كان هزياً ابيض البشرة ناعمها. يشكو من الصرع لعلّة في رأسه، قيل انها اصابته في [قرطبة] لكنه لم يتخذ من نحوله ورقة بدنه سبباً للخلود الى الراحة وترف العيش. ولكنه اتخذ من الحرب علاجاً للانحراف صحته. وكافح داءه المزمن وحصن جسمه ضد كل انتكاسة بسفريات طويلة شاقة. وطعام خشن ونوم في العراء وتمارين مجهدة مستمرة. وكان عادة ينام إما في عربة أو فوق محمل يسيران به وهو يتعقب العدو. وكان ينقل على هذه الشاكلة الى القلاع والحاميات والمعسكرات ومعه خادم واحد يدون ما يمليه عليه وعريته تسير به بينما كان يقف وراءه جندي بيده سيف مجرد. وكان يسوق عريته بسرعة لا تصدق. حتى انه بلغ نهر الرون في ثمانية ايام عند رحيله عن روما لأول مرة. وبرع في ركوب الخيل منذ طفولته وكان من اهون الأمور عنده أن يعلو ظهر حصانه ويدهاه معقودتان وراء ظهره مطلقاً لمركوبه العنان بأقصى سرعته. واتاحت له الحرب ترويض نفسه على املاء رسالة وهو على ظهر جواده، وان يصدر اوامره الى كاتبين يدونان ملاحظات عنها في الوقت نفسه. ويقول [اوپيوس Oppius] بل كان يملئ اوامره على أكثر من اثنين أحياناً.

والمعتقد انه اول من استنبط وسائل الاتصال الجغرافية باصحابه واعوانه، اذ كان زخم العمل او سعة المدينة لا يدعان له وقتاً للمداولة حول الأمور الملحة العاجلة. ومن الحكاية التالية يظهر كم كان قليل الاهتمام بطعامه. دعاه [فاليريوس ليو Valerius Leo] الى العشاء في [ميلان] وعند جلوس المدعوين. وضع امام قيصر طبق فيه هليون، صب عليه سائل حلو المذاق

بدل الزيت، فأكل منه قيصر دون ان تبدو علامت قرف أو تردد وعنف اصحابه لأنهم عابوا الطعام بقوله:

- حسبكم ان لا تأكلوا ما لا تحبون أكله. لكن من يصم الآخرين بسوء التربية وقلة الذوق، يبرهن على أنه يفتقر اليهما بالأحرى.

والجأته العاصفة يوماً وهو في الطريق الى كوخ صغير لم يجد فيه غير غرفة واحدة لا تتسع لأكثر من شخص واحد فالتفت الى مرافقيه وقال لهم:

- ان مواضع الشرف يجب ان تخصص لعظماء الرجال، ووسائل الراحة الضرورية يجب ان تعطى للضعف.

وأمر أن يؤخذ [اربيوس] الى الغرفة لأنه كان مريضاً أما هو وبقية اصحابه فقد باتوا ليلتهم في العراء تحت سقيفة عند الباب.

كان اول اشتباكه في بلاد الغال مع الهلثيين Helvetian والتيكوريني Tigurini، هؤلاء احرقوا مدنهم الاثنتي عشرة وقراهم الاربعمائة، وتقدموا من خلال ذلك الجزء الغالي الذي يدخل في الاقليم الروماني، مثلما فعل الكمبري والتوتون من قبلهم، ولم يكونوا بأقل من اسلافهم هؤلاء شجاعة، ولا عدداً فهم يبلغون ثلاثمائة الف بينهم مائة وتسعون الفاً من المقاتلين واشتبك معهم [لابينوس Labienus] ولكن تحت اشراف وتوجيه قيصر، فهزمهم قرب نهر [آرار Arar] وباغت الهلثيون قيصر من حيث لا يتوقع وهجموا عليه وهو يقود قطعات جيشه نحو مدينة صديقة. على انه نجح في الانسحاب الى موقع منيع ويعد ان نظم صفوفه واستعرض رجاله، جيء له بجواده فقال:

- عندما أكسب المعركة، سأستخدم جوادي لمطاردة العدو أما الآن فلنتعرض للعدو راجلين.

وهاجمهم راجلاً وبعد معركة عنيفة طويلة الأمد، دارت الدائرة على الجيش الرئيس وطردهم من ساحة القتال. ولكن اصعب صفحة في هذه المعركة هي القتال عند موقع العجلات وأمام المتاريس فقد صمد العدو في القتال وشاركت النسوة والاطفال في الدفاع الى ان مرقوا ارباً. ولم تنته المعركة إلا عند منتصف الليل. وتوجهها بعمل مجيد يفوق نصره فيها. فقد جمع كل البرابرة الناجين وكانوا يزيدون على مائة الف واجبرهم على العودة الى مواطنهم التي تركوها ومدنهم التي احرقوها. فعل ذلك خوفاً من ان يقدم الجرمان على احتلالها واستيطانها بعد خلوها من سكانها.

وكانت حربه الثانية حرب الدفاع عن الغاليين الذين يهددهم الجرمان. وقبلها كان قيصر قد

بذل جهده في روما على أن يعترفوا بملكهم [أريوفستوس Ariovistus] حليفاً. إلا أن جيرتهم ما كانت تطاق بالنسبة إلى الشعوب الخاضعة للرومان. وكان محتملاً أن ينتهزوا أول فرصة تعن لهم ليتحللوا من التسوية التي تمّت، وليزحفوا على بلاد الغال. ووجد قيصر ضباطه يحجمون من التعرض للعدو، ولاسيما الشبان الاشراف الذين انضوا إلى قيادته أملاً في اتخاذ الحرب وسيلة من وسائل الترويح والتسلية والريح المالي الماري، فجمعهم، نصحهم بأن يعودوا إلى الوطن، وبأن لا يتعرضوا لمخاطر معركة لا يرغبون فيها ما داموا خائري العزيمة، مفتقرين إلى مقومات الرجولة. وقال انه سيزحف على البرابرة بالفرقة التاسعة لانه لا يتوقع ان يجد في عدوه قوة الرأس التي كانت عند الكمبري وانهم لن يجدوا فيه جنزلاً اقل حنكة من [ماريوس] فانابت الفرقة التاسعة وقدماً ليقدم له الشكر والتقدير لحسن ظنه فيهم وانابت الفرق الأخرى باللوم والتفريع على ضباطها. وتبعه الجيش كله بحماسة في سيرة امتدت عدة ايام حتى عسكر على بعد مائتي فرلنك من العدو. وخان [أريوفستوس] بعض شجاعته عند اقتراب العدو. اذ لم يكن يتوقع من الرومان مهاجمة الجرمان. ولم يكن يفكر بأنهم سمينبرون للدفاع عن رعاياهم على ابعد الاحتمالات. ولذلك زادت دهشته من تصرف [قيصر] وسادت جيشه حالة من الرعب زاد منها نبوءات عرفاتهم اللاتى كن يصدرن نبوءاتهن بعد مراقبة تيارات النهر واستقراء الاشارات من اصوات الغدران ومنعطفاتها. فقد انذرتهم بالا يشتيكوا في قتال مع العدو قبل ظهور الهلال الجديد. وكان [قيصر] قد علم بذلك، ورأى الجرمان قاعدين لا يأتون بحركة تنم عن نية قتال ففكر بان الظرف مناسب له وهم تحت تأثير تلك المخاوف والمخاذير. ووجد من خطل الرأي ان يظل هو قابعاً في معسكره ينتظر ساعة هجومهم فتقدم من تحكيمااتهم ومرتفعاتهم المنبوعة حيث عسكروا، فاثارهم عمله واستفزه لم يتمالكوا أنفسهم فانحدروا اليه بعنف وضراوة. فهزمهم ونال نصراً كاملاً وانشأ يطاردهم الى مسافة اربعمائة فرلنك حتى بلغ ضفاف [الراين] وكان الطريق كله مفروشاً بالغنائم وجثث القتلى. ولقى [أريوفستوس] الأمرين في عبوره النهر بقلول صغيرة من جيشه. وقيل ان قتلاه بلغوا ثمانين ألفاً.

بعد هذه المعركة ترك قيصر، جيشه في مقراته الشتوية ببلاد [سيكواني Sequani] وقصد الجزء الواقع على نهر [يو] من بلاد الغال، ويقع ضمن حدود حكمه، لأن نهر [روبيكون] يفصل بلاد الغال التي هي في الجهة الجنوبية، عن باقي ايطاليا، وكان سبب قدومه، الاشراف من موضعه على شؤون معينة في روما، فأستقر هناك وعمل على كسب ودّ الناس وكانت جماعات كثيرة تتقاطر اليه باستمرار، فيقضي حاجاتهم ولا يرد منهم سائل. ولم يُصرف واحداً

من حضرته الأ وعهدُ بالعون في اليد، وأمل بأكثر منه في الغد. ولم يتبين [پومبي] خلال فترة حروب قيصر الغالية، كيف يستخدم هذا سلاح روما لتحقيق انتصاراته من جهة. وكيف يعمل على خطب ودّ الرومان ويضمن ولاءهم له، بالثروة التي يغنمها من تلك الانتصارات.

ولم يطل المقام بقيصر فقد وردت الانباء تقول ان [البلجي] وهم أقوى المفالين سكنة الجزء الثالث من البلاد - قد شقوا عصا الطاعة وأعلنوا الثورة وحشدوا الآلاف المؤلفة من المقاتلين - فأنطلق نحوهم بجيش لجب وأطبق عليهم وهزم أكبر وحداتهم وأكثرها تراصاً. كان عددهم كبيراً إلا ان اسلوب دفاعهم اتسم بالضعف وقد سهل على مشاة الرومان عبور المستنقعات والانهار العميقة اكداسُ الجثث التي تركها العدو وممن ثار عليه، من جميع القبائل التي تسكن ساحل الاطلنطي، لكنها استسلمت دون قتال فساق جيشه نحو [النرقي Nervii] اشرس واشدّ القبائل عتواً في تلك الانحاء. وبلادهم تغطيها الغابات تماماً، فوضعا اولادهم ومقتناهم في احشاء تلك الغابات بعيداً عن متناول العدو، وباغتوا [قيصر] بستين ألفاً وهو غير مستعد لهم اثناء ما كان يضرب خيامه فهزموا خيالته وطوقوا فرقته السابعة والثامنة عشرة وقتلوا جميع ضباطهما ولو لم يختطف قيصر ترساً ويشق لنفسه طريقاً بين رجاله انفسهم للوصول إلى البرابرة، ولولا انحدار الفرقة العاشرة من رؤوس التلال عند ادراكها الخطر فتخترق صفوف العدو لانقاذه، لما سلم ذلك اليوم روماني واحداً إلا ان المثل الذي ضربه لهم قيصر من جرأته خاضوا المعركة بما يفوق الطاقة البشرية من الشجاعة - على حد ما ماثور القول لكنهم لم يستطيعوا رغم هذا زحزحة العدو من ميدان المعركة، بل اعملوا فيهم تقتيلاً وتمزيقاً وأولئك يقاتلون فتاع دفاع. وذكر انه لم يبق من الستين ألفاً الذين دخلوا المعركة عير خمسمائة ومن اربعمائة من شيوخهم، غير ثلاثة.

عندما أبلغ مجلس الشيوخ الروماني بهذه الانتصارات اقترحوا على ان تقام الاعياد العامة لمدة خمسة عشر يوماً مستمرة وان تنحر خلالها القرابين مع التشديد على تطبيق ذلك بدقة، وكانت فترة عيد رسمي لم يتح اطول منها لأي نصر روماني سابق. لقد كان ثم شعور عظيم بالخطر الذي يهدد روما جراء عصيان وثورة هذا العدد الكبير من الشعوب والأمم دفعةً واحدة. وأعطى تعلق الجمهور بقيصر، هذا النصر رونقاً وجمالاً آخر بسبب النجاح الذي حققه.

وعاد إلى مشنتاه على نهر [پو] بعد توطيد الأمن وتشبيت الوضع في بلاد الغال وقضى الفصل كله يتابع الاحداث في روما وهو في مكمنه. وطلب جميع المرشحين للمناصب العامة معاونته فمدهم بالمال لتخريب الذمم وشراء الاصوات. وبعد فوزهم ليكونوا ادوات طيعة له يفعلون ما يشاء لهم لأجل زيادة نفوذه. والانكى من هذا كله أن ابرز وأقوى الشخصيات في

روما راحت تنقاد له وترحل اليه زائرة في [ليوكا Lueca] وعلى رأسهم [پومپي] و[كراسوس] و[ايبوس]، وحاكم سردينيا، ونيپوس Nepus پروقتصل اسبانيا. ووجد في وقت واحدٍ ومحل واحدٍ مائة وعشرون ليكتوراً، وأكثر من مائتي شيخ. وبنتيجة المداولة التي جرت في مقره، رسم أن يتولى [پومپي] و[كراسوس] منصب القنصل للمرة الثانية للسنة القادمة وان يصرف لقيصر مبلغ آخر من المال، وان تجدد قيادته خمس سنوات آخر. ولا يسع اي عاقل أن يقرّبانه من السفاهة والاسراف العظيم أن يقدم اولئك الذين منحهم قيصر الاموال الطائلة - على اقتناع مجلس الشيوخ بمنحه مالاً أكثر هو غني عنه. وفي الواقع أن الموافقة على ذلك تمت جبراً عنهم وبعد احتجاج وتذمر، لا بالاقناع ولم يكن [كاتوا] هناك. فقد ازاحوه في الوقت المناسب برسالة الى قبرص. إلا أن [فافيونيوس Favonius] المقلد المتحمس [لكاتوا] ترك المجلس بعد ان يئس من جرّ المجلس الى معارضة القرار، وخرج يخطب في الناس بأعلى صوته مندداً بتلك الاجراءات الشاذة، فلم يصغ اليه احد. بعضهم ازدراه احتراماً [لكراسوس] و[پومپي] والاغلبية استخفت به ارضاء لقيصر الذي كان معقد آمالهم.

بعد ذلك عاد [قيصر] الى قواته المعسكرة في بلاد الغال. فوجد الحرب قائمة. إذ عبر مؤخراً شعبان من الشعوب الجرمانية نهر الراين. احدهما يعرف بـ[اوسيبس Usipes] والآخر [تنتريتاي Tenteritæ] وذكر [قيصر] في تعليقاته عن حربه مع هؤلاء. فقال ان البرابرة ارسلوا سفراء لعقد معاهدة معه ولكنهم هاجموا جيشه والمفاوضات قائمة وتغلب ثمانمائة منهم على خمسة آلاف من خياله فهزموهم، ثم عادوا يرسلون وفداً ثانياً يريدون تكرار الخدعة فقبض قيصر على مندوبيهم وسجنهم وساق جيشه عليهم. فقد وجد من السذاجة أن يركن الى عهد يقطعه هؤلاء بعد نقضهم المعاهدة الأولى - إلا أن [تانوسيسوس Tanusius] يقول: عندما أعلن مجلس الشيوخ اعياد النصر وامر بنحر الذبائح. صرح [كاتوا] بأنه يرى وجوب تسليم قيصر الى البرابرة وبذلك يكفر عن جريمة نقض العهد التي تقع على عاتق الدولة بنقلها الى المسبب المسؤول. وكان من مجموع الذين عبروا الراين اربعمائة ألف تم القضاء عليهم الأفلولا قليلة نجح ولاذت بحمي [السوگمبري Sugambri] وهو شعب جرمانى. واخضع قيصر هذا الاقليم ليبدأ منه غزو الجرمان طامعاً في الوقت نفسه بأن يكون اول قائد روماني يعبر الراين على رأس جيشه. فقام بانشاء جسر فوقه رغم كونه عريضاً جداً، وتياره في البقعة التي اختارها كان عنيفاً دفاقاً تنحدر مياهه حاملة جذوع الاشجار وغيرها من الاخشاب فتصطدم بأسس الجسر وتهزه هزاً. فما كان منه الا ودقّ دعامات خشبية ضخمة في اعماق النهر قبل الجسر بمسافة لايقاف وحبس هذه الكتل الطافية المنحدرة مع التيار وبهذه الوسيلة أجم المجرى

وأكمل الجسر، كذلك الذي لا يصدق من رآه انه مجهود عشرة ايام لا غير. ومراً الجيش فوقه بدون عائق. ففر [السيوئي Suevi] من امامه وهم أشدّ المقاتلين الجرمان تهوراً واقداماً - حاملين معهم كل مقتناهم ولاذوا باكتف الوديان شجراً. فأحرق بلادهم وساعد الموالين للحكم الروماني ثم قفل راجعاً الى بلاد الغال. ولم يمكث في جرمانيا غير ثمانية عشر يوماً.

على ان غزوة بريطانيا كان اعظم دليل على شجاعته. وبذلك يكون اول من انزل اسطولاً في المحيط الغربي واول من مخر عباب الاطلنطي بجيش. لقد غزا جزيرة جعلتها المعلومات القليلة عنها امر وجودها موضع اخذ ورد بين المؤرخين. وكان الكثيرون يتساءلون اهي مجرد اسم وخيال ام هي حقيقة. ويمكن القول أنه وسع رقعه الامبراطورية وجعلها تمتد الى ما وراء حدود العالم المعروف. لقد عبر اليها مرتين. واتخذ لصوره الساحل المقابل لها من بلاد الغال. وفي المعارك العديدة التي خاضها مع أهل الجزيرة، كانت الخسارة التي انزلها أكثر من الخدمة التي اسداها لنفسه، فسكان الجزيرة في حال يرثى لها من الفقر. ولا يملكون ما يصلح للسلب والغنيمة. وهكذا وجد نفسه عاجزاً عن وضع خاتمة لهذه الحرب تتفق واهدافه. أكتفى باخذ رهائن من ملكها وفرض جزية عليه وغادر الجزيرة. ووجد عند وصوله بلاد الغال كانت تنتظره رسائل عديدة من أصحابه معدة لارسالها اليه عبر البحر. وعلم منها بوفاة ابنته وهي تضع مولودها من [پومپي]. فكان حزنه وحزن پومپي عليها بالغاً ولم يكن اشياعهما باقل حزناً واضطراباً فقد شعروا ان في موتها القضاء على حلف أبقى الامبراطورية الرومانية العليلة حتى تلك الساعة في حالة من السلام والهدوء.

وحمل الجمهور نعيش [يوليا] رغم معارضة التريبونات. الى حقل مارس. وهناك اقيمت مراسيم التشييع وفي ارضه دفنت.

تضخم جيش [قيصر] الى درجة كبيرة. حتى اضطر الى توزيعه على عدة معسكرات ومقرات شتوية. سافر هو الى ايطاليا كعادته. وفي اثناء غيابه اجتاحت بلاد الغال ثورة عامة، وزحفت من سائر الارحاء جيوش كثيرة على المقرات الرومانية وحاولت الاستيلاء على القلاع التي اعتصموا فيها، وتمكنت اقوى وأكبر مجموعة من المغيرين بقيادة [ابريوريكس Abriorix] من القضاء على [كوتا Cotta] و[تيتسوريوس Titorius] مع كل رجالهما وحاصرت قوات من المحاربين الاشداء تناهز ستين الفاً. الفرقة التي يقودها [شيشرو] وكادوا يقتحمون معسكرها عنوة، ولم يبق جندي روماني فيها الا وهو جريح منهوك القوى الى حد العجز. لقد ظلوا يدافعون عنها دفاع المستميت وكان [قيصر] بعيداً عنهم بمسافة طويلة، على انه أسرع بجمع سبعة آلاف جندي وخف لنجدة المحصورين وعلم الاعداء بقدموه، فخفوا

لاعتراض سبيله وهم على ثقة من سهولة قهر هذه الحفنة من الرجال واراد قيصر أن يضاعف ثقتهم هذه فأوهمهم بأنه يتحاشى القتال وهو في الوقت نفسه يواصل سيره، حتى وجد موضعاً يصلح لاشتباك قليل من الرجال مع العديد منهم فضرب معسكره فيه واصدر أمراً قاطعاً لجنوده بعدم التعرض للعدو. وامرهم باقامة متاريس أعلى من المعتاد. وتقوية الابواب. وتلك مظاهر ضعف قصدوا بها استهانة العدو بهم. ولحق بهم العدو وهو على أتم الاطمئنان وبدون نظام فباشروا هجومهم فخرج اليهم [قيصر] وهزمهم بعد ان الحق بهم خسارة جسيمة. واطفأت هذه المعركة معظم الثورة في تلك الاقسام من بلاد الغال. وقام [قيصر] خلال فصل الشتاء بزيارة كل جزءٍ من البلاد، متخذاً الاحتياطات لاحباط المكائد بكثير من الحزم واليقظة. ووردته ثلاث فرق لتسد مسدماً ما فقدته اثنتان منها زوده بها [پومپي] من الجيش الذي يقوده، والثالثة تم تشكيلها في بلاد الغال التي تقع على [الپو]. ولكن ما مرّ حين من الوقت الا واخرجت بذور الحرب شطئها - تلك البذور التي زرعت خفية منذ زمن طويل فانتشرت على يد أقوى واشجع رجال تلك الشعوب المحاربة، واسفرت عن نفسها فاذا بها اخطر واعظم ما شاهده تلك الاصقاع من حروب سواء بعدد الرجال الذين شاركوا منها وكلهم في شرح الشباب وباحسن العدة والسلاح والمال الذي جمع لضمان مواصلة الحرب أو بمناعة المدن، او بوعورة البلاد التي جرت المعارك على ادعها. كان الوقت شتاء والانهار متجمدة، والغابات مغطاة بالثلوج والماء يسبح فوق الأراضي المنخفضة ويخفي معالم الطرق في بعض المواقع تحت طبقة كثيفة من الثلج وفي مواقع أخرى جعلت المستنقعات الفارقة بالماء والمجري العديدة، كل سبيل ضائعاً أو غير واضح. بدا [قيصر] امام كل هذه العقبات حائراً، فمن المتعذر وغير العملي ان يحاول الانتقاض على العصاة في مثل هذه الظروف. لقد ثارت عدة قبائل بصورة جماعية بزعامة قبيلتي [ارفرني Arverni وكارنوتيني Carnutini] وكان القائد الأعلى لهذا الاتحاد [فرجنثوريكس Vergentorix] الذي قتل الغاليون اباه لشكهم في انه كان يطمح الى السلطة المطلقة.

قسم هذا القائد الغالي جيشه الى عدة وحدات ونصب عليها القواد والأميرين واجتذب الى صفه كل ما جاوره من البلدان الى الاقاليم التي تتاخم نهر [آرار] وكانت قد بلغته انباء المعارضة التي يلقاها [قيصر] في روما فرأى ان يزج كل بلاد الغال في هذه الحرب. ولو تأخر في تنفيذ خطته هذه قليلاً وباشرها عند انشغال [قيصر] بالحرب الاهلية لكانت ايطاليا ستعرض الى عين الخطر الذي جاءها من غارة الكمبري الكاسحة. لكن قيصر الذي فاق الرجال جميعاً بموهبته حسن استخدام كل ما يت الى الحرب بصلوة ولاسيما اختياره وقت

المعركة المناسب. قفل عائداً من حيث أتى حال علمه نبأ الثورة. فبرهن للبرابرة أن جيشاً يتقدم نحوهم في هذا الفصل القاسي وبمثل هذه السرعة، هو جيش لا يقهر. لم يكونوا ليتوقعوا ان يصل اليهم ساعاً او عداء برسالة منه، وها هوذا الآن بلحمه ودمه مع كامل جيشه يدوخ بلادهم ويدمر قلاعهم ويخضع مدنهم ويبسط حمايته على المواليين له. وانداحت الثورة حتى شملت [الايديوي Edui] الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حتى ساعة الثورة اخواناً للرومان فانضموا الى العصاة، مما اضّر كثيراً بمعنويات جنوده. فتحرك نحوهم واجتاز بلاد [ليگونيس Ligones] قاصداً الوصول الى حدود [سيكواني] حلفائه الذين كانوا اشبه بحصن أو سدّ يحمي ايطاليا من قبائل الغال الأخرى. وهنا أطبق عليه العدو وطوقه بالالوف المؤلفة. ولم يكن هو الآخر بالراغب عن القتال. وبعد معركة طاحنة ووقوع كثير من القتلى فاز بالنصر الكامل. وان اصيب في بدء المعركة ببعض النكسات على ما يبدو. ويريك [الأروفييني Aruvi-ni] سيفاً قصيراً معلقاً في الهيكل، يزعمون أنه أخذ من قيصر. وقد رآه قيصر فيما بعد فأبتسم وعندما أشار اصحابه عليه برفعه لم يقبل فقد اعتبره مكرساً للآلهة.

بعد هذه الهزيمة هرب عدد كبير من البرابرة مع ملكهم الى مدينة تسمى [أليسيا Alesia] فألقى قيصر عليها الحصار وكان ارتفاع اسوارها وعدد الرجال المدافعين عنها كبيراً حتى بدا وكأن اقتحامها متعذر. ثم جوبه خارج اسوارها بخطر لم يتصوره. فقد جمع الغاليون من كل قبيلة نخبة من رجالها زودهم بأحسن السلاح وتقدموا لرفع الحصار عن المدينة وكان عددهم ثلاثمائة الف والمدافعون داخل المدينة لا يقلون عن مائة وسبعين ألفاً. وهكذا وجد [قيصر] نفسه محصوراً بين الجيشين فاضطر الى حماية نفسه بجدارين اقامها بمواجهة المدينة وبمواجهة الجيش المنقذ، مدركاً ان اتحاد القوتين معناه دماره التام. ان الخطر الذي احدق فيه امام [أليسيا] رفع من صيته، وشهرته من وجوه عدة واتاح له فرصة ضرب امثلة لعملية لبسالته وبراعته القيادية. فرصة لم تتحها له أية حرب أخرى. ان المرء ليعجب حقاً كيف اشتبك وتغلب على هذه الألوف العديدة من الرجال خارج المدينة دون ان ينتبه له المدافعون عنها، بل والانكى من هذا أن الرومان الذين كانوا يحرسون جدارهم المقابل للمدينة ظلّوا يجهلون ما حصل ولم يدروا بالنصر الذي احرزوه حتى سمعوا صيحات الرجال وولولة النساء في المدينة، وفي تلك اللحظة بدأوا يرون اخوانهم من بعيد وهم يعودون الى معسكرهم محمليين باكداس من التروس المكفنة بالذهب والفضة، ومثلها من الدروع المطلخة بالدماء فضلاً عن الكؤوس والخيام المصنوعة على الطرز الغالي. بهذه السرعة المذهلة انحلّ هذا الجيش العرموم وتلاشى مثل حلم أو خيال. وقتل معظم رجاله في ميدان القتال أما المدافعون عن [اليسيا] فلم يروا



بدأ من الاستسلام لقيصر بعد معاناتهم الأمرين. ولبس [فرچنتوريكي] اللولب المحرك لكل هذه الحروب خير ما لديه من دروع وتقلد أحسن السلاح وزين حصانه وخرج من باب المدينة متجهاً نحو قيصر. وكان هذا جالساً فترجل بالقرب منه ونزع درعه واقتعد الأرض عند قدميه صامتاً حتى اقتيد واحتفظ به الموكب النصر.

كان [قيصر] قد قرر منذ أمد بعيد اسقاط [پومپي] كما كان [پومپي] قد أعتزم ان يفعل المثل بقيصر. ذلك لأن الخوف من [كراسوس] الذي كان عامل الصفاء والتهادن فيما بينهما لم يعد له وجود بعد ان قتل هذا في بلاد البارثيين.

فلم يكن لمن يريد ان يجعل نفسه سيد روما بلا منازع - إلا ان يتغلب على منافسه فحسب. وكانت الضمانة الوحيدة لبقاء الواحد هو ان يسبق الآخر في ازاحة ذلك الذي يخشاه، ولم يكن [پومپي] يشعر بتلك المخاوف اذ ظلّ حتى الزمن القريب يستهين بقيصر ويستصغره لاعتقاده أنه قادر على التطويق به بالسهولة التي رفعه. إلا ان [قيصر] الذي لم يحد عن خطته الاولى ضد منافسه، انسحب الى خلوه كالمصارع الحاذق، ليعد نفسه للنزال جاعلاً الحروب الغالية ميدان تمرينه. فحقق التقدم المنشود في قابلياته العسكرية كما ضاعف مجده باعماله العظيمة حتى عد صنو [پومپي] عند المقارنة ولم تعنّ له فرصة الا انتهازها، سواء تلك التي يتيحها له [پومپي] أو التي تتحفه بها احداث الزمان. أو فساد الحكم في روما، فقد بلغت الحالة حداً صرت معه تجد كل المرشحين لمناصب الدولة بدون استثناء ينفقون الاموال الطائلة لرشوة الناس علانية وبدون حياء. فيأخذ الناخبون ما قسم لهم. ولا يكتفون باسناد راشيهم عن طريق اعطائه اصواتهم بل يدعمونه باقواسهم وسيوفهم ومقاليعهم اذا اقتضى الأمر. وهكذا فبعد أن لظخوا ميادين الاقتراع عدة مرات بدماء الناخبين. تركوا المدينة دون حكومة، لتتهز كسفينة دون ملاح يقبض على سكانها ويديره ومن كان يملك شيئاً من العقل تراه شاكراً حامداً لو أنتهى عهد الفوضى الجاهلية العاصف بما لا اسوء من الحكم الملكي المطلق. وبلغت الجرأة ببعضهم على التصريح بأن العلاج الناجع للحكم هو النظام الملكي. وان عليهم ان يتقبلوا هذا العلاج من يد ارق وارحم الاطباء يقصدون [پومپي]، الذي تظاهر بالرفض لكنه بذل في الواقع اقصى الجهود حتى ينصب دكتاتوراً. وادرك [كاتو] ما يجول في رأسه فأقنع مجلس الشيوخ باعلانه قنصلاً أوحد، فلعلّ عرض نوع من الملكية المقيدة بالقانون يصرف نظره عن اطلاب الدكتاتورية. وزادوا على ذلك فصوتوا على استمراره في حكم اقليميه اسبانيا وافريقيا، فحكهما عنه نواب له. واقترعوا ايضاً على الاستمرار في الانفاق على جيوشه من الخزينة العامة وخصصوا له ألف تالنت سنوياً.

فما كان من [قيصر] الا وطلب من مجلس الشيوخ منصب القنصلية مع تمديد حاكميته على الاقاليم الغالية ولم يتدخل [پومپي] في الطلب بادء ذي بدء. إلا ان [مارجلوس] و[لنتولوس] عارضاً في الطلب وكان من أشد مبغضي [قيصر] لا يتورعان عن اللاتق وغير اللاتق اذا كان في ذلك اهانتته وتحقيره فقد ألغيا امتياز المواطنة الرومانية الممنوح لأهالي [كوميوم الجديدة Comun] وهي مستوطنة اسسها قيصر في بلاد الغال وأمر [مارجلوس] الذي كان وقتئذ بمنصب القنصل أن يحضروا أحد شيوخ تلك المستوطنة اثناء وجوده في روما فجلد. وقال له انه أحدث فيه العلامة كدليل على انه ليس مواطناً رومانياً. وأشار عليه ان يكشف عن آثار المجلد لقيصر عند عودته.

وبعد انتهائها مدة قنصلية [مارجلوس] بدأ قيصر يطر هداياه على كل ذوى الوظائف العامة، من الغنائم الحربية. وانقذ [كيوريوس] التربييون من ديونه الكثيرة واعطى [پاولوس] الذي كان قنصلاً ألفاً وخمسائة تالنت فينى بها دار القضاء الفخمة الملاصقة للفورم، وحلت محلّ الصرح المشهور باسم [فولفيان Fulvian] فادرك القلق پومپي من هذه التمهيدات وبادر الى اتخاذ الخطوات الضرورية بصورة مكشوفة، بنفسه أو عن طريق اصحابه، لاختيار خلف قيصر وارسل يطلب منه اعادة الجنود الذي استعارهم منه لمواصلة الحرب في بلاد الغال. فلبى [قيصر] طلبه ومنح كل جندي هبة قدرها مائتان وخمسون درهماً. ولم يكن ما اشاعه الضابط الذي اعاد الجنود الى [پومپي] بالمنصف أو الجميل، وأخذ يتزلف الى [پومپي] باختراع الاكاذيب كقوله ان جيش [قيصر] يكن له الحب والتقدير وهو طوع بنانه، وان كانت اموره في روما ليست على ما يرام بفعل بعض الحساد وحالة الحكومة الناعسة، فحسب الجنود ان يصلوا الى ايطاليا - انهم سيعلمون ولاءهم له في الحال ان قيصر ارهقهم بحملاته المتعددة فأصبح وضعهم لا يطاق كما انهم يتوجسون خيفة من طموح قيصر الى حدّ تهيئة نفسه للعرش الملكي.

فأختال [پومپي] بنفسه زهواً وترك جانباً استعداداته العسكرية اطمئناناً منه الى هذه الانباء المكذوبة، وبدأ وكأنه لا يحس ولا يخشى خطراً. واقتصر في محاربتة على الخطب واصوات الناخبين وهو ما لم يكن يهتم به [قيصر]. واثّر عن ضابط له ارسله الى روما. انه وقف امام مجلس الشيوخ يوماً. وعندما ذكروا امامه ان الشيوخ لن يمددوا حكم قيصر. ضرب غمد سيفه بيده وقال:  
- هذا سيمدده.

على ان المطالب التي عرضها قيصر كانت معقولة، تنوح منها رائحة الاعتدال واللطف فقد

اقترح أن يضع سلاحه جانباً وأن يحذو [بومبي] حذوه فيعودوا مواطنين عاديين ويرجع كلاهما الشعب لأصدار حكمه فيهما وقال انه أولئك الذين اقترحوا ان ينزعوا سلاحه وان يثبتوا [بومبي] في سلطاته التي يتقلدها الآن، انما يثبتون شخصاً واحداً في سلطة لا حدود لها، تلك السلطة التي اتهموا الشخص الآخر بأنه يريد لها لنفسه.

وعندما وضع [كيبوريو] باسم قيصر هذه المقترحات امام الشعب ارتفع له الهتاف عالياً ورمى بعضهم قلائد الزهر اليه وشيعوه متوجاً بالزهر كما يشيعون المصارعين الفائزين وبرز [انطوني] وكان آنذاك تريبونا رسالة من قيصر بهذا المأل وتلاها وعارضها القنصلان بشدة. إلا أن [سكيبيو] حمو [بومبي] أقترح على الشيوخ ما يلي:

«ان لم يضع قيصر سلاحه في غضون فترة زمنية محددة، فانه يعتبر عدواً لروما»

ووضع القنصلان الاقتراحين التاليين في المناقشة:

«هل يسرّح [بومبي] جنوده؟» ثم «هل يسرح [قيصر] جنوده؟»

لم توافق على المقترح الأول غير قلة فسقط. ولكن حصل شبه اجماع على المقترح الثاني. على ان [انطوني] قابل ذلك باقتراح آخر وهو: «ان يتخلى كلاهما عن منصبيهما». فوافق الجميع عليه الأ فئة قليلة.

وبدا [سكيبيو] عنيفاً للغاية. بينما تعالى صوت القنصل [لنتولوس] يقول:

- انكم لستم بحاجة الى الاقتراح حول لص، وانما بحاجة الى سلاح.

ونأجل الاجتماع في ذلك اليوم. وظهر الشيوخ في ثياب حداد اشارة الى ما يشعرون به من حزن بسبب تفرق كلمتهم.

ووردت رسائل أخرى من [قيصر] أكثر اعتدالاً وتنازلاً. اقترح فيها ان يستعفي من كل منصب ويحتفظ ببلاد الغال التي هي داخل جبال الألب، مع [ايليريكوم] وفرقتين عسكريتين الى أن يحين موعد الانتخابات القنصلية فعندئذ يرشح نفسه. وحاول شيشرون جهده (وكان قد عاد من صقلية) اصلاح ذات البين والإنة قناة [بومبي] وكان هذا يميل الى الموافقة على مقترحات [قيصر] خلا طلبه قيادة فرقتين. أخيراً استخدم [شيشرون] وسائل اقناعه مع اصحاب قيصر، ليقبل بحكم الاقليمين مع الاحتفاظ بستة آلاف جندي فقط، لكي تتم تسوية النزاع، ومال [بومبي] الى الموافقة الا أن [لنتولوس] القنصل رفض الاصغاء الى هذه التسوية وطرد [انطوني] و[كيبوريو] من القاعة مشيعين بالاهاانات. فزود [قيصر] بالذرائع

الكافية والمقبولة ليطلع على جنوده فوراً فيشيرهم ويهيج مشاعرهم. فهاهما شخصان حسنا السمعة سمعة وصاحباً نفوذاً اضطرراً الى الهروب بعربة اجرة وثياب العبيد تنكراً بها حتى خرجا من روما.

لم يكن في حوزة قيصر آنذاك، غير ثلاثمائة من الخيالة وخمسة آلاف من المشاة. لأن القسم الاكبر من جيشه قد تخلف وراءه شمال الألب. وكان من المقرر أن يأتي به ضباط تلقوا منه تعليمات خاصة بهذا الشأن. وقد وجد ان الخطوة العملية الاولى التي سيخطوها نحو هدفه المرسوم لا تتطلب منه قوات كثيرة. وان ما يحتاجه هو المفاجأة لتصيب جراته اعداءه بالذهول. وانه من الافضل له بث الذعر في نفوسهم باقدامه على عمل لا يتوقعونه، لا محاولة التغلب عليهم بشكل اعتيادي، فان الاستعداد لذلك سيوقفهم من سباتهم. فأمر قواده وضباطه سباتهم. فأمر قواده وضباطه أن يتوجهوا الى [ارمنيوم Arminum] بسيوفهم فقط وبلا سلاح آخر. وان يحتلوها بأقل ما يمكن من الضجة وسفك الدماء. وارمنيوم، مدينة (غالية) كبيرة. اناب [هورتنيوس Hortenius] عنه في هذه العملية وقضى يومه مختلطاً مع الناس متسكعاً أو متفرجاً على المصارعين وهم يقومون بتمارينهم. وقبل ان يجن الليل بقليل أختلى بنفسه وبعدها عاد الى المجلس في القاعة وتحدث مع مدعويه للعشاء، وعندما انتشر الظلام ترك المائدة معتذراً من المدعويين. وطلب منهم ان يبقوا حتى يعود (كان قبل قيامه قد نبه قلة من اصحابه بان يتبعوه متسللين واحداً بعد الآخر وان يسلكوا طرقاً مختلفة وركب هو عربة اجرة مضت به في الطريق سافئاً، وبعدها الوى عنان جيادها الى ارمنيوم. وبوصوله الى نهر (روبيكون) الذي بفضل جزئي بلاد الغال الأليسية عن الايطاليا. توقف وراحت به الهواجس والافكار شتى المذاهب. ها هو الآن يركب الخطر الفعلي ويبدأ طريقاً لا يمكن النكوص عنه. وزاد اضطرابه وهو يفكر في عواقب المغامرة التي سيقدم عليها وفي نتائجها الخطرة. تثبت من الطريق ثم تريت وأخذت الآراء المختلفة تصطرع في نفسه. مرة يقرر كذا، ومرة يقرر كذا، دون ان ينطق لسانه بكلمة. كان يصاب بالجورد عندما تصل به الحيرة وتقلب الغايات حدهما الاقصى. ثم طفق يبحث الامر مع اصدقائه، ومنهم [اسنيوس پوليو Asinius Pollio] وتساءل كم سيجر عبوره النهر من مصائب على البشر. واي آثار ونتائج له سيتحملها الاجيال القادمة؟

أخيراً نفذ عن رأسه هذه الأفكار، وهو منفعل، واستسلم للقدر مستخدماً المثل الذي تجده متحيراً على شفتي أولئك الذين يستعدون لقتل أنفسهم في مغامرة خطيرة جريئة: «لقد القي الزهر».

وبهذه العبارة توجه الى النهر وعبره وأسرع الى [ارمنيوم] فبلغها قبل ان يطلع النهار ودخلها. وقيل انه حلم في الليلة السابقة لدخولها، حلماً دنساً، فقد رأى نفسه وهو يواقع أمه. بعد استيلائه على [ارمنيوم] فتحت الابواب على آخر مصاريحها كما يقول المثل - لاستقبال الحرب في كل بقعة وزاوية من الارض والماء. وديست حدود الاقاليم مثلما ديست حدود القوانين والشرائع وما كان لأحد أن يتصور فرار الرجال والنساء في ايطاليا من مدينة الى أخرى مذعورين كما حدث في الأزمان الغابرة، وتسود الفوضى التامة البلاد حتى لكأن المدينة تترك موقعها لتلوذ بالمدينة الأخرى. وتدفت سيول اللاجئين على روما فأصبحت قوج بهم. وعجز القضاء والحكام عن القيام بواجباتهم ومثنية امور الدولة ولم تغد بلاغة أفصح الخطاب في تهديئة الحال. كانت المدينة اشبه بحطام سفينة بائسة الحظ، حطمها عنف العاصفة. وثارت الخواطر في الناس وتضاربت الآراء وانكشفت خفايا الضمائر عن النزوات المتطرفة. فلم يعد التائقون الى اي محاولة تغيير يخفون مشاعرهم ان هم تلاقوا في هذه المدينة الكبيرة، بافراد الحزب المناوئ للقلق الحزين فيثيرون الجدال والشحناء بالافصاح عن ثقتهم التامة بنتائج الاحداث الجارية. وزاد [پومپي] اضطراباً على اضطراب وقلقاً على قلق من الحاح الآخرين وثررتهم. بعضهم يقول له انه يستأهل كل ما يعانیه الآن، لأنه سلح قيصر ضد الحكومة وضد نفسه وآخرون يلومونه لأنه تفاضى عن لتتولوس عند اهانتته [قيصر] بعد أن عرض هذا التنازلات الكثيرة وتقدم بالمقترحات المعتدلة لحسم النزاع وانهاء الخلاف. وطلب منه [فافونيوس] ان يدق الأرض بقدمه! (مذكراً اياه بزوهه في مجلس الشيوخ، حين طلب فهم أن لا يشغلوا بالهم بالاستعداد للحرب لانه قادر بخبطة واحدة من قدمه، ان يملأ ايطاليا كلها بالجنود). والواقع ان [پومپي] كان انذاك يملك من الجنود ما يزيد عن قوات [قيصر] الا أن التقارير الكاذبة والانذارات المبالغ فيها حالت بينه وبين عمل ما يريد، فقد انبىء بان العدو سيداهمه وشيكاً بعد ان سحق كل مقاومة اعترضته، فوهى عزمه وترك نفسه تنساق وراء الصيحة العامة واصدر بياناً أعلن فيه ان المدينة في حالة فوضى شاملة. ثم غادرها بعد أن امر الشيوخ بتركها واللحاق به. وبان لا يبقى أحد ممن لا يفضل الاستبداد على الوطن والحرية. وفرّ القنصلان بسرعة، من غير أن يقدموا القرابين المعتادة في مثل هذه الظروف، واقتفى اثرهما معظم الشيوخ، حملوا معهم اموالهم ومقتناهم وخفوا مسرعين الى ترك المدينة، مثل سارق جاره. وجرّ التيار العام عدداً من مساندي قيصر، فنبذوا جانباً مشاعرهم الخاصة وسط الذعر الشامل وهربوا مع الهاربين. انه لما يثير الحزن ان ترى تلك المدينة وقد عمتها الفوضى وسادها الاضطراب مثل السفينة التي اسقط في يد صخرة ملاحها فتركوها تسير على هواها

لتصطدم كما شاء لها القدر باية صخرة تعرضها. مع هذا كلّه ورغم الحالة المؤلمة كنت ترى الناس الهارين لايفرقون بين مسقط رأسهم المتروك ومنفاهم الذي اجبروا عليه، فهربوا من روما كأنهم يهربون من معسكر [لقيصر] كل ذلك ثقةً منهم [پومپي] واكراماً له حتى ان [لابينوس Labinus] الذي كان من أخلص اصدقاء قيصر واحد قواده الكبار الذين حاربوا معه بتفانٍ في بلاد الغال فقد تخلى عنه والتحق [پومپي]. وبادر قيصر فالفى الحصار على [كورفينيوم Corfineum] التي كانت تحميها ثلاثون كتيبة بأمره [دوميتيوس]. هذا القائد ادركه اليأس من جدوى الصمود والاحتفاظ بمدينته فطلب من طبيب في حاشيته ان يسقيه سماً، فناوله جرعة وكان يؤمل ان يقضى بها على نفسه. وما ان استقرت الجرعة في جوفه حتى أقبل من يخبره مؤكداً ان [قيصر] اظهر منتهى الرحمة وصفح من كل الأسرى الذين وقعوا في يده، فطفق القائد يندب سوء حظه ويلوم تسرعه في قراره فطيب الطبيب خاطره قائلاً انه اعطاه عقاراً منوماً ولم يعطه سماً. فكان فرحه عظيماً وهب من سريره وقصد قيصر واعطاه عهد الاخلاص. على انه انحاز الى جانب [پومپي] فيما بعد. ان هذه الانباء هدات من روع الباقين في روما وجعلتهم يعدلون عن تركها، واعاد اليها بعض من غادرها.

وضم قيصر الى جيشه جنود [دوميتيوس] وكان هذا ديدنه في كل مدينة يفتحها، فتزيد قواته على حساب قوات [پومپي] حتى اذا شعر بأنه يمتلك القوة الكافية للتعرض؛ تقدم يريد [پومپي] فلم يشأ هذا، وانسحب الى [برونديزيوم] بعد أن ارسل القنصلين مع عدد من الجنود قبله الى [ديراكيوم] وركب [پومپي] متن البحر عندما علم باقترب قيصر كما ورد ذلك في سيرته مفصلاً. ولو كان قيصر يملك سفناً لما تردد في ملاحقته، الا أنه قفل راجعاً الى روما وقد اصبح سيد ايطاليا بلا منازع ومن دون ان يريق قطرة دم في غضون سنتين يوماً فقط، فوجد المدينة هادئة خلافاً لما توقع. وكان فيها عدد كبير من الشيوخ فواجههم بكل احترام وخطبهم باللهاجة اللاتقة. وطلب منهم أن يبعثوا باقتراحه التالي الى [پومپي] انه يرضى بأية شروط معقولة لحسم النزاع واجراء الصلح. فلم يشاؤا ذلك اما خوفاً من [پومپي] الذي تخلوا عنه، واما لأنهم لايعتقدون بأن [قيصر] جاء في عروضه، وانما قصد ان يظهر امامهم شخصاً معتدلاً معقولاً.

وحاول [ميتيللوس] التريبون منعه من سحب المال من الخزينة العامة، مستنداً الى نصوص القوانين التي تمنع ذلك فقال قيصر:

- للقانون زمان وللسلاح زمان. إن كنت لا أعجبك فأنصرف من هنا، الحرب لاتسمح بحرية الكلام فان وضعت سلاحى جانباً وحققت السلم فتعال واخطب ما شاءت لك الخطابة.

واردف يقول: واسمع هذا مني، أنك تريد أن تحدد من حقيّ المشروع. وانت في الواقع وكلّ من وقف ضدي وهم الآن في قبضتي، قد يعاملون المعاملة التي ارتأيها انا.

ثم توجه الى الخزينة يريد فتحها. فلم يجد مفاتيحها فاستقدم الحدادين وامرهم بكسر الاقفال. فعاد [ميتيللوس] يعارض في ذلك وراح بعضهم يشجعه. فارتفع صوت القيصر منذراً ومهدداً اياه بالموت أن بدر منه ما يزعجه وقال: - واسمع مني. لعلك لاتعلم ايها الشاب ان القول لأكره عندي من الفعل.

فما كان من [ميتيللوس] الا وان انسحب خوفاً. وراح بعد ذلك ينفذ كلّ اوامر قيصر في تأمين نفقات الحرب.

وزحف نحو اسبانيا، عازماً قبل كل شيء على سحق [افرانوس Afranius] و[فارو Var-ro] نائبي [پومپي]. وكان يرمي من ذلك الى الاستيلاء على الجيوش التي يقودانها وانتزاع الاقاليم التي يحكمانها. وبذلك يكون في وضع جدّ ملائم لمنازلة [پومپي] دون ان يخشى عدواً خلفه. في هذه الحملة تعرض شخص [قيصر] الى مخاطر كثيرة بسبب الكمائن التي نصبت له. كما تعرض جيشه للجوع بسبب نقص الافوات لكنه ظلّ يتعقب عدوه ويستفزه للقتال، ويحاصر استحكاماته ويدك قلاعته حتى وفق أخيراً الى الاستيلاء على المعسكرات وعلى الجيش ولم يسلم غير القادة الذين فروا والتحقوا [پومپي].

وعند عودته الى روما نصحه حميّه [پيزو] بارسال وفد الي [پومپي] للمفاوضة في الصلح. الا ان [ايساوريكوس Isauricus] ثناه عن ذلك أختار لأجل ان ينال لديه حظوة. وبعد هذا اعلنه مجلس الشيوخ دكتاتوراً ومنحه الصلاحيات اللازمة لممارسة هذا المنصب. فدعا المبعدين الى العودة، وردّ حقوق المواطنة الى اولاد اولئك الذين وقعوا تحت طائلة [سيللا] وخفف عن كاهل المثقلين بالديون باصداره قانوناً يخصم به جزء من الفوائد لمتراكمة، واصدر قوانين أخرى بمثل هذه الروح السمحاء ولم تكن بالكثيرة، ثم استقال من منصب الدكتاتور بعد احد عشر يوماً من توليه وأكتفى باعلان نفسه قنصلاً مع [سرقيلوس اساوريكوس] ثم ترك روما الى ميدان القتال. واغذ السير، تاركاً جيشه وراءه. مصطحباً ستمائ فارس منتخبين وخمس فرق فقط وبهذه القوة الصغيرة ابحر في اوائل شهر كانون الثاني (الذي يوافق تقريباً الشهر الاثيني المسمى پوسيديون) وبعد اجتيازه البحر الآيوني استولى على [اوريكوم Oricum] و[پولونيا Apollonia] ثم ارسل سفنه الى [برنديزيوم] لتنقل بقية جيشه المتخلف في المسيرة ان رجال هذا الجيش لم تعد في اجسامهم حيوية الشباب واندفاعه. كما ان الملل قد شاع في نفوسهم من الحروب المتواصلة، فلم يسعهم وهم في سيرهم

الا ان يشكوا من الحال ومن قيصر فيقولون:

- اين؟ ومتى سيدعنا [قيصر] هذا نعيش في دعة وسلام؟ انه لينقلنا من موضع ال موضع، ويستخدمنا كأننا غير قابلين للعطب والتلف، وهو لايمك شعوراً بالارهاق والتعب. ان حديدنا نفسه قد فسد من كثرة الضرب والقراع الا فليداخلنا بعض الفرق بدروعنا وصفائنا التي كادت تبلى من كثرة الاستعمال. وجراحنا ولا نذكر غيرها يجب ان تحمله على التفكير بان من يقودهم هم كائنات حية لا فرق بينهم وبين سائر البشر في تعرضهم الألم واحساسهم بالغنى. ان الآلهة نفسها لا تقوى على ايقاف فصل الشتاء، ولا ان تمنع هبوب العواصف في اوقاتها المقررة. ومع هذا فهو يدفعنا دفعاً الى الامام كأننا لا نتعقب العدو بل نفرّ من وجهه!

بهذا كانوا يتحدثون وهم يسيرون متشاقلين نحو [برنديزيوم] حتى اذا بلغوها ووجدوا [قيصر] قد سبقهم الى الابحار انقلبت مشاعرهم رأساً على عقب وراحوا يلومون انفسهم قائلين انهم خانوا جنالهم. وعاقبوا ضباطهم لتباطئهم في السي، وصعدوا الى المرتفعات المشرفة على البحر باتجاه [ايبروس] وطفقوا يراقبون ظهور السفن التي ستقلهم الى قيصر - بعين لا تطرف.

في تلك الاثناء كان [قيصر] قد اختار [ابولونيا] مقراً له، الا انه لم يكن قادراً على التعرض للعدو لافتقاره الى القوات الكافية. وزاد قلقه لتأخر وصول قواته الأخرى من [برنديزيوم] وادركته الحيرة ويات متوتر الاعصاب. أخيراً اقدم على مغامرة جنونية. فاستقلّ البحر وحده دون ان يعلم احداً. ونزل قارباً ذا اثني عشر مجدافاً متوجهاً الى [برنديزيوم] كان البحر انذاك مشحوناً باسطول العدو الضخم ولكنه صعد القارب متنكراً بزيّ العبيد والقي بنفسه في مقره، نكرةً من النكرات. وكان نهر [اينوس Anius] هو وسطة الوصول بهم الى عرض البحر. وفي تلك البقعة بالذات كانت تهب عادةً ريح خفيفة كل صباح من اليابسة الى البحر فتجعل مصب النهر هادئاً خالياً من التيارات، بدفعها الامواج الى الامام. الا ان ريحاً قوية هبت من البحر في تلك الليلة فشلت عمل الريح الخفيفة المتجهة الى البحر. فزادت مقاومة الامواج البحرية عند مصب النهر وهاج هائجها واخذ تيارها الشديد يددع ماء النهر من حيث اتى بعنفٍ وضراوة اعجزا القبطان عن الخروج به الى عرض البحر. ولم يجد سبيلاً غير الرجوع. فأمر بحارته بالاستدارة والعودة. فما كان من قيصر الا وكشف عن هويته ممسكاً بيد القبطان المشدوه وقائلاً:

- إمض في طريقك يا صاح ولا تخش شيئاً، فأتت تُقلّ قيصر ومستقبله.

لم يعد البحارة يكثرثون بالعاصفة بعد سماعهم هذا القول. وانحنوا على مجاذيفهم يضربون بها باقصى قوة. وبذلوا كل ما في طوقهم للوصول الى البحر. حتى اعياهم الأمر ودخل القارب كثير من الماء وادرك [قيصر] ما يحدق به من خطر وهو في مصب النهر، فسمح للقبطان بالعودة كارهاً. وعند نزوله اليابسة استقبلته جموع من جنوده باللوم والتأنيب. وكانوا ساخطين منه لقلّة ايمانه بمقدرتهم، ولشعوره بالضعف عن نيل نصرٍ بهم وخدمهم. فأزعج نفسه وعرض حياته للتهلكة بسبب الغائبين، كأنه فقد الثقة بالحاضرين.

وبعد هذا بقليل وصل [انطوني] بالقوات من [برنديزيوم] فشجع ذلك قيصر على منزلة [يومبيي] وان كان هذا قد أختار لقواته أفضل المواقع على منزلة [يومبيي] وان كان هذا قد أختار لقواته أفضل المواقع، ومورده من الأقوات والمهمات لا ينقطع برأً أو بحرأً على السواء. أما [قيصر] فكان يشكو في البداية قلة الارزاق وكان في النهاية يفتقر الى الحد الأدنى من الضرورات. وكادت المجاعة تتفشى في الجيش حتى اضطر جنوده الى الحفر عن نوع من الجذور تنمو هناك فينقعوها بالحليب لتكون مستساغة. وكانوا أحياناً يعملون منها خبزهم، ويتقدمون الى ربايا العدو الامامية ويقذفون الى جنوده ببعض من هذه الأرعفة وهم يقولون «طالما تنتج الارض مثل هذه الجذور فلن نرفع الحصار عنكم». وكان يومبيي شديد الحرص على ان لا تصل هذه الارعفة والكلام التي يرافقها، الى جنوده كانت معنوياتهم قد هبطت وارتخت مفاصلهم للرهبة التي داخلتهم من شراسة اعدائهم واعتيادهم الحشونة وصاروا ينظرون اليهم نظرتهم الى ضوار.

واستمرت المناوشات على مشارف واستحكامات [يومبيي] الامامية وكان النصر فيها جميعاً لقيصر، عدا واحدة. فقد أجبر العدو رجاله على الفرار بشكل هدد معسكره كله، حتى كاد يفقده. فقد صال عليهم [يومبيي] صولة قوية فلم يصمد امامه رجل واحد وملئت الخنادق بالقتلى وسقط العديد على متاريسهم واستحكاماتهم بعد ان دفعهم العدو اليها. واعترض قيصر طريق فرارهم وحاول ارجاعهم الى ميدان القتال فلم يفلح وعندما ذهب ليمسك بالالوية رماها حاملوها على الأرض فغتم العدو اثنين وثلاثين لواءً، ولم ينج قيصر الا باعجوبة. فقد تشبث باحد الجنود، وكان ضخم الجثة متين الالواح وأخذ يعدو معه ويصيح به ان يقف ويصمد فشهر سيفه وقد أمتلاً خوفاً من الخطر الذي يلاحقه كأنه يهجم يطعن قيصر، الا ان حامل درعه اهوى على يده بضربة فقطعها. وبلغت حالة قيصر درجة لا توصف. لكن [يومبيي] اما زيادةً في الحذر، أو لسوء حظ، لم يبادر الى انزال الضربة القاضية بعد نجاحه العظيم وانما تراجع، بعد ان تعقب العدو المندحر الى معسكره. وقال قيصر وهو يتابع انسحاب [يومبيي] بانظاره:

- كان النصر اليوم حليف العدو لوحظوا بجنرال يعرف كيف يناله.

وانسحب الى خيمته واستلقى على فراشه يريد النوم فعزّ عليه وقضى ليلة ليلاء لم يقض مثلها من قبل، تتناهيه الأفكار وتتقاذفه الهواجس. ويقلب وجوه الرأى في حاله، الى ان انتهى أخيراً الى نتيجة واحدة، وهي انه لم يحسن ادارة دفة الحرب. ها هنا امامه بلاد خصبة وجميع مدن مقدونيا وتسالياً الغنية فلم يعرها بالاً ولم يجرّ الحرب الى تلك الأصقاع، بعد ان جثم قرب الساحل حيث يتمتع اعداؤه بافضلية اسطول قوي. انه والحالة هذه محاصر بافتقاره الى المهمات والاقوات، وليس محاصراً الآخرين بالسلاح.

في خضم محنته هذا اهتدى الى الحل المنشود. فرفع معسكره صباح اليوم التالي وسار معتماً مهاجمة [سكيبويو] الذي كان معسكراً في مقدونيا، وبذلك سيحقق احد أمرين أما أن يرغم [يومبيي] على السير نحو بلاد بعيدة عن ساحل البحر فيفقد ميزته الحالية ويصعب عليه امداد قواته بالارزاق عن طريق البحر. وإما ان يتسنى له التغلب على [سكيبويو] ان أثر [يومبيي] البقاء حيث هو.

ان رفع [قيصر] معسكره والابتعاد عن جيش [يومبيي] جعلهم يستنجون بأنه يهزم من امامه. فقوى ذلك من عزماتهم والهيب حماساتهم لتعقيبه، الا أن [يومبيي] كان يخشى المجازفة في معركة يتوقف عليها الكثير. ولكونه كان حسن التجهيز وافر القوت مهما امتد به الزمن، فقد ارتأت خطة انهاك الجيش قيصر واضعاف معنوياته التي لم يكن يقدر انها يستصمد طويلاً، صحيح ان قيصر يملك خيرة الرجال، مقاتلون حنكتهم الحرب وعجمت عودهم وشجاعتهم لا يقف امامها شيء في اية معركة. الا أن مسيراتهم الطويلة العديدة، وسهرهم في الحراسة، هذ من قواهم وارهقهم، وهم ما عادوا فتيناً، ولم تعد اجسامهم تتحمل الجهد، وتبعاً لذلك لم تعد شجاعتهم تغني. فضلاً عن ذلك فقد تفشى فيهم - على ما قيل - مرض سارٍ بسبب طعامهم غير الصحي، وأكثر من ذلك أن قيصر كان خالي الوفاض لا مال لديه ولا اقوات. ولهذا قدر [يومبيي] ان قيصر سينتهي امره وتذهب ريحه بوقت قصير. فلم يشأ تعقيبه والتعرض له. لم يؤيده أو يشكره على هذا القرار غير [كاتو] فقد شاع السرور في نفسه لقرار فيه اقتصاد لارواح مواطنيه. عندما شاهد جثث القتلى الذي سقطوا من جيش قيصر في آخر معركة وكان عددهم الفاً واحدة ادار ظهره وغطى وجهه واجهش بالبكاء. لكن الجميع راوحوا يلومون [يومبيي] لتردده في قطف ثمرة نصره واحجامه عن القتال. وحاولوا غمز قناته واخرجه عن طوره بالتشبيهاً والالاقاب. فأطلقوا عليه اسم [أغا ممنون] ولقبوه [بملك الملوك] كأنما يريد الاستمسك بسلطاته الملكية الحالية، بل مستمتع برؤية هذا العدد الكبير

من القادة رهن اشارته، وتحت امرته، وامام خيمته. وشكا [فامثونيوس] (وهو الرجل الذي يقلد كاتو في الصراحة) شكوى مرة من هذا القرار، وقال انه سيحرم من أكل تين [توسكولوم Tusculum] هذه السنة أيضاً، لأن [پومپي] مغرم بالقيادة العامة. وأما [افرانيسوس] الذي كان قد عاد مؤخراً من اسبانيا، فبسبب الهزيمة الشنعا التي مني بها هناك، ولكونه كان موضع شك في أنه أخذ من [قيصر] رشوة ليسلمه جيشه، فقد اراد تبديد هذا الشك بتساؤله: «لا أدري لماذا لاحتاربون شاربي الأقاليم هذا؟».

هذه الأقوال ارغمت [پومپي] على المعركة، فأنطلق جاداً في اثر القيصير، وكان هذا لا يقوم من عقبة إلا ليسقط في أخرى. ففي سيرته هذه لم يمر ببلد قابل بتموينه، بعد ان هوت سمعته الى الحضيض بسبب الهزيمة الأخيرة. على ان بعض التحسن طرأ عليه عند وصوله [گومفي Gomphi] المدينة التسالية. فقد وجد ارزاقاً كافية لجيشه، فضلاً عن كماليات أخرى. مثل الخمر فقد وجدوا كميات كبيرة منها. فشربو حتى ارتووا، وسرت حميها في جسومهم فراحو يلهون ويعيشون ويعربدون على الطريقة الباقوسية وهم سائرون. وشفوا من امراضهم وارتاحت ابدانهم وشغروا كأنهم خلقوا من جديد.

لما وصل الجيشان [فرساليا Pharsalia] وعسكرا عادت خطة [پومپي] الأصلية تداعب فكره، وصمم على تحاشي الاشتباك بعد حصول بعض الخوارق، وبسبب رؤيا رآها. إلا أن اتباعه كانوا على درجة من الثقة بالنجاح حتى ان الخلاف نشب بين [دوميتيوسوس، وسپنثر، وسكيبويو] على من يخلف [قيصر] في القيادة منهم. وبعث كثيرون الى روما لاكتراء بيوت ملائمة لسكن القناصل والپريبتورين يدفعهم ايمان قوى بأن هذه المناصب ستسند اليهم بعد انتهاء المعركة.

كان صنف الخيالة بصورة خاصة مصراً على القتال. فالفرسان مجهزون بأحسن السلاح وأفضل الخيل، يختالون بجمال منظرهم ويعتدون بشجاعتهم، ويعتمدون فضلاً عن ذلك على تفوقهم العددي، خمسة آلاف مقابل الف واحدة هي كل ما يملك [قيصر]. وكان الفرق بين مشاة الجيشين كبيراً أيضاً فجيش [پومپي] يبلغ ٤٥ ألفاً في حين ان جيش قيصر لا يزيد عن ٢٢ ألفاً.

جمع قيصر جنوده وخطب فيهم قائلاً:

- ان كورفينيوس Carfinius قادم بفرقتين للانضمام الينا. وهناك خمس عشرة كتيبة تحت امرة [كاليوس] معسكرة في ميغارا واثينا. هل تفضلون التريث حتى تلتحق بنا هذه القطعات ام ان نجازف بدخول المعركة؟

فهتف الجميع بما يفيد انهم يرفضون التريث. وطلبوا منه الاسراع جهده للتعرض للعدو وارغامه على المعركة. فضحى لتطهير جيشه، وبعد فحص الاضحية الأولى قال له الكاهن انه سيدخل معركة فاصلة خلال ثلاثة ايام. فسأله [قيصر] هل وجد في الاحشاء بشير خير؟ فأجاب الكاهن:

- هذا ما عليك ان تجيب انت عنه. لأن الآلهة تشير الى قرب حصول تغيير عظيم في مجرى الأمور. فان كنت تجد نفسك الآن حسن الحال فعليك ان تستعد لسوء حظ. وان كنت الآن سيء الحال فلك ان تأمل حسن الحظ.

في الليلة السابقة للمعركة، عندما كان [قيصر] يقوم بدورة منتصف الليل في المعسكر، شوه نور في السماء باهر، خرج منه لهب وبدأ وكأن يرق فوق معسكر قيصر ثم يسقط في معسكر [پومپي]. وتبين جنود المناوبة الذين جاؤوا صباحاً لتسلم الحراسة من خفاء الليل - موجة من الفوضى والقلق ناجمة عن الخوف تجتاح جنود العدو. ومهما يكن فان قيصر لم يكن ليتوقع ان تنشب المعركة في ذلك اليوم بالذات. فقوض معسكره وامر بالسير نحو [سكوتوزا Scotosa] وعلى أثر رفع المضارب هرع كشافته اليه قائلين ان العدو يستعد للمعركة، فطار فرحاً بالنبأ. وبعد ان صلى للآلهة: نظم جيشه في نسق المواجهة وقسمه الى ثلاثة اقسام: القلب، اناط قيادته بـ [دوميتيوس كالفينوس Domitius Calvinus]. وامر [انطوني] على الميسرة، واحتفظ هو بالميمنة معتمراً دخول المعركة وهو على رأس الفرقة العاشرة. لكن ما تبين أن خيالة العدو تتخذ مواضعها قبالته بمظهرها البديع وعددها الكبير، حتى اصدر أوامره سراً بأن تتقدم ست كتائب من احتياط المؤخرة وتوم اليه خلف قطعاته. وافهمها واجبها الذي ستنجزه عندما تبدأ خيالة العدو هجمتها. ووضع [پومپي] نفسه في الميمنة واناط الميسرة [بدرميديوس]. وأمر حميه [سكيبويو] على القلب وجمع ثقل الخيالة كلها في ميسرته بقصد تطويق ميمنة العدو وسحق هذا الجناح الذي يقوده [قيصر]. وكان الاعتقاد يسود جيش [پومپي] بأنه لم يخلق بعد ذلك [القلانكس] الذي يستطيع الصمود امام الهجمة الكاسحة الطريقة. ولا شك انه سيتكسر ويمزق فلواً عندما تصكه قوة من الخيالة بهذه الضخامة. وعندما كملت استعدادات الجانبين واعطيت اشارة الهجوم. كان مشاة [پومپي] في المقدمة فأمرهم بالثبات في مواضعهم وتلقي الهجمة الأولى بهدوء ومن غير ان يحدثوا خللاً في صفوفهم، الى ان يصيح العدو فهو على رميه رمح.

يلوم قيصر [پومپي] لاتخاذ هذه الخطة. فيقول، بدأ لي [پومپي] وكأنه لا يدري كيف أن مُستهلّ الهجمة الأولى يكون على شكل اندفاع عظيم ويتم بهرولة، يعطيان زخماً وقوة

لضربات الجنود. ويلهبان نفوس الرجال بنار الحماسة التي يجعلها الاصطدام الفعلي ناراً متقدة.»

وقد لاحظ [قيصر] عند تحريكه الجنود الى الامام أحد امراء سراياه، وهو عسكري مجرب مقدم يحث جنوده ويحسبهم على بذل كل ما في طوقهم. فناده قيصر باسمه:

- كايوس كراسينيوس Caius Crasinius! أي آمال لنا، واي دافع للتشجيع؟  
فيسط [كراسينيوس] يده ورفعها عالياً وصاح بصوت جهوري:

- سنفوز بنصرٍ باهرٍ، وسأستحق اليوم ثناءك، حياً كنت أم ميتاً.

قال هذا واندفع الى الامام وكان اول رجل يشتبك مع العدو، فتبعه جنوده المائة والعشرون. فأخترق بهم الصفوف الأولى وظلّ يضغط على العدو ويعمل فيه تقتيلاً حتى أخترق فمه حد سيف بلغ من القوة ان خرجت ذبابته من قذاله.

وفيما كانت معركة المشاة الرئيسة محتدمة. تقدمت خيالة [پومبي] بكل ثقة من الميمنة. ونشرت صفوفها الى مسافة واسعة جداً تريد الاحاطة واكمال عملية التطويق. ولكن كتائب قيصر الكامنة اندفعت اليهم وهاجمتهم قبل الالتحام. وامسكوا عن قذفها بالرمح عن بعد ولم يوجهوا طعناتهم الى الأرجل والافخاذ كما جرت العادة في قتال الخيالة عند الاشتباك القريب وانما سدودوا الأسنة الى وجوه الراكبين المتقدمين كما أوصاهم قيصر، متوقفاً أن أولئك السادة الشبان الذين لم يدخلوا معركة من قبل ولم يعرفوا للجراح طعماً، وانما جاؤوا بشعورهم الطويلة وهم في زهرة اعمارهم وواج وسامتهم، لايهتمون بالخطر الآتي ولا بالعار القادم، وصدق وصح ما توقع. فالووا ليكونوا في نجوة من طعنات الرماح، التي لم يطيقوا حتى التطلع اليها وداروا على أعقابهم وغطوا اوجهم وقاية لها. وما ان عمتهم الفوضى المحتومة، حتى انكفأوا على أعقابهم هارين فأتلف عملهم هذا كل شيء. اذ اسرع المنتصرون الى الاحاطة بالمشاة ووقعوا على المؤخرة فمزقوها اربا. وعندما تطلع [پومبي] وهو على رأس الجناح الآخر، وشاهد خيالته مكسورة مدحورة فارقتة ثقته بنفسه، ونسي أنه [پومبي الأكبر]، ووجد نفسه رجلاً جردته الآلهة من ملكاته العقلية، فأنسحب الى خيمته دون ان يلفظ كلمةً. وجلس فيها ينتظر النتيجة. حتى دارت الدائرة على الجيش كله وظهرت طلائع العدو عند العوارض والتاريس المثبتة امام المعسكر والتحمت مع المدافعين عنها. واذا ذاك آفاق من ذهوله وقيل انه نطق بالجملة التالية:

- ماذا؟ افي المعسكر أيضاً؟

ونزع ثياب القائد المميزة له، وارتدى الثوب المناسب للفرار، وخرج من المعسكر متسللاً. وقد اتينا الى ما صادفه من أمور والى كيفية التجائه الى مصر، ومصرعه هناك.

عندما دخل [قيصر] معسكر [پومبي] ورأى جثث بعض خصومه على الارض وشاهد بعضهم الآخر يعاني سكرات الموت قال متنهداً:

- هذا ما كتب لهم في لوح القدر، لقد أجاؤني الى هذه الضرورة. أنا [كايوس قيصر] بعد نجاحي في الحروب العديدة التي خضتها، أأدان ان لم اسرح جيوشي؟

يقول [پوليو Polio] هذه العبارة نطقها قيصر باللاتينية. الا انه دونها بقلمه فيما بعد باليونانية واطاف اليها قوله:

«معظم من قتل عند الاستيلاء على المعسكر كانوا خدماً، ولم يسقط في القتلى أكثر من ستة آلاف».

والحق معظم المشاة الأسرى بفرقه، وعفا عن كثير من الشخصيات البارزة ومنهم [بروتوس] أحد الشركاء في مؤامرة اغتياله لم يظهر أثر [لبروتوس] فور انتهاء المعركة الأمر الذي قلق له [قيصر] وكانت فرحته أعظم من قلقه عندما رآه يدنو منه حياً سليماً.

سبق هذا النصر عدد من الخوارق تكهنت. وبرزها كما قيل لنا - المعجزة التي حصلت [في تراليس Tralles]. كان ثم تمثال لقيصر مستقر على ارض صلبة، كما ان مادة التمثال كانت من أقوى واصلب المرمر، الا ان نخلة نبتت عند قاعدة التمثال. وفي مدينة [پادوا] كان شخص يدعى [كايوس كورنيلوس] عرف بالعرافة الجيدة. وهو صديق للمؤرخ [ليثي] وابن مدينته. اتفق لهذا العراف أنه كان يقوم بشعبذات معينة فاذا به - على ما يخبرنا ليثي - يحدد ساعة المعركة. قائلاً للذين كانوا يراقبونه «الآن بدأت المعركة وتلاحمت الايدي» ثم نظر مرة ثانية في الاشارات وقفز كأن وحياً هبط عليه وصاح «قيصر! انت منصور».

واصيب الحاضرون بدهشة عظيمة. الا انه نزع أكليل الزهر الذي كان يحيط برأسه وحلف انه لن يضعه ثانية حتى يتبين صحة نبواته ويؤكد [ليثي] بصورة قاطعة ان ما يريد هو الحقيقة بعينها.

وخلد [قيصر] نصره هذا باعطاء التساليين حريتهم ثم جد في اثر [پومبي] وعند عبوره الى آسيا، حرر الكنديين Cnidians ومنحهم حق الاقتراع وحول ثلث جزيتهم عن كاهلهم الى أهالي أقليم آسيا كل ذلك في سبيل اكرام ذكرى [ثيومپوپوس] مؤلف مجموعة اساطير. وبوصوله الاسكندرية انهي اليه نبأ مصرع [پومبي]. لكنه لم ينظر الى [ثيودوتس] الذي قدم

له رأس الصريع، وإنما قبل ان يأخذ ختمه وهو يبكي. ويادر باطلاق سراح كل من أعتقله ملك مصر اثناء ما كانوا يهيمون على وجوههم في تلك الانحاء، وقربهم منه. وفي رسالة بعث بها الى اصدقائه بروما صرح لهم ان أكبر فرحة اتاحها له انتصاره، هي استطاعته انقاذ مياة مواطنيه الذين حاربوا ضده.

وأما عن الحرب في مصر، فبعضهم يقول انها لم تكن مشرفة لسمعة [قيصر] ولم تكن ضرورية، وإنما كانت بسبب غرامه بكليوباترا فحسب ويلوم آخرون وزراء الملك ولاسيما الخصي [يوثينيوس Pothinus] وزيره الأول. وهو الذي قتل [پوميبي] ونفى [كليوباترا]. فقد راح هذا يتأمر على قيصر سراً [فاتخذ قيصر لنفسه الحيطرة بقضاء لياليه ساهراً، مدعياً انه يشرب الخمر] ولم يكن [قيصر] يطيقه للاهانات الولية والفعلية التي لا يفتأ يوجهها اليه. كان يكيل لجنود [قيصر] قمحاً عنفاً فاسداً، ويقول لهم:

- عليكم ان تقنعوا به لأنكم تأكلون على حساب الآخرين.

وأمر أن يؤتي طعام [قيصر] باطباق من الخشب والفخار، متعللاً بأن [قيصر] نهب كل الاواني الذهبية والفضية تحت زعم المطالبة بالمتأخر من الدين. (ان والد الملك الحالي كان مديناً لقيصر بمليون وسبعمئة وخمسين الف قطعة نقدٍ فخصم منها قيصر منها لاولاده سبعمئة وخمسين ألفاً ورأى من حقه المطالبة ببقية الدين وقتذاك لسد نفقات جيشه). وقال له [يوثينوس] حري به ان يبارح الآن مصر ويهتم بأمر أكثر خطورة من البقاء هنا، ويستسلم ماله فيما بعد مع الشكر. فأجابه قيصر: أنه لا يرغب ان يتخذ المصريين ناصحين ومستشارين له. ويادر حالاً الى استقدام كليوباترا من منفاها. فاستقلت قارباً صغيراً وليس معها غير [پللودوروس الصقلي محل ثقنتها. وارسى بها القارب في عتمة الليل بالقرب من القصر. وادركتها الحيرة ولم تدر كيف تدخل القصر خلصة، حتى اهتدت الى حيلة، فلقت نفسها بلحاف وقام ابللودوروس بربطه عليها بالحبال وحملها على ظهره كالصخرة وادخل بها القصر حتى جناح [قيصر]. في البدء كان قيصر مأخوذاً بحضور ذهن كليوباترا وذكائها المفرط. وبالأخير افنت بصحبتها الى الحد الذي أجبر اخاها على مصالحتها في مشاركته بالحكم. واقيم حفل كبير بمناسبة الصلح. وفي اثناء هذا الحفل أكتشف حلاق قيصر المؤامرة التي حيكت لاغتياله. كان هذا الحلاق فضولياً مغرماً بتقضي الاحاديث. جعله جنبه المفرط يدس أنفه ويتسبع كل محادثة. وكانت المؤامرة بتدبير [اخيلاس] قائد قوات الملك. وپوثينوس الخصي. فبادر قيصر حال علمه بوضع حرس في القاعة وقتل [پوثينوس] لكن اخيلاس أفلت ولجأ الى الجيش واثار حرباً على [قيصر]؛ حرب اتعبته واورثته كثيراً من الصداق، صعب

عليه ادارتها بالفئة القليلة من الجنود الذين جاء بهم، مقابل قوات كبيرة جداً. ومما لاقاه من صعاب، قلة الماء، فقد حول خصمه مجرى الاقنية عنه. ومنها انه اضطر الى احراق سفنه كلها لما حاول خصمه قطع خطوط موصلاتته البحرية فتحاشى ذلك بهذه الخسارة ولكن اللهيبي امتد الى الارصفة ثم الى المكتبة العظيمة فالتهمها. وفي اثناء معركة بالقرب من [فاروس] قفز من حاجز المرفأ الى قارب صغير لمعونة جنود له وقعوا في مأزق. فشدد عليه المصريون من جميع الجهات ففد نفسه الى البحر ونجا سابحاً بعد لأي. ويروى انه كان يمسك بعدد من الرقوق المخطوطة وكانت هدفاً تسدد اليه الرماح المقذوفة بلا انقطاع. فكان يضطر من البلل ان يبقى يده مرفوعة بينما يستعمل اليد الأخرى فقط للسباحة. وقد غرق قاربه أيضاً.

بالأخير انضم الملك الى [اخيلاس] الأ أن [قيصر] هاجمها وحقق الغلبة عليهما وسقط عدد كبير من القتلى في تلك المعركة ولم ير الملك بعدها فترك [قيصر] كليوباترا ملكة على مصر وولدت له بعد قليل ابناً سماه الاسكندرانيون [قيصاريون]. ورحل هو الى سوريا ومنها الى آسيا. وهناك انبيء ان [فارناكيس Pharnacis] ابن ميسثريداتس قد تغلب على [دوميتيوس] الذي هرب الى اليوننتس بحفنة من الرجال، وان [فارناكيس] يستغل نصره هذا بكل ما فيه من نشاط وعزم، فقد اخضع [بيثينيا] و[كبدوكيا] وهو في سبيله للاستيلاء على ارمينيا السفلي، وارسل ايضاً يدعو جميع الملوك والحكام للشورة على الرومان، فأسرع [قيصر] في اثره بثلاث فرق ونازله بالقرب من [زيبلا Zela] وطرده من اليوننتس، وهزم جيشه هزيمة تامة. روى [قيصر] لصديقه [امانتوس Amantius] تفاصيل هذه الحرب بعد رجوعه الى روما واستخدم ثلاث كلمات للتعبير عن السرعة والحزم التي اخذها به فقال (جئت. رأيت، انتصرت!) ولهذا الكلمات في اللاتينية قافيه واحدة فيكون وقعها على الاذن موسيقياً فضلاً عن ايجازها البليغ.

وركب البحر الى ايطاليا. ودخل روما في نهاية السنة، ولذلك حدد انتخابه دكتاتوراً. وهو منصب لم يستقم لغيره سنة كاملة وانتخب [فنبلاً] للسنة الثانية. واخذت السنة السوء تناله بعد حادثة عصيان بعض الجنود ومثلهم الپيرتورين [كوسكونيوس Cosconis]، وگالبا Gal-ba. ولم يكن عقابه لهما أكثر من تأنيب ناداهم فيه (بالمواطنين) بدلاً من مناداتهم «باخواني الجنود». ومنح كل واحد منهم الف درهم. فضلاً عن قطعة أرض في ناحية من ايطاليا. كذلك اخذ الناس يغتابونه لإسراف [دوللابلاً] وفجور [انطوني] وتبذير [كورقينيوس] الذي هدم دار [پوميبي] ليبنى مكانه داراً أفضل منه، فكان البناء الثاني ادنى مستوى من الأول كل هذه الأمور اثار استياء الرومان وسخطهم. لكن قيصر لم يكن بالذي يجهل أخلاق



اصحابه، ولا بالأعمى عن تصرفاتهم ولم يكن ليقرها لولا انه كان مضطراً الى استخدام هؤلاء لاجل تسيير دفة الحكم بالشكل الذي يرضيه.

بعد معركة فرساليا هرب [كاتو] و[سكيبيو] الى افريقيا، وحشدا هناك قوات كبيرة بمساعدة (جوبا) الملك. فقرر [قيصر] قتالهم وعبر الخليج الى صقلية في حدود انقلاب الشتاء. ولأجل ان يزيل من رؤوس ضباطه اي املٍ بالترث والبقاء، عسكر على ساحل البحر. وما ان هبت ريح موآتية حتى ركب هذه القوة في سواحل افريقيا وكرّ راجعاً خفية وقد ساورته المخاوف على القسم الاكبر لكن مخاوفه زالت عندما التقى به في عرض البحر فقادهم بنفسه الى المعسكر. وانبيء ان الاعداء يستخدمون على نطاق واسع تلك النبوءة الغابرة القائلة «بأن اسرة سكيبيو ستكون ابداً منصوراً في افريقيا.» وكان يوجد في جيشه شخص خامل الشأن وضيع الشخصية من أسرة [افريقيا] اسمه [سكيبيو ساللوتير Sallutio] فجاء به ووضع على رأس جيشه [يصعب القول: هل اراد قيصر بذلك السخرية من سكيبيو الذي كان يقود جيش العدو، ام انه كان جاداً مؤمناً بالنبوءة يسعى لان تكون في صالحه؟] وهكذا بدأ الرجل الخامل الشأن كالجنرال في كل المعارك العديدة التي خاضها قيصر الى النهاية.

كان [قيصر] مفتقراً الى الاقوات لاطعام جنوده وعلف حيواناته، حتى اضطر الى اطعام خيله الاعشاب البحرية بعد غسلها غسلًا تاماً لازالة الملح منها، وخلطها بقليل من العشب الأخضر ليكون مذاقاً مستساغاً.

كان النوميديون بكثرة عددهم واصالة خيولهم سادة الميدان بلا جدال. فايما ذهب [قيصر] تعقبوه وادركوه وبسطوا سيطرتهم على الارض. ومرة كانت خيالة قيصر في غفلة. لم يكن لديهم واجب يشغلهم فوقفوا يستمتعون بمشاهدة احد الافارقة وهو يرقص رقصاً عجبياً وبنفخ في المزمارة في الوقت نفسه وفيما هم منصرفون اليه وكلهم راجلون وقد اسلموا اعنة خيولهم الى بعض الصبيان، احدق العدو بهم من كل جانب فقتل بعضهم وتعقب الفارين حتى معسكرهم فكرّ عليهم ولو لم يخف قيصر و[اسينيوس پوليو] لمعوتهم ووقف فرارهم لانتهدت الحرب.

وفي اشتباك آخر أيضاً كان العدو مستظهِراً فأمسك قيصر بعنق أحد حملة الأعلام وهو معن في الهرب والوى وجهه نحو العدو بقوة وقال:

- انظر! هذا هو سبيلك الى العدو.

انتفخ [سكيبيو] زهواً بهذا النصر. وراودته فكرة الاشتباك في معركة فاصلة. فترك

[افرانيوس] و[جوبا] كلاً مع قطعاته المنفصلة والمتقاربة في عين الوقت وتقدم بنفسه نحو [تابسوس Thapsus] وهناك شرع يقيم معسكراً مستحكماً على بحيرة يتخذها محوراً للعمليات الحربية، وملاًذاً يلجأون اليه في عين الوقت. وفيما كان [سكيبيو] منهمكاً في اعداد معسكره سار اليه [قيصر] بسرعة لاتصدق فأجتاز غابات كثيفة وارااضي لم يسبق لاحد ان اجتازها لصعوبتها، وحاصراً قسماً من جيش العدو وهاجم القسم الثاني هجوماً جبهياً فهزمه. ولم يترث بل واصل استغلال حسن حظّه واجتاح في هجوم آخر معسكر [افرانيوس] ونهب معسكر النوميديين. واعتبر [جوبا] نفسه سعيداً لأنه نجح في الفرار، وهكذا بساعات قلائل من يوم واحد تمكن قيصر من الاستيلاء على ثلاثة معسكرات وقتل خمسين الفاً، ولم يخسر غير خمسين رجلاً.

تلك هي تفاصيل هذه الحرب كما رويت، ويقول بعضهم ان قيصر لم يكن موجوداً اثناء المعركة. فقد فاجأته احدى النوبات الاعتيادية من الصرع وهو يشرف على تنظيم صفوفه وشعر يقدمها وقيل ان تتمكن منه وتفقدته وعيه، وفيما كانت اوصاله تهتز وترتعش، انسحب الى القلعة المجاورة وركد.

وقبض على عدد عن كانوا حائزين مناصب القنصلية والپريتورية فقتلهم. أما بعضهم فقد سبقوه وبخعوا انفسهم.

واضطلع [كاتو] بمهمة الدفاع عن [أوتيكا Utica] فلم يكن في المعركة، وكانت رغبة [قيصر] في أخذه حياً هي التي دفعته الى الزحف على المدينة. وفيما هو جادٌ بسيره. اتاه من يخبره بأن [كاتو] يخع نفسه. فتألم كثيراً. ولم يتفق على سبب ألمه ولكن من المؤكد انه نطق بالعبارة الآتية عندما بلغه النبأ:

- اي [كاتو] اني حقدى عليك لموتك كان يساوي حقدك علي لو منحتني شرف انقاذ حياتك. غير ان الرسالة التي كتبها [ضد كاتو] بعد ذلك، ليس فيها دليل على عطفه، ولا يظهر فيها ميل الى مصافاته والعتو عنه. كيف يكون متسامحاً معه وهو حي، في حين يظهر حقداً واضحاً عليه وهو ميت؟ لكن بوسع المرء ان يستنبح ما يستنبح من عفوه عن [شيشرون] و[بروتوس] وكثير غيرهم ممن عادوه وحاربوه. لم يكتب قيصر رسالته هذه بسبب عداته [لكاتو] بل دفاعاً عن نفسه وتبريراً لأعماله. كان شيشرون قد كتب رسالة ثناء بحق كاتو وجعل اسمه عنواناً لها. وكان مقدراً لهذه الرسالة المدونة بيد استاذ عظيم في موضوع ممتاز - ان تتداولها كل الأيدي وهذا ما اثار [قيصر] الذي اعتبر اطراء خصومه شيئاً أشبه بالذم له.

ولذلك نراه يجمع في رسالته [ضد كاتوا] كل ما قيل في ثلمه وانتقاص من قدره. ولكل من الرسائلين معجبون كما لكل من شخصيتي [قيصر] و[كاتوا].

عند عودة [قيصر] الى روما لم ينس ان يقدم للناس تفاصيل رائعة الانتصاراته. ومما قاله لهم انه اخضع بلاداً تدر عليهم سنوياً مائتي الف بوشل<sup>(5)</sup> يوناني قمحاً، وثلاثة ملايين باوند من الزيت. واجيز بالسير في ثلاثة مواكب نصر: لمصر، ولليوننتس ولأفريقيا، ولم يكن الموكب الثالث تخليداً لنصره على [سكيبسيو] بل على [جوبا] الملك كما أعلن عن ذلك وقد شوهد في هذا الموكب وجوبا الصغير.

وكان أسعد اسير حظاً. فقد بلغ هذا البربري النوميدي مصاف اعظم مؤرخي الأغريق.

وبعد هذا وزع [قيصر] العطايا والمكافآت على جنوده ونظم للجمهور الحفلات والمسارح. ودعا أهالي روما كلهم الى وليمة جماعية واحدة، فنصب اثنان وعشرون متكأ ومائدة. وأمر بعرض للمصارعين والمعارك البحرية، تكريماً لابنته يوليا. مع أنها ماتت منذ زمن. وأجرى احصاءً عاماً لأهالي روما بعد هذه الاحتفالات فظهر أن السكان نقصوا الى مائة وخمسين ألفاً بعد ان كانوا ثلاثمائة وعشرين، وهي الخسارة التي انزلتها الحرب الاهلية بها. ولا نذكر ما حلّ ببقية ايطاليا والاقاليم الأخرى.

انتخب [قيصر] قنصلاً للمرة الرابعة وخرج الى اسبانيا لقتال ابني [پومبي] وكانا صغيري السن. إلا أنهما جمعا حولهما جيشاً لجباً واطهرا من الحذق والشجاعة ما اهلها لقيادته. واحس [قيصر] انه مقدم على مجازفة كبيرة. وجرت الواقعة الكبرى قرب مدينة [موندا] ولاحظ قيصر أن جنوده يعانون ضغطاً شديداً وان مقاومتهم تضعف.

فأسرع الى الامام يشق الصفوف وصاح بين الجنود:

- الا تخجلون من تسليمي الى صبيين؟

بعد احوال من القتال واستماتته تمكن من دحر العدو وقتل ثلاثين ألفاً منه، بخسارة الف من جنوده. وعند عودته من المعركة قال لأصحابه:

- قاتلت كثيراً لأجل احرار النصر. ولم اقاتل لانقذ نفسي إلا في هذه المرة.

انتصر في عيد باخوس. وهو يوافق يوم اعلان [پومبي] الحرب عليه قبل اربع سنوات، ونجا من الموت أصغر ابني [پومبي] إلا ان [ديديوس Didius] جاء برأس أكبرهما بعد مضي ايامٍ وبهذه المعركة كانت خاتمة حروب [قيصر].

كان استياء الرومان من موكب نصره بهذا المناسبة، لا يُحدّ ولا يوصف وقالوا انه لم يتغلب على قادة اجانب أو على ملوك البرابرة. وانما قضى على اولاد واسرة رجل من أعظم الرومان. وان كان الخطّ قد خانه. ولذلك لم يكن من المستساغ أو اللائق ان يحتفل [قيصر] بمصائب بلاده، ويعلن الافراح في امور لا مجال له في تقديم اي اعتذار عنها سواء للآلهة ام للبشر، عدا قوله انها كانت لضرورة ملجئة. ثم انه ظلّ ساكناً عن أعماله الحربية هناك حتى عودته فلم يبعث الى الوطن برسالة أو نبأ عن نصرٍ حازه. بل بدا خجله من ذلك أكثر من توقعه مجدداً منه.

نزل مواطنو [قيصر] عن الكلّ له. وقبلوا باليسير الممنوح لهم، مؤملين ان حكومة الفرد ستفسح لهم مجالاً لالتقاط انفسهم بعد كثير من الحروب الاهلية والمصائب الوطنية. فنصبوه دكتاتوراً مدى الحياة. وهذا في الواقع حكم الطغاة والاستبداد الصريح الذي لا مواربة فيه، لم يكن مطلقاً بل كان دائماً أيضاً. وتقدم شيشرون باول المقترحات الى المجلس لتكريم قيصر. ولم يكن فيها اسراف وانما كانت تناسب اي انسان معتدل إلا ان الآخرين تسابقوا على الاكثر وارتفعوا الى حدّ جعل من [قيصر] شخصاً بغيضاً لدى أكثر الناس اعتدالاً، وابعدهم عن الاكتراث بمثل هذه الامور. ويعتقد ان لاعدائه سهماً في ذلك بقدر ما متملقه لأن هذا يخدم اغراضهم ويهيء لهم الذرائع للعمل عنده، ولتبرير اية محاولة ترمي الى اسقاطه. اذ لم يكن لديهم بعد ان وضعت الحرب اوزارها ما يتهمونه به فقد بنوا هيكلاً لآلهة الرفق [كليمنسي] اعترافاً بامتنانهم له لأنه استغلّ نصره للرحمة والعفو، فلم يكتف بالعفو عن العديد ممن حاربوه، بل منح طائفة منهم ارفع المناصب وخلع عليهم. ونخصّ بالذكر [بروتوس] و[كاسيوس] وكلاهما كان پريتوراً. كذلك اعاد تماثيل پومبي الى مكانها وكانت قد رفعت. فعقب شيشرون هذا العمل بقوله: «انه ركز تماثيله بنصب تماثيل [پومبي]، وعندما نصحه اصحابه باتخاذ حرس شخصي بنفسه وعرض العديد منهم أنفسهم لذلك، رفض رفضاً باتاً وقال:

- انه لخير للمرء ان يموت مرةً من ان يحيا في خوفٍ مستديم منه.

وعدّ حب الجمهور وتعلقه به، افضل وضمن من ايّ حرسٍ واقام للمرة الثانية مهرجانات عامة لتسليية وامر بتوزيع القمح، وكافأ افراد جيشه بتأسيس المستوطنات لهم في عدة مناطق من جملتها مستوطنتا قرطاجنة وكورنث اللتان دمرتا في وقت سابق فاعادهما الى سابق عهدهما واعمرهما بالمستوطنين.

وكثرت عهوده ووعوده للاشراف وعلية القوم، بالمناصب القنصلية والپريتورية في المستقبل

(5) مكيال للحبوب يساوي 8 غالونات أو 1/2 32 ليطراً.

وارضى فريقاً بوظائف ومناصب ولم يند لأحد املاً، بما كان يبيده من اهتمام مفرط في أن يظهر للملا حاكماً عدلاً لا يضمير غير حسن النية. فمثلاً عند موت [مكسيموس] القنصل قبل انتهاء فترته بيوم واحد يبادر الى نصب [كانينيوس رثيليوس Caninius Revilus] قنصلاً لليوم الواحد المتبقى. واخذ الناس يتقاطرون لتهنئة القنصل الجديد فقال شيشرون.

- فلنسرع لئلا تنتهي فترته قبل وصولنا اليه!

ولد قيصر لعظائم الأمور، ولم يكن ليستقر له قرار في اطلاب المجد، ولم تُغره الأعمال العظيمة التي انجزها بالجلوس وقطف ثمار اتعابه. بل كانت محرضة له ومشجعة على المضي في هذا السبيل، ومثيرة في نفسه افكاراً ومشاريع لأعمال اعظم منها ورغبة في امجاد جديدة كأن الحاضر بالنسبة اليه منته وهو يتطلع الى الآتي. في الواقع كان ثم صراع عنيف بينه وبين نفسه، وكأنه شخصان مختلفان. فتراه يعمل الفكر للتفوق على ما مضى بما هو آت. ولهذا قرر ان يشن حرباً على البارثيين ثم التوجه الى [هرقانيا] بعد اخضاعهم. ومن هرقانيا الى بحر قزوين وجبال القفقاس ثم يسير بمحاذاة البحر الأسود ويدخل بلاد الصيتين ويحتاج كل البلاد المتأخمة لجرمانيا ويدوخ جرمانيا نفسها ثم يعود الى ايطاليا ماراً ببلاد الغال. وبعد اكماله دائرة لامبراطوريته وجعل حدودها الماء من كل الجهات وفيما بدأت الاستعدادات لذلك، اقترح أن يحفر البرزخ الذي تقوم عليه [كورنث] وعين [أنينوس Anienus] للاشراف على العمل. وفكر ايضاً في تغيير مجرى التبر، وتحويله بقناة عميقة مباشرة من روما الى [جرچيي Circeii] ثم الى البحر بالقرب من [تاراكينا Tarracina] ليكون سبيلاً سهلاً مأموناً لكل التجار المتعاملين مع روما. واعتزم ايضاً تجفيف كل المستنقعات القريبة من [پومنتيوم Pomentium] و[سيتيا Setia] واستصلاح اراض واسعة للزراعة بعد استخلاصها من المياه. واقترح عمل تلال كبيرة في اقرب ساحل بحري الى روما ليمنع طغيان مياه البحر على اليابسة ثمة. وتنظيف الساحل قرب [اوستيا Ostia] من كل الصخور والرمال الضحضاحة التي تجعل رسو السفن هناك غير مأمون وانشاء مرافيء وموانئ صالحة لاستقبال العدد الكبير من السفن.

هذه المشاريع تم تخطيطها واقرارها الا انها لم تنفذ، غير ان اصلاحه التقويم السنوي لتصحيح الخلل في الوقت وقد اتمه بشكل علمي دقيق بارع. فبرهن على فائدته العظمى. منذ العهود الغابرة كان الرومان بحاجة الى مبدأ معين وقاعدة ثابتة تحكم تتابع الأشهر ضمن السنة دون زيادة او نقصان حتى لا تتحول اعيادهم وايام قرابينهم بالتدريج حتى تقع بالأخير في الفصول التي لا تستقيم مطلقاً مع طبيعة تلك الاعياد. ولم يكن لدى الناس حتى ذلك

الحين قاعدة لحساب السنة الشمسية ولم يكن يعرف حساب الوقت غير الكهنة، وهم كما شاءت احوالهم وامزجتهم يدخلون الناس دون سابق انذار في الشهر الكبس الذي يسمونه [مركيدونيوس Mercedonius] و[نوما] هو الذي ادخل هذا الشهر في السنة. الا ان محاولته لم تكن ناجحة لاصلاح الأخطاء الناجمة عن متعاقب الدورات السنوية كما بينا ذلك في سيرته. ولذلك استدعى [قيصر]، خير فلاسفة وحاسبي عصره لتسوية المشكلة. واستخرج من النظام الذي قدم اليه، قاعدة جديدة أكثر دقة لاصلاح التقويم. فثبت الرومان عليه حتى يومنا هذا وظهر انهم انجح اي شعب آخر في تحاشي الاغلاط الناجمة عن عدم انتظام الدورة السنوية. هذا العمل الجليل اغاظ ايضاً أولئك الذين ينظرون الى انجازاته نظرة سوداء. ويشعرون بالضيق والحرج من سلطته. اتفق مرة أن أحد اصداق شيشرون قال:

- ستشرق ليبرا Lyra<sup>(٦)</sup> صباح اليوم التالي.

فردّ شيشرون: أجل ستشرق، حسب احكام المرسوم!

كأن المسألة إرغام قانوني.

الا أن السخط الأعظم الذي انصب عليه من الجمهور، هو رغبته في الملكية، كان هذا فاتحة انفصام العلاقة الطيبة بينه وبين العامة. وكان فضلاً عن هذا ذريعة معقولة لأعدائه في السر، زعم الذين ارادوه ملكاً أن كتب [السييل Siyle] تنبأت بأن الرومان لن يستظهروا على البارثيين الا عندما يكون ملك على رأسهم وليس قبل ذلك باي حال. وفي ذات يوم بينما كان [قيصر] نازلاً من [ألبا] الى روما تجرأ بعضهم فحياه بتحية الملوك. ولحظ أن الناس المتجمهرين لم يرقهم الأمر فأظهر الامتعاض من التحية. وقال أن اسمه [قيصر]. وليس [ملكاً]. وعندها ساد سكون عام ومر بين الناس دون أن تظهر عليه علائم الارتياح أو الرضا. ومرة أخرى عندما اغرقه المجلس بضروب من التكريم والامتيازات اتفق ان تسلم قرارهم بذلك وهو جالس على كرسي الخطابة [روسترا Rostra] حيث كان القناصل والپريتوريين وكل اعضاء مجلس الشيوخ واقفين اجلالاً له. فلم ينهض لهم وعاملهم كأنهم من عامة الناس. ثم قال: ان ما خلعه عليه من تكريم وامتياز يحتاج بالأحرى الى حماية لا الى زيادة. هذا الموقف جرح مشاعر الشيوخ والعامة معاً. فالاخرون عدواً اهانة المجلس، اهانة تسرى على جميع الشعب. ولم يستأذن بالانصراف، بل تفرق الحضور وكلهم الم وادرك [قيصر] هفوته فأب الى منزله واستلقى كاشفاً عن رقبته وخاطب اصحابه قائلاً:

- اني مستعد لتقديم هذه لكل من يريد ان يسدد لها طعنة.

(٦) كوكبة القيثارة. النسر الواقع.

واعتذر عن خشونته بالمرض زاعماً ان المصابين يفقدون حضور ذهنهم ان هم تكلموا طويلاً في حالة الوقوف. فيصابون بدوار ثم تتشنج ثم يفقدون الوعي تماماً. على ان الواقع لم يكن كذلك، فقد كان يهيم بالوقوف احتراماً للمجلس عندما انحنى اليه [كورنيليوس بالبوس] احد اصحابه بل أحد المتزلفين وهمس في اذنه:

- الا تتذكر أنك [قيصر] وانك لا تأخذ إلا ما يستحقه مقامك؟

واتاح فرصة أخرى للحاقدين باهانتته التريبونات. كان يحتفل حينذاك بعيد [الوبركاليا] وهو عيد الرعاة بالاصل كما يقول بعض الكتاب وله بعض صلة (بليقية الاركادية) وفيه ترى الفتيان الاشراف والحكام يركضون في شوارع المدينة ذهاباً واياباً وقد نضوا عنهم الجزء الأعلى من ارديتهم يضربون كل من صادفوه بسوطٍ من الجلد على سبيل التفكهة والمزاح. وتعرض نساء كثيرات من ذوي الوجاهة والمقام سبيلهم وهن رافعات الاكف لتلقي ضربة السوط كما يفعل معلم المدرسة بتلاميذه عقاباً. معتقدات ان ذلك يسهل للحامل وضع وليدها ويجعل العاقر ولوداً. وجلس قيصر على كرسي من الذهب متوشحاً برداء النصر في الروسترا، يرقب الاحتفال. وكان [انطوني] القنصل اذ ذاك، أحد الراكضين فعند وصوله الفورم افسح الناس له، فصعد وقدم لقيصر تاجاً مزداناً بالغار، وندّ من بين الجمهور هتاف ضعيف، من قلة كانت قد جمعت لهذا الغرض. وعندما رفض قيصر التاج تعالى الهتاف مجلجلاً عاماً. وقدم اليه ثانية فلقي العمل هتافاً اضعف من الأول، وعاد الى رفضه فارتفع الهتاف يشق عنان السماء. فايقن قيصر أن اللعبة مقضي عليها ونهض وأمر ان يؤخذ التاج الى الكابيتول، ثم بدت تماثيل [قيصر] وعلى رؤوسها التاج الملكي. فذهب التريبونان الشعيبان [فلاقيوس-Flavius] و[ماروللوس Marullus] حيث تقوم التماثيل وانتزعوا التيجان عن هاماتها واعتقلا اول من حياً [قيصر] بالملكية واودعاهم السجن، فسار الجمهور خلفهما مشيعاً بهتاف الاستحسان والتشجيع وأطلقوا عليهما لقب [بروتوس] لأن [بروتوس] كان أول من انهى التعاقب الملكي في الدولة الرومانية ونقل السلطة الى مجلس الشيوخ والعامه بعد ان كانت مركزة في يد شخص واحد فاغتاظ [قيصر] وعزل التريبونان، واستهان بمشاعر الاهالي باصراره على اتهامهما - ولقب الرجلين أكثر من مرة بـ[بروتي Bruti] و[كيوماي Cu-maei].

هذا ما جعل الجمهور يتطلع بانظاره الى [ماركوس بروتوس] سليل بروتوس الاول من جهة ابيه على ارجح الاقوال، وسليل الاسرة النبيلة المشهورة [سرقيلي] من جهة امه، وابن اخت [كاتو] ختنه. الا ان الامتيازات والمناصب التي خلعتها عليه قيصر اخمدت فيه اية فكرة قد

تساوره في الاطاحة بحكومة الفرد. عفا عنه [قيصر] في فرساليا بعد هزيمة [پومپي] وسعى هو بعد ذلك الى نيل العفو عن كثير من اصحابه، كما كان موضع ثقة قيصر الخاصة، وكان يتقلد في ذلك الحين ارفع پريتورية. ورسم له قيصر ان يتسمن منصب القنصلية بعد اربع سنوات مقدماً اياه على [كاسيوس] منافسه فيها. وعندما سئل [قيصر] عن هذا التفضيل قال:

- كاسيوس أحقّ بها، لكنني لا استطيع اغفال [بروتوس].

ولم يضع لمن اغتاب [بروتوس] بعد ان قطعت مؤامرة اغتياله شوطاً بل وضع يده على جسمه وقال للنمام:

- بروتوس سينتظر جلدي هذا.

يعني انه جدير بتسلم الحكم لما يتحلّى به من خلق. لكنه لن يكون سافلاً ولا ناكر جميل الى الحد الذي يعمد لأخذه غصباً. ولم يجرأ على مفاخرة [بروتوس] بالمؤامرة أحد ممن كانوا يطمحون الى التغيير وينظرون اليه بوصفه الشخص الوحيد - او الانسب على الأقل - بتحقيق هذا التغيير. على انهم كانوا يأتون ليلاً فيصفون على كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه عند فضّ الدعاوى والنظر في الظلامات - اوراقاً فيها مثل هذه العبارات:

«انت نائم يا بروتوس». «لم تعد بروتوس بعد».

وعندما أحسّ [كاسيوس] أن الطموح بدأ يتمخض فيه، سارع في اذكائه. وكان كاسيوس يحقد على [قيصر] حقداً شخصياً لأسباب كثيرة سنأتي الى ذكرها في سيرة [بروتوس].

ولم يكن [قيصر] يخلو من شك في نوايا [كاسيوس] فلقد قال مرة لاصحابه:

- ما رأيكم فيما يهدف اليه كاسيوس؟ اني لا أحبه، انه يبدو شديد الشحوب.

ولما قيل له ان [انطوني] و[دولابلاً] شريكان في المؤامرة اجاب:

- اني لا أخشى مثل هذين المبدنيين المترفين. لكن أخشى اولاء الرجلين الضعيفين الشاحبي الوجه.

يعني كاسيوس وبروتوس.

ومهما يكن من أمرٍ فالقدر - كما تدل الظواهر، هو محتوم أكثر مما هو غير متوقع، ولقد قيل ان خوارق عديدة وظواهر طبيعية لوحظت قبل تنفيذ المؤامرة. ونحن لا نرى ما يستأهل الذكر في انوار اضاءت السماء واصوات سمعت في الليل وطبور حطت في الفورم. فهناك مثلاً ما اورده الفيلسوف [سترابو] حول مشاهدة عدد من الرجال بدوا وكأنهم سخنوا بالنار

يجادلون بعضهم بعضاً. وخروج حزمة نار من يد خادمٍ لأحد الجنود، حتى خيل للحاضرين أنها احترقت في حين ظلت سليمة لم يلحقها ضرر. وهناك معجزة أخرى رواها كثيرون وهي ان عرافاً طلب من قيصر ان يحذر خطراً عظيماً سيتعرض له بعد منتصف آذار<sup>(٧)</sup>. وعند حلول ذلك اليوم لقي قيصر العراف بالصدفة اثناء ما هو داخل مجلس الشيوخ فطفق يمازحه قائلاً:

- لقد حلّ منتصف آذار.

فأجابه العراف بهدوء: أجل حلّ ولكنه لم ينته بعد.

وفي اليوم الذي سبق اغتياله تعشى مع [ماركوس لبيدروس] وفيما هو يوقع بعض الرسائل جرياً على عاداته، اثيرت وهو متكيء على المائدة - مناقشة حول أفضل ميتة فأسرع يجيب قبل ان يسبقه أحد:

- موت الفجأة.

ثم انه عاد الى منزله واستلقى على الفراش الى جانب زوجته، فاذا بجميع ابواب الدار ونوافذها تنفتح معاً على مصاريعها فأجفل للصوت وبهره الضوء الذي نفذ الى الغرفة. وجلس على سريره. وفي نور القمر وجد كالپورنيا مستغرقة في نوم عميق الا انه سمعها تهمس في حلمها بكلمات غير مفهومة وتصعد انينا وآهات. لقد كانت تحلم بانها تبكى فوق جثة زوجها وهو مشخن بالجراح يلفظ انفاسه بين ذراعيها. ويقول آخرون ان الحلم الذي رآته غير هذا. بل رأت البرج الذي قرر الشيوخ بناءه في سطح دار [قيصر] بمثابة زخرف وكدليل على الرفعة والسؤدد، قد تداعى وخرّ وكان هذا سبب بكائها وانينها، على ما خبرنا ليثي. واستقيظت صباحاً وتوسلت بقيصر الا يخرج من الدار ان امكن وان يؤجل اجتماع المجلس الى موعد آخر. وان استهان بالرؤيا فحبذوا لو استخار طالعه بتقديم القرابين واداء بعض الفرائض الأخرى. ولم يكن هو نفسه يخلو من الشكوك والمخاوف. كما انه لم يعرف من زوجه كالپورنيا شدة ايمانها بالخرافات كغيرها من النسوة. وها هو يراها وقد استحوذ عليها القلق الشديد.

قال الكهنة انهم نحرّوا عدداً من الأضاحي فوجدوها منحوسة. فقرر ان يبعث انطوني لفضّ المجلس.

وكان ثم شخص يدعي [ديتيموس بروتوس Decimus Brutus] ويلقب [البينوس] وهو

(٧) في التقويم الروماني كلمة Ides تشير الى الخامس عشر من آذار او من تشرين الثاني من الايام السبعة التي تليه.

أحد من وثق بهم قيصر وأتمنهم بحيث جعله وريثه الثاني. لكنه كان من الشركاء في الموأمة. فخشي ان تأجل الاجتماع ان ينكشف السرّ. فأخذ يندد ويسخر بالعرانين ويلوم [قيصر] لأنه سيقوم الحجّة على نفسه بأهانة المجلس لأنهم لم يجتمعوا الا بدعوة منه. وقال انهم على استعداد للتصويت بالاجماع على المناذاة به ملكاً لكل الامبراطورية خارج ايطاليا. وسيضعون على رأسه تاج الملك. فلو أرسل من يطلب منهم التفرق في الوقت الحاضر ثم الاجتماع بعد أن يتفق لكالپورنيا أن ترى حليماً أفضل مما رأت أمس. فماذا سيقول خصومه؟ وكيف السبيل لاصحابه الى الصبر وكظم الغيظ ان سمعوا تهم الطغيان والتحكّم تكال له؟ ومع هذا اذا اصرّ ان هذا اليوم يوم نحس فحريّ به ان يذهب هو بنفسه الى المجلس ويطلب التأجيل. قال هذا وأمسك بيد قيصر وساربه. ولم يمض بعيداً عن المنزل حتى تعقبه خادم من الخدم فعجز عن اللحاق به، بسبب الازدحام فقصد منزله وطلب من كالپورنيا متضرعاً ان تحميه في الدار حتى عودة [قيصر] لأن لديه اموراً في غاية من الاهمية يريد أن يكشفها له.

وكان ثمّ معلم اليوناني اسمه [ارتيمودوروس الكنيدي Artimodorus]. افسحت له صناعته المجال للتصرف بيروتس فتم له الاطلاع على السرّ. جلب هذا المعلم لقيصر اسماء الرؤوس التي ينبغي له اجتنابها مكتوبة على ورقة صغيرة. وكان يعلم أن [قيصر] اعتاد ان يسلم الاوراق التي تقدم له الى احد الخدم القريبين منه فاقترب منه غاية ما امكنه وقال له وهو يناوله الورقة.

- اقرأ هذه يا قيصر. على انفراد وبسرعة. لأنها تتضمن أمراً خطيراً يخصّك بالذات.

تسلم قيصر الورقة وحاول قرأتها عدة مرات فأخفق بسبب تراحم الناس لمكالمته. فابقاها في يده وحدها حتى دخل المجلس ويقول آخرون ان معطي الورقة هو شخص آخر، وان ارتيمودوروس لم يستطيع الوصول اليه وبقي بعيداً عنه بسبب الازدحام.

ربما جرت هذه الاحداث بمحض الصدفة والاتفاق. الا ان الموضع الذي قدّر ان يكون محلّ التنفيذ حيث كان المجلس سيعقد جلسته يومذاك، هو واحد من الصروح التي بناها [پومبي] ووقفها مع مرسحه للنفع العام، الامر الذي يوضح ان هناك موجهاً للاحداث من قوى ما وراء الطبيعة، يفرض وقوعه في زمان ومكان معينين.

قيل ان [كاسيوس] وجه نظره الى تمثال [پومبي] مستمدداً منه المعونة في سرّه. مع انه من معتنقي المبدأ الابيقوري.

الا ان رهبة الموقف وعظم المطر افقدها توازنه العقلي وملاؤه في تلك الخطة بنوع من الوحي.

اما [انطوني] القوي العضل الذي لم يكن يفارق قيصر. فقد ابقاه [بروتوس البينوس] خارج المجلس وشاغله بحديث طويل اخترعه لهذا الغرض. ودخل قيصر فنهض اعضاء المجلس احتراماً له. وتقدم بعض المتآمرين فوقفوا خلف كرسية، وآخرون وقفوا امامه متظاهرين بمساندة [تيلليوس كمبر Tillius Cimber] الذي يتشفع لأخيه المنفي. وأخذوا يتبعونه وهو سائر الى مقعده بكلمات التوسط والاسترحام حتى اذا جلس رفض الاستجابة الى الرجاء فالجواً عليه فبدأ يعنفهم بشدة لكثرة لجأتهم. وعندها مسك [تليلوس] رداءه بكلتا يديه وجذبه الى تحت فكشف عن عنقه وتلك هي الاشارة المتفق عليها بين المتآمرين. واصابه [كاسكا Casca] باول طعنة من خنجره ولم تكن قتالة ولا بليغة، لأن الضارب كان شديد الاضطراب شأن كل باديء بعمل جريء مثل هذا. فاستدار قيصر حالاً وامسك بالخنجر ولم يفلته وصاح الضارب والمضروب معاً. قال قيصر باللاتينية

- كاسكا أيها الخسيس ماذا يعني هذا؟

وقال كاسكا بالاغريقية مستنجداً باخيه:

- عونك يا أخ!

في المبدأ اصيب كل من لا علم له بالمؤامرة بما يشبه الذهول والوجوم وبلغ الرعب بهم الحد الذي شل حركتهم فلم يقدموا على الفرار ولم يجرأوا على مساعدة قيصر. ولم ينطقوا بكلمة. اما الذين كانوا متهيئين لها فقد شدوا الخناق عليه من كل صوب بخناجرهم المجردة. فكان يتلقى طعنةً اني توجه ورأى سيوفهم مسددة الى وجهه وعينيه وحوصر كالوحش الضاري المكافح. كان الاتفاق فيما بينهم أن يشارك كل واحد منهم بطعنة ويلطخوا انفسهم بدمه. ولهذا سدّد بروتوس طعنه الى ما فوق الفخذ ويقول بعضهم ان [قيصر] قاوم الجميع محرراً جسمه لتحاشي الطعنات وهو يصرخ مستنجداً الى ان رأى سيف [بروتوس] مسلولاً، فحينذاك غطى وجهه بطرف رداءه وكف عن الحركة وسقط على الارض عند قاعدة تمثال [پومپي]. ولا يعلم أكان هذا مجرد صدفة ام ان قاتليه تعمدوا دفعه الى تلك الجهة؟ فتلطخ التمثال بدمه. وهكذا بدا وكأن [پومپي] نفسه قد تزعم عملية الانتقام من خصمه فسقط تحت قدميه ولفظ آخر انفاسه وهو مثنى بالجراح. أصيب على ما قيل بثلاث وعشرين طعنة وجرح عدد من المتآمرين بأسلحة اخوانهم عند تسديدهم الضربات الى الشخص واحد.

بعد ان تم القضاء على [قيصر] وقف [بروتوس] خطيباً يشرح الاسباب التي حملتهم على قتله. لكن مجلس الشيوخ كان عازفاً عن سماعه وتسابق اعضاؤه الى الفرار فملأوا الناس

رعباً وقلقاً فأغلقت طائفة بيوتهم عليهم وترك آخرون حوانيتهم واماكن عملهم وصار الجميع يتراكمون في الشوارع، بعض قاصداً موضع الجريمة. وبعض عائد من موضع الجريمة. وأفلت [انطوني] و[ليبيدوس] اصدق اصدقاء قيصر. واختفيا في دار أحد الاصدقاء. وخرج بروتوس وشركاؤه ونفوسهم مازالت متوقدة بحرارة الموقف. وتركوا المجلس كتلةً واحدة وقصدوا الكايبيتول والسيوف مشرعة في ايديهم، لا كمن يفكر بالفرار ولكن بثقة واعتزاز.

وكانوا ينادون في الناس اثناء سيرهم ان يستمتعوا بالحرية. ودعوا كل من صادفوه من عليّة القوم للانضمام اليهم. فالتحق بهم عدد منهم وسار مع موكبهم كما لو كان شريكاً في المؤامرة، ويمقدوره الادعاء بنصيب من شرف هذا العمل. البك مثلاً [كايوس اكتافيسيوس Gaius Octavins] و[لنتولوس سينثرا] اللذين جوزيا شرّ جزءاً على حماقتهما هذه. فقد قبض عليهما [انطوني] و[قيصر الاصغر] فضاع منهما الشرف المنشود، مع حياتيهما. اذ لم يكن أحد لبشك في أنهما بريئان حتى أولئك الذين تولوا انزال العقوبة بهما فقد كانوا متأكدين ان لا دخل لهما فيها، وانما انزل بهما العقاب لما انطوى عملهما عليه من سوء نية. وفي اليوم التالي نزل [بروتوس] وبقية المتآمرين من [الكايبيتول] والقوا خطباً في الجمهور. فأصغى الناس اليها دون ان يظهر عليهم سخط أو رضا. لكن ضمتهم لوضع بأنهم يأسفون لما حلّ بقيصر، ويحترمون [بروتوس].

واصدر المجلس قرار العفو العام واسدال الستار عما جرى واتخذ التدابير لمصالحة الفئات المتخاصمة. وتقرر ان يعبد [قيصر] كأحد الآلهة. وبعد الغاء أو نقض اي قانون سن أو عمل جرى ايام حكمه ثم منحوا [بروتوس] وصحبه مناصب مختلفة وقيادات خارج ايطاليا حتى ظنّ الناس جميعاً أنه الأمور استقرت بشكل ليس أحسن منه.

لكن عندما فضت وصية قيصر ووجد أنه ترك ميراثاً لا يستهان به لكل مواطن روماني، وعندما حمل جثمانه الى الميدان الكبير مثنياً بالجراح. لم يسع الجمهور المحافظة على الهدوء واسرع المحتشدون بجمع الواح المصاطب وقضبان الخشب والموائد وكدسوها ثم رفعوا الجثمان الى الكومة واشعلوا النار فيهما. وسحب بعضهم ملتبهة وهرعوا لاحتراق بيوت المتآمرين. وآخرون أخذوا يطوفون بها ارجاء المدينة لعلمهم يعثرون على أحد القتلة ليحرقوه ارباباً فلم يجدوا أحداً لأن أولئك اتخذوا التدابير للمحافظة على ارواحهم.

كان ثم صديق [لقيصر] اسمه [سنا] رأى في تلك الليلة التي تلتت المؤامرة حلماً غريباً. خيل له ان [قيصر] دعاه الى العشاء وعند اعتذاره عن الذهاب امسك [قيصر] بيده وسحبه ولكنه تراجع. عندما سمع هذا الرجل ان جثمان قيصر يحرق في الميدان توجه الى الموضع

احتراماً لذاكره. وان كان الحلم قد ملأه بالمخاوف والهواجس ومع انه كان مصاباً بالحمى وسأل عنه أحد المتجمهرين فأجاب شخص قريب منه انه [سنًا] وانتشر بين الناس بلمح البصر انه احد المتأمرين. (كان ثم [سنًا] آخر بين المتأمرين في الواقع) فامسكوا به حالاً ومزقوه ارباباً. وشاع الرعب في نفس [كاسيوس] و[بروتوس] بسبب هذه الحادثة. وغادرا ايطاليا خلال ايام قلائل. وقد ذكرنا تفاصيل اعمالهما وما صادفاه وكيفية موتهما في سيرة [بروتوس].

مات [قيصر] وله من العمر ست وخمسون سنة. اي بعد موت [پومپي] بربع سنوات. ولم يكن غير الشهرة الفارغة والمجد المثير للحسد، من تلك الامبراطورية التي جمع اطرافها، والسلطة التي ظلّ يطلبها طول حياته، بركوب الأخطار والأهوال. الا ان الجنّي الحارس الذي ظلّ ملازماً له طوال حياته. لازمه بعد مماته منتقماً له من قتلته، متصيدياً كل ضالع في الموامرة براً وبحراً فلم يدع أحداً منهم حياً سواء في ذلك أولئك الذين انفذوا الامر فعلاً أم الذين كان لهم نصيب التحريض والحضّ الكلامي.

ومما يخرج عن دائرة الصدفة والاتفاق ما وقع [لكاسيوس] فقد بزع نفسه بعين الخنجر الذي استخدمه لقتل [قيصر] بعد هزيمة [فيليباي] وبرز الظواهر السماوية التي وقعت في هذه المناسبة هو ظهور مذنب ساطع في كبد السماء طوال الليالي السبع التي عقيبت مصرع [قيصر]، وبعدها اختفى. ومنها اظلام الشمس التي استمر قرصها شاحباً مغبراً طوال تلك السنة، فلا يبدو بريقها الخاطف عند بزوغها ولا تعطى حرارة قوية كالعادة. ولذلك اصبح الجو رطباً معكراً لحاجته الى اشعة أقوى تتكفل بتبيديه وتنقيته. ولم يتبع اثمار ذلك الموسم بالشكل المعتاد لعين السبب وبدأت الفاكهة تذوى وتتساقط لقلة الحرارة، قبل وصولها مرحلة التكوين. والاهم من هذا كله الطيف الذي ظهر لبروتوس وهو دليل على ان الآلهة لم تكن راضية عن مقتل قيصر. واليك الرواية:

كان [بروتوس] ينوي الانتقال بجيشه من [ابيدوس] الى القارة وقد استلقى ليلته في خيمة كما هي عادته ولم ينم وانما راح يفكر في شؤونه وفي المتوقع من الاحداث. وقد اثر عنه انه أقل الناس نوماً. وان لديه مقاومة طبيعية له وقدرة على السهر والعمل المتواصل دون شعوره بالحاجة الى الراحة. وخيل له وهو مستلق انه سمع صوتاً عند باب الخيمة فأرسل نظره مستطلعاً على ضوء مصباحه الذي كان ينطفيء. فشاهد هيئة مخيفة شبيهة برجل لكن بقامة غير اعتيادية وملامح قاسية ادركه بعض خوف اولاً. ولكن الطيف لم يفعل شيئاً ولم يتكلم وانما وقف صامتاً بالقرب من سريره. فسأله [بروتوس] عنم يكون فأجاب الطيف:

- انا الجنّي الشرير [يا بروتوس]، وستلقاني في [فيليباي] فأجاب بروتوس بكل شجاعة:  
- حسن، سألتك هناك.

وغاب الطيف الطيف فجأة. وعندما حان الوقت صف جيشه قرب [فيليباي] مقابل جيش [انطوني] و[قيصر الصغير] ودارت الدائرة على خصومه اولاً وهزم العدو ونهب معسكر قيصر. وفي الليلة التي سبقت المعركة الثانية، ظهر له الطيف ثانية ولم يكلمه. فادرك في الحال ان نهايته دنت. وعرض نفسه لكل انواع المخاطر في المعركة فلم يقتل. ولما رأى رجاله يولون الادبارمقهورين صعّد صخرة وجرّد سيفه وسدده الى صدره العاري وبمعاونة احد اصدقائه بزع نفسه.

١٩٧٢/١/١



فوكيون  
PHOCION  
402 – 318



تصيب طالبها بخدوش وجروح. واكثر النصائح اتزاناً وافرهما حكمة هي عند العقول المريضة مغيظة مستنفزة الأ إذا تم عرضها وتقديمها بمهدات ملطفة رقيقة الحاشية.

والشاعر يتناول بالوصف موضوعات مقبولة بصورة عامة، بكلمة معبرة، ذات وقع لطيف مستحب فلا يغيب ولا تستفز. ان العيون المقروحة تتطلب المحل المعتم لكي لا تقع الاعلى الألوان الغامقة، لأنها لا تتحمل الضوء الساطع، كذلك سياسته ففي الوقت العصيب، وفي ايام الذلّ والضنك، تسود الناس حساسية عالية ومرارة، وبقابلية تحمل ضعيفة، تجد كل نصيحة خالصة صريحة مهما كان الموقف يتطلبها - تحتاج الى هذه الحيلة. وعندما تكون آثار الخطأ غير قابلة للاصلاح، يكون تصريف الشؤون العامة عملاً مزعجاً محفوفاً بالآثار مهما بلغت اليد المسكة باعنتها من الحذق والمهارة. وبتلغ الدمار التام والانهار العام أولئك الذين يسايرون الشعب ويتطرفون له اما أولئك الذين يحاولون قيادة الشعب الى السبيل القويمة فإنهم يهلكون في أول المحاولة.

ويحدثنا الفلكيون بأن حركة الشمس ليست على تمام اتساق مع حركة الفلك بصورة عامة، كما هي ليست معاكسة له أو متقاطعة معه، ولكنها تتخذ مساراً مائلاً وتتعبق خطأً قوسياً غريباً فتتناسب بهدوء وليونة لتوزع ضياءها وحرارتها اثناء دورتها السنوية ذات الفصول المختلفة المنقسمة قسمةً عادلة على الأرض، وهذا ما يحدث في عالم السياسة فان كانت حركة الحاكمين معاكسة ومضادة لامزجة المحكومين وميولهم، فان هؤلاء سيضيعون بها ويعتبرونها قسوةً من حكاهم واستبداد. ومن الناحية الأخرى فان التغاضي الكثير والتشجيع - كما يحصل في أغلب الاحيان - يزيد في اخطاء المحكومين وزيفهم فيكون مليئاً بالخطر ذا عواقب وخيمة. إن السياسي الحقيقي هو الذي ينجح في ارضاء شعبه بحيث يتيح له المجال للشعور بالمصلحة العامة والثبات عليها، فعندما يكون التنازل الشعبي استجابة للطاعة الاختيارية المستمدة من ذلك الشعور، عندئذ تجد المحكومين أكثر استعداداً للخدمة والطاعة - كالعبيد يمكن ارشادهم وحكمهم بالشكل الذي يصونهم ويصون مصالحهم شريطة ان لا يجرؤوا أو يضطهدوا أو يعاملوا بقسوة.

وعلينا الأقرار انه بقدر مما هو جميلٌ حسن أن يطرأ بعض التعديل على الملاينة والمسايرة للمحافظة على سلطة الحكومة فهو صعب عسير المنال. لكن ان أمكن الوصول الى هذا المزيج المفيد فان التعاضد والتوافق يكونان في أحسن حالهما. ولنعلم بأن الله نفسه يحكم العالم لا بالقوة التي لا تطاولها قوة، بل بالحكمة والعقل المنقح وبالغايات الخالدة.

إن [كاتو] الأصغر، هو مثل شبيهه بالترجم له. لم تكن أخلاقه مقبولة، ولم يكن طبعه

بلغ [ديماديس Demades] الخطيب في اثينا أوج سلطاته بين الاثينين باعتباره مستشاراً للدولة في شؤون العلاقة مع انتيباطر والمقدونيين. وكانت الضرورة تلجئة الى كتابة وقول ما هو دون سمعة المدينة ومطانتها. وكان يعتذر لنفسه قائلاً: انه يدير دفة حطام سفينة لا غير. ولو طبق هذا القول السليط الوقح على فترة حكم [فوكيون] لكان اقرب الى الحقيقة. فديماديس في الواقع، كان حطام بلاده لا غير، يحيا حياة فاسدة، ويحكم حكماً فاسداً، حتى قال عنه [انتيباطر]:

- بعد ان طعن ديماديس في السن، صار أشبه بالأضحية. اتت النار عليها ولم تبق منها غير الكرش واللسان.

وبخلاف ذلك، فوكيون، فقد كان الفضيلة مجسمة. لكن عاديات الزمن العاثر حققت الغلبة لنفسها عليه في مباراة غير متكافئة. فحمل ذكره وضاع في زوايا النسيان بسبب سوء حظ اليونان. ولن نسمح لأنفسنا بان نوافق [سوفوكلس] في اغراقه باستصغار قوة الفضيلة حين يقول:

عندما يعثر الحظ. يتخلى العقل عنّا ايضاً، ويذهب الى حيث لا عودة.

ومع هذا فان الصراعات بين افاضل الرجال وسوء الحظ يمكن ان تحصل في الواقع. فبدلاً من التكريم والامتنان للذين يستحقانه جزاءً. تحدهم يقاتلون في أغلب الاحيان بسوء الظن والانتقاص لضعاف ايمان الآخرين بفضائلهم.

ومما هو معروف سائد أن الهيئات الشعبية هي أكثر الجهات اهانة بالطيب من الرجال وازدراءً لهم عندما يبظر الشعب بالرخاء وينتفخ زهواً بالنجاح. وكثيراً ما يحصل العكس ايضاً فالنواب والنكبات العامة تحط وتفسد عقول وامزجة الرجال، حتى تصل بهم الى المشاكسة والحدة فيصعب جداً توجيه كلمة طيبة اليهم أو اظهار عاطفة صادقة نحوهم، فأنهم يشعرون وكأنهم يهانون، ومن يحتاج في اخطائهم يعتبرونه متشفيماً بسوء حظوظهم. ويؤولون اي نفاش يجري معهم بانه استهزاء واحتقار لهم. ان العسل يوجد في مواضع عسيرة المنال

مرضياً من الناس وقليل من أحببه. أنظر كيف تصرف في انتخابات القتصلية. وبهذا يقول شيشرون:

- خسر المنصب لأنه كان يتصرف وكأنه أحد مواطني «جمهورية افلاطون» غير مدرك انه كان يعمل بين حثالات نسل [رومولوس].

ويلاحظ الشيء نفسه في الفاكهة الناضجة قبل اوانها. اننا نستمتع بالنظر اليها والاعجاب بها أكثر من استمتاعنا باكلها. فكانت فضائله واخلاقه ذات الطابع القديم البعيدة عن روح العصر تعيش بين العادات الفاسدة التي حملها الترف والعطن الى ذلك العصر. فبدت رائعة غريبة في ذلك الجو وكانت اسمى وأجود من ان تلتئم متطلبات العصر أو ان تتفق مع روح الزمن واتجاهاته. ومع هذا فان ظروفه تولى ادارة الدفة وقد بدأت السفينة تميل الى الغرق. كان عصر [كاتو] في الواقع مضطرباً تعصف به الأهواء من كل جانب ومع ذلك تمكن من مديده لمساعدة الملاحين (ولم يسمح له بأن يكون واحداً منهم)، لذلك فاللوم لايقع عليه بل عليهم على أن شجاعته ومثانة خلقه، أحبطت على الحظ محاولته في تدمير الجمهورية رغم كل ما حدث. ولم تقع الواقعة أخيراً إلا بعد فترة طويلة وبعد التدرج البطيء وبذل الجهود، في حين كان [كاتو] على قاب قوسين من النجاح.

ومن المناسب كثيراً ان نحري مقارنته بـ[فوكيون] لا لمجرد التشابه في الخصائص العامة. كقولنا انهما شخصان طيبان وسياسيان عظيمان. مما لاشك فيه ان ثم فروقاً كبيرة بين الاخلاق ذات المنحى الواحد كالفارق مثلاً بين شجاعة [الكيسبيادس] و[ايبامنداس] وبين حذر [تمستوكليس] و[اريسستيدس] وبين عدالة [نوما] و[اغيسلاوس]. إلا ان أخلاق هؤلاء الرجال مجتمعاً تتسم بعين الطابع العام واللون والصفات بحيث لايمكن تمييز الفرق وان تأملنا ادق نقاط الاختلاف فيما بينهما. فالمزيج متحقق بعين النسب بتأكدنا من شمولها على عين العناصر المكونة لها: ابتداء من الرفق وانتهاء بالتمسك لا بأقدام في موقف الاحجام في موقف بالدفاع المتطرف عن مصالح الشعب والاهمال التام لأنفسهم بالاقدام بميلهم المقيم الى كل الاعمال السامية بغاية من اللطف وحرصهم على مجانية كل ما هو تافه حقير. لذلك يلزمنا منطق سليم مقارن. وعقل حصيف نافذ لاستخلاص الفوارق بين [كاتو] و[فوكيون].

أما عن اصل [كاتو] فمما لاينكر انه كان أصلاً عريقاً لامعاً كما سنفضله فيما بعد. ولم يكن اصل [فوكيون] وضيعاً أو خاملاً. ولو كان ابن خراط كما ادعى [ايدومينوس-Idomon-eus] لكان [غلاوكيپوس Glaucippus] ابن [هيپيريدس Hyperides] قد اتخذ الزعم للحط من شأنه، وهو الذي جمع آلاف العيوب والنقائص عنه. كذلك لم يكن بمقدور [فوكيون]

وابوه بهذه الحال من الضيق المالي ان ينال مثل ما نال من التربية والتهذيب العالي في صدر شبابه فقد تتلمذ على [افلاطون] ثم على [كزينوقراطس] في الاكاديمي وأوقف نفسه منذ البداية على ممارسة أشرف الأعمال، ومتابعة أعلى الدراسات. وكانت ملامح وجهه في غاية الهدوء وقل ان رآه آثيني يضحك اويكي. ويقول [دوريس] انه نادراً ما عرف عنه ارتياده الحمامات العامة، أو شوهدت يده خارج معطفه عند ارتدائه معطفاً. واذا كان خارج اسوار المدينة أو مخيم تبدي مدى احتمال قسوة الجو في انه لا يرتدي إلا الخفيف من الثياب ولايمشي إلا حافي القدمين، إلا عندما يكون البرد على اشده. واذا كان يقول الجنود مازحين حين يرون فوكيون مرتدياً معطفه:

- لاشك ان شتاء هذه السنة سيكون قاسياً.

كانت قسما وجهه صارمة قاسية منفرة، في حين لم يضارعه أحد في طيبة قلبه. ولا يرى برفقة احد إلا اذا كان من اصدقائه الخالص القلائل. أبدى [خاريس] ملحوظة على قطوبه وجهامته فأضحك بها الاثينيين، فقال [فوكيون]:

- إن جهامتي لم تورث أحداً منكم الحزن. إلا ان فكاهات هؤلاء الرجال، أورثتكم من الآلام ما فيه الكفاية.

هكذا كانت أحاديث [فوكيون] دوماً، ملأى بالتوجيه الأدبي، مفعمة بالحكم الجميلة، والاقوال البليغة. لا تسمح بأي مجال للتزيق والتنميق في اطار ايجازها الجاف الهادف، يقول [زينو]: على الفيلسوف ألا يتكلم إلا عندما يشبع كلماته بالمعاني، وكذلك هي اقوال [فوكيون] فقد حفلت بأعظم المعاني والمفاهيم المؤداة باقصر الجمل واوزها. وربما كان [پوليوكتس Polyeuctus] السفتيونني Sphettion] يقصد هذا بقوله: ان [ديموستينس] كان في الواقع أعظم خطباء زمانه. إلا ان [فوكيون] كان اقوى متكلم». كانت خطبه اشبه بقطعة النقد الصغيرة ذات القيمة العالية، لا يمكن تقديرها بحجمها بل بقدر ما تحويه من القيمة الحقيقية.

شوهد مرة على ما يقال وهو يمشي منشغل البال خلف الملعب بعد ان أمتلأ المسرح بالنظارة. فأتتبه اليه صديق فابتدره يسأل:

- اراك يا فوكيون منشغل البال.

فأجابه فوكيون: أجل. انا افكر في اختصار ما سأقوله الاثينيين.

وديموستينس نفسه الذي كان يحط من شأن كل خطباء زمانه ما ان يقوم [فوكيون] للكلام

حتى يهمس في اذان القريبين منه: اليكم سكين تقليم عصرنا .

وعلى أكثر تقدير لا يعود هذا الى بلاغة [فوكيون] قدر ما يعود الى قوة تأثير شخصيته. فايماة، ولا نقول كلمة، تصدر من شخص رفيع المكانة لهي أقوى وقعاً من ألف محاوراة أو عبارة مدروسة يلقبها الآخرون.

والتحق [بخبرياس Chabrias] الجنرال، وهو بعد فتى يافع وأخذ عنه الكثير في الفن العسكري، وأكتسب ذلك منه ما ساعده على اصلاح طبعه المتلقب غير المتوازن فقد كان [خبرياس] عسكرياً مقداماً صوّالاً ينسى حاله عندما يحمى وطيس المعركة فلا يرى نفسه الا وهو يتقدم الصف الأول، الأمر الذي كلفه حياته بالأخير عند جزيرة [خيوس] فقد دفع بسفينة الى الامام حتى ارتطمت باليابسة.

لكن [فوكيون] فضلاً عن شجاعته - كان هاديء النفس متأنياً صبوراً. لديه من البراعة ما يكفه من دفع القائد الى القتال عندما يأنس منه المماثلة والتسويق ولديه من الحدق ما يستطيع في ظرف آخر من تهده انفعاله ووقف اندفاعه الجائح الذي لا مبرر له. لذلك مال اليه [خبرياس] الرقيق الحاشية الطيب القلب وآثره بحبه واسند اليه القيادات واتاح له فرص العمل وافسح له المجال والوسائل ليجعل اسمه علماً في بلاد الاغريق. وساعده في العمليات الكبيرة، لاسيما القتال البحري في [نخسوس] الذي رفع صيت [فوكيون] الى الأوج. فقد اناط به قيادة قطع المسيرة وأحتدمت المعركة في هذا الجناح بالذات وتركز ثقلها عليه فقهد مصيرها بنصر سريع، وكانت تلك اول معركة بحرية ناجحة خاضتها المدينة بقواتها الخاصة بعد أن نفضت عنها سيطرة المحتل. فاستطارت شهرة [خبرياس] بها وعدّ [فوكيون] بسببها من القادة المجيدين. واتفق ان النصر وقع في يوم الاحتفال بعيد (الأسرار الكبرى) ولذلك جعل [خبرياس] عادته لتخليد ذكر اليوم المجيد بتوزيع الخمر مجاناً على الأثينيين في السادس عشر من شهر [بيودروميون] سنوياً.

أمر [خبرياس] [فوكيون] بالابحار الى سكان الجزر ومطالبتهم بسهمهم من مهمات الحرب ونفقاتها وزوده بعشرين سفينة لحراسته. فقال له فوكيون:

- ان كنت تريدني الذهاب اليهم كاعداً فهذه القوة لا يؤبه بها. وان كنت تعتبرهم اصدقاء وحلفاء فتكفيني سفينة واحدة.

وأقلع بسفينة فحسب فزار المدن وكان لقاءه بالحكام لقاء صداقته واخوة وعاد بعدد من السفن، أرسلها الحلفاء الى آثينا لنقل المهمات وأمتدت آثار صداقته [لخبرياس] الى ابنه بعد

وفاة هذا الجنرال. فضلاً عن سائر اقربائه. فقد حاول [فوكيون] جهده ان ينفعه ويرعاه، وكان شاباً غيباً عنيداً لايسلس قياده، لم يأل فوكيون جهداً في اصلاحه وتقويمه وتغطية هفواته وزلاته. ومرة بدأ له هذا الفتى مزعجاً وقحاً في المعسكر بطرحه اسئلة سخيفة ومقاطعة فوكيون واقحام ارائه الفجة ومقترحاته في كيفية وضع الخطط الحربية فضاق به ولم يتمالك نفسه من القول:

- اي خبرياس! خبرياس، اترى الى اي حدّ بلغ تمسكي بصداقتك واطهاري الامتان من جميلك باحتمالي ابنك هذا؟

لاحظ فوكيون عند تصريفه الشؤون المدنية العامة، ان الادارة الداخلية كانت تتبع سياسة المحاباة باقتسام المغانم ما بين اعضائها وابتلاعها. فمثلاً اصبحت الأراضي نهباً مقسماً بين العسكريين والخطباء. لا يتدخل احدي الفتتين لصالح طرف ثالث مدعٍ. كان الخطباء يتكلمون في الاجتماعات العامة، ويحسون الاصوات ويهيئون القرارات والمقترحات، من امثال [يوبولوس Eubulus] و[ارسطوفون Aristophon] و[ديوستينس] و[ليكورغوس] و[هيپيريدس] وكلهم يحصلون على ما يريدون وهم في مأمن من معارضة العسكريين امثال [ديوبيتس Diopethus] و[مينيتوس] و[ليوستينس Leosthenes] و[خاريس] فهؤلاء يجمعون ثرواتهم من الحروب والقيادات التي يتولونها. فلا يلقون اي اعتراض من الفئة الأولى. واراد [فوكيون] من جهته، العودة الى النظام القديم في توزيع الأراضي وكان كاملاً محكماً بحد ذاته، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع المصالح العام. منذ ايام [پيركليس] و[اريستيديس] و[اصولون]. وهكذا ظهر الساسة بالمظهر الذي ينطبق عليه قول [ارخيلوخس Archiloches]:

- إن اصحاب [مارس] و[الميوزات] الذين أعدوا للفن والسلاح، مالوا معاً الى بعضهم بعضاً.

ولم يفته ان الآلهة الفضلى للمدينة، انما هي حامية الحكمتين: الفنيّة والعسكرية في آن واحد.

بهذه الأفكار، وفي الوقت الذي كان ينصح وطنه بالاخلاق الهدوء والتمسك باهداب السلم والابتعاد عن الحرب. تراه قد تقلد منصب القائد الأعلى مرات تزيد عما تقلده اي سياسي آخر عاصره أو سبقه. مع انه لم يشجع ايفاداته حملة عسكرية ولم يساهم في تأليف واحدة، في الوقت الذي لم يرفض او يتعذر، عندما ينتخب للقيادة العامة بالاقتراع. لقد بات

مؤكداً انه انتخب قائداً عاماً خمساً واربعين مرة. ولم يؤثر عنه انه حضر بشخصه مرة واحدة في اي انتخاب منها. وانما كان يستدعى بعد فوزه من خارج الجمعية ليتقلدها. وكانت الدهشة دائماً تستولى على أولئك الذين لم يتوقعوا أن يضع الشعب ثقته في فوكيون لأنه كان ابعد الناس عن محاولة كسب عطف الجمهور والتزلف اليه. بل كان في خلاف دائم معه، لا يألو جهداً في كبح جماحه والحد من اندفاعه.

يعمد الأمراء والعظماء الى دعوة بطانتهم من المتملقين والمتزلفين عندما يبسطون مائدة طعامهم. والمثل نفسه ينطبق على الآثينيين. فعند المناسبات التافهة تراهم يدعون متكلميهم الفصحاء ذوي العبارات المتأنفة الطلية لتسلية أنفسهم والترويج عنها. فاذا جدَّ الجدَّ. وتأزم الموقف رأيتهم حذرين هادئين، قادرين على اختيار الأعقل والأرزن لتولي مهام الدولة، مهما كان موقفه صارماً عنا مشاعرهم ونزواتهم، وهذا ما لم يحاول فوكيون نكرانه، عندما تليت النبوءة الواردة من (دلفي) وقد جاء فيها: «ان الآثينيين كلهم على رأي واحد. ولا يتوقع الا مخالف فرد يتقدم الى الامام غير هيباب ولا وجل ويقول لهم: لستم بحاجة الى النظر ابعد مني. انه الرجل المنشو. لا رجل الأ هو، ذلك الذي لم يرضه اي شيء فعلوه».

ومرة أعطى رأيه للمجتمعين في قضية فقبول بهتاف الاستحسان بالاجماع فالتفت الى بعض اصدقائه غير مصدق وسأله:  
- أقلت شيئاً سخيفاً دون انتباه؟

وفي مناسبة اجتماع عام احتفالاً بالعيد، طلب منه ان يتبرع بشيء كسائر المتبرعين. وأشدتد الحاح الناس. فأشار عليهم أن يتوجهوا الى الاغنيا، لأنه يخجل ان يقدم تبرعاً «هنا» في حين يرى نفسه مضطراً الى الوفاء بدين عليه «هناك» واستدار وأدماً بأصبعه الى [كالليكلس Callicles] المرابي. الا ان الجمهور لم يدعه وازداد لجاجة وصخباً، فأسمعه الحكاية الآتية:

خرج امرء جبان الى الحرب، فسمع الغربان تنعق فوق رأسه وهو سائر. فألقى بسلاحه وقرر الريث. الا انه بدل رأيه حالاً ورفع سلاحه مستأنفاً سيره، وسمع النعيق مرة أخرى فتوقف ثانية وخاطب الغربان قائلاً:

- انعقي حتى تنفلقي. فلن أكون لك طعاماً.

والح الآثينيون بان يشتبك مع العدو وكان الظرف غير موآتٍ فرفض رفضاً قاطعاً، فوصموه بالجبن وخور النفس. فقال لهم:

- في هذه الساعة فقط اعملوا ما شئتم ولن أكون شجاعاً أو اعملوا ما سأعمل ولن تكونوا

جبناء. ونحن على كل حال نعرف انفسنا معرفة جيدة.

ومرةً أشتد سخط الأهالي عليه في ظرفٍ خطير للغاية. وطالبوه بتقديم حساب دقيق في وجوه صرف الأموال العامة وغيرها. فقال لهم:

- عليكم يا اصدقائي الاعزاء، ان تتأكدوا أولاً من سلامتكم.

وبعد حربٍ كان الآثينيون خلالها طبعين ليّني العريكة حتى تم عقد معاهدة سلم واذا بهم يعودون كما كانوا من الضخب والشغب والاعتداد بالنفس. وانحوا باللوم على فوكيون، واتهموه بأنه كان سبب فشلهم في القتال. فكان جوابه الوحيد على زعمهم قوله:

- انتم سعداء الحظ يا اصدقائي لأن لديكم قائداً يعرفكم حق المعرفة. ولو هذا لذهبت ربحكم منذ زمن بعيد.

ووقع نزاع حدود بينهم وبين البويوثيين. فأتفق مع هؤلاء على التسوية بالمفاوضة فاذا بهم يلجأون الى الاشتباك والعراك فقال لهم:

- الاجدى لكم أن تواصلوا القتال بالسلاح الذي امتزتهم به وهو: السننكم، لا بأسلحة الحرب التي لا تتقونها.

ومرة كان يخطب فيهم، وهم لا يريدون الاصغاء اليه ولا يدعون مستمراً فقال لهم:

- قد تحملوني على تنفيذ ما هو ضد رغباتي. لكنكم لن ترغموني على قول ما لا أومن به.

وكان [ديموستينس] من الخطباء الذين دأبوا على معارضته. وقد انذره مرة بقوله:

- في يوم ما، سيفتك الآثينيون بك يا فوكيون، عندما يجتاحهم الغضب.

فأجاب فوكيون:

- وسيفتكون بك انت عندما يرتد اليهم صوابهم.

ومرة راح [بوليوكتوس] السيفتي يحرض الناس على قتال [فيليب] وكان اليوم قائضاً وهو شحيم لحيم فأخذ يلهث وانبهرت انفاسه بالحر الشديد فكان يتناول ماءً بين آونة وأخرى فقال [فوكيون] مشيراً اليه.

- دونكم الرجل الذي يصلح لقيادتنا في الحرب! ماذا سيكون من أمره بعد ان يشددّرعه ويحمل ترسه لمقارعة العدو؟ وها هو امامكم يلقي عليكم الخطب المنمقة. وقد كاد يلفظ انفاسه الاخيرة من فرط الاعياء.

ولما شرع [ليكورغوس] في الجمعية العمومية يبدي ملاحظاته العديدة حول سلوكه،

ويؤنبه بصورة خاصة على نصيحته بتسليم المواطنين العشرة الذين طلبهم الاسكندر من الأثينيين أجاب فوكيون بقوله:

- كنت قد ادليت بنصيحة أنفع وأضمن ولم يؤخذ بها.

وكان ثم شخص يدعى [ارخيبيادس Archibiades] ويلقب بـ(اللقيديموني) أعتاد ارسال الحية ضخمة والخروج بمعطف مهلهل قديم، وبسيما صارمة جداً. ومرة تعرض [فوكيون] للهجوم في الجمعية. فاستنجد فوكيون بالرجل ونديه لمعونته وشهادة بحقه. ونهض هذا وشرع يتكلم بما يفيد الموافقة على اقوال خصوم [فوكيون] واضعاً يده على لحيته، فقال فوكيون:

- ايه يا ارخيبيادس. لقد ازف الوقت لحلاقتك.

كان [ارسطوجيتيون Aristogiton] المدعى العام، رجل حرب مخيف ضمن نطاق جلسات الجمعية العامة، همّة اثاره شعور الأهالي وتخريصهم على القتال. فلما ازف يوم السوق وتجنيد الصالحين للقتال أقبل وهو يقول متوكتناً على عكاز وساقه مربوطة بلفاف. وتبينه [فوكيون] من بعيد. وما ان دنا حتى صاح [فوكيون] بالكاتب.

- أخرج [ارسطوجيتون] أيضاً. بوصفه أفضل ولا نفع يرجى منه.

لذلك كان من أغرب الأمور أنّ شخصاً كفوكيون صارماً جافي الطبع في كل المناسبات يشتهر بلقب «فوكيون الطيب». ومع ذلك فليس من الصعب في رأيي ان تكون امزجة الرجال كالخمر - طيبة وحريفة عند المذاق في الوقت نفسه. ككثير من الاطعمة الحلوة عندما يذوقها المرء لأول مرة، يجدها بعد التكرار كريهة مجّة ضارة. وقد روي ان [هيپيريدس] قال للناس مرة:

- لا تسألوا انفسكم يا رجال اثينا: أنا مقذع الهجاء لاذع اللسان أم لا؟ بل سلوها أنا مأجور لأكون كذلك أم لا؟

كأن الطمع هو العامل الوحيد الذي يجعل المزاج الحاد كريهاً ممقوتاً بل كأنه محظور على الناس ان يعرضوا انفسهم للسخط العام باستخدامهم سلطاتهم ونفوذهم للتماذي في اظهار طباعهم الشخصية كالكبرياء، والغضب والاضطغان. و[فوكيون] لم يسمح لنفسه مطلقاً باستخدام شعور عدائه أو كرهه للإضرار باي مواطن في الواقع لم يكن يعتبر أحداً عدواً له الا عندما لا يجد من سبيل له غير مهاجمة المعارضين في الاجراءات المفيدة للصالح العام بكلّ عنف وبدون رحمة. في مثل هذه المعارك تجده والحق يقال خصماً عنيداً صلفاً غير مهادن. أما في حالاته الاعتيادية فهو مهذب لطيف، متواضع للجميع دون استثناء. حتى أنه كان يحذب

على خصومه السياسيين وينشد صداقتهم ويهتم بهم ان وقعوا في محنة، ويتبنى قضايا من هم في أشدّ الخلاف معه. ويحميهم أن كانوا بحاجة الى حماية. وقد لامه اصحابه مرةً لدفاعه عن رجل دي أخلاق مشبوهة. فقال ان البريء ليس بحاجة الى من يدافع عنه.

الح [ارسطوجيتيون] المتعلق الذليل السالف الذكر، بطلب التحدث الى [فوكيون]. وكان قد القي في السجن بعد صدور حكم عليه. فحاول اصداقائه ان يثنوه عن الزيارة فقال:

- كلاً واسمحوا لي من فضلکم. فايّ مكان اختاره لزيارة ارسطوجيتيون خير من هذا المكان!

وكان حلفاء اثينا واهل الجزر يحذرون ويتوجسون شراً من كلّ اميرال يرسل اليهم فيضعون المتاريس على المداخل. ويسدون موانئهم في وجهه ويجمعون مواشيهم وعبيدهم ونساءهم واطفالهم ويغلقون دونهم ابواب قلاعهم. خلا [فوكيون] فما أن يعلموا بقدمه حتى يخرجوا بزوارقهم ومراكبهم الخاصّة للقاءه والترحيب به رافعين الأعلام وضافرين أكاليل الزهر. فسيتقبلونه عند نزوله البرّ بكل مظاهر الفرح والغبطة.

توغل [فيليب] الملك في [يوبيا Eubaea] وتقل جيوشه من مقدونيا وارسلها لاختضاع المدن مستمياً الطغاة الذين يحكمونها. فاستجار [پلوتارخ] الأثينيين وطلب منهم العون على انقاذ جزيرته التي كادت تقع في ايدي المقدونيين. فأرسل [فوكيون] اليها على رأس شردمة من الرجال. لعلّ اليونيين يلتفون حولها فتكون نواة لجيش يدافع عن الجزيرة. لكنه وجد الجزيرة في حال يرثى لها من الفوضى. لقد قام عملاء فيليب وصناعه بالمهمة خير قيام فسلموا اليه البلاد كلها، وشعر [فوكيون] وكأن الأرض التي يسير عليها ملغمة. وأحذق به خطر عظيم فما كان منه محافظة على نفسه الا ان يختار نشزاً صغيراً من الأرض يفصله مجرى ماء عميق عن السهول المنبسطة المحيطة بتاميني Tamynae. فحوط النشز وحكمه ووضع فيه الصفوة المختارة من جنود، وأمر ضباطه بالآ يعترض سبيل أولئك الشرثارين والفوضويين الأشرار من السكان ان هم خرجوا من المعسكر وعادوا من حيث أتوا. وحجته في ذلك انهم سيكونون عالّة لا يرجى منها نفع ولا يمكن السيطرة عليهم وسيصبحون فضلاً عن ذلك عقبة فعلية. وانهم بادراكهم عجزهم عن القيام بالواجب المفروض عليهم سيكونون أقل استعداداً لاساءة تصوير عملهم وسيكذبون أو سيحرضون الغوغاء عليهم عند العودة. ولما اقترب العدو حذر [فوكيون] رجاله من الاشتباك حتى يفرغ من مقدمة القرايين. وقد تأخر كثيراً فيه أمّا بصعوبة نشأت اثناء اجراء المراسيم الدينية، وأمّا كان يتعمد ذلك ليغري العدو بالتقدم أكثر مما فعل. لكن پلوتارخ صاحب الجزيرة فسّر تلكؤه، بالجبن وخور العزيمة، وهاجم العدو بمرزقته. فسلم يسع خيالة فوكيون الا وان تندفع من المعسكر، بنظام مختل وفوضى لا

مثيل لها؛ وصلت الهزيمة باول المهاجمين، وسرت الهزيمة الى البقية. وهرب [پلوتارخ] لايلوى، وتقدم بعض وحدات من العدو تريد الاستيلاء على المعسكر متوهمة أن نصرهم كان تاماً، في تلك الساعة كان [فوكيون] قد فرغ من تقديم القربان فاندفع الآثينيون من المعسكر والقوا بأنفسهم على العدو وهزموه وفتكوا بالقسم الاكبر منه امام الخندق اثناء محاولته الفرار. وبعدها أمر [فوكيون] مشاته بالمزيد من اليقظة في مراقبة حركات العدو وبعد ان أكمل تنظيم صفوف الناجين من الهزيمة الأولى ندب نخبة من خيرة رجاله واشتبك مع العدو في معركة دموية حامية ابدى فيها الجميع بسالة واقداماً لا مزيد عليهما. وحاز شرف ذلك اليوم [تالوس Thallus] ابن [كينياس Cineas] و[گلاوكس Glaucus] الپوليميدي Poly- [الوس Tallos] اللذين كانا يقتتلان الى جنب القائد العام. وقام كليومانس بدور ممتاز في المعركة فبعد ان أصلح من وضع الخيالة ورد إليها معنوياتها راح يستنهف هم الفرسان ويشجعهم بصيحاته الحماسية، ثم قادها لمساعدة قائده الذي كان يعاني ضعفاً شديداً فعزز النصر الذي نالته المشاة وثبته. وطرده [فوكيون] [پلوتارخ] من الجزيرة وأحتل قلعة [زاريترا Zaretra] الهامة جداً لموقعها كما يقال في مخرصة الجزيرة. لأن البحر يحتضنها من الجانبين في مكان تضيق الجزيرة كضيق الخصر في الجسم.

وأطلق [فوكيون] سراح كلّ الأغريرق الذين وقعوا في اسره، خوفاً من السنة خطباء اثينا التي قد تحمل الأهالي على ارتكاب عملٍ من اعمال القسوة والعنف في فورة من الغضب. وبعد ان أنجز واجبه هذا من كلّ الوجوه ألقع الى الوطن. وكان للخلفاء أقوى سبب لأسف الآثينيين على حرمانهم تجاربه وشجاعته فان [مولوس Molossus] الذي خلفه في القيادة لم ينجح إلا بفلاته حياً من ايدي العدو. وتقدم [فيليب] ورأسه مفعم بالخطط والأمال الجسام فتوغلت قواته في الهللسپونت واحتل الخرسونيز، وپيرينثوين [Preinthus] ثم حاصر بيزنطة، فجرد الآثينيون قوة لنجدة البيزنطيين. وعمل السياسة الخطباء اقصى جهدهم لانتخاب [خاريس] قائداً عاماً، فلم تحقق قيادته شيئاً جديراً بالقوات التي وضعت تحت امرته. كانت المدن تهتزّ رعباً منه وتأبى استقبال سفنه. جابياً الأموال من الخلفاء ومحتقراً من الاعداء.

ويلغ السخط بالاوالي مبلغه - وأثار الخطباء غضبه فأظهر ندمه على ارسال النجدة الى البيزنطيين. نهض فوكيون قائلاً:

- ليس حرباً بكم أن تحنقوا على الخلفاء لفقدانهم الثقة بكم. بل عليكم ان تحنقوا على قوادكم لأنهم ليسوا أهلاً للثقة. انهم يضعونكم موضع الشك حتى لدى أولئك الذين يعجزون عن الصمود الأ بمعونتكم.

وكان وقع هذا الكلام شديداً على الجمعية العامة فعدلت عن قرارها الأول وأمرته في الحال أن يؤلف قوة أخرى ويقلع الى نجدة حلفائهم في الهللسپونت. فكان هذا التعيين أكبر عاملٍ في انقاذ بيزنطة من يد الغازي. اذ كان اسم [فوكيون] علماً وسمعته داوية. وكان في مدينة بيزنطة رجل عرف واشتهر عند البيزنطيين بفضائله يدعى [ليون] هو أحد رفاق [فوكيون] في الاكاديمي منذ ايام التلمذة. فضمن هذا الرجل سلوك [فوكيون] امام المدينة ففتح أهاليها ابوابها لاستقباله ولم يسمحوا رغم ممانعته بان يعسكر خارجها، بل دعوه هو ووحدات جيشه الى الداخل واقاموا لهم المآدب وأظهروا من الثقة به والاعتماد عليه ما تجلّى واضحاً في المقابلة اللطيفة السليمة. ولذلك تفانى الآثينيون في الدفاع عنهم واطهروا اشدّ الحماسة في قتال عدوهم ليستعيدوا الثقة المفقودة. واندحر فيليب الملك في الهللسپونت وتدنت سمعته الى الحضيض - وهو الرجل الذي ظلّ يعتقد به الى يومنا هذا بأنه لا يغلب واستولى [فوكيون] على عدد من سفنه وأحتل بعض المواقع التي كان قد حصنها ووضع فيها حاميات. وقام بعدة غارات وتوغل في البلاد ونهب واجتاح، حتى اصابة العدو بجرح فاقلع عائداً الى الوطن.

في ذلك الوقت طلب الميغاريون سراً مساعدة من الآثينيين ولخشية [فوكيون] في انكشاف الأمر للبيوثيين فيحبطوا المسعى بعمل مسبق، دعا الجمعية العامة في فجر يومه وعرض مطلب الميغاريين للتصويت، فنال التأييد وما أن ظهرت النتيجة حتى نفخ [فوكيون] في نفير الحرب وقاد الآثينيين رأساً من محل الاجتماع الى حيث تسلحوا واستعدوا للسير. فاستقبلهم الميغاريون بفرح عظيم وياشر [فوكيون] بتحصين [نيسيا Nisaea] وبنى جدارين جديدين طويلين يمتدان من المدينة الى الميناء، فربط المدينة بالبحر، ولم يعد لها ما تقلق لأجله او تخشى هجوم للاعداء من اليابسة فوضعت ثققتها التامة بالآثينيين.

وباتت الحرب مع [فيليب] أمراً لامناص منه، ونصب الآثينيون قادة عسكريين آخرين بغياب [فوكيون]. فرأى هذا عند عودته من الجزر أن ينصح مواطنيه بخلاف ما استنقر رأيهم عليه وقال لهم:

- ما دام فيليب قد اظهر نواياه السليمة. وبما أن الخطر الذي يتعرضون له، كبير، فالأحرى بهم أن يعقدوا معه معاهدة صلح.

وكان من معارضي فكرته هذه شخص ممن تعودوا الاختلاف الى سوح المحاكم، وكيل اتهامٍ أو ما أشبه فقد انبرى له وسأله:

- أتسعى الى اقناع الآثينيين بالجنوح للسلم وها ان السلاح الآن بأيديهم؟ فقال:

- أجل. وان كنت أعلم بأنني سأكون أمراً عليك عند نشوب الحرب وانك ستكون أمراً عليّ في

زمن السلم.

ولم يكتب لمسعاه النجاح. فقد استظهر عليه رأي [ديموستينس] الذي نصحهم بالحرب، على ان يكون القتال أبعد ما يمكن عن المدينة. ورأى ان يخوضوا المعركة في [آتيكا].

فقال [فوكيون] متوجهاً الى الآثينيين.

- أيها الاصدقاء الطيبين. حري بنا ان لا نتساءل أين سنقاتل بل كيف سنكسب، فالنصر هو الوسيلة الوحيدة لابعاد الحرب عنا. ولو هزمنا فإن الحرب ستغزونا في عقر دارنا وبأسرع مما تتصورون.

وحلت بهم الهزيمة، واراد الغوغائيون ومثيرو الفتن أن يدفعوا [خاريديموس Charidemus] الى المنصة لتنصيبه قائداً. فتملك الخوف المواطنين الشرفاء وراحوا يتوسلون الى الأهالي بدموعهم أن يلقوا مقاليد الأمور الى [فوكيون] وبمعاونة المجلس الاريوباغي نجحوا في مسعاهم وتولى [فوكيون] السلطة. وكان من رأيه عموماً، ان يقبل الآثينيون بالشروط العادلة التي يضعها فيليب. لكن [ديماديس] اقترح ان المدينة يجب ان تحصل على عين شروط السلم التي نالتها سائر الدول الاغريقية. فعارض [فوكيون] في ذلك، وقال:

- يجب ان نعرف أولاً تفاصيل تلك الشروط التي فرضها فيليب عليها.

فلم يعمل بنصيحته، وفشل تحت ضغط قصر الوقت. لكن ما لبث الآثينيون أن أدركهم الندم عندما وجدوا من بين الشروط التي فرضت عليهم، تزويد [فيليب] بالخييل والسفن، فقال [فوكيون]:

- خوفي من هذا، هو الذي دفعني للمعارضة. ومادام الأمر قد وقع، فعلينا أن نخلص في تطبيق تلك الشروط وان لايهن عزمنا. كان اجدادنا أمريين وكانوا مأمورين، وبانجازهم واجباتهم كحاكمين ومحكومين، انقذوا بلادهم مع بقية بلاد اليونان.

ولما انتشر نبأ وفاة [فيليب] عارض [فوكيون] في اقامة تظاهرة فرح عامة قائلاً:

- من الحسنة والدناءة ان يظهر المرء أي نوع من التشفي في مثل هذه المناسبة. واعلموا ان الجيش الذي حاربكم في خيرونيا، لم ينقص إلا رجلاً واحداً.

وعندما وجه [ديموستينس] مطاعنه في الاسكندر، وكان هذا يزحف للمهاجمة [ثيبه] تمثل [فوكيون] ببيتين لهوميروس:

يا قاصر العقل، لماذا اردفت ضربتك بأخرى  
فأثرت بهذا، غضبه الجائع؟

ثم قال متسائلاً: لماذا تزيد من ايقاد نار شوقه الى المجد؟ لماذا تجهد نفسك في تعريض المدينة الى حريق رهيب أخذ الآن يدنو منها؟ نحن الذين قبلنا على انفسنا مسؤولية انقاذ ابناء وطننا لن نرضى بدمارهم مهما ارادوا هم ذلك!

وبعد أن استسلمت [ثيبه] وطلب الاسكندر تسليم كل من [ديموستينس] و[ليكورغس]، وهيبيريدس، وخاريديموس] انجبت الانظار الى [فوكيون] ونادوه باسمه طالبين ان يعطي رأيه. فنهض وعرض لهم واحداً من أخلص واحب اصداقائه اليه وقال:

- انتم الذين بلغتتم بالامور الى هذه الخاتمة لا غيركم. أما أنا فلو طلب مني الآن تسليم صديقي هذا [فيكوكس] لما ترددت في ذلك. ولو كان في مقدوري التضحية بحياتي وبمستقبلي في سبيل سلامة الوطن فيأما اسعد حظي. واضاف يقول:

- انه ليذمي قلبي ان أرى هؤلاء الذين لجأوا الينا هارين من ضرائب [ثيبه]. ومع هذا يكفي بلاد الاغريق حزنها هلى [ثيبه]. ومع الأفضل لمصلحة الجميع ان نحفف من غضب الفاتح ونتوسط للثنتين، لا ان نجازف بمعركة أخرى.

فوافق الآثينيون. وقيل ان الاسكندر رفض اول طلب للمفاوضه وقذف بالكتاب بعيداً بكل احتقار وادار ظهره لاعضاء الوفد فخرجوا وهم يرتجفون رعباً. لكنه قبل الطلب الثاني من يد [فوكيون] بعد ان أعلمه المقدونيين بمكانته الكبيرة عند والده. ولم يكتف بالسماح بمقابلته والاصغاء الى عروضة وطلباته، وانما رجاه ان ينصحه فقال له: «إن كنت تجنح للسلم فعليك أن تبرم معاهدة صلح وسلام حالاً. وإن كنت تنشد المجد والسؤدد فعليك ان تباشر الحرب ضد البرابرة لا ضد الاغريق».

وساير مشاعر الاسكندر وغذى طموحه بمختلف الآراء والنصائح المختارة بدقة فتمكن من استمالتة والتخفيف من غلوائه. حتى انه طلب من الآثينيين أن لا ينسوا مركزهم الرفيع. لأن السيادة الأولى ستنقل اليهم اذا ما ناله مكروه. وظهر [فوكيون] احتراماً كبيراً ورفع من شأنه بانعامات حظي بها أحد من اصحابه الملازمين له واتخذة صديقاً واحتفى به ضيقاً عزيزاً، لا كعضو في وفد مفاوضة. ويحدثنا [دوريس] انه لما قويت شوكة الاسكندر ولقب بالكبير بعد انتصاره على [داريوس] أهمل كتابة عبارة «تحياتي...» عند تصديره رسائله. ولكنه كان يثبتها في رسائله الى كل من [فوكيون] و[انتيباطر]. وقد ذكر خاريس ذلك ايضاً.

أمّا التكريم الذي حباه به الاسكندر، فمن المعروف عنه انه ارسل له مرة مائة تالنت. ولم وصلت الهدية الى آثينا، سأل [فوكيون] حاملها. «لماذا أختص هو وحده من دون سائر

الآثينيين بهذه الهدية الكبيرة؟» فقيل له أن الاسكندر يعتبره الشخص الوحيد الشريف العظيم القدر. فقال:

- اذن فليسمح لي ان ابقى كذلك. وان أظلّ معروفاً بمثل هذه السمعة.

وتبعه الرسل الى داره. وشاهدوا بأعينهم حياة الكفاف البسيطة التي يحيها، كانت امرأته تعجن الخبز بيديها. وكان هو يستقي الماء ليغسل به قدميه. فعادوا يلحون عليه بقبول الهدية. واستنكروا ان يعيش صديق الاسكندر بهذه الحالة من الفقر والإملاق، فلقت [فوكيون] انظارهم الى فقير عجوز يرم بهم وهو مشتمل بعباءة قذرة قديمة. وسألهم هل وجدوه في حالة أدنى من حالة هذا الرجل الفقير؟

فوجه الأجلجأ الى مثل هذه المقارنة فقال:

- مع هذا فان الرجل قانع بالأقل مما لديّ. ومختصر القول ان انا لن استعمل هذه النقود فايّ جدوى لي من احرازها؟ وان استعملتها فسوف أكسب سمعة سيئة لي وللأسكندر عند ابناء وطني.

فعادت الهدية الثمينة الى مرسلها، لتبرهن للأعريق بهذا المثل الفريد، ان القادر على منح مثل هذه العطية. ليس أغنى من ذلك القادر على رفضها.

واستاء الاسكندر وكتب له يقول أنه لا يمكن أن يجلب الاصدقاء الذين يرفضون منته وتكريمه. ولم ينفع هذا القول في [فوكيون] ولم يغره بقبول المال، إلا انه رجا من الاسكندر قبول شفاعته في الصوفي [اخيكراتيدس Echecratides] وفي [اثينودوريس الامبري Imbri] وكذلك في ديماراتوس، وسپارتون Sparton الروديسيين الذين كانوا قد سجنهم لبعض تهم في سارديس. فلبى اسكندر طلبه على الفور وأخلي سبيلهم. وبعدها، عندما بعث الاسكندر بـ [كراتيروس] الى مقدونيا أمره ان يعرض على [فوكيون] أربع مدن آسيوية وهي [كيوس Cius] و[ايليا Elaea] جرجيستوس Gergithus وميلاسا Mylassa يتخير منها واحدة ليحكمها. وان يلحّ في ذلك الحاحاً شديداً ويقول له انه سيحنق عليه أن رفض. لكن [فوكيون] أصرّ على موقفه ولم ينجح معه المسعى، وبعد قليل توفي الاسكندر.

ما زال منزل [فوكيون] قائماً حتى يومنا هذا في ميليتا. لا زخرف فيه غير بعض الصفائح النحاسية الصغيرة، وهو بصورة عامة بسيط عادي. ولا يعرف عن زوجتي [فوكيون] الا القليل. ومن هذا القليل ان الأولى هي أخت [كيسفيسودوتس Cephisodotus] النحات. والثانية عرفت بالفضيلة وبساطة العيش واشتهرت بهما كشهرة أمانة زوجها. حدث مرة أن

الجمهور كان يشاهد تراجيديا جديدة. وقبل ان يدخل الممثل المسرح لتمثيل دور الملكة، طلب تزويده بعدد من النساء الحسنات الثياب ليظهرهن معه كبطانة وخدمٍ وغضب عندما لم يحب طلبه واضرب عن التمثيل وابقى المشاهدين في الانتظار حتى أقبل ميلانتيسوس Melantius المشرف على الجوق ودفعه نحو المسرح وهو يقول:

- عجباً لك! الا تدري ان زوج فوكيون نفسها، لا تجد بين يديها أكثر من خادم واحدة؟ وانت تريد أن تظهر بمظهر فخم لتملاً رؤوس نساءنا بالتبه والغرور؟

نطق بهذه العبارة بصوت جهوري سمعه كل من كان قريباً.

وأقبلت امرأة من أيونيا لزيارة زوج فوكيون وحلت ضيفة وطفقت تريها حليها النفيسة من الذهب المكفت بالجواهر، وعصائبها وقلائدها وغير ذلك فقالت امرأة [فوكيون].

- اما انا فزوجي هو [فوكيون] وهو كل ما املكه من الحلي فهذه عشرون عاماً وهو قائد اثينا العام.

واراد ابنه [فوكس Phocus] الإسهام في الالعاب اثناء العيد الكبير المخصص [لمنيرفا] فاذن له بالمشاركة في سباق القفز شريطة ان لايجعل الفوز هدفه، بل التدريب على ضبط النفس والنظام اللذين يميزان تلك الالعاب. وكان الفتى مولعاً الى حد ما بالخمر لايرعى في حياته نظاماً معيناً.

فعند فوزه في السباق، تنافس الكثيرون على شرف صحبته ودعوته للمآدب والاحتفالات بمناسبة الفوز. ورفض [فوكيون] كل الدعوات الا واحدة. وعند وصوله شاهد استعداد الباذح والمظاهر الفخمة، حتى ان الماء الذي يقدم لغسل الاقدام مزج بالخمر والتوابل. فأنب ولده وتساءل لماذا سمح لصديقه بان يلطخ شرف نصره بمثل هذه المظاهر؟ ولأجل أن ينتزع ابنه من اسر هذه العادات وينقذه من تلك العشرة، ارسله الى لقيديمون وضمه الى الشبان الذين كانوا يتلقون تدريبهم وفق في النظام السپارطي. فأغاظ الآثينيين بعمله هذا. واعتبروه استهانة بجدوى التهذيب في بلاده وراح [ديماديس] ينددّ به علناً بقوله:

- ما رأيك يا فوكيون لو نصحنا الآثينيين بتبنيّ النظم السپارطية؟

ان شئت فانا على استعداد لتقديم مشروع قرارٍ بهذا المآل وان أعمل على ترويجها والموافقة عليها. فأجاب فوكيون:

- صدقت يا صاح. بهذا العطر القوي الذي يفوح منك. وذاك المعطف الفاخر على كتفيك، فأنت أصلح من يتكلم في تفريض ليكورغوس والاشادة بالطعام السپارطي.



وعندما كتب الاسكندر بطلب امداد من السفن وعارض الخطباء العموميون في ارساله.  
طلب فوكيون سماع رأيه في الجمعية وقال:

- أيها السادة اني أريد ان اراكم أحد اثنين. إما منتصرون وإما اصدقاء للمنتصرين.

وعنفً [بيثياس Pytheas] الذي كان وقتذاك يخطو اول عتبة في الخطابه وتوجيه الكلام  
للجمعية عاتبه لما كان قد اظهره من الاعتزاز بالنفس والغرور:

- ان العبد الفتى الذي اشترته المدينة أمس فقط، يجب ان يتحلّى بقسط من الأدب ما يمك  
به لسانه.

ولما شق [هرپالوس] عصا الطاعة على الاسكندر وهرب من آسيا حاملاً معه مبالغ طائلة  
من المال، استقرّ في آتيكا. وتسابق رجال الجمعية العامة العاديون الى صرة نقوده فوزع  
عليهم مبالغ بسيطة لتكون بمثابة طعام. لكنه عرض على [فوكيون] مالا يقل عن سبعمائة  
تالنت، وكل ما يريد من منافع، ان يكون تحت تصرفه وان يأتمر بأمره. فأجاب [فوكيون] بكلّ  
حدة وصرامة: «سيندم هرپالوس ان لم يقلع فوراً عن مجهوداته في افساد المدينة واغوائها  
بالمال» فأسكتته واوقفه عن عمله. ثم ان أمر هرپالوس عرض أمام الجمعية وراح الآثينيون  
يتشاورون حوله. فوجد ان من أخذ منه مالا كان اشد المهاجمين له. فأخذوا يؤلبون ضده  
ويبالغون في شجب اعماله. ويلحون في اتهامه، يريدون بذلك دفع الريبة عن أنفسهم، وتغطية  
علاقتهم به. اما [فوكيون] الذي أبى يتسلم منه شيئاً. فقد أهتم بسلامته الشخصية بقدر ما  
سمحت له المصلحة العامة، وهذا ما شجع [هرپالوس] على بذل جهودٍ أخرى لشرائه. لكنه  
أقتنع بالأخير أن [فوكيون] أشبه بقلعة منيعة لا يمكن لوسائل الاعزاء ان تجد فيها منفذاً من  
اية جهة. فعمد الى التقرب من ختنه [خاريكلس Charicles] وأختصه بالصدقة ووضع فيه  
ثقتة التامة. وكان يطلب معونته على الدوام. فبات ختن [فوكيون] موضع شك. فمثلاً ماتت  
[بيتونيكا Pythonice] مخطبة هرپالوس وام ابنه وكان كثير الحب لها. فعزم ان يبني لها  
ضريحاً فخماً واناط بصديقه [خاريكلس] مهمة الاشراف على العمل، مهمة لا تشرف  
صاحبها، وزاد من حطة شأنها التمثال (وهي المنحوتة التي ركبت بعد إكمال الضريح). هذا  
النصب يرى اليوم في [هرميوم Hermeum] وانت خارج من أثينا الى [اليوسيس Eleu-  
sis]. وليس في مظهره ما يدل على ان ثلاثين تالنتاً أنفقت عليه. وهو على ما قيل الأجر  
الذي طلبه [خاريكلس] من [هرپالوس] لقاء اتعابه. وبعد موته من الرعاية. لكن  
[خاريكلس] حوسب على علاقته بهرپالوس. فطلب حماية حميّه، والتقدم للدفاع عنه في  
ساحة القضاء. فرفض فوكيون ذلك وقال له:

- لم اخترك لابنتي زوجاً إلا لتبتغي اشرف الغايات.

كان [اسكليبيادس Asclepiades] ابن [هيپارخوس] أول من حمل نبأ وفاة الاسكندر الى  
أثينا. فكذبه [ديماديس] وطلب من سامعيه الا يصدقوه. اذ لو كان الأمر صحيحاً فان العالم  
كله سينتج بجثته قبل موته! وعندما رأى [فوكيون] حماسة الآثينيين للشورة الفورية اخذ يبذل  
قصارى جهده لتهدئتهم وكبح حجامهم واندفع عدد منهم الى المنبر للتحريض على الشورة  
هاتفين بأن النبأ صحيح وان الاسكندر قد مات. فقال فوكيون:

- إن هو اليوم ميت، فسيكون كذلك غداً. وكذلك سيكون بعد غدٍ فلا حاجة بكم والحالة هذه  
الى اتخاذ قرار عاجل. تأكدوا أولاً.

قبل ان يقلع [ليوسثينس Leosthenes] الى الحرب في لاميا Lamia بعد معارضة  
فوكيون الشديدة. اراد أن يضحك الناس عليه فسأله هازئاً:

- ماذا كسبت الدولة من بقائك هذه السنوات الطوال قائداً عاماً؟

فأجاب فوكيون: ليس بالقليل أن يتيح للمواطنين الدفن في قبورهم الخاصة.

واستمرّ [ليوسثينس] يخطب في الجمعية العامة متباهياً مختلاً. فقال فوكيون له:

- خطبك ايها الشاب شبيهة بشجر السرو. فهي مهيبة ممشوقة القامة، لكنها عقيمة لا تثمر.

وعندما هاجمه [هيپيريديس] آنذاك. وسأله الم يحن الوقت بنصح الآثينيين بشن الحرب،  
أجاب فوكيون:

- سأنصح بهما عندما أرى الشبان لا يتهربون من الخدمة في الجيش. والاغنياء ولا يترددون  
في التبرع باموالهم. والخطباء يكفون عن سرقة بيت المال.

وتعاطم الاعجاب بالقوات التي عباها [ليوسثينس] والاستعداد الحربي الذي اتخذه فسئل  
فوكيون عن رأيه بالمجندين الجدد فأجاب:

- في المدى القصير مناسبون جداً. لكنني أخشى السباق الطويل. لو طال امد الحرب فان المدينة  
لا تملك مالا ولا سفناً ولا جنوداً غير ما ترون الآن.

وبرهنت الاحداث على صدق قوله: في البدء جرى كل شيء على ما يرام وراحت بشائر الخير  
تترى، ونال [ليوسثينس] شهرة عظيمة بانتصاره على [البويوتيين] ومطاردته [انتيباطر]  
وارغامه على الاحتماء باسوار [لاميا Lamia] وطار الآثينيون فرحاً بالانتصارات الأدلى،  
فعيدوا وأحتفلوا وقدموا القرابين الرسمية للآلهة. وخيل لبعضهم ان [فوكيون] مقتنع الآن

بخطئه في الحساب فسألوه: أما كان يتمنى أن يكون صاحب هذه الانتصارات؟ فأجاب:

- أجل، وبكل سرور. لكن مع رأيي السابق.

وعندما بدأ السعاة يقبلون واحداهم إثر الآخر مؤكدين تلك الانتصارات ومبالغين فيها قال:

- ترى متى سيصل آخرهم؟

وبعد ذلك بقليل قتل [ليوستينس]. وكان ثم من يخشى ان يضع [فوكيون] حداً للحرب لو سلموه القيادة، فأتفقوا على شخص مغمور نكرة في الجمعية، لينهض ويدعى بأنه صديق قديم لفوكيون وموضع ثقته، ثم يتوجه الى المجتمعين ويناشدهم بان يعفوا [فوكيون] من هذا الواجب وان يدخروا الرجل الذي لا يضاھيه أحد، لعمل آخر أخطر وأهم من هذا العمل. وان يسندوا قيادة الجيش لـ [انتيفيلس Antiphilus]. فوقع كلامه موقعاً حسناً وارضى به الجمعية لكن [فوكيون] اوضح المسألة لهم بقوله:

- اني في الواقع لا ارتبط باي رباط من الصداقة مع هذا الرجل كما أنه لا يوجد بيني وبينه اي نوع من الالفة والمودة. ومع ذلك فاسمح لي يا سيدي ان اضحك في عداد اصدقائي وطالبي الخير لي. فان نصيحتك كانت لفائدتي حقاً.

وعندما تحمس الآثينيون لتجريد حملة على البووثيين، انبرى لمعارضتها في مبدأ الأمر فحذره اصحابه من كون الناس سيفتكون به ان ظل يخالفهم في الرأي، فقال:

- سيكون هذا ظلماً وتعدياً منهم، ان قدمت لهم خالص النصح.

والأ فمّن حقهم ان يفعلوا بي ما يشاؤون.

وظلّوا يصرخون ويلحون ليقودهم الى الحرب. فأمر المناادي أن يعلن بيانه الذي جاء فيه «على كل اثيني لم يبلغ الستين ان يتزود بما يكفيه من الزاد لستة ايام ويتبعني رأساً من هنا». فأحدث بيانه ضجة، واجفل كبار السن واحتجوا عليه فسألهم.

- ما الذي يدفعكم الى الاحتجاج؟ أنا الآن في الثمانين من العمر، على اتم استعداد لقيادتكم.

هذه المحاولة نجحت في تهدئتهم الى حين.

ولكن ما أن بدء [ميقيون Micion] بقواته الكبيرة من المقدونيين والمرتزة، يجتاح الساحل، ثم يحتل [رامنوس Rhamnus] ويتوغل في البلاد المجاورة حتى زحف عليه [فوكيون] وانشأ مختلف الاشخاص المدنيين يتدخلون في اجراءاته بالاشارة عليه ان يحتل

مرتفع كذا وتلّ كذا، وان يضع الخياله في هذه الجهة وتلك ويهاجم العدو من تلك النقطة او تانك فعيل صبره وقال:

- رحماك يا هرقل! ما أكثر ما عندنا من القادة. وما أقل ما لدينا من الجنود!

ثم وضع جيشه في نسق المعركة. ورأى جندياً يتقدم الآخرين في الصف يريد ان يظهر شجاعته. ثم رآه يتراجع الى مكانه في الصف عندما بدأ تقدم العدو وقد تملكه خوف شديد ضاح فوكيون مؤنباً:

- أيها الشاب! يجب أن تخجل من نفسك مرتين في هذا اليوم. فأولاً تركت محلك الذي اخترته لك. وثانياً تركت المحل الذي اخترته لنفسك.

ومهما يكن فقد وفق [فوكيون] الى هزم جيش عدوه هزيمة تامة وقتل [ميقيون] مع كثيرين في ميدان المعركة نفسها. كذلك أحرز للجيش الأغرقيي نصراً آخر في تساليا بعد وصول [ليوناتس] على رأس المقدونيين من آسيا للانضمام الى [انتيباطر] فقد قاتلهم وتغلب عليهم وقتل [ليوناتس] في ساحة المعركة. وكان [انتفيلين] يقود مشاته و[مينون] التسالي يقود خيالته. لكن لم يمرّ فترة طويلة الا وعبر [كراتيروس] المضيق من آسيا بقوات جرارة وخاض معركة ضارية انكسر فيها الاغريق إلا انه لم يلحق بهم هزيمة تامة ولم يصيبهم بخسارة كبيرة. لكن ما الحيلة وكيف تكون نهاية الصراع عندما يفتقر الجيش الى الضبط والربط؟ الجنود لا يطيعون ضباطهم. والقواد شبان نزقون كثيرو التبسط مع الجنود. و[انتيباطر] ناشط في مفاوضة ومغازلة المدن الأغرقيية كلاً على انفراد. كانت النتيجة، انحلال الجيش الأغرقيي وتسليم البلاد للفتح تسليماً مخجلاً.

عندما وردت الانباء بزحف انتيباطر الخاطف على اثينا بكل ما لديه من قوات، هرب [ديموستينس وھيبريدس] من المدينة. أمّا [ديمادس] الذي كان قد عجز عن تأدية أي قسط من الغرامات التي فرضتها عليه سلطة المدينة لأنه أدين سبع مرات لتقدمه لوائح ومراسيم مخالفة للقوانين وكان قد حرم حق الاقتراع ولم يعد صوته يسمع في الجمعية العامة، فقد أهتبل فرصة الحصانة من تنفيذ العقوبة ليقدم اقتراحاً بارسال سفراء مطلقتي الصلاحية الى [انتيباطر] ومفاوضته في صلح. إلا ان الأهالي ما عادوا يثقون به. فأتهجوا الى [فوكيون] بوصفه موضع ثقتهم الوحيد فقال لهم:

- لو ان نصائحي السابقة لقيت منكم آذاناً صاغية، لما آل بنا الأمر الى مناقشة وضعنا الحاضر مطلقاً.

ومهما يكن فقد أخذت الاصوات وصودق على قرار المفاوضات. فأنيب مع فوكيون آخرين لمواجهة انتيپاطر الذي كان قد عسكر في الأراضي [الثيبية] وكان ينوي تقويضه والزحف على آتيكا. وكان أول طلب [لفوكيون] هو ان يعقد الصلح بدون أن يتحرك [انتيپاطر] من معسكره. فقال [كراتيروس]: ليس من العدل ان نكون عبئاً ثقيلاً على بلاد اصدقائنا وحلفائنا ببقائنا فيها، بينما يكون الأخرى بنا استخدام ارض العدو لتزويد الجيش بالمؤن والارزاق. « لكن [انتيپاطر] أمسك بيد [فوكيون] وقال:

- يجب أن نخصّ [فوكيون] بهذا الفضل.

واما بخصوص الموفدين الآخرين فقد أوعز اليهم بالعودة، كلّ الى مدينته بعد احاطتهم علماً، بأنه لايسعه إلا ان يعرض عليهم عين الشروط التي عرضها عليه [ليوستينس] عندما كان يحاصره في [لاميا]، وهي الاستسلام دون قيد أو شرط.

وعاد [فوكيون] ونقل لمواطنيه هذا الجواب فلم يسعهم إلا النزول عند حكم الضرورة وقبلوا ولم يكن لديهم الخيار في الأحسن وعاد [فوكيون] الى [ثيبه] ثانية مع مندوبين آخرين، بينهم [كزينوقراطس] الفيلسوف الذي ذاعت شهرته في كل مكان لما يتمتع به من فضائل وحكمة، وقد قدر أن كل من يقع نظره عليه سيمتلى أعجاباً به واحتراماً له. ويزيل من قلبه الكبرياء والقسوة والغضب. لكن النتيجة كانت عكس ما توقع فقد بدأ [انتيپاطر] خالياً من الكياسة مجرداً عن العاطفة كارهاً لأي شيء حسن. حياً كل فرد، خلا [كزينوقراطس] فقد أهمله وتظاهر بأنه لم يلحظ وجوده. وقيل لنا ان [كزينوقراطس] علل هذا التجاهل بأن [انتيپاطر] عندما قرر ان ينزل ذلك العقاب القاسي بآتيكا انما فعل حسناً بخجله منه وعدم النظر اليه. عندما شرع في الكلام لم يصغ اليه وظلّ يقاطعه بخشونة وغلاظة حتى اضطر أخيراً الى الصمت. وعندما انتهى اليه [فوكيون] الفرض من الايفاد، اجابه باقتضاب أنه يعقد معاهدة صلح مع الآثينيين بشروط غير قابلة للتبديل وهي: انه يسلم له [ديموستينس] وهيپيريدس] ولهم ان يحتفظوا بشكل حكومتهم القديم شريطة ان لا يكون حق الاقتراع الا لمن ملك عقاراً وان يقبلوا بوضع حامية في [مونرخيا Munychia] وان يدفعوا مبلغاً من المال لسدّ نفقات الحرب.

كانت الشروط ملائمة مقبولة نظراً للظرف. وقبلها اعضاء الوفد خلا [كزينوقراطس] الذي قال: « اذا اعتبر [انتيپاطر] الآثينيين عبيداً فان معاملته هذه لهم طيبة كريمة. وان عدّهم احراراً، فان شروطة قاسية. « وتلاه [فوكيون] والح على رفع شرط وضع الحامية. واستخدم الكثير من الحجج والبراهين فأجابته [انتيپاطر]:

- نحن يا فوكيون مستعدون لتلبية اي طلب لا يكون سبباً في دمارك ودمارنا.

واورد آخرون رواية مختلفة للمقابلته، قالوا ان [انتيپاطر] سأل [فوكيون]:

- فلنقرض اني عدلت عن ارسال الحامية الى آتيكا فهل انت على استعداد لضمان ايفاء المدينة بشروط المعاهدة وهل تتعهد بأن أهاليها لن يثوروا عليّ؟

وتردد [فوكيون] وابطأ في الاجابة، فأنبى « كالليميدون كرابوس - Callimedon the Car-abus » وهو مولى من الموالى، سريع الغضب، وعدو لدود لكلّ المدن الحرة. وصاح قائلاً:

- واذا استمر هكذا ينطق بالتافه من الكلام، استرضى يا [انتيپاطر] ان تستغفل فتصدق به وتعدل عن ما انتويته؟

ورضخ الآثينيون وقبلوا بالاحتلال، و[مبيللوس Menyllus] حاكماً وكان رجلاً منصفاً عادلاً ومن معارف [فوكيون].

لكن هذا الاجراء بدأ عملاً تعسفياً استبدادياً للغاية بل استعراضاً حاقداً مهيناً، للقوة والجبروت. أكثر مما ينطوي عليه احتلال قلعة من أهمية عسكرية. وما زاد في حق الآثينيين واستيائهم، اختيار الظرف لدخول الحامية فقد دخلت في العشرين من شهر [بيودرميون] اي يوم العيد الكبير، حيث يحمل الآثينيون [اياخوس Iachus] ويسيروا به بموكب ديني حافل من المدينة الى [البوسيس]. فكان انتهاكاً صارخاً لحرمة المراسيم الدينية راح كشيرون يستذكرون به مناسبات معينة قديمة وحديثة للتدخل الالهي.

ففي سالف الزمان الذي شهد اسع عهودهم وأكبر انتصاراتهم كانت الاشكال والاصوات التي ترى وتسمع في المواكب الدينية ضمناً لهم اذ أنها تلقي الرعب والهلع في انفس اعدائهم. وها ان الآلهة الآن في موعد الاحتفال بعيدها، تقف بنفسها لتشهد اقصى موقف من مواقف الظلم التي ابتلي بها الأغرقي، وابعثها على الأسى. لقد دنس أقدس ايامهم، وغذا أعظم ذكرى لهم تاريخاً لأفطع نكبة حلت بهم. قبل سنوات قليلة، اصغوا الى تحذير في نبوءة جاءتهم من [دودونا Dodona] اوصتهم إن يشددوا الحراسة على مرتفعات [ديانا] لئلا يستولي عليها اغراب مستطرقون. وفي حدود ذلك الزمن تقريباً، كانوا يهمون بصيغ الشرائط والاكاليل التي تزين عربات الموكب ومحفاته فتسلموا بدلاً من لون الارجوان المقرر، لوناً اصفر باهتاً وليكون النذير أقوى دلالة. حافظت الاشياء المصبوغة للاستعمال الديني - على الوانها الأصلية. وبينما كان أحد المرشحين للتكريس الديني، يغسل خنزيراً صغيراً في مرفأ [كانثاروس Cantharus] وثب عليه قرش وانشب انيابه فيه فقطع الاجزاء السفلى حتى بطنه

وابتلعها، وتلك علامة واضحة اراد الآله أن يعلمهم بها انهم سيفقدونالجزء الأدنى من المدينة مع ساحل البحر ولن يتبقى لهم غير الجزء الأعلى.

كانت شخصية [مينيلوس] ضماناً كافياً لحسن سلوك افراد الحامية إلا ان عوامل أخرى برزت فابتقت حالة التوتر على وضعها بل زادتها حدة. فأولئك الذين حرمتهم شروط انتيباطر من حق الاقتراع لأنهم فقراء معدمون، بلغوا اثني عشر الفاً. ومن بقي في المدينة شعر بالظلم والمذلة. اما الذين تركوا بيوتهم وهاجروا الى تراقيا حيث اعطاهم [انتيباطر] مدينه ومساحات من الأراضي للسكني والفلاحة فقد عدواً أنفسهم في مرتبة المستوطنين العبيد أو المنفيين. زد على هذا موت [ديموستينس] في [كالاوريا Calauria] وموت [هيبيريدس] في [كليوني Cleonae] كما ورد ذكره في محل آخر. لذلك بدأ الناس يترحمون على [فيليب] والاسكندر ويتمنون لو عادت تلك الأيام. وكان حال المدينة أشبه بما حصل عقب مقتل [انتيجونس] فقد عاث القتلة في البلاد فساداً وملأوها ظلماً واضطهاداً. وشوهد مواطن فريجي يواصل الحفر في الحقول فستل عمّ يبحث فقال:

- اني انقب عن حسرة عميقة! أفتش عن انتيجونس!

هكذا كانوا يقولون مذكرو تلك الايام. كانوا يستعيدون ذكريات الوقائع التي خاضوها مع أولئك الملوك، فيجدونهم الآن كرماء غفارين مهما بلغ غضبهم من العنف. وها هو ذا اليوم [انتيباطر] بتواضعه المزيف ومظهره الذي لا يفترق به عن مظهر الرجل العادي، وطعامه البسيط، يسترحبه الحقيقي للسلطة المطلقة، وطغيانه وقسوته وتنكيله بمن وقع تحت سلطانه.

مع ذلك كله فقد أفلح [فوكيون] معه في سعيه لاعادة الكثيرين من منافيهم. ونجحت شفاعته أيضاً في المطرودين. فحال دون قذفهم كالآخرين، وراء نهر تيناروس Taenarus وجبال [كيراونيا Ceraunia] فمكثوا في بلاد الاغريق واستقروا في الپيلوبونيس. ومنهم [اغنونيدس Agnonidus] المتزلف، ولم يكن أقل انكباباً ومواظبة على تدبير الأمور داخل المدينة ملتزماً بالعدالة والمساواة مفضلاً للخدمة العامة والاقضية بين الناس كل من عرف بحسن التهذيب وعلو المقام. اما الثرثارون الفضوليون مثيرو الشغب الذين وجه اليهم ضربة قاتله بعزلهم من الوظائف ومنعهم من المشاركة في المناقشات العامة فقد نصحهم بملازمة بيوتهم وفلاحة اراضيهم. ولاحظ ان [كزينوقراطس] يدفع ضريبة الغريب لأنه لم يكن مواطناً اثينيا فعرض عليه مواطنة الشرف فأبى الفيلسوف قائلاً انه لا يستطيع قبول اعفاء عن حالة كان قد ارسل سفيراً للالتفاف منها واستظهارها.

ورغب [مينيلوس] ان يقبل منه [فوكيون] مبلغاً من المال على سبيل الهدية فشكره وقال:  
- ليس [مينيلوس] بأعظم من الاسكندر، وليست حالتي اليوم اشدّ عسراً مما كانت عندما رفضت قبول هدية الاسكندر، لأقبلها منك الآن.

والحّ عليه بأن يسمح لابنه [فوكس] بقبولها. فقال:

- ان كان ابني من ذوي العقول السليمة، فسيري ان ميراثه كافٍ. وان لم يكن كذلك فكلّ الموارد لن تكفيه.

لكن جوابه [لانتيباطر] كان حازماً، حاداً. فقد حاول هذا تكليفه بعمل شيء لا يشرفه فكان جوابه:

- لا يمكن لانتيباطر ان يتخذني صديقاً ومتزلفاً في آن واحدٍ .

في الواقع ان [انتيباطر] كان لايفتأ يردد القول بأن لديه في آئيننا صديقين: فوكيون وديمادس. الأول لا يريد منه ايه منة أو عطية. والثاني لايمكن اشباع نهمه. وليس بعجيب ان يرى [فوكيون] الفقر فضيلة عاشها حتى غداً عجوزاً بعد ان تولى عدة مرات منصب القائد الأعلى، وصادق الملوك والأمراء، في حين كان [ديماديس] يجد أعظم متعة في انفاق ثروته، وان كان في وجوه تخالف العرف والقانون مخالفة صريحة. ومن ذلك انه كان ثم قانون يمنع ممارسة الاجنبي لفن الرقص في اي جوق. ويعاقب مؤجره وعارضه بغرامة قدرها ألف درهم. فبلغ الزهو بديماديس ان عرضوا جوقاً كاملاً من الرواقص الاجانب ودفع عن رأس من الرؤوس المائة الف درهم. دفعها في المرسع عدلاً ونقداً. وعندما زوج ابنه [ديمياس Demaes] قال له بذاك الغرور والخيلاء:

- عندما تزوجت امك يا بني. كان زواجي من البساطة بحيث لم يشعر به جيراني الملاصقون. وها ان الملوك والأمراء يقدمون الهدايا في حفلات زواجك.

وظلت الحامية في [مونرخيا] مصدراً للالم الغيظ. وباعشاً للغيظ العظيم. ولم يكف الاثينيون من الالحاح على [فوكيون] بمفاتحة انتيباطر واقناعه بسحبها، لكنه كان يرفض التدخل ولعله يئس من تحقيق ذلك. أو ربما وجد في بقائها ضماناً لهدوء الأهالي واستقرار الشؤون العامة وانتظامها للرهبه التي يشيعها وجودها. لذلك أكتفى من [انتيباطر] بحصوله على مهلة في دفع الجزية المفروضة على المدينة. فعامة الأهالي واتجهوا الى [ديماديس] فأسرع بقبول مهمة الوساطة وسافر الى مقدونيا مصطحباً ابنه. وشاءت القوى الالهية أنه وصل حين سقط [انتيباطر] مريضاً. وغداً [كساندر] وكبلاً له وتشاء الصدفة ان يعثر هذا على رسالة

سبق لديماديس ان وجهها الى [انتيغونس] في آسيا، يزين له القدوم وامتلاك بلاد الاغريق ومقدوني... المعلقة الآن بخيط بال قديم (هازناً بانتيپاطر). فما ان رآه قادماً حتى أمسك بابه وقتله قريباً منه حتى ان دمه لطح كل جسمه وثيابه وانثنى على الاب يشتمه ويصفه بلاذع القول ويؤنبه على خيانتته ونكرانه الجميل، ثم الحقه بابه.

قضى [انتيپاطر] نحبه بعد تسميته [پوليسپيرخون Polysperchon] قائداً عاماً، وكساندر قائداً للخيلة. فباشر كساندر في الحال العمل لنفسه بجد. وأرسل [نيقانور Nicanor] خلفاً لميتيلوس في قيادة الحامية، وأمره بان يتسلم [مونوخيا] قبل أن يشيع نبأ وفاة [انتيپاطر]، ففعل وبعد ايام بلغ النبأ أهالي أثينا فأتهموا [فوكيون] بسبق العلم به. والعمل على كتمه عنهم بكل الوسائل لرعايه اصدافه تربط ما بينه وبين [نيقانور] القائد الجديد، فلم يحفل بتخريصاتهم، ولم يعرھا اهتماماً وراح يزور القائد بانتظام ويتداول معه في الشؤون العامة ففاز بتحويل عطفه الى الاثينيين وضمن لهم حسن نيته. وحمله على قبول ترؤسه للالعاب وبما ينطوى عليه ذلك من متاعب له وانفاق المال.

ومنح [پوليسپيرخون] صلاحيات الملك، فلأجل ان يحبط تدابير [كساندر] تمهيداً لازاحتته بعث بكتاب الى الاثينيين باسم ملكه. يعلن فيه عن اعادة نظام الحكم الديمقراطي في أثينا، وان الاثينيين جميعاً هم احرار في ادارة جمهوريتهم حسب شرائعهم الاولى. وكانت الغاية من هذا، القضاء على نفوذ فوكيون كما ستكشف عنه الوقائع. فپوليسپيرخون كان يخطط للاستيلاء على المدينة، وهو أمر محال طالما يتمتع [فوكيون] بالثقة. فليس ثم طريقة فعالة لازاحتته والقضاء عليه إلا بملاء المدينة مرة أخرى بالناس الذين لايملكون حق الاقتراع. وأطلاق السنة الغوغاينيين والمدعين العاميين.

وأخذت المدينة تفلي كالمرجل بهذا الوعد. وحاول [نيقانور] التحدث اليهم في اجتماع لمجلسهم في [پيربوس] وأقبل وحده موكلاً امر سلامته الشخصية [بفوكيون]. وعندما حاول [دركيلوس Dercyllus] قائد الحرس القبض عليه بايعاز مسبق، أفلت [نيقانور] فاجياً بجلده، ولم يتم شك في انه لن يضيع لحظة واحدة من العمل للانتقام بسبب ما لحقه من أهانة. وعوقب [فوكيون] لأنه أخلى له السبيل ولم يحتجزه. فقال يدافع عن نفسه انه كبير الثقة بنيقانور لايتوقع منه القيام بأي عمل تهدد سلامة المدينة، واذا ظهر الأمر خلاف ذلك فانه يتعهد أمامهم بان يقبل الضرر على نفسه، ولا يفعله هو وواصل حديثه الذي كان فعلاً ينم عن شرف نفس وعقل رفيع. على أن صاحب السلطة العليا والقائد العام الذي يجازف بسلامة وطنه، يصعب تبرئته من تهمة اخلاله باقدس واجب من واجبات العدل والانصاف، ذلك

الواجب الذي يحتمه عليه منصبه. وليس يجدي القول انه كان يخشى توريث المدينة في حرب، اذا ما القى القبض على [نيقانور]. وليس يجدي قولنا انه لم يمسه لأنه كان يأمل منه مبادلتته الثقة والتعامل الشريف، لقد كانت ثقة [فوكيون] في حسن نية وفي شرف كلمته كبيراً بحيث أعماه عن الاجراءات التي اتخذها هذا القائد - تلك الاجراءات البعيدة جداً عن حسن النية كالاستعداد للهجوم على [پيربوس]، وارساله الجنود الى سلاميس واتصاله بمختلف سكان [پيربوس] لاستمالتهم واجتذابهم الى صفه. والانكى من ذلك كله، أنه لم يكن بالامكان اقناع [فوكيون] بانه مخطئ في وضع ثقته الصمياء وظل يركب متن الشطط. حتى عندما سمى [فيلوميديس اللامپري Philomedes Lampra] ففاز من الجمعية بقرار يقضي على كل الاثينيين يحمل السلاح والتأهب للسير وراء [فوكيون] قائدهم. ظل قائداً لايعمل شيئاً. حتى قاد [نيقانور] جنوده فعلاً الى خارج مونوخيا وحفر الخنادق وحكم مواضعه حول [پيربوس]. وعندما أطلق [فوكيون] الاثينيين أخيراً، راحوا يهتفون ضده ويهزأون بأوامره.

كان الاسكندر بن [پوليسپيرخون] على مسافة قريبة جداً من أثينا وتحت أمرته قوات كبيرة، فأعلن عن استعداده لنجدتهم ضد [نيقانور] على أن نيته الحقيقية المضرة هي مباغته المدينة واحتلالها وهي في حالة الفوضى وأهلها منقسمون على أنفسهم. وكان قد افسح اليها كل من طرد منها، وانضم الى العائدين خليط من الاجانب وحشود من الاشخاص الذين حرموا حق التصويت. من هذا الخليط انبثقت جمعية عامة لاتعرف نظاماً ولا قانوناً - ما لبثت ان جردت [فوكيون] من كل سلطاته وعينت في محلة قادة آخرين. ولم لم تحكم الصدفة بان يلمح الاثينيون من فوق الأسوار اجتماعاً ثنائياً بين الاسكندر ونيقانور لوقعت المدينة في الشرك المنصوب. لقد تكررت المقابلات بين القائدين على هذه الشاكلة فلم تبق اي مجال للشك. وانبرى [اغنونيدس] يهاجم [فوكيون] ويتهمه بالخيانة. وشعر كالليميدون وخاريكلس بهبوب الإغصار فهربا من المدينة خوفاً على حياتهما. وخرج [فوكيون] مع ثلة من اصحابه يقصدون [پوليسپيرخون] وأخذ معه [اصولون] الپلاتي Plataea، و[دينارخوس Dinar-chus] الكورنثي صديقاً [پوليسپيرخون] الحميمين وموضع ثقته. لكن الوفد تأخر أياماً في [ايلاتي Elatae] لمرضى ألم بدينارخوس. وفي اثناء ذلك اصدر الاثينيون بتحرير من اغنونيدس واقتراح من [ارخستراتس Archestratus] قراراً يقضي بارسال وفد الى [پوليسپيرخون] لتوجيه الاتهام الى [فوكيون] ووصل الوفدان في وقت واحد وكان [پوليسپيرخون] قد خرج مع الملك الى الريف وتوقفا عند قرية من اعمال فوكيس Phocis تدعى فاريجي Pharygal وكان يعرف انذاك باسم [اكروريوم Acrurium]. هناك نصب

[پوليسپيرخون] سرادقاً مذهباً واجلس الملك وحاشيته فيه. وأمر فوراً بالقبض على دينارخوس وتعذيبه ثم قتله. وبعد نفاذ ذلك سمح بادخال الآثينيين الذين ملاؤوا السرادق ضجيجاً ولغظاً: فريق يتهم فريقاً، وينتقصه وتعالت الضوضاء، وتمكن اغنونيدس من التقدم الى الأمام، راجياً ان يوضع الجميع في قفص ويرسلوا الى آثينا ليقرر أهاليها ما يرون في شأنهم. فلم يتمالك الملك من الابتسام. ويظهر ان الحاشية وكانت من المقدونيين والاجانب، استمتعت بهذه الضجة والثرثرة فراح افرادها يحرضون اعضاء الوفد ويشجعونهم من طرف خفي للمضي في عرض قضيتهم. لكن استقبال الوفد وسماعه جرى بشكل مهين لا يتفق والأصول. اذ كثرت مقاطعة پوليسپيرخون [لفوكيون] فنغد صبره وضرب الأرض بعصاه وكفّ عن الكلام. وعندما قال [هيگمون Hegemon] ان البوليسپيرخون نفسه يشهد على شدة تعلقه بالشعب، صرخ پوليسپيرخون بحدّة:

كفّ عن شتمي واهانتي امام الملك.

وهبّ الملك واقفياً بهم بان يقضى على المتكلم بطعنة من رمحه الا ان [پوليسپيرخون] حال دون ذلك، فانفرط عقد الاجتماع. وقبض على [فوكيون] وصحبه. اما اصداقاه الذين لم يكونوا على قوته منه فقد أخفوا وجوههم وهربوا عندما ابصروا ما حلّ به وقام [كليتيوس] بنقل المقبوض عليهم الى آثينا ليحاكموا. الا ان الحكم في الحقيقة يقال مؤلّة مثيرة للمشاعر. فقد وضعوا في عربات مرت خلال الكيراميكوس Ciramicus الى موضع المحاكمة مباشرة وظلوا في حراسة كليتيوس، حتى بدأ اجتماع الجمعية العامة، وقد فتحت الابواب لكلّ قادم اجنبياً كان ام عبداً، وقبل حتى أولئك الذين صدرت عليهم احكام الحرمان من حق التصويت، وشاركت النساء ايضاً ولم يمنع أحد من اعتلاء منبر الخطابة.

وبعد تلاوة كتاب الملك وقد جاء فيه انه مقتنع بخيانة هؤلاء الرجال. لكن لما كانوا مواطنين مدينة حرة، فلا يسعه الا ان يؤمن لهم حق المحاكمة والحكم بموجب الشرائع التي تسيّر عليها. وعلى اثر ذلك جلب [كليتيوس] المتهمين ولم يحتمل المواطنون الشرفاء هول الموقف فغطوا وجوههم وانحنوا الى امام لأخفاء دموعهم ووجد احدهم الشجاعته الكافية ليقول: مادام الملك احال هذه القضية الخطيرة الى الشعب ليحكم فيها. فمن الافضل ان ينسحب كل اجنبي وكل من هو في حالة العبودية. ففقد صبر الجمهور واخذ يصيح: «هؤلاء هم أوليقارشيون. اعداء حرية الشعب. انهم يستحقون الرجم» وبعد هذا لم يجرؤ أحد على التفوه بكلمة دفاع عن [فوكيون] ولم يكن هو ايضاً قادماً على اسماع صوته بعد ان سأل:

- اتريدون قتلنا بصورة شرعية أم بشكل يخالف الشرع؟

فأجاب بعضهم: بل بموجب الشرع.

فقال [فوكيون]: كيف تتوقعون نال محاكمة عادلة؟

فاصموا آذانهم، وعافوا سماعه فتقدم بضع خطوات وقال: أنا شخصياً أقر بذنبي. وأعلن أن سياستي العامة تستحق حكم الموت. لكن لماذا يا رجال آثينا تقتلون هؤلاء، وهم ابرياء لم يرتكبوا ذنباً؟

فصاح الرعاع: هم اصداقاه، وفي هذا الكفاية.

عندئذ انسحب [فوكيون] وظلّ ساكناً الى النهاية.

وقرأ [اغنونيدس] مشروع القرار. وهو على الشعب أن يقرر برفع الايدي هل هم مجرمون ام لا. واذا وجدوهم كذلك فيجب عليهم فرض عقوبة الموت. بعد تلاوة المشروع. اقترح بعضهم اضافة فقرة أخرى تتضمن تعذيب [فوكيون] قبل تنفيذ الحكم. وان تجلب المخلعة<sup>(١)</sup> مع الجلادين. لكن [اغنونيدس] لاحظ ان [كليتيوس] لا يرغب في ذلك، وانه هو نفسه كان يجد ذلك عملاً وحشياً فقال:

- يا رجال آثينا! عندما نلقي القبض على ذاك العبد [كالليميدون] فسنعضه على المخلعة. إلا اني لن أقدم هذا الاقتراح في قضية [فوكيون].

وعقب أحد المواطنين على هذا بقوله: لو أننا عذبنا [فوكيون] فماذا ترى سنفعل بك؟

وقمت الموافقة على المشروع وطلب من الحاضرين رفع الأيدي فلم يبق أحد في مجلسه بل نهضوا جميعاً. وكان بعضهم قد ضفر اكاليل الزهر - وحكموا على جميع المتهمين بالموت.

الى جانب [فوكيون] حكم كل من نيكوكلس، وثديبوس Thudippus وهيگمون، وبيشوكلس Pythocles من الحاضرين وديميتريوس الغاليري وكالليميدون وخاريكلس وآخرين من الغائبين.

وبعد ان تفرقت الجمعية، نقل المحكومون السجن وسار خلفهم اصحابهم واقرباؤهم يبكون ويولون ويتشبهون بهم وبدأ [فوكيون] مثلما كان يبدو عند عودته الى منزله من الجمعية تحفّ به الحاشية والأتباع بوصفه قائداً عاماً، ولاحظ الناس بدهشه هدوءه وكبرياءه. وأقبل اعداؤه من الجانبين يهينونه ويشتمونه. وتقدم أحدهم ويصق في وجهه. فالتفت فوكيون الى الضباط وقال: عليكم ان تضعوا حدّاً لهذه البذاءة والخطّة.

(١) المخلعة Rack آلة تعذيب قديمة تشبه الدولاب يشد عليها الجسم وتمط بها أعضاؤه حتى تتخلع.

ويوصلهم السجن أطلق [ثديپوس] العنان لعواطفه عند رؤيته الجلاد وهو يمزج السمّ ويعدّه. وراح يندب حاله ويندد بالحكم القاسي الذي حكم به ظلاماً، وهو الموت مع [فوكيون] فقال له فوكيون:

- الا يريضك ان تموت مع [فوكيون]؟

وسأله أحد اصحابه الواقفين ألدیه أقوال يريد ابلاغها الى ابنه فأجاب فوكيون:

- أجل حبداً لو تفضلت. قل له أن لا يحقد على الآثيين.

ورجا فيه [نيكوكلس] اعزّ وأخلص اصدقائه ان يسمح له بشرب السمّ قبله. فقال [فوكيون]:

- انت يا صديقي، تسألني شيئاً أكره اعطاءه، ويحزنني أمره. لكن ولأنني ما كنت في سائر حياتي بدرجة من الانانية أن رفضتُ لك طلباً، فعليّ أن ارضيك بهذا ايضاً.

وتناولوا السمّ جميعهم حتى لم يعد منه بقية ولم يكن كافياً لأحداث الموت. فرفض الجلاد ان يعد مقداراً آخر إلا اذا دفع له المحكومون اثني عشر درهماً ثمناً للجرعة الاضافية. وحصل بعض التأخير ومضى الوقت. فنادى [فوكيون] احد اصدقائه قائلاً:

- ان المرء في آثينا لا يستطيع أن يموت قبل ان يدفع أجرة ذلك وطلبت منه دفع المبلغ اللازم.

في الثالث عشر من شهر [مونيوخيون Munychion] من كل سنة اعتادت المدينة ان تحتفل بموكب ديني تكريماً لجوبيتر. وكان الفرسان يرون مع الموكب فبلغوا السجن وقذف بعضهم باكاليل الزهر. وبكى آخرون. وتوقف بعضهم وأخذوا يذرفون الدمع حزناً وقال أولئك الذين لم تتلوث عقولهم تماماً بالحقد والضغينة. وأولئك الذين احتفظوا ببقية من الانسانية أن تنفيذ الحكم في هذا اليوم هو مروق وخروج عن المبادئ الدينية، لقد كان أقل الواجب يفرض أن لا ينفذوا الحكم في ذلك اليوم بالذات. لتبقى المدينة طاهرة بريئة من حكم موت وتنفيذه علناً في يوم عيد ديني.

وكان الفوز بحياة [فوكيون] لم يكف خصومه. فاوغلوا في حقدهم وتمادوا بمنعهم من دفنه في اي مكان من البلاد. ولم يكن بمقدور اثنين ان يرفع محرقة لاحراق الجثة. ولا ان يجراً واحد من اصحابه على المغامرة بهذا الشأن. وكان ثم شخص يدعى [كونوپيون Conopion] وهو ممن أمتهن العمل. فأخذ الجثة ونقلها الى ما وراء [اليوسيس] وجمع حطباً مما وراء حدود ميغارا وانجز العمل وكانت زوج [فوكيون] وخدمها حاضرات فشاركن في المراسيم واقمن ثم قبراً خالياً وسكبت الخمر القربانية حسب الأصول ثم جمعت العظام في ذيل ثوبها وعادت بها

ليلاً وحفرت حفرة بالقرب من المدفأة في المنزل ورارتها وهي تقول:

- أيتها المدفأة المباركة، ها اني اودع اليك بقايا رجل طيب باسل. متوسلة اليك ان تحمي وتحفظي هذه البقايا حتى يضمها قبر ابائه عندما يعود الآثيين الى صوابهم.

وهكذا كان. مما مرت فترة من الزمن قصيرة، حتى ادرك الآثيين من تجاربهم الاليمة أنهم حرموا انفسهم من حاكم ممتاز وحام للعدل وكابحٍ للطيش والجموح لا نضير له. فرسموا ان يصنع له تمثال من نحاس. وان تدفن عظامه باحتفال رسمي على نفقة الدولة.

واما بخصوص اغنونيدس ومتهميه الآخرين، فقد قبضوا عليهم ونفذوا فيهم حكم الموت. وهرب كل من ابيتورس وديموقيليس من المدينة خوفاً. فتعقبهما ابنه واصاب ثاره من كليهما. ولقد قيل لنا ان ابنه كان بصورة عامة شخصاً عادياً. مرة وقع في حب عاهرة كان يحتفظ بها تاجر بالعواهر. وسمع ثيودورس الملحد يناقش في [ليقيوم] فيقول: ان كان شراؤك حرية صديقٍ ذكرٍ عملاً حسناً فلماذا لا يكون حسناً ايضاً شراؤك حرية صديق انثى؟ واذا كانت هذه المنّة لسيدٍ فلماذا لا تكون ايضاً لمخطيئة؟

فلقي هذا المنطق صدى لعاطفة حبه لتلك الأمة، وأسرع فأشترى حريتها.

ان الميتة التي ذاتها [فوكيون] احيث في اذهان الاغريق ذكر ميتة سقراط<sup>(٢)</sup>. فالقضيتان متشابهتان. وكلاهما راح ضحية خطأ المدينة المؤسف وحظها العاثر.

١٩٧٢/١/٩

(٢) من المفيد ان نذكر هنا ان السمّ الذي استعمل لتنفيذ الحكم في هاتين الضحيتين الشهيرتين، هو العصير المستحلب من نبات الشوكرا Water Hemlock.

کاتوالاصغر

**CATO**

**(The Younger)**

95 \_ 46



احد مندوبهم [پومپيديدوس سيلو Pompaedius Silo] ضيفاً على صديقه [دروسوس].  
ومضت على هذا الجندي الشجاع الذائع الصيت ايام في منزل دروسوس كسب به حب  
الاطفال وتعلقهم. وسألهم ذات يوم:

- حسناً يا أولادي! ألا تتقدمون برجااء لحاكمكم حتى يساعدنا في مهمتنا؟  
فأسرع [كيبيو] بالموافقة باسماء. الا ان [كاتو] ظل ساكناً وانما راح يحدج الاغراب بقسوة  
وعين لا تطرف. فقال [پومپيديدوس]

- وانت يا سيدي الصغير ما رأيك؟ ألا تتدخل الى جانب اخيك وتتوسط لأجلنا عند خالك؟  
وظل [كاتو] صامتاً لا يجيب. وبدأ بسكوته هذا وصرامة وجهه أنه لا يوافق. وعلى سبيل  
الدعابة رفعه [پومپيديدوس] وتقدم به من النافذة وحمله كأنما يريد القاءه وطلب منه ان يوافق  
والأ كذف به من حالق. قال هذا بلهجة وعييد واخرج جسم الطفل من النافذة وراح يهزه هزاً  
شديداً. ويعد ان عانى [كاتو] ذلك فترة دون ان يبدي عليه خوف أو وجل، انزله [پومپيديدوس]  
وهمس لاحد اصحابه قائلاً:

- رحم الله روما لأنه ما زال بعد صبيهاً. لو كان هذا رجلاً فلا اضننا سنحصل من الأهالي على  
صوت واحد.

وفي مرة أخرى. بمناسبة عيد ميلاد احد اقربائه دعي الي العشاء مع عدد من الأطفال.  
وانتقل بعض الاحداث صغارهم وكبارهم الى موضع آخر من الدار ليلعبوا معاً لعبة المحاكمة.  
فشكلوا محكمة ووقف أحدهم متهماً الآخر. وجاء آخر ليقود المحكوم الى السجن. وكان بين  
اللاعبين طفل في غاية الجمال، اوثقه صبي آخر وحمله الى السجن فصاح مستنجداً بكاتو  
الذي ألم بالموقف بلحظة واسرع الى الباب ونحى الواقفين على حراسة الباب واخرج الطفل. ثم  
ترك الحفلة الى داره غاضباً ومعه عدد من لداته.

ماليث [كاتو] أن أصبح شهيراً بين الصبيان. وعندما اعتزم [سللا] أحياء السباق الديني  
المعروف باسم [طروادة] وهو سباق الفرسان الفتيان. جمع ابناء الأسر العريقة ونصب قائدين  
من بيتهم. فقبل الفتيان اولهما بسبب امه، فقد كان ابن ميتيلا عقيلة سللا. اما الثاني وهو  
[سكستوس] ابن اخ [پومبي] فقد رفضوا ان يكون قائداً او مدرباً. فسألهم [سللا] من  
نحتارون؟ فصاحوا بصوت واحد [كاتو]. وتنازل [سكستوس] بطيبة خاطر عن هذا الشرف  
له، متنعاً بأنه أجدر به.

كان [سللا] بوصفه صديقاً للأسرة يرسل احياناً بطلب [كاتو] واخيه لرؤيتهم والتحدث

لمعت شهرة اسرة [كاتو] لأول مرة على عهد والد جد كاتو الاصغر. الذي كان علماً من  
اعلام الرومان بفضائله وأعماله العظام كما اوردا في سيرته.

فقد [كاتو] ابويه هو واخوه [كيبيو Caepio] واخته [پورشيا] وأخت لأم وهي [سرقيليا  
Servilia]، فكفلهم خالهم [ليفيوس دروسوس Livius Drusus] وكان وقتئذ شخصية كبيرة  
النفوذ في الدولة. شهيراً بمناقبه وسمو اخلاقه. وقيل عن [كاتو] ان طباعه لم تتغير منذ  
نومه اطفاره حتى نهاية حياته. ففي تصرفاته واقواله وملامح وجهه كان ثم صلابة وثبات لا  
تحركهما اية عاطفة. ولوحظ فيه من ثبات العزم ما ينوء به عمره. ان سار قدما وراء شيء  
فليس هناك قوة تثنيه عنه. وكان خشناً فظاً مع متعلميه وقاسياً الى أقصى حد مع الذين  
يتوعدونه. يصعب جداً حمله على الضحك ونادراً ما انبسطت اساريره ولو بابتسامة ولم تكن  
اثارة غضبه بالأمر السهل. اما اذا هاج هائجه فمن العسير جداً تهدئته.

ظهر عليه الغباء ويطء الفهم عندما بديء بتعليمه. الا انه ما يتلقى شيئاً حتى يثبت في  
ذاكرته القوية. وهذا في الواقع هو سبيل الطبع الاعتيادي. فالناس من ذوي العبقريات المرهفة  
يمكن تذكيرهم بأسرع من لمح البصر، اما من يتلقى الافكار بصعوبة فذاكرتهم اقوى لأن الجديد  
الذي يتلقونه يحترق في ادمغتهم وينطبع كالوشم. ولعل السبب في صعوبة تعليمه يعود الى  
طبعه العنيد وتعذر اقناعه. فلأجل ان يتعلم المرء يجب ان يكون طائعاً. ويأتي الاقناع بصورة  
اسرع للأقل جلدا على مقاومته لذلك تجد الشبات اسهل اقناعاً من الرجال الذين يزيدونهم  
سناً. وتجد المرضى اسهل انقياداً من الاصحاء. وعلى الاجمال عندما يتوفر ادنى الشك  
والعناد فان اقتبال الجديد أسهل. ومع هذا فقد قيل ان [كاتو] كان اطوع التلاميذ لمعلمه ينفذ  
كل ما يأمره به لكن بعد السؤال عن السبب والبحث في الداعي اليه. وكان معلمه من اثقف  
الناس، فهو أكثر استعداداً لتعليم تلاميذه منه الى ضربهم وكان اسمه [ساربيدون Sarpe-  
don].

في اثناء طفولة [كاتو] تقدم حلفاء للرومان بطلب اعتبارهم مواطنين رومانيين احراراً ونزل

اليهما، وهي التفاتة قلما حظي بها احد، لاسيما بعد ان استتب له الأمر واصبح صاحب الأمر والنهي المطلق. وحرص [ساربيدون] على مرافقة [كاتو] لفائدة يتوخاها وشرف يناله فضلاً عن سلامة تلميذه وكانت دار سلا تبدو وكأنها موضع تنفيذ احكام الموت لكثرة السجناء الذين يساقون منها الى السجن والمعذبين والمقبوض عليهم. وكان [لكاتو] من العمر اذ ذاك اربع عشرة سنة يرى بأمر عينه رؤوس الشخصيات المعروفة تجلب الى الدار ويسمع الحشرات الخفية التي يطلقها الحاضرون، فسأل معلمه:

- لماذا لا يقدم أحد على قتل هذا الرجل؟

فأجابه المعلم: لأنهم يا فتاي يخافونه أكثر مما يكرهونه.

فقال [كاتو]: لماذا لاتعطيني اذن سيفاً لاطعنه به واحرّر بلادي من هذه العبودية.

ولحظ [ساربيدون] سحنة [كاتو] تتغير من فرط الخنق، وعضلات وجهه تتصلب عزمًا وتصميماً، فانتبه اليه وضاعف رقابته عن منذ ذلك الحين لئلا يقدم على محاولة طائشة.

وفي صباحه كانوا يسألونه عن يختصه بأعظم الحب فيجيب:

«أخي» فيسألونه ومن يليه «فيجيب» ويظل جوابه كذلك للمرة الثالثة والرابعة وهلم جراً حتى يتعب السائل ويتخلى عنه.

وزاد هذا الحب الأخوي واشتد كلما تقدم [كاتو] في السن حتى اذا ناهز العشرين ما عدت تراه يتعشى ولا يخرج الى ظاهر المدينة ولا الى الفوروم الأصبحة [كيبيو]. لكن عندما بدأ هذا الأخ يستعمل الادهان الثمينه ويتطيب بالعبور النفيسة أبى [كاتو] ان يحذو حذوه لأنه كان متمسكاً بحياة التعشف معزماً بالبساطة العيش. ويسمع [كيبيو] أحياناً كلمات الاعجاب باعتداله وضبط نفسه. فيقر بأنه قد يكون كذلك اذا ما قورن بغيره... و«لكن عندما اكارن نفسي بكاتو أجدني أكاد لا أختلف عن [سيبيوس Sippius]. وهذا فتى كان يضرب به المثل السوء حياة الترف والخنوثة التي يحيهاها.

وعين [كاتو] كاهناً لاپولو. فانتقل الى منزل خاص به. وتسلم حصته من ميراث ابويه، وكان يبلغ مائه وعشرين التنتاً. وزاد من تقشفه وبساطته، وتعرف بالفيلسوف الرواقي [انتيباطر الصوري] وتوثقت علاقتهما وانصرف بكليته الى الدراسة والتعمق في العلوم الخلقية والسياسية. ومع انه كان يميل - ان صح القول - الى السعى نحو كل فضيلة بنوع من الوحي الا ان فضيلتي الاستقامة والنزاهة كانتا تستأثران باهتمامه فصيلتان تخلق بهما دون انحراف او هواده. ولم يسمح ان تتغلب عليهما الرحمة او العطف. ودرس ايضاً من الكلام

والمناقشة الجماهيرية، معتقداً بان الفلسفة السياسية هي كالمدينة الواسعة يجب ان يتوفر لسلامتها عنصراً للحرب والعسكرية. الا انه لن يتمرن على الخطابة والمناقشة امام ملاء ولم يسمع عنه ان يتحدث في المجالس الخاصة باللهجة الخطابية. وكان يقول لمن يعيب عليه صمته ونزر كلامه:

- أجل اني لكذلك أومل ان لايمتد ذلك بي. سابدأ في الكلام عندما اجد لديّ منه مالا يكون الأفضل له أن يكتف ولا يقال.

إن قاعة [پورشيا] الكبرى، كما تدعى، بناها [كاتو] الاكبر عندما كان [ايديلاً] ووقفها للنفع العام، وفيها كان تريبونات الشعب يمارسون واجباتهم. وقد وجد ان اسطوناً من اساطينها يعترض ترتيب مقاعد التريبونات. حين جلوسهم لسماح المظلمات. فثار نقاش حولها: هل ترفع من البناية، أو تنقل الى موضع آخر منها؟ هذه المناسبة حملت [كاتو] على دخول الفوروم وهو كاره، فقد عارض التريبونات ونال من الاعجاب شيئاً غير قليل لما ابداه من اقدام ومقدرة خطابية. لم يكن في خطبته شيء من نزق الشباب وطيشه، كما كانت خالية من التكلف والعبارات المنمقة، فقد عمد الى الصراحة، وحشد فيها المعاني ورسّها رسماً خشناً لا يخلو من نوع من الروعة والجمال. واسترعى الاهتمام وظهرت شخصية الخطيب المفوه فيه حين وجد الناس في لغته الصارمة مهيجاً لمشاعر الطرب الطبيعية والاهتمام التلقائي. كان صوته ذا صدى عميق يسمعه الجم الغفير دون عناء. وكانت فيه مقدرة على الاحتمال عجيبة، فلا يعتربها وهن وكثيراً ما خطب يوماً كاملاً دون توقف.

بعد ان ادى واجبه في هذه المسألة، عاد الى الدرس والاعتكاف عن الناس. وياشر رياضة شاقة عنيفة لتقوية جسمه. وعود نفسه على السير حاسر الرأس في أشد الايام حرارة وبرداً. وعاف الركوب باته، وما كان يرى الا وهو ماش. واذا خرج في سفرة مع اصحابه سار وحده تاركاً الاخرين راكبين، الا انه كان يلحق بهم واحداً تلو الآخر متحدثاً معهم طول الطريق. وكان يثير الاعجاب بصبره على المرضى، وبالشدّة التي يأخذ بها نفسه في العلاج والحماية عند توعك مزاجه. واذا داهمته البرداء اعتكف وابتى مواجهة احد حتى تفارقه الحمى وتتصرف عنه اول نوبة لها. وعند العشاء بين الاصحاب عندما يلقي النرد لاختيار صحفة الطعام ويخسر، فيتقدم له الجماعة الحاضرة الطعام الذي يفضله رغم خسارته، فانه يابى «رافضاً ان يجادل في حكم فينوس» على حدّ قوله. ولم يكن يشرب الا مرة واحدة في اليوم، بعد العشاء ثم ينصرف لطيبته، لكن تعاطيه الخمر زاد بمرور الايام حتى بلغ الأمر به ان كان أحياناً يصل الغبوق بالصبوح. وفسر اصحابه هذا الادمان بقولهم ان شؤون الدولة والمشاغل العامة، كانت تستغرق

منه كل وقته، وبما انه شغوف بالمعرفة والتتبع فقد أعتاد قضاء الليل بطوله في محادثة الفلاسفة وشرب الخمر. ولذا قال المدعو [ميميوس Memius] في ملام من الناس أن [كاتو] يبدد ليالي كاملة في معاورة الخمر. فردّ عليه شيشرون بقوله:

- وعليك ان تصيف: وهو ينفق نهارات كاملة في لقب القمار! وبمختصر القول، كان [كاتو] يجد الفساد في عادات الزمن واخلاقه وان اصلاح الأمر في الزم الضرورات، وهو لذلك يجد نفسه مجبراً على مخالفة ما جرى عليه العرف، اظهار لفساده. فمثلاً وجد ان الارجوان الفاتح هو موضحة العصر. فأختار منه الغامق الشبيه بالأسود وكان يخرج أغلب الأحيان بعد تناول فطوره دون حذاء وشملة. انه لم يكن يبغى من هذه المخالفة، اطلاق شهرة زائفة او الفات النظر اليه. بل لكي يعود نفسه على عدم الخجل إلا مما يستحق الخجل. وان يحتقر كل انواع الصغائر والمخازي.

ورث من أحد ابنا عمومته عقاراً فباعه بمائة تالنت وجعلها نقوداً تحت متناول يده. لتكون رهن مشيئة المستنين من أصدقائه، دون فائدة. وقد وضع مرة املاكه وعبيده رهناً للخزائنه العامة في سبيل بعضهم.

ولما بلغ سن الحلم - والزواج وهو لا يعرف امرأة قط. عقد له على [ليبيدا Liepida] المعقود لها قبله على [ميتلوس سكيبيو]. لكن العقد الأخير فسخ لانسحاب الخطيب بملاء رغبته فبقيت [ليبيدا] حرة، لكن ما لبث [سكيبيو] ان ندم على ما فرط منه وحاول كل ما وسعه ليعيدها قبل تمام زواج [كاتو] فتكلل سعيه بالنجاح. فاستشاط [كاتو] غضباً وكان اول ما خطر بباله مراجعة القضاء إلا ان اصداقاه نصحوه بالآلا يفعل. وعلى كل حال فقد دفعته العاطفة وتهور الشباب الى كتابة عدد من القصائد في هجاء [سكيبيو] والنيل منه على اسلوب [ارخيلوخوس] الملاذع الساخر إلا انه كانت خالية من بذاءة ذلك الشاعر وفحشه. وبعد ذلك تزوج [آتيليا Atilia] بنت [سورانوس Soranus] فكانت أول امرأة عرفها إلا انها لم تظل الوحيدة. وهو بذلك أقل حظاً من [ليليوس Laelius] صاحب [سكيبيو] الذي لم يعرف طوال عمره المديد غير امرأة واحدة كانت زوجته الوحيدة.

في حرب العبيد التي عرفت باسم زعيمهم [سپارتكوس] كان [غيلليوس Gellius] جنرالاً. وقد تطوع [كاتو] فيها بسبب اخيه الذي كان وقتذاك تربيوناً عسكرياً. لم يجد [كاتو] فيها، فرصة لاطهار نبوغ أو شجاعة بسبب اخطاء القائد العام في ادارة دفعة الحرب. إلا انه رغم هذا ومع الفوضى والاضطراب اللذين سادا الجيش - أبدى تمسكه الشديد بالضبط والربط، وتجلت فيه آيات من البأس والاقدام بقدر ما تطلبه الموقف فضلاً عن كثير من التروي

والحكمة. فبدأ وهو قرين [لكاتو] جدّه الأعلى وعرض عليه [خيلليوس] مكافآت عظيمة وهم بتقليده ارفع درجات الشرف العسكري إلا انه أبى قبول ذلك معتذراً بأنه لم يقم بشيء يستحق هذا. وبدأ برفضه هذا شخصاً شاذاً غريب الطباع. ودليل آخر على تمسكه بالقانون - انه قد صدر قانون يمنع المرشحين انفسهم لأي منصب بالآلا يستعينوا اثناء الاقتراع بملقنين يزودونهم باسماء الناخبين. وكان [كاتو] الوحيد بين المرشحين لمنصب التربيون الذي طبق القانون. وقاسى الكثير ليستظهر اسماء من يجب عليه الاتصال بهم من الناخبين لتحتيتهم. ان الذين اثنوا على موقفه هذا، لم يكن ثناؤهم يخلو من الغيرة والحسد. فبقدر ما كانوا يقدرون نبل عمله، كانوا يضيقون ذرعاً بالصعوبة التي يجدها في احتذاء حذوه.

على اثر انتخابه [تربيوناً] ارسل الى مقدونيا ليلتحق بجيش الجنرال [روبريوس Ru-bruis] وقيل ان زوجه ركبها الهمة عند رحيله وانشأت تبكي. فقال لها احد اصحابه المدعو [موناتيوس Munatius] يخفف من حزنها ويطمئننها:

- لا تقلقي يا آتيليا، فسأقوم انا نفس على حراسته وهذا عهد مني لك. فأجاب [كاتو]: بكل سرور.

وبعد رحلة يومٍ كامل توقفاً، وقال له [كاتو] بعد ان تناولا عشاءهما:

- عليك الآن ان تفني بعهدك لآتيليا. فلا تتركني ليلاً أو نهاراً.

وأمر ان يفرش في حجرته سريران لينام موناتيوس على أحدهما ويقيا كذلك وتعود [كاتو] ان يتخذ من الموضوع مزحة. فكان يتأكد من وجوده هناك على الدوام. وقد رافقه في رحلته خمسة عشر عبداً ورجلان من الاحرار واربعة من اصحابه، كلهم كانوا يسافرون على صهوات الخيل إلا [كاتو] فقد ظل كعادته يستخدم قدميه، لا يتأخر عنهم قط ويحادثهم جميعاً كل بدوره اثناء السير.

وبوصوله معسكر الجيش سلمه الجنرال قيادة إحدى الفرق ولم يجد في هذا اي شرف كبير، ولا بالأمر الجدير بالقائد. ولأجل ان يثبت اقدامه الفريد في بابه. قرر ان يجعل من جنود فرقته شيئاً اشبه به. لا بارخائه الشكيمة، واستصغار هيبة المنصب بل بمزج العقل بالسلطة. وكان يعمد الى تدريب وارشاد جنوده فرادى واحاداً، ويكافيء ويعاقب حسبما يستحق كل منهم.

واصبح جنود على درجة عالية من الانضباط بحيث صعب القول اهم مسالمون أكثر مما هم محاربون ام بالعكس. أهم أكثرهم اقداماً أم أكثرهم احجاماً؟ لقد كانوا على حدّ سواء مصدر خوف للعدو ومعين لطفٍ للحلفاء. يحجمون عن الدنيا لقدمون على المعالي ونال ما في ذلك

من معنى. وعلا قدره عند الجميع واحبه الجنود، لمساهمته شخصياً بكل ما كان يأمر به. وكان في كسائه وطعامه وحله وترحاله اقرب مظهراً الى الجندي البسيط منه الى قائد فرقة وسبق القادة العظام في تسامي خلقه وحكمته ويات موضع الاعجاب العام دون ان يدري. ذلك ان حب الفضيلة الحقيقي، انما هو جعله الود والاحترام للذين يحس المرء لمن يتولى تلقيتها للآخرين أولئك الذين يشنون على اطايب الرجال وهم لا يشعرون بحب لهم، انما يحترمون سمعتهم لكنهم في الواقع لا يعجبون باخلاقهم ولا يحاكونها.

في ذلك الحين كان يعيش في [برغاموس]، الفيلسوف الرواقي الشهير [اثنودورس] الملقب [كورديليو Cordylio] وقد بلغ من العمر عتياً. وكان دائم الرضى لكل صلة صداقة أو تعارف يطمح اليها الامراء والعظماء، ولم يكن [كاتو] يجهل ذلك، الا انه لم ييأس. ووجد ان استحالتة وخطب وده لا يتمان بالكتابة اليه او ارسال الرسل. وقرر ان يسير اليه بنفسه. وكان القانون يمنحه حق التمتع باجازة شهرين فأنتقل الى آسيا. واضعاً ثقته في أخلاقه وشخصيته معتقداً أنها لن تخيبه. والتقى به وتحادث معه حتى نجح في اقناعه بخطل قراره بالاعتكاف عن الناس، وعاد به الى المعسكر فرحاً مزهواً بنصره، كأنه أنجز عملاً بطولياً يفوق اعمال [بومبي ولوكولوس] اللذين راحاً آنذاك يدوخان بجيوشها البلاد المترامية ويخضعان الممالك العظيمة.

وفي فترة خدمة [كاتو] العسكرية ورده نبأ مرض أخيه وهو في [انيوس Aenus] التراقية متجهاً الى اسيا. ولم يثنه هياج البحر وعدم عثوره على سفينة مناسبة. بل استقل مركباً تجارياً صغيراً مع اثنين من اصدقائه وثلاثة من الخدم، وأقلع من [سالونيكى Thessaloni-ca] واشرف على الغرق ولم ينبج الا بعد لأي. ولما وصل [انيوس] وجد أخاه جثه هامدة. ويعتقد أن [كاتو] بدأ في هذا الموقف أحياناً محبباً أكثر منه فيلسوفاً. متصلاً عن الحزن العظيم الذي استولى عليه ووقوعه على الجثمان الهامد شماً وتقبيلاً وعناقاً، لم يبخل باي مال على جنازته وأسرف الى حد السفه بالعمود الثمينة والأقمشة الفاخرة الملحقات التي أحرقت مع الجثمان والضريح المرمرى الثاسي Thasian الذي كلفه وحده ثمانية تالنتات - اقامة في ساحة انيوس العامة، هناك فريق عاب عليه ذلك قائلاً انه لا يتفق ووقاره المعروف واعتداله، هؤلاء الذين جعلوا همهم ابداء الاعتراضات التافهة لأقل مطعن، غاب عنهم أن [كاتو] كان ممتناً بالحنان الطبيعي والحب الأخوي مع ثبات جنانه وقلة استجابته النفسية للفرح والخوف والحب الجامح.

وبالمناسبة بعث كثير من الامراء وكبار القوم في تلك البلاد والمدن بالهدايا الثمينة تكريماً

لأخيه الراحل. فلم يأخذ مالاً ورده، مكتفياً بالعمود والتزيينات التي لم يقبلها الا بعد دفعه ثمنها. ثم انه قسم الميراث بينه وبين بنت [كيببوا] ولم يطالب بنفقات الجنازة من اصل التركة، مع هذا كله، فهناك بعض من يؤكد أنه وضع رماد جثمان أخيه في منخل ليخرج الذهب الذائب بعد احتراق الجسم. ان مخترع هذه الاكذوبة قد يرجو الغفران لقلمه قدر ما يرجو خلاص سيفه من اي اتهام او انتقاد.

انهى [كاتو] خدمته العسكرية. وكان توديعه حافلاً بالعواطف الجائشة لقد شيعة الجنود بالدعوات وحسن الشناء، بله بالدموع والعناق. وفرشوا اردبتهم عند موطيء قدميه، وراحوا يلشمون يديه اثناء مروره بهم، وهذا شرف لا يقلده الرومان الا للقلّة من الجنرالات والقواد الأعلين. وكان قد قرر بعد تركه الجيش وقبل الاستقرار في روما والعمل في الحقل السياسي - أن يقوم برحلة في آسيا لدراسة عادات وأخلاق وقدرة كل أقليم. كما كان أيضاً يكره رفض دعوة [ديوتارس Diotarus] ملك غلاطية، الذي كان بينه وبين ابيه صداقة متينة، وقد تشوق [كاتو] فعلاً لزيارته. واتبع في رحلته هذه النظام التالي: في الصباح الباكر بعث بخبازه وطاهيه الى الموضوع الذي يكون قد قرر البيوتوتة فيه، فيدخلان المدينة بكل بهوء واحتشاك. وان لم يتفق لهما صديق او واحد من معارف [كاتو] أو أسرته. فأنها يستدركان حاجته من الطعام في احد الفنادق. ولا يقلقان راحة أحد. فان لم يوجد فندق، راجعا للحكام وطلبوا المعونة في ايجاد منزل لسيدهما. ويقبلان دون اعتراض اي مسكن يخصص لهما. ولا يخرجان قط عن جادة الأدب أمام الحكام ولا يحدثان ضيحة أو يلجأ الى تهديد. وكثيراً ما وجد انفسيهما ضائعين لا يكثرث بهما احد ويصل [كاتو] فلا يجد شيئاً مهيباً. ولا يحسن وجوده من الوضع، ويقل الاحتفال به عندما يرى جالساً فوق متاعه لا يتكلم فيحسبون نكرة من النكرات يخاف أن يصدر أمراً لئلا يلقي ما يكره. وكان أحياناً يستدعى بعض الأهالي وينتمى بهم جانباً ليهمس في آذانهم:

- أيها الحمقى تخلوا عن هذا الطبع واقروا ضيوفكم، فليسوا كلهم مثل [كاتو]. كونوا لطفاء وبذلك تكسرون من حد القوة. هناك الكثير ممن لا يريدون الا ذريعة ليستلبوا منكم ما يمكن ان تعطوه بشيء من التردد.

ووقعت له حادثة طريفة اثناء مروره بالبلاد السورية - كان يريد الدخول الى انطاكية فشاهد حشوداً من الناس خارج اسوار المدينة وقد انتظموا صفوفاً على جانبي الطريق: شبان بمعاطف طويلة في جانب، وصبيان يحلل قشبية في جانب وثم آخرون وهم الكهان والقضاة باردية بيضاء واكليل من الزهر. وحسب [كاتو] ان هذا الاحتفال اغا اقيم له تكريماً. فتملكه غضب

شديد على خدمه الذين سبقوه الى المدينة معتقداً انهم اذا عوا نبأ قدومه، وطلب من اصحابه واتباعه ان يترجلوا وسار معهم. ولم يكذبون من باب المدينة حتى تقدم منه رجل كبير السن بيده قضيب وأكليل، ربما كان رئيس الاحتفال، وابتدر [كاتو] دون تحية قائلاً له اين تركت [ديمتريوس] ومتى سيصل؟ كان ديمتريوس هذا، خادماً [لپومپي]. وبما ان عيون العالمين كلها كانت شاخصة الى [پومپي] فمن البديهي ان الخادم ايضاً سيتمتع بالتكريم بعد أن علم انه يتمتع بخطة ونفوذ لدى سيده. وهنا انفجر خدم [كاتو] مقهقهين ولم يتمالكوا أنفسهم من الفقهة وهم يجوسون بين الجمع الحاشد. وعرا [كاتو] نوع من الخجل والأسف وقال:

- ما اشفاك أيتها المدينة!

ولم يزد. على انه كان يضحك كلما عنت له، او ذكره بها أحد.

ولم يعتم [پومپي] أن جعل الناس يخجلون من جهلهم وحماتهم وعدم اكتراثهم [بكاتو]، بما اظهره له عندما زاره في [افسس] ذهب كاتو لزيارة الرجل الذي يكبره سنًا، والقائد العام لأعظم الجيوش، ذاك الذي طبقت شهرته الآفاق. فابى [پومپي] إلا ان يستقبله واقفاً. وتقدم منه مرحباً اعترافاً منه بكبر مقامه. ومد يده مصافحاً وعانقه بكثير من العطف والرقّة واظنّب في مدح مناقبه بحضوره وزاد في مدحه بغيابه. وبدأ الناس جميعاً يظهرن الاحترام [لكاتو] ويكتشفون فيه الطبع الدمث العجيب، وسمو الروح وتلك هي عين الطبع التي كانوا يعيبنه عليها من قبل. ان مجاملة [پومپي] بدت وكأنها صادرة من شخص يجله أكثر مما يحبه، وانطباع العموم هو أنه احاط [كاتو] باعجابه حينما كان معه. إلا أنه لم يكن آسفاً على رحيله. فقد اعتاد [پومپي] الاحاح على زائريه الشبان بملازمته لكنه لم يعرض على [كاتو] البقاء بل أسرع بالسماح له بالرحيل، كأنما كان سلطانه مهدداً بوجوده. مع هذا فقد كان [كاتو] الوحيد بين الراحلين الى روما الذي اوصاه [پومپي] بالولادة وزوجه، وكانت الأخرة في الواقع قريبة لكاتو.

وبعد هذه المقابلة تنافست المدن في تكريمها لكاتو. وكانت الواحدة تلو الأخرى تستقبله بالحفلات والمآدب المقامة على شرف مقدمه. فطلب من اصحابه ان يشددوا عليه في الرقابة وان يعنوا بأمره لثلا يأتي اليوم الذي يصدق فيه قول [كيوريوس]. وكان هذا صديقاً حميماً له يكره فيه تزمته ونقشفه. وقد سأله يوماً عند انتهائها خدمته في الجيش. هل اعتزم زيارة آسيا؟ فأجابته [كاتو]:

- طبعاً. بكل تأكيد.

فقال [كيوريوس]: نعم ما تفعل. فستعود بمزاج أطيّب وخلق اللطف. وبشاشة أكثر.

تلك هي العبارات التي استخدمها على وجه التقريب.

وبلغ [ديوتارس] من العمر عتياً. فأرسل يستقدم [كاتو] ليعهد اليه برعاية اطفاله واسرته. وحمل اليه فور وصوله الهدايا من كل نوع راجياً منه قبولها. واستاء [كاتو] لكثرة الحاحه. ولم يبق إلا ليلة واحدة. ورحل في الصباح الباكر. وبعد أن قطع مسيرة يوم، نزل في [پسينوس Pessinus] ليجد في انتظاره كمية أكبر من الهدايا مع رسالة من [ديوتارس] يستخلفه بان يقبل ما ارسل اليه أو على الأقل ان يسمح لاصدقائه بها لأنهم يستحقون بعض المكافأة منه في حين ان امكاناته لاتسمح له بذلك. إلا ان [كاتو] أصّر على رفضها وان وجد بعض اصدقائه الراغبين فيها يهمون بالتظلم من تزمته. فأسرع يقول، ان الفساد لا يحتاج الى ستار أو ذريعة. وان على اصحابه ان يقاسموه ما يحزره بشرف وبحق. ثم انه اعاد الهدايا الى [ديوتارس].

وعندما استقل سفينة مقلعة الى [برنديزيون] حاول اصحابه اقناعه بوضع رماد اخيه في سفينة أخرى فأبى قائلاً: انه يفضل مفارقة الحياة على مفارقة الرماد. وهكذا اقلع وقيل لنا ان الاقدار حكمت ان تكون سفرته حافلة بالاحظار الجسام في حين لم تصادف السفن التي ابجرت معه اية متاعب ووصلت بسلام.

وفي روما قضى جلّ اوقاته ملازماً داره أو مجالساً اثينودورس او في الفوروم معقياً قضايا اصحابه. وكان الوقت قد ازف ليتقدم مرشحاً لمنصب [الكويستور] إلا أنه تريت ولم يتقدم إلا بعد ان درس القوانين المتعلقة بتلك الوظيفة. وبعد الافادة من المجريين فيها حتى بلغ الغاية في تفهمه واجباته وصلاحياته. هذا الاطلاع الواسع ساعده على القيام باصلاحات هامة واجراءات تغييرات كبيرة بين الموظفين ورؤوساء الاقسام في بيت المال عندما تولى المنصب. نظراً لما لهؤلاء الموظفين من الخدمة الطويلة والمران والمعرفة التامة بالسجلات العامة والقوانين فقد كانوا موضع الاعتماد التام من كل الرؤوساء الجهلة الذين يتعاقبون سنة بعد سنة ويأتون دون خبرة سابقة ولا مؤهلات كافية ليتلمذوا على مرؤوسيههم. فلا يجدون بدأ من القاء زمام الأمور اليهم. فباتوا هم امناء الخزينه الفعليين ولم يفسحوا اي مجال لرؤوسائهم لممارسة صلاحياتهم حتى جاء [كاتو] وهو على اتم استعداد، فتولى الأمور بنفسه متسلحاً لا بلقب الكويستور وحده بل بالاطلاع الواسع والمعرفة التامة. وبهذا انزل الموظفين من عليائهم

فأصبحوا وكأنهم مجرد خدمٍ وسعاة. وكشف عن سواتهم وفرط جهلهم وفضح اعمالهم المشينة وكشف عن حيلهم. كان هؤلاء يتسمون بالجرأة والصفافة فراحوا يتزلفون الى زملائه ويتقربون منهم. لتنظيم كتلة مناوئة له. إلا انه اسرع فأدان رئيسهم بجريمة خيانة الأمانة، حول ميراث وصياً عليه، وطرده من وظيفته ثم احوال موظفاً آخر الى المحاكمة بتهمة النصب والاحتيال. فانتدب المتهم [لوطاطيوس كاتالوس] للدفاع عنه. وكان [لوطاطيوس] يمارس منصب [الجنصور] وهو رجل متمكن في عمله، ذو مزايا خلقه نادرة، ويعتبر اعقل من هم في سنه، واعلاهم سمعة. كذلك كان صديقاً حميماً [لكاتو] كثير الثناء على بساطة عيشه وتواضعه. أدرك [لوطاطيوس] انه لم يفلح في تبرئة موكله اذا واجه محكمة عادلة، فتقدم برجائه الى [كاتو] لاسقاط التهمة. فاستنكر [كاتو] ذلك منه ولكن [لوطاطيوس] لم يثن ثم زاد في الحاحه فقال له [كاتو]

- من المخجل يا كاتالوس ان يتعرض [الجنصور] الى عار الطرد من قبل ضباطنا وهو صاحب الكلمة المطلقة على ارواحنا جميعاً.

وبدا [كاتالوس] بعد هذه العبارة وكأنه يهيم بقول، لكنه أثر الصمت اما حياءً واما غيظاً. ثم سار لطيبته وهو مكسور الخاطر. على ان التهمة لم تثبت. اذ كانت اصوات القضاة الذين حكموا ببراءته أقل بصوت واحد من عدد الاصوات التي حكمت بإدانته، فلم يكن من محاميه [كاتالوس] الا وارسل يستقدم [ماركوس لوليوس Marcus Lollius] القاضي، أحد زملاء [كاتو] وكان مريضاً فجيء محمولاً على كرسي وصوت للبراءة. إلا أن [كاتو] أبى استخدام الرجل المظنون في اي عمل ولم يكثرث للصوص الذي كان السبب في خلاصه. ولم يدفع له مرتباً. وبهذا فرض على الموظفين سلطانه وضمن احترام اوامره واستخدم السجلات بالشكل الذي وجده ملائماً للمصلحة العامة. فرغ من سمعة الخزينة وجاوز به سمعة مجلس الشيوخ. وانتشر بين الناس هذا القول، ان [كاتو] رفع من شأن منصب الكويستور فجعله مساوياً لمنصب القنصل.

وجد [كاتو] بعد التدقيق ان كثيراً من الناس مدينون للدولة بديون قديمة، ووجد ان بيت المال نفسه مدين لعدد من الاشخاص وكان مبدئه حماية الناس من الاعتداء ومنعهم من الاعتداء في الوقت نفسه. ولهذا راح يتعقب المدينين ويستحصل منهم ديون الخزينة دون ان تأخذهم فيهم رحمه او هودة. كما دفع من مال الخزينة ديون الناس على آخرها. فلهج الناس بمديحه وحبّه وزاد أKBارهم له واعجابهم به، اذ شاهدوا بأعينهم كيف كان يجلب أولئك الذين ظنوا انهم فازوا بغنيمة غير قابلة الرد فيرغمهم على اعادتها. وكيف كان يدفع حقوق

أولئك الذين ادركهم اليأس من وصول ديونهم اليهم. كانت ترد الخزينة صكوك دفع مزيفة واوامر صرف كاذبة من مجلس الشيوخ لمصلحة بعض الاشخاص من ذوي الحظوة والجاه، فتقبل وتصرف لهم المبالغ. ولم يكن [كاتو] بالذي يسكت عن هذا. وفي قضية معينة عندما شك في صحة مصادقة مجلس الشيوخ على اذن بالدفع رفض شهادة عدد كبير من الشهود الذين جيء بهم ولم يعترف بصحة الأذن حتى جاء القنصل بأنفسهم وايدوا الأمر بعد ان حلفوا اليمين امامه!

وكان [سللاً] في زمانه قد أخذ عدداً كبيراً من الوكلاء والمعتمدين لممارسة الاعمال اللاقانونية التي سادت فترة حكمه، وكان قد دفع لكلّ منهم اثني عشر الف درهم مكافأة على اغتيالهم الخصوم وقتلهم. هؤلاء المناكيد الاشرار كانوا موضع المقت الشديد من الناس، ظلوا يسرحون ويرحون ولا يجراً احد على النيل فيهم. وياشر [كاتو] باستدعائهم واحداً بعد آخر ومحاسبتهم على المبالغ التي قبضوها دون وجه حق، وأعتبرهم واضعي اليد على اموال تخص الدولة، وبذلك استحصل منهم كل ما قبضوه ولم يصرفهم بعد التأنيب والتعنيف انما احوالهم الى المحاكم متهمين بجرائم القتل التي ارتكبوها. وكانت الاجراءات التي اتخذها بحقهم دليلاً يثبت ادانتهم، وحكماً تمهيدياً. لذلك سهلت ادانتهم واستوفوا حظهم من العقاب. وساد فرح عام وخيل للناس ان الطغيان القديم قد استوصلت شافته، وان [سللاً] نفسه يساق الى المحكمة لينال ما اقترفت يداه - على حدّ قولهم.

كانت استمرارية [كاتو] ومعين نشاطه الذي لاينضب سبباً آخر لميل الجمهور اليه. فهو يأتي دائرته قبل كل أحد ويكون آخر الخارجين منها. ولم يغب عن اي اجتماع جماهيري مطلقاً. ولم يخطئ جلسة واحدة لمجلس الشيوخ. فقد كان رقيباً لا تغمض له عين على أولئك الشيوخ الذين لا يبخلون باصواتهم على هذا او ذاك، لالغاء ديون مستحقة عليه للدولة. أو لشطب رسوم في ذمته، يفعلون ذلك لمنفعتهم الخاصة، أو لافتقارهم الى الشعور بمسؤولياتهم. ومجمل القول انه حفظ بيت المال. وصانه من الجواسيس بعد ان ملأه بالمال. وقدم بذلك اكبر دليل على ان الدولة يمكن ان تكون غنية دون ان تحتاج الى ارهاق المواطنين بالحماية. في مبدأ الأمر اثار اجراءاته مشاعر الكره والسخط في نفوس بعض زملائه. لكنهم اصبحوا بالتالي راضين عنه كل الرضا. فقد كان مستعداً لتحمل المسؤولية وكل التبعات والانتقادات عندما يرفض هؤلاء الزملاء مساعدة اصدقائهم في اغتراف اموال الدولة أو يأبون اصدار قرارات لاتنفق مع مبادئ الشرف عند مراجعة حساباتهم. فان أشدت عليهم ضغط ذوي الحاجات اسرعوا فوراً الى القاء اللوم على [كاتو] بقولهم انه لا يستطيعون عمل شيء دون موافقته. وشيعة جميع حاشد من الناس

الى منزله في آخر يوم له من وظيفته، تكريماً له واعترافاً بفضله. وبينما هو في طريقه، أخبره أحدهم انه عدداً من اصحاب [مارچلوس] هم الآن في بيت المال يستخدمون نفوذهم وكل ما لديهم من حظوة ووجاهة ليحملوا زميله هذا على الغاء دين وشطبه من السجلات العامة بعد اعتباره منحةً، كان [مارچلوس] صديقاً لكاتو منذ الطفولة وهو أحد خيرة زملائه في بيت المال طالما كان [كاتو] بجانبه. لكن وهو وحيد، ضعيف الارادة لا يصمد امام رجاء ذوي الحاجات نزاع الى ارضاء كل من يقصده. فما كان من [كاتو] الا وعاد ادراجه ودخل بيت المال ليجد [مارچلوس] يهّم بتلبية الرجاء وتسجيل الدين منحةً، فأمسك بالسجل وشطب القرار و[مارچلوس] واقف لا ينطق بكلمة - بعد أن قام [كاتو] بواجبه سحب [مارچلوس] الى منزله، ولم يعتب عليه لا في حينه ولا بعده وظلّ مقيماً على صداقته ومحبته. ولم ينفك [كاتو] عن مراقبة سير الامور في الخزينة بعد اعتزاله الخدمة. وكلف خدمه بمتابعة تسجيل تفاصيل الخرج. وكان يحتفظ لنفسه بدفاتر خاصة تتضمن حسابات الدخل منذ ايام [سللاً] حتى انها خدمته، ابتاعها بخمسة تالنتات.

وكان اول القادمين الى مجلس الشيوخ وآخر المغادرين. وكان أغلب الأحيان يجلس على مقعده ويفتح كتابه وينشغل بالقراءة ناشراً رداءه امام كتابه ريثما ينتظم المجلس ويكمل نصابه بمجيء الاعضاء متباطئين. ولم يؤثر عنه خروجه من المدينة قط اثناء دورات المجلس. وقد وجد [پومپي] وانصاره انهم لا يستطيعون اغراء او ارغامه على السير في ركابهم والموافقة على مقترحاتهم الجائرة فحاولوا ابعاده عن الاجتماعات بأن أشغلوه بتعقيب مصالح اصحابه، والدفاع عن قضاياهم والفصل في خلافاتهم وغير ذلك. لكنه سرعان ما أكتشف حيلتهم، فاحبطها باعلانه لاصدقائه ومعارفه بأنه لن يتولى متابعة اية قضية خاصة لاي منهم طالما كان المجلس في دور الانعقاد فهو لم يدخل الحياة السياسية جراً لمغرم او دفعاً لمغرم أو ابتغاءً لمجدٍ أو ارضاء لهواية، أو على سبيل الصدف، بل لأنه العمل الاصلح والاشرف للرجل الأمن المخلص. فهو والحالة هذه مسوق الى التمسك والمواظبة على واجباته العامة، مثل مثابرة النحلة على خليتها. وهذا ما حدا به الى استخدام معارفه واصدقائه وكل المتصلين به في كل مكان من الجمهورية - لتزويده بالتقارير والبيانات والاحكام وكل الاجراءات الهامة التي تحصل في الاقاليم، ومرة نهض [كلوديوس] الخطيب المهيج، وأخذ يوجه الطعون والاتهامات الى بعض الكهنة والكاهنات. ومنهم [فايبا Fabia] أخت ترنتيا Terentia زوج شيشرون التي وقعت جراً ذلك في خطرٍ عظيم. فتدخل [كاتو] في الأمر بجراثة المعهودة، وجعل [كلوديوس] يبدو انساناً متهتكاً فاجراً حتى اضطره الى مغادرة المدينة. وقدم [شيشرون] اليه ليشكره على موقفه هذا فأجابته:

- عليك ان تتوجه بشكرك الى الجمهورية.

الجمهورية التي اوقف نفسه لها. وبهذا كسب سمعة عجيبة حتى ضرب به المثل، ومن ذلك ان محامياً في قضية ليس فيها غير شاهدٍ واحد، كان من جمله ما قال في دفاعه مخاطباً القضاة: عليهم ان لا يعولوا على شهادة شاهدٍ واحد وان كان [كاتو] نفسه!

ومما جرى على السنة الناس عندما يريد احد ان يؤكد حدوث شيء غير محتمل الحدوث، ان يقولوا: انهم لن يصدقوا حتى وان جاء [كاتو] مؤيداً ومصداقاً.

وذات يوم طفق احد الخلعاء المشهورين ببذخهم وفجورهم يتكلم في المجلس حول ضبط اهواء النفس والتكشف فهب [انيوس Anæus] من مجلسه وصاح:

- من يستطيع احتمال ذلك منك؟ انت يا سيدي تقيم المآدب مثل [كراسوس]، وتبني الصروح مثل [لوكلولوس] ثم تتكلم مثل [كاتو]!

وأطلق الناس على الفاسدين الحلفاء الذين يصفون على حديثهم طابع التزمت والوقار - اسم [كاتو] استهزاء بهم!

زين له اصدقائه ببداي الأمر التقدم للفوز بمنصب تربيون الشعب فلم يجد في نفسه الرغبة باديء الامر - متعللاً بأن السلطة التي يتمتع بها صاحب هذا اللقب عظيمة الى الحد الذي يجب الا تستخدم الا كآخر دواء عند الضرورات القصوى. ثم أنه قرر السفر الى مغناه الريفي خارج روما حيث لديه ضيعة هناك ليقتضي فترة الاجازة بين كتبه واصدقائه الفلاسفة وبينما هم في طريقهم اعترضهم كثير من الخيالة والعربات والخدم وسألوا فقيل ان [ميتيللوس نيبوس Metellus Nepos] يقصد روما لترشيح نفسه لمنصب التربيون فوقف [كاتو] صامتاً برهة. ثم أمر بالعودة الى روما. فعجب اصحابه من قراره وسألوه عما حدا به الى تغيير رأيه فجأة فقال:

- انكم لاتعلمون كم ينطوى عليه جنون ميتيللوس من خطر. انه الآن يدخل روما مسلحاً بنفوذ [پومپي] وعونه، وسينقض كالبرق المخاطف على الدولة وينشر الفوضى والاضطراب. لم يعد الوقت وقت نزوة واسترخاء، وعلينا ان نعود لنحول بين هذا الرجل وبين مأربه أو ان نموت بشجاعة دفاعاً عن حرياتنا.

ولم يبق في مغناه الريفي الا قليلاً وعاد الى روما مساءً وفي صباح اليوم التالي توجه الى الفوروم وشرح نفسه لمنصب التربيون مقابل [ميتيللو].

ان واجبات هذا المنصب في الحقيقة هي واجبات رقابة، لا تنفيذ اعمال معينة. فللتربيون

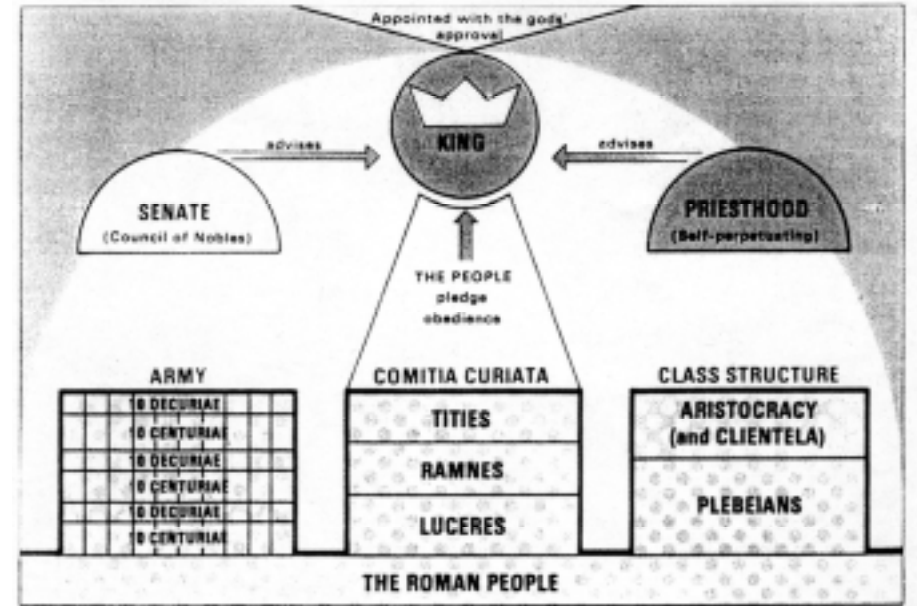
ثم قانون يسمح لكلّ متهم بانتداب شخص تكون مهمته مراقبة المدعي. ليكون المتهم على علم بالوسائل التي يتبعها هذا الأخير في تهيئة مواد الإتهام. وأخذ الشخص الذي عينه [مورينا] لمراقبة [كاتو] يتبعه كالظلّ أنى توجه ويراقبه مراقبة الصقر. إلا أنه لم يجده موضع شبهة في التجائه الى اساليب غير شريفة. وإنما كان يجمع مواد اتهامه بشكل صريح قانوني. فأعجب هذا الرقيب يسمو بروح [كاتو] ووثق ثقةً مطلقةً بنزاهته. فكان يسأله عندما يلقاه في الفوروم هل ينوى القيام بعمل هول التهمة في ذلك اليوم؟ فإذا اجابه [كاتو] بالنفي تركه معتمداً على كلمته. وأوكل [مورينا] زميله في القنصلية [شيشرون] للدفاع عنه. فأنتهز هذا الفرصة ليستصرف ويتفكه عند تطرقه الى [كاتو] وعلاقاته بالفلاسفة الرواقيين، و«متناقضاتهم» كما كانت تعرف آنذاك - فأثار الضحك الشديد بين القضاة، ولم يسع [كاتو] إلا أن يلتفت الى الحاضرين ويقول باسمًا:

- أترون ايها الاصدقاء كم هم ظريف قنصلنا هذا؟

وبرئت ساحة [مورينا]. واثبت فيما بعد انه انسان نبيل ومن لايفتقر الى الشعور الحيّ، ولا يحمل حقداً او موجدة. فقد ظلّ رغم ما حصل - يستشير [كاتو] في الأمور الخطيرة طوال مدة قنصلية. وظلّ يحترمه ويقدره. وكان لسلوك [كاتو] أيضاً تأثير على هذه العلاقة. فمع انه صارم مرعب لا تأخذه في الحق هواده، يوم يكون في المجلس أو المحاكم. إلا أن كان لطيفاً انساني المعاملة مع الناس جميعاً.

وقبل انتخابه تريبوناً، اسدى الى شيشرون خدمة كبيرة ايام كان هذا قنصلاً. وبالتعاون معه حل مشاكل عامة كثيرة واهمها طراً مجهوداته العظيمة في خنق موامرة [كاتالين]، التي كانت تدين نجاتها الناجحة الى [كاتو]. كان [كاتالين] كما ذكرنا قد دبر انقلاباً هائلاً ضد الدولة، بتحريضه على العصيان واثارته حرباً أهلية ضروساً. الا ان شيشرون كشف المؤامرة وادانه وارغمه على الفرار.

لكن لنتولوس وكاثيغا وآخرين بقوا في المدينة للسير قدما في الموامرة، واتهموا [كاتالين] بالجبن والتردد في التنفيذ. وواصلوا العمل الإشعال النار في المدينة وبث الفوضى، تمهيداً لاسقاط الحكومة. وتحريض كل الشعوب الرومانية على الثورة. واثارة حروب خارجية في الاقاليم. فوفق [شيشرون] على الخطة [كما سنورد ذلك في سيرته] ورفع الأمر الى مجلس الشيوخ. فتكلم [سيلانوس] أولاً، واقترح فرض اقصى عقوبة على المتآمرين. ووافق على اقتراحه هذا كل الشيوخ الذين تلوه حتى جاء دور [قيصر] للكلام، وكان خطيباً مفوهاً، كان قيصر يري أن كلّ خلل يصيب الدولة هو في مصلحته، ومن شأنه ان يخدم غاياته ولذلك لم



Constitution of the monarchy

دستور الملكية

الحق في ابطال كل اجراء حكومي وأوامر صادر من مرجع رسمي بمجرد عدم موافقته. وان كان قد حصل اجماع عليه وفي هذا تكمن اهمية المنصب. ولم يكن [الكاتو] في مبدأ كثير من الأنصار، ولكن ما ان عرفت نواياه حتى تقدم كل الناس الطيبين وذوي المقام في المدينة، مشجعين مساعدين. ليس لأنه طالب فضل منهم. بل لأنه هو المتفضل على بلاده وسكانها الطيبين بمقبوله الترشيح لمنصب رفض الترشيح له عدة مرات حين كان ملك يمينه. لكنه الآن رضي بركوب الخطر في سبيله لعلمه أن حريات الشعب تستهدف لخطر أكيد، ونظام حكمهم مهددٌ بشرّ مستطير. وقيل ان الحشود التي تجمعت حوله كانت من الكثرة بحيث اشدت ضغطها عليه وكادت تزهق انفاسه ولم يكن قادر على السير خطوة واحدة. أخيراً فاز بالمنصب مع [ميتيللوس] وآخرين.

وجد [كاتو] بعد مباشرته وظيفته، ان انتخاب القناصل أصبح سلعة تباع وتشترى. فانحى على الاهالي باللوم وانبهم تأنيباً شديداً وفي نهاية خطبته هدد بأنه سيسوق الى القضاء كل من يعطي مالا لهذا الغرض، ونفذ قوله هذا، إلا في قضية [سيلانوس] للقرابة التي تصل فيما بينهما، فهو زوج اخته [سرفيليا]. ولم يحله الى المحاكمة وإنما اتهم زميله في القنصلية [لوشيسوس مورينا Lacijs Morena] باستعماله وسائل غير شريفة لانتخابه قنصلاً. وكان



يكن اطفاء الفتنة بل اشعالها. ولهذا القى خطبة رقيقة مملأى بالرحمة. ونفى ان يكون للمجلس الصلاحية للحكم على المتأمرين بالموت. ورأى أن يساقوا الى المحاكم. مقترحاً بقاءهم في السجن. ومالت أكثرية المجلس تقريباً الى رأيه خوفاً من غضبة الشعب، حتى ان [سيلانوس] نفسه تراجع عن موقفه وسحب اقتراحه الأول بقوله انه لم يكن يقصد عقوبة الموت عندما مطالبته بانزال اقصى العقوبة، وانما يقصد السجن لأن هذا أقصى ما يمكن ان يحكم به على روماني. فتحوّل الاتجاه العام الى فرض عقوبة أخفّ من الموت الى ان حان دور [كاتو] للكلام، فبدء وبكثير من الحماسة يؤنب [سيلانوس] على تردده في الرأي وهاجم [قيصر] الذي يريد القضاء على الجمهورية بالكلمات الرقيقة والخطب الشعبية. ويعمل جاهداً على القاء الخوف في قلوب اعضاء المجلس. في حين يجب هو نفسه ان يخاف ويشكر الله على نجاته من العقاب والتهام. انه يجرأ علناً وبكل صفاقة على حماية اعداء الدولة في حين لا يجد ذرة من العطف في ضميره على اوطانه التي كادت صروح امجادهم تنهدم بفعل المخربين مع هذا كله يجد في نفسه الجرأة على طلب الرأفة بأولئك الذين كان الافضل لهم ان لا يولدوا. ان موتهم سينقذ الجمهورية من الدماء ومن الخراب...

هذه هي الخطبة الوحيدة التي حفظت من بين سائر خطب [كاتو] فقد قيل لنا ان [شيشرون] وضع كتاباً حاذقين سريعين في عدة اماكن من قاعة المجلس. وكان هو قد علمهم اسلوب الاختزال يرسم اشكال ذات خطوط قليلة بدلاً من الكلمات الكثيرة. حيّ ذلك اليوم لم تكن كتابة الاختزال معروفة، فهي والحالة هذه التجربة الأولى في هذا الفن.

نجح [كاتو] في مسعاه وحوّل المجلس ثانيةً الى رأيه الأول وصدر القرار بتنفيذ حكم الموت بالمتأمرين.

ان كل صغير من الأمور يفيدنا في اعطاء صورة كاملة عن خلق [كاتو] وابرز اتجاهاته العقلية. ومن ذلك ما نقل لنا انه بينما كان هو وقيصر في اشد حالات الهياج والحماسة وانظار المجلس شاخصة اليهما. سلم أحدهم ورقة صغيرة لـ [قيصر] وشك [كاتو] في مضمونها. وصاح أن هذا عمل يثير الريبة واصراً على ان هناك فتنة تدبر في الخفاء وطلب قراءة الورقة علناً. فما كان من [قيصر] الا وناوله الورقة. فوجدها [كاتو] رسالة غرام من [سرقيليا] اخته الى قيصر الذي كان قد اغواها وافسدها. فقذف بها اليه وهو يقول:

- خذها، خذها أيها السكّير!

ثم واصل المناقشة كأن شيئاً لم يحدث.

في الواقع يبدو ان [كاتو] كان سيء الحظّ من ناحية النساء فهذه المرأة السيئة اشتهرت بسوء السمعة لعلاقتها [بقيصر] وسرقيليا الأخرى اخته الثانية، كانت اسوء من الأولى سيرة وهي بعد امرأة [لوكولوس] احد عظماء الرومان. وام ابنه وقد اضطر الى تطليقها فيما بعد. والانكى من هذا كله ان زوج [كاتو] نفسها لم تكن خالية من المطاعن والقالة السيئة. فبعد ان ولدت له [آتيليا] ولدين، اضطر الى طلاقها لسوء سلوكها، ثم تزوج [مارشيا Marcia] بنت [فيليبس] وكانت امرأة متينة الخلق حميدة السيرة. الا انها كانت سبباً ومادة لتعليقات وروايات عديدة، ولما كانت حياة [كاتو] اشبه بفصل درامي. فهذا المشهد الذي نوردّه، ملئ بالغموض والمعاني الغريبة المحيرة.

والرواية هي [تراسيا Thrasea] الذي اسندها الى [موناتيوس] واعجبوا به اختص بنخبة اعلى مقاماً وابرز قدراً. ومن هؤلاء [كونيتوس هورتنسيوس Quintus Hortensius] وهو الرجل رفيع الخلق، جليل القدر، لا مطعن فيه. علق هذا الرجل بحبّ [كاتو] ولكنه لم يكتف منه بالصدقة والتألف. بل كان يطمح الى ايجاد صلة قريى بين البيتين والأسترتين، فراح يعمل لاقناع [كاتو] بالزواج من ابنته [پورشيا] التي هي زوجة [بيبلوس] وام ابنيه! معتبراً اياها ارضاً مخصصةاً لا مانع من تشرم لكاتو أيضاً وعلل اقتراحه قائلاً: مع أن العرض قد يبدو غريباً لعقول الرجال الا أنه صحيح بحكم الطبيعة. فمن الخير والمصلحة العامة ان لا تبقى المرأة عقيمة رحمها. وكذلك لا يجدر بها ان تزيد من أعباء رجل واحد، فتفقره بان تحمل له عدداً كبيراً من الاولاد. فضلاً عن ان الفضائل تنمو وتزدهر بارتباط نسب الامر الراقية، وتنتشر بزيادة انسالها. وستتماسك الجمهورية ويصلب عودها بامثال هذه وابط. اما اذا ابى [بيبولوس] مفارقة زوجته مفارقة القطيعة فبامكان [كاتو] اعادتها اليه حالما تلد له. وبهذه الوسيلة يتم الاتحاد بين الأسترتين!

فاجابه [كاتو] انه في الحقيقة يودّ [هورتنسيوس] كثيراً ويتمنى من صميم قلبه أن تتم صلة القريى بين البيتين، لكنه يستغرب منه اقتراحه بتزويجه ابنته وهي الآن متزوجة من آخر. فنقل [هورتنسيوس] الموضوع الى ناحية أخرى وطلب منه ان يتنازل له عن زوجته [مارشيا] لأنها شابة ولود، وانها قد ولدت له كثيراً من الذرية، لم يقدم [هورتنسيوس] على الطلب لاعتقاده بان [كاتو] قليل الاهتمام [بمارشيا] اذ كانت في تلك الساعة حاملاً. وادرك [كاتو] اخلاص صديقه وكان مقتنعاً بان ليس هناك سوء قصد في الأمر. فلم يرفض رجاءه وانما اشترط موافقة والد [مارشيا] فأرسل يستدعي [فيليبوس] فجاء ليجد الموافقة قد تمت فلم يسعه الا الرضا. وتم زواج [هورتنسيوس] بحضور [كاتو] الذي ساعد في اتمامه. وقع

هذا في وقت متأخر. ولكنني ما ذكرته هنا إلا أكماً لسباق حديثي عن النساء.

ونفذ حكم الموت بد[لنلتوس] وشركائه المتآمرين. لكن قبصر الذي وجد نفسه هدفاً للانتقاد وموضع الشك والتهام في مجلس الشيوخ اضطر الى الالتجاء للشعب واخذ يشير احط العناصر واكثرها فساداً. وادرك [كاتو] عاقبة ذلك، فأقنع المجلس بكسب جماهير الفقراء والمعدمين، عن طريق توزيع القمح عليهم دون مقابل. وهو ما كلف الخزينة اثني عشر الفاً وخمسمائة تالنت. هذا العمل الانساني المتسم بطابع الرحمة. ابعده الخطر مؤقتاً إلا ان [ميتيللوس] بعد مباشرته مهام [التريبون] بدأ يعقد اجتماعات جماهيرية صاخبة، وهياً قراراً يقضي باستدعاء [پومپي] الاكبر الى ايطاليا فوراً على رأس كل قواته للمحافظة على المدينة من عواقب مؤامرة [كاتالين]. كان هذا ذريعة مقبولة في ظاهرها، إلا ان النية التي كانت تكمن وراء ذلك هو وضع كل شيء في يد [پومپي] ومنحه السلطة المطلقة فالتام مجلس الشيوخ لمناقشة الأمر. إلا ان [كاتو] لم يعمد الى مهاجمة [ميتيللوس] كعادته، وإنما وضع نصائح في اللفظ عبارة ممكنة. ثم انتقل الى الرجاء وشرع يثني على أسرة [ميتيللوس] ويرفع من قدرها لأنها كانت تنحاز دائماً الى جانب الاشراف، وكان تأثير هذا بميتيللوس خلافاً لما أمله [كاتو] فقد زاد بذاءة، وتحقيراً [لكاتو] معتقداً بانه خائف منه واطلق لوعيدته العنان دون ضابط ورقيب ويوقاحة لا مثيل لها وهدد بأنه سيعمل ما يراه مناسباً رغم انف مجلس الشيوخ.

وهنا غير [كاتو] من لهجته وصوته وموقفه. والقي خطبة عنيفة حادة ختمها بقوله: ان [پومپي] لن يدخل المدينة مسلحاً. وانا في قيد الحياة.

ووجد المجلس ان الخطيبين يركبان متن الشطط وانهما فقدتا السيطرة على حواسهما. فاقترح [ميتيللوس] هو ثورة عمياء وهيجان سببه ذلك الاضطراب العام الذي آل بكل شيء الى الفوضى والخراب. ومزايا [كاتو] بدت لهم آنذاك، شيئاً اشبه بالجهاد الروحي في قضية شريفة عادلة.

وأقبل يوم اقتراح الشعب على القرار. وسبق [ميتيللوس] الى احتلال الفورم بالمسلحين والمصارعين والعبيد والاجانب، كل هؤلاء كانوا يأملون فصول تغيير سياسي لمصلحتهم، فانتصروا الپومپي. ولم يكن عددهم بالقليل. وهم فضلاً عن ذلك كانوا يتمتعون بدعم قبصر [الپريتور] آنذاك. ومع أن علية القوم وعقلاءهم لم يكونوا أقل شعوراً بالذل من [كاتو] فقد بدا وكأنهم مستعدون للمعانة معه أكثر منهم استعداداً لمعاونته. واستولى على اسرة [كاتو] خوف وقلق عظيمين على مصيره، ولم يتبلغ بعض اصداقائه بكسرة خبز أو بشرية ماء طوال

تلك الليلة حيرةً وقلقاً. وشرعت زوجه واخواته يبكين ويندبانه اما هو قد ظل راسخ العزم، رابط الجأش ولم تزايله ثقته بنفسه. وشرع يعزّي ويسلّي ويشجع باحاديثه وكلماته ثم انسحب بعد العشاء في موعده الاعتيادي ونام نوماً عميقاً. ايقظه منه صباح اليوم التالي زميله الشيخ [مونيشيوس ترموس Muncious Thermus] وما ان استوى على قدميه وفرك عينيه حتى انطلقا معاً الى الفوروم وليس معهما إلا قلة. إلا انهما التقيا بكثير من الناس الذين اوصوهما بالنتزام جانب الحذر. ولما رأى [كاتو] معبد [كاستور وپوللوكس] مطوقاً بالجنو. ودرجاته محروسة بالمصارعين. وميتيللوس وقيصر على رأس الدرج متجاورين، التفت الى انصاره قائلاً:

- تأملوا هذا الجبان الطائش! لقد جرد لواء كاملاً من الجنود على رجل اعزل لا يحمل قطعة سلاح.

وتقدم مع [ترموس] فأفسح حرس المدخل السبيل لهما فقط ومنعوا الآخرين من المرور. إلا ان [كاتو] قبض على يد [موناتيوس] واستله من الجمهور وجره معه. ثم توجه الثلاثة رأساً الى [ميتيللوس] و[قيصر] وجلس بينهما ليمنعهما من مسارة احدهما الآخر. فاصابهما بالذهول. وتطلع الحزب المناصر [لكاتو] الى ملامحه معجبين بروحه العالية وبسالته فاقتربوا واخذوا ينادونه مشجعين وطقف يحمّس احدهما الآخر ويحثه على التكاثر والتعاضد، لا يفرطون بحريتهم ولا بالمدافع عنها.

وتناول الكاتب المرسوم لتلاوته إلا ان [كاتو] منعه. فأخذه منه [ميتيللوس] وهم بقراءة ته الا ان [كاتو] انتزعه من يده. ولما كان [ميتيللوس] قد حفظه من ظهر قلب فقد انشأ يتلوه استظهاراً فكّم [ترموس] فمه براحة يده واسكته. وادرك [ميتيللوس] ان خصومهم مصرون على الوقوف في وجههم وان الشعب احجم ومال الى الكفة الراجحة. فأرسل يستقدم من منزله بعض الرجال المسلحين فأقبلوا واندفعوا يطلقون صرخات مرعبه ناشرين الخوف في القلوب. فاتفق انصار [كاتو]، الذي بقي ساكناً بينما أخذ انصار خصومه يرحمون به بالحجارة ويقذفونه بالعصي من فوق. حتى خفّ اليه [مورينا] (وهو الفئصل الذي احاله كاتو للمحاكمة) وغطاه بردائه وصاح يأمر المعتدين بالكف عن رمي الحجارة. ومجمل القول انه اقتعه بالعودة وسحبته بالقوة الى هيكل [كاستور وپوللوكس]. ولما وجد [ميتيللوس] المكان خالياً. وان مناوئيه قد لاذوا بالفرار وتركوا الفورم. خيل له ان نصره اصبح سهلاً وشيكاً فأمر الجنود بالانسحاب من مواقعهم وشرع في اجراءات التصديق على المرسوم حسب الاصول المتبعة. إلا أن الحزب المناويء ما لبث ان استفاق من الصدمة فلم شعته وعاد شديد البأس يطلق افراده صيحات

شديدة، فتملك اتباع [ميتيللوس] الخوف، وظنوا ان خصومهم اتحدوا بجماعة من المسلحين ففروا وتركوا الساحة خاليةً ولما استتب الامر لهؤلاء عاد [كاتو] فرغ من المعنويات وانشأ يمدح موقف الشعب ويشني على قراره، حتى أخذت الاغلبية تنادي بتنحية [ميتيللوس] عن منصبه. واجتمع مجلس الشيوخ واصدر قراراً ثانياً بدعم [كاتو] ورفض مشروع [ميتيللوس] معللاً الرفض بانه قد يكون سبباً في اشارة فتنة تؤدي الى حرب أهلية في المدينة».

على ان [ميتيللوس] لم ييأس وظلّ سادراً في غلوائه. ووجد مشايعيه يحجمون خوفاً من [كاتو]، وكانوا يجدون فيه خصماً لا يغلب. فترك المجلس الى الفوروم وجمع الناس وخطب فيهم خطبة ضد [كاتو]. وهتف بأعلى صوته ان أرغم على الفرار امام من طغيانه وجبروته ومن الموامرة التي حيكّت ضدّ [پومپي] وانه لن يمر على المدينة طويل زمن حتى يدركها الندم لاستهانتها برجل عظيم مثله. وقال انه سيرحل الآن الى آسيا (معتزماً اخبار پومپي بكلّ ما لحق شخصه من اهانات وتحقير). الخ...

وعظم قدر [كاتو] كثيراً لأنه انقذ الحكم من تربيونية [ميتيللوس] الخطرة. وتغلب بشخص هذا، الى حدّ ما على [پومپي]. وزاد قدره ارتفاعاً عندما اعترض سبيل الاجراءات الرادعة التي قرر المجلس اتخاذها بحق [ميتيللوس] وعارض في قرار عزله من الوظيفة حتى جعلهم يعدولون عن رأيهم. وأكبر فيه العامة هذا العمل الدال على نبيله وانسانيته، لأنه لم يبطأ عدوه بعد ان تمكن فيه. وقد العقلاء فيه بعد النظر والدهاء السياسي بتحاشيه اغضاب [پومپي].

بعد ذلك بفترة عاد لوكولوس من الحرب الآسيوية، بعد ان جرده [پومپي] من شرف انهائها وبذلك سلبه مجد الحرب كلها كما بدا واضحاً لكلّ منصف. وكاد [لوكولوس] يخسر ايضاً موكب النصر، لأن [كايوس موميوس] أخذ يشهر به امام الشعب ويهدد بسوقه الى القضاء، كل ذلك حساً بپومپي لا بغضه [بلوكولوس]. لكن [كاتو] وهو اخ [سرفيليا] زوج [لوكولوس]، انبرى لـ [موميوس] واقفه مقتنعاً بانه يظلم لوكولوس، ويتهمه زوراً، فعرض نفسه لكثير من الشتائم والتعليقات البذيئة وكاد يطرّد من منصبه بدعوى اساءته استخدام صلاحياته وتجاوزه حدودها، على انه استظهر بالأخير وارغم [موميوس] على سحب اتهامه، وترك ميدان المعركة. فأمن بذلك موكب النصر [للوكولوس]. وبقي هذا لصيقاً بكاتو فقد كان يعدّ صداقته حاجزاً دفاعياً له من نفوذ [پومپي] وحارساً يقطاً.

كذلك عاد [پومپي] من الحرب يجرّ اذيال المجد، ويتمتع يعطف الشعب الذي ظهر جلياً في استقباله الرائع له، حتى خيل له أنه لن يرفض له طلباً. وبعث الى المجلس يرجو تأجيل الجلسة

المخصصة لانتخاب القنصل حتى يتسنى له الحضور ومعاونة [بيزو] المرشح. ومالت الأغلبية الى اجابة الطلب غير ان [كاتو] استعمل حقه في الاعتراض، لا لاعتقاده بأن في التأجيل خطورة، بل لأنه يريد يقطع السبيل بصورة آنية، على آمال [پومپي]. ويحبط خططه ويحول دون فرض سلطانه على المجلس. ولم يكن هذا بالهينّ على [پومپي] الذي ادرك ان أكثر مشاريعه ستلقى الفشل الذريع ان لم يضمن انحياز [كاتو] الى صفّه. فأرسل وراء موناتيوس صديقه الحميم.

كان لـ [كاتو] ابنتا أخ في سن الزواج، فعرض لموناتيوس ان يتزوج هو الكبرى منهما. وان يزوج ابنه بالصغرى (ذكر بعضهم انهما بنتا [كاتو] وليس اخيه) فعرض موناتيوس الأمر على [كاتو] بحضور من امرأته واخواته، فطرن فرحاً بمصاهرة هذا الشخص العظيم. إلا أن [كاتو] اتخذ قراره فوراً دون أن يحتاج الى كثير من التفكير والتردي واجاب بقوله:

- عد من حيث جئت يا موناتيوس، عد وقل لپومپي، أن [كاتو] لا يمكن التغلب عليه من جهة مخدع النساء. اني في الحقيقة ممتنّ جداً لهذا الشرف الذي اسبغته عليّ واني اعده بصداقة أمتنّ وابقى من اي علاقة قريبي طالما استقامت اعماله وخلصت نيته. إلا اني لن اقدم لمجد [پومپي] رهائن على حساب سلامة الوطن.

وسخطت النسوة لهذا الجواب. وبدأ في عين اصدقائه غطريساً فظاً. إلا ان الايام ايدت صحة رأيه. حين اخذ پومپي يسعى للفوز بمنصب القنصل لأحد اصدقائه. وراح يشتري اصوات الناخبين، وأشتهر أمره. وعلم الخاص والعام نبأ تلك الرشوة التي دفعها للناخبين في حدائق منزله. فتوجه الى النسوة وذكرهن بعرض [پومپي] وكيف ان سمعتهن كانت ستتلوث بهذه الأعمال المنافية للشرف لو صاهرته، فاعترفن بخطأهن وباصابته. ولكن لو أخذنا القضية بمفردها وتبعنا آثارها، لما وسعنا الألوم [كاتو] على رفضه هذا الحلف الذي اصبح من نصيب قيصر، بتلك المصاهرة التي وحدت قوتيهما وقضت على الجمهورية بالزوال، وكادت تقضي ايضاً على الامبراطورية. ما كان هذا ليحدث مطلقاً لو سمح [كاتو] لنفسه بالتجاوز عن اخطاء پومپي الصغيرة. ولو لم يكن شديد التخوف من هفواته. لم يقف [كاتو] لحظة ليفكر كيف اضطر [پومپي] الى ان يمنح رجلاً آخر الفرصة لارتكاب اعظم الأخطاء!

أمور وقعت فيما بعد على كل حال، في ذلك كان قد نشب خلاف عظيم بين [پومپي] و[لوكولوس] حول فرض تطبيق المراسيم والاوامر التي يصدرانها بخصوص اليوننتس. ووقف [كاتو] الى جانب المظلوم وكان [لوكولوس]. ووجد [پومپي] انه الاضعف في المجلس فالتجأ الى العامة، ولأجل حصوله على اصوات كافية من الناخبين اقترح سن قانون يقضي

بتوزيع الأراضي على الجنود. فعارض [كاتو] ورفض القانون، فانحاز [پومپي] الى [كلوديوس] اعنف الخطباء الديمقراطيين في ذلك الوقت، كذلك خطب ودّ [قيصر] فبادله الودّ. وكان [كاتو] السبب في هذا أيضاً. فقد عاد [قيصر] من اسبانيا. ورغب في ترشيح نفسه للعضوية دون ان يكون ذلك حائلاً بينه وبين موكب نصره. لأن القانون يحتم على المرشح لمنصب القنصل ان يحضر محل الاقتراع. ويحتم على من يطلب لنفسه موكب نصر ان يبقى خارج الاسوار حتى يبيت في طلبه. فعرض [قيصر] على المجلس ان يأذن لاصحابه بالنيابة عنه في الترشيح وان يشرفوا على عملية الانتخاب بغيابه وكان كثير من اعضاء المجلس يميلون الى تحقيق طلبه. لكن [كاتو] عارض في الطلب. ولما تبين ان الاكثرية ستحصل بالقبول اذا جرى التصويت. لجأ الى التأخير بوقفه خطيباً يوماً كاملاً. فلم يجد [قيصر] مندوحة من التخلي عن موكب نصره والدخول الى المدينة قبل موعد الاقتراع. واتصل [پومپي] وعقد الحلف ثم تقدم مرشحاً لمنصب القنصل ففاز به. وتزوج [پومپي] ابنته [يوليا] فكمل الحلف ضد الجمهورية.

واقترح [قيصر] سن قانون يقضي بتوزيع الاراضي على الفقراء وحضر [پومپي] وساند الاقتراح. وانحاز [لوكولوس] و[شيشرون] وانصارهما الى القنصل الآخر [بيبولوس] ليصبوا كتلة معارضة للقانون المقترح. وكان [كاتو] في طليعة هذه الكتلة، فقد رأى ان حلف [پومپي] - قيصر ينطوي على أعظم الخطر. وان القانون المقترح وان كان سيعود بالنفع على الأهالي، إلا أن مقترحيه لا يريدون منه الا التقرب من الشعب وينتظرون ان يكافأوا عليه بيبقته، وهذا ما يخشاه [كاتو]. فتمكن من حمل المجلس على رفض القانون وشايعه آخرون ممن لم يكونوا شيوخاً. وقد ألمهم أن يلجأ [قيصر] الى هذا الأسلوب غير الجدير [بالقنصل] في التسودد الى الأهالي، وتلقاهم بهذا الشكل المخلّ بمبادئ الشرف، مما لا يقدم عليه الا [تريبيون] متهور غير شاعر بالمسؤولية.

وجد [قيصر] واشياعه انهم عاجزون عن امرار القانون بالشكل الأصولي ولجأوا الى الارهاب والقوة. فألقوا محتويات وعاء من القاذورات على [بيبولوس] وهو متوجه الى الفورم ثم هجموا على الحرس اللكتوري الذي يرافقه وكسروا عصيهم. وقذفوا بعدة رماح فأصيب بعض الناس بجراح. ولاذ معارضو القانون بالفرار من الفورم. واسرع الشيوخ بالخروج، وكان [كاتو] آخر الخارجين يمشي ببطء ويتلفت بين آونة وأخرى متوعداً بالويل والثبور.

وتمّ [القيصر] ما اراد، ولكنه لم يكتف وانما استحصل قراراً يحتم على كل شيخ ان يقسم بين التأييد للقانون الجديد، والدفاع عنه ضد كل محاولة لتعديله او تغييره. وفرضت اشدّ

العقوبات على من يرفض اداء القسم، ولم يجد الاعضاء مناصاً وحلفوا اليمين متذكّرين [ميتيلوس] في العهود الماضية، اذ رفض أن يحلف اليمين في قضية كهذه، فأرغم على ترك ايطاليا. وأبى [كاتو] ان يفعل ذلك. رغم بكاء زوجته واولاده وتوسلهم، والحاح اصدقائه وأسره، الى ان تمكن [شيشرون] من اقناعه بالنقاش والمنطق قال له: ربما كان موقفك غير صحيح بوصفك رجلاً عادياً، تعارض ما قرره الشعب بشبه اجماع. ثم ان الأمر نفذ ولات حين مناص. ومن الحماقة والجنون ان تعرض نفسك للخطر وامامك فرص عظيمة لخدمة بلادك. انه لمن الخطل ان يتذرع المرء بهذه الحججة ليترك الجمهورية في محتتها، الجمهورية التي فعل لأجلها الشيء الكثير. ان يدعها تقع فريسة في ايدي أولئك الذين عقدوا الخناصر على تدميرتها ليس الا. كأنما يسرك ان تنفذ نفسك من اخطار الدفاع عنها، وختم كلامه بقوله:

- ان [كاتو] ليس بحاجة الى روما، الا ان روما بحاجة الى [كاتو] وكل اصدقائه.

وفي مقدمتهم شيشرون يقصد نفسه، اذ انه كان وقتئذ هدف [كلوديوس] حين توعدده بان بنقض عليه حالما يتقدم مرشحاً لمنصب [التريبيون]، قيل ان [كاتو] قنع ولان جانبه بهذه الحجج، وذهب الى المجلس كارهاً لحلف اليمين وكان آخر من أداها قبل [فانونيوس] احد اصدقائه الخالص.

وسكر قيصر بخمرة نجاحه، فأقترح قانوناً آخر لتقسيم كل أراضي [كامپانيا] تقريباً - على المواطنين الفقراء والمحتاجين، ولم يجرأ أحد على معارضته غير [كاتو] فصعد قيصر اليه وجره من مقعده وقاده الى السجن، فلم يحجم [كاتو] عن استعمال حقه في الكلام واصل الكلام في معارضة القانون وهو في طريقه الى السجن وطق ينصح المواطنين بعزل كل المشتريين الذين يقترحون مثله من القوانين وسار خلفه اعضاء المجلس ونخبة من ابرز المواطنين مكتئبين محزونين معبرين عن ألمهم وسخطهم بالسكوت ولم يفت قيصر مبلغ سخط الاهالي. الا ان العناد وبالمكابرة جعلاه يمضي في انفاذ ما قرره متوقعاً ان يفوز في هذا النزال باقل ضعف واستخياء يظهره له [كاتو] أو باستئنافه القرار. فخاب فأله ولم يبد من سجينه أي شيء يدل على ضعف فادركه الخجل من فعلته، ومن رأي الشعب فيها. فأرسل يستقدم تريبيوناً وطلب منه التدخل في قضية [كاتو] واطلاق سراحه.

مهما يكن فان [قيصر] نال عطف الشعب وولائه بتلك القوانين والاجراءات. فعين حاكماً لألبيريكوم وكل بلاد الغال وسلم قيادة جيش يتألف من أربع فرق لمدة خمس سنوات. وظلّ [كاتو] يصيح بهم قائلاً انهم ينصبون طاغيةً باصواتهم الانتخابية. ونصب [پوليبوس] كلوديوس [Publius Clodius] وهو پاتريشي تريبيوناً للشعب خلافاً للقانون لأنه وعدهم بعمل

كل ما يحسن في عيونهم شريطة ان يرسل [شيشرون] الى المنفى. وأختاروا لمنصب القنصلية كلاً من س[كالپورنيوس پيزو] حمي [قيصر] و[أولوس غابينيوس Aulus Gabinius] إحدى دُمى [پومپي] كما ذكر لنا أولئك الذين يعرفون سيرته واخلاقه. واستتبق لها الأمور، واخضعاً جانباً من المدينة بالخوف. وكسبوا ولاء الجزء الآخر بالهبات والعطايا على انهما بعثا في خوف من [كاتو] يتذكران خانقين التعب والمجهود اللذين بذلاه للتغلب عليه. والعار والخجل اللذين لحقهما عندما اضطرأ أخيراً الى استعمال الشدة معه. وبس [كلوديوس] من ابعاد [شيشرون] عن ايطاليا بوجود [كاتو] فيها. فعمد الى تدبير حيلة. فأرسل يدعو [كاتو] لمقابلته فور مباشرته وظيفته. قال له انه يعتبر [كاتو] أكثر الرومان امانة ونزاهة وهو مستعد ليبرهن على صدق اعتقاده هذا...» فقد طلب كثيرون إرسالهم الى قبرص في المهمة المتعلقة [ببطليموس] وتشبثوا بالوساطات. واعتقد انك الوحيد لها.

فصاح [كاتو] مستنكراً. وقال انها خطة حيكمت لابعاده، ان ما يعرض تكريماً بل اهانة.

فأجاب [كلوديوس] بكبرياء وفظاظة:

- ان لم تعتبرها فضلاً وتكريماً فستذهب وان لم يكن ذهابك بملء اختيارك.

وقصد [كلوديوس] الجمعية العامة من فوره واستحصل امراً بارسال [كاتو] الى قبرص في مهمة [بطليموس]. ولم يخصصوا له سفينة، ولا جندياً ولا خادماً. خلا اثنين من امناء السر، احدهما لص ووغد، والآخر من بطانة [كلوديوس]، وكان مهمة قبرص لم تكن كافية فقد أمر أيضاً بتسوية مشاكل اللاجئين في بيزنطيه، اذ كان [كلوديوس] مصمماً على ابقائه بعيداً طالما هو يتولى وظيفة الپريتور.

ونصح [كاتو] شيشرون قبل رحيله الجبري، وذكره بأنه سيكون الهدف الثاني. وعليه ان لا يبدي اي مقاومة والأ سحوقه أو وقعت البلاد في اتون حرب اهلية وفوضى عامة. وعليه ان يتربص بالأيام لينقذ البلاد مرة أخرى.

وارسل قبله الى قبرص صديقه [كانيديوس Canidius] لعله يقنع ببطليموس بالطاعة دون اللجوء الى القوة. فان فعل ذلك فلا حاجة له بالمال أو الجاه لأن الرومان سيقلدونه كهانة الآلهة [پافوس Paphis]. أما هو فقد بقي في [رودوس] للاشراف على بعض التدابير. منظراً الجواب من قبرص.

في الوقت ذاته كان [بطليموس] ملك مصر قد أقلع من الاسكندرية متوجهاً الى روما لخلاف نشأ بينه وبين رعاياه، أملاً في ان يقنع [پومپي] و[قيصر] بارسال قوات تعيده اليه

عرشه. ورغب وهو في طريقه الى روما بمقابلة [كاتو] وارسل من ينبئه بوصوله متوقفاً من [كاتو] أن يأتي اليه، وكان هذا قد تناول دواء مطهراً للاحشاء عندما ابلغه الرسول برسالة ببطليموس. فأجاب انه يفضل لو قدم ببطليموس اليه ان وجد ذلك ممكناً. وأقبل الملك فلم يخرج [كاتو] لاستقباله، ولم ينهض للترحيب به عند دخوله بل اقرأه التحية كما يحي الرجل العادي و اشار عليه بالجلوس فعلا ببطليموس شيء من الارتباك وعجب من السلوك الصارم المتعالي ان يصدر من شخص مظهره يدل على بساطته وتقشف متناهيين، ولم يكن أقل عجباً عندما بدأ يحدثه عما يشغل باله من امور. فقد راعته حكمته وحصافته وتبسطه في الحديث انتقد [كاتو] مشاريعه وقال انه سيخسر كثيراً من مقامه ومن راحته وسعادته. اي اذلال ومتاعب سيواجه، كم سيضطر الى الرشوة ارضاء لجشع الزعماء الذين سيقابلهم في روما. أولئك الذين لا يشبعون ولو انقلبت ارض مصر كلها الى فضة ثم نصحه بالعودة الى دياره ومصالحة رعاياه وعرض عليه ان يرافقه اليها ويعاونه في تسوية الخلاف، وبهذا النصائح الخالصة بدأ ببطليموس وكأنه يستيقظ من نوبة جنون أو اغماة وتبينت له الحقيقة. وادرك صواب ما قاله [كاتو] وقرر ان يأخذ بنصيحة. الا ان اصدقاءه عادوا فاقنعوه بمواصلة السفر الى روما والمضي في مشروعة. وهناك وجد نفسه مضطراً الى الانتظار بباب احد الحكام. فراح يلوم نفسه وحماقته في رفضه نصيحة رجل فاضل حكيم، بل نبوة آله كما بدت له آنذاك.

من حسن حظ [كاتو] ان ببطليموس الآخر في قبرص، أثر ان ينهي حياته بيده فشرّب سماً، وقد ذكر له ان خلف اموالاً طائلة. فقرر [كاتو] ان يتجه اولاً الى [بيزنيطوم] فأرسل الى قبرص ابن اخته [بروتوس] لأن ثقته [بكانيديوس] لم تكن مطلقة وبعد ان صالح اللاجئين مع أهالي [بيزنيطوم] ترك المدينة هادئة مستقرة واقلع الى قبرص، وهناك وجد كنوزاً ملكية من صحاف، وموائد واحجار كريمة وارجوان، وكان يتحتم ان يجعل منها نقداً. فصمم ان يتولى الأمر بكل دقة وانتظام وان يبيع المخلفات بأعلى سعر ممكن. لذلك كان يحضر بنفسه صفقات البيع ويدقق حساباتها. ولم يكن يثق باسعار السوق. وكان يشك في الجميع على السواء من ضباط و منادين ومشتريين. وبأصدقائه أنفسهم وبمختصر القول كان يختلط بالمشتريين ويحثهم على رفع الثمن. وبهذا الشكل باع أغلب الاشياء.

اساء [كاتو] بعدم ثقته هذه، الى معظم اصدقائه، ولاسيما [موناتيوس] اقربهم اليه وأخلصهم له. وكادت القطيعة التامة تتم بينهما. وهذا ما زود [قيصر] باقوى واشد نقد لكاتو في الكتاب الذي صنفه عنه. على ان [موناتيوس] نفسه يحدثنا بأن اصل الخصام لم يكن بسبب قلة ثقة [كاتو] بل باهمال الأخير، وبغيره [موناتيوس] نفسه من [كانيديوس]،

وقد أُلّف موناتايوس أيضاً كتاباً حول [كاتو] وهو الذي كان مرجع [ثراسيا] الأساسي. يقول [موناتايوس]. انه لحق بكاتو في قبرص. فوجد ان المنزل الذي خصص له في نهاية الحفارة فقصده منزل [كاتو] فمنع من الدخول بحجة ان [كاتو] يعقد اجتماعاً خاصاً مع [كانيديوس]. فشكا الأمر الى [كاتو] بأسلوب مهذب رقيق للغاية. إلا ان الجواب (حسب رواية ثيوفراستس) كان في غاية الخشونة والفظاظة. قال له:

- كثيراً ما يؤدي الحب الشديد الى الكره... ولأنك تجني حباً زائداً على الحد، فقد خيل لك أنك لا تحظى إلا بالقليل من الالتفات والتكريم. فيشور بك الغضب فجأة. وأني ما استخدمت [كانيديوس] إلا لاختلاصه وتفانيه. لقد كان معي منذ البدء ووجدته أهلاً للثقة.

كان هذا الحديث الخاص الذي جرى بينهما. إلا ان [كاتو] افضى به لكانيديوس، ولما علم [موناتايوس] اضرب عن العشاء معه. ومرة ارسل [كاتو] يستدعيه لأخذ رأيه في شأن من الشؤون فرفض القدوم فهدهد [كاتو] بوضع الحجز على امواله ومتاعه وهو اجراء يتخذ عادة بحق من يعصي الأوامر الرسمية. إلا ان موناتايوس لم يعبأ وشدّ الرجال الى روما. وبقيت الجفوة قائمة بينهما لكن [مارشيا] عملت على الجمع بينهما عند عودة زوجها الى روما (وهي ما تزال حليلته بعد). وتمّ لها ذلك في دعوة عشاء أقامها رجل يدعى [باركا Barco]. وجاء [كاتو] بالأخير فوجد القوم مستلقين على ارائكهم فسأل عن مجلسه فأجاب [باركا] «أجلس حيث يطيب لك» فدار بانظاره فيما حوله. وقال انه سيجلس بالقرب من [موناتايوس] وتوجه الى ناحية. ولكنه لم يظهر له اي اشارة عطف أو مجاملة، طوال جلوسها على المائدة. وبمناسبة أخرى كتب [كاتو] بمسعى من مارشيا الى [موناتايوس] قائلاً انه يرغب في التحدث اليه. فجاء [موناتايوس] صباحاً. واستبقته [مارشيا] حتى انصراف الجماعة ثم دخل [كاتو] وطوق عنقه بذراعيه وقبله بكلّ مودة، وهكذا تم الصلح بينهما. لقد اسهبت في التفاصيل لأعتقادي ان اخلاق الرجال وامزجتهم أسهل انكشافاً في مثل هذه الأمور البسيطة منها في الاعمال العظيمة. جمع [كاتو] ما يناهز سبعة آلاف تالنت من الفضة، وادركه القلق على مصيرها عند نقلها في رحلة بحرية بعيدة المسافة. فأمر بصنع عدد كبير من الصناديق الحديدية يتسع كل منها لتالنتين اثنتين وخمسمائة درهم، وربط كل صندوق بحبل طويل وشدّ الى نهاية الحبل الأخرى قطعة من الفلين. حتى اذا ما عرفت السفينة امكن اكتشاف مواضع الصناديق في البحر حين تطفو الفلينة على السطح، ووصلت النقود بسلام إلا القليل. وكان [كاتو] قد نظم سجلين بكلّ الحسابات المتعلقة بمهمته. ولكن لم يسلم أحد منهما، فقد عهد بالأول الى معتوقه

[فيلارغيروس Philargyros] الذي ابحر من [چنكري Cenchreae] وفقد هو والسفينة والحمولة. اما الثاني فقد كان معه حتى بلغوا [كورچيرا Corcyra] فنزلوا ونصبوا خيامهم في الساحة العامة. وشعر البحارة بالبرد القارس في الليل فأوقدوا نيراناً عظيمة، سرى بعضها الى الخيام فاحترقت وضاع فيها السجل. وقد ألمه ضياع السجل وازعجه كثيراً. لأنه اراد أن يكون نموذجاً يحتذيه الآخرون لا دليلاً على امانته ونزاهته ضد قالة السوء ولكم افواه الاعداء فقد جلب معه عدداً من وكلاء اعمال بطليموس ليشهدوا عند الحاجة على امانته.

وسرعان ما وصلت الانبياء الى روما بقدمه عن طريق النهر فخرج كل الحكام ومجلس الشيوخ بكامل اعضائه مع حشود من الاهالي لاستقباله. وأمتلأت ضفتا التبرير بالناس. فكان دخوله لا يقل ردعة عن موكب نصر، لما حفل به من تكريم ومظاهر رسمية. إلا ان وجه الغرابة يكمن في سلوك [كاتو] هنا، فهو لم ينزل في سفينة عندما لاح له القناصل والپريتورون. ولم يتوقف لتحياتهم بل واصل التجديف صاعدا الى صدر النهر مستقلاً بارجة ملكية ذات ست طبقات من المجاذيف. ولم يترجل حتى بلغت به الرصيف. وعد تصرفه هذا شاذاً غير لائق. وكبرياء وصلافة ليست في محلها. واصاب الناس الذهول وهم يتابعون قافلة الاموال الطويلة تقطع الشوارع. واجتمع مجلس الشيوخ وأعلنوا بعبارات التكريم منحه منصب بريتور شرف فوق العادة. ومنح امتياز ارتداء ثوب ذي حاشية ارجوانية في المناسبات العامة. فأعترض [كاتو] عن قبول كل هذا التكريم وتوجه برجاء واحد الى المجلس وهو اعطاء الحرية لـ[نيقياس] وكيل اموال [بطليموس] للاخلاص والتفاني اللذين ابداهما في هذه المهمة.

تولّى [فيلبس] والد [مارشيا] مهام القنصلية في تلك السنة. وبهذه الصورة قبضت يد [كاتو] على زمام السلطة وكان احترام القنصل الآخر له أكثر أثراً من اعتزاز [فيليبوس] به بسبب القربى. وعاد [شيشرون] من المنفى الذي ارسله اليه [كلوديوس] وما لبث ان استعاد نفوذه ومكانته في قلوب الشعب. وقصد الكابيتول اثناء غياب [كلوديوس] وانتزع بالقوة الوثائق الخاصة بتعيينه تريبيونا، فرفع [كلوديوس] شكوى من شيشرون امام مجلس الشيوخ واجتمع المجلس ليسمع شيشرون يطعن بحجة انتخاب كلوديوس بقوله: انه لم يكن تريبيوناً شرعياً قط وكل ما قام به من أعمال فهو باطل لا قيمة قانونية له فأنبرى [كاتو] يقاطعه ثم نهض ليردّ عليه بقوله:

- في الواقع اني لا ازكي ولا اقرّ ابداً الاجراءات التي قام بها [كلوديوس]: ولكن ما ارتوى التحقيق من صحة الاجراءات التي تمت اثناء توليه المنصب فعليكم ايضاً ان تحققوا في صحة وشرعية اجراءاتي في قبرص، فما دام القائم بها لا يملك السلطة شرعية فان البعثة

ليست شرعية بالاحرى. وفي رأيي ان انتخاب [كلوديوس] تربيونا تم بشكل قانوني لا غبار عليه. فهو يلبي بحكم القانون اذ تبنته اسرة پليبيه، وان كان پاتريشيا بالولادة، فان اساء استخدام وظيفته فليستدع ليقدم الحساب، ان سلطة الحكم لا تتأثر باخطاء الحاكم.

استاء [شيشرون] من اقوال [كاتو] وانقطعت حبال المودّة بينهما فترةً طويلة، الاّ انهما تصالحا فيما بعد.

تم الاتفاق بين [پومپي] و[كراسوس] من جهة وبين قيصر من جهة أخرى. فأجتاز هذا الألب. وفي مقابلةٍ تعاهداً على خطة يتم بموجبها ترشيح اولهما وثانيهما لمنصب القنصلية للمرة الثانية، وعند فوزهما يصدران مرسوماً بتحديد فترة حكم قيصر خمس سنوات آخر. وان يفتنما لأنفسهما حكم اكبر الاقاليم الرومانية مع الجيوش والاموال اللازمة. كانت مؤامرة صريحة للقضاء على نظام الحكومة المقرر وتوزيع الامبراطورية بعد تقطيع اوصالها. وكان عدد من الشخصيات الرفيعة قد قرر الترشيح للمنصب القنصلي لتلك السنة، الاّ انهم بادروا الى الانسحاب عندما تقدم منافسهما العظيمان. ولكن [لوشيوس دوميتيوس] زوج [پورشيا] اخت [كاتو] لم ينسحب وبقي بتحريض وتشجيع [كاتو]. فقد حثه على الصمود قائلاً ان الغرض ليس منصب القنصل وانما انقاذ حرية روما. في الوقت نفسه، اجتمعت كلمة العقلاء النيرين على الحيلولة دون عملية توحيد القوى بين پومپي بوكراسوس فلو تم ذلك لجاوزت في طغيانها كل حد وباتت مصدر خطر عظيم على الدولة، فمن الضروري ان لا يفوز واحد منهما بالقنصلية ولهذا السبب بادروا الى مساندة (دوميتيوس) وتشجيعه لمواصلة العمل مؤكدين له ان كثيرين ممن يخشون مسانده بصورة علنية، سيقومون بدعمه سراً. وخاف اشيع [پومپي] ذلك فكمنا [لديمتيوس] وهو ماض الى الساحة قبيل ان يؤذن الفجر وطرحوا حامل المشعل الذي كان يسير امامه - ارضاً ثم اجهزوا عليه وجرحوا عدداً آخر من الاتباع وهرب البقية. الاّ [كاتو] الذي امسك [يدميتيوس] وابقاه مع انه اصيب هو الآخر بجرح في ذراعه. وطفق يصيح بالآخرين ان يصمدوا ويدافعوا عن حرياتهم ضد الطغاة حتى النفس الأخير. وقال أن الطغاة اسفروا عن وجههم الحقيقي وكشفوا عن شكل العدالة التي سيمارسون بها سلطانهم السلطان الذين يسعون اليه بهذه الطرق العنيفة الشاذة. الاّ ان [دوميتيوس] لم يسعه مواجهة الخطر فانسحب بالأخير الى بيته، وترك الميدان خالياً [لپومپي وكراسوس] فأعلن فوزهما في الانتخاب.

لم يتطرق اليأس الى [كاتو] رغم ذلك وعزم ان يتقدم لمنصب الپريتور، فسيعنيه ذلك على

مقارعتهما الى حدّ ما لا كرجل عادي بدون سلطة ينازل أكبر الحكام سلطة. وهذا أخشى ما كان يخشاه الحليفان اذ ادركا ان منصب [الپريتور] في يد [كاتو] معادل لمنصب القنصل في يد غيره. فدعيا المجلس في دورة استثنائية دون ان يبلغا الدعوة الى عدد كبير من الشيوخ، وحملاه على اصدار مرسوم يقضى على الپريتور المنتخب ان يباشر بوظيفة فوراً دون الانتظار لفترة التمحيص التي فرضها القانون. وهي فترة من الوقت يقضيها الپريتور الجديد منتظراً طعون الانتخاب التي قد تقدم ضده او توجيه تهمة شراء الاصوات اليه. وبهذا المرسوم انفسح المجال لهما لشراء اصوات الناخبين دون خوف من أن يتهم مرشحوهم. ثم دفعوا باصدقائهما للترشيح ضد [كاتو] وفرقا الاموال والرشاوى واخذ يراقبان الناخبين عند الادلاء باصواتهم. على ان سمعة [كاتو] ومكانته حققت له اول الفوز ونصرته على كل هذه الحيل والدسائس فقد ادرك الشعب بصورة عامة انه لمن المخجل أن تفرق الأموال وتدفع الاثمان لأجل هزيمة [كاتو] في حين يجب على الشعب ان يدفع المال له ليغريه بقبول المنصب. لذلك فقد اعطته القبيلة الأولى كل أصواتها. ووقع [پومپي] في مأزق، فأسرع ليطلق كذبة محبوبكة الاطراف بصيحة: - انها تُرعد.

وارفض الاجتماع الانتخابي حالاً ذلك الرومان من الناحية الدينية يعتبرون الرعود فألاً سيئاً، فاذا حدث ذلك اوقفوا أعمالهم مهما كانت وارجأوا البت فيها. وراح خصوم [كاتو] قبل الاجتماع الانتخابي الثاني ينثرون المزيد من الرشاوي يمنة ويسرة ويفسدون الضمائر ويخرجون بالقوة خيرة الناخبين من مكان الاقتراع. وبهذه الوسائل أمنوا لـ[فاتينيوس Vatun-ius] الفوز بالمنصب الپريتورى بدلاً من [كاتو]، وقيل ان الذين باعوا اصواتهم من فاتينيوس، اسرعوا بالخروج من الميدان كأن واحداً يطاردهم. وبقي آخرون يتبادلون فيما بينهم عبارات الدهشة والاستنكار. وواصل أحد من مفوضي الشعب الاجتماع الجماهيري. فوقف [كاتو] كأنما هبط عليه وحي من السماء، ومتنبئاً لهم بكل ما سيحل بالبلاء من نواب. وحثهم حتى التزام جانب الحذر من [پومپي وكراسوس] لأنهما سيكونان أصل البلاء. وانهما دبرا كل هذه الخنط ولذلك خشيا من فوز [كاتو]. وبعد ان انتهى من خطابه شيعه الى منزله عدد من الناس يزيد على عدد كل الناخبين الذين صوتوا للپريتورين الجدد.

واقترح [كايوس تريبونيوس Caius Trebonius] ذلك القانون الذي اسند حكم الاقاليم للقناصل. على ان يستأثر پومپي بأقليمي اسبانيا وافريقيا. وكراسوس بمصر وسوريا، وان يخولا مطلق الصلاحيات لشن الحرب وادامتها براً وبحراً حيثما وجدا ذلك مناسباً. ووضع المشروع قيد البحث ويئس المعارضون من رفضه ولم يبد من أحد قول او فعل لمناهضته. وقبل

أن تؤخذ الأصوات صعد [كاتو] منبر الخطابة طالباً الكلام فسمح له بساعتين بعد كثير من الجدل. وانقضى الوقت المحدد وهو ينذر ويشرح وينبئ بأكثر ما كان سيقع. ولم يسمح له بتحديد الوقت إلا أنه استمر يتكلم غير عابئ. فصعد إليه ضابط صف وانزله، إلا أنه لم يتوقف وعلا صوته ووجد كثيراً من الأذان تصغي إليه وتشاركه الرأي. فما كان من ضابط الصف إلا وامسك به وأخرجه من الفورم بالقوة. لكنه عاد بعد أن تركه واعتلى المنبر ثانية واستنجد بالشعب ودعاه للوقوف في صفه ولما تكرر ذلك منه مرات، احتدم [تريبونيوس] غيظاً وأمر بسوقه إلى السجن إلا أن الجمهور سار خلفه ويعضون إلى خطبته التي ارتجلها لهم. وساور [تريبونيوس] الخوف وأمر باخلاء سبيله، وانقضى اليوم ولم يتوصل المجلس إلى رأي حول القانون بسبب [كاتو]. ولكن التهديد والارهاب الذي استعمل ضد المواطنين في الأيام التالية. فضلاً عن الهبات والوعود فرقت الجموع المشايعة [لكاتو] واحضر اكويليوس Aquilius التريبونيون وثلة من الجند داخل بناية المجلس. وأخرج [كاتو] من المجلس وهو يصيح:

- انها تُرعد!

وجرح كثير من الناس وسقط بعض القتلى. أخيراً أبرموا القانون بالقوة، وبلغ السخط حداً بالناس حتى أنهم قرروا تحطيم تماثيل [پومپي] وكادوا يفعلون لو لم يخف اليهم [كاتو] ويشنهم عن عزمهم.

واقترح قانون آخر يتعلق بالاقاليم التي سيحكمها قيصر وبالفرق العسكرية التي ستخصص له. في هذه المرة لم يتوجه [كاتو] إلى الشعب. وإنما استنجد [پومپي] نفسه قال له:

- الأ تدري بأنك اليوم ترفع قيصرًا على كتفيك. ولن يلبث أن يغدو ثقيلاً ينوء به ظهرك، وأخيراً أنك لن تستطيع القاءه ولن تستطيع ابقائه. وستطوح به وبنفسك معه كيان الجمهورية. وعندئذ ستتذكر نصيحة [كاتو]. انها ليست نافعة لك فحسب بل هي صحيحة نزيهة بحد ذاتها.

وكثيراً ما كان ينذر [پومپي] بامثال هذه النذر فلا يعبأ بها ولا يرتدع ولا يشك في انقلاب [قيصر] عليه، معتمداً على قوته وحسن حظّه.

ونصب [كاتو] بريتورا في العام التالي، ويبدو انه لم يرفع من شأن منصبه باستقامته ونزاهته الفريدين، قدر ما انتقصه وحطّه بسلوكه الغريب. فكثيراً ما كان يأتي إلى مجلس القضاء حافياً ويتصدر معقد القضاء دون ثياب داخلية تستر عورته. فيصدر الاحكام بهذه

الهيئة الزرية في القضايا الكبرى، وضد شخصيات بارزة. قيل ايضاً انه كان يشرب الخمر بعد تناوله الفطور مباشرة ويعدها يقصد محل عمله، وهذا تلفيق وكذب صراح. كان الفساد في ذلك الحين قد استشرى بين الناس، وضربت الذمم بالرشاوى التي يدفعها ذور الحاجات لنيل المناصب. ومعظم الناس كان يرتزق على بيع صوته للمرشحين. وكان [كاتو] شديداً في استئصال جذور هذا الفساد من ارض الجمهورية. فأفلق مع مجلس الشيوخ في استصدار مرسوم يحتم على من انتخبوا لأشغال المناصب العامة ان يراجعوا المحكمة دون حاجة إلى إتهام. لتقديم بيان موثق باليمين عن سلوكهم في اثناء الانتخاب. وكان هذا الاجراء شيئاً بغيضاً للمرشحين والمنتخبين. وهو كذلك خطب فادح بالنسبة إلى بائعي الاصوات. فأجتمع جمهور كبير من الناس واعترضوا سبيل [كاتو] وهو متوجه إلى المحكمة وأخذ يشتمونه بأصوات عالية. ويقذفونه بالحجارة. وهرب كل من كان متمسكاً بالقرب من دار المحاكم. وارغم [كاتو] على أن يتدافع بالناكب ويشق طريقه شقاً متحاشياً بشق النفس الحجارة المنثالة عليه، حتى تمكن من الوصول إلى المنصة. فانتصب واقفاً بطلعته المكفهرة التي لايلوح فيها اثر للخوف والرهبة. فسيطر على الجمهور في الحال واسكت الصراخ. ثم توجه اليهم بكلمة تناسب المقام فارهفت الأذان إلى ما يقول. وبذلك أحمذ الفتنة بصورة تامة. ولما انتهى مجلس الشيوخ على موقفه وحسن تصرفه علق بقوله:

- لكنني لا اثني عليكم لترككم بريتوركم في مأزق دون ان تسعفوه.

واحتار المرشحون في أمرهم. فكل واحد منهم يخشى ان يدفع مالا للناخبين بنفسه. ويخشى في عين الوقت ان يقدم منافسه على الدفع... أخيراً اتفق المرشحون على ان يضع كل واحد منهم ضماناً قدره مائة وخمسة وعشرون ألف درهم، ثم يدخلون جميعاً في المعركة الانتخابية بكل نزاهة واستقامة. فاذا وجدوا واحداً منهم يلجأ إلى طريق ملتوية فان يفقد المبلغ الذي وضعه. وبعد ان تم الاتفاق اختاروا [كاتو] اميناً على المال. وحكماً في الموضوع. فلم يأخذ المال وإنما أكتفى من كل واحد بكفيل ضامن وفي يوم الاقتراع حضر [كاتو] ووقف إلى جانب [التريبونيون] المشرف على جمع الاصوات. وراح يرقب بكل دقة عملية الاقتراع لا تفوته منها شاردة او واردة. فكشف عن مخالفة واحدة. وأمر المخالف بتأدية المبلغ المقرر للباقيين، ولهج الجميع بالثناء على [كاتو] ولكنهم ترفعوا عن اخذ مبلغ الضمان مكتفين بالفضيحة التي كانت عقاباً كافياً للمخالف. وزاد حاسدو [كاتو] حنقاً قدر ما زادت سمعته ارتفاعاً. وسخط كثيرون عليه، لأنه اصبح يمارس فعلاً كل سلطات مجلس الشيوخ ومجلس القضاء الأعلى فضلاً عن سلطة الحكام. ليس هناك فضيلة كفضيلة العدالة يجزّ تقديرها وتركيتها، على



صاحبها كثيراً من البلى والمكاره. انها تتطلب من قوة الارادة والسلطة على جماهير الشعب، مالا يتطلب غيرها من الفضائل. ذلك لأن الجمهور لا يقدر الا ذوي البأس وذوي الحكمة. في حين يحبون الاستقامة والنزاهة في الرجال فيضعون فيهم ثقتهم وایمانهم المطلقين. انهم يخافون الجرأة، ولا يثقون بالدهاء والذكاء. اضعف الى هذا انهم ينظرون الى الطبع والمزاج لا الى الارادة الطيبة والنية الخالصة في ممارسة تلك الفضائل. ويعتبرون البسالة قوة طبيعية من قوى العقل ويعدون الحكمة حدة ورهافة جسمانية. لذلك يكون بمقدور الانسان ان يغدو عادلاً لو ملك الارادة، ويستتبع ذلك ان الظلم يعتبر أخط ما في الأخلاق لأنه اصعبها اغتفاراً وتبريراً.

لهذا كان [كاتو] موضع كره العظماء من الرجال. لأنهم يرون أنفسهم مهانين ومنتقدين فضائله. [پومپي] مثلاً كان ينظر الى ارتفاع مكانة [كاتو] بمثابة دمار لنفوذه. لذلك دأب على اطلاق ألسنة السوء عليه للنيل منه وتجريحه. ومن بين هؤلاء [كلوديوس] المفتن الذي انظم الآن الى [پومپي] وانشأ يذيع بأن [كاتو] خص نفسه بجزء كبير من اموال [قبرص]، وهو يكره [پومپي] لأنه رفض الاقتران بابنته. فكان جواب [كاتو]: انه لم يزود برجل او حصان او سفينة. ومع ذلك فقد جلب لهم من قبرص وحدها ما يزيد عن كل ما حصل عليه [پومپي] من اموال بعد الحروب العديدة والانتصارات على العالم الذي نهبه نهياً. وانه لم ينشد مصاهرة [پومپي] مطلقاً لا لكونه غير مستحق مصاهرته، بل لاختلافهما الشديد في آرائهما حول سياسة الجمهورية...» لأنني تنازلت عن حكم الاقاليم التي وضعت تحت تصرفي عند اعتزالي پريتوريتي، اما [پومپي] فقد استبقى لنفسه عدة اقاليم ومنح عدداً منها للآخرين. وقد ارسل الآن لقيصر قوات قوامها ستة آلاف جندي لتعزيز جيشه في بلاد الغال، لم يطلبها قيصر من الشعب، ولم يستحصل [پومپي] على موافقة الشعب بارسالها؛ رجال وخيل وسلاح على قدر ما يتصور المرء، باتت فهي هدايا يتبادلها الرجال العاديون، و[پومپي] القائد العام والجنرال، يهدي الجيوش والاقاليم لاصحابه في حين يقعد هنا ليشرف على المعارك الانتخابية ويشير الغوغاء اثناء عملية الاقتراع. اننا نرى بكل وضوح كيف يعمل لـ(الفوضى)، للوصول الى (الملكية<sup>(١)</sup>).

كان هذا جوابه لپومپي.

من بين اصدقاء [كاتو] والمعجبين به شخص اسمه [فائونوس] وهو لكاتو مثلما كان [اپولودورس الثاليري] لسقراط في الأيام الخوالي. كانت كلمات [كاتو] تسلمه الى حالة

(١) يوجد هنا مقابلة بديعية «باللغة اللاتينية بين كلمتي [Anarchy = فوضى] و[Monarchy = الملكية المطلقة].

من الوجد والحبور وتفعل في عقله فعل الخمر القوية فتسكركه الى حدّ النشوة. رشح نفسه لمنصب [آلايدل] وكاد يفشل إلا أن [كاتو] الذي حضر لمعاونتته لاحظ ان الاصوات المعطاة مكتوبة بخط يد واحدة فكشف الغش والتلاعب. وارجع التريبيون المشرف. فقرر هذا الغاء الانتخاب. وفاز [فائونوس] في الانتخاب التالي. ونشط [كاتو] لمعاونتته في مهام وظيفته. واهتم عنه بالاشراف على التمثيليات التي كانت تعرض على المسرح ويمنح الممثلين تيجاناً من اغصان الزيتون البري لا من الذهب. كالتى تمنح للفائزين في الالعاب الاولمبية.

واعترض عن هذا بالهدايا الثمينة التي تمنح عادة للمتفوقين، بالبنجر، والفجل والخس والكمثرى بالنسبة للاغريق. وجرار خزفية مملوءة بالخمر، وتيناً، ولحم خنزير وقشاً وحزماً من عصي خشبية صغيرة بالنسبة للرومان منهم. فسخر بعضهم من بخل [كاتو] وأكبر آخرون هذا التبسط الخلقى الرقيق، من رجل عرف بالتزمت والتكشف ومجمل القول كان [فائونوس] يختلط بالجمهور، ويجلس مع المشاهدين ويصفق ويهتف [لكاتو] مع المصفيق والهاتفين ويطلب منه ان يغرق المتفوقين بالعطايا والمكافآت ويحث الناس على تكريمهم. كان [فائونوس] قد سلم كل سلطاته لكاتو. وفي الوقت نفسه كان زميله فضلوا ارتياد مسرح فائونوس، وعرضه حيث كانوا يهتفون لها استحسباً وينسجمون فيها بكل جوارحهم ويستمتعون بجوها المسلي. ويكبرون صاحبها الرجل البسيط الذي يختلط بهم كأي انسان عادي. أما [كاتو] المشرف على العرض المسرحي فقد كان يفعل ذلك عن عمد استهجاناً واستنكاراً للنفقات الطائلة التي يتكبدها الآخرون. وليلقى عليهم درساً في ان التسلية يجب ان تطلب لنفسها ولشرح الصدور بصورة ادبية مهذبة لا بل للاستعداد العظيم والتظاهر بالفخفة وصرف الاموال الطائلة والاهتمام المستمر بالأشياء والتفاصيل التافهة.

وتقدم [سكيبيو] و[هپسيوس Hypsaeus] و[ميلو Milo] مرشحين للمنصب القنصلي، ولم يكفهم استخدام ذلك الاسلوب اللاشعري الذي اصبح معترفاً به من بذل الرشاوى وافساد الضمائر وشراء الاصوات. بل لجأوا الى السلاح والقتل ايضاً. ودلت الظواهر على تصميمهم التام للوصول بطيشهم وتهورهم الى حدّ اثاره حرب أهلية. لذلك اقترح في المجلس تحويل [پومپي] صلاحية الاشراف على الانتخابات العامة. فعارض [كاتو] في مبدأ الأمر محتجاً بقوله «ليس على القوانين ان تطلب الحماية من [پومپي] بل على [پومپي] ان يطلب ذلك من القوانين». على ان الفوضى طالت. واصبح الفورم، فهو محاصر بثلاثة جيوش، وليس في الافق بادرة لإحتمال وضع حد لتلك الفوضى. أخيراً وافق [كاتو] على ان يسلم المجلس جميع الصلاحيات لپومپي «فهذا خير من السقوط فريسة لآخر المصائب مادام استخدام التدبير

اللاقانوني الأخف ضرورياً كعلاج لدفع الأعظم، بل خير للمجلس ان يقيم نظاماً ملكياً، من ان يعاني انقلاباً عنيفاً سينتهي شاء ام ابى الى عين النتيجة.».

وبناء على ذلك تقدم [بيبولس] صديق [كاتو] باقتراح نصب [يومبي] قنصلاً أوحد. فإما سيعيد كيان الحكومة الشرعية، وإما سيخدمون بشخصه سيداً هو خير الأسياد!

نهض [كاتو] وايداً الاقتراح لدهشة الجميع، وقال قوله المشهور:

«اي شكل من الحكومة هو خير من لا حكومة.».

واضاف يقول: لايشك في ان [يومبي] سيحسن التصرف وسيرعى مصالح الجمهورية التي اوكلت اليه. وعلى اثر ذلك أعلن [يومبي] قنصلاً أوحد. واسرع يدعو [كاتو] لمقابلته في الضواحي وهناك حيّاه بحرارة وعانقه بشدة وشكره على الشرف الذي اسبغه عليه. وطلب منه ان لايبخل عليه بالنصيحة والمعونة فأجابته [كاتو]:

- ان ما تكلمت به في المناسبات الماضية لم يكن لبغضة احملها لك. وما فعلت لاجلك اليوم لم يكن لحبٍ اكنّه لك، وكل ما فعلت انما كان لمصلحة الجمهورية. ولن اتقاعس عن اسداء النصح لك في السرّ ان طلبت ذلك. وسأبدي رأيي الصريح في العلن وان لم تطلب مني.

وفعل مثلما قال. فعندما سنّ [يومبي] قوانين صارمة تتضمن الحبس والغرامات الكبيرة لأولئك الذين افسدوا ذم الشعب بالعطايا والهبات، نصحه [كاتو] بالعدول عن ذلك لأن ما فات فات، وعليه الاهتمام بما هوأت. اذ لو تعقب الجرائم الماضية فلن يقف عند حدّ. وان فرض عقوبات جديدة فليس من العدالة ان يعاقب الناس بموجب قانون لم يكن له وجود حين ارتكبت تلك الجرائم ليقال انهم خالفوا احكامه. فلم يأخذ برأيه. وعندما أحيل الى المحاكمة اناس بارزون فيهم اقرباء [لپومبي] ظهر عليه التراخي وعدم الميل الى محاكمتهم. فلأمه [كاتو] لوماً شديداً والحّ عليه بأن يستمر في الاجراءات القضائية بحقهم.

وسن [يومبي] قانوناً آخر ألغى بموجبه عادة كتابة خطب التزكية بحق المتهمين وارسالها الى المحكمة. مع هذا فقد ربح هو نفسه خطبه بتزكية [موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus] وبعثها وقضية المتهم قيد المرافعة. وكان [كاتو] أحد القضاة فما كان منه الاّ ووضعه كفيّه فوق اذنيه وابى سماعها عند تلاوتها فأعرض عليه [بلانكوس] وطلب تنحيته قبل صدور القراءة على أنه أدين مع ذلك.

في الواقع كان [كاتو] مصدر حيرة بل مشكلة عظيمة لكلّ المتهمين مهما كانت تهمهم. فهم من جهة يخشون ان يكونا من بين القضاة الذين يحاكمونهم، ومن جهة أخرى لايجسرون

على طلب تنحيته فكثير منهم حكموا لأنهم رفضوه قاضياً لهم، وبذلك ظهروا بمظهر غير الواثق من براءتهم. وكانت سبّة يلقبها العدو في وجه عدوه حين يذكره بأنه لم يقبل [بكاتو] قاضياً له.

في ذلك الوقت كان قيصر يتربص بقواته في بلاد الغال، رابضاً بسلاحه على اتم الأهبة، مستخدماً في الوقت عينه هباته وعطاياه لتعزيز نفوذه في روما. فبدأت تحذيرات [كاتو] تنزع [يومبي] من احضان التهاون الآمن لتسلمه الى علائم أكيدة للخطر المائل. لكن [كاتو] رآه بطيئاً متردداً كارهاً اتخاذ اية تدابير وقائية ضد [قيصر] فقرر ترشيح نفسه للقنصلية، فمن طريقها يرغم [قيصر]: اما على القاء سلاحه واما على الكشف عن نواياه الحقيقية. وكان موقف منافسي [كاتو] جيداً. فأحدهما: [سولپيشيوس Sulpicius] كان مدينا لكاتو ولسمعته ونفوذه بالكثير. وقد اعتبرت منافسته نوعاً من نكران الجميل، وظاهرة غير مستحبة. لكن [كاتو] لم يجد فيها معرّة. وقال:

- انه ليس بالأمر المستغرب ان لا يخلي رجل لآخر السبيل في ما يعدّه خير غاية وأنبهها.

وكان [كاتو] قد حمل المجلس على اصدار مرسوم يحتم على المتقدمين للمناصب والوظائف العامة ان يتولوا بث الدعوة الانتخابية بأنفسهم دون الاستعانة بالوسطاء. ومنعوا ان يصحبوا أحداً من هؤلاء في جولاتهم الانتخابية لتزكيتهم عند الناخبين وجمع الاصوات لهم، فكثرت خصومه بين الناس، لأنه ضيع عليهم وسيلة ارتزاق هامة من جهة وافقدتهم فرصة التفضل بالمنة على الاشخاص الذين يتوسطون للمرشحين، فيخسرون بذلك المال والمكانة. ثم ان [كاتو] لم يكن يتقن أساليب المعارك الانتخابية فهو أكثر حرصاً على وقار حياته، وهيبته من الوظيفة. واتبع وسائله الخاصة في الدعوة لنفسه وابى الاستعانة بأصدقائه لترويج قضية وكسب الجماهير الى صفه، وبذلك فشل.

في مثل هذه الاحوال لا يكون الشعور بمرارة الفشل والاستكانة قاصراً على الفاشلين ولكنه يتعداهم الى الاصدقاء والأقربين فتجدهم اياماً وكأنهم في حداد وكآبة. ولم يبد على [كاتو] اي تأثير بالنتيجة. فقد دهن جسمه بالزيت، ولعب الكرة في الساحة. وبعد تنازله فطوره قصد الفورم كعادته حافياً ومن دون وشاح وسار مع معارفه وتحدث اليهم. وتعرض للوم شيشرون الذي قال:

- عندما تتطلب الضرورة قنصلاً مثلك، لا تحاول ان تبذل أقل المجهود ولا تتنازل الى مجاملة الناس. لقد فعلت كذلك عندما اهملت ترشيح نفسك للبريتورية ثانية.

فأجاب [كاتو]: انه لم يخسر الپيريتورية اول الأمر بأصوات الناخبين بل بالعنف وفساد الضمائر وهما الوسيلتان اللتان لجأ اليهما خصومه اما في الانتخابات القصلية فما كان يوجد مثل هذا التدخل المنافي للاخلاق. فأتضح له ان الشعب غير معجب بمسلكه، وليس يجمل بالرجل المستقيم ان يغير مسلكه لأجل الفوز بالقتل. والرجل العاقل لا يحاول الحصول مرة ثانية على ما فشل في نيئه، وهو معرض لعين التحامل.

كان [قيصر] في ذلك الوقت يقاتل عدداً كبيراً من الشعوب الهمجية المحاربة، ويلاقي الأمرين في اخضاعها. وقيل انه انقضّ على الجرمان في وقت الهدنة وأهلك منهم ثلاثمائة ألف. فأقترح بعض اصداقائه [قيصر] بهذه المناسبة ان يعلن المجلس عيد شكرٍ للآلهة. فردّ [كاتو] يشجب الاقتراح. ويقول كان من الواجب أن يسلموا [قيصر] الى الجرمان لنقضه الهدنة. وبذلك يكفر عن ذنبه ويرد اللعنة عن روما واطاف يقول:

- مع هذا، علينا ان نتوجه بالشكر للآلهة لأنها انقذت الجمهورية ولم تصبّ جام سخطها على الجيش للحماقة التي اباها قائده.

وعلى أثر ذلك وجه [قيصر] كتاباً الى مجلس الشيوخ قرئت علناً وكانت حافلة بالتهم والسب المقذع بكاتو، وبعد تلاوتها نهض دون ان يظهر عليه اي تأثر أو اهتمام. وراح يتكلم بصوت هادئ خالٍ من الحرارة، كأنه يتحدث في أمرٍ عادي. فجعل اتهامات قيصر له تبدو مجرد شتائم رخيصة وسباب عادي، او بدت شيئاً أشبه بمزاح ودعابة تافهة. ثم انتقل بعدها الى فضح نوايا قيصر السياسية وشرح ما بيته وما عمل في سبيله (كأنه أحد شركائه في التآمر لا خصمه المقيم) وختم كلامه بالقول:

- لاتتوهموا ان ابنا البريطون والغال هم مصدر الخطر. وعليكم ان تخشوا شرّ [قيصر] بالاحرى ان كنتم عقلاء.

هذه الخطبة ايقظت المجلس من سبات وأثارته الى الحدّ الذي ندم معه اصداقائه [قيصر] على تلاوتهم كتابه. فقد زودوا [كاتو] بفرصته الثمينة لقول كثير مما يجب قوله، ولايضاح الحقائق الدافعة حول [قيصر]، ومع هذا لم يقرر المجلس شيئاً. وانما اتجه الميل الى ارسال خلف له. وهنا طلب اشياق قيصر ان يجرد [پومپي] ايضاً عن حكم اقاليمه وان يسرح جيشه والأ فلا سبيل لقيصر غير الاحتفاظ بالاثنتين ايضاً. فصاح [كاتو] «ها ان ما تنبأت به يحقّق الآن، لقد اصبح واضحاً لكم انه يستخدم قواته لارغامكم على اصدار القرار الذي يريد، انه حول جيوشه التي حصل عليها بالحيلة نحو الدولة.»

لم يكن [كاتو] نفوذ كبير خارج المجلس. فقد هيء الشعب لتعظيم قيصر. وكان المجلس يخشى الشعب رغم قناعتهم بصحة رأي [كاتو].

وانقلب الوضع عندما وردت انباء احتلال قيصر مدينة [ارمينيوم] وزحفه نحو روما. فقد شخصت الانظار كلها الى [كاتو] حتى [پومپي] نفسه، وكذلك الجمهور، لأنه الرجل الوحيد الذي تكهن بما سيحدث، والاول الذي كشف عن نوايا قيصر الحقيقية. وعلق على هذا بقوله:

- لو صدقتموني، ولو أخذتم بنصحي لما آل الأمر بكم الى الخوف من رجل واحد، ولا لوضع كل آمالكم في رجل واحد.

وأقرّ [پومپي] بأن [كاتو] نطق بكلام الانبياء. بينما تصرف هو تصرف الاصدقاء فجاوز به الحدود. ونصح [كاتو] المجلس بأن يضع كل السلطة في يد [پومپي]...

- لأن خير من يطفئ لهيب الشرور هم أولئك الذين يتمكنون من احداث اعظمها.

تبين [پومپي] أنه لايمك القوات الكافية. وما يستطيع تعبئته ليس بالكفاءة والتدريب المطلوبين، فترك المدينة. وقرر [كاتو] اللحاق به في المنفى فبعث بابنه الاوسط الى [موناتيوس] وكان صديقه هذا في بلاد [بروتيوم Brutium] وقتذاك. وصحب ابنه الأكبر، فقد عاد فعقد ثانية على [مارشيا] التي اصبحت بعد وفاة هورتنسيوس أرملة غنية. فقد ترك لها بعلها كل ما يملك واتخذ [قيصر] هذه الحادثة فيما بعد، دليلاً على جشعه، وارتزاقه من وراء الزواج اذ قال:

- لو كان [كاتو] بحاجة الى حليمة فلماذا طلقها؟ ولو لم يكن بحاجة فلماذا تزوجها ثانية، اللهم اذا كان قد اعطاها لهورتنسيوس بمثابة طعم، اعاره اياها وهي صغيرة، ليستردها فيما بعد وهي غنية.

ان الردّ على هذا يذكرنا بقول [يوربيديس]:

عند الكلام عن الأسرار - فان أعظم الأسرار غموضاً هو بالتاكيد - الجبن في هرقل.

فالشبيهه باسنادك الجبن الى هرقل، هو اسنادك الجشع الى كاتو، والسؤال الواجب هنا هو: هل أحسن [كاتو] عملاً بالزواج؟

في هذا أخذ وردّ، فما أن عقد على [مارشيا] حتى عهد اليها بيته وبناته ولحق [پومپي] وقيل انه لم يقص شعر رأسه، ولم يحلق لحيته، ولم يضع على رأسه أكليلاً منذ ذلك اليوم. وغدا كئيباً ساهماً كثير التفكير في النوايب التي حلت ببلاده. بقي كذلك حتى النهاية. دون

ان يفرح لنجاح يصيب حزبه أو لفشل يمني به عدوه.

وأسند اليه حكم صقلية. فأقنع الي [سيراكوزة] وهناك علم ان [آسينيوس پوليو Asinius Pollio] قد وصل الي [مسينيا] مع قوات للعدو. فأرسل [كاتو] يسأله عن الغرض من قدمه. وطلب من [بوليو] بدوره ان يشرح له سبب هذه الاضطرابات العنيفة، فأبلغه ان [پومپي] جلا عن إيطاليا، وضرب مخيمه في [ديراكيوم]. فأنشأ [پوليو] يبدى عجبه من غرابه وغموض الاحكام الالهية في احوال البشر وقال:

- كان [پومپي] ناجحاً ومظفراً على الدوام في اعماله التي لم تكن تنطوي على حكمة أو اخلاص للوطن. وها هو الآن مهتم بالحفاظ على كيان بلاده والدفاع حريتها، فاذا به سيء الحظ على طول الخط.

وقال [كاتو] بخصوص [آسينيوس] أنه قادر على طرده من صقلية لو شاء، لكن لما كانت قواته ستعزز بنجده كبيره، فهو لا يرى موجباً لاقحام الجزيرة في حرب. وان عليه ان يتوجه بنصحه للسيراكوزيين، بأن ينضموا الي الفريق الغالب وان يعملوا لأجل لسلامهم. ثم انه ترك الجزيرة متجهاً الى معسكر پومپي.

نصح [پومپي] بتأخير القتال، اذ كان لايفتأ يأمل في اصلاح الأمور، وكان يكره أن يشتبك الغريمان في قتال لأن الخاسر هو البلاد، وسيكون عاملاً من عوامل خرابها أيا كان المنتصر في المعركة. واقنع [پومپي] ومجلس الشورى باصدار مرسوم يمنع بموجبه نهب اي مدينة خاضعة للشعب الروماني. وقتل اي مواطن روماني الأ في ساحة المعركة اثناء القتال. وبهذا كسب شرفاً كبيراً وتسبب في التحاق الكثير [پومپي] الي آسيا لمساعدة القائمين على التجنيد وتهيئة السفن. وصحب اخته [سرقيليا] وطفلها من [لوكولوس]، فمنذ ترملها وهي تعيش في كنف أخيها. وقد حسن سلوكها وطابت سمعتها اذ وضعت نفسها في رعايته، وتبعته في كل تنقلاته وقاسمته شطف العيش الذي عرف به. على ان [قيصر] لم يكف عن التعريض به عن طريقها.

وبدا ان ضباط [پومپي] في آسيا ما كانوا في حاجة كبيرة الي [كاتو] ففعل راجعاً الا انه حقق وهو في طريقه انضمام أهالي [رودس] الي القضية. وترك أخته وطفلها هناك وانضم الي [پومپي] الذي تمكن من جمع قوات ضخمة في البر والبحر. وكشف عن نواياه الحقيقية بعمل لايعدله عمل آخر. كان قد اعتزم ان يسلم [كاتو] قيادة الاسطول الذي يتألف من خمسمائة بارجة قتال وعدد كبير جداً من السفن الخفيفة وسفن الاستطلاع والقوارب المكشوفة. الا انه

اعاد النظر في قراره، أو لعل ذلك كان بتأثير من اصدقائه. فقد تبين له ان هدف [كاتو] الوحيد هو تحرير البلاد من سلطان كل غاضب. فان هو عقد له اللواء على كل هذه القوات العظيمة، فسيعد فور القضاء على [قيصر] الي حمل [پومپي] على القاء سلاحه وخضوعه لقوانين الجمهورية. ولذلك عدل عن رأيه وعين [بيبولوس] قائداً للاسطول مع انه كان قد نوه [لكاتو] بعزمه الأول. لم يكن لديه عن سبب او دليل يحمله على الافتراض بأن حماسة [كاتو] للقضية قد ضعفت باي شكل من الاشكال. فقبيل خوض احدى المعارك في [ديراكيوم] خطب پومپي في جنوده على ما قيل - ثم طلب من ضباطه ان يحذوا حذوه، فتعاقبوا واصغى الرجال اليهم ببرود وصمت حتى تقدم [كاتو] بالآخر. وبلغه فلسفية تناسب المقام تكلم عن الحرية والرجولة والموت والذكر الحسن. القى خطابه بشكل عاطفي طبيعي قوي لاتعمل فيه وختمه طالباً العون من الآلهة موجها اليها خطابه كأنها موجودة معهم، لتنظر نحوهم وترعاهم وهم يقاثلون في سبيل بلادهم. فأطلق الجيش كله صيحة راعدة وتملكتهم الحماسة وهاجت انفسهم فقادهم ضباطهم يحدوهم الأمل والثقة لمواجهة الخطر. وهزم جيش [قيصر] ولاذ بالفرار. الا ان حظ [كاتو] الكريم استخذى لحذر پومپي وتذبذبه فجعل نصره ناقصاً. على اننا اوردنا ذلك في سيرة [پومپي].

وفي الوقت الذي استبد الفرح بالجميع وبالغوا في تقدير نجاحهم كان [كاتو] وحده يندب حظ بلادهم. ويلعن ذلك الطموح القتال الذي دفع بهذا العدد الكبير من الرومان الي قتل بعضهم بعضاً.

وتعقب [پومپي] قيصرأ الي تساليا. تاركاً في [ديراكيوم] مقداراً من الذخيرة والمال والمؤونة وكثيراً من خدم بيته واقربائه ووضع الجميع بعهدة [كاتو] وسلمه قيادة خمس عشرة كتيبة فقط. كانت ثقته به كبيرة. لكنه يخشاه، فهو يدري تماماً ان [كاتو] هو آخر من يتركه ان غلب. اما اذا انتصر فلن يدعه يستخدم نصره على هواه. وبقي مع [كاتو] في [ديراكيوم] كثرة من اشراف روما ووجهائها، وعندما تسربت ابناء هزيمة [فرساليا] قرر كاتو ان يعيد الموجودين معه في [ديراكيوم] الي إيطاليا في حالة موت پومپي ثم بيتعد هو عن طغيان [قيصر] الي ابعد مسافة ممكنه ويعيش في المنفى. اما اذا نجا فانه سيعمل على تجميع الجيش له. وبهذا القرار رحل الي [كورچيرا] حيث الاسطول رأس واراد هناك ان ينزل [لشيشرون] عن القيادة بوصفه قنصلاً، وهو پريتور، فرفض شيشرون وأعلن اعتزامه العودة الي إيطاليا فأحتد عليه ابن [پومپي] وهم وهو في سورة من الغضب بمعاقبة كل من يزعم العودة. وبدأ بشيشرون فألقى القبض عليه. الا ان [كاتو] انفرد به وثناه عن عزمه وبهذا انقذ حياة

شيشرون فعلاً وانقذ آخرين من التنكيل وسوء المعاملة ورجح [كاتو] ان [پومپي] الأكبر هرب الى مصر افريقيا. فأصعد كل الرجال ظهر السفن واقلع يريد اللحاق به . وقبل ذلك خير أولئك الذين فقدوا حماسهم في الاستمرار بالقتال، وصرفهم. وبنزولهم ساحل افريقيا التقوا بـ[سكستوس] ابن [پومپي] الاوسط فانباءهم بمقتل ابيه في مصر. فاستبد بهم الحزن، وقالوا انهم لن يتبعوا بعد [پومپي] قائداً غير [كاتو]. فملكته العاطفة ازاء هذه الشهادة المخلصة التي قدمها جمهور من الشرفاء، ولم يسعه تركهم في بلاد بعيدة غريبة يجابهون المصاعب، الا اذا قبل العار على نفسه. وهكذا تولى القيادة وسار الى مدينة [كيريته Cyrene] فأستقبله سكانها دون تردد مع انهم أغلقوا ابوابها بوجه [لابينيوس] قبل مدة قليل. وهناك علم ان [سكيبيو] حمي [پومپي] قد اتفق مع الملك [جوبا Juba] وان [آتيوس فاروس At-tius Varus] الذي نصبه [پومپي] حاكماً لأفريقيا، قد التحق بهما مع قواته . فقرر [كاتو] ان يسير اليهم براً إذ كان الوقت شتاء . وجمع عدداً من الحمير لحمل الماء . وكدس مقادير كبيرة من الزاد والمؤن، وعدداً من العربات. وأخذ معه ايضاً عدداً من أولئك الذين يطلق عليهم اسم [پسيللي Psylli] وهم يبرئون الملدوغ بسم الأفعى عن طريق مص السم بافواههم كما امتازوا ايضاً بعملية سحر يستطيعون بها تنويم الافاعي وشل حركتها.

وساروا سبعة ايام متواصلة و[كاتو] كالعهد به دوماً يسير على قدميه متقدماً جنوده ولا يستعين بعربة او حصان. منذ معركة فرساليا وهو يعتمد الجلوس الى المائدة ولايستلقي. وهو مظهر آخر من مظاهر حداده، اذ لم يعد يستلقي الا في وقت النوم.

ومر الشتاء عليهم في افريقيا وسحب [كاتو] جيشه الذي كان يناهز العشرة آلاف. وساءت احوال [سكيبيو] و[مكروس] للغاية نتيجة لخلافاتها وشجارهما وخنوعهما وتزلفهما للملك [جوبا] الذي لا تطاق صلاته ولايحتمل زهوه بقوته وغناه. ففي اول مرة اجتمع به [كاتو] للمداولة، أمر بوضع كرسيه الخاص في الوسط بينه وبين سكيبيو. ولم يفت [كاتو] ذلك فنقل كرسيه الى جهة [سكيبيو] ومنحه شرف الجلوس في الوسط مع انهما خصمان، حيث سبق له ونشر عنه بعض الفضائح كتاباً. هناك أناس يعدون أمثال هذه المبادرة من التوافه، فينتقدون [كاتو] لأنه حريص عليها. فمرة كان يتمشى في صقلية مع [فيلوستراتوس Philostratus]. فأفسح له ليحتل المكان الأوسط اظهاراً لمبلغ احترامه الفلاسفة، ولاشك في انه حطم كبرياء [جوبا] الذي كان يعامل [سكيبيو] و[فاروس] معاملة زوج من حكام الاقاليم عنده، ونجح على اثر ذلك في احلال الوثام بينهما. وأخلى سكيبيو و[فاروس] الميدان له ليتراأس قيادة الجيش العامة بعد أن تحققوا من رغبة الجنود. لكنه أبى قائلاً انه لايريد الخروج عن القوانين

التي يدافع عن حرمتها. فهو حائز درجة الپريتور ولذلك لاحق له في القيادة بوجود الپروقتنصل (كان سكيبيو قد أختير پروقتنصلاً) أضف الى هذا ان الناس يتيمنون بوجود سكيبيو على رأس الجيش في افريقيا، فالأسم وحده يبيث في نفس الجنود نسائم الأمل ويغريهم بالنجاح.

فأضطلع [سكيبيو] بالقيادة، وبتحريض من [جوبا] قرر فوراً وضع السيف في رقاب أهالي [اوتيكا Vtica] جميعاً. وان يدك المدينة حتى يسويها بالقاع لأنها - حسبما زعموا - قد انحازت الى [قيصر]. فلم يوافق [كاتو] وراح يستصرخ الآلهة، ويستنكر ويحتج امام مجلس الحرب. ويصعوبة عظيمة انقذ أهالي المدينة المساكين من المصير القاسي الذي كان ينتظرهم، وانيط به حكم المدينة باقتراح سكيبيو وطلب الأهالي، خوفاً من وقوعها في يد [قيصر] لأنها كانت موقفاً عظيم المناعة ذات فائدة كبيرة لكل من الخصمين المتجارين. فزادها [كاتو] مناعة بتحكيما واختزان المؤن فيها. فقد جلب كميات كبيرة من القمح. واصلح الأسوار، وبنى الابراج وحفر خنادق عميقة وزرع حقولاً من الموانع والأسبيجة حولها. ووضع شبان المدينة في هذه الاستحكامات بعد تجريدهم من السلاح وابقى الأهالي فيها ويرحلهم ووفر الأمن لهم وحرص أن لايقع اعتداء او اهانة عليهم من الرومان. وراح يبعث فيها بكميات من السلاح والمال والمؤونة الى معسكر الجيش. ومجمل القول انه جعلها قاعدة تومونه الرئيسية.

ونصح [كاتو] و[سكيبيو]، كما نصح [پومپي] من قبله بأن لايتعجل المعركة قط وبأى شكل كان، مع رجل حلب من القتال اشطره وعجم عوده. و اشار عليه ان يستخدم خطة التأخير، لأن الزمن سيخضد بالتدريج من شوكة الأزمة وعنفها والعجالة هي القوة التي يعتمدها الغاضب. الا ان [سكيبيو] أهمل النصيحة عجباً واستكباراً وكتب له رسالة يصمه فيها بالجبن. ويقول له: حسبه ان يقعد آمناً مطمئناً خلف الاسوار ولايمنع غيره من استخدام اصالة تفكيره بجراءة لاهتبال الفرصة المواتية. فرد [كاتو] عليه بقوله: أنه سيقلع الى ايطاليا بالمشاة والخيالة التي انزلها في افريقيا، وهناك سيعمل على مشاغلة [قيصر] لابعاده عنهم. فسخر [سكيبيو] بهذا الاقتراح كذلك. فأسف [كاتو] على نزوله [لسكيبيو] عن القيادة، مدركاً انه لن يدير الحرب بتعقل وحكمة، وان هو نجح خلافاً لكل ما تدل عليه الظواهر، فإنه سيسبب استخدام هذا النجاح في الوطن، بقدر ما اساء القيادة هنا، لقد اقتنع [كاتو] وأعلم اعوانه بقناعته هذه. قال لهم ان أمله بهؤلاء القادة كاد يتلاشى. ان لديهم الشيء الكثير من الجسارة ولكنهم يفتقرون الى الأقل من الحصافة. مع هذا فان تحقق ما ليس في الحسبان، وهزم

[قيصر] فهو شخصياً لن يعود الى روما بل سيبتعد من قسوة [سكيبيو] وبربريته التي ظهرت بتوعده الكثيرين بأسوء المصير.

حصل ما توقعه [كاتو] بأسرع ما كان ينتظر. ففي ساعة متأخرة من الليل وصله رسول من المعسكر بعد قطعه مسافة ثلاثة أيام لينبئه بنشوب معركة عظيمة قرب ثايسوس وضياح كل شيء. واحتلال قيصر المعسكرات وهروب [سكيبيو] و[جوبا] مع فئات قليلة وتشتيت الجيش. وصلت هذه الانباء ليلاً، والبلاد في حالة حرب، فاقلقت أهالي المدينة واستبد بهم الرعب حتى كادوا يفقدون صوابهم. وصعبت السيطرة عليهم وارادوا الخروج. إلا أن [كاتو] برز اليهم في هذه الوقت العصيب. وواجههم بكلمات تهدئة مشجعة حتى قبض على ناصية الحال وسيطر على الموقف واسكن روعهم وبدو خوفهم قال لهم: من المحتمل جداً أن الأمور لم تسأ الى الحد الذي يتصورون وربما بالغت الانباء في وصف الحالة وساد الهدوء بصورة مؤقتة. وفي صباح اليوم التالي استدعى الثلاثمائة الذين جعلهم مجلس شوري له، وهم مواطنون رومانيون سكنوا افريقيا لممارسة الاعمال التجارية والصرافة. وكان ثم معه عدد من اعضاء مجلس الشيوخ واولادهم. وعقد الاجتماع في هيكل [جويترا]. وفيما هم يكتلمون، كان [كاتو] يتمشى بهدوء تام مستغرقاً بمطالعة كتاب كان لم يحصل شيء جديد وكان الكتاب سجلاً بحساب التجهيزات التي اعداها للحرب من أسلحة ودروع وقمح وذخيرة وجنود.

عندما كمل عقدهم توجه الى الثلاثمائة أولاً، فأشاد بشجاعتهم واخلصهم واثنى على خدماتهم الجليلة التي قدموها لوطنهم من اشخاصهم واموالهم ونصائحهم. ورجاهم أن لايتفرقوا مهما كانت الظروف، وان لايتوهموا بأن الفرد يسلم بتركه رفاقه، وانما العكس هو الصحيح، ان ظلوا متعاضدين متكاتفين فلن يدعوا لقيصر سبباً للزدرء بهم لو وقفوا ضده، كما سيكون أكثر استعداداً للعضو عنهم أن أعلنوا ولاءهم له. فهو لذلك ينصحهم بالتشاور فيما بينهم، وسيحترم اي قرار يتخذونه. فإن فضلوا الاستكانة لحكم الاقدار فسيعزو قرارهم وانقلابهم عليه الى حكم الضرورة. واذا قرروا الثبات معه في وجه الخطر دفاعاً عن الحرية فلن يكتفي بمدح شجاعتهم بل سيكون معجباً بها وقائداً ورفيقاً حتى يحققوا أقصى ما يمكن من السعادة لبلادهم التي هي ليست اوتيكا ولا [ادرمنتوم Adrumentum] وانما روما. فبعظمتها المأثورة، كثيراً ما خرجت سالمة من شر النكبات والخطوب. هذا فضلاً عن تمتعهم بكثير من اسباب السلامة. وفي مقدمتها انهم يحاربون شخصاً ترغمه مشاغله على الانتقال من موضع الى آخر. فقد رفعت اسبانيا علم الثورة بقيادة [يومبي] الأصغر. وروما نفسها مثل الحصان الجموح تأبى ان تسرج، انها والحالة هذه على أهبة الانتفاضة، حالما يطرأ على

الوضع اي تغيير. وأما عنهم، فليس باللائق بهم أن ينكصوا على أعقابهم في مواجهة الخطر. وعليهم ان يتخذوا من خصمهم عبرةً ومثالاً فهو يعرض للخطر لتحقيق شر النوايا وابعدها عن الحق ومع هذا فلأمل له بنهاية سعيدة كما هم يأملون. فبصرف النظر عن تقلبات الحرب ومفاجأتها، عليهم أن يطمئنوا من النتيجة فوزهم بأسعد حياة ان هم نجحوا واستظهروا، وعليهم ان يدركوا بأنهم سيموتون أشرف ميتة ان هم اخفقوا. ومهما يكن من أمر، فعلهم ان يتبادلوا وجهات النظر فيما بينهم ويصلوا الى قرار، وسيسشاركهم في الدعوة الى الآلهة لتبارك قرارهم الحاضر، تعويضاً عن شجاعتهم الماضية وخلوص نياتهم.

بثت اقوال [كاتو] في نفوس الكثير فيهم روح الاقدام وحركت مشاعرهم، وهزت اريحيتهم، حتى انهم نسوا الأخطار المحدقة بهم ورجوا منه أن يكون قائدهم الأوحده الذي يتحدى الاقدار ولايعرف للهزيمة معنى، وعرضوا انفسهم وسلاحهم واموالهم ليفعل بها ما يشاء. وقالوا انهم يفضلون ان يلاقوا حتوفهم باتباعهم نصحه، على أن تسلم لهم ارواحهم بغدرهم بشخص يتحلّى بمثل هذا الخلق العظيم. واقترح أحد الحاضرين اصدار قرار بتحرير العبيد. فلم يقبل [كاتو] لأن ذلك لايستقيم مع روح العدالة أو حكم القانون. امّا اذا اقدم المالك بملء اختياره على ذلك فانه سيرحب بضم كل لائق للخدمة من العبيد المحررين الى قواته. ووعده كثيرون بتنفيذ ذلك فدون الاسماء في السجل. وفي تلك الساعة وصلته رسائل من [جوبا] و[سكيبيو]. كان [جوبا] قد اعتصم بالجبال مع بعض رجاله منتظراً ما يقرره [كاتو] وهو ينوى انتظاره هناك اذا فضل مغادرة [اوتيكا]. أو ان يسير اليه لتجدته اذا ما حوصرت المدينة. وكان [سكيبيو] قد أصدع ما لديه من قوات الى السفن في موضع لايبعد كثيراً عن [اوتيكا] منتظراً الجواب من [كاتو] حول بعض المسائل. وارتأى [كاتو] ان يؤخر الرسل والردود الى أن يتخذ الثلاثمائة قراراً. اما الشيوخ الذين كانوا معه فقد اظهروا نخوة وشهامة عظيمتين، واعتقوا عبيدهم في الحال وسلحهم ولكن الحماسة التي بثها [كاتو] في نفوس الثلاثمائة لم تلبث طويلاً وأخذت تتهافت بعد ان تركهم. ولا غرابة، فهؤلاء رجال تجارة ومال، ومعظم ثروتهم في عبيدهم. وهناك اشياء ومواد تتقبل الحرارة بسرعة وتفقدتها بسرعة عندما ترفع النار عنها، هكذا التهب نفوس هؤلاء وارتفعت حرارة دمائهم بوجود [كاتو]، لكن ما ان أخذوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم بغيبابه حتى تغلب خوفهم من قيصر، على احترامهم [لكاتو] الفاضل وراحوا يتساءلون قائلين:

- من تكون نحن؟ ومن هو ذلك الذي نأبى الخضوع له؟ الا يمارس [قيصر] الآن كل سلطان روما ونفوذها؟ من منا سكيبيو، او كاتو او يومبي؟ في هذه الساحة عندما يفسح الناس

للخوف سبيلاً للتسلل الى كراماتهم وشرفهم، اينبغي لنا ان نقاتل في سبيل حرية روما. فنعلن ونحن في [اوتيكا] الحرب على [قيصر] ذلك الذين لم يستطع [كاتو] و[پومپي الأكبر] ان ينالا منه فتياً فهربا من ايطاليا؟ انحر العبيد، انطلقهم ضد [قيصر] وهو المتحكم في حرياتنا؟ كلا، ولنعرف أنفسنا جيداً نحن المساكين، ما علينا الا ان نوالي المنتصر ونرسل وفداً يطلب لنا الرحمة والغفران منه.

كان هذا رأي أكثرهم اعتدالاً الا ان الأغلبية ارتأت القاء القبض على الشيوخ والاحتفاظ بهم لقيصر تهدئة لغضبه. وكان [كاتو] يتوقع انقلابهم عليه لكنه لم يبدُ مهتماً. وكتب لجوبا وسكيبيو، يشير عليهم بان يظلوا بعيدين عن [اوتيكا] لأنه لا يثق بالثلاثمائة.

واتجهت نحو اوتيكا قوة كبيرة من الخيالة كانت قد نجحت من المعركة الأخيرة. وأرسلت قبل وصولها بثلاثة رسل الى [كاتو] يحمل كل واحد منهم رسالة مختلفة عن رسالة صاحبه. كانت فئة من هذه القوة ترى ان تلتحق بجوبا، وفئة تريد الانضمام الى [كاتو] وفئة تخشى دخول [اوتيكا] بعدما اصغى [كاتو] الى الرسل. امر [ماركوس ريبيريوس - Marcus Rubrius] بالذهاب الى الثلاثمائة لاستطلاع أمرهم وتدوين اسماء الذين أختاروا تحرير عبيدهم - سراً دون علمٍ منهم. ثم أخذ يرجوهم بالاً يتركوا هذا العدد الكبير من الشيوخ الرومان هنا. وان لا يختاروا [جوبا] قائداً، قيل [كاتو] بل ان يفكروا بالسلامة الجماعية وان يدخلوا المدينة المنبوعة الكثيرة المؤن. فالقمح فيها يكفيهم عدة سنين، كذلك توسل الشيوخ بهم للبقاء. وعاد الضباط الى جنودهم للمشاورة. وجلس [كاتو] والشيوخ على قدميات الأسوار ينتظرون القرار. وفي عين الوقت أقبل [روبيروس] مسرعاً وعليه علامات الاضطراب العظيم. وقال أن الثلاثمائة قد اشغلوا نار الفتنة في المدينة وهم يحرضون الأهالي على الثورة واحداث الشغب، فخيم اليأس على الحاضرين وأخذوا يبكون حالهم. وحاول [كاتو] التسرية عنهم. وبعث الى الثلاثمائة يطلب منهم ان يتذرعوا بالصبر، وعاد الضباط اليه بطلبات غير معقولة قالوا انهم لا يرغبون في الخدمة تحت أمرة [جوبا] للأجر الذي يدفعه لهم. وانهم لا يرهبون قيصر اذا ما التحقوا [بكاتو] لكنهم يخشون ان يحصروا داخل المدينة بين الاوتيكين وهم مطبوعون على الخيانة والغدر، ومن دم قرطاجني. هم الآن هادئون مسالمون ولكنهم سيتآمرون بلاشك ويخونون الرومان حال اقتراب [قيصر]. وان كان [كاتو] يرجو ان يلتحقوا به ويعملوا تحت امرته، فما عليه الا ان يخرج من المدينة، أو ان يقضي على الاوتيكين. حتى يخلو الموضع من العدو والبرابرة. ووجد [كاتو] في مقترحاتهم قسوة وبربرية لا يطيقها. فأجابهم بلطف انه سيشاور الثلاثمائة بالأمر. وعاد الى المدينة فوجد الرجال لا يخلتقون اعدارا، ولا يتظاهرون

بالمسكنة والذلة كما كانوا يفعلون سابقاً احتراماً له. بل أخذوا يصرحون على رؤوس الاشهاد بأنهم عازفون عن قتال [قيصر]، انهم عاجزون ضعفاء ولا أحد يرغمهم على مالا قبل لهم به. وأطلق بعضهم آراء حول القبض على الشيوخ وتسليمهم لقيصر. وتغافل [كاتو] وكأنه لا يسمع، وكان في الواقع نقبل السمع نوعاً ما. وفي عين الوقت أقبل أحدهم ليخبره بأن قوة الخيالة قد رحلت. فخوفاً من أقدام الثلاثمائة على اتخاذ قرار ضد الشيوخ خرج حالاً مع عدد من اصدقائه فوجد الخيالة قد ابتعدت مسافة، فأمر بالخييل وانطلق وراءهم مسرعاً. وعندما راؤه قادماً كثيراً واستقبلوه بكل مودة وطلبوا منه انقاذ نفسه معهم. قيل ان [كاتو] بكى في تلك اللحظة وأخذ يستعطفهم لأجل الشيوخ ومد اليهم يديه ضارعاً، والوى عنان بعض خيولهم، وامسك باسلحة راكبيها الى أن أفلح في تحريك عواطفهم ونجح في حملهم على البقاء يوماً واحداً فقط لتأمين اخراج الشيوخ وتسفيرهم. فعادوا ووزعهم على المواقع. بعضهم اناط به حراسة المداخل. وبعضهم او كل اليه احتلال الحصن وهكذا... فبدأ الخوف يتسرب الى قلوب الثلاثمائة، لئلا يلقوا الجزاء على تغلب رأيهم فبعثوا يطلبون مقابلة [كاتو]. الا ان الشيوخ أحاطوا به وحالوا بينه وبين الذهاب اليهم قائلين انهم لن يأمنوا على حاميتهم ومنقذهم من الوقوع في ايدي خونة غدارين.

لم يظهر سمو خلق [كاتو] كما ظهر الآن. كل طبقة من الناس في اوتيكا تبينت بأسف وأعجاب خلواً ما يفعله من أية دوافع خاصة أو مصلحة شخصية. هذا الذي قرر ان يضع حداً لحياته. لا يبذل اعظم الجهودات ويشقى ويكدح الا في سبيل الآخرين، يضمن حياة الآخرين ثم يقوم بانهاء حياته. اذ كان من السهل عليهم ان يتبينوا انه قرر الموت ولو لم يفصح عن نيته.

بعد ان هدأ من روع الشيوخ، ووافق على مقابلة الثلاثمائة فشكروه بحرارة وطلبوا منه ان يستخدمهم ويثق بهم. ومع انه لا وجه شبه بينهم وبين [كاتو] ولا يستطيعون التحليق الى عظمة فكره فهم يريدون منه أن يرحم ضعفهم. وقالوا ايضاً: انهم قرروا ان يتصلوا [بقيصر] ويرجوا منه قبل كل شيء العفو عن [كاتو] فان اخفقوا في مسعاهم فسيرفضون عفوهم عنهم. وسيقاتلون دفاعاً عنه مادام فيهم نفس يتردد. فشكر لهم [كاتو] حسن نواياهم ونصحهم بتأمين سلامتهم بأسرع ما يمكن. وان لا يتشفعوا له بتاتاً فالمغلوبون يتوسلون، والمخطفون يطلبون الصفح، أما هو فما اعترف بالهزيمة طوال حياته، بل كان يحرز نصره كلما وجد ذلك مناسباً. ولقد هزم قيصر في كل نزال يتعلق بمبادئ الحق والعدالة [فقيصر] المغلوب وليس هو. لقد ادين وحكم بجريمة نواياه السيئة ضد بلاده، ظل يعمل لها دون انقطاع، وظل ينكرها

باستمرار. وبعد ذلك خرج، وعندما انبىء بتقدم [قيصر] على رأس جيشه قال:

- آه، انه يتوقع ان يجدنا رجالاً شجعاناً.

ثم قصد الشيوخ والحّ عليهم بالآيتأخروا عن الرحيل وان يستعجلوا ما دامت الخيالة في المدينة. وأمر باغلاق جميع الأبواب الآبأً واحداً يواجه البحر وخصص ما لديه من السفن للراجلين وزود بالمال والقوت من هو في حاجة، وتم ذلك بغاية من الضبط والدقة والتأهب لقمح كل شعب، وعدم الاعتداء على الأهالي.

ووصل [ماركوس اوكتافيوس Marcus Octavius] على رأس فرقتين من العسكر وضرب معسكره بالقرب من [اوتيكا] وارسل يسأل [كاتو] عن رأيه في أسناد القيادة العامة فلم يجبه [كاتو] وانما قال لاصدقائه:

- ايقن لنا بعد هذا ان نعجب لما أصابنا من الفشل، حينما يظلّ حننا بالمناصب باقياً ونحن نشرف على الدمار التام.

في الوقت نفسه، انبىء بالخيلة تتأهب للرحيل وانها تنهب مقتنيات الأهالي فهرع [كاتو] اليهم وانتزع ما في يد اول من صادفه والقى الآخرون عنهم ما نهيوه وخرجوا صامتين خجلين. ثم جمع كل أهالي [اوتيكا] موصياً خيراً بالثلاثمائة راجياً منهم الآيثيروا فقد قيصر عليهم بل عليهم ان يتدبروا أمر سلامتهم جميعاً. وبعد هذا ذهب الى الميناء لرؤية الراحلين. وعانق اصدقاءه ومعارفه وودعهم. ولم يشر على ابنه بالرحيل ولم يجد من المناسب اقناعه بترك ابيه. الآ ان هناك شخصاً يدعى [ستاتيلليوس Statyllius] وهو شاب في زهرة العمر ذو روح وثابة، شديد الولوع بالاعتداء [بكاتو] والتشبهه باخلاقه. طلب منه ان يرحل لأنه عدو لدود لقيصر، فلم يفلح معه، فالتفت الى [اپولونيوس] الفيلسوف الرواقي وديمثريوس الفيلسوف المشائي Peripatatie. وقال لهما:

- تقع عليكما مهمة اطفاء حمى روح هذا الشاب وتعريفه بالصالح له.

وامضى الليل ومعظم النهار في ترحيل اصدقائه وقضاء حاجات المراجعين له.

عُين [لوشيسوس Lucius Caesor] احد اقرباء [قيصر] مندوباً لمفاوضة الثلاثمائة. فجاء الى [كاتو] وطلب منه ان يلقي خطبة بالثلاثمائة لأقناعهم وأضاف يقول:

- واما عنك، فسيشرفني ان التم ايدي قيصر واخرّ على قدميه مستشفعاً لك.

فلم يسمح له [كاتو] ان يقدم على عمل كهذا باية حال واجابه:

- لو شئت المحافظة على حياتي بفضل من [قيصر] لذهبت اليه انا بنفسي. الآ اني لا اريد ان أكون مديناً بفضل لطاغية جراً أعماله طغياته. ان انقاذه ارواح أولئك الذين لاحق له في حكمهم، كأنه سيدهم الشرعي، هو محض اغتصاب... ولكن دعنا نبحت اذا اسمحت في خير ما يمكن قوله عن الثلاثمائة.

وتحادثا فترة من الوقت وعندما ازمع [لوشيسوس] الرحيل اوصاه [كاتو] باينه وبيقية اصدقائه وشدّ على يديه مودعاً. ثم عاد الى منزله ودعا ابنه واصدقاؤه فتحدثوا في مختلف المواضيع. وحظر على ابنه العمل السياسي، لأنه متعذر الآ بالشكل الصحيح اللاتق، وبغير هذا الشكل يكون مخرلاً بالشرف. وعند المساء دخل الحمام وفيما هو يغتسل تذكر [ستاتيلليوس] فنادى بصوت مرتفع:

- اپولونيوس! هل روضت روح [ستاتيلليوس] الجموح. هل ذهب دون ان يودعنا؟

فأجاب [اپولونيوس]:

- كلاً. لقد تكلمت معه كثيراً فلم أفلح. انه مصمم، ويقول انه قررّ الاقتداء بك.

وقيل لنا - ان كاتو ابتسم وأجاب:

- هذا ما سيثبته عما قريب.

بعد خروجه من الحمام ذهب للعشاء برفقة عدد كبير من اصحابه فجلس الى المائدة منتصباً كما أعتاد منذ معركة [فرساليا] فقد حرم على نفسه الاستلقاء على ظهره الآ عندما ينام، ونعشى معه جميع اصحابه وكل حكام [اوتيكا].

وتسببت الخمر في اثاره احاديث ممتعة. فبحث قضايا فلسفية عديدة، وامتد بهم الحوار الى عقائد الرواقيين الغربية المسماة بالمتناقضات وتركز في هذا مبدأ: ان الرجل الصالح هو حرّ وحده. وكل الاشرار هم عبيد. وانبرى الفيلسوف المشائي يعارض القول كما هو متوقع. فأنقضّ عليه [كاتو] وناقشه بحرارة. وارتفع صوته بعض الشيء وحاول باسهاب وكان اثباته النقطة، مشفوعاً بحماسة، ادرك الجميع منها انه قررّ وضع حدّ لحياته واطلاق روحه من جسده. فران سكون عميق وغشيت الكآبة الجميع. ولتبيد اي شكّ في نيته عمد الى قلب المناقشة متحولاً الى موضوع آخر فراح يتكلم عن امور الساعة، مبدياً قلقه على من هم الآ في عرض البحر، وايضاً على الآخريين المسافرين براً مجتازين صحراء قاحلة ما حلة.

وعندما تفرقت الجماعة، راح يتمشى مع اصدقائه كما هي عادته بعد العشاء. واصدر الأوامر الضرورية الى ضباط الخفر ثم دلف الى هجرته، وهناك عانق ابنه وكل صديق له



وبحرارة أكثر من المعتاد، مما جدد شكهم في نيته على الموت. وبعدها صرفهم واستلقى وتناول كتاب محاوراة افلاطون [حول الروح] وبعد ان قرأ أكثر من نصف الكتاب. رفع نظره فلم يجد سيفه (كان ابنه قد أخذه عند تناول العشاء) فنادى خادمه وسأله عن أخذ السيف، ولما يجب الخادم استأنف القراءة. وبعد قليل طلب السيف بلهجة تعمد فيها ألا يبده ملحقاً أو مستعجلاً، بل يريد ان يعرف اين هو فحسب. وانتظر برهة انهى خلالها قراءة الكتاب فلم يجلب له السيف. فنادى خدامه وطلب احضار السيف بصوت أعلى من الأول، وسدد الى فم احدهم لكلمة قوية رضت يده وزاد غضبه وأخذ يصيح ان ابنه وخدمه غدروا به واسلموه الى العدو وهو اعزل. فأسرع ابنه واصدقاؤه الى الغرفة مهرولين وسقطوا على قدميه واخذوا يبكون ويضرعون اليه. فرفع نفسه عن الفراش ونظر نظرة صاعقة وقال:

- متى؟ بل كيف اصبحت سلب العقل، مريض الرأي بحيث لا يحاول أحدٌ محاجتي بالعقل والبرهان، أو ان يبين لي ما هو الأحسن ان كان يراني طائشاً؟ ايحتتم أن اجرد من السلاح، وأمنع عن استخدام عقلي؟ وانت أيها الشاب لماذا لا تربط يدي ابيك وراء ظهره. حتى اذا جاء قيصر وجده عاجزاً عن الدفاع؟ ليس السيف ضرورياً أن شئت القضاء على حياتي. وما عليّ الا ان احبس انفاسي برهة من الزمن. أو أن اشبح رأسي في الجدار.

بعد هذا، خرج ابنه وهو يبكي وتبعه الباقون عدا ديمتريوس واپولونيوس وكان أكثر هدوءاً في حديثه معهما اذ قال متسائلاً:

- وانتما؟ أتريان ايضاً ان تبقياً رجلاً في مثل سني حياً بالقوة وتجلسان تنظران الي صامتين؟ أم هل تدليان بجمع تثبت لي ان طلب [كاتو] السلامة من العدو عندما تغلق امامه الابواب الأخرى، هو خليك به، وليس من الحطة في شيء؟ ان كان الأمر كذلك، فبرهنا اننا بفضل قيصر ومساعدته سنكون أحكم عقلاً وأكثر امتناناً له من ابقائه على حياتنا فحسب برفضنا كل المبادئ التي تشربتها ارواحنا. أقول هذا لا لأني صممت على الفناء والعدم بالنسبة لذاتي، لكنني سأنقذ ما أراه مناسباً من القرارات، بعد ان أجعل ذلك في حدود سلطاني، ولن امتنع عن اتخاذ كما مشاورين بالرجوع الى كل المبادئ التي تبشر به فلسفاتكما، واني لفاعل، وفي الوقت نفسه ارجو ان لاتزعجا نفسيكما واذهبا قولاً لابني بأنه لن يرغم اباه على ما لا يستطيع اقناعه به.

فلم يرداً عليه بشيء بل خرجا باكيين. وجاءه صبي بسيفه، فاستله من العمد ونظر اليه. وفحص ذبابته فوجدتها جيدة، فقال:

- والآن. انا سيّد نفسي.

والقى بالسيف جانباً وتناول كتابه ثانية فأنهائه مرة أخرى على ما قيل. وبعدها نام نوماً عميقاً وسمع شخيرة في الخارج. وفي حدود نصف الليل نادى اثنين من معتوقيه: [كلينشس Cleanthes] وطيبيه [بوتاس Butas] الذي كان يستخدمه في الاعمال المختلفة، فأرسل ثانيهما الى الميناء ليتأكد من ابحار كل اصدقائه. ومد يده الى طيبيه ليعالجهما بعد ان انتفتخ من اثر اللكمة. فشاع الفرح في نفوس الجميع اذ خيل لهم انه عدل عن الموت.

عاد [بوتاس] بعد فترة وانبأه برحيل الجميع ما عدا [كراسوس] الذي تأخر لعمل. الا أنه يهّم الآن بالابحار. وقال ايضاً ان الريح عالية والبحر هائج جداً. وصدرت من [كاتو] حسرة أليمة تفجعاً على المبحرين. وبعث [بوتاس] مرة أخرى ليرى هل عاد أحد منهم ليأخذ شيئاً كان قد نسيه؟ وطلب منه ان يأتيه بالخبر.

وبدأت الطيور تصدح باغاريدها. فأخذته سنة من النوم. أخيراً أقبل [بوتاس] واخبره ان كل شيء هاديء في الميناء. فاستلقى [كاتو] كأنه يريد استئناف غفوته، وطلب منه ان يغلق الباب بعد خروجه. لكن ما ان خرج هذا حتى تناول سيفه ودفنه في صدره. الا أنه لم يقو على تسديد طعنة نجلاء لورم يده، فلم يمت في الحال. وسقط عن السرير وهو يتخبط وهوت معه منضدة حسابية صغيرة كانت قريبة منه فصدر دويّ صاح له الخدم واسرع ابنه والخدم الى غرفته في الحال. فوجدوه يتشطح بدمه وقد خرج جزء كبير من احشائه وهو ما زال حياً يتطلع اليهم. وقفوا وقد أخذت منهم الرهبة مأخذها. وتقدم منه الطبيب وهم يدفع امعائه الى الداخل وكانت سالمة لم يمزقها حدّ السيف، وحاول خياطة الجرح. الا ان [كاتو] الذي استرد وعيه وفهم نية الطبيب دفعه الى الورا وبترا امعائه بيده وفتح الجرح فلفظ انفاسه الأخيرة.

وفي وقت أقل مما يصل خبر الموت الى اسرة مفجوعة. كان الثلاثمائة، يقفون ببابه. وبعد قليل اجتمعت حشود أهالي [اوتيكا] وعلا الصراخ والعيويل. كان فتقددهم حقاً، وكان حاميههم. الرجال الحرّ الوحيد الذي لم يذق طعم الهزيمة.

في هذه الساعة بلغتهم انباء اقترب [قيصر] فلم يصرفهم عن اداء التكريم [لكاتو] خوفهم من الخطر المائل ولا الرغبة في تملق الفاتح ولا التنازع والخلف فيما بينهم. واخرجوا جثمانه بموكب مهيب وشيعوه تشييعاً فخماً ودفنوه على ساحل البحر حيث يقوم الآن تمثاله وهو قابض على سيف. وبعد ذلك عادوا ليفكروا بسلامتهم وسلامة مدينتهم.

أبلغ [قيصر] بأن [كاتو] بقي في [اوتيكا] دون شعور بقلق ولم يحاول الفرار. وانه أخلى

[بروتوس] قاتل [قيصر]. وكانت مطلعة على المؤامرة ضدهً وانتهت حياتها بالشكل الذي يليق باخلاقها واسرتها. وهو ما سيرد تفصيله في حياة [بروتوس].

اما [ستاتيلوس] الذي أصرَّ على الاقتداء بأعمال [كاتو] فقد حال الفيلسوفان بينه وبين القضاء على حياته في حينه وبعدها انضمَّ الى بروتوس وكان له نعم الصديق المخلص النافع. وخرَّ صريعاً في معركة فيليبيا!

١٩٧٢/١/١٩



أبولو

من معه من الرومان وبقي مع ابنه وعدد من اصحابه فوقع في حيرة وأعمل الفكر ليتحسَّس نوايا [كاتو]. وكان عظيم التقدير لكفاءاته فقرر الزحف عليه بكل جيشه . وعندما سمع بموته - قيل انه نطق بهذه العبارة:

- اي كاتو! اني أنكر عليك موتك. مثلما أنكرت عليّ حفظ حياتك!

والحق يقال لو ان [كاتو] تحمل منّة قيصر والابقاء على حياته لما كان في ذلك منقصة له، ولا ثلم لشرفه كما هو يرفع من مجد قيصر. ونحن بطبيعة الحال لانستطيع التكهن بما كان سيحصل، لكننا نخمن ان جاز لنا - من طبع قيصر الرؤوف.

مات كاتو وله ثمان واربعون سنة من العمر، ولم يتعرض [قيصر] لابنه بسوء. ولكن قيل لنا ان هذا الابن شبَّ عاطلاً متسكعاً. وعرف باسرافه في معاشره النساء، مكث في كيكودوكيا ضيفاً على [مارافاداتس Maraphadates] أحد اعضاء الأسرة المالكة، وزوجه الفاتكة الجمال - فأطال المكث في المنزل أكثر مما ينبغي. وجعل نفسه موضوعاً لمختلف القصائد نورد منها الأمثلة التالية:

غداً - وهو اليوم الثالث عشر.

سيرحل [كاتو] على أغلب الظن.

و

پورشيبوس<sup>(٢)</sup> ومارفاداتس صديقان حميمان

و«روح» واحد تكفيهما على ما يقال.

و«روح» هو اسم زوج [مارفاداتس]. و

الكلّ يعترف بعظمة [كاتو]

انه ليحمل «روحا» ملكية بالتأكيد!

لكن كلّ هذه الوصمات مسحت تماماً ببسالة ميته. ففي معركة [فيليبيا] قاتل في سبيل حرية بلاده ضدّ [قيصر وانطوني]. وعندما انكسر الصفّ. أبت نفسه الفرار والنجاة. واستنكف ان يبقى اسمه مجهولاً من العدو. فأظهر نفسه وكشف عن هويته في الجبهة الأمامية. وراح يحمس [الآخرين ويحثهم على القتال. حتى سقط قتيلاً، تاركاً اعداءه ممثلين اعجاباً ببسالته. ولم تكن بنت [كاتو] بأقل أنفة وشرفاً من باقي افراد أسرتها. تزوجت

(١) اسم [كاتو] الابن.

آغيس

**AGIS**

224 - 241

كذلك على أولئك الحكام والساسة ان يجيبوا الناس:

- لا أستطيع أن أحكم واطيعكم في آن واحد.

وما يحصل للدولة ان جرى الأمر خلاف ذلك، مثله مثل ما حصل لتلك الأفعى التي تقول الاسطورة عنها أن ذيلها ترمّد على رأسها وشكا من انه يلقي عنناً كبيراً بارغامه على ان يظل تابعاً للرأس. وطلب أن يحل محل الرأس في القيادة، فتم له ذلك. فما لبث ان لحق به كثير من الأذى فقد سار على غير هدى وشجّ الرأس واصابه بجراح كثيرة. فقد عاكس الطبيعة، واصبح الرأس يتبع دليلاً أعمى أصمّ. كذلك نجد عاقبة الكثيرين الذين يستلمون لميول الجماهير الطائشة غير الهادفة او الموحدّة. انهم لا يستطيعون ان يتوقفوا من جهة، ولا يستطيعون انقاذ أنفسهم من المصير المحزن المحتوم.

هذا ما عنّ لنا ذكره عن ذلك المجد الذي يعتمد على هتاف الجمهور نجد آثاره المؤسفة في مصيري [كايوس وطيبيريوس گراخوس Caius, Teberais Graechus] الأخوين النبيليّ الخلق اللذين صقلت طباعهما السححاء بأحسن التربية والتهديب وتسنما الحكم يحدوها أشرف النوايا واجدها بالثناء، مع هذا فقد ذهبت ربحهما، لا أقول بعامل الرغبة الجامحة في المجد، بل بعامل الخوف من العار الأكثر أعتفاراً من الأول. فلأنهما كانا محبوبين لدى الشعب وموضع ثقته، وجد في العار عليهما ان لا يدفعوا الثمن كاملاً. لقد حاولا باصلاحاتهما القانونية الجديدة ان يتفوقا على كل ما حازه من شرف ومجد، فحققنا ذلك بينهما المزيد من الشرف والشهرة، فاتقدت حماستهما وحماسة الشعب وأخذ الجانبان يتنافسان في الامجاد والمصالح. فوصلا بالأخير الى سبيل مغلق، بحيث اصبح الاصطدام فيما بينهما، حماقة، والتراجع عاراً وهذا ما سينتج القاريء مما سأقصه. واني سأقارنهما الآن باثنين من القادة اللقديميين الشعبيين هما الملكان آغيس وكليونيتس فلأنهما كانا أيضاً من المغرمين باثارة الجماهير، يجاهدان لاعادة نظام الحكم والحياة النبيل الذي ضاع في زوايا النسيان منذ امد بعيد فكرهما الأغنياء والمتنفذون الذين صعب عليهم ان يجرّدوا من استمتاعهم الأثاني الذي اعتادوه. لم يكن هذا الملكان أخوين لحماً ودماً، كزميليهما الرومانيين. لكن يلاحظ فيهما لون من التشابه الأخوي في أعمالهما ومقاصدهما التي تبدت في تمهيدات ومناسبات سأفصلها الآن:

عندما عاد حبّ الذهب والفضة يتملك نفوس سكان الجمهورية اللقديمية ساد البخل والحرص وحنة النفس في جمع المال. والترف والاسراف والخنوثة في انفاقه. فهوت سبارطة من المكانة العالية التي كانت تحتلها. واوذيت سمعتها وفصائلها. واستمرت احوالها في تدهور حتى ايام

زعم السذج والبسطاء ان أسطورة [أكسيون] التي عانقت السحابة بدلاً من [جونوا] فولدت السنطير - هي اسطورة اخترعت اختراعاً لتمثيل حالة الطموح في البشر. أولئك الذين انشغلت عقولهم باطلاع المجد وهو محض صورة من صور الفضيلة، فلم يحققوا اثراً أصيلاً ولا منتظماً، بل حصلوا على نتائج مشوهة غير طبيعية (كما هو متوقع من مثل هذا الاتصال الألهي). وبركضهم وراء عواطفهم وتنافسهم وبانسياقهم بحوافزهم الآنية لهم اشبه بأولئك الرعاة في تراجيديا سوفوكليس القائلين:

اننا نتبع هذه السائمة، مع انها تحمل اسيادها الشرعيين وهي تقودنا، مع انها بكما.

في الواقع هذا هو الوضع الحقيقي الذي تجد عليه المشتغلين في الشؤون العامة. ففي جريهم وراء القاب فارغة: كقادة وحكام... يرتضون لأنفسهم منزلة العبيد، والاتباع لأهواء الناس ونزواتهم، وهم في ذلك مثل رقباء السفينة، يقفون في قيودها ويمتد نظرهم ابعده من الملاحين المسكين بالدقة. الا انهم لا يسعهم إلا ردّ انظارهم الى اولئك الملاحين واطاعة اوامرهم. هؤلاء الرجال يوجههم هتاف الجماهير وتصفيقهم - ان جاز لي القول - وان كانوا يسمون حكماً هم في الحقيقة مجرد اتباع للجمهور. الرجل الذي كمل عقله، وسمت فضائله لا حاجة له بالمجد والشهرة إلا بقدر ما يعبدان طريقه ويمهدانه للثقة الكبيرة التي يوفرانها له. وليس ثم محذور في ان يسمح للشباب وهو الراغب في الشهرة - ان يفخر باعماله الطيبة بعض الفخر. اذ ان فضائله (على حدّ قول ثيوفراستوس) التي ما زالت بعد غصّة الإهاب، لم تخرج من شطئنها، تتوقد الى الثناء و تتقوى به فتتفد جذورها الى الأعماق. لكن عندما يغلب الافراط على هذه العاطفة، فانها تغدو خطرة جداً عند كل البشر. وهي مخربة ومرة عند الحكام. فالنفود العظيم والسلطان الواسع ينقل المرء الى حالة من حالات الجنون فلا يعود يفكر بالصالح المجيد، ولكنه يعد كل عمل صالحاً طالما هو مجيد. وكما أجاب [فوكيون]، الملك [انتباطر] الذي طلب منه الاقدام من عمل لا يشرفه:

- لا أستطيع ان أكون متزلفاً لك وصديقاً في آن واحد.

[أغيس وليونيداس] الملكان اللذان حكماً اللقيديين في وقت واحد.

انحدر [أغيس] من أسرة [يوريبون Eurypon] الملكية وهو ابن [ايوداميداس Eudami-das] سادس جيلٍ منحدر من صلب [أغيسلاوس] صاحب الحملة العسكرية على آسيا، الذي كان أعظم رجال زمانه بين الأغريق. خلف أغيسلاوس ابناً يدعى [ارخيداموس] الذي قتله الماسبيون Masspains في [ماندونيوم Mandonium] بايطاليا. فخلفه ابنه البكر [أغيس] ولما قتل هذا بيد [انتيباطر] قرب ميغالوبوليس دون ان يعقب؛ خلفه اخوه [يوداميداس] واعقبه ابنه [ارخيداموس]، والذي اعقبه [يوداميداس] ثالث وهو والد أغيس الذي نترجم له سيرته الآن.

[ليونيداس] ابن [كليونيوموس Cleonymus] كان من الأسرة الملكية الثانية [أغيايدي Agiadæ] وهو الثامن المنحدر من صلب [پاوسانياس] الذي قهر [ماردونوس Mardon-ius] في معركة [پلاتيا Plataea]. وأعقب [پارسانياس] ابنه [بليستسوناكس واعقبه پاوسانياس ثانٍ، نُفي وعاش عيش النكرات المقمورين في [تيجيا Tegea] ونصب بدلاً عنه ابنه [اغيسسيپوليس Agesipolis] ومات هذا دون عقبٍ فخلفه أخ له اصغر منه يدعى [كليومبروتوس] وترك هذا ابنين أكبرهما أغيسسيپوليس] الذي لم يلبث طويلاً على العرش وتوفي دون عقبٍ فخلفه اخوه الأصغر [كليومينس] الذي رزق بابنين هما: [اكروتاتوس Acrotatus] وكليومنيوس. أولهما توفي قبل ابيه. الا انه خلف ابناً يدعى [آربوس Areus] الذي خلف جده في الحكم، وقتل في كورنث، فترك العرش لابنه [اكروتاتس] الذي هزم وقتل بالقرب من ميغالوبوليس في معركة مع طاغيثها [ارسطوديموس Aristodemus] وترك امرأة حبلى. فنصب [ليونيداس] ابن [كليونيوموس] المذكور آنفاً، وصياً. ولما مات الملك الصغير قبل ان يبلغ أشده، فقد خلفه على العرش.

لم يكن [ليونيداس] بالملك الصالح لشعبه قط. فمع الانحطاط الخلقي والاجتماعي الذي ساد اسبارته آنذاك، وجد فيه صدود عن العادات والشرائع القديمة يزيد كثيراً عما لدى غيره. ولاغرو فقد عاش ردياً طويلاً من الزمن بين سادة الفرس العظام، وكان من حاشية الملك [سلوقوس]، فركب متن الشطط والطيش، وعمد الى تبني تلك العظمة والفخفة التي تعيشها تلك القصور الملكية في النظام الاجتماعي الأغرقي، واتخذ عين الأساليب في الحكم. وكان [أغيس] زميله في الملك - على درجة عظيمة من سمو الفكر وجمال الطبع لم يتفوق بها على [ليونيداس] وحده بل على كل الملوك الذين سبقوه منذ عهد [أغيسلاوس] الأكبر. لقد مترفاً منعماً في احضان امه [أغيسستراتا Agisistrata] وجدته [ارخيداميا Ar-

chidamia] وكانت اغنى اغنياء اللقيديين. وقبل ان يبلغ [أغيس] العشرين من عمره، نبذ كل المتع الدنيوية، وابتعد بأقصى ما يمكنه عن المذات والمظاهر الفخمة التي تبدو مناسبة لجماله. وراح يختال معتزلاً بالمعطف الاسبارطي الحشن، ويتبع النظم اللاقونية القديمة في طعامه واغتساله وتماينه. وكثيراً ما كان يردد: انه لا يريد ان يجعل من الملك غاية، بل وسيلة تمكنه من احلال النظم والأساليب الاجتماعية التي كانت تسود البلاد في الماضي.

قد يصح ان يؤرخ اللقيدييون بداية انحطاطهم وتحللهم الخلقي بعد فتحهم آثينا مباشرة، وعلى أثر تدفق الذهب والفضة الذي أعقب ذلك. مع هذا فان عدد البيوت التي اثبتها ليكورغوس مازالت على حاله. كذلك القانون الذي أوجب على المورث ان يختلف لابنه كل ما لديه من مالٍ وارضٍ. وكان هذا يحقق نوعاً من الضبط والعدالة يسند الدولة الى حدٍ ما، وهي متخبطة في أمورها الأخرى. لكن [ايبستادايوس Epitadus] الايفور ذا النفوذ الكبير والطبع العنيف والروح الحاقدة، اراد ان يشفى غليله من ابنه العاق الذي كان مختلفاً معه فأقترح قانوناً، يمنح الجميع حرية التصرف بأراضيهم عن طريق الهبة، في حال حياتهم او بالوصية بعد موتهم دون اعتبارٍ للوارث فتتمت الموافقة عليه بدافع الانانية. وقدر لهذا القانون ان يلحق الدمار بأفضل دول الكومنولث نظاماً. اذ عمد الاغنياء بدون تحرج الى التصرف بعقارهم دون اعتبارٍ لورثتهم الشرعيين.

وبهذا تركزت الثروة في يد القلة وباتت الأغلبية معدمة لامتلك شيئاً. وأهملت المقاصيد النبيلة ولم يعد لها مكان في المجتمع الجديد. وساد الدولة حطة وغلب على شؤونها عقد الاغنياء وحسداهم، ولم يعد باقيا من الاسر السبارطية الأصلية أكثر من سبعمائة منها مائة فقط تملك الأراضي. والباقية فقدت الأرض والمنزلة الاجتماعية وغلب شعور العجز والعزوف عن الدفاع عند البلاد ضد اعدائها الخارجين وراح الجميع ينتظر بفروغ صبر بارقة تشير الى انقلاب او ثورة داخلية.

وجد [أغيس] ان اشرف ما ينبغي عمله هو اشاعة المساواة في البلاد وزيادة نفوسها بالتوطين. وكان في الواقع مصيباً في حدسه، فبدأ يستطلع آراء مواطنيه في ذلك. فوجد اللهفة والرغبة عن الشباب فوقما كان يتوقع، كانوا متحمسين الى مباراته في ميدان الخير والصلاح وفي سبيل الحرية كانوا على اتم الاستعداد لنبذ ما تخلقوا به وعاش فيه أكثر من استعداد المصارع لنزع ثيابه، أمّا كبار السن الذين تعودوا الترف وسائر الرذائل، وكانوا أكثر من غيرهم تشبهاً بتلك الحياة فقد كان مجرد اسم [ليكورغوس] يسلمهم الى القلق والخوف، مثلهم في ذلك مثل العبد الأبق الذي يقاد الى مولاه. لم يسع هؤلاء ان يسمعوا [أغيس]

منتقداً الحالة المؤسفة التي آلت اليها سبارطة و متمنياً أن يستعيد مجدها السالف. ولكن [ليساندر] ابن [ليبيس LIBYS] و [ماندروكليداس Manroclidas] ابن [اكفانس Ec-phanes] و [أغيسيلوس] لك يكتفوا بالموافقة و إنما شجعوا و مدوا له يد العون. كان [ليساندر] حائزاً ثقة شعبية تامة وله نفوذه الكبير على الناس، و يعد [ماندروكليداس] أكفأ الاغريق في الادارة و التنظيم الى جانب الحذق و الدهاء و الجرأة و الإقدام و أغيسيلوس خال الملك، هو خطيب منوه، إلا أنه جشع شهواني لا تأثير للمصلحة العامة على ضميره، و يظهر ان الفضل لحمله على هذا التشجيع يعود الى ابنه [هيپوميدون Hippomedon] الذي أهله بسالته و أعماله الفريدة، لاحتلال مكانة رفيعة، و كسب نفوذ كبير لدى شبان [سبارطه]. اما الدوافع الحقيقية التي حملت أغيسيلوس على ممالأة آغيس فهي انه كان غارقاً في الديون، يأمل باصلاحات آغيس ان يتخلص منها.

و بعد ان ضمّ آغيس خاله الى صفه، دفعه الى كسب أمه، و كان لها اصدقاء و أشياع كثيرون، فضلاً عن مدينتها و مساهمتها الكبيرة في الشؤون العامة. غير أنها اجمت عندما فوتحت. و اشتدت في نصح ابنها بالعدول عن هذا القصد العسير الذي لايرجى منه نفع، إلا ان [أغيسيلوس] زاد في مجهوده لاقناعها بأن المشروع ليس بالصعوبة التي تتخيلها. و انه اذا تحقق سيعزز مركز الأسرة على اية حال. و توسل ابنها الملك بها ورجاها ألا تقف عقبة ضدّ أماله و امجاده بسبب المال. و قال انه يعجز عن مساواة الملوك الآخرين في الغنى، لأن اتباع الولاية و خدمهم، و مديري بيوت [سلوقوس و بطليموس] أكثر غنى من كل ملوك سبارطة مجتمعين. فاذا استطاع التفوق على ترفهم و غناهم بالبساطة و الخلق الرصين و احتقار الغنى و الملذات، ولو استطاع ان يشيع المساواة بين السبارطيين فيكون ملكاً عظيماً. و ظلّ يضرب على هذا الوتر حتى راقى الفكرة للام و الجدة و انتهى الأمر بهما الى التحمس لها و الثناء على طموح الشاب النبيل. و لم تكتفيا بالموافقة بل أخذتا تدفعانه. و لم تقتصر جهودها على مفاتحة كل المرتبطين بهما و حثهم على مسانדתه، و إنما توجهتا بالدعوة الى النساء، ليعلمهن ان الزوجات اللقيديمات يمارسن نفوذاً كبيراً على ازواجهن دوماً، فقد تعود هؤلاء أن يسارنهم بكل أمور الدولة الهامة، بصراحة تزيد عن صراحتهن عندما يحدثنهم عن أمورهن الخاصة. كان هذا في الواقع اهم عقبة تواجه مشروعه فمعظم الأموال في سبارطة هي بيد النساء. و اصلاحاته تجردهم لا في التوافه المادية و جدها وهي في عرفهن مصدر سعادتهن الرئيس، بل لمعرفتهن التامة بأن غناهن هو العامل الأساس لقوتهن و مكانتهن.

فهؤلاء الذين يريدون ابقاء ما كان على ما كان انحازوا الى ليونيداس و اخذوا يدفونه الى

ابداء المزيد من المعارضة قائلين ان واجبه وهو الاكبر سنّاً و الأوفر تجربة، أحباط مشاريع هذا الشاب المندفع الأهوج. و كان ليونيداس بالأصل على خلاف شديد مع [آغيس] كتمه و لم يشأ اظهاره خوفاً من صولة الشعب الذي كان يصبو الى التغيير و يدعو اليه بصراحة. لكنه كان يعمل في السرّ بكل وسيلة لاحباط المشروع و اضعاف الثقة بجدها. و تحريض الحكام على الوقوف ضدّه. و كان لا يترك مناسبة تفوقه إلا و سفهه بمكرٍ و دهاءٍ كقوله مثلاً: «ان آغيس يقترح توزيع اراضي الاغنياء على الفقراء ثمناً لاغتصابه الحكم المطلق. و ان الغرض من اجراءات الغاء الديون و توزيع الأراضي ليس تزويد سبارطة بالمزيد من المواطنين و إنما لشراء حرس خاصٍ للطاغية.

على كلّ لم يعر [آغيس] اهتماماً بكلّ هذه التخريصات، و عمل على انتخاب ليساندر ايغوراً. ثم اهتمت اول فرصة عن طريقه لتقديم مشروعه الاصلاحى Rhetra الى المجلس. و أهم مواده هي:

تلغى جميع الديون. كل الأراضي الزراعية توزع بمساحات متساوية فتلك التي تقع بين مجرى النهر قرب [پللينه Pellene] و بين جبل [تايگيتس Taygetus] حتى بلدتي (ماليا Malea) و (سيلاسيا Sellasia) تقسم الى اربعة آلاف و خمسمائة قطعة، أما بقية الأراضي فتقسم الى خمسة عشر الف قطعة، و هذه الأخيرة توزع على سكان الريف القادرين على الخدمة العسكرية في سلك المسلحين تسليحاً ثقيلاً. أما القطع من الصنف الأول فتوزع على المواطنين المولودين من ابوين سبارطيين، على ان يكون العدد شاملاً سكان الريف أو الاجانب الذين نشأوا نشأة صحيحة. اقوياء الاجسام و في سن الخدمة العسكرية. و يقسم هؤلاء الى خمس عشرة كتيبة: بعضها يتألف من اربعمائة مقاتل و بعضها من مائتين. و يكون طعامهم و تدريبهم وفق المبادئ التي رسمتها شرائع ليكورغوس.»

قدم هذا المشروع «المجلس الكبار». فجوبه بمعارضة. فبادر ليساندر الى عقد جمعية الشعب الكبرى. و خطب فيها هو و ماندروكليداس و اغيسيلوس. فأثاروا حماسة الجمهور. قالوا: انه لما يورث الأسي ان توضع عظمة سبارطه موضع اهمال و زراية ارضاً لفئة قليلة من الاغنياء الذين لا يرضون بأقل من استعبادهم. و الاستبداد في امورهم. و عليهم ان يتذكروا النبوءات الغابرة التي كانت سباقاً بتحذيرهم من التعلق بالمال، لأنه الخطر الأعظم على سبارطه، و السبب المحتمل لخرابها. فيضاف اليها تلك النبوءات التي وردت مؤخرأً من [پاسيفاي Pasiphae] (وهو هيكل شهير، و مهبط وحي يقع في [تالامي Thalamae]). و على حدّ قول بعضهم ان [پاسيفاي] هي احدى بنات [أطلس] التي ولدت لچوپتر ابنه

[آمون]. ويرى آخرون انها [كساندرا] بنت الملك [پريام Priam] الذي ادركه الأجل في هذا الموضوع فسمى پاسيفاي لأنه «كاشف» النبوءات «الجميع». ويقول [فييلارخوس Phylar-chus] بل هي [دافني Daphne] بنت [أمسيكلاس Amuclas]. هربت من [اپوللو] فمسخها شجرة غارٍ. وشرها الآله بنعمة التنبؤ أمرتهم بالعودة الى ما كانوا عليه من المساواة وفق النظام الذي ابتدعه ليكورغوس لهم.

بعد ان انتهى الخطباء الثلاثة، نهض آغيس وبعد كلمات قلائل قال: انه سيقوم بخير ما يسعه للأسهام في تطبيق الشريعة الجديدة التي انما وضعت لصالحهم. فاولاً سيوزع فيما بينهم كل الاراضي التي ورثها - وكانت ذات مساحات واسعة من الاراضي الصالحة للرعي والزراعة - وسيقدم لبيت المال العام ستمائة تالنت من النقد المصكوك. وان أمه وجدته واصحابه واقرباءه وهم أغنى اللقيديين مستعدون للاقتداء به.

وامتلاً الناس أعجاباً بكرم الشاب. وغمرتهم فرحة عظيمة. منها أن ملكاً جديراً باسپارطه يقوم بينهم بعد ثلاثمائة من السنين الجديدة. وزاد ليونيداس مقتناً ومعارضةً، لادراكه بانه سيكون هو واصدقاؤه، مرغمين على التخلي عن اموالهم في حين سينفرد [آغيس] بكل الفضل والمجد المتأتى معه. فنهض وسأل [آغيس] امام الجموع الحاشدة.

- ألم يكن [ليكورغوس] في رأيك - رجلاً حكيماً محباً لبلاد؟

أجاب [آغيس] «بلى». فتساءل [ليونيداس] بقوله:

- ومتى ألغى ليكورغوس الديون، ومتى منح الأجانب امتياز المواطنة، وهو الذي رأى ان سلامة الجمهورية لا تتحقق الا بتطهير المدينة من الأعراب بين الفينة والفينة.

فأجاب [آغيس]:

- لست أعجب ان اظهر [ليونيداس] قلة معرفة بليكورغوس وشرائعه فقد نشأ متزوج في الخارج واصبح والداً هناك. واتخذت زوجته من البلاط الفارسي. ان ليكورغوس اذهب الديون والقروض معاً بالغائه النقود كوسيلة للتعامل. الحق يقال انه اعترض على وجود الاعراب عن عادات البلاد واخلاقها، لا لأنهم يضمرون سوء بل لئلا تتسرب عدوى حب المال الى انماط معيشتهم فتتلحق بالاخلاق الرقيقة وتتقلب في احضان الترف. فمن المعروف جيداً انه رحب ببقاء كل من [تريپاندر Terpander] و[طاليس Tales] و[فريكيديس Phercydes] وكلهم أجنب، مدركاً بأن فلسفتهم واشعارهم تنحو منحاه الفكري. وانت الذي تعودت مديح [اكيپريس Ecpres] الذي قطع بفأسه وترين من

الاوراتر التسعة في آله طرب الموسيقي [فرينيس Phrynis]، ايام كان ايغوراً. وكذلك بمدحك عمل أولئك الذين احتذوا خذوه فيما بعد، فقطعوا اوتار قيثار [طيموثيوس Tio-mothus] فبأى وجه تلو منا على رغبتنا في وضع حدّ نهائي للتترف والإسراف والفخفة في الجمهورية؟ اتظن ان اهتمام هؤلاء الرجال كان منحصراً باوتار تلك العيذان بالذات، ام أنهم ينوون شيئاً أكبر واهم من ذلك؟ انهم يريدون ان يكبحوا في الموسيقي نفس الاغراق والتطرف الذي يسود حياتنا الحاضرة ووضعنا الاجتماعي. فقد دبت الفوضى فيهما واتلفت كل انسجام وتوافق في مدينتنا.

ومنذ تلك الساعة انحاز سواد الشعب الى [آغيس]، وانحاز الاغنياء الى صفّ [ليونيداس]. وأخذت الدهماء تضغط على [آغيس] ضغطاً شديداً بان يمضى قدماً في اهدافه. وبعد الرجاء والالحاف تمكن من اقناع مجلس الكبار الذي تتضمن صلاحياته اعداد القوانين التي يؤخذ فيها رأي الشعب بالاقتراع العام. ولما رفض المشروع بصوت واحد، عزم [ليساندر] ان ينتصف لذلك من [ليديانيداس]. فقدم بحكم منصبه تقريراً عنه بانه على مبدأين قديمين: الأول يقضي بمنع اي شخص من نسل هرقل ان ينسل اولاداً من امرأة أجنبي. والثاني يعتبر من الجرائم الكبرى، ترك اللقيديمي وطنه والعيش بين الأجانب. وأوكل ليساندر بعضهم لتنظيم الاتهام بينما خرج هو وزملاؤه «لمراقبة الاشارة». وتلك تقليد ممارسونه بالشكل الآتي:

يختار الايغور في كل سنة تاسعة، ليلة تنيرها النجوم، لا تشد بها غيمة ولا يضيئها قمر، فيجلس الجميع معاً هادئين صامتين لاهمّ لهم الا مراقبة السماء. فان شاهدوا شهياً يخرّ، أعلنوا فوراً ان ملكهم قد ارتكب جرماً بحق احد الآلهة، فيعزلونه ويمنع عن ممارسة سلطاته حتى تحلّه من هذا القيد بنوء مصدرها [دلفي] أو [المپيا].

وعاد [ليساندر] وأكد للشعب انه رأى شهياً يخرّ من السماء. فطلب من [ليونيداس] في الوقت عينه، ان يتقدم دفاعاً عن نفسه. واحضر الشهود فشهدوا بأنه تزوج امرأة آسيوية، اعطاها اياها اعوان الملك [سلوقوس]، وقد ولدت له ولدين الا أنها لم تكن تطيقه حتى انه اضطر الى الفرار منها، وعلى هذا الأساس عاد الى [سپارطة] ولما مات سلفه دون عقب، تولى الحكم.

لم يكتف [ليساندر] بهذا وانما دفع [كليومبروتوس] الى المطالبة بالعرش. وكان من اعضاء الأسرة المالكة وختن [ليونيداس] ايضاً، وادرك [ليونيداس] الخوف من سوء العقبي فهرب والتجأ الى هيكل [منيرفا ذات البيت النحاسي] تصحبه ابنته زوج [كليومبروتوس] التي

قررت هجر زوجها والحقا بأبيها وهو في محنته. طلب [ليونيداس] مرة أخرى فتمرد على الدعوة فعزلوه ونصبوا [كليومبروتوس] في محله.

بعد هذا التغيير انتهت فترة [ليساندر] فاعتزل منصبه وانتخب دفعة جديدة من الايغورين الذين اسرعوا فأكدوا لليونيداس سلامته. واستدعوا كلاً من [ليساندر] وماندروكليداس. ليبررا عملهما في الغاء الديون ومباشرتها تقسيماً جديداً للأراضي. وشعرا بالخطر مائلاً فالتجأ الى الملكين، وبيننا لهما ان مصلحتهما وسلامتهما تتوقفان على اتفاقهما في اصدار القرارات، فتلك هي السبيل الوحيدة لتحدي الايغورين. لأن سلطة هؤلاء في الواقع تبدأ عندما يدب الخلاف بين الملكين فيصدران قرارات منفردة غير متوافقة. فاذا ذلك يباشر الايغور صلاحياتهم بترجيح كفة من يروونه اصلح الرأيين، اما اذا اتفق رأي الملكين في قضية، فلا أحد يجزئ على مقاومة سلطتهما. فالمجلس الذي تتطلبه وظيفته منه ان يقف حكماً بين الرأيين المختلفين لا يحق له بالتدخل عند صدور رأي واحد. بعد هذا خرج الملكان مع صدقانهما الى الساحة العامة وانتزعا الايغور من مقاعدهم، ونصبا اشخاصاً جديداً في محلهم. وكان من بينهم [أغيسيلوس]. ثم سلحوا سرية من الشبان وأطلقوا عدداً كبيراً من السجناء، ودب الخوف في نفوس اشياح الحزب المعارض وقلقوا المصيرهم. ولكن لم تسفك قطرة دم واحدة. بالعكس، عندما ادرك [أغيس] أن [أغيسيلوس] أمر ثلثة من الجند بنصب كمين [ليونيداس] وقتله اثناء هروبه الى [تيغيا] ارسل توماً بعض اتباعه لحمايته وحراسته حتى وصوله المدينة بسلام. الى هنا سار كل شيء على ما يرام ولم يجرأ أحد على المعارضة. لكن هذه البداية الطيبة نسفت نفساً لضعف نفس يدر من شخص واحد فأنهزم المشروع وقضي على أنبل واصدق الغايات في سيطرة بسبب حب المال. قلنا أن [أغيسيلوس] كان غارقاً في الدين، الا أنه كان يملك أكبر وافضل العقار. ففي الوقت الذي انحاز متحمساً مسروراً الى محبذي المشروع الذي يضمن له الخلاص من ديونه، كره التخلي عن ارضه. ولذلك عمل على اقتناع [أغيس] بتأجيل الشق الثاني من القانون، اذ لو نفذ الشقان معاً فان التغيير العظيم المفاجيء قد ينجم عنه ثورة لاتبقى ولا تذر. لكن لو بدى بالغاء الديون اولاً فسيكون من السهولة بمكان حمل الأغنياء على التخلي عن اراضيهم. ونجح أيضاً في حمل [ليساندر] على اعتناق فكرته، وخذعه بمكره كما خدع أغيس فأمر كل دائن باحضار سنداته ووثائقه التي تدعى [كلاريا Glaria] عند اللقيديين، الى الساحة العامة، وكدست كلها واشعلت النار فيها. ولم يكن بالمستغرب ان تجذب الاغنياء المرابين يرمقون المشهد بقلوب اثقلها الألم، على أن أغيسيلوس قال هازئاً، بأن عينيه لم تقعا على لهيب أنقى واسطع من هذا اللهب.

وزاد الشعب لجاجة والحف في اجراء توزيع فوري للاراضي، فأمر الملكان باجراء ذلك، الا ان [أغيسيلوس] أخذ يتعلل بهذه العقبة او تلك وأخر تنفيذ القانون الى أن نجم ما دعا [أغيس] الى الخروج للحرب. فقد استنجد [الآخائيون] باسپارطة بمقتضى معاهدة التحالف الدفاعية المعقودة بينهما. لتوقعهم المستمر محاولة من [الايوليون] لدخول [البيليپونيسيوس] من اراضي [ميغاريا] وكانوا قد ارسلوا جنرالهم [اراتوس] لتعبئة القوات والحيلولة دون الهجوم وكتب [اراتوس] الى ايغور سيطرة فأصدر هؤلاء امراً يقضي باسراع [أغيس] لمعاونته بالاحتياطي اللقيديي وسرراً [أغيس] سروراً لا مزيد عليه للاقدام والحماسة اللذين ابداهما افراد حملته. كان معظمهم شباباً فقراً، تخلصوا من ديونهم وتحرروا وكانوا يأملون ان يحصلوا جميعاً على قطع اراض عند عودتهم. ولذلك ساروا خلف ملكهم بشوق وحمية. وكان أهالي المدن التي يرون فيها لا يتما الكون انفسهم من الاعجاب بسيرهم من اول نهاية [البيليپونيسيوس] الى آخر نهاية، دون ان يختل نظامهم، أو تبدر منهم ضوضاء او حتى صوت ان جاز لنا القول. فتذكر الأغرقيق بهم، الجيش اللاقوني العتيد، من الايام الغابرة الذي كان يضرب بتواضعه وبساطته المثل تحت أمرته قادته العظام: أغيسيلوس، او ليساندر، أو ليونيداس فلاغرو ان كان أغيس موضع اعجاب وتقدير، فهو قائد هذا الجيش وربما اصغر رجل فيه، يأخذ نفسه بالحزم والتكشيف ولا يحجم عن أي عمل، ولا يفترق بأية ميزة من الغنى أو العظمة ان كان في سلاحه أو ثيابه أو تصرفاته - عن افقر جندي في جيشه، الا ان الاغنياء راحوا ينظرون الى هذا التحول الجديد نظرة قلق وقعت، ولم يستبعدوا من ذهنهم فكرة انتشار هذا النظام الجديد، الذي سيحدث عند دخوله بلادهم تغييراً عظيماً في أحوالهم.

انضم جيش [أغيس] الى قوات [اراتوس] في مدينة [كورنث]. ودار نقاش حول الخطة، هل يتم الاشتباك بالعدو الآن، أم بفضل التريث؟ وهنا أيضاً ابدى [أغيس] جراءة وحصافة عظيمين، خاليين من الضرور او التهور اذ قال أنه يفضل أن يشتبك قواتهما مع العدو، فهذه هذا لوسيلة الوحيدة لمنعه من اجتياز مداخل [البيليپونيسيوس]، الا أنه يستطيع اوامر [اراتوس] لا لكونه القائد الأكبر سنناً والاكثر تجربة، بل لأنه جنرال [الآخائيين] الذين لا يملك هو حق قيادتهم، لأنه جاء لنجدتهم فحسب، أقول هذا ولا أغفل رواية [باتون Baton] السينوبي الذي زعم ان [اراتوس] كان يحبذ القتال، لكن أغيس عارض في الأمر، مؤكداً ان ما اورده هو الصحيح، ورواية [باتون] لقراره اذ قال: انه اتخذ القرار لحلول موسم الحصاد. فوجد الأفضل ان يدع العدو يمر من ان يجازف بكل شيء في معركة واحدة. فردت قوات الحلف شاكراً. وعاد [أغيس] بمجد ليس بالقليل فوجد الفوضى عامة، والثورة المعاكسة الجديدة



وشبكة، بسبب سوء ادارة [أغيسيلوس]. فقد تحرر هذا من الخوف الذي كان يكبح جماحه الى حد ما بعد تخلصه من ديونه ولم يعد يتعفف عن ممارسة اي نوع من الضغط والارهاب ان وجد فيه مغنماً. ومما اقدم عليه انه جبي ضريبة الشهر الثالث عشر في حين ان دورة العام كانت دورة بسيطة لاتستدعي زيادة الشهر الكبيس. لهذا ولغيره من الاسباب والخوفه ممن لحقه اذى منه ولمعرفته بمدى كره الشعب له، ورأى الأ معدى له من احاطة نفس بحرس شاكي السلاح يلازمه في دار الحكم دوماً، وطغى وبغى وتجبّر حتى بلغ الحد الذي تطاول معه على الملكين فجاهر بتحقير اولهما، اما اذا أظهر قليلاً من احترام للآخر فهو يعود الى صلة القرابة التي تربطه به لا الى الاحترام والخضوع الواجبين لسلطة الملك. ثم انه أعلن عن استمراره في اشغال منصب الايغور عاماً آخر. فزاد اعداؤه قلقاً لذلك، ولم يضيعوا وقتاً في حبك موأمة تستهدف القضاء عليه، واستقدموا [ليونيداس] من [تيجا] علناً واعادوا نصبه ملكاً برضا الشعب نفسه الذي كان ساخطاً لأنه انخدع بوعد توزيع الأراضي. وكاد [أغيسيلوس] يلقى حتفه في تلك الفتنة لولا ان خفّ اليه ابنه [هيبوميديون Hippomedon] الذي ينزله الشعب منزلة حُبّ وتقدير فأنقذه من أيديهم ورحله سراً. وهرب الملكان ايضاً، ولجأ [أغيس] الى هيكل [منيرفا ذات البيت النحاسي]، واستجار [كليومبروتوس] بهيكل [نبتون]. وكان [ليونيداس] أشد حنقاً على ختنه هذا، منه على [أغيس]، فترك الأخير لشأنه وقصد حرم كليومبروتوس بثلة من الجنود وأخذ يعنفه بشدة وغضب - على ما قدمت يداه، وهو زوج بنته، من التآمر عليه مع اعدائه واغتصاب عرشه وارغامه على ترك بلاده.

كانت [خيلونيس Chilonis] زوج [كليومبروتوس] قد آثرت العيش مع ابيها في منفاه بعد ان اغتصب زوجها الملك منه، فتركت الزوج ووقفت نفسها على العناية بأبيها والتسرية عنه في محنته، وفي اثناء فترة لجوئه الى المعبد في سبارطة بقيت معه في حمى الآلهة، وهربت معه نادبة سوء حظّه، ساخطة على [كليومبروتوس]. فلما قلب الحظّ لزوجها ظهر مجنّه، أنقلبت هي الأخرى على ابيها ولحقت بزوجها. فكانت تشاهد جالسة معه في حرم المعبد وقد لفت ذراعيها حول عنقه وطفلاها الى جانبها فأمتلأ الناس اعجاباً بحنان هذه الشابة ووفائها. وقالت لابيها مشيرة الى شعرها وثوبها المهملين.

- اني لم أبلغ الى هذه الحال التي تراني فيها يا أبت بسبب ما يعاني [كليومبروتوس] من شقاء. فحزني وحدادي أصبحت عادةً في منذ أمد بعيد. لقد عانيتهما لأسري عنك في منفاك. والآن وقد عدت الى بلادك والى ملكك، أكتب علي ان أبقى شقية حزينة؟ لعلك تريدني ان ارتدي الثياب الملكية وأسعد معك بعد ان تقتل بين ذراعي الرجل الذي قبلته

لي زوجاً. فيما أن يهدأ غضبك على [كليومبروتوس] بدموعي ودموع طفلي. واما ان يقاسي عقاباً يفوق ذلك العقاب الذي فرضته على اخطائه. سيراني - تلك التي أخلص لها الودّ - اموت امامه الآن. لأي غاية أعيش، وكيف سأظهر بين السيارطيات؟ كيف سيستقبلون المرأة التي عجزت عن الالة قلب أبيها أو زوجها؟ يبدو اني ولدت لا شارك. في سوء حظين، حظ الزوجية وحظّ البنت وهما أقرب الناس اليّ. وأمّا عن [كليومبروتوس] فقد ابدت عجزتي التام عن الاعتذار النبيل بسبب غلطته، عندما تركته ولحقت بك. الأ أنك انت تعطينه الآن أفضل عذر لزلته، حينما يرى المعالم انك تقتل زوج ابنتك بسبب مملكة - ولا تراعي لها حرمة».

انتهت [خيلونيس] كلامها الحزين واسندت وجهها الى رأس زوجها راحت تقلّب عينيها الدامعتين المتقرحتين في الناس الشاخصين أمامها. فمست عاطفة البنوة شغاف قلب [ليونيداس] وانسحب برهةً للتشاور مع صدقائه، ثم عاد بعدها وطلب من [كليومبروتوس] ترك الحرّم ومغادرة البلاد، على أن تبقى [خيلونيس] الى جانبه اذ ليس من العدل ان تترك أباً بلغ من حبه لها أن قبل شفاعتها في زوجها وابقى على حياته. لكن ما قاله لم يقنعها. فنهضت وحملت أحد طفليها وأعطت الثاني زوجها ثم تلت صلاةً على مذبح الآلهة. وخرجت في اثر ابيها. مجمل القول: لو لم يعمّ الطموح عيني كليومبروتوس لاختار بدون شك أن ينفي مع هذه المرأة الوفية على الملك بدونها.

بهذا تم خلع [كليومبروتوس] وازاحته، وبعده باشر [ليونيداس] بعزل جماعة الايغور واختيار آخرين. ثم بدأ يفكر في القضاء على [أغيس]، فحاول اولاً اقناعه بوسائل شريفة بان يترك الحرّم المقدس، ويشاركة في الملك، قائلاً ان الشعب سريع الصفح عن زلات الشباب الطامح الى المجد، المخذوع باحابيل [اغيسيلوس]، الأ انه وجد [أغيس] شديد الارتياب، لاتنجح معه اية محاولة في اخراجه من (حرمه) فنبذ هذه الفكرة على ان ما تعذر تحقيقه بشعبذة عدوً، تمّ نجازه بخيانة صديق كان [امفارس Amphares] و[داموخاريس Damo-chares] و[اركيسيلوس Arcesilaus] يختلفون الى زيارة [أغيس] وكان عظيم الثقة

باخلاصهم حتى انه بعد فترة من الزمن وافق على مصاحبتهم الى الحمامات قريبة من الهيكل فيراقونه عند عودته، هؤلاء الثلاثة كانوا من اعزّ صدقائه وكان اولهم [امفارس] قد استعار من [اغيسيستراتا] ام اغيس عدداً كبيراً من الصحف والاواني الثمينة وغيرها من ادوات المنزل وكان يأمل ان يتملكها ان افلح في القضاء على الأم والحاق الاسرة كاها بها، فهو

عليه وابى الجنود المرتزقة ذلك بدورهم، معتقدين أن التناول على ملك هو عمل دنيء يخالف المبادئ الشرعية أخذ [ديموخاريس] يتوعد ويشتم. ثم دفع [آغيس] بيده الى الغرفة.

في اثناء ذلك عمّ المدينة نبأً أعتقال الملك. فتجمعت فصائل من المواطنين وهرعوا الى السجن وبأيديهم المشاعل والمصابيح ووقفوا عند الابواب تتوسطهم أم [آغيس] وجدته وانطلقت الاصوات عالية تطالب باخراج الملك اليهم، وبالسماح له بالدفاع عن نفسه امام الشعب في محاكمة علنية. الا أن هذه الضجة عجلت بموته بدلاً من أن تحول دونه. فقد تمك الخوف خصومه من تفاقم الأمر، ومن احتمال انتزاعه من أيديهم اثناء الليل. والتفت [آغيس] الذي كان على شفا الموت - فرأى أحد الضباط يبكي حظه بكاءً مرأً فقال له:

- لا تبكينني أيها الخلّ انا الذي سأموت بريئاً، بفعله نكراء أقدم عليها شرّ الناس. فحالتني هي أفضل من حالتهم بكثير.

ثم أسلم عنقه للمشنقه دون ان يبدو عليه أثر للخوف والارتباك. ويعد ان أسلم الروح، خرج [أمغاريس] من باب السجن فوجد اغيسيتراتا فأقبلت عليه، مؤقتة بأنه مازال ذلك الصديق الصدوق لابنها، وخرت على قدميه ضارعةً، فأنهضها برفق وأكد لها بالأدعي لقلقها على ابنها، وان شاءت فلا مانع ثم يحول دون دخولها لرؤيته. فطلبت ذلك لأمرها أيضاً فأجاب بالا مانع أيضاً. وما ان دخلتا حتى امر باغلاق باب السجن. وسبقت اليه [ارخيداميا] وكانت عجوزاً درديسيا، عاشت حياتها كلها متمتعة بالاحترام ورفقه المقام بين قومها. وما أن قدر [امغاريس] أنها قضت، حتى أشار الى [اغيسيتراتا] بالدخول ان شاءت. فطالعتها جسد ابنها مسجى على البلاط، وامها تتسلي مشنوقة. فكان اول ما صنعت انها مدت يدها لمساعدة المنفذين على انزال جثة امها، ثم غطت وجهها واسحبت الي جانب جثة ابنها قائلة وهي تعانقه وتلثم وجنتيه:

- آه يا بني. ان شفقتك العظيمة وطيبة قلبك الفائقة هي التي جلبت لنا ولك الدمار.

كان [امغاريس] واقفاً يرقبها من خلف الباب فانفجر غاضباً وصاح:

- مادمت تقرين اعمال ابنك فمن الاجدر ان تقاسيمه مصيره فنهضت ومدت عنقها وهي تقول:

- أمل ان يكون هذا الفداء لصالح سبارطة.

وعرضت الجثث الثلاث للملا. وتبدت الحقائق وهتك السر، ولم يكن ثم خوف على درجة من القوة بحيث يمنع الناس من الاعراب عن فرط تقززهم واشمئزازهم والتصريح بكرههم

والحالة هذا اكثر الثلاثة تقبلاً لاغراء [ليونيداس] واسرعهم لخدمة اغراضه. ويوصفه واحداً من الايغور فقد بذل مجهودات كثيرة مع زملائه لينقلوا على [آغيس]. وقد وجد الثلاثة ان [آغيس] لا يترك حرمة، الا عند ذهابه الى الحمام. ففروا ان يقبضوا عليه خلال هذه الفسحة من الزمن. وفي يوم ما التقوه وهو عائد، فحيوه كما كانوا يفعلون عادة، وتبادلوا الاحاديث اللطيفة وهم سائرون وتراشقوا بالنكات والفكاهات كما تفعل ثلة من الشبان الخلان حتى بلغ السير بهم منعطف الطريق المؤدية الى السجن. فما كان من [امغاريس] الا ان وضع يده على آغيس وقال: مستخدماً صلاحية الايغور:

- عليك ان تتبعني يا آغيس، لتمثل امام الايغور الآخرين وتجيّب عمّا قدمت يداك من مخالفات.

في الوقت نفسه شدّ [داموخاريس] طرف معطف [آغيس] حول عنقه وجره به وكان عملاقاً شديد القوة، بينما سعى الآخرون وراءهما، يحتشان [آغيس] ولم يكن أحد من اصدقاء [آغيس] قريباً بله لم يكن ثم انسان. فسهل عليهم ايداعه السجن. وكان [ليونيداس] قد حضر قبلهم ومعه سرية من الجند. وزعت على كل الطرق والأزقة القريبة. وجاء جماعة الايغور ومعهم أكبر عدد من [الكبار] الذين يثقون بهم فقد رغبوا في يبدو على موآمرتهم مسحة من العدالة. وطلبوا من [آغيس] تقديم حساب عن أعماله فأبتسم لنفاقهم هذا وربأهم ولم يجب بحرف فقال له [امغاريس]:

- من الأجدى بك ان تبكي فقد آن اوان القصاص على غرورك واعتدادك بنفسك.

وانبرى [ايغور] آخر محاولاً ان يبدو أكثر رافةً وعرض عليه سؤال من يريد ان يتلمس له عذراً. قال:

- لعلك أرغمت من قبل آغيسيلوس وليساندر؟

فأجاب آغيس: انه لم يقع تأثير احد. ولم يكن قصده مما عمل غير الاقتداء بليكورغوس، وممارسة الحكم الصالح بتطبيق شرائعه. فسأله الايغور:

- ألسنت نادماً على الأقل ولما بدر منك من نزقٍ وخرقٍ فأجاب [آغيس]:

- لست استسيغ الندم قطّ على قصد مجيد نبيل عادل كمتصدي، مع اني متأكد بأن الموت في انتظاري.

فصدروا عليه حكمهم بالموت، وامروا الحرس باقتياده الى [الديخاس Dechas] وهو موضع في السجن يتم فيه تنفيذ حكم الموت شنقاً بالمجرمين. وعندما امتنع الضباط من وضع ايديهم

لليونيداس وامغاريس محور المؤامرة. كان عملاً وحشياً لم تشهد سيارطة مثله منذ ان سكن [الدوريون Dorians] ارض الپيلوونيس. وقال السپارطيون أن الاعداء أنفسهم يتخرجون من سفك دم ملك لقيديمي، فينكصوا عنهم ويتحاشوهم في اثناء المعارك، يدفعهم الى ذلك شعور الاحترام والتوقير. ونحن في الواقع نجد انه لم يقتل من ملوكهم في سوح المعارك الكثيرة التي خاضتها سيارطة مع سواهم من الاغريق منذ تأريخها الأول حتى عصر فيليب المقدوني غير [كليومبروتوس] الآخر الذي قتل بطعنة رمح في موقعة [ليوكترا]. واني لا أجهل تأكيد المسينيين بأن [ثيومپويوس Theompopus] قتل بيد قائدهم [ارسطو مينوس Aristo-menes] إلا ان اللقيديين ينكرون ذلك قائلين: بل جرح فحسب.

لكن تلك هي مشيئة الاقدار. ومما لاريب فيه ان [اغيس] هو أول ملك ينفذ فيه الايغور حكم الموت في لقيديون لمحاولته تطبيق شريعة نبيلة بذاتها قمينة بمواطنيه قتل في زمن كانت احظاء البشر تقابل عادة بالسماحة والغفران السريع. فان كان [اغيس] مخطئاً حقاً فان لوم خصومه له كان يجب ان يكون أقل من لوم اصحابه؛ بسبب ذلك الطبع السمح النبيل والشعور المرهف الذي دفعه الى انقاذ حياة قاتله [ليونيداس]. ويسبب ايمانه ايضاً بطيبة الناس الآخرين.

١٩٧٢/١/٢٣



کلیومینس

**CLEOMENES**

235 – 222

ولقد قيل ان [كليومينس] تلقى الفلسفة في صبا. من [سفيروس Sphaerus] البوريستيني [Borystenite] الذي أجتاز البحر الى سبارطة وقضى ثم ردها من الزمن معانياً المشقة في تعليم الفتى وتهذيبه. وهو أحد اوائل تلاميذ [زينوا] [الكيتي Citiean]. والأرجح انه أعجب برجولة كليومينس فالهب طموحه. ويروى عن [ليونيداس] الأول، انه سئل عن رأيه في شعر [تيريتوس Tyrtaeus] فأجاب:

- انه يصلح لشحد شجاعة الشبان.

ذلك لأنه اشعاره تملأ نفوس بحرارة النار الألهية فتراهم يندفعون غير مباليين بأي خطر. كذلك الفلسفة الرواقية، فهي مهيج شديد للطبع الناري القوي. فاذا مازجها الهدوء والرقه اصابت غاية النجاح في هداية المرء الى الصالح والطيب من الأعمال.

خلف [كليومينس] اباه [ليونيداس] بعد وفاته. فوجد الفجور والتحلل مستولين على نفوس المواطنين عموماً: فالأغنياء لا يكتثون بالمصلحة العامة، وهم عنها في شغل بمصالحهم الخاصة ولذاذاتهم. والفقراء قد ركبهم الشقاء، قابعون في بيوتهم وقد فقدوا الروح القتالية وعافوا التمارين والانظمة السبارطية عماد حياتهم الاجتماعية، والملك، لا يملك من الملك غير اسمه والايغور قد حصروا السلطة كلها في ايديهم. فعزم ان يغير هذه الحال تغييراً تاماً. واختلى بصديقه الخليل [كزيناريس Xenares] (عاطفة صداقة بهذه يعبر عنها السبارطيون بكلمة ملهم، أو الحال فيه) وكاشفه بعزمه وأخذ يستوضح منه عن آغيس. ويسأل اي نوع هو بين الملوك؟ وبأي الوسائل توسل، وبماذا استعان للبدء في تنفيذ اهدافه ومراميه؟ في اول الأمر بادر [كزيناريس] الى تلبية طلب صديقه بسرور، وقص عليه قصة آغيس بتفاصيلها وعواقبها وظروفها. ولما وجد [كليومينس] شديد التأثر بما يسمع، مرهفاً سمعه الى حديثه عن نظام الحكم الجديد الذي ابتدعه آغيس، ملحاً عليه باعادة الكلام؛ أخذ يؤنبه تأنيباً شديداً ووصمه بالجنون. ثم ازورر عنه واجتواه، لكنه لم يخبر أحداً بسبب الجفوة وكان يقول فحسب:

- سلوا كليومينس فهو أعرف بالسبب.

وأعتقد [كليومينس] ان الجميع على شاكلة [كزينارس] في صدودهم عن اهدافه، فسكت ولم يبح بسرّه لأحد. وانما بدأ ينظم خططه ويتدارس مشاريعه في نفسه وقد استقر رأيه بأن الانقلاب الذي اعتزمه هو أسهل تنفيذاً عندما تكون المدينة في حالة حرب منه عندما تكون في حالة سلم. فعمل على استحداث خلاف بين الدول الاغريقية وبين الآخائيين الذين زدوا تلك الدول بالمبررات الكافية للشكوى. كان [اراتوس] وهو أعظم الرجال قوة وشوكة بين كل

تلك هي حكاية سقوط [آغيس]

كان أخوه [ارخيداموس] أسرع من [ليونيداس] فأنقذ حياته بالفرار في اللحظة المناسبة. ألا انه ترك وراءه [آغياتيس] زوجه مع طفلها. فأجبرها [ليونيداس] على ترك دارها وارغمها على الزواج من ابنه [كليومينس] وكان في ذلك الوقت اصغر من ان يصلح للزواج، اذ كان لا يريد أن يحظى بها آخر، لأنها ورثت اموالاً وضياعاً واسعة من ابيها [غيليبوس Gpli-pus]. وكانت اجمل نساء بلاد الأغريق وأكثرهن جاذبية وفتوةً واعلاهن خلقاً. لذلك قالوا انها بذلت جهداً كبيراً لتفادي هذا الزواج الاجباري. فابغضت ليونيداس بعد اتمام العقد، وأظهرت للزوج الجديد الفتى لطفاً وامانةً. وما ان عرفها حتى علق بها وهام بها حباً. واشربته نفس العطف الدائم الذي كانت تكنه [لآغيس] فأخذ يكثر من السؤال والاستفسار عما وقع له، ويصغي بانتباه شديد الى مآساته وغاياته واهدافه. وشبّ الفتى بروح سمحاء وخلق رضي. وبدا كآغيس في اعتداله وقصده عن المتع. إلا انه لم يكن بمثل نبيله وشكه وحذره. كان ثم شيء من الحرارة والاندفاع ينخسانه نخساً دائماً، وكان ثم عنف ونفاذ صبر في شوقه الى كل ما يراه عادلاً وحسنأً. ومن رأيه ان اخلاص الرجال وولاءهم بملء اختيارهم هو خير ضابط لهم. لكنه كان يرى ان سحق منادمتهم وارغامهم على سلوك السبيل الفضلى. هي من الشجاعة على جانب كبير وما يستحق التقدير.

طباعه هذه، جعلته كارهاً لنظام الحكم في المدينة. فالمواطنون سادرون في لهوهم وعبثهم الخامل المكسال. والملك في شغل شاغل عن تبعات الحكم، تاركاً للأمر حبلها على غاربها، متمنياً ألا يقلق راحته أحد بواجب او يشغله عن ملذاته واستمتاعه بغناء عمل جُدّي. وتطرق الاهمال الى المصالح العامة وراح كل مواطن يجري وراء منافعه الخاصة. وبعد قتل [آغيس] بات التلطف بكلمات «التمارين، وتدريب الشبان، والضبط» وما شاكل، من الخطوة بكان. وأما الحديث عن التقشف وترويض النفس على الاعتدال، وعن المساواة والتحمل فكان اشبه بارتكابك جريمة الخيانة العظمى ضد الدولة.

الآخائيين، يريد ان يوحد كل بلاد [اليلوپونيسييس] وقد نذر لهذا الغرض حياته السياسية الطويلة، والقيادات العديدة التي تولاه. اذ وجد ان الوحدة السياسية هي انجح وسيلة للم شعنتهم وجعلهم قوة يعتد بها امام اعدائهم. وقد اتفقت كلمتهم تقريباً على تحقيق تلك الوحدة خلا اللقيديمييين والليائيين والقسم الذي يعتمد المصالح السبارطية من الاركاديين فهؤلاء لم يتفقوا. وما ان قضى [ليونيداس] نحبه، حتى شرع [اراتوس] بمهاجمة الاركاديين وراح يعيث نهباً وسلباً في بلادهم، ولاسيما الجزء الذي يتاخم [آخائياً]. كان يحاول بهذا، جس نبض السبارطيين مستهيناً [بكليومينس] لكونه شاباً يافعاً ليس له حظ من التجارب لا في السياسة ولا في الحرب.

أرسل الايغور [كليومينس] لمفاجأة الآثينييين قرب [بلبينا Balbina] وهو شعب جبلي يشرف على مداخل [لاقونيا] وكانت ملكيته آنذاك موضع نزاع بينهم وبين [الميغالوپوليتيين] فأحتله [كليومينس] واقام عليه التحكيمات. فلم يبد من [اراتوس] مايدل على استيائه لكنّه زحف ليلاً لمباغثة [تيفغيا] و[ارخومينوس Orchomenus] الا ان خطته هذه أصيبت بالاخفاق لجبن واحجام ساور أولئك الذين تفاهم معهم على تسليم المدينتين له غدرًا، وانسحب معتقداً ان عملياته هذه مرت دون أن يكشفها أحد الا ان [كليومينس] كتب اليه رسالة يسخر فيها منه متسائلاً الى اين يريد السرى ليلاً؟ وطالبا ان يعلمه بوصفه صديقاً له! فأجاب [اراتوس] انه عزم ان يتوجه اليه ويقاطله بعد ان سمع عن نيته في تحكيم ممر [بلبينا]. فردّ [كليومينس] بقوله: لا اعتراض له على ذلك لكنه يرجو منه الاجابة ان سمح له بالسؤال - لماذا كان يحمل معه المشاعل والسلاالم؟

فضحك [اراتوس] للنكدة وسأل عن الشاب أي نوع من الشباب هو؟ فأجاب [داموقراطس Damocrates] وهو سبارطي منفي:

- إن كنت قد اعترمت شيئاً ضد اللقيديمييين فأسرع به، قبل ان يستنسر البعثات وتطول نخالبه. بعد هذا مباشرة، عسكر [كليومينس] في اركاديا بقليل من الخيالة وثلاثمائة من الرجالة. وهنام تسلّم من الايغور أمراً بالعودة، خشية ان يشتبك في قتال وفي اثناء رجوعه استولى [اراتوس] على [كافيي Caphyae]. فأمره بالعودة من حيث اتى وفي طريقه استولى على [ميثيديوم Methydium] واجتاح بلاد [الارغيث] فأنبى له الآخائيون بعشرين ألفاً من الرجالة والف من الخيالة يقودهم [ارسطوماخوس Aristomachus] فالتقاهم كليومينس في [پالانتسيوم Pallantium] وأخذ يتعرض لهم. ووقعت جسارته الخوف في قلب [اراتوس] فمنع جنراله من الاشتباك معه و اشار عليه بالتقهقر متعرضاً لوابل من تقريع الآخائيين وشماتة

السبارطيين الذين لم تزد قواتهم عن خمسة آلاف . وشدد هذا النجاح من عزيمة [كليومينس]، وراح يتكلم بين مواطنيه بجرأة مذكراً اياهم بمقولة لأحد الأولين وعقب عليها: «من العبث الآن أن لايسأل السبارطيون كم كان عدد اعدائهم بل اين هم؟». ثم سار بعد هذا النجدة الاليائيين الذين كانوا يتعرضون لهجمات الآخائيين، فأنقض عليهم وهم يتراجعون بالقرب من [ليقيوم Lycaeum] ووقع الهزيمة الشنعاء بكامل جيشهم وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، وخلف كثيراً من قتلاهم في ميدان القتال، حتى انتشر بين الاغريق ان [اراتوس] بين القتلى. لكن [اراتوس] استثمر الشائعة على خير وجه فزحف بعد الهزيمة مباشرة الى [مانيتنيا] واستولى عليها بسرعة خاطفة قبل ان يشعر أحد بما حصل. ووضع فيها حامية. فأنحطت معنويات اللقيديمييين كثيراً بهذا الخذلان. وعارضوا في قرار [كليومينس] بمواصلة الحرب. فلم يكن منه الا أن أستدعى [ارخيداموس] شقيق [أغيس] من [مسينيه Messene] ليتبوأ العرش معه باعتباره من اعضاء الاسرة المالكة الثانية، وقصده من هذا اضغاف سلطة الايغور بملء الشاغر في العرش واكمال سلطة الملك، فأستولى الخوف على أولئك الذين شاركوا في القضاء على [أغيس]، لثلا يطلب منهم تقديم الحساب على فعلتهم بعد قدوم [ارخيداموس]. وخرجوا بصورة مكتومة لاستقباله عند دخوله المدينة ورافقوه مع المرافقين الى داره، وهناك قتلوه. ولم يتأكد - على رأي [فيلارخوس] أن [كليومينس] كان ضدّ هذه الفعلة. ام انه تركه سائباً بين ايديهم. ام أن صحبه أقتنعه باطلاق يدهم فيه، وعلى اية حال فأعظم الذنب يقع عليهم لأنهم أرغموه على الموافقة.

وبقي مصرأ على أجزاء تغيير في النظام السياسي، وعمد الى رشوة الايغور ليرسلوه على رأس حملة عسكرية. كما فاز بودّ الكثيرين بمساعي امه [كراتيسيكليا Cratesiclea] التي لم تبخل بجهد في سبيل تحقيق مطامح ابنها. ومع انها كانت عزوفاً عن الزواج، لكنها في سبيله قبلت الزواج باحد أكبر شخصيات المدينة غنى ونفوذاً.

وخرج كليومينس يقود جيشاً سبارطياً فأستولى على [ليوكترا] وهو موضع من بلاد [ميغالوپوليس] فأسرع الآخائيون لصدّه بقوات كبيرة تحت أمرة [اراتوس] فأشتبك الجيشان تحت اسوار المدينة نفسها، فأنحدر قسم من جيش [كليومينس] وأمر [اراتوس] الآخائيين بان ينفقوا عند مجرى النهر العميق ولايعبروه وبذلك تتوقف المطاردة. الا ان هذه الأوامر اغاظت [ليدياداس Lydiadas] الميغالوپوليتي، قائد الخيالة، فعصياها وحث خيالته فعبرت النهر معقبة العدو المنهزم، ودخلت ارضاً يملأها الكرم والسواقي والأخاديد فدبت الفوضى في صفوفها واضطر الى التقهقر دون انتظام. وكان [كليومينس] يتابع الموقف فوجده قد انقلب

لصالحه واصر أمره الى التارنتيين والكريتيين بالكرّة عليهم فهزمهم بعد دفاع مجيد وقتل قائدهم. فأرتفعت معنويات اللقيديين وأشدت عزائمهم وانقضوا على الآخائيين وطلقين صرخة عظيمة فهزموا الجيش بكامله. وكان عدد القتلى ما عدا جثة القائد [ليدياداس] فقد أمر باحضارها ولقنها بثوب ارجواني وتوج هامتها وأرسلها مع حرس خاص حتى ابواب ميغالوپوليس.

تلك هي نهاية [ليدياداس] الذي تنازل عن سلطات الطاغية بملء اختياره وأعاد للمواطنين حرياتهم وضمّ مدينته الى وحدة الحلف الآخائي.

تاه [كليومينس] عجباً بنفسه لنجاحه هذا، ومال الى الظن بأنه سيصبح اشدّ خصوم الآخائيين خطراً وبأساً لو أجتتمعت السلطة كلها في يده. فمال الى زوج امه [ماغستونيس] واقنعه بان مصلحة الدولة تستوجب تصفية سلطات الايغور، وجمع الاموال الخاصة كلها في بيت مال مشترك عام. وبذلك تعود سيطرة الى سابق عهدها من المنعة وتعمها المساواة وتتبؤا مجدداً مكانتها الأولى في قيادة بلاد الاغريق كلها. فراقت الفكرة لماغستونيس] وحصل على تأييد اثنين أو ثلاثة من صحبه.

في حدود تلك الايام كان أحد الايغور نائماً في هيكل [پاسيفلي] فرأى حلماً غريباً جداً. خيل له انه شاهد اربع كراس ترفع من الموضع المخصص لجلوس الايغور عندما يباشرون اقصيتهم، وان شخصاً واحداً جلس في محلهم. وفيما هو متعجب سمع صوتاً من داخل الهيكل يقول:

- هذا هو الحلّ الأفضل لسپارطة.

وقص حلمه على [كليومينس] فأضطرب في مبدء الأمر وخشي ان الايغور يستخدم قضبه هذه طعاماً لاستدراجه ومعرفة نواياه بعد ان ساوره الشكّ فيها. لكنه ما لبث ان تأكد بأن محدثه سليم النية وانه لم يجانب الحقيقة فيما قاله فأشدت عزماته ثانية. وخرج للحرب مصحوباً بمن اعتقد انهم أشدّ المعارضين له. فأستولى على [هيريا Heræa] و[ألسيا Alsæa] وهما مدينتان تنتميان للعصبة (الآخائية) وزود [اورخومينوس] المعسكر امام [مانتينا] بالارزاق. وانطلق في مسيرات طويلات صعداً ونزلاً حتى القى الرعب في قلوب معارضيه اللقيديين الذين أخرجهم معه، وطلبوا منه ان يتركهم في [اركاديا] ففعل أما هو فكرّ راجعاً الى [سپارطة] على رأس المرتزقة من جيشه وانهى بسرّه لأولئك الذين تأكد من صلاحهم لاغراضه وسار سيراً بطيئاً لمداهمة الايغور وهم يتناولون عشاءهم.

ولما اصبح على مسافة قصيرة من المدينة بعث [يوركليداس Eurclidas] الى قاعة المائدة العامة حيث يتناول الايغور عشاءهم. بحجة نقل رسائل منه عن الجيش اليهم. ثم لحق به [تيريكون Therycion] و[فيوبس Phoebis] وهما من اتراب [كليومينس] وقد ريبا سوية (يسمونهم موثاكييس Mothaces) مزودين بعدد قليل من الجنود. وبينما كان [يوركليداس] يسلم الرسالة للايغور، أفتحم الآخران القاعة ويديهما السيوف مشرعة وانقضّ الجميع على الايغور وقتلوهم: أولهم [أغيلئوس Agylæus] هوت عليه ضربة سيف فسقط لاجراك به كأنه ميت. الا انه تحامل على نفسه بعد قليل وجرّ جسمه جراً حتى خرج من الغرفة وزحف دون ان يفتن اليه أحد متجهاً الى بناية صغيرة مخصصة لآله (الخوف) وهي في العادة مغلقة، لكن المقادير شاءت ان تكون مفتوحة وقتذاك. فولج وأغلق الباب وراءه وأستلقى منتبهاً.

قضي على الايغور الاربعة الباقين، واشفعوا بعشرة آخر أقبلوا لنجدة زملائهم. ومن لم يأت بعمل أو حركة تجاوزه القتلة ولم يعترضوا سبيل من فرّ من المدينة. وتركوا [أغيلئوس] وشأنه عندما غادر المعبد في اليوم التالي.

فضلاً عن تخصيص [اللقيديين] أماكن مقدسة (للخوف) فأنهم اقاموا بنايات ماثلة لـ(الموت) و(الضحك) وغير ذلك من العوارض والعواطف البشرية. وعبادتهم للخوف، تختلف عن عبادتهم لقوى ما فوق الطبيعة التي يرهبونها لكونها قادرة على الحاق الأذى بهم. يعبدون «الخوف» لا اعتقادهم بأنه الضمان الرئيس لبقاء دولتهم (ومرجعي في هذا ارسطو). فقبل أن يتسلم الايغور الجرد الحكم يصدرون بياناً للشعب، يعدون فيه بأنهم سيحلّقون شواربهم وسيخضعون لأحكام القانون. وسوف لايجعلون القوانين شديد الوطأة على الناس. يرددون هذه العهود التافهة ليعودوا شبانهم على الطاعة حتى في أصغر الأمور. وأميلُ الى الظن بأن الاقدمين لم يدركوا ان الشجاعة التي هي عدم الخوف في عرفهم، هي في الحقيقة الخوف الذي يحذر اللوم والعار. ان الذين يظهرون أعظم الجبن ازاء القانون هم أجل الناس على اعدائهم. وأولئك الذين اقلّ من غيرهم خوفاً عند الخطر هم أكثر الناس خوفاً من التائب المستحق. ولله درّ القائل:

- مازال الاحترام واجباً للخوف.

وقول هوميرس: ستكون يا ابت العزيز مخوفاً ومحترماً.

وقوله ايضاً: بخوفٍ صامت يتحملون الإضطهاد

وفي الناس عموماً استعداد كبير لاحترام كل من يرهونه لذلك شيد اللقيديميون معبداً للخوف لصق دار الايغور [سيسيتيوم Sysissitium] ورفعوا مقام هذه السلطة حتى ضاهت سلطة الملك.

وفي اليوم التالي للمذبحة، اصدر [كليومينس] قراراً بنفي ثمانين مواطناً، رأى ابعادهم عن سيطرة ضرورياً. كذلك رفع مقاعد الايغور كلها، خلا مقعداً واحداً يجلس هو عليه لاجراء المقابلات الرسمية ولانفاذ الأحكام. ودعا المواطنين كلهم الى اجتماع عام. وخطب فيهم معذراً عما قام به من تدابير بقوله:

- قضت شريعة [ليكورغوس] ان يحكم [مجلس الكبار] الى جانب الملك. وقد بقي هذا النظام معمولاً به مدة طويلة. ولم تدع الحاجة الى اتخاذ اي هيئة حاكمة أخرى، وفي اثناء الحرب الطويلة مع المسينيين، كان الملوك الذين هم قادة الجيش لا يجدون وقتاً كافياً لنشر العدل بين المواطنين وتصريف شؤونهم لغيابهم. فكانوا يختارون اصدقاء لهم فينيونهم للفصل في قضايا المواطنين وتسوية مشاكلهم، وأطلق على هؤلاء النواب اسم [الايغور] وكانوا في مبدء الأمر يعتبرون أنفسهم خدماً للملوك لا أكثر، لكنهم بدءوا بالتدريج يغتصبون السلطة، حتى تكونت منهم هيئة حاكمة أخرى متميزة والدليل على هذا، ذلك التقليد الذي مازال يتبعه الملك. فعندما يرسل الايغور يطلب حضوره، يمتنع عن الدعوة الأولى، وكذلك يفعل عندما يدعى ثانية. ولا يتوجه اليهم الا عند الدعوة الثالثة. وكان [استيروپوس Asteropus] اول من رفع الايغور الى أعلى درجة من المكانة واحرز لهم السلطة العليا، وعاش سنوات عديدة بعد ذلك. الا أنهم كانوا طوال وجوده يعملون ضمن نطاق صلاحيتهم ولا يخرجون عنها وكانت مجاراتهم ومماشاتهم أفضل من الخلاف معهم اجتناباً للفتنة. لكن الخضوع لدعي، حديث عهد بالسلطة لا يتورع عن تغيير نظام الدولة أمر يصعب احتماله. فقد اصبح الايغور ينفي ملوكاً، ويقتل آخرين دون ان يسمع لهم دفاع، ويتوعد بالويل أولئك الذين يطمحون الى اشاعة أفضل وأقدس نظام حكم شاهده [سپارطة]. ولو كان في وسعي تحرير لقيديميون من ربقتهم بدون سفك دماء لفعت، ولو تمكنت من انقاذ بلادي من تلك الاويثة الوافدة: الترف، والديون والبذخ، والربا؛ ومن أقدم شرين على الأراض: الغنى الفاحش والفقر المرقع لعددت نفسي اسعد ملوك الدنيا بنجاحي، الشبيه بنجاح الطبيب النطاسي عند قضائي على امراض بلادي دون احداث الآم. لكن الضرورة الجأتني الى الاقتداء بليكورغوس في اجراءاتي. لم يكن ليكورغوس حين قام بانقلابه، ملكاً أو حاكماً، بل

كان رجلاً عادياً عندما وجّه ضربه الى الملكية المطلقة. فقد دخل الساحة العامة شاكي السلاح. ففرّ الملك [خاريللوس Charillus] خائفاً والتجأ الى الهيكل، وكان انساناً صالحاً عاقلاً محباً لوطنه، فسارع بقبول اصلاحات [ليكورغوس] وافرّ التغيير الثوري في نظام الحكم. ان عمل [ليكورغوس] يقدم لنا الدليل الدامغ على صعوبة الانقلاب بدون استعمال القوة واشاعة الخوف. وكان باستعمالهما معتدلاً مقصداً، لم يفعل شيئاً أكثر من ازاحته أولئك الذين وقفوا عقبة في طريق سپارطة الى السعادة والأمان.

وقال لبقية الشعب:

- أصبحت الأراضي جميعها ملكاً مشاعاً فيما بينكم، وستبرأ ذمم المدنيين من ديونهم كلها. ويجرى الفحص على كل فرد لا يملك حق المواطنة، فالأشجع سيصبح سپارطياً حراً، يستخدم سلاحه للمحافظة على المدينة. وبهذا لن تشكو لاقونيا بعد الآن قلة المدافعين عنها، ولن تترك نهياً مقسماً بين الايتوليين والأيريين.

بعد هذا أعلن هو وزوج امه [ميغستونس] وصدقانه تنازلهم عن كل املاكهم لبيت المال العام، وأقتدى به جميع المواطنين. وقسمت الأرضون وجعل لكل من نفاه حصة في التقسيم ذلك لأنه وعد باعادتهم جميعاً حالما تستقر الأمور، وتهدأ. وأكمل ما نقص من عدد المواطنين بأفضل سكان الريف، وخير من توسم فيه الكفاءة. وبذلك جند أربعة آلاف مقاتل صنديد. ونبذ الحربة سلاحاً. وعلمهم استعمال ما يدعى [ساريسا Sarissa] بكلتا اليدين، واستبدل قبضة الترس الاعتيادية بسير. ثم بدأ بمشاوراته حول وضع منهاج لتهديب الشبان وقرينهم او «انضباطهم» كما يطلقون عليه. فتولى معظم التفاصيل المدعو [سفارس Sphars] الذي كان موجوداً في سپارطة وقتئذ. وما هي الا فترة وجيزة حتى عادت معاهد الرياضة البدنية والموائد الاشتراكية الى سابق عهدها الزاهر، ونظامها المتقن الغابر. وعاد معظم الناس بملاء أختيارهم خلا فئة قليلة بحكم الضرورة - الى ممارسة الحياة اللاقونية الأولى السمحاء. وتحاشياً من يعود اسم الملك ليثير الحسد في النفوس، بادر الى اشراك أخيه [يوكليداس Euclidas] في العرش. وهي المرة الأولى التي يحكم في سپارطة ملكان من أسرة واحدة.

وعلم ان [اراتوس] ومن ورائه [الاخائيون] توهم بأنه انقلابه هذا اشغله واورثه كثيراً من المتاعب والمشاكل، ولم يترك له مجالاً للمجازفة بالخروج من سپارطة المتقلبة على رمضاء هذا الانقلاب العظيم. فوجد [كليومينس] من المفيد والرائع حقاً.

ان يذيق اعداءه طعم إقدام جنوده وتفانيهم. فغزا بلاد [ميغالوپوليس] واجتاحها اجتياحاً.



ويعد أن ترفع المائدة، يؤتى بمحمل عليه وعاء نحاسي مليء بالخمر ويؤتي بجرتين فضيتين تتسع الواحدة منهما لحوالي ليتر واحد من الخمر، ويؤتى بعدد من الاقداح الفضية. وتترك الحرية لمن يريد ان يشرب ومن لا يريد، ولا يلح على الضيوف قط. ولا يوجد موسيقي. [فكليومينس] يقوم بتسليية الضيوف بالقاء الاسئلة حيناً، وبرواية الحكايات حيناً. ولم يكن حديثه بالرزين كثيراً ولا بالجدي الممل ولا بالخشن ولا بالفكاهة المعيبة.

وكان يمقت استخدام الجوائز والعطايا وسائل للابقاع بالرجال كما يفعل الملوك الآخرون. فهو يعتبرها اساليب زائفة متجردة عن الشرف. وبدأ له أن الانبل والاجدر بالملوك لكسب محبة المقربين منهم هي تبادل الاحاديث الرقيقة والمحاورات الممتعة؛ مادام الفارق الوحيد بين الصديق والمرتزق هو كسبنا الأول بالحديث المخلص وشرف الخلق. وكسبنا الثاني بقوة المال.

كان [المانتينيون] اول من طلب معونة [كليومينس] فدخل مدينتهم ليلاً وتعاون الطرفان على طرد الحامية الآخائية ووضعت المدينة تحت الحماية اللقيديمية. فأعيد نظام الحكم السابق وشرع في تطبيق قوانينهم الأولى. وفي اليوم التالي زحف على [تيفيغا]، ثم أخترق اركاديا بحركة دائرية وانقضى فجأة على [فيرى Pherae] في آخانيا، وقصده من ذلك ارغام [اراتوس] على التعرض له، والأ انحطت سمعته لأن احجامه سيدفع [كليومينس] الى التوغل في البلاد.

كانت القيادة الآخائية في تلك الفترة بيد [هيبرباتاس Hyperbatus] إلا أن [اراتوس] كان صاحب السلطة الأصلية الحقة. فتقدموا بكل قواتهم وعسكروا في [ديمي Dymae] بالقرب من [هيكاتوميوم Hecatombaeum] فأقبل [كليومينس] ووجد أن ضرب مخيمه ما بين [ديمي] المدينة العدو وبين معسكر الآخائيين. ينطوى على محاذير. فما كان منه إلا وتعرض للآخائيين بكل جسارة وارغمهم على دخول المعركة وهزم [فلانكسهم] وقتل عدداً كبيراً منهم واخذ أسرى كثيرين ومن ثم زحف على [لانغون Langon] وطرد منها الحامية الآخائية ورد المدينة للاليائيين حلفائه.

ولما تخرج وضع الآخائيين وساء، طلبوا من [اراتوس] والخوا وتوسلوا بأن يتولى القيادة، وكان قد رسم ان يتولى سنة ويعتزلها سنة، فأبى وكان في ابائه مخطئاً. فعندما يشتد هبوب العاصفة لايجمل بالملاح ان يستنكف عن الدقه، ويسلمها الى شخص آخر.

في مبدء الأمر أقترح [كليومينس] للصالح، شروطاً بسيطة معتدلة وارسل سفراءه للآخائيين. ثم أعقبهم بأخرين مطالباً لنفسه القيادة العليا للعصبة، أما في الأمور الأخرى فقد أظهر استعداد للمرافقة على شروط سهلة، وعلى اعادة الاسرى اليهم وارجاع اراضيهم. وكان

وشملت عملياته الحربية مساحة واسعة منها وتوغل بعيداً فيها، وفاز بكثير من الغنائم. ثم احتجز جوقاً من الممثلين كان في طريقه الى [مسينيه] وبنى مسرحاً في بلاد العدو ووضع جائزة تعادل اربعين مينا. وجلس يشاهد العرض المسرحي طوال اليوم، ليس لأنه بحاجة الى التسلية أو لكونه يحب التمثيل بل لظهار مدى استهانتته باعدائه. فبهذا يبرهن على مدى تفوقه ان جيشه وحده دون سائر الجيوش الملكية الاغريقية لم يزود بممثلين او دجالين او راقصين. او مغنيات، فقد خلا من كل شكل للدعارة والفجور ومظاهر الترف. الشباب من الجنود يقضون معظم الوقت في التدريب، والكبار منهم يشرفون على تدريبهم وتلقينهم دروساً في «الانضباط». وفيما عدا ذلك يتسلون بتبادل الملح والفكاهات المحليّة، ويتراشقون بتلك الاجوبة اللاقونية المحكمة السريعة، وكنا قد لحظنا النتائج الباهرة التي اسفرت عنها هذه الاساليب، عندما تصدينا لسيرة ليكورغوس.

وجعل [كليومينس] من نفسه قدوة. فقد كان نموذجاً حياً للبساطة امام كل ذي عينين. فلم يسمح لنفسه بمستوى عيش أعلى او أفخم من مستوى عيش مواطنيه. وهذا ما حقق له المكانة الفضلى عند الاغريق. ان الناس الذي يخدمون الملوك لا يعجبون بغناهم واثاثهم الثمين وعدد الخدم والعبيد الذين يحفون بهم قدر ما يكرهون غطرستهم وكبريائهم وصعوبة الوصول اليهم، واجوبيتهم المتكبرة للسائلين. وهذا ما لا تجده عند [كليومينس] فهو ملك في الواقع، يحمل اللقب الملكي إلا أن زائره لا يرى ارجواناً ولا حلاً ملكية مقصبة ولا محفات ولا ارائك يتقلب عليها مريحاً جسمه. وسائله لا يرى الباب مغلقاً بوجهه ولا يتسلم رداً على طلبه بعد صعوبات وتأخير لكثرة السعاة والحجاب، ولا يحظى بالاجابة عن طريق المذكرات، فكليومينس، ينهض ويتقدم باي ثوب يتفق انه ارتداه في ذلك اليوم - فيستقبل ذوي الحاجات والزائرين، ويكلّمهم بدون كلفة أو تحفظ. وبذلك يجتذبهم ويفوز بمحبتهم؛ مصرحاً بأنه الوحيد الذي هو ابن هرقل الحقيقي. ويتناول وجبات طعامه العامة في غرفة عادية قليلة الأثاث على الاسلوب اللاقوني. فاذا استضاف اجانب او سفراء اضاف الى الاثاث اريكتين. ويأمر خدمه بأن يجعلوا طعامه أرقى من المعتاد بشيء قليل، وليس معنى هذا أن تضاف الى اصنافه الحلوى والمقبلات، واطيب المأكول. بل تبدل الصحاف، بأخرى أكبر منها. وتزداد كمية الخمر. وقد أنب صاحباً له لأنه دعا بعض الاغراب الى طعام لايزيد عن الخبز الشعير والشورباة السوداء. وهو الطعام الذي يتناولونه عادة، في موآئدهم الاشتراكية المسماة [فيديتيا Phiditia]. وعتب عليه بقوله: في مثل هذه المناسبات، عندما يدعى اغراب الى الطعام، ليس من المستحسن أن يكون المرء لاقونياً بكل معنى الكلمة.

الآخائيون راغبين في الصلح على اساس هذه الشروط، ودعوا [كليومينس] للحضور في [ليرنا Lerna] حيث سيعقد اجتماع لبحث الأمر. إلا أن اسراع [كليومينس] في السير وشربه الماء في اوقات غير مناسبة جعله يتقيأ مقداراً من الدم، ويحّ صوته ولم يعد يقوى على الكلام. فتوقف وبعث للآخائيين بأهم الأسرى، وارجأ الاجتماع الى أمدٍ وقفل عائداً الى لقيديمون.

هذا التأخير غير المتوقع ادى الى خراب الأغرقيق ودمارهم وقد بدأوا او كادوا ينهضون من كبوتهم ويتخلصون من المحن والارزاء التي اخنت عليهم. فبدأوا يبدون بعض الكفاءة والمقدرة في استخلاص بلادهم من نير المقدونيين وعسفهم. فقد جاهد [اراتوس] اولاً، لإحباط الاتفاق بين [كليومينس] والآخائيين (اما خشية منه أو عدم ثقة به أو حسداً من النجاح غير المتوقع الذي اصابه الملك الفتى او ربما وجد مما يحطّ من قدره ان يخلفه في كل مجده وسطوته فتى نمض الأهاب، وهو الذي تولى القيادة العليا لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً، لم ينازعه فيها أحد، ليأتي كليومينس بعدها فيرأس تلك الحكومة التي تعب في بنائها ووضع أسسها هذه السنوات الطوال). فلم يصغ الآخائيون اليه، خوفاً من اقدام [كليومينس] واقتناعاً منهم بأن الشروط التي عرضها المقدونيون معقولة جداً، وكلها ترمي الى اعادة [الپيلوپونيس] الى وضعها الاعتيادي الاول. فضاقت السبل في وجه [اراتوس] ووجد مرجعه الأخير في عمل لايليق صدوره من اي اغريقي. عمل يحطّ من شرفه كثيراً وينتقص من شجاعته ومآثره الجسام. فقد دعا [انتيفونس] المقدوني الى بلاده وملاً [الپيلوپونيس] بالمقدونيين. وهو الذي طرد حاميتهم من كورنث، ثم أخرجهم من البلاد في ايام شبابه. بل وأكثر من هذا فقد أثر عنه شكه العظيم وخلافه المستحکم مع سائر الملوك، وفي مقدمتهم [انتيفونس] نفسه، الذي أسند اليه آلافاً من المثالب والنقائص في تعليقاته التي تركها بعد موته. لقد كان [اراتوس] لائم الحديث عن الاحوال التي قاساها والمخاطر والخسائر الجسام التي تعرض لها حتى تسنى له تحرير اثينا من حاميتها المقدونية وها هو الآن يأتي بنفس الرجال وهم شاكو السلاح الى موطنه، بل الى منزله، بل الى جناح نسائه فيه. لأنه لايتحمل فرداً من اسرة (هرقل) هو ملك سبارطة الذي حقق انقلاباً اصلاحياً عظيماً في حكومة بلاده، وانقذها من التوافق الفوضوي، ان جاز لنا القول، واعاد تطبيق الأنظمة الدورية Doric البسيطة، ونظام الحكم الذي كان يسود سبارطة في عهد [ليكورغوس]. فهو يستكثر عليه رئاسة [التريتيايان Tritaeans] و[السيكيونيان Sicyinians] وفي الوقت الذي استأصل الغنى وأصلح أمر الفقير (وهذه تهمة [اراتوس] الفضلى لكيومينس) كان هو يترفع عن تناول خبز الشعير وارتداء المعطف

الحشن، يعمد الآن الى ان يعنو طائعاً ومعه أخائياً بشكل مهين للتاج المقدوني وارجوانه واوامره التعسفية، وحكام اقاليمه. وبالغ في تكريم [انتيفونس] لكي ينأى عن كليومينس ويزيل اي شك في انه تحت امرته - فقدم قرابين باسم [انتيفونيا] مشتقاً من [انتيفونس] وانشد التراتيل الدينية وعلى رأسه أكليل الزهر، ممجداً مسبحاً بحمد مقدوني مهزول مصدور. أكتب هذا ولست انوى به النيل من [اراتوس] قطّ. فهذا الرجل اثبت في وقائع كثيرة صدق حبه للاغرقيق، الى جانب عظمته. وما ذكرت هذا الا اشفاقاً مني على الضعف البشري الذي يستولى على نفوس رفيعة، متمسكة باهداب الفضيلة في شتى صورها واشكالها، فيتعذر على اصحاب تلك النفوس ان يبقوا شرفهم غير مثلوم وان يحتفظوا بامجادهم الغابرة. بهفوة واحدة من هفوات الغيرة والحسد.

واجتمع الآخائيون في مؤتمر ثانٍ ب[ارغوس] واقبل [كليومينس] من [تيفيا]. وكان الأمل كبيراً بتسوية جميع اسباب الخلاف. لكن [اراتوس] كان بالمرصاد، فقد اتفق هو و[انتيفونس] سلفاً على الشروط التي سيتم بها التحالف. وخوفاً من ان يأتي [كليومينس] ويجردهما من كل شيء، إمّا بالاتفاق التام، وأمّا بارغام المؤتمر على الموافقة، فقد اقترحاً ان يوضع بيد [كليومينس] ثلاثمائة من الرهائن لكي يدخل المدينة وحده. اذ يأتي بجيشه الى ساحة التدريب المسماة كلارايون Cylarabium، والواقعة في ظاهر المدينة، فيفاوض هناك.

وأبلغ [كليومينس] بهذا فقال لهم انهم يسيئون معاملته، اذ كان عليهم أن يعلموه بنيتهم هذه من الأول. وها هم بعد أن قرع بابهم يظهرن ارتيابهم به ويسدون بابهم في وجهه، وكتب رسالة الى الآخائيين في هذا الصدد، كان معظم ما فيها تهم موجهة ل[اراتوس]. أما [اراتوس] فقد وقف في الاجتماع يشنّ عليه هجوماً عنيفاً. فأسرع [كليومينس] یرتحل عنهم. وارسل برقيا الى آرغوس [ايگيوم Aegium - في تعليقات اراتوس] يعلنهم بالحرب، لكيلا لايدع لهم وقتاً كافياً للتأهب والدفاع. ونجحت حركة ممالئة له بين الآخائيين انفسهم، وتهيأت المدن للثورة بلهف لأن العامة من الناس كانوا ينتظرون من راسة [كليومينس] توزيعاً للاراضي وتخلصاً من الديون. وكان رؤساء القوم في كثير من المدن لايطيقون [اراتوس] وبعضهم سخط عليه ونقم، لجلبه المقدونيين الى [الپيلوپونيس]. هذا التنازع والخلاف شجع [كليومينس] على غزو آخيا. فاستولى اولاً على [پليني Pellene] بهجوم مباغت وطرد منها الحامية الآخائية، ثم ضم اليه [فينيوس Pheneus] و[پنتلليوم Pentelleum]. وشكّ الآخائيون بخيانة مبيته لهم في كل من [كورنث] و[سيكيون Sicyon] فأرسلوا خيالتهم

ومرتزقتهم من ارغوس] وجعلوها عيوناً عليهما. وخرجوا الى ارغوس للاحتفال بالالعب [النيمية Nemean] وعلم [كليومينس] بخروجهم، وكان يأمل بأنه سينشر رعباً شديداً ويحدث في صفوفهم اضطراباً واسع النطاق لو تقدم ليلاً وداهم المدينة وهي ساهية عنه لاهية بالالعب وبما لا يحصى من المشاهدين، فزحف بجيشه حتى اسوارها. ثم انقضت على الحي الذي يسمى [آسپس Aspis] ويقع الى شمال الملعب. وهو جيد التحصين يصعب التعرض له، بله الاستيلاء عليه، فكان الرعب الذي احده عظيمًا. وبهت الجميع فلم يبد احد اية مقاومة. الا انه رضي منهم بشروط سهلة هي موافقهم على ابقاء حامية في المدينة، وتسليمه عشرين رهينة من مواطني المدينة. ومساعدة اللقيديين والتسليم له بالقيادة العليا.

هذه المآثرة الحربية رفعت من شهرة كليومينس ووسعت نفوذه ودعمته. ظلت [ارغوس] ممتنعة عن كل ملوك سبارطة الاقدمين فمع محاولاتهم المتكررة لم يفلحوا في ضمها بشكل دائم. و[بيروس] القائد المحنك الأكثر تجارياً من اي قائد آخر، دخل المدينة عنوة ليقتل داخلها وليموت معه جزء كبير من جيشه. لذلك كان الإعجاب عاماً ببراعة [كليومينس]. فأولئك الذين كانوا يسخرون منه لتقليده [صولون] و[ليكورغوس] في تحريره الناس من الديون واشاعة المساواة في الملكية بين المواطنين، اسرعوا الآن يقرون بأن نجاحه هذا، ما هو الا ثمرة الاصلاحات التي اجراها في سبارطة. لقد كان السبارطيون قبل ذلك اعجز عن المحافظة على مدينتهم، لضعفهم الشديد نسبة الى اقرانهم. فقد غزا الايتوليون [لاقونيا] واستاقوا منها خمسين ألفاً من العبيد؛ ويذكرون ان أحد السبارطيين الشيوخ قال بهذه المناسبة: انهم (اي الغزاة) خدموا لاقونيا بتخفيف العبء عنها. مع هذا فبمجرد عودتهم الى تقاليدهم الأولى، وممارستهم الانضباط في زمن قصير جداً راحوا يضربون الأمثلة الفريدة في الشجاعة والطاعة. كأنهم يعملون تحت سمع وبصر [ليكورغوس] نفسه. فرفعوا سبارطة من الحضيض ليضعوها في المحل الأول، دولة قائدة في بلاد الاغريق. واستعادوا كل [الپيلوپونيسس].

بعد الاستيلاء على [آرغوس] اسرعت [كليوني Cleonæ] و[فليوس Phluis] باعلان انضمامها الى [كليومينس] وكان [اراتوس] في كورنث، يتعقب من قبل انهم موالون لسبارطة، فأقلقه نبأ هذه الانتصارات، مدركاً ان [كورنث] نفسها تميل الى [كليومينس] وتريد التخلص من الآخائين. فدعا المواطنين الى الاجتماع في قاعة المجلس. وتسلل هو دون ان يلحظه احد، وخرج فامتطى جواده الذي كان قد هيء له وفرّ الى [سيكيون]. فخفّ الكورنثيون الى [ارغوس] كأنهم على جناح طائر، أو كما يصف اراتوس ذلك: «كانوا يتسابقون على اولوية الوصول الى كليومينس» حتى أن خيولهم نفقت تحتهم! وغضب

[كليومينس] على الكورنثيين لأنهم لم يحولوا دون هروبه. ويضيف [اراتوس] قوله: ان [ميغستونس] جاءه مؤفداً من [كليومينس] يطلب منه تسليم قلعة [كورنث] التي كانت تحتلها حامية آخائية. وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، فأجابه أن زمام الأمور قد افلتت من يده وانه الآن تحت رحمة الأهالي. هذا ما خطته يد [اراتوس]. على ان [كليومينس] سار اليها من [ارغوس] وفي طريقه اخضع الطرويزينيين Troyzenians والإپداوريين والهرميونيين Hermionians]. واذ بلغ [كورنث] شرع بحصار القلعة من جميع الجهات بعد ان ابى الآخائيون تسليمها. ودعا اليه اصحاب [اراتوس] وبطانة بيته، فوضع منزله وماله ونشبهه في عهدتهم امناءً عليه. وبعث [تريتيمالوس Tritymallus] المسينني اليه، بعروض صلح، وهي أن تشترك في حماية القلعة حاميتان سبارطية واخائية بعدد مساوٍ من الجنود. وان يعطى ضعف المرتب الذي خصصه له بطليموس الملك. فرفض [اراتوس] وأرسل [ابنه مع رهائن آخر الى انتيغونس، وراح يسعى لاقتناع الكورنثيين باصدار قرار بتسليم القلعة لانتيغونس]. فما كان من [كليومينس] الا وأغار على بلاد السيكيونيين. وحمل الكورنثيين على اصدار قرار بمصادرة اموال [اراتوس] للمدينة.

كان [انتيغونس] في الوقت عينه يجتاز [جيرانيا Geranea] بجيش جرار. ففضل [كليومينس] ان يحصن ويعزز مواقعه في جبل يدعى [اونيا Onea] لا في البرزخ، وأن ينهك الجيش المقدوني بحرب المواقع والنقاط المستحكمة، لا ان يجازف بمعركة فاصلة يلعب فيها الفلانكس المقدوني المحكم دوراً حاسماً. واسرع بتنفيذ خطته، مخيباً آمال [انتيغونس] تماماً فقد قدم وليس معه مؤن كافية لحرب الإنهاك التي فرضها عليه [كليومينس] كملك لم يكن من السهل عليه ان يشق طريقه من الممر عنوة وكليومينس يسيطر عليه. وحاول المرور ليلاً عبر [ليكيوم Lechaëum] لكنه أخفق وخسر عدداً من رجاله. وارتفعت معنويات جيش [كليومينس] وبلغ اعتزازه بهذا النصر الى الحد الذي جعلهم يذهبون الى العشاء في حالة مرح صيباني. وركبت [انتيغونس] الكأبة. والجاه موقوفه العسير الى محاولات يائسة لم تجده فتيةلاً. وكان في سبيل اتخاذ خطة الزحف باتجاه رَعَن<sup>(١)</sup> [هيريوم Heraeium] ومنها ينقل جيشه الى [سيكيون] بالزوارق. هي عملية

تتطلب وقتاً طويلاً، وكثيراً من المهمات والاستعداد. الا ان اصداق لاراتوس وصلوا مساء من [ارغوس] عن طريق البحر وشاروا عليه بالعودة لأن [الارگيڤيين] شقوا عصا الطاعة على [كليومينس] و[ارسطوطل Aristotle] يتزعم الفتنة وهو الذي فجر الثورة، اذ سهل

(١) الرَعَن هو قمة الجبل الداخلة في البحر.

عليه اقناع الأهالي الذين كانوا بصورة عامة ساخطين على [كليومينس] لأنه لم يبرّ بوعده فيلغني ديونهم وعلى هذا، سار [اراتوس] على رأس ألف وخمسمائة مقاتل من جيش [انتيفغونس] وابتحر بهم الى [ايبداوروس]. الأ [ارسطوطل] لم يشأ الانتظار واخرج الأهلين وبدأ بالتعرض لحامية القلعة، وأقبل [تيموكزينوس Timoxinus] بالأخائين من [سيكيون] لنجدته.

وسمع [كليومينس] بالفتنة في حدود الهزيع الثاني من الليل، فأستدعى [ميفستونس] وامره غاضباً بأن يذهب الى [ارغوس] لتسوية الأمور، فهو الذي تعهد بولاء الارغوسيين وهو الذي أقنعه بالا ينفي المشتبه بهم. واعطاه ألفين من الجنود وبقي هو يرصد [انتيفغونس] ويشجع الكورنثيين. بقوله ان الاضطراب في [ارغوس] ليس بالذي يؤيه به، وانما هو فتنة أثارها شرذمة لاقيمة لها. لكن [ميفستونس] قتل فور دخوله [ارغوس] وتعذر صمود الحامية فراحت تبعث بالرسول تلو الرسول طالبةً نجدةً. ولخوف كليومينس من ان يعمد العدو بعد احتلاله ارغوس، الى سدّ الممرات والتوغل في لاقونيا آمناً وحصار سبارطة وهي بدون حماية، أجلي عن [كورنث] فحسّر المدينة حالاً لأن [انتيفغونس] دخل في اعقابه ووضع الحاميات فيها. وانحرف [كليومينس] عن استقامة سيره وهاجم [ارغوس] ليأخذها بالمفاجأة، ثم جمع قواته الزاحفة فأقتحم بها الاسبيس Aspis، واتصل بالحامية التي بقيت صامدة في الداخل ازاء الأخائين وتسلق الاسوار في جوانب من المدينة واستولى عليها وامر رماته الكريتيين فطهروا شوارعها من المقاومين. الأ انه شاهد [انتيفغونس] ينحدر بفلاتنكسه من الجبل نحو السهل، كما دخلت خيالته المدينة من جميع الجهات، فوجد ان المحافظة على مواقعه في المدينة غير ممكن، فجمع رجاله وانسحب بسلام متقهراً تحت السور.

احرز [كليومينس] في وقت جد قصير سلطاناً عظيماً. في سفرة واحدة (ان صحّ القول) نصب نفسه سيداً على الپيلوپونيس. وبوقت يساويه في القصر، أضع الكللّ فبعض حلفائه تخلى عنه وبعد فترة وضع بعضهم مدنهم تحت حماية [انتيفغونس] وهكذا خابت آماله وفشلت مساعيها. وراح يقود شراذم من قواته عائداً. وفي الطريق لقيه رسل في لقيديميون وهو في تيغيا، حاملين له نبأ أعظم نكبة وأشدها ايلاماً. هو نبأ وفاة زوجه التي كان يحبها أشدّ الحب، ولا يطيق عنها بعداً، اد ما كان يتردد وهو في المنحج حملاته وقمة انتصاره أن يترك جيشه ويعود الى سبارطة لزيارة [آغياستيس].

كان حزنه عليها عظيماً ورزوه بفقدتها كان قميناً بأي شاب فاضل اجمل وأفضل زوج. الا انه لم يدع عاطفته تصيبه بالعار، ولا لضعفه يفسد رجاحة عقله. فتجلد ولم يخنه صوته ولا

تقاطع وجهه، ولم يطرأ على عاداته خلل. واستمر يصدر الاوامر الضرورية لضباطه، ويتخذ التدابير اللازمة للدفاع عن [تيغيا]. وفي صباح اليوم التالي وصل سبارطه. وندب هو وامه وطفلاه خسارتهم ومصيبتهم. ثم أنهى الحداد وياشر فوراً بتصرف شؤون الدولة.

ووعده [بظليموس] ملك مصر بالمساعدة. الأ انه اشترط عليه ارسال امه وطفليه ليقبوا عنده بمشابة رهائن. فظل فترة طويلة يخجل من مفاتحة امه. وكثيراً ما قصدها لهذا الغرض فما يهم بالحديث الأ ويرتج عليه فيتردد ثم يعدل. واخذت الشكوك تساورها من سلوكه هذا وسألت صدقانه عما اذا كان قد كتم عنها شيئاً يخشى مفاتحتها به؟ أخيراً لم يسعه أخفاء الأمر عنها، فصارحها ففقهته ضاحكة وقالت:

- أهذا ما كنت تحاول مصارحتي به ثم تحجم؟ هيا عجل وضعني على ظهر السفينة. ابعث بهذه الرّمة الى حيث تؤدي اعظم خدمة لسبارطة، قبل أن تتلفها عاديات السنين وتستهلك كل منفعة منها.

وقمت كل التدابير للرحلة، وسافروا براً حتى [تيناروس] والجيش كله تحت امرهم وبحراستهم. وعندما تهيأت [كراتيسيكليا] لركوب السفينة. انتحت بابنها جانباً ثم قادته الى هيكل [انيتون] وهناك أكبت عليه تعانقه قائلة:-

- امض في سبيلك يا ملك سبارطة. وان خرجنا الآن فلا تدع احداً يرانا باكيين. ولا تظهر اي ضعف عاطفي غير لائق بسبارطه. فهذا هو أساس قوتنا. اما بخصوص النجاح والفشل فقل لن يصيبنا الأ ما قدرته لنا الآلهة.

وتجلدت وتصبرت، وخرجت بحالة اعتيادية فركبت السفينة مع حفيديها وامرت القبطان بالاقلاع حالاً. ولما وصلت مصر وعلمت ان [بظليموس] يزن مقترحات وعروض سلم من انتيفغونس وان [كليومينس] قد دعاه الأخائيون والحوا عليه بعقد اتفاق فأبى لأنه كان يخاف عليها من بظليموس ان تمّ ذلك بدون رضاه. فكتبت اليه تنصحه بان يفعل ما هو لائق بسبارطه نافع لها، وان لا يخشى بظليموس بسبب عجز وطفلين كذلك كانت اصالة خلتها وهي في وسط محنتها وسوء حظها.

بعد استيلاء [انتيفغونس] على [تيغيا] واجتياح [اورخوينس] و[مانتينيا] وجد [كليومينس] نفسه محصوراً في حدود لاقونيا الضيقة. فعمد الى سدّ حاجته من المال بأن سمح لكل فرد من [الهيلوت] بان يفتدي حريته بخمسة پاونات آتيكية فجمع بذلك خمسمائة تالنت. وسلّح ألفين من المقاتلين تسليحاً مقدونيا فتم له وحدة مقاتلة خليقة بمقارعة

[ليوكاسبيدس Leucaspides] قائد [انتيفغونس]. ووضع خطة رائعة غير مسبوقه: كانت [ميغالوپوليس] في ذلك الحين كمدينة قائمة بذاتها لاتقل مناعة وعظمة عن سبارطة نفسها. اصف الى هذا ان قوات [انتيفغونس] والآخائيين قد عسكرت بالقرب منها. وكان الميغالوپوتيون ذوي اليد الطولى في استدعاء [انتيفغونس] للمعونة الآخائيين. وكانت خطة كليومينس تعتمد على «خطف» المدينة (ليس ثم كلمة أخرى أنسب من هذه لوصف عملية حربية تمت بمثل تلك السرعة والفجأة) فأمر رجاله بأن يتزود كل منهم بمؤونة خمسة أيام وسار بهم نحو [سيلاسيا] كأنه يعتزم اجتياح بلاد [الارغيث] إلا انه انحدر من هناك الى تخوم [ميغالوپوليس]. وبعد ان اراح جنوده عند [رويتيوم Rhoeteum] انحرف فجأة الى طريق [هيليكوس Helicus] وتقدم من المدينة رأساً. ولما اصبح على مسافة قصيرة منها أرسل [پانتيسوس Panteus] على رأس لوائين للاتقضاض على جانب من الاسوار يقع بين برجين، علم انه أقل الاجزاء حمايةً في اسوار المدينة، ثم تقدم خلفه ببقية جيشه، سائراً على هونه. ولم يكتف [پانتيسوس] باكمال مهمته على خير وجه، وانما وجد جزءاً كبيراً من السور بدون حماية. فباشر في الحال بهدم اقسامٍ منه، وثغره عدة ثغرات في أماكن أخرى وقتل كل مدافع تصدى له. وفيما هو منهمك بذلك. وصل [كليومينس] ودخل المدينة بجنوده قبل ان يشعر الميغالوپوتيون بالباغته ولما علموا بما اصابهم ترك فريق منهم المدينة حاملاً ما استطاع حمله من متاع. وحمل فريق سلاحه وخرجوا لقتال المهاجمين ومع انهم لم يستطيعوا ردّهم على الأعقاب، إلا ان دفاعهم اتاح للمواطنين الفرصة والوقت للجلاء عن المدينة بسلام. ولذلك لم يكن في المدينة أكثر من ألف نسمة عند تمام احتلالها. اما البقية فقد هربت بالزوجات والاطفال الى [مسينيه] ونجا كذلك جلّ الذين قاتلوا العدو وحاولوا صدّه. ووقع منهم أسرى قليلون، ومن بينهم [ليساندريداس Lysanderidas] و[ثيريداس Thearidas] وهما من ذوي المقام الكبير والنفوذ عند الميغالوپوليتيين، ولذلك احضرهما الجند امام [كليومينس] حال وقوعهما في الأسر. وما أن وقع نظر [ليساندريداس] على الملك من مبعده حتى صاح قائلاً:

- والآن يا ملك سبارطة لقد بات في مدى سلطانك أن تشتري اعظم المجد بقيامك باعظم وانبل عمل ملكي اقدمت عليه حتى اليوم.

فأدرك [كليومينس] ما يقصده واجابه: ماذا تقصد [يا ليساندريداس]؟ من المؤكد انك لاتنصحنى باعادة مدينتكم اليكم ثانية؟

فقال [ليساندريداس]: بل هذا ما اقصده. وانصحك بالآء تعمل يد الخراب في مدينة باسلة كهذه المدينة، بل ان تملأها باصدقاء مخلصين اوفياء وحلفاء لك، بان تعيد البلد الى

الميغالوپوتيين. وبأن تصير منقذاً لهذا الحشود الكبيرة من الناس.

ففكر [كليومينس] برهة ثم قال: انه لمن الصعوبة بمكان الايمان بهذه الأمور الى حد كبير، لكن فلتفسح المنفعة مكانها للمجد.

ثم ارسل هذين الأسيرين الى [مسينيه] مع رسول من قبله يدعو [الميغالوپوليتيين] الى مدينتهم. ان هم قطعوا روابطهم مع الآخائيين وانقلبوا حلفاء له. ولكن [فيلوپومين] لم يقبل ان ينقضوا حلفهم مع الآخائيين رغم بساطة الشروط وكرامتها وانسانيتها. وراح يتهم [كليومينس] امام الأهالي واطهر نواياه بشكل معكوس. قائلاً انه لا يريد اعادة المدينة اليهم، بل الاستيلاء على أهاليها ايضاً. ثم أجبر [ثيريداس] و[ليساندريداس] على مغادرة [مسينيه].

[فيلوپومين] هذا، اصبح فيما بعد زعيم الآخائيين، ونال أعظم شهرة ومكانة بين الاغريق وقد تقدم ذلك في سيرته).

عندما سمع [كليومينس] بما جرى في [مسينيه] ساوره غضبٌ شديد. وكان قبل ذلك قد شدد بعدم نهب المدينة واتخذ التدابير الوقائية لذلك - فأمر في سورة غضبه هذا ونفاد صبره، بتجريد المدينة من كل ما هو نفيس فيها وارسل الصور والتماثيل الى سبارطة وهدم جزءاً كبيراً منها ثم انسحب خشية اطلاق [انتيفغونس] و[الآخائيين] عليه. لكنهم لم يأتوا بحركة. اذ كانوا وقتئذ يحضرون مجلس حرب في [ايگيوم Aegium]. هناك اعتلى [اراتوس] منبر الخطابة وبكى ملياً سائراً وجهه بطرف رداه، فران الذهول على المجتمعين وعلتهم البغته، ثم صاحوا وطلبوه بالكلام فقال:

- [ميغالوپوليس] دمرها كليومينس!

وسكت. فأنفرط عقد المجتمعين فوراً. وذهل الآخائيون لعظم الخسارة وفجائيتها. واعتزم [انتيفغونس] ارسال نجدات عاجله، ولما رأى البطء الشديد في عملية التجمع من المقرات الشتوية. اصدر اوامره بالبقاء حيث هي. وسار بنفسه الى [ارغوس] تحرسه ثلة من الجنود.

ومع ان العملية التالية التي اقدم عليها [كليومينس] بدت مغامرة جنوبية يائسة، ولا انها في رأي [پوليبوس] عملية ذات تصميم ناضج وتنفيذ متقن تنطوى على بعد نظر كبير. فبعد ان تأكد [كليومينس] ان المقدونيين متفرقون في مقراتهم الشتوية وان انتيفغونس مع اصحاب له وقليل من المرتزقة يُشتى في [ارغوس]، أغار على بلاد [الارغيث] مؤملاً ان يدفع الخوف من العار [انتيفغونس] الى الاشتباك معه في ظروف غير متكافئة. فان أبى

القتال فستهبط مكانته عند الآخائين الى الحضيض. وهذا ما كان، فان السلب والنهب والذي عمله في بلاد الارغيث، اثار غيظهم وألمهم فتجمعوا حشوداً كبيرة أمام باب الملك واخذوا يصيحون به قائلين: عليه أن يقاتل أو ان ينزل لغيره عن القيادة اشجع منه وأكثر أقداماً. إلا ان انتيغونس وهو القائد المحنك. عدّ المجازفة الحمقاء بمصير جيشه، وتركه مواقعه الآمنة، أكبر عاراً من تأنيب الناس وسخرتهم به. فلم يعرفهم أذناً صاغية، وأصرّ على عدم الاشتباك بمعركة مع [كليومينس]. وفي اثناء ذلك بلغ جيش عدوه اسوار المدينة وهو يعيث في الانحاء سلباً ونهباً دون ان يلقي مقاومة ما، مجرداً خصمه الإهانة تلو الاهانة، ثم انسحب.

بعد فترة أبلغ [كليومينس] ان انتيغونس ينوي التقدم نحو [تبيغيا] ومنها يشرع في غزو لاقونيا، فأسرع يقود جنوده متحامياً الطريق حتى ظهر امام ارغوس عند تبشير الفجر. وعمد الى تخريب الحقول المحيطة بها. ولم يجتث سنابل القمح كما يفعلون عادة بمناجل الحصاد والسكاكين وانما كان يدق السنابل دقاً بهراوات خشبية ضخمة كالسيوف العريضة وهو سائر غير متوقف احتقاراً واستخفافاً مقصوداً، دون ان يتكبد في ذلك جهداً أو يضيع وقتاً. وهكذا اتلف حاصلهم. إلا انه اعترض محاولة جنوده اشعال النار في [كللابارس] [Cyllabaris] وهو ملعب رياضي، كأنه شعر بأن الخراب الذي حدثه في ميغالوبوليس كان لغلبة العاطفة على الحكمة. وسبقه [انتيجونس] الى [ارغوس] واحتل الجبال والشعب ووضع فيها ربايا. فلم يابه [كليومينس] ولم يكثرث وارسل رسولاً يطلب مفاتيح هيكل [جونو] كأنما يريد تقديم القرابين فيه ثم يعود من حيث اتى!

بهذا المزاح الاليم الشامت الموجه [لانتيجونس] ضحى للآلهة تحت جدران الهيكل المغلق ثم توجه الى [فيلوس] ومنها الى [اوليغيرتس] [Oligyrtis] حيث طرد محتليها. ثم سار نزلاً الى [اورخومينوس] ودخلها.

هذه العمليات فضلاً عن انها شدت من عزائم المواطنين - جعلته يبدو امام اعدائه رجلاً جديراً بالقيادة العليا، قادراً على اصطناع العظائم. فبقوات مدينته فقط، نازل المقدونيين ذوي القوات الجبارة فدوخهم وقاتل كل البيلوپونيس ومن وراءهم اموالهم وكنوزهم تدعمهم. وحافظ على لاقونيا من غوائل السلب فضلاً عن اجتياحه بلاد العدو واستيلائه على العديد من المدن الهامة وهذا كله دليل على عبقرية قيادية فذة وبراعة غير عادية.

ان اول القائلين بأن المال هو عَصَب الأمور، يبدو انه كان يقصد الحرب خاصة. ولما اقتنع الآثينيون على وجوب انزال سفنهم وتجهيزها للحرب وعجزوا عن ايجاد المال اللازم قال [ديماديس]:

- المطلوب، الخباز أولاً، ومن ثم الملاح.

وارخيداموس الغابر - في بداية حرب [البيلوپونيس] عندما اجمعت كلمة الحلف على تحديد حصّة كل حليف في النفقات، قيل انه اجاب:

- ان الحرب لايمكن ان تعتدّ بكذا ايام.

كان [انتيجونس] كالمصارعين الذين اكملوا تدريبهم واعدوا اجسامهم اعداداً صحيحاً، فراحو ينهكون قوى أخف منازلهم وابرعهم مناورةً. فقد دخل الحرب بموارد عظيمة. واتعب [كليومينس] الذي صعب على امالقه تأمين المال الكافي لدفع اجور مرتزقته. او لتدبير قوات مواطنيه. أما في ما عدا هذا، فان عامل الزمن كان الى جانبه. فالاحوال لم تكن على مايرام في مقدونيا، وقد اجتاحتها البرابرة وتوغلوا فيها وهو غائب عنها. وفي عين الوقت دخلها جيش جرار للاليريين، فبعث المقدونيون يستعجلون بالعودة، وكادت الرسائل تصله قبيل المعركة، ولو وصلتته لأسرع بالعودة تاركاً الآخائين يتدبرون امرهم إلا ان الحظّ الذي أغرم بتقرير نتائج الاحداث العظيمة في دقيقة واحدة. ابدى في هذا الحدث دقة زمنية رائعة. فبعد ختام معركة [سيلاسيا] مباشرة، تلك المعركة التي خسر فيها كليومينس جيشه ومدينته - وصل السعاة وطلبوا مقابلة انتيجونس. وهو ما جعل سوء طالع [كليومينس] أكثر استدراراً للشفقة والعطف. فلو انه استمر يتقهقر ولو انه تحاشى الدخول في المعركة يومين آخرين لما عادت الحاجة تدعوه الى المجازفة اذ بعد رحيل المقدونيين سيكون بمقدوره ان يفرض ما يشاء من الشروط على الآخائين. إلا انه اضطر كما اسلفنا الى وضع آخر امله في سلاحه، لافتقاره الى المال، وارغم على زجّ العشرين الفاً (حب رواية [پوليبيوس]) يقابل ثلاثين ألفاً، وقد اثبت نفسه قائداً رائعاً في هذه الوقعة العصبية. وأظهر مواطنوه شجاعة فائقة، وحارب مرتزقته حرباً بطولية. إلا انه غُلب بعامل الاختلاف في أساليب التعبئة، وانحطم تحت ثقل [الفلانكس] بسلاحه الثقيل. ويؤيد [فيلاخوس] كذلك ان السبب في هزيمة [كليومينس] هي خيانة بعض المبطانة والمقرين منه.

أمر [انتيجونس] بتقدم الاليريين والاركارنانيين على محور شبه دائري فوق طريق خفية، ثم تطويق الجناح الذي يقوده [يوكليداس] أخ [كليومينس]، ثم جرّ بقية قواته الى المعركة. وكان كليومينس قد صعد ريوه منبسطة لمراقبة تنفيذ اوامره. ولما لم يشاهد أثراً ما للقطعات الاليرية والاركارنانية بدأ الشك يساوره بان [انتيجونس] قد أرسلها للقيام بشيء شبيه بما فصلناه فاستدعى [داموتيلس] [Damoteles] قائد الوحدات التي انيطت بها واجبات نصب الكمائن. وطلب منه ان يتعصّى بانظاره وضع المؤخرة وان ينعم النظر فيما وراء الجبهة فهناك

شيء ما قد يكتشفه. إلا أن داموتيلس (وقيل ان انتيغونس اشتراه) اطمأنه بألا شيء يخشى منه، وعليه الأ يقلق فالمؤخرة على مايرام، والواجب عليه الآن هو ان يحصر اهتمامه بالجبهة الأمامية وبالذين سيقا تلونه منها. فاطمأن [كليومينس] وتقدم متعرضاً للعدو. وهجم السبارطيون هجمة عنيفة زحزت الفلانكس المقدوني من مكانه واجبرته على التقهقر وبجولة أخترق ناجحة مرت قطعاته بين قوات [انتيجونس] وتغلغل الى مسافة نصف ميل. الأ أنه اوقف العملية عند ادراكه الخطر الذي بات يتعرض له الجناح الملتف بقيادة أخيه وناداه قائلاً:

- لقد ضعت يا أخي العزيز، لقد ضعت انك لمثل باسل لشبابنا السبارطي، ولحن لأناشيد نساتنا.

وتمزق جناح [يوكليداس] وتشتت قواته بدهاء. وانقض عليه المنتصرون من هذا الجانب المكشوف وسرعان ما دبت الفوضى في جنوده وعجز عن مواصلة القتال فهرب. وقيل انه لم يسلم من السبارطيين الستة آلاف غير مائتين وسقط كثير من المرتزقة.

عندما دخل [كليومينس] سبارطة نصح من استقبله أن يخرجوا للقاء [انتيجونس]. واما عن شخصه فسيختار ما هو أصلح لسبارطه موتاً أكان أم حياة. ورأى النسوة يفزعن لاستقبال من نجا معه، ويتناولن منهن اسلحتهم ويسقيهن. فدلن الى منزله وتقدمت منه خادم وهي امرأة حرة كان قد جاء بها من [ميغالوبوليس] بعد وفاة زوجها وهمت بخدمته جرياً على العادة. فرفض ان يشرب شيئاً مع انه كان يشكو عطشاً شديداً. وأبى الجلوس مع أنه كاد يسقط أعياءً. واستقرت ذراعاه وهو مازال لايسأ دروعه - فوق عمود. واسند جبينه الى مرفقه واراح جسمه قليلاً. ثم بدأ بقلب الفكر في السبل التي بتعيين عليه الأخذ بها. ثم انه توجه مع بعض اصحابه الى [گيتيوم Gythium] فوجد السفن التي اوصى عليها مهياً، فركبها.

واستولى [انتيجونس] على سبارطة. واحسن معاملة اللقيديين ولم تتعرض مكانة المدينة لإهانة او تجريح بأي شكل من الأشكال وسمح للاهلين بممارسة قوانينهم ونظام حكمهم. وبعد ان قدم قرايبنه رحل عنهم في اليوم الثالث لدخوله، لأنه سمع بنشوب حرب طاحنة في مقدونيا، وعلم ان البرابرة يجتاحون بلاده. فضلاً عن اشتداد وطأة العلة عليه فقد انقلبت الى سل والتهاج في قصبات التنفس. مع ذلك لم يهن وظلّ مثابراً وتمكن من العودة وانا قاذ بلاده، والموت ميتة مجيدة مشرفة وسط الهزيمة الشنعاء والمقتلة الكبرى التي اوقعها بالبرابرة. ويذكر [فيلارخوس] وهو من الأمور المحتملة جداً. ان أحد اوعيته الدموية انفجر لشدة الصيحات التي اطلقها في ميدان القتال. وقد قرأنا في المدرسة، انه صاح من فرط فرحه بعد أن تمكن من النصر:

- يا لك من يوم ميين!

فنفث مقداراً من الدم، وركبته الحمى ولم تفارقه حتى فارقت روحه. هذا ما يتعلق [بانتيغونس].

ابحر [كليومينس] من [كيشيرا Cythera] الى جزيرة أخرى تدعى [ايگياليا Aegialia]. وكان يهم بالاقلاع منها الى [كيريته Cyrene] حين انتحى به صاحبه [ثيريكيون Thery-cion] جانباً. وكان رجلاً نبيل النفس في كل المواقف. جريء اللسان، مرحاً. فقال له:

- مولاي. ألموت في ساحة الوغى وهو أشرف الموت، ضاع منا. ومع اننا جميعاً نعلم أن [انتيجونس] لن يطأ ملك سبارطة وهو حي. والآن فهذا الطريق الذي لا يحط من الشرف والكرامة، مفتوح امامنا. فلماذا نهرب من شر قريب لنلجأ الى الشر البعيد؟ ان لم يكن مما يخل بشرف نسل هرقل ن يخضع لخلفاء فيليب والاسكندر، فسنتصد رحلة طويلة بتسليم انفسنا [لانتيجونس] فربما كان أفضل بكثير من [بطليموس] مثلما كان المقدونيون أفضل بكثير من المصريين، ولو وجدنا الخضوع للذين غلبونا عاراً فلأي سبب نختار من لم يغلبنا سيداً؟ الأنا نريد الاعتراف برئيسين بدلاً من رئيس واحد؟ فهرب من وجه [انتيجونس] لتنزف الى [بطليموس]؟ ام انك تلجأ الى مصر بسبب والدتك؟ سيكون في الواقع منظرًا جميلاً متعاً حين تعرض ابنها لأنظار نساء [بطليموس]، لا بوصفه اميراً، بل عبداً منفيًا. أو لسنا بعد سادة سيوفنا؟ وفي الوقت الذي ما تزال لاقونيا على قيد النظر منا، الا يجمل بنا ان نحرق انفسنا من هذا الشقاء المخزي، ونبريء انفسنا امام أولئك الذين سقطوا في [سيلاسيا] صرعى، اعلاء لشرف سبارطة ودفاعاً عنها؟ أم قضي علينا ان نقعد في مصر متكسعين نتسقط ابنا سبارطة ونتساءل عن شأنا ارادة [انتيجونس] ان تنصبه حاكماً للقيديين؟

هذا ما قاله [ثيريكيون] وهذا هو جواب [كليومينس] عليه:

- باطالك الموت أيها الجبان - وهو اسهل وادنى ملاذ - تتصور انك ستبدو بطلاً مغواراً، إن هذا النوع من الفرار، هو اشد خزيًا من الفرار الأول. رجال افضل منا بكثير، خفصوا جناح الذل لأعدائهم بعد ان عاندهم الخط، او وقف شعوبهم ضدهم. لكن من يستسلم ويسقط تحت عبء الضنى والقنوط وتحت وطأه خطل رأي الرجال وسوء نصيحتهم انما ينزل عن نصره، بسبب جبنه وخنوثته. فالموت الاختياري يجب استبعاده كوسيلة للخلاص من العمل، وان اخترته فكمثل مثالي قائم بذاته. ومن العار ان تموت او ان

نحياً لأنفسنا فحسب. ان الموت الذي تدعوني اليه الآن انما يطلب لخلصنا من شقائنا الحاضر، وليس فيه نبلٌ ولا جدوى وارى انه يجدر بنا نحن الاثنين بأن لاندع لليأس من حال بلادنا، سبيلاً لأنفسنا. وعندما نفقد الأمل تماماً، فلا بأس ان يختار كل واحد أسرع ميتة يراها.

لم يجبه [تيريكيون]. لكن ما ان حانت له فرصة الوقوف في أحد السواحل، حتى نزل وبخغ نفسه.

أقلع [كليومينس] من [ايگياليا] وأرسى في ليبيا. وكان سفره الى بلاد الملك محفوفاً بالاكرام والرعاية الى ان بلغ الاسكندرية. ولم تزد مقابلته الأولى للملك على عبارات المجاملة المعتادة، ولم يلق أكثر من الحفاوة الرسمية، لكن الأمور تغيرت فيما بعد. فقد تبين له بعد تجربته ان [كليومينس] رجل عميق الحس راجح العقل، يخالط اسلوب حديثه اللاقوني البسيط، نبل ورقة محببة. وانه لم يفعل شيئاً غير جدير باصله العريق ولم يحن هامته لتصاريف الحظ. وبدا له أخلص مستشارٍ من بين أولئك الذين كان يتزلف والتحبب شغلهم الشاغل. فأدركه الحجل وندم لإهماله هذا الرجل الكريم، وانبه ضميره لأنه تسبب في ان يحرز [انتيفونس] هذه الشهرة العظيمة على حسابه. فأنقلب سلوكه تجاهه، وأظهر له كثيراً من المودة والانعطاف ووعده بأن يجهزه بسفن ويمده بالمال للعودة الى بلاد الاغريق وتبوء عرش مملكته، وخصص له مرتباً سنوياً قدره اربعة وعشرون تالنتاً. كان [كليومينس] ينفق القليل منه على نفسه واصحابه لما طبعوا عليه من الاكتفاء بالحد الأدنى من وسائل العيش. اما الباقي فكان يستخدمه لستر حلة المحتاجين من لاجيء الاغريق الى مصر. الا ان [بظليموس] العجوز توفي قبل ان يخرج وعده [لكليومينس] الى حيز التنفيذ. وكان خلفه ملكاً متحللاً، شهوانياً، زير نساء واقعاً تحت تأثير خمرة وحرمة. فأهمل شأن [كليومينس] بسبب انشغاله بملذاته ونسائه، وكان أحفل ساعاته بالعمل وأكثرها جدية هي مساهمته في الاحتفالات الدينية المقامة في قصره. فتراه ينقر الدف ويشارك في المراسيم حين تولى عنه تصريف شؤون الدولة الهامة حظيته [اغاثوكليا Agathoclea] وأمها والقواد [اونانتس Oenantes]. في مبدء الأمر كان يبدو ان هؤلاء في حاجة الى [كليومينس]. لأن بظليموس الراحل كان يخشى أخاه [ماغاس Magas] الذي تبوأ مكانة كبيرة في قلوب الجنود بمساعي أمه، فأفسح [لكليومينس] بين مجلس شوراه الخاص واطلعه على خطة ترمي الى قتل أخيه. الا ان [كليومينس] عارض الجميع بقوله: يجب ان يكون للملك اخوة كثيرون على قدر المستطاع. فلهذا اثر كبير على امته واستقرار احواله.

فردّ [سوسيبوس Sosibius] بأنهم لا يأمنون من اخلاص الجنود المرتزقة مادام [ماغاس] حياً. فقال [كليومينس] لا حاجة بهم الى القلق من هذه الجهة. ففي المرتزقة أكر من ثلاثة آلاف [پيلوپونيسيي] وهم اصحابه وبامكانه ان يقودهم في اي وقت يشاء بايماة منه. بعد هذا الحديث بدأ لهم [كليومينس] شخصاً لا مطعن في اخلاصه، يستطيع أن يستخدم نفوذه الكبير لمصلحتهم الا ان الضعف الذي كان يشكو منه بظليموس الأبن، أثر على مخاوفه وزاد فيها. وعندما تفتقد الحكمة وسداد الرأي. ينزل الشعور بالأمن الى وهدة الشك العام وعدم الثقة. وهذا ما جعل كليومينس موضع ريبة عند رجال الحاشية بوصفه صاحب نفوذٍ عظيم لدى المرتزقة. واصبحت هذه المقولة على كل شفة ولسان في القصر «ان كليومينس في البلاط اشبه باسد بين النعاج». هكذا كان يبدو في البلاط حقاً: يراقب بهدوء ويتابع ببصرته النافذة كل ما يجري.

وينذ كل فكرة بطلب سفن وجنود من الملك، على ان الانباء وصلتته بموت [انتيفونس] وبأن الآخائين مشتبهون في حرب مع الايتوليين وان احوال [الپيلوپونيسيي] قد بلغت حداً كبيراً من الفوضى والانحطاط: وهي تتطلب بل ترغب في الاستعانة به. فطلب الأذن بالرحيل مع اصحابه فحسب. فلم ينل بغيته ولم يُتَح له المجال ليكلم الملك بهذا، لأن الأخير منصرف بكلتيه الى نسائه وقد أغلق بابه بوجه كل أحدٍ منفقاً اوقاته في احياء الحفلات الباخوسية، واقامة مجالس الشراب. وفكر [سوسيبوس] الوزير الأول - بأن احتجاز [كليومينس] ضد رغبته سخيفة ويجعل منه انساناً مشاكساً. كما ان المحذور من السماح له بالعودة قائم. فهو رجل مقدم ذكي اريب، مطلع على علل المملكة ومواطن الضعف فيها. ولم تكن الهدايا والعطايا لترضيه وتسكن من ثورته، انه كالثور المقدس [آپيس] ففيما هو يعيش منعماً بكل ما يمكن توفيره له من راحةٍ ورزق وفير وعلى ما يبدو فيه من الرضا والسعادة، تراه يحنّ ابداً الى العيش على ما تجرد به الطبيعة، وان يطلق سراحه ليمرح ويرعى بحرية متجولاً على رساله في الحقول بعيداً عن مضايقات الكهنة ورعايتهم. كذلك كان امر [كليومينس] ان عاد يطبق مجاملات البلاط ودعواتهم الرقيقة. وظلّ مقيد الدار كأخيل:

«... مُضنى ... بعيداً، يتمنى القتال، وصيحة الحرب.»

ظلت احواله هكذا حتى قدم [نيكاغوراس Nicagoras] الى الاسكندرية. وكان هذا يكن له أشدّ البغض، إلا ان يتظاهر بصداقته. وسبب ذلك انه كان قد باع من [كليومينس] عقاراً جيد الغلّة، ولم يقبض ثمنه، ربما لأن [كليومينس] كان يشكو ضيق ذات اليد، وربما لانهماكه في حروبه وما شاكل ذلك من المشاغل فلم يتيسر له الوفاء. ولمحه [كليومينس] وهو ينزل



البر، ينتزه على الرصيف فأقبل عليه وحياه بمودةٍ وسأله عما أتى به الى مصر؟ فشكر له [نيكاغوراس] تحيته وقال انه قدم ليعرض على الملك صفقة من الخيول الحربية الممتازة. فقال [كليومينس] باسمًا:

- وددت له عرضت عليه صفقة من الغلمان والمغنيات الصغيرات فهذا هو ما يهتم به الملك في الوقت الحاضر.

فضحك [نيكاغوراس] مستغرباً من هذا، ومضى لطيته، وبعد ايامٍ قصد [كليومينس] وذكره بالعقار الذي اتباعه، وطلبه بالثمن معتذراً بأنه ما كان ليزعجه لو انه اصاب من بضاعته الربح الذي أمله.

فأجاب [كليومينس] بانه لم يفضل لديه شيء مما أجري عليه. فتركه [نيكاغوراس] غاضباً وقصد [سوسيبيوس] وقصّ عليه مزاح [كليومينس] وسخريته بالملك. فسرّ الوزير بمعلوماته. الاّ انه كان يحتاج الى سبب أكثر اثاره لحقد الملك عليه. فأقنع [نيكاغوراس]. ان يترك لديه رسالة تدين [كليومينس]. وتدل بانه يضم خطة لالتقاضي على جزيرة [كبيرين] حالما يتوفر له الجند والسفن. فكتب [نيكاغوراس] الرسالة المطلوبة وغادر مصر. وبعد اربعة ايامٍ عرض [سوسيبيوس] الرسالة على الملك زاعماً انها وصلته الساعة. فثار بها غضب الشاب وملكه الخوف. ثم الاتفاق ان يدعى [كليومينس] الى منزل واسعٍ فاذا دخلها لا يخرج منها وان يعامل بالشكل اللائق الذي اعتاده دون نقصان.

هذا الاجراء ألم [كليومينس] كثيراً. فركبه وزاد في الطين بلة حادثة أخرى فيها قرأ السلام على أماله. وودع آخر رجاء له. كان بطليموس ابن خريسيوماس Chryseumas احد المقربين الى الملك، ولطالما أظهر المودة واللفظ لكليومينس حتى توثقت عرى الصداقة فيما بينهما وارتفعت الكلفة فكانا يتحدثان في الشؤون العامة دون تحفظ او وجل. طلبه كليومينس فجاءه وكلمه بما طيب خاطره، وهذا من روعه وبدد شكوكه واعتذر عن سلوك الملك حياله. ولكنه وهو في طريقه الى الخارج انثنى الى الحراس يعنفهم لإهمالهم في مراقبة [كليومينس]:

«... هذا الوحش الضاري العظيم الشديد الشراسة...».

ولم يدر ان [كليومينس] كان خلفه وقد سمع كل ما تفوه به.

اسرع [كليومينس] الى رفاقه وأخبرهم بما سمع ورأى وعندئذ نبذوا آمالهم السالفة وعزموا على اتخاذ العنف وسيلةً، وقرروا الانتقام من [بطليموس] لحسته ودناءته وان يغسلوا الاهانة

ويموتوا الميتة الجديرة بالسپارطين. لا ان يظلوا ساكتين حتى يذبحوا كالاضحى المسمّنة لقد كان من المؤلم والمخزي [لكليومينس] الذي ترفع عن مفاوضته [انتيجونس] المحارب المقدم ورجل الأفعال الجسم - ان ينتظر فرصته لمفاتيحة ملك مخنث بأمره، حتى يلقي دُقه جانباً، ويرفض طلبه ثم يقتله.

وتم الاتفاق على الخطة. وصادف ان [بطليموس] ازمع السفر الى [كنوپوس Canopus] وقتذاك. فأشاع اصحاب [كليومينس] بان الملك قد ردّ اليه حريته، ولما كانت العادة تقضي ان يرسل الملك هدايا ومطاعم لمن يطلقه من اساره، فقد هباً ذوو كليومينس كل ذلك وارسلوه الى محتجزهم ملقين في روع الحرس بأن ما ارسلوه هو من الملك. فقرب [كليومينس] للالهة، ودفع بجزء كبير مما جيء به، الى الحرس. ووضع أكليل زهر في رأسه وأخذ يلهو ويقصف مع خلانته، متظاهراً بالفرح والغبطة. وقيل انه بدأ في تنفيذ خطته قبل التوقيت الذي قرره لها، بعد ان علم ان خادماً مطلعاً على سرّ الخطة قد خرج لزيارة معشوقته وهذا ما جعله يعجل بها خشية انكشافها. فما ان نشر البدر ضياءه والحراس في نوم عميق من تأثير الخمر. حتى يادر فارتدى زرده، وفتح كمّه الأيمن لتكون ذراعه أكثر حرية وامتشق سيفه واندفع الى الامام مع اصحابه وهم بنفس الهيئة وكان عددهم جميعاً ثلاثة عشر. بينهم [هيپيتياس Hippitas] الأعرج الذي لحق بهم رغم عرجه - في الهجوم الأول، ولما ادرك ان بطئهم كان بسببه طلب منهم ان يقضوا عليه وان لا يتلفوا عملهم بانتظار شخص قاصرٍ لافائدة منه. واتفق ان اسكندرانياً كان ماراً على ظهر حصانه فأنزلوه وراكبوا [هيپيتاس] عليه واندفعوا يطوفون في الشوارع منادين بالحرية للشعب. ولم يكن لدى الاسكندرانيين من الشجاعة الأ بمقدار الاعجاب [بكليومينوس] ومدح جسارته، ولم يجد احد منهم في نفسه الجرأة للانضمام اليه ومساعدته. وانقضّ ثلاثة منهم على [بطليموس] بن [خريسيوماس] وهو في طريقه الى القصر فذبحوه. وتقدم نحوهم [بطليموس] آخر، هو الضابط المكلف بأمن المدينة، وكان راكباً عجلةً فهجموا عليه وفرقوا حراسه واتباعه وجذبه من فوق العجلة وقتلوه. ثم اتجهوا نحو القلعة يريدون كسر ابواب السجن واطلاق سراح من فيه عليهم يستفيدون من بعضهم. الاّ ان الحراس كانوا يقظين لهم فأحكموا سدّ المدخل. ولما اخفقوا في محاولتهم هذه، أخذوا يتجولون في المدينة على غير هدى ولم ينضم اليهم أحدٌ وكان الناس يهربون من امامهم ويختفون حال اقترابهم. وادرك [كليومينس] اليأس من اي نجاح وقال لرفاقه:

- لا عجب ان يحكم النساء والرجال، فهم يخافون الحرية.

واوصاهم ان يموتوا بتلك الشجاعة الجديرة باتباعه وبمآثرهم في المعارك السابقة التي

خاضوها. ثم هوى كل واحدٍ منهم على حَدِّ سيفه. وكان أولهم [هيبييتاس] فقد قضى عليه أحد رفاقه الشيبان. ويقي [پانتيسوس] وهو القائد الذي أرسله كليومينس لمباغة [ميغالوپوليس] وكان شاباً جميلاً للغاية. ومن أشدَّ المتمسكين بالانضباط السپارطي، وهو أعز اصدقاء كليومينس. لما رآه مع البقية صرعى استلَّ خنجره وراح يتنقل فيما بينهم وهم صرعى ويخز كل واحدٍ منهم بذبابه خنجره ليتأكد من موته على الطريقة السپارطية. وانتهى الى جسد [كليومينس] فوخز كاحل ساقه فأنقلب هذا ما ظهره، فانحنى پانتيسوس وقبله وجلس بالقرب منه حتى أسلم روحه، فغطى جثته، ثم قتل نفسه.

هكذا قضى [كليومينس] نحبه بعد الحياة التي قصصنا حوادثها، وبعد ان حكم سيارطة ستة عشر عاماً. وانتشر خبر مصرع الثلاثة عشر في طول المدينة وعرضها. ولم تقو [كراتيسيكليا] على تحمل هول الصدمة وطحنها الأسى وان كانت معروفة بقوة العزيمة، فعانقت طفلي [كليومينس] وانحطت في بكاء وعويل ولم يكن أحد يتوقع ان طفله الاكبر ذو روح وثابة مثله. فقد نقدف بنفسه من أعلى السطح وسقط مهشماً مرضوضاً ولكنه لم يمت، فحمل وهو يصيح مستنكراً منعهم له من قتل نفسه. وما ان أبلغ [بطليموس] الملك بتفاصيل الحادث حتى أمر بسلخ [كليومينس] وتعليقه، ويقتل ابنه وامه وسائر النسوة اللاتي جئن مع اللاجئين السپارطيين هؤلاء.

وكان بينهن زوج [پانتيسوس] وهي فتاة جميلة نبيلة التقاطيع لم ير كثير على زواجها وقد مرت بها هذه المصائب وهي في اوج حبها. منعها ابواها من الإبحار مع [پانتيسوس] على أثر تمام الزواج، فأبت ورغبت اللحاق به فحبساها في البيت رغم انفها. لكنها تمكنت بعد ايام قليلة من الحصول على حصان وشيء من المال وهربت ليلاً وانطلقت تسابق الريح حتى بلغت [تيناروس] ومنها ابحرت الى مصر وانضمت الى زوجها وتحملت معه بطيب خاطر حياة المنفى. مدت يدها الى [كراتيسيلكيا] لتعيينها وهي سائرة بين الجنود الى ساحة الموت. ورفعت ثوبها وشجعته. ولم يكن يبدو عليها اي رهبة من الموت، وكان طلبها الوحيد ان تموت قبل الطفلين. وعندما بلغن محل التنفيذ بدئ بقتل الطفلين امام عيني [كراتيسيكليا] ثم حان دورها فقالت قبل ان يجرى فيها حكم [بطليموس]:

- وآه لكما أيها الطفلان! الى اين تراكما ذاهبان؟

الآن زوج [پانتيسوس] وكانت امرأة ذات قوةٍ لمت حولها اطراف ثوبها ويهدوء تام وصمت راحت تعني بجثث القتيلات. واسجتهن على الأرض بشكل مقبول على قدر ما يسمح به الظرف واحدة بعد الأخرى. وبعد ان تم بالتنفيذ في جميعهن حان دورها، فأعادت تنظيم ثوبها

وجمعه الى جسدها ولم تقبل بان يتقدم أحد منها او يكون شاهد عيان لموتها ماعدا الجلاد. وانتظرت الضربة بشجاعة. ولم توص بان يرهاها أحد أو يقوم بربطها بعد موتها. وهكذا بدا حياءً عقلها في موتها، اذ جعلته حارساً على جسمها. وكذلك كانت دائماً في حياتها، فأظهرت في عصر انحلال السپارطيين بان النسوة منافسات متفوقات على الرجال وضربت مثلاً في الشجاعة فاق تحديات الحظ.

بعد ايام قليلة لاحظ المتفرجون على جثة [كليومينس] المعلقة حية كبيرة ملتفة حول رأسه تغطي وجهه وتمنع اقتراب الطيور الجارحة منه. وهذا ما ملأ الملك بالوساوس المخفية فأمر النسوة بمباشرة مختلف الكفارات، كأن شخصاً غير عادي، أو مخلوقاً محبوباً من الآلهة قد قتل. واحيا الاسكندرانيون مآتم دينية في الموضع ومنحوه لقب البطل وابن الآلهة. الى ان أقنعهم الفلاسفة بخطاهم. بقولهم كما ان الثيران تنسل النحل، والخيول تستولد الزنابير والحشرات تخرج من رمم الحمير الميتة، كذلك عصير واخلاق<sup>(٢)</sup> مع الانسان فانه يتخثر فتولد منه الافاعي. وقد لحظ القدماء ذلك. فجعلوا الحية رمزاً للبطل - دون سائر المخلوقات الأخرى.

١٩٧٢/١/٢٧

(٢) الاخلاط الاربعة هي عند القدماء: الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقد زعم اطباؤهم انها تقرر صحة الانسان وسقمه ومزاجه.

طمبریوس گراخوس

**GRACCHUS**

**(Tiberius Sempronius)**

162 – 133

[غراكوس] قويّ من ناحية الخلق. كلاهما عرفا بثبات العزيمة وضبط النفس والسخاء الفصاحة والذكاء. إلا أن نشاطهما وشكل معالجتهم للمسائل العامة تختلف فيما بينهما اختلافاً كبيراً وليس من قبيل الشذوذ عن الموضوع ان نبدأ بتعيين وجوه الاختلاف هذه:

فمن ملامح طيبريوس، وتعابيرها، ومن إيماءاته وحركاته؛ يظهر انه رقيق الحاشية، هادئ الطبع، في حين يظهر كايوس عنيفاً في غاية الجدّ. وينعكس هذا في خطبهما الجماهيرية السياسية. فالأول ذو اسلوب رزينٍ منظمٍ، يقف على المنبر فلا يتحرك حتى ينهى خطابه، والثاني تراه لا يستقرّ في مكان فيسير ويتنقل جيئةً وذهاباً، ويجتذب عباةته حتى تنحسر عن كتفيه، وهو اول روماني يلجأ الى مثل هذا الأسلوب. كما قيل ان [كليون Cleon] كان اول خطيب من الأثينيين نزع عباةته وضرب فخده عند توجهه بالخطاب الى الجمهور. كانت خطب [كايوس] عاطفية عنيفة، صريحة الى أقصى حدّ. اما خطب [طيبريوس] فكانت منطقية مقنعة رقيقة تثير الرثاء، واسلوبه نقيّ لاشائبة في فصاحته. اما اسلوب [كايوس] فهو حماسيّ فخم. ويمكن قول هذا عن عيشهما ومأكلهما، [فطيبريوس] بسيط العيش زاهدٌ، و[كايوس] لو قورن بغيره - معتدل متزمت. الا أنهما نقيضان في حبّ الاشياء النادرة والأزياء الجديدة، كما يبدو من اتهامات [دروسوس Drusus] لكايوس: فقد روى انه اتباع دولفينات فضيئة بألف ومائة وخمسين درهماً للباون الواحد وزناً. والعزق يبدو أيضاً في مزاجيهما. فأولهما أنيس متزن. والثاني خشن عاطفي تستاقه العاطفة وهو في أوج خطبته فتنسيه نفسه ويفقد سيطرته على صوته وتتغير نبراته الاعتيادية، وينحدر الى البذاءة والنبوء، فيتلف خطبته. ولمعالجة هذا الاندفاع عمد الى استخدام خادم حاذق اسمه [ليشينيوس] كان يقف خلفه عندما يخطب. وييده مزمارٌ خاص لتنظيم طبقات الصوت ونبراته، فكلما شعر بتغيير نبرة سيده وتبين حدّة الغضب فيه نفح بمزماره نغمة هادئة، ما يسمعها [كايوس] حتى يوقف اندفاعه العاطفي فيأخذ صوته بالانخفاض، وترتخي اعصابه ليعود الى حالة الطبيعية. تلك هي وجوه الخلاف بين الاخوين، الا أنهما كانا صنوين في الشجاعة والاقدام الذي اظهراه في الحروب. وفي عدالتهما وعنايتهما بمصالح الشعب وفي تفانيهما باعمالهما وواجبات مناصبهما. ويضبط النفس في ما يتصل بملذاتهما.

وكان [طيبريوس] يكبر أخاه بتسع سنوات. فبعدت الشقة بين جهمودهما العامة، بالعمل الزمني، فكان هذا احد الأسباب الرئيسية التي أودت بمشاريعهما وخطبهما السياسية. اذ تعذر توحيد تلك الجهودات والمشاريع ولولا ذلك، لكانت القوة المتولدة من تكاتفهما في وقت واحد كفيلة بالتغلب على اية عقبة وسحق كل مقاومة، وبعد هذا كله علينا أن نقص سيرة كل

بعد أن فرغنا من عرض السيرتين الأوليين، نبدأ الآن في استعراض حياتي اثنين من الرومان - لم يكن سوء الحظّ الذي لقياه بأقل من سوء حظّ قرينيها [أغيس] و[كليومينس]. [طيبريوس وكايوس] ابنا شقيقان [لطيبريوس غراكوس] الذي تولى مرةً منصب ال[چنصور] ومرتين منصب [القنصل]، ونال موكب نصر. ولكن شهرته وسمعته تعود بالاغلب الى فضائله ومكارم خلقه لا الى امجاده والمناصب التي تقلدها. ولهذا، أقدم بعد موت [سكيبيو] قاهر [هنيبعل] على خطبة بنته [كورنيليا] ولم يكن ثم صداقة أو علاقة بينه وبين [سكيبيو] وربما كان ثم جفوة. وتروى عنه حكاية مؤداها انه وجد يوماً في غرفة نومه حيتين فاستشار العرافين في هذه الحارقة. فمنعوه من قتل الاثنتين أو تخلية سبيلهما. وقالوا ان قتل الذكر سيؤدي الى موت [طيبريوس] وان قتل الأنثى سيؤدي الى موت [كورنيليا]. وكان [طيبريوس] شديد الحبّ لزوجته وفكر ان الموت اقرب اليه منها لكونه كبير السنّ. وهي مازالت صغيرة فعمد الى قتل الذكر، وترك الأنثى لشأنها وتوفي بعد حين تاركاً اثني عشر ولداً من [كورنيليا].

واضطلعت [كورنيليا] بتدبير شؤون المنزل وتربية اولادها فكانت خير ربة بيت، وأعظم الامهات محبة، وأكثر الارامل وفاء ونبلاً. حتى بدا [طيبريوس] على جانب عظيم من الرجاحة عند اختيار الموت في سبيل هذه المرأة، التي بلغ وفاؤها أن عرض عليها [بظليموس] الملك تاجه فابت الاقتران به وفضلت عيشة الترمّل وبقيت هكذا الى الأخير. وشكلت اولادها الابنة واحدة، وزوجتها من [سكيبيو] الأصغر، وابنين هما [طيبريوس] و[كايوس] وهما موضوع دراستنا هذه.

كانت العناية التي بذلتها الأم في تثقيفهما عالية حتى بدأ وكأنهم مدينان بفنائلهما الى ذلك أكثر مما هما مدينان لمبنتهما، ولمواجهة الطبيعية. فهما بين رومان عصرهما في المقدمة. اقرب المثال وبالاختلاف الملاحظ في هذين الشابين النبيلين. هو التماثيل والصور التي نحتت للالهين [كاستور وپوللوکس] فمع تشابههما، فهناك فروق، تبدو في كل منهما. أولهما كان يهوى حلبة الملاكمة، وثانيهما كان مجلياً في ميادين السباق. فالتشابه العام بين الأخوين

من هذين الاخوين على انفراد ولنبدأ بأكبرهما .

ما أن بلغ [طيبيريوس] مرحلة الرجولة، حتى كانت سمعته طائرة وصيته ذائعاً. حتى انه قُبل في هيئة الكهنة المنتهين، بالاكتر لفضائله المتكاملة، لا لعراقة نسبه. وقد تأيد هذا بما أقدم عليه [آبيوس كلوديوس Appius Claudius] رئيس مجلس الشيوخ الروماني وقتذاك، و(القنصل) و(الجنصور) قبلها. وهو رجلٌ راجح لا يجهل قدر نفسه ولا مكانته الرفيعة. هذا الشخص وجد في احتفال ديني عام للكهنة العرافين فتوجه الى [طيبيريوس] بخير العبارات وألطفها وعرض عليه بصراحة، يد ابنته فبادر [طيبيريوس] الى القبول بكل سرور، فتم العقد. وعاد [آبيوس] الى منزلة. ونادى وزوجه بصوت عالٍ ورجله فوق العتبة، وقال:

- يا انتستيا! لقد أخترت زوجاً لابنتي واتمت العقد.

فأجابت وهي مشدوهة: ولم هذه العجلة؟ وما معنى هذه السرعة، الا اذا كنت قد عقدت لها على طيبيريوس غراكوس؟

لست أجهل ان بعضهم يعزو الحكاية الى كل من [طيبيريوس] رأس أسرة غراكِّي Gracchi و[سكيبيو افريقانوس] الا ان معظمهم يرويها كما اثبتناها. ويكتب [بوليبوس] أن أقرب اقرباء [كورنيليا] بعد وفاة ابوها [سكيبيو] فضل [طيبيريوس] الابن على كل الخاطبين الآخرين. فزوجها له. وان اباه لم يعقد لها على أحد ولم يعد بها شخصاً.

ولذلك ترى [طيبيريوس] الشاب يخدم في افريقيا تحت أمرة [سكيبيو] الأصغر زوج أخته، فيساكنه الخيمة. وسرعان ما تعلم كيف يقدر روح قائده النبيلة حق قدرها. فقد كانت صالحة جداً لاثارة دوافع قوية للمنافسة على الفضائل، والرغبة في اقامة الدليل على الكفاءة. ولم يمر عليه طويل زمن حتى فاق شبان الجيش كلهم في ميزتي الطاعة والإقدام. وكان أول من تسلق اسوار العدو على ما ذكره [فانيوس Fannius] الذي يشاركه في العمل وكانت المحبة والمودّة تكتد فانه من كل جانب طوال وجوده في الجيش حتى أسف الجميع عند رحيله، وتمنوا رجوعه.

ولما عين كويستوراً - بعد هذه الحملة - شاء سوء طالعه أن يلحق بأمرة [كايوس مانشينوس Caius Mancinus] القنصل في الحرب الدائرة ضد [النومانتيين Numan-tines]. كان هذا الجنرال حسن الخلق لا مطعن فيه. لكن لازمه سوء حظٌ لم يلازم مثله اي قائد روماني آخر، فلم يتغير مسلك [طيبيريوس] اذاه مطلقاً بسبب النكبات العظيمة التي لقيها قائده والاحفاق الشنيع الذي مني به. وكان أكثر الاعجاب [بطبيريوس] متأثراً من احترامه العظيم لقائده فضلاً عن رجاحة عقله وشجاعته، وهذا ما كان بارزاً فيه كل البروز

ومدعى للتقدير. والجنرال نفسه كان ينسى جلال منصبه وهيبته عندما تحزب به الأمور وتكتنفه الخطوب. فبعد ان لم يحالفه التوفيق في عدد من الوقعات الهامة، حاول ترك معسكره والانسحاب ليلاً، فعلم النومانتيون بذلك وترصدوا له واسرعوا باحتلال معسكره وبتعقيب القسم المنسحب من قواته وقتلوا من حرس مؤخرته خلقاً كثيراً، وشرعوا يتعرضون للقسم الاكبر من كل صوب، حتى ارغموه على الالتجاء الى ارض صعبة لا يستطيع منها نجاة، واسقط في يد [مانشينوس] وادركه اليأس من شق طريقه بالقوة. فأرسل بطلب الهدنة والصلح. الا ان النومانتيين رفضوا التفاوض الا مع طيبيريوس، لعدم ثقتهم بغيره لا لمتانة خلق الشاب وسمعته الداوية بين الجنود، بل اكراماً لذكرى ابيه الذي أخضع بالقوة قبائل عظيمة من الاسبان عندما كان يدير دفة الحرب ضدهم، لكنه صالح النومانتيين ونجح في اقناع الرومان باحترام ذلك الصلح، وعدم الإخلال بشروط مطلقاً.

فأوفد [طيبيريوس] الى العدو وتم الاتفاق على شروط الجانبين وبهذه الوسيلة انقذ عشرين ألفاً من المواطنين الرومان خلافاً للخدم والاتباع في المعسكر، كانوا سيهلكون لا محالة. على أن [النومانتيين] أحتفظوا بكل ما وجدوه من أموال في المعسكر، ومما نهبوا، سجلات [طيبيريوس] المالية وفيها دون كل ما اجراه من معاملات صرف وانفاق خلال توليه منصب [الكويستور]. وكان شديد القلق عليها، عظيم الأمل في استعادتها. ولذلك ما أن واصل الجيش سيره حتى قفل راجعاً الى [نومانتيا] ومعه ثلاثة او أربعة من اصحابه لا غير. ورجا الضباط النومانتيين اعادة السجلات، قائلاً انه سيتعرض الى تهمة يلصقها به اعداؤه حين يعجز عن تقديم حساباته حول ما دخل ذمته من اموال وسرّ النومانتيون به وحمداؤ الفرصة التي اتاحها لهم لخدمته ودعوه الى دخول المدينة ولما تردّد أقبلوا عليه وامسكوا يده راجين ان لا ينظر اليهم بعد اليوم نظرته الى عدو، وان يثق بصداقتهم فيعاملهم على هذا الاساس. ورأى [طيبيريوس] انه يفعل حسناً لو وافق على الدعوة فقد كان شديد الرغبة في استعادة سجلاته، عظيم الخوف من الاساءة الى مشاعرهم باظهار الريبة والشك فدخل مدينتهم وقدموا طعاماً له وبكثير من الاحاح والرجاء جلس واكل ومن ثم أعادوا اليه سجلاته، وخبروه في استعادة ما شاء من الأسلاب الباقية، فأبى ان يمدّ يده في شيء منها خلا شيئاً قليلاً من البخور الذي يستعمل في القرابين العامة. ثم انه ودعهم شاكرًا بعبارة جميلة ورحل.

ووجد عند عودته الى روما ان معاملاته المالية باتت هدفاً للطعون والاتهام. فكان اجراءً شائناً من الرومان لم يسبق بمثيل له. الا ان ذوى الجنود واصحابهم وهم يؤلفون فئات كبيرة من الناس كانوا يعتبرون [طيبيريوس] منقذاً لعدد كبير من الرومان ويتسبون للقائد كل ما وقع

من أخطاء. فأقبلوا على [طيبيريوس] يشدون أزره. وطالب المندرون والمتهمون أن يقتدى بأسلافهم في معاقبة المسؤولين الرومان الذين يخرقون معاهدات روما مع جيرانهم. فيجدوا القواد بله كل الكويستورين والتريبونيين الذين ساهموا بشكلٍ ما، وسلموهم إلى السامنيت Samnites مثلاً، وجعلوهم يتحملون تبعات الحنث بالعهد والاخلال بشروط الصلح. لكن الشعب في هذه المرح ابدى تعلقاً غير عادي [بطيبيريوس] ولطفاً به. وقد صوت فعلاً على تجريد القائد من رتبته وتكبيله بالاعلال وتسليمه للنومانتيين، لكنهم حبا [بطيبيريوس] اعفوا كل الضباط الآخرين معه وربما كان لتدخل [سكيبيو] أعظم الرومان واقواهم نفوذاً أثر في انقاذه، وان كان قد انتقد لأنه لم يتدخل لحماية [منشينيوس]. ولم يهتم هو نفسه بالمحافظة على شروط السلام التي توصل إليها قريبه وصديقه [طيبيريوس] مع النومانتيين. ولنا ان تعترض بأن اختلافهما وجفوتهما يعودان بالدرجة الأولى إلى طموح كل منهما، وإلى تأثير الأوصحاب والناصحين، الذين كانوا كثيري الاحاح على [طيبيريوس] في ابداء المزيد من الاندفاع. على ان هذا الخلف لم يصل إلى حدّ القطيعة ولم يكن بالغ السوء. ولا أعتقد أن [طيبيريوس] كان سيلقى ما لقي من نواب لو اهتم [سكيبيو] بمعاونته وجعل من نفسه ظهيراً له. على انه كان بعيداً منه، يقاتل في [نومانيتيا] عندما برز [طيبيريوس] في روما لأول مرة سياسياً مشترعاً في المناسبة التالية:

كان الرومان عندما يستولون بالفتح على اراضٍ من جيرانهم، يبيعون قسماً منها بالمزاد العلني. ويحتفظون بالباقي للدولة، (اراض اميريّة). ويعهد بهذه الاراضي الى المواطنين الفقراء والمعوزين ببدل ايجار رمزي بسيط يدفعه المستغل الى الخزينة العامة. ولكن الاغنياء اخذوا يعرضون بدلات ايجار مرتفعة. فيطرد الناس الأفقر منهم ويجردون من اراضيهم، ولهذا صدر مرسوم يحدد المساحة التي يمكن للفرد استغلالها بما لا يزيد عن خمسمائة فدان (ايكر) فوضع حدّاً لجشع الاغنياء الى حين، وكان عوناً كبيراً للفقراء الذين تمكنوا من الاحتفاظ بقطع اراضيهم المستأجرة من الدولة. إلا أن الاغنياء مالبثوا ان أهتدوا الى طريقة للاحتيال على القانون، لاستعادة الاراضي والتصرف بأكثر من المساحات المقررة. تحت اسماء اشخاص آخرين، وكفوا عن الإدعاء بها علناً وكأنها لاتعود لهم. لم يعد الفقراء الذين جردوا من أراضيهم بهذا الشكل، يبدون اي استعداد كالسابق للانخراط في صفوف الجيش والخروج الى الحرب. كما أهملوا تربية اولادهم. وبعد زمن قصير هبط عدد الرومانيين الأحرار في سائر ايطاليا ولم يعهد فيها من إلا نسبة قليلة، تدفقت الى محلات العمل والصناعات المكتظة بالعبيد الأجانب. كما استخدم الاغنياء بعضهم في اراضيهم المغصوبة بمثابة فلاحين أجراء.

وأخذ [كايوس ليليوس Caius Lilius] وهو صديق مقرب لسكيبيو - على عاتقه اصلاح الحال وازالة الحيف لكنه لقي معارضة شديدة من ذوي الحول والطول فخاف الفتنة ونكص على أعقابيه. فلقب «بالحكيم» و«البعيد النظر» وكلتا اللفظتين تؤيدان الى معنى الكلمة اللاتينية [سايان Sapiens]

الآن [طيبيريوس] الذي انتخب تريبوناً للشعب اضطلع عنه بهذه المهمة دوماً تردد، بتشجيع [ديوفانس] الفصيح، و[بلوسيوس Blossius] الفيلسوف كما شاع في حينه. كان [ديوفانس] قد لجأ الى روما من [ميتلين]، والثاني ايطالي جاء من مدينة [كوما Cuma] بعد ان تلقى دراسته هناك على [انتبياطر الطرسوسي] الذي شرفه بالأخير باهدائه بعض مقالاته الفلسفية.

وعزا بعضهم الى [كورنيليا] أم [طيبيريوس] المساهمة في تشجيعه فقد كانت تشكو لولديها دائماً بأن الرومان يفضلون مناداتها «بابنة سكيبيو» على مناداتها «بأم الغراكيين» ويزعم آخرون ان [سپيريوس پوستمليوس Spurius Postumius] كان السبب الرئيس في ذلك. وهو رجل في مثل عمر [طيبيريوس] ومنافس له في الشهرة بوصفه خطيباً جماهيرياً. فقد وجد [طيبيريوس] عند عودته من الحرب ان تربه هذا قد سبقه كثيراً في مضمار الصيت والشهرة وان الاهتمام قد زاد بأمره. فقرر أن يبرز عليه بتبني قضية عامة جماهيرية عسيرة المنال ذات آثار خطيرة جداً. على ان شقيقه [كايوس] ذكر فيما خُلف من كتابات. ان [طيبيريوس] عند رحيله الى [نومانيتيا] مجتازاً [توسكانيا] ارتاع لرؤيته الريف الايطالي يكاد يكون بلقماً مقفراً من البشر، ولم يجد مزارعين أو رعاة من طبقة الأحرار، ومعظمه مسكون بالبرابرة والعبيد المستوردين، فكان هذا اول حافز له على اتباع السبيل السياسي الذي ادّى به وباسرته الى الدمار. ومن المؤكد ايضاً أن الجماهير نفسها أثارت حميته وشدت عزماته ودفعته الى الدعوة بالرقاع والكتابات على الجدران والأنصاب والشرفات وفيها تشجيع وحث شخصي له على الأخذ بيد المواطنين الفقراء وانصافهم باعادة اراضيهم اليهم.

على انه لم يضع مشروع قانونه العتيد إلا بعد مشاوراة واسناد من المواطنين الذين تمتعوا بأعظم المكانة والنفوذ والسمعة عند الناس، منهم [كراسوس] عظيم الكهنة. و[موشيوس سكيثولا Mucius Scaevola] المحامي الذي كان قنصلاً في ذلك الحين. و[كلوديوس آبيوس] حموه. ولم يسبق ان بدا قانون كهذا في اعتداله ورحمته، لاسيما وانه شرع للوقوف في وجه الظلم والجشع، فأولئك الذين ينبغي ان ينزل بهم عقاب شديد لخروجهم على احكام القوانين السابقة، أو أن ينزلوا على الأقل عن ادعاءاتهم في تلك الأراضي التي اغتصبوها

فملكوها بدون وجه حق، سيكون لهم بموجب قانون [طيبيريوس] المقترح حق التعويض النقدي لقاء التخلي عن ادعاءاتهم غير المشروعة عند النزول عن الأراضي المضبوطة واعادتها الى مستغليها الشرعيين المحتاجين. لقد صيغ قانون الاصلاح هذا بكثير من الحذر والنعموة متغاضياً عن كل الصفقات المشبوهة السابقة، وحمد الناس له الاحتياط لمنع وقوع أي ظلم في المستقبل. ومع هذا يرضى عنه رجال المال وكبار الاقطاعيين لجشعهم المفرط، وكرهوا واضعه حقداً عليه ولروح التخريب فحاولوا تضليل الناس واغواءهم وقالوا أن [طيبيريوس] يهدف بمشروعه الى اعادة تقسيم الأراضي وقلب الحكومة، ونشر الفوضى في كل مكان.

لكن مساعيهم خابت. فقد عرف من [طيبيريوس] تبنيه القضايا العادلة الشريفة، كما كان يملك من قوة المعارضة والبيان ما يكفي لجعل مشروعاً أقل وجاهة من هذا يبدو مقبولاً معقولاً. ولذلك ما كان بذلك الخصم السهل أو بالذي يؤمن جانباً. وقد اعتلى منبر الخطابة يوماً والجموع المحتشدة تحيط بالمنصة وشرع يتكلم دفاعاً عن الفقراء فقال:

- لكل وحشٍ ضارٍ في ايطاليا عرينه ومغناه الخاص يستجم فيه وملجأه الأمين يقبل اليه. اما أولئك الذين يحملون السلاح ويعرضون حياتهم للردى في سبيل سلامة بلادهم، فليس لديهم ما يتمتعون به غير الهواء والضياء. ولأنهم لا يملكون بيوتاً أو مواطن خاصة، تراهم مكرهين على الانتقال من موضع الى آخر مع اولادهم ونسائهم. واستتلى يقول:

- يرتكب القادة خطأً مضحكاً عندما يحمسون الجندي البسيط، ويدفعونه وهم على رأس الجيش للحرب في سبيل «مذابح قرابينهم وانصابهم المقدسة». في حين لا يوجد أحد من بين هذه الجموع الرومانية، فن يملك مذبحاً أو نصيباً، بل بيتاً. أو مأوى ورثوه من اسلافهم لكي يدافعوا عنه. أنهم في الواقع يقاتلون ويقتلون، لكن ليحافظوا على غنى الآخرين وترفعهم يشار الى هؤلاء المساكين بأنهم سادة الدنيا لكنهم في الواقع لا يملكون قدماً واحدة من الأرض.

خطبة كهذه يلقيها شخص صادق الشعور، قوى الروح، على مستمعين متعاطفين متحمسين، لاتجد امامها خصوماً قادرين على تنفيذها ومعارضته هجمها في تلك الساعة. لذلك امسك المعارضون عن المناظرة والمناقشة، وقصدوا [ماركوس اوكتافوس] التربيون زميل [طيبيريوس] وكان هذا شاباً رصين الخلق معتدل المزاج صديقاً عزيزاً [لطيبيريوس] ولهذا أبى في مبدء الأمر ان يقود المعارضة ضده. ولكن قاصديه الحواً كثيراً وكانوا من وجهاء القوم

ومن لا يريد لهم طلب، فقبل بعد الجهد الجهيد. واضطلع بمهمة الحيلولة دون إقرار للقانون الجديد. وكانت القاعدة ان لكل [تربيون] الحق في ايقاف تشريع اي قانون. ولا يملك زملاؤه حيلة تجاه ذلك لأن الإجماع وشرط واجب وان عارض واحد، لايسن القانون ولاينفذ. فأنزعج [طيبيريوس] لهذا العمل، وبادر في الحال الى نبذ مشروع قانونه المعتدل. مقدماً مشروعاً آخر أشد وطأة من سالفه على المذنبين فهو والحالة هذه أكثر استساغة وقبولاً عند العامة. وبمقتضى هذا المشروع الجديد قانونه المعتدل. وبمقتضى هذا المشروع الجديد يجب على المعتدين ان يتنازلوا في الحال عن كل الأراضي التي يتصرفون بها خلافاً لاحكام القوانين السالفة دون تعويض وعلى اثر ذلك بدأت مشادة يومية بينه وبين [اوكتافوس] كانت الخطب سلاحها. الا انها لم ينزلا الى التراشق بالتهم الشخصية ولم يسمع ان لسانيهما عثر بكلمة نابية تحط من قدرهما وهما في حمى العاطفة منساقين. ان الطبع النبيل وثمره التهذيب الرفيع لا يتبدى.

«... في المجون الباخوسي والعريدة»

فحسب، بل في الخصومات السياسية والتنافس. حيث يكون العقل ضابطاً وعليه رقيباً. وعلم ان [اوكتافوس] كان ايضاً مما خرقوا احكام القانون السابق وهو يحتفظ بمساحات كبيرة من الأراضي الاميرية فطلب منه الكف عن معارضته وعرض في سبيل المصلحة العامة ان يدفع عن اوكتافوس بدل حصصه. من جيبه الخاص، وان كان ما يملكه ليس بالكثير. ولما رفض اوكتافوس عرضه اصدار بيان يمنع فيه كل شخص يشغل وظيفة ذات طابع تضائي، من ممارسة وظيفته حتى يبرم او يرفض القانون المقترح، بالاقتراع العام ثم انه وضع الختم على ابواب هيكل [زحل] فلم يعد امناء الخزينة يستطيعون اخراج مال او ادخاله. وهدد بفرض غرامة كبيرة على كل [پريتور] يحاول تحدي اوامرهم، فتوقف كل ذوى المناصب عن ممارسة شؤون وظائفهم لئلا يقعوا تحت طائلة العقوبة. وعلى الأثر ليس الاغنياء الملاكون واصحاب الأراضي الكبار ثياب الحداد، وخرجوا الى المحلات العامة يروحون ويغدون باسارير كالحة وواجه تعلوها الكآبة. ثم عقدوا الخناصر على مؤامرة للقضاء على [طيبيريوس] وهبأوا القتلة. فلم يفته ما دبروه ودأب على حمل عصاً في داخلها نصلٌ كتلك التي يستخدمها للصوص وتسمى باللاتينية (دولو Dolo).

وحلّ اليوم المضروب أجلاً لادلاء الشعب باصواته في القانون، الا أن الاغنياء ضبطوا الاواني الخاصة بالاقتراع وذهبوا بها. فعمت الفوضى، الا ان حزب [طيبيريوس] بدأ كافياً لردّ الحزب المناوئ وتكتل الاشباع حوله وقوى عزمه على المضي في هدفه حتى النهاية. وعندئذ القى [مانليوس Manlius] و[فولفيوس Fulvius] الفئصلان بنفسيهما امام [طيبيريوس].

وأخذاً بيده يتوسلان اليه والدموع تنحدر من أعينهما - بان يعدل عن قراره. وكان [طيبيريوس] يشعر بمغبة الفوضى والاضطراب القائم، ويحترم هذين الرجلين الفاضلين فطلب منهما ان يشيرا عليه بما يصنع فأقرا بأنهما غير صالحين لابتداء رأي في مثل هذا الأمر الجلل. إلا أنهما الحما عليه بأن يترك لمجلس الشيوخ مهمة الفصل في الموضوع. لكن لما أجمع مجلس الشيوخ، ظهر عجزه هو الآخر عن التوصل الى نتيجة، بسبب تغلب حزب الاغنياء فوجد نفسه مضطراً الى اتخاذ سبيل مجاف لحكم القانون ولروح العدالة، بأن اقترح عزل [اوكتافوس] من منصبه. اذ كان من المستحيل ان يجد سبيلاً لبرام القانون بالتصويت، إلا بعد ازاة التريبيون المعارض.

في مبدء الأمر أخذ يرجوه بارق وأعذب خطاب. وامسك بيديه وراح يتوسل به قائلاً:

- الآن، ويمحضر من الشعب كله، يمكنك ان تنتهز الفرصة لتمنّ عليه وتتفضل بهذا الطلب، وهو بحد ذاته مطلب عادل معقول. انه لتعويض تافه عن الأخطار والمصاعب الكثيرة التي تحملها المواطنين لأجل المصلحة العامة.

الآن [اوكتافوس] ظلّ مصراً على موقفه ولم يتزحزح عنه قيد شعرة وعندها توجه [طيبيريوس] الى الشعب بقوله:

- لما كان كلانا يشغل منصباً واحداً ذا سلطة متساوية، فمن العسير تسوية الخلاف بين وجهات نظرنا في موضوع خطير كهذا بغير حرب أهلية. وفي رأيي ان العلاج الوحيد الذي لامناص من الاخذ به، هل تنحية أحدنا من منصبه هذا.

وطلب من [اوكتافوس] ان يدعو المواطنين لاصدار حكمهم عليه أولاً، وأكد له انه سينزل عن سلطاته كلها بطيبة خاطر ان شاء الشعب ذلك. فرفض [اوكتافوس]. فقال [طيبيريوس] انه سيقوم هو نفسه باستطلاع رأي الجمهور في تنحية [اوكتافوس] ان لم يغير رأيه بعد مناقشة مستفيضة. ثم أجل الاجتماع الى اليوم التالي.

ولما اجتمع الناس ثانية، جلس [طيبيريوس] على كرسي وظيفته وحاول للمرة الثانية اقناع [اوكتافوس]. فلم ينل منه فتياً فوضع مصيره بيد الشعب طالباً منه ان يقتنعوا عليه في الحال - وعندما ادلى سبع عشرة قبيلة من اصل خمس ثلاثين بأصواتهم ضدّ [اوكتافوس] ولم يتبق إلا صوت قبيلة واحدة لتتم تنحيته عن منصبه. أوقف [طيبيريوس] عملية الاقتراع، وجدد رجاءه واهوى عليه عناقاً وتقبيلاً أمام الجماهير المتحشدة متوسلاً باخلاص وحرارة ان يعدل عن رأيه، قائلاً انه لا يريد أن يكون سبباً في الحاق العار بأحد، أو يوصم بتهمة تدبير

وتنفيذ عمل كرهه كهذا. ويقال ان [اوكتافوس] ظهر عليه بعض التردد ولين الجانب وبدا متأثراً بهذا الرجاء الحار فامتألت عيناه بالدموع وظلّ صامتاً برهةً من الزمن. إلا انه ارسل نظره الى حيث يقف الاغنياء والاقطاعيون كتلة متراسة واحدة. وبدأ نهياً موزعاً بين الخجل، وبين تحقير نفسه لديهم. فالتفت الى [طيبيريوس] ودعا الى استخدام اي اجراء ضده مهما كان صارماً وعلى هذا حصلت الأغلبية بطرده من منصبه. فأمر [طيبيريوس] أحد خدامه المعوقين يطرد [اوكتافوس] من الروسترا، بدلاً من استخدام ضباط الأمن الذي اضفى على العملية لوناً جديداً من الأسى. فجرّ [اوكتافوس] الى الخارج بهذا الاسلوب الشائن، وهجم عليه الجمهور، فخفّ الاغنياء لمعونته، وبشيء من الصعوبة رفع [اوكتافوس] رفعاً واخراج من بين الحشود الهائلة. إلا ان خادماً مخلصاً ثبت نفسه امامه سداً ليفسح له مجال الفرار بدرء مهاجميه ففقتت عيناه، الأمر الذي اورث [طيبيريوس] كثيراً من الحزن. وخف مسرعاً وقد ادرك انها بوادر فتنة وعمل على تهدئة الهياج.

بعد هذا صدق قانون الاراضي الجديد ووضع موضع التنفيذ . وانتخب مفوضون ثلاثة لمسح الأراضي والإشراف على التقسيم بصورة عادلة. وهؤلاء هم [طيبيريوس] نفسه، و[كلوديوس آبيوس] حموه، [كايوس غراكوس] أخوه، الذي كان وقتذاك بعيداً عن روما، في الجيش بأمره [سكيبيو افريقانوس] امام [نومانتيا]. وتمّ تصريف كل هذه الأمور المتعلقة بتطبيق القانون بمعرفة [طيبيريوس] دون عقبه، اذ لم يجرء أحد على الوقوف في وجهه بعد ان وضع في محل [اوكتافوس] المعزول شخصاً لا يمتاز بشيء اسمه [موشيوس] وهو من الموالين له.

وحزّ في أنفس كبار القوم أن توجه اليهم مثل هذه الأهانة. وخافوا ان تتعاظم شوكة [طيبيريوس] وتزداد شعبيته فلا يقف عن حد. فراحوا ينتهزون كل فرصة لإهانتته والتشهير به في مجلس الشيوخ. فعندما طلب تخصيص خيمة له على حساب الخزينة جرياً على عادة من يقوم بخدمة عامة كي يستخدمها في عملية تقسيم الاراضي، رفض طلبه رفضاً قاطعاً. مع أن مثل هذا الطلب يجاب بصورة عامة لمكلفين بواجبات أقل أهمية بكثير من هذا الواجب كما ان العلاوة التي خصصت لنفقاته اليومية لم تزد عن تسع اوبولات. وكان [پوبليوس ناسيكا Publius Nasica] الرأس المدبر لهذه الاهانات. لقد حقد هذا الشخص حقداً مكشوفاً على [طيبيريوس] فهو اقطاعي كبير ضبط مساحات كبيرة من الأراضي الاميرية، وارغم على التنازل عنها، ولذلك لم تكن ضغينته باليسيرة. أما الشعب فقد أخذ هباجه يتصاعد حتى بلغ درجة خطيرة تكشف عنها الحادثة التالية: توفي احد اصحاب [طيبيريوس] بموت الفجاءة. ولوحظ ان بقعاً خبيثة انتشرت على جسمه، فأسرع الجمهور الى جنازته بضجيج وعجيج وهم



يصرخون بأن الرجل مات مسموماً وحملوا التعش على اكتافهم ووقفوا على حراسته اثناء رفعه الى المحرقة. كان في الواقع بعض ما يبرر شكوكهم في وجود دسياسة لأن الجثة انفجرت وخرج منها مقدار كبير من الاخلاط الفاسدة اخمدت النار، تحاولوا ايقاد المحرقة عبثاً، ولم يروا بدأ من نقل الجثمان الى موضع آخر. وبعد لأي تمكنوا من إشعال النار فيها.

وعمد [طيبيريوس] الى مضاعفة هياج الجمهور، بان ارتدى ثياب الحداد ودفع باولاده الى الناس طالباً منهم ان يتكفلوا باعالتهم مع والدتهم، ليظهر بمظهر اليأس من حياته.

وفي حدود ذلك الزمن ادرك الأجل الملك [أتالوس] الملقب [فيلومستر Philometer]، وحمل [يوديموس Eudemus] الپرغامومي وصية الأخيرة الى روما، وفيها جعل أهالي روما كلهم ورثته الشرعيين. و اراد [طيبيريوس] ان يسر الشعب فأقترح فوراً أن يصدر مرسوم بتوزيع تركة [اتالوس] على فقراء المواطنين المستحقين قطعاً من الأراضي الاميرية، فما يصيبهم سيعينهم فعلاً على شراء الحيوانات وفلاحة اراضيهم. اما بخصوص المدن التي تقع ضمن حدود مملكة المتوفى، فقد افتى بأن مجلس الشيوخ لا يحق له التصرف بها وانما هذا من حق الشعب وهو الوارث، ولذلك فانه سيسأل الشعب عما يرتأيه بشأنها. فكانت اهانة للمجلس لم يسبق ان واجه مثلها من قبل. واذ ذاك نهض [پومپيوس Pompeius] وقال: انه جار ملاصق [لطيبيريوس] وبذلك سنحت له الفرصة ليعلم بأن [يوديموس الپرغامومي] أهدى [طيبيريوس] تاجاً ملكياً ورداء ارجوان، على أساس انه سيصبح ملكاً لروما بعد مرور وقت قصير. وويخه [كونتيوس ميتيللوس Quintus Metillus] أيضاً بقوله: عندما كان والده (اي والد طيبيريوس) جنصوراً كان الرومان يسارعون الى اطفاء النار كلما رأوه يمر في الطريق عائداً الى داره لتناول العشاء، لئلا يشاهدهم غارقين في حفلات الشرب والقصف واللهو في وقت غير مناسب. في حين يرى اليوم احطّ الدهماء والسوقة يطوفون ليلاً بأيديهم المشاعل ويمشون وراء [طيبيريوس] حتى يبلغوا به منزله؛ اما [تيطس أنيوس Titus Annius] وهو شخص لا يتمتع بسمعة طيبة جداً. لا من ناحية الخلف ولا من ناحية العدل. لكنه اشتهر بالبراعة في القاء الأسئلة والحذق في الاجابة. انبرى هذا يتحدى [طيبيريوس] برهاناً على ان يثبت بأنه عزل حاكماً هو بحكم القانون شخصية مصونة قدسية. وتعالى الضجة وغادر [طيبيريوس] القاعة على جناح السرعة ودعا الشعب الى اجتماع عام ثم طلب [آنيوس] وياشر في توجيه التهم اليه. لكن آنيوس وهو المتكلم البار الذي لا يتحصى رداء سمعة أو مكانة [كطيبيريوس] لجأ الى حماية نفسه بالسلاح الذي اتقنه. فطلب ان يؤذن له بالقاء سؤال أو اثنين على [طيبيريوس] قبل الدخول في الموضوع الرئيس. فأعطي له ذلك وساد الصمت

فطرح آنيوس سؤاله كالآتي:

- إن كنت تنوي قذفي والتشهير بي. وأردت مراجعة تربييون من زملائك للانتصاف لي. فيأتي هذا المعونتي. افيشور ثائر لهذا السبب وتحكم بعزله؟

قيل ان [طيبيريوس] ارتبك وانعقل لسانه فبقي صامتاً يبحث عبثاً عن اجابة، مع انه عرف بسرعة البديهة وحضور الذهن في اوقات أخرى. فعمد الى فض الاجتماع. الا أنه بدأ يدرك ان الطريق التي اتبعها مع [اوكتافيوس] قد خلقت رد فعل حتمي بين جماهير الشعب فضلاً عن طبقة الأشراف اذ بدأ وكأن حرمة منصب التربييون قد انتهكت، وقد بقيت حتى ذلك اليوم مصونة مقدسة ابداً. فتوجه الى الجمهور في خطبة يريد بها تبرير عمله، أرى من المناسب أن اجتزئ منها بعض الفقرات لتقوم دليلاً ولتكون فكرة عن قوة حجته ومقدرته الخطابية في اقناع مستمعيه قال:

- ان تربييون الشعب يتمتع بشخصية قدسية فعلاً. ومن الضروري ان تكون تلك الشخصية مصونة محصنة. لأن صاحبها وقف على الشعب مكرس لحراسته وحمايته بوجه من الوجوه. لكن ان انحط وتردى الى الحد الذي يضطهد للشعب وتقليص سلطته ويصادر حقه في الاقتراع، فأفعاله هذه تجرده من شرف الحصانة والصيانة، لإهماله الواجب الذي تسبب في اضعاف هذا الشرف عليه، ونجالات هذا يتوجب علينا ويتحتم ان ندع التربييون يفعل ما يشاء، فلا نعترض سبيله، وإن شرع بتدمير الكابيتول او اشعال النار في دار السلاح ان التربييون الذي يأتي بمثل هذه الأفعال هو تربييون سيء. ومن يعتدى منهم على سلطة الشعب لا يعود تربييون قط. أو ليس من السهل ادراك مغزى اعطاء التربيون سلطة حبس القنصل، في حين ان الشعب لا يملك سلطة تجريدته من صلاحياته عند استعماله هذا الحق الذي تسلمه منهم ليلحق الضرر بهم؟ ذلك لأن التربيونات فضلاً عن القناصل لم يبلغوا مناصبهم الا بأصوات الشعب. إن الحكومات الملكية التي تجمع في يديها كل السلطات دون منازع، قد ارتفعت فوق هذا، الى مرتبة التقديس بأعظم الفرائض الدينية شأناً، وأكثرها حرمة ولكن جماهير الشعب دون التفات الى كل هذا خلعوا [تاركوين] عندما ضل سبيل الرشاد والجريمة شخص واحد انقضت الأبد تلك الحكومة الرومانية الغابرة التي بنيت عليها روما. ما أعظم قداسة وحرمة في روما من العذارى الفستالات! اللاتي انيط بهن وحدهن أمر المحافظة على النار الأزلية؟ مع هذا كله، فلو زلت واحدة منهن عن السبيل القويمه، لوئدت حية. ان القداسة التي منحت لهن من أجل الآلهة، تسترد عندما يخطئ امام الآلهة. كذلك الأمر مع التربييون، فهو يفقد

حصانته التي يتمتع بها من أجل الشعب عندما يرتكب عملاً ضد الشعب. عندما يهاجم اسس تلك السلطة التي استمد منها سلطانه. اننا لانعترف بالتريبيون، تريبيوناً شرعياً إلا عندما ينتخب بأغلبية الأصوات. أفليس أكثر من هذا شرعيةً ان يتم عزل نفس هذا الشخص باجماع الاصوات على تنحيته؟ ليس ثم أقدس من التقدمات والنذور الدينية ومع هذا لاينع الجمهور من استعمالها، ولايحال دون رفعها ونقلها حيث اريد لها ان تكون، ووظيفة [التريبيون] أيضاً، كأية تقدمه أو عطية مقدسة. للشعب حق شرعي في نقلها من يد شخص الى يد آخر. بل وليس في الامكان ان تنزل هذه السلطة بهذه المنزلة من الصيانة والثبات حين نجد الكثيرين ممن تولاهم يتنازلون عنها بملء اختيارهم ويطلبون اعفاءهم منها.

هذه أهم الحجج التي وردت في دفاع [طيبريوس]، إلا ان اصدقاه خوفاً من الخطر الذي يتهدده، ويسبب المؤامرة التي تتجمع خيوطها حوله. فارتأوا ان اسلم الطرق هو التقدم لمنصب التريبيون للعام القابل. وعلى هذا الاساس بدأ يعمل لضمان مساندة الشعب له باصدار قوانين جديدة. فأقترح مراسيم لتقليل سنوات الخدمة العسكرية، وشرع حق استئناف احكام القضاة امام الشعب، وضم الى اعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا مخولين اذ ذاك صلاحية القضاء، عدداً مساوياً من المواطنين من طبقة الفرسان، محاولة منه تقليص نفوذ المجلس بدافع من العاطفة والتحيز للشعب، لا لأسباب معقولة أو لأجل المصلحة العامة والمساواة. وعندما بدأ النقاش حول هذه المراسيم، وجد ان المعارضة هي الأقوى. كما ان الشعب لم يوحد كلمته ويقف كتلة قراصة بعد. فأراد كسب الوقت بالقاء الخطب الاتهامية لبعض زملائهم الحكام ثم ارجأ الاجتماع الى اليوم التالي:

ونزل [طيبريوس] الى ميدان المدينة الكبير مختلطاً بالشعب بكل تواضع وقال لهم بعينين دامعتين: ان لديه اسباباً وجبهة للشك في ان خصومه سيحاولون اقتحام بيته وقتله في تلك الليلة. ففعل كلامه فعلة القوي في الجماهير، حتى جاء عدد منهم وضرب خياماً حول منزله. وسهروا ساعات الليل في حراسته وعند تباشير الصبح اقبل أحد العرافين الذين يكشفون عن نتائج الأعمال وعواقب الأمور ان كان خيراً أم شراً. باسقراء نقر الدجاج الحب الذي يلقي اليها. وبذل العراف جهوداً هائلة لاجراج الدجاج من فنه فلم يخرج إلا واحدة رفت بجناحها الأيسر، ومدت رجلها، ثم دلفت الى قننها دون ان تلتقط شيئاً من الحب. وهذا ما ذكر [طيبريوس] بحادثة سابقة أخرى تطير منها. فقد كان لديه خوزة حربية ثمينة جداً رافقته في سائر المعارك التي خاضها. تسللت اليها جبتان ووضعتا بيضهما فيها ثم فقستاهما صلالاً. ان

استذكاره هذه الحادثة زاد من غمه وقلقه. وعلى اية حال فقد توجه الى [الكابيتول] حال علمه بتحشد الجمهور هناك. إلا ان قدمه عثرت بالعتبه عند خروجه من الدار. وكانت بدرجة من الشدة ان كسرت له ظفر ابهامه فانبجس الدم من حذائه، ولم يسر قليلاً حتى شاهد غرابين يقتتلان فوق منزل يقع على يساره. وكان يحيط به عدد من الناس. فدفع احد الغرابين بقدمه حجراً نافرماً من البناء فسقط تحت قدمه تماماً. وادرك اقوى اصحابه جناناً بأن هذه انذار له بالوقوف. إلا ان [بلوسيوس] الكومي الذي كان بين الحاضرين اشار بانه سيكون من المخجل والمخزي [لطيبريوس] ابن [غراكوس]، وحفيد [سكيبيو افريقانوس] وحامي حامي الشعب الروماني ان يرفض دعوة الشعب، خوفاً من طير لا عقل له. ولن يكتفي خصومه باتخاذ ذلك مادة للسخر منه، بل سيزعمون للشعب بأنها دليل على الطبع التحكمي الاستبدادي المستهين برغبة الجمهور. وفي الوقت عينه اقبل عدد من السعاة الى اصدقائه يشددون على حضوره الى الكابيتول قائلين ان كل شيء يسير على مايرام هناك. وفي الواقع كان اول دخول [طيبريوس] نصراً من جميع الوجوه. فما أن ظهر حتى رحب به الشعب بهتاف داو، وكانوا يرددون الشعارات التي تدل على مبلغ سرورهم اثناء اتجاهاه الى معقده، وتحلقوه ولم يدعوا احداً يدنو منه إلا المعروف من اصحابه. وباشر [موشيسوس] بوضع المسألة في التصويت ثانية، لكن الهرج والفوضى التي كانت تثيرها جماعات ممن وقفت بعيداً عن نطاق الاجتماع حالت دون المضي في الاجراءات وفق الاسلوب المعتاد، فلم يتوصل الى شيء. ونشب عراك من اتباع الحزب المعارض المتدافعين الى الامام والمحاولين شق طريقهم الى الداخل ليتدسوا في الصنوف. وفيما كانت الحالة على هذه الصورة من الاضطراب. وقف الشيخ [فلاقيوس فلاكوس Flavius Flaccus] في موضع ظاهر [لطيبريوس] ولكن بعيد يتعذر اسماعه ما يريد قوله له. فأخذ يشير اليه بحركات من يده يقصد افهامه بان لديه ما يريد قوله له وهو بالغ الأهمية. ففهم وبيعض الصعوبة وصل فلاقيوس واسره بان طبقة الاغنياء توصلوا الى قرار نهائي في مجلس الشيوخ، بعد أن وجدوا بأنهم لن يفلحوا في ضم القنصل الى معسكرهم. وهو ان يعمدوا الى اغتياله وقد سلحوا عدداً من خدمهم واتباعهم لتنفيذ هذا العمل. فأبلغ [طيبريوس] اتباعه واصحابه. فما كان منهم إلا زمواً ارديتهم على اجسامهم وكسروا رماح الضباط التي كان يستخدمها هؤلاء لابعاد الجمهور وتفريقه، وجعلوها قطعاً وتوزعوها لمقاومة الهجوم بها. وعجب الناس البعيدين واخذوا يتساءلون عما يجري وكان [طيبريوس] يعلم ان صوته لا يصل اليهم. فرفع يديه فوق رأسه يريد ان يصور لهم بحركاته الخطر العظيم الذي يتعرض له ولاحظ خصومه هذه الحركة فأسرعوا في الحال الى مجلس الشيوخ وأعلنوا ان

[طبيروس] يطلب من الشعب تاجاً، مفسرين مسّ رأسه بيده بهذا التفسير فخلق النبأ ضجة واضطراباً عاماً بين الشيوخ. وأسرع [ناسيكا] يطالب القنصل بعقاب الطاغية والدفاع عن الحكومة، فأجاب القنصل بهدوء انه لن يكون البادي باستخدام العنف. وفي الوقت الذي لا يود ان ينفذ حكم الموت بأي رومانيّ حرّ قبل صدور الحكم الشرعي عليه كذلك لن يسمح بتنفيذ عمل [لطبيروس] ارغم عليه الشعب أو اختاره، عن طريق استفتاء غير قانوني. الأ [ناسيكا] قال وهو ينهض:

- مادام القنصل لا يراعي سلامة الجمهورية، فليتبني كل من يريد الدفاع عن حرمة القانون.

ثم وضع طرف عباءته فوق رأسه واسرع الى [الكابتول] وحذا من تبعه حذوه ولفوا عباءاتهم على سواعدهم وشقوا طريقهم وراءه. ولما كانوا من ذوي السلطة والمقام في المدينة فقد تهيبت العامة اعتراض سبيلهم بل اسرعت في افساح السبيل لهم فأخذ الواحد منهم يسقط على الآخر من فرط العجلة. واما اتباعهم الذي جروا وراءهم فقد استعدوا بالهراوات والقضبان التي جاؤوا بها من بيوتهم، وجعلوا قوائم بعض المصاطب والمقاعد، ورفع قطعاً من تلك التي تكسرت بسبب تدافع الجمهور اثناء فرار السريع، واتجهوا نحو [طبيروس] وهم يكيلون الضربات لكل من يقف في طريقهم ويوقعونه ارضاً فتفرق الناس وحاول [طبيروس] الخلاص فأخذ يعدو وفيما هو كذلك اذا مسك احدهم بذيل رداءه فوقعه الا انه خلع الرداء واستأنف فراره بثيابه الداخلية الا انه عثر وسقط فوق الساقطين المرضوضين. وفيما هو يحاول النهوض، شوهد [پوبليوس ساتوربيوس Publius Satureius] التربيون يهوى علي رأسه باول ضربة قتالة في قائمة كرسي. ونسب [لوشيبوس روفوس Lucius Rufus] الضربة الثانية لنفسه. كأنه أقدم على مأثرة تدعو الى الفخر. وقتل في هذه الفتنة ما يزيد عن ثلاثمائة بالعصي والقضبان، والهراوات ولم يقتل أحد بسلاح حديدي.

تلك على ما قيل - اول فتنة بين الرومان تنتهي بسفك الدماء منذ اسقاط الحكم الملكي، فكلّ الخصومات - وما كانت بالصغيرة أو بالتافهة - تحلّ بالتصافي - بتنازل فريق لفريق: مجلس الشيوخ يتنازل خوفاً من العامة، والعامة تتنازل توقيراً للمجلس وكان من المحتمل حقاً ان يتوصل الى اقناع [طبيروس] بالتنازل عن طريق محاجته منطقيّة. ومن المؤكد انه سيخضع دون حاجة للاعتداء عليه ولا اللجوء الى عنف وسفك الدماء، اذ لم يكن لديه من المشايخ اذ ذاك - ما يزيد ثلاثة آلاف. والواضح الذي لا يقبل نقاشاً ان مقتله لم يكن بنت سعته. فالحق والحق الذي حفظهما الاغنياء له كأنا مسؤولين عن المأساة، أكثر مما كان للاسباب التي يدعوها هم، وكدليل على هذا، نشير الى الوحشية والاهانة اللانسانية التي

عوملت بها جثته. فلم يسمحوا لأخيه رغم رجاءاته الحارة - بدفنها ليلاً، بل القوها في النهر مع الجثث الأخرى. ولم يقف حقدهم عند هذا الحدّ، فقد ابعدوا اصحابه عن ايطاليا دون اللجوء الى الاجراءات القانونية المعتادة وقتلوا كل من وقع بايديهم، وبينهم [ديوفانس] الخطيب. وقتل [كايس فيلليوس Caius Villius] قتلة شنعاء فقد وضع في برميل مليء بالافاعي والحيات وجيء به [بلوسيوس الكوفي] الى القناصل واستجوب حول ما وقع فأعترف بصراحة انه انفذ كل ما طلبه [طبيروس] منه دون تردد فصاح [ناسيكا]:

- فلو طلب منك [طبيروس] اشعال النار في الكابتول. اتفعل؟

فأجاب اولاً: ان [طبيروس] لن يطلب منه شيئاً مثل هذا فكرر آخرون نفس السؤال عليه فقال:

- لو كان [طبيروس] قد أمر به لفعلته، فانه لم يأمر بشيء ان لم يكن في مصلحة الشعب. وأطلق [بلوسيوس]. فرحل الى [ارسطونيوس Aristonicus] في آسيا وعندما سقط هذا، يخع بلوسيوس نفسه.

لم يعارض مجلس الشيوخ في قانون تقسيم الأراضي الاميرية، تهدئة من تأثرة العامة هذه الأحداث وسمح باختياره مفوض آخر في محل [طبيروس] فأختاروا [پوبليوس كراسوس] من اقرباء القتييل، اذ ان [كايس غراكوس] هو ختنه. الا ان [كورنيليوس نيبوس Cornilius Nepos] يقول ان بنت [كراسوس] لم تنزوج [كايس] بل [بروتوس] الذي نال موكبي نصره لتغلبه على اللوزيتانيين. الا ان معظم الكتاب يتفقون معنا فيما ذكرناه.

ومهما يكن فقد أظهر الشعب دلائل سخط واضحة لمقتل [طبيروس]. وتبين انه كان يتحين الفرصة للانتقام وسبق ان هدّد [ناسيكا] بالاحالة الى القضاء، وخشي عليه المجلس فعينه سفيراً وارسله الى آسيا ولم يكن ثم ما يستدعي ذلك. ولم يخف الشعب حنقه على هذا الرجل فقد كان يهان ويحقرّ كلما لوحظ سائراً في شارع فينادى القاتل والطاغية والرجل الذي لوث أقدس واطهر بقعة في روما بدم حاكم مصون. فرحل [ناسيكا] من ايطاليا رغم انه كان ملزماً بالبقاء بحكم وظيفته: (عظيم الكهنة) لترؤس القرايين الرسمية الهامة. فراح يطوف في البلاد على غير هدى لا يستقرّ به مقام. ومات بعد قليل في موضع لا يبعد كثيراً عن [برغاموس]. وليس بالأمر العجيب أن يبغض الناس [ناسيكا] الى هذا الحدّ. [فسكيبو افريقانوس] الذي يكنّ له الرومان أعماق الحبّ والولاء، باستحقاقه، كاد يتعرض لسخط الشعب ايضاً لأنه أنشد بيتاً لهوميروس عندما أبلغ بمقتل [طبيروس] وهو في نومانتيا اذ قال:

«وكذلك سيهلك كما من يفعل مثل هذا».

وقد سأله كلٌّ من [كايوس] و[فلوثيوس] في مجتمع حافل عن رأيه في مقتل [طيبيريوس] فكان رأيه يخالف رأي الشعب فيما أقدم عليه [طيبيريوس]. ولهذا السبب راح الناس يقاطعون خطبته كلما صعد المنبر وهو مالم يقدموا عليه من قبل. فراح يطعن في الرأي العام بدوره... على أننا اوردنا هذه التفاصيل في سيرته.

١٩٧٢/١/٣١

کایوس گراخوس

**CAIUS GRACCHUS**

154 – 121

وبصرف النظر عن شيوع الرأي القائل بأن [كايوس] يفوق أخاه [طيبريوس] في ديماغوغيته المسيطرة، وطموحه الى الزعامة الشعبية، فمن المؤكد انه حمل حملاً على دخول. ويحدثنا شيشرون الخطيب انه عندما طلق الحياة السياسية وآثر ان يحيا حياة هادئة ظهر له أخوه في الحلم وناداه باسمه وقال له:

- لماذا تتلكأ يا كايوس؟ لا مهرب لك ابداً. لقد كتبت لكلينا حياة واحدة وميتة واحدة، نقضي الأولى ونلاقي الثانية في خدمة الشعب.

وما ان استقر المقام [بكايوس] في سردينيا حتى أخذ يقدم أدلة لمواهبه العالمية صارت مثلاً يحتذى. ففاق كل اترابه الشبان في الحرب مع الاعداء. وكان عادلاً مقسطاً لمروءسيه، وطائعاً محترماً لضابطه الأعلى. كذلك كان حسن خلقه وبساطته ومثابرتة فقد تفوق بهذا على كل من يكبرونه عمراً بكثير. واتفق أن حلّ في سردينيا شتاء قارس البرد شديد الوطأة. حتى اضطر القائد الى ان يفرض على عدد من المدن واجب تجهيز جنوده بالملايس الضرورية. فأعترضت المدن الى روما وطلبت اعفاها من هذا العبء فوجد مجلس الشيوخ الطلب وجيهاً وأمر القائد بأن يجد حلاً آخر لمشكلة البسة الجيش، وفيما هو في حيرته لا يدري ماذا يصنع وحالة الجنود تترددى. جاءه [كايوس] بالحلّ المنشود اد انطلق هذا الشاب ينتقل من مدينة الى أخرى مناشداً متوسلاً مستخدماً أرق تعابير الاقناع، حتى تكلمت مساعيه بالنجاح وأقبلت الأهالي بمحظى اختيارها على التبرع بالثياب للجيش، وأعلمت روما بمساعيه فأثارت حسداً في نفوس اعضاء المجلس وبدت لهم مقدمة لما ينتظر منه كزعيم شعبي في المستقبل. والانكى من هذا ان وفداً من السفراء ارسله [ميشيسا Micipsa] الملك من افريقيا الى روما، ليعلم المجلس بأن مولاهم الملك تقديراً [لكايوس غراكوس] واحتراماً له، قد أرسل كميات كبيرة من القمح الى القائد في سردينيا. فعد المجلس هذا العمل اهانة كبيرة له وطردهوا السفراء من القاعة واصدروا امراً باستبدال قطعات الجيش هناك بأخرى جديدة على ان يبقى [اوريتيس] في القيادة، وهذا ما يفرض بقاء كويستوره [كايوس] معه. فلما رأى كيف تجرى الأمور واي منحى شاذ تتخذ ثاربه الغضب وابحر الى روما، فاستهجن اعداؤه ظهوره غير المتوقع في روما، كما لامه الناس، اذ لم يكن من اللائق أن يترك [كويستور] مقرّ عمله قبل ان يتركه قائده. وعلى كل حال فقد وجهت اليه اتهامات بهذا المال واستدعي للمثول امام [الچنصورين] فطلب ان يسمح له بتبرير عمله وقام بذلك خير مقام، وبدأ شخصاً مظلوماً، لحق به اكبر حيف، قال انه خدم في الجيش اثنتي عشرة سنة في حين لم يخدم امثاله أكثر من عشر. وانه ظلّ [كويستوراً] بأمرة القائد ثلاث سنوات في حين لايجوز قانوناً ان يبقى أكثر من سنة واحدة.

في مبدء الأمر تحاشى [كايوس غراكوس] الدخول في الحياة العامة اتوارى عن الانظار، وراح يعيش في منزله عيشة هادئة، ولعله قصد بهذا ان يزيد من كراهة الشعب لاعداء أخيه، اذ انه كان يخاف دسياسة من هؤلاء الاعداء. على اية حال ظلّ على هذه الحال، لا كأنه مضطراً الى ان يقضي حياته منسياً، بل انه القدر الذي حكم عليه بالحياة الخاملة غير المثمرة، وتمادى بعضهم في تحري اسباب اختياره العزلة. فقال أنه أبغض أساليب أخيه وعزف عن الترويج لها واحياؤها في الخواطر بصورة مطلقة، ومهما يكن من أمر، فان لصغر سنه اذ ذاك - تأثيراً في هذا. اذ كان يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً حين لم يرد عمر [طيبريوس] عن الثلاثين عندما أعتبط.

بعد مرور حين من الوقت أطلق لميوله متنفساً وأرخص لها بعض العنان بكلّ هدوء، وبدت بضيقه ذرعاً من الكسل والخمول وحياة البيت ميوله تلك لم تكن ترضى له بحياة الأكل والشرب وكسب المال، فأخذ يبذل الجهود الكبيرة في دراسة البيان والفصاحة، لتكون له بمثابة اجنحة توصله الى الحياة العامة. وكان واضحاً انه لاينوى فضاء عمره في زوايا النسيان فعندما جرت محاكمة صديقه [فيتيوس Vettius] تولى الدفاع عنه. فنقل المستمعين الى حالة من الوجد والذهول وجنوا فرحاً ان وجدوه سيد البيان وامام الفصاحة حتى بدا غيره من الخطباء مجرد اطفال امامه. فراح الحسد والخوف يعملان عملهما في نفوس ذوي النفوذ والوجاهة، وصاروا يتحدثون فيما بينهم عن وجوب الحيلولة دون وصول [كايوس] الى منصب [التربيون].

وما مرت فترة قصيرة حتى انتخب [كايوس]، كويستوراً، وكان ملزماً بالعمل تحت أمرة القنصل [اوريستس Orestes] في سردينيا ومع ان هذا التعيين كان مبعث سرور لاعدائه، الا انه لم يكن كارهاله. فهو مقاتل بطبعه وقد تدرّب على صناعة الحرب كتدريه على الادعاء والمرافعة في المحاكم. اصف الى هذا انه كان يخشى كثيراً العمل في الحقل السياسي، وان ظهوره للناس في الروسترا لم يكن ليسعه التخلص منه بناء على الحاح الناس واصدقائه الا بقيامه بهذه الرحلة. لذلك كان راضياً ائمة الرضا بهذه الفرصة فرصة ابتعاده عن مركز الاغراء.

وانه كان الوحيد الذي خرج الى الحرب وصرتة ملأى، وعاد وهو لايملك شروى نقيير. في حين ان الآخرين. بعد ان شربوا الخمر التي حملوها معهم، عادوا وقد ملأوا جرارها الفارغة بالذهب والفضة من الحروب.

ووجهوا اليه بعد ذلك اتهامات أخرى، منها اثاره الفتنة بين الحلفاء، ومشاركته في مؤامرة تم اكتشافها عند [فريجليي Fregellae]، وما ان بدد الشكوك التي تحوم حوله، وبرأ نفسه من كل تهمة حتى تقدم مرشحاً نفسه لمنصب [التربييون] ومع ان كل الشخصيات البارزة كانت تقف له ضد اي مرشح، فقد تقاطر عدد لا يحصى من الناس، من كل الانحاء ايطاليا للتصويت له فضاقت المدينة بهم على رحبها. وعزت محلات المبيت. ولما كان (الحقل) لا يتسع للجمعية العامة فقد تسلقت فئات من الناخبين اطناف البيوت وصعدوا السطوح. ومع شتى الضغوط التي مارستها طبقة الأشراف على العامة لاسقاط [كايسوس] وتحقيق رغائبها في المرشحين فقد فاز [كايسوس]، ولكن ليس بأكثر الاصوات بين الفائزين كما كان متوقفاً بل جاء ترتيبه الرابع، وعندما باشر مهام وظيفته ظهر حالاً من هو [التربييون] الأول الحقيقي. كان أقوى زملائه لسناً. والعاطفة التي كانت تتدفق حين يرثي اخاه جعلته اجراًهم في الكلام. لقد اعتاد في كل مناسبة تذكير الشعب بما وقع في تلك الفتنة. فيروح يعرض لهم أمثلة من أسلافهم، كيف أعلنوا الحرب على الفالسكان Faliscans لأنهم أهانوا بالقول، تربييون الشعب [غينوشيبوس Genocius] وقذفوه ببذء الكلام. كيف حكموا بالموت على [كايسوس فيتوريوس Caius Viturius] لأنه رفض الخضوع والتنازل للتربييون في الفورم...

- في حين أن هؤلاء الرجال - بمحضر منكم جميعاً قتلوا [طيبيريوس] بالهراوات وجروا جثته الذبيحة في وسط المدينة، ثم القوها في النهر. ولم ينج من هذا الحقد اصحابه فقد امسكوا بكل من طالته ايديهم وقتلوه فوراً دون محاكمة، دون اعتبار للتقليد العادل القديم الذي ظل نافذ المفعول في مدينتنا: عندما يتهم شخص بجناية خطير، ولا يحضر شخصياً الى المحكمة. يرسل القضاة بوقياً الى منزله صباحاً فيدعوه بنفير بوقه الى المثول امام القضاة. وبدون اتخاذ هذا الاجراء لا يمكن ان يباشر القضاة التصويت على الحكم. الى هذه الدرجة من الحرص والحذر كان اسلافنا قد بلغوا في الأمور المتعلقة بالموت والحياة.

بعد أن تأكد من مقدرة خطبه العاطفية على تحريك عواطف الجمهور (كان صوته أقوى وأعلى من سائر خطباء عصره). اقترح سن قانونين جديدين: اولهما، ان كل من طرد وظيفة عامة أخرى والثاني: ان اي حكم بالنفي يصدر حاكم على روماني، دون أن يتيح له محاكمة

شرعية، فللشعب الحق في اتخاذ مايراه مناسباً من عقاب بحق هذا الحاكم.

وكان واضحاً ان المقصود باول القانونين هو [ماركوس اوكتافيبوس] الذي عزله الشعب من منصب التربييون باقتراح [طيبيريوس] أما القانون الثاني فقد كان يمس [پوپيليوس Popili-us] الذي نفى كل اصحاب [طيبيريوس] اثناء توليه منصب [الپريتورا]. ولما لم يكن هذا راغباً في تعريض نفسه للمحاكمة فقد هرب من ايطاليا.

وقد سحب [كايسوس] القانون الأول برجاء من والدته [كورنيليا] فكان لهذه المبادرة وقع جميل عند الشعب وسرّبها كثيراً، فطالما انزلوا [كورنيليا] منزله رفيعة وخصوها بأعظم الاحترام بسبب ولديها بالأحرى لا بسبب ابوها. ولقد اقاموا لها فيما بعد تمثالاً من النحاس تكريماً لها ونقشوا عليه هذه العبارة « كورنيليا والدة الغراكيين ». ولدينا فقرات من خطبه كان يستخدم فيها اسمها بقوة حجة وبيان كثيرة، وبحياء قليل اثناء مهاجمته الخصوم، كأن يقول: - كيف تتجرأ على الطعن في سمعة كورنيليا ام طيبيريوس (ولأن الشخص الذي صدرت منه المطاعن عن يشتبه في ان شذوذه الجنسي انشوي الصبغة فهو يستطرد).

- بأي وجه يمكنك ان تقارن [كورنيليا] بشخصك انت؟ هل ولدت بقدر ما ولدت في ابنا؟ ومع هذا فكل روما تعلم انها تأبى مبادلة الرجال الحديث مدة اطول مما تستغرقه انت! هذه التعابير اللاذعة كانت تتخلل لغته. وهنالك ما لا يحصى من أمثال هذه العبارة يمكن الاستشهاد بها مما خلف من كتابات.

ومن بين القوانين التي اقترحها الآن مستهدفاً رضا الشعب واضعاف سلطة الشيوخ: القانون الخاص بالاراضي الاميرية التي كان قد قرر توزيعها على المواطنين الفقراء والقانون الذي يتعلق بالجنود العاديين وكسوتهم على حساب الدولة دون خصم التكاليف من اجورهم وتحديد سن الانخراط في سلك الجيش بما لا يقل عن سبع عشرة سنة كاملة. وقانون ثالث حول منح حق الانتخاب والتصويت كل الايطاليين بصورة مطلقة مثلما يتمتع بذلك أهالي روما. وقانون رابع يتعلق باسعار القمح ووجوب بيعه من الفقراء بأقل مما كان يباع منهم في السابق. وقانون خامس بتنظيم المحاكم ومجالس القضاة، وتقليص سلطة اعضاء مجلس الشيوخ الى حد كبير. فالى ذلك الحين كان اعضاء مجلس الشيوخ يجلسون وحدهم للقضاء في سائر الدعاوى. لذلك كانوا يلقون الرعب في نفوس طبقتي الفرسان الرومان والعوام. فأقترح [كايسوس] في قانونه ضم ثلاثمائة مواطن عادي من طبقة الفرسان الى مجلس الشيوخ (وهم ثلاثمائة كذلك) وان تمنح سلطة القضاء للستمائة معاً على حد سواء.

وفيما هو يناقش ويحاو وييسط وجهة نظره للفوز بالمصادقة على هذا القانون، لوحظ ان سلوكه كان يكشف من نواحٍ كثيرةٍ عن صدق واخلاص غير عاديين. وفي الوقت الذي كان الزعماء الشعبيون الآخرون حتى ذلك الحين يديرون رؤوسهم اثناء خطبهم نحو مجلس الشيوخ [الوضع يدعى كوميتيوم Comitium] تراه الوحيد الذي خالف القاعدة في خطبه العامة. فقد ادار رأسه الى الجهة المعاكسة - للشعب وظلّ مقيماً على ذلك. انها اشارة الى نوع من الانقلاب في مفهوم الدولة، وتحول من الاتجاه الارستقراطي الى المنحى الديمقراطي. ان عمله هذا اشارة للخطباء الجماهيرين بالتوجه الى الشعب لا الى مجلس الشيوخ بعد ان صادقت الجمعية العامة على هذا القانون، خوّل [كايسوس] الصلاحيات اللازمة لانتقاء الفرسان الذين سيشاركون الشيوخ في السلطة القضائية، وبهذا صار يتمتع بسلطة تشبه سلطات الملك. ونزل مجلس الشيوخ نفسه الى حدّ قبول مشورته في الأمور الخطيرة. فلم يستغل [كايسوس] هذه الخطوة باقتراحات ونصائح تحطّ من قدر المجلس. مثال ذلك قراره بخصوص القمح الذي ارسله المتعهد [فابيوس Fabius] من اسبانيا. فقد كان مقسطاً فيه محافظاً على شرف روما وسمعتها. اذ أقتع المجلس ببيع القمح واعادة بدل المبيع الى عين الاقاليم التي استورد منها، مع توجيهه اللوم [لفابيوس] لأن عمله هذا جعل الدولة الرومانية تبدو مكروهة ممقوته. وهذا ما أضفى عليه لوناً من الاحترام الفائت للعادة، ونشر اسمه في الاقاليم. واقترح اتخاذ بعض الاجراءات حول تأسيس مستوطنات رومانية في عدة مدن، وشق طرق جديدة، وبناء مستودعات عامة لخزن القمح. وكان يقوم هو شخصياً بالإشراف على هذه الاشغال العامة وادارتها، وبيادر دون تردد الى اصدار الاوامر الضرورية لتنفيذ هذه المشاريع الكبيرة المختلفة بدقة واندفاع كأنه لايشرف على جميعها في آن واحد بل على مشروع واحد فقط. واشتدّ العجب بالجميع - حتى الكارهين له والخائفين منه - للكفاءة والمقدرة التي يبديها في انجاز ما تعهد بانجازه، واما بخصوص افراد الشعب فقد كان الفرع يغمرهم حين يرونه محاطاً بأفواج من المقاولين والصناع والفعلة ونواب الشعب، وضباط الجيش والجنود والخبراء. وكان يعامل الجميع ببساطة وصراحة دون الاخلال بمركزه، ولطفه. وهكذا سخر طبعه لتلبية حاجات ومطالب كل مراجع. فصار الناس ينظرون الى كلّ من وصفه بالغرسة والعنف، والخيلاء، نظرتهم الى الغمازين اللمازين الحاسدين. وكانت زعامته الشعبية اظهر في حديثه الاعتيادية واعماله، منها في خطبه الجماهيرية.

واولى أكثر العناية بشق الطرق واقف عليها اعظم مجهوداته. فأهتم بان تكون لطيفة المنظر مريحة، وشقت عبر الحقول الزراعية بخطّ مستقيم تماماً، تحت اشرافه المباشر. ووصف

قسمٌ منها بالحجر المهندم وقسم آخر رصف بكتل صلبة من الصخر. فاذا اعترضه وادٍ أو مجرى ينهر عميق. بادر اما يردمه أو باقامه جسر فوقه على مستوى واحدٍ من النهايتين فيبدو للرأي منتظماً مستوياً ليس به نبوّ. وافر بتقسيم كل طريق الى اميال (كل ميل واحد يساوي أقل قليلاً من ثمانية فرلنكات). واقام اعمدة حجرية لتعيين المسافات من موضع الى موضع، كذلك ركز حجارة على مسافات متقاربة من جانبي الطريق لمساعدة المسافرين على اعتلاء ظهور خيولهم دون حاجة الى سائس.

لهذه الأسباب أكبره الناس. وبدأوا يتلهفون ليظهروا مدى تعلقهم به وامتنانهم منه. وفي يومٍ ما ذكر اثناء خطابه بانه يرجو المنّ عليه بفضل واحدٍ لا غير، ولو فعلوا لكان هذا أكبر تقدير منهم يطمح فيه. وان يفعلوا فلن يعتب عليهم. هذا القول حمل الناس على الظنّ بأنه يرنو الى المنصب القنصلي والتريبيون. وعندما أرف يوم الانتخاب القنصلي، وتوافد الناخبون وهم يضربون اخماساً باسداس، ظهر [كايسوس] في (الحقل) بصحبة [كايسوس فانيوس] المرشح القنصلية. وشرع يروج له الدعوة مع اصحابه فكان لهذا تأثيره المؤكد في فوز [فانيوس]. وانتخب [كايسوس] تريبوناً للمرة الثانية. دون ان يتقدم للترشيح، او يبيث الدعوة لنفسه، بل تمّ انتخابه بمبادرة لتقائية من الشعب. لكن سرعان ما ادرك ان مجلس الشيوخ عدوه اللدود وان [فانيوس] ليس من الاصدقاء المتفانين الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتماداً تاماً عندما تحزب الأمور. فراح يتودد للشعب ثانية بقوانين جديدة. فأقترح أن ترحل مستوطنة من الرومان لإشغال مدينة [تارتوم] و[كاپوا]. واقترح المساواة اللاتين في حقوقه المواطنة مع الرومان وفتحهم بنفس الامتيازات المقصورة على الأخيرين. الا ان المجلس تهول تعاضم قوته وزيادة خطرهم عليهم، فأخذ سبباً جديدة غير مسبوق، لأجل تجريده من محبة الشعب، وذلك بتمثيلهم دور الديماغوغي مقابله، عن طريق الإغراق في منح الامتيازات للشعب خلافاً لمفاهيم النضج السياسي:

كان [ليفوس دروسوس Livius Drusus] التريبيون زميلاً [لكايسوس] وهو شخص ينحدر من اسرة طيبة، جيد الثقافة والتهذيب، لا يقل مستوى باي حال، عمن نال بقوة لسانه وغناه اعظم الشرف والتكريم فأصبحوا اقوى رجال ذلك العصر نفوذاً وسلطاناً. الى هذا الشخص لجأ اعضاء مجلس الشيوخ لاستعماله في انجاح خطتهم، وطفقوا يحثونه ويشجعونه على مهاجمة [كايسوس] والانضمام الى حلفهم ضدهم والمشاركة في السبيل الذي اعتزموا المضي فيه الى النهاية. لا باستخدام القوة او مناهضة الجماهير بشكلٍ سافرٍ، بل بالمداينة والتقرب منها عن طريق ارضائها ومنحها امتيازات لا تتوقعها. ولولا الغرض الذي تستدتنه هذه السياسة



لشعروا بأن في مقاومة تلك المطالب والامتيازات أكبر شرفٍ لهم وان حصدوا منها نقمة الشعب وكرهه:

فقبل [ليقيوس] ان يخدم اغراض مجلس الشيوخ، وان يضع سلطته تحت تصرفهم. وراح يقترح مشاريع قوانين لم تكن في الواقع بذات نفع أو تكريم للشعب. وكل همّه ان يستيق [كاوس] الى قلوب افراده والفوز بثقتهم بارضائهم (وبدا الأمر كله اشبه بتمثيلية هزلية) والتزلف الذليل اليهم وتقديم الترضيات المختلفة. حتى بدأ للجميع ان مجلس الشيوخ لم يكن مناهضاً أو مستاءً من اجراءات [كاوس] بل كان همّه الوحيد القضاء المبرم عليه، أو اضعاف الثقة به وتجريده من شعبيته على الاقل ان لم يكن الغرض الأول ميسوراً.

فعندما أقترح [كاوس] انشاء مستوطنتين رومانيتين فحسب واوصى بانتقاء اعضائهما من الطبقة الراقية. اتهموه باهانة عامة الشعب. في حين ابدوا رضاهم على اقتراح [دروسوس] بانشاء اثنتي عشرة مستوطنة كل واحدة منها تتألف من ثلاثة آلاف مواطن يتم اختيارهم من افقر الناس وأكثرهم حاجة. وعندما وزع [كاوس] الأراضي الاميرية على المواطنين الفقراء وفرضت ايجازات زهيدة جداً يدفعونها للخزينة اظهر المجلس الغيظ لصرامته. كأن ارضاءهم للشعب خالص لوجه الله، ولذلك اثنوا على [ليقيوس] لأنه اقترح اعفاءهم من بدل الايجار الزهيد هذا، وسخطوا على [كاوس] لأنه منح اللاتينين حقوقاً مساوية لحقوق الرومان في التصويت على انتخاب الحكام. وعندما اقترح [ليقيوس] ان يحظر على قائد المائة الروماني فرض عقوبة الجلد على الجندي اللاتيني. أسرعوا فصادقوا على قراره. ودأب [ليقيوس] على القول في كل خطبه، بأنه لن يقترح من القوانين الا تلك التي يحبها مجلس الشيوخ الذي يحرض على المصلحة العامة حرصاً شديداً وبهمه رفاء الشعب وسعادته. في الواقع ان هذه النقطة هي الوحيدة التي ادى بها [ليقيوس] خدمة صادقة، من دون سائر اعماله، فقد قربت ما بين الشعب ومجلس الشيوخ، وخلقت المزيد من الثقة، فقد كان ينقم على زعماء المجلس ويشك في نواياهم تجاهه. فجاء [ليقيوس] ليزيل تلك الريب، ويخفف من شدة ذلك العداء، بفنّه الذي لم يفعل شيئاً لمصلحة الشعب ومنفعته دون توجيهات المجلس ومصادقتهم!

الا ان العامل الاكبر الذي دفع الشعب الى ايلاء [دروسوس] الثقة التامة والعطف الشديد. هو انه لم يقترح قانوناً ينطوي على منفعة خاصة له. فقد اناط الاشراف على عملية الاستيطان بمفوضين لم يكن هو واحداً منهم. ولم يهتم بموضوع توزيع الاموال. في حين كان [كاوس] يتولى دائماً المهمة الرئيسية من اي مشروع هام.

واقترح [روبريوس] احد تربيونات الشعب اعادة تأهيل قرطاجنة التي هدمها [سكيبيو] وسواها بالقاع، وعهد الى [كاوس] بالمهمة، فابحر الى افريقيا. فأتتهز [دروسوس] الفرصة التي اتاحت له بغيابه للمزيد من التقرب الى الجمهور وكان نجاحه يعزى بصورة رئيسه الى ادانته [فلوثيروس] احد اصدقاء [كاوس] المقربين المعين معه في مشروع توزيع الاراضي. كان [فلوثيروس] مشاكساً مشاغباً مكروهاً من مجلس الشيوخ الى اقصى حد. وكان ايضاً يشك في انه عمل على تأجيج الخلاف بين المواطنين الرومان وحلفائهم. وانه يحرض الايطاليين من طرف خفي على الثورة. الا انه لم يتوفر دليل ملموس على حقيقة هذه التهم، أكثر من الشك وبسبب طبعه المتقلب واتجاهاته العنيفة. وكانت علاقة [كاوس] به السبب الرئيس لدماره، فقد اصابه رشاش من النقمة التي صبت على رأس [فلوثيروس]. وعند وفاة [سكيبيو] افريقانوس الفجائية. من دون معرفة سبب هذه الميته غير المتوقعة سوى آثار لبعض الرضوخ والكدمات شوهدت في الجثة مما يدل على اعتداء وعنف استخدم قبل الوفاة، كما ذكرنا في سيرته، حامت الشكوك. حول [فلوثيروس] لأنه كان عدوه اللدود. وفي يوم موته بالذات كان قد تهاجم في خطبة القاها على الشعب. ولم يكن [كاوس] نفسه بعيداً عن الظنون. ومهما يكن من أمر بان هذا الاعتداء الاثيم الذي ارتكب بحق اعظم وارفع الناس قدراً عند الرومان لم ينتصف له، ولم يجز تحقيق شامل دقيق فيه، لأن الشعب منع وعارض في اي تحقيق قضائي. خوفاً من ان ينال [كاوس] ضرراً من اعدائه ان بوشر بالاجراءات ان هذا وقع قبل الحوادث التي فسروها الآن:

وفي افريقيا حيث انهزم [كاوس] في بعث قرطاجنة واحيائها تلك المدينة التي عرفت فيما بعد باسم [يونونيا Junonia]، ذكر ان عدداً من نُذُر السوء قد ارسلته الآلهة، ومن بينها هبوط عصفه ربح هوجاء على أول شعاع روماني كان حامله يشد عليه بكلتا يديه فأنكسرت قناته، وهبت عاصفة شديدة أخرى بصورة مفاجئة فحملت الاضاحي التي كانت مكدسة فوق المذابح وقذفت بها الى خارج الحدود التي رسمت للمدينة. ومنها ان الذئاب هجمت ونهبت كل الاشارات التي وضعت لتعيين خطط المدينة. ولم يأبه [كاوس] لهذا كله، وواصل عمله واصدار اوامره بالتنفيذ حتى أكمل عمله كله في سبعين يوماً، وقفل راجعاً الى روما. اذ علم كيف استهدف [فلوثيروس] لانهام [دروسوس] مدركاً ان الوضع لايسمح له بالغياب عن روما. ذلك لأن [لوشيو اوبيميوس Lucius Opimius] كان يسير الى المنصب القنصلي بطريق ممهد بعد ان جمع حوله العديد من الاتباع والاشياع. و[لوشيو] هذا من طبقة الاشراف، يتمتع بنفوذ غير قليل في مجلس الشيوخ كان في الماضي قد رشح نفسه الا

انه فشل لتدخل [كايسوس] لصالح [فانيوس] فأنتخب هذا قنصلاً في حينه. وقد ساد اعتقاد جازم ان [لوشويسوس]، سيعمل للقضاء على [كايسوس] قضاءً مبرماً إن فاز من الانتخابات. وكان نفوذ [كايسوس] في افول واضمحلال. ولم يعد الشعب مستعداً للتصفيق له اعجاباً باعماله كما كان يفعل سابقاً. لأنه وجد كثيرين ممن لا يفيق تهم اختراع وسائل جديدة يومياً لارضائه. ولا يقف المجلس عائقاً بل يسارع فوراً للمصادقة عليها.

بعد عودته الى روما انتقل من منزله في [جيبيل بالاتين Palatine] ليعيش قريباً في الساحة العمومية محاولة منه ان يبعث الحياة في شعبية هذه الاحياء التي يقطنها الدهماء والمعدمون من المواطنين. وتقدم ببقية قوانينه الى الشعب معتزماً ان ينال المصادقة عليها بالاستفتاء العام. فأجتمعت لمساندته هائلة من جميع البلاد، الا ان المجلس اقنع [فانيوس] القنصل باصدار بيان فيه يأمر كل مواطن غير مولود في روما ان يغادرها. ثم اذيع بيان ثانٍ غريب في بابه: يقضي بمنع اي فردٍ من الحلفاء والموالين من القدوم الى روما في تلك الفترة بالذات. فيبادر [كايسوس] الى اذاعة بيان مضاد، مندداً باجراءات القنصل، ومعلناً للحلفاء والموالين بأنه سيساندهم ويحميهم اذا بقوا في روما ولم يبرحوا. على انه لم يحفظ الوعد الذي قطعه لهم. فقد شاهد بنفسه احد اصحابه الخلصاء بين حراس [فانيوس] يقودونه الى السجن فتشاغل عنه ومر به دون ان يحرك ساكناً. اما لأنه كان خائفاً من وضع نفوذه المتهاافت على المحك. وإما لأنه (كما ذكر هو نفسه) كان يتحاشى منح اعدائه تلك الفرصة التي يصبون اليها كثيراً. وهي الوصول بالخلاف الى العنف والقتال الفعلي. في اثناء ذلك حصل خلاف بينه وبين زملائه التريبيونيات حول المسألة التالية: كان مقرراً أن تعرض لمشاهد نزال للمصارعين في حفلٍ عام فوق الساحة العمومية. فنصب معظم الحكام مقاصير حول الملعب بنية الاستفادة من تأجيرها. فأمرهم [كايسوس] بهدمها حتى يتاح للفقراء مشاهدة العرض مجاناً. فلم يمتثل احد منهم، فجمع عدداً من الفعلة كان يعملون عنده. وباشر بهدم المقاصير في الليلة السابقة على العرض، وما أقبل الصبح حتى كانت الساحة خاليةً منها. واتيح المجال للعامه للاستمتاع بمناظر النزال في هذا وجد العامة ان [كايسوس] قام بعمل رجولي. الا انه اسخط زملاءه التريبيون كثيراً فقد وجدوا في عمله هذا مظهراً من مظاهر العنف والتدخل الصلف.

وكان هذا على ما يعتقد السبب الأساس في عدم انتخابه تريبيوناً ثالث مرة. لا لأنه لم يحز أغلبية الأصوات، بل لأن زملاءه اجمعوا على الانتقام منه فعمدوا الى كتابة تقرير غير صحيح عن نتائج الانتخاب. وهذا الأمر موضع خلاف على كل حال، لكن ما هو مؤكد، هو الحنق

الشديد الذي استولى عليه بسبب فشله وكان صلفاً جداً تجاه بعض خصومه الذين اظهروا سرورهم لسقوطه فقد ردّ عليه بقوله: ان كلّ هذا مرح تهكمي مزيف، فقلما عرفوا الى اي زاوية مظلمة من النسيان والحمولة قذفت بهم مآثره واعماله!

وما ان انتخب [اوپيميسوس] قنصلاً حتى تمّ الغاء عددٍ من قوانين [كايسوس]، وتماذى خصومه ففتحو تحقيقاً في اجراءات التي قام بها في [قرطاجنة] ولم يدخروا شيئاً لإثارته وازعاجه لعلّ ثورته العاطفية تمكنهم من ذريعة مقبولة للحكم عليه بالموت؟

في مبدء الأمر، احتمل (كايسوس) هذه الاجراءات بصبر. ولما شجعه اتباعه واثاروه ولاسيما (فولثيوس)، قرر أن يتزعم فريقاً من الاشياح والموالين، وينزل الى مقاومة القنصل بالقوة. وقيل انه امه انضمت الى العصيان وساعدته بأن استقدمت سراً الى روما جماعات من الاغراب بحجة مجيئهم للبحث عن عمل كحصّادين اذ كان في رسائلها اليه إشارة لهذا. على ان آخرين اكدوا بصورة خاصة جداً، ان (كورنيليا) على الأقل لم توافق على ما عمله ابنها.

وحلّ اليوم الذي تقرر ان يلغي فيه (اوپيميسوس) قوانين (كايسوس). وتقابل الحزبان في الصباح الباكر امام الكابتول وبعد أن انجز القنصل المراسيم المعتادة في تقرب القرايين جاء احد خدم القنصل ويدعى (كوينتوس انتيلليوس Quintus Antillius) وحمل احشاء الاضحية وسار بها الى الخارج ومرّ به (فولثيوس) واصحابه الواقفين فقال لهم:

- انتم ايها المواطنون المشاغبون. افسحوا السبيل للرجل الأمين!

وقيل انه أشفع هذا الاستفزاز بمدّ ذراعه العارية نحوهم هزوءاً بهم واستصغاراً. فانقضوا عليه وقتلوه باقلام stiles<sup>(\*)</sup> قوية مما يستخدم عادة في الكتابة. وقيل انهم صنعوها لاستخدامها بمثابة سلاح بهذه المناسبة. هذه الجنابة احدثت استياءً عاماً مفاجئاً وخلفت في رؤوس كل حزب أثراً مختلفاً. أمّا (كايسوس) فقد احزنه الأمر كثيراً وانحى باللوم الشديد على اتباعه لأن عملهم هذا زود خصومهم بالذريعة المقبولة التي كانوا يتمنونها منذ زمن بعيد ليبرروا حملتهم عليهم. واهتبل (اوپيميسوس) الفرصة التي واتته من حيث لا ينتظر وظهر عليه الفرح الغامر وبدأ يحرض الشعب على الانتقام. إلا ان زخةً قوية من المطر الهاطل حالت دون المضي في ذلك وانفرط عقد المجتمعين.

وفي صباح اليوم الباكر دعا القنصل مجلس الشيوخ الى الاجتماع وكان النقاش دائراً في الداخل، عندما وُضع جثمان (انتيلليوس) في نعش وجيء به الى الساحة العمومية وعرض

(\*) كانت الاقلام تصنع من حديد او اي معدن وهي دقيقة مرهنة الحد.

على ملاً من الناس امام مجلس الشيوخ تماماً. ورافق ذلك صراخٌ وعويل شديدان فظاهر (اوپيمبيوس) دهشته داخل المجلس (مع انه كان قد احيط علماً بهذا التدبير) وراح يتساءل عن سبب الضجة وخرج اعضاء المجلس جميعاً لاستطلاع الأمر ودنوا من النعش حتى وقفوا بالقرب منه ولم يسع الشعب ان يخفي اشمئزازه وبغضته بالمجلس حين تذكروا كيف انهم لم يكتفوا باغتيال (طيريوس غراكوس) اثناء ما كان يقوم بواجبات وظيفته في الكابيتول، بل قذفوا بجثته الشوهاة في مياه النهر، ومع هذا يجدون في انفسهم الجرأة والصفاقة بحضورهم وتفجعهم العلني في الفورم، وتكريمهم وتشريفهم جثة خادم عادي فأجور (وان كان موته عدواناً سافراً فإنه على كل حال كان المتسبب فيما حل به الى درجة كبيرة). يريدون بهذه الوسيلة الكيد للمدافع والحامي الوحيد المتبقى للشعب، ثم القضاء عليه.

بعد برهة من الزمن عاد الشيوخ من حيث أتوا، وصوتوا حالاً على تزويد (اوپيمبيوس) القنصل بسلطات استثنائية، لحماية كيان الجمهورية، ووضع حد نهائي للطغاة كلهم. وبعد ان تم هذا، أمر (اوپيمبيوس) الشيوخ بان يتسلحوا، وأمر الفرسان الرومان بأن يكونوا على استعداد صباح اليوم الباكر وأن يجلب كل واحد منهم معه خادمين بكامل سلاحهما. وقام (فولثيوس) من جهته بالتأهب وجمع الجمهور حوله في تلك الاثناء كان (كاپوس) قد ترك الساحة العمومية وسار عائداً الى منزله، الا انه وقف امام تمثال ابيه وشخص اليه ملياً بابصار لا تريم، وظل برهة في استغراق عميق ثم تنهد وسار عنه والدموع تسيل على خديه. فتأثر بذلك كل من رآه واخذوا يتحون باللائمة على انفسهم لخذ لانهم رجلاً فاضلاً وتركهم اياه، وشدوا الرجال الى منزله وقاموا حراساً عليه طول الليل باعين يقظه وهدوء تام، يتبادلون النوبة في ما بينهم، ويقومون بضروب من الكهانة عما سيأتي به الغد، وعن نتيجة هذا النزاع، كما جرت العادة في النكبات العامة. كانت حراستهم تختلف عن حراسة (فولثيوس) فقد قضى حراسه الليل كله في السكر والعريضة والهتاف. وكان (فولثيوس) اول من سكر فراح يهذي في كلامه ويقدم على تصرفات لاتليق بسنه ومقامه.

ولما تبين الخيط الابيض من الخيط الأسود ايقظوا (فولثيوس) وهو بعد غير مستفيق من تأثير الخمر، وتسلحوا بقطع السلاح التي غنمها (فولثيوس) من حروبه في بلاد الغال وتغلبه عليهم اثناء فترة قنصليته وكانت معلقة على جدران منزله، ثم شقوا طريقهم نحو جبيل (أقنتين) بصياح وجلبة، مهددين متوعدين.

لم يفlech أحد في حمل (كاپوس) على التسلح واشتمل بمعطفه كأنه يريد الذهاب الى اجتماع عام، بفارق بسيط وهو اخفاؤه خنجراً قصيراً في طيات ثوبه. وفيما هو يهجم بالخروج ادركته

امراته عند الباب وامسكته بيدٍ بينما كانت تمسك طفله الصغير بيدها الأخرى واخذت تتوسل به بالكلام الآتي:

- أسفاً يا كايوس! اني لا افارقك الآن لتذهب وتخطب في الناس، لا بوصفك تربيوناً ولا مشترعاً، ولست اودعك لتذهب الى حرب مشرفة قد تلاقي فيها ذلك المصير الذي حتم علينا ان نلقاه عاجلاً ام آجلاً، فيكون له بعض الاثر الملتف لإحزاني وهو أن حدادي عليك سيكون موضع احترام وتكريم. انت تذهب الآن لتكشف صدرك لقتلة (طيريوس) غير حامل سلاحاً. مفضلاً أن تتقبل اعظم الظلم على انه ترتكب اقل الظلم. الا ان موتك في هذا الوقت لن يكون بذي نفع للمصلحة العامة، فالتخرّب سائداً والبطش والسلاح هما مقياس اليوم الوحيدة للعدالة. لو ان اخاك سقط قتيلاً امام (نومانتيا) لكان العدو قد اسرع بتسليم ما تبقى من ..... لكن، ذلكم هو حظي العاثر، ربما كنت تلك الضارعة المسكينة للفيضان او الامواج، لعلها تعيد الي بقاياك. اية ثقة يمكن ان نضعها في القوانين او الآلهة، عندما كفت يدها عن (طيريوس).

كانت (لوجينيا) منشغلة بشكواها وندبها حين اخذ (كاپوس) يتملص تدريجاً من عناقها حتى افلتها بلطف وصمت. وسار عنها برفقة اصحابه فحاولت التشبث بطرف رداءه، لكنها سقطت على التراب وتمددت وبقيت حيناً لا تبدر منها حركة، حتى ظن الخدم انها فارقت الحياة، فحملوها وذهبوا بها الى اخيها (كراسوس).

واجتمع الخلق كتلة مترصة، واخذ (فولثيوس) بنصيحة (كاپوس) فأرسل هذا ابنه الأصغر الى الساحة العمومية حاملاً عصا الرسول، وكان شاباً في غاية الوسامة. بدأ بلهجة متواضعة مستكينة والدموع تجول في عينيه، ويخجل لايشينه - بدأ يعرض مقترحات للمصالحة بحضور القنصل وكل الشيوخ. ومالت الأغلبية الساحقة من المجتمع الى قبول المقترحات. إلا ان (اوپيمبيوس) رد قائلاً انه ليس من اللائق بهم ارسال الرسل للتفاوض مع مجلس الشيوخ على شروط للاستسلام. وخير لهم ان يستسلموا دون قيد او شرط، كالمواطنين المخلصين وان يحاولوا نبيل العفو بالطاعة والخضوع. وأمر الشاب بالا يعود اليه الا اذا وافقوا على هذا الشرط. ويقال ان (كاپوس) كان شديد الرغبة في ان يذهب لتبرئة نفسه امام المجلس. الا ان كلمة اصدقائه اجمعت على خلاف ذلك. وارسل (فولثيوس) ابنه مرة أخرى لتسوية الأمر، الا أن (اوپيمبيوس) الذي كان قد قرر خوض المعركة مهما كان. أمر الابن فقبض عليه واودع السجن. ثم حمل على الفريق الذي يقوده (فولثيوس) بكتيبة من مشاته ووحدة من الرماة الكريتين، هؤلاء الرماة احدثوا من الاصابات المميته والجروح الخطيرة في الناس، ما ادّى الى

هزيمة وفرار سريعين. ولجأ (فولقيوس) الى حمام عمومية غير معروفة، لكن سرعان ما اكتشف مخبأه هذا فقتل وقتل معه ابنه الاكبر. ولم يؤثر عن (كاوس) انه شارك في القتال أو اشتبك مع اي شخص فقد انسحب الى هيكل (ديانا) مشتملاً للغاية من اعمال العنف التي تقع. وهناك حاول انهاء حياته الا أن اصدقاؤه حالوا دون ذلك، وانتزع (پومپينيوس) و (ليشينيوس) سيفه منه، واخذوا يلحان عليه بشدة ان يهرب. ويقال انه ركع للالهة ورفع يديه الى الاعلى داعياً على الشعب الروماني، بالبقاء دوماً في حالة الذل والعبودية، عقاباً له على نكرانه وحياتته. اذ ما اذيع بيان العفو العام، حتى تخلت عنه الأغلبية العظمى وتنكرت له.

حاول (كاوس) النجاة، الا أن اعداءه كانوا يجدون في أثره ولا ينشون عنه وتبعوه حتى الجسر الخشبي وهنا افلت منهم بشق الأنفس وعرض عليه اخلص صاحبين باقيين معه ان ينجو بنفسه ويدعهما هناك يحميان إنسحابه بتعويق المطاردين حتى يقضى عليهما. ولم يتبق معه غير (فيلوقراطس) (Philocrates) خادمه. وكان وهو يسرع على ظهر حصانه، يسمع كلمات التشجيع والدعاء بالنجاح من الناس، كما يفعل عابرو السبيل حين يصادفون المتسابقين في العدو. ولكن لم يتقدم احد منهم لمعاونته، ولم يعطه أحد حصاناً مع طلبه ذلك. وتوفر له وقت كاف للاختفاء في بستان صغير مكرس (نلفيوري) (Furies) وهناك قام خادمه بقتله، ثم ألحق نفسه به حالاً نهوت جثته فوق جثة سيده. ويحلف بعضهم بأن الاعداء ادركوهما وهما حيّان وكان (فيلوقراطس) يحتضن سيده بقوة بحيث عجزوا عن توجيه طعنة لكاوس قبل قتل الخادم.

وقيل ايضاً، عندما احتز احد المطاردين رأس (كاوس) وسار به، لقيه (سپتيموليوس) (Septimuleius) وهو صاحب (لاويميموس) فانتزعه منه قسراً لأنهم اعلنوا قبل بدء المعركة عن مكافأة ذلك لكل من يأتي برأس (كاوس) او (فولقيوس) تعادل زنة الرأس ذهباً. فرجع (سپتيموليوس) الرأس على سنان رمحه واقبل على (اوپيموس) وقدم له الرأس فجيء بالميزان في الحال ووجد انه يزن سبعة عشر پاونداً. فقدم (سپتيموليوس) دليلاً على عنايته فضلاً عن تقديمه دليلاً على وحشيته، اذ انه افرغ الدماغ من تحف الرأس وملاً رصاصاً وجاء آخرون برأس (فولقيوس) ايضاً إلا أنهم كانوا من احط البشر وحشالات المجتمع فطردهم ولم ينلهم الجائزة. والقيت جثتا الرجلين مع جثث القتلى الآخرين وقد بلغت ثلاثة آلاف - في مياه النهر وصودرت املاكهم ومنعت اراملهم من الحداد عليهم. وخصوا (لوچينيا) زوج (كاوس) بمعاملة فظة فقد جردوها من صداقتها، وازافوا الى لا انسانيتهم جريمة وحشية أخرى بقتلهم ابن (فولقيوس) الاصغر. وحيده لم يكن رفع السلاح في وجههم ولا لأنه كان موجوداً في اثناء

المعركة - بل لمجرد ارساله لعرض شروط الصلح ولاجله سجن اولاً ثم قُتل.

ولم يحق الشعب على أحد قدر حنقه على (اوپيموس) لبنائه هيكل (النصر) (Cancord) تخليداً لنجاحه في ذلك الوقت. كأنه يقصد الفخر بالمجد والنصر الذي حازه، بقتله هذا العدد الكبير من ابناء جلدته. وقد اتخذ احدهم الليل سترأ، فاضاف الى المكتبة المنقوشة على البناية. هذا البيت:

بالحماقة والتنازع، بني هيكل الكونكوردي

مع هذا كله، فقد كان (اوپيموس) هذا، اول محاولي اغتصاب السلطة، والظهور بمظهر الدكتاتور وهو قنصل. فقضى بالموت على ثلاثة آلاف مواطن بدون محاكمة، الى جانب (كاوس) (غراكوس) الذي فاق كل معاصريه في الفضيلة والشرف. و (فولقيوس) (فلاكوس) القنصل السابق الذي منح موكب نصر.

(اوپيموس) هذا وجد فيما بعد بأنه لا يستطيع كف يده عن السرقة. وعندما ارسل سفيراً الى (يوجورثا) (Jururtha) ملك النوميديين ظهر فساده بقبوله العطايا والهبات. وعند عودته ادين وشهر به، فخسر كل كرامته ومكانته وادركه الهرم وهو مكتئف ببعض الشعب الجبلية وتحقيره له. كان الشعب في حينه مروعاً جزعاً مهيبض الجناح ولكنه لم يلبث الا وعاد يتبين الحقائق، فاظهر بجلاء مدى اجلاله واحترامه ذكرى (الأخوين) (غراكوس) بصنع تماثيل لهما ونصبهما في الميادين العامة. وبتقديس الموضوعين اللذين سقطا على اديمهما. ويجلب اولي ثمار الارض اليهما حسب مواسم السنة كأنها من قبيل التقدّمات. واخذ الناس يتقاطرون اليهما للتبرك والعبادة يومياً، كأنهما هيكل آلهة.

وأثر عن والدتهما (كورنيليا) انها تحملت مصيبتها بفقد ابنيها بروح عالية وشجاعة. وعند الاشارة الى الموضوعين المقدسين اللذين صرعا فوقهما قالت: ان جسديهما الهامدين يستحقان هذين الضريحين. وقد انتقلت فيما بعد من مئواها وسكنت والقرب من موضع يدعى (ميسينوم) (Misenum) ولم يطرأ اي تغيير على طرز حياتها. وكانت محاطة بطائفة كبيرة من الاصدقاء. ودأبت على استضافة الاجانب في بيتها وتكريمهم ولازمها عدد من العلماء ورجال الاغريق ولم يبق أمير اجنبي الا ووصلته بالهدايا فقابلها بالمثل. وكان المهتمون بالحديث معها، يبدو عليهم الانتباه الشديد عندما تندفع مسرورة الى تسليتهم بذكرياتها عن ابنيها (سكپسيو) (افريقانوس) وعاداته واسلوب عيشه. على انه اعجب واروع ما كان فيها هو الاصغاء اليها حين تتحدث عن ولديها، دون ان تذرف دمعاً او يتملكها الاسى تقص

التفاصيل الوافية عن اعمالهما ومصيرهما الأليم كأنها تقصّ حكاية عن بعض الابطال الغابرين. وهذا ما اوهم بعضهم أن تقدمها في السنّ، وعظم مصائبها قتل فيها مشاعرها وعواطفها لكن من يظن هذا صحيحاً، كان يفعل عن المقدار العظيم من ضبط النفس ونبيل الطبع الذي يجب ان يتوفر للمرء حتى يتغلب على المصائب. ومع ان الخطّ كثيراً ما يكون اكثر نجاحاً في استظهاره على قوى الفضيلة اثناء عملها على اجتناب ..... فليس بامكاننا عند ابتلائنا بالمصائب - الا ان نحتملها بالصبر الجميل.

١٩٧٢/٢/٢



ونشاطهما السياسي في ثورتيهما على النظام والدولة يختلف تمام الاختلاف في خطر شأنها ومداهما واهدافها. بالغايات الاساسية التي كان الشباب الرومانيان يرميان اليها هي توطين الأهالي في المدن واصلاح الطرق الخارجية. واجراً مشروع اشتهر به (طيبوريوس) بالانحص، هو استرجاع الاراضي الاميرية. ونال (كايسوس) اطيّب سمعة، باضافته ثلاثمائة عضوٍ من طبقة الفرسان الرومان الى مثل عددهم من اعضاء مجلس الشيوخ لاجل ممارسة السلطة القضائية التي كان ينفرد بها الشيوخ. أما التغيير الذي احدثه كلٌّ من (أغيس وكليومينس) فقد كان ذا طابع آخر، فهما لم يعمدا إلى ازالة جانبٍ من المساوئ، ولا الي علاج حالات بسيطة من المرض، وهو أمر ستبدو نتيجته - على حد قول افلاطون كنتيجة قطع أحد رؤوس (الهيديرا)، فهذا هو الوسيلة الوحيدة لزيادة عدد رؤوسها! لكنهما اختطا اصلاً جذرياً شاملاً كان مقدراً له ان يحرر البلاد من كل ما ابتليت به - او بالاحرى (إن شئنا ان تكون اكثر صدقاً) انهما ازالا حالة اجتماعية طارئة كانت علة البلايا. فاعاد الى مدينتهما سالف نظامها الصالح.

ومهما يكن فعلينا الاقرار بميزة للغراكيين. وهي أن مشاريعهما الاصلاحية كلها، كانت تلقى دائماً معارضة من ذوي السلطة والنفوذ الأعظم. ومن جهة الآخرين، فإن تلك الخطوات التي اقدم عليها آغيس اولاً، ثم اكملها (كليومينس) من بعده، حظيت بمساندة السابقة العظيمة المجيدة المتمثلة في القوانين العتيقة وآيتهما البساطة والمساواة، انحدرت اليهما من (ليكورغوس) الذي استوحاها بدوره من الالة بوللو. ومن نافلة القول ايضاً ان مجهودات الأخوين (غراكي) لم تضاف الى امجاد روما المؤتلة مجدداً جديداً. في حين وجد الاغريق فجأة مدينة سبارطة تعود الى سالف مجدها وسابق عهدها بفضل (كليومينس) فتمارس السلطة العليا على سائر (البيلوپونيسس) وتزاحم في القيادة العليا اعظم واقوى امراء ذلك العصر. وهو نهضة كان مقدراً لها تحرير بلاد الاغريق من الخطرين الدليليري والغالي، واعادتها الى حالتها الأولى من العز والمنعة والاستقرار تحت حكم ابنا هرقل.

ومن ظروف موتهم يمكننا أن نستدل على اختلاف في الوان شجاعتهم. فالاخوان (غراكي) اللذان قاوما ابنا وطنهما. قتلا وهما يحاولان الفرار. وآغيس استسلم لمصيره بحض اختياره، مفضلاً ذلك على ان لا تهدر حياة مواطن واحدٍ من اخوانه المواطنين. اما (كليومينس) الذي عومل معاملة مهينة ظالمة فقد بذل جهداً للثأر لنفسه فلما اخفق لم يتردد قط في انهاة حياته بيده.

ولا مناص من القول ان (آغيس) لم يقم بمأثرة عظيمة جديرة بقائدٍ نابغ فقد حال دون ذلك موته في سن مبكرة. واما عن بطولات (كليومينس) فمن العدل ان نقرن بها اعمال

## المقارنة بين طيبوريوس وكايوس ولدي غراكوس

### بأغيس وكليومينس

بعد ان سردنا قصص سير هؤلاء الأربعة كلاً على حدة، بقي علينا ان نعرض لمقارنة احدهم بالآخر.

فاما عن الأخوين (غراكي) فاشد المنتقصين لهما والدّ اعدائهما لاينكرون بأن فضائلهما الموهوبة - بعد ان صقلها العلم والتهديب فاقت كل ما لوحظ عند الرومان الآخرين المعاصرين. وقد يجوز لنا الافتراض أن المواهب الطبيعية عند (آغيس) و(كليومينس) كانت اقوى واظهر. فمع افتقارهما الى وسائل الثقافة والتهديب الجيدة، ومع نشوئها على تلك العادات والتقاليد واساليب العيش التي ظلت مدة طويلة تفسد الآخرين. فقد انتصبا مثلين رائعين للتقشف والاعتدال امام شعبهما. اصف الى هذا ان الاخوين (غراكي) اللذين عاشا في زمن بلغت فيه روما اوجها من شرف الاعمال والفضائل، كانا سيجللان بالعار فعلاً لو لم يخلفا للجبل التالي، التراث النبيل لفضائل اسلافهما. اما الاثنان الآخران فقد كانا ابنين لوالدين جبلت اخلاقهما من طينة أخرى وقد وجدا بلادهما في حالة انحطاط وتفسخ اجتماعي. وكل هذا لم يخمد فيهما حماستهما المتأججة وشوقهما الى كل ما هو شريف وعادل.

إنه امانة الرومانيين وترفعهما عن المادة ينظر اليه بصورة أساسية على هذا النحو: في ادارتهما المرافق العامة وفي قيامهما بواجبات وظيفتيهما، لم يُظنّ عليهما في ربح غير مشروع. في حين كان يحق لآغيس أن يشعر بالاهانة لو مدح بهذا الشكل الرخيص فقيل عنه بأنه لم يغصب لنفسه شيئاً بدون وجه حق، وهو الذي وزع على ابناة وطنه ثروته الخاصة التي كان الجزء النقدي منها فقط يبلغ ستمائة تالنت. إن الغضب والابتزاز قد يبدوان له جريمة غريبة وهو الذي يعد حيازتك اموالاً تزيد على اموال جارك مظهراً من مظاهر الجشع وإن كنت جمعتهما باساليب عادلة وطرق مستقيمة.

(طيبيريوس) الحربية، إذ كان أول من حاول صعود أسوار (قرطاجنة) ولم يكن هذا بالقليل الثافه. ولنا ان نضيف الى هذا اتفاقية السلم التي عقدها مع النومانتيين فانقذ بها عشرين ألف روماني من خطر التطويق والابادة. و(كايوس) نفسه، فقد ابدى شجاعته الفائقة في بلده فضلاً عن حروب سردينيا. فهذه الأعمال المبكرة المجيدة، كانت دليلاً قوياً على أنهما كانا سيتفوقان وبيزاًن خيرة قادة الرومان لو امتد بهما الأجل.

وفي المجال السياسي المدني، بدا (أغيس) ضعيفاً مفتقراً الى الصلابة والعزم. فقد سمح لنفسه أن يقع في شباك مكر (اغيسيلوس) وخيب امال المواطنين في انجاز مشروع توزيع الأراضي، وعلى العموم ترك كل الخطط والاهداف التي رسمها بتأن وروية واعلنها للشعب. تركها غير منجزة بسبب افتقار الشاب اليافع الى قوة الارادة. واما عن (كليومينس) فقد رافق ثورته كثير من العنف والاندفاع، وقتل دون وجه حق، جماعة الايغور وكان تفوقه عليهم بالقوة والسلاح اكبر ضمان له للتغلب على حزبه، أو لنفيهم خارج المدينة بكل سهولة كما فعل بالآخرين. إن استعمالك المبضع - الأ في حالات الضرورة القصوى - ليس بالجراحة الجيدة ولا بالسياسة الرشيدة. وانما هي في كلا المجالين جهلٌ وحمق. وهو في المجال الثاني ظلم، بل وحشيته وتجرد من الشعور الانساني. وفي هذا الصدد لا نجد (الغراكيين) السابقين الى سفك دماء اخوانهما ولقد قيل عن (كايوس) انه اجتنب كل شكل من اشكال المقاومة حتى عندما هددت حياته، وظهرت بطولته واضحة امام العدو الاجنبي. اما في الثورة فلم يكن فعالاً قط، وهذا ما حملة على الخروج من داره وهو اعزل، ثم انسحابه عند بدء القتال. وفي كل الاحوال كان يحرص على أن لا يلحق بالآخرين ضرراً منه، اكثر من اهتمامه باستنقاذ نفسه وابعادها عن الضرر. ومن فرار الآخرين (غراكي) نفسه، يجب ان لا نتخذة دليلاً على خور النفس، بل انه نعدّه انسحاباً مشرفاً وتحاشياً مما قد ينجم عنه خطر للآخرين فلو مكث كل واحد منهما في موضعه لواجه احد احتمالين، اما الاستسلام لمهاجميهم، واما قتالهم دفاعاً عن النفس.

واعظم هفوة يمكن ان تعزى الى (طيبيريوس) هو قيامه بعزل زميله التريببون، وترشيح نفسه لمنصب التريببون مرة ثانية. اما عن مقتل (انتيلليوس) فقد عزي الى (كايوس) زوراً وبهتاناً. إذ تم ذلك دون معرفته نأسف غاية الأسف. وكان (كليومينس) بعكس ذلك (ولا نشير الى مقتله الايغور) فقد حرر جميع العبيد، وحكم متفرداً، إذ كان زميله، شريكاً في المظاهر لا غير وهو اخوه (يوكليداس) من اسرته نفسها كان قد اقنع (ارخيداموس) الوريث الشرعي للملك ومن الفرع الآخر للاسرة، فجازف هذا بالعودة من (مسينيه) الى بلده لكنه قتل. ولما لم يقم (كليومينس) بعمل ما للثأر له، فقد قوي الشك في ان له يداً في الحادث.

و(ليكورغوس) ذاك الذي زعم (كليومينس) بأنه يقتدي به، نزل عن الملك بمحض اختياره لابن اخيه (خاريللوس)، ثم اسرع بالرحيل عن سبارطة وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة لتلا يحصل للشباب حادث مفاجيء فيقال ان لحاله ضلعاً فيه، ولم تعد الأ بعد ان رزق (خاريللوس) بابن يرث ملكه من بعده. على اننا في الواقع لايمكننا ان نجد اغريقياً آخر غير (كليومينس) جدير بان يقارن (بليكورغوس) وواضح بما فيه الكفاية انك واجدٌ في الاجراءات العامة التي اقدم عليها (كليومينس) قدراً كبيراً من التهور واهدارٍ لحرمة القانون. فعلى اولئك الذين يميلون الى لوم تصرفات هولاء، ان يلاحظوا بان الاغريقيين منهمما، كانا ثائرين منذ حدثتهما، يطمحان الى السلطة المطلقة والطغيان، ويشغفان بالنضال والتنافس. وان (طيبيريوس) و(كايوس) فطرا على الجري وراء المجد والشهرة. واكثر من هذا لايمكن لاعدائهم ان يجدوا فيهما. لكن ما أن يبدأ النضال ضد خصومهما حتى تطفئ حماستهما وعواطفهما على طبيعتهما الهادئة - فتجرفهما - كالريح النكباء - وتدفعهما الى الاتيان بالاعمال المتهورة الطائشة.

أي مشروع أعدل وأشرف من اولّ غاية عملا لها، لو لم تتصدى لهم قوة الاغنيا وحزبهم - بالعمل على الغاء القانون، والهائهما بهذا التناحر القتال اولهما لاجل المحافظة على نفسه، والثاني انتقاماً لموت أخيه الذي قتل ظلماً وبدون مبرر شرعي.

ومما بيناه يمكنك انك انت بنفسك أن تصل الى الفروق التي لو فصلنا فيها كلاً على حدة لا يمكنني أن اوكد لك بان (طيبيريوس) كان اعلاهم فضيلة. والشباب (أغيس) اقلهم خطأ، وفي القتال والجرأة هناك شقة بعيدة تفصل ما بين كليومينس وكايوس.

١٩٧٢/٢/٢



دېموسٽينس

دېموسٽينس

**DEMOSTHENES**

384 – 322



وأمّا عن نفسي. فانا اعيش في بُليدة لا ارغب في الرحيل عنها، لثلا ثقل نفوساً؛ ولما كنت في روما وفي انحاء أخرى من ايطاليا لم يتسن لي الفراغ الكافي لمداينة لغة الرومان والتمرن عليها بسبب انشغالي في الشؤون العامة، وبالتلاميذ الذين يأتوني لتلقي دروس الفلسفة، فقد تأخر بي زمني كثيراً ولما بدأت في اراذل عمري اقرأ للكتاب اللاتين وقع لي ما كان يبدو غريباً وقوعه، لكنه حصل لي فعلاً ولا أبلغ. فقد كنت اتوصل الى مهم الاشياء احياناً لا لمعرفتي بمعاني الكلمات فحسب بل بتجاري الخاصة للاشياء. ولا اشك في أنه مجهود رائع لطيف أن تتوصل الى تذوق جمال ورشاقة النطق باللسان الروماني ومنهم مختلف استعارات الكلمات ووصلها وادغامها وغير ذلك من اساليب البديع التي هي سر جمال الكلام، الا ان هذا يتطلب مقدراً من التمرين والدراسة ليس بالقليل، وليس بالسهل نيله، فهو انسب واجدر من يملك فراغاً ووقتاً كافياً للدرس.

وفي كتابي الخامس الخاص بالسير المقارنة، أتيت الى سيرتي (ديموستينس) و(شيشرون)، وان مقارنتي لمزاجهما الطبيعي وطباعهما ستعتمد على اعمالهما وحياتيهما كسياسيين. ولن اذعم لنفسي نقداً لهما عن طريق مضاهاة خطبهما، لأصدر بعدها حكمي على من هو الأكثر سحرًا والأخظب. فنحن هنا اشبه بما يقول (آيون Ion): «كسمكة فوق ارض يابسة»

وهو مثل ربما اغفلته ذاكرة (كيسيلوس Caecilius) عندما يستخدم عبقريته الجريئة دوماً، في محاولة للمقارنة بين (ديموستينس) و(شيشرون). واذا كان من السهل الواضح لكل انسان ان «يعرف نفسه»، ما أخذ المبدأ مأخذ نبوة.

والظاهر أن العناية الالهية قد شاءت في البدء، أن تطلق (ديموستينس وشيشرون) في سبيل واحدة. فحدثت بينهما كثيراً من المشابه في اخلاقهما وطباعهما وشغفهما بالشهرة وذويوع الصيت، وحبهما بالحريّة في الحياة المدينة. وافتقارهما الى الشجاعة في الحرب، وعندما تحزب الأمور. كما انها زادت في الوقت نفسه كثيراً من المشابه العرضية الحادثة، ففي اعتقادي ان من الصعوبة بمكان ان نجد خطيبين بدأ بداية متواضعة خاملة، ليغدوا فيما بعد بهذه الدرجة من القوة والعظمة. ويندر أن يصادف خطيبين نازلا الملوك والطغاة، وان كلاهما شكل ابنته، وطردها من بلديهما ثم عادا مكرمين ثم هربا ثانية، وتمكن منهما اعداؤهما واخيرا انتهت حياتهما بيد ابنا وطينهما. فلو افترضنا وجود امتحان مهارة للحظ والطبيعة (كما يحدث احياناً عند اهل الفن) لكان من الصعب علينا ان نحكم بالنجاح الاخر لاحدهما عندما قضيا بأن يكون المترجم لهما شبيهين في امزجتهم وطباعهما. أو... لعل كل هذا من قبيل الصدفة المعارضة في الحياة؟

لست أدري أيهما: أهو (سوسوس Sosius) الذي نظم قصيدة في مدح (الكيبسوس) بمناسبة فوزه سباق العجلات في الالعاب الاولمبية، أم هو (يوربيدس)، أم هو شاعر آخر؟ في هذه القصيدة يعلمنا الشاعر ان اول شرط لسعادة المرء هو ولادته «في مدينة ذائعة الصيت». لكن من يطمح الى السعادة الحقّة التي تعتمد بالدرجة الاولى على المزاج والسجايا العقلية، لا يشترط - في رأيي - أن يأتي من مدينة شهيرة، وليس بعيب أن تكون مسقط رأسه بلاد متأخرة او مجهولة، كما لا يكون عقبة له كونه ولد لأُم ليست بذات وسامة أو جمال. ومن السخف حقاً أن نعتقد بأن (ايوليس Tulis) وهو جزء صغير من (خيوس Geos) (وهي ليست بالجزيرة الكبيرة)، (وايجينا Aegina) التي شبهها احد الاثنيين مرةً - بالقدى الصغير في مرفأ (پيريوس) الذي يجب ازالته، ان ينبغ منهما ممثلون بارعون وشعراء معلقون ومع ذلك تعجزان عن الإتيان بانسان عادل عالي الخلق، حكيم، واسع الفكر. ان الصناعات والفنون الأخرى التي تبتغي المجد والغنى غاية لها، هي فريسة سهلة للذبول والغمور في بلدان فقيرة أحنى عليها الدهر. لكن الفضيلة خلاف ذلك فهي كالنبته القوية الأيدة، تمد جذورها وتنمو في اي مكان تصادف طبعاً اصيلاً وعقلاً مثابراً كدوداً. ومن ناحيتي انا فالانصاف يقضي عليّ بالقول: اني لا أريد ان تعزى مسؤولية اي نقص لدى في عمل ابنته، أو حكم صحيح ابديته، الى ضعة موطني وخمول شأنه.

والأمر خلاف ذلك إن كان في نية احدهم تدوين تاريخ يقتضي جمع حوادثه من مصادر توصل اليها بالملاحظة والتتبع. ومن قراءة آثار لا يسهل العثور عليها في اي مكان كان، ولم تكتب بلغته، وكثير منها اجنبي، متفرق موزع على أيادٍ أخرى. فمن أئزم الضرورات لهذا المؤرخ أن يقطن مدينة زاهرة عامرة، سوق الفنون فيها رائجة حرة، حيث يكون تحت متناول يده العديد من المراجع في كل علم وفن. وحيث يتيسر له جمع المعلومات من الذاكرة والصدور، والاستيضاح عن تلك التفاصيل التي اغفلتها اقلام من سبقه، فحفظت في صدور الناس حفظاً اميناً. وبذلك يسلم عمله من الهفوات ويسد النقص من نواح كثيرة حتى في أدق التفاصيل التي يمكن الاستغناء عنها.

سنتكلم في البدء عن أولهما:

كان (ديموستينيس) والد (ديموستينيس) رجلاً من أفاضل المواطنين، حسن السمعة كما يحدثنا (ثيومپوپوس Theompopus)، عرف (بالصَّيقل) لأنه كان صاحب معمل كبير لصنع السيوف يشتغل فيه عمال مهرة. وأماً ما يقوله (إسخينس Aesechines) الخطيب بان أمه كانت بنتاً لأم بربرية ولأب يدعى (غيلون Gylon) فرّ من بلاده لاتهامه بالخيانة، فلا استطيع الجزم بصحة هذا الزعم أو فساده، بالافتراء على الأم وقذفها. غير أن المؤكد هو وفاة ابيه عن حال معاشية طيبة، ولاينه من العمر سبع سنوات. وقدرت قيمة ما يملك من عقار بحوالي خمسة عشر تالنتاً خلفها (لديموستينيس) إلا أن الاوصياء عليه اساءوا الأمانة فاختلسوا جانباً من التركة واهملوا العناية بالمتبقي. حتى أنهم احتالوا على اساتذته وانكروا اجورهم، ولهذا لم ينل الصبي الثقافة التي كان مقدرراً له ان ينالها زد على ذلك انه كان رقيق البنية عليلاً فجنيته امه الإجهاد ولم يتشدد عليه اساتذته بالواجبات والدروس. وكان ضئيل الجسم واهنه من البداية ولهذا لُقّب بـ(باتالوس Batalus) وقيل ان الصبيان هم الذين خلعوا عليه هذا الاسم تندرراً على شكله. وقال آخرون ان (باتالوس) هو نافخ مزمارٍ نحيل الجسم، كتب (انتيباطر) مسرحية هزلية سخراً منه. ونوه آخرون بأن (باتالوس) هو شاعر كان ينظم قصائد ماجنة خليعه وغانني خمرية. ويبدو أن ثم عضوا من اعضاء الجسم لايليق بنا ذكره هنا. كان آثينييو ذلك الزمان يسمونه (باتالوس).

اماً اللقب الثاني الذي لصق (بديموستينيس) وهو (ارغاس) فلانه كان شرساً حقوداً. لأن (ارغاس) هو من اسماء الأفعى الشعرية. او ربما لطريقته المموجة في الكلام، لأن (ارغاس) اسم لشاعر كان ينظم قصائد بذيئه ينبو عنها الذوق. وبهذا الكفاية من الأمر على حد قول (افلاطون).

وكان المنبّه الأول لميله الشديد الى الخطابة على ما يقال، هو الحادث التالي:

كان مقرراً أن يتقدم (كالليستراتوس) الخطيب للدفاع عن (اوروپوس Oropus) في محاكمة علنية. وكان ينتظر من تلك القضية اعظم النتائج، فضلاً عن مقدرة الخطيب الذي كان اذ ذاك في اوج شهرته، وخطورة القضية التي سيترافع فيها وسمع (ديموستينيس) معلميه واساتذته يتواعدون على حضور الجلسة وتمكن بعد الحاح شديد من اقناع معلمه باخذه الى المحكمة، وكان لهذا المعلم معرفة بالحجّاب فأمن لتلميذه معقداً مستوراً لا يرى منه وفاز (كالليستراتوس) فوزاً مبيناً واثار الاعجاب الشديد. وبدأ الصبي بالتفكير في مجده بنوع من الحسد، ولاحظ كيف كان الخطيب موضع حفاوة الجميع، وكيف رافقته حشود من الناس

الى منزله تكريماً وتبركاً. واكثر ما اثار عجبه من الخطيب قوة عارضته التي بدت وكأنها تخضع كل شيء لارادتها، وتفوز بكل ما تريده. ومنذ تلك الساعة ودع (ديموستينيس) كل انواع الدراسات التي يتلقاها وبدأ يتمرن على الخطابة، ويبذل كل جهوده في معاناتها، معداً نفسه لهذا الفن. واتخذ من (ايسيوس Isaeus) مدرّباً ومرشداً له في فن الكلام، مع ان (ايسوقراطس Isocrates) كان وقتذاك يلقي دروساً في الخطابة. وقال بعضهم أنه لم يقصده لأنه كان يتيما يشق عليه دفع الأجور التي حددها (ايسوقراطس) بعشرة مينات. أو لعله فضل اسلوب (ايسيوس) لأنه اكثر واقعية، واقوى تأثيراً من الناحية العملية. ويذكر (هرميپوس Hermippus) وقوفه على مذكرات لكايتب مجهول، ورد فيها ان (ديموستينيس) كان تلميذاً لافلاطون، اخذ عنه الكثير من تلك الفصاحة التي عرف بها فيما بعد. وينوه (هرميپوس) هذا، بـ(كتسيپوس Ctesibuis) الذي ينقل عن (كالياس Callias) السيراقوسي وآخرين، بأن (ديموستينيس) حصل بصورة سرية على معلومات عن مبادئ (ايسوقراطس) و(الكيداماس Alcidas) فتدارسها واتقنها اتقاناً تاماً.

وما أن بلغ مبلغ الرجال حتى بدأ بمراجعة المحاكم لمقاضاة اوصيائه وكتابة الخطب ضدهم. ولجأ هؤلاء في الوقت نفسه الى مختلف الحيل والوسائل لفتح دعاوى جديدة ضده. ومع انه كما يقول عنه (ثوكيديدس) - درس صناعته هذه في خضم الأحوال والمخاطر فقد نجح في ربح دعواه على خصومه بمجهوداته الخاصة، الا انه لم يتمكن من استرداد تركة ابيه خلا النزر اليسير منها. ولم يفز من تلك المعركة القضائية بغير جانب من الثقة بمقدرته على الكلام، والتمرس الوافي فيه. ولما تذوق طعم السلطان والوجاهة المتأتيتين من الترافع القضائي قرر أن يخوض غمار السياسة ويتفرغ للشؤون العامة.

قيل عن (لاميدون Laomedon) الأرخوميني أنه اعتاد بناء على نصيحة طبيبه - أن يعدو مسافات طويلة ليبرد عنه غائلة مرض طحاله، وبعد التدريب المتواصل والجهد الشاق. اشتدّ عوده وصلب، وشارك في العاب الغار الكبرى، ليغدو من خيرة العدائين للمسافات الطويلة، وهذا ما اتفق (لديستينيس) تماماً، فقد توسّل بالخطابة في ميداء الأمر لاستعادة املاكه المغتصبة. فقويت عارضته، وقدر له اخيراً أن يكون المجلي والسباق في الحياة العامة على كلّ الخطباء المتبارين امام الجمعية العامة، كما فعل (لاوميديون) في الألعاب الرياضية الكبرى. الا أنه مني بخذلان مبين في اول خطاب توجه به الى الجماهير التي سخرت منه وعابت عليه اسلوبه الغريب غير المهذب المرهق بالجمال الطويلة، والمشوه بكثرة من المصطلحات المتبذلة اللفظية الى حدّ الاغراق الكريه الممجوج. اضع الى هذا أنه كان يشكو على ما يبدو

- ضعفاً في صوته. وكان في نطقه ارتباك وإبهام، يمازجه قصر نَفْسٍ كان يلجئه أحياناً الى تقطيع الجمل أو وصلها دون مراعاة للسباق واصل الوقف. وبهذا يشكل على السامع فهم ما كان يقوله. فترك الجمعية العامة وقد تثبّط همته وفقد ثقته بنفسه، وفيما هو يسير متثاقلاً على غير هدى على رصيف ميناء (بيريوس) التقى به (يونومُس lunomus) الثرياسي Thri- asion. وكان هذا قد بلغ من العمر اراذله. فأنشأ يؤنبه وينتقده بقوله: أن اسلوبه في الالقاء يشبه كثيراً اسلوب (بركليس) وانه لم يبلغ بعد المستوى المطلوب من الخطيب الجماهيري بسبب جبنه وخور نفسه، امام صياح الجمهور وعدم صموده، وقلة احتفاله بتهيئة جسمه وتنشيطه، بل اهماله وتركه اياه فريسة للوهن والذبول.

وفي مرة أخرى، عافت الجماهير سماعه وتولّت عنه. فعاد الى بيته كئيباً وقد نال منه الفشل، مغطياً رأسه بملفع وقيل أن (ساتيروس Satyrus) الممثل الساخر الذي كان على معرفة وثيقه به، تعقبه حتى ادركه واخذ يطارحه الحديث فأنشأ (ديموستينس) يشكو شكوى مرة من تنكر الجمهور له وهو اكثر المترافعين مثابرةً وجداً. وصارحه بأنه كاد يستنفذ كل جهده وقواه في هذا السبيل دون أن يجد له منفذاً إلى قلوب الجمهور الذي يسمع البحارة والأميين والسكارى ويدعهم يصلون ويجولون فوق المنبر، اما هو فلا يلقي غير الازرار والاحتقار. فقال (ساتيروس):

- إنت محق في قولك يا (ديموستينس). خير اني سأعالج علقك بسرعةٍ لو تلوث علي الآن فقراتٍ من (يوربيدس) او (سوفوكليس).

فتلا (ديموستينس) قطعةً، وعقبه (ساتيروس) فتلا القطعة نفسها باسلوب القائه الخاص فكساها ثوباً قشيباً أخاذاً بما رافقها من ايماءات ووقفات. وبدت (الديموستينس) شيئاً يختلف تماماً عما تلاه. وبهذا اقتنع بمدى اعتماد الأسلوب الكتابي على اللفظ الجميل المتأنق. وادرك أنه من العبث والفهاهة ان يمرن المرء نفسه على الخطابة باهماله حسن الالقاء والنطق. وبادر فابتنى لنفسه غرفة للدراسة تحت الأرض (مازالت الى يومنا هذا باقية)، وظلّ يختلف اليها يومياً لصياغة اسلوبه، وتدريب صوته وتهذيب القائه. ولطالما حبس نفسه فيها شهرين او ثلاثة، دون ان يبارحها، كاجراً فيه رغبة الخروج منها، بحلق نصف رأسه ليمنعه الخجل عن الظهور كلما راوده الخنين إلى رؤية الناس وكثيراً ما كانت تشتد به الرغبة الى ذلك. ولم يكتف بهذا بل جعل من حياته ومعاملاته واحاديثه الاعتيادية مع الناس وسيلة مكتملة للدراسة، واتخذ من تلك المناسبات، والمناقشات مادةً للمقارنة والتدقيق. فما يفارق اصحابه حتى يهبط الى غرفة الدراسة ويبدأ في استعادة كل ما مرّ به بترتيب، ويفحص حججه

وذرائعه وردوده للناس. وكان يستعرض تفاصيل خطبه مع نفسه ويقسمها اجزاءً وفترات، كما يستعيد الى ذهنه ما تبادلته من اقوال مع الناس فيصح فيه ويغير ويعيد صياغته بعدة اشكال. لذلك اعتبر مدينا بقدرته الخطابية الى المثابرة والجِدّ الدؤبين لا الى عبقرية طبيعية عظيمة. واما عن الظنّ بانه لم يكن يسرع الى الكلام حسب مقتضى الحال الا نادراً، ولا يسرع الى المنبر الا بعد الاحاح والطلب منه عند التثام الجمعية. فلم يكن ينهض الا وهو مستعد ومتفهم للموضوع. لذلك اعتاد كثير من الخطباء الجماهيرين أن يعيروه، ويتندروا عليه بهذا. ومرة هزأ منه (پثياس Pythias) بقوله ان مناقشاته وخطبه يفوح منها رائحة المسرح، فرد عليه (ديموستينس) بالجواب القاطع التالي:

- في الواقع (ياپثياس) أن مسرحتي ومسرحتك تختلفان في النظر الى الاشياء وفهماها. على أن (ديموستينس) لا يحاول ان ينكر هذا الواقع على الآخرين، بل يقر بصراحة بأنه كما انه لا يُعدّ خطبته كلها من الفها الى يأتها، فهو كذلك لا يتكلم على البديهة مطلقاً من غير استعداد. ويؤكد ان الإستعداد وسبق التفكير هو عمل تنطوي على الاخلاص للجمهور. ففي التأنى والروية نوع من الاحترام لهم، بينما الاستهالة وقلة الاهتمام بكيفية تلقي المستمعين اقواله يفصح عن شيء من الطبع الاوليغارشي، وهو سبيل كل من يفضل وسيلة الارغام على الأقناع.

واما عن افتقاره الى الشجاعة والعزم في الارتيال والكلام على البديهة فقد اتخذت دليلاً آخر على نقصه. وذكروا أن (ديماديس) كان كثيراً ما ينهض من مجلسه عندما يصاب لسانه بعيبٍ او يرتج عليه القول، فيقبله من عثاره. ولم يلاحظ أنه فعل ذلك لديماديس وقد يقال: اذن كيف يُفسّر رأي (اسخينوس) فيه عندما يشيد معجباً بجرأته الكلامية؟ وكيف امكن (ديموستينس) ان يقف وحده لمقارعة (پيثون Python) البيزنطي، عندما راح هذا يندد بالاثينيين ويهاجمهم هجوماً عنيفاً بكلّ اعتداد وسيل دفاعٍ من الكلمات؟ وعندما كتب (لامارخوس Lamarchus الميريني Myrinaen) تقريراً وثناً لفيليب والاسكندر، ضمنه الكثير من اللوم والقدح بالثيبين والاولنثيين Olynthians والقي ذلك على جموع الحاضرين في الألعاب الاولمبية، كيف اتفق ان نهض (ديموستينس) وبدأ بخطابٍ اعاد فيه للاذهان تلك الفوائد التي جناها الاغريق من الثيبين والخلقيديين تاريخاً، وحكومةً، وذكر الحاضرين بالبلايا والنوائب التي جرّها المتزلفون للمقدونيين على تلك البلاد، وبهذا حولّ عواطف السامعين فانقلبوا على ذلك السوفطائي، الذي لم يسعه الا ان يتسلل سراً من الاجتماع خوفاً من ضجيج السخط الذي ثار ضده.

ويبدو ان (ديموستينيس) كان يرى ان ثم جوانب في خلق (پركليس) لا تتفق ومشاربه. الأ أنه تأثر خطاه وسار على نهجه في تحفظه وثبات سلوكه، وإيائه الكلام على البديهة مهما كانت الأسباب. الأ أنه لم يأنف من مجدّ تتيحه له مناسبةً آتية، مثلما كان يحذر كثيراً من تعريض ملكته الى رحمة الفرص. والخطب التي القاها عفو الخاطر تنطوي على ثقة بالنفس وجرأة تزيد كثيراً عن تلك الخطب التي اعدّها كتابة، لو آمتاً باقوال (ايرأتستينيس) و(ديميتريوس) الفاليري والكوميديين عنه: يقول (ايرأتستينيس): كثيراً ما كان (ديموستينيس) ينتقل الى حالة من الوجد والجذب. ويقول (ديميتريوس) انه اعتاد النطق بهذا القسم الايقاعي المشهور الجميل الوقع على الجمهور.

«قسماً بالأرض، بالينابيع، بالانهار، بالغدران».

كأنه في حالة الوحي، او خروج عن الوعي. واطلق عليه احد الكوميديين اسم «روپوپرپثراس Rhopopurperthras» وسخر منه كوميدي آخر لاستعماله الطباق اللفظي ببيت من الشعر:

«وما اخذ أعاد؟» جملةً يسرّ لها خيال ديموستينيس نفسه»

هذا، الأ اذا قصد (انتيفانس Antiphanes) بها، التندر ايضاً على خطبة (لديموستينيس) القاها في (هالونيسوس Halonesus) نصح بها الآثينيين بالأ «بأخذوا» يدي فيليبس، بل ان «يعيدوها». ومهما يكن من امر فالكلّ أجمع على أن (ديماديس) خطيب لاجباري ولا يماري فيه احد وانه لا يحتاج الى اكثر من استخدام مواهبه الطبيعية لتبرز بديهته على كل مجهود (ديموستينيس) في مدارس خطبته واعدادها قبل القائها. ونقل لنا (ارسطون) الخياني Chian رأياً ليشوفراستس بخطباء آثينا المعاصرين عندما سئل: في اي صنف يضع (ديموستينيس) فأجاب:

– أنه جدير بمدينة آثينا.

ثم سئل عن رأيه بديماديس فقال:

– أعلى منه.

وذكر هذا الفيلسوف أن (پوليئكتوس Polyeuctus) الشقيتي احد ساسة ذلك العصر اعتاد القول: «ان (ديموستينيس) هو اعظم الخطباء طراً، (فوكيون) أكفاؤهم لأنه يعبر عن اكثر ما يمكن من المعاني بأقل ما يمكن من الكلمات». والحق يقال أن هذا صحيح، فقد روي عن ديموستينيس انه كان يقول لمن حواليه، كلما وقف (فوكيون) للردّ عليه:

– ها قد اقبلت السكين على خطبتي.

وليس واضحاً هل كان قوله هذا يعبر عن شعوره بالخوف على تأثير كلامه، ام على حياته وسمعته. والمفهوم العام من القول على كلّ هو ان كلمة واحدة من رجل ثقة او ايماءة يأتيها قد تنقل السامعين الى آلاف من المراحل بعيداً.

وروى (ديميتريوس الفاليري) عن (ديموستينيس) وقد غدا شيخاً هماً أنه شرح له الاسلوب الذي اتبعه لاصلاح العيوب التي خلقتها الطبيعة فيه بقوله أنه تغلّب على عيّه وتدلججه بوضعه حصة في فمه اثناء الكلام فاستقام لسانه. وانه ضبط نبرات صوته بترديد الخطب والقصائد الشعرية عندما تنبهر انفاسه ويلهث في اثناء عدوه او صعوده مرتقى حاداً. وكان عنده في المنزل مرآة كبيرة يقف امامها عند مباشرته تمارينه.

وقيل أن احدهم جاء اليه مرّة يطلب منه النصح والإرشاد ليكون خطيباً وقص عليه كيف هوجم وضرب، فقال ديموستينيس:

– من المؤكد انه لايمكن أن يحصل لك شيء كهذا.

فرفع القادم صوته وصاح مستنكراً:

– ما هذا يا ديموستينيس؟ اتقول انه لم يحصل لي شيء كهذا؟

فرد ديموستينيس:

– آه، ها انا الآن اسمع صوت شخص أهين وضرب حقاً!

وكان يهتم كثيراً بالنبرة والاسلوب ويعلق عليهما الاهمية القصوى في كسب ثقة المستمعين وايمانهم. وكان الاسلوب الذي يعتمد عليه يبعث في نفوس سواد الجمهور سروراً عجبياً. أما عند: الفئة المثقفة امثال (ديميتريوس الفاليري) فهو اسلوب رخيص، متبذل، مخنث. وذكر (هرمسيوس) عن (ايسيون Aesion) انه سئل عن رأيه في الخطباء الاوائل وفي الخطباء المعاصرين فأجاب: من الرائع المعجب حقاً أن يتأمل المرء رباطة الجأش والاسلوب الرفيع اللذين يتوجهون به الى الناس. على أن خطب (ديموستينيس) تبدو لقارئها اقوى بناءً واشد تأثيراً ولا جدال قطّ في ان خطبه المكتوبة تتميز بالاسلوب الصارم القاسي، وتراه في ردوده، وتعقيباته المرسله على البديهة، يسمح لنفسه بالدعابة والسخرية. فعندما قال له ديماديس:

– اي ديموستينيس! علّمني، كي تعلم الخنزيرة مينرقا.

ردّ عليه فوراً:

- اهي (مينرفا) التي وجدت مؤخراً وهي تتقاطى الفحش والدعارة في كوليتس؟  
وعندما حاول لص، اشتهر بلقب «النحاسي» انتقاده لاستيقاظه في ساعة متأخرة، وكتابته  
على ضوء الشموع. قال (ديموستينس):

- اني لأعلم جيداً بأنك تفضل ان تكون كل الشموع مطفاة، ولست بمستغرب يا اهل أثينا من  
كثرة السرقات في البلد مادام لدينا لصوص من نحاس وجدران من طين!

ان لدينا الكثير من هذه الامثلة يصح اثباتها هنا، الا اننا سنمسك عن هذا في الوقت  
الحاضر ونواصل وصف شخصيته وتحديد ابعاده على ضوء اعماله وحياته السياسية.

كان اول دخوله الحياة العامة، ابان حروب (فوكيون) كما يؤكد هو نفسه وكما يستبان من  
خطبه الفيليبية، فمنها ما القاه بعد نهاية تلك الحروب. واولها يشير الى احداثها الأخيرة. ومن  
المؤكد انه رفع الدعوى على (ميدياس) عندما كان له اثنتان وثلاثون سنة من العمر. ولم يكن  
اذ ذاك شديد الاهتمام بالشهرة السياسية. هذا وما حمله في رأبي - على سحب اتهامه  
(لميدياس) وقبوله مبلغاً من المال على سبيل التعويض لأنه...

«لم يكن بذلك الرجل السهل اللين الجانب»

بل صارم الطبع، حريص على الانتصاف لنفسه. وعلى اية حال فقد وجد (ديموستينس) ان  
في مقارعة (ميدياس) صعوبة ينوء بها. وهذا رجل قوي عزيز الجانب، سواء من ناحية المال او  
المنطق أو الجاه ولذلك استجاب (ديموستينس) لرجاء من توسط في الأمر. ولو وجد املاً او  
احتمالاً في تحقيق النصر عليه، فلا اظن الآلاف الثلاثة من الدراهم التي قبضها تعويضاً،  
كانت تكفي لفلّ غراب حقه واطفاء جذوته.

ان الهدف الذي اختاره لنفسه في سياسة الجمهورية، كان شريفاً وعادلاً، فقد دافع عن  
الكيان الإغريقي في وجه (فيليب) وهذا السلوك الممتاز حقق له الشهرة، واثار الاهتمام في  
كلّ صقع بما ابداه من البلاغة والشجاعة الأدبية، وغطت شهرته والاعجاب به كل بلاد  
الاعريق، وتودد اليه ملك الفرس، وكان (فيليب) نفسه يقدره ويفضله على سائر الخطباء  
الآخرين. حتى اعداؤه، فقد اضطروا الى الاقرار بأنه رجل ذو خطرٍ عليهم، ومن الواجب ان  
يتخلصوا منه، ولذلك تجدد (إسخينس) و(هيبريدس) يُقران له بهذه المنزلة في حين ما انفكا  
عن انتقاصه والافتراء عليه. ولذلك تراني حائراً في ايجاد سبب مقبول لمقولة (ثيومپويوس)  
عنه حين وصف اخلاقه بالميوعة وسرعة التقلب وعدم الثبات على نهج واحد مدة طويلة، سواء  
بصلته مع الناس، أو باتباعه نفس الغايات. بينما كان العكس هو الأظهر على طبعه. فقد

ظلّ متمسكاً بالرأي والاتجاه السياسي الذي اختطه لنفسه منذ البداية حتى النهاية ولم يحد  
عنه حتى انه آثر ترك الحياة على انكار مبادئه. ولم يسمع عنه اعتذاراً أو تبرير لانتقاله من  
معسكر سياسي الى معسكر آخر مثل (ديماديس) الذي كان يتجج بقوله أنه كثيراً ما تكلم  
ضد نفسه، لكنه لم يتكلم قطّ ضد المدينة، ولم يكن مثل (ميلانويوس Melanopos) خصم  
(كالليستراتوس) المأثور، فلأنه كان كثير الارتشاء، تراه لا يتورع عن القول للناس:  
- هذا الرجل هو خصمي فعلاً، لكن علينا ان نواليه ونطيعه لخير بلادنا.

ولم يكن ايضاً مثل (نيقوديمس Nicodemus) المسيحي الذي ظهر منحازاً الى (كساندر)  
في مبدء الأمر، ثم تركه وانضم الى صفّ (ديمتريريوس)، وفسّر انقلابه هذا بقوله ان العاملين  
ليس فيهما اي تناقض ذاتي اذ من الحكمة دائماً أن يُسائر الفاتح. وليس ثم ما يمكن قوله  
بحق (ديموستينس) مما يجري هذا المجرى فلم يكن ممن ينكص على عقبيه او يراوغ لا قولاً ولا  
عملاً. ولو لم ينطلق من هذا المنطق في نشاطه السياسي من البداية حتى النهاية لوجدنا حتماً  
اختلافاً مهماً كان قليلاً. وقد ذكر (پانيتيوس Panaetius) الفيلسوف ان معظم خطبه كانما  
كتبت للتدليل على هذه النتيجة وهي ان كل ما هو صالح ونبيل يجب ان يطلب لذاته فحسب.  
ودليل ذلك خطبته عن «التاج» وخطبته «ضد اريستوقراطس» وخطبته «في سبيل  
الحصانات»، وخطب «الفيليبات»، كان في كل هذه الخطب يدعو ابناء وطنه بأن يطلبوا لا ما  
يبدو لهم اجلب للسرور والراحة والفائدة بل كان يستصرخهم مراراً وتكراراً بان يؤثروا بالدرجة  
الأولى كل ما يستقيم مع الشرف والعدل، قبل أن يفكروا في أمنهم وسلامتهم. فلا ظل  
(ديموستينس) عفّ اليد ولو كانت شجاعته في الدعوة الى الحرب توازي سمو مبادئه وخطبه،  
فهو يستأهل أن يوضع لا في عداد (ميوروكليس Moeroclis) و(يوليئكتوس)  
(هيبريدس)، بل في مصاف الطبقة الأولى من الخطباء امثال (كيمون) و(ثوكيديدس)  
(پيركليس).

من المؤكد ان (فوكيون) المعاصر له نال صيتاً بفضل شجاعته وامانته لا يقل عن صيت  
(إفياليس Ephialtes) و(اريسيديس) و(كيمون). وان كانت حكومة أثينا قد حبتته باقلّ  
الرضي وعدته من الحزب المتعاون مع المقدونيين. الا ان (ديموستينس) الذي لم يكن اهلاً  
للاعتقاد عليه في السلاح على حدّ قول (ديمتريريوس) ولا كان محصناً تماماً من الرشوة أنى  
جاءت امتنع عن قبول هدايا فيليب والمقدونيين بصورة قاطعة. الا انه انكشف وهوجم عندما  
تغلب عليه الاصفر الرنان الذي جاءه من سوسه واكبثانا، ولهذا اعتبروا الأقدر على تزكية  
فضائل الزمن الغابر، منه على الاقتداء بها والسير على نهجها. ومع هذا كله فقد ارتفعت

حياته الخاصة عن حياة كل الخطباء الذين عاصروه خلا حياة (فوكيون). لم يواجه احد منهم الجمهور بمثل الجراءة والصراحة التي واجهه بها وكان يهاجم الاخطاء، ويعارض في نزوات الشعب واندفاعاته الطائشة كما يبدو من خطبه، وكتب (ثيومپوپوس) يقول: أن الآثينيين اختاروا (ديموستينس) ليقوم بتوجيه الاتهام الى شخص معين فرفض ذلك فهب الجميع صارخين وتعالى ضجيج السخط عليه فنهض وخاطبهم بقوله:

- يا رجال آثينا! سأكون رهن امركم دائماً كناصر ومشاوّر شتتم ذلك ام ايبتتم. أما ان اكون مدّعياً كاذباً، او متملقاً ذليلاً، فهذا ما لن اكونه ابداً مهما حاولتم.

وكان موقفه من قضية انتيفون Antiphon موقفاً ارستقراطياً بحتاً. فبعد ان برىء الرجل امام الجمعية العامة، اقتيد الى المحكمة الاريوباغية، فحكمته وادانته وانفذت فيه الحكم بتهمته تعهده لفيليب باحراق دار السلاح، ولم تعبأ باستياء عامة الشعب. واتهم (ديموستينس) ايضاً الكاهنة (ثيوريس Theoris) بأنها لقتت وحرضت العبيد على خداع وغش اسيادهم الى جانب تهم أخرى، فحكم عليها بالموت ونفذ فيها.

وقيل ان (ديموستينس) هو كاتب الخطبة التي استعان بها (ابولودورس) على مباشرة الدعوى ضد (تيموثيوس Timotheus) الجنرال الآثيني، بخصوص دين عليه. كذلك عزيت اليه الخطبتان ضد (فورميون Phormion) و(ستفانوس Stephanus) وفي القضية الأخيرة الاعتقاد أن مسلكه كان بعيداً عن قواعد الشرف ذلك لأن الخطبة التي رد بها فورميون على (ابولودورس) كانت ايضاً من بنات افكاره، ومثله في هذا مثل ذلك الذي زود خصمين بالسلاح، من دكان اسلحة واحد، ليطعن احدهما الآخر!

ومن خطبه الموجهة الى الجمعيات العامة، خطبه ضد (اندروتون Androtion) وخطبه ضد (تيموقراطس Timocrates) وارستوقراطس وكلها كتبت ليلقيها آخرون قبل أن يبرز في ميدان السياسة، ويبدو انه ادعاها عندما كان له من العمر سبعة وعشرون او ثمانية وعشرون عاماً.

واما خطبته ضد (ارسطوغيتون Aristogiton)، وخطبه تلك «حول الحصانات» فقد القاها هو بنفسه بطلب من (قطيپوس Ctesippus) ابن (خبرياس) كما يقول هو نفسه، الا ان بعضهم يقول انه ما فعل هذا الاً تقريباً لقلب امّ الفتى، على انه في الواقع لم يتزوجها؛ وكانت زوجه ساموسيةً الموطن كما اورد (ديمتريوس المغنيزي) في كتابه الموسوم «الاشخاص المتطابقة اسماؤهم». وهناك خطبته ضد (اسخينس) الذي اساء التصرف في سفارة، لا يعلم هو ألقبت

ام بقتت حبراً على ورق. على أن (ايدومينيوس Idomeneus) يقول أن (اسخينس) نجا من الإدانة بثلاثين صوتاً. ويبدو أن لا صحة لهذا القول، على قدر ما يمكن استخلاصه من خطبتيهما «في التاج»، اذ لم يأت اي منهما الى ذكر المسألة بوصفها قضية وصلت مرحلة التهمة والمرافعة، لا صراحة ولا ضمناً... لكن فلنكتف بهذا القدر ولنوع لغيرنا أمر البت في هذا التباين.

كان واضحاً حتى في فترة السلم، السبيل الذي قصد (ديموستينس) توجيه سياسة الجمهورية اليه، فقد دأب على انتقاد كل ما يصدر من الملك المقدوني، وكان يجد في كل تصرف من تصرفاته عيباً، ويهتبل كل مناسبة وفرصة لإثارة اهالي اثينا وتهيجهم عليه ولذلك لم يتردد ذكره في بلاط (فيليب) كثيراً ولا كان يمدح بما يستحق. ولقد كان واحداً من اعضاء السفارة العشرة الذين ارسلوا الى مقدونيا ومع ان الجميع خطوا بالالتفات، الا أن اكبر الاهتمام كان منصبا على الخطبة التي القاها فقد خطبت بالجواب المفصل الدقيق. الا أن (فيليب) فيما عدا ذلك لم يحتف به كما احتفى بالآخرين ولم يبد له اللطف والمجاملة اللتين ابداهما لحزب (اسخينس) وفيلوقراطس) ولما مدح الآخرون مقدرة (فيليب) في الخطابة واطنبوا في وصف جمال شخصه وطيب مجلسه في حفلة شراب لم يتمالك (ديموستينس) من ايراد اعتراض تافه على هذا المديح بقوله: ان الصفة الأولى هي أجدر بالخطيب، والثانية قمينة بامرأة والثالثة هي من خصائص الاسفنج، وليس في اية واحدة منها ما يصلح لاسنادها الى امير.

لكن الاحداث آلت الى الحرب بالأخير (ففيليب) لم يكن ليصبر على حياة السلم، والآثينيون انساقوا بتأثير (ديموستينس)، فقد حرضهم على فيليب عندما اخضع (ايوبيا) بخيانة من طعاتها. وصوت الآثينيون باقتراح منه على مرسوم اعلان الحرب، وعبروا البحر وطردها المقدونيين من تلك الجزيرة. ومما دفع الى تأجيج اوار تلك الحرب، هو انتصار آثينا للبيزنطيين، والبرنثيين Perinthions عند تعرضهم لهجمات المقدونيين. فأقنع (ديموستينس) الجمهور الآثينيين بنبد خصوماتهم مع هاتين المدينتين، ونسيان الاساءات التي ارتكبتها في اثناء حروب الحلف، فارسلت النجذات العسكرية التي انقذتهما وعززت دفاعهما. وبعد هذا بفترة قصيرة قام بمهمة السفير المتجول في مختلف دول اليونان، وكان يحثهم على مقاومة (فيليب) وقتاله. وافلح في انشاء جبهة متحدة من هذه الدول باستثناء القلة منها. وتالف الى جانب القوات التي عباها المواطنين انفسهم - جيش للحلف يتألف من خمسة عشر الفاً من المشاة وألفين من الخيالة. ودفعت تلك الدول بطيبة خاطر الأموال اللازمة لتجنيد المرتزقة وعلى

ما يذكره (ثيومپوپوس) أن قولة (كروبولوس Crobylus) المشهورة كانت في مناسبة طلب الحلفاء تعيين مقدار مساهمتهم المالية وتحديدها بصورة دقيقة فقد نهض هذا الخطيب وقال:  
- إن الحرب لا يمكن أن تُطعم بكذا وكذا، في اليوم الواحد.

بعد أن حملت كل بلاد الاغريق السلاح، واخذت الآمال العراض تداعب شعوبها، واتحد الايويون، والآخائيون والقورنثيون والميغاريون و(الليوكاديون Leucadians) و(الكوركيرون Corcyraean) اهالي ومدناً، في عصبية مؤتلفة واحدة، بقيت اشق المهمات في عهدة ديموستينس، وكان قد ارجي البت فيها، وهي ضمّ الثيبين الى هذه العصبية. كانت بلادهم متآخمة لآتيكا، وكان لديهم قوات كبيرة مهيأة للقتال، وهم في ذلك الوقت أفضل محاربي الاغريق، ولم يكن بالهين حملهم على مناصبة فيليب العدا، اذ لم ير وقت طويل على الجميل الذي صنعه معهم في اثناء حروب فوكيون. ومما عقد الأمر كثيراً أن أسباباً للنزاع والخلاف بين مدينة ثيبية وآثينا كانت تنجم وتتجدد باستمرار وتشتد وتتفاقم بخصوصات تافهة تنشأ بسبب حدودهما الواحدة.

الأ أن فيليب الذي علا نجمه وسطع وزاده غروراً نجاحه في امفيساً Amphissa، سرعان ما انقض على ايلاطيا Elatea فجأة، واستولى على (فوكيس) واصاب الآثينيين بذعرٍ شديدٍ. ولم يجراً أحد من الخطباء على اعتلاء المنبر ومواجهة الجمهور وفقد الجميع مقدرة الكلام وركبتهم الحيرة امام جمعية ذاهلة صامتة. في هذا الظرف العصيب برز (ديموستينس) وحده، والقى اليه بنصيحته، وهي التحالف مع ثيبية، ولجأ الى شتى الوسائل والاساليب لثب روح الاقدام في الآثينيين، ورفع معنوياتهم بالآمال المشرقة، فاخذوا برأيه وبعثوا به مع آخرين في سفارة الى ثيبية، ويادر فيليب ايضاً بارسال وفدٍ حسب ما يذكر (مارسياس Marsyas) لإحباط مساعي (ديموستينس)، وكان وفده يتألف من (اميتاس Amytas) و(كليارخوس Clearchus) المقدونيين، و(دخوس Doachus) التسالي، و(ثراسيديوس Thrasydous). كان الثيبيون أعرف من غيرهم بمصلحتهم في تلك الساعة، وأخبر بما يؤتمهم، إلا أن فظائع الحرب واهوالها كانت شاخصة امام اعينهم جميعاً. وخسائرهم الفادحة في الحروب الفوكونية، مازالت ماثلة للاذهان. إلا أن قوة عارضة الخطيب وسلطان تأثيره كان كما يقول (ثيومپوپوس) عاتياً في اذكاء نار شجاعتهم واشعال لهيب حماستهم، حتى انهم تركوا جانباً كل حذرٍ أو خوف، وعافوا كل عهدٍ مقطوع بنوع من الهام رباني، ليختاروا سبيل الشرف الذي دعتهم اليه كلمات الخطيب. ان هذا النجاح الذي حققه ديموستينس، بلغ حداً من المجد والآثار الجسيمة، لجأ معه (فيليب) الى ارسال وفدٍ للمعارضة في صلح. إلا أن كل بلاد الاغريق هبت

دفعه واحدة بسلاحها للنجدة ووضع القادة العامون انفسهم تحت تصرف (ديموستينس) لتلقي الاوامر منه، لافي آتيكا وحدها بل في (بويوتيا) ايضاً. وكان تأثير لسانه على جمعيات ثيبية العامة لا يقل عن تأثيره في الآثينيين. فدانت لسلطانه المطلق جمعيتا المدينتين، واحاطته بودهما. وكان يجانب الطرق المتتوية في ادارتهما، ولا يدافع امامهما إلا عن قضية عادلة كما اقر بذلك (ثيومپوپوس) نفسه. ولم يكن هذا على جدارته والمعينة بالكثير.

على أن الآلهة قدرت على ما يبدو من مجرى الاحداث، فترة من الزمن تفقد فيه بلاد الاغريق حريتها. فكان الحظّ العاثر يقف لها بالمرصاد فيصيبها بالفشل ويحيط مساعيها بصورة متوالية، وتواترت النبوءات والاشارات العلوية لتأكيد ذلك. منها النبوة الكئيبة التي نزلت على الكاهنة الثيبية. وهي نبوءة قديمة تضمنتها مجموعة القصائد السيبيلية Sibyl.

المعركة في ثرمودون ستكون مأمونة عن بعد واني لأرغب في مشاهدتها من مسافةٍ، مثل نسرٍ مراقب وهو يطير في الفضاء سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب

ويقال ان (ثرمودون Thermodon) هو غدير صغير هنا في بلدنا (خيرونيا) وهو يجري الي (كيفيسوس Gephisus) على اننا لم نقع على نهيرٍ بهذا الإسم يجري في تلك الانحاء في يومنا هذا، وليس لنا إلا أن نخمن بأن مسيل الماء المعروف اليوم باسم (هيتمون Hae-mon) الذي يمرّ محاذبا هيكل (هرقليس) حيث عسكر الاغريق، هو (ثرمودون) المقصود. اذ انه اصطبغ بعد هذه المعركة بالدماء، وامتلاً بجثث القتلى، ولأجل هذا تغيير اسمه واطلق عليه الاسم المعروف به اليوم - كما نظن. على أن (درويس) يقول بأن (ثرمودون) ليس نهيراً. وان هذا الاسم يتعلق بحدث معين، وهو ان بعض الجنود عندما شرعوا بضرب خيامهم وحفر الخنادق حولها، عثروا على تمثال حجري صغير، دلت الكتابة المنقوشة فيه، انه تمثال (ثرمودون) يمثله حاملاً امازونة جريحة بين ذراعيه. وهناك بنوء أخرى عن الموضوع تتناولها الألسن وهي:

ايها الغراب، لا تتردد في حضور ورؤية المعركة التي ستقع في (ثرمودون) فستكون لك مادية كبيرة من لحوم الرجال هناك.

وليس من السهل ان نقرر أي زعمٍ من هذه المزاعم هو الصحيح، على اية حال. اما عن (ديموستينس) فقد قيل أنه كان يثق بقوات الاغريق ومقدرتها ثقة لحدّها لها. وقد اثاره ما وجده من علامات اليأس والعزم في هذا العدد الكبير من المقاتلين الشجعان المستعدين لقرع

الصحیح فبالاحترام والتکریم للذین خصّوا به ناصحهم الأمين، برهنوا على عدم استنائهم من نصائحه واقتراحاته.

القی (ديموستينس) الخطبة التأبينية، إلا أنه أبى أن تكون البيانات اللاحقة لها، صادرة باسمه، بل وكل اصداقاه بها واحداً بعد الآخر، متعللاً بأن اسمه يجلب النحس والشؤم. وظل هكذا فترة، حتى ارتفعت معنوياته وشجعه موت (فيليب) الذي لم يعيش كثيراً عقب انتصاره في (خيرونيا) وهذا ما اشير اليه في البيت الأخير من النبوة على ما يبدو لي:

«سبيكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب».

أعلم (ديموستينس) سراً، بنأ موت (فيليب) قبل انتشاره، فوجد في ذلك فرصته ليستتهي الناس، ويث في انفسهم الشجاعة، ويحي الأمل باسم المستقبل. فاقبل على الجمعية العامة بوجه طافح بالبشر وباسارير باشة ورغم لهم انه رأى حُماً يبنى عن حظ عظيم مقبل على آثينا. وبعد هذا بقليل قدم الرسل بنأ موت (فيليب) وما أن انتشر ذلك في اوساط الشعب حتى خرجوا الى الهياكل لتقديم القرابين، واصدروا قراراً بتقديم «تاج» الى پاسانياس. وخرج اليهم (ديموستينس) وعليه حلة فاخرة وقد اعتمر باكليل من الغار، مع انه لم يزل في حداد على ابنته التي لم يمض مع وفاتها غير سبعة أيام، حسب قول (اسخينس) الذي انتقده على هذا التصرف، وهاجمه ووصفه بالانسان الذي تجرد عن عاطفة الحب الأبوي. كان الأخرى (باسخينس) لو عمد (ديموستينس) الى الظهور بغير هذا المظهر. أن يفضح ضعفه ويعيب عليه افتقاره الى رباطة الجأش وقوة الارادة، وهو أقرب الى الخلق الانثوي؛ إن كان يعتبر البكاء والعويل، الدليلين الوحيديين على رقة الطبع ورهافة الحس. او كان يدين اولئك الذين يتحملون تلك المصائب بالمزيد من الحلم والتصبر، وبالاقل من العاطفة. واما من جهتي فلا يسعني القول بأن مسلك الأثنين في تلك المناسبة كان شريفاً لائقاً. فإن ضفر الاكالييل على رؤوسهم وتقديم القرابين للآلهة لموت أمير لم يلقوا منه إلا اطييب المعاملة والطفها واقربها الى الانسانية، مات وهو في أوج انتصاراته وعظمة نجاحه وهم يعانون مرارة الهزيمة والفشل. لقد اثاروا بعملهم هذا نقمة الحظّ عليهم فضلاً عما ينطوي من الحسنة والدناءة بذات نفسه. فبعد أن جعلوه مواطن شرف آثيني، وبالغوا في اكرامه وبتجليله حياً، رأيتهم يخرقون كل حدود السرور والتشفي ويشتمونه عندما يسقط قتيلاً بيد شخص آخر لا يمت اليهم بصلة وينشدون أناشيد النصر والظفر كأن بسالتهم هي التي قضت على حياته. في الوقت نفسه ينبغي لي أن اشيد بموقف (ديموستينس) الذي ترك البكاء والدموع واحزان الأسرة، للنساء حين وجد ان واجبه يقضي عليه برعاية مصالح الجمهورية وفي رأبي انه واجب نبيل للنفس الجريئة

العدو مما لا يتصور معه انهم قد يعيرون اذنا صاغية للنبوءات او انهم يهتموا بالعرفات، حتى قال انه يشك في الكاهنة، ويميل الى الاعتقاد بأن بعضهم اغراها لتتكلم في صالح (فيليب). واخذ يذكر الثيبين بـ(إپامنداس)، ويذكر الاثينيين بـ(پركليس) قائلاً انهما كانا يتخذان قراراتهما بتحكيم عقلمهما فيهما. وينظران الى النبوءات وامثالها بوصفها اعذاراً يتعلل بها الجبناء. الى هذه المرحلة كان (ديموستينس) جريئاً أيّداً. إلا انه لم يجنى أية مآثرة في القتال الفعلي، ولم يطابق بلاؤه في ساحة الوغى، تجليته في منبر الخطيب، فقد فرّ من الميدان، وترك موضعه بشكل مخز والقی باسلحته جانباً، دون أن يحسّ بالعار الذي اصاب الكتبة المنقوشة على ترسه بأحرف من ذهب «مع حظ سعيد»، وهذا ما يذكره لنا (پينثياس Pythias) ما ان لاحت بتاشير النصر (لفيليب) حتى ركبت فرحة طاغية، واستخفه طرب عظيم فخرج بعد ان عبّ مقداراً كبيراً من الحجر - لمشاهدة القتلى، واخذ يردد آخر بيان حربي صدر بناءً على اقتراح من (ديموستينس):

«اقتراح من ديموستينس ابن ديموستينس».

وراح يقطعه تقطيعاً ايقاعياً ويشد على موضع الوقفات فيه. وبعد ان عاد لنفسه واخذ يفكر بالخطر العظيم الذي كان يتعرض اليه قبل قليل، ادركته ارتجافة تهيّب من تلك القوة والكفاءة الهائلة في كلام خطيب مما دفعه الى المجازفة بحياته وبمملكته، بمعركة تتقرر نتيجتها بسويغات. لقد انداحت شهرة ديموستينس وانتشرت حتى بلغت بلاط الغرس، وارسل الملك رسائل الى عمّاله آمراً اياهم بان لا ينجلوا على (ديموستينس) بالمال وأن ينجزوا اية خدمة يطلبها بوصفه الوحيد في كل بلاد الاغريق، الذي تمكّن من إلهاء فيليب، وإشغال قواته العسكرية في ميادين قريبة منه اعني في النزاعات اليونانية. لقد انكشف هذا (للاسكندر) فيما بعد، من رسائل لديموستينس وجدها في (سارديس) ومن اوراق عثر عليها لضباط فرس، وفيها ثبت بالمبالغ الطائلة التي ارسلت اليه.

بعد الفشل الذي مني به الأغريق، اخذ الحزب الآخر المعارض في الجمهورية، يعمل على الايقاع (بديموستينس) واتخذوا من ذلك فرصة ليلفقوا عدة تهم عليه، والصاق بعض الجرائم به. ولم يكتف عامة الشعب بتبرئته من كل ما عزّي اليه، بل ظلّ يخصّه بالمنزلة الأولى من الاحترام، ولم ينفكوا عن دعوته للمشاركة في تصريف الشؤون العامة، ثقةً منهم بحسن نيته واخلاصه. وقد تجلّى ذلك عندما جيء بعظام قتلى (خيرونيا) الى الوطن لدفنها باحتفال رسمي، فقد اختاروه للقاء خطبة التأبين، ولم يظهروا وهم تحت تأثير المصائب اي خلق وضع او معاملة دنيئة. وهذا ما سجله لنا (تيوپوپوس) باسلوبه المغرق في المبالغة، وكان العكس هو



الصالحة للحكم، وقوفها الثابت الدائم لحماية المصلحة العامة تاركاً الاحزان الخاصة والمتاعب الشخصية تجرد تعويضها فيما ينعم به الشعب من خير. كان واجباً عليه أن يحافظ على وقاره ومكاته أكثر بكثيرٍ من الممثلين حين يمثلون ادوار الملوك والطغاة على المسرح، تراهم لا يعرفون عن احساسهم الخاصة عندما ينخرطون في بكاءٍ، أو عندما يضحكون. بل يقومون بتمثيل الدور حسب مقتضى الحال. اضع الى هذا ان واجبنا تجاه الجار الذي حلت به مصيبة لا يقتصر على مواساته وانما ان نقدم له كل ما يسري عنه قولاً وعملاً وتحويل افكاره الى المواضيع المسلية. مثلما نشير على الناس الذين يشكون المأ في اعينهم بأن يتحاشوا النظر الى الالوان الساطعة المؤدية، والتحول الى اللون الاخضر او الى مزيج من الالوان الخفيفة الهادئة. ولهذا ففي حالة (ديموستينس) يجب علينا أن نلجأ الى وسائل تعزية للمصيبة التي ابتلي بها. أفضل واجدى، وليس مثل نهوض بلاده من كبوتها وعودتها الى الازدهار وسيلة افضل، بادخالنا المناسبات العامة والخاصة في الحساب - إنه جاز لنا القول. فاليسر الذي يصيب الدولة يطمس المصائب التي تجلّ بالمرء ويخفيها. لقد لجأت الى التفصيل أولاً لأنني اعرف بان كثيراً من القراء قد أثرت فيهم نفسيه (اسخينس) فبلغت بهم حداً من الرهافة والرقه مما لا يليق بالرجال.

ولأعد الى حكايتي: نفخت جهود (ديموستينس) روح الحياة مجدداً في المدن الاغريقية فعادت الى الائتلاف في عصبية. وامتد الشيبين بالسلاح فانقضوا على الحامية المقدونية المعسكرة بين ظهرانيتهم وفتكوا بالخلق الكثير منها. واستعد الاثينيون بقواتهم لنجدتهم. واصبح لديموستينس القول الفصل في الجمعية العامة. ووجه الرسائل الى القواد الفرس المؤتمرين بأمر ملك الفرس في آسيا، يحثهم على شن حربٍ ضد الملك المقدوني، ناعتاً اياه بالطفل، وبالأبله. لكن، ما ان استتب الأمر لالاسكندر في بلاده، وزحف على رأس جيشه نحو (بويوتيا)، حتى هبطت معنويات الاثينيين وخانتهم الشجاعة. وخنق صوت (ديموستينس) وتركوا الشيبين يقاتلون الاسكندر وحدهم فخسروا مدينتهم، وعمّ اهل آثينا الحزن والقلق الشديد. وقرروا ارسال وفد مفاوض الى الاسكندر، وكان ديموستينس عضواً فيه. إلا أن الخوف من غضب الملك تملكه وهو في الطريق، فكرر على اعقابه راجعاً من (كيتيرون Cithaeron) متخلياً عن المهمة. وفي الوقت عينه ارسل الاسكندر الى آثينا طالباً تسليم عشرة من خطبائهم اليه على حدّ قول (ايدمينيوس ودوريس)، لكن معظم المؤرخين يقولون ان الاسكندر طلب الثمانية التالية اسماؤهم فحسب: (ديموستينس) و(بوليثكتوس) و(افيسالتس) و(ليكورغوس) و(ماوركليس) و(ديمون) و(كالستينس) و(خاريديموس). وبهذه المناسبة قام

(ديموستينس) ليقص عليهم حكاية الغنم التي سلّمت كلابها الى الذئاب مشبها نفسه واعضاء الوفد الآخرين الذين اوقفوا انفسهم على سلامة مواطنيهم، بالكلاب التي تحمي القطيع والمقدوني بكبير الذئاب... وقال مستطرداً:

- وكما نرى تجار القمح يبيعون محصولهم بعرض عينة او نموذج منه، في صحفة يطوفون بها على الشارين، كذلك انتم بتسليمكم ايانا ونحن فئة قليلة من الجمع الكثير، تسلمون انفسكم جميعاً وانتم لا تدرن.

نجد الحكاية مدونة هكذا في تاريخ (ارسطوبولس) الكساندري راح الاثينيون يتداولون فيما بينهم، جاثرين لا يدرون ماذا يصنعون. ثم اتفق (ديماديس) مع الذين طلب الاسكندر تسلميتهم اليه على ان يدفعوا له خمسة تالنتات لقاء ذهابه بدلاً عنهم للتشفع لهم عند الملك. وسواء في ذلك أكان يعتمد على صداقته للملك والمكانة التي يتمتع بها لدية، او انه كان يأمل في ان يجد سورة غضبه قد انفثت، مثل أسدٍ مفترس، شبع من القتل حتى أتخّم، فمن المؤكد انه ذهب ونجح في نيل العفو عن الرجال، واجراء صلح بين الملك والمدينة.

وبهذا اصبح (لديماديس) اليد الطولي عند ذهاب الى الاسكندر وعلت كلمة اشياعه، واهمل (ديموستينس) اهمالاً تاماً وأفل نجمه. لكن الحركة ربت فيه عندما قام (آغيس) السبارطي بشورته، فقد حاول (ديموستينس) اجراء حركة لمصالحة، إلا انه سرعان ما عاد لينطوي على نفسه ثانية بعد فترة قصيرة، اذ لم يشأ الاثينيون ان يتدخلوا في أمر هذا الثورة.

وقتل (آغيس) وغلب اللقيديميون على أمرهم. وفي هذه الفترة قدم للمحاكمة (قطيسفون Ctesiphon) بالتهمة المتعلقة «بالتاج» وكانت الإجراءات القانونية قد بدأت في هذه القضية قبل معركة (خيرونيا) بقليل في وقت ارخونية (خيروننداس Choerondos). إلا أنها لم تعقب وتجال الى المحاكمة إلا بعد عشر سنوات في وقت ارخونية (ارسطوفون). لم تنل قضية من الشهرة ما نالته هذه القضية سواء بسبب ما كان يتمتع به خطباؤها من صيتٍ ذائع، او بسبب الشجاعة الفريدة التي ابدتها القضاة الذين ابو اصدار حكم ضد (ديموستينس)، مع أن متهميه في ذلك الوقت بالذات كانوا في اوج سلطانهم ونفوذهم الذي تدعمه قوة مقدونيا. فبرأؤه بتكريم وإجلال. حتى أن (اسخينس) لم يحصل على خمس اصواتهم، فلم ير بدأ من مغادرة المدينة بسرعة، منفقاً بقية حياته في تعليم البلاغة في جزيرة (رودس) وفي القارة الاسيوية بأيونيا.

بعد هذا بزم قصير هرب (هريالوس) من الاسكندر وغادر آسيا لاجناً الى اثينا. ولم يكن

يجهل مقدار الذنوب التي ارتكبها، وكان سببها تعلقه بالترف والبذخ؛ فادركه خوف شديد من الملك الذي أصبح الآن مصدر رهبة حتى لصفوة اصدقائه، وجاء الى الاثينيين واضعاً امواله وسفنه ونفسه تحت تصرفهم. وسرعان ما امتدت ايدي خطباء المدينة اليه وشخصت ابصارهم الى امواله وخفوا الى معونته وحملوا اهالي آثينا على اجارته واعطائه حق اللجوء. وفي مبداء الأمر نصحهم (ديموستينس) بطرده من البلاد، وبالحذر من توريط مدينتهم في حرب بلا مبرر او ضرورة. وبعد ايام قليلة كانوا يقومون بجرد الاموال التي جاء بها (هرپالوس) ولاحظ هذا إعجاب (ديموستينس) الشديد وفرحة بكأس من صنع فارسي. وراقبه وهو يتأمل بلهفة نقوشه وتهاويله. فطلب منه أن يزنه بيد ويقدر كمية الذهب فيه، فذهل (ديموستينس) من ثقله وسأله:

- كم يبلغ وزنه؟

فأجابه (هرپالوس):

- «اليك... سيصل» مع عشرين تالنتا.

وما ان جنّ الليل حتى وصله الكأس مع ذلك القدر من التالنتات. ويبدو أن (هرپالوس) كان عجبياً في استقراء امارات الجشع فيه من انقلاب سحنته ومن نظاره وحركات عينيه. ولم يقو (ديموستينس) على مقاومة الاغراء وادخل الهدية الى حصن بيته كحامية شاكية السلاح، ومن بعدها استسلم لهرپالوس واصبح طوع امره. ففي اليوم التالي، اقبل على الجمعية العامة وقد احاط عنقه بحرمة من صوف. فلما طلبوا منه الكلام، راح يلوح بيديه مشيراً الى انه فقد قدرته على النطق. الا أن الاذكياء واصحاب النكتة، اتخذوا من الأمر مادة للمزاح والتندر فقالوا «لاشك ان الخطيب قد أصيب الليلة الفاتته بالتهاب اللوزتين الفضي! وليس غير.» ولم يلبث الناس ان علموا بالرشوة فثار بهم الغضب، ووقفوه عن الكلام ولم يسمحوا له بالاعتذار لنفسه بل امره بالنزول عن المنبر وهم ضاحجون صاخبون.

ونهض رجل وصاح:

- ماذا دهاكم يا رجال آثينا؟ اما تريدون أن تستمعوا الى حامل الكأس؟

وأخيراً طردوا (هرپالوس) من المدينة. وخوفاً من أن يطلب منهم تقديم حساب عن الاموال التي ابتزها الخطباء منه، فقد اجروا تفتيشاً دقيقاً في منازلهم، ولم يستثنوا من هذا الاجراء غير (كالليكلس Calicles) ابن (اررينداس Arrhenidas) الذي كان قد تزوج حديثاً، فاستثنوا داره من التفتيش حرمة لعروسه التي كانت منه على ما يذكر (ثيومپوپوس).

وعارض (ديموستينس) في التحقيقات، واقترح اصدار قرار يقضي بإحالة الأمر الى المحكمة الارويباغية، وانزال العقاب باولئك الذين تدينهم المحكمة. على انه كان من الاوائل الذين ادانتهم تلك المحكمة عندما مثل امامها متهماً فغرم خمسين تالنتاً ووضع في السجن، فضاقت نفسه به ولم يحتمله اماً خجلاً من الجريمة واما بسبب ضعف بنيته، فهرب بمساعدة وتديبر بعض المواطنين واهمال بعضهم. ومن القليل الذي روي لنا، انه لم يبتعد كثيراً عن المدينة حتى شعر بأن ثم من يتعقبه وتبين أن فيهم خصوصاً له، فحاول الاختفاء الا أنهم نادوه باسمه ودنوا منه ورجوه قبول شيء في المال يستعين به على رحلته، واكدوا له أنهم ما تعقبوه الا لهذا الغرض وطفقوا يشجعونه ويشددون عزائمهم للوقوف بجلد امام سوء خطه، فانشأ يندب نفسه ويبكي بحرقة وقال:

- لكن أني لي ان اتحمل ثقل كل هذه النوائب. وها اني اغادر مدينة لي فيها خصوم من امثالكم في حين لن يكون من السهل قط ان اجد اصدقاء لي في اية مدينة الجأ اليها؟

ولم يظهر جلدأً وصبراً على حياة المنفى، وقضى جل اوقاته في (إيجينا Aegina) و(ترويزين Troezen)، ينظر دوماً بعينين دامعتين الى بلاد (اتيكا). وقد تخلف في المدونات بعض اقوال له لا تشبه كثيراً تلك العواطف الفنية الدافعة المفعمة بالجراءة التي اعتاد اللقاءها عندما كان يهيمن على الجمهورية. قيل أنه رفع كلتا يديه نحو الاكروبوليس وهو يغادر المدينة، وقال:

- ايتها السيدة (مينرفا) كيف تطيقين وجود ثلاثة وحوش ضارية لايسلس قيادها: البوم، والثعبان، والشعب الآثيني؟

وكان يشبط همم الشباب الذين يأتون لزيارته والتحدث اليه، ويحذرهم من اخطار السياسة ومعالجة شؤون الدولة بقوله:

- لو خيرت من البدء، بين سبيلين، احدهما يؤدي الى منبر الخطابة والجمعية العامة، والآخر يؤدي الى الدمار المباشر، ولو قيض لي التكهن بالنوائب الكثيرة التي تنتظر العاملين في الحقل السياسي، من المخاوف والحسد، والافتراء، والتناحر، لاخترت بدون شك، السبيل المؤديه الى موتي مباشرةً.

وحلّ اجل الاسكندر عندما كان (ديموستينس) في المنفى كما ذكرنا. فرفع الاغريق السلاح ثانيةً، وقد شجعتهم محاولات (ليوسثينس) الباسلة، الذي كان انذاك ييني حول (انتيباطر) المحاصر في (لاميا). وعلى اثر ذلك هرب من آثينا الخطيبان (بيثياس) و(كالليميدون Cal-

(limesdon) الملقب بالسلطعون وانحازا الى جانب (انتيباطر) وراحا ينتقلان في مختلف انحاء بلاد اليونان برفقة سفرائه لاقتناع الاغريق بالاخلاق الى السكنينة وعدم الانحياز الى جانب الاثينيين. لكن (ديموستينس) التحق بالسفراء القادمين من آثينا وبذل قصاره، واسدى كل ما امكنه من العون لاقتناع المدن الاغريقية بالهجوم معاً على المقدونيين وطردهم من بلاد الاغريق. ويقول (فيلارخوس) ان مناظرة وقعت في (اركاديا) بين (بيثياس) و(ديموستينس) انجرت بالاخير الى مهاترة صريحة. فقد كان الاول داعية مقدونيا والثاني داعية اغريقياً. قال (بيثياس):

- لما كنا نفترض دائماً وجود مرض ما في الاسرة التي تشرب حليب الحمير، فان المدينة التي تأتيها سفارة من آثينا، لا بد وان تكون مصابة بوعكة مرضية!

فاسرع (ديموستينس) يرد على هذه المقارنة بقوله:

- يؤتى تحليب الحمير ويستعمل لحفظ الصحة، وقد جاء الآثينيون لاجل شفاء المرض باعطائهم العلاج الشافي.

سراً الآثينيون بسلوك (ديموستينس) حتى انهم الغوا قرار نفيه وارسلوا يطلبون اليه العودة، وحمل هذا القرار اليه ابن عمه (ديمون Demon) الپاياني Paeanian ويعثوا له بسفينة اقلته من منفاه (ايغينا) الى (پيربوس) حيث خرج المواطنون جميعاً لاستقباله باعظم الفرح. ولم يتخلف عن هذه المناسبة كاهنهم وارخونهم. ويقول ديمتريوس المغنيزي، ان ديموستينس رفع يديه نحو السماء وبارك ذلك اليوم الذي شهد عودته السعيدة قائلاً انه اشرف بكثير من يوم عودة (الكيبادس) ذلك لأن ابناء وطنه دعوه من تلقاء انفسهم، لا بأمر فرض عليهم بالقوة. وبقي موضوع الغرامة المالية معلقاً. اذ لم يكن القانون يسمح باعفائه منها بقرار شعبي. على انهم وجدوا مخرجاً بالاحتتيال على القانون. فقد جرت العادة لديهم ان يخضعوا قدرماً من الفضه لاولئك الذين يقرر تعيينهم لتزيين وترتيب مذبح التضحية الخاص (بجويترسوتر) فاناطوا به هذه المهمة وخصصوا له خمسين تالنتاً لقاء هذه الخدمة وهو مقدار الغرامة التي حكم بها.

على انه لم يتمتع وقتاً طويلاً بالعيش في بلاده، فقد مينت بعد قليل بالفشل التام كل محاولات الاغريق. فمعركة كرانون Cranon التي جرت في (ميتاغيتنيون Metagitnion) في شهر (بيودروميون) ادت الى دخول الحامية المقدونية (مونيخيا) وبعدها بشهر، وهو شهر (پيانپسيون Pyanpsion) قضى (ديموستينس) نحيبه على الوجه التالي:

عندما وردت الأنباء بزحف (انتيباطر وكراتيروس) على آثينا. انتهب (ديموستينس) ورفاقه

فرصتهم للهرب من المدينة سراً. على ان حكماً بالموت اصدره الشعب عليهم باقتراح من (ديماديس)، فتنفرق الهاربون أحاداً، واصبح كل واحد منهم في موضع وارسل (انتيباطر) جنوده الى كل ناحية للقبض عليهم بأمر (ارخياس Archias) الذي غلب عليه لقب «صياد المنفيين» منذ ذلك الحين، وكان «ثوري Thurian» المولد، وقيل انه احترف التمثيل التراجيدي في اول حياته، وذكروا ان (بولص) الايفيني أبرع ممثلي زمانه كان تلميذه. الا ان (هرميبيوس) يعتبر (ارخياس) من تلاميذ (لاكريطس Lacritus) الخطيب ويقول (ديمتريوس) انه امض بعض الوقت مع (انكسيمينس).

عشر (ارخياس) في (ايغينا) على كل من هيريدس الخطيب و(اريطونيقيوس Aritonicus) المراثوني، و(هيميريوس Himeroeus) شقيق ديمتريوس الفاليري، فاخرجهم من هيكل (ايقوس Aecus) بالقوة اذ كانوا قد لاذوا به، وارسلهم الى (انتيباطر) الذي كان في (كليوني Cleonae). وهناك قتلهم. وقيل انه قطع لسان (هيسيريدس). وسمع ارخياس ان (ديموستينس) قد لاذ بحرم هيكل (نبتون) في (كالوريا Calauria) فعبر اليها في مركب خفيف. وحاول فور نزوله اليابسة بوحدة من الرماحة الشراقيين، وحاول اقتناع (ديموستينس) بمرافقه الى انتيباطر وكان يعتقد أنه لن يلقي معاملة قاسية. الا ان (ديموستينس) كان قد رأى الليلة السابقة حلماً غريباً. فقد خيل له أن رحل في سباق تمثيل تراجيدي مع (ارخياس) لاحراز قصب السبق. ومع ان تمثيله الجيد حاز رضا المتفرجين التام، فقد خسر بسبب سوء الاعداد المسرحي، وأثائه الحقير.

بينما كان ارخياس يتحدث اليه بكل لطف وهو جالس لا يأتي بحركة ولا يغير من جلسته شاخص اليه بعين لا تريم، انتفض فجأة وقال:

- اي (ارخياس) أني أقل تأثراً بعودك الآن، من تأثري بتمثيلك في الماضي.

فداخل الغيظ (ارخياس) واخذ يهدده فقال (ديموستينس):

- انت الآن تنطق بنبوّة مقدونية أصيلة، وقبل ذلك كنت تمثل دوراً. فامهلني قليلاً لاكتب كلمة او اثنتين لأهلي. قال هذا ودخل حرم الهيكل وتناول رقاً كأنما بهم بالكتابة. ووضع القصبه في فمه وقضمها كما هي عادته عندما تتناهبه الأفكار او عند الكتابة. ابقى القصبه في فمه برهة، ثم اطرق وغطى رأسه. وخيل للجنود الواقفين بالباب بأن جلده خانه وان الخوف من الموت قد دب في اوصاله. فراحوا يسخرون منه ويلقبونه بالانثى، والجبان، وبالقلب الجازع. واقترب منه (ارخياس) وطلب منه القيام مردداً ما قاله،

وواعداً مرة أخرى بالسعي لمصالحته مع (انتيباطر). لكن (ديموستينس) الذي شعر بأن مفعول قد سرى في احشائه كشف عن وجهه وشخصه بإبصاره الى (ارخياس) وقال:

- الآن يمكنك متى شئت، ان تبدأ بتمثيل دور (كريون Creon) في التراجيديا، وتقذف بجسدي هذا في العراء دون دفن. ولكني يا (نيتون) الرحيم سأنهض الان وفي جسدي بقية من روح لاترك هذا الموضع المقدس، مع ان (انتيباطر) ومقدونييه، لم يبقوا شيئاً من هيكلك الا وهو مدنس.

بعد هذا طلب أن يسنده أحد لأنه بدأ يرتعش ويهتز أثناء سيره، وسقط عند مروره بالهيكل واخرج تنهيدة ثم اسلم الروح.

يقول (ارسطون) انه تناول السم من القصبة كما أوضحنا. الا ان (پاپوس Pappus) وهو مؤرخ غير (هرميبوس) على تاريخه - يذكر أنه عندما سقط بالقرب من المذبح، وجد في لغافة اوراقه التصدير التالي لرسالة شرع في كتابتها:

«من ديموستينس الى انتيباطر...»

وعندما اثار موته الفجائي دهشة كبيرة، ذكر التراقيون الذين كانوا يحرسون الباب بأنه تناول السم من صرة قماش بيده، ووضعه في فمه، وقد ظنوا انه ابتلع ذهباً. الا أن التحقيق الذي اجراه جماعة (ارخياس) مع الخادم التي كانت تعني بشؤونه، اكد بأنه كان يحمل هذه الصرة منذ مدة طويلة كتعويذة. ويقول ايراتوستينس ايضاً أنه كان يحتفظ بالسم في خاتم مجوف. وان الخاتم المقصود، هو حلية كان يلبسها في ذراعه. وهناك روايات مختلفة أخرى اوردها كتاب عديدون تطرقوا الى الموضوع ذاته، على اننا لا نرى ثم حاجة للبحث في مناقضاتهم، خلا اني لا استطيع اغفال ما اورده (ديموخاريس Demochares) قريب ديموستينس، الذي يرى أنه لم يلق ميتته السهلة السريعة تلك بفضل السم، بل بنعمة فريدة وعناية فائقة خصته بها الآلهة، فأنقذته من وحشية المقدونيين.

توفي ديموستينس في السادس عشر من شهر (پايانيسيون) وهو اليوم الأحفل بالأسى والمراسيم الدينية من امساكية الـ(الشموفوريا Thesmophoria) التي تحييها النسوة بالصيام في معبد الآلهة. وبعد موته مباشرة اغدق عليه الآثينيون من التكريم والاجلال ما هو اهل له. فقد نصبوا تمثاله النحاسي واصدروا مرسوماً يقضي بأن ينزل في كنف (الپريتانيوم Prytaneum) اكبر اسرته سنًا. ونقش على قاعدة تمثاله، الكتابة المشهورة التالية:

«لو كنت قوياً قدر ما كنت حكيماً للاغريق لما تمكن "المقدوني" من التغلب

عليهم»

ولذلك فمن السخف حقاً أن نصدق ما روى بعضهم أن ناظم هذين البيتين هو ديموستينس، نظمهما في (كالاوريا) قبيل تناوله السم.

قبل عودة (ديموستينس) الى آثينا بفترة قصيره وقعت على ما قيل - الحادثة التالية:

استدعي جندي للمثول أمام ضابطه الأمر، كي يجيب عن تهمة. فوضع هذا، تلك القطعة الذهبية الصغيرة التي ماتزال بين يدي تمثال (ديموستينس) وكانت الاصابع متشابكةً واحدهما بالأخرى وبالقرب منها نبتت شجيرة دلب سقط منها عدد كبير من الاوراق واستقر حول قطعة الذهب فاحفاها لوقت طويل اما بفعل الريح التي دفعت بها الى هذا المكان بمحض الصدفة او أن الجندي نفسه عمد الى وضعها. وبالأخير عاد الجندي ليجد قطعته الذهبية في مكانها وقد ذاع نبا هذه الحادثة وانتشر في الخارج وصار عقلاء المدينة وحكامؤها يجادل بعضهم بعضاً فيها متخذين منها مادة للتعن بنزاهة ديموستينس، في عدد من المقطوعات الشعرية الحكيمة التي ألفوها.

واماً عن (ديماديس) فإنه لم يتمتع طويلاً بالنعم التي اغدقت عليه فقد لاحقه الانتقام الالهي لموت (ديموستينس) الى مقدونيا، حيث ذاق طعم الموت على يد اولئك الذين تزلف منهم بوضاعة وكانوا قد ملؤوه واجتووه. على ان الجرم الذي اجترحه كان واضحاً يتعذر نكرانه. فقد ضبط بعض رسائله التي كان يحث بها (پردكاس) على مهاجمة المقدونيين وانقاذ الاغريق قائلاً ان المقدونيين يتعلقون بخيط رث قديم لا غير، ويقصد به (انتيباطر). وقد واجهه (دينارخوس الكورنشي) بذلك. وحمي غضب كساندر فذبح ابنه على صدره أولاً، ثم أمر بقتله. فتعلم من شقائه ونهايته السيئة درسه وهو ان الخونة الذين يبيعون بلادهم، انما يبيعون أنفسهم أولاً. وتلك نهاية طالما تنبأ له بها (ديموستينس) فلم يلق عليها باله.

بهذا يا (سوسيوس) تتم لك سيرة (ديموستينس) اقتبسستها من الروايات التي قرأناها او سمعناها عنه.

١٩٧٢/٢/٥



شيشرون

شيشرون

**CICERO**  
( Marcus Tullius )

B.C 108 - 43

الاباء تهذيباً يستأون من اولادهم ان يروهم يستقبلون شيشرون باحترام ويوسعون له موضع الصدارة بينهم. وكان - وفق ما تمناه افلاطون من الميل الى الفلسفة، والتعلق بالدرس، والشوق لتلقي كل نوع من انواع المعرفة والثقافة. وظهر كذلك ميلاً غريباً لنظم الشعر، ولديه قصائد مستداولة حتى يومنا هذا نظمها في صباحه على البحر الرباعي تدعى (بونطيوس غلاوكوس Pontius Glaucus). ثم عندما نزع بصورة خاصة الى الدراسة والتتبع اشتهر بأنه افضل خطيب فضلاً عن كونه أحسن شاعرٍ في روما. ومازال اسلوبه البياني موضع اعجاب ومحكاة بصرف النظر عن الاساليب المستحدثة الكثيرة التي سادت العصر منذ ايامه، إلا ان قصائده فقدت شهرتها وطواها النسيان. وما اكثر الشعراء المجيدين الذين جاؤا بعده.

بعد ان انهى دراساته الأولية، دخل طالباً مستمعاً لفيلو Philo الاكاديمي الذي أحبه الرومان واعجبوا به لبلاغته ولسمو اخلاقه، وانزلوه منزلة فاقت منازل كل تلاميذ (كليتوماخوس Cli-tomachus) وكذلك لازم آل موجي Macii وكانوا ساسة بارزين، وزعماء في مجلس الشيوخ واخذ عنهم علوم القانون. وخدم رداً قليلاً من الزمن في الجيش تحت امرة (سللاً) اثناء الحرب المارسية. لكن ادرك بان الجمهورية تنقسم الى شيع واحزاب. ووجد الامور فيها تنحو منحى الاستبداد، وتوجه الى الملكية المطلقة، فأثر الانسحاب ليحيا حياة عزلة وتأمل ومناظرة مع جهابذة الاغريق. ووقف نفسه على الدراسة، حتى استتب الأمر لـ(سللاً) ونعمت الجمهورية بنوع من الاستقرار.

في ذلك الحين تقدم معتوق (سللاً) المدعو (خريسوغونوس Chrysogonus) بادعاء في ضيعة تعود لشخص قيل أنه قتل عندما صدر قرار اهدار الحقوق عليه، وقال انه اشتراها بألفي درهم. فرفع (روسكيوس Roscius) ابن القتيل ووارثه الدعوى عليه موضحاً ان قيمة الضيعة مأتان وخمسون تالنتاً، فثار غضب (سللاً) لان هذا يضع تصرفاته موضع طعن وامر باجراء التعقيبات القضائية ضد (روسكيوس) بتهمة قتله اياه. وجمع (خريسوغونوس) الادلة ضده. ولم يجرء احد من المحامين على مساعدة المتهم واعتذروا عن الوكالة خوفاً من قسوة (سللاً) فوجد الشاب نفسه وحيداً لا نصير له، فسعى الى (شيشرون) مستجيراً. واخذ اصداق شيشرون يشجعونه على هذا بقولهم: ليس من المحتمل أن تعن له فرصة لتقديم نفسه الى الحياة العامة اشرف واجل من هذه الفرصة. فقيل الدفاع عنه وريح القضية فنال منها شهرة كبيرة. إلا ان الخوف من (سللاً) استولى عليه فرحل الى اليونان ذاعماً انه يفعل ذلك بسبب احتلال صحته. في الواقع كان ضعيف البنية هزياً رقيق المعدة الى حد لم يكن يقوى على تناول طعام عادي خلا الحمية الدقيقة التي لا تحوي من القوت إلا النزر التافه وهذا أيضاً، ما

أجمع الكل على أن (هلثيا Helvia) والدة شيشرون كانت كريمة المحتد، رحية العيش. لكن لم يعرف عن ابيه إلا عكس ذلك وبعضهم يجعله ابن قصار ورث الصنعة عن ابيه، في حين نجد آخرين يصعدون بنسب اسرته الى (تلولوس آتيوس Tullus Attuis) ملك القولسكان Vol-scan الشهير الذي شن حروباً على الرومان لم تخل من المجد. ويبدو على كل، أن اول من نجم من هذا البيت متخذاً لقب (شيشرون)، لايد وانه كان ذا شأن بحيث ان أعقابه لم يكتفوا بالتسمي به، بل تمسكوا بالتسمية واعتزوا وإن كانت لفظة عيب بلغة السوق. فاللاتين يطلقون كلمة «چيچر Cicer» على نبات البيقية<sup>(١)</sup>. والحز أو الثقب في ارنبة انفه الذي يشبه فتحة في جذع ذلك النبات، اعطته لقب شيشرو.

وشيشرون الذي اكتب الآن سيرته، قيل أنه انتهر بشيء من الشدة بعض اصداقائه عندما اشاروا عليه بنبذ الأسم او تغييره عندما تقدم للوظيفة العامة ودخل المعتك السياسي. وقال معقباً: انه سيبدل جهده ليجعل اسم (شيشرون) أشهر وأعلى مجدداً من اسمي (سكاوري Scauri) و(كاتولي Catuli). وعندما كان كويستوراً في صقلية اراد ان يقدم صحيفة فضية الى الآلهة. فأمر الصانع أن ينقش اسميه الأولين عليها وهما «ماركوس» و«تليوس» وقال له مازحاً له أن ليفتش بدلاً من الاسم الثالث صورة نبات البيقية. هذا ما ذكروا لنا عن اسمه وفصله.

واما عن ميلاده فقد روي أن امه ولدته دون ألم او مخاض في غرة الشهر الثالث من التقويم الجديد وهو عين اليوم الذي يدعو فيه الحكام الرومان للامبراطور ويقربون له. وقيل أيضاً ان رؤيا ظهرت لمرضعة تنبيء بأن الطفل الذي تتولى ارضاعه سيغدو فيما بعد عظيم نفع لحكومات روما. وقد ايد شيشرون عملاً هذه التكهانات التي تؤخذ بصورة عامة مأخذ الاوهام والاحاديث الفارغة وجعلها نبؤات حقيقية. اذ ما أن بلغ سن الدارسة حتى برز صبيلاً ذكياً موهوباً وارتفع مقامه بين اترابه واعجبوا به، حتى أن اباهم كانوا يختلفون الى المدرسة ليتأملوا عن كثب سرعة استيعابه وحضور بديهته التي اشتهر بها بين زملائه وكان اقل هؤلاء

(١) نبات تلغف به الحيوانات وهو اشبه ما نطلق عليه «الجت».

كان ليقوى على تناوله الأ في ساع متأخر من الليل. وكان صوته حسناً جهورياً، لكنه على قدر عظيم من الخشونة وعدم التهذيب حتى انه يرتفع عند الحدّ والحماسة الى الحدّ الذي كان يخشى منه على صحته.

وارتحل الى آثينا واستمع الى (انطيوخوس) العسقلاني، وسحر بسلاسة الإداء وأناقته، ولم تستهوه المبتدعات التي ادخلها هذا الفيلسوف على المباديء، ذلك لأن (انطيوخوس) هذا، كان قد ابتعد وقتذاك عن الاكاديمي الجديدة كما يسمونها وقطع علاقته بمذهب (كارنيادس Carneades)، وسواء في ذلك إستهواه منطق الفة المظاهر والحواس، او دفعه كما يقول بعضهم شعور المنافسة والمعارضة لأتباع (كليتوماخوس وفيلو) وتغيير افكاره واعتناق المذهب الرواقي في معظم شؤون الحياة. على أن (شيشرون) كان اكثر ميلاً الى مباديء الاكاديمي الحديثة وكان يعتنق مذهبها وقد عاهد نفسه على ان ينسحب من مزاوله المحاماة والعمل السياسي ويقضي حياته في هدوء تتبعات فلسفية اذا منيت حياته العامة في الجمهورية بالاخفاق.

لكن بعد ان بلغه نبأ موت (سللا). وبعد أن صح بدنه واشتد عوده بالتمارين الرياضية، وسيطر على نبرات صوته فبات رخيماً يشنف الآذان، منسجماً مع صحته العامة، راح اصداقؤه في روما يلحون برسائلهم ليعود. ولاسيما (انطيوخوس) الذي كان لايفتأ يحثه على العودة الى المعتك السبسي. وهكذا تهيأ ثانية لاستخدام البلاغة التي هي آلة الخطيب، وعبأ كل كفاءته السياسية للعمل، وانشا يثابر على التمارين الخطابية وشدّ الرحال الى اشهر بلغاء عصره. رحل عن آثينا الى آسيا ورودس وناظر من الاساتذة الآسيويين (كزينوكلس Xeno-cles) من (ادراميتيوم Adramyttium) و(مينيپوس Menippus) الكاري (Caria)، وديونيسيوس المغنيزي. وفي (رودس) درس الخطابة على (اپولونيوس) ابن (مولون)، والفلسفة على (پوسيدونيوس Posidonius). وقد قيل لنا ان (اپولونيوس) الذي لم يكن يفقه اللاتينية، طلب من شيشرون ان يخطب باللغة اليونانية فوافق مسروراً، مؤمناً بأنها خير طريقة لتنبهه الى اخطائه. وبعد ان انتهى من الالتقاء تملك العجب السامعين وارحوا يتنافسون على اسبقية مدحه وتقريظه. إلا أن (اپولونيوس) الذي لم يبدر منه اشارة تدل على مأثرة او حماسة اثناء اصغائه اليه، بقي ساكناً ساهماً فترة طويلة بعد نهاية الخطبة دون أن تصدر عنه ملاحظة. وعندما ادرك قلق شيشرون من الموقف بادره قائلاً:

- لك ثنائي واعجابي يا شيشرون، وللبلاد الاغريقية رثائي وموآساتي حيث ان هذه الفنون وتلك الفصاحة وهي الامجاد الوحيدة المتخلفة لها، ستنتقل عن طريقك الى روما.

وعندما قرر (شيشرون) العودة الى معتك السياسة وهو مليء الوطاب بالآمال. فوجيء بنبوّة هبّط بمعنوياته الى حد كبير. فقد استخار آلهة دلفي في الطريق الذي يسلكه لتحقيق اكبر المجد. فكان جواب العرافة البيثية بأن يجعل من جنيّه، لا رأي الناس فيه، دليل حياته. لذلك كانت حياته في روما متسمة بالحدز. وتأخر كثيراً في التقدم الى الوظائف العامة، ولذلك فلّ حظّه من الشهرة في ذلك الحين. لقد عرفته طبقة الجهلة والدهماء في روما باسمي (الاغريقي) و(طالب العلم). لكن لما قرّر أن يطلب الشهرة والمكانة، برغبة ابيه واقربائه، انصرف جاداً الى المحاماة ولم يكن تقدمه الى الصفوف الأولى ونبوّه المحل الأرفع لا بطيئاً ولا رقيقاً، بل سطع نجمه وتألّق فوراً وبز كلّ المحامين الممارسين الى مسافة بعيدة. في الأول كان مثل (ديموستينس) ضعيف الالتقاء على ما روي ولذلك كان شديد الاهتمام بالنصائح والارشاد التي يوجهها اليه (روسكيوس Roscius) الكوميدي، و(ايسوب Aesop) التراجيدي. ورووا عن ايسوب هذا انه كان مرّة يمثّل دور (اتريوس Atreus) على المسرح. وفيما كان يلقي المقطع المتعلق بموضوع الانتقام من (ثياستيس Thyestes) ان هاجت روحه بالدور ونسي نفسه في حماسة تمثيله واهوى بصولجانه على رأس احد الخدم اثناء مروره عبر المسرح، بضربه بلغت من الشدّة انها جندلته ميتاً على خشبة المسرح. كذلك أضّ القاء شيشرون فيما بعد، فقد ساهمت بلاغته بالكثير للوصول بخطبه الى درجة الاقناع. واعتاد السخر بالمتكلمين ذوي الاصوات العالية بقوله انهم يصرخون لانهم لا يعرفون كيف يتكلمون، كالعرج الذين يركبون الخيل لأنهم لا يقوون على السير. ووجد حضور بديهته، والقاه التهكمي المطرز عموماً بظريف الاقوال وبارع الردود، مما يناسب جداً المحامي المترافع، حيث يتجذب السامعين الى درجة كبيرة. على أن افراطه في استخدامها آلم الكثيرين، ولذلك وصف بحبّ المشاكسة وبسوء الطبع.

عين شيشرون (كويستوراً) في زمن القحط وندرة القمح وكانت صقلية مقرّ وظيفته. وفي بادئ الأمر نغم عليه الناس لارغامهم على تصدير قمحهم الى روما. إلا ان الامر تغير بهم بعد ان جربوه وتاكدوا من حرصه وعنايته وعدالته وشفقته. فاحاطوه باكبار واحترام لم يحيطوا بهما اي حاكم سبقه. وصادف ان بعض الشبان الرومان من اسر شريفة، اتهموا بحرف النظام العسكري وبسوء السلوك اثناء الخدمة فاضطلع بمهمة الدفاع عنهم وبرأهم باذلاً أعظم الجهد، مما اورثه ثقة عالية بنفسه، وفسر اعتداده واعتزازه بكلّ الاعمال التي انجزها عند عودته الى روما. وقد وقعت له وهو في الطريق قصة مضحكة طريقة قصها علينا هو بنفسه قال: انه التقى في (كامپانيا) بمواطن كبير المقام كان يعده من اصداقائه. فسأله عن رأي الرومان في

مجهوداته، وما هي اقوالهم عنه، كأن المدينة لا شغل لها إلا مناقلة اخباره والمداولة في انجازاته. فسأله ذلك الصديق بدوره.

- وفي اي بلد كنت يا شيشرون؟

هذا الجواب حطم معنوياته العالية واصابه بالخيبة التامة حيناً من الزمن وبه فتح عينيه على الحقيقة المرة، وهي ان انباء اعماله غرقت في خضم مدينة روما كأنها غاصت في لجة بحر دون ان تخلف أثراً ايجابياً يذكر في شهرته. وتبين لنفسه فيما بعد، ان المجد الذي يسعى اليه هو شيء غير محدود، لا نهاية في اطلاقه ولا مدى. وبذلك خفف كثيراً من غلواء طموحه. إلا انه ظلّ دوماً يسرّ وينبسط حين يسمع ثناءً او مديحاً لشخصه وبقي الى الاخير مغرماً بالمجد والسؤدد، هذا العقبة كثيراً ما وقفت في سبيل متابعتة لأحكام قراراته وابعدها نظراً.

وعندما ابتدأ يعالج الشؤون العامة بجدٍ وجد من السخف والغباء ان يعرف الحرفيون اسماء ومواضع وفائدة الأواني والادوات التي يستخدمونها في حرفهم في حين يهمل رجال السياسة معرفة الناس والاشخاص، وهم ادواتهم التي يصرفون بهما الشؤون العامة. ولذلك سعى الى تلافي هذا النقص ولم تعد معرفته بالناس قاصرة على الاسماء بل تعدتها الى الامكنة التي يعيش فيها كل شخص بارز من المواطنين، وماذا يملك من عقار، ومن هم الاصدقاء الذين يعتمد عليهم، ومن هم جيرانه. فعدا قادراً - عند سلوكه سبيل في ايطاليا - على تسمية عقار ومقرات اصدقائه ومعارفه والاشارة الى مواقعها. وكان يملك ضيعة صغيرة جداً تدر عليه ما يكفي لسدّ خلته وتغطيته نفقاته فحسب، ولهذا كان غريباً منه أن يأبى تقاضي اجورٍ او قبول هدايا من موكلية. وكذا فعل حين قام بالادعاء ضدّ (فيريس Veres). وكان هذا (پريتورا) في صقلية فاتهمه الصقليون بكثير من الاعمال الاجرامية اثناء وجوده ثم. ونجح (شيشرون) في ادانته لا بكلامه، بل بامتناعه عن الكلام إن جاز لنا القول ذلك ان الپريتورين الذين كانوا يساندون (فيريس) ويمائلونه دفعوا بالحاكمة الى الخلف بعدة تأجيلات الى ان حلّ اليوم الذي ما عاد يوجد بعد وقتٍ كافٍ لسماع دفاع المحامين. فتقدم (شيشرون) ليقول انه لا حاجة ثم يدعو الى القاء الخطب، فاستمع الى الشهود وعرضت الادلة وبادر يطلب من القضاة اصدار الحكم. ومع هذا فقد سجلت لشيشرون عدة عبارات طريفة لبقة بالمناسبة. كان ثم شخص يدعى (كيجيليلوس Caeciluis) وهو عبد معتوق، قيل أنه يمارس الطقوس اليهودية، لم يدخله الصقليون في عداد المدعين، فاضطلع هو بنفسه الادعاء ضدّ (فيريس)، وهنا تساءل شيشرون.

- ما علاقة اليهودي بـ«الخنزير؟» (بالرومانية: كلمة Verres تعني الخنزير البري).

ولما بدأ (فيريس) يعيب على شيشرون حياة الخنوثة التي يحيها ردّ عليه بقوله:  
- عليك ان تستخدم هذه اللغة في البيت مع اولادك! (وكان لفيريس ابن سلك سبيل الغواية فساعات سمعته)

لم يجرأ (هورتنسيوس) الخطيب على القيام بمهمة الدفاع عن (فيريس) مباشرة، إلا أنه اقنع بالحضور عنه عند فرض الغرامة عليه، وأهدي لقاء ذلك، مثلاً عاجياً لأبي الهول. فعندما عرض به شيشرون في احدى فقرات خطبه بصورة غامضة ملتوية وعقب (هورتنسيوس) قائلاً انه ليس بارعاً في حلّ الالغاز و الأحاجي بادره شيشرون بالقول:

- كلاً لست بارعاً مع أن في بيتك ابا الهول!

وصدر الحكم على (فيريس). ولان (شيشرون) حدد مبلغ الغرامة بسبعمائة وخمسين ألفاً. فقد اكتنفته الريب وشك في انه قبل رشوةً لتخفيض مبلغ الغرامة. إلا ان الصقليين تدليلاً على امتنانهم واعترافهم بجميله قصده بكل ما يخطر بالبال من الهدايا وهو في منصب (ايديل) فلم يقبل لنفسه شيئاً وانما استغلّ كرمهم هذا لتخفيض السعر الرسمي لمواد المعيشة.

وكان يملك مريعاً في غاية الجمال في (آربي Arpi) كذلك كان يملك مزرعة بالقرب من نابولي واخرى قريبة من (پومبي) وليس منهما ما ارتفعت قيمته. وبلغ صدق زوجه (ترنتيا Terentia) مائة الف. وكانت حصته من الميراث تسعين ألفاً، وبهذا كان يعيش عيشة طيبة، الا انها ليست باذخة، بصحبة علماء الاغريق والرومان الذين يلازمونه وندر بل لم يجلس قطّ للعشاء قبل غروب الشمس. ولم يكن ذلك بسبب اعماله ومشاغله بقدر ما كان ذلك بسبب ضعف بنيته ومعدته. وكان من نواحٍ أخرى يهتم بجسده لذلك خصص مواعيد معينة للعناية به بالتدليك والسير على القدم. فبنى تكويناً قوياً صحيحاً في انسب وقت، قادراً على تحمل كثير من المشاق والتعب. ووهب اخاه دار ابيه وسكن هو نفسه في المرتفع البالاتيني حتى لا يتعب قصّاده وزواره بالسير الطويل. ولم يكن عدد قاصديه وزائريه للسلام عليه وتقديم فروض الاكرام له باقل من قصاد (كراسوس) لاجل غناه او (پومبي) لما يتمتع به من مكانة ونفوذ بين الجنود. كان هذان اشهر واقوى رجلين في روما اذذاك. وقد عملت مجهودات (شيشرون) السياسية، الشيء الكثير لتوطيد سلطان (پومبي) ومكانته في الدولة.

تقدم عدد كبير من المرشحين معه الى منصب (الپريتور)، فسبقهم اليه وتولى الفصل في القضايا بعدل ونزاهة. وقد روي ان (ليچينيوس ماچر Licinius Macer) صاحب النفوذ الكبير في المدينة واحد اعوان (كراسوس). اتهم امامه بقضية ابتزاز وكان واثقاً من تأثير



نفوذه الشخصي ومن مساعي اصدقائه الفعالة. وبينما كان القضاة يتداولون في الحكم، ذهب (ليچينيوس) الى بيته فقصَّ شعره وليس رداً نظيفاً، كما يفعل الوثائق من البراءة، ثم انطلق الى الفورم، وفيما هو في طريقه التقى (بكراسوس) عند باب القاعة، فأخبره هذا أن الحكم قد صدر بادانته بالاجماع. فرجع الى منزله واستقل على فراشه واسلم الروح. اعتبر هذا الحكم تشريفاً لشييشرون اذا أظهر فيه دقة ادارته للقضاء والمحاكم

و ثم حادثة اخرى تتعلق بالمدعو (فاتينيوس Vatinus) وهو رجل غليظ الطبع تغلب عليه الوقاحة ولا يتورع عن شتم القضاة واهانتهم. وكان يشكو اوراماً في رقبته حين تقدم من مجلس قضاء (شييشرون) بمطلب فاستمهلهم (شييشرون) للنظر فيه فعقب فاتينيوس قائلاً:

- لو كنت انا نفسي پريتوراً لفرغت الآن من البت فيه دون حاجة الى مهلة.

فاستدار اليه (شييشرون) بسرعه واجاب:

- لكنك ترى اني لاملك رقبة مثل رقبته.

ولما بقي من فترة وظيفته يومان او ثلاثة، اقتيد (مانيليوس Manilius) امامه متهماً في قضية اختلاس. وكان المتهم يتمتع لدى الشعب بمكانة، ورأيهم فيه حسن وكان الرأي الشائع انه ما اتهم بهذا، الا بسبب (پومپي) التي تربطه به صداقة وثيقة. فطلب مهلة امداً قبل المرافعة فلم يسمح له شييشرون باكثر من يوم واحد اعني اليوم التالي فحسب فثارت خواطر الدهماء وسخطوا اذ جرت العادة انه يسمح (الپريتورون) للمتهمين بعشرة ايام على الاقل فاستدعى تريبونو الشعب (شييشرون) ليمثل امام عامة الشعب متهماً بخرق هذا العرف القضائي. فطلب الكلام وقال: انه ظل دائماً يعامل المتهمين معاملة انسانية وبالمساواة بقدر ما يسمح به القانون لذلك وجد من الصعب عليه ان يحرم (مانيليوس) من حقه هذا وقد اضطر اضطراراً الى تعيين هذا اليوم لانه الوحيد الذي بقي له من فترة حكمه. وانه ليس من مصلحة اولئك الذين يرغبون في مساعدة (مانيليوس) ان يدفعوا بقضيته الى پريتور آخر ليصدر فيها حكماً. فحدث باقواله هذه انقلاباً عجيماً في افكار الجمهور واتوا عليه كثيراً. ورغبوا منه أن يضطلع شخصياً بمهمة الدفاع عن (مانيليوس) فقبل ذلك بطيبة خاطر، واکراما لپومپي بالدرجة الاولى، وكان هذا غائباً. وهكذا عاد يتخذ مكانه عند الشعب. والقي دفاعاً يتضمن طعناً صريحاً بالحزب (الاوليغارشي) وباولئك الذين يحسدون (پومپي) وينقمون عليه.

وكان تفضيله الوصول الى المنصب القنصلي عن طريق طبقة الاشراف، لا يقل عن تفضيله ذلك عن طريق العامة لخير البلاد ومصحتها. ولهذا نجد الجانين يتحدان للسعي له بالمنصب للاسباب التالية:

انه الانقلاب الذي احده (سُلا) في نظام الحكم كان يبدو في عهده، نظاماً أخرق لاطعم له. وبمرور الزمن وبالاكتياد عليه اصبح في نظر الشعب نوعاً من الاستقرار المقبول. الا أن بعضهم حاول احداث تغيير شامل في الوضع السياسي من القاعدة الى القمة يحدوهم في هذا منافع خاصة، لا دوافع عامة نبيلة. وكان (پومپي) في تلك الفترة منشغلاً بحروبه مع ملكي الپونطس والامن ولذلك لم تعد القوات المرابطة في روما بكافية لقمع اية محاولة للثورة. كان يتزعم هؤلاء الانقلابيين رجل جرئ متهور منقلب الاهواء يدعى (لوچيوس كاتيلينه Lucius Catiline) بارتكابه جنایات كثيرة، منها افتضاضه بكارة بنته، وقتله اخاه وبسبب خوفه من تبعات جريمته الاخيرة واتخاذ الاجراءات القانونية بحقه، اقنع (سُلا) بان يضع اسم اخيه القتل في قائمة الذين سينفذ فيهم حكم الموت بسبب اهدار حقوقهم المدينة كأنه مازال بعد حياً. اختارت حثالة المجتمع ومتهتكوه هذا الرجل زعيماً. وتعاهدوا فيما بينهم بمختلف الاقسام المغلظة. منها انهم ضحوا برجل واكلوا لحمه. وعمد هذا المتآمر الى افساد عدد كبير من شبان المدينة بتيسير سبل الغواية لهم من شراب ونساء، وكان ينفق على فجوهرهم بسخاء وبدون حساب. أضف الى هذا أن مقاطعة (إتروريا Etruria) كانت قد حرضت الى حد اعلان الثورة. كذلك كانت الحال في بلاد الغال الجنوبية والالپية على ان روما نفسها كانت تعيش تحت خطر انقلاب حكومي عنيف بسبب التفاوت في توزيع الثروة والاراضي. فالطبقة العليا التي كان افرادها يمتازون باطيب الخلق املقت لاسرافها وانفاتها المتواصل على الحفلات العامة والاستعراضات الشعبية، ولطموحها الى المناصب الرفيعة وبنائها الصروح الفخمة. حتى تركزت ثروات المدنية في ايدي اناس منحطين خلقاً، وضيعين منبتاً. لذلك لم يكن يحتاج الى اكثر من فتيل صغير لتحقيق الانفجار العام وكان في مقدور اي انسان جريء اسقاط جمهورية مريضة واهنة.

وعلى اية حال كان (كاتيلينه) بحاجة الى منصب عظيم النفوذ لدعم خطته وتنفيذها فتقدم مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي وكان عظيم الامل بالفوز، مؤملاً أن يكون زميله في المنصب (كايوس انطونيوس Cais Antonius) وهو رجل لا يحل ولا يربط ولا يمكن الركون اليه لا في قضية حسنة ولا في قضية سيئة. الا أنه يصلح مراقبة لاغنى عنها للسلطة وكانت الاغلبية الساحقة من خيار المواطنين توجس خيفة من هذا، لذلك كلفت (شييشرون) بالتقدم الى المنصب القنصلي واسرع عامة الشعب يؤيدون هذا الترشيح، فخرس (كاتيلينه) وانتخب (شييشرون) و(كايوس انطونيوس) وكان شييشرون الوحيد بين المرشحين الذي لم ينحدر من اب حائز الدرجة الكويستورية، او من طبقة الشيوخ.

ومع ان خطط (كاتيلينه) لم تنكشف بعد للناس، إلا انه وقعت اضطرابات كبيرة فورتولي (شيشرون) مهام منصبه فقد كان من جهة اولئك الذين جردتهم قوانين (سيللا) من حق الاشتغال في الوظائف العامة، وهؤلاء لم يكونوا ليشاركوا ضعفاً في قوتهم، ولاقلة في عددهم، وقد تقدموا من الشعب مرشحين لمختلف الوظائف وراحوا يغالونه ويتقربون منه استجاباً لعطفه ويتحدثون اليه بالواقعي الحقيقي عن طغيان (سيللا) واستبداده. مختارين وقتاً غير مناسب لاشاعة البلبله والاضطراب في اصول الحكم. ومن جهة ثانية كان تقديم تريبوني الشعب مقترحات قوانين تؤيد هذا المنحى وتاليفهم لجنة من عشرة اشخاص زودوا بصلاحيات غير محدودة يمارسونها بوصفهم محكمة عليا، مخولين بموجبها حق بيع الاراضي الاميرية في كل من ايطاليا وسوريا والبلدان التي فتحها (پومبي). وحق محاكمة ونفي من شاءوا محاكمته او ابعاده. وحق تأسيس المستوطنات، وسحب الاموال من الخزانة العامة وجباية ودفع ما يراى الجنود ضرورياً. واعلن عدد من الاشراف مساندة لهم لهذا القانون وفي مقدمتهم (كاپوس انطونيوس) القنصل زميل (شيشرون) الذي كان يأمل أن يختار عضواً في اللجنة العشرية. على أن خوف طبقة الاشراف الاعظم منه هو اعتقادهم بانه شريك في موامرة (كاتيلينه) وانه يناصرها بسبب الديون الثقيلة التي يزرع تحتها.

في مبدء الأمر حاول (شيشرون) ايجاد علاج ناجح لهذا الخطر المتفاقم. فاستصدر مرسوماً يقضي باناطة حكم اقليم مقدونيا بزميله، ورفض في الوقت عينه حاكمة بلاد الغال التي عرضت عليه فنال بهذا الفضل ثقة زميله واصبح له اطوع من البنان وبدا مستعداً لنصرته ومساندته في كل ما يعمل لمصلحة البلاد مثل اللأعب المأجور. ويترييض زميله هكذا صار يوسع تحدي المتآمريين بكثير من الجرأة. وتقدم الى المنصة الفلقي في مجلس الشيوخ خطاباً ضد قانون «المفوضين السامين العشرة». وكم أفواه من اقترحه. وأجمعهم فلم يجدوا ما يردون به على حججه. وكرروا محاولتهم لسبق تدبير، فدعوا القنصلين للمثول امام الجمعية العامة. ولم يكن (شيشرون) خائفاً من شيء فخرج الى الجمعية اولاً وطلب من اعضاء مجلس الشيوخ ان يتبعوه. ولم يقتصر نجاحه على ابطال الاقتراح، بل حقق بالخطاب الذي القاه نصراً ساحقاً على التريبونيين حتى نبذوا كل فكرة حول تحقيق مشاريعهم الأخرى.

ولا جدال في ان (شيشرون) كان الرجل الأوحده الذي ارتفع على الكل، وجعل الرومان يشعرون بعظمة ما يعد فيه سحر البلاغة على العمل الصالح. ومقدار مناعة العدالة عندما تجد لها اللسان الجيد المعبر. وما هو ضروري لمن يتوخى الدقة في سياسة الجمهورية، أن يقدم في عمله النزيه المستقيم، على ما هو اقرب الى هوى الشعب. وأن يفضل في كلامه

استخلاص الصالح المفيد من كل ما قد ينجم عنه ظلم وتعد، وقد وقعت حادثة اثنا قنصليته يمكن ان تقوم برهاناً على مدى تأثير الكلام ومفعوله، كان فرسان روما في الماضي يمتزجون بعامة الشعب في المراسح ويختارون مقاعدهم بين صفوفهم كيفما اتفق لهم، وكان (ماركوس اوتو) اول من ميزهم عن المواطنين في عهد پريتوريتيه. فخصص لهم جناحاً مناسباً اصبحوا يشغلونه بوصفه موضعاً خاصاً لهم في المرسح. أحدث هذا التصرف استياء عند العامة، وأشعرهم بالإهانة. وعندما ظهر (اوتو) في المرسح راحوا يهسهسون له ازداراً، اما الفرسان فاستقبلوه بالتصفيق. وكررت العامة هسيسها وتمادت فيه، وواصل الفرسان التصفيق، ثم استدار هذا الفريق على ذلك واخذ يتبادلان الشتائم والكلمات المقذعة، فعمت الفوضى المرسح وأعلم (شيشرون) بالأمر فخفف مسرعاً ودعا الشعب الى الاجتماع في هيكل (بللونا Bello-na) وطفق يشتم في تعنيفهم وتأييهم، وما لبثوا ان عادوا الى المرسح ليستقبلوا (اوتو) بهتاف عظيم نافسوا فيه الفرسان وتباروا معهم على اظهار اكثر التعظيم والاحترام له.

في مبدء الأمر روع المتآمرون الكاتيليون وثبطت بهم الههم لكن سرعان ما دبّت الشجاعة في اوصالهم فلموا شعثهم وعبأوا قواهم واخذ بعضهم يشدد عزائم بعض في وضع النهار لتنفيذ المخطط قبل عودة (پومبي) الذي قيل انه يتجه الآن الى روما على رأس قواته. وكان جنود (سللا) القدياء عمود الحركة الفقري، واداتها الرئيسة في يد (كاتيلينه). كان قد تمّ تسريحهم جميعاً اينما كانوا في ايطاليا. إلا ان القسم الاكبر منهم وهو الاكثر شراسة كان منتشرراً بين مدن (اتروريا) تراودهم احلام سلب ونهب جديدة لثروات ايطاليا المكنوزة. وكان يتزعمهم (مانليوس Manlius) الذي أبلى بلاءً حسناً في الحروب تحت امرة (سللا) فاصبح لذلك من المشاهير وانضم هذا الى كاتيلين وجاء الى روما لمساعدته باصوات الجنود اثناء الانتخابات ذلك ان كاتيلين اقدم للمرة الثانية على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي واعتزم قتل (شيشرون) عندما يحى ويطيس الانتخاب. ويبدو ايضاً ان القوى الالهية اطلقت النذر عن الاحداث الاتية، فأرسلت زلازل وصواعق، وظهرت علامات غريبة، ولم تكن الدلائل البشرية بل كانت كافية جالبة القناعة على انها لم تبلغ حداً يمكن معه اداته (كاتيلينه) ذي الحول والطول، والمنتمي الى طبقة الاشراف. ولهذا ارجأ (شيشرون) موعد الانتخاب، واستدعى (كاتيلينه) الى مجلس الشيوخ واستجوبه حول التهم المنسوبة اليه، وكان هذا يعتقد أن عدداً كبيراً من الشيوخ يوافقونه على رغبته في التغيير. واراد أن يقدم لسائر التأمريين نموذجاً لاتجاهاته وطبيعته فرد على سؤال شيشرون بجواب صلف اذ قال:

- اي ضرر هناك، حين ارى جسمين اولهما هزيل سقيم يعلوه رأس وثانيهما شديد قوي لكن

بدون رأس، فاقوم انا بوضع رأس لهذا الجسم المحتاج الى رأس بعد قطعه من الجسم الأول؟

هذا الايضاح ذو الدلالة الكافية الذي القي في مجلس الشيوخ اثار المزيد من المخاوف في نفس شيشرون. فليس درعاً. وما عاد يخرج من منزله الا وهو برفقة جمع من المواطنين الشرفاء، وقصد «السهل» مع جماعة من الشبان للاجتماع - وبحركة مقصودة منه ترك رداءه ينحسر قليلاً عن كتفيه ليبين الدرع من تحته منبها الحاضرين الى الخطر الذي يتهدده. فهاج هائجهم واحاطوا به لحمايته. وفشل (كاتيلينه) في الانتخابات العامة ثانية وانتخب سيلانوس Silanus ومورينا Murina للمنصب القنصلي وبعد فترة قصيرة، تجمع الجنود المواليون لكاتيلينه في (اتروريا) وبدأوا يشكلون الوحدات والسرايا، ذلك لاقترب اليوم الذي حُدّد لتنفيذ المؤامرة. وفي حدود منتصف الليل قصد منزل (شيشرون) بعض كبار الشخصيات الرومانية وذوى النفوذ فيها من امثال (ماركوس كراسوس، وماركوس مارچيلوس، وسكيبيو ميتيللوس) فطرقوا بابه ونادوا بالبواب لايقاظه واعلامه بحضورهم. وكان الدافع الذي حملهم الى المجيء هو ان بواب دار (كراسوس) جلب لسيدته بعد العشاء عدة رسائل حملها له شخص مجهول، بعض هذه الرسائل موجه الى اشخاص آخرين غير كراسوس الا ان فيها رسالة مغلقة عن التوقيع موجهة الى كراسوس نفسه وقد علم كراسوس من فحوى هذه الرسالة ان كاتبها ينيه بأن (كاتيلينه) يدبر مذبحة عظيمة وينصحه بمغادرة المدينة ولم يفصّ كراسوس الرسائل الأخرى وانما جاء بها الى (شيشرون) متخوفاً من الخطر الجاثم، وقاصداً تبديد الشك الذي يحوم حوله بسبب صداقته (لكاتيلينه). ففكر شيشرون في الأمر ملياً، ودعا المجلس في صباح اليوم الباكر للاجتماع، ودخل القاعة حاملاً تلك الرسائل ووزعها على من ارسلت اليهم طالباً منهم قراءتها علناً. وكانت كلها تروى التفاصيل عن المؤامرة. ونهض (كوينتوس اربوس Quintus Arrius) وهو بمنصب (پريتور) وادلى بتفاصيل عن تجمع الجنود في اتروريا وانتظامها في وحدات وسرايا. وقال ان (مانليوس) يتحرك بقوة كبيرة من الجنود ما بين تلك المدن منتظراً الانباء من روما فاصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بوضع السلطة كلها في يد القنصلين وبأن يأخذوا على عاتقهما ادارة دفة الأمور جميعها وطلب منها أن يبذلا كل مجهوداتها لاتقاذ الدولة. لم يكن هذا التحويل بالشيء العادي، والمجلس لا يقدم على هذه الخطوة عادة الا عندما يحدق الخطر بالحكومة.

بعد ان تزود شيشرون بهذه السلطة حول (كوينتوس ميتيلليوس) كل الصلاحيات المطلقة فيما يتعلق بالخارج واحتفظ لنفسه بالصلاحيات ضمن مدينة روما وكبر حجم الجمع الذي كان

يقوم على حراسته يوميا عند تركه داره حتى أن الجزء الاكبر من الساحة العامة كان يغصّ به عند وصوله. ونفذ صبر (كاتيلينه)، وادركه النفور من تأخير وارجاء آخر وقرر أن يهتك حجاب السرية والكتمان بالذهاب الى (مانليوس). وأمر (مارچيوس) و(كثيغوس) بالخروج مسلحين بالسيف الى منزل (شيشرون) في صباح اليوم الباكر كأنهما جاءا للسلام عليه فينقضا عليه ويذبحا. وجاءت تلك السيدة النبيلة (فوليا Fulvia) الى (شيشرون) ليلاً لتكشف له الأمر وتطلب منه ان يحاذر (مارچيوس وكثيغوس). على انهما اقبلا في اول الصباح فلم يسمح لهما بالدخول فاخذا يصيحان ويخبطان واحداثا ضجة امام الباب مما اثار مزيداً من الشك. وخرج شيشرون ودعا المجلس الى اجتماع طاريء في هيكل (چوبتر ستاتور) الذي يقع في نهاية الشارع المقدس وانت قاصد (الپالاتين) واقبل (كاتيلينه) والآخرين، كانما يريد القاء دفاع عن نفسه فلم يعره احد التفاتاً وعاف الشيوخ الجلوس بالقرب منه وتركوا مقاعدهم القريبة من المقعد الذي اختاره. ولما بدأ في الكلام قاطعوه بالصراخ. واخيراً نهض شيشرون وطلب منه مغادرة المدينة، فمادام واحد يحكم الجمهورية بالكلام والآخر يحكمها بالسلاح فالضرورة تقضي باقامة جدار فيما بينهما. واسرع (كاتيلينه) بالخروج من روما بثلاثمائة مسلح متخذاً لنفسه شعار الحكم: الفأس والعصي، والشعار العسكري - والتحق بمانليوس وهناك اجتمع حولهم عشرون الفاً فزحفا بهم الى عدد من المدن ومحاولين اقناع اهاليها بالثورة أو ارغامهم عليها. وهكذا انقلب الأمر الى حرب صريحة، فأرسل (انطونيوس) لقتاله.

كان الانصار الذين بقوا في المدينة بقيادة (كورنيليوس لنتولوس) الذي يلقب بـ(سورا Swra) وهو شريف الاصل الا انه فاسق منحط يعيش لملاذاته فحسب، طرد من مجلس الشيوخ لخلاعه. وهو الآن في منصب الپريتور للمرة الثانية. الأمر الذي يقضي به العرف على كل من يرغب في استعادته عضويته في مجلس الشيوخ. ولقب (سورا) لصق به على ما قيل في المناسبة التالية: كان كويستوراً في ايام (سللا) فبدد واختلس مبالغ كبيرة من اموال الدولة، فاخذت (سللا) سورة من الغضب واستدعاها طالبا منه تقديم الحساب امام مجلس الشيوخ، فمثل امامهم واجاب ببرود عظيم ويعدم اکتراث ان ليس لديه حساب يقدمه لهم، لكن لهم «أن يأخذوا هذه» وامسك بريلة سامة كما يفعل الصبيان عندما يخطئ احدهم هدفه في لعبة الكرة. فلصق به اسم (سورا) وهي كلمة رومانية تطلق على عضلة الساق. وحوكم مرة بتهمة رشوة بعض القضاة وبريء باكثرية صوتين لا غير فراح يشكو تبديده المال بدون جدوى، حيث انه دفع لقاضيين في حين ان قاضياً واحداً كان يكفي لتبرئته. تلك هي اخلاق

الرجل الذي وقع الآن تحت تأثير (كاتيلينه) وتضليل النبؤات الكاذبة وعرافة قراء البخت الذين ملأوا بالآمال الكاذبة مقتبسين له ابيات شعر زائفة ونبوءات لاسند لها، حتى بلغ الأمر بهم ان راخوا يدعمون اقوالهم بالنبؤة الواردة في كتب «السيبيل» القائلة بوجود ثلاثة باسم (كورنيلوس) حكمت الاقدار بأن يتولوا الملك على روما، صدقت النبؤة في اثنين منهم وهما (جناً وسللاً) وان الخطأ الالهي يتقدم الآن بالهدية الملكية لثالثهم وهو (كورنيلوس لنتولوس)، فعليه والحالة هذه ان يقبل التاج مهما كلفه الأمر وان لا يضيع الفرصة بالتأخير كما فعل (كاتيلينه). ولذلك كانت خطة (لنتولوس) عظيمة الخطر فقد قرر القضاء بحد السيف على كل اعضاء مجلس الشيوخ وكل من وقف في سبيله من المواطنين الآخرين وان يشعل النار في المدينة، ولا يستثنى احد من المذبحة، خلا اولاد (پوميبي) فقد اعتزم القاء القبض عليهم وابقاءهم رهائن لضمان الاتفاق مع ابيهم، حيث انتشرت اشاعة قوية مؤداها ان هذا القائد هو الآن في طريقه الى الوطن عائداً من حملته العسكرية الكبرى. كانت الليلة المتفق عليها للتنفيذ هي «ليلة زحل Saturnalia» وجيء بالسيوف والكتان والكبريت واخفيت في دار (كثيگوس) وهي مائه رجل، وقسمت المدينة الى عدة قطاعات وحدد لكل رجل قطاعه المناسب كي يشعلوا النار دفعة واحدة عند اعطاء الاشارة، فنشب الحرائق في وقت واحد وتسمي المدينة وهي كتلة من نار. وعين آخرون لوقف جريان الماء في القنوات وقتل كل من يحاول نقل الماء منها لاطفاء الحرائق. وفيما كانت هذه الخطط في دور الاعداد. اتفق ان كان في روما وقتئذ سفيران من (اللوبروغيسيين Allobroges) وهو شعب كان انذاك تحت الحكم الروماني في حالة يرثى لها من البؤس وعدم الاستقرار. فكر (لنتولوس) وانصاره أن يستفيدوا من هذين السفيرين لحث الغاليين وتحريضهم على التمرد، ودفعوا اليهما برسائل لحملها الى حكاهما ورسائل أخرى لنقلها الى (كاتيلينه) تعهدوا للغاليين في رسائلهم الأولى باعطائهم الحرية، وفي الرسائل الثانية طلبوا من (كاتيلينه) اصدار امرٍ بتحرير العبيد قاطبة الزحف بهم الى روما. وارفقوا بالمسيرين المذكورين (تبطس) (الكروتوني Croton) للوصول بهما الى (كاتيلينه) ودفعوا اليه برسائل أخرى له. كل هذه المداولات التي اجراها اناس متهورون في مجالس شرابٍ ونساءٍ وصلت الى علم (شيشرون) الذي كان يراقب الأمور بدأب متزن وروية وباعظم الذكاء والحكمة اذ كان يعتمد على عدد من الوكلاء في الخارج يرصدون كل حركة ويعقبون كل ما يجري كما كانوا على اتصال تام بالكثيرين الذين تظاهروا بالاشتراك بالمؤامرة. لذلك كان على علمٍ بكل الحديث الذي جرى بينهم وبين الاجنبيين فدبر لهم كميناً ليلاً وقبض على الرسول الكروتوني ومعه الرسائل، وكان السفيران الغاليان على اتصالٍ سري بشيشرون يعملان معه بالاتفاق.

في صبيحة اليوم التالي دعا شيشرون المجلس للانعقاد في هيكل (الكونكورد) وهناك قرأ الرسائل واستجوب المخبرين وزاد (يونيسوس سيلانوس Junius Silanus) قائلاً ان عدة اشخاص سمعوا (كثيگوس) يعد بقتل ثلاثة قناصل واربعة پريتورين وعقبه (پيزو) وهو قنصل سابق ليشهد بعدة امورٍ من هذا النوع. فأرسل (كايوس سولپييموس Caius Sulpicius) احد الپريتورين الى منزل (كثيگوس) لاجراء التفتيش فعثر فيه على كمية من الحراب والدروع ومقدار من السيوف والخناجر شحذت نصالها مؤخراً. واخيراً قرر المجلس العفو عن الكروتوني لادلائه باعتراف كامل. وادين (لنتولوس) وعزل من منصب الپريتور الذي كان يشغله، فخلع ثوبه الموش بالارجوان في المجلس وارتنى ثوباً آخر اكثر لياقة بظرفه الحالي، وعهد به وبشركائه الحاضرين الى الپريتورين لوضعهم تحت الحجز القضائي الحر.

واقبل الليل وكانت جموع العامة في الخارج تنتظر، فخرج اليهم (شيشرون) واخبرهم بما تم، ثم ذهب الى منزل صديق وجارٍ له ملاصق، بحراسة الجمهور، لأن داره كانت مشغولة بالنساء بسبب قيامهن بالطقوس الدينية السرية والعبادة للالهة التي يسميها الرومان (الصالحة)، والاغريق (المراة الربة)، فتقدم اليها القرابين سنوياً في دار القنصل، بوساطة أمه او زوجه وبحضور العذارى القستالات.

دخل (شيشرون) منزل صديقه سراً وجلس وراح يقلب وجهات النظر في كيفية معاملة هؤلاء الرجال. كان متردداً خائفاً بعض الشيء من انزال العقوبة الرادعة الوحيدة بمرتكبي تلك الجرائم الشنعاء. فضلاً عن ما طبع عليه من رحمة، وخشية الظن بانه صارم في ممارسة سلطته، قاسٍ في معاملة اناس هم من اشرف الناس مييناً واقواهم علاقات في المدينة. ولو أنه عاملهم برفقٍ ولين لعرض نفسه الى خطر كبير في المستقبل. فلو حكم عليهم بما هو اخف من عقوبة الموت لاضطغوا عليه وما غفروا ولا سامحوا، بل سيزيد على خبثهم سعاراً من الحقد جديداً، وسيندفعون الى ارتكاب كل جريمة متصورة. في حين سيظن بأنه وصل الى احط درجات الجبن وانه فقد رجولته - ولم تكن العامة ترتفع بشجاعته الى مستوى عالٍ اذ لم يشتهر بها عندهم. وفيما كان شيشرون يضرب اخماساً باسناد حول السبيل الاقوام الذي يسلكه. حصلت معجزة للنسوة اثناء تقديمهن القران. فمن المذبح حيث بدت النار وكأنها خامدة تماماً، خرج لهب ساطع شديد من رماد الخشب المحترق. فساد الرعب النسوة، الا ان القستالات نادين (ترنتيا) زوج شيشرون وطلبن منها ان تسرع الى زوجها وتطلب منه تنفيذ ما استقر عليه رايه لمصلحة بلاده. لأن الإلاهة ارسلت نوراً عظيماً لتزيد من سلامته وعزته، فأسرعت (ترنتيا) اليه، ولم تكن مطبوعها رقيقة القلب ولا بالجزوع وانما امرأة جميعة الفراد (تفضل ان تحشر

نفسها في شؤون زوجها العامة على مسارته بامورها العائلية، كما يقول عنها شيشرون نفسه، وانبأته بالمعجزة وراحت تحرضه على المتآمرين، وايدها في ذلك شقيقه (كونيتوس)، و(پوبليوس نيگيديوس Publius Nigidius) احد اصدقائه المتفلسفين الذي شيشرون كان يعتمد كثيراً على ارائه في اهم امور الدولة واطورها.

في اليوم التالي ثارت المناقشة في المجلس حول العقوبة التي ينبغي انزالها بهؤلاء. وكان (سيلانوس) اول من ادلى برأيه فرأى ان يرسلوا الى السجن جميعاً حيث تطبق عليهم اشد عقوبة وافق معه كل من عقبه حتى حان دور (كايوس قيصر) الذي اصبح فيما بعد دكتاتوراً. وكان وقتذاك شاباً في مطلع حياته السياسية، إلا انه كان قد اختط لنفسه منذ البداية اهدافاً تمكنه من تغيير الدولة الرومانية وقلبها الى ملكية. ولم يكن هذا واضحاً لأعين الآخرين في حينه، إلا ان شيشرون وجد اسباباً تدعو الى الشك القوي في نيته دون ان تتوفر له الادلة الكافية. في الواقع هناك بعض من يقول ان أمره افتضح وكان هلاكه على قارب قوسين. ويرى آخرون ان شيشرون تعمد التغاضي عن الأدلة المتضاربة عليه خوفاً من اصدقائه ومن نفوذه المتعاطم اذ كان واضحاً لكل امرء أن قيصر لواتهم مع المتآمرين لكان احتمال نجاتهم معه اكثر من احتمال عقابه.

عندما حان دور (قيصر) للدلاء برأيه نهض واقترح بأن يعدل المجلس عن فكرة الحكم عليهم بالموت، ووافق على مصادرة املاكهم واحتجازهم في مدن بايطاليا يعينها شيشرون، يبقون فيها حتى يتم اللقاء القبض على (كاتيلينه). وبما ان هذا الحكم كان أخف الأحكام المقترحة ولأن مقترحه كان اقوى الخطباء فقد انزله شيشرون منزلة من الاهتمام ليست بالقليلة، فنهض ورجح كفة الميزان الأخرى بانحيازه الى جانب الاقتراح لأول مرة، والى جانب اقتراح قيصر مرة أخرى. وقد وجد اصدقاء شيشرون في انتقال شيشرون بين الاقتراحين امراً حسناً لأنه سينال اقل اللوم ان لم يقض على المتآمرين بالموت. ولذلك لم يختاروا حكم الموت وما لبث (سيلانوس) ان عدل عن رأيه وسحب اقتراحه قائلاً انه لم يقصد الحكم بالموت بل قصد اقصى العقوبة. وهي الحبس للشيوخ الروماني وكان (كاتالوس لوطاطيوس Catalus Lutatius) اول المتكلمين بشجب اقتراح قيصر وعقبه (كاتو) وشار بحماسة شديدة الى الشك القوي الذي يحوم حول (قيصر) نفسه وملاً الشيوخ غيظاً وعزماً فصوتوا بالاغلبية على مرسوم يقضي بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين. إلا ان قيصر عاد الآن يعارض في قرار المصادرة، وقال انه لا يرى من العدالة في شيء، أن يفيد من اقصى الحكم اولئك الذين اخف جزء مما اقترحه هو عن حكم. وعندما عارضه الكثيرون استنجد بالتريبونين فاسقط في يد هؤلاء أيضاً. الى ان رضخ شيشرون ووافق فالغي هذا الجزء من العقوبة.

بعد هذا خرج شيشرون مع اعضاء المجلس لمواجهة المتآمرين ولم يكونوا في موضع واحد، اذ كانوا موزعين على الپريتورين وكان (لنتولوس) المحجوز في الپالاتين اول من اخذ. جاء به عن طريق الشارع المقدس الى وسط الساحة العامة تحيط به حلقة من المواطنين البارزين لحمايته. وارتعد الناس لما يفعله وكانوا يمرون به صامتين لاسيما الشبان منهم حتى جعلهم الخوف والرهبه أشبه بمن يتقبل مراسيم التكريس للاسرار المقدسة العتيقة. ذات القوى الضخمة. ثم اجتاز الساحة العامة حتى وصل السجن. وسلم (لنتولوس) للضابط الأمر وأمره بتنفيذ حكم الموت. ثم اشفعه بـ(كثيغوس) والباقيين اذ كان يأتي بهم واحداً بعد الآخر ويسلمهم للمكلفين بتنفيذ الحكم. وشاهد عدداً كبيراً من الضالعين في المؤامرة مازالوا واقفين في الساحة العامة على شكل جماعات وكتل جاهلين بما حدث ومنتظرين موعدهم الليلي متوهمين بان زعماءهم مازالوا احياء او من المحتمل أنهم انقذوا. وعندئذ صاح (شيشرون) بصوت جهوري:

- إنهم لأحياء يرزقون! (وهذا التعبير يستخدمه الرومان للإشارة الى الموتى تطيراً واجتناباً للشؤم).

وعندما ترك الساحة العامة قاصداً منزله، كان الليل قد جنّ، ولم يعد الناس يسيرون في ركابه بنظام وصمت وانما راحوا يستقبلونه بالهتاف والتهليل وهو يمر بهم، ويحيونه بوصفه منقذاً ودعاماً للبلاد، وسطعت الانوار باهرة في الشوارع من المصابيح والمشاعل المعلقة على ابواب المنازل. وخرجت النسوة الى إسطح بيوتهن يحملن الضياء تكريماً له ولمشاهدته عائداً الى بيته تحف به بطانة رائعة من ابرز واشرف المواطنين، ومن بينهم الكثير الذين خاضوا حروباً عظيمة ونالوا امتياز مواكب النصر واطافوا مساحات الى الامبراطورية الرومانية براً وبحراً. وقر هؤلاء فيما بينهم اثناء سيرهم أن الشعب الروماني المدين لعدد من القادة والضباط العظام بهذا العصر الذهبي عصر الغنائم والثروة والعزة والمتعة. يجب ان يكون مدينا (لشيشرون) وحده بسلامة كل هذا، بانقاذهم من الخطر الاعظم الذي حوّم فوق رؤوسهم. ان احباط المؤامرة ومعاقبة المتآمرين ليس بالشيء الفريد في بابه. إلا أن سحق اكبر الرؤوس المتآمرة باقل ما يمكن من الاضطراب والفوضى هو المعجزة الكبرى فاغلبية الذين التفوا حول (كاتيلينه) انفصوا من حوله حال سماعهم بالمصير الذي آل اليه (لنتولوس وكثيغوس) وهاجم (شيشرون) الفلول الباقية من اتباعه وتم القضاء عليها وعليه.

على ان هناك من يفترى على شيشرون وينتقص اعماله هذه وعلى رأسهم اولئك الذين خلفوه في دست الحكم مباشرة كـ(قيصر) الذي كان واحداً من الپريتورين، والتريبونين:

متيللوس (ويستيا Bestia). هؤلاء تسلّموا مناصبهم قبل ان تنتهي فترة قنصلية (شيشرون) بأيام قلائل. فلم يسمحوا له بالتوجه بخطبة عمومية بهذه المناسبة. وانما القوا المقاعد امام الروسترا ومنعوه من الكلام قائلين:

- لك ان شئت، أن تحلف يميناً بين الانسحاب من المنصب القنصلي ثم تنزل الى تحت ثانية.

فرضي (شيشرون) وتقدم لتأدية اليمين، فران صمت عام، وتلا قسمه ولكن ليس بالطريقة المألوفة، بل بشكل جديد غريب. اذ ذكر فيه انه انقذ بلاده وحفظ الامبراطورية. وايد الشعب هذا القسم باقسامهم. ونفذ صبر قيصر والتريبونين منه واقترحوا اصدار مرسوم باستدعاء (پومپي) الى روما على رأس جيشه كيما يضع حداً لاستعلاء (شيشرون). وكان من حسن حظ شيشرون والجمهورية، ولفائدتهما الكبرى ان (كاتو) في ذلك الحين كان متقلداً منصب (التريبون). ومع أن سلطته مساوية لسلطة زملائه الآخرين، إلا انه كان يفوقهم سمعةً ومكانةً، ويملك القوة لمعارضة ارادتهم. فكان يسهل عليه إحباطها. وفي خطاب جماهيري له، اغدق على فترة قنصلية (شيشرون) آيات المديح والثناء وانزلها منازل التعظيم والتكريم، حتى اعلن الشعب رسمياً منحه لقب «ابي البلاد» فكان اول من حصل على هذا اللقب، حينما اقترحه (كاتو) في خطبته.

وبات يتمتع باعظم سلطان في المدينة، إلا أن ذلك خلق له كثيراً من الحساد، كما انه اسخط العدد الكبير لا لسوء اعماله بل لدوام الاعتداد بنفسه والتمجيد لذاته. لا يجتمع مجلس شيوخ ولا جمعية عامة ولا مجلس قضاء الا وتجده يتكلم عن (كاتيلينه ولنتولوس). وفي الواقع انه ملأ كتبه ومدوناته بمدح شخصه الى الحد الذي أحال اسلوبه الرائع الخلاب، كلاماً مملاً مقرفاً في اذن السامع. وكان طبعه الأناني مثل المرض المزمن فيه. ولكن مع عزامه المفرط بتمجيد نفسه فقد كان بعيداً كل البعد عن حسد الآخرين، والعكس هو الصحيح، فلظالما اغرق واظن في الثناء على الاقدمين والمعاصرين كما شهدت بذلك كتاباته، ويذكر الآن بعض اقواله له مأثورة، منها رأيه في ارسطو قال عنه: «انه نهر من عسجد» وقال في محاورات افلاطون «لو أن چويتير تكلم، فستكون لغته لغة تلك المحاورات» واعتاد القول عن (ثيوفراستس) «انه ترفي الشخصي» وعندما سئل اي خطبة من خطب ديموستينس احب اليه، اجاب «اطولها». على ان بعض مقلدي ديموستينس المتأثرين به، شكوا من عبارات وردت في احدى رسائله قوله «ان ديموستينس كان أحياناً يردح في اغفاء اثناء القائه» ونسوا المدح الذي كان يغرقه به والتكريم الذي خصّه به، حين سمى ادق خطبه واحكمها، تلك التي كتبها ضدّ (انطوني) بد(الفيلسيفيات) واما عن مشاهير فلاسفة عصره وخطبائه، فليس فيهم الا وقد

زاد مديحه له من مكانته او شهرته، سواء بكتابته او باحاديثه عنهم. فقد نال من (قيصر) عند توليه السلطة، الجنسية الرومانية (لقراتيپوس Cratippus) الفيلسوف المشائي (الأرسطي)، واصدر مرسوماً حمل المجلس الارويواغى على طلب بقائه في آثينا لتعليم الشباب فيها، وليبقى وجوده شرفاً تتمتع به المدينة ومازال ثم رسائل منه الى (هيرودس Her-odus)، واخرى لابنه يوصى فيها بأخذ الفلسفة عن هذا الفيلسوف. ولديه رسالة يؤنب فيها (گورجياس Gorgias) البليغ لأنه اغرى ابنه بالشراب والترف وحظر عليه صحبته. هذه الرسالة ورسالة أخرى وجهها الى (پيلوپس Pelops) البيزنطي هما الرسائل الوحيدتان من بين الرسائل اليونانية التي كتبها في ساعة غيظ على ما يبدو. كان في الأولى محقاً بمهاجمة (گورجياس) إن صدق ما أثار عنه من فجور وتهتك. اما الثانية فقد كانت شكوى وتعنيفاً دنيئاً، لأن پيلوپس لم يهتم باستصدار مرسوم تكريم له من البيزنطيين.

واليك صورة أخرى لا اعتداده بنفسه واعزامه بالثناء، تبدو احياناً ملفقة للنظر بخروجها عن اللياقة ونبذها الوقار جانباً: القاهها دفاعاً عن (موناتيوس) فانقذه من الإدانة. فأسرع المبرأ باتهام صديقه (سابينوس Sabinus) في الحال فثار غضب شيشرون وقال في فورة من الحق. - اتظن انك برئت لأنك تستحق البراءة يا موناتيوس، أو الست أنا الذي سوّدت القضية

بحيث عجزت المحكمة عن رؤية جريمتك؟

والقى من الروسترا تقریظاً بحق (ماركوس كراسوس) نال كثيراً من الاستحسان. وبعدها بايام قليلة راح يقدح في الذات نفسها علناً. فقصده (كراسوس) معاتباً بقوله:

- الم تمدحني انت بنفسك قبل يومين من هذا الموضوع بالذات؟

فاجاب شيشرون:

- اجل كنت امرنً بلاغتي بخطبة في موضوع سيء.

وكان (كراسوس) قد قال في احدى المناسبات بأنه لم يوجد من اسرته من أناف على الستين، وما ليث أن رجع عن ذلك وتساءل مستنكراً:

- لا ادري ماالذي حملني على هذا القول.

فاجاب (شيشرون):

- لكي تفوز بعطف الجمهور. فانت تعرف كم يطربهم سماع ذلك!

وعندما ابدى (كراسوس) اعجابه بالحكمة الرواقية «الرجل الصالح هو غني دائماً» قال شيشرون:

- وكان جوابه لشاب شك في انه أعطى والده كعكة مسمومة وكان يتبجح دائماً بأنه ينوي ان يؤلف رسالة قدح بحق شيشرون.  
- هذا خير من كعكتك.

واوكل (پوبليوس سكستيويس Publius Sextius) شيشرون للدفاع عنه مع محامين آخرين في قضية. إلا انه كان يرغب في يتولى هو قول كل شيء دفاعاً عن نفسه ولم يكن يفسح مجالاً لأحد من محاميه بالكلام عنه. وعندما كان ينتظر قرار البراءة من القضاة المجتمعين للمداولة صاح به شيشرون قائلاً:

- عجلّ (يا سكستيويس) عجل واستغلّ وقتك، فغداً ستضحى نكرة من النكرات!  
وطلب (پوبليوس كوتا Publius Cotta) للشهادة في احدى القضايا وكان يريد ان يلقي في روع الناس بأنه محام مع جهله وبعده عن العلم والثقافة وعندما قال في شهادته انه لا يعرف شيئاً عن المسألة قال شيشرون:

- لعلك حسبت اننا نسألك عن نقطة قانونية!  
ووقع نزاع بينه وبين (ميتيللوس نيبوس) فأخذ خصمه هذا يردد عدة مرات.  
- ومن كان ابوك يا شيشرون؟  
فاجاب:

- لقد جعلت أمك الجواب على مثل هذا السؤال فيما يتعلق بك انت، اكثر صعوبة! (كانت أم نيبوس سيئة السمعة)

وكان ابن (نيبوس) هذا متقلب الالهواء، غير مستقر على رأي فمرة تخلى فجأة عن منصب التربييون وابحر الى سورية ملتحقاً بپومپي، ولم يستقر به المقام هناك، بل عاد حالاً بدون سبب كما رحل بدون سبب واقام لمعلمه فيلاغروس Philagrus خبارةً تزيد عما يناسب مقامه وما يحتم عليه الواجب ثم بنى نصيباً حجرياً فوق قبره، فيه تمثال غراب. فقال له شيشرون  
- ذلك مناسب حقاً، مادام لم تعلمك الكلام، بل على الطيران هنا وهناك!

وعندما افتتح (ماركوس ايبوس) دفاعه امام احد المجالس القضائية قائلاً ان صديقه طلب منه المثابرة والبلاغة والاخلاص في قضيته، قال شيشرون:  
- وكيف طاوعك قلبك أن تهمل كل طلب من طلباته؟

قد يبدو استعمال هذه النكتة الحادة ضد الخصوم والاعداء في المرافعات القضائية من قبيل

- ألا تعني «ان كل الاشياء هي ملك للعاقل؟» (كان كراسوس معروفاً بالجدع)  
وكان لكراسوس هذا ابن له شبه عجيب برجل يدعى (اكسيوس Axius) حتى ان الشك كان يحوم حول عفة الأم. القى هذا الابن خطبة ناجحة في مجلس الشيوخ، فسئل شيشرون عن رأيه فيها فاجاب باليونانية

- اكسيوس كراسو Axius Crassus  
وفيما كان (كراسوس) يتهيأ للرحيل الى سوريا، كره أن يترك (شيشرون) خصماً. فسلم عليه ذات يوم وقال له انه سيزوره تلك الليلة ويتعشى عنده، فأحسن شيشرون استقباله واحتفى به. وبعد ايام قليلة توسط احد معارف شيشرون (فاتينيوس Vatinius) وانهى اليه رغبته في التصافي والصداقة وقد كان بينهما جفوة وقطيعة انذاك فاجاب شيشرون:  
- ماذا؟ اريد فاتينيوس ايضاً أن يتعشى عندي؟

ذلك هو اسلوب معاملته لكراسوس.  
وعندما كان فاتينيوس يتراجع امامه في قضيته، وهو يشكو من اورام في رقبته، لقبه «بالخطيب المتورم». واخبره اقدمهم مرةً بأن (فاتينيوس) هذا قد قضى نحبه، ثم جاء من ابلغه توا بأنه مازال حياً يرزق فقال:  
- الا فليهلك الوغد، فان انباءه ليست بصحيحة!

وتقدم (قيصر) بمشروع قانون لتوزيع اراضي كامپانيا على الجنود معارض فيه كثير من الشيوخ ومن بينهم (لوچيوس غيلليوس Lucius Gellius) وهو من اكبر الشيوخ سنا في المجلس فقد صرح ان القانون المقترح لن يمر من المجلس مادام هو حياً فقال شيشرون:

- فلنؤجله اذن، ان غيلليوس لا يطلب منا الانتظار طويلاً.  
وكان ثم شخص يدعي (اوكتافيوس) يعتقد انه اغريقي الأصل. شكاً هذا من انه لا يسمع شيشرون عندما كان هذا يتراجع فقال معقّباً:  
- مع ان في اذنك ثقوباً!

وقال له (ميتيللوس نيبوس Metellus Nepus) بكرة بأن ما حدثه من دمارٍ كشاهدٍ اكثر مما انقذ كحاكم فعقب شيشرون على هذا بقوله:  
- اقرّ بأنني املك من الصدق اكثر مما املك من الفصاحة.

البلاغة المسموح بها. على انه آثار كثيراً من الشعور بالسخط والاستياء لحضور يديهته في مهاجمة اي شخص على سبيل التفككة لا غير. ودونك قليلاً من الحكايات الماثلة:

كان (الماركوس اكوينوس Marcus Aquinius) ختنان مبعدان في احد المنافي. ولذلك لقبه بالملك إدراستوس (Adrastus).

وكان (لوچيوس كوتا) مغرماً بشرب الخمر من دون اعتدال وكان (چنصوراً) ايام تقدم شيشرون مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي. وفي اثناء اجراء الانتخابات عطش شيشرون فطلب ماء وفيما هو يتناولُه واصحابه يحيطون به، قال لهم:

- انتم محقون في تخوفكم. فقد يغضب الچنصور مني لشربي الماء القراح.

وفي احد الأيام، لقي (فوكونيوس Voconius) مع بناته الثلاث القبيحات، فتمثل بالبيت: «لقد أنسل جيلاً دون اذن من ابولو!».

وقرأ (ماركوس غيلوس) عدة رسائل في مجلس الشيوخ بصوتٍ حادٍ ثاقبٍ جداً - وكان المعروف عنه انه ابن عبْد سابق - فقال شيشرون معلقاً:

- لا عجب، فقد انحدر من صلبٍ مُنادين.

كان (فارستوس سللاً) ابناً لسللا الدكتاتور الذي عمد الى اهدار الحقوق المدنية لكثير من المواطنين وادانتهم وقتلهم. بدد هذا الابن ثروته، وغرق في الديون حتى لجأ اخر الأمر الى نشر بيانات بيع املاك للتسديد، فقال له شيشرون انه يحب هذه البيانات اكثر مما يجب ببيانات ابيه.

بهذه العادة كان يبدو مكروها لكثير من الناس وتآمر عليه حزب (كلوديوس) بالشكل التالي:

كان (كلوديوس) ينحدر من اسرة نبيلة؛ وهو شاب في زهرة العمر، ذو نفس وثابة وارادة قوية. وقع في هوى امرأة (قيصر) ودخل سراً منزلها متنكراً بزِي فتاة عازفة. وكانت النسوة آنذاك منشغلات بتقدمة قرايبنهن واداء طقوسهن التي لا يسمح للرجال بحضورها، فلم يكن احد من الرجال موجوداً. ولما كان (كلوديوس) أمرد لم يطر شاربه فقد توقع الاجتماع بـ(پومپيا) دون ان يفطن اليه النسوة المجتمعات. ولكنه دخل البيت الكبير في الليل فضل سبيله بين الماشي، ولقبته وصيفة (اوريليا) ام (قيصر) وهو يمشي على غير هدى فاستوقفته وسألته عن اسمه فاضطر الى الجواب وقال انه يبحث عن (ابرا) احدي وصائف (پومپيا) ففضحه صوته الغليظ وصرخت الوصيفة مستنجدة بالنساء فقممن باغلاق الابواب واخذن

يفتشن كل موضع من الدار حتى وجدن (كلوديوس) مختبئاً في غرفة الوصيفة التي ادخلته الدار. ولما انطلقت الشائعات الكثيرة عن هذه الحادثة عمد (قيصر) الى تطبيق زوجه ورفعته دعوى عامة على (كلوديوس) لتدنيسه الشعائر الدينية.

في ذلك الوقت كان (شيشرون) على صلة ودّ وصداقة بـ(كلوديوس) وقد كان له عوناً وسنداً وتميزٌ بعنفه وحماسه في مناصرته. وركز دفاعه في المحكمة، بنفي وجوده في روما يوم الحادث وقال انه كان بعيداً عنها في الريف، لكن (شيشرون) تقدم للشهادة، فشهد بأن (كلوديوس) جاء الى بيته زائراً في ذلك اليوم بالذات وحادثه في شؤون مختلفة. وكانت شهادته صحيحة، لكن المظنون أن الدافع الذي حفزه للشهادة لم يكن مجرد استجلاء حقيقة، قدر ما كان يقصد منها مهادنة زوجه (ترتيا) وارضاءها. فقد كانت تحقد على كلوديوس بسبب (اخته) كلوديا التي حاولت التزوج من (شيشرون) على ما قيل - واتخذت (تللوس Tullus) احد اخلص اصدقائه وسيطاً في ذلك الامر وثار شكوك (ترتيا) بكثرة زيارته لكلوديا التي كانت جارة لهما، وغاظها الاهتمام الكثير الذي يحيطها به. وكانت ترتيا عصبية حادة المزاج. ولدالتها وسلطانها على زوجها فقد دفعته الى الشهادة نكايه (بكلوديوس). وتقدم فضلاً عن شيشرون عدد كبير من افاضل المواطنين واكثرهم استقامة للشهادة عليه بحلفه يمينا كاذبة، وباعمال الفوض، والرشوة، واغتصاب الحرائر. واثبت (لوكلولوس) عن طريق خادما من منزله، بأن المتهم واقع اخته الصغرى وهي زوج لوكلولوس. وساد الاعتقاد بأنه اقدم على الفعل نفسه مع اختيه الأخرين ترتيا Tertia التي تزوجها (مارچيوس ريكس Marcus Rex) وكلوديا التي بنى بها (ميتيللوس چيلير Metellus Celes) وكانت تلقب كوادرتيا Quadrantia. لأن أحد عشاقها خدعها باعطائها صرة تحوي نقوداً نحاسية صغيرة القيمة بدلاً من الفضة، ويطلق على أصغر مسكوكة نحاسية «كوادرات» وعن طريق سيرة هذه الأخت بصورة خاصة تكالبت المطاعن باخلاق كلوديوس. إلا أن كل ذلك لم يجد فتيةلاً فقد اتفقت كلمة العامة ضد الشهود ومحركي الاتهام ومن والاهم. فذب الخوف في نفوس القضاة ووضعت حراسة عليهم لدرء اي اعتداء او تحرش بهم. وكتب معظمهم رأيه على اللوح بشكل غامض يتعذر منهم المقصود منه. وعلى أية حال وجدت الأغلبية انه غير مذنب. وذكر أن الرشوة كانت ذات اثر فعال في الحكم وعلق (كاتالوس) على ذلك بقوله للقضاة:

- كنتم مصيبين جداً بطلبكم حرساً. كيما تحولوا دون عملية سلب نقودكم.

وعندما عاتبه (كلوديوس) قائلاً أن القضاة لم يقتنعوا بصحة شهادته، اجاب:



- أجل، لقد صدقني خمسة وعشرون فادانوك اما الثلاثون الآخرون فلم يصدقوك، لأنهم لم يخلوا سبيلك إلا بعد أن تسلموا مالك.

ومع ان (قيصر) دعي للشهادة، فانه لم يدل بشيء ضده، وقال انه لا يعتقد بارتكاب زوجته فعل الزنى وهو ما طلقها الا لأنه لا يكفي لبيت (قيصر) أن يكون طاهراً من الرجس، بل منزهاً عن الشائعات ايضاً.

بعد ان سلم جلد (كلوديوس) من هذا المأزق، ونال منصب (التربييون) بادر الى مهاجمة (شيشرون) مؤلباً عليه الناس كافة، ووصمه بكل ما يسيء الى سمعته، وكان قد كسب ثقة العامة بقوانين شعبية، وافلح في استصدار مراسيم بتقليد كل قنصل حاكمية اقليم فكانت (مقدونيا) من نصيب (پيسو (Piso) وسورية من نصيب (غابينيوس (Gabinus) والى نفسه حزباً قوياً من المواطنين المعوزين لمساندة اجراءاته. ولم يكن يرى الا وحوله جماعة من الصبية المسلحين. في ذلك الحين كان ثلاثه يتمتعون باكبر السلطان في روما: (كراسوس) خصم شيشرون علناً و(پومپي) صديق كليهما دونما تفضيل. و(قيصر) الذي يتهياً للرحيل الى بلاد الغال على رأس جيش. قصد (شيشرون) ثالثهم وطلب منه ان يقبله مساعداً في حكم الاقليم الذي عين له، فلم يبد قيصر تمنعاً وادرك (كلوديوس) ان شيشرون سيفلت من يده ويمتنع عن سلطته التربيونية بهذه الوسيلة، فراح يشيع بين الناس انه يميل الى المصالحة والتصافي، ويعزو ما حصل بينهما من عداة الى (ترنتيا) واخذ يذكره بالخير والطيب دوماً، ويتوجه اليه بارق العبارات كأنه افرع من قلبه الحقد والضغن ويتوجه بالعتب عليه بلهجة ودودة رقيقة، فبدء بهذه المظاهر المصطنعة فخدع شيشرون حتى حملة على الاعتذار (لقيصر) عن قبول الوظيفة، وعاد الى معتك الحياة السياسية ثانية، فاحق (قيصر) عليه، ولأجل ذلك انحاز الى جانب (كلوديوس) ضده، وعمل على قطع كل الاسباب ما بينه وبين (پومپي). واعلن ايضاً في الجمعية العامة بأنه لا يعتقد ان (كثيگوس و لنتولوس) يستحقان الموت قانوناً وعدلاً اذ لم تجر محاكمتهما. وكان هذا الاتهام الذي وجه الى (شيشرون) واستدعي للجواب عنه. فابدل ثوبه واهمل هيئة وخرج اشعث الشعر مسترسله يستجدي عطف الشعب، كأي متهم. الا ان (كلوديوس) كان يعترضه في كل منعطف وخلفه عصاية من المشاكسين الوقحين يسخرون منه ويعبرونه برثاثة ثيابه وذلته. وكثيراً ما قطعوا عليه ضراعاته الى الناس بقذفه بالحجارة والاقذار.

بادرت طبقة الفرسان الرومان برمتها الى تغيير ثيابها تضامناً معه في اول الأمر، وكان يسير خلفه ما لا يقل عن عشرين الفاً من الشباب بشعرهم الا شعث المسترسل، ضارعين معه

الى الشعب واجتمع مجلس الشيوخ واصدر امراً بأن يغير كل افراد الشعب ثيابهم كما هي العادة في مناسبات الحداد الرسمية. والحزن العام الا ان القنصلين عارضوا في القرار وطوق (كلوديوس) مجلس الشيوخ برجاله المسلحين فخرج عدد كبير من الشيوخ وهم يصيحون ويمزقون ثيابهم الا ان منظرهم هذا لم يثر الحجل او الشفقة. وكان على شيشرون بعد هذا، أن يختار بين الفرار او تحكيم السيف بينه وبين كلوديوس، ورجا من (پومپي) ان يخف لنصرته وكان (پومپي) قد تعمد الابتعاد وسافر الى بيته الريفي في مرتفعات (ألبن Alban) ومكث هناك. وارسل (شيشرون) اولاً ختنه (پيزو) للتوسط اليه ثم قصده هو بالذات، ولما ابلغ (پومپي) بقدمه توارى وتسلسل من باب آخر متحاشياً مقابلته. لئجله، واستذكاره الصراعات العديدة التي خاضها (شيشرون) في سبيله والفوائد التي جناها من سياسته، الا انه اصبح الآن ختن (قيصر) وهذا ما منعه عن نصرته. ولما وجد شيشرون ان (پومپي) تخلى عنه وتركه وحيداً بلا نصير، التجأ الى القنصلين، فاغلظ (غابينيوس) له القول كالعادة، الا ان (پيزو) كان اكثر لطفاً ومجاملة ونصح بالرضوخ للأمر الواقع وارجاء العبان لإعصار (كلوديوس) حيناً من الزمن، وأن يركن الى الهدوء انتظاراً لتبديل الحال فيكون منقذاً لوطنه من اخطار هذه الاضطرابات والفوضى التي ينشرها (كلوديوس) كما أنقذه في الماضي، بعد هذا انقلب الى اصدقائه يطلب رأيهم. فنصح (لوكلولوس) بالبقاء وقال انه واثق بفوزه اخيراً. وأشار عليه آخرون بالفرار، مؤكداً أن الشعب لن يلبث ان يفتقده عندما يشتم من جنون (كلوديوس) وهباجه، فوافق على الرأي الثاني وبادر اولاً فحمل تمثالاً لمينرقا كان في داره منذ زمن طويل بموضع تكريم، الى الكابتول ووقفه عليه بعد ان نقش عليه العبارة التالية:

«الى مينرقا شفيعة روما».

وزوده اصدقاؤه بمراقبين فترك المدينة في حدود منتصف الليل وسافر براً عبر لاقونيا قاصداً صقلية. وما ان انتشر نبأ فراره، حتى اقترح (كلوديوس) على الشعب مرسومًا يقضي بنفيه. واصدر هو امراً شخصياً حرم عليه فيه «الماء والنار». وحظر على اي شخص ضمن مسافة خمسمائة ميل في ايطاليا أن يأويه في داره. الا ان معظم الناس لم يأبهوا لهذا البيان احتراماً (لشيشرون) وبدلوا له كل رعاية ورافقه في طريقه. الا شخصاً واحداً يدعى (فيبيوس Vibi- us) وهو صقلي كان شيشرون قد شمله بالالطاف الكثيرة منها انه عينه رئيساً لمهندسي الدولة ايام كان قنصلاً. فقد ابى على شيشرون دخول بيته عند وصوله هيپونيوم Hipponium وهي مدينة لوقانية تعرف اليوم باسم (فيبو Vibo). وارسل من يعلمه بأنه سيخصص له مسكناً في الريف. واما (كايس فرجيلوس (Gaius Vergilius) پريتور صقلية، الذي كانت

تربط فيما بينهما اوثق علاقات الصداقة فقد كتب اليه، يزين له العدول عن النزول الى صقلية، ازاء هذا كله لم يسع (شيشرون) الا ان يتوجه الى (برنديزيوم) وهو مثقل بالهم، خائر العزيمة. واقلع في ريح موآتية ما لبثت أن انقلبت الى اعصار عات مضاد يهب من جهة البحر، فدفع بالسفينه من حيث اتت وقذف بها الى ساحل ايطاليا في اليوم الثاني. ثم انه اقلع مرة ثانية ووصل (دراكيوم) وعند نزوله اليابسة وقع زلزال وهزة بحرية في الوقت عينه كما قيل، وتلك ظواهر فسرها السحرة بأن نفيه لن يطول كثيراً، وما حصل هو بشائر التغيير. وقصده الكثير احتفاء به. وتنافست مدن الاغريق على تكريمه. الا انه بقي مع ذلك حزين النفس منكسر الخاطر كعاشق ولهان تنكر له الحظ، وكثيراً ما كان يرنو الى جهة ايطاليا متشوقاً. في الواقع لم يتصور أحد أن تبلغ الذلة والشعور بالمهانة ما بلغت بهذا الرجل الذي اوقف جانباً كبيراً من حياته على الدرس والعلم. لقد اعتاد الطلب من اصدقائه بأن يقبوه بالخطيب، بله بالفيلسوف فقد كانت الفلسفة عليه غالبية، ولم يتخذ البلاغة الا مرقاة الى العمل السياسي. على أن للرأي العام قوى عظيمة في ازالة صبغة الفلسفة من نفوس الرجال تلك التي خلفها الدرس والعقل كما يقال. وبقوة الاعتياد والتماس الدائم بإمكانه أن يطبع نزعات الدهماء ومشاعرهم في نفوس الساسة. الا اذا كان المرء شديد الحذر منتبها الى انه عند التصدي لشيء عام، فعليه ان يهتم للمشاكل نفسها لا للعواطف الناشئة عنها.

بعد أن نجح (كلوديوس) في ابعاد شيشرون بهذه الشكل. انقض على مغانيه وحقوقه ثم منزله في المدينة واعمل فيها حرقاً وتدميراً وبنى على ارض المنزل هيكلاً لرثة الحرية. وعرض بقية املاكه للبيع بالمزاد العلني يوماً فلم يتقدم لها شار. بهذه الوسائل وطد سلطانه وهابه الاشراف وتعلقت به العامة بعد أن فتح لهم ابواب التسيب والوقاحة على مصارعها وجرأهم على النظام العام. أخيراً راح يجرب سلطانه ضد (پومپي) فهاجم بعض اجراءاته التي اقدم عليها في البلاد المفتوحة. فلم يسع (پومپي) الا الشعور بثقل العار لجبنه وراح يلوم نفسه على التخلي عن (شيشرون) وتبدلت افكاره فجأة فأخذ يعمل جاهداً مع اصدقائه لاعادة (شيشرون). ولما عارض (كلوديوس) في ذلك اتخذ مجلس الشيوخ قراراً بالتصويت، بقضي بالامتناع عن مصادقة اي اجراء رسمي او الأمر بتنفيذه الا بعد عودة (شيشرون) لكن الشحنة والنزاع على هذا الأمر تفاقم عندما تولى (لنتولوس) المنصب القنصلي، فحصل اشتباك نجم عنه اصابة التريبونات بجراح في الفورم، وترك (كوينتوس) شقيق (شيشرون) ملقى بين القتلى دون ان يفظن احد الى انه بين القتال. وبدأ التغيير يظهر في عواطف الشعب وكان (آنيوس ميلو Annius Milo) احد تربيوناته اول من ملك الشجاعة لاستدعاء

(كلوديوس) الى المحاكمة عن اعمال العنف التي اقترفها. وتحزب عدد كبير من عامة سكان المدن المجاورة الى (پومپي) وشدوا ازره عندما ذهبوا معه فطردوا (كلوديوس) من الفورم واستدعي الشعب ليدلي باصواته حول عودة (شيشرون) وقيل إن الشعب قر على امر يجمع كما اجمع هذه المرة. ورغب المجلس ايضاً في منافسة الشعب بعواطفه فبعث برسائل شكر الى تلك المدن التي استضافت المنفي واحتفت به ايام ابعاده. واصدر مرسوماً يقضي باعادة بناء داره ومرابعه الريفية التي دمرها (كلوديوس) على نفقة الدولة.

هكذا عاد شيشرون بعد ستة عشر شهراً من نفيه، وعمت المدن الفرحة وبلغت لهفة الناس لرؤيته حداً كبيراً، حتى ان ما قيل على سبيل الفخر ان ايطاليا عادت به الى روما محمولاً على اكتافها هو قول لا يوازي الحقيقة. وكراسوس نفسه الذي عرف بعداوة له قبل نفيه، خرج لاستقباله بماء الرغبة وتصالحا. لأنه «اراد أن يفرح ابنه (پوبليوس) احد المعجبين المغالين بشيشرون» على حد قوله!

ولم يلبث (شيشرون) في روما الا قليلاً وانتهز فرصة غياب (كلوديوس) فقصد الكابيتول مع جمع كبير، ومزق وكسر الالواح التريبونية التي سجلت عليها انجازات (كلوديوس). وعندما وجه اليه هذا استجاباً عن الدافع الذي حمله على هذا العمل اجاب (شيشرون) انه فاز بمنصب (التربيون) خلافاً للقانون لكونه پاتريشيا، فكل ما انجزه والحالة هذه، باطل لا قيمة له. وقد ساء ذلك (كاتو) وعارض (شيشرون) لاحقاً بكلوديوس الذي لم تكن تصرفاته موضع رضاه، بل محتجاً بأن تصويت المجلس على عدم قانونية تلك الانظمة والاوامر والمراسيم ومن ضمنها تعيينه هو نفسه لمهمتي قبرص وبيزنطيوم، يتسم بطابع النزق والطيش فضلاً عن مجافاته للقانون. وهذا ما احدث الجفوة بين (كاتو) و(شيشرون). لم تبلغ مبلغ العداة السافر وانما شاب صداقتهما برود كبير.

بعد هذا قام (ميلو) بقتل (كلوديوس) فاحيل الى القضاء فوكل (شيشرون) للدفاع عنه، وخشي مجلس الشيوخ أن استنطاق شخص ذي جرأة ومكانة مثل (ميلو) قد ينجم عنه اضطراب في حبل الأمن. فاناط به (پومپي) أمر الاشراف على النظام في المدينة اثناء هذه المحاكمة والمحاكمات الأخرى وأن يتولى الاشراف على الانضباط في دور القضاء ايضاً، فعمد (پومپي) ليلاً الى احتلال المرتفعات فيما حولها، وضرب نطاقاً من الجنود حول الفورم وخاف (ميلو) من تأثير هذا المشهد غير المألوف على شيشرون فيضطرب ويسيء الدفاع عنه. لذلك اقنعه بأن يأتي الى الفورم محمولاً في محفة وان يبقى فيها حتى تنتظم الجلسة ويكمل نصاب القضاة وتمتلي القاعة. ويبدو من هذا أن (شيشرون) كان يفتقر الى الشجاعة الأدبية فضلاً

عن الشجاعة الحربية. فبدأ دفاعه بشيء من التردد والتلعثم. ولازمته العرشة في البداية. وفي كثير من خطبه لا تتركه الرجفة إلا نادراً، حتى عندما يدخل في صلب الموضوع ويبلغ جوهر خطابه فمثلاً دفاعه عن (لوچينيوس مورنيا) في قضيته اتهمه بها كاتو كان محامي خصمه (هورتسيوس) قد دبح خطبةً نالت استحساناً عظيماً. وكان شيشرون قد امضى الليلة مؤرقاً يتناهبه قلق الطموح الى التغلب عليه. فانهدت قواه بفعل الأرق، ولم تعد خطبته من المستوى الذي اثر عنه. فبعد ان هبط من المحفة لمباشرة قضية (ميلو) لاحت منه التفاتة الى (پومپي) وهو يحتل مواضعه بعسكره فوق المرتفعات وخطف انظاره بريق الاسلحة اينما التفت حوالبه في الفورم. فاعتراه الخوف، وارتج عليه في الأول، لأن جسمه كان يرتعش، ولسانه يتلجلج. في حين كان (ميلو) المتهم، ثبت الجنان رابط الجأش في كل تصرفاته. فقد أنف من ارسال شعره، او ارتداء ثياب الحداد، على نحو ما يفعل المتهمون، وكان هذا السبب الرئيس لادانته على ما يبدو. واما عن (شيشرون) فقد قيل أنه ما اظهر من الخوف والحرص على نفسه، كان اكثر مما اظهر من قلق وحرص على صديقه.

وعين (شيشرون) كاهنا من المرتبة التي يطلق عليها الرومان اسم (اوگور Augur) مخلفاً (كراسوس) الأصغر الذي قضى نحبه في بلاد البارثيين. وعين بالقرعة حاكماً لاقليم (كيليكيا) وابحر متجها الى مقر حكمه على رأس اثني عشر الف رجلٍ والفين وستمائة من الفرسان وكان قد زودٌ باوامر تقضي باخضاع كبدوكيا للملكها (أريوبارزانيس Ariobar-zanes) وقد انجز المهمة على افضل ما يمكن دون اللجوء الى استعمال السلاح. وادرك بان الكيليكين يبيتون ثورةً على اثر الفشل الذي مني به الرومان في بلاد البارثيين، وبعدهما حصل في سورية من الاضطرابات والمشاكل. فعمد الى تهدئتهم وكسب ودهم واخلاصهم باتباعه اللين والعدل. ورفض الهدايا التي كان يقدمها له الملوك. والغى الضرائب والرسوم التي تجبى من الأهلين عن الملاهي والحفلات العامة وكان يستقبل في داره يومياً رجال العلم والثقافة اللامعين في الاقليم ويبالغ في اكرامهم، ولكن بصورة خلت من مظاهر البذخ والترف. ولم يكن يقف حارس امام بابه، ولم يقصده أحد ويراه متكئاً على سريره. اذ كان يستيقظ عند الفجر ويقف امام باب منزله، او يتمشى الى جواره، مستقبلاً كل قادم للسلام عليه والسؤال عنه، وقيل انه لم يأمر قط بجلد أحدٍ من مرؤوسيه بالعصي او بنزع رداءه، ولم يتلفظ قط بكلمة بذيئة في سورة من غضب او انفعال ولم يوقع عقوبة تجرح كرامةً او تصيب عزة النفس. ووجد أن اموالاً طائلة قد اختلست من الخزينة العامة فاهتم بان تستعيد المدن استقرارها المالي وفي الوقت نفسه لم يوقع عقوبة باولئك الذين سدّدوا ماختلسوه وانما تركهم يحتفظون بحقوق

المواطنة. واشتبك ايضاً في حروبٍ وهزم قطاع الطرق الذين كانوا يعيشون سلباً ونهباً في جبل (أمانوس) فحيّاه جيشه بلقب (امبراطور) وكتب الى (كوچيليوس Coecilius) (٢) الخطيب الذي طلب منه عدداً من فهود كيليكيا لعرضها في ملعب روما. وفي نوبة من نوبات تمجيد النفس لما حققه كتب يقول أنه لافهود بعد في كيليكيا فقد هربت جميعها الى كاريا سخطاً واستسياً لانها أمست المخلوقات الوحيدة التي تهاجم في حين ان الجميع ينعم بالسلام والاستقرار.

وعند مغادرته الأقليم توقف في (رودس) وكان جدّ سعيد لقضاء بعض الوقت في آثينا، حيث كان يحتفظ لها باجمل الذكريات للأيام التي قضاها هناك في الماضي. والتقى البارزين في كل فرع من فروع العلم والثقافة واستقبل اصداقاه ورفاقه القدامى. ويعد ان قبول في اليونان بما يستحق من التكريم قفل الى روما فوجدها على حدّ قولنا - في اولى مراحل الحمى التي تمخضت بالحرب الأهلية.

وفي مجلس الشيوخ عندما همّ الاعضاء الاصدقاء بالتصويت على منحه موكب نصر، قال انه يفضل ان يمشي وراء عجلة نصر (قيصر) لو أن المسائل سويت بصورة مرضية. وكتب في السر عدة رسائل الى (قيصر) ناصحاً وقابل (پومپي) شخصياً عدة مرات باذلاً جهده لتهدئة الطرفين، ومناشداً كليهما تحكيم العقل. لكن الشق اتسع ولم يعد بالامكان معالجة الأمر وتقدم قيصر من روما وپومپي لا يجراً على البقاء فيها، بل تركها مع كثير من افاضل المواطنين. الا ان (شيشرون) لم يغادرها. وكان المقول عنه انه من اشياح (قيصر) على انه في الحقيقة كان مذبذباً موزع الرأي لايدري الى اي طرف ينحاز فقد كتب في رسائله يقول:

«الى اي طرف ينبغي لي أن اتوجه؟ لپومپي اسبابه العادلة المشرفة لشنّ الحرب. الا ان قيصر هو احسن تصرفاً في ادارته واقدر على وقاية نفسه واصدقائه. لهذا فانا اعلم ممن سأهرب والى من يجب أهرب» لكن عندما اشار اليه تريبانيوس Terbanius احد اصداقاه (قيصر) بقوله أن (قيصر) يرى أن ينحاز الى صفه ويشاركه في مستقبله وهو افضل السبل له، لكن اذا وجد سنه لا تسمح له بمعاناة المتاعب فبامكانه الرحيل الى بلاد اليونان والعيش هناك بهدوء بعيداً عن الفريقين المختصمين. وادرك (شيشرون) العجب من (قيصر) لأنه لم يكتب له شخصياً.

وردّ بغضب قائلاً: انه لن يقدم على عملٍ يشين ماضيه. وهذا ما يمكن استنتاجه من رسائله؛

(٢) في نسخة أخرى Caelius.

وراح (ننيوس Nnius) يشجعهم بعد احدي الهزائم ويطلب منهم ان لا يقطنوا ولا يفقدوا الأمل فما زال في معسكر پوميبي نسور سبعة. فقال شيشرون:

- نصيحة ممتازة! لو كُنّا نحارب الزأغ ليس إلا.

وظلّ يشددّ (لابينوس Labienus) على اهمية بعض النبؤات التي اشارت الى ان (پوميبي) سينتصر فقال شيشرون

- بالضبط فانها نعم الاستراتيجية تلك التي ادت بنا الى خسارتنا معسكرنا الآن.

بعد معركة (فرساليا) التي لم يحضرها (شيشرون) لوعكة ألمت به وماتلاها من فرار (پوميبي)، بقي تحت امرة (كاتو) قوات كبيرة واسطول ضخم في (دراكيوم) فرغب في تسليم القيادة لشيشرون بمقتضى القانون وبحسب الاقدمية في المنصب القنصلي ولما رفض ذلك وابى مشاركتهم في تصميمهم على مواصلة الحرب، تعرضت حياته الى خطر عظيم وكاد يقتل ووصمه پوميبي الأبن واصدقاؤه بالخيانة وجردوا سيوفهم وسدودها الى صدره، فتدخل (كاتو) وانقذه بشق الانفس، ثم اخرجته من المعسكر. فاستقل البحر ووصل الى (برنديزيوم) وتأخر فيها بعض الوقت وتنظراً (قيصر) الذي كانت مشاغله في آسيا وقصر قد أخرته. ولما انبىء بأنه وصل (تارنتوم) وانه منطلق الى برنديزيوم برآ، أسرع اليه، ولم يكن فاقد الأمل كلياً بالنتيجة، الا انه كان يشعر بالحجل لاضطراره الى جسّ ردود فعلٍ عدوٍ وفاتح امام عدد كبيرٍ من اليهود. ولم يكن في الواقع حاجة به اليته ليقول او يفعل اي شيء غير لائق به ولمحه قيصر مقبلاً يتقدم الجماعة بمسافةٍ، فنزل لاستقباله حالاً، وحيّاه وافسح له وهما سائران يتحدثان لوحدهما - مسافة فرلنگ واحد. ومنذ ذلك الحين وهو يعامله باكرام واحترام حتى انه لما كتب (شيشرون) خطبه في مدح (كاتو) انتهز (قيصر) مناسبة الردّ عليه. ليمدح حياة شيشرون وبلاغته مقارنة اياه بپركليس و(ثيرامينس Theranenes) وكان عنوان رسالة الأول (كاتو) وعنوان رسالة الثاني (ضدّ كاتو).

وروي كذلك، إن (كوينتوس ليگاريوس Quintus Ligarius) احيل الى المحاكمة لأنه رفع السلاح ضدّ (قيصر) فقبل شيشرون مهمة الدفاع عنه. فقال (قيصر) لاصدقائه

- ولم لا نسمع خطبة لشيشرون بعد مرور هذا الوقت الطويل؟ واما عن (ليگاريوس) فكلنا يعلم منذ زمن طويل انه مجرمٌ وعدو.

ولكن لما بدأ (شيشرون) يتكلم بدت كلماته مثيرة للعواطف بصورة لا تصدق. وما ان مضى في دفاعه شرطاً متنقلاً من عاطفة الى أخرى بلغة ساحرة أسرة حتى اخذت آلوان

وما ان زحف (قيصر) على اسبانيا حتى ابحر للانضمام الى معسكر (پوميبي) ورحب به الجميع خلا (كاتو) الذي انتحى به جانباً واخذ يؤنبه على مجيئه قائلاً انه ارتكب خطأ كبيراً في الانضمام الى (پوميبي). وقال عن نفسه: اما انا فمرتبط بكلمة شرف أن لا اتخلى عن الخط السياسي العام الذي سرت عليه منذ البداية، الا انك قد تكون اكثر فائدة لبلادك واصدقائك لو بقيت في الوطن، دون ان تنحاز الى فريق، وأن تكيف نفسك للاحداث عندما تعرف ماذا ستكون النتيجة.

امّا الآن فقد جعلت نفسك عدواً لقيصر دون ضرورة ولا سبب وجيه، وجئت هناك للتعرف الى هذه الاخطار العظيمة التي تهددنا جميعاً.»

اقلقت هذه العبارات واثرت على عقله، كما احزنه ايضاً ان (پوميبي) لم يعتمد عليه في مهمات كبيرة، وهو الملموم بهذا لأنه ما انفك يعلن عن اسفه لمجيئه، وينتقص من تدابير (پوميبي) العسكرية وينتقد خطئه من وراء ظهره دائماً. ولم يكن يتوزع عن القاء النوادر والملح سخرية من رفاقه في السلاح. ومع انه كان في الواقع يتجول في انحاء المعسكر بوجه عبوس وملامح كئيبة الا انه كان يحاول دوماً التسرية عن الآخرين ودفعهم الى الضحك بنكاته رغم انفهم. والأمر يستأهل منا ايراد بعض الامثلة:

فضّل (دوميتيوس) للقيادة شخصاً غير عسكري، وبررّ تفضيله بأنه انسان متواضع، واسع الفهم والبصيرة. فقال شيشرون:

- فلم لا تعينه معلماً لأولادك اذن؟<sup>(3)</sup>

وسمع مدحاً بـ(بثيوفانس) اللسبي رئيس سلاح الهندسة في الجيش، للطريقة الفذة التي اتبعها في تعزيتهم على خسارة اسطولهم فقال:

- انها لرحمة في الواقع أن يكون في القيادة اغريقي!

وعندما كان (قيصر) يتابع نجاحاً اثر نجاح وقد كاد ان يطوق پوميبي كان (لنتولوس) يذيع ابناء تفيدي بأن اصدقاء (قيصر) قد هبطت معنوياتهم وثبطت همهم فقال شيشرون معقياً:

- ذلك لأنهم لا يهتمون الخير لقيصر ولا يريدون ان ينتصر.

وقال للمدعو (مارجيوس) الذي قدم مؤخراً من ايطاليا واخبرهم بانتشار اشاعة قوية في روما، تقول ان پوميبي قد ضرب عليه الحصار:

- ولهذا ركبت البحر الى هنا انك تشاهد الأمر بأم عينك!

(3) في نسخة: «لماذا لا تعينه معلماً؟»

(قيصر) تفرّ وتقبل وكان واضحاً أن كلّ عاطفة فيه قد تحركت وجاشت به. وأخيراً عندما تطرق الخطيب الى معركة فرساليا<sup>(٤)</sup> وصل تأثره منتهاه، وراح جسده يتهزّ وسقطت بعض الاوراق من يده. وهكذا غلب على أمره وبرأ (ليگاريسوس).

ومنذئذ انقلبت الجمهورية الى حكم الفرد المطلق، انسحب (شيشرون) من الحياة العامة وطلق السياسة وراح يمضي اوقات فراغه في تعليم الفلسفة لقصّاه من الشبان. وكانوا كلهم يتحدرون من ارقى واشرف الأسر الرومانية وهو مدين بصورة رئيسة لهذه العلاقة الحميمة في عودته الى معترك الحياة السياسية واستعادته نفوذه العظيم في روما، وانشغل ايضاً في كتابه وترجمة المحاورات الفلسفية، ونحت تعابير ومصطلحات لاتينية لمختلف الكلمات المستخدمة في المنطق والعلوم الطبيعية. ويقولون بأنه كان اولّ من أوجد الاسماء اللاتينية لهذه التعابير:

Phantastia, Syncatathesis, eporhe, Catalepsis, atamon, ameres, Kenon.

وسلسلة في اللسان اللاتيني اماً بطريق الاستعارة، او بايجاد مصطلحات جديدة مقاربة لها. وعلى سبيل التسلية عالج ايضاً نظم القريض، وقيل انه اذا عكف عليه، خرج في اليوم التالي وقد نظم خمسمائة سطر في ليلة واحدة. وقضى الشطر الاكبر من حياته في مفناه الريفي بد(توسكولوم Tusculum) وكتب لاصدقائه قائلاً انه يحيا حياة (ليرتس Laertes) إما على سبيل المزاج كما هي عادته، أو تعبيراً عن طموحه ورغبته في المساهمة بالشؤون العامة التي جعلته غير راض عن الاوضاع السائدة وقتذاك. وقلما كان يأتي الى روما؛ واذ غشيها فللتسليم على (قيصر)، وكان على رأس من اعتاد أن يقترحوا ضروب التكريم له، ويحاولون دائماً اختراع تعابير مديح له نفسه او لأعماله فمثلاً هناك تعليق له على تماثيل (پومپي) فقد تمّ رفعها ونقلها من مواضعها، الا ان قيصر أمر باعادتها إلى امكنتها؛ وعندما اقيمت قال شيشرون: ان (قيصر) بعلمه الكريم لم ينصب تماثيل (پومپي) فحسب وانما ثبت تماثيله نفسه تثبيتاً راسخاً.

وقيل أنه فكر في كتابة تاريخ بلاده؛ مضيفاً اليه جزءاً كبيراً من تاريخ الاغريق ومضمنا اياه كل الحكايات والأساطير الغابرة التي وقف عليها وتولى جمعها. الا أن مختلف الاحداث العامة والخاصة المؤسفة والمصائب التي كان معظمهما من عمله ونتيجة اخطائه، حالت بينه وبين تحقيق هذه الأمنية. فبالدرجة الأولى طلق زوجه (ترنتيا)، متعللاً بأنها اهملته اثناء الحرب، وتركته يسافر وهو خالي الوفاض لا يملك ما يقيم به اوده في رحلته، وزعم انه لم يجد لديها عطفاً وحناناً عند عودته الى ايطاليا اذ انها لم تلحق به في (برنديزيوم) طول بقائه.

(٤) فرسالوس ايضاً بالرومانية.

وانها لم تهيه لبتنهما الصغيرة التي قطعت هذه الرحلة الطويلة اليه، مايليق بمثيلايتها من رفقة ومال كاف لنفقات السفر، فضلاً عن كونها خلقت له منزلاً خالياً عارياً عن الأثاث وورطته في ديون كبيرة. وهذه بالتاكيد اكثر الاسباب وجاهة للطلاق. لكن (ترنتيا) التي تنكر كل هذه المزاعم تتمسك باقوى دفاع زودها به هو نفسه. اذ لم يمر وقت طويل على طلاقها، حتى تزوج باكراً صغيرة السن وقع اسير جمالها وهذا ما جعل حجتّها اقرب الى التصديق، وعلى أن عتيقه (تيرو Tiro) يقول أنه اقدم على هذه الزيجة ليتخلص من ديونه، لأن الفتاة كانت في غاية الغنى. وكان (شيشرون) قد نصّب قيماً على اموالها ووصياً عليها. ولما كان مدينا بمبالغ طائلة فقد نصحه اصداقاه واقرباؤه بالزواج منها بغض النظر عن الفارق الكبير بين عمريهما، واستخدام مالها لايفاء دائينه حقوقهم.

ونوه (انطوني) بهذه الزيجة في ردّه على «فيليبياته» ووجه اليه التأنيب الشديد عائياً عليه طلاقه امرأة عاشت معه حتى مرحلة الشيخوخة، واذف بعض اللمحات الساخرة الطريقة حول مزاج شيشرون البيتي، وعقم تصرفاته وبعدها عن طباع المحارب. وبعد فترة قصيرة من زواجه توفيت بنته (توليا) زوج (لنتولوس) وهي على فراش الوضع، وكانت من قبل زوجاً لـ(پيزو) الذي مات وتركها فترملت. فتقاطر الفلاسفة وذوو العلم من كل صوب لتعزيتته، وكان حزنه عليها شديداً جداً، حتى انه طلق زوجه الجديدة لأنها اظهرت السرور لموتها.

هذا ما كانت عليه احوال (شيشرون) المنزلية آنذاك. لم يشارك (شيشرون) في التكتل الذي كان يتخذ شكله ضدّ (قيصر) مع انه كان من اقرب اصداق (بروتوس) وموضع سرّه، واحد الذين يشكون بألم ماآلت اليه الاحوال السياسية، ويرغبون في عودة نظام الحكم السالف. الا أن المتأمرين كان يتخوفون من جنبه، ويحسبون حساب شيخوخته والشيخوخة تجعل اجراً الناس، جباناً هيباً.

وبعد ان نفذ (بروتوس) و(كاسيوس) والباقون خطتهم، تجمع اصداق (قيصر) ضدّهم وخيف من حرب اهلية ثانية تبتلى بها روما. وفي هذه اللحظة الحرجة دعا (انطوني) وكان قنصلاً - مجلس الشيوخ للانعقاد والقي كلمة قصيرة حول اجلال الوثام والتصافي واجراء المصالحة الوطنية، وتبعه (شيشرون) بخطبة مطولة تناسب المقام، وحمل المجلس على احتذاء حذو الآثنين بالتصويت على قانون العفو العام عن كل من ساهم في قتل (قيصر) وان يعطى كلا من (بروتوس وكاسيوس) حكم اقليم. ولكن لم ينفذ ايّ من هذين القرارين. ذلك لأن الجمهور كان يعطف على (قيصر) على كل حال فعندما شاهد الجمهور جثته محمولة خلال (الفوروم) وعندما انشأ (انطوني) يعرض ثيابه الدامية التي مزقتها طعنات السيوف اجتاحتته

سورة من الغضب وهاج هائج، وانطلقوا في اثر القتله وتوجهوا الى منازلهم وبأيديهم المشاعل لاحراقها الا ان المتآمرين اندرو بما ينتظرهم فاستبقوا الخطر وبادروا الى ترك المدينة حفظاً لحياتهم.

وبرز (انطوني) فجأة كالنجم الثاقب. واصبح سيد الموقف الذي لا يقف امامه شيء. وبات القلق يغزو نفوس الجميع - من ان يعمد الى التفرد بالحكم المطلق. وكان شيشرون اكثر الناس توجساً من هذا. و(انطوني) كان من الجهة الثانية يحذر من عودة نفوذ شيشرون وتعاضمه ومن العلاقة الحميمة التي تربطه (بيروتوس) لذلك صار يتضايق من وجوده في المدينة. اصف الى هذا، التحاسد الذي نشأ بينهما من تنافر طبيعي في اخلاقهما. وخاف (شيشرون) سوء العاقبة وفكر في النزوح الى سورية معاوناً (لدولابلا) الا ان القنصلين المنتخبين (هرتيوس Hertius) و(پانسا Pansa) اللذين كانا سيخلفان (انطوني) رجيا به بالبقاء وتعهدا بسحق نفوذ خصمه ان بقي في روما ظهيراً لهما. وكانا شخصين طيبين وصديقين له، فصدقهما الى الحد الذي قرر البقاء ولم يكن واثقاً منهما كل الثقة. وذهب دولابلا وحده. واتفق مع القنصلين ان يقضي الصيف في أثينا وان يغد عندما يتوليا سلطانهما القنصلية. فسافر وحده الا ان بعض التأخير طرأ على رحلته وكما يحدث غالباً فقد وردت انباء جديدة له من روما؛ فقد قيل ان هناك تغييراً عجبياً طرأ على سلوك (انطوني)، وان كل أعماله وسياسته تبدو وكأنها تتجه الى ارضاء مجلس الشيوخ، وان كل ما يلزم في الوقت الحاضر هو عودته لتستقيم الأوضاع على افضل الاسس من الاستقرار. فلام نفسه لافراطه في الحذر وقفل راجعاً الى روما، ولم يخب ظنه في اولى توقعاته؛ فقد اجتمعت حشود هائلة من الناس لاستقباله حتى ان التحايا وخطب الترحيب في ابواب المدينة وفي اثناء دخوله اليها استغرقت يوماً كاملاً تقريباً.

في صباح اليوم التالي دعا (انطوني) المجلس للانعقاد، وطلب حضور (شيشرون) الا انه اعتذر بوعكة مرضية الزمته الفراش، ولم يحضر. على ان سبب تخلفه الحقيقي عن الحضور هو الخوف على ما يبدو من دسياسة دبرت له إما لشك ساوره، او لمعلومات وصلته وهو في طريقه الى روما. فاطهر (أنطوني) استياءً عظيماً وشعر بالاهانة وتوعده بارسال جنود لجليه بالقوة او لاحراق بيته، الا ان اناساً كثيرين توسطوا في الأمر ورجوه ان لا يفعل شيئاً من هذا القبيل ففقع بقبول ضمانات من (شيشرون) على حسن سلوكه. وبعد هذا كان يتجاهل احدهما الآخر عندما يلتقيان. وبقي كلاهما على هذه الحال يحاذر أحدهما من الآخر حتى جاء (قيصر) الأصغر من (اپولونيا Apollonia) وهو اول ورثة (قيصر). فبدأ النزاع بينه وبين (انطوني) حول خمسة وعشرين مليون درهم كان انطوني قد احتجزها من التركة.

ونتيجة لهذا قدم (فيلپس Philippus) زوج ام (قيصر) الشاب ومارچلوس زوج اخته مع الشاب نفسه الى (شيشرون) واتفقوا معه على ان يضع بلاغته ونفوذه السياسي عند المجلس وعمامة الشعب تحت تصرفهما، وان يتولى (قيصر) الشاب امر الدفاع عن شيشرون بنفوذه المالي، وبما هو تحت امرته من القوات الكبيرة التي خدمت تحت لواء (قيصر) الاكبر. وكان من المعتقد بوجود سبب آخر اقوى من هذه الأسباب، حمل (شيشرون) على قبول صداقة (قيصر)؛ في ايام حياة (پومپي) و(قيصر) يبدو ان شيشرون رأى حليماً مؤداه أنه كان يدعو بعض ابناء الشيوخ لدخول الكابيتول لأن (چوبتر) كان يريد أن يختار واحداً منهم لحكم روما. وجاء المواطنون مسرعين بكل شوق ووقفوا حول الهيكل، والفتيان جالسون في اوشحتهم المشاة بالارجوان وكان الطير على رؤوسهم، ثم فتحت الأبواب فجأة واصطف الفتية واحداً بعد الآخر، وطفقوا يرون امام الاله بكل انتظام وهو يستعرضهم ويتفحصهم، ثم انه اخذ يصرفهم تباعاً وكلهم أسف، حتى وصل (قيصر) الفتى امام الرب، فمد اليه چوبتر يده وقال:

- ايها الرومان، عندما يصبح هذا الفتى سيد روما؛ سيوضع حدٌ نهائي للحرب الأهلية.

قيل ان (شيشرون) رأى هذا الحلم ومنه كون لنفسه صورة واضحة المعالم لملامح الشاب، بقيت منطبعة في ذهنه وان كان يجهل شخصياً. وفي اليوم الذي تلا ليله الحلم، التقى وهو في طريقه الى (مخيم مارتوس Campus Martius) بالفتيان وهم عائدون من العابهم الجمنازية، يتقدم الفتى الذي رآه في الحلم فادركه العجب وسأله عن اصله وفصله فبتين له انه (قيصر) الشاب، الذي لم يكن ابوه (اوكتافيوس) معروفاً، وان امه هي (آتيا Attia) بنت اخت قيصر. ولهذا السبب تبناه (قيصر) الذي لم يعقب، وجعله في وصيته وارثاً لاملاكه ومنزله. ومنذ ذلك الحين كان شيشرون - على ما قيل - يراقب الشاب بكل اهتمام كلما صادفه، وكان الفتى يقلل اهتمام شيشرون بلطف ويرحب بعطفه. وقد شاء آله الحظ ان يولد الفتى عندما كان شيشرون قنصلاً.

ومع أن هذه الأسباب هي التي أثرت عن نشوء العلاقة بين الرجلين. الا أن الدافع الحقيقي الذي جعل شيشرون ظهيراً للفتى هو اولاً بغضه لانطوني. وثانياً طبعه الذي كان يدفعه دوماً الى الشهرة والبروز. فتصور بأنه يضيف قوة (قيصر) الى نفوذه السياسي. والفتى كان يجسم له هذه الفكرة الى الحد الذي صار يناديه «بيابايت» وهو ما اغضب (بروتوس) الى حد كبير فكتب في رسائله الى (اتيكيوس Atticus) مهاجماً شيشرون بقوله: «من الجلي ان تودده الى قيصر خوفاً من انطوني، لم يكن يستهدف به حرية بلاده وانما كان يخطب ود طاغية، ليكون عطفاً على شخصه ليس الا». ومع هذا، فان (بروتوس) احتضن ابن (شيشرون) الذي كان

يدرس الفلسفة في آثينا، وسلمه قيادة عسكرية واستخدمه في عدد من المهمات الناجحة.

في تلك الفترة بلغت سطوة (شيشرون) أوجها في المدينة. فكان يعمل ما يشاء وما يهوى، استظهر وتغلب على (انطوني) وطرده، وارسل القنصلين (هرتيوس) و(پانسا) على رأس جيش للقضاء عليه. كذلك حمل المجلس على أن يسمح (القيصر) بالحرس للكتوري، وشعار الپريتور بوصفه يحارب دفاعاً عن بلاده. وبعد أن هزم (انطوني) في معركة سقط فيها القنصلان قتبيلين، اتحد الجيشان تحت راية (قيصر). فخاف المجلس من العاقبة وتهوّل حظه العجيب، وحاولوا بالجوائز وضروب التكريم سحب الجيش منه وتحديد سلطانه متعللين بأن الجيش لم يعد وجوده ضرورياً بعد دحر انطوني. وهذا ما كان يخشاه (قيصر) فإرسل بعض اصدقائه الى (شيشرون) سراً ليرجوه ويقنعه بالسعي للفوز بالمنصب القنصلي لهما معاً. وقال انه لن يزاحمه في السلطة العليا، وسيدعه يتصرف بشؤون الدولة كما يشاء، فحسبه الأسم والشهرة لا غير. وقد اعترف (قيصر) نفسه في ما بعد أنه استخدم حبّ شيشرون للسلطة بدافع الضرورة الملحة لأنه كان يخشى أن تسرح جنوده او ان يجد نفسه معزولاً. فوعده بالمساعدة والمساندة في الانتخاب واقنعه بالترشيح للمنصب القنصلي.

وهنا استسلم شيشرون بالتأكيد؛ لكلمات شاب خادعة وهو في عمره المتقدم، وسمح لنفسه أن يسقط في الفخ. فساعد (قيصر) في الانتخابات. وكسب له رضا مجلس الشيوخ. ولأجل هذا لامه اصدقاؤه في حينه، ثم سرعان ما ادرك هو بأنه الحق الدمار بنفسه، وخان بلاده في حريتها. اذ ما ان استتب الأمر للفتى وتولى وظيفة القنصل حتى ودّع شيشرون وداعاً أخيراً وتصالح مع (انطوني) و(ليبيدوس Lepidus) ووحدا قواهم وقسموا الحكومة فيما بينهم كأنها قطعة أرض. ثم نظموا قائمة بمائتي شخص قرروا القضاء عليهم بالموت. إلا أن معظم الخلاف الذي ساد مناقشاتهم كان موضوع شيشرون، فانطوني أبى كل اتفاق إلا اذا ادرج اسم شيشرون في رأس القائمة. و(ليبيدوس) متفق مع انطوني في هذا. وقيصر يعارض الاثنين. وقيل أن قيصر ظلّ يومين كاملين وهو مصر على استنقاذ شيشرون إلا أنه استسلم في اليوم الثالث وتخلّى عنه وكانت مواد اتفاقهما هي الآتية:

يتخلّى قيصر عن (شيشرون)، ويتخلّى (ليبيدوس) عن أخيه (پاولوس) ويتخلّى انطوني عن خاله (لوچيوس قيصر). وهكذا تخلّى الثلاثة عن كل مشاعر واعتبارات انسانية مفسحين المجال لاحقادهم ومظالمهم وبذلك برهنوا ان ليس ثم حيوان اشد وحشية من فصيلة البشر عندما تتسلح عواطفه بالقوة. لقد توصل الثلاثة الى هذا الاتفاق بعد اجتماع دام ثلاثة ايام كاملة في بقعة قريبة من بلدة (بونونيا) يحيط بها النهر ولا تبعد كثيراً عن المعسكر.

كان (شيشرون) اثناء هذا كله، في مفناه الريفى قرب (تسكولوم) وكان معه اخوه وهناك سمعوا ببيان اهدار الحقوق. فقررا الرحيل الى (استورا Astura) وهي مربع ليشيشرون على ساحل البحر، ومن هناك يركبان سفينة تقلهما الى مقدونيا حيث (بروتوس) معسكر هناك بقوات كبيرة كما تواترت الانباء عنه. فانطلقا معاً، كلّ في محفة وقد اثقل الحزن قلوبهما. وكثيراً ما كان يقفان وتوضع المحفة الى جانب المحفة ويعزي احدهما الآخر ويهون عليه.

وكان (كوينتوس) اكثرهما همّاً وترحاً. وبدء يفكر في بؤسه وقال أنه لم يتزود بشيء من المال، ولم يكن عند (شيشرون) ايضاً ما يكفي لنفقات الرحلة. فارتأى (كوينتوس) أن يواصل شيشرون هروبه وان يعجل هو بالانضمام اليه بعد أن يتزود من منزله بما هو ضروري. ذلك هو السبيل الذي اتفقا عليه، فاعتنقا وافترقا وهما يبكيان.

لم تمرّ ايام قلائل على هذا حتى وقع (كوينتوس) ضحية غدر خدمه، فقد افشوا سرّه لمطارديه فادركوه وقتلوه مع ابنه الصغير. على ان (شيشرون) بلغ (استورا) فوجدت سفينته فصعد اليها في الحال، ومخرت به العباب بريح طيبة حتى (چيركسيوم). ومن هناك اراد الملاحون الاقلاع رأساً إلا ان شيشرون فضل النزول منها اما خوفاً من هياج البحر او لأنه لم يفقد تماماً ثقته بقيصر وعاد متجها صوب روما وقطع حوالي مائة فرلنگ، ثم ادركه الخوف ثانية فغير رأيه وقفل راجعا الى البحر. وقضى ليله على الساحل تتناهبه المخاوف والافكار السوداء؛ فمرة يقرر التسلل سراً الى بيت (قيصر) نفسه على حجرة المذبح المنزلي، ليجلب لعنة السماء عليه. إلا ان الخوف من التعذيب، جعله يعدل عن هذه الخطة. وهكذا بعد أن قلب في رأسه مختلف المشاريع المضطربة، والاراء المتناقضة، أمر خدمه بالذهاب به الى (كايتا Caieta)<sup>(5)</sup> وهنا كان لديه عقار ومنزل لطيف جداً للاصطياف عندما تكون الريح الإتسية Etisian على أرقها. يوجد في هذا الموضع مزار لا پوللو لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر ومنه هبّ سرب من الغربان محلقة في الفضاء بضجة عظيمة، واتجه الى سفينة (شيشرون) وهي في طريقها الى اليابسة. فحط على خشبة الصاري، فريق منه ينعق وفريق ينقر رؤوس الحبال، فتطير الجميع من هذا، ونزل شيشرون الى اليابسة ثانية ودخل منزله واستلقى على فراشه لبيصيب بعض راحة ويهدئ من خواطره واستقر عدد من الغربان على النافذة واخذت تنعق نعيقاً مقبضاً للصدر. وحطّ غراب منها على الفراش حيث شيشرون مستلق تحت الاغطية. وراح ينقرها ويسحبها حتى ازاح الغطاء عن وجهه. وعندما رأى الخدم هذا، اخذوا يلومون انفسهم لوقوفهم موقف المتفرج منتظرين قتل سيدهم لا يفعلون شيئاً

(5) في نسخة: كاپيتي Capitae.

للدفاع عنه. في حين هذه المخلوقات الحيوانية اقبلت لمساعدته والعناية به في بؤسه وسوء حظه. فاقبلوا عليه يتوسلون به حيناً، ويرغمونه حيناً، حتى حملوه بالمحفة الى ساحل البحر.

في تلك الاثناء ادركهم القتلة. ويقدمهم (هرنيوس Hernnius) قائد المائة، و(پوپيلليوس Popillius) وهو ضابط في الجيش كان شيشرون قد تولى الدفاع عنه عندما حوكم بتهمة قتله أباه. بلغوا المنزل فوجدوا ابوابه مقفلة. فكسروها ودخلوا وكان معهما مساعدون ولم يعثروا عليه، وانكر الموجودون في المنزل معرفتهم بمكانه وقيل لنا أن شاباً كان شيشرون قد لقنه العلوم العقلية والفنون يدعى (فيلولوجس Philologus)، وهو عتيق اخيه (كونتيوس)، يادر متطوعاً الى اخبار الضباط بأن المحفة تأخذ الآن سبيلها الى ساحل البحر خلال الماشي الضيقة الظليلة، فاخذ الضابط قبضةً من الرجال واسرع ينتظره في الموضوع الذي يخرج طريق من الغابة. ولمح (شيشرون) مطارده (هرنيوس) يعدو في الماشي. فأمر خدمه بانزال المحفة، وربت بيسراه على ذقنه وازاحه عليها كما اعتاد ان يفعل وتطلع الى قاتليه بنظرة ثابتة. وكان الغبار يعلوه، وقد ظهر الاهمال على شعر رأسه ولحيته، وبدا التعب والارهاق على وجهه. وحجب الواقفون وجوههم عندما تولى (هرنيوس) قتله بعد ان اخرج له عنقه من المحفة. وكان له من العمر اربعة وستون سنة. قطع (هرنيوس) رأسه، ويتوصية خاصةً من (انطوني) قطع ايضاً يديه اللتين دونتا الفيليبيات (اختار شيشرون هذا الاسم للخطب والمقالات التي كتبها ضدّ (انطوني) وظلت تعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا).

عندما جيء باعضاء شيشرون المبتورة الى روما كان (انطوني) في اجتماع معقودٍ لتنظيم انتخابٍ فلما سمع بالنبا وتطلع الى منظر الاطراف صاح:

- والآن فلنضع حداً « لاهدار الحقوق »

وأمر بأن يثبت الرأس واليدان من الروسترا. فوق كيش السفينة وهو موضع الخطابة في الفورم. وكان منظرًا استنكره الرومان واشمأزوا منه. وبدا لهم وكأنهم يرون هناك لا وجه شيشرون بل صورة لنفس (انطوني) ومع هذا كله فقد اظهر (انطوني) لمح واحد من الشعور الطيب حين دفع بالواشي (فيلولوجس) الى ايدي پومپونيا Pomponia امرأة (كوينتوس). وما أصبح تحت رحمتها حتى راحت تنزل به انواعاً من اهل العقوبات. منها أنها جعلته يقطع من لحمه اجزاءً اجزاءً ويشويها ويأكلها. هذا ما رواه لنا بعض الكتاب الا ان (تيرو Tiro) عتيق شيشرون لم يأت الى ذكر شيء من غدر (فيلولوجس).

بعد مرور زمن طويل، كان (قيصر) يزور أحد ابنا بنته، فوجده يمسك بكتابٍ من كتب

شيشرون، حاول اخفاه تحت طيات ثوبه خوفاً من جده، فلحظ (قيصر) ذلك وتناول الكتاب منه واخذ يقلب اوراقه وهو واقف، ثم اعاده اليه قائلاً:

- هذا يا صغيري، رجل عالمٌ ومحبٌ لوطنه.

هذه الرواية حكيت لي والعهدة على الراوي.

وبعد ذلك بقليل قضى (قيصر) على انطوني، وكان قنصلاً. وجعل ابن (شيشرون) زميلاً له في المنصب القنصلي، وفي عهد هذه القنصلية اصدر مجلس الشيوخ قراراً بانزال تماثيل انطوني كلها، ومحا كل آثار التكريم والتعظيم التي حبي بها ومنع ان يطلق اسم (ماركوس) على ابنا الاسرة التي ينتمي اليها. وبهذه الوسيلة اوكلت العناية الالهية إلى اسرة شيشرون، باعمال القصص الأخيرة من (انطوني).

١٩٧٢/٢/٨



كاتو) اورد مجموعة من الفكاهات (اغاظَةً لكاتو) على «المتناقضات» السخيفة المعزوة للمدرسة الرواقية، فسرت القهقهات من الجمهور الى القضاة.

فعقب كاتو قائلاً لمن حوله بابتسامة هادئة:

- ايها الاصدقاء، اي قنصل مضحك عندنا؟

الحق يقال ان شيشرون كان يمتاز بطبع مرح فكاهي جداً. وكان يبدو باسم الشجر ابلج الوجه دائماً، في حين كان ديموستينس يبدو شديد الانشغال والتفكير قلق الخاطر، وهو مظهر ظلّ يلزمه الاً فيما ندر، ولذلك عدة اعداؤه جلفاً فظاً، كما اقر هو بذلك. ويتضح من مدوناتهما العديدة أن (ديموستينس) لم يدح نفسه الاً باعتدال ومن غير نيو، عندما تدعو الحاجة الى ذلك، او ان كان في ذلك فائدة هامة. وهو في المناسبات الاخرى متواضع مقتصد في الثناء على نفسه. الاً أن اختيال (شيشرون) بنفسه الذي لا يعرف حدوداً - في خطبه ورسائله - تدفعه الى الشهوة العلامة للبروز والمعالي. فتراه يهتف دائماً بوجود نزول السلاح عن مكانته للوشاح، وتنحية اكليل غار الجندي ليحل اللسان محله. ولم يقتصر على تعظيم اعماله ومنجزاته، بل هداها الى خطبه تلك التي القاها، وتلك التي كتبها ونشرها. فيخيل اليك انه دخل مباراة خطابية للصبيان حول من هو أفضل لساناً. مع الخطيبين (ايسوقراطس، وانكسيمينس) لا بالذي اضطلع بمهمة قيادة البلاد الرومانية ورعاية مصالحها،

«ان الجندي الكامل السلاح والعدة يربح الخصم»

من الضروري حقاً للزعيم السياسي ان يكون خطيباً متمكناً. لكن من الخسة ان يستمتع المرء ويتمطق بتمجيد قوة بيانه. ومن هذه الناحية كان (ديموستينس) سامي الفكر وقوراً بصورة غير اعتيادية. كذلك كان يعد مقدرته الكلامية، مسأله تمرين يعتمد النجاح فيه كثيراً على سلامة قلب المستمعين وطيبتهم. وهو يعدّ المختالين بانفسهم اناساً تافهين منحطي الخلق.

كان كلاهما يملك المقدرة على استمالة جماهير الشعب بنفس المستوى. فكانت الجيوش والمعسكرات اطوع اليهما من البنات وكان قادتها في حاجة دائمة اليهما. مثل (خاريس Charis) و(ديوبيثس Diopithes) و(ليوستينس) بالنسبة الى (ديموستينس). و(پوميبي) و(قيصر) الاصغر، بالنسبة الى شيشرون وهذا الاخير يقربه في مذكراته الموجهة الى (اغريباً Agrippa) وميكيناس Maecenas على أن ما قيل، وظنّ بوجود اثبات مزاج الرجال وطباعهم في تجربتها بامكنه السلطة والحكم، حيث تتحرك كل عاطفة فيهم وينكشف كل نقاط الضعف، فهذا مما لم يتح لديموستينس، ولم يكن في وضع يمكنه قط من تقديم مثل هذا

## المقارنة بين ديموستينس وشيشرون

دونا ما تيسرت لنا معرفته من سيرتي (ديموستينس) و(شيشرون) بظروفهما القمينة جداً بالتأمل. وان نحن تركنا جانب المقارنة الدقيقة ما بين مقدرتهما الخطابية، فيبدو لي ان هناك الكثير الذي يجب ان يقال في مجال المقارنة العامة.

فلأجل ان يتمكن ديموستينس من ناصية الكلام استخدم كل قواه، أطيبيعية كانت ام مكتسبة، وسخرها جميعاً لهذه الغاية حتى سبق بقوة عارضته واندفاعه وتأثيره، كل معامريه سواء من جهة الموضوعات السياسية او القضائية التي طرقها، او من جهة العظمة والسمو اللذين فاق بهما كل الخطباء المادحين والمؤننين وفاق بالدقة والشمول العلمي كل بلغاء زمانه ومنطقييهم. وكان (شيشرون) عالي الكعب في الثقافة، بانكبابه المثابر على الدراسة. وبذلك بزّ الجميع في سائر فروع العلم وترك عدداً لا يحص من الرسائل الفلسفية بقلمه على المبادئ الاكاديمية. واننا لنراه في الواقع يحاول دائماً حتى في خطبه السياسية والقضائية ان يكشف عن طول باعه في العلوم وسعه اطلاعه. كانت خطب (ديموستينس) خالية من عنصر الفكاهة، صُيغت كلها صياغة جدية لغرض التأثير الحقيقي، لا يشم منها ريح المصباح كما يقول (پيثياس) هازلاً بل ريح الجد واصالة الرأي والاخلاص الهادي المتزن، والصرامة وكل ما يعبر عن مزاجه الطبيعي. في حين كان تعلق (شيشرون) بالنكتة ولوعه بالسخرية، كثيراً ما ينحدر به الى الاسفاف والبذاءة وكان حبه في اتخاذ المناظرات الجديدة في القضايا القانونية مادة للهزل، ولوعه بارحاء الملاحظات الظريفة لمنفعة موكلية، يجعله غير حافل قط بكل ما يمت الى الكرامة والحشمة. فمثلاً قوله في معرض الدفاع عن (كيليوس Caelius) «انه لم يقدم على عمل سخيف، الى حد اغراقه وافراطه في اللذائذ والمسرات، انه لمن الجنون ان لا يستمتع بالاشياء التي يملكها، لاسيما وان معظم الفلاسفة الكبار اكدوا بان اللذات هي في رأس قائمة الاعمال الصالحة!».

وروي لنا ايضاً انه لما قَبِل (شيشرون) وكان فضلاً، مهمة الدفاع عن (مورينا) ضدّ المتهم

البرهان عن نفسه اذ لم يقبل منصباً خطيراً ولم يضطلع بمسؤولية سياسية ذات تبعات ولم يتقدم جيشاً لقتال (فيليب) من بين تلك الجيوش التي عبأتها قوة عارضة وذرية لسانه. اما (شيشرون) فقد ارسل الى صقلية بمنصب (كويستور) وارسل الى كيليكيا وكبدوكيا بمنصب (پروقتنصل) في زمن كان حب المال قد ملك على الناس مذاهبهم، والقادة والحكام الذين يعينون خارج البلاد، ينهبون ويسلبون بالقوة الغاشمة مع انهم يعتبرون السرقة جريمة. وبلغ الأمر حداً ان قبول الرشوة ما عاد يعتبر معرةً ومن يقدم عليها باعتدال وشيء من التعفف يخطى بالتقدير والاعجاب. الا ان (شيشرون) قدم اعظم البراهين على احتقاره الغنى، وعلى انه انسان طيب القلب عفّ الضمير في ذلك العصر. وفي روما عندما عند انتخاب قنصلاً، ولكنه اعطي فعلاً صلاحية الدكتاتور المطلق للقضاء على (كاتيلينه) ورفاقه المؤثرين، حقق مقولة افلاطون المأثورة:

«ان محن الدول ونوائبها تأتي الى نهايتها عندما يشاء الحظ ان تجتمع السلطة العليا والعدل والحكمة في واحد».

وقيل في لوم (ديموستينس) أن بلاغته استخدمت للارتزاق، وانه كتب سراً خطاباً (لفورميون Phormion) و(اپللودورس) وهما خصمان في قضية واحدة. واتهم بقبول المال من ملك الفرس. وانه ادين لأخذه رشوةً من (هرپالوس). فلو سلمنا جدلاً بكذب كل من روى عنه هذه الحكايات وهم ليسوا بقلّة فإن ديموستينس مع هذا، لم يكن متعففاً عن قبول الهدايا التي تقدم اليه عرفاناً بجميله او تكريماً له من اشخاص ذوي مقام ملكي. ومن كان من مقرضي المال بالربا البحري الفاحش، لا يقدم هذا الأمر من حقيقته الحكم عليه ولا يؤخر. على اننا نعلم بان شيشرون رفض عدة هدايا من الصقليين ايام كان كويستوراً. وابى قبولها من ملك كبدوكيا عندما كان پروقتنصل. ونرفع عنها من اصدقائه في روما عندما كان منفياً رغم الالحاح الشديد وقد اتينا الى ذكر هذا في سيرته.

زد على ذلك أن نفي (ديموستينس) كان معرةً، بسبب ادانته بجريمة الرشوة. اما نفي شيشرون فقد كان مشرفاً له لأنه انقذ بلاده من شرذمة اوغاد. فعندما هرب ديموستينس من بلاده لم يهتم احد بالأمر. اما نفي (شيشرون) فقد حمل اعضاء مجلس الشيوخ على لبس الحداد ورفضوا اصدار اي قانون قبل صدور قانون بالغاء الحكم على شيشرون. ومهما يكن فقد قضى فترة نفيه في مقدونيا متعطلاً خاملاً. الا ان نفي ديموستينس كان بحد ذاته جزءاً كبيراً من الخدمات التي قدمها لوطنه فقد راح يجوب مدن الاغريق طولاً وعرضاً وانضم الى الاغريق وراح يطرد سفراء مقدونيا مبرهننا على أنه مواطن افضل بكثير من (ثيموستوكلس

والكيباديس) عندما كانا يمران في مثل ظرفه هذا. وصمد الى الأخير في مقارعتة (انتيباطر) والمقدونيين. في حين نجد (ليليوس Laelius) يؤنب (شيشرون) في مجلس الشيوخ لجلوسه صامتاً عندما تقدم الشاب الأمرد (قيصر) طالبا الأذن للتقدم الى المنصب القنصلي خلافاً لاحكام القانون. واتهمه (برتوس) في رسائله بأنه ادار ورعى أعظم واشد طغيان من ذلك الذي ازالوه

واخيراً فان مقتل (شيشرون) يثير في انفسنا الشفقة والرثاء. شيخ هرم يحمله خدامه وهو بحاله يرثى لها فيسيروا به جيئة وذهابا يهرب ويختبئ من موت هو في الواقع قريب منه إن تقيدنا بعامل السنّ وحكم الطبيعة. مع هذا كله يقتل.

ومع ان ديموستينس بدا في اول الأمر ذليلاً متوسلاً الا ان استعداده للموت واحتفاظه بالسمّ يستدعي منا الاعجاب. بل يزيد اعجابنا به استخدامه له عندما عجز هيكل الرب الذي لاذبه عن حمايته فلجأ الى مذبح اعظم ان جاز لنا القول، وحرر نفسه من الجنود والسلاح هازئاً بقسوة (انتيباطر).

ڊيمٽريوس

**DEMETRIUS**  
( Poliocretes )

337 – 283

او

- ستعزفون مثل ذلك.

او كما اعتاد (انتيجينيداس Antigenidas) قوله:

« يكون الشبان اكثر التذاذاً بسماع جيد العزف إن أسمعوها قبله عزفاً رديئاً ».

وذلك يبدو لي باننا سنكون على اكثر الاحتمال اشد اقبالاً وحماسة للقراءة والملاحظة والاعتناء بخير السير، ان احطنا علماً بالردىء منها، والأجدر بالنقد.

ولذلك فالكتاب التالي يتضمن سيرتي (ديميتريوس پوليورغيسستس Demetrius Polior-cestes). وانطونيوس القنصل الثالث. وهما شخصان لا يصدق في غيرهما عبارة كنتك التي قالها افلاطون: « الطباع العظيمة تولد اعظم القبائح كما تولد اعظم الفضائل ». فكلاهما كان شيقاً للنساء، مسرفاً في تعاطي الخمر، مولعاً بالحرب، جواداً سخياً، متلافياً مترفاً، مستبداً عنيداً. وقد طابقت خطوطهما اخلاقيهما، فحياتاهما كانت سلسلة متصلة من الانتصارات العظيمة والانكسارات الكبيرة. من الارباح الفخمة الى الخسارات الموجهة الى السقوط الفجائي الى النهوض غير المنتظر، ليس هذا وحده فقد تشابه موتهما. مات (ديميتريوس) وهو قيد الأسر الفعلي لدى اعدائه، ومات (انطوني) وهو على وشك الوقوع اسيراً في يد اعدائه. ولد (لانتيغونوس) من زوجته (ستراتونيكى Stratonice) ابنة (كورنيسوس Corrhoeus) صبيان. اطلق على الأول منهما اسم عمه (ديميتريوس) واعطى الثاني اسم جدّه (فيليب). ومات (فيليب) وهو صغير. هذا أبسط التفصيل واقصره. لكن بعضهم روى ان (ديميتريوس) لم يكن ابناً لانتيغونوس، بل لأخيه، وان اباه توفي وهو صغير، فتزوج (انتيجونوس) بارملة فعد ابن اخيه ولداً له.

لم يكن (ديميتريوس) بطول ابيه العملاق، وان كان يعد من الطوال. الا أن وجهه كان يتمتع بوسامة فريدة في بابها، ويمتاز بتعابير وملامح اعجزت كل المصورين والنحاتين عن محاكاتها او الوصول الى شبه مقبول بها، كانت ملامحه تجمع بين القوة واللين، والرزانة، والبشر الطفولي. وكان ثم نظرة معينة تنم عن البطولة وملامح العظمة الملكية يشق نقلها تماماً. ولم تكن اخلاقه تكذب، فليس ثم من كان يدانيه في مقدرته على اشاعة حبه والرهبة منه. وكان الطف الندماء وارقهم حاشيةً واكثر الامراء ظرفاً وبذخاً في مجالس الخمر والمآدب اليومية. ولم يكن يدانيه احد في القتال جلدأً وصبراً وحميةً واقداماً. وكان يبدو ان (باخوس) قدوته. فهذا الرب الذي حذق فن الحرب، اتقن صناعة السلام في مسراته وافراحه بعد الحرب.

وجد العباقرة منذ زمن بعيد أن ثم تجاوباً بين المباديء وبين حواس الجسم واول منبه لهم الى ذلك حسب اعتقادي، هو ملاحظتهم شكل اختبارنا للاضداد في مبادئنا وفي حواسنا. ما ان يتم التوصل الى حكم معين عليها، حتى يتقرر استخدامها بناء على قيدين: اولاً ان حواسنا لا تقرر انتقاء الأسود بدلاً من الابيض، او تفضيل الحلو على الحامض، او اللين والمطاوع على القاسي والمقاوم من الاشياء. كل ما على الحواس من وظيفة هي ان تتسلّم الانطباعات كما يحصل عادة وتنبئ العقل عن الانطباعات كما تسلمتها. وثانياً ان المباديء التي بيدعها العقل لانتخاب المناسب والحصول عليه، ورفض غير المناسب والتخلص منه، يكمن تأثيرها الحقيقي في اعتبار الأول من الاشياء على ان تهتم ايضاً بالثاني منه بشكل عرضي طاريء، لا لشيء الا لمجرد رفضها له. فلأجل أن يحفظ الطب الصحة، يجب ان يشخص المرض. ولأجل أن يتولد التوافق في اللحن الموسيقي يجب التحقق من وجود النشاز

ولما كانت السجايا العليا الثلاثة: الاعتدال، الحكمة، العدل، اعمال اختيار وفروض. فانها لا تمارس فحسب على ما هو عادل صالح، بل على ما هو شرير وغير عادل، وضال. وهي لا تطري البراءة الصرفة (والسداجة والجهل بما تجب معرفته هو الاسم الاقرب لها) لمجرد انها لا تجد ما تفخر به غير عدم تجربتها للشر. فقد اعتاد السبارطيون الأقدمون في اعيادهم ان يرغموا (الهيولوت) على شرب مقدار كبير من الخمر القراح، ثم يعرضونهم على موائد شبانهم العامة، ليتفهموا معنى السكر وعواقبه. مع اني لا ارى ذلك يتفق مع المباديء الانسانية والعدالة: ان تصلح اخلاق امرء بافساد اخلاق الآخر، فإن لنا ان نتعظ ونفيد من اولئك الذين اطلقوا العنان لطيشهم وتهورهم فجعلوا من انفسهم وهم في اعلى مقام مثلاً صارخاً من امثلة سوء التطرف. ولن اكون راكباً متن الشطط ان قدمت زوجاً او زوجين من الامثلة فلعلها تروح عن انفس قرائي، او لعلهم سيجدون فيها لحناً يختلف عن لحن المقام الاصلي الذي أنشده. اني لست متاكداً من هذا على كل حال، ولكنني اضع امامي (إسمينياس Ismenias) الثيبى الذي اعتاد ان يشير الى تلاميذه الغازفين بالمزمار، المجيدين منهم والمستهين بقوله.

- ستعزفون مثل هذا.

كان شديد الحب والتعلق بابيه (انتيغونس) ويدل على حنانه ورفقه بأمه الاهتمام المضاعف الذي كان يخصصها به مما يوضح بأن ذلك لم يكن بدافع الواجب او الخوف بل الى الميل المجرد وهو اقوى من دافع الواجب بكثير. روي انه عاد من الصيد مرة فدخل على جناح والده رأساً وكان يتحدث الى بعض السفراء. فارتقى الدرج اليه وقبله، وجلس الى جانب ممسكا بحرايه كما جاء. وصرف (انتيغونس) السفراء بعد ان قضى حاجتهم وفيماهم خارجون ناداهم بصوت عال قائلاً:

- واذكروا ايضاً بأنها هذه هي طريقة حياتنا نحن الاثنين معاً.

كأنما يريد أن يلمح لهم بأن علاقته مع ابنه ليست بالدليل البسيط على قوة حكمه واستقراره. وان وجود هذا الانسجام والتفاهم بينهما مما يعزز هذا السلطان. ان السلطة شيء موحش انطوائي فيها قدر عظيم من الحسد والريبة والتوجس. ولقد جعل اول واعظم خلف للاسكندر من عدم خوفه من ابنه سجيّة تستحق الاعجاب والاكبار. ولم يحكم بيت من بين كل خلفاء الاسكندر كبيت انتيغونس الذي خلص وحده من مثل هذه الجرائم اجيالاً عديدة. ولنأت بالتفاصيل. كان (فيليب) الوحيد من هذه الاسرة الذي قتل ولده. في حين قدمت كل الأسر الأخرى امثالا كثيرة عن اباة يفتكون بابنائهم، وازواج يقضون على نساتهم، واولاد يقتلون امهاتهم، امافتك الاخوة بالاخوة فهو من قبيل المسلمات الحسابية شائع مقبول، لكونه اول ضمان لسلامة الملك.

ولنذكر هنا مثلاً مقتبساً من مطلع حياة (ديميتريوس) يوضح عطفه الانساني، وهو حادث وقع له مع ميشيريدات ابن آريوبازانس وهو في مثل سنه يشاطره العيش منظماً الى حاشية الملك. لم تشب سلوك الفتى شائبة، ولم يصدر منه ما يستوجب التوجس، الا انه مع هذا وقع تحت شك (انتيغونس) بسبب حلم رآه: خيل له انه في حقل واسع مونتق، زرع فيه بذوراً ذهبية اخرجت شطئها حالاً. وما هي لحظة إلا اختفى القمح ولم ير غير الجذامة وفيما هو واقف وقد علاه الغضب والحنق سمع اصواتاً تقول: (ميشيريدات حصد القمح الذهبي وحمله الى اليونطس). فقلق الملك لهذا الحكم، وربط ابنه بقسم على عدم افشاء السر، ثم قص عليه ما رأى واطاف يقول انه اعتزم الاستعجال في التخلص من (ميشيريدات) والقضاء عليه. فكان حزن (ديميتريوس) عظيماً. ولما جاء الفتى كعادته لتمضية بعض الوقت معه. قرر تحذيره ولثلا يحنث بقسمه لم يتفوه بكلمة، الا انه سحبه شيئاً فشيئاً عن الجماعة حتى انفرد به فامسك برمحه وخط بسنانه أمامه كلمتي، ميشيريدات! اهرب! « ولم يفتح فمه. فادرك الفتى الاشارة وهرب الى كبدوكيا ليلاً، وسرعان ما تحقق حلم انتيغونس عنه فقد استولى ميشيريدات على

اراض واسعة خصبة وخرج منه خطاً ملوك (اليونطس) الذي خضع جيله الثامن للرومان. يصلح هنا مثلاً لطيبة قلب (ديميتريوس) وحبه العدل. وهما جزء من طبعه.

ويخبرنا (اميدوكلس Empedocles) انما تخرج المنازعات والحروب من عاطفتي الحب والبغض كما هي سنة الكون في عناصر الطبيعة. ولاسيما ان كان التماس اقرب، والنزاع الطويل الأمد بين خلفاء الاسكندر انما تأججت ناره وتفاقم أمره في مناسبات خاصة بتعارض المصالح ومجاورة الحدود، كما هي الحال في نزاع (انتيغونس) و(بظليموس). فقد وردت انباء لانتيغونس تشير بان (بظليموس) عبر البحر من قبرص وغزا سورية وانه يجتاحها ويعيث فيها سلباً ويخضع مدنها لطاعته. فأرسل (ديميتريوس) وكان له من العمر اذ ذاك اثنان وعشرون عاماً ليكون ذلك اول اختبار له كقائد مطلق الصلاحية في معركة كبيرة. اما هو فمكث في (فريجيا)، ولم يجد اندفاع الشباب امام التجربة والمران. فقد زحف على خصم تلقى تدريبه في مدرسة الاسكندر وعجم عوده مختلف الوقائع والمعارك. واصيب (ديميتريوس) بهزيمة نكراء بالقرب من (غزة) واسر من جيشه ثمانية الآف وخسر خمسة الآف قتيل. ووقعت خيمته وامواله ايضاً وكل مقتناته الخاص واثاثه غنيمة في ايدي العدو. على ان (بظليموس) اعاد هذه المنهوبات مع الاسرى من اصدقائه وحملهم رسالة مهذبة رقيقة قال فيها انهم لا يحاربون الا وراء المجد والشرف. وقبل (ديميتريوس) الهدية وانشأ يضرع للالهة بالا تبقيه مدينا (بظليموس) وان تمنحه الفرصة السريعة ليرد له الجميل واحتمل نكبته بصبر وجلد كقائد عتيق كثير التجارب خبير بتقلبات الخط لاكصبي غلب على امره في محاولة له. وانهمك في جمع فلول جيشه وملاً مستودعاته بالذخيرة. واهتم بولاء المدن له، وعكف على تدريب جنوده المستجدين.

وبلغت (انتيغونس) انباء المعركة، فقال ان بظليموس انما هزم صبيّة وعليه الآن مواجهة الرجال. الا انه لم يشأ كسر معنويات ابنه ولم يخب رجاءه فترك له القيادة في النزال التالي.

ولم يمض على هذا طويل زمن بعد ان تسلم (كيلليس Cilles) نائب بظليموس قيادة جيش جرار، وكان ينظر الى (ديميتريوس) بوصفه خصماً مغلوباً في معركة سابقه ولهذا صور خياله أنه سيفر من سورية هارباً قبل ان تتاح له رؤيته. لكنه سرعان ما وجد نفسه مخطناً فقد انحدر اليه (ديميتريوس) من حيث لا يتوقعه وباغته وباغت جيشه فأسره مع سبعة الآف من جنوده، وغنم اكداساً عظيمة من الاسلاب والاموال. ولم يكن فرحه بالنصر، بسبب الغنائم التي سيحتفظ بها قدر ما كان فرحه بسبب الغنائم التي سيعيدها. وكان شكره للمجد والثروة التي حازها، اقل لها بالذات، من الفرصة التي اتاحتها له ليفي بها كرم عده. الا انه لم يستأثر

بقراره وانما كتب الى ابيه. فاذن له بأن يعمل ما يشاء. فبادر باعادة (كيلليس) الى بطليموس مع اعوانه محملين بالهدايا. كان من نتائج هذه الهزيمة ان جلا (بطليموس) عن سورية وجاءت بانتيفونس من (كلاينوي Celaenoe) لجني ثمار النصر ولرؤية الأبن الذي كسبها.

بعد هذا مباشرة، ارسل ديمتريوس لاختضاع العرب النبطيين. وهناك دخل منطقة قاحلة لا ماء فيها فاحدق به خطر عظيم. إلا أنه اذهل البرابرة بعزمه وثباته، وعاد بعد أن غنم منهم الكثير، ومن بين اسلابه سبعمائة جمل.

كان (انتيفونس) قبل زمن قد طرد (سلوقوس) من بابل إلا أنه هذا استعاد ملكه بمجهوده وثبت قواعد حكمه. وخرج بعدها بقوات جرارة لاختضاع القبائل المتاخمة للهند والاقاليم المجاورة لبلاد القفقاس، فخيّل (لديمتريوس) أنه ترك بلاده ما بين النهرين وليس فيها الحماية الكافية. فاسرع يعبر الفرات بجيشه متوجها نحو بابل دون ان يتوقعه احدٌ وافلح في احتلال احدى قلعتيها وطرد منها حامية (سلوقوس) ووضع فيها سبعة آلاف من جنوده. وبعد أن سمح لجنود بالافادة من غنى البلاد، وحملهم ما وسعهم حملة من الغنائم، انسحب نحو البحر تاركا (سلوقوس) الذي بات الآن أمنع جانباً، واكثر اماناً في ملكه مما كان بالأول اذ بدا (ديمتريوس) بانسحابه وكأنه يتنازل عن كل ادعاء له في بلادٍ عاملها معاملة عدوٍ. على أن سرعة حركته الانسحابية انقذت (هليقارناسوس) من يد (بطليموس) الذي كان يحاصرها. ان المجد الذي ناله الأب والأبن من هذا العمل اولد فيهما رغبة عجيبة لتحرير بلاد الاغريق التي اوصلها (كساندر) و(بطليموس) الى العبودية. هذه الحرب لم تضاهها اية حرب اخرى اوقدها اي ملك من الملوك بنبل مقصدها وعدالة غاياتها. فالثروات التي غنماها من البرابرة من اختضاع البرابرة بمساندة الاغريق، انفقاها على بلادهم التي تم تحريرها. ابتغاءاً للشهرة والسمعة الحميدة ليس الآ. وفي اثناء القرار لبدء المحاولة اشار احد اصدقاء (انتيفونس) بأنه في حالة استيلائتهم على اثينا فيجب الاحتفاظ بها فهي مفتاح بلاد الاغريق، فمن هذا المر يمكنهم النزول من السفن ودخول البلاد وقتما شاؤا. إلا أن (انتيفونس) لم يأخذ بهذه النصيحة. اذ لم يكن ليريد ممراً أضمن واقوى من حسن نية الأهالي فمن اثينا منارة العالم ستنتشر انباء معاملتهم هذه بسرعة، فلا يعود يجهلها أحد. وعلى هذا الأساس ابحر (ديمتريوس) الى اثينا باسطول يتألف من مائتين وخمسين سفينة ومبلغ من المال قدره خمسة آلاف تالنت. وكان (ديمتريوس) الثقاليري يحكم المدينة باسم (كساندر) على رأس حامية معسكرة في ميناء (مونيخيا) ويراعه منه واكبها حسن الحظ، ظهرت طلائعه امام (بيريوس) في السادس والعشرين من شهر (ثارجيليون Thargelion) قبل ان يسمع احدٌ عنه شيء. في

الواقع توهم الناس لأول وهلة انها سفن بطليموس وبدأت الاستعدادات لاستقبالها. ولما اكتشف القادة خطأهم بالاخير. اسرعوا الى الداخل وعمت الفوضى واختلط الحابل بالنابل، وشرعوا يحاولون التأهب لمواجهة القوات الغازية. وجد (ديميتريوس) مداخل الميناء من دون دفاع منفذ الى الداخل فوراً. ولما اكتشفت هويته كان قد تمركز في الميناء آمناً امام اعين الجميع. واصدرت سفينة اشارات توضح عن رغبته في مقابلة سلام فسمح له بذلك، فأمر منادياً ذا صوت جهوري بأن يعلن ان مجيئه الى هنا كان بأمرٍ من ابيه. ولا غرض له الا دعوته الى الالهة بتحقيق امنيته وهي اعادة الحرية للآثنيين وطرد الحامية المقدونية. وممارسة شرائعهم ودستور بلادهم القديم.

وما سمع الناس هذا حتى القوا بتروسمهم ارضاً واخذوا يصفقون وطلبوا منه بهتافات داوية ان ينزل الى البرّ. ونادوه بالمنقذ ويحامي الحمى. واسقط في يد الثاليري واتباعه ولم يسعهم الا استقبال الغازي اصادقاً كان في وعده أم كاذباً. وارسلوا وفداً يرجون منه بسط حمايته عليهم. فاحسن (ديمتريوس) استقبالهم واعادهم برفقة (اريسيتيديوس المليطي Aristode-mus) احد اصحاب ابيه. ويات الثاليري يخشى ابناء وطنه اكثر من خشيته العدو بعد ان تغيرت يد الحاكم. الا أن (ديمتريوس) منحه الحماية. واحتراما لفضائله وسمعته بعث به الى ثيبه مزوداً بكتاب امان على ان يكون له الخيار في الذهاب منها الى حيث يشاء. وصرح بأن قدمه لن تطأ ارض مدينة اثينا رغم شوقه ولهفته، حتى يتم طرد الحامية المقدونية منها ويتم تحريرها، ثم قطع كل صلة بقلعة (مونيخيا) بخندق وتحكيما. وابحر لمهاجمة (ميغارا) حيث يوجد ثم حامية (لكساندر) ايضاً. ولما علم بأن (كراتيسيبيوس Cratesipobis) زوج اسكندر ابن پولسپريخون التي اشتهرت بجمالها شديدة الشوق لرؤيته، تخلف عن جنوده قرب (ميغارا) وانطلق بشرذمة من الاتباع ذوي السلاح الخفيف الى (پترا Patrae) محل سكنها. وترك اتباعه هؤلاء وضرب خيمته منفرداً بعيداً عن اعين الرقباء لتقوم المرأة بزيارته من غير ان تقع عليها عين. وعلم بعض الاعداء بمكانه فهاجموه فاضطر الى التنكر بمعطف رث والنجاة بجلده، ولم يكن بينه وبين عار الاسر الا خطوة؛ كلها بسبب عاطفته الهوجاء وبطبيعة الحال سلبت منه خيمته وامواله.

واستسلمت (ميغارا) وكان الجنود يقومون بنهبها لولا تدخل الآثنيين الآتي. وتم طرد الحامية واستعادت المدينة حريتها. ولم يمنعه انشغاله تذكر (ستيپلو Stiplo) الفيلسوف الذي اشتهر بايثاره حياة العزلة وكان يعيش في هذه المدينة. فبعث بطلبه وسأله هل اغتصب منه احدٌ شيئاً؟ فاجاب:

- كلاً، لم الق اي انسان يستلب المعرفة.

خلت المدينة من الخدم تقريباً فقد تسلل معظمهم من المدينة وفرّ ولما جدد (ديميتريوس) ترحيبه بـ(ستيپيلو) واستاذن هذا، قال

- اني يا (ستيپيلو) اترك مدينتكم هذه وهي مدينة للاحرار.

فاجاب (ستيپيلو):

- بالتاكيد. اذ لم يعد بين ظهرانيا خادم واحد.

وعاد من (ميغارا) ليشهد الحصار على (مونيخيا). ولم تمر ايام حتى فتحها بهجوم صاعق. وأمر بهدم اسوارها وتحصيناتها. وبهذا حقق امنيته. ودخل الاحياء العليا من اثينا بناء على دعوة الاهالي الملحة وهناك استقدم المواطنين جميعاً واعلن لهم العودة الى تطبيق دستورهم القديم ويشهرهم بأنهم سيتسلّمون من ابيه مائه وخمسين ألف مكيال من القمح ومقداراً من الاخشاب يكفي لبناء مائه سفينة، وهي هدية منه اليهم. وهكذا اعاد (انتيفغونس) الى الاثينيين نظام حكمهم الديمقراطي بعد خمس عشرة سنة اي منذ حرب (لاميا) ومعركة (كرانون). خلال هذه الفترة كانت السلطة اسمياً تمارس اوليفارشيياً، اما فعلياً فكان يهيمن عليها رجل واحد هو (ديميتريوس) الفاليري الذي عرف بجبروته.

الا ان التكريم الذي اغرق الاثينيين (ديميتريوس) به أثار استياء واشمئزازاً. كانوا اول من خلع على (انتيفغونس) و(ديميتريوس) لقب الملك. وقد بقيا الى ذلك الحين يجعلان من رفضهما التاج دليلاً على زهدهما وتواضعهما فهو الشرف الوحيد الذي ظل موقوفاً على نسل فيليب والاسكندر لا يشاركهما فيه احد. وخلع الاثينيين عليهما لقبين آخرين، هما «المخلصان» و«الربان الحارسان» وتثبيتاً لهذا التزلف صوتوا على قرار يقضي بتغيير تقويم المدينة. وابطل حساب السنين، اعتباراً من الأرخون الحولي واعطي هذا الشرف لكاهن «الربان الحارسين» الذي يتم اختياره سنوياً. فتحمل كل المعاملات الرسمية والوثائق والمستندات تاريخه وتذيل باسمه. وقرروا ايضاً نسج صورتي الأب والابن مع زمرة الآلهة في نقوش الرداء الأعظم. وقد سوا البقعة التي كانت اول ما وطىء ديميتريوس عند نزوله من عجلته. وبنوا هيكلًا فوقها باسم «هيكل نسل ديميتريوس». واستحدثوا قبيلتين جديدتين اسموهما «انتيفغونيد» و«ديميترياد» تيمناً باسميهما واختاروا لمجلس الشورى الذي يضم خمسمائة عضو خمسين عضواً لكل من القبيلتين الجديدتين فاصبح اعضاؤه ستمائة. الا ان اكثر الاقتراحات نزقاً هو ذلك الذي تقدم به (ستراتوكليس Stratocles) امام المخترعين لهذه الاساليب العجيبة المنتقاة من التكريم. فقد

اقترح ان يمنح اعضاء اي وفد ترسله المدينة الى احدهما - عين اللقب الذي يخلع على الوفود المرسله الى (دلفي) او (اولمبيا) لتقديم القرابين الرسمية نيابة عن الحكومات بمناسبة الاعياد الاغريقية الكبرى.

(ستراتوكليس) هذا، كان شخصاً خليع العذار، متهتكاً لاخير فيه من اية ناحية نظرت اليه. وكان يبدو وقد جعل همّه أن تستجلب له رفاعته وصفاقته محبة الجمهور الماثورة لـ(كليون Cleon). قدمت له محظيته (فيلاكليون) يوماً صحيفة فيها مخّ ولحم رقبة لعشائه فقال:

- آه اذن فأنا ساتعشى من الاشياء التي نلعب بها نحن الساسة كما نلعب بالكرة!

ومرة أخرى عندما مني الاثينيون بهزيمتهم البحرية قرب (أمورغوس Amorgos) اسرع الى منزله قبل وصول النبا الى المدينة، وضفر على رأسه اكليلا، واقبل راكباً الى الجيراميكوس Ceramicus معلنا بأنهم نالوا نصراً، واقترح ان يصوتوا على قرار باقامة عيد شكر للآلهة وتوزيع اللحم على الاهلين حسب القبائل. وعقب هذا مباشرة وصلت فلول المعركة مع حطامها. فاستنكر الناس علمه هذا فما كان منه الا ان خرج اليهم بصفاقة وجهه العجيبة متسائلاً:

- اي ضرر يتأتى من استمتاعكم بيومي فرح وبهجة؟

هكذا كان (ستراتوكليس) ومما زاد في الطين بلة كما يقول (ارسطوفانس) انه وجد من فاق (ستراتوكليس) تفاهة باقتراحه اصدار مرسوم كالآتي:

«كلما شرف (ديميتريوس) المدينة بزيارة، فعليهم أن يقيموا له من الافراح والمهرجانات ما اعتادوا اقامته لكل من الربين (سيرس Ceres) وباخوس. ومن فاق غيره من البذخ والانفاق على استقباله يدفع له من بيت المال مبلغ ليعمل به تقدمات مقدسة».

ثم غيروا اسم الشهر المعروف بـ(مونيخيون) وجعلوه (ديميتريون) كما اسموا اليوم المنفرد الواقع بين نهاية الشهر القديم وبداية الشهر الجديد بنفس الاسم. وغيروا عيد باخوس المسمى (ديونييسيا) الى (ديميتريا) اي عيد ديميتريوس. كل هذا التغيير كان موضع استياء الارباب، فالرداء المقدس الذي نسجت فيه صورتا انتيفغونس وديميتريوس الى جنب صورتي (جوبيتر ومينرفا) تعرض لريح شديدة اثناء ما كان محمولاً في الموكب المار خلال الجيراميكوس، فانشق من الاعلى الى الاسفل ونبت الشوكران وهو نبات نادر، في كل مكان حتى في خلوات الريف بكميات كبيرة جداً، فمما واستطال حول الهياكل التي شيدت للربين الجديدين. والغوا

المواكب الدينية في يوم عيد باخوس، لنزول صقيع عنيف قاسٍ غير متوقع، قتل الكروم وأشجار التين ودمر غلة القمح وهو في سنابله. فما كان من (فيليبيدس Philippides) خصم (ستراتوكليس) إلا وهجاه في كوميدياه بالابيات التالية:

لمن أرسل الصقيع الذي قتل كرومكم؟

ولآثام من إنشق الرداء المقدس؟

من منح البشر التكريم الذي لا يمنح لغير الارباب؟

انه الآن عدو الشعب. وليس المسرح المسكين!

كان (فيليبيدس) اخلص اصدقاء (ليسسيماخوس) الملك الذي شمل الآثينيين بمختلف ألوان العطف اكراما لصديقه هذا. لقد بلغت محبة ليسسيماخوس به حداً انه كان يرى من قبيل الفأل الحسن لقاء (فيليبيدس) قبل قيامه بحملة عسكرية او مباشرته مشروعاً. على العموم كان الرجل محترماً لاخلاقه ولبساسة فيه وعدم فضول ولبعده عن شمائل البلاط الملكي من اعتداد بالنفس والتوسط لقضاء الحاجات. ومرة عندما اخذ (ليسسيماخوس) يلح عليه بتسمية هدية يقدمها له اظهاراً لمحبتته، اجاب:

- اي شيء تريد، خلا اسرار دولتك.

ان هذا الممثل المسرحي يستاهل على ما اعتقد موضعاً من حديثنا قدر ما يستأهله الخطيب الجماهيري.

الا ان الحماسة التي فاقت كل حماقات التملق والزلفى السابقة هو اقتراح تقدم به (دروموكليدس Dromocles) (السفتي Sphettus) الذي اوصى الجمعية اثناء مناقشتها حول الطلب من عرافة (دلفي) أن ترشدتهم الى اقوم السبل لتكريس بعض الدروع، بأن يطلبوا النبوة بالاحرى من (ديمثريوس)؛ وها اني اثبت صيغة الاقتراح حرفياً كما ورد في النص المقرر:

«ليكن خيراً وسعداً. ان اهل آثينا، رسموا بأن يختار شخص لائق من بين

المواطنين الآثينيين. يكون مندوباً عنهم ويرسل الى (المخلص) ويعد ان يقدم القران

كما يجب، ليستفسر من (المخلص) باي شكل ديني صحيح قويم، يسره أن يرتأى

في قرب وقت ممكن، تكريس الدروع؟ وسيعمل اهل آثينا بحسب الجواب»

بهذه الرقاعة، اكملا افساد عقل، لم يكن قبلاً من السلامة والمناعة كما ينبغي ان يكونه.

وتزوج (ديمثريوس) في فترة الهدوء والتعطل بـ(يوريدكي Eurydice) وهي من نسل (ميلتيداس) الغابر. وكانت قبله زوج (اوفيلتاس Opheltas) حاكم (كيرين Cyrene) ولما توفي عنها عادت الى آثينا. وقد عدّ الآثينيون هذا الزواج تقديراً لهم وتشريفاً للمدينة. الا ان (ديمثريوس) لم يكن يتقيد في مثل هذه الأمور باي مبدءٍ فقد جمع عدة زوجات في وقت واحد الا ان (فيلا Phila) بنت انتيباطر وزوج (كرايتروس) الرجل الوحيد بين كل خلفاء الاسكندر الذي ترك في قلوب المقدونيين اعشق مشاعر الحب، ظلت تحتفظ بالمقام الأول بين زوجاته. ولقد ارغمه ابوه على البناء بها بصرف النظر عن فارق العمر للاسباب التي ذكرناها. فقد كان ديمثريوس صبيهاً يافعاً وهي اكبر منه بكثير، ولذلك ابدى بعض التمتع، فاسرّ انتيغونس في اذنه مقطوعاً من قصيدة ليوريبيدس، مستبدلاً كلمة (يفيد) بكلمة (يتزوج):

طبيعي كان أم غير طبيعي، على المرء ان (يتزوج) طالما كان في ذلك نفع.

ومع هذا فان الاحترام الذي يكنه لـ(فيلا) او غيرها مهما بلغ، لم يكن يمنعه من معايشة المحظيات وبنات الهوى، لينال في هذا المجال اسوء سمعة نالها امير معاصر.

ارسل ابوه، يامر بالتوجه لقتال (بظليموس) في قبرص ولم يكن له بد من الامتثال لأمره فترك بلاد اليونان أسفاً. الا انه أتى وهو في طريقه بعمل اكثر نبلاً ومجداً فقد بعث الى (كليونيديس Cleonides) قائد (بظليموس) المشرف على حاميتي (سيكيون) و(كورنث) يعرض عليه مالاً، لقاء خروج الحاميتين من تلكما المدينتين. فلما رفض اقلع الى قبرص فوراً بقوات اضافية وانقض على (مينيلاوس) شقيق (بظليموس) وهزمه. فاقبل (بظليموس) بنفسه يقود قوات برية وبحرية متفوقة ولم يتعرض احدهما للآخر وقتاً طويلاً خلا انهما كانا يتبادلان التحديات والتهديدات، والاعتزاز بالقوة. فقد نصح (بظليموس) (ديمثريوس) بالانسحاب قبل أن تصل كل قواته إن كان يهمله ان لايداس تحت الاقدام؛ وعرض (ديمثريوس) على (بظليموس) أن ينسحب بأمان إن وافق على سحب حاميته من (سيكيون) و(كورنث). وكان جميع الامراء والملوك المعاصرين يتطلعون في الواقع الى نتيجة هذا النزاع المجهول بلهفة وترقب اذ من الواضح ان غنيمة الغالب لن تكون قاصرة على قبرص او على سورية، بل هي السيادة المطلقة.

كان مع (بظليموس) مائة وخمسون بارجة، أمر (مينيلاوس) بالخروج بها من ميناء (سلاميس)، والمركة في اوج احتدامها، والهجوم بستين منها على مؤخرة (ديمثريوس). فعمد هذا الى الحيلولة دون خروجها من الميناء بسد مدخل الميناء الضيق بوضع عشرة من بوارجه في فم المدخل. ثم نظم قواته البرية في صفوف المعركة ونشرها على طول الأرض الداخلة في



البحر، وتعرض للعدو بمائة وثمانين بارجة وكان هجومه عنيفاً كاسحاً حقق به الغلبة على (بظليموس) وهزمه هزيمة ساحقة، فهرب هذا بكل ما تبقى من اسطوله وكان ثمانين سفن لا غير. وتم أسر سبعين سفينة مع رجالها وغرق الباقي في المعركة، وسقط في يد (ديميتريوس) اعداد هائلة من الخدم والاتباع والاسلحة والاموال والآت الحرب. جمعت كلها وجيء بها الى المعسكر. وكان من بين الاسرى (لاميا Lamia) التي ذاع صيتها في نفخها بالزمار ونجمها كمحظية. لقد عملت (بديميتريوس) ما يشبه السحر مع ان جمالها الفتني كان في افول، ومع انه كان يصغرها بكثير. وبلغ به التعلق حتى بدا «وكان كل النساء عاشقات ديميتريوس، وهو لا يعشق غير (لاميا)».

بعد هذا النصر الحاسم، زحف على (سلاميس) ولم يكن (مينيلاوس) في وضع يمكنه من المقاومة فاستسلم هو نفسه مع كل اسطوله، والف ومائة من الخيالة واثنى عشر الفاً من الرجال مع المدينة. ومما زاد في نصره جلالاً ومجداً هو معاملته الانسانية الكريمة للمغلوبين فبعد ان شيع القتلى الى مشواهم بمظاهر التكرم، منح الحرية للاحياء. ولم ينس الاتيين وارسل اليهم من العدة والسلاح ما يكفي لتسليح الف ومائتي رجل تسليحاً كاملاً، هدية دون مقابل.

وارسل اريسوطوديموس المليطي أبرع المتزلفين في البلاط، لينهي هذه الانباء السعيدة الى (انتيفغونس). وعزم الرسول على ما يتراءى - أن يجعل الترحيب به فخماً عظيم الوقع. فعندما اقتربت سفينة من البر اوصى بان تلقى المراسي بعيداً عن الساحل وامر ببقاء نوتية السفينة فيها ومنعهم من النزول، ثم استقل زورقاً واتجه وحده الى الساحل قاصداً الملك.

كان (انتيفغونس) بلا ريب قلقاً متوتر الاعصاب تتناهبه تلك الهواجس التي تعتري عادة كل من اضطلع بكفاح مجهول النتائج، محفوف بالمخاطر الجسام وقيل له ان (اريسوطوديموس) مقبل اليه بمفرده، فزاد هذا من اضطرابه. ولم يمك نفس عن الخروج الى لقائه الا بشق الأنفس، وطلق يرسل الرسول تلو الرسول، والصدى في اثر الصديق لاستطلاع الانباء. الا ان (اريسوطوديموس) ظل يسير على هونه بوقار ورزانة لا يفصح وجهه عن شيء، ولا يرد على الاسئلة الموجهة اليه، وانما يظل سائراً بهدوء. فلم يطق (انتيفغونس) صبراً ونهض لاستقباله في المداخل فرآه مقبلاً يتبعه خلق كثير وكلهم قلق، يهرولون خلفه. ولما صار على قيد سمع (انتيفغونس) بسط يديه وهتف بصوت عال:

- تحية اليك ايها الملك انتيفغونس! لقد هزمنا [بظليموس] بحراً واستولينا على قبرص وأخذنا ستة عشر الفاً وثمانمائة أسير فرداً عليه [انتيفغونس]:

- مرحباً بقدومك يا ارسوطوديموس. لقد اخترت ان تعذبنا مدة طويلة ونحن بانتظار انباءك السعيدة، ولذلك عليك أن تنتظر ايضاً وقتاً ملياً، لمكافأتك!

وعندها اسرع الجمهور المحتشد فنادى [بانتيغونس وديميتريوس] ملكين لأول مرة ووضع اصحابهما التاج على مفرق انتيفغونس، وارسل هو تاجاً لابنه مع رسالة يخاطبه فيها بلقب ديميتريوس الملك ولما وصلت الانباء الى مصر، بادر اصداق [بظليموس] الى المناداة به ملكاً ايضاً تبديداً لآثار الهزيمة الأخيرة وعلى سبيل المقابلة. فأسرع بقية خلفاء الاسكندر يحذون حذوهم ولبس [ليسيماخوس] التاج، و[سلوقوس] الذي كان البرابرة يتوجهون اليه بهذا الاسم من قبل، أخذ الآن يستخدمه في المناسبات الرسمية محتذياً حذو الأغرقي. وظل [كساندر] يكتب عنوانه الاعتيادي في رسائله، إلا ان الناس منحوه اللقب الملكي في مخاطباتهم ورسائلهم. والقضية بعد، هي ليست قضية اضافة صفة او ادخال بدعة جديدة لا غير. فمشاعر البشر المعيرة عن أنفسهم هي التي تتمخض، وتشتد احاسيسهم رفاهة وتتسلل روح العظمة والغطرسة في احاديثهم وحياتهم فتتغير كما يتغير المثل التراجمي على المسرح بمجرد تغيير ثوبه، واذ ذاك يسرى التغيير على خطواته وصوته، وجلسته واسلوبه في مخاطبة زميله المثل الآخر، كذلك الحال بهؤلاء فبعد ان ينضوا عنهم ذلك الثوب المتواضع الذين كانوا يخفون تحته سطوتهم وجبروتهم تمويهاً، تزداد عقوباتهم عنفاً، وكان الزي كان يجعلهم ارق وأراف برعاياهم.

ان صوت متزلف واحد، قد يقلب الدنيا رأساً على عقب.

انتشى [انتيفغونس] بنصر قواته في قبرص منتهى النشوة. واعتزم ان يستغل حظه فيقود جيشه شخصياً ضد [بظليموس] براً، في حين يسانده [ديميتريوس] من جهة البحر باسطول عظيم. لقد عرفت النتيجة من حلم رآه [ميديوس Medius] صديق [انتيفغونس]. فقد رأى انتيفغونس وكل جيشه يهرولان وكأنهما في سباق وقد ابدى صديقه في الشوط الأول قوة وسرعة عظيمتين ثم أخذت خطواته تتناقل بالتدريج حتى تخلف عن الركب لاهتاً مبهور الانفاس يجر قدميه كلاً واعياً.

واعترضت [انتيفغونس] مصاعب كبيرة في البر. وهبت عاصفة شديدة على ديميتريوس في البحر، دفعتة الى ساحل خطر غير صالح للرسو. وافقدته عدداً كبيراً من سفنه. وهكذا عادت الحملة دون ان تحقق شيئاً. وكان [انتيفغونس] قد شارف على الثمانين ولم يعد قادراً على تحمل مشاق الحروب البرية ومسيراتها الطويلة ولعل ذلك متأت من ضخامته لا من ضعف قوته. مهما يكن فقد سلم شؤون الملك الى ابنه، وكان يبدو ان حظوظه وخبراته كافية للنهوض

باعتبار الحكم ولم يكن ترفه وفجوره واسرافه بالحائل دون قيامه بما اوكله اليه. ففي وقت السلم كان يسري عن نفسه باللذات وينغمس فيها حتى يجاوز كل الحدود دون ان يتعفف عن شيء. اما زمن الحرب فتجده راثقاً صاحبياً، رزيناً الى ابعد الحدود. ويحكى عنه انه بعد ان بسطت عليه [لاميا] سلطانها بشكل لم يعد سراً - عاد الى بلاده، وما رأى ابيه الشيخ حتى ارتقى عليه وأخذ يقبله بحرارة غير اعتيادية فقال ابوه متعجباً:

- ماذا؟ العلك حسبتي [لاميا].

ومرة بعد ايام متواصلة من اللهو وتعاطي الخمر، اعتذر لغيابه بقوله انه كان يشكو اسهالاً شديداً. فقال ابوه:

- هذا ما بلغني. أكانت من اثر الخمر التاسية Thasian ام من الخمر الخيانية Chain؟

وانبيء انتيغونس مرةً بأن ابنه مريض، فذهب ليعوده وقبل ان يلج الباب مرت به فتاة جميلة جداً. فدخل وجلس قرب فراشه وجس نبضه فقال [ديميتريوس]:

- ألان غادرتني الحمى.

فردّ [انتيجونس] فوراً

- اي نعم، لقد لقيتها عند الباب خارجة!

ان مآثر [ديميتريوس] العظيمة جعلت اباه يعامله بمثل هذا التساهل.

لقد كان الصيغيون في مجالس شرايهم يُرتون قسيهم، ليبقوا شجاعتهم يقظةً صاحبة وسط الخيال والنشوة. الا ان [ديميتريوس] كان يستسلم استسلاماً تاماً للملذات، ويهب نفسه للعمل الجدي ولا يدع التفكير في احدهما يحول دون اطلاق الآخر، وعندما يدعو داعي الحرب تراه يظهر من المقدره والحنكة مالا يدانيه فيهما احد. والواقع ان كفاءته تجلت في التأهب للحرب أكثر مما تجلت في ادارة دفتها. كان يرى وجوب التحوط، للمستقبل ويفكر بانه لا يستطيع ان يؤمن كل ما يحتاجه لكل مناسبة محتملة، ولم يكن لذته تعرف حداً في اجراء اختبارات على تحسينات آلات الحصار والسفن. ولم يبدد عبقريته ومواهبه في الميكانيكا، على اختراع اللعب والمتبكرات النافهة، كالتصوير والحراطة والنفخ بالمزمار، وهي من الهوايات التي ينشغل بها الملوك. فايروپوس Aeropos ملك مقدونيا كان يقضى جل اوقاته في صنع المناضد والمصابيح الصغيرة، و[اتالوس فيلوميستور Attolus philometor] كانت هوايته استخلاص السموم من نبات البنج Henbane، والحريق Hellebori والشوكران Hemlock والاكويط Qconite و Doryenium. ويتولى استنبات كل هذه الحشائش في حدائقه الملكية ويجمع بنفسه ثمرها

وظلعها ويزرها في مواسمها المخصوصة ويستحلب منها السم. اما ملوك الفرس فكانوا شديدي الاعتزاز بشحذ وصل اسنة رماحهم وسهامهم بأنفسهم. الا ان [ديميتريوس] كان ملكاً بحق من هذه الناحية فقد قام بدور الصانع الذي يأتي بافخم واروع الاشياء، فما ابتكروا كان فيه طابع الأصالة والابداع والغرض السامي. ولم يكن يقف عند حد تصميمها ودفع الاموال لعملها بل كان يستخدم يده عند حد تصميمها ودفع الاموال لعملها بل كان يستخدم يده ويساهم بصنعها. امور يرتجف الاصدقاء لعظمتها، ويسحر الاعداء بجمالها. وعبارتنا هذه ليست جميلة الوقع على السمع قدر ما هي صادقة الدلالة، والناس الذين كانوا سيلاقون الأمرين من تلك الآلات، لم يتمالكوا انفسهم من الاسراع الى رؤيتها بعين الدهشة: بوراج ذات خمس اوست طبقات من المجاذيف تمرّ بالسواحل فيأتي سكان المدن المحاصرة ويحتلون اسوارهم ليشاهدوا «قانسات المدن» الشهيرة. حتى ان ليسيماخوس الدّ اعداء ديميتريوس من الملوك، لما قدم لفك الحصار عن [سولي Soli] في كيليكيا، ارسل اولاً يطلب السماح له بمشاهدة سفن عدوه وآلات حصاره. وبعد ان اشبع رغبته اعرب عن اعجابه بها وانصرف.

ورجا منه الرودسيون الذين عقدوا الصلح معه بعد حصار طويل، ان يسمح لهم ببعض آتاه، ليحتفظوا بها على سبيل الذكرى. وتخليداً لقوته ولقاومتهم البطولية في الوقت نفسه.

نجم الخلاف بينه وبين الرودسيين بسبب حلفهم مع [بطليموس] وفي الحصار الذي القاه عليهم، ركز اكبر واضخم آتاه مقابل اسوارهم. وهي عبارة عن قاعدة تامة التبريع طول ضلعها اربعة وعشرون كوبيتا<sup>(١)</sup>. ويقل طول الضلع كلما ارتفعت الآلة الى القمة، وهي مقسمة من الداخل الى طوابق او غرف تملأ بالجنود. وفي كل طابق نوافذ وكوى بمواجهة العدو لرمي انواع القذائف. ويحتل كل غرفة صنف من المقاتلين. واعجب صفاتها انها مع كبر حجمها لا تميل ولا تنقلب ولا تتوقف بل تجري على قاعدتها بتوازن تام وبضجة عالية وقوة حركية عظيمة فتذهل عقول مشاهديها وتسحرهم.

وكان [ديميتريوس] مستمراً في حصاره عندما جيء اليه بدرعين حديدين من قبرص، لاتريد زنة الواحد منهما عن اربعين پاونداً ورغب صانعهما [زويلوس Zoilus] امتحان درجة صلابتهما العالية وطلب ان يسدّد الى احدهما قذيفة منجذيق ترمى من احدى الآت الحصار من مسافة لاتزيد عن ست وعشرين خطوة وعندما جرى الاختبار وجد ان سنان القذيفة سقط على الدرع بكل دقة الا انه لم يخلف غير خدش بسيط كالاثر الذي يخلفه القلم او المنقاش، فأخذ ديميتريوس لنفسه. وقدم الثاني الى [الكيموس Alcimus] الايروتتي Epirot. افضل عسكري

(١) حوالي ٣٦ قدماً.

واقواهم بين ضباطه، وهو الوحيد الذي كان يلبس درعاً يبلغ ثقله ثالتين. وكان غيره يكتفي بدرع ثقله ثالت واحد. لقد هوى صريعاً في هذا الحصار اثناء معركة بالقرب من الملعب.

دافع اهل رودس دفاع الابطال وباستماتة. ووجد ديمتريوس انه لا يحق تقدماً ملحوظاً، ولم تكن مواصلته الحرب الا بدافع من عاطفة وعناد! او ربما بسبب ما أقدم عليه الرودسيون حين استولوا على سفينة له فيها ثياب واثاث ورسائل من زوجه [فيلا]. فأرسلوها كلها الى عدوه [ببليموس]، ولم يكن فعلهم نبيلاً كالأثينيين الذين القوا القبض على ساع أرسله [فيليب] الملك وهو عدوهم. ففضوا كل الرسائل التي كان يحملها، الا رسالة موجهة الى الملكة [اولبيا]. فقد اعادوها باختامها سليمة. فكان استفزازاً شديداً [لديمتريوس]. الا انه أبى ان يثار عندما تمكن واصبح انتصافه لنفسه داني القطوف: فقد كان [بروتوجينس Protogenes] الكاوني Caunian يرسم لهم صورة تمثل قصة اباليسسوس lalyus. وبقي له الشيء القليل لاكمالها عندما وقعت في يد [ديمتريوس] في احدى الضواحي. فأرسل الرودسيون اليه منادياً يرجونه الابقاء على هذا الأثر الفني وعدم اتلافه فأجابهم: انه ليفضل احراق صورة ابيه على اتلاف هذه القطعة الفنية التي كلفتهم كثيراً من الجهود. وقيل ان الفنان انفق سبع سنين من عمره في رسمها، ويروون لنا ان ابللس Apelles ذهل وعقلت الدهشة لسانه عندما شاهدها لأول مرة. وبعد ان تمالك نفسه قال:

- جهد عظيم! ونجاح مدهش.

ثم عقب على هذا بقوله: ومع هذا فليس فيها تلك الردعة التي رفعت رسمه الخصوصية الى عنان السماء ان جاز القول. حملت هذه الصورة الى روما مع الاسلاب الأخرى وتلفت بالحريق.

بينما كان الرودسيون يدافعون عن مدينتهم دفاع المستميت، لم بأسف [ديمتريوس] حينما وجد ذريعة يتوسل بها الى رفع الحصار ووجد ضالته هذه بالسفراء الذين قدموا من اثينا، فتوسطوا في الصلح وتم ذلك بان يتعهد [الرودسيون] بمساعدة انتيغونس وديمتريوس ضد أعدائهما جميعاً، باستثناء [ببليموس].

وطلب الأثينيون مساعدته لفك حصار [كساندر] الذي القاه على مدينتهم. فتوجه اليها باسطول يتألف من ثلاثمائة وثلاثين قطعة بحرية وعدد كبير من الجنود. ولم يكتف بطرد [كساندر] من اتيكا، وانما تعقبه حتى [ثرموبيلي] وهزمه واصبح سيد هراقليا التي خضعت له مختارة. كما انضمت اليه وحدة تتألف من ستة آلاف مقدوني. وبعد ان حرر كل الاغريق

في الجزء الأدنى من ثرموبيلي كرّ راجعاً وعقد حلفاً مع البويوثيين، واستولى على [كنخراي Cenchrae] واخضع قلعتي [فيله Phyle] و[پاناكتوم Panactum] وكان فيهما حاميتان له [كساندر]، واعادهما الى آثينا. فتحفزت المدينة لرد هذا الجميل. كأنما لم تمل من اغراقه بالتكريم والشرف؛ وكأنهم لم يستنفدوا طاقاتهم في اختراع الطريف منها. لقد اتضع انهم ما زالوا يمتلكون المبدع المستحدث من افانين الملق والزلفى. عمدوا الآن الى اخلاء الهيكل الخلفي من [الپارتنون] واعدوه لسكناه. فأستقر هناك تحت السقف الذي يظل مضيافته [منيرفا]. وكان هذا قصدهم الضمني وهو مشاطرته السكنى ربةً باكرًا! عندما أسكن اخوه [فيليب] في بيت تشغله ثلاث فتيات. لم يقل [انتيجونس] له شيئاً، وانما أرسل وكيله وامره بأن يجد لابنه -ومحضر منه- منزلاً أقل اكتظاظاً الشاغلين من هذا المنزل. وكان أقل ما يجب على ديمتريوس عمله هو اظهار الاحترام اللائق باخته الكبرى - الربة منيرفا، وهذا ما يستخلص من تقدير المدينة له بانزاله في بيتها. الا انه ملأ الموضوع بالنجاسات حتى بدا أقل دنساً عندما اقتصرت خلاعته على معاشره النساء المبتذلات مثل [خريس Chryids] و[لاميا] و[ديمو Demo] و[انتيكيرا Anticyra].

ان اسم المدينة الطاهر يمنعنا من ايراد بعض الحكايات الصريحة ولندكر فحسب فضيلة الفتى [اموكليس] الملقب بالجميل وما كان له مع ديمتريوس؛ اراد ان يتخلص من ملاحقاته، فكان يتجنب كل محل قد يكون فيه. أخيراً لحقه ديمتريوس الى غرفة حمام خاصة، ووجد الفتى نفسه وحيداً بلا ناصر أو مجير، فرفع غطاء القدر وقذف بنفسه في مائه الفائز ليموت ميتة أليمة قبل ان يحين أجله؛ الا انها ميتة جديدة بالبلد وبالجمال اللذين سبباها ولم يكن [كليانيتوس Cleanetus] اين [كليوميديون Cleomedon] مثل هذا الفتى، فقد نال من [ديمتريوس] رسالة توصية بابيه موجهة للأثينيين، وكان الأب قد غرم خمسين تالنتاً. فالحق العار بنفسه وواقع المدينة في ورطة. لم يسع الأثينيين الا الغاء الغرامة احتراماً للرسالة، على انهم اصدروا بياناً يحرمون فيه على اي مواطن جلب رسائل توصية من ديمتريوس في المستقبل. ولما علموا بأن [ديمتريوس] استاء جداً من هذا القرار وعده تحقيراً واستصغاراً لشأنه. لم يكتفوا بابطاله وانما نفذوا حكم الموت ببعض الناصحين به والمقترحين له، ونفوا الآخرين، خوفاً ورهبةً. ثم تبادوا في الاعتذار، فاصدروا مرسوماً يقضي بصحة وسلامة كل ما يأمر به [ديمتريوس] الملك في المستقبل، سواء ازاء الأرباب او ازاء البشر. ولما قال احد المواطنين: «لا بد ان يكون [ستراتوكليس] مجنوناً لاستخدامه مثل هذه العبارات» عقب عليه [ديموخارس] و[ليوكونوي Leocnoe] قائلين: «من الغرابة ان لا يكون مجنوناً». ولقد

كوفيء [ستراتوكليس] خير مكافأة على زلفاه. اما ديموخاريس فقد نفي تنكيلاً به لمقولته السالفة. وتلك كانت تصرفات الآتينين بعد تحررهم من نير الحامية الاجنبية واستعادتهم ما سمي بحريتهم.

بعد هذا زحف [ديميتريوس] بقواته على [الپيلوپونيسس] فلم يلق مقاومة وفرّ أعداؤه من امامه وتركوا المدن تنضم تحت لوائه. وقبل حلف سائر [اكته Acte] [كذلك كان اسمها] وسائر اركاديا ما عدا [مانتينا]. واتباع حرية [ارغوس وكورنث وسيكيون] بدفعه لحامياتها مائة تالنت لقاء تركها. وترأس الالعاب في ارغوس خلال عيد [يونو] التي صادف ايام وجوده، وشارك في احياء الاحتفال مع الاغريق الذين اجتمع شملهم هناك. كما احتفل بزواجه من [دايداميا Deidamia] بنت [اياكيديس Aeacides] ملك المولوسيين [Molossians] واخت [پيروس]. وقال لأهالي [سيكيون]، انهم وضعوا مدينتهم خارج مدينتهم! واقنعهم بالانتقال حيث يعيشون من يومها. وبذلك اعطى مدينتهم موقعاً جديداً فضلاً عن اسمٍ جديد، اذ اطلق عليها [ديمترياس] مشتقاً من اسمه.

والنأمت جمعياً عمومية للاغريق في المضائق. وهناك نادى به حشد عظيم من المندوبين قائداً للاغريق، كما كان الشأن مع [فيليب والاسكندر] من الاوائل. ولم يكن يخفي رغبته في التفوق عليهما، وهو في اوج عظمته وسلطانه. والواقع هو انه سبق الاسكندر من ناحية واحدة. فالاسكندر لم يأب على الملوك القابهم، في حين لم يتخذ لنفسه لقب ملك الملوك، مع ان عدداً كبيراً منهم كانوا مدينين له باللقب والسلطة معاً. اما [ديمتريوس] فقد اعتاد السخر من أولئك الذين منحوا لقب الملكية لغير ابيه ولغيره. وكان السرور يشيع في اعطافه عندما يشرب اتباعه أولاً نخب صحته وصحة ابيه بوصفهما ملكين ويواصلون الانتخاب فيشربون في صحة سلوقوس بوصفه قائد الفيلة، وفي صحة بطليموس بوصفه امير البحر الاعلى، وفي صحة ليسسيماخوس بلقب امين الخزانة، و[اناثوكليس] بلقب حاكم صقلية. ويضحك هؤلاء الملوك عندما تروى لهم قصص هذا الزهو الفارغ الأ [ليسسيماخوس] الذي يبدي امتعاضاً لاعتباره خصياً لا غير. فمن هؤلاء عادةً يختار صاحب منصب امين الخزانة. وكان العداء بينه وبين [ليسسيماخوس] اشد من عدائه لغيره. ومرة قال ليسسيماخوس ساخراً من حبه للاميا.

- اني لم ارمن قبل عاهراً تمثل دور الملكة.

فرد [ديمتريوس] بقوله «ان مخطيته لاتقل اخلاصاً واستقامة عن [پنلوط Penelope] امرأة [ليسسيماخوس].»

ونستأنف حديثنا فنقول: كان ديمتريوس على وشك العودة الى آثينا فكتب رسالة الى اهله

يعلمهم برغبته في ان يسمح له في الحال بالوقوف على مراسيم التكريس «للأسرار» وانه يريد اكمال مراحل المراسيم من الأول الى الأخير دفعةً واحدة وهو مخالف للمباديء المتبعة وامر لم يسمع به من قبل لاي احد. فالمرحلة الأولى تجرى مراسيمها في شهر [بويدروميون] ولا يقبل المكرسون نهائياً حتى يكلموا سنة واحدة بعد اقتبال مراسيم المرحلة الأولى. لكن طوي هذا كله بعد قراءة رسالة [ديمتريوس] في الجمعية العامة ولم يجد احد في نفسه الشجاعة للمعارضة غير [پيثودورس Pythodorus] حامل المشعل ولم يؤبه باعتراضه، فقد نط [ستراتوكليس] لغوره مقترحاً بالتصويت على تحويل الشهر الحالي [مونيخبون] الى شهر [انيتستيتيون] فجرى ذلك وغيرً وهكذا اقتبل [ديمتريوس] الاسرار الأولى. وجرى تصويت آخر فانقلب الشهر [مونيخيون] نفسه الى شهر [بويدروميون] فأقيمت مراسيم الاسرار العليا وقبل [ديمتريوس]. هذه الاجراءات اتاحت للكوميدي [فيليبيدس] فرصة جديدة لإعمال فكاهته البارعة في [ستراتوكليس]:

ان خوفه المتملق...

جعل السنة كلها تُحشر في شهر واحد!

وقال عن التصويت الذي جرى حول اسكان [ديمتريوس] في البارثنون

ذاك الذي يقبل الهياكل الى حانة متبذلة

ويجعل منزل العذراء بيتاً للخن

ومن بين الأعمال السيئة الاثيمة التي اقترفها خلال هذه الزيارة عملٌ جرح مشاعر الآتينيين بصورة خاصة. فقد اصدر أمراً بجمع مائتين وخمسين تالنتاً من الأهالي فوراً. فجببت من الشعب بمنتهى الغشم والقسوة. وقدموا له المال الذي عانوا في جمعه مالا يخطر بالبال. فأمر بأن يوزع على [لاميا] وبقية نسائه ليبتعن به صابوناً، كان ما قدموا اتفه من ان يخصص لغير هذا الغرض. وكان العار الذي اصابهم جراه اشد وقعاً ومرارة مما عانوا بجمعه من خسارة وأختلف الرواة في الحكاية في الواقع، فبعضهم يقول ان الحادث وقع للتساليين لا للآتينيين. ومهما كان من امر، فان [لاميا] هي الأخرى قامت بجباية مقدار كبير من المال للاتفاق على مأدبة اقامتها للملك، فأشتهرت مأدبتها الى الحد الذي اتى الى وصفها لينكيوس Lyn-ceus]. واضفى على [لاميا] بهذه المناسبة اسم [هيلپوليس Helepolis] الحقيقية. ولقب [ديموخارس] بصولي Soli، [ديمتريوس] بـ [ميشوس Mythus] لأن لأسطورة [لاميا] ها الخاصة وميشوسها الخاص.

الحق يقال ان أهواء هذه المرأة والبذخ الذي عاشت فيه جلبا عليه حسد كل نساءه وغيرتهن فضلاً عن عداة اصدقائه.

فمثلاً: كشف [ليسيماخوس] مرة لبعض السفراء الذين ارسلهم ديمتريوس عن ندوب في فخذيه وذراعيه بفعل برائن اسد كان الاسكندر قد اطلقه عليه. وبعد ان اصغى هؤلاء السفراء الى تفاصيل معركته مع هذا الوحش الضاري ابتسموا وقالوا ان ملكهم ايضاً ندوباً في جسمه، وانه ليستطيع ان يعرض في عنقه آثار برائن [لاميا] وهي حيوان لبست بأقل خطراً من الأسد. ومما يورث اكبر العجب انه كان يصدّ عن [مبلا] بسبب تقدمها في العمر، في حين كان عبداً ذليلاً [للاميا] التي مر عهد شبابها منذ زمن طويل. وفي احدي الأمسيات عند العشاء كانت تعزف لحناً على المزمار سأل [ديمتريوس] مخطيته [ديمو] التي يلقبها الرجال بـ[جنون] ما رأيها في لاميا؟ فأجابت: اراها امرأة عجوزاً.

وجيء ببعض الحلوى فسألها الملك ثانية:

- انظري الى الهدايا التي جاءتني من [لاميا]؟

فقلت [ديمو]:

- سترسل أُمي العجوز أكثر من هذا، لو اتخذتها لك عشيقة.

ورويت قصة أخرى عن انتقاد [لاميا] للحكم الشهير الذي اصدره القاضي [بوخوريوس Bocchoris]. حاول شاب مصري، لمدة طويلة وصال العاهرة [تونيس Tonis] وعرض عليها مبلغاً من الذهب اجراً لمعاشرتها وقبل ان يتم ذلك. حلم بأنه امتلكها واطفاً شوقه بالخيال ولم يعد يشعر برغبة في الوصال الفعلي فأقامت عليه [تونيس] الدعوى بالمبلغ المتفق عليه. وعندما سمع القاضي الادعاء، امر المدعي عليه باحضار المبلغ الى المحكمة كاملاً في وعاء وان يحركه يميناً وشمالاً امام انظار [تونيس] ويعطيها خياله. فطعنت [لاميا] في صحة الحكم قائلة: من المحتمل ان تكون رغبة الشاب قد اشيعت في اللحم، لكن رغبة العاهرة [تونيس] بالمال لا يمكن اشباعها بخيال ذلك المال. والى هنا نكتفي بالحديث عن لاميا. لننتقل بالقصة الآن من مرحلتها الهزلية الى خاتمتها المأساوية، بتعقيب اعمال وتقلبات خطوط ممثلي ادائها.

اجتمع الملوك في عصابة، ووجدوا قواتهم لمهاجمة [انتيفغونس] فترك [ديمتريوس] بلاد الاغريق، وتوجه الى والده، فوجده عالي الهمة ثابت العزم على اتم استعداد لدخول المعركة مما لايتفق مع تقدمه في السن فشجعه ذلك كثيراً. ولكن كان معقولاً لو رضي [انتيفغونس]

بالتنازل عن البسيط، او اظهر اعتدالاً قليلاً في رغبته بالسيادة المطلقة اذن لاحتفظ لنفسه بالمقام الأول بين الملوك حتى موته، ولاحتفظ بها لخلفه ايضاً. الا انه كان عنيفاً متجبهاً غطريساً لايمكن احتمال كلماته المهينة واجراءاته من قبل ملوك شبان اقوياء الجوانب. وبهذا استفزهم وحملهم على التحالف ضده. وعندما انبىء بالحلف المتكون ضده لم يتورع من القول:

- ان هذا السرب من الطير لايلبث ان يتفرق بضربة حجر واحدة وبصرخة لا غير.

ونزل ساحة القتال على رأس ما يزيد عن سبعين الفاً من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة، وخمسة وسبعين فيلاً. أما اعداؤه فقد حشدوا اربعة وستين الفاً من المشاة. وعشرة آلاف وخمسمائة خيال، وما يناهز الاربعمائة من الفيلة ومائة وعشرين عجلة حربية. ولما اقترب الجمعان، لوحظ ثم تغيير لا في هدف [انتيفغونس] بل في مشاعره السابقة للمعركة وتوجساته. فقد بدأ خلافاً لما كان يبدو في معاركة السابقة مهموماً صامتاً منطوياً على نفسه، وكان في العادة يبدو واثقاً في نفسه، رابط الجأش جهوري الصوت، ساخراً هازناً، وكثيراً ما كان يعرب عن استخفافه وعن ثبث جنانه بالمزاح وارسال الفكاهات. وانضم [ديمتريوس] الى الجيش، فأسرع [انتيفغونس] يعلنه خليفة له. واصابت الجميع الدهشة اذ راؤه يختلي بابنه في الخيمة ويتباحثان منفردين وهو من أغرب الأمور اذ لم يؤثر عنه قبلاً ان عقد مؤتمراً خاصاً مع [ديمتريوس] بل كان ينفرد برأيه دائماً ويقرر خطته وحده ثم يصدر اوامره تبعاً لذلك. ومرة حين كان [ديمتريوس] صبياً وسأله متى يبدأ الجيش بالحركة، ردّ عليه بحدّة:

- انت من دون سائر الجيش، تخشى ان لاتسمع نفيير البوق؟

واثرت بعض الظواهر الطبيعية على معنوياته. كان [ديمتريوس] قد رأى في حلمه الاسكندر بكامل سلاحه. ظهر له وطلب منه ان يعلمه بكلمة السر التي ستعطي ايدانا بالمعركة، فقال [ديمتريوس] انه يعتزم ان تكون «جويتير والنصر» فقال الاسكندر:

- اذن فسأذهب الى عدوك، وانتظر منه استقبالي.

وفي صباح يوم المعركة بينما كانت القطعات تتخذ مواضعها عثر انتيفغونس بباب خيمته وهو خارج فسقط على الارض واصيب بأذى شديد. ولما زال ألم قدميه، رفع يديه الى السماء ودعا الآلهة ان تمنحه النصر او الموت قبل ان يشعر بالهزيمة. وعندما التحم الجيشان هجم [ديمتريوس] على [انطيوخوس] ابن سلوقوس وكان يقود افضل قطع الخيالة فهزمه هزيمة نكراء وانطلق يطارده بفورة النجاح وحماسته وابتعد مسافة كبيرة طيشاً منه وتهوراً وبذلك تسبب في خسارة المعركة كلها. اذ بعد ان ادرك خطأه وقرر الرجوع لمساندة المشاة لم يجد ذلك

ممكنا لان العدو قطع خط الرجعة بفيلقه. ومن الجهة الثانية لاحظ [سلوقوس] ان القسم الأكبر من مشاة [انتيفغونس] ترك مكشوفاً لخيلته، فلم يهجم، بل قام بعدة مناورات تغطية وتظاهر بالهجوم وهكذا ابقاهم في انذار وتحفز وصار يكرّ ويفرّ ويتقدم ويتأخر كأنه يهجم بالاشتباك معطياً الفرصة للجنود الذين يريدون التخلي عن انتيفغونس والانضمام اليه، وقد فعل ذلك عدد كبير منهم ولاذت البقية بالفرار. إلا أن [انتيفغونس] ظلّ ثابتاً في موضعه. وعندما تقدمت منه قوات ضخمة وانقضت عليه وصاح احد القريبيين منه:

- مولاي انهم يهاجمونك.

لم يجب بغير هذا:

- وماذا في وسعهم ان يعملوا سوى هذا؟ ان [ديمترىوس] سيخفّ لنجديتي.

وظل صامداً يراوده الأمل حتى الأخير، وهو يتطلع الى كل الجهات منتظراً وصول ابنه حتى جندل مثخنا بطعنات الرماح وهرب اصحابه ومن والاه إلا [ثوراكس Thorax] اللاريسي فقد بقي يحرس الجثمان.

بعد انتهاء المعركة أخذ الملوك الغالبون يقطعون أوصال الامبراطورية الواسعة التي كانت ملكاً لديمترىوس وانتيفغونس. كما يقطعون الجثة، فيلحقون اجزاءها باملاكهم. وفرّ [ديمترىوس] بخمسة آلاف من المشاة واربعة آلاف من الخيالة الى [إفسس] بأسرع ما يمكنه وكان الاعتقاد السائد انه سيضع يده على كنوز الهيكل، ليُنقذ منها على حاجاته ولكنه عمل عكس هذا، فقد اسرع بالرحيل خوفاً من محاولة كهذه يقوم بها جنوده، وابتعد الى بلاد الاغريق. ووضع امله الوحيد في الآثينيين الذين استأنمهم على جزءٍ من اسطوله وامواله وزوجه [لايداميا] ولم يساوره اي شك في اخلاصهم له، وايجاد كنف من حماهم في محنته. ولما وصل الى الكيكلاديس Cyclades، التقى بوفد آثيني، راح يرجوه ان لا يستمر في التقدم نحو المدينة لأن الأهالي صوتوا على عدم السماح لاي ملك كان بولوج السور. وقالوا انهم رحلوا [ديداميا] بما يليق من اكرام ولياقة الى [ميغارا] فاجتاحه الغضب. وفارقه صبره ورباطة جأش. وكان قد ضبط نفسه حتى الآن فلم يبدر منه ما يحط من قدره أو يشين كبريائه. ولكنه لم يتحمل خيبة ظنه بالآثينيين وان يجد تلك الصداقة التي آمن بها واعتمد عليها زائفة فارغة عند الامتحان. فكانت صدمة عظيمة له وغصه اليمه. والحق ان المبالغة في اظهار التكريم السطحي هو اضعف دليل على الحب الحقيقي من الشعب الى اي ملك او أمير. تلك المظاهر تفقد قيمتها كدلائل على المحبة عندما نتذكر بانها اما تنشأ من عامل الخوف. ان

المحبة تستمد قوتها ودوامها من المشاعر الخالصة والاختيار الخلقى. ولهذا صوت الآثينيين على القرارات الأخيرة كما صوتوا على القرارات الأولى، بنفس الاستعداد والاستعجال. ان ذوي البصائر، والحكماء لا ينظرون باعتبار الى التماثيل والرسوم والتكريم الالهي وغيره مما يقدم لهم، قدر ما ينظرون الى اعمالهم وسلوكهم. فمنه يحكمون على امكان الوثوق بالمظاهر كدليل على الولاء الأصيل الحقيقي، او نبذهم باعتبارها مظهراً لولاءٍ قسري. والواقع ان الشعب نفسه لا يسعه إلا ان يقرف ويشمئز من هوة الاطراء الذين يقبلون عليه بنهم وغطرسة دون احترام لحرية ارادة المعطي.

وديمترىوس الذي اعتقد انه عومل معاملة مهينة لم يكن في وضع يستطيع معه الانتقام. فأرسل عتاباً رقيقاً أعرب فيه عن امله بان يسمح له باسطوله وبينه سفن ذات ثلاث عشرة طبقة. فسلمت له السفن فأقلع بها الى المضائق. فوجد اموره هناك على اسوء حال: فحاميته قد طردت وهناك انسحاب عام وانضمام الى صف العدو، وبهذا غدا [بيروس] مطلق اليد في بلاد اليونان. فولى وجهه نحو [الخرسونيز] واجتاح اراضي [اليسسيماخوس] واصلح احوال جنوده بالغنائم التي وضع يده عليها فأرتفعت معنوياتهم واشتدت سواعدهم. ولكن لم يهتم احد من الأمراء باعتراضه ومناجزته في هذا الجزء من العالم. [فليسسيماخوس] لم يكن محبوباً في تلك الانحاء وانما كان يخشى بأسه فحسب. ولكن ما مرّ زمن قصير حتى ارسل [سلوقوس] يخطب ستراتونيكى بنت [ديمترىوس] من زوجه [فيلا].

كان [سلوقوس] قد انجب من [اپاما Apama] الفارسية ابنه [انطيوخوس]. على انه كان قد بسط ملكه على رقع واسعة، لاكثر من خلف واحد. كما انه لجأ الى مصاهرة [ديمترىوس] لأن ليسسيماخوس كان في ذلك الحين قد تزوج احدى بنات بطليموس وزوج ابنه من بنته الأخرى. وعد [ديمترىوس] هذا العرض حظاً سعيداً غير متوقع، فأقلع فوراً مع ابنته وجميع اسطوله الى سورية وارسى في الساحل عدة مرات. فنزل في كيليكيا في الجزء الذي كان من سهم [پليستارخوس Plistarchus] اخ كساندر من عملية اقتسام املاك [انتيفغونس] بعد هزيمته. فعد پليستارخوس عمل [ديمترىوس] اعتداء على حقوقه ولم يكن آسفاً على هذا الاعتداء المزعوم فقد اهتبلها فرصة للاحتجاج على [سلوقوس] لدخوله في مفاوضات مع [ديمترىوس] عدوهم المشترك دون مشاوره الملوك الآخرين. وابلغ [ديمترىوس] بذلك. وانتهاز فرصته فأنقض على مدينة [كونيده Quinda] دون انذار ونهب منها الفأ ومائتي تالنت كانت مودعة في خزائنها. واسرع بلوذ بسفينة ورفع قلوعه ورحل. وفي [روسوس Rhusus] اجتمعت به زوجه [فيلا] وتلاقى مع [سلوقوس] وسرعان ما تمّ الاتفاق الصريح بينهما

وتبادلا الثقة بصفاء نفسٍ بعيداً عن الشكوك. وأولم [سلوقوس] لديمتريوس في خيمته بالمعسكر، وباده [ديمتريوس] الحفاوة فاقام له وليمة في السفينة ذات الطوابق الثلاث عشر. وتلتها لقاءات وحفلات ترفيه ومؤتمرات وزيارات طويلة لتبادل الآراء العامة دون بطانة ولا حرس مدجج بالسلاح. ثم استأذن [سلوقوس] فرحل وحمل [ستراتونيكيا] الى انطاكية بموكب فخم. وانقضَّ [ديمتريوس] على [كيليكيا] فأستولى عليها. وارسل [فيلا] الى اخيها [كساندر] للاجابة على شكوى [پلستارخوس]. وانضمت اليه [دايداميا] وزوجه قادمة من بلاد اليونان بحراً إلا أنها ابتليت بمرض لم يمهله كثيراً فقضت نحبها وعلى اثر موتها تمّ الصلح بين [ديمتريوس] و[بظليموس] بتوسط من سلوقوس، واتفق بموجبه على ان يتزوج [ديمتريوس] بـ[بتليمياس] بنت [بظليموس]. الى هذا الحد كان مسلك [سلوقوس] حكيماً وانجازاته طيبة لامطعن فيها. إلا أنه ما لبث ان طلب من [ديمتريوس] النزول له عن اقليم [كيليكيا] لقاء مبلغ من المال. فلما رفض طلبه، عاد يفاضه بحدة في التنازل له عن [صور] وصيدا] وهو ما بدا وجهاً من وجوه التحكم العشوم. بل هو في الواقع عمل شائن ممن يملك تلك الممالك الشاسعة والاقاليم المترامية بين الهند والبحر السوري، فيشعر بمسيس حاجة الى مدينتين فقط؛ دون ان يعبأ بازعاج قريبه الذي عانى الكثير من المحن والارزاء وسوء الحظ. انه بمختصر القول يبرز حكمة افلاطون: «الطريق الاكيدة الوحيدة التي تؤدي بك الى الغني الحقيقي هي ان لاتزيد في مالك، بل ان تقلل من رغباتك» فمن لايشبع من التملك يظل يؤكّد انه مايزال محتاجاً. وهو لاشك فقير في وسط غناه وبحبوحته.

الأ ان [ديمتريوس] الذي لم تخنه شجاعته ارسل رداً جازماً قال انه لن يدفع اي ثمن لحسن نية ختن له مثل سلوقوس ولو خسر عشرة الاف معركة كمعركة [إپسوس] [Ipsus] ثم عزز هاتين المدينتين بحاميات كافية لتقوى على الدفاع في حالة هجوم [سلوقوس]. وفي ذات الوقت علم ان [لاخاريس] [Lachares] انتهز فرصة نزاعه ففرض حكمه على الآثينيين غصباً. فرأى انه لو باغت المدينة لنجح في الاستيلاء عليها بسهولة ولهذا اجتاز البحر بسلام على رأس اسطول كبير. إلا ان العواصف الشديدة داهمته وهي مار بساحل [آتيكا] فخسر معظم سفنه ومن فيها من رجال. اما هو فنجا. وراح يشن حروباً صغيرة بنطاق ضيق على الآثينيين. ولما عجز عن تحقيق بغيته أرسل يأمر ببناء اسطول جديد وزحف بمالديه من جنود على الپيلوپونيسس، وحاصر مدينة [مسينا]. وافلت من الموت باعجوبة في اثنا هجوم. اذ اصابت وجهه قذيفة منجنيق اخترق سنانها خده ونفذ الى فمه على انه شفي بالأخير، وعادت الى ملكه مدن عديدة كانت قد تمردت عليه. ثم شنّ غارة على آتيكا، فأستولى على

[اليوسس Eleusis] ورامنوس Rhamnus، واجتاح البلاد المجاورة لهما، وسقطت في يده سفينة موقرة بالقمح متوجهة الى آثينا فأمر بربانها ومدير شحنتها بان يشنقا ليلقى الرعب في نفوس الاخرين فلا يجرؤ احد على تموين المدينة بالارزاق. فضايقة منه للآثينيين. وبلغ الأمر بالسكان أن ضاقت بهم السبل واصبح البوشل من الملح يباع باربعين درهماً. والپك<sup>(٢)</sup> من القمح بثلاثمائة درهم. وارسل [بظليموس] مائة وخمسين سفينة لانجادهم فاقتربت حتى صارت على مرمى النظر من [ايجينيا Aeginae] إلا ان هذا الأمل القصير الأمد مالبت ان ضاع بوصول ثلاثمائة سفينة لتعزيز اسطول [ديمتريوس] من قبرص والپيلوپونيسس وغيرها. فلذا اسطول [بظليموس] بالفرار، وهرب الطاغية [لاخاريس] من آثينا وتركهم لمصيرهم المحتوم.

ان الآثينيين الذين كانوا قد فرضوا عقوبة الموت على كل من يقترح ابرام معاهدة أو اتفاق مع [ديمتريوس]، سارعوا الآن يفتحون اقرب الابواب اليه لاجراج وفد لا أملاً من رحمته في فيل شروط حسنة، بل نزولاً عند احكام الضرورة واجتناباً للموت جوعاً. فمن المآسي المريعة قيل ان ابا وابنه كانا جالسين معاً في غرفة وقد ودعا كل أمل ببلغة من العيش واذ بفأر ميت يسقط من السقف، فهجما عليه كل يريده لنفسه تتماسكاً وتضارباً. وروى المجاعة ايضاً أن [الفيلسوف أبيقور] لم ينقذ حياته وحياة تلاميذه إلا بكمية صغيرة من حبوب الفاصولياء كان يوزعها عليهم بالعدد يومياً.

كذا كانت حال المدينة عندما دخلها [ديمتريوس]. فبادر يصدر بياناً دعا فيه جميع الأهالي الى الاجتماع في الملعب. ولما انتظم عقدهم أمر جنوده أن يقفوا صفوفاً بظهر الملعب، واحتله بحرسه، ثم دخل من ممر الممثلين وقد وصل الرعب بالأهالي غابته القصوى. فبددت كلماته الأولى كل خوف. اذ راح يؤنهم بلهجة رقيقة، لطيفة خالية من الصرامة، معلناً رضاه عنهم. وزاد على ذلك بتقديم هدية لهم تتألف من مائة الف بوشل من القمح وعين للوظائف العامة اناساً يرضاهم الأهالي.

ولما رأى الخطيب [دروموكليس] مبلغ حيرة اخوانه المواطنين في ايجاد وسيلة للتعبير عن مدى شكرهم بالهتاف او بالكلام، ومبلغ استعدادهم للقيام بأي شيء في هذا الصدد، خلافاً للامتنان القولي والرد الرسمي من قبل الخطباء. نهض مقترحاً اصدار مرسوم بتسليم كل من قلعتي [پيروس] و[مونيخيا] الى الملك ديمتريوس. فتم ذلك. وبادر ديمتريوس دون توصية من أحدٍ بوضع حامية ثالثة في مسيوم Meseum احتياطاً لأيّ تمرد للأهالي قد يشغله عن خططه

(٢) الپك Peck هو ربع البوشل.

الأخرى وبعد استناب الأمر في اثينا بدأ يتهيأ للهجوم على [القيديون] فعلم بذلك ملكها [ارخيداموس] وخرج اليه. إلا أنه انهزم في معركة جرت قرب [مانتينا] فدخل ديمتريوس [لاقونيا] مُني [ارخيداموس] بهزيمة أخرى قرب [سپارطا] وقتل مائتين من اللقيديين وأخذ خمسمائة أسير ولم يعد بإمكان هذه المدينة التي لم يستول عليها احد من قبل ان تصمد امامه. ولكن من المؤكد الثابت انه كان ملكاً عجبياً لم يخلق مثله لعب الخطّ معه لعبات خاطفة فلم تقم حياة او سيرة مملوءة بهذا القدر من التقلبات السريعة كقصة حياته. فمن صغائر الأمور الى عظائمها، ومن الرفعة الى الذلة، ومن الضعف التام الى نهاية السلطان والقوة؛ حتى ليقال انه اعتاد مناجاة الخطّ بكلمات [اسخيلوس] كلاًّ عضة الخطّ العائر بناب:

«انت الذي رفعنا وانت الذي وضعتنا ثانية!»

وفي هذه اللحظة عندما بدأ كل شيء متفقاً وامانيه في الملك والسلطة وردت انباء تفيد بان [كيسيماخوس] استولى على جميع ما تحت يده من مدن في آسيا وان [بطليموس] قد اخضع كل [قبرص] عدا سلاميس وان امه واولاده في سلاميس، محصورون ومع هذا كله، فكان المرأة التي وصفها ارخسيلوخوس Archilochus

تعرض الماء في احدى كفيها الخادعتين  
في حين تتوهج النار في كفها الأخرى

صدّه الخطّ عن [سپارطا] بهذه الانباء القاضية لكنه في اللحظة عينها فتح له باب خلاص جديد عجيب: فقد توفي [كساندر] ملك مقدونيا. ولم يعش خلفه وابنه الاكبر [فيليب] طويلاً بعد وفاة والده. فأختلف اخواه فيما بينهما حول وراثة العرش. وعمد اكبرهما [انتيباطر] الى قتل امه [تسالونيك] فطلب الأخ الاصغر معونة [بيروس] من [اڤيروس] ومعونة [ديمتريوس] من [الڤيلوپونيسس] فسبق [بيروس] في الوصول واقتطع جزءاً كبيراً من مقدونيا وضمه اليه تعويضاً عن مساعدته تلك. مما حدا بالكساندر الى القلق والاعتقاد بأنه استقدم جاراً خطراً، وانه قد لايتعرض الى مثل هذا الخطر من [ديمتريوس] الذي بدأ أقوى من حليفه، وافضل سمعة. فأسرع يلتقي به في [ديوم Diom] حيث وصلها [ديمتريوس] عندما تسلم رسالة الشاب، وبعد ان سلم عليه واعرب عن شكره لتبليته دعوته وانه ما عاد بعد يرى ضرورة حضور حليفه الأول، دعاه الى العشاء، والواقع ان العاهلين لم يلتقيا بقليلين خالين من الشك فقد كان احدهما يتوجس شراً من الآخر. وفيما كان [ديمتريوس] يسير الى الوليمة المعدة له اسرّ احدهم في اذنه بأنه سيقتل غيلة في مجلس الشراب. فلم يظهر قلقاً. إلا انه

تباطأ في سيره وارسل امراً لكبار ضباط جيشه بوضع الجنود تحت الانذار وجعلهم متأهبين بكامل سلاحهم وامر بطانته وكانت تفوق بطانة الكساندر بكثير، ان تتولى حراسته في غرفة الطعام وان لايتحركوا من مواضعهم حتى ينهض. فغلب خدم [الكساندر] على امرهم وجنبوا عن القيام بعملية الاغتيال المدبرة، اذ لم يتح لهم [ديمتريوس] الفرصة بتدابيره وتقصير امد زيارته وزعمه لألكساندر ان صحته السيئة في الاونة الاخيرة لا تسمح له بتعاطي الخمر وترك المأدبة مستعجلاً وفي اليوم الثاني بدأ يستعد للرحيل زاعماً لألكساندر ان الانباء التي وردته تستدعي منه العودة، واعتذر عن رحيله الفجائي معرباً عن أمله بلقياها حالما تسمح له اعماله. وسرّ الكساندر لا برحيله وحده، بل لأن ذلك تم بمحض رغبتة ومن دون احراج وعرض عليه فراقه حتى [تسالي]. وعند بلوغهما [لاريسا] تهودلت الدعوات فيما بينهما وجرت فيها احاديث صريحة فيها حسن نية ظاهرة يفوح منها ريح مؤامرة جديدة على [ديمتريوس] إلا ان الوضع انقلب واصبح المتآمر تحت رحمة الضحية: لم يشأ [الكساندر] ان يتخذ لنفسه اي احتياطات لثلا يوجس ديمتريوس منها خيفة فيبادر الى اتخاذ احتياطات مقابلة، وكان ان وقع ضحية غدره. فقد قبل دعوة [ديمتريوس] وجاء الى مقره وفيما هما يتناولان عشاءهما نهض [ديمتريوس] من مجلسه وسار، فقام الكساندر ولحق به متجهماً صوب الباب.

وفيما [ديمتريوس] يجتاز التفت الى حرسه وقال:

- أقتلوا من يتبعني.

وأستأنف سيرة. فوثبوا على [الكساندر] وقضوا عليه وعلى كل اصدقائه الذين حاولوا انقاذه. وقال احدهم قبل موته:

- سبقتنا بيوم واحد.

وتلا ذلك بطبيعة الحال، ليلة حفلت بالفوضى والاضطراب. وظلّ القلق مستحوذ على نفوس المقدونيين حتى الصباح خوفاً من [ديمتريوس] لكن لم تظهر منهم بادرة عنف. ووصلتهم منه رسالة يطلب فيها مقابلة لشرح الاسباب التي دعتة الى هذا العمل، فأفرخ روعهم، وعادت ثقتهم بأنفسهم وتهيأوا لاستقباله استقبالاً حسناً، ولم يكن بحاجة الى الإطالة وكثرة الكلام. وسرعان ما حملهم بغضهم لانتيباطر، قاتل امه، وفقدان أخيه وهو أفضل منه، على المناداة بـ[ديمتريوس] ملكاً لمقدونيا. وأسرعوا الى بلادهم في ركابه. ولم يأسف المواطنون المقدونيون للتغيير، فهم يذكرون جيداً أعمال [كساندر] السيئة وغدره بأسرة الاسكندر ولايغتفرون. وكان من فائدة [ديمتريوس] ان يذكروا له الأفعال الجميلة والحكم الرفيق البسيط الذي مارسه



عليهم حموه [انتيباطر] الأول والد [فيلا] لاسيما وان ابنه منها اصبح الآن فتىً منخرطاً في الجيش وهو ولي عهد ابيه بلا جدال.

الى جانب هذا الحظ، ورده نبأ قيام [بطليموس] باخلاء سبيل والدته واولاده وصرفهم بالهدايا والهبات الكثيرة، وان بنته [ستراتونيكي] زوج سلوقوس، اصبحت الآن زوجاً لانطيوخوس ابنه، وقد نودي بها ملكة على آسيا الشرقية.

يبدو ان [انطيوخوس] هام حباً بالملكة الصغيرة [ستراتونيكي] التي انجبت لسلوقوس ابناً. فقاوم [انطيوخوس] تلك العاطفة مقاومة شديدة، وبالأخير وجد ان حبه هذا غير شرعي مطلقاً، وانه مرض فيه لايرجى شفاؤه، ولا تقدر قواه الفعلية على اخماد جذوته فأستقر رأيه على الموت. ولجأ الى قتل نفسه قتلاً بطيئاً. فأهمل شأنه وامتنع عن تناول الطعام وتصنع المرضى. وسرعان ما ادرك طبيبه [ايراسيستراتوس Erasistratus] ان علته في الحب لكن صعب عليه معرفة من وقع في حبه. فلزم غرفته لا يبارحها مراقباً تقلب مريضه وانفعالات وجهه عندما قيام جميلات البلاط بزيارة الأمير العليل. فلم يجد اي أثر يتخلف على اساريه دليلاً على ما يبطن من عاطفة، على كثرة النساء اللاتي أختلفن اليه. الا انه لاحظ الأعراض المعهودة، كلما دخلت ستراتونيكي اليه وحدها او برفقة [سلوقوس]. تلك الأعراض التي وصفتها [سافو Sappho] وهي رعشة صوته واحمرار وجهه واستراق النظرات وزيفانها، وعرق مفاجيء ينضح من سائر جسمه، ومسارعة خفقان قلبه، واضطرابه وعجزه عن ضبط طغيان عاطفته، وامتقاع وجهه بعد احمرار، ثم الاغماء وفقدان الوعي.

فكر [ايراسيستراتوس] بالأمر ملياً ودرس الأعراض، وأخذ يقلب الاحتمالات من شتى الوجوه. فأستقر على ان من يحبها لو كانت غير [ستراتونيكي] لما بدأ منه هذا الإصرار العجيب على الموت، ولا البوح يسره وشعر بالصعوبة التي تكتنف حلّ مشكل كهذا وابلاغ [سلوقوس] بالحقيقة. الا انه اعتمد شدة تعلق الاب بالفتى وحنانه العظيم. وأخيراً سنحت له فرصة واعلمه بأن مرض ابنه هو الحب. حب يستحيل ان يبرأ منه او يعالج به. فكان عجب الملك شديداً وسأله:

- ولماذا يتعذر شفاؤه منه؟

فقال [ايراسيستراتوس]: في الواقع انه يحب امرأتي!

فقال [سلوقوس]: كيف؟ وهل يرفض صديقنا [ايراسيستراتوس] ان يمنح امرأته لابني وولي

عهدي الوحيد، وهو السبيل الوحيد لانقاذ حياته؟

فأجاب الطبيب: اولست اباه؟ اتفعل فعلي لو كان من يحبه ستراتونيكي؟

فقال [سلوقوس]: ثق أيها الصديق، اني لأرجو من السماء أن تيسر لي اي وسيلة كانت انسيّة ام ربانية، لتتحول عاطفته الى هذه الجهة؛ اني لأسر لا بالتنازل عن [ستراتونيكي] وحدها بل عن امبراطوريتي. ان كان في ذلك امل في انقاذ [انطيوخوس].

قال [سلوقوس] هذا بعاطفة حافلة بالصدق وكانت دموعه تنهمر اثناء الحديث. وعندئذ امسك [ايراسيستراتوس] بيده وقال:

- أنت الآن لست بحاجة الى [ايراسيستراتوس]. فأنت الزوج وانت الأب، وانت الملك. فأنت اذن الطبيب المناسب لاسرتك!

فبادر [سلوقوس] الى دعوة الشعب وصارحهم باعتزامه تنصيب ابنه ملكاً وستراتونيكي ملكة على كل الاقاليم الواقعة في شرق آسي. وان يجمع بين الاثنين برباط الزواج. وقال انه يملك السلطة الكافية على ابنه حسب اعتقاده فهو لذلك لايتوقع منه اعراضاً وصدواً عن اوامره هذه. واما بخصوص [ستراتونيكي] فهو يأمل ان يوفق اصدقائه في اقناعها. واذا اظهرت تردداً وتمنعاً. فليفهموها بأن هذا في الواقع اعلاء لشأنها وتكريم لمنزلتها. وهي أمور لا غبار عليها مادام قرر الملك انها ضرورية للصالح العام.

وبهذه الوسيلة تم زواج [انطيوخوس] بستراتونيكي، على ما روي لنا الرواة.

ولنعد الى [ديميتريوس] بعد ان تربع على عرش مقدونيا. فقد انقض على تساليا وأخذها. كما ضبط القسم الاكبر من [الپيلوپونيسس] ومن الجهة الغربية من البوغاز. استولى على ميغارا وأثينا. ثم زحف على البويوثيين وعولج الأمر اولاً بالتفاهم. الا ان [كلونيوموس Cleonymus] السبارطي انجدهم بجيشه ودخل [ثيبه] وجرّ أهم على المقاومة [پيسيس Pisis] التسبي وهو اقواهم نفوذاً فنبذوا اتفاقهم جانباً. لكن ما أن دنا [ديميتريوس] من الأسوار بآلات حصاره حتى دبّ الخوف في قلب [كليونيوموس] وانسحب في موهن من الليل. ولما وجد البويوثيون انفسهم وحيدين في الميدان، اعلنوا خضوعهم فوضع [ديميتريوس] حامية في مدينتهم وفرض عليهم غرامة كبيرة، ونصب [هيرونيموس Heironymus] المؤرخ حاكماً وقائداً عسكرياً في المدينة. ولم ينل [پيسيس] باذى وانما توجه اليه بالكلام الرقيق وجامله وعينه رئيساً لقضاة تسبيا Thesipiae.

وبعد قليل، وقع [ليسسيماخوس] في اسار [دروميخييتس Dromichaetes] فأهتبل

ديميتريوس] فرصته واستولى على [تراقيا] التي بقيت دون ملك يحكمها. إلا ان البويوثيين تمردوا عليه من جديد، ووردت انباء باطلاق [ليسيماخوس] من الأسر. فعاد [ديميتريوس] ادراجه غاضباً ليجد ان ابنه [انتيغونوس] قد سبقه الى سحق البويوثيين في معركة طاحنة فباشر هو حصار ثيبية. وفي اثناء ذلك علم ان [بيروس] شن الغارة على تساليا وانه وصل حتى مشارف [ثرموبيلي] فاوكل لانتيغونوس تشديد الحصار وزحف ببقية الجيش لمهاجمة المغير، إلا ان [بيروس] اسرع بالانسحاب. فترك [ديميتريوس] عشرة الآف من المشاة والفاً من الخيالة في تساليا وعاد لمواصلة حصار [ثيبية]. وجاء به «قائمة المدن» الشهيرة لدعم هجومه. وكانت حركة هذه البارجة في غاية البطء والصعوبة لضخامة جرمها وثقل هيكلها ولم تتقدم أكثر من فرلنكين اثنتين في غضون شهرين. وكان الاهالي في الوقت ذاته يستميتون في الدفاع. حتى ليبيلج جنون العناد [بديميتريوس] الى حد ارسال جنوده في مهمات خطيرة جداً دون ضرورة او ثمرة. وكان ابنه [انتيغونوس] يرقب بعين الأسى هلاك الكثير من الجنود في مثل هذه الهجمات فناشد اباه قائلاً:

- لماذا نحن نواصل تعريض حياة الرجال للهلاك في حين لا ضرورة ثم لذلك؟

فقاطعه [ديميتريوس] وقال له بحدّة:

- وانت يا سيدي الفاضل! لماذا يؤلمك الأمر، أياتي الموتى اليك يطلبون الارزاق اليومية؟

على ان الجنود لم يكونوا ليرفضوا له امراً اذ يجدونه قليل الاحتفال بسلامته لايقيم لحياته وزناً قدر ما يقيم لحياتهم ويهتم بهم، ويعرض نفسه لاعظم الأخطار دون تداخله شفقة بحاله. وقد اصيب عنقه بطعنة حربة حتى خيف على حياته. إلا انه واصل الحصار مع ذلك. حتى فتح المدينة ودخلها واهلها يرتجفون خوفاً وهلعاً متوقعين منه كل قسوة يمكن ان يستخدمها الفاتح الغاضب. إلا انه أكتفى بارسال ثلاثة عشر شخصاً الى الآخرة. ونفى عدداً قليلاً وعفا عن الجميع: هكذا حوصرت ثيبية مرتين وفتحت مرتين في فاصل قصير من الزمن - تلك المدينة التي لم يمض على اعادة بنائها عشر سنوات كاملة.

بعد هذا حلّ موعد الاحتفال بعيد [اپوللو] البيثني. وكان الاتيوليون قد سدوا كل المنافذ الى دلفي - فأحيا [ديميتريوس] العيد والالعاب معاً في اثينا. متعللاً بأن يكون هذا الاكرام في اثينا لأن اپوللو هو الآله الشفيح للشعب الآثيني، ومؤسس امتهم على ما يعرف.

ثم عاد [ديميتريوس] الى مقدونيا. وكان ينفر من الهدوء والاستقرار بطبعه ويدرك ان المقدونيين هم اطوع الشعوب واسهلهم انقياداً عندما تشغلهم مشاغل القتال والحملات

العسكرية، وهم ابعد عن الاستقرار واقرب الى التمرد والتحمل في اوقات السلم والبطالة. فزحف بهم على الاتيوليين المتمردين وبعد ان عاث في بلادهم سلباً وغصباً، ترك [پنتاوخوس] Pantauchus مع جانب من جيشه لأكمال الفتوح وزحف بالبقية لمطاردة [بيروس] الذي كان هو الآخر ينشد لقاءه. إلا ان الصدفة حكمت بان يسلك كل منهما طريقاً مختلفاً فلم يتلاقيا. لكن عندما دخل [ديميتريوس] ابيروس واجتاح كل ما صادف امامه كان بيروس يباغت [پنتاوخوس] ويلتحم مع في معركة اليد باليد وجرح القائدان. إلا ان الغلبة كتبت ل[بيروس] ووقع في يده خمسة آلاف اسير وسقط كثير من القتلى في ميدان القتال. ان اسوء ما في الأمر هو ان [بيروس] كان يثير في النفوس من الاعجاب اكثر مما يثيره من العداة. وبسالته الفاتحة ومساهمته في القتال شخصياً، رفعت اسمه ومكانته لدى المقدونيين فأخذوا يجدونه ويلهجون باسمه قائلين انه الملك الوحيد القريب الشبه بالاسكندر. فالملوك الآخرون ولاسيما [ديميتريوس] لم يحاولوا احتذاء حذوه بالافعال بل كانوا اشبه بالمثلين على المسرح، يحاكون عظمتهم وجلال مظهره لا غير. والواقع ان [ديميتريوس] كان مجرد ابهة فارغة ولعبة مزخرفة بارديته وتيجانه وارجوانه المطرز بالذهب وقلانسه بذوائبها الغليظة واحذيته المصنوعة من أفخم اللباد الارجواني المطرز بالذهب. ولنخصّ رداء واحداً بالوصف: انه نسيج فني رائع اطول من ان يتسع لنول الحائك عند نسجه. نقشت عليه صورة الكون والاجرام السماوية لم يكمل نسجه لأن النكبات داهمته فأشغلته عنه، ولم يقدم احدٌ من خلفائه على ارتدائه مع ان سلالته لم تخل من المتفجرين المتغطرسين.

لم تكن هذه الآبهة المسرحية وحدها سبب اشمزاز المقدونيين وقرفهم. بل كان ايضاً بذخه وترف عيشه بل صعوبة الوصول اليه والتحدث معه. فهو مترفع محتجب لا يرى اذا كان في حالته الاعتيادية واذا سمح بمقابلة فهو عنيف لا يطاق كره الاستقبال. فمع انه كان يهتم بأمور الآثينيين أكثر من سائر الاغريق، فقد ترك وفداً لهم، عامين كاملين ينتظر الحصول على اذن بمواجهته. وارسل اللقيديميون موفداً واحداً في سفارة، فعدها إهانةً وسأل غاضباً. احق ان اللقيديميين لم يرسلوا غير سفير واحدٍ. فأتاه الجواب دراكاً:

- أجل سفير واحدٌ لملك واحد!

وفي حالة من حالة الصفاء وطيب المزاج، خرج مرةً راكباً جواده فلحقه عدد من الناس وقدموا اليه مظلمات مكتوبة في رقاع فتناولها منهم جميعاً بكل لطف ووضعها في جيبه، فعمت الناس الفرحة واخذوا يتابعونه في السير حتى اذا وصل الجسر الممتد فوق نهر [اكسوز] [Axius] نفذ جيب معطفه فتساقط كل الرقاع في النهر. هذه الفعلة اثارته اشد السخط

والحنق في نفوس المقدونيين وشعروا بأنهم لا يحكمون بل يهانون. وتذكروا ما شهده بعضهم في الأيام الخوالي. وتسامع آخرون ما حكى عن بساطة الملك [فيليب] وسجاياه السمحاء اللطيفة.

في يومٍ ما اعترضت امرأة عجوز سبيله عدة مرات وهو سائر والحت عليه بأن يصغي إليها فلما اجابها بأن لا وقت لديه صاحت به:

- ان كان الأمر كذلك، فلا وقت لديك لتكون ملكاً.

اصابه هذا التوبيخ في الصميم. ففكر ملياً وعاد الى بيته، ونبذ جانباً كل ما يشغله ووقف نفسه اياماً عديدة على سماع شكاوى كل قاصد، مبتدئاً بالعجز.

ان نشر العدل هو اول ما يجب ان يهتم به الملوك في الواقع. ويقول [تيموثيوس]: «ان مارس هو الطاغية»، لكن «القانون هو ملك الجميع». كما يقول پندار. وهو ميروس، لم يقل ان الملوك يتسلمون منه مبادئ العدل ليحفظوها ويطبّقوها. وجوبتر، لم يمنح لقب «الصدّيق الاعزّ، والتلميذ» لأشد الملوك مراساً في القتال، ولا لأكثرهم ظلماً ونعطشاً للقتل. بل لأعدّ لهم وأكثرهم انصافاً. وكان [ديميتريوس] يُسرّ بتلك اللقب التي يجها ذوق رأس الالهة وينبو عنه. اما الاسماء الطيبة التي تخلعها الآلهة فهي امثال «المدافع» و«الساهر». وأما هو فقد عرف بلقب «محاصر المدن» لقد اعطى الصدارة في موضع - لو لم يكن جاهلاً قدر ما هو قوى - لعلم انه صدارة الرذيلة. وقد أختلط الشرف بالجريمة بعمله هذا.

كان [ديميتريوس] طريح الفراش يعاني مرضاً خطيراً في پللا Pella بينما راح [بيروس] يبتلع مقدونيا متقدماً حتى مدينة [اديسا Edessa]. ولكنه اسرع بطرده بعد ان تماثل للشفاء، ثم عقد معه صلحاً اذ لم يكن يريد اشغال نفسه بسلسلة من الحروب المحلية مع احد جيرانه بينما ركز افكاره في هدف آخر؛ الا وهو محاولة استعادة امبراطورية ابيه. وكان استعدادده يناسب آماله العريضة ومشروعه الجسيم. فقد باشر بتجنيد ثمانية وتسعين الفاً من المشاة وزهاء اثني عشر الفاً من الخيالة، وبدأ في بناء عمارة بحرية تتألف من خمسمائة سفينة. بعضها بناه في اثينا، وبعضه في كورنث. وجزء في خلكيس وبالقرب من [پللا] وكنت تراه كثير الحركة والتنقل بين هذه الاحواض لاصدار اوامره والاشراف على التصاميم وكان الذهول يرتسم على الوجوه عندما يتأمل المشاهد الكثيرة والضخامة فالى ذلك الحين لم يكن معروفاً في عالم السفن، بارجة ذات خمس عشرة طبقة او ست عشرة. لقد بنى [بطليموس] فيما بعد سفينة ذات اربعين طبقة طولها مائتان وثمانون كيويوتا. وارتفاعها

حتى قمه مؤخرتها. ثمانية واربعون كيويوتا. فيها اربعمائة نوتي، واربعة آلاف جذاف وتوسع لثلاثة آلاف جندي تقريباً للحرب على ظهرها على ان هذه السفينة كانت للاستعراض والمظهر لا تستخدم في الحرب. وهي اشبه شيء بصرح مشمخر ثابت البنيان على ساحل البحر لا يمكن تحريكها الا بعد الجهد الجهد وتعريضها للمخاطر، اما سفن [ديميتريوس] هذه فقد صممت للقتال فضلاً عن الاستعراض. ومنظرها لا يقلّ باي حالٍ عن فائدتها وهي تثير الاعجاب حقاً بسرعتها ومتانتها مثلما يثيره جرمها.

هذه الاستعدادات الهائلة لحملة آسيا التي لم يجر مثلها منذ غزوة الاسكندر لها، قربت ما بين [سلوقوس] و[بطليموس] و[ليسيماخوس] فعقدوا حلفاً دفاعياً. كما بعثوا بسفرائهم الى [بيروس] ليحملوا على القيام بعملية مشاغلة حربية عن طريق مهاجمة مقدونيا. ولم يكن هذا بحاجة الى كثير تفكير بقيمة معاهدة يعقدها [ديميتريوس]، فهي لديه مجرد وسيلة من الوسائل التي تساعده على اختيار عدوّ ومهاجمته. فبادر [بيروس] الى قبول عرضهم وكان [ديميتريوس] في منتصف مرحلة الاستعداد. فما وجد نفسه الا والقتال يكتنفه من جميع الجهات. [بطليموس] يغزو بلاد اليونان باسطول جبار. و[ليسيماخوس] يدخل مقدونيا من جهة تراقيا وبيروس يقتحم حدودها من جهة [ايبيرون] فيجتاح هذان الأخيران بلادهم ويعيشان فيها سلباً وتدميراً. ترك [ديميتريوس] ابنه للاهتمام بمصير بلاد اليونان وتقدم لانقاذ مقدونيا واختار [ليسيماخوس]. وبلغه وهو في تقدمه ان [بيروس] استولى على [بيرويا Beroea] فسرى النبا الى الجنود بسرعة وقضى على النظام وفقد السيطرة وامتلاً جو المعسكر بالبكاء والعويل وصيحات الغضب والقدح في [ديميتريوس] وصب اللعنات والشتائم عليه. وأعلنوا انهم لن يبقوا بل سيذهبون لانقاذ بلادهم واصدقائهم وذويهم. وكانت نيتهم الحقيقية، الانتقاص على [ديميتريوس] والانضمام الى [ليسيماخوس]. فرأى [ديميتريوس] ان افضل ما يمكن عمله هو ابعادهم قدر المستطاع عن ليبيسيماخوس لأنه ابن بلادهم وفي جيشه كثيرون يعطفون عليه ويحبونه، قادم جديد واجنبي عنهم يصعب تفضيله لذاته. غير انه وجد نفسه على خطأ مبين في تقديره هذا. فما ان اصبح قريباً من [بيروس] وضرب خيامه امامه، حتى سرت نفحة اعجاب كامن ببسالته واقدامه. وكان الجنود يتناقلون خلفاً عن سلف القول المأثور بان خير الملوك هو اشجع الجنود. ولطالما تحدثت الالسن عن معاملته الكريمة لأسراه وعدالته، ولا نظيل فقد كان جنود [ديميتريوس] يريدون استبداله، ووجدوا في [بيروس] خير بديل. وفي مبدء الأمر خرجت شراذم المؤخرة عليه، وما مرّ زمن حتى أعلن الجيش برمته عصياناً وبرز عدد منه الى ديميتريوس، وابلغوه بصراحة أن يعجل في الرحيل ان كان يقيم وزناً لحياته. لأنهم قرروا

بالأ يجازفوا بارواحهم بعد اليوم ليؤمنوا له عيشه الباذخ وليمتعوه بالم لذات. لاشك انه كلام معقول صحيح اذا قورن بما سمعه من قبل. فلم ير بدأ من الانسحاب الى خيمته وابدل ثيابه الملكية كما يفعل الممثلون بثياب عادية، وتسلل خارج المعسكر، وما ان غاب خياله عن النظر حتى شرع الجنود يختصمون ويفتك بعضهم ببعض لحيازة اسلاب خيمته. الا ان [بيروس] وصل فوراً ووضع يده على المعسكر ولم يقع حادث مؤسف خلال ذلك. ثم عمد الى اقتسام مقدونيا مع [ليسيماخوس] بعد ان ملك عليها [ديمترئوس] سبع سنين متواصلة.

وذهب [ديمترئوس] الى [كساندريا Cassandria] بعد ان فقد كل شيء. وادرك [فيلا] حزن عظيم ولم تتحمل رؤية زوجها في هذه الحالة المرزية من سوء الطالع لا يعدو وشخصاً عادياً منفياً عن بلاده. فرفضت ان تتعلق بأملٍ آخر. وقررت ترك حال لاثبات له ولا استقرار الا في الكوارث والنوائب. فشربت سماً وماتت. وشد [ديمترئوس] الرحال الى بلاد اليونان وهو مصرّ على التعلق بالحطام. وهناك جمع اصدقاءه وضباطه حوله. يقدم لنا [فيلاوس] في مسرحية [سوفوكلس] صورة عن تقلب احواله فيقول:

... اما انا فقد وجدت مصيري، وأأسفي -  
يدور فوق عجلة الآلهة السريعة.  
فيظل في تقلب وتحوّل، مثل اشكال القمر الجميل  
لايستمر ليلتين على حالة. بل يبدو اولاً في الظلّ  
هالاً ثم يكبر ويزداد جمالاً حتى يكتمل بدمراً  
ثم يتناقص شكله الكامل ويتضاءل حتى يختفي تماماً.

يصدق هذا التشبيه على [ديمترئوس]. فترى خطه في ارتفاع، واذ به يتضاءل ويتناقص، ثم يزيد ليحطّ فجأةً وهكذا، في طور ضموره وخمول شأنه يسطع ضوءه مرة أخرى وتبدأ وسائل القوة تقبل عليه شيئاً فشيئاً فتحيي في نفسه الأمل ثانيةً ظهر في مبدء الأمر في ثياب رجل بسيط يطوف في المدن عاطلاً عن مظاهر الملك. ولقيه احدهم في [ثيبه] فتذكر به قصيدة ليوربيدس بلغ فيها كيد الحقيقة اذ قال فيها:

ذليل امام البشر، منبوذ من القوى الالهية  
قادم الى دركه Dirce والى جهة اسمينوس Ismenus

وسرعان ما أخذت آماله تنتعش وتسلك سبيلها الملكي. اذ راح يجمع حوله اطار مملكة. وأهدى الى الثيبين دستورهم السابق. اما الآثينيون فقد نبذوه وعزلوا [ديفيلوس Diohilus] كاهن «الربن الحارسين» في تلك السنة واعادوا الأرخون كلسابق وارجعوا السنة الى ما كانت

عليه. ولما سمعوا ان [ديمترئوس] لم يعد ضعيفاً كما ظنوا. ارسلوا الى [بيروس] في مقدونيا يلتمسون حماية منه. وعندها ثار غضب [ديمترئوس] وزحف على آثينا والقي حصاراً محكماً حولها. فضاقت الأمر بهم وارسلوا اليه [قراطس Crates] الفيلسوف وهو رجل ذو نفوذ وسمعة فنجحت وساطته بحكمته وحسن تصرفه واقنع [ديمترئوس] برفع الحصار. ثم انه جمع كل سفنه واصعد اليها أحد عشر الف راجل مع الخيالة واقلع بها الى آسيا وهدفه انتزاع اقليمي [كاريا] و[ليديا] من قبضة [ليسيماخوس]. ووصل الى [ميليتوس] فالتقى هناك - [يوربيديكي Euridice] شقيقة [فيلا] وكان معها بنتها [بطليمياس] التي ولدت لها من الملك [بطليموس] وهي خطيبة [ديمترئوس] كما ذكرنا، فتزوج منها هناك. وشرع في تنفيذ خططه وواتاه الحظّ في اول الأمر، حتى ان مدنا عديدة شقت عصا الطاعة وانضمت اليه. كما انه نجح في الاستيلاء على المدن التي امتنعت عليه لاسيما [سارديس]. والتحق به ايضاً عدد من قواد [ليسيماخوس] بجنودهم واموالهم. الا انه انسحب الى [فريجيا] عازماً التوجه الى [ارمينيا] عند وصول اغاثوكليس ابن ليسيماخوس على رأس جيش. وكان يرى ان تثبيت قدمه في ارمينيا يتيح له الفرصة لاطلاق لهيب الثورة في ميديا وبذلك يتمركز في شرق آسيا، حيث يسهل على قائد هاربٍ مثله ان يجد له مائة طريقة وطريقة للروغان والهرب. على ان [اغاثوكليس] حدّ في اثره دون ان يمنحه راحة. ووقعت عدة اشتباكات صغيرة كانت الغلبة فيها [لديمترئوس]. لكن مضايقة اغاثوكليس اشتدت. حتى ازهق انفاسه بغاراته المستمرة عليه واطهر رجاله مللهم ونفورهم من اهدافه وهي كما تصوروها: الابتعاد بهم مسافة كثيرة في مجاهل ارمينيا وميديا. وتفشت المجاعة فيما بينهم واخطأوا في عبور نهر [ليكوس Ly-Cus] ففقدوا بسبب ذلك عدداً كبيراً منهم اذ جرفهم التيار واغرقهم. على ان روح الدعاية لم تفارقهم، فقد عمد احدهم الى تثبيت رقعة على باب خيمة [ديمترئوس] كتب فيها بيتين لاوديب Oedipus. اجري فيهما بعض التغيير:

«يا ابن الشيخ الأعمى انتيغونس الى اية بلاد جئت بنا؟»

وبدأ الطاعون يفتك بهم فضلاً عن الجوع، وهو مالا مناص منه عندما تلجىء الضرورات الجيوش الى الاعتياض عن جراياتها المعتادة بما يتيسر لها من قوت. وبهذا الوياء فقد ثمانية آلاف من رجاله، فأنسحب بالبقية الى [طرسوس]. ولما كانت هذه المدينة من املاك [سلوقوس] فقد حرص ان يجنبها السلب والنهب متوخياً ان لا يلحقه اي ضرر. وكان يصعب عليه ضبط اندفاع جنوده وهم في اشدّ حالات الضيق. فقد عمد [اغاثوكليس] الى شدّ منافذ جبل [طرسوس] وضيقا الخناق عليه. قلم ير بدأ من الكتابة الى [سلوقوس]. وبدأ رسالته

بالتظلم من سوء حظّه، ثم انتقل الى الرجاء والتوسل، وتحريك عاطفة الحنان على قريب له ابتلى بالارزاء والمحن حتى رقّ له اعداؤه واشفقوا عليه. فأثرت رسالته في نفس [سلوقوس] واصدرا اوامره الى حكام تلك الاقاليم باكرام وفادة [ديميتريوس] وتزويده بما يتفق ومقامه الملكي. وبما يكفي جنوده من الارزاق. الا ان [باتروكليوس] وهو رجل محتسرم الرأي عند [سلوقوس] وصديق مخلص وموضع ثقة كبيرة اشار عليه قائلاً: ان نفقات اعاشة هذا العدد من الجنود لبس من الاهمية بشي. ولكن من خطل السياسة ان يبقى ديميتريوس في بلاده. فهو من دون سائر ملوك عصره، عنيف، مغرم بالمخاطرات جرى في اطلاب المغامرات. وهو الآن يعاني وضعا يغري أكثر الناس اعتدالاً ودماثة بمحاولات جنونية يائسة. اثارته هذه النصيحة هواجس [سلوقوس] فتتحرك بجيش جرار نحو [كيليكيا] فغلبت الدهشة على [ديميتريوس] من التغيير الفجائي وتدبر امر سلامته بالانسحاب الى أشدّ المواضع وعوثة ومناعة من جبل طرسوس. وارسل من مريضه هذا رسالاً الى سلوقوس يرجوه السماح له بالبقاء مع جيشه في محلّ ما بين قبائل البرابرة المستقلة. وبذلك يتسنّى له ان يجعل من نفسه ملكاً صغيراً، وان يختم حياته هناك بعيداً عن المشاكل والمتاعب والتنقل. اما اذا رفض طلبه هذا، فليقدم على الأقلّ قوتاً لجنوده اثناء الشتاء وان لا يعرضه وهو في وضعه المحزن هذا الى شماتة اعدائه وحقدهم.

الا ان حسد [سلوقوس] وهواجسه جعلته يتبين في كل ما كتبه سوء النية. فأجاب انه يسمح له بالبقاء شهرين في [كاتاونيا Cataonia] ولا أكثر من هذا على ان يرسل اليه فوراً كبار اصدقائه لابقائهم رهائن لديه حتى رحيله. ثم عمد في الوقت نفسه الى تحصين كل المرات المؤدية الى سورية. فوجد [ديميتريوس] نفسه اشبه بالوحش الضاري في الشرك، مطوقاً من كل الجهات والجأه بأسه هذا الى الدفاع المستميت عن نفسه فأخذ يشنّ الغارات على البلاد واستظهر على [سلوقوس] في عدة هجمات شنّها هذا عليه. ونذكر عنها تعرضه لهجوم العجلات ذات الأسنة المنجلية. فتحاشى الهجوم وراغ منه ثم كرّ على المهاجمين فهزمهم. ودفع بالجنود الذين وضعوا الحراسة الممرات الى الوراء وسيطر على الطرق المؤدية الى سورية. فأرتفعت معنوياته كما دبت في نفوس جنوده الحماسة فقرر الاندفاع الى الأمام دون تردد والدخول في معركة فاصلة مع [سلوقوس] يتقرّر فيها كلّ شيء. وكان [سلوقوس] في واقع الأمر يعاني القلق والهّم. فهو من جهة يكره ان يأتيه اي عون من [ليسيماخوس] لأنه يخشاه ولا يثق به. وهو من جهةٍ يحجم عن الدخول في معركة مع [ديميتريوس] لأنه يعرف مدى بأسه. وتقلبات حظّه العجيبة التي طالما ارتفعت به فجأة في أسفل سافلٍ الى أعلى عليّ.

وتقدم [سلوقوس] منه وضرب مخيمه على مقربة، ثم حرك [ديميتريوس] جنوده يبغى مباغنة ليلاً وظلّ [سلوقوس] الى آخر لحظة يجهل كلّ شيء وأوى الى فراشه حين أقبل احد الهاريين واعلمه باستعداد العدو، ولم يجد لنفسه الوقت الكافي ليهبّ من فراشه وهو في اشدّ حالات الانزعاج، لينذر رجاله وكان يصدر الاوامر لضباطه ويوصيهم باليقظة والحذر لأنهم سيجابهون وحشاً ضارياً رهيباً وهو يحشر رجليه في حذائه. واستنتج [ديميتريوس] من الضوضاء القائمة في معسكر العدو ان الأمر المبيت لم يعد سراً وان خطته انكشفت فسحب جنوده بسرعة. وفي صباح اليوم التالي كان [سلوقوس] يضغط عليه ضغطاً شديداً. وأمرّ احد ضباطه على الجناح الايسر ودحر القوات التي تواجهه. وترجل [سلوقوس] ونزع خوذته وتناول ترساً وتقدم عن صفوف الجنود المرتزة الامامية وكشف لهم عن شخصه وطلب منهم ان يتبعوه ويتركوا ديميتريوس قائلاً «انما لأجل سلامتهم، امتنع عن المعركة هذه المدة الطويلة. فحيوا [سلوقوس] تحية الملك وانفصلوا عن [ديميتريوس] وانضموا الى سلوقوس اليه دون ان يرفع احد منهم يده بضربةٍ.

وهنا ادرك [ديميتريوس] انه وصل الى نهاية لعبة الحظّ، ولم يعد بعد أمل في انقلاب. فهرب الى شعاب جبال امانوس وقذف نفسه مع شردمة من الاصدقاء والاتباع في احشاء غابة كثيفة وظلّ هناك ينتظر الليل وكل قصده ان ينجو بجلده بالتوجه نحو [كاونس Caunus] ان تيسّر له ذلك. فقد كان يأمل ان يجد سفنه متاهية لنقله، لكنه وجد بعد سؤال الربابنة انهم لايملكون اقواتاً ولو ليوم واحد فيبدأ يفكر في وسيلة أخرى للنجاة. وفيما هو يقرب وجوه الرأي، وصل صديقه [سوسيگينس Sosigenes] ومعه اربعمائة قطعة من الذهب وبهذا الفرج راوده الأمل بالوصول الى الساحل وما ان بدأ الظلام يسدل استاره حتى انطلق نحو الشعاب. الا ان السنة النيران المشبوبة انذرت باحتلال العدو لها فودّع كلّ أمل له بهذا السبيل وانسحب الى مقرّه في الغابة ببعض رجاله. فقد هرب بعضهم ولم تبق في الباقيين رغبة في ملازمته. وتجرأ احدهم على القول: بأن الأفضل له تسليم نفسه [لسلوقوس] فسمعته [ديميتريوس] فاستل حسامه وكاد يطعنه الا ان اصدقاءه حالوا دون ذلك. وراحوا يبذلون الجهود لاقتناعه بهذا الحلّ حتى رضخ وارسل الى سلوقوس يعرض عليه الاستسلام دون قيد او شرط.

عندما ابلغ [سلوقوس] بهذا قال: ليس حسن حظّ [ديميتريوس] الذي هذاه الى طريق نجاته هذا، بل حسن حظّه بالأحرى. فقد اتيح له ان يضيف الى سمعته مظهراً من مظاهر وأفته وكرمه. ويادر في الحال الى اصدار الأمر لضباط اعاشته ومديري شؤونه الخاصة باعداد سراق ملكي وكل ما يليق باستقبال فخمٍ مع ضروب التسليبات وكان بين حاشية [سلوقوس] شخص

يدعى [اپللوينيدس] وهو من اصدقاء [ديميتريوس] المقربين في الماضي. فكان والحالة هذه اصلح من يرسل من لدن الملك لاستقبال [ديميتريوس] كي يزداد اطمئناناً ويحيى وهو متأكد من استقباله كصديق وقريب ولما انتشر نبأ تلك الوفادة أسرع الحجاب والسعاة والضباط، (في مبدء الأمر قلة منهم، ثم كلهم تقريباً) الى [ديميتريوس] يتسابقون في تقديم الاحترام له. وقد زين لهم خيالهم ان [ديميتريوس] سيبتئو المكانة الأولى عند الملك. وحدثت هذه الضجة اثرها الفوري وانقلبت العاطفة الصادقة الى حسدٍ وشكٍ وتيسر للخبثاء وسييء السريرة ان يلمحوا بسهولة بأن انسانية سلوقوس هذه لاتنطوى على اية حكمةٍ وسيكون اول ظهور لديمتريوس سبباً في هيجان خطيرٍ في الجيش. ولهذا فبينما كان [اپللوينيدس] ومعه الجم الغفير يشرح لديمتريوس وهو في غاية البهجة نوايا [سلوقوس] الطيبة. وان عليه - بعد هذه الارزاء والمصائب ان ينسى هواجسه ويطرح اي شعور يخالجه بالمهانة لتسليمه وان يثق بالأمال الطيبة فيما كان [ديميتريوس] يصغي الى هذه الاقوال، واذا [ببواسانياس] يصل على رأس ألف من الحرس مشاة وفرساناً فيحيطون به، وبعد ان فرقوا الناس المستقبلين اخذوه لا الى [سلوقوس] بل الى [الخرسونيز] في سورية ووضع هناك تحت حراسة قوية ووفروا له ما يكفي من الخدم واسباب العيش وسمح له بمسافة محددة للنزهة على ظهر الخيل او السير وخصص له غابة للصيد وسمح لاصدقائه ورفاقه في المنفى بزيارته. وكانت ترده من [سلوقوس] رسائل لطيفة من حين لآخر يطمئنه فيها ويشير الى قرب اخلاء سبيله، حال وحول [انطيوخوس] و[ستراتونيكى].

بعد ان يقن [ديميتريوس] بحكم القدر. بعث برسائل الى اعوان ابنه والى قواده واصدقائه في آثينا وكورنث يوصيهم بالأ يقيموا وزناً لاي رسالة تصلهم باسمه ولو كانت مختومة بختمه، وان يعتبروه في عداد الموتى. وان يحافظوا على سلامة المدن وكل ما بقى من املاكه، لابنه وخليفته [انتيغونس].

استقبل [انتيغونس] نبأ اسر ابنه بحزن عميق ولبس الحداد عليه وكتب رسائل لجميع الملوك ولسلوقوس نفسه مستعظماً له راجياً، وعرض ان ينزل عن كل ما بقي من املاكه بل ان يضع نفسه رهينة في مكانه. وايداه امراء ومدن كثيرة في ملك الشفاعة الا [ليسيماخوس] فقد عرض على [سلوقوس] مبلغاً كبيراً من المال لقاء قتله. لكن [سلوقوس] الذي لم يحاول قط اخفاء بغضه بليسيماخوس، صرح بأنه اكبر غول بربري، اذ يفكر في هذا العمل الوحشي. على انه ظل يرجي ويسوف. محتفظاً بالفضل [لانطيوخوس وستراتونيكى] على ما يقول.

تكررت ضربات الحظّ على [ديميتريوس] فتحملها حتى بات معتاداً وبدت له بمرور الزمن

محتملةً. في مبدء امره عكف على ترويح نفسه بمختلف الاشكال. فيخرج للصيد ويركب الخيل... الا انه أهمل نفسه شيئاً فشيئاً وبعد فترة من الزمن عاف كل شيء وانصرف الى لعب النرد وشرب الخمر، وكان يقضي فيهما جلّ يومه. (الأمر سواء أ اتخذها سبيلاً لنسيان واقعة الذي كان يعذب فكره وهو صاح فيغرقه في الخمر، أم أنه وجدها السعادة الحقيقية التي طالما صبا اليها وجن فكان من الغباء والحسق أن انصرف عنها تحت اغراء من الشهرة الزائلة والطموح التافه الذي لم يأت به غير الكوارث له وللآخرين ان ارفع درجات السعادة التي ظن ان السلاح والاساطيل والجيوش ستنبيله اياها، توصل اليها الآن في الخمول والراحة.

والحقيقة هي ان كل غاية من الحروب وركوب الأخطار، والمتاعب التي يتعرض لها الامراء المنكودون هي عبث باطل. ان حماقتهم وبؤسهم لن يكونا قاصرين على جعلهم الترف والمتع غاية حياتهم بدلاً من الفضيلة والتسامي. بل على جهلهم اين يكمن ذلك الترف والمتع وظلّ [ديميتريوس] رهن الأسر في الخرسونيز، ثلاث سنين. وبعدها دهمه المرض بسبب الخمول والعزوف عن الرياضة والعكوف على الخمر وكثرة الاكل فمات من جراه وله من العمر اربع وخمسون سنة. ونالت اللسن من [سلوقوس] وادركه أسف شديد لضعفه امام شكوكه، وتماديه فيها. فلم يرق الى فعل [دروميخيتوس Dromichetes] البربري التراقي الذي اظهر من المعاملة الانسانية والاخلاق الملكية لأسيره [ليسيماخوس] ما لم يظهره لأسيره وقريبه.

وتم فصل مسرحي درامي في مراسيم التشييع التي اجريت لجثمان [ديميتريوس]. فعندما علم ابنه [انتيغونس] بمجيء رفاته من سورية خرج للقاءه بسائر اسطوله فسلم له في اثناء ذهبي. فوضعه في أكبر سفينة قيادة. وكانت كل مدينة ترسي في هذه العمارة التجرية ترسل تاجاً ليزين به الإناء ويتوافد بعض المواطنين منها للمشاركة في المأتم ومراسيم الجنائز ولما اقترب الاسطول في ميناء [كورنث] عرض الإناء وهو مغطى بالارجوان يعلوه التاج الملكي على سطح السفينة. واستقبله على اليابسة سرية من الشبان المدججين بالسلاح. وعزف [كزينوفانتس Xenophantes] اشهر موسيقيي زمانه على المزمار اثقل الحانه فنسق الجذافون ضربات مجاذيقهم على ايقاعه عند دخول السفينة المرفأ فبدأ وقعا يشبه ضرب الصدور في موكب التشييع، مع ضبط الردة والفواصل والايقاعات الموسيقية. واثار [انتيغونس] العواطف بشباب الحداد وبذرفه الدموع، وادمى قلوب المشيعين الذين احتشدوا على الساحل. وبعد ان قدمت التيجان والاكاليل وغير ذلك من مظاهر التكريم في كورنث، نقل الاناء الى [ديمترياس] وهي المدينة التي سميت باسمه وجمع سكانها من قرى [ايوكلس Ioclus].

لم يخلف [ديميتريوس] اولاداً من [فيلا] غير [ستراتونيكى] و[انتيغونس]، على انه رزق

بولدين من أم الليرية، وكلاهما يحملان اسمه ولقب احمدهما بالنعيف. وله ولد ايضاً من [بطليمياس] وقد حكم [كيرينه]، ولد آخر من [ديداميا] اسمه الكساندر عاش ومات في مصر. وهناك قائل يزعم ان [يوريديكي] ولدت له ابنا يدعي [كورابوس Corrbus].  
ظلت اسرته تعقب ملوكاً على مقدونيا حتى [پرسیوس Perseus] آخر السلالة. وبعده دخلت البلاد حكم الرومان.  
والآن بعد ان أتينا الى ختام الدراما المقدونية، فلنهيء أنفسنا للتأمل في الدراما الرومانية.

١٩٧٢/٢/١١

مارك الطوني

**MARCUS ANTONIUS**  
**(Mark Antony)**

82 – 30



ويوأخيه وكان هذا شاباً خليقاً مغرماً في ملاذهِ. ولأجل ان يجعل من صديقه هذا اداة طيعة له كذف به الى حياة الخلاعة والتهمتكَ ومعاقره الخمر وقاده الى طريق البذخ والسفه حتى أثقل كاهله بالديون وهو في مطلع شبابه وبلغ ذلك الدين مائتين وخمسين تالنتاً، كفله به [كيوريوس] وتناهى الأمر الى اسماع [كيوريوس] الأب فطرد [انطوني] من منزله، فلصق [بكلوديوس] فترة قصيرة من الزمن، وهو غوغائي اسوء ديماغوجي زمانه سمعةً وشاركه في أعمال العنف والفوضى إلا ان السأم مالبت ان تملكه من تصرفاته الشائنة، ولعلمه بأن حزباً مناوئاً تألف ضده، بادر الى ترك ايطاليا وسافر متجولاً في بلاد اليونان وهناك درس الخطابة والفنون العسكرية، واتخذ ما كان يدعى في حينه «الاسلوب الآسيوي» في الكلام وتمكن منه، وكان هذا الاسلوب في اوج شيوعه وهو في الواقع يناسب كثيراً اسلوب حياة انطوني التي حفلت بالزهو الفارغ والتباهي والشراسة والطموح الطائش.

بعد ان مكث حيناً من الوقت في اليونان، دعاه [غابينيوس] الذي كان اذ ذاك قنصلاً - للعمل معه في حروبه السورية فرفض اول الامر لأنه لم يشأ الخدمة في الجيش كإنسان عادي. إلا انه تسلّم منه امراً بتعيينه ضابطاً في صنف الخيالة فرحل اليه. وكان اول معركة خاضها، ضدّ ارسطوبولوس Aristobulus<sup>(٢)</sup> الذي قُاد ثورة اليهود. فكان اول رجل تسلق على الاستحكامات واجلى قوات هذا الثائر عنها. ثم هزم جيشاً له يفوقه عدداً بحفنة من الرجال ولم ينج من قوات خصمه إلا القليل، فقد قضى عليهم جميعاً وأسر [ارسطوبولوس] وابنه.

بعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها اتصل [بظليموس اوليتس Ptolemy Auletes]<sup>(٣)</sup> به [غابينيوس] وفاتحه في امر توحيد قواتهما وغزو مصر واعادته الى عرشه هناك. ووعدته بدفع رشوة له قدرها عشرة آلاف تالنت. ووقف معظم الضباط ضدّ هذه العملية ولم يكن [غابينيوس] نفسه متحمساً لها كثيراً. إلا انه كان واقعاً تحت اغراء العشرة آلاف. على ان [انطوني] الذي كان مدفوعاً بطموحه الى المعالي والى الشهرة والى ارضاء [بظليموس] القى بثقله الى جانبه واقنع [غابينيوس] بالمشروع. وكان الاجماع قد تمّ بان اخطر ما في العملية ليس القتال وانما اجتياز الصحراء الى [بلوسيوم Pelusium] فهي ارضٌ تغطيها رمال كثيفة،

(٢) كان ارسطوبولوس ملكاً وكاهناً اعلى لليهود. أسره بومبي في العام ٦٣ ق.م وارسله الى روما إلا انه اقلت من الأسر في العام ٥٧ ق.م.

(٣) هو والد كليوباترا، اضطر الى الهرب الى [افسس] بسبب سخط المصريين عليه للضرائب الثقيلة التي فرضها. استخدم هذه الاموال المجباة لرشوة الموظفين الرومان حتى يعلنوه صديقاً للرومان وحليفاً. وقد اعيد الى العرش المصري في العام ٥٥ ق.م.

## مارك انطونيوس (انطوني)\*

جدّ انطوني كان محامياً شهيراً، قتله [ماريوس] لانحيازه في الحرب الاهلية الى [سيللا]. وابوه انطوني الذي لقبّ بالكريتي Creticus<sup>(١)</sup> لم يصبح شهيراً او بارزاً في الحياة العامة. إلا انه عرف بالطيبة والصلاح ولاسيما بالجود والسخاء كما يمكن الحكم عليه من هذه الحادثة: لم يكن واسع الرزق كثير الغنى، ولذلك كانت زوجه تميل الى الحيلولة دون استرساله وتماديه في البذل دون حساب. قصده مرة صديق كان يشكو ضيقاً مالياً، ليستلف منه. ولم يكن لديه وقتئذ مالا. فأمر احد خدمه ان يأتي اليه بما في القصعة الفضية الفلانية. وعندما جيء اليه بما طلب، بلل وجهه كأنه يهيم بحلاقة لحيته ثم ارسل الخادم في مهمة أخرى وقدم لصديقه هذا القصعة ليتصرف بها بالشكل الذي يسدّ به خلته ويفرج عن ضيقه. ولما كثر البحث والسؤال عن مصيرها في المنزل. وركب امرأته حزن عظيم وكادت تأمر بتفتيش الخدم واستجوابهم واحداً واحداً، اعترف بما فعل وسأل العفو منها والمغفرة. وزوجه [يوليا] هي من اسيرة [قيصر]؛ وهي أهل في ان تتبؤ مكانتها بين اشرف نساء زمانها محتدماً واعلاهم خلقاً. فقد اشرفت هي على تربية انطوني، وعند وفاة ابيه تزوجت [لنتولوس كورنيليوس] الذي انفذ فيه شيشرون حكم الموت لأنه كان من اقطاب المؤامرة الكاتيلينية ولعل هذا هو السبب الرئيس للحقد الذي حمله [انطوني] لشيشرون. يقول: حرم على الجثة ان تدفن حتى توسطت أمه بامرأة شيشرون، فسلمت لها. ان هذا على ما يبدو خطأ جسيم اذ لم يمنع دفن احدٍ من نفذ فيهم حكم الموت في فترة قنصلية شيشرون.

شبّ [انطوني] فتىً وسيماً للغاية. لكن سوء حظّه العظيم جعله يتعرف على [كيوريوس]

(\* ) أثرا ان نطلق عليه [انطوني] في هذا الكتاب، وهو الاسم الذي اختاره له كل المترجمين العرب، خشية ان يتوهم القارئ ان المقصود هو غيره.

(١) هذا اللقب اعطى له على سبيل السخر به. فقد عهدت اليه قيادة اسطول ضدّ القرصان. ففقد جزءاً كبيراً منه في قتال بحري ضدّ الكريتين في العام ٧٤ ق.م. وتوفي بعد ذلك مباشرة. تاركاً ابناً ثلاثة. أكبرهم مارك انطوني.

قاحلة لا ماء فيها حتى مستنقعات سربونيا Serbonia واكريگما Acregma<sup>(٤)</sup> ويسمى المصريون هذا الاقليم بثقب تنفس طيفون. ولكن من المحتمل ان المستنقع يحتوي بالاصل على ماء تركه البحر الاحمر عند انحساره او انه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط عن البحر الاحمر عند انحساره او انه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط في اضيق موضع منه. وصدر الأمر لانطوني بالتقدم على رأس الخيالة فلم يكتف بالسيطرة على البرزخ بل استولى ايضاً على مدينة [پلوسيوم] الكبيرة وأسر حاميتها. وبهذا أمن سلامة الطريق للقسم الرئيس من الجيش الروماني. ووضع أساساً للمعركة التي كان اي قائد يستطيع ان يودع ثقةً كبيرة بالنصر. وفي هذه المناسبة حتى العدو نفسه افاد من حبّ انطوني للمجد. اذ ما ان دخل [بظليموس] الملك [پلوسيوم] حتى هم مدفوعاً بحقده على المصريين. بوضع السيف في رقاب الأهالي جميعاً فحال [انطوني] بينه وبين ذلك ومنع قيام المذبحة. وتلا ذلك سلسلة من المعارك الدامية، كان [انطوني] يثبت فيها دائماً بسالته وعبقريته القيادية. واشهر تلك المواقف، العملية التي قام فيها بحركة التفاف والاحاطة بالعدو، وضرب مؤخرته، فاتاح بذلك كسب الرومان المعركة، وكانوا يهاجمون من الأمام ومنح تكريماً وتقديراً مناسباً لكل المآثر، وقد ادهشت المصريين بصورة خاصة انسانيته التي ابداهها تجاه [ارخيلالوس]<sup>(٥)</sup> المتوفى فمع ان [انطوني] كان ضيفه وصديقه الشخصي الا انه اضطر بحكم الظروف الى قتاله اثناء حياته. ولكن عندما قتل، حمل جثته ودفنها بتكريم ملكي. وبهذا خلف اسماً عظيماً له عند الاسكندرانيين في حين كان رفاقه في الجيش الروماني يعدونه جندياً لامعاً.

الى جانب سجاياه، كانت ملامحه تنم عن وقار نبيل، ملحيته نامية، يعلوها جبين عريض وبينهما انف معقوف، وتتحد هذه التقاطيع بصورة تنم عن الرجولة والجرأة، مما يذكر الناس بتقاطيع مختلف وجوه بان اسرة انطوني تنحدر من سلالة هرقل عن ابنه [انطون]. وكان يلدّ لانطوني ان يعزّز مظهره من صحة تلك الاسطورة. وكان أيضاً يعمد الى تجسيمها في الازهان باختياره زيّه فكلماً كان يبدو أمام حشد كبير من الناس، يعمد الى شد حزام جلبابه في اسفل

(٤) تقع پلوسيوم في اقصى شرق مصب النيل في الموضع التي تقوم عليه مدينة دمياط، وتيغون اخ ايزيس واوروريس وهو الاله الشرير عند المصريين يعتقد انه مدفون تحت مستنقعات سربونيا التي تبء بمسافة اميال قلائل من شرق پلوسيوم. وفي [الفردوس المفقود] لجون ملتون اشارة لهما كما ان هيروُدوس يصفها ايضاً في [الكتاب الثالث ف ٥] من تاريخه.

(٥) كان ارخيلالوس ابن قائد لبيثريدايس بالاسم نفسه، واستسلم لسللاً. وتزوج الابن بـ[بيرينيكة] [Berenice] بنت [بظليموس اوليتس] التي اصبحت ملكة على مصر عندما طرد ابوها. واول مقابلة لانطوني مع كليوباترا ربما حصلت اثناء هذه الزيارة للاسكندرية: وكان عمرها اذ ذاك ١٤ سنة.

بطنه عند أعلى الفخذين ويتمنطف بسيف عريض يتدلى الى جنبه ويشتمل بعباءة فضفاضة. والواقع ان هذه الصفات «الهرقليّة» هي التي كانت تصدّ عنه الناس المنتنعين اعني خيلاءه، وكلامه التهكمي، وشربه الخمر علناً، وجلوسه مع رجاله وهم يأكلون. او تناول طعامه واقفاً، من موائد الجنود العامة. مما جعل ذلك مصدر سرور لجنوده، الى حدّ إنهم صاروا يحبونه حب عبادة وضعفه امام سحر الجنس اللطيف يظهر جانباً جذاباً من خلقه، حتى انه اكسبه عطف كثير من الناس. تراه كثيراً ما يساعد الآخرين في شؤونهم الغرامية. ويتقبل دائماً بطيبة نفس وسماحة المزاح الذي ينصب عليه من الآخرين. والى جانب هذا فان سخاءه وبسطه اليد بالهدايا لاصدقائه وزوملائه الجنود وضعت اساساً مكيناً له عندما انطلق في درب السلطنة. وقد دعمت هذه الصفات سلطانه عندما استطار ذكره وثبت امره، بل ورفعت من شأنه، حتى عندما اخذت حماقاته واخطاؤه العديدة تعمل على تقويضه. وينبغي لي ان اسجل هنا مثلاً واحداً لسخائه. اصدر امراً بدفع مائتين وخمسين الف درهم للاحد اصدقائه، وهو مبلغ يطلق عليه الرومان لفظة [ديجز Decies] فاستكثر وكيله المبلغ واصابه الذهول من ضخامته، ولأجل ان ابنه [انطوني] الى ضخامة الهدية كدس الفضة امام انظار سيده. فمر بها [انطوني] وسأل عن المبلغ الذي يعدّ هذا الكدس فقال الوكيل: انه المبلغ الذي امر باهدائه لصديقه. ففطن الى ان الرجل يستكثر المبلغ فقال:

- ظننت ان [الديجيز] أكثر من هذا بكثير؛ ان هذا شيء تافه، من الاوفق ان تضاعفه.

هذه الحادثة جرت فيما بعد. اما عن الوقت الذي اتكلم الآن عنه فان الامور في روما آلت الى شفا الحرب الاهلية، وكان ان انشعب الرأي العام الروماني الى حزبين: حزب الشيوخ<sup>(٦)</sup> الذي اسلم قياده [لپومبي] اثناء وجوده في العاصمة وحزب العامة الذي كان يستمد قوته من [قيصر] الذي كان يقود جيشاً رومانياً في بلاد الغال. وعند هذه المرحلة غير [كيوريوس] صديق الصبا حزيه واصبح واحداً من مشايخي [قيصر]<sup>(٧)</sup>، واقنع [انطوني] بالانضمام اليه. وكانت القوة الخطابية التي يتمتع بها [كيوريوس] السبب في سيطرته على الجماهير وتفريقه بلا حساب المال الذي كان يده به قيصر ضمن انتخاب [انطوني] لمنصب التربيون، ثم لمنصب الاوگور<sup>(٨)</sup> واعني به الكاهن الذي ينحصر واجبه في مراقبة حركة الطير في المنصب حتى بدأ

(٦) اي حزب الاريسوقراطية التي يمثلها اعضاء مجلس الشيوخ وطبقتهم.

(٧) ضم قيصر [كيوريوس] الى حزيه، بايفاء جميع ديونه عنه.

(٨) سرد بولوتارخ للحوادث هنا، يشوبه غموض. فقد عاد [انطوني] من مصر في العام ٥٤ ق.م وزار [قيصر] في مقره الشتوي ببلاد الغالين وكان في روما السنة التالية وفي ٥٢ ق.م انتخب كويستوراً ورحل الى بلاد الغال. وفي ٥٠ ق.م عاد الى روما وعين اوگوراً وفي السنة التالية (٤٩ ق.م) انتخب تربيوناً.

يستخدم سلطاته وما ان صار في المنصب حتى بدأ يستخدم سلطاته لمنفعة أولئك الذين يعملون [قيصر] وينفذون خطته. في اول الأمر وجد ان القنصل [مارجلوس] يقترح وضع جميع القوات العسكرية التي تمّ تجنيدها بأمره پومپي، فضلاً عن تحويله صلاحية تجنيد وحدات جديدة فعارض انطوني هذا باصدار مشروع قرار يقضي بارسال الجنود الذين تمّت تعبئتهم الى سورية لتعزيز جيش [بيبلوس Bibulus] الذي كان منشغلاً بحملته على البارثيين. وان لا يوضع المجندون الجدد تحت امره [پومپي]. وفي مناسبة أخرى، عند رفض مجلس الشيوخ تسلّم رسائل قيصر وقراءتها في الجلسة. استخدم انطوني السلطات التي تخولها له وظيفته وقرأها علناً وبهذه الوسيلة ضم عدد كبيراً من الانصار الى حزب قيصر لأنه مكن الشعب من الحكم بتأثير هذه الرسائل، على ان مطالبه عادلة ومعقولة. وأخيراً عندما وضع امام المجلس سؤالان: هل يجب ان يسرح [پومپي] جيشه؟ و: هل يجب ان يسرح [قيصر] جيشه؟ انقسم الاعضاء فيما بينهم، وعندما صوتت اقلية صغيرة على السؤال الأول، وصوتت الاغلبية الساحقة على الثاني نهض [انطوني] وسأل سؤالاً ثالثاً: الا يرى المجلس ان يقوم كل من پومپي وقيصر بتسريح ما لديهما من جيوش؟ هذا الاقتراح قوبل بالاستحسان وحظي بالرضى فطلب انطوني وضعه في التصويت. لكن القنصلين عارضا في الاجراءات وعندئذ اخذ انصار قيصر يتقدمون باقتراحات جديدة كانوا يرونها معقولةً الا ان [كاتو] عارض فيها. ثم امر [لنتولوس] القنصل، بطرد [انطوني] من القاعة مستعملاً صلاحيته. فاجاب انطوني على هذا بالقاء خطاب عنيف هاجم فيه معارضييه بعد تركه المجلس. ثم تنكر بثياب عبدٍ ورفقة [كوينتوس كاسيوس]<sup>(٩)</sup> استأجر عربة وانطلقا للحاق [بقيصر]. وما ان وصلا حتى ابلغاه غاضبين بان الأمور في روما بلغت ادنى حالة من الفوضى، الى حدّ ان تربيونات الشعب حرموا من حرية الكلام، وان كل من يرفع صوته في سبيل العدالة والمساواة يضطهد وتتعرض حياته للخطر. وعندها أمر [قيصر] بنقض معسكره وزحف مغيباً على ايطاليا. ولهذا السبب كتب شيشرون في [فيليباتيه] بأن [انطوني] كان سبباً لقيام الحرب الاهلية، مثلما كانت هيلين السبب في حروب طروادة. الا ان هذا كذب واضح. فقيصر لم يكن عاطفياً سريع التأثر، ولا بالذي ينبذ حساباته جانباً بعامل غضبٍ آني. ان مجرد رؤيته [انطوني] و[كاسيوس] في ثياب رثة يدخلان معسكره في عربة اجرة لن يدفعه الى اثاره حرب على بلاده بوحى الساعة الا اذا كان قد خطط لهذا العمل منذ وقت طويل. بالعكس، كان [قيصر] ينلّف منذ امدٍ بعيد الى المجاهرة بالعداء وهذه الحادثة زودته بالذريعة وبالحجة

(٩) هو اخ [كاسيوس] المتأمر على حياة [يوليوس قيصر].

المقبولة ليس الا. اما الغرض الحقيقي الذي دفعه الى اثاره حرب ضدّ البشرية. فهو نفسه الذي دفع الاسكندر وكورش من قبل - انه ظمناً لا يطفأ الى التسلط والعظمة، والى ان يكون أعظم رجل في العالم. ومطمحه هذا لا يمكن الوصول اليه الا باستظهاره على [پومپي].

وتقدم [قيصر] من روما واحتلها وطرد پومپي من ايطاليا وقرر اولاً مهاجمة قواته في اسبانيا. ثم عندما نظم أسطولاً في غيابه، ان يعبر البحر الى بلاد اليونان حيث عدوه كان قد ثبت اقدامه. وفي اثناء ذلك ترك حكم روما في يد [ليبيدس Lepidus] الذي كان پيريتوراً، في حين سلم قيادة الجيوش المرابطة في ايطاليا [لأنطوني] الذي كان واحداً من تربيونات الشعب. ولم يعتم [انطوني] ان ظفر بقلوب جنوده بمشاركتهم في تدريبهم وقضاء جل وقته معهم، وتأمين الهدايا لهم كل ما عنت مناسبة، على ان بقية الشعب كان يراه من وجهة مختلفة، فهو أكسل من ان ينظر في شكاوى الناس، وأقل صبراً على سماع أولئك الذين يقصدونه مستعنين ومستجيرين. في حين ساءت سمعته بسبب وقائع مع نساء وزوجات الآخرين. ويمختصر القول، ان نظام حكم [قيصر] الذي لم يبد عليه اي طابع استبداد عند ادارة [قيصر] له بنفسه، جعله انصاره واصدقائه حكماً كريهاً لا يطاق. ومن أولئك [انطوني] صاحب أكبر السلطة، ولهذا كان يعتبر اسوء المخطئين.

ورغم كل هذا تجاهل قيصر كل التهم التي وجهت الى [انطوني] عند عودته من اسبانيا وكان حكمه عليه صحيحاً. من ناحية كونه قائداً محنكا للرجال اظهر نشاطاً وشجاعة في ادارة الحرب. واجر [قيصر] من [برنديزيوم] بقوات صغيرة<sup>(١٠)</sup> فأجتاز البحر الايوني وارجع سفن النقل، لانطوني وغابينيوس، يأمرهما بتعبئة الجنود عليها على جناح السرعة واللحاق به في مقدونيا ورأى [غابينيوس] مخاطر في العبور بحراً، في فصل الشتاء وبدأ بسوق جيشه في الطريق البري صعداً. امّا [انطوني] الذي استولى عليه القلق المتزايد من موقف [قيصر] المحفوف بخطر تطويقه بقوات متفوقة، فقد تمكن من اجلاء [ليبو Libo] الذي كان قد ضرب الحصار على مرفأ [برنديزيوم] بمهاجمة بوارجه بزوارق خفيفة كثيرة العدد. ثم انزل قوة تعدادها عشرون الف راجلٍ وثمانمائة خيالٍ وانطلق في عرض البحر وانكشف للعدو الذي راح يطارده، ولكنه نجا من قبضته بريح جنوبية قوية فجائية أحدثت هياجاً عظيماً في البحر فأبطأت من سرعة السفن المطاردة في حين دفعت الريح سفن انطوني الى ساحل صخري وجرف ذات مياه عميقة حيث امل النجاة منها ضعيف. لكن ما عتمت الريح ان انقلبت الى جنوبية غربية وأخذت تهب من اليابسة الى البحر فبدأت سفن [انطوني] تتهادى على صفحة البحر

(١٠) كان ذلك في مطلع العام ٤٨ ق.م.

برقة وأمان وإنشأ يرقب الساحل الذي انتشر عليه حطام اسطول عدوه. فقد دفعت العاصفة بالسفن المطاردة الى الساحل الصخري فاصطدمت به وتحطم معظمها تحطيماً كاملاً ووقع عدد كبير من الرجل ومقدار كبير من الاموال في يد [انطوني]. ثم انع احتل مدينة [ليسوس] وبث ثقة عظيمة في نفس قيصر بوسوله في اخرج ساعة بهذه النجدة الكبيرة.

وتبع ذلك فترة طويلة من الاشتباك المستمر، وبرز انطوني في تلك المعارك كلها، بطلاً لا يشق له غباراً. فأوقف مرتين هزيمة مني بها الجيش ثم عاد يقوده الى النصر في هجوم مدير. ولا عجب والحالة هذه ان ارتفع قدره عند الجنود حتى اصبح يلي [قيصر] مقاماً وقد بدا رأي هذا العاهل فيه واضحاً في [فرساليا] خاتمة المعارك. استأثر هو بقيادة الميمنة، في حين اناط قيادة هجوم الميسرة بانطوني بوصفه اقدر ضابط في جيشه.

وبعد المعركة أعلن [قيصر] دكتاتوراً فأطلق يعقب [پومپي] وارسل [انطوني] الى روما بمنصب قائد سلاح الفرسان وهو المنصب الذي يلي منصب الدكتاتور مباشرة في المكانة الوظيفية وفي السلطان الفعلي عند وجود الدكتاتور. اما اذا غاب هذا فهو يمارس السلطة المطلقة وهو الحاكم المتفرد تقريباً وقد جرت السنة انه عند تعيين الدكتاتور يتوقف كل من يتمتع بسلطة حاكم عن ممارسة سلطته في روما، الا سلطة التربيون فتبقى.

وكان [دولابلا] تربيوناً في ذلك الحين، وهو شاب حديث العهد بالسياسة يحب الاصلاح. هم باصدار مرسوم شامل جامع يقضي بالغاء الديون وفتح [انطوني] بالأمر، وكان صديقه، وهو يعهد فيه بتبنيه لكل مشروع فيه منفعة لسواد الشعب، ليسانده في غرضه هذا. الا ان [اسينيوس Asinius] و[تريبليوس Trebellius] نصحا [انطوني] بمعارضته، وكان في الوقت نفسه يشك في ان [دولابلا] قد أغوى زوجه، حتى بلغ الأمر به الى تطليقها، وكانت ابنة لعمه [كايوس انطونيوس] زميل شيشرون في القنصليه، وجاهر [دولابلا] العداء. وفي الوقت نفسه عمد [دولابلا] الى الاعتصام بالفوروم واحتلاله بالقوة لاصدار مرسومه عن طريق جمعية الشعب. وما ان أصدر مجلس الشيوخ قراراً بتحويل [انطوني] استعمال القوة حتى زحف على الفوروم وقتل عدداً من رجال [دولابلا] وفقد هو أيضاً عدداً من رجاله. فخرس بعمله هذا مكانته عند الشعب. في حين ان أسلوب حياته وسلوكه الشخصي، أكسبه أحتقار كل ذوى المبادئ والعقلاء، واصبح بغيضاً مكروهاً عندهم على حد قول [شيشرون]. لقد اشمأزوا من معارفته الخمر في غير اوقاتها. وافراطه في الإنفاق، وفضائحه الجنسية، ونومه طوال النهار على اثر فجوره الليلي، وقضاء ليلة في المراسح والمآدب أو حضور زواج ممثل كوميدى او مسخراتي او مهرج. او تجواله على غير هدى بسبب صداع افقده عقله. وقد

تنقلت عنه الحكاية الآتية وهي انه حضر حفلة زواج الممثل الكوميدي [هيبياس Hippias] وظل يشرب ويأكل طوال الليل وكان عليه ان يخاطب في الجمهور صباحاً في الفورم فتقدم من المنصة وهو ثمل يترنح. واخذ يفرغ ما في جوفه من قيء امام الجمع الحاشد، فأسرع احد اتباعه ونشر معطفه امامه ليفرغ فيها قيئه. وكان [لسرجيوس Sergius] الشخص اعظم دالة عليه وكذلك [كيثيرس Cytheris] التي تنتمى الى عين الفن التمثيلي، فقد كان شديد التعلق بها، يصحبها معه عند زيارته المدن الايطالية، فيركبها في محفة، يرافقها اتباع وحاشية لا تقل عنمن كان يحيط بامه.

هناك الكثير غير هذا في سلوك [انطوني] اليومي مما سبب السخط الاستياء. فالناس مثلاً استنكروا رؤية اقداح الشرب الذهبية التي كانت ترسل قبله عند سفره خارج المدينة. كأنها جزء من مهمات موكب ديني. ويتألمون لرؤية الفسطاط الذي ينصب له اثناء رحلاته والموائد الفخمة التي تمد في البساتين والحبائن أو على شواطئ الأنهار، والى عجالاته التي تجرها الأسود، والى عادته اسكان العاهرات وعازفات السامبوكا Sambuca<sup>(١١)</sup> في بيوت الناس الفضلاء، وكان معظم الناس يستفظعون مقارنة ذلك بقيصر الذي يحارب خارج ايطاليا فينام في العراء متعرضاً للأخطار، ومعانبا التعب والارهاق وهو يخوض غمار المعارك الأخيرة من الحروب الاهلية في حين يستفيد انصاره من حملاته هذه ليغرقوا انفسهم في الترف ويوجهوا الإهانات لابناء بلدهم.

ويعتقد ان هذا السبيل في التصرف زادت في حدة الحرب الاهلية وشجعت الجنود على الاستباحة والنهب وغيرها من اعمال العنف. ولذلك بادر [قيصر] فور عودته الى العفو عن [دولابلا] ولم يختر [انطوني] زميلاً له عندما انتخب قنصلاً للمرة الثالثة، وانما اختار [ليبيدوس]. في هذا الزمن بالذات عرض منزل [پومپي] للبيع فابتاعه [انطوني] وعندما طلب منه تسديد الثمن غضب. يفسر عدم مشاركته [قيصر] في الحرب الافريقية، بشعوره بالغبن لأنه لم يعرض باي شيء عن مآثره السابقة. على ان [قيصر] مع هذا يبدو انه اصلح كثيراً من اعوجاجه وحماقته بالتنبيه الى اغلاطه وعدم التغاضي عنها. وعلى اية حال اصلح أمره وقوم سبل حياته ووجه افكاره الى الزواج، واختار [فولفيا]<sup>(١٢)</sup> ارملة [كلوديوس]

(١١) السامبوكا هو نوع من انواع القيثارة.

(١٢) كان زوج فولفيا الأول كلوديوس. وابنتها من هذا الزواج اصبحت اولى زوجات اوكتافيوس قيصر في ٤٣ ق.م. اما زوجها الثاني فهو [كيوريوس] صديق [انطوني] الذي توفي في افريقيا في ٤٩ ق.م. وكان انطوني زوجها الثالث وقد ولدت له ولدين وتوفيت في ٣٩ ق.م.

- اني لست أخشى الرجال البطينين وانما أخشى الشاحبين الهضيمين  
يقصد كلاً من برتوس وكاسيوس اللذين كانا سيتامران عليه ويقتلانه.

وكان [انطوني] هو الذي زوّد المؤقرين بغير قصدٍ منه، بالذرائع المعقولة للقيام بموآمراتهم  
وكانت المناسبة: عيد ليكيا Lycaea الذي يسميه الرومان [لوپركاليا]. وقد جلس [قيصر]  
مشمثلاً برداء النصر في الروسترا في الفوروم يشهد العدائين وهم يرحون ويغدون. وقد جرت  
العادة أن يحتفل بالعيد بان يدهن عدد كبير من النبلاء الشبان ومتولي المناصب في الدولة  
جسومهم بالزيت ويمسكوا باسواطٍ من الجلد ذي الشعب ويهرولون في الطرقات فيضربون كل  
من يصادفونه على سبيل المزاح. وكان [انطوني] من بين هؤلاء العدائين، وعوضاً عن تطبيقه  
المراسيم التقليدية فقد ازوج اكليلي غارٍ حول تاجٍ واسرع نحو الروسترا فرفعه رفاقه الى اعلى  
فوضع التاج على رأس [قيصر] يريد بهذه، الإشارة الى انه يستحق المناذاة به ملكاً. ولكن  
قيصر تظاهر بالرفض، فشاع السرور في نفوس الشعب وأخذوا يصفقون. فحاول [انطوني]  
ثانيةً. فعاد قيصر يدفعه عنه جانباً. وظلت هذه التمثيلية تتكرر عدة مرات بقلةٍ من رفاق  
[انطوني] يشجعونه في محاولته ارغام [قيصر] على قبول التاج بينما كان سواد الشعب  
يحيي كل رفضٍ بهتاف الاستحسان. والغرابية في الأمر ان هؤلاء الناس كانوا على استعداد  
للخضوع الى سلطة الملك وحكمه، في حين ما يزالون يصدون عن اللقب كأنه يعني القضاء على  
حريتهم.

وأخيراً نهض [قيصر] الذي اشتد غيظه مما حصل، وازاح رداءه عن عنقه وقال انه مستعد  
لتقبل اية طعنة يوجهها اليه اي شخص الآن. ووضع أكليل العار على هامة احد تماثيله، إلا أن  
بعض التريبونين الشعبيين رفعه، فتبعهم سواد الشعب الى منازلهم مشيعين بهتافات عالية  
استحساناً لعملهم، إلا أنهم طردوا من وظائفهم فيما بعد بأمراً من [قيصر].

هذه الحادثة شدت من عزيمة [برتوس] و[كاسيوس] وشجعتها في موآمرتهما وعندما بدأ  
يستعرضان الاصدقاء الذين هم اهل للاعتماد على مساعدتهما، بحثا مسألة التحدث مع  
[انطوني]. وكان من رأي الجميع ان يفتح بالأمر، إلا [تريبونوس] فقد عارض الفكرة. وذكر  
انه كان قد خرج هو وانطوني لاستقبال [قيصر] وركبا عربةً واحدةً معاً، وفي اثناء تبادلهما  
الحديث أخذ يجسّ نبضه بحذرٍ وتوجس وفهم [انطوني] المراد الا انه لم يشجعه. كما بدا له.  
ولكنه في الوقت نفسه لم يبلغ [قيصر] بالحديث وحفظ سره بأمانة. وعندما اقترح المؤقرون  
قتل [انطوني] مع [قيصر] الا ان [برتوس] لم يوافق واصراً قائلاً أن المهمة التي يضطلعون  
بها هي قتل رجلٍ في سبيل العدالة والقانون، ولذلك يجب أن يحافظ على نقاوتها وخلوها في

الغوغائي. وهي امرأة لم تخلق للغزل والنسج وتديبير المنزل، ولم يكن في وسعها ان ترضى  
بسوس رجل لا طموح له سياسي. بل كان همهما ان تحكم بعلاً يحكم وان تقود قائداً عاماً  
ولاشك في ان [كليوباترا] كانت مدينة لها بالشكر الجزيل لأنها دربت انطوني على اطاعة  
سلطه زوجة. اذ لما جاء الوقت لتتسلمه، وجدته مروّضاً طبعاً مدرباً على قبول سلطان المرأة.  
وكان يلجأ الى مختلف الحيل الصببانية وصنوف المزاح ليفرح فولثيا ويسرّي عنها. منها انه  
لما عاد [قيصر] من اسبانيا بعد انتصاره، كان انطوني من جملة المستقبلين اذ خرج للقاءه،  
وكان ان انتشرت اشاعة مؤداها ان [قيصر] قد قتل وان العدو بهم يغزو ايطاليا. فعاد  
[انطوني] الى روما وتنكر بثياب عبدة وقصد منزله وزعم انه يحمل لفولثيا رسالة من  
[انطوني] وجيء به اليها وكان الوقت ليلاً وقد لف وجهه تماماً، وكانت تعاني قلقاً عظيماً.  
فسألته قبل ان تتسلم الرسالة هل انطوني حي؟ فسلمها الرسالة صامتاً وما ان فضتها وبدأت  
بقراءتها حتى وثب اليها وطوقها بذراعيه وانشأ يقبلها. لقد اخترت هذه الحكاية لتقوم مثلاً  
واحداً لحكايات له كثيرة معها.

عندما عاد قيصر من اسبانيا<sup>(١٣)</sup> خرج للقاءه كل شخص ذي مقام ووجاهة في روما،  
وقطعوا رحلة ايامٍ لاستقباله. وكان [انطوني] الشخص الوحيد الذي اختاره للتكريم فقد اركبه  
معه في عربته، وركب وراءهما [بروتوس] و[كاسيوس]<sup>(١٤)</sup> ابن بنت اخته الذي  
اتخذ لنفسه فيما بعد اسم [قيصر] وحكم روما سنيماً عديدة.

وعندما انتخب [قيصر] قنصلاً للمرة الخامسة بادر الى اختيار [انطوني] زميلاً له. وكان  
قد اعتزم الاستقالة من منصبه واناظته ب[دولابلا]. وأعلن قراره هذا للمجلس.

الا ان [انطوني] عارض الأمر بشدة وأنحى على [دولابلا] بالسباب والكلام المقذع، فردّ  
عليه هذا بأكثر منه. الى ان بلغ الخجل [بقيصر] حداً انه ترك الفكرة جانباً بصورة مؤقتة؛ وقد  
اشمأز من تلاحي انصاره هذا. ثم واجه الشعب علناً ليعلن [دولابلا] قنصلاً، فصاح  
[انطوني] ان الإشارات العلوية لا تنبئ بخير من وراء هذا<sup>(١٥)</sup>. فأضطر [قيصر] أخيراً الى  
التخلي عن الفكرة. مما اغاظ [دولابلا] كثيراً. في الواقع يبدو أن [قيصر] كان شديد  
القرف من دولابلا قَدَر ما كان شديد القرف من [انطوني]. وتقول رواية أنه عندما اتهم  
احدهم بالتآمر عليه قال [قيصر]:

(١٣) بعد النصر الذي حققه في موندنا خريف العام ٤٥ ق.م.

(١٤) في نسخة درايدن التي راجعها ارثر، هيوكوف: يثبت اوكتافيان الا ان المتن هو الصحيح.

(١٥) كان انطوني [اوگورا] فهو والحالة هذه ينبئ بمقتضى وظيفته.

اي وصمة ظلم. وكانت البقية تخشى قوة [انطوني] الجسمانية والنفوذ الذي يمارسه بمقتضى منصبه. فعين بعض المتآمرين لمهمة مراقبته، حتى اذا دخل [قيصر] مجلس الشيوخ وازفت الساعة لتنفيذ عملية الاغتيال، اشغلوا [انطوني] في حديث حول أمر عاجل وابقوه خارج القاعة.

ونفذت هذه الخطة كما قدر لها وسقط [قيصر] متشحطاً بدمائه في قاعة المجلس. فأسرع [انطوني] يختفى متنكراً بزي عبد. وعندما علن ان المتآمرين قد تجمعوا في الكابيتول فحسب، ولا نية سوء لديهم ضد اي شخص آخر، خرج واقنعهم بمغادرة الكابيتول الى المدينة، وارسل ابنه رهينة عندهم. وقمادى حتى انه دعا [كاسيوس] الى العشاء في منزله، وفعل [لبييدوس] الشيء نفسه مع [بروتوس] ثم دعا المجلس للاجتماع، وفي الجلسة اقترح اصدار قانون العفو العام، وتقليد كل بن [بروتوس] و[كاسيوس] وانصارهما حكم اقليم من الاقاليم الرومانية، فأيدها المجلس، وصوت ايضاً على أن لا يحدث اي تغيير في الاجراءات والاحكام التي اتخذها [قيصر] لذلك ارتفعت سمعة [انطوني] الى اسمى عراها عند خروجه من المجلس فقد ساد شعور عام بأنه انقذ روما من حرب اهلية ونجح في حل معضلة صعبة جداً ومعقدة بطريقة حكيمة وبعيد نظر سياسي لانظير له.

الا ان هذه الاجراءات المعتدلة سرعان ما اكتسحتها المد الجماهيري والشعور العام الذي أصبح الآن يتجه نحو انطوني، وهذا ما اشاع فيه الأمل بانه سيكون سيد روما الأول لو أفلح في الاطاحة [ببروتوس]. وحدث انه عندما حمل جسد قيصر ليدفن القى [انطوني] التآبين التقليدي في الفورم. وعندما وجد أن خطابه قد احدث في الناس أثراً كآثر السحر، بدأ يضمن تأيينه عبارات رثاء واستنكار لمصير [قيصر]. وأخيراً عندما شارفت خطبته على الختام. سحب ثوب الميت وعرضه على الناس وهو دام وقد مزقته الطعنات وواصفاً الفاعلين بالقتلة والاوغاد سفاكي الدماء. فأهاج الحاضرين وملاءهم سخطاً، حتى انهم كدسوا المناضد والمقاعد بعضها بعضاً فوق بعض واحرقوا جثمان [قيصر] في الفورم، ثم التقط بعضهم اخشاباً مشتعلة من المحرقة واسرعوا بها الى منازل المتآمرين يريدون اشعال النار فيها.

ولهذا ترك [بروتوس] واتباعه المدينة، والتف اصداق قيصر حول [انطوني]. وفي ذات الوقت اوكلت [كاليپورنيا] زوج [قيصر] اليه حفظ الجزء الأكبر من ثروة [زوجها]، بنقله من بيتها ووضعها في يده وكان يبلغ اربعة آلاف تالنت، كذلك وضع يده على اوراق [قيصر] وتتضمن مسودات ومذكرات لكثير من مشاريعه ومراسيمه فقام انطوني بتطبيق كثير من تلك الأوامر وعين بموجبها عدداً من الحكام والشيوخ بحسب رغبته. كما اعاد بعض المنفيين واطلق

سراح آخرين من السجن كأن كل هذه الاجراءات تمثل ارادة قيصر. وأطلق الرومان على كل المستفيدين من هذه الاجراءات اسم «الخارونيين»<sup>(١٦)</sup> تندرأ ومزاحاً، اذ لو انهم طلبوا لاثبات قضيتهم، لكان عليهم أن يرجعوا الى اوراق الميت ليتخذوها كدليل. وبمختصر القول مارس [انطوني] في تلك الفترة حكماً اتوقراطياً بكل معنى الكلمة، فقد كان قنصلاً في تلك السنة. ثم عين اخويه بمنصبين رفيعين. فأصبح [گايوس] [Gaius] پريتوراً، و[لوجيوس] [Lucius] تريبوناً للشعب.

كذا كان الموقف العام الذي وجده الفتى [اوكتافوس] عند وصوله روما. وكان هذا كما ذكرت سابقاً ابن بنت اخت [قيصر] وقد جعله وارثاً له في تركته وكان يعيش في [اپولونيا] عندما قتل خاله. فقام بزيارة [انطوني] حالاً بوصفه صديق الأسرة، ثم ذكره بالأموال التي اؤتمن عليها. ذلك لأن [اوكتافوس] وكان ملزماً بموجب منطوق الوصية بوصفه الوارث الشرعي، بأن يدفع خمسة وسبعين درهماً لكل مواطن روماني<sup>(١٧)</sup>. واستخف [انطوني] في مبدء الأمر [باوكتافوس] وقال له انه مجرد صبي، مأفون. وانذره قائلاً ان شاباً مثله لا يملك من الاصدقاء المتنفذين الا قلة، ولا من تجربة الحياة ما يؤبه به، سيجد قبوله ميراث قيصر واضطلاعه بتنفيذ شروط الوصية عملاً شاقاً ينوء به كاهله. الا أن [اوكتافوس] لم يبد متأثراً قط بهذه النصيحة وواصل المطالبة بالمال في حين طفق انطوني يعمل كل ما في وسعه لإذلاله. فأولاً عارض في انتخابه لمنصب التربيون. وعندما حاول تقديم كرسي ذهبي<sup>(١٨)</sup>، تكريماً [لقيصر] كما قرر مجلس الشيوخ. هدد [انطوني] بايداعه السجن، ان لم يكف عن استجلاب عطف الشعب وتقربه منه. وهذا ما حدا [باوكتافوس] الى الاستعانة بشيشرون والانضمام اليه والى كل اعداء [انطوني] اللدودين. وبمساعدهم ضمن مساندة المجلس له. بينما تمكن هو بنفسه من كسب مودة العامة ونجح في جمع وتعبئة جنود [قيصر] القدام من المستوطنات التي استقروا فيها. فاقض مضجع [انطوني] واقلقه بمناوراته هذه. والتقى به في

(١٦) يثبت پلوتارخ هنا الكلمة الاغريقية. وهي مشتقة من Charon علاج [هيداس] الاسطوري اما الكلمة اللاتينية المقابلة فهي اورچيني Oarcini مشتقة من اوركس آله العالم السفلي.

(١٧) القانون الروماني لايلزم اوكتافوس بقبول الميراث، على ان تركة [قيصر] كانت كبيرة جداً ولا خطر ثم في ميراث ديون عليها. والخطر بالاحرى متأت من استيراث الثروة والسمعة السيئة المتعلقة باسم الميت نفسه وفي الصعوبات التي تكتنف ادارة المخلفات واستخلاصها ولاسيما تلك التي هي موضع نزاع. وقد ترك لوكتافوس ثلاثة ارباع التركة. والباقي اوصى به [كوينتوس پيديوس Quintus Pedius] وهو ابن بنت اخت ثان لقيصر.

(١٨) تختلف ترجمة درايدن لهذه العبارة: فهو يفهمها هكذا «... عندما اراد ان يقدم كرسي ابني والذهبي وقفاً كما رسم في الوصية...».

الكابتول وتبادلا الحديث ثم اصطلحا. وفي الليلة نفسها رأى [انطوني] حلماً غريباً تطير منه. خيل له ان ساعةً انقضت على يده اليمنى. وبعد ايام قليلة ابلغ ان [قيصر] الصغير يتأمر على حياته. وحاول [اوكتافيوس] جهده لنفي هذه التهمة عنه الا انه لم يفلح في ازالة شك انطوني. فأخذ الحرق يتسع فيما بينهما وشبت نار العداة مستعرةً بashed من السابق. وهرع كلاهما يتنقلان في ارجاء ايطاليا يتنافسان في تقديم العطاءات والأجور المرتفعة لتجنيد المحاربين القدماء الذين كانوا قد استقروا في اراضيهم، ويتسابقان في ضمان ولاء الجنود الذين مازالوا في الخدمة.

في ذلك الحين كان شيشرون يمارس نفوذاً في روما لا يعدله نفوذ اي سياسي آخر، ولذلك اوقف مجهوداته لاثارة الرأي العام على انطوني حتى انه أقنع مجلس الشيوخ على اعلانه «عدواً للشعب». وادع (الفاجي) وغيرها من شعارات الپريتور الى [اوكتافيوس]، وارسل [هريتوس Hirtius] و[پاشا] القنصلين لطرد [انطوني] من ايطاليا. والتقى الجيشان في موتينا Mutina<sup>(١٩)</sup> وكان [قيصر] فيها يقاتل الى صف القنصلين فهزم [انطوني] الا ان [هريتوس وپاشا] قتلا في المعركة. وعانى جيش انطوني مشاقاً تجلّ عن الوصف في تفهقره واضرّ به الجوع ضرراً بليغاً. ولكن من صفات [انطوني] أن تبدو اعظم سجاياه في ساعات المحنة. والواقع انه لا يكون اقرب الى رجل الفضيلة والصلاح الا عندما يتلى بسوء الحظ وتنزل به المصائب الى الدرك الأسفل. من المعروف عادة ان مفهوم الفضيلة يكون اقرب الى الرجال عند معاناتهم المحن، ولكن من النادر عندهم ان يحتشوا الصفات التي يعجبون بها للعمل، وان يتخلصوا من الرذائل التي يستقبحونها. ويعكس ذلك نرى الكثيرين الذين يضعفون أمام النوائب، فتنهار عزائمهم وتخونهم قواهم الى الحد الذي يفقدون معه بصائرهم. وعلى اية حال فقد ضرب [انطوني] مثلاً رائعاً لجنوده. فمع حياة الترف والنعومة التي حفلت بها حياته، سهل عليه أن يشرب الماء الآسن ويأكل الثمار البرية وجذور النبات دون تحرج. وقيل لنا ان الجيش اضطر وهو يقطع جبال الألب الى التهام لحاء الشجر وحيوانات لم يذقها بشر من قبل.

كانوا يريدون الاتصال بالجيش الذي يقوده [ليبيدوس] فالمعتقد انه صديق لانطوني، وهو أحد الذين انتفعوا مثله بصداقة [قيصر] ولكن [انطوني] لم يجد دليلاً على الترحيب عندما وصل وضرب معسكره بالقرب منه. ولذلك قرر المجازفة بكل شيء في حركة واحدة جريئة. كان شعره طويلاً مشعثاً ولحيته مرسله غير مشذبة مهملة منذ هزيمته، وقد اشتمل بمعطف قاتم.

(١٩) هي مدينة مودينا Modena الحالية.

فتقدم من آطام معسكر [ليبيدوس] وراح يكلم الجنود وسرعان ما ادركت الشفقة الكثيرين منهم لهيئته المزرية ومست كلماته شغاف قلوبهم، فداخل [ليبيدوس] القلق وأمر بنفخ كل الابواق لكتم صوت انطوني. الا ان هذا زاد في عطف الجنود عليه فحسب. ثم البسوا كلاً من [ليليوس Laelius] و[كلوديوس] ثياب عاهرتين من العواهر اللاتي يتبعن الجيش وارسلوهما للمداولة معه سرّاً. وطلب هذان منه ان يتحلّى بالصبر والشجاعة وان يهاجم المعسكر في الحال وقالوا بان الكثيرين سيرحبون به، بل وهم مستعدون لقتل [ليبيدوس] لو شاء. فلم يقبل [انطوني] بمدّ يدهم عليه ولكنه شرع في اليوم الثاني بعبور النهر على رأس جيشه وكان اول من وضع قدمه في الماء وخاضه حتى الشاطيء المقابل حيث كان يشاهد جنود [ليبيدوس] يرحبون به بايدٍ ممدودة، ويقلعون الأطم المحيطة بمعسكرهم ليفسحوا له سبيل المرور. وما ان دخل المعسكر حتى كان السيد المطلق. وعامل [ليبيدوس] بغاية اللطف والاحترام وعانقه وناداه «بأيي» ومع انه كان مسيطراً تماماً على جيش منافسه الا انه اصرّ ان يحتفظ برتبة الجنرال ومظاهرة. وحفز سلوكه هذا [موناتيوس پلانكوس] على ضم قواته اليه، وكان معسكراً على مقربة منه بوحدة عسكرية كبيرة العدد. وهكذا اجتمع اليه مع جيشه، قوة ضخمة فعاد الى اجتياز الألب نحو ايطاليا على رأس سبع عشرة فرقة من المشاة، وعشرة آلاف من الخيالة تحمي مؤخرته. فضلاً عن تركه ست فرق أخرى للمرابطة في بلاد الغالين: هذه القوة كانت بقيادة فاربيوس Varius أحد اصدقائه وندمائيه في مجالس الشراب ويعرف بلقب [كوتيلون Cotylon] (٢٠).

في هذا الزمن حصلت الجفوة بين [اوكتافيوس قيصر] وبين شيشرون الذي كان مصرّاً على عودة الحريات كما كانت في ظلّ الجمهورية السابقة. وارسل [اوكتافيوس] اصدقاءه الى [انطوني] يدعوه الى الاتفاق. واجتمع [انطوني] و[ليبيدوس] و[اوكتافيوس] في جزيرة صغيرة بوسط النهر<sup>(٢١)</sup> ودام اجتماعهما ثلاثة ايام. ولم يجدوا صعوبة في التفاهم على امور كثيرة جداً وقسموا حكم العالم فيما بينهما بالسهولة التي يتقسمون فيها ميراثاً من آبائهم. وكان أعظم ما واجههم من صعوبة هو الاتفاق على الاشخاص الذين سيتم القضاء عليهم. اذا كان كل واحدٍ منهم يطلب حقّه في التخلص من اعدائه الشخصيين وانقاذ اقربائه ومن يمت اليه بصلة الرحم والدم. وبالاخير تغلّب الحقد الذين يشعر به كل واحدٍ منهم، على الشعور بالكرامة والشرف تجاه اقربائهم بل ولائهم لاصدقائهم، فضحى [اوكتافيوس] بشيشرون لأجل

(٢٠) مأخوذة من الميكال اليوناني المعروف باسم [كوتيلة Kotyle]. وهو جزء من اربعة وعشرين جزءاً من الغالون المعروف.

(٢١) بالقرب من مدينة بولونا الحالية، في العام ٤٣ ق.م.

[انطوني]، في حين تخلى [انطوني] بدوره عن [لوچيوس قيصر] خاله، واعطي [ليبيدوس] امتياز قتل اخيه [پاولوس Paulus]. وان قال بعضهم انه سلم هذا الاخ الى [انطوني واوكتافوس] اللذين كانا يريدان قتله ومهما يكن من أمر، فاني لا استطيع ان أعد شيئاً أكثر وحشية وهمجية من الإتجار بالدم. فبعد كل هذه الصفقات الدموية ومبادلة بموت بموت، لا أعتبر جريمتهم في التخلي عن أولئك، أقل من جريمتهم من قبضوا عليهم. لأن الاساءة التي اجترحوها بحق اصداقائهم هي اشنع الجريمتين. اذ انهم قتلوهم دون ان يشعروا بكره نحوهم.

واتماماً للصلح التنف الجنود حولهم وطلبوا ان يعزز [اوكتافوس] حلفه بزواجه من [كلوديا] بنت [فولبيا] زوج [انطوني] من زوجها الأول فتم الاتفاق على هذا ايضاً، وبعدها انطلق «مثلث الحكم» الى اعلان اهدار الحقوق وقتل ثلاثمائة شخص<sup>(٢٢)</sup> وكان شيشرون من قتلى الدفعة الأولى، وبعد ان قضي عليه أمر [انطوني] بان يحتزوا رأسه ويقطعوا يده اليمنى التي كتبت قدحاً بحقه. وعندما جيء بهما اليه نظر اليهما نظرة انتصارٍ وتشفٍ وارسل قهقهةً عالية. وبعد ان شفى غليل، امر بدقهما فوق الروسترا في الفورم. كانه نجح في توجيه اهانة واذلال الى الرجل الميت، في حين انه اظهر به مشهداً من اساءته استعمال سلطته، وغروره وخيلاءه في ساعة يمته. وطورد دخاله [لوچيوس قيصر] ايضاً فوجد نفسه لاجئاً الى اخته أم [انطوني] فأقتحم القتلة دارها وشقوا طريقهم بالقوة. ليجدوا الأخت تسد باب الغرفة في اوجهم، وتمدّ يديها قائلة:

- لن تقتلوا [لوچيوس] قبل ان تقتلوني. انا الذي ولدت جنرالكم.

وبهذا العمل افلحت في انقاذ أخيها، وهربت.

وضاق الرومان ذرعاً بحكم الثلاثة. الا ان [انطوني] كان اكثرهم موضعاً للوم. فهو أكبر سناً [من قيصر]، وأكثر سلطاناً من [ليبيدوس] اصف الى هذا أنه عاد الى حياة التبذل والفجور الأولى، حالما استقر به المقام. كانت سمعة العامة سيئة بحد ذاتها الا أنه زاد في كره الناس له، بسكانه في منزل [پومپي] الأكبر. وهو رجل كان موضع الاعجاب والاكبار العظيمين لا لسمو خلقه ووقاره وحياته البسيطة المنتظمة الديمقراطية فحسب بل لنيله ثلاثة مواكب نصر وكان يحز في نفوسهم ان تغلق ابواب هذا المنزل في أوجه القادة والقضاة والسفراء الذين يجدون انفسهم مطرودين منه بكل وقاحة في حين تفتح مصاريعه للاعبين

(٢٢) يذكر اپيان Appian ان حوالي ثلاثمائة شيخ والفين من الفرسان فقدوا حياتهم وكما في مذابح سلا - لم يكن الفرض قاصراً على التخلص من المعارضين السياسيين بل لجمع المال. فكل من يصدر بحقه امر الاهدار - تصادر املاكه.

والمشعبدين والمتزلفين والطفيليين السكارى، ليتنزفوا الجزء الأكبر من الثروة التي جناها من ضحاياه بالعنف والقسوة. اذ لم يكتف ثلاثي الحكم بمصادرة اموال المهذورة دماءهم وأتما أخذوا يوجهون الاتهامات الزائفة الى اراملهم واقربائهم ويفرضون عليهم ضرائب وغرامات من كل نوع متصور. وعندما علموا ان مبالغ من المال لبعض الرومان والاجانب قد اودعت امانة عند العذارى القستالات، ذهبوا اليهن وانتزعن تلك الاموال منهن بالقوة. ولم يطل الأمر [باوكتافوس] ليدرك ان نهم انطوني الى المال لايعرف حداً. ولهذا طلب ان تقسم الاموال المصادرة بينهم بالتساوي، ثم قسما ايضاً قيادات الجيش وقادا قواتهما المشتركة الى مقدونيا لمهاجمة [بروتوس] و[كاسيوس] تاركين [ليبيدوس] في روما<sup>(٢٣)</sup>.

واجتازا البحر، وبدأ في حملتهما العسكرية، وضربا معسكرهما امام العدو: وكان [انطوني] يواجه [كاسيوس]، و[اوكتافوس] يواجه [بروتوس]. ولم يقم [اوكتافوس] بعمل يذكر، وكان [انطوني] الذي تسلم زمام المبادرة وحقق النصر في كل قتال. وعلى اية حال أصيب [اوكتافوس] في اول معركة بهزيمة ساحقة، واستولى العدو على معسكره وكاد يقع اسيراً فافلت في آخر لحظة، وان كتب في مذكراته بأنه انسحب قبل المعركة بسبب حلم رآه احد اصداقائه. الا ان [انطوني] من الجهة الأخرى، هزم [كاسيوس]، وان ذكر بعضهم بانه لم يكن موجوداً بشخصه اثناء المعركة، وانه شارك فيها عندما بدأ رجاله بمطاردة العدو المنهزم. ولم يدر [كاسيوس] بانتصار [بروتوس] وأمر عبده العتيق [پنداروس Pindarus] بقتله. وبعد ايام قليلة خاض الفريقان معركة أخرى دارت فيها الدائرة على [بروتوس] فقتل نفسه. وكان [اوكتافوس] طريح الفراش فاستأثر [انطوني] بثمار النصر كلها تقريباً، ووقف عند رأس [بروتوس] المنتحر واخذ يلومه لموت اخيه [كايوس] الذي قتل بأمر من [بروتوس] انتقاماً لشيشرون. ولكنه استدرك فقال ان أكبر اللوم في هذا يقع على عاتق [هورتنسيوس]. واصدر امره بأن يقتل فوق قبر اخيه والقي بمعطفه القرمزي الثمين على جثة [بروتوس] وأمر أحد عبيده العتقاء بدفنه. وعلم فيما بعد أن هذا الرجل الموكل احتفظ لنفسه بالمعطف مع جانب كبير من المال الذي خصصه المصاريف الجنازة، فأمر به فقتل.

ونقل [اوكتافوس] الى روما مريضاً، وكان الأمل بشفاؤه ضعيفاً وزحف [انطوني] عبر بلاد اليونان على رأس جيش لجب، لجباية الأموال من الاقاليم الشرقية. وكان ثلاثي الحكم قد وعدوا الجنود بأن يدفعوا لكل منهم بمكافأة قدرها خمسمائة درهم. وهكذا وجدوا أنفسهم مضطرين الى اتباع اجراءات اشد صرامة في فرض الضرائب وجباية الأتاوات. وظهر انطوني

(٢٣) حدث ذلك في صيف العام ٤٢ ق.م.



في معاملته للاغريق اعتدالاً ومعاملة على الأقل في مبدء الأمر، وقنع من ضروب التسلية، بحضور الالعب والمراسيم الدينية وسماع مناظرات الفلاسفة والعلماء، وظهر رحمةً وتسامحاً في الاحكام القضائية، وكان يسره ان يلقب «بمحب الاغريق»، ويزداد غطبة اذ يلقب «بمحب اثينا» حيث امطر المدينة بالهدايا. ولكن عندما اراد أهالي [ميسغارا] اطلاعه على شيء ينافس جمال اثينا ودعوه لرؤية مجلس شيوخهم اسرع بالذهاب وتأمله. ثم سأله عن رأيه فيه فأجاب: أنه ليس واسعاً جداً بطبيعة الحال. ألا أنه متفوض جداً!

وقام ايضاً بالكشف على هيكل [ابوللو البيشي] لأجل اكمال عمارته. على الأقل وعد مجلس الشيوخ المحلي بذلك.

وبعد هذا بقليل ترك [لوچيوس چنسورينوس Lucius Censorinus] حاكماً على بلاد الاغريق<sup>(٢٤)</sup> وعبر المضيق الى آسيا وشرع حالاً بنهب ثروات الأقليم. وكان الملوك المواليون يقفون ببابه والملكات يتنافس على تقديم انفس الهدايا له، ويتراهن على من ستكون صاحبه الحظوة في عينه يتمنن بذل انفسهن وشرفهن له. وفي حين كان [اوكتافوس] في روما يعمل ناصباً وبنهك قواه في معترك التطاحن السياسي الحزبي وفي الحرب الأهلية. كان [انطوني] غارقاً في مسرات ونعم السلم وفي راحة دائمة، وما لبثت غرائزه ان أطلقت لنفسها العنان كما كانت في السابق فزحف عليه اشتات من الطفيليين وعازفي العود مثل اناكسانور Anoxen- or والنافخين بالمزمار مثل [كسانتوس Xanthus] والراقص [مترودورس Metrodorus]، ومجموعة كاملة من اللاعبين الآسيويين، سبقت اباحتهم ومجونهم حتى أولئك الطفيليين الذين جاء بهم معه من ايطاليا. فاستولوا على منزله واصبحوا فيه الأمرين الناهين. وأخذ الناس يضيفون ذرعاً بتبديد الثروات على قبل هذه القبائح. اذ ان كل اقليم آسيا اصبح الآن يضوع بالفجور، مثل [ثيسبة] في تراجيدي اوديب الملك Sedipus Tyronnes صرخات اليأس، مختلطة بأغاني المرح». وعند دخوله أفسس استقبلته النسوة بازياء باخوسية، والرجال والاحداث بازياء المسوخ، والرب بان Pan. وساروا امامه بمواكب. وملئت المدينة بأكاليل اللبلاب وسيقان الثيرسوس Thyrsus! وكان الجو يردد صدى موسيقى القيثار والزمار والناس يحبونه بوصفه [ديونيسيوس] المحسن وجالب المسرات هكذا كان يبدو لبعض الناس بللا ريب، لكنه كان في نظر اكثرهم [ديونيسيوس] القاسي، وناهش اللحم<sup>(٢٥)</sup>. لأنه جرد

(٢٤) في العام ٤١ ق.م.

(٢٥) يعزى الى [ديونيسيوس] اسماء مختلفة وسجايا مختلفة. والعنصر البدائي الوحشي في طائفته، متوفر كما هو متوفر العنصر الطيب العاقل. ومن هنا جاءت مقابلة پلوتارخ هذه.

العديد من الأسر الشريفة من كل ما تملكه وليفرقه على المتزلفين والأوغاد. وفي احيان أخرى كان يسمح لبعضهم بسرقة الاموال من اصحابها الشرعيين وهم احياء بزعم انهم موتى. وفي مغنيزيا منح [انطوني] دار احد الناس لطاه كان كل فضله انه عمل له عشاءً جيداً ولكن أخيراً عندما فرض اتاوة ثانية على المدن. جمع [هبرياس Hybreas] اطراف شجاعته وتكلم باسم كل الاقليم الآسيوي قائلاً:

- ان كان بوسعك جباية أتاوتين سنويتين في عام واحد فلاشك انك قادر على اعطائنا موسمی صيف وحصادين.

وصاغ افكاره باسلوب بليغ معبر اعجب به [انطوني] ثم انه مضى يقول بلهجة عنيفة صريحة أن آسيا قد جمعت حتى الآن له: مائتي ألف تالنت... «فان لم تتسلم هذه الاموال، فعليك ان تسأل جباتك الذين جمعوها، وان تسلمتها فعلاً وانفقتها؛ فنحن من الهالكين» احدثت هذه الكلمات اثراً عميقاً في [انطوني] اذ كان يجهل تماماً عظم المبالغ التي جمعت باسمه، لا لأنه من أولئك اللامبالين، بل لأن السذاجة بلغت به حد الثقة المطلعة برؤسيه.

في الواقع كان [انطوني] ساذجاً بطبعه، بطيئاً في الوصول الى الحقيقة. ولكن ما ان يدرك خطاه حتى يملأ الندم جوانب نفسه ويغدو مستعداً للاقرار بخطئه ممن اصابهم به. وكلما وجب عليه ان ينزل عقوبة او يصلح ظملاً فهو يقوم بها بشكل واسع ويتخطى حدود المعقول كثيراً في المكافآت التي يمنحها، اكثر من العقوبات التي يفرضها. واما عن نوع المزاح الغليظ الوقح الذي يحب ان يتبادل، فهو يحمل معه علاجه. اذ بإمكان كل شخص ان يقابله بمزاح اغلظ واشد وقاحة. وهو يلتذ بان يكون موضع سخرٍ وضحك قدر ما يلتذ بالضحك على الآخرين. وكثيراً ما اضرت به هذه الصفة اذ كان يتعذر عليه ان يعتقد بأن الغرض الحقيقي لأولئك الذين يمارسون حرباتهم معه وبيادلونه المزاح انما غرضهم التملق والتزلف اليه. انه لم يفهم قط بأن بعض الرجال يخرجون عن جادتهم فيعمدون الى اتخاذ اسلوب صريح واضح وسيخدمونه مثل المستحلب الحريف لتغطية طعم المداينة الكريه. امثال هؤلاء ينطلقون في ردودهم الجريئة وكلامهم الاعتمد الى متعمدين وهم في مجالس الخمر حتى يظهروا بأن المصادقة الذليلة في الامور الهامة لا توحى بأنهم انما يعاشرون الرجل لأجل ان يدخلوا البهجة الى نفسه، بل ان ما يصادقون عليه انما هو رأيهم الحقيقي في حكمته السامية.

تلك هي طبيعة [انطوني]، ولهذا فان حبه [لكليوباترا] التي دخلت الآن حياته، جاء اعظم خاتمة لمصائبه. لقد اثار الى درجة الجنون كثيراً من النوازع التي كانت الى ذلك الحين مخفية او نائمة. وخنقت او افسدت كل السجايا التي ظلت تبدي حتى تلك الساعة مقاومةً للاغراء.

وتنطوي على عناصر الصلاح والخير. واليك قصة ضياع قلبه فيها:

كان يتهيأ لحملة على البارثيين، فأرسل يطلب من [كليوباترا] مقابلته في [كيليكيا] لتجيب عن اتهامها بإرسال مساعدة مالية كبيرة [لكاسيوس] واسداء العون له في حربه ضد ثلاثي الحكم. وبهت رسوله [دليوس Dellius] بسحر [كليوباترا] ودعائها ما ان وقع نظره عليها. وبات مقتنعاً من ساعتها بان امرأة مثلها لن تخشى ان يصيبها اي اذى من [انطوني] وانما الخوف سينشأ من النفوذ والتأثير الذي ستمارسه هي عليه. فقرر ان يقدم فروض التكريم للملكة المصرية ان يزين لها الذهاب الى كيليكيا وهي «في ابهى هيئة يؤهلها اليه فنّها» كما يعبر عنه هوميروس<sup>(٢٦)</sup> وان تطمئن من [انطوني] لأطف القادة وأكثرهم رجولة وتهذيباً. وتأثرت [كليوباترا] باقوال [دليوس]. فقد سبق لها ان أختبرت جاذبيتها وتأثير جمالها في [يوليوس قيصر] وفي [بومبي] الأصغر<sup>(٢٧)</sup>. وكانت تتوقع أسر [انطوني] بأسهل من السابقين لأن [قيصر] و[كنيوس بومبي Gnoeus Pompey] تعرفا عليها وهي فتاة غرّة لا تجرّبة لها في الحياة. اما الآن فستقابل [انطوني] وهي في سن ناضجة، المرأة فيه تكون في اوج فتنتها ورجاحة عقلها<sup>(٢٨)</sup> ولذلك تهينت للسفر بكثير من الهدايا الغالية والأموال والفخفخة والزينات التي تتفق ومقامها الملكي واسرتها العريقة. الا ان أكبر اعتمادها كان على ملاحظتها وفتونها والتأثير الساحر الذي ستخلفه.

تسلمت سلسلة من الرسائل من [انطوني] واصدقائه تدعوها لزيارته. الا انها استخفت بكل هذه الدعوات حتى انها عندما قدمت، بدت وكأنها ما جاءت الا استخفافاً بأوامره. وصلت تمخر مياه نهر قدنوس Cydnus في مركب حيزومه من ذهب، واشرعتته من الارجوان منشورة في مهب الريح، ومجاذيفه الفضضية تلطم الماء بشكل رتيب على الحان المزمار والسرناي والقيثار. وأستلقت هي تحت سقيفة من نسيج مذهب مرتدية زيّ [قينيوس] كما ترى في تماثيلها. يحفّ بها صبيان صغار ذوو وسامة يرتدون زيّ [كيبويد] كما يرى في صورته، وهم يهشون لها بمروحات. وكانت وصيفاتها يرتدين زيّ حوريات البحر Neriede, Grace بعضهن يدرن الدفة، وبعضهن يعالجن القلوع. وكانت البحور والعمطور تتضوع صادرة من المركب الى الشاطئ فتنتشر مختلف الروائح الغالية الثمن. والحشود الهائلة من الناس على الجانبين، قسم راقف المركب من صدر النهر، وقسم اقبل من المدينة [طرسوس] مهرولاً والكّل

(٢٦) المقتبس هو من الاياداة في [ج ١٦ ف ١٦٢] والوصف بالاصل لهيرا Hera التي تجملت لايقاع [زفس] في حبائلها.

(٢٧) هو ابن بومبي الاكبر.

(٢٨) في العام ٤١ ق.م كان لكليوباترا من العمر ثمانية وعشرون عاماً.

يريد ان يشبع نظره من المشهد. وانفضّ الجمع تدريجياً من الساحة العامة حيث كان [انطوني] ينتظر [كليوباترا] وهو جالس على كرسيه الرسمي، حتى ترك أخيراً وحده تماماً واقفر المكان. وانتشر القول ان [قينيوس] جاءت لحياء العيد مع [باخوس] المصلحة آسيا.

ارسل [انطوني] الى كليوباترا يدعوها الى عشاء. الا انها استحسنّت ان يليها هو دعوتها. فقبل ليظهر حسن نيته وكياسته فوجد ما هيء له يجلّ عن كل وصف. الا ان ما فاق كل تصوره هو العدد العائل من المصاييح، قيل انه انزلت فجأة من السقف وأخذت تلقي بانوارها الساطعة الى كل الجهات في وقت واحد وقد نظمت وجمعت بهيئات لطيفة ونسق بديع، بعضها في مربعات وبعضها في حلقات. وبدت بمنظر يسبي اللب، لا يمكن ان ينظم مثله ليأسر النظر. وفي اليوم التالي، دعاها هو رداً لضيافتها. وكان يأمل ان يفوق مآدبتها بذخاً واسرافاً وفخامة. لكنه فشل فشلاً ذريعاً وسلم بالهزيمة من كل ناحية، وجعل ذلك مادة للمزاح والتفككة على سماجته وخرقه وافتقاره الى الظرف والذوق. ووجدت [كليوباترا] ان مزاح انطوني هو من النوع الخشن الغليظ الذي هو أقرب الى العسكري منه الى رجل البلاط المهذب فجارته فيه ونزلت الميدان ونازلته دون تحفظ، ولم يكن جمال وجهها - كما روي لنا مما لا يضاويه جمال فيأسر المناظر حالاً. الا ان سحر وجودها لم يكن بالامكان مقاومته. وكان ثم جاذبية في شخصيتها وكلامها، مع قوة غريبة في تلك الشخصية تلازم كل كلمة وكل حركة، فتوقع مجالسها مهما كان تحت تأثيرها التام. ان مجرد سماع صوتها كان اللذة بعينها وهو مثل آلة طرب متعددة الأوتار، بامكانها الانتقال عليها من جرس الى جرس، فهي عندما تواجه البرابرة يندر لها ان تحتاج الى مترجم، بل تتحدث اليهم بطلاقة ودون معاونة كالأحباش، والتروغولوريت Troglodyte والعبرانيين والعرب، والسوريين والمبدين والبارثيين. وقيل انها المت بلغات شعوب كثيرة أخرى في الواقع مع ان اسلافها حكام مصر لم يتعبوا انفسهم حتى يتعلم اللغة المصرية، وان بعضهم نسي لهجته المقدونية.

وعلى اية حال نجحت [كليوباترا] في اجتذاب [انطوني] تماماً، حتى انه قبل ان تأخذه معها الى الاسكندرية في الساعة التي كانت زوجته [فولثيا] تدير دفة الحرب في ايطاليا ضد [اوكتافيوس قيصر] دفاعاً عن مصالح زوجها، وفي الوقت الذي كان الجيش البارثي بقيادة [لابينوس Labienus]<sup>(٢٩)</sup> (الذي اختاره قواد الملك قائداً عاماً) يهدد بالويل على حدود

(٢٩) لابينوس هذا، هو ابن [تيطس لابينوس] احد ضباط [قيصر] في حروب الغال [يذكره قيصر في مذكراته عن الحروب الغالية]، انضم الى بومبي وقتل في معركة موندنا في ٤٥ ق.م. وارسل بروتوس وكاسيوس الابن يطلب معاونة من اورودس Orades ملك البارثيين وكان هناك عندما انهزم المتآمرون في معركة فيليبيا. غزا لابينوس سورية في ٤٠ ق.م. الا ان قنديتوس قائد انطوني طرده منها. ثم أسر في كيليكيا.

بلاد ما بين النهرين، وبهم بغزو سورية. وفي الاسكندرية غرق هذا المحارب القديم في ضروب من المسرات والتسلّيات واللهو كشابٍ غرّ لا يقيم للمستقبل وزناً واخذ يبدد في اللهو الباطل ما وصفه انتيفون Antiphon «باغلى السلع طراً» الا وهو الوقت. وجمع [انطوني وكليوباترا] حولهما نخبة من الاصدقاء اطلقا عليها اسم « » يولم كل واحد منهم للآخرين يومياً، باسراف وبذخ بجلّ عن الوصف وقد اعتاد [فيلوطاس] وهو طبيب سكن [امغيسا Amphissa] - ان يحدث جدّي [لامپرياس Lamprias] عن ايام دراسته الطب في الاسكندرية<sup>(٣٠)</sup> فيقول له تعرف باحد طهاة الملكة. وقد زين له وهو بعد شاب يملأه حب الاستطلاع ان يأتي معه ليشاهد الاستعداد الفخم لوجبة العشاء ملكي، ودخل به الى المطبخ وبعد ان شاهد كثرة الاصناف وتنوعها. وراقب عملية شواء ثمانية خنازير بريّة، اعرب عن دهشته لعدد المدعويين الكثير، الذي يستلزم تلك الكمية من الطعام فقهقه الطاهي وبين له ان عهد المدعويين ليس كبيراً وهو لا يتجاوز الاثني عشر نفرأ. ولكن من الضروري ان يطهى كل شيء ويقدم بصورة متقنة وان التأثير كله قد يتلف ان حصل خلل في التوقيت لا يتجاوز الدقيقة الواحدة. فقد يتفق ان يطلب [انطوني] العشاء فور مجيء الضيوف. او انه يطلب بعد قليل، ارجاءها ويأمر ان يؤتى له بكأس من الخمر، أو ربما يستغرق في حديث...

- لذلك فنحن لانهيء عشاءً واحداً، بل نستعد لعدد منها لأننا لانعرف اللحظة التي سيرسل بطلب العشاء بالضبط.

هذه هي الحكاية التي اعتاد [فيلوطاس] روايتها. كما انه روى حكاية أخرى، عن زمن لاحق عندما كان ابن [انطوني] البكر من زوجته [فولثيا] واحداً من مرضاه وهو طبيب في الاسكندرية. وقد اعتاد تناول العشاء عنده مع اصدقائه، عندما لا يتعشى هذا الشاب مع ابيه. في احدى المناسبات، حضر العشاء طبيب آخر واخذ يتكلم متفاخراً متباهياً فأزعج المدعويين، الى ان نجح [فيلوطاس] في اسكاته بالعبارة السوفسطائية التالية:

«في بعض حالات الحمى، يجب على المريض ان يتناول الماء البارد. وكل امرء محموم، هو في حالة من حالات الحمى: لذلك فكل محموم يجب ان يتناول الماء البارد.»

فارتج على الرجل وعجز ان يردّ بكلمة امام هذا المنطق. وبلغ من سرور ابن [انطوني] ان هتف قائلاً:

- كل هذا لك يا فيلوطاس

(٣٠) كان في الاسكندرية انذاك مدرسة طب شهيرة.

واشار الى منضدة صف عليها اقداح شرب واسعة. فشكره فيلوطاس وأظهر تقديره الا انه استأذن ليبيدي شكه في ان فتى صغيراً مثله، مخول بتقديم هدية كهذه. غالية الثمن ولكن لم يمرّ زمن حتى جاء اليه عبدٌ يحمل تلك الاقداح في كيسٍ وطلب منه ان يضع ختمه عليها. ولما ابعدا [فيلوطاس] عنه وادركه الخوف من قبولها، قال له الرسول:

- لا تكن غراً احمق! ما الذي يدعوك الى التردد؟ الا تدري ان مهديك هو ابن [انطوني]. وان له الحق في ان يهديك كان هذه الاقداح الذهبية ان شاء؟ ولكن لو كنت في موضعك لقبلت مقايضتها بالنقد، فبعض هذه الاقداح قديمة وصباغتها نادرة، عالية القيمة. ومن المحتمل جداً ان يفتقدها والد الصبي.

ويقول جدي ان [فيلوطاس] كان مغرماً برواية قصص من هذا النوع في كل مناسبة تعنّ له. يتحدث افلاطون عن اربعة انواع من الملق الا ان لدى [كليوباترا] الف نوع. ولا فرق لديها ان كان مزاج [انطوني] جاداً او مرحاً فبإمكانها ان تخترع دائماً وسيلة جديدة لتسحره وتسره لقد ملكت عليه مذاهبه واستأثرت باهتمامه ولم تدعه يغيب عن ناظرها لحظة في الليل والنهار. تلاعبه النرد، وتساقيه الخمر، وتخرج للصيد معه. وتراقبه وهو يجرب السلاح ويتمرن عليه. وفي الليل عندما يخطر بباله التجوال في المدينة ويقف عند ابواب ونوافذ المواطنين العاديين فيتندر عليهم ويساخرهم، ترتدي هي ثياب خادمة وتؤدي دورها في أية عملية حماقه ومجون تخطر ببال انطوني. اذ كان من عاداته ان يخرج متنكراً بثياب عبدي. وفي مثل هذه الاحوال كان يخرج باهانات وشتائم. وحياناً كان ينال نصيباً كبيراً من الضرب قبل ان يعود الى القصر، وان كان لمعظم الأهالي فكرة مؤكدة عن هويته. والواقع ان التهريج والمجون كان من نقاط ضعف الاسكندرانيين. تلذهم المساهمة في مثل هذه المسليات باساليبهم المهذبة ورفقتهم المرهفة. وقد احبوه شخصياً واعتادوا القول انه وضع قناعه التراجيدي للرومان. وحفظ قناعه الهزلي لهم.

سأبدد الوقت في وصف تفاصيل لهو [انطوني] الصبياني على اني سأروي واقعة واحدة تغني عن الجميع ويكون فيها فصل الخطاب. في ذات يوم خرج لصيد السمك فلم يفتح عليه بشيء. وما زاد في انزعاجه وجود [كليوباترا] فأمر بعض صيادي السمك بالغطس سراً وربط عدد من الاسماك التي صادوها في شصّه. ثم شرع يسحب صنارته مرتين وثلاثاً. وادركت [كليوباترا] حقيقة الأمر. وتظاهرت بالاعجاب وهللت لنجاحه، الا انها اخبرت اصدقاءها بالحادث ودعتهم للمجيء والمشاهدة في اليوم التالي فركبت جماعة كبيرة قوارب الصيد وانطلقوا للصيد وما ان القى [انطوني] بصنارته، حتى امرت [كليوباترا] احد عبيدها

بالغطس الى صنارته ليضع في الشصّ سمكة مقعدة من اسماك البحر الأسود. وسحب [انطوني] خيط ضائماً انه اصطاد شيئاً وما ان خرج بالسمكة المملحة حتى ضج الحاضرون بالضحك كما كان متوقِعاً واسرعت [كليوباترا] تقول:

- دع صنارة السمك لنا ايها الامبراطور، نحن ملوك فاروس وتينوب الفقراء. فطرائدك هي المدن والممالك والقارات.

فيما هو غارق في هذه الحماقات وضروب العبث الصبباني وردته من روما رسالة تبثته ان اخاه [لوچيوس] زوج [فولثيا] قد اختلفا فيما بينهما، ثم اتفقا على شن الحرب ضد [اوكتافوس]، واصيبا بهزيمة هربا على اثرها من ايطاليا. ووردته رسالة أخرى من سورية ابعث على القلق من الأولى. تنبته بان [لابينوس] قد استولى على آسيا من الفرات وسورية حتى اقليم ليديا وايونيا غرباً. وعندها<sup>(٣١)</sup>، وكالنائم الذي اوقظ بخشونة من رقاد بعد ليلة عريضة وخمر، انطلق لقتال البارثيين وتقدم حتى [فينيقيا] وهنا تسلم رسالة من فولثيا ملائ بالتفجع والبكاء على ما حلّ بها من محن. فقرر اجراء تغيير في خطته، وألوي متجها الى ايطاليا بأسطوله المؤلف من مائتي سفينة. وفي طريقه التقط عدداً من انصاره الذين تركوا ايطاليا هارين وعلم منهم ان [فولثيا] كانت المسببة الأولى للحرب مع [اوكتافوس] كانت امرأة عنيدة صلبة المكسر، بلذ لها معالجة السياسة، فضلاً عن اعتقادها بان أسرع وسيلة لحمل [انطوني] على ترك [كليوباترا] هو اثاره الخصومات والاضطرابات في ايطاليا. وتشاء الاقدار ان يعاجلها الأجل وهي في طريقها اليه فقد سقطت مريضة في [سيكيون] وهناك توفيت. وهذا ما قوى احتمال التفاهم مع [اوكتافوس]. اذ ما أن وطأ [انطوني] ايطاليا، حتى اصبح واضحاً لديه ان [اوكتافوس] لا يعتزم تحميله مسؤولية الحرب، وفي الوقت نفسه كان [انطوني] مستعداً لالقاء التبعية على [فولثيا] لكل الاتهامات التي قد تلصق به. ومهما يكن فعندما تمّ أول اللقاء بينهما<sup>(٣٢)</sup>، رفض اصداقاء الجانبين اضاءة الوقت في فحص اعتذارات [انطوني] ومبرراته. فقد انصب اهتمامهم في مصالحة الرجلين ثم بقسمة الامبراطورية. فجعلوا البحر الايوني حدوداً واناطوا حكم الاقاليم التي تقع الى شرقه بانطوني، والاقاليم التي تقع الى غربه [باوكتافوس]. وانبط حكم اقليم افريقيا بـ[ليبيدوس] واتفق أيضاً على ان يتولى منصب القنصلية انصارهما كلاً بدوره لأنهما لم يكونا راغبين فيها.

وعدت هذه الاجراءات مناسبة للطرفين، ولكن ارتوى ان تشد برباط أوثق، وهياً الحظ لهذا فرصة نادرة. كان [لاوكتافوس قيصر] أخت غير شقيقة أكبر منه، هي بنت [امخوريا Am-choria]، اما هو فابن [أتيا Atia] وهي زوج ابية الثانية. وكان [اوكتافوس] شديد التعلق باخته، وكانت كما اشيع عنها، اعجوبة بين النساء. زوجها [كايوس مارچلوس] توفي منذ زمن قصير. وحين [انطوني] كان يعتبر أرمل بعد وفاة زوجته [فولثيا]. ولم ينكر علاقته [بكليوباترا]، الا انه انكر وجود رباط زوجي فيما بينهما، وفي هذا الأمر كان موزع الفكر بين حبّه للملكة المصرية، وبين الواقع المقبول. وفي الوقت نفسه كان الرومان جميعاً متفقين على شدّ هذا الرباط، وكانوا شديدي الأمل في ان اخت [اوكتافوس] ان تزوجت [انطوني] وكسبت محبته - فامرأة مثلها لا يتعذر عليها ذلك. لذكائها وقوة شخصيتها فضلاً عن جمالها. سيكون في هذا الاتحاد الخلاص، وسيأتي بالهدوء والاستقرار للامبراطورية الرومانية<sup>(٣٣)</sup>. وعندما اتفق الرجلان على الشروط، ذهب الى روما واحتفلاً بزواج [اوكتافيا]. ولم يكن القانون يسمح للمرأة بالزواج الا بعد انقضاء عشرة اشهر على وفاة زوجها، الا ان مجلس الشيوخ اصدر في هذه القضية مرسوماً بالسماح قبل مضي المرة.

في ذلك الزمن كانت قوات [سكتوس پوپيوس] مسيطرةً على صقلية. وكان ايضاً يعيث سلباً في الساحل الايطالي وكان قادراً بمساعدة اسطول قرصان بأمر [ميناس Menas] و[مينيقراطس Menecrates] على تهديد سلامة السفن في سائر منطقة البحر المتوسط على انه كان قد مدّ يد العون لأمّ [انطوني] عند هروبها من روما مع [فولثيا] وكان يعتقد انه يخلص الودّ [لأنطوني]. ولذلك قرر ثلاثي الحكم مفاوضته. فأجتمعوا في ضواحي [ميسنيوم Misenum<sup>(٣٤)</sup>] عند اللسان الداخل في البحر، وكان اسطول [پومبي] راسياً على مقربة وجنود [انطوني] و[اوكتافوس] قد انتظموا صفوفاً على طوال الساحل واتفق على ان تطلق يد [سكستوس] في صقلية وسردينيا، ويتعهد مقابل ذلك بتطهير البحر من القرصنة، وارسال مقدار معين من الحبوب الى روما سنوياً.

وبعد هذا الاتفاق تبادلوا دعوات العشاء، واقترعوا فيما بينهم، فوقع الدعوة الأولى على [سكتوس پومبي] فسأل انطوني اين ستكون الدعوة فأجاب [پومبي] مشيراً الى سفينة

(٣٣) هناك دليل على ان هذا الزواج، والامل في ان يثمر ولداً، هو الذي اوحى لفرجيل بايكولوجه Ecloque الرابع المشهور. ببؤته حول مجيء طفل الهي يكون عهده مفتوح العصر الذهبي.

(٣٤) عقد هذا المؤتمر في ميسنيوم الواقعة في الراس الشمالي من خليج نابلي، وكان ذلك في ربيع ٣٩ ق.م. كان سكستوس الابن الاصغر لپومبي الاكبر وقد ساعدته سيطرته على البحر، في قطع امدادات القمح عن روما. وهذا ما سبب مجاعةً وعدداً في الفتن وحوادث الشغب في روما قمعت بصرامة شديدة.

(٣١) في مطلع العام ٤٠ ق.م.

(٣٢) تشرين الاول ٤٠ ق.م.

القيادة وهي بارجة ذات ست طبقات:

- هناك! فهي المنزل الوحيد الذي ورثه [پومپي] عن ابيه.

قالها معرضاً بأنطوني الذي كان واضع اليد على منزل ابيه آنذاك.

وثبتت البارجة في مرساها ومدّ جسر اليها من الساحل لعبور المدعوين. واستقبلهم پومپي بغاية الحفاوة والتكريم وعندما بدأت الخمر تفعل فعلها في النفوس وتحرر المزاح من قيود الكلفة، وبدأت تلقي تعليقات جريئة حول غرام انطوني بكليوباترا. همس [ميناس] رئيس القرصان في اذن [پومپي].

- أقطع الأمراس، واجعلك سيداً لامبراطورية روما لا لصقلية وسردينيا فحسب؟

فأطرق پومپي ملياً ثم أجاب:

- ميناس! كان عليك ان تنفذ هذا دون اعلامي. اما الآن فعلينا الرضى بما قسم لنا. اني لن احث بكلمتي.

وبعد ان حضر [پومپي] دعوتي [انطوني] واوكتافيوس [أقلع الى صقلية.

بعد اقرار هذا الاتفاق، ارسل انطوني قائده [فنتيديوس Ventidius] (٣٥) قبله الى آسيا لصدّ تقدم البارثيين وفي الوقت نفسه مثل وظيفة الكاهن الأعلى Pontifex Maximus التي كان يشغلها [يوليوس قيصر] ترضيةً [لاوكتافيوس]. وكانا خلال وجودهما في روما معاً، يتبادلان المشورة فيما بينهما ويعملان بانسجام في تصريف شؤون الدولة ومعالجة الامور السياسية. وكان الغيظ يستولي على [انطوني] كلما وجد [اوكتافيوس] يغلبه في العاب الحظ وضروب التسلية الاخرى التي يتعاطيها معاً وكان يوجد لديه ساحر مصري حذق في النظر في الطوالع. لم يخف هذا الساحر عن [انطوني] (اما مدفوعاً بقول الحقيقة واما مدفوعاً بتوصية من كليوباترا) بانه صاحب حظّ عظيم لامع، الا ان القدر حكم بأن يكسف هذا بحظ [اوكتافيوس] فهو والحالة هذه ينصح بالابتعاد عن زميله الشاب ما استطاع سبيلاً. وانذر [انطوني] بقوله:

- ان روحك الحارسة، تفترق من روحه الحارسة. وان كانت روحك جسورة صلبة العدد بنفسها الا انها رعديدة جبانة عندما يقترب قيصر منها.

وقد ايدت الاحداث التالية نكهات هذا المصري. فقد روي لنا ان [اوكتافيوس] كان الغالب

(٣٥) كان فنتيديوس باسوس ممن يطلق عليهم الرومان (نوقوس هومو) أي اول عضو في الأسرة يبرز فيها بعمل ويحقق لها الشهرة وقد ظهرت مواهبه القيادية بالاصل اثناء خدمته تحت امرة يوليوس قيصر.

كلما القى الاثنان بالنرد، سواء لتسلية او لتقرير شيءٍ من الاشياء. او كلما تراهنا على قتال الديكة والسماني خرج [انطوني] مغلوباً.

وعمل [انطوني] على اخفاء ضيقه من هذه الامور الا انه أولى اقوال المصري كثيراً من الاهتمام. فأوكل امور بيته الى [اوكتافيوس] وغادر ايطاليا الى اليونان ترافقه [اوكتافيا] التي وضعت له طفلةً. وقضى شتاءه في اثينا. وهناك وصلتته انباء انتصارات [فنتيديوس] (٣٦) على البارثيين. وكيف انه حقق النصر الساحق في معركة حاسمة قتل فيها [لابينوس]، و[فارناباط Pharnabates] اقدر قواد [هيروديس Hyrodes] فاحتفل بهذا النجاح باحياء الحفلات الكبرى للاغريق. وبالالعاب الرياضية في اثينا التي ترأسها بنفسه فترك في منزله شعارات المنصب التي ترفع امام الجنرال الروماني وظهر للناس مرتدياً ثوباً اعتيادياً ونعلاً ابيض وحاملاً عصي [الجناسارخ Gymnasiarck: اي رئيس الالعاب]. وتولى وظيفة الحكم في بعض المسابقات. يقبض على المصارعين الشبان من اعناقهم ويفرق فيما بينهم!

وعندما حان موعد ذهابه لحرب البارثيين، قطع اكليلاً من شجرة الزيتون المقدسة في الاكروبوليس. واطاعة لنبوءة معينة. ملأ اناءً بماءٍ من نبع [كلپسيديرا Clepsydra] المقدس واخذه معه. وفي الوقت نفسه عاد [پاغوروس Pacorus] ابن الملك هيرودوس فاغار على سورية بجيش پارثي ضخم، فأشتبك معه [فنتيديوس] وهزمه في جندارُس Gindarus باقليم [جيرستيكا Cyrrhestica] (٣٧) وافنى القسم الأعظم من قواته. وكان [پاغوروس] من اوائل القتلى، كان هذا النصر احد المع الانتصارات العسكرية التي حققها الرومان في تاريخهم. فقد اخذوا بثأرهم كاملاً من النكبة التي اصابتهم على يد كراسوس واضطر البارثيون بعد ان خسروا ثلاث معارك متوالية الى الانسحاب خلف حدود ميديا وما بين النهرين. وقرر [فينتديوس] الا يتعقب المنهزم أكثر من هذا. ربما خوفاً من اثاره حسد [انطوني] لنجاحه. وبدلاً من ذلك هاجم القبائل التي تمردت على الحكم الروماني واخضعها، والقى الحصار على انطيوخوس الكوماجيني Commagene في مدينة ساموساتا Samosata. وعندما عرض

(٣٦) هزم فنتيديوس البارثيين سنة ٣٩ ق.م في المداخل الكليكية وجبل امانوس. وفي هذه الحروب تخلى البارثيون عن الهجمات البعيدة المسافة التي يقوم بها رماة السهام الخيالة وهي التي جعلتهم يربحون معركة الرها Carrhae ضد كراسوس - واعتمدوا على خيالتهم المصفحة دون ان يحققوا نجاحاً. عندها غزا انطوني البارثيين كان هؤلاء قد ادركوا خطئهم وعادوا الى الاسلوبهم الأول.

(٣٧) كان ذلك في ٣٨ ق.م. وبحسب رواية [ديوكاسيوس Diocassius]، قتل باكوروس في التاسع من حزيران، وهو نفس اليوم الذي فقد فيه كراسوس حياته قبل خمس عشرة سنة.

انطيوخوس دفع الف تالنت لقاء العفو عنه وتعهده بالخضوع لأنطوني، اشار عليه فنتيديوس بان يقدم عرضه الى [انطوني] مباشرةً. وكان هذا الأخير قد اقترب من الجوار ورفض السماح [لفنتيديوس] باجراء اي اتفاق مع انطيوخوس مباشرةً<sup>(٣٨)</sup>، كان متلهفاً الى مآثرة واحدة على الأقل تعزى اليه ولم يكن يرغب ان يعزى كل نجاح الى [فنتيديوس]. وطال الحصار امداً واستمات المحصورون في الدفاع بعد ان رفضت عروض الصلح التي قدموها، فأسقط في يد [انطوني]. وبات يشعر بالخزي والندم لرفضه العرض الاول وقنع أخيراً بعقد صلح مع [انطيوخوس] وقبول ثلاثمائة تالنت فقط وذهب الى سورية لتسوية بعض الامور الصغيرة ثم عاد الى اثينا. وفي عين الوقت اوفى [فنتيديوس] ما يستحقه من التكريم ومنازل الشرف وارسله الى الوطن لينال موكب نصره.

وكان [فنتيديوس] اول من نال موكب نصر على البارثيين. نشأ لاسرة مغمورة الا ان صداقته [لانطوني] فتحت امامه الفرص لتحقيق عظام الأمور. وايد الرأي القائل بان انتصارات [انطوني] واوكتافيوس قيصر اما الحقيقة الى قوادهما ومرؤوسيهما أكثر مما تعزى اليهما شخصياً. لاشك في ان [سوسيوس Sossius] وهو قائد آخر من قواد [انطوني]، نال انتصارات هامة<sup>(٣٩)</sup> في سورية، في حين لم يكنف [كانيديوس Canidius] بفتح بلاد الأرمن<sup>(٤٠)</sup> عندما تركه انطوني هناك، بل اخضع ايضاً ملوك اليبيري والألباني<sup>(٤١)</sup> وتقدم حتى بلغ القفقاس. وبهذا عظمت شهرة انطوني العسكرية عند شعوب البرابرة.

وفي ذلك الحين عاودت الجفوة [انطوني] بسبب ما كان [اوكتافيوس] يذيعه عنه من التهم والوصمات، وابحر الى ايطاليا بثلاثمائة سفينة، فأغلق أهالي [برنديزيوم] ميناءهم في وجهه فدار باسطوله حول الساحل حتى بلغ [تارنتوم] وهنا نجحت [اوكتافيا] التي رافقته من بلاد اليونان، باقناعه بالسماح لها بزيارة أخيها. كانت قد ولدت لانطوني ابنتين وهي انذاك حُبلَى. والتقت [باوكتافيوس] وهي في طريقها اليه وانتحت جانباً بصديقيه [اگريبا Agrippa] و[ميچنياس Maecenas] ونالت عطفهما، راحت تتوسل بأخيها باكية، مستخدمة كل عواطفها قائلة ان لايجعلها اشقى النساء بعد ان كانت اسعدهن. قالت له ان كل الاعين في

(٣٨) توحى لدلائل اخرى بان [فنتيديوس] قبل رشوة من انطيوخوس، لكي لايشدد حصاره ويلقي بكامل ثقله. واضطر [انطوني] الى انهاء القضية بنفسه. سمح لفنتيديوس بالعودة الى روما للاحتفال بنصره، إلا انه اختفى من الحياة العامة بعدها مباشرةً ولم يسمع عنه شيء.

(٣٩) استولى على جزيرة وبلدة ارادوس Aradus في فينيقيا ٢٨ ق.م واستولى ايضاً على اورشليم.

(٤٠) في ٢٧ ق.م السنة التي سبقت غزو انطوني لبلاد البارثيين وكان كانيديوس يقود حملة متقدمة على ارمينيا.

(٤١) قبيلتان تسكنان جنوب القفقاس.

الامبراطورية تشخص اليها الآن لأنها زوج لواحد من سيديها واخت للسيد الآخر...

- فان وقعت الطامة الكبرى ونشبت الحرب فيما بينكما. لايستطيع احد ان يتكهن من سيكون الغالب منكما. ولكن الأمر الذي لاشك فيه هو ان حظي سيكون اشقى الخطوط.

تأثر [اوكتافيوس] بكلماتهما ايما تأثير وجاء الى تارنتون بنية احلال الاسلام. وهناك شهد الأهالي منظرًا في غاية النبل<sup>(٤٢)</sup> راوا جيشاً جراراً تنظم صفوفه على طول الساحل. واسطولاً جباراً في الميناء لاياتي حراكاً في حين يتبادل الاصدقاء من الجانبين التحيات وتعم الجيش مظاهر البهجة والفرح. وسبق [انطوني] فدعا [قيصر] فقبل، وكان منه تنازلاً اكراماً لاخته. ثم تم الصلح بينهما، وبموجبه اعطى [اوكتافيوس] فرقتين من المشاة لاسناد [انطوني] في حربه البارثية. وترك [انطوني] له مقابل هذا، مائة سفينة حربية. وافلحت [اوكتافيا] بالحصول لأخيها على عشرين سفينة خفيفة أخرى من زوجها مقابل اعطائه الفاً من المشاة. وافترقا وهما على خير ما يكون الاصدقاء، وياشر [اوكتافيوس] بقتال [پومپي]<sup>(٤٣)</sup> والاستيلاء على صقلية، وترك [انطوني] وزوجه وبناته مع اولاده من وزجه الأولى وابحر عائداً الى آسيا.

ولكن التأثير القتال، واعني به حبه [لكليوباترا] الذي ظل مدة طويلة هاجعاً في قلبه، وبدا وكأنه طرد سحره، او على الأقل طواه النسيان بتغلب الحكمة والعقل، تجمعت قواه فجأةً وشبت ناره مرة أخرى، حينما كان يدنو من السواحل السورية. وأخيراً كان اشبه بالحصان الجامع المشاكس الذي يصفه افلاطون حين يقارن النفس البشرية بحصاني العجلة<sup>(٤٤)</sup>. كذلك انطوني فقد رمح عن عقله كل الاعتبارات السامية الشريفة لضبط النفس التي قد تكون منقذته، وارسل [فونتيوس كاپيتو Fonteius Capito] لمرافقة [كليوباترا] الى سورية. وكانت الهدايا التي امطرها بها حين وصولها، لا بالتافهة ولا بالصغيرة، فقد اقطعها

(٤٢) جرى هذا الاجتماع في ربيع العام ٣٧ ق.م. فمن وجهة نظر انطوني كان هناك مسائل على جانب كبير من الاهمية تستدعي البت فيها فأولاً مع انه كان لكل منهما حق متساو لتجنيد الجنود في ايطاليا فقد وجد انطوني ان حقه لا يحترم وكان يمنع من استعماله بمختلف الحجج. وثانياً كانت مدة حكم الثلاثي توشك على الانتهاء ومن الضروري تجديد سلطاته فبالاتفاق الذي تم هنا، تخلى انطوني عن [سكستوس پومپيوس] وجهز اوكتافيوس بسفن لاستعمالها في الحرب ضده وبمقابل ذلك، لما كان حقه في التجنيد، لا قيمة له، فقد طلب جنوداً عوض ذلك. كما ان حكم الثلاثة مدد خمس سنوات أخرى.

(٤٣) في الواقع انه امضى بقية العام ٣٧ يستعد لهذه العملية. ودحر پومپيوس بالآخر وطرده من صقلية في خريف ٣٦ ق.م. وهرب الى آسيا وقبض عليه احد ضباط [انطوني] وقتله.

(٤٤) يقارن افلاطون في محاورة [فيدر Phædrus] النفس البشرية بعجلة مجنحة وسائقها العقل. وحصان ابيض يمثل الشرف والكرامة وآخر اسود يمثل الكبرياء والوقاحة.

فيديفيا، وسورية الكولية<sup>(٤٥)</sup> وقبرص، وجزء كبيراً من كيليكيا، واقطعها ذلك الجزء من اليهودية الذي بنيت البلسان، والجزء الساحلي من بلاد العرب النبطية الذي يمتد جنوباً على البحر الأحمر هدايا كثيرة اثار استياء والسخط لدى الرومان. لقد منح انطوني في الماضي اشخاصاً عاديين حاكميات، ونصبهم ملوكها على شعوب عظيمة ووجد كثيراً من الحكام اقليمهم وممالكهم كانتيفونس<sup>(٤٦)</sup> ملك اليهودية الذي أمر بقطع رأسه وكان اول ملك تنفذ به هذه العقوبة. إلا ان الالم الذي شعر به الرومان لهذا التكريم لم يكن يعدله ألم. وزادهم نقمة عليه اعترافه بابوة التوأمين اللذين ولدا له منها وتسميتهما [الاسكندر] و[كليوباترا] ثم لقبهما بالشمس والقمر. مهما يكن بان [انطوني] بارع جداً في اكساء شرّ الاعمال أجمل مظهر واعتاد القول ان عظمة الامبراطورية الرومانية انما تتجلى في مقدرتها على اعطائها بالأحرى لا بأخذها وان نسلأ شريفاً يجب ان يمتدّ فرعته الى عدة ملوك. وعلى اية حال فان مبدأه كما يقول - هو ان جده الأعلى كان من نسل [هرقل] الذي لم يقصر ذريته على رحم واحد. ولم يقدّم امامه عقبة قانونية كقانون صولون بخصوص تحديد النسل. ولم يخشَ مخصباً ببئسل، بل ترك الطبيعة تعمل عملها فترك خلفه أساساً لكثير من الأسر.

بعد هذا بزمن غير طويل وثب [فراهاد] على ابيه [هيرود] فقتله، واستولى على مملكته البارثية، وهرب خلق كثير من بلاده، وفيهم المدعو [مونيسس Momaeses] وهو رجل رفيع القدر واسع النفوذ لجأ الى [انطوني]. وقد خيل له ان حالة هذا الرجل تشبسه حالة [تيمستوكليس] ولما وجد ايضاً تناسقاً جذاباً بين ضخامة ثروته وكرمه وبين ضخامة ثروة ملوك الفرس وكرمهم فقد بادر الى اقطاعه المدن الثلاث: لاريسا Larissa واريوسا Arethu-sa وهيرابوليس Hierapolis التي كانت تسمى سابقاً بامبيجة<sup>(٤٧)</sup> ومهما يكن فعندما استدعى الملك البارثي [مونيسس] للعودة برسلاً اليه «يداً يميني»<sup>(٤٨)</sup> كما يعبرون عنه. اهتبل [انطوني] الفرصة واعاده وكان في الحقيقة يريد ان يخدع [فراهاد]<sup>(٤٩)</sup> بالتظاهر

بانه لاينوى قتاله وكان طلبه الوحيد فيه هو اعادة الاعلام الرومانية التي غنموها عند مقتل كراسوس، وارجاع الأسرى الباقين في قيد الحياة.

واعاد [انطوني] [كليوباترا] الى مصر وسار حالاً بجيشه عبر بلاد العرب وارمينيا الى موضع رتب فيه ان تلتقى قواته بقوات مختلف الملوك الأحلاف. وكان ثم عدد كبير منهم إلا ان اقواهم واعظمهم سلطانا كان [أرتافازد Artavasd] ملك أرمينيا الذي امده بستة آلاف من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة. وهنا قام [انطوني] باستعراض قواته. وكان الرومان انفسهم يعدون ستين ألفاً مع الخيالة التي كانت تعتبر رومانية في ذلك الوقت، وكان منها عشرة آلاف من الاسبان والكلتيين. وساهمت الشعوب الأخرى بما يناهز مجموعه ثلاثون ألفاً بضمنها الخيالة والاصناف الخفيفة. مع هذا قيل لنا ان تحشيد القوة الهائل الذي ارعب حتى الهنود ما وراء يكتيريا وجعل آسيا كلها ترتعد فرقاً كان لا نفع فيه لانطوني لتعلقه [بكليوباترا] فلأجل ان يمضي معها فصل الشتاء عجل بالحرب قبل مواعدها الصالح. وما اختطه ورسمه فيها كان يتسم بالطيش وقصر النظر، ويجانب السداد والاصالة، كأنه لم يعد مالكا زمام عقله، وانما تحت تأثير عقارٍ او سحرٍ. فقد كان يبدو وكأنه عينيه تشخصان دوماً الى صورتها وافكاره مركزة في التعجيل بالعودة، لا الاسراع في قهر العدو.

في الدرجة الأولى كان أفضل ما يجب عمله قضاء الشتاء في ارمينيا لراحة جنوده الذين انهكهم سير طوله ألف ميل، وبعد ذلك يحتل [ميديا] في اسابيع الربيع الأولى. قبل أن يخرج البارثيون من مقراتهم الشتوية. إلا انه لم يجد لديه الصبر على الانتظار وزحف حالاً على اقليم [اتروپاتينه Atropatene] فاجتاحه ثانياً: كان شديد العجلة حتى انه ابى انتظار وصول الآليات الضرورية لعمليات الحصار، وكانت محملة على ثلاثمائة عربة. وفيها كبش لشغل الاسوار طوله ثمانون قدماً. ان عطبت اية آلة من هذه الآلات فلا يمكن مطلقاً التعويض عنها في الوقت المناسب، لأن اصقاع آسيا الشمالية خالية من اخشاب يمثل هذه الأطوال وشدة المقاومة وعلى اية حال اصدر [انطوني] اوامره بان تتبعه في المؤخرة، لأنها تبطيء من سرعة تقدمه. ولذلك افرز قطعة كبيرة من جيشه بقيادة [ستاسيانوس Stianus] لتقوم على حمايتها. والقي الحصار على [فراهاده Phraata] وهي مدينة كبيرة تسكن فيها زوجات ملك الميدين واولاده. إلا ان الصعوبات التي أكتنفت حصاره كشفت له عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه في تركه الآت حصاره. ولم ير بدا من التقدم بجيشه الى مسافة قريبة من الاسوار وبناء تلّ ترابي مقابلها، وكانت خسارته عظيمة جداً في الوقت والعمل. في الوقت نفسه انحدر [فراهاد] من البارثيا بجيشٍ لجبٍ وما ان تبين له ان مقطورات آلات الحصار قد تخلفت

(٤٥) الاقليم المركزي لسورية الذي يمتد شرقاً من جبال لبنان ويشمل دمشق وحلب Palmyra.

(٤٦) في الواقع كان انتيفونس كاهن اليهود الاكبر، وهو غاصب وليس ملكاً، وصل الى السلطة بمساعدة البارثيين عند غزوه سورية. نفذ فيه حكم الموت في العام ٣٧ ق.م. ونصب انطوني هيرودس حاكماً على اليهودية وهو من انصاره المخلصين. ويزعم ديوكاسيوس أن قتل انتيفونس كان بناءً على رغبة هيرودس. (٤٧) تلك عادة شرقية. ان يقطع لرجل بارز مدينة او اقليم برمته يحكمهما ويكون فيها رزقه. ومقابل ذلك يكون مديناً بالولاء للعرف الاقطاعي.

(٤٨) تعبير مشائع عند الفرس والبارثيين ليدل على عرض السلام والصدقة.

(٤٩) انطالت الخدعة على انطوني. اذ يبدو ان مونيسس لم يكن بحاجة الى الالتجاء بانطوني. وان غرضه هو التجسس على انطوني ومعرفة خطته وابلغها للملكه.

عن سائر جيش العدو حتى ارسل قوةً كبيرة من الخيالة لمهاجمتها فأخذت [ستاسيانوس] على حين غرة ولم يجد نفسه الا وهو مطوق<sup>(٥٠)</sup> وقتل هو والالاف العشرة التي وضعت تحت امرته، ووقع أسرى كثيرون منهم [پوليمون Polemon] احد ملوك اليونان كما استولوا على آلات الحصار وحطموها.

وبطبيعة الحال انخفضت معنويات جيش [انطوني] الى درجة كبيرة بهذه النكبة غير المتوقعة في بدء الحملة. ومما زاد الأمر سوءاً اعتقاد [ارطاسديس] ملك الأرمن بأن الرومان لم يعد لهم أملٌ بالنجاح فانسحب بقواته ورحل<sup>(٥١)</sup> مع انه كان المحرض الاول على بدء الحملة في ذلك الوقت من السنة. وتقدم البارثيون الآن من الجيش الروماني الذي يحاصر المدينة واستخدموا افضل جنودهم للقيام باستعراض قوةٍ بكامل اسلحتهم وارسال التحديات والتهديدات للرومان. فلم يكن من انطوني الذي ادركه القلق على معنويات جنوده، لئلا يفقدوا روحهم الهجومية، ويدركهم اليأس ان ظلوا عاطلين - الا ان خرج بعشر فرقٍ وثلاث كتائب من الحرس الپيريتوري وكلّ خيالاته، وأخذ يكتسح البلاد المجاوره ويعمل فيها سلباً ونهباً لاجتذاب العدو واغرائه بدخول معركة فاصلة. بعد ان تقدم مسيرة يومٍ واحدٍ لاحظ ان البارثيين بدأوا يحيطون به وهم في انتظار فرصتهم للوثوب عليه اثناء زحفه. فرفع اشارة المعركة داخل معسكره. الا انه امر بتقويض الخيم كأنه ينوي الانسحاب لا القتال. ثم مرّ من امام خطوط البرابرة الذين كانوا قد انتظموا على شكل هلالٍ. الا انه اصدر اوامره بأن تقوم الخيالة بهجومها على العدو حال وصول الفرق الرومانية مسافة كافية لمهاجمة خطوطهم الأمامية. ولم يأت البارثيون بحركةٍ حين أخذ الرومان بالحركة صفاً بعد صفٍ محافظين على مسافات بدقةٍ ونظام تامٍ وسكون ورماحهم مشرعة، وقد أخذ منهم العجب مأخذه. الا أنهم صمدوا بشجاعةٍ لخيالة الرومان عندما اعطيت اشارة الهجوم، وصدوا اندفاعهم وان كان الانقضاض عليهم سريعاً بحيث لم يمكنهم من استخدام قسيهم. الا ان فرق المشاة دخلت المعركة بصيحة هائلة وبصليل اسلحتها المزعج مما أجفل خيولهم وجعلها تردت الى الخلف، وانهمز البارثيون قبل المشاة، وقبل ان ينال هؤلاء منهم مأرباً. فجدّ [انطوني] في مطاردتهم اذ كانت آماله كبيرة بانهاء الحرب او على اقل تقدير بريح المعركة فاصلة في هذه الواقعة.

(٥٠) هزم بعين الخطة التي طبقت على كراسوس، وهي جماعات من رماة السهام الخيالة تمدّ بدون انقطاع بحاجتها من السهام بواسطة حيوانات حمل، وتبقى على مرمى السهام من الفرق وتصبّ عليهم زخات مدمرة من السهام.

(٥١) في الحقيقة ان [ارطاسديس] ترك قوة [ستاسيانوس] فخيالاته كانت تؤلف جزءاً كبيراً من الحرس، فرحيله بها، اضعف القوة وكان السبب في القضاء على معدات الحصار.

وواصلت مشاته تعقيب العدو الى مسافة ستة أميال او اكثر، وقطعت خيالاته في المطاردة مسافة عشرين ميلاً. وكانت حصيلة هذا الجهد كله ثلاثون أسيراً پارثياً وثمانين قتيلاً لا غير فشاعت الخيبة في الجيش وامتلاً الجنود قهراً. وكانت صدمة عظيمة لهم ان توقعوا هذه الخسارة التافهة في العدو لينالوا النصر عليه، بمقارنتها بالهزيمة الساحقة التي لحقتهم باستيلاء العدو على معدات الحصار وفي اليوم التالي قوضوا معسكرهم وعادوا الى قاعدتهم في [فراهاطه] وصادفوا وهم في طريقهم شراذم وزمراً من العدو أخذت تتكاثر وتتجمع كلما امعنوا في سيرهم، ثم ظهرت وحدات كاملة، انتظمت بالأخير جيشاً مستعداً للقتال أخذ يتحداهم ويطبق عليهم من كلّ الجهات، كأنه لم يعان هزيمة. وضيق الرومان كثيراً وقاتلوا قتالاً مرّاً وهم يشقون طريقهم الى المخيم، وبعد هذا بفترة وجيزة خرج الميديون من المدينة وهاجموا التل الروماني وهزموا المدافعين عنه. وهذا ما اغضب [انطوني] فعمد الى تطبيق العقوبة يتقسيم الجنود الى مجموعات عشرية، ويختار بالقرعة واحد من كل عشرة فيقتل، وأمر البقية بان تصرف لهم جراياتهم مع الشعيير بدلاً من القمح.

كانت الحرب منهكة للطرفين. وبدأ المستقبل باعثاً على القلق. وراح [انطوني] الآن يحسب حساب الجوع، اذ لم يعد الآن قادراً على كفاية حاجة الجنود من الطعام بعمليات نهب واجتياح الا بتضحية عدد كبير من القتلى والجرحى. وفي الوقت نفسه كان [افراهاط] يدري ان جنوده لا قبل لهم بتحمل قسوة الشتاء ومتاعب الحرب فيه بالنوم في العراء اشهرًا. وخشي ان يتخلى عنه رجاله ان صمد الرومان وضلوا في معسكرهم. فقد مضى الاعتدال الخريفي وهجمت الريح الباردة. ولذلك لجأ الى الحيلة التالية: اصدر امراً لرجاله الذي هم اعرف من غيرهم بالجنود الرومان ان لا يضايقوهم اثناء قيامهم بجمع الارزاق ولا يشتدوا في مهاجمتهم وان يفسحوا لهم المجال في ذلك. وان يتقربوا منهم بنية سلمية ويمتدحوا شجاعتهم ويعلموهم بان البارثيين يعدونهم جنوداً من الطبقة الأولى وان ملكهم لايسعه غير الاعجاب بهم. وبعدها يتقربون منهم مسافةً أخرى ويرخون أعنة خيلهم لتسيير الهوننا معهم ويبدأون بلوم [انطوني] لأنه يأبى التوصل الى اتفاق مع ملكهم وانه لا يمنحه اية فرصة للسلام بينما هو متلطف للوصول الى اتفاق، لانقاذ حياة هذا العدد الكبيرة من اشجع الرجال. بدلاً من هذا يصرّ [انطوني] على البقاء منتظراً قدوم اشرس عدوين: الجوع والبرد، مما لا قبل لهم بمقاومتهم، حتى وان رافقهما البارثيون في طريقهم. ابلغ [انطوني] بهذه المحادثات من مختلف المصادر، ومع أن آماله كانت تدعوه الى فتح مفاوضات، الا انه لم يرسل الى الملك البارثي رسلاً حتى تأكد من قائلٍ هذا الكلام بأن اقوالهم تلك انما تعبر عن رأي ملكهم. وعليه ان لا يشك في



تلك العروض. فأرسل عدداً من رفاقه، مجدداً طلبه في إعادة الاعلام والأسرى الرومانيين لانه لم يكن يرغب ان يفترض الملك بأنه سيكون حامداً ربه لو اتيح له الانسحاب بسلام لا غير. وكان جواب الملك: بأن موضوع اعلام كراسوس والأسرى الرومان ليس مهماً، ولكن لو انه سحب جيشه الآن فسيضمن له سبيلاً آمناً ولايتعرض له. وفي غضون ايام قتال حمل [انطوني] ائقاله وشد رحاله وبدأ مسيرة العودة. وكان خطيباً مفوهاً يسهل عليه دائماً السيطرة على مستمعيه، وكان يعلم أكثر من اي رجل من معاصريه كيف يأتي بالكلمة المناسبة الكفيلة بتحريك مشاعر الجنود. إلا ان الهَم والشعور بالعار الذي كان يمتلكه ويمنعه عن القاء الخطبة التقليدية، تشجيعاً للجيش، حملاه على انابة [دوميتيوس أنيو باربوس Do-imitius Ahino Borbus] (٥٢) فيها. فاستاء بعض الجنود لهذا، وشعروا بأنه يحط من قدرهم، إلا ان معظمهم ادركوا الحقيقة وتألما جداً وشعروا بأن الواجب يقضي عليهم ان يظهروا المزيد من الاحترام والطاعة لقائدهم لهذا السبب قرر [انطوني] ان يسلك السبيل الذي جاء فيه. وهو يمر في ارض منبسطة خالية من الشجر. فجاءه رجل من قبيلة [مارديا Mardian] الساكنة على الساحل الجنوبي من بحر قزوين. وكان خبيراً بالعادات البارثية. وقد قدم البرهان على اخلاصه للرومان اثناء معركة العجلات والآت الحصار، وعرض على [انطوني] اقتراحه، وهو ان يسير بمحاذاة خطّ الجبال وأن يبقياها عن يمينه، وعليه بصورة خاصة ان لا يعرض وحدات مشاته ذات السلاح الثقيل والتجهيزات الى هجمات الرماة الخيالة بالسير في أرضٍ براح لا تؤمن حماية او غطاء. وقال ان هذا هو ما يتوقعه [افراهاط] بالضبط، عندما بذل وعوده الطيبة لاقناعه برفع الحصار. فاذا وافق [انطوني] على اقتراحه فيسرّه ان يكون دليلاً للجيش. يقوده في سبيل اقصر، تتوفر فيه الاقوات التي يحتاجها. ففكر [انطوني] ملياً بما قاله الرجل القبلي. لم يكن يريد ان يظن البارثيون بأنه لا يثق بهم بعد التهادن. إلا انه كان يفضل شخصياً اقصر السبل، وما يمرّ منها ببقاع مأهولة فطلب من [الماردي] الميثاق على اخلاصه. فعرض ان يوثق كتافه بالسلاسل حتى يقود الجيش عبر ارمينيا، فتم ذلك وانطلق يعود الجيش يومين كاملين دون ان يواجه مقاومة، وفي الوقت الذي صرف انطوني عن رأسه اية فكرة عن رؤية العدو ولهذا سمح للرتل بالسير على رسله دون التقيد بنظام السير. إلا ان الماردي لاحظ كسراً في ضفة النهر، وان الماء قد فاض منها وغمر الطريق الذي اتخذوه خطأً لسييرهم فأدرك انه من عمل البارثيين، يقصدون به عرقلة سيرهم فأذّر [انطوني] بزيادة الحذر

(٥٢) هذا الضابط الذي لعب دوراً هاماً في مأساة شاكسبير. قاتل الى جانب بروتوس في فيليبى. ثم بعد ان قاد جزءاً من الاسطول الجمهوري الى الادرياتيک. وانضم الى انطوني في ٤٠ ق.م. كان خصماً عنيداً لكليوباترا ولنفوذاها. وعاد مع انطوني وظلّ يلزم جانبه حتى موقعة اكسيوم حين تخلى عنه قبيل المعركة.

والليقظة لأن العدو لاشك قريب. وهكذا كان، فما أن وضع المشاة في حالة التعرض واخذ ينظم الرماة وقاذفي الرماح للعبور من الصفوف والتقدم الى جهة العدو حتى تدفقت جموع البارثيين من كل صوب عليهم فنال الرومان من سهامهم عنتاً إلا ان رماة الرماح اوقعوا فيهم ما يعادل ذلك من الخسائر واضطروهم الى الانكفاء على الاعقاب. إلا أنهم كرّوا ثانية ليقوموا بهجوم آخر، استمر حتى تجمعت خيالة [الكلت] كتلة واحدة وانقضوا عليهم فشتتوا شملهم فتلاشوا ولم ير لهم اثر طوال ذلك اليوم.

هذا الاشتباك لقن [انطوني] عدداً من الدروس في التعبئة، فلم يكتف بعد الآن بتغطية مؤخرته، بل بحماية جناحيه بوحدة قوية من رماة الرمح. ونظم شكل مسيرته بمربعات جوفاء واصدر الأوامر ايضاً للخيالة بأن عليها ان تهزم العدو عند الهجوم ولكن دون ان تقوم بمطاردته الى مسافات بعيدة وكان من نتيجة هذه التدابير أن البارثيين منوا في الايام الاربعة التالية بخسائر أكثر بكثير من الخسائر التي اوقعوها بعدوهم. وخفت حرارتهم في الهجوم الى درجة ملحوظة. وبدأوا يفكرون في العودة الى ديارهم، محتجين بتقدم فصل الشتاء.

في اليوم الخامس جاء الى [انطوني] أحد ضباطه الأقدمين - [فلافيوس غالوس Flavius Gallus] وهو رجل ذو شجاعة خارقة وقائد موهوب، واستأذن بأن تعود وحدة من الجنود الخفيفة في المؤخرة وبعض الخيالة من الطلائع، لأنه واثق بمقدرته في انجاز نجاح هام. فاذن له [انطوني]. وعندما هجم البارثيون ردّهم [غالوس] على الأعقاب. إلا أنه لم ينسحب تدريجياً ليحتذبهم الى الفرق كما جرى العمل حسب الخطه المرسومة، بل ثبت في مواضعه واشتبك مع العدو في معركة سافرة. وادرك الضباط الذين يقودون المؤخرة انه وقع في خطر الانفصال عنهم، وأرسلوا عدائين اليه يأمرونه بالانسحاب إلا انه رفض الانصياع اليهم، وقيل ان [تيتيوس] الكويستور تشبث بالوتيه وادارها الى الخلف كأنما يأمر الجنود بالانكفاء والعودة الى القسم الأكبر وراح يعنف [غالوس] لاسترخا صه ارواح هذا العدد الكبير من الشجعان. فردّ عليه [غالوس] بنفس العنف والشدة وامر رجاله بالثبات فعاد [تيتيوس] وحده. ولكن فيما كان [غالوس] يتقدم الى الأمام، غفل عن ملاحظة قيام العدو بحركة تطويق من المؤخرة باعداد كبيرة ولما رأى السهام تمطر عليه من كل جانب، ارسل يطلب نجدة وهنا ارتكب قادة المؤخرة ما يمكن اعتباره خطأً كبيراً. وكان بينهم [كانيديوس] وهو اقرب القواد الى [انطوني]، فبدلاً من مواجهة العدو بكلّ زخم وحداتهم انشأوا يرسلون تبعاً سرايا صغيرة، ما أن تندحر واحدة حتى يشفعوها بالأخرى، ولم يشعروا إلا والجيش كله يكاد يميني بهزيمة شنعاء من جراء اندحار هذه الوحدات، ولحسن الحظّ اسرع [انطوني] الى المؤخرة بمشاته

الثقيلة لوقف التفهقر وشقت فرقته الثالثة طريقها لمواجهة العدو ووقف اي مطاردة منه.

فقد الرومان ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من القتلى وخمسة آلاف من الجرحى ومن بينهم [غالوس] الذي اخترقت صدره اربعة سهام، مالبث ان توفي متأثراً بها. وأخذ [انطوني] ينتقل من خيمة الى خيمة لمؤاساة الجرحى والتخفيف عنهم إماً وقهراً. وكانوا يشدون على يده المدودة باوجه تطفح بالبشر، ويرجون منه ان يذهب ويهتم بمشاغله وهتفوا له باسم الامبراطور والجنرال. وقالوا له انهم بخير وسلامة مادام هو بخير وسلامة وعلى العموم يصح القول انه لن يذكر التاريخ قائداً بهذا العمر على رأس جيش يجمع كل هذه الميزات القتالية الممتازة، يتألف من جنود في مقتبل العمر والفتوة، قادرين على إبتان العجب سواء في مجال الشجاعة او التحمل والصبر. الا أن أعجب ما في الأمر هو طاعتهم لقائدهم واحترامهم له. وحسن النية التي يكنونها له، مع شعورهم بأنه يفضلون حسن ظن انطوني فيهم على حيواتهم وعلى سلامتهم - هذا الشعور الذي يشارك فيه الجميع: شهيرهم ومغمورهم، ضابطهم وجنديهم على حد سواء. ، بمختصر القول انه جيش لايقومة جنود روما القديمة انفسهم. وهناك اسباب عديدة خلقت مثل هذا التعلق كما سبق لي ذكره، ومنها عراقية اصل [انطوني]، وقوة عارضته، وبساطته وسخاؤه الذي يصل به حد الاسراف، والاسلوب الخالي من الكلفة الذي يلازمه في اوقات لهوه وفي حياته الاجتماعية. وفي هذه المناسبة بالذات كان للحنان الذي عامل به رجاله واستعداده للمشاركة في الأمهم، والاهتمامه بتوفير حاجاتهم، التأثير العظيم في حمل الجرحى والمرضى منهم على ان يكونوا أكثر استعداداً لخدمتهم من اصحابهم واقربائهم.

وعلى اية حال شجع هذا النصر العدو الذي كان قبل يوم واحد منهوك القوى يهّم بالتخلي عن القتال، وحفزه على البقاء طول الليل قريباً من الرومان استخفافاً بهم، متوقعين أن يتسنى لهم وشيكاً نهب الخيم الخالية والاثقال المتروكة لجيش مندحر. وفي الصباح جمعوا جموعهم للهجوم بقوات تفوق الأمس عدداً حتى قيل انها كانت تضم ما لا يقل عن اربعين ألفاً من الخيالة. وارسل الملك حرسه الخاص أيضاً للمشاركة في ما توقع أن يكون نصراً أكيداً ذلك لأن الملك البارثي لم يحضر قط اي قتال بشخصه. وقرر [انطوني] ان يخطب في الجنود. فأرسل يطلب ثياباً غامقة اذ كان يريد يجعل خطبته مثيرة للعاطفة ما وسعه ذلك. الا ان اصحابه عارضوا فكرته فبدا الجنرال بالارجوان وتكلم امام الجيش مادحاً الجنود الذين دحروا العدو ومؤنبا أولئك الذين فروا من امامه فأجاب الأولون مؤكدين الثقة التي وضعها فيهم، وأعتذر الاخيريون وايدوا استعدادهم لتقبل عقوبة التعشير أو أية عقوبة أخرى يختارها، لو أنه نسي عارهم، وكف عن ايلام نفسه بتذكره، فأجاب [انطوني] برفع كلتا يديه والدعاء من الآلهة،

قائلاً إن ادخرت له بعض جزاء موازنة حسن حظه في الماضي، فليقع هذا عليه وحده ولتتمنع السلامة والنصر لبقية الجيش.

وفي اليوم التالي قام الرومان بتغطية تقدمهم بشكل أفضل وأقوى تأثيراً وعندما هاجمهم البارثيون صدموا صدمة شديدة. انقضوا وكأنهم لايتوقعون غير النهب والسلب من عدوهم، ولما استقبلهم الرومان بزخه من المقذوفات ووجدوهم على اتم النشاط والعزم والشوق الى المعركة. دب فيهم التخاذل والملل من القتال. على ان الرومان تلقوا منهم وابلأ من السهام وتعرضوا للهجوم عندما اضطر الرومان الى نزول منحدر. وعندها انفتح حملة التروس الثقيلة على جبهة مقعرة ووضعوا وحدات المشاة الخفيفة في العمق ورك الصف الأول منهم على ركة واحدة ووضعوا تروسهم متراصة امامهم. ورفع الصف الثاني التروس فوق الصف الأول، وتوالت الصفوف على هذا المنوال. فبدأ منظرهم اشبه بالآجر المرصوف في سقوف البيوت، او بصفوف مقاعد الملعب المدرج. وكان دفاعاً فعالاً ضد رشقات السهام، فقد أخذت تتثال عليهم دون ان توقع فيهم خسارة. ولم يتصور البارثيون ركوع الرومان الا نتيجة الأرهاق الذي حل بهم. فتركوا قسيهم وأشروعوا حرايبهم وهجموا هجمة صادقة. فأنفض الرومان واقفين والقوا بأنفسهم عليهم وهم يطلقون صيحة عظيمة، وفتكوا بالصفوف المتقدمة، وارغموا الباقين على الفرار. وشهدت الأيام التالية اشتباكات ماثلة ولذلك اصبحت عملية الانسحاب تجري على مراحل قصيرة.

وبدا الجيش ايضاً يكابد الأمرين من نقص الغذاء، والجوع اذ لم يكونوا ليوفقوا حتى الى النزر اليسير، وهذا لا يحصلون عليه الا بالقتال. اصف الى ذلك أنهم كانوا يفتقرون الى مطاحن ومخابز، فقد تركوا هذه العدد خلفهم. لأن حيوانات الاثقال لم يعد لها أثر فهي اما نفقت واما كانت تحمل الجرحى والمرضى. وشحت الارزاق حتى بيع الخيونكس الاتيكي<sup>(٥٣)</sup> من القمح بخمسين درهماً. وبيعت ارغفة الشعير بوزنها فضة. فلم يعد للرومان حيلة الا باكل الخضروات والجذور، ولكنهم وجدوا ما يؤكل منها قليلاً. فأضطروا الى تجربة ما لم يذوقوه من قبل وبهذا السبيل أتوا الى نوع من الحشائش، تصيب أكلها بالجنون ثم تميته. ففقد أكلوها ذكراهم ودفعتهم جنونهم الى نقل الحجارة من موضع الى موضع دون تعيين كأنما يقومون بعمل على جانب عظيم من الأهمية، وكانت ارجاء المعسكر تعج برجال يرفعون الحجارة من الأرض وينقلونها الى مكان آخر، ثم تأخذهم نوبة من القيء الأصفر ويسقطون موتى. وكانت الحمر تريق هذا الداء وهم لايميلكون منها قطرة. وفقد الرومان رجالاً كثيرين بهذه النازلة

(٥٣) «Cheouix» وهو مكيال يقارب البوشل.

وكانت البارثيون لا ينفكون على التعرض لهم وهم بهذه الحالة. وكان [انطوني] على ما يذكر لا ينفك يصيح:

- مرعى ايتها الآلاف العشرة!

مظهراً اعجابه بگزنيفون وجيشه الذي قطع مسافة أطول مما قطع جيشه، من [بابل] الى البحر ونجح في شق طريقه بوجه مقاومة اشد مما يلقاه.

وعجز البارثيون عن تمزيق الجيش الروماني وايقاع الخلل في صفوفه وبعد ان ارتدوا خاسئين في الاشتباكات العديدة، عادوا الى تمثيل دور الأخوة والصداقة مع افراد الفرق، عندما كانوا يخرجون من المعسكر بحثاً عن علف وطعام. ويقولون لهم مشيرين الى قسيهم المعلقة على أكتافهم بأنهم عافوا القتال وسيعودون الى بلادهم. وكانت فئات قليلة من الميدين يواكبون الرومان مسيرة يوم أو يومين، دون أن يتعرضوا لهم، وكان غرضهم حماية القرى المجاورة ليس غير، مظاهر الصداقة هذه كانت ترافقها التحايا وحسن النوايا، وبهذا ارتفعت معنويات الرومان ثانية، وعندما وصلت [انطوني] هذه التقارير مال الى استخدام طريق السهل اذ قيل له ان الطريق الجبلية خالية من الماء. وفيما هو يتهيأ لذلك اذ [ميثريدا] يصل المعسكر قادماً من جهة العدو، وهو ابن اخ [مونيسس] الذي كان قد التجأ الى [انطوني] فمنحه هذا ثلاث مدن. وطلب [ميثريدا] مترجماً يعرف البارثية أو السريانية، ليترجم له اقواله فاستقدم [انطوني] صديقاً له انطاكياً يدعي [الكساندر] ليقوم باستجوابه. فكشف [ميثريدا] عن هويته وقال ان عليهم ان يتوجهوا بالشكر الى [مونيسس] للمعلومات التي زوده بها لهم. ثم سأل [الكساندر] هل يرى تلك السلسلة من الجبال الشاهقة؟ ولما اجاب هذا بالاجاب استطرده ميثريدا:

- هناك يكمن لكم الجيش البارثي. السهول العظيمة تمتد على طول قدمات السلسلة والبارثيون يتوقعون أنكم ستخضعون بتقربهم منكم بحسن النوايا فتتركوا المسالك الجبلية وتسيروا باتجاه السهول لاشك انكم ستعطشون وتنهّد قواكم مروركم عبر الجبال. الا انكم معتادون معاناة هذه المشاق. اما اذا حاول [انطوني] السير عبر السهول، فسيلقى مصيراً شبيهاً بمصير [كراسوس].

ورحل الرجل بعد ان ادلى بمعلوماته هذه. واستببد القلق العظيم بانطوني لما سمع وجمع اصحابه. والدليل الماردي الذي كان رأيه طبق رأي [ميثريدا] وقال:

- ان مخاطر الطريق عبر السهول لا تقصر على كمان للعدو، فلو لم يكن أثر له، فان خَلو

الطريق من معالم واضحة قد يفضي بهم الى التيه والضلال. وفي هذا ما فيه من ارهاق ونصب. اما طريق الجبال، فمع كونه وعراً فلا خطر فيه الا بقاؤكم دون ماء يوماً واحداً فحسب.

فأختار انطوني الطريق الثانية وبعد ان امر رجاله بان يتزودوا بالماء بدأ بالمسيرة ليلاً. ولكن معظمهم لم يكن يملك اوعيةً وبعضهم ملاؤا حوذهم وحملوها، وعبأ بعضهم الماء بالقرب الجبلية.

وعلم البارثيون بمسيرة [انطوني] فوراً، فأسرعوا بتعقيبه ليلاً خلافاً لما اعتادوه وعندما اصبح الصباح هاجموا المؤخرة، التي كانت في أشدّ حالة من التعب والارهاق من فرط السير وحرمان النوم فقد قطعوا ٣٠ ميلاً اثناء الليل. ليجدوا العدو في اعقابهم، فطارت أنفسهم شعاعاً وخبا بصيص الأمل في نفوسهم اذ لم يكونوا يتصورون بأن العدو سيديركهم بهذه السرعة، وما زاد في الطين بلة، ان العطش تفاقم واشتد بالقتال الدائم، فقد كانوا يسيرون ويقاتلون في الوقت ذاته محاولين صدّ العدو عنهم وأخيراً وصلت الطلائع الى نهر ماؤه صاف بارد الا انه مالح، وتأثيره سمّي يحدث آلاماً فورية في الامعاء وتشنجات ويزيد العطش. ومع تحذير الماردي فقد كان الجنود ينحون جانباً كل من يريد صدّهم عنه ويشربون من المجرى. وهول [انطوني] الى الرتل المتقدم وراح يتوسل بهم ويرجو صبراً قليلاً قائلًا ان ثم نهراً ماؤه عذب على مسافة غير بعيدة، وان الجزء الباقي من الطريق وعمر المرتقى لاتقوى خيالة العدو على سلوكه. ثم أمر بنفخ بوق التجمع والانسحاب لأن المؤخرة كانت مشتبكة في قتال مع العدو وامر بضرب الخيام، ليريح جنوده في ظلالها على الأقل. فشرع الرومان ينصبونها وواصل البارثيون خطتهم المعتادة فانسحبوا في الحال، وفي تلك الساعة أقبل عليهم [ميثريدا] ثانية وبعد ان ارسل [الكساندر] لمقابلته، نصحهم بأن لا يطيلوا اقامتهم وان يصيبوا اقل ما يمكن من الراحة، ويستأنفوا السير باذلين جهدهم للوصول الى النهر التالي، لأن البارثيين لن يعبروه، لأنهم قرروا مطاردتهم حتى ضفته. فأبلغ [الكساندر] [انطوني] وعاد بالرسالة ثم عاد الى [ميثريدا] يحمل مقداراً من الصحف والاواني الذهبية هدية، فخبأ هذا كل ما استطاع اخفاه منها تحت ثيابه ورحل. وعمل انطوني بنصيحته فقوض خيامه قبل ساعة المساء وسار الجيش بكامله ولم يتعرض لهجوم. الا ان الرومان مضوا ليلاً ليلاء لم يمرّ عليهم مثلها، وكانوا هم مشيري فتنتها. فقد بدأ الجنود يقتلون ويسلبون من كانوا يظنون ان يخفي مالا منهم. وسرقت الممتلكات الخاصة من احمال الحيوانات، وأخيراً هوجم قطار ائقال [انطوني] وكسرت اقداحه ومناضده الغالية الثمن وتوزعها للصوص فيما بينهم.

أحدث هذا العمل الفوضى الكاملة في الجيش وبدأ بعض الوحدات يفقد اتصاله مع القسم الأكبر وابتعد عنه، وانتشرت الاشاعة بان العدو قد قام بهجوم ناجح وقع بهم الهزيمة وحدث الخلل في تشكيلاتهم. وعندها استدعى [انطوني] أحد حرسه الشخصيين وهو معتوقة [رامنوس Rhamnus]، وحمله على ان يقسم له بأن يطعنه طعنة قاتلة وقتما يطلب منه ذلك ويحتز رأسه (لأنه قرر ان لا يقع في يد البارثيين حياً، ولا أن تعرف هويته ميتاً). واخذ اصحابه من حوله بيبكون الا ان [الماردي] بذل قصارى جهده ليرفع من معنويات سيده مؤكداً له ان النهر بات قريباً جداً فالرطوبة تشيع في النسيم الذي يهب عليهم من تلك الجهة وان الهواء البارد الذي يلفح وجوههم جعل تنفسهم اسهل من ذي قبل. وبين أيضاً بأن الوقت الذي امضوه في المسير يدل على ان النهر بات قريباً منهم لأن ساعات الليل كادت تمر. في الوقت نفسه وصله من أخبره بان الهرج والمرج الذي حصل كان سببه طمع وعنف فريق من الجنود (٥٤) فأعطى [انطوني] اشارة الوقوف وضرب الخيام لاعادة النظام الى الجيش بعد أن فقد الضبط والربط وعمت الفوضى فيه.

وطلع الصبح وعادت حالة من الهدوء والنظام تسودان الجيش حين بدأت سهام البارثيين تنثال على المؤخرة، فأعطيت اشارة القتال لوحدات المشاة الخفيفة واتخذت تشكيلة الدفاع التي سبق لها واتخذتها في الماضي اعنى حماية واحدهم الآخر بالتروس ونجحوا في صد مهاجمهم الذين لم يجرأوا على التقرب منهم مسافة أخرى، وسار الجيش مطبقاً هذه الخطة حتى لاح لهم النهر، وعند وصولهم الضفة نشر [انطوني] خيالته بمواجهة العدو، وعبر المجرى والمرضى أولاً، ومالبت الجنود الذين كانوا يقومون بواجب صد العدو، ان وجدوا لهم المجال فسيحاً للارتواء من ماء النهر، اذ ما وقعت أعين البارثيين على النهر حتى اعدوا قسيهم الى جعبهم و اشاروا للرومان بأنهم احرار في عبور النهر وهناؤهم على شجاعتهم و صبرهم. واتموا عملية العبور الى الضفة الأخرى دون تعرض و اراحوا أنفسهم ملياً ثم استأنفوا السير، وهم في شك من تأكيدات البارثيين. وبعد ستة ايام من آخر معركة لهم بلغوا نهر أراكس الذي يفصل ميديا عن ارمينيا. وكان عبور هذا النهر السريع التيار والعميق المجرى مجازفة عظيمة وسرت اشاعة بان العدو قد اعد لهم كميناً هناك وعلى اية حال عبروا الى الضفة الأخرى بأمان، وما ان وطئت اقدامهم ارمينيا حتى اخذوا يتعانقون ويقبلون الأرض فرحاً بنجاتهم حتى لكأنهم نوتية سفينة معطوبة نجوا من عاصفة بحرية هوجاء وبلغوا اليابسة. وانطلقوا يسيرون عبر

ارض غنية بالثمر والقوت فأكلوا حتى اتخموا بعد ذلك الجوع والطوى، حتى وقعوا فريسة لمرضى الزحار والاستسقاء. واستعرض [انطوني] جيشه فوجد انه فقد عشرين ألف رجل واربعة آلاف خيال. هلك أكثر من نصفهم بعامل المرض لا بسلاح العدو واستغرقت مسيرتهم من [افراهاط] سبعة وعشرين يوماً، هزموا خلالها البارثيين في ثماني عشرة وقعة غير حاسمة او واقية لهم من الهجمات، اذ لم يكن في مقدورهم مطاردة عدوهم بصورة فعالة الى مسافة بعيدة. والمسؤول عن هذا كله هو [ارطياسديس] الأرمني (٥٥) الذي حرم [انطوني] من القوات الكفيلة بانهاء الحرب فلو ان الآلاف الستة عشر من الخيالة (٥٦) وكانت موجودة لاختلف الأمر. فسلح هؤلاء شبيهه بسلاح البارثيين وهم يتعودون اساليب قتالهم ولو كانوا هناك لمطاردة العدو بعد ان يصده الرومان لأستحال على البارثيين أن يجمعوا شتيتهم ويكروا عليهم بهجمة أخرى وأخرى كما جرى. ولذلك كان الجيش حاقداً على [ارطياسديس] وأصر على [انطوني] بالانتقام منه. الا انه آثر ان يسكت عنه، لأن جيشه كان قد بلغ حداً كبيراً من الضعف عدداً وازقاً، ووجد أيضاً من حسن السياسة ان لا يضع اللوم على عاتقه ولا يصمه بالخيانة واطهر له المودة وحسن النوايا كان لم يحدث شيء بينهما. ولكن لما دخل ارمينيا مرة أخرى اثناء غزوته الثانية ارسل الى [ارطياسديس] عدة دعوات بعود مغرية، حتى اقنعه بمقابلته، فقبض عليه وكبله بالأغلال وحمله الى الاسكندرية لعرضه في موكب نصره، وقد ألم الرومان بعمله هذا، فقد شعروا بأنه يحتفل بتقليد رسمي وطني عظيم المكانة في بلد غريب ولمنفعة المصريين وارضاء لكليوباترا. على أن هذا وقع في زمن لاحق.

وغذاً [انطوني] السير، لأن فصل الشتاء حلّ وكان قاسياً بعواصفه الثلجية المستمرة، وفقد ثمانية آلاف من رجاله خلال مسيرته ووصل هو نفسه الى ساحل البحر المتوسط بثلة من الحرس الى موضع يدعى القرية البيضاء، بين بيروت Berytus وصيدا Sidon منتظراً كليوباترا، ولما استبطأها ركبها الهمة والح في شرب الخمر. الا انه لم يكن يصبر على الجلوس الى المائدة، بل كان ينهض فجأة ويسرع الى الخارج يتقرب قدومها. وأخيراً جاءت عن طريق البحر ومعها كميات كبيرة من الألبسة والأموال للجنود، وتقول إحدى الروايات انها وزعت الألبسة فقط في حين ان [انطوني] وزع باسمها المال من جيبه الخاص بوصفه هدية منها.

في هذا الزمن (٥٧) وقع نزاع بين ملك الميديين، وبين [افراهاط] البارثي. وقيل ان سببه خلاف على توزيع الأسلاب التي اغتنمت من الرومان الا انها اثار شكوك الملك الميدي الذي

(٥٥) قضت كليوباترا على هذا الملك بالموت في ٣٠ ق.م بعد معركة اكسيوم مباشرة.

(٥٦) في موضع سابق من هذه السيرة يذكر بلوتارخ ان عدد الخيالة كان ستة آلاف. وهو أكثر احتمالاً.

(٥٧) في أواخر العام ٣٥ ق.م.

(٥٤) هذه الحادثة تبدو غير منسجمة تماماً مع اخلاص الجنود لانطوني. وربما كان السبب في نهب ممتلكاته هو شيوخ خبر اليأس الذي استولى عليه، او نبأ موته الكاذب.

كان يخشى ضياع تاجه. ولهذا السبب طلب معونة [انطوني] وقدمه اليه ووعد من قبله بمساعدته على قهر البارثيين. فوجدها [انطوني] فرصة ذهبية نادرة انعمت آماله، لاعتقاده انه ما فشل في فتح بلاد البارثيين الاً لأنه كان يفتقر الى اعداد كبيرة من الخيالة ورماة القسيّ وهما الصنفان اللذان سيكفيه ملك الميدين حاجته منهما وبصورة يبدو قبولهما منةً وتفضلاً من [انطوني] على المهدي. فاستعدّ للزحف مرة ثانية نحو آسيا الشمالية عبر ارمينيا وهناك تنضمّ اليه القوات الميدية عند نهر اراكس فيبدأ بالحرب.

في تلك الاثناء كانت [اوكتافيا] في روما شديدة الرغبة بالرحيل شرقاً للحاق بانطوني. وقد اجمعت الآراء أن [اوكتافوس] سمح لها بذلك لا جبراً بخاطرها، بل ليتخذ من اساءة [انطوني] استقباليها، ذريعة لإعلان الحرب عليه. وعندما وصلت [اوكتافيا] أثينا<sup>(٥٨)</sup> تسلمت رسائل من [انطوني] يعلمها بحملته الجديدة ويطلب منها انتظاره هناك. ومع ان اوكتافيا تألمت لهذا وادركت السبب الحقيقي لاعتذاراته. فقد كتبت اليه تستشيريه فيما اذا كان يرغب ان ترسل اليه ما جلبته معها. لأنها حملت معها مقادير كبيرة من الألبسة العسكرية للجنود، وعدداً كبيراً من حيوانات الحمل واموالاً وهدايا لضباط [انطوني] واران حربه الى جانب ألفين من الرجال المنتخبين المزودين بأفضل السلاح والدرع ليكونوا بمثابة حرس پريتوري<sup>(٥٩)</sup>. وارسلت [اوكتافيا]، احد اصحاب [انطوني] المدعو [نيكر Niger] لأبلاغه بكلّ هذا، وعندما ادّى الرسالة مدحها واثنى عليها، بما هي أهله حقاً.

وادركت [كليوباترا] ان منافستها تنوي ان تتحداها من موضع قريب وكانت تخشى أن تحقق [اوكتافيا] سيطرتها على [انطوني] بالاستعانة بسحر معاشرتها اليومية وحبها الرفيق عليه، فلا يمكن اقتحام السبيل اليه بعدها لذلك تظاهرت بأن حبها لأنطوني يكاد يتلفها وتبععت نظام حمية صارماً ليبدو عليها النحول، فاذا دخل عليها شخصت اليه بعينين واجدتين لا تريان واذا قام بريد الذهب تصنعت الضعف وتظاهرت بالاغماء، وكانت في اثناء ذلك تبذل مجهوداً عظيماً لتمكنه من ملاحظتها وهي تبكي، فاذا التفت اليها وانبتته، اسرعت تحجف دموعها وادارت وجهها الى ناحية أخرى كأنها تريد اخفاء ذلك عنه. وظلت تمثل دورها طوال الوقت الذي كان يتهيأ في سورية للالتحاق بملك ميديا. وخف صنائع كليوباترا وتملقوها الى بذل الجهود مع [انطوني] فراحوا يلومونه على قسوته، وغلاظة قلبه، اذ كيف

(٥٨) في صيف العام ٣٥ ق.م.

(٥٩) في عهد الجمهورية الرومانية: القناصل هم قادة عامون للجيش. والپريتورون جنرالات غالباً. ولذلك فإن الحرس پريتوري هو بالاصل نخبة من صنفى الخيالة والمشاة، يقومون بمثابة حر شخصي للجنرال.

يطاوعه أن يعرض امرأةً للتلذذ فيجفوها، وروحها متعلقة به وحده، صحيح ان [اوكتافيا] هي خليلته، ولكنه تزوجها لأسباب سياسية، ولأن مصلحة اخيها كانت تستلزم ذلك، فلديها والحالة هذه مقام الشرف. اما [كليوباترا] الملكة التي تحكم شعوباً عديدة فقد قنعت بمقام الخليلة. وهي لا تنفر من وضعها هذا ولا تتأفف منه مادامت تراه وتستمتع بصحبته. لكن لو حرمت من هذا فلن تستطيع الحياة. وظلوا يضربون على هذا الوتر حتى الانوا قلبه وافقدوه كل صفات الرجولة، وبات يؤمن ايماناً تاماً بأنها ستموت ان تخلى عنها فعدل عن حملته الميدية وعاد الى الاسكندرية، منتظراً الصيف لمعاودتها مع ان الانباء كانت تشير الى الفوضى التي عمّت بلاد البارثيين والنزاع الداخلي الذي كاد يمزقها. ومهما يكن فقد رحل الى تلك البلاد بعد فترةٍ من الزمن وعقد حلفاً مع ملك الميدين، وزوج ابنه الصغير من كليوباترا بنت الملك الميدي وهي طفلة بعد، ثم عاد الى مصر. الاً ان افكاره الآن تحولت الى خطر الحرب الاهلية الوشيك بينه وبين [اوكتافوس قيصر].

وجد [اوكتافوس] برحيل أخته عن أثينا وعودتها الى روما، اهانة له. وعد [انطوني] مسؤولاً عن هذه المعاملة الغليظة. فأمرها بترك بيت الزوجية والعيش في محلّ آخر الاً انها رفضت وطلبت منه أن يقلع عن التفكير في اثاره حرب مع [انطوني] ان كانت هي سبباً لها. الاً اذا كان قد قرر ذلك لأسباب أخرى. وان يتغاضى عن سلوك [انطوني] إزاءها، اذ ليس مما يطاق أن يقال بأن اعظم امبراطورين في العالم اقحما الشعب الروماني في حرب أهلية، احدهما بسبب حبه لامرأة، والاخر بسبب حنقه على امرأة. ان مسلك [اوكتافوس] برهن على اخلاصها في قولها فقد ظلت في منزل [انطوني] كأنما هو موجود فيه، وتفرغت بتفانٍ وانكار ذات الى العناية بأولادها الذين يأتون الى روما بحاجة، فتحقق لهم طلباتهم لدى [قيصر] الاً ان سلوكها النبيل عمل على تحطيم سمعة [انطوني] دون ان تريد، فقد جعلته الاساءة التي ارتكبتها بحقها، مكروهاً.

وزاد الحقد عليه بسبب توزيعه ميراثه في الاسكندرية<sup>(٦٠)</sup>. بين اولاده؛ واعتبر الرومان عمله وقاحة، وحركة مرسحبة، يبدو انها دليل على كرهه لبلاد. على انه جمع خلقاً كثيراً في ساحة الالعاب الرياضية هناك. وجاء بتاجين من الذهب له ولكليوباترا وضعهما على تخت من فضة مع تيجان أخرى لاولاده. فبدأ باعلان كليوباترا ملكة لمصر، وقبرص وليبيا وسورية الكولية، ونادي بـ[قيصاريون] زميلاً لها في الملك، والمعتقد ان هذا الشاب هو ابن [يوليوس قيصر] الذي ترك [كليوباترا] حاملاً. ثم أعلن ابنه منها ملكي ملوك، واعطى [الكساندر]

(٦٠) لم يكن هذا الاعلان مجرد اشارة أو كلام. بل تسوية سياسية مدروسة عرفت بد(تقسيمات الاسكندرية).

ارمينيا وميديا وپارثيا [بعد الاستيلاء عليها واعطى [پتليموس] فينيقيا وسورية وكيليكيا، وجيء بالكساندر امام الجموع المحتشدة وهو في ثياب ميديا ارمينية: القلنسة ذات الرأس المنتصب. وجيء بد [پتليموس] وهو بالحذاء والمعطف القصير والقبعة المقدونية وفوقها التاج. كان هذا ما يرتديه الملوك من خلفاء الاسكندر الكبير. وبعد ان عانق الاولاد ابويهما أعطي الأول منهما حرس شرف ارميني. واعطي الثاني حرس شرف مقدوني. وكانت كليوباترا ترتدي زي الربة [ايزيس] وكانت تلقب بايزيس الجديدة.

ابلق [اوكتافيوس قيصر] مجلس الشيوخ<sup>(٦١)</sup> بهذه الأعمال. ويتنديده المستمر العلني بد [انطوني] نجح نجاحاً كبيراً في اثاره غضب الشعب الروماني ضده. وقام [انطوني] كذلك برفع عدد من الاتهامات المضادة على [اوكتافيوس] واهمها هي الآتية:

اولاً: عندما استولى [اوكتافيوس] على صقلية من [سكستوس پومپي] استأثر بها لنفسه ولم يعط له حصة منها.

ثانياً: بعد ان استعار عدداً من السفن لاستخدامها في هذه الحملة، ابقاها لديه ولم يعدها.

ثالثاً: بعد ان عزل [ليبيدوس] زميلهما الثالث، استأثر بجيشه واقاليمه التي كان يحكمها هذا القنصل مع عواندها وضرائبها.

ورابعاً: وزع كل ما تيسر من اراضي ايطاليا تقريباً على جنوده لم يبق لجنود [انطوني] شيئاً.

وكان ردّ [اوكتافيوس] على هذه التهم: انه عزل [ليبيدوس] وصادر سلطاته لاساءته استعمالها وان ما استولى عليه في الحرب سيشرك [انطوني] به حالما يعطيه [انطوني] حصة من ارمينيا. وان جنوده لا يحق لهم نصيب من اراضي ايطاليا ماداموا قد فتحوا بلاد الميديين والپارثيين وهي الاراضي التي اضافوها ببطولاتهم تحت قيادة جنرالهم - الى الامبراطورية الرومانية.

كان [انطوني] في ارمينيا عندما أعلم برود [اوكتافيوس] قيصر. فوجّه في الحال [كانيديوس] على رأس ست عشرة فرقة الى ساحل البحر. إلا انه ذهب الى [أفسس] برفقة [كليوباترا] ليستقبل السفن ونقل ساهمت [كليوباترا] بمائتين، مع عشرين الف تالنت وتقديم الارزاق والمؤن للجيش كله اثناء القتال. وبناء على نصيحة [دوميتيوس انيوباربوس] وعدد من اصدقائه، طلب [انطوني] من [كليوباترا] ان تعود ادراجها الى مصر وتنظر نتيجة الحرب

(٦١) بلغ اوكتافيوس بالأمور غايتها، عندما طوق المجلس بالجنود مناسبة تقديمه اتهاماته ضد انطوني. وكان لهذا كثير من الانصار في روما حتى في ذلك الوقت وعندها ترك حوالي اربعمائة من اعضاء المجلس مع قنصلي سنة ٣٢ روما والتحقوا به في الشرق.

الأنها كانت تخشى ان تنجح [اوكتافيا] في احلال صلح جديد بين الخصمين فرشت [كانيديوس] بمبلغ كبير من المال ليسعى لأجلها عند [انطوني]. فتوجه اليه هذا قائلاً: انه من الظلم ان تتحمل المرأة نفقات الحرب الطائلة هذه وتحرم من امتياز وجودها فيها كما انه ليس من الفطنة السياسية في شيء الاساءة الى المصريين وهم جزء كبير من قواته البحرية. وهو كذلك لا يجد الملوك الحلفاء الذين يعملون معه ارجح عقلاً واوفر ذكاءً منها. فقد حكمت مملكة عظيمة مدة طويلة من الزمن، وعاشته زمناً فنالت تجارب كثيرة في الشؤون الدولية. أثرت هذه الحجج في انطوني ورضخ لها. لأن القدر حكم بأن يحرز [اوكتافيوس] قيصر كل شيء، ولا مرد لحكم القدر. وبعد ان كمل تجمع الاساطيل ابحرا معاً الى [ساموس] وانصرفا الى اللهو<sup>(٦٢)</sup>.

وصدر الأمر الى كل الملوك والافراد والحكام والشعوب والمدن من سورية حتى البحرية الماريوتية Mareotic ومن ارمينيا حتى الليريا بأن يجلبوا أو يرسلوا ما يجب عليهم من معدات الحرب، كما صدر الأمر لجميع الممثلين بالحضور الى [ساموس] وفي الوقت الذي كانت الدنيا تخرج الزفرات وتذرف الدمع لما ستجره الحرب من ويلات، ظلت هذه الجزيرة عدة ايام تتردد في اجوائها انغام المزامير والقيثارات، وامتلأت مراسحها بالمتفرجين، وانشغلت اجواق التمثيل، وارسلت كل مدينة ثوراً مساهمة منها في القرابين. واخذ كل ملك من الملوك المرافقين له ينافس صاحبة في اقامة المآدب على شرفه، وفي اهدائه انفس الهدايا. ويات الناس يتساءلون عن كيفية الاحتفال بالنصر المقبل مادام هذا شأن الاحتفال ببدء الحرب من بذخ واسراف في الانفاق.

بعد ختام هذه الاحتفالات رتب [انطوني] للممثلين الدارين ان يسكنوا على وجه الاستقرار في مدينة [برينه Priene] ثم ألقع الى آثينا، وسمح لنفسه أن يلهو بالمزيد من وسائل التسليية والمشاهد المسرحية. وشعرت [كليوباترا] بالغيرة لضروب التكريم الذي نالته [اوكتافيا] هناك - فقد تعلق الآثينيون بها وانزلوها منزلة حب خاصة - ولذلك حاولت كليوباترا التقرب منهم وخطب ودهم، وبالغت في انعامها عليهم فقابلوها بالمثل وافرطوا في التكريم الرسمي لها، وانتدبوا عدداً من المواطنين للقيام بمراسيم هذا التكريم وارسلوهم فداً الى منزلها. ورافقهم [انطوني] بنفسه بوصفه مواطن شرف آثيني، ووقف امامها والقى الخطبة التقليدية بالنيابة عن المواطنين الآثينين وفي الوقت نفسه ارسل اناساً الى روما مزودين

(٦٢) من المحتمل ايضاً ان تكون هذه الاحتفالات قد اقيمت لمناسبات دينية وليس للهو: فقد اقام الاسكندر الكبير حفلات مماثلة تكريماً لديونيسوس قبل عدد من حملاته.

بتعليمات تقضي بطرد [اوكتافيا] من منزله. وقيل لنا انها عندما تركته اخذت معها كل اولاده ما عدا [انتيللوس Antyllus] ابنه البكر من زوجه [فولفيا] الذي كان معه وانها ذرفت دموع الأسي، لأنها ستعده عند الرومان عاملاً من عوامل الحرب. إلا أن هؤلاء كانوا يخصون [انطوني] بالمزيد من الرثاء، لاسيما أولئك الذين شاهدوا [كليوباترا] وأكدوا انها لا تفضل [اوكتافيا] لا في شبابها ولا في جمالها.

وكان قلق [اوكتافوس قيصر] عظيماً عند سماع بالسرعة التي استعد بها [انطوني] وعظمة تلك الاستعدادات، فقد كان يخشى ان يرغم على الاقلاع في ذلك الصيف<sup>(٦٣)</sup> لدخول معركة تقرر مصير الحرب كلها. وهو في ذلك الوقت يشكو نقصاً في التجهيزات، فضلاً عن الكره الشعبي الشديد الذي نجم عن فرضه ضرائب ثقيلة. فقد كان على من يتمتع بحقوق المواطنة الكاملة ان يدفع أكثر من ربع دخله، والمعنوق ثمن أملاكه. فتعالت الضجة والصحاح عليه من الطبقتين وتفشت الاضطرابات في ايطاليا. ولهذا السبب عد تأجيل [انطوني] حربه، خطأ من أعظم الاخطاء الاستراتيجية لأنه اتاح الوقت الكافي [لاوكتافوس] فأكمل استعداده. وعمل على تهدئة الخواطر الثائرة عليه. يضح الناس بالشكوى ويتمردون ساعة جباية المال منهم. فاذا دفعوها، هدا ثائرهم وسكتوا. وخرجت [كليوباترا] ايضاً عن جادة الصواب فاهانت [تيتيوس Titius] و[بلانكوس Plancus] القنصلين السابقين صديقي [انطوني] وكانا من أشد معارضي فكرة بقائها في غضون الحرب. فهربا والتحقا باوكتافوس قيصر وانها اليه ببعض المعلومات عن محتوى وصية [انطوني] التي يعرفان تفاصيلها. وكانت هذه الوصية قد اودعت امانة عند العذارى الفستالات<sup>(٦٤)</sup> وعندما ما طلبها اوكتافوس منهن رفضن تسليمها وقلن: ان كان يرغب فيها فليأت وليأخذها بنفسه فلم يتوان. وقرأها، وعلم فيها فقرات تصلح لاساءة سمعة انطوني، ثم دعا مجلس الشيوخ للاجتماع وتلا تلك الفقرات علناً فأستنكر معظم الشيوخ عمل اوكتافوس اذ وجدوا محاسبة المرء على ما يرغب في اجرائه بعد موته، اثناء ما هو في قيد الحياة، عملاً غريباً غير مسبوق ولا يمكن التسامح فيه وشدّد [اوكتافوس] النكير على [انطوني] لفقرته تتعلق بدفنه. فقد أوصى بأن يحمل جثمانه الى [كليوباترا] في مصر بعد أن يشيع تشييعاً رسمياً في الفورم، وان حصل موته في روما. والى جانب هذا تقدم [كالفيسيوس Calvisius] احد صنائع [اوكتافوس] بعدد من التهم ضده تتعلق بسلوكة مع [كليوباترا] فقال انه اهداها مكتبات

(٦٣) كان ذلك في ٣٢ ق.م.

(٦٤) يظهر ان هذا عادة عند الشخصيات الرومانية البارزة. إلا ان عمل اوكتافوس اثار استياء لأن وصية تودع لدى الفستالات تعتبر مقدسة بنوع خاص. وكان بمقدور انطوني ان يغير من موادها لو شاء.

في برغاموم تضم مائتي الف لفة رق. وفي مأدبة كبيرة ضمت عدداً كبيراً من المدعويين نهض وانحنى يدعك لها قدميها ايفاءً برهان أو عهد مقطوع. وسمح لأهالي أفسس أن يحيوا [كليوباترا] بوصفها ملكتهم وبمحضر منه. وفي عدد من المناسبات اثناء تصريحه الرسمي لشؤون والولة، كان يتسلم رسائل غرام منها مكتوبة على الواح من عقيق أو بلور فيقرأها علناً. وفي احد المناسبات كان [فورنيوس Furnius] وهو من ابرز الشخصيات الرومانية، يترافع امامه في قضية، فمرت به كليوباترا وهي في محفتها فقفز انطوني عن كرسية ونزل تاركاً المرافعة لمرافقتها متعلقاً بمحفتها.

على اية حال اعتبر المجلس [كالفيسيوس] مخترعاً لكل هذه الحكايات وفي الوقت نفسه قام انصار [انطوني] باستفتاء شعبي ودافعوا عنه علناً امام الجمهور وارسلوا ادهم المدعو [غمينيوس Giminius] ليطلب من [انطوني] بأن لا يظل ساكناً في حين تجري محاولة ازاحته عن السلطة بالتصويت، ويعلن عدواً للشعب الروماني. ووصل اليونان، وسرعان ما اعتبرته [كليوباترا] عيناً من عيون [اوكتافوس]، وجعلت مجلسه على المائدة بين الناس العاديين او الأقل شأناً اذلاً له، ووضعت هدفاً لمزاح ثقيل. وتحمل [غمينيوس] كل تلك الاهانات بصبر وانتظر فرصة للكلام مع انطوني ولكنه عندما سئل عن الغرض من مجيئه في حفلة عشاء، أجاب انه سيحتفظ برسالته لمناسبة أكثر جداً، إلا ان لديه شيئاً واحداً يريد قوله اصاحيا كان أم ثملاً. وهو ان كل شيء سيسير على مايرام عند اعادة [كليوباترا] الى مصر. ولما بان الغضب على [انطوني] قالت [كليوباترا].

- أحسنت صنعاً يا [غمينيوس] لكشفك الحقيقة قبل وضعك على دولاب التعذيب!

ومهما يكن فقد نجح [غمينيوس] في العودة الى روما بعد ايام قليلة<sup>(٦٥)</sup> وأفلح طفيليو [كليوباترا] في ابعاد اصدقاء كثيرين [لانطوني] عنه. هؤلاء لم يسعهم احتمال مزاح بطانتها السمع، ومزاحهم الغليظ، ومن تركه [ماركوس سيلانوس Marcus Silanus] و[دليوس Dellius] المؤرخ. ويقول [دليوس] هذا انه كان دائم الخوف على حياته، حتى أن [غلاوخوس Glauchus] اعلمه بما بيتت له [كليوباترا]، بعد ان غضبت عليه لقوله: ان اصدقاء [انطوني] تقدم لهم خمر فجّة، في حين ان [سارمنتوس Sarmentus] وصيف [اوكتافوس] (وهو احد وصفائه المقربين الذين يطلق الرومان عليهم اسم [دليچاي Deli-

(٦٥) بلغت القطيعه حداً انه ما عاد الصفاء بينه وبين اوكتافيا ممكناً والاحتمال الأقرب من هذا ان كليوباترا خشيت ان يكون [غمينيوس] كاتيو باربوس] احد أولئك الذين ما فتئوا يلحون على انطوني بقطع صلته مع كليوباترا واعادة منصبه في الغرب، ان تمكنها من تهديد المواطنين الاحرار بالتعذيب هو آخر ما يمكن ان يتحملة اصحاب انطوني من استفزاز.

[ciae] يشرب هناك خمر فاليرنيا Falernia. ما أن أكمل [اوكتافوس قيصر] استعداداه، حتى اصدر امراً باعلان الحرب على [كليوباترا] وتجريد انطوني من السلطة التي نزل لها عنها لامرأة وجعلها تمارسها في محله. وذكر [قيصر] ايضاً أن [انطوني] وقع أسيراً للخمر وانه لم يعد يتحمل مسؤولية أعماله. وان الرومان يخوضون هذا الحرب ضدّ [مارديان- Mardi an] الخصي، وكل من [پوثينوس Pothinus] و[ايراس Iras] وصيفي [كليوباترا] وشارميون Charmion، وصيفتها، لأنهم ذوو الحلّ والعقد الفعلين.

وهنا عليّ ان اذكر عدداً من العجائب التي قيل انها اندرت بوقوع الحرب. وقعت هزة ارضية فأبتلعت ارض مستعمرة [پيساروم Pisaurum] التي انشأ فيها انطوني مستوطنة رومانية على ساحل الادرياتي. واخذ العرق ينضح من احد تماثيل انطوني في [البا Alba] عدة ايام متواصلة ولم يتوقف النضح رغم تحفيفه عدة مرات. ولما كان [انطوني] في مدينة باتراي [Patrae] وقعت صاعقة على هيكل هرقل وفي اثينا مزقت الريح الهوجاء صورة [باخوس] وقلعتها قلعة من نقش «معركة العمالقة» والقتها فوق الملعب على ظهرها. وانطوني يزعم انه متصل نسبياً بالربّ الأول ومتصل بالثاني نهجاً وخلقاً حتى انه لقبّ بـ[باخوس الصغير]. وعصفت الريح في اثينا بتمثالي [فومينوس Fumenes] و[أتالوس Attalus] الهائلين اللذين نقش عليهما اسم [انطوني] من بين سائر التماثيل الكثيرة الأخرى التي لم يصيها ضرر. وشهدت علامة نحس سيئة جداً في سفينة القيادة الخاصة [بكليوباترا] فقد بنى بعض العصافير في مؤخرتها عشاً فجاءت عصافير أخرى وطردت الأولى واتلفت عشها.

واجتمع لانطوني من السفن الحربية مالا يقل عن الخمسمائة، منها سفن ذات عدة طبقات قد تبلغ الثماني أو العشر وهي كثيرة الحلبي والزخارف دقيقة الصنع كأنها صنعت لاستخدامها في موكب نصر واجتمع له مائة الف من المشاة واثنان عشر الف خيال. ومن الملوك الموالين الذين رافقوه [برخوس Borchus] ملك ليبيا و[تاركونديوس Tarcondemus] ملك كيليكيا العليا وفيلادلفوس Philadephus ملك پافلاكونيا Paphlagonia و[ارخيلالوس] ملك كبدوكيا و[ميشيريدات] ملك كرمانيه. و[سادلاس Sadlas] ملك تراقيا. هؤلاء كانوا موجودين باشخاصهم؛ وارسل له كل من [پوليمون] ملك البونطس و[مالخوس Malchus] ملك البلاد العربية، و[هيرود Herod] ملك اليهودية و[منتوس] ملك لاقونيا وغلطية قوات كبيرة، كما بعث اليه ملك الميدين ببعض الوحدات المقاتلة.

وحشد [اوكتافوس قيصر] مقابل ذلك، مائتين وخمسين بارجة حربية. وثمانين ألفاً من المشاة وما يعادل خيالة [انطوني]. وكانت امبراطورية [انطوني] تمتد من الفرات وارمينيا،

حتى البحر الآيوني والليريا. وتبدأ امبراطورية [اوكتافوس] من الليريا وتمتد غرباً الى المحيط، ثم تستمر على طول الساحل الصقليّ والتوسكاني وكان يسيطر ايضاً على كل الساحل الافريقي المواجه لايطاليا، وبلاد الغال واسپانيا حتى اعمدة هرقل. في حين كان [انطوني] يسيطر على الأقليم الذي يمتد من قيرينه Cyrene حتى ارمينيا.

وأمسى [انطوني] في هذه الآونة آلهً في يد [كليوباترا] تسييره كما تشاء فمع ان تفوقه البري على عدوه كان واضحاً. فقد قرر نزولاً عند رغبة الخليلة أن يجعل البحر ميدان المعركة الفاصلة. لقد اصّر على ذلك ارضاء لملكته لا غير، وان كان يدري مدى افتقاره الى البحارة حتى ان ولاته Tetrarch في بلاد اليونان كانوا يجندون لها، المسافرين، والمكارين، والحصادين والصبيان الذين لم يبلغوا سنّ الخدمة حتى جردوا البلاد من قابلياتها واستنفدوا طاقتها. ومع هذا كله لم تبلغ سفنه المستوى القتالي المنشود. وظلت سيئة الادارة بصورة يرثى لها. وكانت أسطول [اوكتافوس] بعكس ذلك، يشمل سفناً لم تبين للعرض والرؤية وانما للحرب والخدمة. فكانت سريعة خفيفة كاملة العدد والعدة سهلة التحريك. حشدها في [تارنتيوم ورنديزيوم] وارسل يطلب من [انطوني] الخروج لقتاله ولايضع وقتاً أكثر مما ضيّع وان يقبل عليه وسوف يضمن له المكلاّت والمواني حرة لاسطوله ولجيشه البري، لينزل منها ونصب خيامه، وقال انه سيحسب جيشه مسافة كافية في برّ ايطاليا مما يمكن خيالته من الحركة، فردّ انطوني على هذا التحدي بلهجة تعاضم ماثلة. وتحدى [اوكتافوس] الى منازلته في معركة فردية وان كان أكبر منه سنّاً. فان رفض اوكتافوس هذا، فان انطوني يطلب منه ان يلتقياً في [فرساليا] حيث اشتبك [قيصر] بـ[پومبي] من قبل وعلى اية حال فبينما كان اسطول [انطوني] جاثماً في [أكسيوم] حيث تقوم اليوم مدينة [نيكولوپوليس]. تسلل [اوكتافوس] اليه سرّاً عبر البحر الآيوني. واحتل مدينة في [پيروس] تدعى [تورنيه To-ryne] اي «المغرفة». وعندما شاع القلق في نفوس اصحاب انطوني لأن جيشهم لم يصل بعد، جعل كليوباترا من ذلك مادة للسخر وتساءلت مازحةً:

- اي بأس في ما لو نجح اوكتافوس في الامساك بمغرفة؟

وبعد فترة قصيرة، انطلق العدو نحو اسطول [انطوني] في الفجر وكان يخشى ان تؤسر سفنه قبل ان يتم وصول جنوده اليها، ولذلك سلّح كلّ بحارته وجذافيه وعرضهم على اسطحة السفن ايهاً ما للعدو. ثم صفّ السفن بالقرب من فم خليج [أكسيوم] وجعل طبقات المجازيف ترتفع على الماء بمجازيفها الموجهة الى العدو كأنها مستعدة للقتال فانطلت الخدعة على [اوكتافوس] وانسحب واعتبر [انطوني] بارعاً، في اقامته آظماً لقطع مجرى الماء عن



العدو حيث لا يوجد كثير من الينابيع الصالحة للشرب في الانحاء المجاورة. وهذه ليست بالجيدة أيضاً.

وفي هذا الزمن كان [انطوني] كريماً جداً في معاملة [دوميتيوس اينوباريوس] خلافاً لرغبة [كليوباترا] فقد فرّ هذا في زورقٍ صغيرٍ ولحق [باوكتافيوس] وهو مريضٍ بالحمى، ومع ان [انطوني] بات وهو في غاية من الحنق عليه إلا أنه بعث اليه بكلّ سلاحه وامواله وصدقانه وخدمه، وما لبث [دوميتيوس] أن مات هناك كأنه يريد ان يندم بعد ان أكتشفت خيانتته وقلة اخلاصه. واختار بعض الملوك التابعين تغيير مواقفهم ايضاً فالتحق [باوكتافيوس] امينتناس Amyntas و[ديوتاروس Deiotarus]. زد على هذا فشل الاسطول في كلّ عملية يشارك فيها. اذ كان دائماً يأتي متأخراً فلا يأتي بفائدة فأضطر [انطوني] الى ان يزيد من اهتمامه بجيشه البري وادرك [كانيديوس] الآن خطورة الموقف فغير رأيه في الأمر وعاد يقترح ترحيل [كليوباترا] الى مصر، وانسحاب انطوني الى [تراقيا] او [مقدونيا] وان يعتمد على معركة بريّة فاصلة، ذلك لأن [ديقوس Dicoues] ملك الغيتيين Getae وعده بجيش قوي. ولم يكن ثم ما يحط من قدره ان هو تخلّى عن السيادة البحرية لأوكتافيوس، طالما تدرت قواته هذه على الحرب البحرية بالأعمال العسكرية التي قام بها اثناء حملة صقلية، هذا فضلاً عن أنه يكون من الخطل ان لا يستفيد من تفوقه العددي وحسن تجهيز فرقه، وهو المجرب الخبير في الحروب البرية الذي لا يدانيه قائد معاصر فيها. ومن السخف ان يبعثر قواته ويشتها بحشرها على ظهور السفن فيضعف من قيمتها القتالية، مع كل هذه الجهود التي بذلها [كانيديوس] فقد ظلّ [لكليوباترا] القول الفصل. وكانت قد اعتزمت في سرّها على الفرار ولم يكن الهدف الذي توخته من تنظيمها قطعها البحرية هو ربح المعركة بل ضمان فرارها حين تدور الدائرة على انطوني. وحصل ايضاً أنه كان ثم جداران طويلان يمتدان من المعسكر حتى مرسى السفن وقد اعتاد انطوني سلوك هذا الممر للوصول الى القاعدة البحرية وكان يروح ويغدو آمناً وليس في فكره اي تحسّب لخطر. واعلم عبداً [اوكتافيوس] بأن في الامكان أسر [انطوني] اثناء مروره، فأرسل دوريةً لتضع له كميناً. وكاد هؤلاء الجنود ينجزون مهمتهم إلا انهم خرجوا من مكائهم في اللحظة غير المناسبة وقبضوا على شخص كان يسبق [انطوني] فهروا [انطوني] ونجح في فراره.

عندما قرر نهائياً ان يخوض المعركة في البحر، اشعل النار في جميع السفن المصرية ما عدا ستين منها<sup>(٦٦)</sup> ثم عبأ أكبر واقوى سفنه التي تتألف من ثلاث حتى عشر طبقاتٍ من (٦٦) يظهر انه قام بهذا العمل خوفاً من هروبها اثناء المعركة. والثلاثون الباقية انما ابقيت لحراسة كليوباترا.

المجاذيف وأقلع بها وعلى ظهرها عشرون الفاً من المشاة الثقيلة وألفان من رماة القسي. ومما ذكر لنا في هذه المناسبة بالذات ان قائد مائة من إحدى الفرق، كان قد خاض العديد من المعارك تحت امرة انطوني حتى أمتلأ جسمه بالندوب، صاح فجأة اثناء مرور [انطوني]:

- أيها الامبراطور. كيف يمكنك ان تفقد الثقة بهذا السيف وهذه الجراح وتضع كل آمالك في الخشب النخر؟ الأدع هؤلاء المصريين والفينيقيين يخوضون حربهم في البحر ودع لنا الأراضي فهناك نعرف كيف نقف صامدين قدماً الى قدمٍ فنهزم خصمنا او نموت دونه.

فلم يستطع [انطوني] الجواب. وكل ما فعله انه القى نظرة اليه واوما اليه بحركة من يده تشجيعاً له. ثم مضى لطيته. والواقع أنه لم يكن يملك كبير ثقة فيما استقرّ عليه. اذ لما اقترح ربابنة السفن ترك الاشرعة<sup>(٦٧)</sup> اصدر أمره بابقائها على ظهر السفن. معدلاً ذلك بأنهم لن يدعوا فرداً واحداً من العدو يفلح في الفرار<sup>(٦٨)</sup>.

في ذلك اليوم والايام الثلاثة التي تلتها، كان البحر هائجاً حتى تعذر على الطرفين القيام، بأي عملية حربية. على ان البحر هدأ في اليوم الخامس وسكنت الريح والتقى الاسطولان وتولى [انطوني] و[پوبليكولا Publicola] قيادة الميمنة في حين تولى [كوليوس coelius] الميسرة. وتولى [ماركوس اوكتافيوس] و[ماركوس انستيوس Insteius] القلب. ووضع [اوكتافيوس قيصر] [اغريباً] على الميسرة وتولى بنفسه الميمنة وتولى قيادة جيش انطوني [كانيديوس] في حين سلم [اوكتافيوس] قيادة جيشه الى [طوروس Taurus] إلا ان كلا القائدين وضع جيشه في خطّ القتال دون ان تبدر منهما حركة. وراح [انطوني] ينتقل بقارب صغير من سفينة الى سفينة مشجعاً جنوده وطالبا منهم الثبات، والبلاء الحسن في هذه السفن الكبيرة، مثلما عهد منهم في البر. وامر الربابنة بمواجهة هجمة العدو وكانت سفنهم راسية وان يصمدوا في مواضعهم على فم الخليج الضيق الذي يصعب المرور منه. وقيل ان [اوكتافيوس قيصر] ترك خيمته والظلام مازال مرخياً سدوله وأنطلق لتفقد سفنه فمرّ برجل يسوق حماراً، فاستوقفه وسأله عن اسمه فأجاب الرجل وقد عرف مخاطبه:

- اسمي [مسعود] واسم حماري [فاتح].

وبعد المعركة، عندما اقام [اوكتافيوس] عند الساحل عدداً من مناقير السفن المأسورة

(٦٧) قيل ان انطوني كان يؤمل الإفادة من الرياح المقبلة لدفع سفن عدوه الى الساحل وعلى اية حال معلوم ان البوراج الحربية اثناء المعركة انما تعتمد على مجاذيفها عادة وليس على قلوها. والواضح ان اوامره خلقت انطباعاً بأن نيته الحقيقية هي الفرار لا القتال، وقد عزز هذا الانطباع. ان امواله ومقتنياته، كانت كلها محملة على ظهر السفن، في حين كان بمقدور الجيش البري المحافظة عليها من الضياع.

(٦٨) يزيد نشر القلوع من سرعة السفن عند المطاردة.

تزيينا للموضع وتخليداً للمعركة، نصب بينها تمثالاً برونزياً للسائق وحماره.

بعد ان انهى جولته التفقدية، توجه الى الجناح الأيمن بقاربٍ صغير. فوجد لعجبه الشديد ان العدو لا تبدر منه اية حركة في المضيق كأن سفنه ملقبةً بمراسيها. وظلّ برهة وهو يظن ان الامر كذلك. وابقى سفنه بعيدة عن العدو بمسافة ميل واحد. ولكن ريحاً رخاء هبت من جهة البحر قبيل الظهر. وادرك رجال [انطوني] الملل من طول الانتظار ولما كانوا قد وثقوا بأن سفنهم لا تقهر بسبب ضخامتها وارتفاعها، أطلقوا حركة الميسرة فتقدمت للمعركة. فكان سرور [اوكتافوس] عظيماً وامر جذافي ميمنته بالتقهقر، ليغري العدو به ويخرجه من الخليج ومدخله الضيق. وكانت خطته تطويقهم باسرع القطع من اسطولة وقتالها من مسافة قريبة حيث كانت واثقاً بأن الافضلية ستكون الى صفه على بوارج عدوه الكبيرة السيئة العدة بحركتها البطيئة وعجزها عن المناورة.

عندما التقت خطوط القتال، لم تحاول السفن نطح احداها الأخرى او سحقها. لأن سفن [انطوني] كانت ثقيلة جداً، لا تستطيع ان تحقق السرعة الكفيلة بتوجيه صدمة ساحقة لجدران سفن العدو. ولأن اوكتافوس من جهته، تحاشى ذلك عمداً، ولم يشأ ان يصادم سفن العدو بمناقير سفنه، فتلك كانت مصفحة بصفائح معدنية ضخمة واسنة برونزية، ولم يحاول ايضاً عن ينطحها من جوانبها لأن هيكلها مبني بكتل مربعة ضخمة من الخشب الذي يشده الى بعضه احزمة حديدية، فتتكسر مناقير سفنه عليها بسهولة. ولهذا اصبح القتال أشبه بمعركة بريّة واتخذ سماته تقريباً أو بكلمة أدق هجوم على قلعة محصنة فكنت ترى كل ثلاث أو اربع سفن لأوكتافوس، تحوم حول سفينة واحدة لانطوني. وجرى القتال بالتروس والحراب والقضبان والمقذوفات النارية، وكان رجال [انطوني] فضلاً عن ذلك يستخدمون مقذوفات المجانيق المثبتة على ابراج خشبية. وبدأ [اغريبا] يمد جناحه الايسر متحامياً طريقه للالتفاف حول جناح العدو. واضطر [پوبليكولا] مواجهة لهذه الحركة - الى التقدم نحوه، والانفصال عن القلب الذي كانت الفوضى قد عمته، وقد اشتبك معه فوراً [ارونتيوس Arruntius] قائد القلب في اسطول [اوكتافوس]. في هذه اللحظة حينما كان الميزان معلقاً بين الطرفين شوهدت سفن كليوباترا الستين تخرج عن خط القتال فجأة وتنشر قلووعها منطلقة في عرض البحر. كانت هذه السفن قد وضعت خلف السفن الثقيلة مباشرة ولهذا اختل نظام التشكيلة وعمتها الفوضى عندما راحت تتلمس سبيل انطلاقها وراقبها العدو بذهول وهي تنشر قلووعها وتتجه بمساعدة الريح نحو الپلويونيسس. وهناك اوضح [انطوني] للعالم اجمع بأنه لا يعمل بشعور القائد ولا بدوافع الرجل الشجاع، ولا بمقتضى عقلية الرجل السوي، بل برهن على حقيقة قول

قبيل في معرض مزاح. ان روح العاشق الولهان تعيش في جسم آخر. وقد سمح لنفسه ان يجرّ جراً خلف امرأة كأنه اصبح جزءاً من لحمها وان عليه أن يذهب حيث شاءت له. ما ان رأى سفنها تنطلق، حتى إمّحى كل الاعتبارات الأخرى من ذهنه وتخلّى عن الرجال الذي يقاتلون ويموتون في سبيل قضيتته وخانهم. صعد الى بارجة ذات ست طبقات مع كل من الكساس Alxas السوري، وسچليوس Scellius واسرع وراء تلك المرأة التي دمرته، والتي ستقوم باكمال تدميره بعد فترة قليلة.

لما ادركت انه يسعى وراءها رفعت اشارة على سفينتها فأقتربت منها انطوني واصعد الى ظهرها الا انه لم يحاول رؤيتها ولم تره هي بل ذهب الى قيديم السفينة وجلس وحده لا ينطق بكلمة واضعاً رأسه بين كفيه، وبعد قليل لاحت قطع من سفن [اوكتافوس] الليبورنية الخفيفة Liburnian في الأفق تتعقبهم فأمر [انطوني] بان تستدير السفينة لمواجهتهم. فلما فعلت، نكصت المطاردة على اعقابها الا سفينة [يوركلس Eurycles] اللاتوني فقد اقترب بسفينته ووقف على سطحها واشرع رمحه كأنه يريد ان يقذف به [انطوني]. ووقف انطوني عند القيديروم وصاح:

- من هو هذا الذي يتعقب [انطوني].

- انا يوركليس بن لاخاريس. جئتكم مسلحاً بحظوظ [قيصر] كي اثار لوالدي.

كان [لاخاريس] قد أدين بجريمة سرقة، واحتز رأسه بأمر من [انطوني]، على ان [يوركلس] لم يهاجم سفينة انطوني بل توجه باقصى سرعة الى سفينة القيادة الأخرى حيث كان يوجد اثنتان - فنطحها وجعلها تدور على نفسها واستولى عليها وعلى سفينة أخرى كان فيها مقدار من الصحاف الثمينة وغيرها من الأموال. وما ان كرّ [يوركليس] راجعاً رغب عن الانظار حتى عاد [انطوني] الى وضعه السابق من الوجوم والجلوس. وظل كذلك ثلاثة ايام يابى التحرك من موضعه، وهو امّا ممتليء غيظاً من كليوباترا، او رغبة منه في عدم توجيه اللوم اليها، أخيراً بلغوا [تيناروم] (٦٩)، ونجحت وصيفات كليوباترا في حملهما على محادثة بعضهما بعضاً ثم أكلاً معاً ورقدا. وبدا عدد من سفن النقل الثقيلة وفلول اتباعه يتواردون اليه عقب الهزيمة العامة. واعلموا بأن الاسطول قضي عليه قضاءً مبرماً. امّا القوات البرية فأغلب ظنهم انها ما زالت صامدة في مواقعها. فأرسل اوامر الى [كانيديوس] يأمره بسحب الجيش الى آسيا عبر مقدونيا بأسرع ما يمكن. امّا هو فقرر ان يترك [تيناروس] الى

(٦٩) هي رأس ماتابان الحالي. ويقع في أقصى جنوب الپلويونيسس.

افريقيا، وأهدى انصاره احدى سفن النقل بما فيها من اموال طائلة وآنية ذهبية وفضية تعود للملوك الخلفاء. ورغب منهم ان يقتسموها فيما بينهم ويستعينوا بها لتدبير أمر سلامتهم. فرفضوا هديته شاكرين وانخرطوا في بكاء فأخذ يطيب خواطرم بأعذب الكلام وارق لهجة والحّ عليهم بقبول الهدية. أخيراً صرفهم بعد ان كتب الى [ثيوفيلس] وكيل امواله في كورنت، يطلب اليه ان يمنحهم ملجأ ويبقيهم مخفيين. الى أن تصلح امورهم مع [اوكتافوس قيصر]. و[ثيوفيلس] هذا، هو ابن [هيپارخوس] صاحب أكبر نفوذ عند [انطوني]، ومع هذا فقد كان اول عتقاء [انطوني] الذين ينضمون الى [اوكتافوس]. وقد استقر بعد ذلك في كورنت.

هذا ما آلت اليه احوال [انطوني]. ظلّ اسطوله في [اكسيوم] صامداً بوجه [اوكتافوس] عدة ساعات ولم يستسلم رجاله الا بعد أن اعطيت سفنه عطياً شديداً بعاصفة. وكان ذلك في الساعة الرابعة بعد الظهر، وفقد الاسطول ما لا يقل عن خمسة آلاف قتيل وغريق، ووقعت ثلاثمائة سفينة في يد [اوكتافوس] كما دون هو نفسه في مذكراته. ولم يعلم بفرار [انطوني] الى القليل من سفنه. ومن بلغه النبأ كذبه ولم يعره اذناً صاغية. اذ لم يكن يصدق ان يتخلى جنرال عن تسع عشرة فرقة، واثنى عشر الف خيال لم تدخل معركة ولم تهزم. ومهما يكن فلانطوني تجارب عديدة مع تقلبات الحظّ وتحولاته المفاجئة كما ان مفاجآت القتال وتصاريفه قد عجمت عوده وبلته. وكان جنوده في شوقٍ لرؤيته، وكانوا على ثقة بأنه سيظهر لهم من جهة ما. حقاً هذا الاخلاص وتلك الشجاعة جعلاهم يصمدون سبعة ايام متوالية وهو غائب عنهم، متجاهلين كل تقرب منهم يأتيه [اوكتافوس]. أخيراً عندما تبينوا ان [كانيديوس] وكيل انطوني في القيادة، هرب من المعسكر ليلاً وانهم اصبحوا دون أمل، ولا ارزاق، ولا قيادة، انضموا الى الغالب. بعد هذا ابحر [اوكتافوس] الى آثينا بحراً حيث قام بتنظيم شؤون الاغريق. ووزع ما تبقى من مخزون القمح الذي انتزعه انطوني من المدن بالاكراه وكاد يوردها موارد التلف. نهب اموالهم وغصب عبيدهم وصادر خيولهم وحيوانات اثقالهم ولم يبق لهم شيئاً. لقد اعتاد [نيقارخوس] والد جديّ ان يروي كيف جند أهالي مدينتنا لأعمال السخرة فكان كل واحد منهم يحمل على عاتقه مقداراً معيناً من القمح الى الساحل قرب [انتيكيرا Anticyra]. يشرف عليهم مراقبون ويحتنونهم بالسوط. وبعد ان انجزوا نقلةً واحدةً وفيما هم يتهيأون لكيال النقلة الثانية ويضعون احمالهم تلك على عواتقهم، أقبل من بينهم بهزيمة [انطوني]. هكذا نجت [خيرونيا] فقد هرب جنوده ووكلاء اعاشته حال سماعهم بذلك وتركوا الأهالي يتفاسمون القمح فيما بينهم.

بوصول [انطوني] ساحل ليبيا، أرسل [كليوباترا] لتسبقه الى مصر فغادرت [پاريتونيوم Paraetonium] (٧٠) وبقي هو وحيداً، يستمتع بكلّ ما توفره له الوحدة من هدوء. فيتجول على هواه مع صديقين احدهما [ارسطوقراطس] المنطبق اليوناني و[لوجيبيوس] الروماني الذي ورد ذكره في موضع ما من سيرة [بروتوس]، وقصصنا كيف انه افسح [لبروتوس] مجالاً للهرب بعد معركة [فيلبي] عندما تتأقل في سيره حتى ادركه مطارديو پروتوس، وقبضوا عليه عندما انتحل شخصيته. وقد عفا عنه [انطوني] بعد ان مثل امامه. ولهذا ظلّ اميناً مخلصاً حتى الأخير. وعندما انضم كارپوس (٧١) وهو القائد الذي امره انطوني على جيش ليبيا - الى [اوكتافوس]، حاول قتل نفسه الا ان صديقيه حالاً دون ذلك وعاد الى الاسكندرية فوجد [كليوباترا] مهتمة بمشروع جريء غريب، فقد كانت تحاول ان ترفع سفنها من البحر الابيض الى اليابسة وتنقلها الى البحر الأحمر في موضع ينفصل فيه البحران ويعتبر الخطّ الفاصل بين آسيا وافريقيا، وهو يبلغ في اضيق موضع منه حوالي اربعين ميلاً (٧٢) وكانت خطتها ان تحملها بعدئذ بالاموال الكثيرة، مع حرس مرافق قوي. فنزل السفن الى البحر الأحمر ثم تبحر وتستقر فيما وراء حدود مصر آمنة من الأخطار والحروب والأسر الا ان عرب مملكة بطرا اشعلوا النار في اول سفينة خرجت الى اليابسة (٧٣) ولما كان [انطوني] على ثقة بأن جيشه في [اكسيوم] مازال مخلصاً فقد تخلت [كليوباترا] عن الفكرة. ووضعت جيشها في موقف الاستعداد لحماية مصر. وفي تلك الاثناء ترك [انطوني] المدينة والاصدقاء وذهب ليعيش وحده في جزيرة [فاروس] (٧٤) حيث بنى له بيتاً على نتوء نافذ في البحر. وهناك حبس نفسه عن الناس جميعاً وقال انه يريد ان يعيش كما عاش [تيمون Timon] من قبل. فقضيته تشبه قضية ذاك الآثيني قوبل مثله بالأذى ونكران الجميل من أولئك الذين توهمهم اصدقاء، فابغض كل البشر وفقد ثقته فيهم.

كان تيمون هذا، مواطناً اثينياً عاش في ايام حروب البولوپونيسس تقريباً وقد ورد ذكره في كوميديات [ارسطوفان] و[افلاطون] (٧٥) ويصوره هذان الكوميديان رجلاً انطوائياً سوداوي

(٧٠) قرب مدينة السلوم الحالية.

(٧١) احد ضباط انطوني الذين حاربوا معه في معركة فيلبي.

(٧٢) حوالي سبعين ميلاً في الواقع.

(٧٣) هؤلاء هم رعية [ملكوس] النبطي. كان هذا الملك يحقد على كليوباترا منذ ان أعطيت بلاده لها بموجب التسوية التي عملها انطوني في ٣٨ ق.م.

(٧٤) تقع هذه الجزيرة مقابل مدينة الاسكندرية، حيث اقيم عليها المنار الشهير، الذي يعد من عجائب الدنيا السبع.

(٧٥) هو الكاتب المسرحي الهزلي، وليس الفيلسوف المعروف.

المزاج كارهاً الناس ومع انه كان يضيق ذرعاً بالعشرة والصحة ويتجنب البشر والاختلاط بهم، إلا انه استمتع بصحبة [الكيبيداس] وكان آنذاك شاباً وقحاً ذا خلق نفور - وكان معتاداً معانقته وتقبيله بكل حب. ولما أعرب [ايمانتس Apemantus] عن دهشته لهذه العواطف وسأله عن سببها، قال له [تيمون] انه يحب [الكيبيداس] لكونه يعلم بأنه سيكون سبباً لكثير من المحن والمصائب للآثينيين. وكان [ايمانتس] هذا الشخص الوحيد الذي يسمح له أحياناً بزيارته فكلاهما من الطينة نفسها وقد حاول [ايمانتس] أحياناً احتذاءه في طريقة عيشه. ومرة اثناء «عيد الابريقين»<sup>(٧٦)</sup> كما كان يطلق عليه، قال ايمانتس:

- ما أبدع مجلسنا هذا يا تيمون؟  
فأجابه:

- قد يكون مجلسنا طيباً لو لم تكن هنا.

ومرة نهض والجمعية العامة متقعدة في آئيننا وصعد منصة الخطابة، وهذا يحد ذاته أمرٌ خارق للعادة، وبلغت الدهشة بالحاضرين حتى انهم سكتوا وكان على رؤوسهم الطير وارهفوا آذانهم ليلتقطوا ما سبتفوه به. فأعلن [تيمون] قائلاً:

- يا رجال آئينا. ان لدي قطعة ارض صغيرة للبناء، تقوم عليها تينة، وقد سبق لكثير من اخواني المواطنين أن شنقوا أنفسهم على فروعها، على أني انوي الآن بناء منزل في موقعها، فوجدت الأفضل ان أعلن للجميع ذلك النبأ. فان كان اي منكم يريد ان يشق نفسه فليذهب وليفعل ذلك قبل ان اجتثها!

ولما حان اجله، دفن في هالي Halae على حافة البحر إلا ان الجزء الامامي من الساحل انخسف وجرفه الماء ثم الجوانب فتعذر الوصول الى قبره. ويقرأ النقش المكتوب عليه هكذا.

هنا ارقد مدفوناً بعد أن انقطع خيط حياة شقية.

لاتسل عن اسمي: فليس عندي لك غير لعنتي.

هذان البيتان هما من نظمه على ما قيل. إلا أن الصيغة المعروفة عموماً، هي من نظم [كالليماخوس Callimachus] والبيك هي:

هنا يرقد تيمون، الذي ابغض البشرية: ولاتتوقف يا عابر السبيل؛ والعني ان كانت تلك رغبتك، لمن سر في طريقك، فهذا كل ما ارجو منك هذا قليل من كثير من الحكايات التي انحدرت اليها عن [تيمون].

(٧٦) اليوم الثاني من عيد الخمر الذي يقام تكريماً [لديونيسوس] وهو يوم سكب الخمر قرباناً للموتى.

كان [كانيديوس] هو الذي أبلغ [انطوني] بأن جيشه في [أكسيوم] قد تبخر وتلاشى بكامله. وعلم بعدها مباشرة أن [هيرود] <sup>(٧٧)</sup> ملك اليهودية قد أعلن ولاءه [لاوكتاقيوس] وأخذ معه عدداً من الفرق والكتائب، وان بقية حلفائه من الملوك قد تخلوا عنه ولم يبق لديه من السلطة شيء خارج مصر. إلا ان امثال هذه الأنبياء الآن لم يعد لها اي تأثير عليه وبدت عليه السعادة لتخلصه من رسيس الأمل، ومن القلق معاً. وترك منتجع البحر الذي سماه [تيمونية Timoneum] واستقبلته [كليوباترا] في قصرها وأقامت المدينة واقعدتها بالحفلات والمآدب المتواصلة ومجالس الشراب وتوزيع الهدايا باسراف. وثبت [قيصاريون] ابن [قيصر] من [كليوباترا] في قائمة الشباب Ephebes<sup>(٧٨)</sup> وخلع على [انتيللوس] ابنه من [فولفيا] المعطف الرجالي Toga Virilis بدون حاشية الارجوان<sup>(٧٩)</sup>. واشغلت المآدب والحفلات التي اقيمت بهذه المناسبة، المدينة عدة أيام بطولها. وحل [انطوني وكليوباترا] عصابة «العائشين الافذاذ» والفوا عصابة أخرى، مساوية للأولى على الأقل في اسرافها وبذخها وافراطها وسموها «اخوية المتحدين في الموت». وانضم اليها اصحابهم بعلم منهم بوجود انهاء حياتهم معاً، فراحوا يقضون الايام بسلسلة متتابعة من حفلات العشاء الفاخرة. وفي اثناء هذا جمعت [كليوباترا] انواعاً عديدة من السموم القتالة، وكانت تجربها على المحكومين بالموت لترى ايهاً أقل آلاماً. ووجدت ان السموم ذات المفعول السريع تورث دائماً أشد الآلام وانكاهها، وان أقلها ألماً هي ابطأها مفعولاً. وواصلت اختبارها، لاكتشاف الميزات السميّة لمختلف الحيوانات السامة، بحملها على مهاجمة بعضها بعضاً على مشهد منها وكانت تقوم بتجاربها هذه يومياً تقريباً وبعد تجربتها كل المحتملات، وجدت ان لدغة «الصل المصري asp» هي الوحيدة التي تحدث نعاساً ثقيلاً وسباتاً ثم خدرًا تاماً. ولا يحدث السم تشنجات ولا تنهدات، بل قليل من العرق في الوجه، وتفقد الحواس قابلياتها بالتدرج حتى تتلاشى. والملدغون يقاومون كل محاولة لايقاظهم او انعاشهم. كما يفعل الناس عند استغراقهم في نوم طبيعي عميق.

وارسل كلاهما بعثة الى [اوكتاقيوس] في آسيا، وطلبت كليوباترا ان يرث اولادها عرش

(٧٧) كان هيرود الكبير حتى ذلك الحين نصيراً متحمساً لانطوني. وقد ارسل نجدات عسكرية الى [اكسيوم] إلا انه لم يحضرها بنفسه.

(٧٨) عند الاغريق يدرج في هذه القائمة من يتراوح عمره بين السادسة عشرة والثامنة عشرة.

(٧٩) ثقّف قيصاريون ثقافة اغريقية ولذلك ادرج في قائمة [الايبيوس] وثقّف انتيللوس ثقافة رومانية. والصبي الروماني يرتدي [المعطف الرجالي] في حدود الرابعة عشرة اشارة الى انه أصبح يتمتع بحقوقه القانونية كاملة. والى هذا التاريخ كان يلبس ما يسمى Toga Praetexta ذات الاهداب الارجوانية. هذان قتلها اوكتاقيوس، كما سيرد ذكره.

مص. وطلب [انطوني] ان يسمح له بالعيش في آثينا كشخص عادي. أن حظر عليه البقاء في مصر. ولما كان معظم اصدقائهما قد انفضوا من حولهما عادا يشكان في اخلاص القلة الباقية، فقد بعث لهذه المهمة معلم ابناؤه المدعو [يوفرونيسوس Euphronius]. والسبب في هذا هو العمل الذي اجترحه [الكساس] اللاوديكي Laodicea. كان [تيماجينس Tima-genes] هو الذي قدم هذا الرجل الى [انطوني] في روما، ومرت الايام به وهو يزداد اقتراباً من العاهل حتى بات يتمتع بأقوى نفوذ تمتع به اغريقي عنده. وكان أيضاً ممن استخدمتهم [كليوباترا] للتأثير على [انطوني] ففعل ذلك بكل نجاح وأقنعه بنبذ كل الاعتبارات التي كانت قد تعيد علاقات الصفاء مع اوكتافيوس. وقد ارسله انطوني الى [هيروود] ملك اليهودية املاً في اقناعه بالعدول عن اعلانه الولاء لـ اوكتافيوس، ولكن بعد ان مكث [الكساس] عند [هيروود] رداً من الزمن وخان سيده، وجد عنده الصفاقة الكافية للمشول بين يدي [اوكتافيوس قيصر] معتمداً على نفوذ [هيروود] لحمايته، إلا أن هذا الملك عجز عن معونته، وقبض عليه وجيء به الى بلاده مصفداً بالأغلال ونفذ به حكم الموت بأمر من [اوكتافيوس] تلك كانت العقوبة التي استوفها [الكساس] جراء خيانتته، في اثناء حياة [انطوني].

رفض [أوكتافيوس قيصر] مطلب [انطوني]. إلا أنه كتب [لكليوباترا] يطمئنها بنيل كل طلب معقول تبديه، شريطة أن تقضي على حياة انطوني او ان تطرده من مصر. وفي الوقت ذاته ارسل اليها [تيرسوس Thyrcus] أحد عتقائه وهو من العلماء والاذكياء<sup>(٨٠)</sup> وفكر [اوكتافيوس] أن مواهبة وقابلياته في الاقناع ستؤدي الى نجاحه في ابلاغ رسالة من جنرال شاب الى امرأة مدركة قدر جمالها، فخورة به الى اقصى حد. وعند وصول المبعوث الموفد اليها، حظي هذا الرجل منها بمقابلة اطول من الآخرين. وبالفتات وتكريم اثاراً الشك في قلب [انطوني]. فأمسك بالرجل وجلده واعاده الى [اوكتافيوس] برسالة قال فيها:

- إن تطاول هذا الرجل ووقاحته، قد اغاظني في ظروف من سوء الحظ تجعل استفزازي من أسهل الأمور. فإن ساءك ما فعلت به فلديك معتوق [هيبارخوس] رهينة. وبإمكانك شنته أو جلده، وبذلك نخرج متعادلين.

بعد هذا حاولت [كليوباترا] اصلاح غلطتها، باظهارها له اشد الحنان والرعاية والتفاني. واحيت عيد ميلادها بما يناسب حالتها الحاضرة وسوء حظوظها، إلا أنها أحتفلت بعيد

(٨٠) ارسل انطوني وكليوباترا عدداً من الرسل الى اوكتافيوس دون ان يحقق نجاحاً، ومنهم انتيلوس ابنه، ارسله مع مقدار كبير من المال فأحتفظ أوكتافيوس بالمال وصرف انتيلوس. ومن المحتمل ان تيرسوس ارسل ليبقي المفاوضات مستمرة ليحول بين كنوز البطالة وبين التدمير. وكانت اموالاً طائلة، وأوكتافيوس في حاجة ماسة الى المال.

ميلاده باسراف وبذخ منقطعي النظر، حتى ان كثيراً من الفقراء الذين دعوا الى المشاركة فيه، خرجوا وهم اغنياء. وفي ذات الوقت كتب [اغريبا] لاوكتافيوس يرجوه العودة الى روما لأن وجوده فيها ضروري. ففعل، واجلت الحرب حتى انقضاء موسم الشتاء ومن ثم بدأ [اوكتافيوس] الحرب مجدداً فزحف على مصر وسورية، كما زحف قواده عليها من افريقيا. وما لبث ان أستولى على [پيلوسيوم] واشيع ان [سلوقوس] قائدتها سلمها الى [اوكتافيوس] بايعاز من كليوباترا. ولأجل نفى الاشاعة دفعت الى يد [انطوني] باولاد القائد المستسلم وزوجه فقتلهم.

كانت [كليوباترا] قبل هذا بزمن قصير قد ابنتت لنفسها قرب معبد [ايزيس] عدداً من الاضحة العالية والقبور الرائعة المنظر ونقلت اليها كل اموالها وكنوزها من الذهب والفضة، والزمرد اللؤلؤ والابنوس والعاج والقرفة وكمية كبرى من خشب النار ونسالة الكتان. وخشي [اوكتافيوس] ان تعتمد كليوباترا في نوبة مفاجئة من اليأس الى اشعال النار في هذه الكنوز، فكان حريصاً على مكاتبها باستمرار ووعدها بالمعاملة الطيبة اثناء تقدمه من المدينة. ومهما يكن من أمر فبعد ان عسكر بالقرب من هيبودروم<sup>(٨١)</sup> الاسكندرية، كرّ عليه [انطوني] من الداخل بهجوم رائع فأرسل خيالاته على اعقابها وطاردها حتى اضطرها الى الاحتماء بتحكيماتها، وعاد الى المدينة ظافراً، وقد انعش النصر روحه ودخل القصر وعانق [كليوباترا] وهو مدجج بالسلاح. وقدم لها جندياً من رجاله أبلى أحسن البلاء في المعركة. فاهدته [كليوباترا] درعاً وخوذة من الذهب اعترافاً بشجاعته فقبلها وفي الليلة نفسها هرب والتحق بقوات [اوكتافيوس].

وأرسل [انطوني] تحدياً آخر [لاوكتافيوس] يطلب منه نزلاً فردياً. فكان الجواب: على انطوني ان يجد لنفسه وسائل أخرى غير هذه الوسيلة لأنها حياته. وهذا ما جعل [انطوني] يفكر ان اشرف ميتة هي ان يسقط في ميدان القتال. وقرر الاشتباك مع العدو براً وبحراً في وقت واحد، وقيل انه طلب من الخادم اثناء العشاء ان تترع كأسه، وأن يزيد في العناية بخدمته عن العادة، فلا أحد يدري هل سيخدمه غداً، ام انه سيخدم سيّداً آخر، بينما يكون هو في عداد الموتى، مؤمباً او لاشيء. وعندما لحظ ان اصدقاءه يبكون لكلامه قال انه لم يأخذهم للقتال معه، لأنه لايتوقع ان يخرج من المعركة منتصراً أو سالماً، وانما هو يبغى منها موتاً كريماً فحسب. وتمضي الرواية فتقول: في تلك الليلة بالذات عند منتصف الليل تقريباً عندما هجع الجميع، وغرقت المدينة في صمت موحش رهيب توقعاً لما سيأتي به الغد، سمعت

(٨١) هو رباط الخيل الكبير ويقع في ظاهر المدن الواسعة.

- أحسنت يا ايروس. لقد هديت سيدك الى ما ينبغي عمله، وان لم يطاوعك قلبك على ان تفعل ذلك بنفسك.

قال هذا واغمد سيفه في بطنه وسقط على الفراش. الا ان الجرح لم يقض عليه لساعته، وفجأة انقطع النزف وهو مستلق وعاد اليه وعيه واخذ يتوسل بالحاضرين ان يضعوا حداً لآلامه الا انهم هرولوا خارجاً وتركوه يتلوى من فرط العذاب ويصرح مستنجداً، حتى أقبل أمين سرّ [كليوباترا]، المدعو [ديوميديس] لينقله الى ضريحها بناء على اوامر منها.

عندما علم انها حيّة أمر عبيده ان يعجلوا بدفعه وحمله على اذرعهم حتى باب الضريح. لكن [كليوباترا] لم تسمح بفتحها، وانما نظرت من كوة صغيرة مرتفعة، وادلت باوتار وحبال الى الأرض. فشدد العبيد [انطوني] اليها، وراحت [كليوباترا] وخادماتها الوحيدتان الباقيتان معها، تسحبانه الى الأعلى. وذكر الحاضرون، انه لم يكن ثم منظر ادعى الى الأسى والرثاء مثل ذاك المنظر: [انطوني] وقد صبغته دماؤه، والروح تخرج في صدره، يسحب الى الأعلى ماداً اليها يديه، ورافعا جسده بما بقي فيه من قوى!

لم يكن سحبه بالعمل السهل بالنسبة الى ثلاث نساء، كانت [كليوباترا] تتشيب بالحبال بكل قواها وقد اسندت رأسها الى الأرض استجماعاً لقواها، الى ان أفلحت في جرّه والحاضرون يلقون اليها بكلمات التشجيع، ويشاركونها المجهود والقلق. بعد ان تم رفعه، القته على السرير ومزقت عن جسمها رداءها والقته عليه وأخذت تضرب صدرها حتى أدمته ولطخت وجهها بالدماء التي أخذت تسيل من جرحه وراحت تناديه وتديه وتسميه مولاهما وزوجها وامبراطورها. ونسيت شقاءها ومحنتها في تفجعها عليه. فأخذ [انطوني] يهديء من آلامها وطلب خمراً اما لعطش شعره به أو أملاً في ان يعجل به موته. بعد ان شربه طفق ينصحها بأن تعمل لأجل ضمان سلامتها شريطة ان لايمس ذلك بكرامتها وشرفها وأشار عليها بالاعتماد على [بروكوليوس Proculus] من دون سائر اصدقاء [اوكتافيوس]. وأخيراً رجا منها ان لا تتألم لسوء الحظ الذي لقيه والاحرى بها ان تفرح باستنكار الامجاد التي نالها وان تتذكر بأنه وصل الى أعلى درجة من الشهرة والسؤدد نالهما انسان ولذلك فليس عاراً عليه ان يموت رومانياً، غلبه روماني.

ما كاد [انطوني] يسلم روحه حتى وصل [بروكوليوس] مرسلًا من لدن [اوكتافيوس] قيصرًا. بعد ان [طعن انطوني] نفسه وفي اثناء حملته الى كليوباترا جريحاً، أختطف [درجيتايوس Dercetaeus] وهو احد افراد حرسه الشخصي، سيفه وأخفاه ثم تسلل من القصر واسرع الى [اوكتافيوس] وكان اول من ابلغه نبأ موت [انطوني] وابرز له السيف

الخان موسيقي رائعة، بدت وكأنها خارجة من جوقة تضرب على مختلف الآلات بمصاحبة ارخم الاصوات وأعذبها وسمع في الوقت نفسه صيحات ضجيجاً صادراً من جمّ غفير من الناس. أختلطت فيها الصرخات الباخوسية ويقفزات المسوخ المجذوبة، كأن موكباً مرحاً يترك المدينة وهو يغني ويهتف. وبدأ الموكب وكأنه يسير في شارع وسط المدينة متجهاً الى الباب الخارجي المؤدي الى معسكر [انطوني] وفي هذه اللحظة ارتفعت الاصوات الى مُنتهاها ثم تلاشت. واستنتج أولئك الذين حاولوا تفسير هذه المعجزة بان الآلة [ديونيسوس] الذي أدعى [انطوني] بصلة قرابة معه، واتخذ منه مثلاً يحتذى، قد تخلى عنه الآن<sup>(٨٢)</sup>.

ما ان بدت تباشير الصباح، حتى وضع [انطوني] مشاته على التلال امام المدينة وراقب سفنه وهي تخرج لمواجهة العدو. ثم لما أنه ظلّ يعتقد بأن اسطوله هو الذي سيقدر نتيجة قتال اليوم. فقد بقي في موضعه منتظراً ما ستسفر عنه المعركة البحرية. ولكن ما ان اصبح اسطوله على مقربة من سفن [اوكتافيوس] حتى رفع النوتية مجاذيفهم بالتحية، ولما قولوا بمثلها، انضموا الى [اوكتافيوس] برمتهم. وتقدم الاسطولان المتحدان نحو المدينة رأساً. وما ان شاهد [انطوني] هذا حتى وجد الخيالة تتخلى عنه الى [اوكتافيوس]، وأخيراً عندما منيت مشاته بالهزيمة، انسحب الى المدينة وهو يصيح بنوبة غضب اجتاحتها: ان [كليوباترا] خانته وسلمته الى الرجل الذي قاتله لأجلها. فأدرك الرعب الملكة وخشيت من عمل يقدم عليه وهو في غمرة بأسه وحنقه، فهربت الى ضريحها وانزلت الابواب المعلقة، المصفحة بالقضبان والمزليج. ثم ارسلت تخبر [انطوني] بأنها باتت في عداد الموتى. فلم يداخله شك في ذلك، واثنى يقول لنفسه:

- لماذا التأخير اذن يا انطوني؟ ان القدر قد انتزع منك العذر الوحيد الذي كان يجعلك ترغب في المزيد من الحياة.

ثم دخل غرفته. ونزع عنه دروعه وألقى بقطعها جانباً وهتف يقول:

- لم يؤلمني فقدك يا كليوباترا، فعما قريب سأكون معك. الا ان الخجل يغمرني، حين أكون انا الامبراطور ذا الشهرة المعروفة أقل شجاعةً من امرأة في النهاية.

وكان [لأنطوني] خادم مخلص يدعى [ايروس Eros]، حمله منذ مدة على ان يقسم له بأن يتولى القضاء عليه عندما تدعو الحاجة. فأمره ان بقي بوعده فانتضى [ايروس] وسيفه واشهره كأنه يريد طعن سيده الا انه وجهه الى نفسه فجأة، وعندما سقط عند قدمي سيده هتف انطوني:

(٨٢) هناك اسطورة مشهورة تقول ان الالهة تتخلى عن المدينة التي حان أجلها قبل سقوطها.

الملطخ بالدماء، وبعد ان سمع [اوكتافوس] اقواله، انسحب الى خيمته وبكى. كان [انطوني] صهره، وكان فضلاً عن ذلك زميله في المنصب، وشريكه في كثير من الأعمال والمعارك. ثم جمع اصدقاءه وأخرج الرسائل التي تبادلها واخذ يقرأها عليهم، ليسمعوا وليروا كيف كان اعتدال لهجته ولطفه، وكيف كان [انطوني] فظاً ساخراً في ردوده كلها. وبعد هذا بعث بروكيوليوس بأوامرٍ تقضي أن يبذل كل مجهودٍ ممكن ليقبض على [كليوباترا] حيةً اذ كان يخشى - كما ذكرت - أن تحرق الملكة كنوزها. كما وجد أن حضورها في موكب نصره بروما، لن يكون شيئاً بسيطاً في اعلاء مجده. ورفضت [كليوباترا] تسليم نفسها [لبروكيوليوس] إلا أنها رضيت بالتحديث اليه عندما وقف امام احد ابواب الضريح على مستوى الأرض. كان هذا الباب منيعاً محكم الصنع ولكن الكلام عبره مسموعاً. وتحدثنا فيما بيننا وطلبت [كليوباترا] أن يحتفظ اولادها بملك مصر. في حين أكد لها بروكيوليوس حسن نوايا [اوكتافوس] قيصرًا وان لا تخشى منه شيئاً ولا تفقد الامل.

وكان [بروكيوليوس] اثناء ذلك يدرس الضريح دراسةً دقيقة، وعندما عاد ابلغ [اوكتافوس] بالنتيجة، أرسل غالوس<sup>(٨٣)</sup>، في مقابلة أخرى لها. وسار هذا حتى وصل الى الباب واشغلها في الحديث في حين اسند [بروكيوليوس] سلماً الى الكوة التي كان انطوني قد أصعد منها. فارتقاه مع خادمين ونزلوا الى الضريح وتقدموا حيث كانت [كليوباترا] واقفة وذهنها منصرف الى مخاطبة [غالوس] ولحمتهم الوصيغة فصاحت بأعلى صوتها:

- ما اشفاق يا كليوباترا! لقد امسكوا بك!

فدارت على نفسها واذا بها أمام [بروكيوليوس]. فاستلت خنجرًا مما يستعمله اللصوص من حزامها وهمت باغماده في صدرها إلا أن [بروكيوليوس] حال دون ذلك وكانت يدها اسرع منها فامسكها وهو يقول:

- انك يا كليوباترا تظلمين نفسك وتظلمين [قيصر] لاتضييعي عليه فرصة اظهار كرمه تجاهك. انه اللف وارق القادة إلا انك تتصرفين كأن امامك عدواً غاشماً لا يحترم كلمة الشرف.

في الوقت نفسه انتزع منها الخنجر ونفض ثوبها لثلاً تكون قد أخفت سما في طياته. وكذلك أرسل [اوكتافوس] عتيقة [ايبافروديتس] Epaphroditus اليها واوصاه أن يتوخى تكريمها ومعاملتها باحترام، وان يتخذ أشد التدابير للمحافظة على حياتها.

(٨٣) روماني من طبقة الفرسان. كان قائداً للقوات التي زحفت على مصر من ليبيا. قلد فيما بعد منصب حاكم مصر وكان صديقاً للشاعر فرجيل الذي قدم له الإكلوج القصيد العاشر Eclogue.

ودخل [اوكتافوس] الاسكندرية وقد وضع يده بيد الفيلسوف [اريوس Areius] وسارا وهما يتحدثان. ليزيد في مقام الفيلسوف في عين الاسكندرانيين ويجعله محترماً، للتكريم الفريد الذي خصه به هذا العاهل. وعندما دخل الملعب الرياضي الأهلي وصعد المنصة التي أقيمت له. وكان الرعب قد ملك على الناس مذاهبهم وخرروا على اوجهم امامه إلا انه طلب منهم الوقوف وأعلن انه لاينوي وضع اللوم على مدينتهم أولاً لأن الاسكندر بانيها. وثانياً لأنه هو نفسه معجب بجمالها وسعتها. وثالثاً احتراماً منه لآريوس. وكان هذا تشريفاً خاصاً للفيلسوف. وبناء على رجائه اصدر [اوكتافوس] العفو عن عددٍ من الاشخاص ومنهم [فيلوستراتوس Philostratus] وهو خطيب مرتجل، لا يبرزه احد من سوفسطائي Saphist زمانه. ولسوء الحظ ادعى زوراً انه فيلسوف أكاديمي.

ولهذا السبب رفض [اوكتافوس] الذي كان يشتمز من كل أسلوب حياته - ان يعفو عنه. فأرسل [فيلوستراتوس] لحيته البيضاء، وارتدى ثياباً سوداء وسار خلف [آريوس] وهو يردد بلا انقطاع البيت التالي:

على العاقل ان كان عاقلاً حقاً - ان ينقذ العاقل

ولما سمع [اوكتافوس] ذلك صفح عنه، وان كان أكثر اهتماماً بتجنيب [آريوس] الإحراج، من تبديد مخاوف [فيلوستراتوس].

واما عن اولاد [انطوني]، فقد وشى بانتيلولوس ابن فولقيا، معلماً له يدعى [ثيودورس] فقتل، وبينما كان الجنود يحتزون رأسه، أختلس هذا المعلم الواشي جوهرة ثمينة كانت تحيط بعنقه، واخفاها في جيبه ثم انكر ذلك ولكن سرقة كشفت وصلب. ووضع اولاده من كليوباترا هم وخدمهم تحت الحراسة. إلا أنهم عوملوا معاملة طيبة. على ان [قيصاريون] الذي قيل انه ابن [يوليوس قيصر] ارسلته امه مع أموال كثيرة في رحلة الهند عن الطريق ايشيوبيا. ولم يمض كثيراً في سفرته فقد اقنعه معلمه رودون Rhodon، وهو على عين شاكلة ثيودورس، بأن [اوكتافوس] سيجعله ملكاً على مصر وحمله على العودة وقيل ان [اوكتافوس] كان يقلب وجوه النظر في الموقف الذي يحسن به اتخاذه ازاءه، حين أخذ [آريوس] يتنرم بشعر اوديسيوس Odysseus المشهور من الالباذة محوراً فيه بما يناسب المقام.

ليس اسوء من أن يوجد «قياصرة» كثيرون<sup>(٨٤)</sup>...

(٨٤) الالباذة ٢٠٤:١١. لما كان اديسيوس يحاول ان يحل النظام والتفاهم في الجيش الاغريقي قال: ليس اسوء من ان يوجد حكام كثيرون.

ويعد موت [كليوباترا] عمل [اوكتافوس] بنصيحة [أريوس]، فأهلكه واما عن [انطوني] فقد طلب عدد من الملوك والقادة (جسده) ليقوموا بمراسيم دفنه، إلا انه لم يحرم [كليوباترا] منه ودفنته هي دفنة ملكية امتازت بفخامتها وروعيتها. وزودت بكل ما أفتضى لهذا الغرض. واصطلح عليها الحزن والألم الذي كابده - اذ اصاب ثدييها ورم وكدمات من شدة اللطم - تقبلت بكل سرور المرض الذي انتابها واتخذته ذريعة لرفض الطعام، ليريحها من عبء الحياة بدون اللجوء الى وسيلة أخرى. وكان أحد رجالها الموثوقين طبيياً يدعى [Olympus] فأنهت اليه بعزمها هذا واعتمدت على مساعدته ومشورته لتحقيق وفاتها، وقد ايد ذلك في ما دونه من تاريخ لهذه الاحداث، نشره فيما بعد. في اثناء ذلك أخذ الشك يساور [اوكتافوس] فراح يخيفها بمصير اولادها، وباستخدامه هذه الضغوط بنفس الطريقة التي يستخدم القائد آلات الحصار ارغمها على التخلي عن قصدها وسحق مقاومتها، فعادت تسمح لجسمها بالمعالجة والغذاء كما رغب [اوكتافوس].

وبعد ايام، ذهب لزيارتها والتحدث معها وحاول اطمئنانها كانت قد عافت حياة الترف التي اعتادتتها، وأختارت البساطة، فوجدها مستلقية على حشية من القش وليس عليها غير رداء من الكتان، وما رأته حتى نهضت والقت بنفسها تحت قدميه كان شعرها اشعث وسحنتها منقلبة وعيناها غائرتين في مقلبيتهما، وصوتها راعش لا سبيل لها الى السيطرة عليه، وعلى صدرها آثار اللطم الشديد الذي احدثته يداها، وعلى العموم بدأ جسمها يكابد من الألم ما لا يقل عن الآلام التي اصابته روحها. ومع ذلك فإن سحرها، وثقتها الطائشة في جمالها، ظلت جذوتها متقدة فيها. وكانا يشعان منها ويضيئان في تبدل سحنتها، وتقلب احوالها، رغم احوالها ورغم مظاهر الألم والأسى. وعلى اية حال بعد ان طلب منها [اوكتافوس] ان تستلقي وجلس بالقرب منها، حاولت في مبدء الأمر تبرير مشاركتها في الحرب وعزت ذلك الى الضرورة والإرغام والخوف من [انطوني] وعندما كان [اوكتافوس] يعارضها في كل نقطة ويفحمها ويبطل حجتها، أسرع بتغيير موقفها وبدأت لتضرع اليه وتطلب ان يرق لحالها بمختلف التوسلات والرجاء. كأنها لاتهتم بشيء غير سلامة حياتها. وأخيراً سلمته ورقة، كتبت فيها تفاصيل كاملة عن أموالها ومقتناها، حسب زعمها. ولكن عندما اوضح [سلوقوس] أحد وكلائها بأنها لم تدرج في القائمة كل ما تملكه وانها أخفت عنه اشياء، انتصبت على قدميها وامسكته من شعره وأخذ تلممه على وجهه، فضحك [اوكتافوس] للمشهد، وأخيراً هدأ من نأثرتها فقالت:

- أليس من المزعج جداً يا قيصر أن يتهمني واحد من خدمني باخفاء بعض الحلبي واللعب

النسوية في محضر منك عندما شرفنتني بالزيارة والتبسط معي في الحديث وأنا في اتعس حال! اني لم احتفظ بها لنفسية الشقية بل لأقدمها هدايا صغيرة مني [لاوكتافيا] ولزوجك [ليثيا]. فبشفاعتهما أوامل أن أجذك أرحم وأكثر عطفاً عليّ.

وسرّ [اوكتافوس] بكلامها هذا لأنه أكد له رغبتها في الحياة. فقال لها أنه سيقبل بكل شيء تسويّه على هذا الأساس وفق رغبتها. على ان أهم من كل هذا هو انه أعتمزم معاملتها باكرامٍ قد لاتتوقعه. ثم انصرف وهو واثق بأنه افلح في خداعها، لكنه كان في الواقع هو المخدوع.

كان من رفاق [اوكتافوس]، شاب من طبقة الأشراف نبيل الخلق يدعى [كورنيليوس دولابلا] (٨٥). يكنّ لكليوباترا حباً، وقد اخضعت له لسحرها. أفلح هذا الشاب في ابلاغها سرّاً - عند الحاحها عليه - بأن [اوكتافوس] ازمع الرحيل الى سورية على رأس جيشه وقرر أن يرسلها هي واولادها الى روما قبله وسيتم ذلك في غضون ثلاثة ايام. وعند سمعت الملكة بهذا كان أول عمل لها ان طلبت من [اوكتافوس] السماح لها بسكب القربان الأخير لأنطوني، وعندما اجيز لها ذلك امرت بحملها الى القبر ترافقها النسوة اللاتي اعتدن ان يكنّ معها. وهناك امسكت بالإناء الذي يحوي رماده وقالت:

- يا حبيبي انطوني. منذ مدة قصيرة دفنتك بيدي هاتين، وكانتا حرتين، أما الآن وقد جئت لاسكب لك قرباناً، فانا اسيرة يحيط بي الحراس واراقب لئلا اشوه جسمي هذا بالضرب عليه أو حتى بالبكاء عليك. لقد اصبح جسم أمة رقيقة وهم يحرسونه ليكون زينة للنصر الذي حققوه عليك. والآن وبعد هذا لاتتوقع اي قربان يقدم لك، هذا آخر تكريم تأتي به لك كليوباترا الأسيرة لأنها ستؤخذ عنك بعيداً. فمع انه لم يكن يفرقنا مفرق في حياتنا. لكن يبدو ان الموت سيرغمنا على تغيير مستقرنا انت الروماني المولد وجدت قبرك في مصر، وانا المصرية التساعة سأحصل من بلادك على المقصد الذي يكفني لأثوي في ايطاليا. لقد خانتني آلهتي وخذلتنني، فاذا وجدت اي عون أو حول في آلهة روما، فكلّ رجائي منها ان لاتترك زوجك طالما هي صبية وان لايدعوها تسيير في موكب نصر يجلكم بالعار. أخفني ودعني وأدفن معك، فلقد ادركت الآن ان آلاف الاحزان التي كابدتها هي لاشيء امام الأيام القلائل التي عشتها بعيدة عنك.

بهذا ناجت [كليوباترا] انطوني، وبكته. ثم توجهت الاناء الذي يحوي رفاته باكليل زهر وقبلته. ثم أمرت بتهيئة حمامٍ، وبعد ان اغتسلت استلقت، وأمرت بطعامٍ فاخرٍ. وجاءها قرويٌّ

(٨٥) هو ابن دولابلا السياسي الذي ورد ذكره في سيرة يوليوس قيصر.



مصريّ بسلةٍ صغيرةٍ فاعترضه الحرس وسألوه عما تحويه فرغ القروي الاغصان التي تغطيها عن تين كبير الحجم آثار دهشتهم. فضحك القروي ودعاهم اليه، فأبوا إلا أن شكهم زال فسمحوا له بأخذ الثمر الى الملكة.

بعد ان تناولت [كليوباترا] طعامها كتبت رسالة [الأوكتافيوس] على لوحٍ ومهرتها بختمها وارسلتها اليه. وبعد هذا صرفت كل اتباعها الأ وصيفتيها المخلصتين وأغلقت ابواب الضريح. وفضّ [اوكتافيوس قيصر] اللوح وما أن قرأ رجاء [كليوباترا] بأن تدفن مع [انطوني] حتى ادرك ما تنويه. واران هو ان يذهب بنفسه لانقاذها إلا انه ضبط ارادته وارسل رسلاً يستطلعون جلية الأمر. إلا ان المأساة سبقتهم وكانت اسرع منهم. اندفع الرسل الى الداخل الضريح فوجدوا الحرس يجهلون كل شيء. وعندما فتحوا الأبواب وجدوا [كليوباترا] مستلقية على سرير من الذهب وهي مرتدية ثيابها الملكية، وتحت قدميها [ايريس] احدى وصيفاتها تعالج سكرات الموت. و[شارميون] الوصيصة الثانية كانت تترنح ولا تقوي على رفع رأسها، منهمكة في اصلاح التاج الذي يحيط بجبين سيدتها. وعندها صاح احد الحراس غاضباً:

- شارميون أهدا عمل لائق؟

فأجابته: لائق، وجدير باميرة انحدرت من صلب هذا العدد الكبير من الملوك.

وما ان أكملت عبارتها حتى سقطت ميتة عند اقدام السرير.

واستناداً الى احدى الروايات أن الصلّ، حمل اليها مع التين وكان مخبأ تحت الاوراق في السلة. لأن كليوباترا قد أعطت اوامر بأن يستقر الشعبان على جسمها قبل ان تعلم به ولكن عندما رفعت بعض التينات لمحتة وقالت:

- اذن فهذا هو.

وقضى الرواية فتقول، انها كشفت عن ذراعها ومدتها اليه فلذغها.

ويقول آخرون أنه كان محفوظاً في ابريق محكم السدّ. وان كليوباترا، اهاجته بوخزه بدبوس ذهبي، شبّ عليها وانشب نابه في ذراعها. إلا ان الحقيقة ظلت سراً لا يعلم به أحدٌ فهناك رواية أخرى تفيد انها أخفت سماً في دبوس شعرٍ مجوفٍ أخفته بلف خصلات شعرها عليه. ومع هذا لم يعثر في جسمها على خدش او كدمة او بقعة أو اي اعراض للتسمم، ولم يشاهد الصلّ في الضريح، الا انه لوحظ شيء شبيه بمسحاله فوق الرمل القريب من الجهة المواجهة للبحر من الغرفة. ويقول بعض الناس ايضاً أنه وجد أثر نابين مغروزين في ذراع كليوباترا يكادان لا يظهران للعين. ويبدو ان [اوكتافيوس قيصر] نفسه أخذ بهذا التعليل، حيث سير في

موكب نصره تماثلاً لكليوباترا وقد تعلق بها صلّ. تلك هي مختلف الروايات عن مصرعها.

كان غيظ [اوكتافيوس] لموت [كليوباترا] شديداً. ومع ذلك لم يسعه إلا الاعجاب بنبل روحها. وامر بان تدفن الى جوار انطوني بكلّ مظاهر الملك وابهته كما شيعت وصيفتاها بكلّ اكرام. ماتت [كليوباترا] ولها من العمر تسعة وثلاثون عاماً. وحكمت اثنتين وعشرين سنة، وشاركت انطوني امبراطورينه في اربعة عشر عاماً<sup>(٨٦)</sup> من هذه المدة. وكان [لانطوني] يوم موته ثلاث وخمسون سنة من العمر في رواية، وستّ خمسون في رواية أخرى<sup>(٨٧)</sup>. وحطمت تماثيله كلها. ولكن سمح بالبقاء على تماثيل كليوباترا منصوبة لأن [ارخيبيوس Archibius] أحد اصداقها دفع لاوكتافيوس ألفي تالنت لانقاذها من مصير تماثيل [انطوني].

ترك [انطوني] سبعة اولاد. منهم بكره [انتيللوس] الذي قتله [اوكتافيوس]. وأخذت [أوكتافيا] البقية الى منزلتها وربتهم مع اسرتها. ودبرت زواج بنت [كليوباترا] التي سميت بنفس الأسم، بـ[جوبا] ملك النوميديين، اوسع حكام عصره فكراً ومواهب. ووصلت [انطوني] وهو احد اولاد [فولبيا] باوكتافيوس فيبلغ ارفع منزلة عنده، ففي الوقت الذي كان [اغريبيا] يتمتع بمنزلة الشرف الأولى عنده واولاد [ليثيا] بالمنزلة الثانية، كان [انطوني] الأبن يتمتع بالمنزلة الثالثة حسب التقدير العام ولم يكن هذا التقدير يتعدى الحقيقة.

كان لاوكتافيا من [مارچلوس] زوجها الأول، بنتان وابن واحد اسمه [مارچلوس]. هذا الولد تبناه [اوكتافيوس] وزوجه بنته. كما زوجت اوكتافيا احدى بناتها من [اغريبيا]. إلا ان [مارچلوس] اعتبط عقب زواجه مباشرة. وادركت الحيرة اوكتافيوس فيمن يجعل له صهراً موثوقاً. فأشارت عليه اوكتافيا بأن يحمل [اغريبيا] على تطبيق ابنتها وان يتزوج بابنته [يوليا]. بالأول اقنعت [اوكتافيوس]، وبعدها حملت [اغريبيا] على الرضا بهذا التدبير فتم زواج [اغريبيا] بـ[يوليا]، وزوجت بنتها المطلقة من [انطوني] الأبن.

اما ابنتا [اوكتافيا] من [انطوني]، فأولهما [أغريبينا]، تزوجت من [دوميسيوس آينو باربوس]<sup>(٨٨)</sup>. وثانيتها [انطونيا] التي اشتهرت بفرط جمالها وذكائها فقد تزوجت [دروسوس] الذي ملك فيما بعد. ومن اولاد [يرمانيكوس] حكم [كايوس] أفضل حكمٍ وقتل هو وزوجه وولده. وبعد ان حملت [اغريبينا] لزوجها وولدت له [لوجيوس دوميتيوس]،

(٨٦) يصعب جداً فهم الرقم. فالمقابلة الشهيرة في تدنوس حصلت في ٤١ ق.م اي بعد عشرين سنوات من [اكسيوم] تقريباً.

(٨٧) ولد انطوني في ١٤ كانون الثاني عام ٨٢ أو ٨١ ق.م. ولذلك مات وهو في الثانية والخمسين أو الثالثة والخمسين.

(٨٨) ابن صديق [انطوني] الذي تخلى عنه عشية معركة [اكسيوم].

تزوجت [كلوديوس قيصر] الذي تبنتى [لوچيوس] هذا وسمّاه [نيرون يرمانيكوس] فكان امبراطوراً في زماننا هذا. فقتل أمّه، وكاد بجنونه وحمقه يصل بالامبراطورية الرومانية الى شفا الخراب. وهو السليل الخامس لأنطوني (٨٩).

١٩٧٢/٢/١٧



تمثال من المرمر لنيرون

(٨٩) وهكذا يستمر النزاع بين اوكتافيوس وانطوني بشكل ما، الى نهاية حكم نيرون (٦٨م) عندما يحمر تماماً في سنة الابطرة الاربعة، بيوت كل من يولييان وكلوديان وانطونيان.

من مدنها. ولم يصده عن هذا معاندة الحظّ له، ووصله الى الدرك الأسفل من البؤس. لم يكن كانطوني الذي دأب على المفاخرة بأنه قضى في مقدونيا على أولئك الذين ارادوا اشاعة الحريات في روما.

أمّا السخاء الذي عرف به [انطوني] وعطاياه وهباته وهو اشهر ما فيه من فضائل، فان [ديمترىوس] بدّه فيها الى آخر حدّ. فما اعطاه هذا لاعدائه وخصومه، كان أكثر بكثير مما اعطاه ذاك لاصدقائه. وارتفع قدر [انطوني] عندما أمر بتكريم رفاق [بروتوس] الذي صرعوا اما [ديمترىوس] فكانت عادته ان يفعل هذا لجميع القتلى من اعدائه دون تفریق. بل رأيته كيف يعيد الأسرى الى [بطليموس] محمليين بالمال والهدايا.

كلاهما كان يغرّه النجاح، ويخرجه عن طوره ويدفعه الى الارتقاء في احضان الترف واللهو. ومع هذا ليس بوسعنا ان نعزو لديمترىوس، تهاونه عندما يدعو الداعي الى العمل بسبب انشغاله في عبثه ومجونه، فالملذات عنده، خادمة للفائض من الوقت. ومحظيته [لاميا]، الشبيهة بلاميا بطلّة الأسطورة. كانت لساعات نصف اليقظة، وشبه الإغفاء ان جاز لنا القول. ولم يكن رمحه مزداناً باللبلاب ولاخوذته عبقة برائحة العطور عندما يدعو دواع الجدّ ويناديه منادي القتال. انه لا يخرج للحرب من مخادع الناس، بل تراه يخمد الصياح الباخوسي، ويضع حدّاً للفجور. ويغدو «كاهن مارس اللاكهونتي» على حدّ تعبير [يوربيدس]. ويمختصر القول ان الملذات والاسراف في اللهو لم تسبب له كارثة. في حين كان [انطوني] اشبه بصورة هرقل - حيث تُرى [أومفاله Omphale] تتناول منه دبوسه، وتحلّ له جلد حقويه - فكثيراً ما كانت [كليوباترا] تتولى نزع سلاحه عنه، وتلهيه عن واجبه، فتفتلت من يده فرص كثيرة ومآثر ضخمة، يفضل عليها الذهب الى [قينوب] و[تافوسيريس Tophosiris] ليعبثا ويلهوا ما شاء لهما العبث واللهو. أخيراً تراه يترك المعركة ويلحق بها ليرقي في احضانها مثل [باريس]، ولنستدرك هنا فنقول ان [باريس] ذهب الى [هيلين] بعد ان خسر المعركة في حين ان [انطوني] ترك المعركة ليلحق بكليوباترا، فضاع منه النصر.

لم يكن في ذلك الحين قانون يمنع [ديمترىوس] من الزواج بعدة نساء فقد اصبح ذلك عادة منذ عهد فيليب والاسكندر عند ملوك مقدونيا. وهو لم يفعل أكثر مما فعله [ليسيماخوس] وبطليموس] اصف الى هذا انه عرف بحسن معاملته لكل من تزوجهن، بعكس [انطوني] فقد اقدم اولاً على عمل يأباه لنفسه اي روماني. اذ تزوج بامرأتين في آن واحد، ثم طرد زوجه الرومانية ارضاءً للاجنبية غير الشرعية. ولم يلحق تعدد الزوجات [بديمترىوس] اي ضرر في حين تسبب هذا دمار [انطوني]. الا ان فسوق [انطوني] لا يمكن ان يتهم بالدنس والعقوق

## أوجه المقارنة بين ديمترىوس وانطوني

كلاهما كان اروع مثل يضرب لتقلبات الحظّ. وعلينا الآن ان نجد سبيلنا الى الوسائل التي استخدمها للوصول الى السلطة. ورث [ديمترىوس] مملكة كان قد ثبت له اركانها [انتيفونس] أقوى خلفاء الاسكندر. فقد توغل بجيوشه في آسيا وأخضع معظم اجزائها قبل ان يبلغ ابنه ديمترىوس مبلغ الرجال. وكان والد [انطوني] رجلاً من الافاضل الا انه لم يكن محارباً ولا بوسعه ان يخلف لأبنة صيتاً ونفوذاً. الا ان ابنه لم يكن يعوزه الإقدام للوصول الى دست الحكم، فهو لم يبلغه بفضل ميلاده كما بلغه [اوكتافىوس]. لذلك يمكن القول انه اصبح وارث مجهوداته الخاصة العظمي وهو مدين لها فحسب. ولما جرى اقتسام الامبراطورية استأثر بالجزء الأفضل. ودحر الپارثيين وهزم قبائل القفقاس البربرية حتى بلغ بحر قزوين ولم يكن بحاجة الى ان يحضر بنفسه بل عن طريق معاونته ونوابه، الأمور التي اساءت الى سمعته هي التي تشهد بعظمته.

في حين نرى [انتيفونس] يعتبر تزويج ابنه [ديمترىوس] بـ[فيلا] بنت [انتىپاطر] رغم انها تكبره بكثير، زواجاً فيه مصلحة كبيرة لنجله. و[انطوني] عدّ زواجه من [كليوباترا] منقصة وهي ملكة من اعظم الملوك سلطاناً وسؤدداً لايعلوها من ملوك عصرها الا ارشاق Arsaces وكان [انطوني] أعظم بكثير من ان يراه الآخرون. قمينا باشياء أعلى مما وقفت عندها رغباته.

واماً بخصوص اهدافهما في حكم امبراطورية، واحقيتهما فيها، فليس ثم ما يبرر لنا ان ننحي باللائمة على [ديمترىوس] لرغبته في حكم شعب تعود حكم الملوك. واما [انطوني] فقد عمل على استعباد الشعب الروماني ولم يكد يتحرر من حكم [قيصر] الفردي، فأتبع طريقة شائكة وسلك سبيل الطغاة، حتى وصم أعظم عمل شخصي له وهي انتصاره على [بروتوس] وكاسيوس] بوصمة عار، لأنه خاضها مستهدفاً سحق حريات ابناء وطنه وبلاده. في حين ظلّ [ديمترىوس] حتى الأخير يدافع عن الحريات في بلاد الاغريق ويطرد الحاميات الاجنبية المحتلة

الديني الذي يتسم به فسق [ديمثريوس] فالمؤرخون يحدثونا ان الكلاب كانت قد ابعدت على [الاكربوليس] بسبب نجاساتها في حين رأى [الپارثنون] نفسه [ديمثريوس] يعاشر الموسسات ويضاجع العاهرات الاثينيات تحت سقفه. ويمكن ان نضيف الى هذه العيوب، القسوة التي تبدو في الظاهر بعيدة على دائرة الرغبات الحيوانية والشهوة. فقد تسبب [ديمثريوس] بازهاق او انه أزهد اجمل شباب الآثينيين وأكثرهم عفة وطهارة. هذا الشاب الذي لم يجد غير الموت سبيلاً للخلاص من فجوره الشرس وبمختصر القول: لقد عانى [انطوني] من فجوره. في حين ان الناس الآخرين عانوا من فجور [ديمثريوس].

وليس بالإمكان ان يوجه انتقاد الى [ديمثريوس] حول سلوكه العائلي. اما [انطوني] فقد سلم خاله للجلادين كيما يُسمح له بقتل [شيشرون] وتلك فعلة تنطوي بخذاتها على وحشية وفضاظة لا يمكن اغتفارها له، حتى اذا كان موت [شيشرون] ثمن حياة خال.

وأما بخصوص نقض [انطوني] عهده، فقد يبرر قبضه على [ارطاباز] تبريراً معقولاً لاينكره عليه أحد. فهذا الملك كان الباديء بالتخلي عنه وخيانتته في ميديا. أما قتل [ديمثريوس]، لإكساندر فقد زعم الكثيرون انه تلمس للفتك به ذرائع لا أساس لها. ولم يكن قتله انتصافاً منه لنفسه لما اصابه من اذى، وانما هو ثأر لشخص آخر لحقه من الأذى.

ان الانتصارات التي حققها [ديمثريوس] كانت بفعله، في حين ان أعظم واروع انتصارات [انطوني] حققها نوابه ومساعدوه في غيابه. واما عن نهايتهما فمسؤوليتهما فيها واحدة الأ انها ليست متساوية على اية حال. فقد ترك [ديمثريوس] في الميدان وحيداً وثار عليه المقدونيون. اما انطوني فقد ترك الميدان وفرّ والرجال يقاثلون في سبيله باذلين ارواحهم. وكان الخطأ الذي ارتكبه اولهما، انه نفرّ منه جنوده ففقد حبههم. في حين ندين الآخر بتخليه عن الحب الشديد والاخلاص المتفاني وهما في حيازته. وموت كليهما لايشير عندنا اي اعجاب. الا ان موت [ديمثريوس] كان أخطأ وأخزى. فقد بقي في الأسر مختاراً. وشكر أسره لمدة بثلاث سنين أخرى في حياته. وسمح لنفسه ان يروض مثل الوحش الكاسر، بالخمر والأكل. اما [انطوني] فقد قضى على حياته بأسلوب الجبان الرعيد الذي لايشير في النفس غير الرثاء على انه أقدم على ذلك في الوقت المناسب ليحول دون وقوع شخصه تحت رحمة العدو.

ديون

**DION**

409 – 354

وبالغوا في تصور الوهم حقيقةً واقعةً. في حين كانت الوسواس تعمل في انفسهم، بالتعاون مع جنيهم الشرير الكامن. ومع هذا فلو صعب على فيلسوفين وعقلين نابيين [كديون وبروتوس] ان يضللهما الخيال، ويشتتهما الخوف المفاجيء وان يكونا عرضة للتأثر المفاجيء بالرؤى حتى انها لا يترددان في الحديث عنها لاصدقائهما، فكيف يتسنى لنا التهرب من الاقرار برأي الاقدمين المسفة تماماً: وهو ان الشر والارواح الضالة تدفعها الغيرة من افاضل البشر، والرغبة في عرقلة طيب عملهم الى اثاره شعور الخوف والهلع في نفوسهم، فتهمزهم وتجعلهم يعثرون وتحول بينهم وبين الحصول على حال اسعد من حال تلك المخلوقات بعد الموت، بالمثابة والاستقامة. على اني سأترك هذه الأمور لفرصة أخرى. وفي هذا الكتاب وهو الثاني عشر من سير عظماء الرجال ومقارنتها. سابدأ بسيرة أكبرهما سنًا.

بعد ان استتب الأمر [لديونيسيوس] الأول بادر حلاً الى الزواج من بنت [هيرموقراطس Hermocratis] السيراكوسي. وفي اثناء الفتنة التي اشتعل نارها قبل ان يستقر الحكم بيد العاهل الجديد، أعتدي على شرف هذه المرأة بشكل بريي مشين لم يسعها معه الا انهاء حياتها بيدها خجلاً وعاراً. وعندما ثبت حكم [ديونيسيوس] ثانية تزوج بامرأتين في آن واحد. اولاهما [دوريس] اللوكرية Locri، وثانيتها [ارسطوماخه Aristimache] الصقلية بنت [هيبارنيوس Hipparinus] وهو رجل من افاضل السيراكوسيين. كان زميلاً [لديونيسيوس] عند اختياره لأول مرة جنراً مطلق الصلاحية لغرض ادارة الحرب. وقيل ان ديونيسيوس تزوج بامرأته في يوم واحد، كان [السيراكوسيين] في الواقع متشددين في تفضيل نسائهم على الأجنيبات، فكان القدر اراد تعويض [دوريس] عن اصلها الاجنبي فجعلها امًا لأبن، ووارث للأسرة. في حين بقيت [ارسطوماخه] عاقراً مدة طويلة، في حين كان [ديونيسيوس] يرغب جداً في الانجاب منها. واتهم ام [دوريس] بأنها سقت [ارسطوماخه] عقاراً منعها من الحمل، وامر بها فقتلت.

ووجد [ديون] شقيق [ارسطوماخه] حفاوة وتكريماً بسبب اخته. الا انه مواهبه وكفاءته ما لبثت ان آمنت له محبة صهره، وقربته منه كثيراً، ومما شرفه به انه اصدر أمراً لمدير خزانته بأن يعطي [ديون] اي مبلغ يطلبه على ان يخبره في اليوم نفسه كم دفع له وعرف [ديون] بالتعالي والخيلاء، ونبل الضمير والشجاعة الفائقة. الا ان هذه السجيا العالية زادت تهذيباً وتسامياً بعامل الحظ السعيد الذي هدى [افلاطون] الى زيارة صقلية من تلقاء نفسه، من دون ان يدعوه احد، او يتوقعه بشر. قوة فائقة للطبيعة قضت ان يكون هذا الحدث عاملاً في استعادة صقلية حرباتها السليبية وقلب نظام الحكم المستبد. فقدفت بالفيلسوف من ايطاليا

إن كان - اي [سوسيوس سينيوكو] ما قاله لنا سيمونيديس بأن طروادة لا تشكو من الكورنثيين

مساهمتهم مع الآخانيين في حصارها، لأن الكورنثيين كانوا يقاتلون ايضاً في صفوف الطرواديين بشجاعة ف(كلاوكوس خرج من كورنث ايضاً)، فلنا ان نقول بكل اطمئنان ان الرومان والاغريق لا يمكن أن يخاصموا الأكاديمي. فكل أمة منهما ممثلة فيها. كما تكشف عنه سيرتا بروتوس وديون التاليتين.

كان [ديون] أحد تلاميذ افلاطون. و[بروتوس] من معتنقي الافلاطونية والناشئين عليها. لقد نبغ كلاهما من ارومة هذه المدرسة، وسارا خفافاً على دربها والشرف والكرامة ولم يكن بعجيب وهما في سبيل اداء رسالتهم المتحددة المتشابهة. ان يؤكد صحة ما قاله معلمهما:

«ان الأعمال ذات الطابع العام لا يمكن ان تحقق اهدافها الصحيحة والعظيمة والنبيلة الا اذا تعاونت القوة مع النجاح» وكما أكد مدرب المصارعة [هيپوماخوس Hippomachus] انه سهل عليه تمييز تلاميذه من بعيد، وان كانوا يحملون اللحم من المجازر، وكذلك أولئك الذين نهلوا من البنبوع الثقافي نفسه تبدو مبادؤهم متطابقة وسلوكهم متشابهاً في أعمالهم كلها، وتخلق فيما بينهم انسجاماً وتوافقاً مستساغاً ولائقاً في الوقت نفسه.

ولنا ان نستنتج الشبه الشديد للرجلين من المصير الذي آلا اليه، فقد جعلتهما الظروف شبيهين، اكثر مما جعلت اهدافهما متشابهة. إذ اخترهما الموت وهما في عنفوان شبابهما ولم يتح لهما الوقت لانجاز تلك الاهداف خلال كثير من المصاعب والأهوال، واعجب ما في الأمر ان تدخلت خارقاً للطبيعة انبأهما بقرب نهاية حياتهما، بظهور شبح غريب لهما. ومع انكار الكثير من الناس وجود شيء كهذا بقولهم:

لم ير انسان سوي كامل الحواس شبحاً أو رؤى فائقة للطبيعة، خلا الاطفال، والنساء المتعلقات بالأوهام والرجال الذين اثر المرض في عقولهم أو جسمهم فتجسمت لهم الأخيلاء،

الى سيرا قوسه وربطت ما بينه وبين [ديون] بأواصر صداقة دائمة. كان [ديون] انذاك فتىً صغير السن، الا أنه كان أسرع تعلماً ووسع استيعاباً واحضر بديهية واشوق الى الممارسة الفعلية لدروس الفضيلة من سائر التلاميذ الذين استمعوا لأفلاطون بشهادة الفيلسوف نفسه وبالبرهان الساطع الذي اثبتته افعاله. فمع انه نشأ في بيئة يسودها الطغيان، وآيته الذلة والخنوع، ومع تعودده حياةً هي من ناحية عبودية وذلّ، ومن ناحية ترف سجع، سعادة زائفة لشعب لا يرى امامه سبيلاً أفضل من الإنغماس في الملذات واللهو. الا أنه ذاق اول طعم للحكمة والفلسفة اللتين تتوخيان سيادة الفضيلة، فشبت النار في روحه شوبياً. واستنتج من حالته هذه، بسذاجة الشباب، ان التغيير نفسه قد يحصل لديونيسيوس فراح يعمل جهده لحمله على الاستماع الى [افلاطون] حتى نجح، وأخذ [ديونيسيوس] يحضر دروسه في اوقات فراغه، وكان موضوع الدراسة في ذلك الوقت. الفضيلة الانسانية. وكانوا يتناظرون بصورة خاصة حول ضبط النفس، وقد برهن [افلاطون] ان الطغاة هم أقل الناس حظاً منه دون سائر الناس. ومنها انطلق لمعالجة موضوع العدالة. فأكد حالة السعادة التي يرفل فيها الحكم العادل. والبؤس الذي يعانیه الظالم. وهو الجدل الذي لقي اذنا صماء من [ديونيسيوس] على انه شعر بضعف حجته وبأنه مدان، وساءه كثيراً ان يجد بقية المستمعين ممثلين اعجاباً بالمتكلم، مأخوذین بقوة حجته. أخيراً ضاق ذرعه، وبلغت روحه التراقي فسأل الفيلسوف والغضب يعصف به:

- ما الذي جاء بك الى صقلية؟

فقال افلاطون: جئت ابحث عن رجل فاضل.

فقال ديونيسيوس: الظاهر ان جهودك ضاعت سدى.

وظنّ [ديون] أن هذا كلّ ما اراد [ديونيسيوس] قوله، ولن يخرج على الحدّ. وطلب [افلاطون] ان يتدبر امر رحيله فأصعده سفينة متوجهة الى اليونان كان فيها [بوليس - Polis] السبارطي، فأتصل [ديونيسيوس] بهذا الرجل سراً واتفق معه ان يفتك [بافلاطون] باية وسيلة يراها. وان عزّ عليه ذلك فأن يبيعه عبداً. ولم يكن هذا ليضر افلاطون طبعاً. اذ سيبقى ذلك الرجل العادل وسيتمتع بالسعادة المتأتمية منه وان فقد حريته، وتمضى الرواية فتذكر ان [بوليس] أقلع بافلاطون، حتى [ايجينيا] وهناك باعه. وكان [الايجينيون] اذ ذاك في حربٍ مع أثينا وقد اصدروا مرسوماً يقضى بأن يعرض للبيع في سوق النخاسة، كلّ أثيني يقبض عليه في سواحلهم. على ان منزلة [ديون] عند [ديونيسيوس] لم تقلّ مع ذلك، بل ظلّ تقديره له كما كان واوكل به اخطر المهام وارسله الى قرطاجنة في سفارات هامة، فطارت شهرته

وارتفعت سمعته. وكان العاهل المستبد، فضلاً عن ذلك يسمح له بحرية مطلقة في الكلام، بصراحة ودون رجلٍ. وكان في هذا المجال الوحيد بين اصدقائه. ومن ذلك انه أنبه في قضية [غيلون Gelon] الذي كان [ديونيسيوس] من حكمه ويقول عنه انه مضحكة صقلية، ولما أظهر السامعون اعجابهم بهذا التهرب واستحسانهم له اجاب [ديون] بكثيرٍ من الحزم.

- على اية حال، انت الحاكم المطلق هنا، لأنك استؤمنت ووضعت به الثقة اكراماً لغيلون. ولكن من الآن فصاعداً لم تعد الثقة ممكنة باي رجلٍ اكراماً لك.

ذلك لأن [غيلون] مارس الحكم الملكي بشكل جعله يبدو افضل نظام حكم في حين جعله [ديونيسيوس] في نظر الناس اسوء حكم. انجبت دوريس لديونيسيوس ثلاثة اولاد وانجبت له [ارسطوماخه] اربعة منهم بنتان وهما [سوفروزينه Sophrosyne] و[أريته Areta]، فزوج [سوفروزينه] من ابنة اخيها [ديونيسيوس] وزوج الثانية اخاه الذي هو عمها - [ثياريدس] وتوفي هذا، تزوجها [ديون].

وسقط [ديونيسيوس] مريضاً وبعد فترة حضرته الوفاة، وحاول ديون جهده ان يكلمه بخصوص اولاده من [ارسطوماخه] الا ان اطباءه لم يسمحوا له. وكانوا بهذا يريدون نيل حظوة عند خليفته. قال [طيماؤس] ان ولي عهده سقاه جرعة منومة ارادها. فأحدثت غيبوبة لم يفيق منها.

وفي مجلس الشورى الذي عقده [ديونيسيوس] الأبن من اصدقائه، أجاد [ديون] في شرح الوضع الراهن. ويدا الحاضرون كلهم امامه اطفال سياسة، كما ظهروا في تصويتهم عبيداً أكثر منهم مستشارين فقد وافقوا على كل ما يبهج الشاب ويرضيه جنباً منهم ومكراً دون ان يكثرثوا بما هو صالح له. واصابهم [ديون] برعبٍ شديد عندما ادلى بالاقتراح الخاص بكيفية اجتناب الخطر المحقق جراء حربٍ محتملة مع القرطاجيين. فقد وضع رأيه بالصورة التالية:

«ان شاء [ديونيسيوس] سلاماً فعلياً ان يبحر فوراً الى افريقيا ويرمه هناك بشروط شريفة. اما اذا فضل الحرب فعلياً ان يبني ويجهز على حسابه الخاص خمسين سفينة حربية لهذا الغرض».

واعجب [ديونيسيوس] كثيراً بفكرته النيرة واشاعت الارتياح في نفسه. الا ان افراد البطانة اعتبروا رضاه هذا مضراً بهم وداخلهم الحسد من منزلته التي ستخفف من مكانتهم. فأخذوا منذ ذلك الحين يتحينون الفرص ليقوموا بين [ديونيسيوس] وبينه عن طريق الإفتاء والتشهير به. فصوروا للعاهل بأنه يريد استخدام قوته في البحر والاستعانة بها لقلب نظام

الحكم ونقل السلطة الى اولاد اخته [ارسطوماخه]. على ان اظهر واقوى اسباب الجفاء والتباغض كانت تكمن في اختلاف امزجتهما، ومشاربهما من الاول كما كانت تعزى الى انطوائية [ديون] وتحفظه؛ مقابل الزلفى والوسائل الرخيصة التي استخدمها الآخرون منذ البداية لنيل رضى الأمير والتقرب منه وهو الشاب الذي فتح عينيه على الشهوات. وكانوا يسهلون له ملذاته، ويجتهدون في ايجاد علاقة غرامية جديدة له كل يومٍ واغرائهم اياه بمعاقره الخمر ومجالسة النساء وغير ذلك من طرق الفساد، وبدأ الاستبداد للرغبة بهذه المظاهر - كالحديد الذي يلين في النار، ووجدوه أكثر اعتدالاً وسماحةً؛ وقل صرامةً وشدّة، لقد فلّ من غُراب الطغيان تراخي العاهل وتفسحه لا رحمته وعدله. وكان هذا التفسخ يزداد ويتمكن منه يوماً بعد يوم فانكسرت «تلك السلاسل المتينة» التي جعلت الملكية محكمة الشدّ امينة، على حدّ تعبير ابيه. وروي انه بدأ مرة مجلس شراب يتخلله الفجور، فواصله تسعين يوماً دون انقطاع، فلم يعرض عليه أمرٌ أو قضية ولم يقابله بشر ولم يسمع اي حديث جدي في البلاط. ليس غير الشرب والغناء والرقص والخلاعة والمجون دون ضابط او رادع.

لا غرابة اذن أن مالت البطانة عن [ديون] وخصوه بجفوتهم لأنه لم يأخذ بسبيل الغواية ولم يعرف عبث الشباب وملاذه، وكانت سجاياه موضع افتراء اتهم. فينعتونها باسم أو آخر مقبول الظاهر من اسماء الرذائل. أسموا وقاره كبيراً، وعتوا صراحتة بالعناد ونصائح الجيدة بالتأنيب والتقريع. وانتقدوه لاحقاره أولئك الذين ابى مشاركتهم موبقاتهم. ونقول للحقيقة والواقع ان ثمّ تزمتا وترفعاً وتحفظاً وانطوائية كانت تبدو لعشرائه وفي تعامله. مما جعل صحبته ثقيلةً بغیضة ليس عند الطاغية الشاب وحده ذلك الذي فسد سمعه بالملق والمداهنة، بل عند كثير من أصدق اصدقائه وان احبوا فيه استقامته وسمو اخلاقه. لقد عابوا عليه سلوكه ومالوا الى الاعتقاد بأن اوثق الناس صلةً به، لاينالون منه ما يجب من الاحترام والاهتمام الذي يلزم رجال السياسة عادةً. وقد تطرق [افلاطون] نفسه الى هذا النقص عند كتابته اليه فيما بعد، فنصحته وكأنه نبيّ ان يجتنب بكلّ حذر ذلك الطبع المستبد الذي لا يجد له رفيقاً الا العزلة والوحداية.

ولقد اعتبر في هذا الوقت بالذات الدعامة الوحيدة الكفوءة لتثبيت الحكم المتداعي، وان الظروف هي التي جعلته شخصية هامة لهذا الغرض مع انه كان يعلم بأنه ليس مديناً بمركزه الرفيع الى فضل او منة بل الى ضرورة ماسة ارغمت الطاغية على الاستعانة به. أفترض ان الجهل هو علة [ديونيسيوس] فبذل الجهد في اقناعه بالاجتهاد في دراسة العلوم العقلية، وان يسمعه شيئاً عن مبادئ الاخلاق والموازنة الفكرية في الأمور، وكان يأمل أن يتغلب الشاب

على تخوفه من الحياة الفاضلة، وان يتعلم كيف يجد اللذة والسعادة في الأعمال الطيبة الجديرة بالثناء. لم يكن [ديونيسيوس] مجبولاً على الفساد، ولم يكن اسوء مثال للمستبد، فأبوه هو المسؤول عما آلت اليه حاله. لقد كان يخشى ان يتآمر عليه ان ازداد فهما لنفسه او اتصل بالحكماء والفلاسفة؛ فيزيحه ويقضي على سلطانه. ولذلك أبعدته عن المعرفة وأغلق ابواب الحقيقة دونه فأفتقد العشرة الحسنة ولم يدر افضل الوسائل لقضاء اوقاته، فأخذ يتلهى بصنع عربات صغيرة، وكراس وشمعدانات ومناضد وما شابه ذلك في اشغال النجارة. كان [ديونيسيوس] الأب عظيم الشك فاقد الثقة دائم الحذر من الجميع، حتى انه ابى أن يقص شعره بألة حلاق. بل كان يأمر أحد خدمه بازالة الجزء الأعلى منه، بحرقه بجمرة متقددة من الفحم ولم يكن يسمح بأن يدخل عليه ابنه او اخوه بثيابهما، بل كانا يخلعاهما اسوةً بغيرهما من المتقابلين وينظرهما وهما عاريان ثم يرتديان ثياباً أخرى واذا ذاك يسمح بمقابلتهما. ومرة كان اخوه [لپتينس Leptones] يشرح له موقع موضع من المواضع وهيئته. فأختطف رمحاً من يد احد الحراس ليخط بسنانه رسماً توضيحياً. فغضب عليه [ديونيسيوس]. وامر بالحراس الذي نزل عن رمحه له، فقتل في الحال. وكان يقول:

- كلما كان اصدقائي عقلاء، كلما زاد شكي فيهم. فأنا أعلم يقيناً بأنهم لن يتخرجوا عن الطغيان، ولن يكونوا رعية لطاغية، لو كان الحلّ والعقد بيدهم.

وقتل [مارسياس Marsyas] وهو ضابط اناط به قيادة هامة، لأنه رأى في نومه انه تولى قتله، وعلل فعلته هذه بقوله:

- لو لم تداعبه الفكرة في يقظته لما تخيلها في نومه.

وكان على درجة كبيرة من الجبن، وكان عبداً شقيماً لمخاوفه ومع هذا غضب من افلاطون، لأنه لم يعده أعظم الاحياء بسالةً واقداماً!

نعود فنقول، لما وجد [ديون] ان الأبن نشأ نشأة معيبة فاسدة لافتقاره الى التهذيب، أخذ يحثه على الدرس، وان يلح على [افلاطون] أعظم الفلاسفة طراً بزيارته في صقلية. وان يضع نفسه تحت تصرفه ويتلمذ له فلعل تعاليمه تقوّم طبعه وتهديه الى حقائق الفضائل، والاقتداء بحياة الأرياب و«بالأنسان الكامل» السنّي وباطاعة أولئك الذين تحفظ رقابتهم نظام الكون الجميل. فباتباعه هذا النهج قد يحقق السعادة العظمى لنفسه ولرعاياه الذين سيندفعون الى اطاعته مختارين ممتنين لعدائته وسماحته، كما يطيعون آباءهم. اما الآن فهم مرغمون بحكم الضرورة على الخضوع له وهم حائقون متضجرون كما يخضعون لسيد غاشم. انه لا يعود



طاغية غاصباً بل ملكاً شريعياً محبوباً ليس القوة والخوف والاسطول البحري وجيش مستعد قوامه عشرة الاف من البرابرة المرتزة السلاسل المتينة التي تحمي النظام الملكي وانما هي الحب، والتفاني، والاخلاص المتولدة من الرحمة والعدل. وهذه على كل حال اقوى واشد الروابط دواماً لدعم الحكم الطويل الأمد وان كانت أكثر مرونة من أغلال الصرامة والقسوة. أضف الى هذا انه لمن الخسنة والحطة ان يعنى الحاكم بارتداء الفاخر من الثياب وترف العيش والاسراف، في حين لا يبدي من العقل والحكمة ما يوازي ابسط العقول واشدها سذاجة بين رعاياه ولايزخر قصر عقله الفاخر بما يناسب مقامه الملكي.

كثيراً ما تطرق [ديون] الى هذا الموضوع في احاديثه مع الملك مردداً بقدر ما تسنح له الفرص - بعض اقوال الفيلسوف، فأخذ شوق [ديونيسيوس] يزداد الى افلاطون وسماع محاوراته ولج به الصبر وراح يتبع الرسالة بالرسالة اليه في آثينا. فضلاً عن رجاء [ديون] وتدخل بعض الفلاسفة الفيثاغوريين من ايطاليا الذين بعثوا يلحون عليه بالمجيء للسيطرة على تلك الروح الشابة المطوعة لعلها تنصلح بتأثير مناظراته العقلية الصائبة، فتستقيم وتتهادى فوق بحار السلطة المطلقة والاستبداد. ولم يجد [افلاطون] بدأً من النزول عند الحاحهم، «خجلاً» كما يذكر لنا أكثر من اي شعور آخر. ولئلا يبدو مجرد واعظ نظري لا يغامر بالتطبيق العملي بمحض رغبته. فكان أمله ان يوفق في شفاء الرأس والدليل وبه قد يشفى كل ما تشكو منه الجزيرة.

لكن اعداء [ديون] داخلهم الخوف من انقلاب قد يحصل لديونيسيوس، فأقنعوه بدعوة [فيلستوس Philistus] من منفاه بايطاليا، وكان هذا اخا معرفة، وعلم، وتجارب عميقة في أحوال الطغاة وأخلاقهم، يصلح ان يكون نداً مقارعاً لافلاطون وفلسفته. كان من البداية اداة فعالة في تثبيت اقدام استبداد الفرد وظل مدة طويلة يتولى قيادة القلعة وقد شيع عنه في حينه انه كان على صلة حب بأم ديونيسيوس الأول. ولم يكن هذا غافلاً عنها. وعمد [ليبتينس] اخ [ديونيسيوس] الى تزويجه بأحدى بنتي عشيقته له كان قد اغواها، دون علم من أخيه، فغضب هذا غضباً شديداً وادع عشيقته [ليبتينس] السجن ونفى [فيلستوس] من صقلية. ففر هذا الساحل الادرياتي ونزل حمى بعض اصدقائه، ويرجح انه كتب هناك معظم اجزاء تاريخه وقت فراغه وبطالته، فقد ظل بعيداً عن صقلية طوال مدة حكم ديونيسيوس الأول، وكما ذكرنا نجح خصوم [ديون] في الغاء امر ابعاده عن الوطن لأنه أصلح الجميع لأغراضهم، فضلاً عن كونه من انصار الحكم الاستبدادي والمدافعين عنه. ولذلك صار يسعى الى دعمه في صقلية فور عودته. وواصل المفترون النحامون يصبون الاتهامات في اذن الملك

كقولهم ان [ديون] يرأس كل من [هيراقليدس وثيودوتس] لقلب نظام الحكم. ولاشك أن [ديون] كان يأمل ان يخفف مقدم افلاطون صرامة الحكم واستبداد الطاغية وتحويل [ديونيسيوس] الى حاكم عادل قانوني، فان ظل معانداً معرضاً عن اجراء اي اصلاح، عمل على خلعه واحلال الحكم الجمهوري في المجتمع السيراكوزي. ولم يكن [ديون] بالأصل من محبذي الحكم الديمقراطي، إلا انه كان يجده على اية حال افضل من حكم الفرد واستبداده حين يتعذر اقامة حكم ارستوقراطي جيد.

هذا هو الموقف عندما وصل افلاطون الى صقلية. وقد استقبل بمظاهر رائعة من التكريم والود. كانت بانتظاره على اليايسة عربية ملكية فاخرة، وقام [ديونيسيوس] نفسه بتقديم قربانين الشكر للآلهة، اعترافاً بجميلها وانعامها على حكمه بهذه السعادة.

وانتشعت آمال المواطنين وراحوا يتطلعون الى اصلاح عاجل عندما لاحظوا التواضع الذي أخذ يسود المآدب، والأحتشام الذي تسربل به البلاط. والانقلاب الخلفي الذي طرأ على [ديونيسيوس] وكيف صار يعاملهم برقة وانسانية، ويعالج شؤونهم بعدل ولين، وكان ثم انصراف عام الى الفلسفة والحكمة. وذكر ان القصر كان يمور بالأغربة لكثرة ما كان يؤمه من طلبة الرياضيات وانشغالهم بحل المسائل الحسابية.

وحلّ موعد تقديم احد القربان السيراكوسية. وجريا على العادة المتبعه أخذ الكاهن يدعو بطول العمر لحكم الطاغية، وبسلامة نظامه، فقيل ان [ديونيسيوس] الحاضر صاح به:

- كفك صلاة ودعوات بدوام الشر.

استاء [فيلستوس] وانصاره لهذا التحول. وقدروا ان خطر [افلاطون] عليهم يتعاضد. فبهذه المدة القصيرة استطاع ان يحدث تحولاً وتغييراً عميقاً في عقلية الفتى، فكيف به لو طال بقاؤه وامتدت محاوراته؟ ولاشك ان سلطانه عليه سيكون عظيماً. ولذلك وجب عليهم ان يتخلصوا من وجوده كيفما كان. فانتقل جميعهم الى الافتراء العلني على [ديون] ونبذوا اسلوب الغمز واللمز فراخوا يشيعون للملأ أن الفتى مفتن بسفسطة [افلاطون] وانه مسحور به. وسوف يحمل على اعتزال الحكم مختاراً ليحل [ديون] محله فيه وينتزع الملك لأولاد اخته [ارسطوماخه]. وتظاهر فريق منهم بالحرص على سلامة البلاد، فقالوا ان الآثينيين الذين جردوا على صقلية اسطولاً عظيماً وانزلوا اليها جيشاً برياً قوياً، فلم يفلحوا في الاستيلاء على سيراكوسة وهلكوا دونها، يحاولون اليوم عن طريق [سفسطائي] لقلب نظام حكم [ديونيسيوس] ويهددون بتسريح حرسه البالغ عشرة آلاف من الرماحة، وتصفية اسطوله

البحري المؤلف من أربعمئة سفينة. والغاء كتائب الخيالة البالغة عشرة آلاف فارس واضعاف هذا العدد من المشاة، ويعزي بالبحث عن المجهول وعن السعادة الوهمية في المدارس، وكيفية العيش الهنيء بمزاولة حَلِّ الرياضية. في حين سيكون التمتع بالسلطان المطلق والغنى والملاذات من نصيب [ديون] واولاد أخته.

بهذا الاسلوب بدأت الشكوك تساور [ديونيسيوس] حول نوايا [ديون] واخذ يقابله بجفاء واعراضٍ متزايدتين بالتدريج. ثم ضبطت رسالة من [ديون] الى وفد القرطاجنيين القادم لأجل مفاوضات السلم، ينصحهم فيها بأن لا يقابلوا [ديونيسيوس] حتى يتصلوا به. وبهذا لن يجيبوا في الوصول الى ما يريدونه. أُطلع [ديونيسيوس] على الرسالة ورفع بها الى [فيليبستوس] وتشاورا معاً فيما يجب عمله، ويخبرنا [طيماسوس] أن العاهل تظاهر بالركون الى [ديون] وأظهر له الودّ والمصافاة ثم سار معه يوماً الى ساحل البحر حتى بلغا اسوار القلعة، وأخرج الرسالة وجابهه بها واتهمه بالتأمر عليه مع القرطاجنيين. ولم يسمح [الديون] بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه وانما نقله بالقوة الى سفينة كانت قد ارسيت هناك لهذا الغرض، وأمر البحارة بالاقلاع به وانزاله في ساحل ايطاليا.

وشاع أمر نفيه، وأعتبر عملاً قاسياً لامبرر له، وكان ثم بكاء ومناحة عند نساء بيت الطاغية نفسه. على ان السيراقوسيين قابلوا الأمر بجلد وشجاعة اذ كانوا يتوقعون من هذا اضطراباً وعصياناً بعد فقدان الثقة وضياح الأمل باصلاح الحال وكانوا يتطلعون الى ثورة وتغيير سياسي في نظام الحكم. ولم يخف ذلك على ديونيسيوس وهو يرى الحواطر تائرة والنفوس هائجة فانتابه دعر الشديد واخذ يهديء روع النسوة واقرباء [ديون] الآخرين وانصاره، مؤكداً لهم بأنه لم ينفه وانما ابعدته فترة من الزمن خوفاً من نوبة غيظ تفاجئه يوماً بسبب عناد [ديون] وتمسكه برأيه فتدفعه الى عمل يأسف عليه. وقدم لاقربائه سفينتين وسمح لهم أن يرسلوا فيها كل ما شاؤا من متاع وخدم اليه في [البلوبونيسيوس].

كان [ديون] في غاية من الثراء. وكان ااثاث منزله يضاها ما عند الملوك فخامة وابهة. فحزم اصدقائه تحفه واثاثه الثمينة، مع مقدار كبير من الهدايا الغالية التي بعثت بها النسوة والأنصار فظهر [ديون] بين الاغريق بمظهر الوجاهة والترف بقدر ما يتعلق الأمر بالغنى. ولعلمهم حكموا من غنى المنفي على مدى السلطان الذي يتمتع بع الطاغية.

ونقل [ديونيسيوس] افلاطون الى القلعة ووضع عليه حرساً، تحت ستار التكريم والحفاوة. وكان يخشى ان يلحق بديون ويعلن للملا ما لقي صديقه من سوء المعاملة. اصف الى هذا، ان عاملي الزمن والدراسة روضاً [ديونيسيوس] كما تروض الوحوش الضارية، فتقلب أليفة -

فأصبح يلتذ بصحبة افلاطون ومناظراته، وبدء حبه يغزو قلبه، بشكل فيه اثره، وتعلق أناني لا يخلو من نوازع الاستبداد، اذ كان يتطلب من افلاطون بالمقابل ان يخصه بحبه وحده دون الآخرين وان يكون به أُلصق الناس. وايدى رغبته في ان يعهد اليه بادارة دفة الدولة العليا، شريطة أن ينزله المنزلة الأولى في قلبه. هذا الإفراط في العاطفة كان مصدر ضيق شديد لأفلاطون فقد صحبته نزوات من الغيرة العمياء، والوقاحة كان من قبيل العواطف الجامحة التي نراها عند العاشقين الوالهيين، فكثيراً ما كان يغاضبه ويجفوه، ليعود حالاً نادماً مستغفراً مستوكفاً صداقته مرة أخرى. وكانت تدفعه رغبة جنونية في ان يُعد تلميذاً للفيلسوف هذا امام منتقديها ومسفهيهها، الذين يصارحون بأنها ستكون سبباً لدماره.

ولكن الحرب نشبت في اثناء ذلك. فصرف [افلاطون] بعد ان تعهد له بالغاء قرار نفي [ديون] والسماح له بالعودة الى الوطن في الصيف القادم. وكان في وعده هذا كاذباً. لكنه ارسل لديون ربع املاكه. واعتذر من افلاطون عن اخلافه واقسم له ان سيستدعي [ديون] فور انتهاء الحرب. واعرب عن امله في ان يركن [ديون] الى الهدوء خلال هذه الفترة، وان لا يثير الفتن ولا يتكلم عنه بالسوء امام الاغريق. وهذا ما عمل [افلاطون] في سبيله، بابقاء [ديون] ملازماً له في الأكاديمي والهاثة في المتابعات الفلسفية.

سكن [ديون] الحي الأعلى من مدينة آثينا مع [كالليبس Callipus] أحد اصدقائه. وابتاع بيتاً في الريف للراحة والاستجمام، وهبه لـ [سپيوسپوس Speusippus] اعز اصدقائه عند عودته الى صقلية. وقد فعل [ديون] ذلك نزولاً عند نصيحة [افلاطون] الذي كان يريد ان يلين طبعه الصارم بالعشرة الجميلة التي تتخللها فترات عفوية لمجلس الأتس والمرح المناسبين وكان [سپيوسپوس] مرحاً. فقد ذكره [تيمون] في كتاب سليلي Silli بقوله «اشتهر بالفكاهة والمزاح». واتفق ان طُلب من [افلاطون] تنظيم جوق صبيان، فعهد بذلك الى [ديون] الذي أخذ الأمر على عاتقه ادارةً ونفقات. وبذلك اتاح له الفرصة للتفضل على الاثينيين، بمنة مؤملاً بذلك ان يكسب لصديقه من العطف أكثر مما يؤمن من الثقة. وسافر [ديون] الى مدن أخرى وقابل فيها ارفع واشهر شخصيات الاغريق، وجالسهم في انسهم وراحتهم وايام اعيادهم، ولم يُعز اليه في كل هذه المواجهات اي تصرف سوقي او خيلاء أو سفه، بل اظهر قدراً كبيراً من التواضع والسخاء والشجاعة والتذوق الرفيع للمناظرات الفلسفية والمناقشات العقلية، فظفر بحببة الجميع واعجابهم وكرمه مدن كثيرة. فاللقيدييون منحوه المواطنة السپارطية دون ان يعباؤا بسخط [ديونيسيوس] الذي كان في ذلك الحين يعاونهم في حريهم مع الاثينيين.

ومما روي انه قصد مرة زيارة [پتويودورس Ptoedorus] الميغاري بدعوة منه وهو رجل غني

جداً وذو مكانه كما دل عليه ظاهر حاله. فوجد صعوبة في الوصول اليه بسبب حشود الناس المجتمعة امام بابه، ولضغط اعماله الكثيرة فالتفت الى اصدقائه وكان قد بدا عليهم الغيظ والضيق، وقال:

- كيف نلوم [پتويودورس] ونحن في سيرا قوسة لا نفعل افضل من هذا؟

ما مرّ زمن يسير حتى قطع [ديونيسيوس] عن [ديون] ريع املاكه حسداً وغيره من المنزلة التي نالها عند الاغريق. ونصب حراسه القضائيين عليها. وحاول ان يتحاشى انتقاد الفلاسفة وفقدان ثقتهم بسبب تأثير [افلاطون] فراح يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من رواد المعرفة المشهورين والحكماء، واراد ان يظهر طول باعه وتمرسه في صناعتهم تلك تحكيماً واقتداراً بمحاورتهم ومناظرتهم مستخدماً المبادئ التي تلقاها عن [افلاطون] بشكل مغلوط في أكثر الأحيان.

ثم حنّ عليه، وخالطه ندمٌ لأنه لم يحسن الافادة منه عندما كانت معارفه ميذولة له. وأسف لأنه لم يهتم بدروسه الرائعة، وكما هو شأن المستبد الذي لا يرد له حكم، العنيف في تحقيق نزواته وكل ما شاءت ارادته؛ وجد نفسه شديد الرغبة في مجيئه. فلم يترك باباً الاً طرقة، ولا حجراً الاً قلبها في هذا السبيل ثم ولى وجهه شطر [ارخيتاس Archytas] الفيثاغوري أحد معارفه الذي كان مديناً له بأولى علاقاته مع [افلاطون]، وطلب منه أن يضمن كلمته عند [افلاطون] وان يشجعه للقدوم الى صقلية ثانيةً. فبعث [ارخيتاس] اليه برسوله [ارخيديموس]، كما ارسل [ديونيسيوس] من جانبه عدداً من الاصدقاء والسفن لحمله على قبول دعوته. وكتب اليه مؤكداً انه لن يحقق [لديون] اي رجاٍ أو طلبٍ ان لم يوافق على القدوم. اما اذا وافق وجاء فعلاً فان كل ما يطلبه [ديون] سيجاب، وتسلم [ديون] من اخته وامراته رسائل مفعمة بالضرعات والشفاعات، والالحاح عليه بالرجاء من افلاطون تلبية طلب [ديونيسيوس]، وبذلك يحول بينه وبين عمل سيء آخر. فلم يسع [افلاطون] الاً ان يشدّ الرحيل للمرة الثالثة من مضيق [سكيللا Scylla] ولسان حاله يقول:

«ها أني اغامر مرةً أخرى في خليج

«خاربيدس Charybdis العظيم الاخطار»

اورث مجيئه [ديونيسيوس] غطبة عظيمة ان يحقق [افلاطون] الغلبة على [فيليستس] وان تنتصر الفلسفة على نظام الإستبداد. وانضمت النساء الى حلقات دراسته. وعظمت دالته على [ديونيسيوس] الى درجة لم يحظ بها احد قبله. وكان يملك الحرية التامة في الدخول

عليه اني شاء دون ان يفتش. وقدم للفيلسوف مبلغاً كبيراً من المال فرفضه، وجدد عرضه عليه عدة مرات وكان افلاطون يرفض ابدأً. فعلق [ارسطوبوس] الكريني الذي كان موجوداً بقوله: ان [ديونيسيوس] في سلامة تامة من عواقب سخائه، فهو يعطى القليل للراغبين في الكثير. ويعطى الكثير لافلاطون فلا يقبل شيئاً.

بعد ان فرغ الجميع من تبادل التحايا ومظاهر الترحيب، طفق افلاطون يتحدث في أمر [ديون]. فأسمعه معاذير مختلفة. ثم بدأ يشكو ويتذمر بصورة غير مباشرة. فلم تبد شكواه ظاهرة للعيان في مبداء الأمر لأنه جهد في اخفائها. لكنه اخذ يعمل على نزع محبة [افلاطون] لديون من قلبه، بمزيد التفاته اليه وشموله بمظاهر التكريم والتقدير. وظلّ [افلاطون] زمناً وهو يحاذر من استفزازه، لئلا يبدو كذبه ونقضه لعهدته للملا فتقع الواقعة. وحرص ان يكتم ما بنفسه من ألم وضيق. وتوهم الاثنان ان العيون غافلة عما يجري. وأن الناس لا يدرون الحقيقة. بينما كان الأمر خلاف ذلك كما تدل عليه الحكاية الآتية:

تنبأ [هيلكيون Helecone] [الكيزيكيوني Cyzicenean] احد تلاميذ [افلاطون] بكسوف وقوع في اليوم الذي حدده، فأعجب [ديونيسيوس] به وأمر له بتالنت من الفضة. فأخذ [ارسطوبوس] من ذلك مادةً للفكاهة والمزاح مع الفلاسفة الآخرين قال:

- انه يستطيع ان يتنبأ هو أيضاً بشيء خارقٍ.

فطلبوا منه الإفصاح، فقال:

- اتنبأ انه لن يمرّ وقت طويل الاً وينشب خلاف بين افلاطون وديونيسيوس.

ثم ان [الطاغية] باع املاك [ديون] وصادر اثمانها وضمها الى ملكه ونقل [افلاطون] من المنزل المخصص له في حدائق القصر الى موضع سكنى بين الحرس المرتزقة الذين ابغضوه من المبداء وكانوا يتحسبون الفرص للخلاص منه لأنهم كانوا يعتقدون بأنه اشار على [ديونيسيوس] بالتنازل عن الحكم وتسريح الجنود.

لما ادرك [ارخيتاس] مدى الخطر الذي يتعرض اليه افلاطون اسرع بارسال سفينة مع رسل الى [ديونيسيوس] يطلب منه السماح للفيلسوف بالعودة اليه، وذكره بأنه ضامن سلامته حسب الاتفاق الذي تمّ بينهما وعلى اساسه. جاء افلاطون الى صقلية. فأقام [ديونيسيوس] المآدب والحفلات التكريمية الباذخة لضييفه تخفيفاً لما يشعر به هنا نحوه من قرفٍ. الاً انه لم يسع ان يكتم الخوف الذي يعتمل في نفسه فقال له يوماً:

- لاشك. أنك يا افلاطون ستنتقديني بين رفاقك الفلاسفة عند عودتك الى الوطن، وسوف

تحاسبني حساباً عسيراً على اخطائي الكثيرة.

فأجابه افلاطون باسمًا:

- ثق ان الاكاديمي لن تفتقر الى مواضيع بحث لتتخذ منك موضوعاً وانصرف عنه افلاطون، الا ان ما كتبه عنه لا يتفق بالضبط مع هذه الرواية.

وصل السخط بديون غايته القصوى. ولم يلبث الا وجاهر بعدائه [لديونيسيوس] بعد ان سمع من افلاطون بما فعله لزوجها اذ كانت له مكاتبه سرية مع [ديونيسيوس] وملخص الحكاية ان الطاغية طلب من الفيلسوف قبل عودته الأخيرة ان يسأل [ديون] هل يوافق ان تتزوج امرأته في صقلية من رجل آخر؟ وثم رواية أخرى لاندري مبلغ صدقها ولعلها من تصنيع اعداء [ديون]. تقول الرواية انه لم يكن مرتاحاً من زواجه بالاصل، وان حياته مع امرأته كانت تاعسة. فلما عاد افلاطون الى آثينا وفاتحه في أمر تسريح زوجته، كتب رسالة [لديونيسيوس] تعرض منها لمختلف الشؤون بأسلوب واضح صريح حتى اذا جاء الى هذه النقطة استخدم اسلوباً معمى فيها غموض كان بينه وبين [ديونيسيوس] سبق اتفاق عليه واعلمه بهذا الاسلوب انه تحدث الى [ديون] حول الموضوع وقد ظهر له انه لا يحبذ ذلك وسيستاء جداً ويعده اهانة موجهة الى شخصه ان قدر له التمام.

كان [ديونيسيوس] في ذلك الحين يمني نفسه بالصلح والصفاء ولذلك لم يقدم على تزويج اخته، زوج ديون الا انه نفذ ما نواه بعد ان خابت آماله في الصلح؛ وتعقدت الأمور، وعاد [افلاطون] الى آثينا متبرماً، فرغم [آرتية] وهي كارهة على الزواج من [ثيموقراطس] أحد اصدقائه المقربين. بهذا العمل الشائن سف [ديونيسيوس] الى الدرك الأسفل حين يقارن في هذا المجال بموقف ابيه في قضية مشابهة. أظهر خلالها تساهلاً وعدلاً والحكاية هي: انضم [بولكزينوس Polexenus] زوج [تسته Theste] اخته الى معسكر اعدائه وفرّ هارباً من صقلية خوفاً على نفسه فأرسل [ديونيسيوس] الأب يستقدم [تسته] وراح بتهمها بسبق علمها بنية زوجها في الفرار، وكنمان الأمر عنه فأجابته تلك السيدة الجسورة، الشديدة الثقة بنفسها قائلة.

- أتضنني يا أخي زوجاً سيئة أو جبانة الى الحد الذي امتنع منه عن مرافقة زوجي ومشاطرته مصيره لو أعلمني نيته على الهروب؟ اني لا أعرف عن نيته هذه شيئاً، ولو علمت لفضلت ان أسمى بزواج المنفي بولكزينس، على ان اسمي باخت المستبد الطاغية [ديونيسيوس].

وقيل ان [ديونيسيوس] أعجب ايما اعجاب بجوابها الصريح وسرعة بديهيتها، كما أعجب السيراقوسيون بشجاعتها وامانتها حتى انها بقيت تحتل مكانتها الرفيعة ومقامها الملكي الى ما بعد القضاء على حكم الطغاة، وعند وفاتها صدر قرار شعبي يلزم كل مواطن بحضور مراسم تشييعها الى المقر الأخير. هذه الحكاية تستاهل منا التسجيل هنا، وان كانت خارجة عن صدد البحث.

عندئذ اختمرت في ذهن [ديون] فكرة التأهب لغزو صقلية الا ان [افلاطون] لم يشأ التدخل في الأمر وظل بعيداً بسبب تقدم العمر به واكراماً لذكرى ما لقيه من الاحترام والحفاوة في صقلية من [ديونيسيوس]، على ان [سپيوسيپوس] وسائر اصدقائه شجعوه وساعدوه قائلين: ان صقلية تضرع اليه بذراعين ممدوتين الى السماء لانقاذها. وانها ستستقبله بذراعين مفتوحتين.

وكان [سپيوسيپوس] أكثر اتصالاً بالمواطنين من افلاطون عند وجوده في [سيراقوسه] وهو يعرف ميولهم الحقيقية وان كانوا يشكون منه ويحذرون - لما بدأ عن صراحته التي جعلتهم يعتقدون انه عميل من عملاء الطاغية مدسوس عليهم لايقاعهم في شرك الا انهم وثقوا به وأطمأنوا اليه بمرور الزمن. وسادتهم فكرة واحدة وأمنية واحدة وهي ان يقبل [ديون] باعداد العدة لتحريرهم، وان كان لا يملك اسطوياً أو خيلاً أو سلاحاً. وليستقل اية سفينة تعن له واضعاً اسمه ونفسه تحت تصرف الصقليين ضد [ديونيسيوس] هذا ما أكد له [سپيوسيپوس]. الا ان [ديون] أبقى الأمر في طي الكتمان واستخدم رفاقه في السر لتعبئة ما يمكن من الرجال، وخف لمعونه عدد كبير من الفلاسفة والساسة نذكر منهم [يوديموس Eu-demus] القبرصي، الذي وجّه ارسطاطاليس رسالته في النفس باسمه اثر وفاته. و[تيمونيدس Timonides] الليوكادي [Leucadian] و[ملطاس Miltas] العرف الذي درس في الأكاديمي.

اما من منفيي [ديونيسيوس] القبرصيين الألف على الأقل، فلم ينضو اليه غير خمسة وعشرين. لقد أثر الآخرون البقاء في منفاهم للخوف الذي كانوا يشعرون به. وكان موضع التجمع في [زياكزينثوس Zaecynthus]، فهناك عبتت قوة صغيرة لاتتجاوز ثمانمائة رجل امتازوا بخبراتهم الطويلة وقرسهم بالآفات والخدمة العسكرية الشاقة فتدربت اجسامهم واشتد عودهم، وكان اقدامهم وخبرتهم العسكرية كافيين لرفع المعنويات، وحمل جنود العدو على الانضمام اليهم كما كان [ديون] يؤمل من الصقليين.

الا ان القلق وخور العزيمة دبا في نفوس هؤلاء الرجال، ساعة علموا بأنهم سيقاتلون

[ديونيسيوس] فراحوا ينحون باللائمة على [ديون] ويتهمونه بالغش قائلين انه يندفع بيأسه وحنقه كالمجنون وانه سينتهي بهم الى دمارٍ محقق دون ان يتبصر بالعواقب. ولم يكن حنقهم على ضابطهم وأمريهم بأقل من هذا، لأنهم جندوهم دون ان يصارحوهم بجليّة الأمر أو يعلموهم بالهدف. فخطب فيهم [ديون] موضحاً حالة الضعف التي يشكو منها المستبد، واضطراب الوضع الداخلي، وبين لهم انه لم يجندهم في الواقع، بل كان يرمي الى جعلهم ضباطهم للسيراقوسيين ولبقية الصقليين الذين يوالونه جميعاً وقد مضى وقت طويل على تأهبهم واستعدادهم للثورة، ثم تلاه [الكيمينس] الأخائى سليل البيت ذي المجد العريق، ذو الإسم الشهير والمكانة الرفيعة فخطب فيهم على الوثيرة نفسها - وكان احد رجال الحملة أيضاً - فطابت نفوسهم وهدأت.

رسم للبدء في الحملة منتصف الصيف، حيث الريح الاتيسية Etesian دائمة الهبوب في البحار، وكان القمر بدرأً. فهياً [ديون] قرباناً فحماً [لاپوللو] وسار على رأس قوته بموكب مهيب الى المعبد وهم مدججون بالسلاح. وبعد تقديم الذبائح أو لم لهم وليمة عامرة في ساحة سباق زاكشيا ويسط لهم السماط فعرتهم الدهشة من كثرة ونفاسه صحاف الذهب والموائد المثقلة بالأطعمة، وهي لاتنم عن ثروة اعتيادية. ولذلك استنتجوا ان رجلاً ك[ديون] تعدى مرحلة الشباب ويملك مثل هذه النفاس التي تؤمن له خفض العيش ورغده، لن يورط نفسه في مجازفة كهذه، الا اذا كان قوي الأمل بنجاحها. ولاشك انه متأكد بأن الموالمين له في صقلية سيهبون لمساعدته.

وبعد ان سكب الخمر وتلى الدعاء المعتاد، دخل القمر في خسوف. ولم يفاجأ [ديون] به، لأنه كان خبيراً بدورات الخسوف والكسوف عليمأً بعلة احتجاب القمر جراء توسط الأرض بينه وبين الشمس. وكان من الضروري شرح الظاهرة للجنود الذين اضطربوا وعلتتهم البغته، وملاّتهم المخاوف وهبطت معنوياتهم فنهض العراف [ملطاس] في وسطهم ودعاهم الى الاطمئنان والاستيشار بالنجاح الباهر، لأن العناية الالهية استبقت الاحداث بهذه الظاهرة التي تدلّ على ان عظمةً وسؤدداً سيبتعلهما الظلام وينخسفان. وفي وقتهم هذا ليس من يداني [ديونيسيوس] عظمةً وسؤدداً. وقال ان نزولهم في صقلية سيمحقه ويظفيء سناءه. واسهب [ملطاس] في شرح الدلائل لهذه الظاهرة.

وامأً عن خشرم النحل الذي استقر على مؤخرة سفينة [ديون] فقد أسر اليه [ملطاس] بأنه يخشى ان نجاح العمل العظيم الذي هم في سبيله مؤقتاً. وان عمره لن يطول بل ستذوب آثاره وتضمحل بعد حين. وقيل ايضاً أن آيات عديدة تجلّت [لديونيسيوس] آنذاك، فقد انقضّ نسر

وخطف رمحاً من يد أحد حراسه وحلق به الى ارتفاع كبيرٍ ثم أفلته فسقط في مياه البحر. كما ان مياه الساحل التي تلتطم بأسس القلعة انقلبت الى مياه عذبة صالحة للشرب يوماً كاملاً بشهادة من شربوا منه. وولدت الحنازير خنايصها كاملة الخلقة الا أنها تشير الى فتنة وعصيان وشيكن، لأن الرعية ما عادوا يعيرون أذاناً صاغيةً لأوامر الرؤساء. وفسروا عذوبة الماء. بأن حالة السيراكوسيين ستبديل، وستنقلب تعاستهم الى سعادة وشقاؤهم الى هناء. امأً آية النسر الذي هو طير [چوپترا] والرمح الذي هو شعار سلطانه وهيمنته، فتدل على ان عظيم الآلهة قد حكم بانهاء الحكم الحاليّ.

حملت سفينتا نقل، كل رجال [ديون] واقلعتا بحراسة سفينة أخرى متوسطة، ومركبين كلّ منهما ذو ثلاثين مجدافاً. وبخلاف الاسلحة التي كان يحملها الجنود جلب نحو الفين من التروس وكميات كبيرة جداً من رماح القذف، والحراب الثقيلة وارزاق كثيرة جداً مختلفة تأميناً لحاجتهم اثناء الرحلة. وكانت الخطة أن لايقتربوا من اي شاطيء حتى يصلوا الى الهدف، وان لايستخدموا غير قوة الريح، ذلك لأن البلاد التي سيمرون بها كانت كلها معادية. وانبتوا بأن [فيليتس] كان في [اياپيجيا Iapygia] على رأس اسطولٍ مهمته التفتيش عنهم. وطالت رحلتهم اثني عشر يوماً، وكانت الريح موآتية رخية وفي اليوم الثالث عشر بلغوا پاخينوس Pachynus وهو رأس في الجزيرة وهنا نصحهم [پروتس Protus] الملاح بالنزول الى البر فوراً ومن دون اي تردد. فلو انهم جوهوا بمقاومة فن اليابسة وارغموا على العودة دون الافادة من هذا اللسان البحريّ، فقد يمتد بقاؤهم في عرض البحر اياماً وليالي عديدة انتظاراً لريح الجنوب الصيفية. الا ان [ديون] لم يشأ النزول في بقعة قريبة جداً من عدوه. وكان يرغب في أن يبدأ حملته من مسافة أبعد من [پاخينوس] فواصل رحلته. انه لم يمض بعيداً حتى هبت ريح الشمال الزفون ودفعت بالسفن الى الساحل وظهرت [نجمة السماء الرامح Arcturus] وهبت ريح هوجاء وهطلت الامطار مصحوبة برعود وبروق وغمّ على عقول البحارة فلم يعرفوا اين يتوجهون، ووجدوا على حين بغته ان الامواج تدفع بهم نحو [چرچينا Cercina] وهي جزيرة قريبة من الساحل الافريقي في أخطر جرفٍ منها. ولم ينجوا من الاصطدام بالصخور الا بعد اللتيا والتي وخلصت سفنهم من الدمار ببذل جهود جبارة في التجذيف ضد الريح التي كانت تدفعهم اليها حتى مرت العاصفة. وصادفوا سفينةً فسألوها عن الموضع الذي هم فيه وعلّموا أنهم عند رؤوس سرتيس Syrtis العظيمة فعاد اليأس يتملكهم بحلول هدوءٍ فجائيٍ واخذوا يروحون ويغدون في عرض البحر على غير هدى حتى شعروا بنسيم رخيّ يهبّ من جهة اليابسة وكانوا يتوقعون كل شيء خلا ريح الجنوب هذه فلم

يصدقوا حظهم السعيد، وراحت الانسام تشتد تدريجياً حتى انقلبت ريحاً رخاءً فنشروا القلوع كلها وبعد الدعاء للآلهة انطلقوا في عرض البحر متجهين رأساً الى صقلية يسابقون الريح وفي اليوم الخامس بلغوا [مينوا Minoa] وهي جزيرة صقلية صغيرة تحت سيطرة القرطاجنيين شاءت الصدفة ان يكون حاكمها [سينالوس Synalus] احد اصداق [ديون]، الا انه لم يعلم اول الأمر بأن السفن تعود لديون فحاول منع رجاله من النزول الى البر. الا انهم اندفعوا الى اليابسة بسيوف مشهرة لكنهم لم يفتكوا بأحد لأن [ديون] منع ذلك مدفوعاً بصداقته للقرطاجنيين، ودفع بأولئك الذين تصدوا اليهم وارغمهم على التقهقر واخذ يتعقبهم عن كثب ويشد الكرّ عليهم حتى دخل البلدة معهم وأحتلها ولما التقى القائدان حياً احدهما الآخر واعاد [ديون] البلدة التي احتلها الى [سينالوس] دون ان يضار أحد في أهليها. هيّا [سينالوس] مقراً للجنود وزودهم بالطعام ووفر لديون كل ما هو بحاجة اليه.

وارتفعت معنوياتهم كثيراً بالصدفة الغريبة التي حكمت ان يكون [ديونيسيوس] غائباً عن صقلية. ففي ذلك الوقت بالذات كان متجهاً الى ساحل ايطاليا على رأس ثمانين سفينة. وكان ديون يريد اراحة جنوده بعد عناء السفر، فعارضوه واصروا على ان يجنوا أكبر الفائدة من هذه الفرصة والحوا عليه بالزحف على سيراقوسة دون تأخير. وهكذا كان. فتركوا ائقالهم وفائض سلاحهم امانةً عند [سينالوس] وساروا نحو [سيراقوسة] وكان اول من انضم اليه وهو في طريقه مائتان في الخيالة الجرجتيين الذين كانوا قد اتخذوا مقرهم بالقرب من [اكنوموم Ecnomum]، وتبعهم [الغلوان Geloan]. على ان الانبياء ما لبث ان وصلت سيراقوسة. وكان اهم شخص منها انذاك [تيموقراطس] صديق [ديونيسيوس]. وهو الرجل الذي زوجته من أخته بعد فصلها عن [ديون]. واتخذ هذا التدابير الممكنة للحيلولة دون فوج انفجار او فتنة داخل المدينة، حيث كانت الخواطر هائجة والنفوس تغلي كالمرجل الا أنهم لم يقدموا على عملٍ وظلوا ساكنين اذ لم يشاؤا وضع ثقة زائدة فيما بلغهم من انباء. واتفق للرسول الذي حمل الخبر [لديونيسيوس] حادثة غريبة. فقد وصل الى ايطاليا، وفيما هو يجتاز ارض ريجيوم Rhegium مسرعاً اليه في كالونيا Caulonia، التقى بصديق وهو يحمل الى منزله بعض اجزاء من جسم اضحية. فقدم له قطعة من اللحم فقبلها منه وواصل رحلته مستعجلاً وادركه التعب بعد ان قطع مسافة كبيرة خلال الليل فتوقف ليصيب شيئاً من الراحة واستلقى في غابة قريبة من الطريق. فاشتّم ذئب رائحة اللحم فنقبها وكانت القطعة مربوطة بحقيبة الرسائل، فحمل اللحم والحقيبة معاً وبداخلها الرسائل الموجهة الى [ديونيسيوس]. ولما استيقظ الرسول افتقد الحقيبة وصار يبحث عنها هنا وهناك مدة طويلة، ولما يئس من العثور

عليها قرراً ان لا يواصل رحلته الى الملك وأختفى عن الأنظار.

الا ان انباء الحرب في صقلية بلغت [ديونيسيوس] من مصادر أخرى لكن بعد مرور زمن طويل. وفي خلال ذلك واصل [ديون] زحفه فأنضم اليه الكامارينيون Camarineans وانتقض سكان الأرياف المحيطة بسيراقوسة والتحقوا به زرافات ووحداناً، ثم انه اتصل بالليونتيين Leontnies ابلغ وأهالي كامپانيا الذين يحرسون الايبولي Epipolae مع [تيموقراطس] نبأ كاذب تعمّد [ديون] اذاعته. ومؤداه أن الغزاة ينوون الهجوم على مدنهم أولاً، فتخلى هؤلاء عن [تيموقراطس] وهرعوا الى أهاليهم لحمايتهم. وبلغ ذلك [ديون] وكان متوقفاً ذلك، ومنتظراً بالقرب من [ماكروي Macroë] فرجع معسكره ليلاً وسار الى نهر [أماپس Amapus] الذي يبعد عن المدينة زهاء عشرة فرلنكات فتوقف وضحى للآلهة على ضفة النهر وقدم نذوراً للشمس البازغة، وصرح السحرة ان الآلهة تعده بالنصر. وكان [ديون] يشارك في تقدمه القرايين وقد ضفر أكليلاً على رأسه، فأقتدى به الحاضرون ووضعوا الأكاليل على رؤوسهم وكان ثم خمسة الآف من الذين انضموا الى قوته اثناء زحفها، وقد سدّت حماستهم مسدّ النقص الذي يشكونه في السلاح. لقد سلحوا انفسهم بكل ما وقعت على ايديهم. وما ان كان [ديون] يأمر بالتقدم حتى رأيتهم يندفعون الى الامام بهتافٍ وصياحٍ كأن [ديون] قد نال النصر التام، ويروحون يشجعون بعضاً بقرب فيلهم حريتهم.

واستقبله وجهاء القوم وافاضل المواطنين بثياب بيض عند ابواب سيراقوسة، وانتقض الأهلون على انصار [ديونيسيوس] ولاسيما أولئك الذين عرفوا باسم المخبرين والجواسيس وهم فئة من أخط البشر واشدهم خبثاً وشرّاً. وكانت مهمتهم ان يذرعوا المدينة طولاً وعرضاً ويندسوا بين الجماعات ثم يحيطون الطاغية علماً بكل ما يسمعون من الناس من اقوال ويقدمون تقارير عن ميولهم واتجاهاتهم. فأطلق الجمهور يفتش عنهم بالأول، واذاقوهم نكالاً واشبعوهم ضرباً حتى انتزعوا ارواحهم.

عجز [تيموقراطس] عن الوصول الى الحامية المتحصنة في القلعة فركب حصانه وهرب من المدينة فأشاع الخوف والفوضى في كل المناطق التي مرّ بها مبالغاً في تقدير قوة [ديون] ليقوم ذلك عذراً وجيهاً على تركه المدينة. وما لبث [ديون] ان وصل مشارف المدينة وشوهد من بعيد قادماً على رأس قواته وعليه أجمل وافخم شكة سلاح يحفّ به أخوه [ميغاكليس Mega-cles] من جهة وكالليپوس Callippus صديقه الآثيني من جانب وعلى رؤوسهم الأكاليل وقام على حراسته مائة من جنود الحملة بينما قاد الضباط بقيتهم بأحسن نظام. وخرج السيراقوسيون للترحيب بهم، كأنهم يستقبلون موكباً دينياً مقدساً، جاء لاهياء مناسبة التحرر

بعد ثمان وأربعين سنة من كبت الحريات، والقضاء الحكم الديمقراطي.

دخل [ديون] من باب [مينيتيد Menitid] واسكت ضجيج الناس بصوت النفير ليعلن بيانه الأول الذي جاء فيه:

«ان [ديون] و[ميغاكليس] اللذين جاء لاسقاط الحكم الاستبدادي يعلنان للسيراكوسيين وكل أهالي صقلية الآخرين، بأنهم منذ هذه الساعة قد تحرروا من حكم الطاغية».

ورغب في ان يخاطب في الجماهير، فسار خلال حيّ [أخرادنيا Achradina]، والناس يجلبون الأضاحي للقرابين، وينصبون الموائد ويضعون عليها الأقداح، وكانت ابواب البيوت تفتح لنثر الأزهار منها عليه. وهي مزدانة بالزينات. والناس يهتفون بأسمه ويتسابقون في النذور له كما يعاملون إلهاً. في اسفل القلعة والپنتاپلا [Pentapyla] اقام الطاغية. مزولة شمسية ضخمة عالية، فصعد [ديون] عليها وانشأ يخاطب في الناس داعياً الى المحافظة على حرياتهم والدفاع عنها ضدّ اي غاصب. فحيّوه واعرّبوا عن امتنانهم بكل مظاهر السعادة والابتهاج ونصبوه عليها واخاه جنرالين ومنحوهما صلاحيات مطلقة. وبناء على رغبتهما ضموا اليهما عشرين زميلاً، نصفهم من المنفيين الذين جاؤا معه. واستبشر العرافون بآية وهي ان [ديونيسيوس] كان عند مخاطبته الجمهور يظأ نصباً من الأنصاب التي تعب [ديونيسيوس] في اقامتها. ولكن لما كان النصب مزولة شمسية وقت نصبه جنراً، فقد اعرّبوا عن قلق من امكان حصول تغيير في الانقلاب العظيم الذي حققه، واتفقوا على ان الحظّ لن يلبث ان يقلب ظهر المجنّ له.

بعد هذا، أحتل [الايبولي] وأطلق سراح من سجنه [ديونيسيوس] فيه. وبدأ ببناء أطم حصار القلعة. وبعد سبعة ايام وصل [ديونيسيوس] بحراً ودخل القلعة. وفي الوقت نفسه وصلت العربات تحمل اسلحة [ديون] التي كان قد وضعها لدي [سينالوس] فوزعها على المواطنين وسلح البقية بما تيسر له من مصادر أخرى وكان يبذو عليهم النشاط والحماسة والاستعداد لخوض غمار الحرب كأبي محارب متمرس.

في مبدء الأمر ارسل [ديونيسيوس] رسلاً سراً لمفاوضة [ديون] في الشروط التي يقترحها. فأجاب [ديون] ان اية مفاوضة يجب ان تجرى علانية وامام السيراكوسيين بوصفهم مواطنين احراراً وراحت الوفود تنتقل من معسكر لمقترحات مقبولة ووعود معسولة كتخفيض الضرائب والرسوم، والغاء كلّ الجبايات الحربية واعباء الحملات العسكرية. وهي امور اصبحوا هم ولادة

الأمر فيها لاتتم الا بموافقتهم ورضاهم ولايفرضها الا بعد المداولة معهم حولها. فضحك السيراكوسيون من هذه العروض، واجاب [ديون] وفد الطاغية بأن على سيدهم ان ينتزع من رأسه فكرة التفاوض معهم حول اي شرط خلا التنازل عن الحكم، فان رضخ واستعفى، فلن ينسى [ديون] صلة القرابة التي تربطها ولن يتماهل في مساعدته على نيل العفو له عما سلف منه، وتأمين كل ما هو معقول ومناسب. فتظاهر [ديونيسيوس] بالموافقة، وأرسل وكلاءه مرة أخرى يطلب حضور عدد من السيراكوسيين الى الحصن ليبحث معهم شخصياً في الشروط المناسبة للطرفين بعد المداولات الحسنة النية. فأنيب لذلك عدد من المواطنين بموافقة [ديون]، وخرجت شائعة من القلعة تفيد بانّ [ديونيسيوس] وافق على التنازل عن سلطاته مختاراً، مفضلاً ان يقوم بهذا العمل الطيب من تلقاء نفسه على أن يرغمه [ديون] عليه الا ان هذه الشائعة كانت مجرد حيلة لالهء السيراكوسيين وصرف انظارهم، لأنه القى القبض على الوفد الذي ارسل للمفاوضة وزجهم في السجن.

وعند بزوغ فجر اليوم التالي. ارسل حاميته من الجنود المرتزقة الى خارج الأسوار للقيام بهجوم مباغت على استحكامات [ديون] بعد ان سقاهم كثيراً من الخمر في تلك الليلة وحسبهم. كان الهجوم مفاجئاً غير متوقع، وأنطلق البرابرة بجرأة واستهتار وهم يصرخون صرخات منكرة الى هدم الأطم ثم كرواً على السيراكوسيين كراً بلغ من شدتها، انها زحزحتهم عن مواقعهم، ولم تنجدهم الا كتيبة واحدة من جنود [ديون] المأجورين عند علمهم بالهجوم. هذه النجدة لم تدر ماذا يجب عمله وكيف تستخدم قوتها بصورة فعالة لأن الضجيج الذي احده السيراكوسيون حال دون وصول اوامر الضباط اسماع الجنود لقد فرّ السيراكوسيون من وجه المهاجمين واندفعوا نحو النجدة المتقدمة ورموا انفسهم عليها فأختلت صفوفها وعمتها الفوضى. ووجد [ديون] ان ليس من مصيخ الى اوامره، فقرر ان يضرب لهم ومثلاً عملياً لما ينبغي لهم عمله، فكرر بهجمة على قلب العدو واصبح القتال فيما حوله عنيفاً دمويّاً، ولما كان شخصه معروفاً من الجانبين فقد أخذ الجميع الى الموضع الذي يقاتل فيه وهم يطلقون صرخات عظيمة. ومع ان سنه المتقدمة لم تكن تؤهله لخوض مثل هذه المعركة الا ان ثباته وشجاعته عوضاً عن ذلك فقد ظلّ صامداً لكلّ من يهاجمه، وفي الوقت الذي بدء العدو ينكفيء على اعقابها، أصيبت يده بطعنة رمح، ومن توالي الطعنات والضربات أعطبت دروع صدره عطباً بالغاً ولم تعد تصلح لوقايته من المقذوف عليه، او من الضربات المسددة اليه، واخترق درعه عدد من الأسنة والحراب ولما تكسرت نصالها سقط على الأرض فحمله جنوده واخرجوه من ميدان القتال وكانت تواقة ناشطة والعدو قد انهكت قواه، وهو يفكر في النكوص على

أعقابه، فقد كان يأمل الاستيلاء على المدينة بهجومه الأول ففوجئوا بمقاتلين أشداء مجريين لا يترجحون عن مواضعهم، وهكذا تم تراجعهم الى الحصن، إلا أن جنود الاغريق لن ينفكوا عنهم، وشدوا عليهم وضيقوا الخناق فأنقلب تقهقرهم هزيمة.

فقد [ديون] خمسة وسبعين من رجاله وسقط من العدو خلقٌ كثير. وكان نصراً فريداً من نوعه، الفضل فيه يعود الى الجنود الاجانب بالدرجة الأولى. فكافأهم [ديون] بمائة مينا. فردّ الجنود الهدية، بتاج من الذهب.

ولم يتأخر [ديونيسيوس] عن اخراج رسول بحمل رسالة الى [ديون] من النسوة عياله، كتب على غلاف احدها:

«من هيبارينوس Hipparinus الى ابيه»، وهيبارينوس هو ابن ديون. على ان [طيماؤس] يذكران اسمه [اريتيوس Aretaeus] مشتق من اسم [آريته] أمه. على اني ارجح الأخذ برواية [تيمونيدس] لأنه كان أحد جنود ابيه ومحل ثقته، وقرئت بقية الرسائل علناً، وكانت تتضمن رجاءات متواضعة وتشفعان من النساء. اما تلك التي وجهت اليه من ابنه، فان الرسل رفضوا ان تفضّ علناً إلا ان [ديون] اصرّ واجبرهم، فكسرت اختامها. فوجد انها موجهة من [ديونيسيوس] يخاطب بها شخص [ديون] ظاهرياً. على انها في الواقع موجهة الى السيراكوسيين وقد صبغت بحيث تجعل ديون موضع شك من المواطنين كما حوت تبريراً معقولاً لنفسه واستعطافاً وذكره بالخدعات الجليلة التي قدمها ديون للحكومة المستبددة في الماضي. وختمت بتهديد يتناول اعز ذوي قربائه؛ اخته وزوجه وابنه، ان لم يوافق على مقترحاته. وتلا ذلك مطالب مؤثرة عاطفية، تتعلق بالحرص على الحكم، وعدم وضع السلطة في ايدي اناس لم ينفكوا عن بغضه او نسيان احقادهم وخلافاتهم. واقترح ان يتبوء [ديون] العرش وبذلك يضمن سلامة اصدقائه واسرته.

واحدثت الرسالة أثرها في نفوس السيراكوسيين. ففي الوقت الذي كان ينبغي ان يزيد اعجابهم بشهامته ورباطة جأشه ازاء هذا التهديد، وبعد ان قدم أعزّ مصالحه على التفریط بالعدالة والفضيلة. رأوا فيها مصداقاً لهواجسهم وشكوكهم في اخراج قد يقع على [ديون] لا قبل بمقاومته، فيخضع [لديونيسيوس]. ولذلك بدأوا يبحثون عن زعماء آخرين، فأستقبلوا بالمزيد من السرور نبأ قدوم [هيراقليدس] وهو احد الذين نفاهم [ديونيسيوس] جندياً من اكفأ الجنود تولى قيادات هامة في اثناء حكم الطغاة، إلا انه كان متقلباً في رأيه وعقيدته، لا يمكن الاعتماد عليه في قيادة أمينة ان رسم له أن يعمل مع زميل. وكان ثم خلاف سابق بينه وبين [ديون] ايام وجودهما في [البلونيسيوس]. حيث قرر هو ان يهاجم [ديونيسيوس]

بالأسلحة التي تتوفر له وأقبل بسبع بوارج وثلاث سفن فوجد الطاغية محصوراً بين جدران القلعة والسيراكوسيون يختالون عجباً بالنصر الذي حققوه، فأخذ يتقرب اليهم بمختلف الوسائل ويخطب ودّهم لتكون له شعبية عندهم، وكان في الواقع يملك المؤهلات المطلوبة من روح جذابة الى قابلية استمالة الجمهور الذي يهوى ان يكون دوماً موضع تدليل واعزاز. إن تضايق الناس من ترفع [ديون] واستعلائه سهل لهيراقليدس السبيل الى قلوبهم، فقد كانوا ينظرون الى مسلك [ديون] نظرتهم الى من يريد الإستهانة بهم والاحتقار لهم. وقد جعلهم نجاحهم يطرحون جانب الحذر، كما وثقهم بأن من حقهم بأن يجدوا في زعمائهم تذلاً وخضوعاً وتزلفاً، قبل أن يثبتوا أسس الحكم الديمقراطي.

ولذلك دعوا الى عقد جمعية عامة اعتباطية ينقصها النظام واختاروا [هيراقليدس] أميراً للماء. فتقدم [ديون] وأوضح لهم أن وضع هذه الثقة في [هيراقليدس] لاتعني الا سحب ثقتهم منه لأنه لايعود بعدها قائداً عاماً لهم بعد تسليمهم القيادة البحرية الى شخص آخر، فأبطلوا الأمر وألغوا التعيين خلافاً لرغبتهم. وعلى أثر ذلك دعا [ديون] [هيراقليدس] الى منزله وبين له بلطف انه لم يكن حكيماً فيما عمل، وليس من المصلحة ان ينازعه في إحدى تشكيلات المناصب، في ظرف قد تسبب اية خطوة مغلوطة خراب كل شيء. ثم دعا الجمعية العامة وأعلن امامها تعيين [هيراقليدس] أميراً للماء وسعى لدى الجمعية لمنحه امتياز حرس خاص يرافقه، كما خُصص لنفسه بالذات. فلم يسع هيراقليدس إلا ان يعرب له عن أعظم احترامه وشكره لهذا الصنيع، واحاطه بالاجلال والتعظيم، ووضع نفسه رهن اشارته على أنه ظلّ وثيق الصلة بالمواطنين المشاكسين الذين لا يسلس قيادتهم يعمل سراً على إثارتهم بشكاواهم، ويلعب بعقولهم، فيضع [ديون] في أشد حالات القلق والحيرة. فلو نصح بالسماح [لديونيسيوس] باخلاء القلعة وترك صقلية لعرض نفسه لتهمة حمايته والعمل على انقاذه. واذا واصل الحصار لبيتحاشى السخط او زرع بذور الشك، فسيقولون انه يتعمد اطالة امد الحرب ليبقى متمتعاً بسلطة الجنرال ويبسط ظلّ الأرهاط على المواطنين.

كان ثم في المدينة شخص اسمه [سوسيس Sosis] عرف بسوء السمعة والحقق، والرعاية. إلا أنه كان يتمتع عند الجمهور بشعبية لسبب وحيد وهو رغبتهم في ان يطلقوا الحريات الشعبية حرة من الضوابط القيود كحرية الكلام. هذا الرجل تنفيذاً لدسياسة مبيتة [لديون] وقف يوماً في أحد الاجتماعات وبعد ان استوفى حظه من التهجم على المواطنين ووصفهم بالحماقي الذين لا يرون ما آلت اليه حالهم وكيف انهم استبدلوا استبداد فاجراً ما جن بأخر يقظٍ ماکر، وبعد أن أعلن نفسه عدواً وخصماً [لديون] ترك الاجتماع.



وفي اليوم التالي شاهده الناس وهو يعدو في الشوارع، وهو شبه عار وفي رأسه جرح قاطع يسيل الدم منه على وجهه كأنه يهرب من وجه مطارديه. وفي الساحة العامة تجمع الناس حوله وسألوه عما جرى له، فأخبرهم ان رجال [ديون] هاجموا يريدون قتله، وكشف لهم اثباتاً، عن الجراح التي أصيب بها رأسه، وانتصر له خلق كثير وتصاعدت هتافات معادية ضد [ديون]. تندد به وباعماله الوحشية المستبدة، وتعيب عليه كَمه الأفواه وسفك الدماء والتهديد بالموت. وفيما كان الجمهور يتقاطر لعقد اجتماع عام في هذا الضجيج غير الاعتيادي، أقبل عليهم [ديون] وشرع يكشف لهم خيوط الدسياسة، فأخبرهم ان لـ[سوسيس] هذا أخاً هو أحد حرس [ديونيسيوس] وانه أطلق اخاه في المدينة لأثارة الشعب والهياج. فقد اسقط في يد الطاغية ولم يعد يرى لنفسه مخرجاً الا اثارة الشعب وزرع الفتنة وبذر التفرقة. وفحص الجراحيون الجرح فوجدوا مسار القطع من الأسفل الى الأعلى، وانه سطحي غير نافذ، لأن الجراح التي عملها السيوف تكون بسبب ثقل السلاح - عميقة نافذة في وسط القطع. وعلى مستوى واحد من العمق في سائرته. ووجدوا ايضاً انه ليس ثم قطع واحد مستمر متأت من ضربة واحدة، بل عدة حزوز متأتية على أغلب الاحتمال من عدة محاولات على قدر احتمال المصاب بها. ثم جاء أناس عرفوا بالصدق، وعرضوا في الاجتماع موسى وقالوا أنهم التقوا بسوسيس وهو يعدو في الشارع والدم ينزف منه فأخبرهم انه يفر من وجه جنود [ديون] الذين أطبقوا عليه وجرحوه قبل قليل. فأسرعوا لتعقيبهم فلم يجدوا احداً الا انهم عثروا على هذه الموسى مخبأة تحت صخرة مجوفة كانت بالقرب من الموضع الذي أقبل منه الجريح.

ودارت الدائرة على [سوسيس] وبدأ انه سيلقى شرّ الجزاء على ما قدمت يده عندما تأيد كذبه بمجيء خدمه وادلائهم بشهاداتهم فقد ذكروا ان سيدهم ترك منزله بمفرده قبيل شروق الشمس ويده موسى. ولهذا سحب المدعون على [الديون] اتهامهم، وصوتت الجمعية بفرض عقوبة الموت على [سوسيس] بالإجماع وايدت موافقتها العامة على جميع اجراءات [ديون]. على أنهم ظلوا يضمرون حسداً وعداء لجنوده. فالقتال بات الآن بحرياً. وقد أقبل [فيليبستوس] من [اياپيگيا] لمساندة ديونيسيوس على رأس اسطول كبير، وبذلك رأوا ان لا حاجة بعد تدعو الى استخدام الجنود الغرباء وهم مقاتلو برّ ومسلحون تسليحاً يستقيم مع صنفهم. والسيراقوسيون رجال بحر وهم أعرف كيف يعالجون امورهم من هذه الناحية لأن قوتهم تكمن في سفنهم. وبالغوا في تقديرهم لأنفسهم بافراط، للتفوق الذي حققوه في اشتباكاتهم البحرية التالية من ذلك ان [فيليبستوس] وقع في ايديهم اسيراً فاذاقوه اشدّ العذاب، لقد روى [ايفورس Ephorus] انه بخر نفسه عندما أسرت سفينته. الا ان

[تيمونيدس] الذي رافق [ديون] من أول الانزال، وكان شاهد عيان للاحداث التالية، كتب الى [سپيوسپوس] الفيلسوف يقص عليه الحادث بالشكل التالي:

جنت سفينة [فيليبستوس] فأخذ أسيراً وجرده من سلاحه، ثم نزع جوشنه. وتعرض وهو أعزل كبير السن الى كل انواع الاهانات ثم احتزوا رأسه، وسلموا جثته الى صبيان المدينة، وامروهم ان يجروها جراً في شوارع اخردانيا ومن ثم يطرحونها في المقالع الحجرية. ويضيف [طيمائوس] قائلاً ان الصبيان زيادة في التحقير ربطوا جثته من رجله العرجاء وأخذوا يسحبونه في الشوارع، بينما اصطف أهل سيراقوسة على الجانبين يضحكون ويتندرون على مشهد الرجل المربوط المسحوب من رجله الذي قال يوماً لديونيسيوس:

- انك لن تهرب على متن حصان. بل ستنظر لتسحل سحلاً الى خارج المدينة وانت مربوط من كعبيك.

على ان [فيليبستوس] انكر صدور هذا القول منه لديونيسيوس، وانما القائل كان شخصاً آخر غيره.

استفاد [طيمائوس] من هذه الفرصة التي هيأها له [فيليبستوس] دون ان يدري، واستخدمها في دفاعه الحار الدائب عن حكم الشعب، وقدمه وانقاده لحكم الطغاة، واتخذها سببياً لارواء غليله منه والتنقيس عن حقه في عين الوقت، انه لما يفتقر للمكابدين منه الأذى، ان يتمادوا في الانتصاف لأنفسهم حتى عند اهانتهم جسده الهامد، ولكن ليس ما يشرف اولئك الذين يكتبون التاريخ، ممن لم يصبهم باي اذى في حال حياته، اولئك الذين اعتمدوا كتبه مرجعاً لهم، ان ينزلوا الى لغة التشهير والبذاءة والتحقير، وتأنيبه على سوء حظاً قد يقع لأفاضل الناس.

ويبدو لنا [ايفورس] طرفاً نقيضاً، حين يبتعد كثيراً عن الحقائق في اطرائه [فيليبستوس] ومدح سيرته. فمهما بذل من جهد وبراعة في اضافة الدوافع النبيلة العادلة على أعمال الظلم والتصرفات القبيحة ومهما جهد في اختيار العبارات المحتشمة الشريفة، سيظل [ايفورس] هذا متهماً بكونه من أشد المتحمسين للطغيان، واعظم المغرمين بترف الطغاة وسلطانهم وغناهم والتقرب منهم.

ان من لا يمدح [فيليبستوس] لسوء تصرفه، ولا يذمه لسوء حظّه، هو الذي يسلك اصلح السبل واقومها في رأيي.

بعد مقتل [فيليبستوس] عرض [ديونيسيوس] على [ديون] ان يسلمه القلعة وكل ما فيها

من مؤون وسلاح وجنود مدفوعة لهم اجورهم لستة اشهر مقدماً، مقابل تأمين حياته والسماح له بالرحيل الى ايطاليا دون تعرض، ليعيش هناك معتمداً على ما تدره [گيارتا Gyarta] من غلة. وهذه قطعة أرض ذات خصب وماء وثمار تعود ملكيتها الى [سيراكوسة] وتمتد من ساحل البحر حتى اواسط البلاد. فرفض [ديون] مقترحاته هذه، و اشار عليه بمراجعة أهالي سيراكوسة، إلا ان هؤلاء طردوا سفراءه، وكان غرضهم القبض عليه حياً خلال وقت قصير. فما كان منه إلا ان ترك ابنه الأكبر [اپولوقراطس] للدفاع عن القلعة واقر سفنه بالنفيس من الأموال وبالرجال. وانتهاز فرصة هبوب ربح موآتية وتسلسل أمناء دون ان يفطن امير الماء [هيراقليدس] او اسطولها. فتصاعدت الاصوات بالاحتجاج واخذوا ينددون [بهيراقليدس] ويتهمونه بالإهمال. فأستخدم [هيبو Hippo] أحد خطبائهم الجماهيريين فاندس هذا في الجمعية وقدم اقتراحاً حول اعادة تقسيم الاراضي قاتلاً ان المبدء الأول للحريات هو تحقيق المساواة وان الفقر والاستبداد هما رفيقان لاينفصلان. ودعم [هيراقليدس] اقتراحه بخطبة. واستخدم الحزب المتحمس لهذا الرأي اداة للتغلب على [ديون] الذي كان يعارض في تقسيم الاراضي. ومجمل القول صادق الشعب بالتصويت على الاقتراح، كما صودق ايضاً على اقتراح يقضي بإيقاف صرف اجور الجنود الأجانب، وعلى اقتراح ثالث بوجود اختيار قادة جدد للتخلص من سطوة [ديون]. كان الجمهور كما يقول المثل - يريد الوقوف حالاً على ساقيه بعد مرض الاستبداد الطويل الذي ابتلى به؛ وكانوا يريدون ممارسة حقوقهم كمواطنين أحرار، باتخاذ الاجراءات والقرارات، وهم بعد في طور النقاها، يتعشرون في خطواتهم ويركبون متن الشطط، فكرهوا [ديون] طبيبهم النطاسي وضاقوا به ذرعاً وهو يجاهد في حفظ المدينة ضمن إطار النظام والقانون.

في منتصف الصيف تقريباً التأمّت الجمعية لأنتخاب القادة الجدد، فارعدت الدنيا، ووقعت آيات نحس أخرى دامت خمسة عشر يوماً متواصلة. فشتتت الناس ومنعت اجتماعاتهم بسبب الرهبة الدينية، ولم يتم انتخاب القواد. إلا ان الغوغائيين ودعاة الشعب وجدوا لهم يوماً صاحباً فجمعوا انصارهم وباشروا عملية الانتخاب، وفي هذا الوقت بالذات، هاجت هائجة ثور حراثة بسبب عدم اعتياده ضجيج الناس وهرج الشارع، فأنفلت من نيره ومن سيطرة سائقه وأخذ يجرى كالمسعود في انحاء الملعب حيث الاجتماع معقود، يقفز ويشب ويطارد وينطح فأحدث من الفوضى والاضطراب ما لايمكن وصفه، ثم ترك الملعب هائماً على وجهه في ذلك الجزء الذي أحتله العدو من المدينة بعد ذلك بقليل. ولكن السيراكوسيين، لم يكتروا لهذه الظاهرة، وواصلوا عملية الانتخاب. فأختاروا خمسة وعشرين قائداً من بينهم هيراقليدس

واتصلوا سرّاً برجال [ديون] ووعدوهم بمنحهم حق المواطنة السيراكوسة مع الامتيازات التي يفرضها هذا الحق. ان هم تخلوا عن [ديون] ووافقوا على الدخول في خدمتهم. فلم يعباً هؤلاء ولكي يبرهنوا على اخلاصهم له وعلى شجاعتهم. وضعوه في وسطهم وساروا به خارج المدينة وسيوفهم مسلولة دون ان يتعرضوا لأحدٍ باذى. إلا انهم كانوا يعاتبون الناس وهم سائرون على جحودهم ونكرانهم الجميل. ووجد الأهالي أن هؤلاء الجنود قلّة، وشجعهم عليهم انهم لم يقدموا على عملٍ عنيف، فأستهانوا بهم واعتقدوا ان تفوقهم العددي عليهم سيكفل التغلب عليهم والفتك بهم الى آخر رجل قبل ان يفلحوا في الخروج من المدينة، فأنقضوا على مؤخرتهم.

فكانت اخرج ساعة في حياة [ديون]. وجد نفسه بين نارين امّا ان يقاتل ابناء وطنه وإما ان يستسلم هو وجنوده المخلصين ليقطعوا ارباً ارباً. فحاول شتى وسائل الإقناع والضراعة ردّ السيراكوسيين عمّا انتووه، ومدّ كلتا يديه الى القلعة التي يتحصن فيها اعداؤهم وأشار الى الجنود الذين يحتلون الاسوار باعداد كبيرة وهم يراقبون ما يجرى في المدينة. ولما اسقط في يده ولم يجد وسيلة لاقتناع المهاجمين، وان الكتلة البشرية الهائلة تبدو مندفة كالبحر الهائج بتحريض واستفزاز الغوغائيين، أمر جنوده بالكرّ وما هي لحظة حتى هرب جميعاً وتفرقوا في منعطفات الشوارع. ولم يتعقبوهم بل سارع [ديون] فأمر جنوده بالاستدارة وخرج من المدينة قاصداً [ليونيتيا].

النساء انفسهن أخذن يضحكن على القواد الجدد ويتندرن على الهزيمة التي اصابتهم. ولأجل ان يستعيد هؤلاء ما فقدوه من ثقة واحترام طلبوا من الأهالي حمل السلاح ثانية لتعقيب انسحاب [ديون]. وادركوه وهو يجتاز نهراً فجدروا عليه كوكبة من الخيالة الخفيفة راحت تناوش قوته. ففارق [ديون] هدوه وليونته، وأختفى من اساريره ذلك الحنان الأبوي الذي كان يحفظه لمواطنيه وحل محله الحزم والعزم على ان يرد الصاع صاعاً فأمر رجاله بمواجهتهم ورصّ صفوفه في نسق الهجوم، وسرعان ما منوا بهزيمة اشنع من الأولى ففروا الى المدينة بعد ان فقدوا عدداً من الرجال.

واحتفى أهل ليونيتيا بمقدم [ديون] واعطوا رجاله مالاً ومنحوهم حق المواطنة. وأرسلوا يطلبون من السيراكوسيين دفع ما بذمتهم للجنود، فرد هؤلاء بارسال وفدٍ اتهم لديون فعقد الليونتيون جمعيتهم وبحث الأمر ونوقش فظهر ان السيراكوسيين غير محقين في اتهامات وانهم الجانب المعتدي. فرفض هؤلاء تحكيم حلفائهم واتبعوا ما املاه عليهم غرورهم واعتزوا برأيهم واصروا على ان لا يؤمروا من القادة الا أولئك الذين يخافون الشعب ويطيعون اوامره

بدون مناقشة وفي تلك الاثناء جرد [ديونييسيوس] اسطولاً بقيادة [نيسيوس Nypsios] النابولي وحمله اقواتاً واجوراً للحامية. الا ان السيراقوسيين اعترضوه وتغلبوا عليه وغنموا منه اربع سفن فاسكرهم النصر، واساؤا التصرف، وانفرط عقد النظام بينهم فغرقوا في الشراب والأكل والعريضة والمجون حتى جاوزوا كل حد، واهملوا أخطر شأن من شؤونهم، حتى خسروا مدينتهم ساعة أن كانوا على ثقة بان القلعة أصبحت في حكم المستولى عليها، لقد راقب [نيسيوس] الفوضى وهي تجتاح المدينة، والأهالي وهم عاكفون على الخمر والغناء والعريضة يصلون الليل باطراف النهار، وقوادهم لا يحركون ساكناً لوقف الفوضى، او انهم ما كانوا ليجرأوا على اصدار اوامر لرجال سكارى. فأهتبل فرصته وقاد هجومًا خارج القلعة فأكتسح استحكاماتهم وسحقها وأطلق العنان لجنوده البرابرة في المدينة، يعيشون فيها سلباً ونهباً، ويتصرفون بها كما يشاء لهم الهوى.

عندما ادرك السيراقوسيون مصيبتهم الى سببتها حماقتهم، كان التكفير عنها أو ملاقاتها عن الصعوبة بمكان. فالمدينة في حالة اجتياح فعلي، والعدو يعمل السيف في رقاب الرجال والاستحكامات تتساقط، والنساء يسبين سبياً ويحملن قسراً الى القلعة، والقواد المنتخبون انسحبوا من المسألة بعد أن تبينوا عجزهم عن تنظيم الأهالي وتعبئتهم بشكل مقبول لأغراض الدفاع والمقاومة. وفيما هم على هذه الحال، واخرادنيا تكاد تسقط في يد العدو، اتجهت الانظار كلها الى آخر امل لهم، ولكنهم لم يجرأوا على النطق باسمه خجلاً، وبعد ان نال من صفاقتهم ونكرانهم اسوء ما يمكن ان يناله بشر. الا ان للضرورة أحكاماً. وصاح صائح من بين جنود الاحتياط والخيالة:

- ابعثوا بطلب [ديون] ورجاله من ليونتيا!

ما ان طرح هذا الرأي وتردد اسم [ديون] حتى انطلقت صيحة فرح عامة وطالبوا باستدعائه والدموع في اعينهم، وتمنوا ان يعود لقيادتهم مرة أخرى، بحكمته واقدامه وراحوا يستعيدون في اذهانهم تلك الثقة التي بثها فيهم عندما قاد هجومهم على العدو وروحه الوثابة وشجاعته في اشد الأخطار. فأسرعوا يرسلون العسكرين [تيليسدس Telrsides] و[ارخونيدس Ar-chonides] والفارس [هيلانيكوس Hellanicus] واربعة آخرين فأطلقوا على صهوات الخيل ينهبون الطريق نهباً وبلغو ليونتيا مساءً، وما أن ترجلوا حتى القوا بأنفسهم تحت قدمي [ديون] وشرحو له وهم يبكون حالة السيراقوسيين التاعسة، وبدأ عدد كبير من الليونتيين والپلويونيسييين يتجمعون حولهم مستنتجين من لهجة حديثهم ولهفتهم بأن أمراً غير اعتيادي قد وقع.

وتقدم [ديون] الناس الى محل الاجتماع وكمل النصاب بوقت قصير، وأقبل ارخونيدس وهيلانيكوس والرسل الآخرون وقصوا عليهم باختصار ما حلّ بالسيراقوسيين من محن وارزاء، وطلبوا من جنود [الپلويونيسس] نسيان ما لقوه من اساءات ونكران والاسراع بمساعدة منكودي الحظ الذين جوزوا على ما فعلوا بأكثر مما كان المساء اليهم سيجازونهم. وبعد أن انتهوا من كلامهم سار صمت عميق ارجاء الملعب. ثم نهض [ديون] واقفاً وانشأ يتكلم، الا انه لم يكمل عبارته فقد خنقته العبرة، وارتج عليه، فساد الاضطراب جنوده، وأخذوا يشجعونه على الكلام، وبعد ان سيطر على عواطفه واصل قائلاً:

- يا رجال [الپلويونيسس] ويا رجال الحلف. اني ما جمعتمك هنا، لتفكروا بمصالحكم انتم. اما انا فلا مصالح عندي ابحثها هنا، وسيراقوسة تسير الى الدمار. ومع اني لست متأكدًا بأنني سأنجح في انقاذها، لكن سأسرع اليها، لأدفن على الأقل تحت انقاض بلدي. أما اذا مالت قلوبكم الى مساعدتنا نحن اشقى الناس واشدهم نزقاً وطيشاً فسيكون لكم شرف المحافظة على هذه المدينة الشقية وان فشل السيراقوسيون في اثاره شفقتكم ونيل مساعدتكم فلا يسعني على كل، الا ان أطلب من الآلهة مجازاتكم على افعالكم النبيلة المقدمة الماضية في سبيلهم وعن العطف الذي لقيه منكم [ديون] الذي لم يتخل عنكم عندما احدق بكم الضرر واهنتم. ولم يتخل ايضاً عن ابناء وطنه عندما احدقت بهم الخطوب واكتفتهم الشدائد.

وقبل ان ينهي كلامه هبّ الجنود. وظهروا استعدادهم للسير وراءه بهتافات دادية، وأخذ يتنادون الى السير فوراً لانقاذ المدينة. فعانقهم الرسل السيراقوسيون ودعوا بالبركة لديون وجنود الپلويونيسس وبعد ان هدأت الضجة اصدر [ديون] اوامره بعودة الجنود كل الى مقره والتهيؤ للمسير. فأنصرفوا ثم عادوا بعد فترة وهم بكامل سلاحهم الى موضع التجمع وقد اعتزموا انقاذ المدينة في تلك الليلة بالذات.

وفي سيراقوس، واصل جنود [ديونييسيوس] نهب المدينة وتدميرها طوال النهار وارتكبوا كلما يخطر بالبال من المحرمات ولم يتعففوا. الا انهم انسحبوا الى القلعة عند حلول المساء، وقد فقدوا عدداً من رجالهم، الأمر الذي حمل زعماء المعارضة في المدينة على الظن بأن العدو نال كفايته، وانه لن يقوم بمحاولة تماثلة أخرى، فأقنعوا الأهالي برفض معونة [ديون] والخيولة دون دخوله الى المدينة عند مجيئه، نصحوهم بعدم الانصياع اليه والخضوع له لأن ذلك ينتقص من شرفهم وشجاعتهم اللذين يحتمل انقاذ مدينتهم والدفاع عن حرياتهم ومقتناتهم بأنفسهم. وبناء على هذا عاد الأهالي فأرسلوا وفدًا آخر [لديون] يحظرون عليه التقدم. أما

العقلاء والفرسان فقد ارسلوا من جهتهم وفداً ثانياً يحثونه على الاسراع. فما كان من [ديون] إلا ان تباطأ في سيره لأنه لم يتوقف، ووضعت المعارضة اثناء الليل حرساً على ابواب المدينة لمنع من دخولها. إلا أن [نپسوس] قام بهجوم آخر من القلعة بعدد من الرجال يفوق عدد رجال أمس وكان هؤلاء أكثر شراسة واعتداء من زملائهم. هدموا ما تبقى من الاستحكامات، وأنقضوا رامحاً ونبالاً ينيهون ويخربون. وكانت الخسارة في الارواح هذه المرة أكثر بكثير من الأول ولم يقصروا الضحايا على الرجال وانما تعدوها الى النساء والاطفال وكان مطلبهم الرئيس التدمير والتخريب وقتل كل من يقع بأيديهم، لا النهب أو السلب، ذلك لأن [ديونيسيوس] يئس من استعادة ملكه وزاد حقه على السيراكوسيين الى حد اعتزم معه ان يدفن سلطانه تحت انقاض مدينتهم. ولما كان يتوقع نجدة [ديون] لها، فقد قرأ رأيه على خطة لتدمير المدينة تدميراً كاملاً سريعاً، باحراقها وذراً رمادها. ولذلك باشر الغزاة يقيمون الحرائق باستخدام كل نار تقع في ايديهم من مشاعل ومصاييح ومسارج وسهام نارية يقذفونها من بعيد ودب الهلع في أهالي المدينة وراحوا يتراخضون على غير هدى، ان شبت النار في بيت وخرج اصحابها منها تتلقفهم سيوف المغيرين لتذبحهم ذبح النعاج. ومن يهرب من المذبحة الى البيوت، اضطرته النيران الى تركها لوقوع في ايدي الجلادين، واتت النيران على عدد كبير من المنازل، وهوى عدد منها على ساكنيها فدفنتهم تحت انقاضها.

هذه المصيبة الجديدة التي كانت من صنع يدهم. فتحت ابواب المدينة امام [ديون]. وكان كما ذكرنا قد ابطأ في سيره عندما انبىء بانسحاب العدو الى القلعة. إلا ان ثلة من الفرسان أقبلت من المدينة صباح اليوم الباكر لتنهى اليه نبأ الهجوم الثاني. وفي اثناء ذلك جاءه فاراً بعض من عارض في دخوله، راجين منه ان يعجل في نجاتهم. واشتد الضغط عليه وارسل [هيراقليدس] أخاه، ثم عمه يشودوتس معلنين عجز المدينة عن المقاومة وان هيراقليدس قد جرح ومعظم المدينة بات اما خرائب أو لهباً. وكان [ديون] على مسافة ستين فرلنكاً من المدينة عندما وصلته هذه الانباء المحزنة فشرح لجنوده الموقف واستنهض وهم وطلب منهم ان يضربوا للرجولة مثلاً فاستأنف الجنود السير، ولم يكن سيراً بل هرولاً وكانوا مرهم في طريقهم يلتقون بالرسل تلو الرسل وكلهم يحث على الاستعجال، وتمكن ديون بفضل حماسة الجنود العجيبة وسرعتهم المذهلة من بلوغ المدينة بسرعة فدخل [الهيكاتومپيدون Hecatompedon] ودفع بالمشاة الخفيفة الى هجوم فوري على العدو فأرتفعت معنويات السيراكوسيين واذكت في نفوسهم نار الشجاعة وعمد [ديون] الى رص جنوده الكاملى السلاح رصاً محكماً ملحقاً بهم من تطوع من السيراكوسيين ونظم الكتائب على العمق، ووزع ضباطه بقيادات منفصلة

ليتمكن من الاشتباك على جبهات متعددة في وقت واحد وهي الخطة الفعالة المثلى لمواجهة العدو في هذا الموقف.

بعد ان أكمل استعداداه وقدم النذور للآلهة. زحف على رأس رجاله للاشتباك مع العدو ولما شوهد في الشوارع ارتفعت هتافات التشجيع والتهاني وقدمت النذور وراحوا ينادون [ديون] بالمنقذ والرب الحارس، ويلقبون جنوده بالاصدقاء والأخوة وابناء الوطن. وكان يبدو ان الجنود لا يقيمون وزناً لسلامتهم قدر ما كانوا يهتمون بسلامة [ديون] وهو يسير في مقدمتهم مواجهها الخطر يخوض الدن ويتخطى النيران ويطأ اكداً من الجثث الملقاة في طريقه. في الواقع كان العدو في حالة تشيع الهلع في النفوس. فقد اسكرتهم خمرة النصر وجعلتهم في منتهى الشراسة وهم في مواقع جيدة متحصنون على طول الجدار المتهدم. مما جعل أمر الاشتباك بهم مجازفة. على أن ما أورث جنود [ديون] الانزعاج هو خوفهم من النيران المشبوبة التي جعلت سيرهم صعباً بطيئاً، لأن النار كانت تلتهم البيوت ولهبها يواجههم من كل ناحية، وخطر سقوط المنازل عليهم محدد بهم، وهم يشقون طريقهم بين اكداً من الحطام المشتعل. وخلال سحب الدخان والرماد، وحاولوا جهدهم المحافظة على نظام تقدمهم وتراص صفوفهم. حتى اذا بلغوا مواقع العدو كان ميدان التعرض ضيقاً جداً، والأرض غير مستوية. لا تسمح إلا بالاشتباك على نطاق ضيق محدود. ولم يطل الأمر بهم حتى كروا عليهم بهتاف التشجيع ومساندة السيراكوسيين وهزمهم. ونجا معظم من كان قريباً من مداخل العلقة، أما الفئات البعيدة فقد لوحقت وثم التقاط افرادها من مختلف الجهات. ووضع السيف في رقابهم. ولم تكن الحال تسمح للمواطنين ابداً السرور والاحتفال بالنصر وتبادل التهاني فقد انشغل الجميع باخماد النيران واستنقاذ ما بقي قائماً من المنازل وظلوا يعملون طوال الليل ولم يسيطروا على النار إلا بشق الأنفس.

في اليوم التالي لم يجرأ أحد من خطباء الجمهور على الظهور في المدينة فقد ادركوا مغبة عملهم وتبينوا جرميتهم بمجرد هروبهم انقذاً لارواحهم. على ان [هيراقليدس] و[ثيودوتس] سلما نفسيهما [لديون] مقرين بانهما اساء اليه وراجيين ان يكون ارحم بهما مما كان منصفين له. وقالوا: كم سيكون جميلاً به وهو صاحب الفضل في كل هذه المآثر العظيمة، ان يهديء من سورة غضبه، وأن يشمل بكرمه ناكري جميل يعترفان الآن امامه بهزيمة عداوتهما ومنافستهما الماضية له امام فضائله وقد نصحه اصداؤه رغم الخضوع الذي ابدياه - بالآ يعفو عنهما وان يسلمهما الى جنوده لقتلها وبذلك يقتلع من ارض الجمهورية، نبتة حب الظهور الشخص باطلاب الشعبية وهو مرض يساوى بخبثه وحظوته نوازع الطغيان والاستبداد بالضبط واخذ

[ديون] يهدئ من روعهما ويحاول كسب ودّهما فقال:

انه غيره من القادة تدربوا اكثر ما تدربوا على حمل السلاح وخوض غمار الحروب. اما هو فقد قضى جلّ وقته يدرس في الاكاديمي، كيفية التغلب على الغضب، والقضاء في ذاته على عاطفة الحسد وروح المنافسة. ولا يكفي المرء ان يحقق ذلك ليعدّ براً عطوفاً باصدقائه، وبأولئك الذين يستحقون منه كل الخير. وانما يجب عليه ان يكون رقيقاً مستعداً للتصفيح عن المخطئين الجانحين. وانه ليرغب في ان يُشهد عليه الملاء بأنه لا يريد ان يظهر على [هيراقليدس] في مضمار الكفاءة وحسن التصرف، بل ان يستظهر عليه في مضمار الرحمة والعدل، فها هنا تكمن افضلية التفوق الحقيقي، في حين ان مجد النجاح في الحرب ليس ثابتاً ولا قطعياً. لأن الخطّ سيكون بلا شك، طرف المنازعة فيه ولا يمكن لأي امرء ادعاء حق فيه. ماذا لو كان [هيراقليدس] غادراً خبيثاً حقيراً بطبعه؟ افعليه ان يشين من مناقبه هو بالاهتمام بتلك الطباع؟ ان القوانين والمبادئ تقر بأن الاكثر عدلاً هو ان تنتصف لنفسك من اذى، لا ان تقترب الأذى. الا ان الواضح بان كلا العملين يصدران بالأصل من العيب والنقصان نفسيهما. ان خباثة طبع البشر مع عسر علاجه، الا أنه ليس من المناعة والاستحالة بمكان. اذ يمكن التغلب عليه بالعطف، ويمكن تبديله، بالعفو والمئة المتكررة.

بعد هذا الكلام المنعم بالحجج عفا [ديون] عن [هيراقليدس] وثيودوتس] واخلى سبيلهما. ثم قرّر مهاجمة القلعة بعد القاء الحصار عليها. فأمر كل سيراقوسيّ بقطع وتد مساهمة منه في اقامة الاستحمامات. وبعد هذا صرفهم ليصيبوا ما هم في حاجة اليه من الراحة والجمام، وابقى رجاله يعملون في اقامة الأطم طول الليل وعندما اصبح الصبح كان خطّ الأطم قد كمل بناؤه. وأصيب الأهالي والعدو على حدٍ سواء بالدهشة لانجاز هذا العمل الكبير خلال وقت قصير. وبعد ان تمّ دفن الموتى، وافتداء الفين من الأسرى تقريباً. دعا الجمعية العامة للانعقاد. وتقدم [هيراقليدس] مقترحاً. تعيين [ديون] قائداً عاماً مطلق الصلاحية براً وبحراً فأستحسن وجوه المواطنين وعقلاؤهم ذلك ودعوا الشعب الى التصويت عليه الا ان الرعاع من البحارة والشغيلة لم يقبلوا تنازل [هيراقليدس] عن القيادة البحرية، معتقدين انه اقرب من [ديون] شعوراً بالمواطنة، وأسرع الى تفهّم رغبات الشعب رغم رداءته. فنزل [ديون] الى حكمهم ووافق على استمرار [هيراقليدس] في قيادة الاسطول وعندما بدأ الضغط بخصوص مشروع اعادة تقسيم الأراضي والمنازل لم يكتف [ديون] بمعارضة الأمر وانما ابطل كل الاجراءات المتخذة في هذا الصدد، فجرح مشاعرهم وادى الى ان يرتفع رصيد [هيراقليدس] عندهم، فشجعه ذلك وقام وهو في [مسينا] يخطب في الجنود والبحارة. متهماً [ديون] بأنه

يعمل ليجعل من نفسه حاكماً مطلقاً. وكان في الوقت نفسه يفاوض [ديونييسيوس] سراً بواسطة [فاراكس pharax] السبارطي. عندما أحسّ الاشراف في سيراقوسة بما يجري كان الجيش قد أعلن التمرد. وأخذت المدينة تعاني ضيقاً شديداً وشحت الاقوات فيها، ولم يعد [ديون] يتبين السبيل الصحيحة التي يسلكها، اذ كان موضع لوم اصدقائه لأنه مكّن منه رجلاً فاسداً شريراً كثير الحسد هو [هيراقليدس].

كان [فاراكس] حينذاك قد عسكر بالقرب من [نيابوليس Neapolis] في اراضي [اغرغنتوم Agrigentum] فزحف على [ديون] بجنوده السيراقوسيين. على انه لم يكن ينوى الاشتباك معه حتى تواتيه الفرصة المناسبة. الا أن هيراقليدس وبحارته راوحا بنددون بموقفه ويشيعون بأنه يؤخر القتال ليطيّل من فترة قيادته. فلم يجدّ بدأ من القتال فغلب ولكن خسارته لم تبلغ الشيء الكثير. وجمع رجاله وهو ينوي خوض معركة ثانية ورضهم في نظام محكم وحثهم على استعادة سمعتهم في المعركة التالية وقيل ان يتعرض للعدو، ورده نياً يقول ان [هيراقليدس] يتوجه باسطوله الى سيراقوسة قاصداً احتلالها، ومنع جيشه من الدخول اليها. فأختار جماعة من رجاله النشطين وركب ليلاً متوجها الى المدينة بأسرع ما أمكنه، وفي حدود الساعة التاسعة في صباح اليوم التالي كان عند ابوابها وقد قطع سبعمائة فرلنكا في تلك الليلة، وبذلك سبق [هيراقليدس] الذي حاول الوصول قبله لكنه جاء متأخراً، ولما علم بوجود [ديون] غير اتجاه سفنه وبقي في عرض البحر لا يأتي بعملٍ وهو حائر ماذا يصنع الى أن قبيضت له الاقدار [غيسيلوس Gaesylus] السبارطي فقد اخبره هذا، انه قدم من [القيديون] لتوجيه الصقليين وقيادتهم، كما فعل [غيليبوس Gylippus] من قبل. فكان سرور [هيراقليدس] بلقياه عظيمًا. وأمسكه وتشبث به كأنه تعويذه، وظهره لحفاء سيراقوسة، وبعث بمناد الى المدينة يدعوهم الى قبول هذا السبارطي جنرالاً لهم. فكان ردّ [ديون] ان لديهم من القادة ما يكفي. وان كانوا هم بحاجة الى سبارطي يقودهم. فبإمكان [ديون] أن يسدّها لأنه مواطن سبارطي هو الآخر. وعندما تبين [لغيسيلوس] هذا الأمر نزل عن ادعائه واجر الى [ديون] وأجرى صلحاً بينه وبين [هيراقليدس] بعد أن أقسم هذا بأغلظ الأيمان على الاخلاص والولاء وتنفيذ كل ما يعهد اليه من واجبات. وتعهد [غيسيلوس] بأن يضمن سلوكه ازاء [ديون] وأن ينفذ به أي حكم اذا حنت بيمينه.

وبعد هذا وجد السيراقوسيون الاّ فائدة من الاسطول وانه يكلفهم اعباء مالية جسيمة. فعطلوه عن العمل، وتخلصوا بذلك من أهم اسباب الخلاف والنزاع بين القواد، والقوا بثقلهم في الحصار، فأكملوا بناء الأطم وبذلك عزلوا القلعة واخذوا يضيقون عليها الخناق.

ولما وجد المحصورون ان أملهم بالنجدة يكاد يكون مستحيلًا وان اقواتهم شحت وبدأ الجوع ينشب فيهم اظفاره، أعلنوا تمردهم وشقوا عصا الطاعة على ابن [ديونيسيوس] الذي ظل صامدًا فترة تزيد على فترة صمود ابيه. فأضطر الى مفاوضة [ديون] حول تسليم القلعة بكل حاميتها ومستودعاتها ثم اوسق خمس سفن واصعد اليها امه واخواته الالتحاف باييه. واتخذ [ديون] التدابير ليقبل عنها بسلام. ولم يبق احد من أهل المدينة الا وخرج لمشاهدة السفن وهي تغادر القلعة. وكانت نغصة في قلوب أولئك الذين لم تسمح لهم ظروفهم بمشاهدة المنظر في ذلك اليوم السعيد الذي اشرفت فيه الشمس على سيراقوسة الحرة لأول مرة. يذكر تاريخ طرد [ديونيسيوس] الى يومنا هذا بوصفه أعظم واروع مثل لتصاريف الحظ. وليس لنا الا ان نتخيل البهجة التي عمت أولئك الذين اسقطوا اعنى المستبدين واعظمهم جبروتًا سقوطًا لاقائمة بعده بوسائل محدودة وقوة ضعيفة تكاد لاتذكر.

بعد ان أقبل [ابيلوقراطس] توجه [ديون] لوضع يده على القلعة ولم تستطع النسوة الباقيات فيها، الصبر بل اسرعن لاستقباله عند المدخل، وكانت [ارسطوماخه] تمسك بيد ابنه، و[آرتيه] تتبعها باكيةً وجلة لاتدري كيف تقابل زوجها وتكلمه، بعد ان ساكنت رجلاً آخر مساكنة الازواج. وعانق [ديون] أخته اولاً، ثم ابنه، وعندما قادت [ارسطوماخه] زوجه اليه ابتدرته قائلة:

- ان ابعادك يا أخي ديون اشقانا كلنا. وعودتك ونصرك هذا ازالا كل احزاننا. الا احزان هذه البائسة المسكينه، احزان اضطرت ان احمل مثلها انا التاعسة وان كنت حية. ان الحظ القانا في حماك انت وحدك. فما هو قرارك في امر شقائنا؟ بأي شكل ستحييك؟ كخال لها ام كزوج؟

فأبكته بكلماتها، وأقبل على زوجه يعانقها عناقاً حاراً، وسلم اليها ابنه وطلب منها ان تقوده الى منزله الذي استمر على سكهه وكان فيه عند تسليمه القلعة للسيراقوسيين. لقد تم كل شيء وفق مرامه وتكملت مجهوداته بالنجاح، ولكنه لم يشأ ان يستمتع من حظه المجيد، بفائدة او متعة، وأكتفى بارضاء اصدقائه ومكافأة حلفائه والانعام على رفاق الايام الخوالي في أثينا. وارضاء الجنود الذين خدموه بالهبات والتكريم الخاص. وتعدى حدود امكاناته في البذل والعطاء، وقنع لنفسه بالزهيد من اسباب العيش، وأثر الاعتدال في حياته، وأضق في الواقع محط اعجاب الناس جميعاً لا في صقلية وقرطاجنة وحدهما، بل في سائر بلاد الاغريق. وارتفع به المقام عندهم الى الأوج وعدوه اعظم رجال زمانه، واشهر قائد سواء لبسالته أو للنجاح الذي حققه. وبقي [ديون] مع هذا كله بسيط العيش كأنه مازال يساكن

[افلاطون] في الاكاديمي وليس عائشاً بين ضباط ماجورين وجنود مرتزقه همهم الوحيد ان يأكلوا ويشربوا ملء بطونهم لقاء تعرضهم للأخطار والموت، وان يتمتعوا انفسهم بالملذات كل يوم تعويضاً عن كدحهم واتعابهم ولذلك كان طعامه عادياً، وحياته اليومية خالية من الأبهة فلا حرس ثم ولا خدم. وكتب اليه [افلاطون] يقول: «ان اعين العالمين كلها شاخصة اليه» على أن عينه كانت في الواقع تشخص الى موضع واحد في الدنيا. الا وهو الاكاديمي منتظراً حكمها عليه. فراقبوه وقضاته هناك لا يحفلون بالحظ ولا يهتمون بالشجاعة ولا تقدير عندهم للامال العظيمة. وكل ما يهتمون به أن يرقبوا الى اي حد يستطيع سلطانه استخدام الحكمة والاعتدال. وبأي مستوى يستطيع ان يحافظ عليهما وهو يتمتع بالمجد والسؤدد؟

انه والحق يقال، لم يكبت ميله الى العظمة، بل يتعمدها عند حديثه أو مخاطبته الجمهور ويصر على التمسك بهذا المظهر. في حين ان تنازلاً قليلاً ومعاملة رقيقة، كانا من ضروريات حالته الراهنة. وقد عابه [افلاطون] كما قلنا. وكتب اليه يقول «ان التشبث بالرأي يبقي الدار في وحدة موحشة». ومن نافلة القول ان مزاجه لم يكن باللين المطواع. كما انه كان يرمي من تشدده هذا الى الاخذ بيد السيراقوسيين نحو السبيل وانقاذهم من حالة الفجور والتهتك التي يعيشونها. وعاد [هيراقليدس] بتأمر ضده. استدعا [ديون] ليكون واحداً من مستشاري الدولة، فرفض قائلاً: انه سيدلي برأيه كمواطن عادي في الجمعية العامة ولا يريد أكثر من هذا. ثم شكوا من [ديون] بأنه لم يهدم القلعة ولم يوافق على نبش الجمههور ضريح [ديونيسيوس] والقاء رفاته خارجاً بعد التشهير بها. ثم اتهمه بأنه طلب من [كورنث] مشاورين ومساعدين له على الإدارة. مهملًا ابناء وطنه ومحقرًا من شأنهم. والواقع هو انه ارسل رسائل لبعض الكورنثيين يستقدمهم ليعاونوه على وضع دستور الدولة الذي كان ينوي اقراره. فقد أراد أن يقلص من سلطة الشعب. ويقيد الديمقراطية التي كانت تمارس بدون حدود، وهي كما وصفها افلاطون «بحكومة الساحة العامة» كما انتوى اقامة نظام حكم هو مزيج من النظامين الكريتي والسيارطي، أعنى انه يقف وسطاً بين النظام الجمهوري بالنظام الملكي، فيه يتولى الحكم هيئة ارسوقراطية تشمل سلطتها كل الأمور الخطيرة. ووجد ان الحكم الكورنثي بالأصل يتألف من هيئة عليا تشبه الاوليغارشية. وان عامة الشعب قليلة الاهتمام بالسياسة وأمور الحكم. وكان يدرك ان [هيراقليدس] سيكون اقوى خصومه معارضة له في هذا فضلاً عن كونه دساساً مشاغباً مفرقاً للصفوف. لذلك أفسح المجال لأولئك الذين سبق له فمنعهم عن قتله، فأقتحموا عليه بيته وقتلوه. وأثار مقتله سخطاً وحنقاً عظيمين عند الناس كافة. ولما اقام له [ديون] تشييعاً مهيباً وسار خلف نعشه كل جنوده وخطب فيهم بعد ذلك ادركوا انه

ليكون من رابع المستحيلات ان تتمتع المدينة بالاستقرار أو ان تتسع لوجود [ديون وهيراقليدس] يتنافسان على الحكم.

كان [لديون] صديق آثني يدعى [كالليپوس Callipus] قال افلاطون عنه: انه كان على معرفة بسيطة به في مبدء الأمر ثم توثقت اواصر الصداقة بينهما لا بسبب من علاقة بالدراسات الفلسفية، وانما بمناسبة الاحتفال بعيد «الاسرار» وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية. هذا الرجل رافقه فيما بعد في كل حروبه وحظى لديه بمكانة ونفوذ كبيرين، وكان في مقدمة من سار الى جانبه عند دخوله سيراقوسة وعلى رأسه أكليل. وقد ابلى أحسن البلاد في المعارك وبرز بشجاعته. هذا الرجل وجد ان خيرة اصدقاء [ديون] قد هلكوا في الحروب، وان [هيراقليدس] طواه الردي. والشعب يحتاج الى قائد، والجنود يكتفون له الحب. فبدات الآمال العراض تداعب مخيلته، كأني وغدٍ شرير همهُ الغدر، في ان تكون له السلطة العليا في صقلية على حساب القضاء على صديقه والمحسن اليه. لقد قيل ايضاً أن العدو رشاه بعشرين تالنتاً لقاء فتكه بديون. فاعزى عدداً من الجنود وضمهم الى موآمرته، واستخدم الحيلة الشريرة التالية لإحكام خطته: اعتاد ان يخبر [ديون] يومياً، بكل ما سمع، او كل ما لفق عن لسان الجنود من اقوال ضده. فنال ثقته العمياء واعتمد عليه كلياً، وسمح له ان يتكلم بحرية ضده في كل المجلس لايقاع خصومه في الشرك والكشف عن العناصر الضارة التي تضرر له الشر. فاستعان [كالليپوس] بهذا على تأليف عصابة يتضم كل الساخطين الثائرين في المدينة بوقت وجيز وكلما انضموا الى العصابة المتآمرة اسرع كالليپوس يقول له انه سيخالطه ليحل عقده لسانه ويكشف عن سره، فيطمئن [ديون] معتقداً بأن صديقه انما يفعل ذلك لمصلحته وتنفيذاً لتعليماته.

وفيما كانت الموآمرة تنضج، رأى [ديون] رؤيا غريبة مخيفة. خيل اليه ان جالس ذات مساء في جوسق بيئته وحيداً مستغرقاً في افكاره فسمع صوتاً مفاجئاً فالتفت فشاهد في نهاية صف الاعمدة وفي وضع النهار. امرأة فارعة الطول تشبه تانك الفيوري في التراجيديات بلامحها وزیها - ورأى بيدها مكنسة تكنس بها الارض فانتابه ذهول وهلع شديدين. وأرسل يستدعي عدداً من اصدقائه، وقص عليهم حلمه وناشدهم البقاء معه طول الليل لأنه كان في منتهى القلق والرعب، وهو يخشى أن يلوح له الشبح ثانية ان ظل وحيداً. الا ان الرؤى لم تعاوده غير انه فجع بعد ايام قلائل بمصيبة أليمة. فقد القى ابنه الوحيد بنفسه من سطح الدار فهشمت رقبته وكان شاباً يكاد يبلغ مبلغ الرجال، على اثر كدر وغيظ بسبب مسألة تافهة.

وفيما كان [ديون] في غمرة الحزن، دفع [كالليپوس] بموآمرته الى حيز التنفيذ، فعمد الى نشر اشاعة بين السيراقوسيين، مؤداها ان [ديون] اعتزم ان يستدعي ابن [ديونيسيوس] ليجعله ولي عهده وخليفته بعد موت ابنه الوحيد. وفي هذا الوقت بالذات تسرب الشك في قلب [ديون] واخته وزوجه، من تصرفات [كالليپوس] وبدأت المعلومات تردهم من كل صوب حول وجود الموآمرة. وكان [ديون] في تلك الآونة يعاني اضطراباً نفسياً شديداً، قد يكون مرده تأنيب الضمير لقتل [هيراقليدس] وهو لاشك لطحه سوداء ووصمة عار في حياته. وقد ركبه نوع من الملل والقنوط وصار يفضل الموت الف مرة على العيش في خوف دائم من اعدائه، بل في شك من اصدقائه. على ان [كالليپوس] انتبه لفوضول المرأتين الشديدين، ولتساؤلتهما العديدة للنفاذ الى اعماق المسألة فجاءهما باكيماً ينكر التهمة بشدة وعرض عليهما اي دليل يقنعان به تأكيداً لخالصه فطلبتا منه ان يحلف «اليمين العظمى» وكانت تؤدي على النحو التالي: يدخل المحلف الى حرم هيكل [كيريس Ceres] وپروپيرين Pros-perine وبعد تأدية مراسيم مخصوصة يرتدي ثوب الارجواني ويمسك بيده مشعلاً موقداً ويؤدي القسم. فنقد [كالليپوس] ما طلبا منه منكرماً ما عزى اليه. وكان في الواقع لا يقيم وزناً للآلهة، حتى انه انتظر الى ان حل عيد پروپيرين التي حلف في هيكلها ليجعل منه موعداً لارتكاب جريمة القتل ولم تكن في الواقع ضرورة تدعوه للتشدد في اختيار اليوم. لأنه سيكون مجرمًا في أي يوم من الايام، بعد ان قام بمراسيم كاهنها المكرس ليسفك دم احد عباها.

وكان عدد المساهمين في الموآمرة كبيراً. وديون في داره يجالس عدداً من اصدقائه في قاعة انتشرت فيها موائد الطعام. فطوق فريق من المؤتمرين الدار. وعمد فريق آخر الى احكام اغلاق الابواب والنوافذ، اما الفريق الذي وقع عليه تنفيذ جريمة القتل فكان من الزاكنيئين، الذين لجوا الدار دون معاطف ولا سيوف فأغلق الذين هم في الخارج الباب وراءهم ووقفوا حراساً عليها. وانقض القتلة في الداخل على [ديون] يريدون كتم انفاسه خنقاً، فلم يفلحوا فطلبوا من رفاقهم في الخارج سيفاً، ولكن لم يجرأ أحد على فتح الباب وكان ثم عدد كبير من عشريناء [ديون] في الغرفة الا ان كل واحد منهم صار يهتم بنجاته، متوهمين ان حياتهم ستكون بآمن ان هو فقد حياته فلم يقدم أحد على اغاثته وانتظر القتل ملياً، حتى قذف اليهم [ليكون Lycon] السيراقوسي بسيف قصير من النافذة فتلقفه أحد الزاكنيئين وذبحه مثل اضحية. فقد بقي طول هذا الوقت ينتفض بين ايديهم منتظراً الضربة القاتلة.

بعد هذا اودعت السجن كل من اخته وزوجه وكانت حاملاً وفي السجن وضعت السيدة

التعاسة وليدها فقامتا على حضانتها بموافقة الحرس، أو بالأحرى قبلوا ذلك لأن [كالليپوس] بدأ يتورط بالمتاعب.

بعد ان قُتل [ديون] نيه صيت [كالليپوس] وأصبح الحاكم المطلق في سيراكوسة فكتب بذلك الى آثينا. تلك المدينة التي تأتي سؤوليتها في هذه الجريمة النكراء بعد مسؤولية الآلهة مباشرةً. والتي كان عليها أن تنظر اليه نظرة خوفٍ وعارٍ. ولقد اصاب كيد الحقيقة من قال عنها: ان ذوى الصلاح الذين تربيههم ليس أصلح منهم، والأشرار الذين تقذفهم ليس أشرف منهم. كذلك البلاد نفسها فهي تنتج الذّ العسل وافتك سُمّ من الشوكران.

وعلى اية حال لم يقطع [كالليپوس] شوطاً طويلاً في تحدي الحظّ. ولا في تغاضي الآلهة عن عزه ونعمائه كأنها تتستر عليه وتحميه وهو الذي اشترى الثروة والسلطة بارتكاب اشنع جريمة. فلم تمهله، وانالته القصاص الذي يستحقه. فقد خرج للاستيلاء على [كاتانا Catana] ففقد سيراكوسة. وذكروا انه قال بهذه المناسبة:

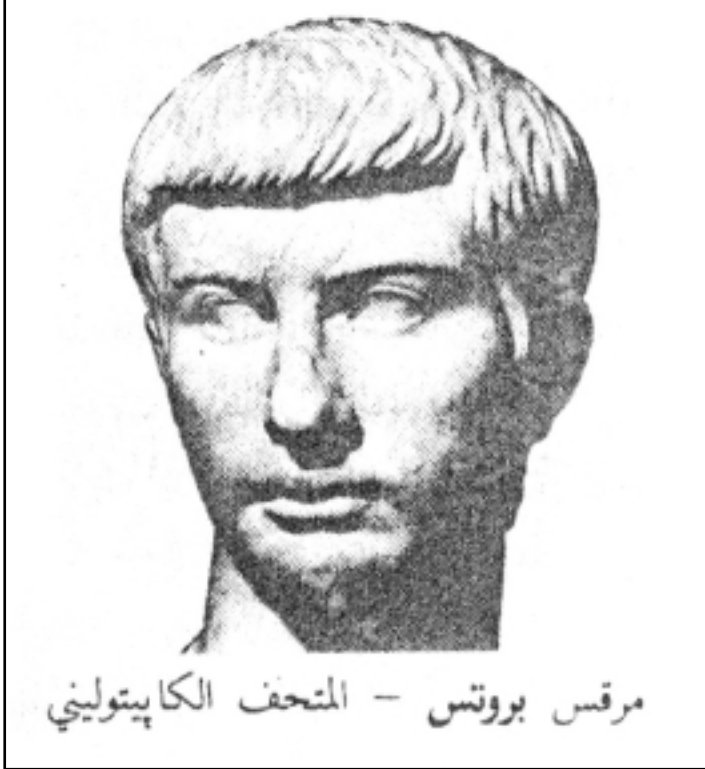
- فقدت المدينة، وريحت دمية!

ثم هاجم [مسينا] مهلك معظم رجاله ومن بينهم قتلة [ديون] ولما امتنعت كل مدن صقلية عن ايوائه وكلها تمتقه وتنفر منه، توجه الى [ريگيوم] في ايطاليا، وضافت به السبل هناك ولم يجد ما ينفق على جنوده. ثم وثب عليه [لپتينس Leptines] وپوليسيرخون فقتلاه، وشاءت الاقدار يكون موته بالسيف الذي استعمل بقتل [ديون] وقد عرف بقصره، كالسيوف السپارطية، وبصنعتة الغريبة الدقيقة، وهكذا استوفي [كالليپوس] جزاء غدره.

عند اطلاق سراح [ارسطوماخه ورايته] من السجن اخذهما [هيكتيس Hicetes] احد اصدقاء [ديون] الى منزله. ويبدو انه ظلّ يعني بهما ويرعاهما كما يليق بالصديق المخلص الى ان زين له اعداء [ديون] التخلص منهما فجهز سفينه وزعم انه يريد ارسالهما الى الپلويونيسس] الا انه أمر البحارة بقتلهما والقائهما في البحر عند الابتعاد عن اليابسة. وروى آخرون انهما القيتا مع الوليد في البحر أحياءً، هذا الرجل لم ينج ايضاً من الجزاء العادل فقد قبض عليه [تيموليون] وقتله، وذبح السيراكوسيون بنته انتقاماً لـ[ديون] وكل هذا سهبت في سرده في سيرة تيموليون.

١٩٧٢/٢/٢٢





ماركوس بروتوس

**BRUTUS**

**(Marcus Junius)**

85 - 42

[ليونوريوس بروتوس] أعدمها الحياة، كما ورد في التاريخ حقاً، إلا أن ثم ابناً ثالثاً كان في حينه صبيياً، فعاش ومنه نشط النسل الذي انحدر منه [ماركوس بروتوس]، وزاد على هذا قوله بأنه وجد عدد من مشاهير الرجال من هذه الأسرة، كانوا احياء في زمانه، وبعضهم ذوو ملامح تشبهه ملامح ثمال [يونوريوس بروتوس] شبهها ملفتاً للنظر. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع.

كانت [سرفيليا] أمه، أختا [لكاتو] الفيلسوف. وهو الرجل الذي لم يعجب [بروتوس] باحدٍ قط من الرومان قدر ما أعجب به، وقد تزوج فيما بعد بينته [پورشيا]. لم يبق في الواقع فيلسوف من فلاسفة اليونان إلا وعرفه او قرأ له. إلا أن أكثر ما أجتنبه هو كتابات تلاميذ افلاطون، ولم يهتم اهتماماً كبيراً بنظريات الاكاديمي الوسيطة والحديثة<sup>(٢)</sup> كما أطلق عليهما، بل ركز دراسته بالقديمة. ولذلك كان دائم الإعجاب بانطيوخس العسقلاني الذي جعل من اخيه [ارسطون] عشيراً وخلاً وضمه الى اهل بينه ليلازمه دائماً. وهذا رجل أقل مواهب في العلوم من كثير من الفلاسفة. إلا أن متانة خلقه، وطيب معشره، فاقت معظمهم، وسادت أختيارهم وأماً عن [امپيلوس Empylus] الذي نوه [بروتوس] واصدقائه باسمه في رسائلهم بوصفه احد ضيوفه، فقد كان من البلغاء. كتب بحثاً قصيراً جيداً السبك عن مصرع [قيصر] عنوانه [بروتوس].

واتقن بروتوس اللاتينية كخطيب وكمحام مترافع لكنه كان يعبر عن نفسه باليونانية بالأسلوب المختصر الواقعي. أو البلاغة الموجزة المعجزة. او ما يطلق عليه بالاسلوب اللاتوني في الحديث، وهو يعرض امثلة مدهشة من ذلك في رسائله. فمثلاً خرج للحرب ضد [انطوني واوركتافيوس] كتب لأهالي پرغاموم ما يلي:

«سمعت انكم دفعتم مالا لدولابلا؛ ان فعلتم ذلك طواعيةً فعليكم الاقرار بانكم اخطأتم بحقي. ولكن ان دفعتم مرغمين فبامكانكم البرهنة على ذلك بالدفع لي طواعية.»

وفي مناسبة أخرى كتب لأهل ساموس:

«مقترحاتكم غامضة. مساعداتكم لا وجود لها، فماذا تعتقدون ان تكون نهاية ذلك؟

وفي رسالة أخرى كتب يقول:

(٢) اسس افلاطون الاكاديمي الأولى. اما الوسيطة فقد انشأها ارخيسلاوس Archesileus في اواسط القرن الثالث ق.م. واشهر فلاسفة الاكاديمي الحديثة (وتسمى الافلاطونية الحديثة) هما كليتوماخوس وكارنيادس Carneades اللذين عاشا في القرن الثاني ق.م. (انظر سيرة كاتو أيضاً).

انحدر [ماركوس بروتوس] من صلب [يونوريوس بروتوس] الذي اقام له الرومان الاقدمون تمثالاً برونزياً في الكاپتول ووضعوه بين تماثيل ملوكهم، يرى وهو قابض على سيف مسلول تخليداً البسالته وثبات عزمه في طرد [آل تاركوين] والقضاء على النظام الملكي. إلا أن بروتوس الأول هذا كان ذا طبع صارم كأنه قد من الحديد، لايلين كالسيف الفولاذي والرجل صلب بطبعه، لم تهذبه الدراسة والثقافة حتى ان حنقه على الطغاة بلغ به حداً ان قتل ولديه لأنهما تأمرا معهم. إلا أن بروتوس الذي نسرد سيرته الآن اعتنى كثيراً بتهديب عرائزه الطبيعية، عن طريق الثقافة والضبط العقلي الذي تعطيه الفلسفة، كما انه اجهد نفسه في تنشيط اهدأ وارزن جانب من اخلاقه ودفعه الى العمل. وكانت النتيجة ان مزاجه أصبح متوافقاً تماماً مع حياة الفضيلة التي عاشها. ولذلك نجد حتى أولئك الذي حقدوا عليه بسبب مشاركته في المؤامرة ضد [يوليوس قيصر] كانوا على استعداد ليعزوا الفضل لـ[بروتوس] في كل جانب طيب منها في حين حملوا [كاسيوس] صديقه العزيز وقريبه كل قبيح فيها، ولم يكن كاسيوس بالذي تنقصه الفضيلة ولا بذلك الذي يفتقر الى الخلق القويم.

وامه [سرفيليا] تنحدر من صلب سرفيلوس اهالا servilius Ahala وهو الرجل الذي تصدى لـ[سپوريوس مايليوس Spurius Maelius]<sup>(١)</sup> عندما كان يحاول كسب مساندة الشعب ليجعل من نفسه طاغية. فوضع خنجراً تحت ابطه وذهب الى الفورم، وقصد [مايليوس] متظاهراً بالتحدث اليه، وعندما كان الرجل يميل برأسه اليه ليصغي الى مايقول انتهب فرصته وطعنة قاتلة. هذا هو المتفق عليه عموماً حول اسلافه من جهة الأم، واما عن اسرة ابيه فالناس الذين يحملون له أشد الكره وسوء النية بسبب قتل [قيصر] ينفون اية صلة نسب له مع [بروتوس] الذي طرد [التاركوينين] لأنه بقي دون عقب بعد قتله ابنيه. فهو بالنسبة اليهم انحدر من رجل عامي هو ابن وكيل بهذا الاسم ولم ترتفع مكانته في الوظائف العامة إلا في زمان متأخر. على ان [پوسيدونيوس] الفيلسوف يزعم ان الابنين الشابين

(١) كان سپوريوس مايليوس تاجر قمح غنياً، نظم مؤامرة انقلابية للاطاحة بالحكم الروماني في العام ٤٣٩ ق.م. انظر ليفي ١٧:١٣.

«ان الكزاثيين Xanthians جعلوا بلادهم قبرهم لرفضهم عظمي. ولثقة الپاتاريان Pata-reans بي، استمتعوا بحرية كاملة في ادارة شؤونهم ولديكم الفرصة للاختيار بين حكمة الپاتاريان ومصير الكزاثيين» ذلكم هو الأسلوب الذي جعل رسائله خالدة.

صحب [بروتوس] خاله [كاتو] في مطلع شبابه عندما ارسل هذا في حملة ضد [پتليموس] فبعد ان يخع هذا الملك نفسه ارسل [كاتو] الذي أخرته بعض الأمور في [رودس] أحد اصدقائه المدعو [كانيديوس] ليتوكل في أمر اموال الملك<sup>(٣)</sup>.

ولما كان ضعيف الثقة بامانة [كانيديوس] فقد كتب لابن اخته يأمره بالاقلاع حالاً من پامفيليا Pamphilia الى قبرص، وكان بروتوس قد قصد هذه المدينة ليقضي دور النقاها من مرض شديد اصيب به. فأنطلق [بروتوس] الى قبرص امتثالاً لأمر خاله بكثير من التردد، احتراماً منه [لكانيديوس] الذي رأى انه موضع شك ظالم، واعتقاداً منه أن هذه المهمة الصغيرة الشأن هي من حيث المبدأ أصغر جداً وأحق من انا تناط بشاب مثله، اوقف نفسه على التتبعات العقلية والمسائل الفكرية. ومع ذلك فقد تولي المهمة بجدارة ونجح فيها الى الحد الذي استأهل به ثناء خاله العظيم، وبعد أن حول كل أموال الملك الى نقدٍ نقل كل ما جمع بحراً الى روما معه.

عندما انتشعبت الدولة الرومانية الى حزينين، ونشبت الحرب بين پوميبي وقيصر، وعمت الفوضى الامبراطورية كلها، كان المتوقع عن العموم ان [بروتوس] سينحاز الى جانب [قيصر]، لاسيما وان اباه اعدم الحياة بأمرٍ من [پوميبي] قبل عدة سنوات<sup>(٤)</sup> إلا ان [بروتوس] وضع المصلحة العامة فوق الولاء الخاص. ولما كان مقتنعاً بأن أسباب [پوميبي] لخوض الحرب اكثر وجاهةً، فقد انضم الى حزبه. فعلم ذلك مع انه كان بالأمس القريب يأبى ان يبادل [پوميبي] كلمة واحدة حين يلتقيان اذ كان يجد من العار أن يحدث قاتل أبيه. إلا انه عدّ [پوميبي] في المرحلة الحالية قائداً لبلادهم ولذلك وضع نفسه تحت تصرفه وسافر الى [كيليكيا] مبعوثاً [لسيستوس Sestius] الذي عين حاكماً لهذا الأقليم، إلا انه لم يجد فرصة ليقوم بعمل نابه هناك. ولما كان كل من [قيصر] و[پوميبي] يتخذان مواقعهما وينتهيان لخوض المعركة الحاسمة التي سيقدر فيها مصير الامبراطورية. رحل من تلقاء نفسه الى مقدونيا ليساهم في مخاطر القضية التي آمن بها. وقبل ان [پوميبي] ادركته دهشة

(٣) كان هذا في ٥٧ ق.م ولبروتوس من العمر ٢٨ سنة. وپتليموس هذا هو اخ پتليموس اوليتس Auletes ابن كليوباترا، وكان اذ ذاك ملك قبرص.

(٤) في ٧٧ ق.م كان والد بروتوس من انصار ماريوس. فغدر به پوميبي وقتله بعد ان وافق على استسلامه.

عظيمة سرّ سرورٍ بالغاً لمقدمه حتى انه نهض من مجلسه عند اقترابه وعانقه بحضرة من كل ضباطه كأن [بروتوس] رئيسه. وفي خلال هذه الحرب كان بروتوس يعكف على كتبه وتتبعاته الفلسفية عندما يترك مجلس پوميبي. ليس خلال الاسابيع التي سبقت معركة فرساليا وحدها بل حتى في الليلة التي سبقت المعركة الكبرى<sup>(٥)</sup> كان الموسم صيفاً والقيظ على اشده والمعسكر قريب من مستنقع، وقد ابطأ الخدم الذين جاؤا بخيمته وهو يكاد يسقط اعياء لاقتقاده الظل، ومع أن النهار كاد يتنصف قبل ان يدهن جسمه ويتناول بلغة من الطعام فقد امضى الوقت حتى الليل وهو يكتب ملخصاً عن [پوليبيوس Polybius]. في حين كان رفاقه إما مستسلمين للنوم أو يفكرون بالمستقبل بخوفٍ واهلح.

قيل ان [قيصر] كان شديد الاهتمام بسلامته. حتى انه اصدر أمراً الى قواده بالأل يحاولوا قتله في المعركة، بل ان تسلّم حياته. فان استسلم فليؤسر اما اذا ابدى مقاومة فليفسح له مجال الهرب ولا يضايق. والاعتقاد السائد ان [قيصر] فعل كل ذلك اكراماً لخاطر أمه، ويبدو ان [قيصر] كان على صلة غرامية بها ايام شبابه، وكانت هي مدلهة بحبه ولما كان [بروتوس] قد ولد في الفترة التي كان حبهما قد بلغ اوجه، فقد ظلّ الشك ينخر قلبه في ان بروتوس هو ابنه<sup>(٦)</sup> وروى أنه لما بوشر في مجلس الشيوخ بمناقشة التدابير التي يجب اتخاذها لسحق مؤامرة [كاتيلينه] التي كادت تعصف بالجمهورية. احتدمت المناقشة بين [كاتو] و[قيصر] وكانا قد وقفا جنباً الى جنب، وفي اثناء الجدال سلّمت لقيصر رقعة جيء بها من الخارج فأخذها وقراها. وهنا صاح [كاتو] ان [قيصر] يسلك سلوكاً شائناً بتسلمه رسائل من اعداء الدولة. فأحدث قوله ضجة كبيرة بين اعضاء المجلس، وعندها دفع [قيصر] بالرقعة الى [كاتو] لقراءتها. فوجدها رسالة غرام موجهة اليه من اخته [سرقيليا] فقذف بها اليه وهو يقول:

- خذها ايها السكير.

ثم عاد الى المناقشة

كان غرام [سرقيليا] بقيصر حديث العام والخاص.

بعد ان غلب [پوميبي] على أمره في [فرساليا] هرب بحراً. ولكن معسكره حوصر، غير ان

(٥) في آب ٤٨ ق.م.

(٦) ان تواتر هذه الاسطورة فيه غرابة. ذلك لأن [قيصر] لم يتخط الخامسة عشرة عند ولادة بروتوس. ولكن لا يستبعد قط أن يكون قد علق بحب سرقيليا في زمن مؤامرة كاتيلينه التي جرت وقائعها بعد اثنين وعشرين سنة.

[بروتوس] تمكن من الانسلاخ من الباب الى المستنقع القريب الذي كان الماء والقصب يغمرانه وبعد السرى طول الليل بلغ [لاريسا] سالماً، ومنها كتب الى [قيصر] ففرح لسلامته وكتب اليه يطلب قدومه. ولم يكتب [قيصر] بالصفح عنه، وانما بالغ في اكرامه وجعله ضمن دائرة أعزّ خلصائه. وفي تلك الاثناء كان النقاش يدور حول الجهة التي هرب اليها [پومپي] وكان ثم اراء متضاربة كثيرة. فانفرد [قيصر] بـ[بروتوس] وخرجا في جولة قصيرة وسأله عن رأيه في الأمر. وقد استخلص من الآراء التي طرحها بروتوس بأن فكرته هي الأقرب الى الحقيقة، فنبذ جميع الآراء الأخرى وهرع نحو مصر. لكن پومپي وصل الى مصر كما ضمن بروتوس، ولقي فيها حتفه قبل ان يدرکه [قيصر].

وفي تلك الاثناء نجح [بروتوس] في التخفيف من غضب [قيصر] على [كاسيوس]. كما انه اضطلع بمهمة الدفاع عن ملك الليبيين ومع ان كثرة التهم وثقلها كانت اعظم مما يمكنه انقاذ موكله منها. فان طلبه الرحمة له كان مقنعاً شديد التأثير بحيث استطاع ان يستخلص له جزءاً كبيراً من مملكته<sup>(٧)</sup>. ويروى ان [قيصر] قال لاصدقائه بعد ان سمع [بروتوس] يخطب في الجمهور لأول مرة:

- لا ادري ماذا يريد هذا الشاب. الا ان ما يريده، يريده بشده وبصورة عنيفة جداً.

لان استقامة خلقه، ولصعوبة اقناعه بالقيام بعمل لمجرد المنّة أو الفضل، ولكونه لايعمل الاّ بوحى من ضميره وبعد التروي والتحكيم العقلي، جعلت مجهوداته قوية ومؤثرة في اية قضية يتناولها. ولم يكن اي قدر من التزلف والمداهنة يقوى على حمله على تلبية طلب غير عادل. وهو يعتبر الاذعان للتوسطات الصفيقة التي يعتبرها بعض الناس طيبة قلب وحسن نية، من اشنع حالات الضعف البشري الذي يصيب الرجل العظيم. ويؤكد ان أولئك الذين لايمكنهم رفض طلب سائل، لايدّ وانهم من الفاسدين في شبابهم.

عندما كان [قيصر] يتهيأ لحملته على [كاتو] و[سكيبيو] في افريقيا اختار [بروتوس] حاكماً لبلاد الغال الجنوبية. وكان ذلك لخير الاقليم العميم. ففي الوقت الذي كان سكان الاقاليم الأخرى يعانون الأمرين من ارهاب وجشع حكامهم، ويكابدون من الضغط والاضطهاد ما يجعلهم في حكم العبيد او اسرى الحرب نفس [بروتوس] عن كرب الغالين وجعلهم مرتاحين لا من وضعهم الحالي، بل من مصائبهم السالفة. ولم يقنع بهذا، وانما جعل الأهالي يفكرون بمقدار الفضل العظيم الذي يدينون به [القيصر]. حتى ان هذا الدكتاتور كان بادی

(٧) هذا الاضطراب قد يبدو اما تصحيحاً في النص أو خطأ من بلوتارخ نفسه ففي ٤٧ ق.م دافع بروتوس في قضية ديواراتوس مالك الفلاطين ولم ينجح.

السرور لرضا المدن عندما قام بجولة في ايطاليا برفقة [بروتوس] بعد عودته من حملة افريقيا. لم يكن [بروتوس] يهمل شيئاً فيه رفعة لمكاتبته ومعاملته كصديق عزيز.

في هذا الزمان شغرت عدد من المناصب البريتورية. وكان المتوقع أن الكرسي البريتوري الأرفع والأهم، وهو بريتورية العاصمة سيناط اماً [بروتوس] او [كاسيوس]. وقيل حسب بعض الروايات ان هذا سبب بعض الجفاء وزاد من حدة خلاف سابق فيما بين الرجلين حول امور أخرى، مع انهما كانا مرتبطين بأوثق رابطة قرابة. فكاسيوس هو زوج [يونيا] إحدى شقيقات [بروتوس] وهناك آخرون يقولون ان هذه المنافسة كانت من تدبير [قيصر] فقد وعد كلاهما على حدة بالمساعدة حتى وجدا نفسيهما بهذا القدر من التشجيع الخفي المزدوج - ينافس بعضهما بعضاً. ولم يكن رصيد [بروتوس] يتعدى سمعته الطبية واشتهاره بالاستقامة في اعماله، يضعها مقابل مآثر [كاسيوس] العديدة اللامعة اثناء حملة [كراسوس] على البارثيين. ومهما يكن من أمر فبعد ان أصغى [قيصر] الى ادعاءات الجانبين وبحث الأمر مع اصدقائه انتهى بالقول التالي:

- كاسيوس الأقوى حججاً. ولكن علينا أن نقلد [بروتوس] البريتورية الأولى.

وعين [كاسيوس] لبريتورية أخرى الاّ انه كان حانقاً لخسارته بريتورية المدينة أكثر منه شاكرًا للمنصب الذي ناله. وكان هناك طرق أخرى شارك [بروتوس] فيها سلطة [قيصر] بقدر ما شاءت رغبته. ولو انه أختار ممارستها فعلاً لكان أكبر الرجال نفوذاً من بين انصار [قيصر] واوسعهم سلطاناً الاّ أن معاشرته لكاسيوس ابعدته عن [قيصر]. لم يتمّ الصلح شخصياً فيما بينهما بعد منافستهما، الاّ انه كان يعير اذناً صاغية لاصدقائه الذين كانوا لا يكفون عن تحذيره من الوقوع تحت سحر [قيصر] ويغدو العوبة في يده، وانما عليه ان يرفض التكريم الذي يسبغه عليه الدكتاتور لأنه لايرمي به الى مكافأة الفضيلة فيه، بل لضعاف قوة غاياته، وتجريده من اعتزازه الروحي.

لم يكن [قيصر] من الجهة الأخرى على تمام الثقة به وكانت لديه شكوكه. والواقع انه لم يكن يفتقر الى من يخبر عنه ويتهمه. ولكن عظم ثقته في متانة خلقه بقيت، الى جانب خوفه من سموه روح الشاب، وسمعته واصدقائه. وعندما قيل له ان [انطوني ودولابلا] يخططان لثورة، علق قائلاً:

- ليس مما يخيفني هذان المرجلا الشعر البطيخان، وانما الشاحبان النحيفان الاعجفان.

يقصد [بروتوس وكاسيوس]. ومرة أخرى عندما راح مختلف الناس يتهمون [بروتوس]

ويحثون [قيصر] على مضاعفة الحذر، رفع يده ومسّ بها جسمه وقال متسائلاً:

- ماذا؟ الا تفكرون بأن بروتوس، لا يصبر على هذا اللحم المسكين لينهي أيامه؟

يقصد القول انه لا يجد أحداً أجدر من [بروتوس] ليكون خليفة له في سلطته العظيمة هذه.

وعلى اية حال كان ثم شبه اجماع بأن [بروتوس] يستطيع بسهولة ان يكون الرجل الأول في روما لو صبر على وقته. وقنع بان يظل نائباً لـ [قيصر] منتظراً أفول نجم سلطانه وتهافت ضياء مآثره إلا ان [كاسيوس] بطبعه الضيف وبحقده على قيصر - الذي نجم عن عداً شخصي يحمله له بالأحرى لا عن كره عام غير شخصي للطغيان - الهب شعور [بروتوس] ودفع به الى الامام. قيل ان [بروتوس] كان خصماً للدكتاتورية، وان [كاسيوس] كان خصم دكتاتور من بين الأمور الذي كان [كاسيوس] يأخذها على [قيصر]، هي مسألة نقل الأسود التي حصل عليها [كاسيوس] عندما كان يهّم بتولي منصب الايديل. تركت هذه الأسود في [ميغار] وعندما أحتل [كالينس] Calenus<sup>(8)</sup> أطلبها [قيصر] لنفسه وأخذها وقيل انها كانت سبباً في نكبة حلت بالميفاريين. ففي الساعة التي كان الفاتح يقتحم المدينة كسر الميفاريون اقفاصها وفكروا السلاسل التي كانت تقيدها، مؤملين أنها ستهاجم العدو عند دخوله، إلا ان الوحوش استدارت على الميفاريين العزل واعملت فيهم تمزيقاً وهم يهرولون مرتعبين، وكان منظرًا مؤلماً حتى للاعداء الفاتحين كان هذا على ما يقال - سبب حقد كاسيوس والدافع الأساس لحبك المؤامرة. إلا ان التسليم بهذا هو افتتات على الوقائع. كان كاسيوس منذ نعومة اظفاره مطبوعاً بحقد غريب على كل الطغاة الذين يريدون استعباد ابناء وظنهم. لقد كشف عن هذا عندما كان صبيّاً يغشى المدرسة التي يتعلم فيها [فاوستوس] ابن [سللا]. وعندما بدأ هذا الأين يفرض نفسه على الطلاب ويتباهى بسلطان ابيه المطلق. وثب عليه [كاسيوس] واشبعه ضرباً واراد وصي [فاوستوس] واهله أن يرفعوا الأمر الى القضاء. إلا ان [پومپي] لم يسمح بذلك واستدعى الصبيين واستجوبهما عما حصل، وتمضى الرواية فتقول - أن [كاسيوس] قال:

- هيا يا فاوستاس؛ ان تجرأت فردد الكلام الذي قلتته على مسامع پومپي فأثار غضبي وسأهشم اسنانك ثانية.

كذا كان طبع [كاسيوس]. اما في قضية [بروتوس] فلم يكن اندفاعه ناجماً عن مجرد اغراء اصدقائه الشخصيين ومجادلتهم، بل سلسلة طويلة من الايماءات، والرجاءات، والرسائل

المنفعلة التي كانت تحثه وتدفعه، فمثلاً وجدت كتابة على تمثال جدّه الأعلى [يونيو] بروتوس الذي قضى على نظام الملكية:

«آه لو كنت معنا اليوم!»

«... لو كان هذا البروتوس حيّاً!»

وبدأت الرسائل تغطي مقعد [بروتوس] الپيريتوري الذي يجلس عليه، يوماً بعد يوم بالكتابات فوقه،

«بروتوس انت تغطّ في نومك»

«انت لست بروتوس حقيقياً».

كثير من هذه الاستنجازات النابعة عن الشعور العام، كان سببها اعمال متملقي [قيصر] والغارقين في نعمائه. الذين خرجوا عن كل الحدود في تكريمه وتعظيمه، فمن بين ضروب التشويق المقرف الذي اخترعوه له، انهم راحوا يضعون تيجاناً على هامات تماثيله ليلاً، مؤملين أن يقرأ الشعب بمناداته ملكاً بدلاً من دكتاتور. إلا ان هذه الجهود جاءت بثمار معكوسة تماماً كما اتيت لشرحه في حياة [يوليوس قيصر].

وعندما أخذ [كاسيوس] يستمزج آراء اصحابه لتنظيم مؤامرة ضدّ [قيصر]. وافق الجميع شريطة أن يكون [بروتوس] زعيماً لهم. فهم يرون أن العدد، او الجرأة، او العزم الثابت ليست بالشروط الكافية. وما تحتاجه المؤامرة بالدرجة الأولى هو سمعة رجل كبروتوس فوجوده، سيكرّس الضحية كما يقول المثل ويؤكد عداله التضحية بمجرد مشاركته. فبدونه سيقدمون على القتل بايمان أقل، وسوف يثير المزيد من الشك في نياتهم بعد ذلك، لأن الناس سيقولون: لو كانت مقاصدهم نبيلة لما رفض بروتوس المشاركة فيها. ووجد كاسيوس هذه الحجج معقولة، فقصّد [بروتوس] بزيارة أولى بعد قطيعتهما التي اتيت الى ذكرها، ثم بعد أن تصافيا وتبادلا تحيات الودّ سأل [بروتوس] هل قرر حضور جلسة الشيوخ التي تقرر موعدها في عيد اول آذار لأنه سمع بأن انصار قيصر سوف يقدمون اقتراحاً في تلك الجلسة للمناداة به ملكاً. وعندما أجاب [بروتوس] بأنه لن يحضر، واصل كاسيوس كلامه قائلاً:

- ماذا سنفعل اذن لو ارسلوا بطلبنا؟

فأجاب [بروتوس]:

- لو حصل هذا، فسبكون من واجبي ان ادافع عن بلادي واموت في سبيل حريتها ولا ابقى ساكناً.

(8) احد ضباط قيصر الذي انيط به أمراً من جنود اليونان اثناء ما كان قيصر ينازل پومپي في 48 ق.م.

فشجعه هذا الكلام وسأله:

- ولكن اتظن انه يوجد روماني واحد يدعك تضحي بحياتك على هذه الشاكلة اما تعرف شيئاً عن نفسك اي بروتوس؟ او تظن ان كل تلك الضراعات التي تجدها فوق مقعدك الپريتوري هراء كتبه النساجون والبقالون، لا ارفع رجال روما مقاماً؟ انهم يتطلبون من الپريتورين الآخرين تسليبات عامة ومهرجانات وحفلات مصارعة الا انهم يتطلعون اليك لتنفيذهم من الاستبداد. انهم ليطلبون ذلك منك كدين في عنقك لاجدادك وهم مستعدون لمعانة كل شيء في سبيلك لو ظهرت لهم ذلك الرجل الذي يظنونه ويتوقعونه.

وختم كلامه بمعانقة [بروتوس] وتقبيله. وبعد ان تم الصلح بينهم قصد كل منهما اصداقاه للمداولة في الأمر.

كان ثم رجل يدعى [غايسوس ليغاربيوس Gaius Ligarius] وشي به [لقيصر] بوصفه أحد انصار [پومپي] فعفا عنه منذ زمن قريب. لم يشعر هذا الرجل باي امتنان لهذا العمل الرحيم وكان ممتلئاً حقداً على تلك القوة التي عرضت حياته للخطر. فكره [قيصر] وكان واحداً من اقرب اصداقاه [بروتوس] ومرة قصده في زيارة فوجده مريضاً، فقال:

- اي ليغاربيوس، انك لم تختار الوقت المناسب الملازمة فراشك

ما أن فهم [ليغاربيوس] عبارته حتى انهض جسمه مستنداً على مرفقه وشد على يد [بروتوس] وأجاب:

- كلا يا بروتوس؛ إن احتجت الي في اية قضية جديدة بك فأنا معافي.

ومنذ ذلك الحين اخذ [بروتوس وكاسيوس] يجسان نبض عدد من رجال روما البارزين الذين يثقان بهم. ولم يقتصر على دائرة اصداقائهما بل اتصلا بكل من توسما فيه روح المغامرة والاقدام والاستهانة بالموت ولهذا السبب لم يكتشفا [شيشرون] بسرهما وان كانا يثقان به ويعرفان مدى حبه لهما. الا انهما خافا من جنبه الطبيعي الذي يمازجه الحذر المتأني من تصارييف الزمن والشيوخوخة، وحرصه على الاستئصال أقل عنصر من عناصر المجازفة في اي مخطط. مما يثلهم من حدة عزمهما في ساعة تكون السرعة عاملاً جوهرياً. ومن بين اصداقاه بروتوس الآخرين الذين تخطاهما [ستاتيلبيوس Statilius] الالبيقوري و[فاثونيوس] احد المعجبين بكاتو. والسبب في ذلك انه جس نبضهما قبل فترة قصيرة بطريقه التعميم الفلسفية اثناء مناقشة، وقد اجاب [فاثونيوس] ان الحرب الالهية هي شر من الملكية المستبدة. وكان رأي [ستاتيلبيوس] ان جر المتاعب للنفس وتعريضها للأخطار في سبيل الحمقى والاشرار

والنكرات لاتجمل برجل يملك أقل قدر من الفطنة والحصافة. على ان [لابيو Labeo] الذي كان حاضراً، سقه هذين الرأيين. اما [بروتوس] فقد ظل ساكتاً طول الحوار، معتذراً بأنها مسألة معقدة ويصعب اعطاء رأي جازم فيها، الا انه انهى بالأمر الى [لابيو] فيما بعد فوجده متحمساً ووافق على الانضمام الى المؤامرة. وبعد هذا قرر أيضاً اشراك [بروتوس] الآخر، الذي يدعى [البينوس Albinus]. ولم يكن يمتاز بسمعة عظيمة من ناحية المرأة او الاضطلاع بالمهمام الخطيرة. الا انه كان مهماً للمتأمرين بسبب العدد الكبير الذي كان يدر به من المصارعين في ذلك الوقت للحفلات العامة ولأنه كذلك موضع ثقة من [قيصر]. وعندما قام [كاسيوس ولابيو] بجس نبضه رفض أن يقطع عهداً في الحال الا أنه قابل [بروتوس] على انفراد وما ان اتضح له انه زعيم المؤامرة حتى أعلن انضمامه. وتم اجتذاب معظم البقية بسمعة [بروتوس] وكلهم كانوا من عليية القوم ووجهم. ومع ان المتأمرين لم يؤدوا قسماً ولم يتبادلوا عهداً مقدساً لضمان الولاء المتبادل. فقد نجحوا في ابقاء السر مكتوماً نجاحاً لم يصدق معه احد بوجود مؤامرة مع ظهور كثير من الخوارق والاندازات السماوية التي أخذت صورة نبوءات وآيات، واشارات نحس في القرابين.

وبلغ [بروتوس] مرحلة شعر معها ان سلامة كثير من كبار الرومان اصلاً وعراقاً ومكانة وخلقاً تتوقف على سلوكه ولما كان يدرك جيداً الأخطار التي ينطوي عليه ذلك. حاول أقصى جهده أن يبقى خطظه مدفوناً في صدره وأن يراقب افكاره الا انه ينقلب في بيته ولاسيما ليلاً غير الرجل الذي كان في الخارج. فاحيانا كانت اعاصير فكره تفزعه من نومه فبصحو مرعوباً. وفي احيان أخرى عندما يكون غارقاً في هواجسه وحساباته واجما امام الصعوبات التي تكتنفه، اتضح لامراته وهي مضطجعه معه في الفراش بأن قلقاً غير عادي يخيم على عقله ويضغطه ضغطاً شديداً، وانه يقلب في رأسه مشروعاً عسيراً معقداً.

ذكرت سابقاً أن [بورشيا] هي احدى بنات [كاتو]. وقد تزوجها ابن عمته [بروتوس] وهي صغيرة جداً، مع انها كانت ثيباً، بعد موت زوجها الأول [بيبولوس]<sup>(٩)</sup> الذي انجبت منه صبياً. وثم كتيب اسمه «مذكرات بروتوس» كتبه هذا الفتى وهو متوفر الآن.

كانت [بورشيا] شديدة الحب لزوجها. ولم تكن ذات خلق عاطفي فحسب وانما كانت تجمع الى حيويتها عقلاً راجحاً ونباهة. فلم تلح على معرفة السر من زوجها حتى اخضعت نفسها للتجربة الآتية: صرفت خادماتها من غرفتها وأخذت مدية صغيرة مما يستخدمه الخلاقون لتقليم الأظافر وأحدثت في فخذهما جرحاً عميقاً. وفقدت مقدار كبيراً من دمها وبعد ذلك

(٩) زوجها الأول هو ماركوس كالورنيوس بيبولوس، كان قنصلاً مع قيصر في ٥٩ ق.م.

شعرت بآلام شديدة واعترتها رجفة وحمى عالية وعندما كان الألم يبرح بها والاضطراب الشديد يعلو [بروتوس] لحالتها، قالت له:

- بروتوس، انا بنت [كاتو]، ولم يزوجوني بك لاقاسمك السكنى والفرش كمخطبة لا غير، بل لاكون شريكة حقيقية في افراحك واتراحك. ليس لدي ما الومك عليه ولكن اي برهان تريد مني على حبي لك إن انت تأبى علي مشاطرتك في ذلك النوع من المحن الذي يستدعى رقيقاً أميناً تعتمد عليه، وتبقي آلامك ومعاناتك لنفسك وحدها؟ انا أعلم جيداً ان المرأة اضعف من أن تستأمن على أسرار. ولكن من المؤكد يا بروتوس إن لنبل الأصل والثقافة وصحة العلماء وافاضل الناس، بعض الأثر في تكوين اخلاقنا. ومن حقى أن أفخر بكوني بنت [كاتو] وزوج [بروتوس]. لم أكن أعلم قبلاً كيف تغني احدى هاتين نعمتين. الا اني الآن وضعت نفسي في التجربة فوجدت اني قادرة على قهر الألم.

ثم كشفت له عن الجرح الذي احدثته في ساقها وقصت عليه الحكاية وشرحت له التجربة التي اقدمت عليها لمعرفة مدى قابليتها على الاحتمال. فعرته الدهشة ورفع يديه الى السماء شاكراً وداعياً الآلهة لمساعدته في ما هو مقدم عليه لبيهرن انه زوج جديرٌ بمثل هذه المرأة. ثم أهتم كثيراً بصحة زوجه حتى تماثلت الى الشفاء.

وأعلن عن افتتاح جلسة للشيوخ كان يتوقع من [قيصر] ان يحضرها. واتفق المؤتمرون ان يهتبلوا هذه الفرصة هذه المناسبة ستساعدهم على تعبئة قوتهم كاملةً دون اثاره الشبه. وفضلاً عن ذلك فسيكون كل شخصيات روما واشرافها مجتمعين في صعيد واحد، وهم يأملون ان هؤلاء سيقبلون حالاً بعد ان يقضى الأمر، الى تبني فضية الحرية. اصف الى هذا أن الموضع الذي أختير للجلسة بدأ وكأن العناية الآلهية قد اختارته، لإتمام القصد. لقد كان رواقاً ترتفع فيه الأعمدة من تلك الاروقة المفتوحة الجوانب التي تلاصق الملعب وفيه رحبة واسعة اقيم عليها تمثال لپومپي ايام حكومة الجمهورية على نفقة الدولة. وعندما زين هذا القائد ذلك الحي من المدينة بالاروقة وبالملعب<sup>(١٠)</sup> الى هذه البناية دعي المجلس الى الاجتماع في منتصف آذار<sup>(١١)</sup> (والرومان يطلقون عليه (عيد مارس، وكان يبدو وكأن العناية الآلهية تقود [قيصر] الى الموضع ليلقى عقابه على موت [پومپي].

(١٠) هذه البناية الجميلة الكبيرة وهي اول مرشح ثابت بني في روما. تم انواع من بنائها في ٥٥ ق.م. وتقع في كامپوس مارتىوس Campus Martius في الشمال الغربي من المدينة.  
(١١) باللاتينية يعرف بعيد مارس Idus Martiae.

ما ان انبلج الصباح حتى خرج [بروتوس] ومعه خنجر لاتعلم به غير زوجه. واجتمع بقية المؤتمرين في منزل [كاسيوس] ورافقوا ابنه الى الفورم لأن الصبي كان سيجري في هذا اليوم مراسيم ارتدائه ثياب الرجال اي toga virilis كما يسميها الرومان ومن هناك اسرعوا جميعاً الى رواق [پومپي] وظلوا هناك بانتظار مقدم [قيصر] للمشاركة في جلسة المجلس. ولم يكن ليسع اي رجل على علم بالمؤامرة الا ان يندھش في تلك الساعة لما رآه فيهم من رباطة جأشٍ وهدوء وحضور ذهن. في ساعة اقتراب الأزمة من نهايتها. وكان كثيرون منهم حائزين على المنصب الپريتوري ووظيفتهم تقضي عليهم بالنظر في قضايا اليوم. فأنصرفوا يصغون بصبر الى الشكاوى المعروضة وينظرون في الخلافات كأن ليس لديهم شيء آخر يشغل بالهم، وكانوا يبذلون قصاراهم في صياغة احكامهم بدقة في كل قضية وعندما رفض شخص من المتداعين قبول حكم [بروتوس] وبدأ يتحج بصوت مرتفع ويتظلم لقيصر، تطلع [بروتوس] بهدوء في وجوه المستمعين وقال:

- قيصر لاينعني من الحكم بموجب منطوق القانون ولن يفعل ذلك قط في المستقبل. وفي الوقت نفسه وقعت مفاجآت وحوادث غير منتظرة، أخلت بهدوهم واورثتهم بعض القلق. اولها تأخر (قيصر) عن الوصول بعد مرور وقت طويل وانقضاء الشطر الاكبر من النهار. فقد اعاقته زوجه ومنعه العرافون من الخروج لعب وجده في اضحيته. وثانيها ان رجلاً أقبل على [كاسكا Casca] أحد المؤتمرين وامسك بيده وقال:

- لقد اخفيت السر عنّا يا كاسكا، الا ان [بروتوس] اخبرني بكل شيء.  
وفيما وقف [كاسكا] جامداً صامتاً ابتسم الرجل واستطرد يقول:  
- عليك ان تخبرني بالحقيقة يا صاح، كيف اصبحت موفور الغنى بهذه السرعة فأقدمت على ترشيح نفسك لمنصب المحتسب [ايديل]؟

كان [كاسكا] على وشك فضح السر بسبب التباس فهمه لكلام الرجل لو لم يبادر هذا بالتفسير.

وفي ذلك الوقت قابل [پوپيليوس ليناس popilius Loenas] كلا من [بروتوس] و[كاسيوس] بحرارة أكثر من المعتاد ثم دنا منهما وهمس بصوت خافت جداً:

- دعواتي لكما، وتمنيااتي لمشروعكما النجاح. لكن كل ما تعملانه، استعجلا به، فكل الناس يتحدثون به الآن.

قال هذا وتركهما سائراً بعد ان اشاع الشك فيهما بافتضاح أمر المؤامرة.

وفي تلك اللحظة أيضاً قدم احد السعاة وهو يعدو من جهة منزل بروتوس، يحمل اليه نبأ مفاده ان زوجه [پورشيا] تعالج سكرات الموت، والحقيقة هي ان الاضطراب بلغ بها منتهاه في ارتقابها النتيجة حتى خرجت عن طورها وضاق بها المنزل على رحبه، ما تسمع صوتاً أو جلبة الأ وتجفل وتهب من مجلسها واقفة كأنها في حالة انجذاب وحارت قواها من فرط حركتها. اذ كانت تخرج وتسائل المارة عمّا يحدث في الفورم ثم تعود لترسل الساعي تلو الساعي. تسقطاً للأنباء، وتضاعفت مخاوفها وأخذت الشكوك تنهشها وتفريها، ولم تستطع الوصول الى مخدعها فقد اغمى عليها وراحت في غيبوبة وفرت الوانها وفقدت النطق. فأطلقت نساؤها صرخة عظيمة وهرع الجيران الى منزل [بروتوس] ليستطلعوا الأمر وانتشر خبر وفاتها بسرعة وعلى نطاق واسع. على ان العناية التي بذلتها وصيفاتها اعادت اليها وعيها بعد قليل واستردت قواها وتأثر [بروتوس] تأثيراً عميقاً بالنبأ المفاجيء كما هو متوقع طبعاً إلا انه لم ينس واجبه، ولم يفسح للقلق مجالاً ليجعل عقله منشغلاً في همومه الخاصة.

وورد الخبر بأن [قيصر] في طريقه الى المجلس محمولاً في محفة. لقد تطير من نذر الشر التي ظهرت في قرابينه فقرر الا بيت في اية مسألة هامة يومها، وان يؤجلها الى وقت آخر معتدراً بالمرض. وما ان خرج من محفته حتى تقدم منه [پوپيليوس ليناس] الذي كان قبل قليل قد تمنى [لبروتوس] النجاح في غايته وشرع يحدثه ملياً. وظلّ [قيصر] واقفاً طوال المحادثة لا ينم عليه شيء خلا اشارات الاهتمام، ولم يكن يوسع المؤتمرين - (هذا ما سأطلق عليهم الآن) سماع الأقوال الا ان استنتاجهم الطبيعي هو أن الحديث يدور حول موآمرتهم وان [ليناس] يقوم بانذار [قيصر] فوهت عزائمهم. وبدا من النظرات التي تبادلوها فيما بينهم انهم مجمعون على ان لا ينتظروا القبض عليهم وان يقتلوا انفسهم بايديهم. وامتدت ايادي كاسيوس وبعض الآخرين الى اغماد سيوفهم المندسة تحم معافطهم لتجربدها عندما لاحظ [بروتوس] ان تصرف [ليناس] كله يدل دلالة واضحة على انه يعرض طلبا، ولا يقدم اتهاماً. فلم ينطق بحرف لأنه كان محاطاً بالأغراب الذين لا شأن لهم بالمؤامرة. إلا ان أظهر البشاشة والبشر. فأفرخ روع [كاسيوس] وصحبه. وبعد قليل لثم [ليناس] يد [قيصر] وانصرف. فبدأ واضحاً ان مقابلته [لقيصر] كانت تتعلق بمسألة خاصة تهم شخصه ولا احد غيره.

بعد ان دخل اعضاء المجلس قاعة المناقشات قبل [قيصر] تجمع المؤتمرين حول كرسية كأن لديهم قضية يريدون عرضها عليه. وادار [كاسيوس] وجهه نحو شمال [پومپي] - على ما قيل لنا - كأنه يستنجد العون ويسمع دعاؤه. وفي الوقت نفسه راح [تريبونيوس] يشاغل [انطوني] بالحديث عند المدخل ويصرف اهتمامه ليبقيه خارجاً ووقف اعضاء المجلس تكريماً

لقيصر عند دخوله، وما ان جلس حتى كان المؤتمرين جميعاً يتحلقونه ثم دفعوا باحدهم وهو [تليليوس چمبر Tillius Cimber] ليعرض عليه قضية أخيه المنفي، وتدخل بقية المؤتمرين في الشفاعة له، وقبض (چمبر) على يد قيصر وقبل رأسه وصدرة. بالأول رفض [قيصر] الرجاء. ولكن عندما وجد انهم لا يدعون يذهب حاول النهوض ودفعهم عنه بعنف وعندها امسك [تليليوس چمبر] عباؤه وسحبها عن كتفيه. بكلتا يديه في حين تقدم [كاسكا] الذي كان واقفاً خلفه مشهراً سيفه وكال له الطعنة الأولى فأحدث صرحاً بسيطاً في ذراعه. فأمتدت يد [قيصر] الى قبضة السيف وامسكها وصاح باللاتينية:

- كاسكا ايها الوعد! ماذا تفعل؟

في حين نادى [كاسكا] أخاه باليونانية طالباً المعونة. وعندها وجد [قيصر] نفسه يتلقى الطعنات من ايادٍ كثيرة. وفيما هو يتطلع حواليه ليجد له مخرجاً وخلاصاً من مهاجميه وقعت عينه على [بروتوس] مشهراً سيفه في وجهه فأقلت يد [كاسكا] التي كان ممسكاً بها وغطى وجهه بردائه وسلم جسمه لضربات القتلة فأطبق المؤتمرين عليه واعملوا فيه طعناً حتى صارت النصال تعترض النصال وأصيب بعضهم بجراح على يد الآخرين وأصيب [بروتوس] بجرح في يده في اثناء مساهمته بالعمل ولطخت الدماء جميعهم.

أخيراً بعد أن قتل [قيصر] تقدم [بروتوس] ووقف في وسط القاعة وحاول جهده تهدئة روع الاعضاء واقناعهم بالبقاء إلا انهم تولوا عنه مذعورين وتدافعوا بكثير من الفوضى الى الابواب وتزاحموا بالمناكب ليستبقوا الخروج مع أنه لم يكن ثم من يطاردهم. فقد قطع المؤتمرين عهداً فيما بينهم بأن لا يقتلوا أحداً غير [قيصر]. وان ينادوا امام جميع الشعب بالحرية. عندما كانت المداولات تجري بين المؤتمرين حصل اجماع على ضرورة قتل [انطوني] ايضاً. اذ اعتبروه رجلاً يستخف بالقوانين ويفضل الحكم الاوتواطي المطلق وان لديه خطوة كبيرة من الجنود وسلطاناً عليهم بسبب مقدرته على الاختلاط بجنوده بكل بساطة وكسب ولاءهم وطاعتهم. وأخيراً طموحه ووقاحته الطبيعية تضاعف خطرهما لأنه ارتفع الى منصب القنصلية، وكان في ذلك الوقت زميلاً [لقيصر] في هذا المنصب. إلا ان [بروتوس] عارض الاجماع. واصرّ بأن الواجب يقضى بالدرجة الأولى ان يعملوا وفق أضييق حدود العدالة، وكان من رأيه ان ينصلح حال [انطوني] وان التغيير قد يطرأ عليه فيما بعد. كان يتمسك بفكرته وهي: ما ان يزاح [قيصر] عن الطريق فان طبيعة [انطوني] السمحاء، وطموحه وجهه للمجد، سوف تتجاوز مع المثل النبيل الذي ضربه المؤتمرين وانه سينضم اليهم لمساعدة بلادهم على الوصول الى الحرية. وبهذه الوسيلة انقذ [بروتوس] حياة انطوني فعلاً. إلا ان الذعر الشامل



الذي عقب القتل جعل [انطوني] يخلع معطفه المشيخي. ويتنكر بثوب رجل من العامة ويهرب.

وقصد [بروتوس] ورفاقه الكابتول وأخذوا يلوحون بأيديهم الدامية القابضة على سيوفهم المسلولة، للناس ويدعونهم للتمتع بحرياتهم. في مبدء الأمر ووجهوا بصيحات الخوف ليس الأزد الاضطراب العام بحرجلة الناس المرتعبين، عقب الاغتيال مباشرةً. ولما يعقب ذلك نهب او سفك دماء، فقد استجمع الشيوخ وكثير من الناس شجاعتهم وقصدوا الكابتول لرؤية المؤقرين وهناك احتشد خلق كثير. فارتجل [بروتوس] خطبة تناسب الموقف وترضي الجمهور. وهتف له المستمعون عالياً وطلبوا منه النزول اليهم من الكابتول فعاتت الثقة بالنفس الى المؤقرين وقصدوا الفورم. وساروا معاً إلا أن [بروتوس] وجد نفسه محاطاً بأبرز رجال روما الذين رافقوه من الكابتول بكل مظاهر الاجلال والتعظيم، حتى اصعدوه الى الروسترا. كان الجمهور الذي يواجهه يضم اناساً من مختلف الاتجاهات والعواطف وقد جاء متهيئاً الاحداث شغب. إلا أن الرهبة سادته عند مشاهدة [بروتوس] وراح يترقب كلامه بصمت خاشع ونظام تام الشروع في خطابه اصغى اليه بانتباه. ولكن ما أن أخذ [Cinna] مكانه وبدأ يتهجم على [قيصر] بدأ واضحاً أن عدداً كبيراً من المستمعين ساخطون على ما حصل وبدء غضب الجموع يتصاعد وأخذوا يهاجمون [جنا] بعبارات مقذعة ويعنف حتى اضطر المؤقرين الى العودة والاحتماء في الكابتول. وهناك صرف [بروتوس] الرومانيين البارزين الذين رافقوهم اذ كان يخشى ان يحاصروا هناك ولم يجد من العدل ان يتعرض للخطر من لم يساهم معهم.

ومهما يكن من أمر فقد اجتمع مجلس الشيوخ في اليوم التالي في هيكل الربّة [تللوس Tellus] وتكلم [انطوني] وبلانكوس وشيشرون] محبذين التآلف والاتفاق واجراء مصالحة عمامة وان يقوم المجلس باصدار قانون العفو العام. فصوت على الاقتراح وقُبل<sup>(١٢)</sup>. وبوجهه تقرر ان لاتتخذ اية اجراءات ضدّ المؤقرين فضلاً عن قيام القنصلين باقتراح تكريم مناسب لهم. ثم الفض الاجتماع. ثم بعد ان ارسل [انطوني] ابنه الى الكابتول بمثابة رهينة، غادر بروتوس وصحبه البنائة وتبادل الفريقان عبارات الود والتحيات بدون تحفظ. وعزم [انطوني] [كاسيوس] للعشاء واحتفى به. وفعل [ليبيدوس] المثل مع [بروتوس] وتبودلت الدعوات بين الطرفين وساهم اصدقاء الفريقين بذلك. ثم التأم مجلس الشيوخ في بكور اليوم التالي

(١٢) تلك كانت مساومة. فالمجلس الذي هو الآن السلطة الدستورية العليا كان ينتظر منه أن يعلن بان اغتيال رئيس الدولة هو عمل من اعمال الخيانة إلا انه لم يفعل ولكنه صادق في هذه الجلسة على كل المراسيم التي اصدرها [قيصر] لأن وجود العدد الكبير من محاربيه القداماء في روما ارغمه على ذلك في الواقع.

وكان اول عمل له هو التصويت، على قرار بشكر [انطوني] لتفاديه حرباً أهلية. ثم قرضوا عمل [بروتوس] ورفاقه الحاضرين ويعدها شرعوا في توزيع حاكميات الاقاليم، فكانت [كريت] من نصيب [بروتوس]، وافريقيا لكاسيوس، وآسيا لثريبونيوس وبثيينا لجمبر، والغال الجنوبية لألبيينوس بروتوس.

وأخيراً نوقشت قضية وصية [قيصر] وجنازته. وطلب [انطوني] وانصاره ان تقرأ الوصية علناً وان لايدفن الجثمان بصورة اعتيادية بل الاكرام والمراسيم التقليدية، والأ انفجر سخط الجمهور مرة أخرى فعارض [كاسيوس] في هذه الطلبات بكل قوته إلا أن [بروتوس] نزل عند الطلب ووافق. ويبدو انه كان مخطئاً في حكمه هذه ايضاً. ارتكب غلطته الأولى بابقائه على حياة [انطوني]، فتعرض بذلك لتهمة وضعه أمام المؤقرين خصماً قوياً ليس ثم اخطر منه، وهذه غلطته الثانية. فبسماحة بتشجيع جثمان [قيصر] بالشكل الذي اقترحه [انطوني] وقع في خطأ مميت لايرجى اصلاحه. وكان اول آثاره انه عندما ظهر من وصيته [قيصر] انه وهب كل مواطن روماني خمسة وسبعين درهماً. وأوقف لمنفعتهم كل بساتينه فيما وراء نهر [التيبر] حيث يقوم هيكل آله الحظ اليوم، تصاعدت موجة عارمة من الحب له، وساد شعور قوي يعظم الخسارة فيه، ثم انه عندما جيء بالميت الى الفورم، القى [انطوني] خطبة التأبين التقليدية فوق جثمانه. وما ان وجد الجمهور المحتشد شديد التأثير باقواله حين غير من اتجاهه وانتقل الى المسائل العاطفية ورفع عباءة [قيصر] وقد جمدت عليها الدماء فنشرها لترها العيون مشيراً الى كل خرق فيها نفذت منه السيوف الى جسم القتييل وراح يحصى الطعنات. ففقد المستمعون كل سيطرة على أنفسهم فصاح بعضهم محرصاً على قتل القتلة. وعمد بعضهم الى تكديس المناضد والمقاعد التي جاؤا بها من الحوانيت المجاورة بعضها فوق بعض ليعملوا محرقة كبيرة. مثلما حدث في الشعب الذي فقد فيه كلوديوس الغوغائي حياته<sup>(١٣)</sup>. ثم رفعوا جثمان [قيصر] الى قمتها واشعلوا النار فيها، وفي الحقيقة كان اختيار هذه البقعة بالذات لاقامة المحرقة، موفقاً جداً لأنها محاطة بعدة هياكل ومحاريب وامكن مقدسة. ثم لما اخذ اللهب يتصاعد ويشتد اندفع الناس من كل جانب وامسكوا بعيدان مشتعلة وانبثوا في ارجاء المدينة يفتشون عن بيوت القتلة لاشعال النار فيها.

وكان المؤقرين قد اتخذوا احتياطاتهم فتحضوا في داخل منازلهم واصبحوا قادرين على دفع الخطر. إلا انه كان يوجد رجل شاعر يدعى [جنا] لا علاقة له بالجريمة. وهو في الواقع صديق لقيصر راي في الحلم ان [قيصر] دعاه الى العشاء فلم يقبل الدعوة، إلا أن [قيصر] الح عليه

(١٣) قتل كلوديوس ٥٢ ق.م في شجار نشب بينه وبين (ميلو) في الشارع وقاتله منافس غوغائي له.



- سواء في ذلك أكنت في حلم أو في يقظة، لايسعني إلا الاعجاب برجل له مثل هذه الروح العالية، وذاك الكره العظيم للاستبداد.

وبعد ذلك بدأ [بروتوس] يعمل جهازاً. ولما علم ان عدداً من السفن الرومانية المحملة بالمال قد ابحرت من آسيا وان قائدها انسان طيب، ومعروف لديه بالسمعة ذهب لمقابلته في [كاريستوس Carystus] وهي مدينة في [يوبيا]. وبعد ان تداول معه واقنعه بتسليم السفن له، اقام مأدبة كبيرة في ذلك اليوم الذي وافق عيد ميلاده. ثم بعد أن بدأوا بالشراب واقترحوا نخب «النصر لبروتوس والحرية لروما» رغب [بروتوس] في بث المزيد من الحماسة في المجتمعين فأمر بوعاء أكبر من الخمر. وفيما هو ممسك به ردد بدون مناسبة او سبب ظاهر - هذا البيت من هوميروس، وهو آخر كلمات نطق بها پاتروكليس المحتضر<sup>(١٨)</sup>.

لقد عاكسني الحظّ أولاً وأدار لي وجهه

ثم تلاه اپوللو ابن ليتو Leto

وزاد بعض الكتاب شرحاً لهذا، انه عندما خرج [بروتوس] لحوض آخر معركة له في فيليبيا كانت كلمة التيمن التي اختارها لجنوده هي «اپوللو» واستنتجوا ان النزوة المفاجئة التي دفعته الى ترديد هذا البيت، وانما نبغت من احساس مسبق بالهزيمة.

بعد هذا اعطاه [انتستيويس Antistius] نصف مليون دراهماً من الأموال التي كان يحملها الى ايطاليا، وبقية جيش [پومپي] الذي لم يزل يهيم على وجهه في انحاء تساليا انضم مسروراً تحت لوائه. وأخذ من [چنا] ايضاً خمسمائة خيال كان هذا يريد اصالها الى [دولابلا] في آسيا. بعد ذلك ابحر الى [ديمترياس] وهي ميناء تسالي حيث وضع يده على كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات التي كان [يوليوس قيصر] قد أمر بجمعها لحملة البارثية وكانت على وشك ارسالها الى [انطوني]. وسلم اليه [هورتنسيوس] الپريتور حاكم مقدونيا، الاقليم الذي يحكمه وأعلن الملوك والحكام المجاورين مساندة لهم وعرضوا عليه المعونة. ثم وردت انباء تشير الى ان [گايوس] اخ [مارك انطوني] قد خرج من ايطاليا وهو في طريقه للانضمام الى القوات التي يقودها [فاتينيوس Vatinius] في دراكنيوم واپولونيا<sup>(١٩)</sup> وقرر [بروتوس] ان يعترض سبيله ويضع يده على جيشه قبل ان يتم تعزيزه.

(١٨) الايلاذة ١٦: ٨٤٩. هناك استعارة وتورية في اسم اپوللو هنا - فبالامكان أن يقصد به هنا «مدمر» او مخرب.

(١٩) في نسخة أخرى: دراكيوم وردت اييدامنس Epidamnus. وكتاهما ميناء في شمال غرب اليونان على بحر الادرياتيك.

لفراق [بروتوس] إلا أن منظر نقش في صورة فضح أمرها واصاب محاولتها النبيلة بالاخفاق. كان موضوع الصورة مقتبساً من اسطورة اغريقية «هكتور يودع اندروماخه» والمنظر يمثلها وهي تتناول من ذراعيه طفلهما [استياناكس Astyanax] بينما تشخص بنظراتها الى زوجها. وجدت [پورشيا] وهي تنظر الى الصورة احزانها تمثل امامها فأنفجرت باكية، وادامت الذهاب الى النقش عدة مرات في اليوم والبكاء امامه. وبهذه المناسبة اقتبس [اچيلوس Acil-ius] أحد اصدقاء بروتوس ابيات هوميروس التي تخاطب [اندروماخه] زوجها هكتور بها<sup>(١٦)</sup>:

انت لي يا هكتور كل شيء.

رعيتني كأب وكأم

وكأخ وكزوج محب

فأبتسم بروتوس له وقال:

- لكنني لن أجيء [پورشيا] بمثل ما أجب هكتور<sup>(١٧)</sup>

اهتمي بنوك ومغزلك

وأصدري اوامرك لخادماتك

- ربما لأنها لاتملك القوة الكافية لاتيان الأعمال المنتظرة من الرجال إلا ان لديها الروح الوثابة للنضال في سبيل بلادها، مثلما لدينا.

لقد اقتبسنا هذه الحكاية من كتاب [بيبولوس] ابن [پورشيا] عن بروتوس.

بعد ان ترك [بروتوس] ميناء [قيليا] ابحر الى آثينا فأستقبله الشعب بحماسة عظيمة وأحتفى به بمختلف مظاهر الاكرام الرسمية، فمكث هناك عند احد اصدقائه واستمع الى دروس [تيومبستس Theomnestus] الاكاديمي و[قراطيبوس Cratippus] المشائي Peripalitie وبحث مسائل الفلسفة معهما وبدأ وكأنه لا شاغل له غير الدراسة الأدبية. إلا انه كان طوال هذه الفترة يعدّ العدة للحرب سراً دون ان يدع للشك اليه سبيلاً. واعتزم ان يستميل قواد الجيش الروماني في مقدونيا، وارسل لهذه الغاية داعيته [هيروستراتوس Herostratus] وفي الوقت نفسه أجتذب كل الشباب الرومان الذين يدرسون في آثينا ومنهم ابن [شيشرون] الذي كان دائم الثناء عليه بحرارة والقول:

(١٦) انظر الايلاذة ٦: ٤٢٩ - ٤٢٠.

(١٧) انظر الايلاذة ٦: ٤٩١.

فأنطلق حالاً بما تيسر له من قوة يقطع ارضاً وعرة، تهدده العواصف الثلجية، ويسبق قافلة ارزاقه بمسافة كبيرة توخياً للسرعة. وما ان وصل ضواحي [دراكيوم] بدأت عليه اعراض المرض الذي يسمونه بوليميا Boulimia، وهو متأت من البرد والتعب يصيب معشر الانسان والحيوان على حد سواء لاسيما عندما يشقون طريقهم في الثلوج ويضعفهم الانهاك. وربما كان كانت علتة ان الحرارة الطبيعية في الجسم عندما تجد نفسها متجمدة ومكثفة بالبرد الذي يحدث بها تستنفد بسرعة كل ما لديها من غذاء، أو لعل البخار الحاد الخبيث الذي يتصاعد من الثلج ينفذ الى الجسم ويقتل الحرارة التي تتولد من المسام. ذلك لأن عرق الجسم يتولد في الظاهر من تلك الحرارة الداخلية، فيقوم رد فعل معاكس بما يواجهه من برد حال وصوله الجسم. ومهما يكن فقد بحثت هذا الموضوع بتفصيل في مكان آخر.

ووجد [بروتوس] نفسه خائر القوى مهدوداً. ولم يعد للجنود لقمة يتبلغون بها، ولذلك اضطر خدمه الى السؤال من اعدائهم. واقتربوا من ابواب المدينة وطلبوا من الحرس شيئاً من الخبز. ولما سمع هؤلاء عرض [بروتوس]. اقبلوا اليه بمحض اختيارهم وجلبوا له طعاماً وشرباً وقد رد [بروتوس] الجميل عندما سقطت المدينة في يديه فقد اظهر ليس لهم وحدهم بل لسكان جميعاً أعظم ضروب العطف والرعاية.

عندما وصل [گايوس انطونيوس] اپولونيا، أمر كل الجنود المعسكرين بالقرب من المدينة بالانضمام اليه. الا أنهم انضموا الى [بروتوس] وفي الوقت نفسه اتضح له أن أهالي [اپولونيا] هم مع [بروتوس] فترك المدينة وزحف على [بوثروتوم] [Buthrotum] (٢٠) فخرس في مبدء الأمر ثلاث كتائب مزقتها [بروتوس] شرمزق اثناء ما كان خصمه يواصل سيره. وأخيراً عندما اشتبك في معركة للاستيلاء على بعض التحصينات المحيطة بـ [بللييس] [Byllis] واقتحامها وكان بروتوس قد سبقه لاحتلالها. اصيب بالاندحار على يد [شيشرون] الأبن الذي اناط به [بروتوس] القيادة. فكسب لقائده عدة معارك. وباغت [بروتوس] [گايوس] في ارض مستنقعات وقواته مبعثرة فوق مساحة واسعة الا أنه لم يصدر اوامر بالهجوم، وإنما احاط بجيش عدوه وحذر من التعرض لحياة الجنود اذ كان متأكداً بأنهم سيكونون في صفه بعد قليل، وهذا ما حصل فعلاً فقد استسلموا هم وجنرالهم وهكذا وجد [بروتوس] جيشاً عظيماً تحت امرته. وعامل [گايوس] معاملة كريمة تتفق والشرف العسكري. فقد سمح له بالاحتفاظ بشارات رتبته مدةً طويلة مع ان كثيراً من الشخصيات كتبوا له من روما يحثونه على قتله ومن بين هؤلاء شيشرون نفسه. ولكن عندما بدأ [گايوس] يفاوض ضباط [بروتوس] سراً (٢٠) على ساحل الارض اليونانية مقابل كورفو Corfu.

محاولة منه اثاره عصيان، نقله بروتوس الى سفينة ووضعه تحت حراسة دقيقة. وعندما هرب الجنود الذين نجح [گايوس] في اقناعهم بالانتقاض على بروتوس ولجأوا الى [اپولونيا] ودعوا [بروتوس] لزيارتهم، أجابهم ان هذا ليس بالتقليد الروماني الصحيح. وان عليهم ان يأتوا هم الى جنرالهم ويطلبوا منه الصفح وهذا ما فعلوه، فعفا عنهم.

وفيما هو يتهيأ للعبور الى آسيا وصلته انباء عن تطورات الموقف في روما. ففي خلال (٢١) تلك الفترة تمكن [اوكتافيوس قيصر] من الحصول على ثقة مجلس الشيوخ ومساندته ضد [انطوني] وانه طرد خصمه ومنافسه هذا من ايطاليا. فكان على [بروتوس] ان يخشى الآن [اوكتافيوس] اذ بدء يعمل على تعيينه قنصلاً خلافاً لاحكام القانون. وانه يحتفظ بجيوش اكثر مما تحتاجه الدولة، على انه رأى ان مجلس الشيوخ لا يقره على هذه الاجراءات، وانه بدأ يتحول نحو بروتوس، ويصدر مراسيم باناطة قيادة الاقاليم العسكرية به، فاستبد القلق باوكتافيوس ولذلك ارسل يعرض على [انطوني] المصالحة وجاء بعين الوقت بجيشه واحاط روما (٢٢) ليعمل على تنصيبه قنصلاً بالتهديد مع انه لم يكمل العشرين من عمره كما ذكر هو نفسه في «تعليقاته». وكان احد اولى اعماله، اصدار الأمر بالتحقيق ورفع الدعوى العمومية على [بروتوس] ورفاقه المؤتمرين بتهمه انزال حكم الموت دون محاكمة باول رجل في الدولة يتولى اكبر منصب. وعين [لوچيوس كونيڤيجيوس Lucius Cornificius] مدعياً عاماً على [بروتوس] وماركوس اگريبا Marcus Agrippa مدعياً عاماً على [كاسيوس]. ثم حكم المتهمون غياباً واضطر القضاة الى الادلاء باصوات الادانة اضطراراً. وقيل ان المناادي صعد الروسترا ونادى [بروتوس] لحضور المرافعة كما يحتم التقليد القضائي ندت من العامه تهيئة عميقة، واطرق النبلاء برؤسهم صامتين وشوهد [پوبليكوس سيليجيوس Publius Silicius] وهو ينفجر باكياً ولهذا السبب وضع اسمه في قائمة المستباحة دماؤهم بعد حين. ثم ما عتم ان عقد الصلح بين [اوكتافيوس وانطوني وليبيدوس] والفوا الحكم الثلاثي (٢٣) وقسموا الأقاليم بينهم ووضعوا قائمة باستباحة دماء من ارتوتني القضاء عليهم وقد بلغ عددهم المائتين (٢٤) وكان شيشرون من ضمنهم.

(٢١) في أوائل ٤٣ ق.م.

(٢٢) في صيف ٤٣ ق.م.

(٢٣) في تشرين الأول ٤٣ ق.م.

(٢٤) هذا العدد قاصر على اعضاء مجلس الشيوخ الذين حكموا بالموت. وكان ثم أيضاً ما يناهز ثلاثة آلاف من طبقة الفرسان. كان عدد اعضاء المجلس يتفاوت كثيراً باختلاف العهود. فالى مبدء القرن الاول قبل الميلاد كان اقل من مائتين. وزاد سلالاً في عدده الى (٥٠٠) تقريباً، وضاعفه قيصر فأصبح الفاً. الا ان أغسطس انقصه الى (٦٠٠).

بلغت هذه الانبياء [بروتوس] وهو في مقدونيا، فوجد نفسه مكرهاً على اصدار أمر [لهورتنسيوس]، بقتل [گايوس انطونيوس] عقاباً لقتل [شيشرون وبيروتوس البينوس] اولهما صديقه و ثانيهما قريبه. ولهذا السبب أمر [انطوني] بأن يقتل [هورتنسيوس] فوق قبر [گايوس] عندما ظفر به بعد معركة [فيليبى]. وقد قال [بروتوس] أنه أكثر خجلاً لموت شيشرون منه حزناً عليه، وانه ليلقى اللوم على اصدقائه في روما لما حصل. وقال ان ما جعلهم عبيداً ليس الطاغية المستبد، وانما أعمالهم، ولقد سمحوا لانفسهم ان ينظروا نظره استسلام الى اعمال يجب أن لا يتسامحوا حتى لمجرد سماعها.

عبر [بروتوس] الى القارة الآسيوية<sup>(٢٥)</sup> بجيشه وقد اصبح لجياً مرهوباً وصادر أمراً بوضع الاسطول على قدم الاستعداد في بشينيا وفي الميناء المجاور [چيزكوس Cyzicus] في حين قام بعدة جولات في داخلية البلاد لتفقد المدن وكسب ولائها والعمل على تدبير شؤونها ومقابله الحكام المحليين وارسل رسلاً الى [كاسيوس] في سورية يلتحق به متخلياً عن حملته المنتواة الى [مصر]. وذكره بأنهما لا يتجولان في الامبراطورية لاقطاع اجزاء منها لفسبهما: بل ان غايتهم هو تأليف جيش لاسقاط الطغاة وتحرير بلادهما. فعليهما أن يضعنا نصب اعينهما هذا الهدف والأى بيتعدا عن ايطاليا، بل يجب ان يسرعا بالعودة الانقاذ ابنا ووطنهما من الظلم.

واطاع [كاسيوس] أمر الدعوة ولما قفل راجعاً، خفّ [بروتوس] اليه وتقابلاً في [أزمير] وكانت اول لقياء لهما بعد ان افترقا في [پيربوس] باثينا. حين توجه [كاسيوس] الى سورية، وسار [بروتوس] الى مقدونيا، وشعرا بارتياح وثقة عظيمتين للقوات التي يقودها كل منهما لقد خرجا من ايطاليا كأحقر المنفيين، بلا مال ولا سلاح ولا سفينة واحدة مجهزة بمجازيف ولا جندي تحت امرتهم، فدار الزمان دورته القصيرة، وهاهما يجتمعان الآن بعد اشهر قليلة يقودان اسطولاً وجيشاً من الخيالة والمشاة، ولديهما مال وفير. وفي حالة موآتية جداً لحوض المعركة في سبيل الامبراطورية الرومانية.

وكان [كاسيوس] يحرص أن يكونا متساويين مقاماً، إلا ان بروتوس كان يستيق نيته بالذهاب لزيارته، اذ كان [كاسيوس] أكبر منه سناً ولا يستطيع تحمل درجة معينة من المشقة. كان [كاسيوس] يعرف بالكفاءة العسكرية، إلا أنه اشتهر ايضاً بالطبع الحاد العنيف، ومن يحافظ على سلطته بما يشيعه من رهبة، وان كان مع اصدقائه المقربين قد يصل في مزاحه الى حدّ التهريج. إلا ان مناقب [بروتوس] جعلته محترماً عند الناس، محبوباً من الاصدقاء.

(٢٥) في آخر صيف ٤٣ ق.م.

موضع اعجاب الأفاضل، غير مكروه من اعدائه انفسهم. وقد تميز بطبع رقيق فريد في بابه وسمت روحه العظيمة عن الشعور بالغضب او الفرح أو الطمع ثابت لا يدين في تتبع اهدافه، ولا ينكص عما يعتقده صواباً وشريفاً. ان اخلاصه التام لغاياته اكسبه الحب الاعظم والسمعة العليا. و[پومپي] الاكبر نفسه مثلاً ما كان يتوقع منه لو انتصر على [يوليوس قيصر] ان ينزل عن سلطانه الى حكم القانون وانما سيظل يتولى تصريف شؤون الحكم وفق هواه فلا يسرح جيشه اطاعة لحكم القانون، وانما كان سيهديء من روع الناس بأخذه لقب. فنصل او دكتاتور او اي عنوان سلطة أخر مقبول. ونعود الى [كاسيوس] لنقول لقد عرف بعواطفه الجائحة العنيفة التي لا يمكن السيطرة عليها. كثيراً ما ادّى به جشعه وحبه للمال الى الزيف على الصراط المستقيم ولذلك بدأ من الطبيعي ان غاياته من القتال وتنقله في ارجاء الامبراطورية والمجازفة بحياته لم تكن لأجل حرية ابنا ووطنه بل لتأمين مركز عظيم لنفسه. ان زعماء الجيل الذي سبق جيل [پومپي] و[كاسيوس] رجال امثال [چنّا] و[ماركوس] و[گاربو Carbo] كلهم اعتبروا بلادهم غنيمة حرب في انهم فعلوا كل شيء إلا التصريح - لأجل التوصل الى السلطة المطلقة.

والامر يختلف عند [بروتوس] فاعداؤه انفسهم لم يتهموه بخيانتهم مبادءه على هذه الشاكلة، في الواقع سمع كثيرون انطوني يقول ان [بروتوس] هو الوحيد من المؤثرين الذي اندفع الى ذلك بشعور التسامي وبما اعتقده شرف القصد، في حين ائتمر الباقون جميعاً على [قيصر] لأنهم بكرهونه ويحسدونه. وواضح ايضاً من رسائل [بروتوس] بأنه وضع ثقته في نبل قضيته أكثر مما وضعها في قوة السلاح. فقيل ازمة حظّه الختامية كتب الى [اتيكوس Atticus] يقول ان أموره على خير ما يرام، وبأحسن ما يمكن أن يأتي به الحظّ، اذ اما أن يحقق النصر ويعيد الحرية الى الرومان واما ان يموت فيكون شخصه بمنجى من الاستعباد. وفي الوقت الذي باتت المسائل كلها قد سويت بشكل يبعث على الاطمئنان له ولاصدقائه، فهناك مسألة واحدة بقيت موضع شكّ. هل سيعيشون ويكونون احراراً، او سيموتوا؟ واضاف يقول في الرسالة نفسها: ان [مارك انطوني] يدفع ثمناً عادلاً لحماقتة، فبدلاً من أن يختار في هذه اللحظة ان يحتلّ مكانه في التاريخ الى جانب رجال من امثال [بروتوس وكاسيوس وكاتوا] فضل أن يجعل نفسه مجرد تابع لاوكتافوس وتنبا بأنه ان لم يهزمكم كلاهما معاً، فلن يطول بهما الزمن حتى يقتتلا فيما بينهما.

وقد دلّ على انه عراف ممتاز.

طلب [بروتوس] من [كاسيوس] جانباً من الأموال التي جمعها، معترداً بأنه انفق كل ما

في حوزته على اعداد اسطول كاف لسيطرتهم على البحر المتوسط. الا ان اصدقاء [كاسيوس] عارضوا في ذلك قائلين: انه ليس من العدل في شيء ان يدفع لبروتوس تلك الاموال التي وفرها بالتقتير وعلى حساب شعور السخط بين الجنود، يستعملها في دفع اجور جنوده وتنمية شعبيته بينهم. على ان [كاسيوس] لم يعر افعالهم اهتماماً ودفع له ثلث ما لديه. وبعد هذا افترق الجيشان لينهض كل منهما بواجباته. فاستولى [كاسيوس] على [رودس] على انه عاملهم بقسوة لا داعي لها قط. وكان سلوكه هذا يناقض الجواب الذي رد به على المواطنين حينما أخذوا ينادونه بسيهدهنا وملكننا عند دخوله مدينتهم فقد قال لهم:

- انا لست بسيد ولا بملك الا اني عاقبت وقتلت الرجل الذي جمع في ذاته هاتين الصفتين.

ومن ناحية أخرى طلب بروتوس اموالاً وجنوداً من ليقيا Lycia<sup>(٢٦)</sup> فأجابها لاوقريطس Laucrates زعيمهم الديمقراطي، باقناع المدن على الثورة. وأحتل الأهالي مرتفعات معينة كانت تعترض خط سير [بروتوس] فأرسل باديء ذي بدء قوة من الخيالة باغتت العدو اثناء تناولهم الطعام الفطور وقتلت منهم ستمائة. ثم استولى على معقلهم وقراهم الا انه اخلي سبيل كل اسراهم بدون فدية يريد بذلك استمالة الأهالي برحمته وعدله. الا أن الليقيين ظلوا معاندين واختاروا مداواة حقدهم بجراحهم، واحتتقار انسانية بروتوس وعطفه، حتى ارغم اصلب محاربيهم على اللجوء باسوار مدينة [كسانتوس Xanthus] فحاصروهم فيها. فحاول الأهالي النجاة بالسباحة تحت الماء في النهر الذي يجري بمحاذاة المدينة فكان يلتقطهم بالشباك التي نصبها في مجراه، لقد ربط بتلك الشباك اجراساً صغيرة ترن كلما سقط فيها سايح، بعد هذا حاول الكسانيتون القيام بهجوم خارج المدينة ليلاً واشعال النار في بعض الآت الحصار. الا أن الرومان فطنوا اليهم وارغموهم على العودة. وهبت ريح شديدة فوجهت النار الى استحكومات المدينة والى البيوت المجاورة لها وامتدت اليها حتى خشي بروتوس ان تأتي النار على المدينة كلها فأمر رجاله بالتعاون مع الاهلين على اخمادها.

لكن حالة رهيبه لا توصف من اليأس تملك الليقيين فجأة، حالة خير ما يمكن وصفها به هو الحنين الشديد للموت فقد أخذ كل حي في المدينة امرأة كانت ام طفلاً، حراً ام عبداً من كل عمر وطبقة يقدفون من الاسوار بالصواريخ الرومان الذين خفوا لمعونتهم وهم يحاولون اخماد النيران في الوقت الذي أخذ آخرون يجمعون الحطب والخشب وكل مادة قابلة للإحتراق لنشر الحريق في سائر المدينة. ويزيدون من وقيدها بصب الزيت وكل سائل ملتهب وكل ما من شأنه مضاعفة شدتها فسرت النار في جميع انحاء المدينة وتساعد اللهب واصبحت كتلة واحدة من

(٢٦) إقليم في ساحل آسيا الصغرى الجنوبي، الى جوار [رودس].

نار. فركب [بروتوس] والأسى يغمر جوانبه وطاف حول الأسوار واخذ يتوسل بالكزانيتيين بايدٍ ممدودة مناشداً اياهم ان ينقذوا ارواحهم ومدينتهم. فلم يصغ اليه بشرٌ وكان هم الرجال والنساء ان يجدوا الوسائل السريعة لاهلاك انفسهم لا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم واطفالهم واحداً وهؤلاء الأخيرون كانوا يطلقون صرخات مرعبة وهم يقدفون بأنفسهم الى الأتون دعك ممن كانوا يلقون بأنفسهم من أعلى السور او يعرضوا اجسامهم لطعنات ابائهم متوسلين بهم ان يقضوا عليهم. بعد خراب المدينة الشامل وجدت جثة امرأة مشنوقة وعلى صدرها تتدلى جثه طفلها المشنوق ايضاً. وهي ما تزال ممسكة بالمشعل الذي احرقته به بيتها. كان المنظر أليماً يقطع بناط القلب. ولم يكن بروتوس يطيق رؤيته فقد انفجر باكياً وأعلن عن مكافأة لكل جندي ينقذ كزائثيا واحداً. وقيل انه لم يعثر على اكثر من مائة وخمسين من سائر السكان، تم انقاذهم من الموت رغم انفسهم. وهكذا فقد اعاد التاريخ نفسه في هذه طبقة لدورة خراب شامل مقدره الأجل: فان اجداد هؤلاء الأقدمين، في ايام الامبراطورية البارثية<sup>(٢٧)</sup> اقدموا على احراق المدينة واهلاك انفسهم.

ما عثم [بروتوس] ان وجد نفسه بعد هذا، يواجه مقاومة شديدة مماثلة من مدينة [پاتارا Patara] فتردد في مهاجمتها، واستبدت به الحيرة فيما يصنع لأنه كان يخشى ان يصابوا بالأزمة التي أصيب بها الكزانيتيون. ولما كان من بين اسراه بعض النسوة الپاتاريات فقد يادر باطلاق سراجهن بدون فدية وكن بنات وزوجات أعلى رجال المدينة مقاماً، فردين لذويهن ما لاقينه من حسن المعاملة وعظمن اخلاق [بروتوس] وعدالته ولطفه حتى اقنعهم بتسليم المدينة اليه، وبنتيحة ذلك حذا حددهم كل سكان [ليقيا]، وأعلنوا خضوعهم لسلطته فوجدوا ان حسن معاملته وعطفه يفوقان كل ما توقعوه. اذ كان [كاسيوس] في حدود ذلك الزمن قد ارغم الرودسيين على تسليم كل ما لديهم من ذهب وفضة يملكونه وبهذا ابتز منهم ثمانمائة تالنت تقريباً، ولم يكتف بهذا بل فرض على السكان جميعاً غرامة قدرها خمسمائة تالنت. ولم يطلب بروتوس من اللقيين أكثر من خمسمائة وخمسين تالنت ثم أنطلق الى [ايونيا] دون ان يلحق بهم ضرراً باي شكل كان.

وقام [بروتوس] بمآثر كثيرة أخرى وواكبت العدالة عقوباته ومكافآته ولكني سأذكر واحدة، كانت مصدر ارتياحه هو ارتياح ابرز الرومان في ذلك العصر. عندما نزل [پومپي] الأكبر لاجناً في [پلوسيوم] بمصر بعد أن دالت دولته وتجرد من كل سلطانه بهزيمته امام [يوليوس قيصر]، تداول اوصياء الصبي (فرعون) مع اصدقائهم فانقسمت اراؤهم. فبعضهم ارتأى أن

(٢٧) يصف هيرودوتس خراب كزانتوس على يد الجنرال الفارسي هرباغوس Harpagus.

يمنحوا [پومپي] حق اللجوء. وبعضهم ارتأى ان يطرد من مصر. إلا [ثيودوتس] الخيوسي Chios الذي كان قد استؤجر لتعليم الملك الصبي البلاغة والذي كان يُعد راجح العقل لعدم وجود من يفضله. ولذلك كان عضواً في مجلس الشورى هذا فقد صرّح قائلاً أنّ الفريقين مخطئان، أولئك الذين يحبذون قبوله وأولئك الذين يرون اخراجه والموقف يتطلب موقفاً واحداً ليس الا وهو القبض عليه وقتله ودعم حجته هذه بالمثل التالي:

- الرجل الميت لا بعض

فوافق المجلس على رأيه ووقع [پومپي الأكبر] ضحيةً حذقة معلم بلاغة سوفسطائية. وكما اعتاد ثيودوتس هذا ان يتباهي، أو كمثل على تقلبات الحظ العجيبة غير المتوقعة. ولم يمرّ زمن طويل حتى وصل [قيصر] الى مصر ونال بعض القتلّة جزاءهم العادل وذاقوا مرارة موت استحقوه. على ان الحظّ مدّ في حياة [ثيودوتس] قليلاً، ولكنه اسلمه الى حياة الفقر والذلة والتنقل. إلا ان يد [بروتس] طالته اثناء ما كان يعبر اسبا فأمسك به وقتله. وكان موته أكثر ذكراً من اي حادث في حياته.

ودعا [بروتوس] زميله [كاسيوس] لينضم اليه في [سارديس]. وخرج لاستقباله وهو في طريقه له مع جماعة من اصحابه، واصطفت القوات المختلطة بهيئة الاستعراض وحيتهما بلقب [امبراطور] ولكن الخلاف الحادّ نشب بينهما، كما يحصل عادة في المشاريع العظيمة التي تضمّ عدداً كبيراً من القادة والأنصار. وتبدلت التهم فيما بينهما. ولذلك قررا قبل كل شيء ان يعقدا فيما بينهما اجتماعاً مغلقاً بمعزل عن كلّ أحد. فاوصدت الابواب دونهما وبدأ الرجلان يتلاومان ثم يتبادلان التهم، وسرعان ما انتقلا الى الملاحاة والبكاء.

واستولت الدهشة على اصدقائهما في الخارج وهم يسمعون صياحهما وهياج عواطفهما وخافوا سوء العاقبة، إلا أنهم لم يجرأوا على دخول الغرفة لأن الأوامر كانت جازمة. إلا ان [ماركوس فافوننيوس] الذي كان من المعجبين [بكاتو] ومن يتعاطون الفلسفة بدافع من التعصب العاطفي لا من القناعة العقلية. حاول الدخول عليهما إلا أن الخدم منعه. إلا أنه كان شديد العناد ما أن يقرر شيئاً حتى يعمل ولا يكون منعه عنه بالسهل فهو كما ذكرنا رجل مندفع بالعاطفة والتطرف. ولم يكن ليعلق كبير اهمية على مركزه كعضو في مجلس الشيوخ الروماني. وباتخاذ سلوكاً معيناً يتميز باللامبالاة والسخرية. كان يزيل في الواقع الآثار التي تخلفها خشونته ويخفف من وقع كلماته الجارحة. ونجم عن ذلك ان الناس عدواً وقاحته مزاحاً. وفي هذه المناسبة شقّ طريقه بالقوة بين الواقفين واقتحم الغرفة وانشأ يقتبس مقاطع من هوميروس، تلك التي استخدمها [نستور Nestor] مع أخيل وأغا ممنون - ويلقبها بلهجة مسرحية:

فلتطيعا أحكامي، فأنا أكبر منكما

سنّا وافر منكما حكمة! (٢٨)

واستمرّ في ذلك، فضحك [كاسيوس] إلا ان [بروتوس] دفع به الى خارج الغرفة قائلاً له ان قد يدعي بفلسفة الكلييين (٢٩).

الإ ان كل ما لديه منها في الواقع، هو صفاقة الكلب. على ان هذه الحادثة احدثت اثرها وحسنت النزاع الى حين وافترقا حالاً ثم ان [كاسيوس] اقام مأدبة عشاء دعا اليها [بروتوس] اصداقاه ضيوفاً. وفيما كان المدعوون يهيمون بالجلوس على ارائكهم وصل [فافيوس] وقد اغتسل وشبكاً. فناده [بروتوس] قائلاً انه ليس مدعواً، وأمر الخدم ان يجلسوه على اريكة في آخر الغرفة. الا ان [فافيوننيوس] اندفع الى امام وتقدم ليأخذ محله في احدى الاراتك الوسطى (٣٠) واخذ المرح يتسرب تدريجياً الى النفوس بعد ان اديرت الرأح، وأخذت النوار والآراء الفلسفية تطرز الاحاديث وتضفي على الدعوة كثيراً من الظرف والامتناع.

في اليوم التالي ادان [بروتوس] علناً [لوجيوس بللا Lucius Pella] وحقره؛ وهو روماني يتولى منصب بريطور وصدیق لبروتوس، إلا ان أهالي سارديس اتهموه باختلاس الاموال العامة فحقق [كاسيوس] حقناً شديداً. اذ قبل ايام قلائل لا غير، واجه اثنان من اصحابه تهمة مشابهة فلم يفعل شيئاً أكثر من تأنيبهما سراً إلا انه برأهما علناً وابقاهما في وظيفتيهما. ولذلك لام [بروتوس] على صرامته وتمسكه بحرفيّة القانون بكل تزمت في حين تتطلب الظروف الحاضرة منهما كثيراً من اللباقة وحسن التصرف. فأجاب [بروتوس] مذكراً اياه بمتنصف آذار يوم قتلا [يوليوس قيصر] لا لانه كان ينهب الناس، بل لان سلطته شجعت بعضهم على النهب. واستنطد يقول:

- لو أننا نحاول ان نتلمس العذر في اهمالنا تطبيق العدالة، لكان من الأفضل أن نتغاضى عن اعمال اصداقاء قيصر، على ان نترك اصداقنا يخطئون. ففي هذه الحالة سنوصم بالجبن ولا اكثر. ولكننا الآن معرضون للاتهام بالجور والظلم بعد كل ما عانينا من تعب وتعرضنا له من اخطار.

(٢٨) الايلاذة ١: ٢٥٩.

(٢٩) ان اتباع هذه فلسفة يعرفون بـ Cynics (اشباه الكلاب). لسلكهم الفظ الذي يتعمدون الظهور به.

(٣٠) يضع الرومان ثلاث ارائك حول مائدة عشائهم، ويتركون الجانب الرابع مفتوحاً، والاركة الوسطى تعتبر موضع الشرف.

تلك هي المباديء الذي وضعها [بروتوس] نصب عينيه. وعندما ازف وقت الرحيل عن آسيا الى بلاد اليونان قيل ان [بروتوس] رأى آيةً عجيبة: لقد كان نومه خفيفاً وقد تمكن بالتدريب وضبط النفس من تقليل اوقات نومه الى ساعات قليلة. ولم يكن ينام اثناء النهار ولم يكن يفعل ذلك ليلاً الا بعد أن يأوى كل واحد الى فراشه ولا يعود ثم من يتحدث اليه او حاجة تستدعي منه الحُلّ. في تلك الايام عندما بدأت الاعمال الحربية، ووقع ثقلها كلها على عاتقه وكانت الافكار عن المستقبل تززع رأسه اعتاد أن ينام نومته الأولى ليلاً بعد العشاء. ثم يقضي بقية الليل في تصريف اعجل الشؤون وادعاها الى الاهتمام واستطاع ان ينتهي من ذلك في وقت قصير، فانه يقرأ حتى الهزيع الثالث، اي التبديل الثالث للحراسه عندما يمثل امامه التريبيونون وقواد المائة لتلقي الأوامر. وفي ليلة من الليالي قبل ان يعبر الجيش الى بلاد الاغريق كان جالساً بمفرده في خيمته التي يضيئها نور معتم وكان الوقت متأخراً والسكون يخيم على المعسكر كله. وخيل له وهو في استغراق تأملي انه سمع من يدخل عليه فرفع بصره مستطلعاً فأرأي شبحاً رهيباً غريباً لجسم غير انساني يقف الى جانبه فسأله بروتوس بما استجمع من شجاعة:

- من تكون بين الرجال او الآلهة وماذا تريد مني؟

فأجاب الطيف:

- اني جنيتك الشرير يا بروتوس: وستراني في فيليبيا.

فقال [بروتوس] دون ان يفارقه ضبط نفسه:

- سألقاك هناك اذن.

وعند تلاشي الطيف، استدعى بروتوس خدمه، فأكدوا له انهم لم يسمعوا صوتاً ولم يروا احداً. فبقي ساهراً حتى الصباح حيث قصد [كاسيوس] حالاً واخبره بما رأى. وكان [كاسيوس] ابيقوري المذهب وكثيراً ما كان يناقش [بروتوس] في مثل هذه المسائل وكان رأيه في هذه المناسبة هو ما يلي:

- ان وجهة نظرنا يا بروتوس، هو ان ليس كل ما نراه وتدركه بحواسنا الجسميّة هو حقيقي ومادي، فبالدرجة الأولى ان المدركات التي تأتينا عبر الحواس هي خادعة وغير مستقرة وبالدرجة الثانية ان ذكاءنا سريع في تغيير التجربة نفسها -تغييراً قد يكون وهماً كبيراً- الى اشكال وهيئات مختلفة. ان ما تسجله الحواس في الواقع، هو ما يسجله ضم الشمع، والروح الانسانية التي تتضمن خاصيّة الليونة. والمادة التي تعمل على الشمع،

تستطيع ان تكيّف موضوعات الحواس بالشكل الذي تريد. وبامكاننا نجد هذا يعمل في أحلامنا. حيث تقوم المخيلة بتغيير تجربة غير مادية تماماً الى كل شكل من اشكال العواطف والهيات، ان طبيعة المخيلة ان تظلّ فعالة الى الأبد، وهذا العمل يعبر عن نفسه اما بالتوهم واما بالفكر وفي قضيتنا هذه، كان الجسم مرهقاً بالعمل المتواصل فمن الطبيعي ان يؤثر ذلك على الذهن، فيجعله في تفزع مستمر ووضع غير اعتيادي. انا هذه الحالة تثير الذكاء وتشوّهه معاً. اما بخصوص الأرواح فأنا لا أعتقد بوجودها او اذا كانت موجودة بحيث يمكنها ان تتخذ شكل انسان وتتحدث مثله او ان تمارس سلطاناً كفيلاً بالتأثير علينا. واما من جهتي فأني لأرجو ان تكون موجودة وان ما يقال عنها صحيح، فاذ ذاك لانكفي بالاعتماد على جيشنا وخيالتنا واسطولنا بل ان نعتمد على الآلهة ايضاً مادما نترجم قضية عادلة نبيلة مقدسة.

بهذا الحديث والبراهين استخدمها [كاسيوس] لاطمئنان [بروتوس]. وفي الوقت الذي باشرت القوات بصعود السفن لاجتياز المضائق الى بلاد الاغريق عبر المضائق حلق نسران وخطاً على اللوائين المتقدمين وحُملاً وهما مستقران فوقهما خلال المسيرة. وكان الجنود يطعمونهما حتى وصل الجيش [فيليبيا] الا انهما طارا قبل المعركة بيوم واحد.

سبق [لبروتوس] ان أخضع معظم الشعوب التي كان الجيش يمر بها. وبلغ الآن الساحل التراقي وأخذ يتقدم بمحاذاة مستولياً نقطة تقع مقابل جزيرة [تاسوس Thasos] وجد [نربانوس Narbanus] معسكراً بجيشه في المضائق بالقرب من [سيمبولوم Symbolum] فطوقه وضيق عليه الخناق حتى اجبره على التقهقر واخلاء الميدان، في الواقع كاد ان يأسر كل جيشه، لأن زحف [اوكتافوس قيصر] تعوق بسبب مرضه، ولولا سرعة [انطونيوس] في انجاده، تلك السرعة العجيبة التي اذهلت [بروتوس] لقضي على قواته ووصل [اوكتافوس] بعد عشرة ايام وضرب معسكره مقابل بروتوس، في حين كان [كاسيوس] يواجه انطوني.

ان رقعة الأرض التي تفصل بين المعسكرين عرفت عند الرومان باسم سهول [فيليبيا] ولقد كان اعظم جيشين رومانيين يواجه احدهما الآخر في معركة. كانت قوة [بروتوس] اقل عدداً بكثير من قوات [انطوني و اوكتافوس] ولكنها تتفوق بجودة سلاحها وتجهيزاتها مما جعلها تبدو منظرًا رائعاً. فمعظم الدروع كانت مكفتة بالذهب والفضة بسبب ما اغدقه عليهم بروتوس من سخائه.

لقد عودّ ضباطه على مستوى معيشة معتدل تشويه الصرامة في النواحي الأخرى. الا انه أعتقد بان الثروة التي يحملها المرء بين يديه او يضعها على ظهره ترفع من معنوياته وتزيد



من اقدمه لاسيما الجندي الكفوء الطموح، اما أولئك الذين حصروا همهم بالريح فإنهم يقاتلون بأكثر ضراوة حرصاً منهم على تروسهم لأنها كل ما يملكونه.

واستعرض [اوكتافوس قيصر] جنوده وقام بمراسيم الطهارة في استحكاماته ثم وزع وجبة طعام صغيرة وخمسة دراهمات على كل جندي لأجل القيام بالتضحية المعتادة. وظهر [بروتوس] و[كاسيوس] استحقارهما لفقر عدوهما وخسوته، باجراء مراسيم الطهارة في ارض مكشوفة خارج الاستحكامات كما هي العادة ووزع عدداً كبيراً من الاضاحي لكل كتبية. واعطى كل جندي خمسين دراهمًا. وبهذا رفعوا معنويات الجيش واخلاصه أكثر من فعل العدو بكثير. وفي الوقت عينه وقع [لكاسيوس] اثناء المراسيم حادث شؤم فقد جاءه [ليكتور] بأكليل الزهر الذي كان سيضعه على رأسه مقلوباً. وفي مناسبة أخرى سبقت هذه كان ثم موكب لاحتفال ديني. حمل تمثال ذهبي لرب النصر يعود لكاسيوس فسقط على الأرض عندما زلت قدم حامله. اضم الى هذا، أن عدداً كبيراً من الجوارح شوهدت تحوم فوق المعسكر يومياً وشوهدت كذلك اسراب من النحل تتجمع في محلات معينة بين الخطوط، فعزلها السحرة بسياج لازالة روح التشاؤم والخوف الوهمي بوسائلهم. فقد هبطت به معنويات الجنود كما بدأت تززع عقيدة [كاسيوس] الابيقورية. ولهذا السبب لم يشأ ان يضع مصيرهم في تجربة معركة مع العدو وقتئذ وفضل الحالة اطالة امد الحرب لأن قوة حزبهما تكمن في مواردهما في حين كانا اضعف من خصمها نسبياً في الرجال والسلاح. الا أن [بروتوس] كان يرغب في دخول المعركة الفاصلة بأسرع ما يمكن من الوقت فإمّا ينقذ بلاده من الإضطهاد ويعيد اليها حريتها. وإمّا ينهي شتاء أولئك الذين اثقلوا باعباء الحرب ونفقات وخدمات واثاوت وتطوع فيها. واتفق في تلك الاثناء أن خيالاته الخفيفة انتصرت في بعض المعارك الثانوية التمهيدية. فشدت من عزيمته كما هرب بعض الجنود من معسكر [اوكتافوس] والتحقوا به، وانتشرت اشاعات بأن مزيداً من هؤلاء سيلتحقون به. وقد اقنع هذا السبب كثيراً من اصدقاء [كاسيوس] في مجلس الحرب، على تبني رأي [بروتوس] ومهما يكن فان [اتيلليوس] احد اصدقاء [بروتوس] عارض في خطته ونصح بتأجيل المعركة الى ما بعد انقضاء الشتاء فسأله ما الذي يجعله يعتقد انه سيكون أحسن حالاً وتوفيقاً بعد سنة؟ فأجاب:

- على الأقل أكون قد أطلت عمري سنة واحدة. ان لم يكن ثم أكثر من هذا.

لم يسر [كاسيوس] من هذا الجواب مطلقاً في حين جرح مشاعر بقية اعضاء مجلس الحرب، وأخيراً تقرّر الدخول في المعركة ثاني يوم.

وظهر [بروتوس] في عشاء تلك الليلة مفتحاً بالثقة، وساهم في المناظرات الفلسفية مع

اصدقاه ثم ذهب للنوم. اما [كاسيوس] فقد كان على خلاف ذلك. على حد ما يذكر لنا [ميسالا Messala] فقد تناول عشاءه مع اخص خاصته وبدأ واجماً كثير التفكير خلافاً لعادته. وبعد ان فرغوا من العشاء ضغط على يد ميسالا بحرارة وأخذ يكلمه باليونانية على عادته عندما يريد اظهار مودته فقال:

- أشهد علي يا ميسالا، بأني ارغمت على هذا مثلما ارغم پومپي الاكبر من قبلي. لقد أجبرت على المغامرة بمصير بلادي بمعركة واحدة. لكن علينا نشدد من عزائمنا وأن ننظر الى الخطأ بعين غير واجفة ونحن ننتظر حكمه. فعلينا أن لايفقد ثقتنا به وان كان في رأينا.

حَظْلُ يقول ميسالا: كانت هذه كلماته الأخيرة التي وجهها اليه وبعدها تعانق الرجلان. وكان [كاسيوس] قد دعا [ميسالا] الى العشاء في اليوم التالي الذي يوافق عيد ميلاده.

وما ان اصبح الصبح حتى كانت شارة المعركة وهي الوشاح القرمزي قد رفعت امام معسكري [بروتوس] و[كاسيوس] وخرج الجنرالان والتقيا في الفسحة التي تفصل ما بين معسكريهما. وبهذه المناسبة وجه [كاسيوس] الى [بروتوس] الكلام التالي:

- الا فليكن هذا اليوم موعد النصر لنا يا بروتوس، وان نتقاسم ثمار نجاحنا حتى نهاية حياتنا ولما كان أعظم امنيات المرء هي ابعدها تحقيقاً. ولما كان من اضعف الاحتمالات ان نلقى بعضنا بعضاً أن دارت الدائرة علينا. فأجبنني ماذا اعتزمت ان تفعل اذا خبرت بين امرين لا ثالث لهما: الهرب والموت.

فأجاب [بروتوس]:

- اي [كاسيوس] عندما كنت صغيراً غراً لا أعرف عن الدنيا الا قليلاً الجئت ولا ادري كيف، الى اعطاء أحكام متسرعة عن الفلسفة. فانحيت باللوم على [كاتو] لأنه انتزع حياته بيده ولكوني توهمت بأن محاولة تحاشي الطريق الذي رسمته العناية الالهية للاشياء، وعدم القبول بكل ما يأتي به القدر دوفاً وجلّ والهروب منه، انما هو مروق عن الدين وضعف لايليق بالرجل. لكنني أرى الامور الآن وبالنظر الى واقع حظوظي - بمنظار مختلف. فإن لم تعط الآلهة حكمها لصالحنا، فليس لي رغبة في تجربة آمال او خطط أخرى، وسأموت قانعاً بحكم مصيري. في منتصف آذار وهبت حياتي لبلادي ومنذ ذلك الحين وانا أعيش لأجلها حياة ثانية حرةً مجيدةً.

فابتسم [كاسيوس] وعانق [بروتوس] وقال:

- والآن وبعد ان استقرّ عزمنا على هذا، فنكرّ على العدو: فإمّا تحقق لنا الغلبة، وإمّا لن يصيبنا خوفٌ من المنتصر.

ثم انشينا الى اصدقائهما وانشأ يبادلانهم الحديث حول اوامر القتال وخططه، وطلب [بروتوس] من [كاسيوس] ان يسمح له بقيادة الميمنة وان كان هذا من حق [كاسيوس] عادةً بسبب تقدمه عليه في السنّ والخبرة. ولم تقتصر موافقة [كاسيوس] على هذا، بل أمر [ميسسالا] الذي يقود خيرة الجنود في جيشه ان يتمركز بها على الجناح الأيمن. واسرع [بروتوس] بتحريك خياله المتمازة التسليح وحرص مشاته بنسق المعركة بنفس الفورية.

في الوقت نفسه كان جنود [انطوني] يعلمون على حفر خنادق من المستنقعات حيث يعسكرون، حتى السهل، ليقطعوا على [كاسيوس] طريق البحر. وكان جنود [اوكتافوس] يتبعون في غياب قائدهم المريض. خطته في اتخاذ موقف الدفاع، إذ لم يتوقعوا ان يجازف العدو بمعركة فاصلة، بل افترضوا ان يقتصر تعرضه لهم على بعض الهجمات الموضعية والمناوشات لإقلاق الرجال الذين كانوا يحفرون الخنادق بالصياح ويقذفهم ببعض الحراب الخفيفة. وبما انهم لم يكونوا يراقبون القطعات وهي تتحرك وتتخذ مواقعها مقابلهم فقد ادركتهم الحيرة بالضجّة والصيحات المختلطة التي بدأت تنهاى اليهم من الخنادق. وفي تلك الاثناء اصدر [بروتوس] رسائله الى ضباطه بكلمة السرّ مكتوبة فيها في حين اخذ يستعرض خطوط الفرق المصطفة ويشجع الجنود في الواقع لم يسمع بكلمة السرّ وهي تنقل بين الصفوف الا قسمٌ قليلٌ ولكن الاغلبية الساحقة عملت بوحى من غزيرتها دون انتظار لكلمة السرّ، فقدوا بأنفسهم على العدو وهم يطلقون صيحة الحرب كرجل واحد، وبذلك تباعدت الشقة فيما بينهم ومقدراً الاتصال. ودارت فرقة ميسسالا اولاً بجناح [اوكتافوس قيصر] الأيسر وتبعتهما الفرق الأخرى ثم مضت بعيداً في حركتها التطويقية واشتبكوا بخطوط العدو الحلفيّة لفترة قصيرة ولم يقتلوا منهم كثيراً. ثم انهم داروا بحركة التفاف حول الجناح كله واندفعوا الى داخل المعسكر. ولقد كتب [اوكتافوس قيصر] في مذكراته كيف ان أحد اصدقائه المدعو [فاركوس ارتوريوس Marcus Artorius] رأى في الحلم كيف كان [اوكتافوس] يحث على ترك فراشه والخروج من المعسكر. وقد أخذ بهذا النذير فأمر بان يحمل الى خارج المعسكر قبل مهاجمة المعسكره بفترة جدّ قصيرة. وانتشرت الاشاعة بانه قتل لأن الجنود خرّقوا محفته الخالية بطعناتهم ورماحهم ومقدوفاتهم. وتم الاستيلاء على المعسكر وحصلت مذبحه عظيمة فيه قتل الفان من اللقيديين الذين التحقوا مؤخرًا بقيصر، ولم ينج منهم رجل واحد.

اما بقية جيش [بروتوس] الذي لم يطوق العدو المقابل، واشتبك بالقسم الأكبر، فقد حقق

الغلبة عليه بسهولة، وابدات ثلاث فرقٍ عن بكرة ابيها في قتال اليد باليد، واندفعوا الى الامام ثملين بخمرة النصر ومعهم [بروتوس] نفسه واندفعوا الى المعسكر في اعقاب المنهزمين، إلا ان المنتصرين هنا ارتكبوا غلطةً فقد اسرع عدوهم المتقهقر باهتبال الفرصة. كانت ميمنة [بروتوس] قد تحركت وأخذت بالمطاردة فأنفصلت عن القسم الرئيس تاركة القلب محتلاً ومكشوفاً. وهنا قام العدو بهجومه المعاكس. فصمد القلب ودافع دفاعاً مجيداً إلا ان الميسرة التي احتلت صفوفها ودبت الفوضى في تشكيلاتها ولم تدر ما حدث في سائر ميادين القتال، حلت بها الهزيمة. ودفع بهم جنود اوكتافوس الى معسكرهم والقوا الحصار عليه. وفي هذه الموقعة لم يتواجد اي قائدٍ من الجيشين، فقد ذكروا أن [انطوني] انسحب الى المستنقع لإجتناّب عنف الهجمة الأولى. و[اوكتافوس] لم يكن يعلم مكانه بعد ان نقل من معسكره. مع ان بعض الجنود لوحوا بسيوفهم الدامية [لبروتوس] زاعمين انهم قضا عليه ووصفوا له شكله وقيافته وعمره. وفي تلك الاثناء تمكن قلب جيش [بروتوس] من المهاجمين ودحروهم ووقعوا بهم مقتلة عظيمة. وقد وضع تماماً أن [بروتوس] انتصر في هذا القطاع من الجبهة، مثلما اصيب [كاسيوس] بهزيمة ساحقة في القطاع الآخر، وسلم بالهزيمة الأمر الذي ادى الى خطأ ميمت، لأن [بروتوس] لم يخفّ لنجدته ظاناً انه قد انتصر مثله. كما ان [كاسيوس] لم يكن يتوقع نجدة [بروتوس] ظاناً بأنه قد هزم مثله وقتل دون ان ينتظر نجدة منه. وعلى اية حال فان ميسسالا كان يرى [بروتوس] منتظراً بدليل اغتنامه ثلاثة نسور وعددٍ كبير من الالوية. من العدو في حين لم يغتنم خصمه شيئاً منه.

بعد ان نهب [بروتوس] معسكر [اوكتافوس قيصر] وفيما هو عائد من المطاردة، ادهشه انه لم ير خيمة [كاسيوس] التي كانت أعلى من البقية، ولا الخيم الأخرى في اماكنها المعتادة اذ ان معظمها وقع في يد العدو فنصبها وقوضها عند هجومه على المعسكر. إلا ان اتباعه الذين كانوا يتمتعون ببصرٍ حديد قالوا انهم يرون من بعيد دروعاً كثيرة وتروساً فضيةً وكثيراً من الخوذ تسطع وترسل شعاعاً في ما حول مخيم كاسيوس ومن عددها وشكلها لا يظنون انها لأولئك الذين تركوا للقيام بحراسة المعسكر. وفي الوقت نفسه قالوا انهم لا يرون العدد المتوقع من جثث القتلى حين تشتبك عدة فرقٍ وتمنى بالهزيمة كانت هذه الاشارة الأولى الى النكبة، فترك حرسه في معسكر العدو وصدر أمره بايقاف المطاردة ونظم قواته لنجدة كاسيوس.

وكان موقف كاسيوس كالآتي:

في مبدء الأمر استاء كثيراً من هجوم [بروتوس] الأول الذي جرى قبل انتظار كلمة السرّ، او الامر ببدا التعرض. ولم يُسرّ بل زاد حنقاً بعد نجاح هجومهم واندفاعهم الى النهب

والسلب في معسكر العدو دون ان يفكروا في تطويق العدو واكمال حركة الالتفاف. على أن خطته كانت مشوية بالتردد وكثرة التحسب والحذر، أكثر مما كانت حاسمة سريعة. ولذلك وجد نفسه مطوقاً بميمنة العدو، واستدارت خيالته فجأة واتجهت نحو البحر وعندما وجد مشاته تتقهقر أيضاً، حاول رص صفوفها واعادتها الى مواقعها، واختطف علماً من احد حملة الاعلام اثناء فراره وركزه في الأرض أمامه، وان كان حراسه الخاص بفته قد أخذ بيدي علائم الوهن وخور النفس، أخيراً اضطر الى الانسحاب مع شردمة من اتباعه الى تل صغير مشرف على السهل وكان كليل البصر فلم يتبين ان معسكره يتعرض للنهب. على ان الخيالة القليلين الذين كانوا معه تبينوا قطعات كبيرة من الخيالة تتجه الى مواقعهم وهي التي ارسلها [بروتوس] في الحقيقة الا ان [كاسيوس] حسبها ضيالة عدوة خرجت لمطاردته على انه ارسل [تيتينيوس Titinius] معرفة هوية المتقدمين. ولما اقترب منهم وعرفوا به احد اعوان [كاسيوس] المخلصين، احاطوا به وراحوا يهتفون هتاف الفرح وترجلوا واخذوا يصفاحونه ويعانقونه، ودارت به الخيالة يصيحون ويهتفون من فرط سرورهم. الا ان هذه المظاهر سببت اعظم النكبات. فقد اعتقد [كاسيوس] ان رسوله وقع في أسر العدو فصاح قائلاً:

- اجبت الحياة وتعلقت بها كثيراً الى الحد الذي صرت معه أشهد اصدقائي يعقون في الأسر امام عيني.

وعلى اثر ذلك انسحب الى خيمة خالية وليس معه غير عتيقه [پندارس Pindarus]. كان [كاسيوس] منذ نكبة الحملة البارثية عندما خدم تحت امرة [كراسوس] قد درب هذا الرجل ليقوم بدوره في مثل هذه الحالة الاضطرارية. تمكن [كاسيوس] من الافلات اثناء تلك الحملة الا انه غطى رأسه بوشاحه وحسر عن عنقه ليتلقى الطعنة القاتلة. ووجد رأسه مفصلاً عن جسده فيما بعد. الا ان پنداروس لم ير بعد موت سيده. ولذلك ظن بعضهم انه قتل [كاسيوس] دون انتظار امره.

ما لبثت جماعة [كاسيوس] ان تبينت هوية الخيالة المتقدمة، وشاهدت [تيتينيوس] وهو مكمل الرأس بالزهر، يخب بحصانه متجهاً الى كاسيوس. لكنه ادرك موته من بكاء ورثاء اصحابه وما ان ادرك الخطأ الفادح الذي تسبب فيه واخذ ينحى على نفسه باللائمة لتأخره ثم استل سيفه وسقط عليه وبخع نفسه.

عندما تأكد [بروتوس] من هزيمة [كاسيوس] اسرع اليه على انه لم يبلغ نبأ موته حتى اصبح قريباً من معسكره فوقف عند جثته وراح يندبه وسمّاه بأخر الرومان. قاصداً بهذا ان روما لن تنجب بعده رجلاً يمثل هذه الروح العالية. وكفن جسده وارسل الى [تاسوس] لدفنه

خوف ان يحدث تشييعه في المعسكر اضطراباً. ثم انه جمع الجنود وراح يعزيهم على مصابهم به واخذ يستنهض همهم ويرفع من معنوياتهم الهابطة. ووجد ان نهب المعسكر قد جردهم من ادنى ضروريات العيش فوعدهم كل واحد منهم بألفي درهم تعويضاً عما فقدوه فاذهلتهم قيمة المكافأة وارتفعت معنوياتهم بكلماته وشيعوه بالهتافات. واصفين اياه بأنه احد جنرالات اربعة لم يغلبوا في المعركة. وقد ايدت الوقائع ان ثقته بالنصر كان لها كل مبرراتها فبفرق قليلة سحق كل مقاومة واجهته وهزم عدوه. ولو انه ركز كل قواته وزجها في هجومه، ولو لم يتعد القسم الاكبر من قواته خطوط العدو وينهمكو اني سلب ممتلكاته، لكان من المؤكد تحقيقه هزيمة العدو الساحقة.

كانت خسائر [بروتوس] في هذه المعركة ثمانية آلاف قتيل بينهم المراسلة والخدم الذين يعرفون باسم Briges. ويقدر ميسالا خسارة [انطوني واوكتافيوس] بضعف هذا العدد، لذلك كانوا اكثر خوراً وهناً حتى اقبل على [انطوني] أحد خدم [كاسيوس] واسمه [ديمتريوس] مساء ذلك اليوم ومعه السيف والثياب التي نزعها من جسد سيده. فرفع ذلك معنوياتهم الى حد كبير حتى انهم اخرجوا القطعات في بكور اليوم التالي واتخذوا وضع القتال. وكان المعسكران اللذان صار الآن [بروتوس] يقودهما قد دب فيهما الاضطراب الشديد فمعسكره مكتظ بالأسرى الذي كان يلجئه الى تخصيص حرس قوي، في حين كان الضيق مستولياً على جنود [كاسيوس] لتبديل القائد. وكان الحسد والحقد يعمل في نفوسهم بسبب النصر الذي حازه رفاقهم في المعسكر الثاني. لذلك قرر [بروتوس] ابقاء جنوده تحت السلاح على ان لا يجازف بمعركة. ووجد ان عدداً كبيراً من العبيد الذين أسرهم يتحركون حركات مريبة بين أسرى الحرب فأمر بقتلهم كما انه امر باطلاق سراح بعض الأسرى الأحرار مصرحاً ان العدد هو الذي حرمهم في الواقع من حريتهم فهم اسرى وعبيد تحت قيادته في حين انهم مواطنون رومانيون احرار عنده. ولما تبين ان اصدقاءه وضباطه يهيمون بالانتقام منهم. انقذهم باخفائهم ثم عاونهم على الفرار.

وكان من بين الأسرى الممثل [قولمانيوس Volumnius] والمهرج [ساكيوليو Dacculio] وجد [بروتوس] انهما أقل شانا من يلحظ وجودهما الا ان اصدقاءه جاؤا بهما متذمرين وقالوا انهما لم ينفكا عن ارسال النكات الوقحة والتعليقات السليطة في موقف لا يحتمل الهزل والمزاح، وكان [البروتوس] الكثير مما يشغله عن هذه الأمور فلم يقرر شيئاً بحقهما الا ان [ميسالا كورثينوس] ارتأى ان يجلدنا علناً فوق المرسح وان يرسل عاريين الى قواد العدو بوصفهما خير رفاق وندمان شراب لأولئك القادة. فضحك الحاضرون. الا ان [پوليبيو كاسكا]

اول طاعني [يوليوس قيصر] قال:

- أتري من اللاتق [يابروتوس] ان نحتفل بجزاة [كاسيوس] بالسخر والمزاح على هذه الشاكلة؟ الا اننا سنرى اي منزلة لكاسيوس عندك، من موقفك هنا. هل ستحمي هذين الرجلين اللذين حقراه واساء الى ذكراه ام ستعاقبهما؟

فأخذت [بروتوس] سورة من الغضب وصاح قائلاً:

- اذن لماذا تسألني عن رأيي ياكاسكا بدلاً من ان تفعل انت نفسك ما تراه مناسباً؟

وقد عدّ جواب [بروتوس] أذناً بقتل هذين الناعسين فافقيدا الى حيث قتلا.

بعد هذا اصدر [بروتوس] امراً بدفع المكافأة التي وعد بها الجنود وبعد ان انبهم تأنيباً خفيفاً لأنهم لم ينتظروا كلمة السرّ وانما كروا على العدو في هجوم طائش دون امرٍ، وعدهم ان يستبيح لهم مدينتي [سالونيكى] و[ليقديميون] ليسلبوهما ان احسنوا القتال في المعركة التالية. كانت هذه التهمة الوحيدة التي لا يمكن الدفاع عنه ازاها في سائر حياته. الحق يقال أن [انطوني] و[اوكتافىوس] ارتكبا من اعمال العنف والقسوة ما يفوق هذا بكثير في ابتزاز المكافآت لجنودهما وطرده الأهالي من اراضي أسلافهم في طول ايطاليا وعرضها لاغناء اتباعهما ومن والاهما بالمدن والمقاطعات التي لاحق لهم فيها. الا ان الفتح والسلطة العليا هما الهدفان اللذان كانا يتوخيانه من الحرب. في الوقت الذي كان [بروتوس] يتمتع بسمعة واشتهار في الفضيلة بين الناس، حتى انهم لا يرونه قادراً على ان يغلب او ينقذ نفسه الا اذا استخدم وسائل شريفة عادلة، وقد اصبحت هذه الفكرة عنه أدعى الى الاهتمام بعد موت [كاسيوس] لأنه كان في الماضي يتهم بحمل [بروتوس] على القيام بمختلف اعمال العنف. والقصة كلها اشبه بالسفينة التي حطمت العاصفة دفتها وهي في عرض البحر، يحاول الملاحون اصلاحها بوضع قطع من الخشب في محل القطع المحطمة، فلا يفلحون في اصلاح متقن وهم يجهدون انفسهم لتفادي الخطر، فينجزوا خير ما يمكنهم انجازه، كذلك [بروتوس] فبعد ان أصبح القائد الأوحى لهذا الجيش العظيم في اخرج ساعة ولعدم وجود قائد آخر في مثل كفاءته تراه يضطر الى الاستعانة بالمرؤوسين الذين يملكهم والى تنسيق كثير من اعماله واقواله مع ما يرونه مقبولاً. وهذا ما جعله يقرّر ان يفعل كلّ ما يرونه ضرورياً الى اعادة روح جيش [كاسيوس] ومعنوياته لأن الجنود باتوا الآن متمردين يصعب ضبطهم وقيادتهم. ان افتقارهم الى قائد خاص جعلهم ثائرين في المعسكر، في حين جعلتهم هزيمتهم يخشون مواجهة العدو.

ولم يكن حال [اوكتافىوس قيصر] و[انطوني] بأحسن من تلك فقد بدأ يشكوان شحاً في الارزاق. ولأن معسكرهما قد ضرب في ارض منخفضة فقد ادركهما الخوف من الشتاء القاسي الذي سيعانونه وقد تجمعوا متزاحمين على حافة المستنقع. وطغت امطار الخريف التي اخذت تنهمر بغزارة بعد المعركة - على خيامهم فاغرقتها في الوحل والماء، فادركته حالة الانجماد مباشرة بسبب البرد الشديد. وبلغتتهما في اثناء ذلك انباء النكبة البحرية التي اصابت سفنهما، فقد هاجم اسطول [بروتوس] وحطم عمارة كبيرة تحمل النجدة من ايطاليا الى [اوكتافىوس قيصر] واضطر النفر القليل الذي نجا من المقتلة، الى اكل قلوب السفن وحبال الأشرعة من فرط الجوع، ولما علما بهذا قرّ رأيهما على منزلة بروتوس، قبل ان يحاط علماً بانتصاره البحري هذا. وهكذا حصل القتال البري في اليوم الذي انتهت المعركة البحرية لصالح بروتوس. وشاء سوء الحظ ان يجهل بروتوس هذا بخطأ ارتكبه القواد البحريون فلم يبعثوا اليه بالانباء الا بعد عشرين يوماً، ولو انه ابلغ في حينه لما دخل المعركة الثانية، لأنه كان موفور الأقرات، حسن المواقع، ومعسكره جيد الحماية لايتعرض الى الطقس الشتوي، منيع تماماً من الناحية المواجهة للعدو. اضف الى هذا كله ان علمه بأنه مسيطر على البحر ونصره في المعركة الأولى كان سيملاؤه ثقةً واعتداداً.

لكن ايام الجمهورية انصرفت على ما يبدو، ومن الضروري ان يحل حكم الرجل الفرد محلها. لذلك فلأجل ان تزيج الآلهة الرجل الوحيد القادر على مقاومة السيد الذي قدر له ان يحكم الدنيا، حالت دون وصول انباء النجاح الذي احرزه [بروتوس] في الوقت المناسب. ففي الليلة التي سبقت المعركة الاخيرة لجأ هارب من معسكر العدو يدعى [كلوديوس] وقال ان [اوكتافىوس قيصر] علم بهزيمته البحرية وهو لهذا يريد الدخول في معركة مستعجلة. فلم يصدق قصته أحدٌ ولذلك لم يسمح له حتى بمواجهة [بروتوس]. واحتقروه واهملوه بوصفه تاجر اشاعات إما سمع خيراً مكذوباً، أو انه اخترع هذه الحكاية لعله يجني من ورائها نفعاً.

في تلك الليلة ظهر الطيف [لبروتوس] ثانية، بنفس هيئته السابقة الا انه غاب دون ان ينطق بحرف. ان الفيلسوف [پوبليوس فولمينوس Publius Volwmius] الذي خدم بروتوس في كل معاركة لا يذكر شيئاً عن هذه الآية الا انه يقول ان راية الجيش القائد كانت مغطاة باسراب النحل وان ذراع احد قواد المائة نضحت زيت ورد وظلت تنضح رغم مسحها وازالة الزيت عنها مراراً. وذكر ايضاً ان نسرين اعتركا في الجو قبيل المعركة فوق الفسحة التي تمتد ما بين المعسكرين وراح الجيشان يراقبانها وقد خيم عليهما الصمت التام ولم يعد يسمع صوت في السهل. وأخيراً كفّ النسر الذي كان الى جهة [بروتوس] وحلق في الجو. وهناك

ايضاً حكاية الايتوبيي المعروفة الذي لقي حامل اللواء عند مدخل المعسكر حال فتح بابه وكيف ان الجنود قطعوه ارباً ارباً لأنهم اعتبروا ظهوره فألاً سيئاً.

بعد ان وضع [بروتوس] جيشه في نسق المعركة بمواجهة العدو، أحرّ الاشتباك برهة من الوقت لانه شعر شكّ من بعض القطعات وسمع اتهامات بحق أخرى. كما لاحظ ايضاً ان الخيالة لا تبدي حماسة كبيرة لبدء المعركة وانها تنتظر ما سيفعله المشاة. ثم وبدون سابق انذار خرج من الصفوف جندي يدعى [كامولاتوس Camulatus]، وهو مثال العسكري الممتاز - كان [بروتوس] قد قلده شارات الشرف لشجاعته، وانضم الى صفوف العدو. الأمر الذي ألم [بروتوس] كثيراً ودفعه غيظه من جهة وخوفه من خيانة او هروب على نطاق اوسع من هذا، امر بالهجوم وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً او الشمس قد مالت الى الاصيل. ونجح الهجوم في قطاعه وتغلب حالاً على العدو ومضى في ضغطه مع ميسرته حتى زحزحه عن مواقعه وتقهقر وكرت خيالته ايضاً لمساندة المشاة المتقدمة وهجموا على العدو حالما تبينوا الفوضى التي تسوده. اما في الجناح الآخر، فقد كان منتشراً على جبهة واسعة ليحول دون تطويقه من قبل العدو الذي كان يفوقه عدداً وكانت النتيجة ان القلب أصبح ضعيفاً جداً فلم يفلحوا في صدّ الهجوم وانكسرت صفوفه ولاذت بالفرار وما ان حقق العدو هذه الخطوة حتى التفّ حول مؤخرة بروتوس واجه [بروتوس] هذه الأزمة مواجهة القائد المحنك الموهوب، بكلّ كفاءة الشخصية وبادارته الدقيقة المعركة. الا ان ما كان عاملاً على انتصاره في المعركة السالفة، كان سبباً لانكساره في هذه المعركة، فقد تمّ الاجهاز على كل قوات العدو في ميدان القتال في الجزء الذي تحققت هزيمته. الا ان قوات [كاسيوس] المندحرة لم يقتل منها الا افراد قليلون. لكن المنهزمين امروا بمعنوياتهم على القسم الاكبر من الجيش فثبطوا عزائمهم واشاعوا فيهم الفوضى. وهنا قتل [ماركس] ابن [كاتو] وهو يقاتل ويبيدي من ضروب البسالة الواناً بين اشجع الفتيان الپاتريشيين، قاتل حتى خارت قواه وابى انه يستسلم او يهرب بل ظل مشهوراً سيفه وهو يصرخ عالياً بانه ابن [ماركوس كاتو] وسقط ميتاً فوق اكداس من جثث الاعداء التي قتلها. وقتل ايضاً اشجع رجال الجيش ضحوا بانفسهم دفاعاً عن [بروتوس].

من بين اصدقاء [بروتوس] الخالص رجل تميز بشجاعة فريدة يدعى [لوچيلوس]. عندما رأى خيالة من البرابرة تجدد في اثر [بروتوس] دون ان تلقى بالاً على شيء آخر، عزم ان يوقفها مجازفاً بحياته فتنكب الطريق ثم صاح يقول «انابروتوس». وصدقه البرابرة لأنه طلب منهم ان يذهبوا به الى [انطوني] لا غيره، كأنما يخشى ان يأخذه الى [اوكتافيوس قيصر]. ففرحوا بما اقتنصوا وحمدوا حسن حظهم وجاءوا به ليلاً وارسلوا من يسبقهم الى [انطوني]

ليزفوا اليه النبأ، واستخفه الفرخ فخرج لاستقبالهم ومعه كل من سمع بالنبأ وتجمعوا زرافات بعضهم يندب سوء حظه وبعضهم يندد بجبنه الذي يناقض كبرياءه وشعوره بالكرامة، وبعضهم يلومه لتعلقه الشديد بالحياة الذي ادّى به الى تسليم نفسه للبرابرة. واقترب الفرسان وظلّ [انطوني] جامداً في وقفته، يفكر باي شكل يقابل [بروتوس]، واذا به يسمع [لوچيلوس] الذي كان واقفاً امامه يقول بجرأة:

- لا أحد من العدو أسر بروتوس، ولا احد سيكون قادراً على اسره حياً يا انطوني، ان الحظ لم يسمح بهذا النصر على الفضيلة. عندما تعثر على [بروتوس] حياً كان او ميتاً فانه سيكون جديراً بنفسه. امّا انا فقد كان اقتيادي اليك بخدعة انطلت على جنودك واني لمستعد لأي عقابٍ ترتأيه بحقي.

وبهت الجميع لصراحة [لوچيلوس]. والتفت [انطوني] الى اسريه وقال:

- اعتقد ان الغضب يعصف بكم للخطأ الذي وقعتم فيه يا رفاقي، وانكم حانقون لأنكم ظهرتهم بمظهر الغباوة والحمق. لكن ثقوا انكم وضعتم يديكم على أسير يسوى اكثر من الرجل الذي انطلقتم للقبض عليه. خرجتم لاقتناص عدو، فجئتموني بصديق. اني وقسماً بالآلهة، ما كنت ادري كيف ساعامل [بروتوس] لو جئتم به اليّ حياً. لكن أعلم بانه خير لي ان اتخذ من رجل [كلوچيلوس] صديقاً لا عدواً.

ثم انه عانق [لوچيلوس] وعهد به الى احد اصدقائه لرعايته ثم استخدمه ووجده صديقاً وقيماً على الصداقة.

في تلك الاثناء عبر [بروتوس] غديراً تظله الأشجار وتقوم على جانبيه ضفاف شديدة الانحدار. وادركه الليل فتوقف وجلس مع بعض الضباط والاصدقاء في موضعٍ منخفض من الأرض تستتره صخره. ثم شخص بانظاره الى السماء التي طرزتها النجوم وترنم بيئين يسجل احدهما [فرلمنيوس]<sup>(٣١)</sup>.

تذكر يا زفس العظيم مسبّب كلّ هذه البلايا

ويقول انه نسي الآخر. وبعد قليل نطق باسماء اصدقائه الذين قتلوا في المعركة دفاعاً عنه، وأطلق تنهيدات عميقة عندما نطق باسمي [لاپيو] و[فلافيوس] اولهما رئيس اركانه وثانيهما قائد سلاح الهندسة. وهنا شعر احد اتباعه بالعطش وتبين ان [بروتوس] يشكو

(٣١) يوربيس [ميديا] ٣٣٤. يعتبر آبيان Appeian ان بروتوس يتنزل اللعنة من [جويتر] على انطوني باقتباسه هذا البيت الذي تعلن به بطلة المسرحية زوجها ياسون Jason الغادر.

العطش أيضاً، فأخذ خوذة ونزل الى الغدير. وفجأة سمعوا ضجة من الجهة المقابلة، فخرج [فولمينوس] ليستطلع يرافقه [دردانوس Dardanus] حامل ترسه معه. ثم عادا بعد قليل وسألًا عن الماء فأجاب [بروتوس] -  
نفذ كله.

ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى  
- إلا أننا سنأتيك بشيء منه.

وارسل الشخص الذي اتى بالماء أولاً. إلا أنه كاد يقع أسيراً فقد أصيب بجرح ولم ينج إلا بصعوبة.

بقي [بروتوس] يعتقد انه لم يقتل الكثير من رجاله في المعركة، وعرض احد من اصدقائه واسمه [ستاتيلبيوس] ان يجد له طريقاً الى معسكر [بروتوس] باختراجه خطوط العدو اذ لم يكن ثم طريقاً آخر للوصول اليه، ويقوم بالاستطلاع، فاذا وجد كل شيء على مايرام فسيرفع مشعلاً ويعود. ووصل المعسكر بسلام ورفع المشغل ومَرَّ زمن طويل ولم يعد إلا ان [بروتوس] قال:

- ان كان [ستاتيلبيوس] حياً فسيعود.

لكن يبدو انه وقع في يد العدو عند عودته وقتل.

مضى من الليل اكثره. وفيما كان [بروتوس] مقتعداً الأرض مال الى خادمه [كليتيوس Cleitus] وكلمه بصوت منخفض فلم يجبه الخادم بشيء وانما انفجر باكياً. وعندها اوما الى [دردانوس] حامل ترسه وانتحى به جانباً واخذ يكلمه، ثم التفت الى [فولمينوس] وخاطبه باليونانية مستذكراً السنوات التي قضياها معاً في دراسة الفلسفة ورجاه ان يمسه بالسيف ويساعده على اغماده في احشائه. فرفض [فولمينوس] كما رفض الجميع. وقال احدهم بان لا سبب يدعوهم الى الانتظار وعليهم ان ينقذوا ارواحهم وعندها هب [بروتوس] واقفاً واجاب

- اجل علينا ان ننجو، وفي هذه المرة ليس باقدامنا بل بايدنا. ويعد ان مدّ يده لكلّ منهم مصافحاً، ابتسم وقال انه معظم بسرور عظيم لانه لم يجد من اصدقائه خائناً. او متخاذلاً. وانا عن الحظّ، فانه لايلومه الا من اجل بلاده. وانه ليعقد بان القدر كان ارحم به من المنتصرين لا في الماضي وحده بل في الحاضر، لأنه سيخلف ذكرى للفضيلة لا يستطيع قاهروه بكلّ غناهم وسلاحهم ان يباروها. وستعلم الدنيا بأن الأشرار والظالمين الذي فتكوا بالصالحين العادلين، هم لا يصلحون للحكم. ثم بعد ان حثهم على ان يتدبروا أمر سلامتهم تركهم وسار

بعيداً عنهم مع اثنين او ثلاثة من رفاقه ومنهم [ستراتو Strato] وهو احد اعز اصدقائه منذ ان كانا يدرسان البلاغة معاً. اوقف [ستراتو] الى جنبه. ثم امسك بسيفه المسلول من عنقه وبكلتا يديه القى بنفسه عليه فمات. وروى بعضهم ان [ستراتو] امسك بالسيف امامه واعانه بعد ان ادار رأسه الى ناحية أخرى، وان [بروتوس] القى عليه بنفسه بشدة حتى انه اخترق صدره ومات لساعته.

ان [ميسالا] الذي كان احد اصدقاء [بروتوس]، ثم تصالح مع [اوكتافيوس قيصر]، وجد له مناسبة بعد فترة من الوقت، ليقدّم [ستراتو] الى السيد الجديد، ويقول وعيناه دامعتان:  
- هذا يا قيصر الرجل الذي قام بأخر خدمة لبروتوس صديقي العزيز.

فأحسن [اوكتافيوس] استقباله وضمه الى خدمته ووجده كالاعريق الذين يحفون به، شجاعاً في المعارك التي تلت ولاسيما في معركة [اكسيوم]. وتمضي الرواية الى القول ان [ميسالا] نفسه كان موضع ثناء حار من [اوكتافيوس] بقوله: في الوقت الذي كان اشدّ المقاتلين مراساً في معركة فيليبّي الى جانب بروتوس، اثبت انه أخلص واصدق خل له في معركة [اكسيوم]. فردّ [ميسالا] على هذا بقوله:

- لقد قاتلت يا قيصر الى جانب الأفضل والاكثر عدالة دائماً.

عندما عشر [انطوني] على جثة [بروتوس] امر ان تلف باثمن عباءة ارجوانية عنده. ولما علم بعدئذ ان لصاً اقدم على سرقتته، قبض عليه وقتله. وارسل رماد [بروتوس] الى [سرقيليا] امه. واما عن [بورشيا] زوجه، فقد روى كل من [نيقولولوس Nicololus] الفيلسوف و[فاليريوس ماكسيموس Valerius Moximus] انها تمّت الموت وحاولت انهاء حياتها الا ان صديقاتها حلن دون ذلك ولازمها ملازمة الظلّ، ولم يدعنها تغيب عن انظارهن. الا انها استطاعت في غفلة منهن ان تختطف حجرة فحم من الموقد وتصنعها في فمها وتشد عليها بالنواجذ حتى اختنقت وماتت. الا انه يوجد لدينا الآن رسالة من بروتوس الى اصدقائه ويرثي فيها [بورشيا] ويتألم لمصيرها ويلومهم لأنهم اهملوا حتى انها فضلت الموت على الاستمرار في مرضها. ويبدو ان نيقولولوس قد أخطأ في حساب الزمن. فهذه الرسالة تعلمنا بان [بورشيا] كانت مريضة. كما تعلمنا عن حبها لزوجها. وعن كيفية موتها. لو كانت رسالة [بروتوس] صحيحة.

غضبه وسخطه على قاتليه. في حين كانت جريمة [ديون] الكبرى في اعين ابناء وطنه، هو انه ترك سبيل الفرار مفتوحة امام [ديونيسيوس] وانه حال دون تخريب ضريح والده المستبد الاول.

امّا في فنون الحرب وقيادة الجيوش فقد كان [ديون] مثال القائد المحنك، لا يتمسك بالاوامر والخطط التي يرسمها وانما يظلّ يعيد فيها نظره ويحسنها وفي حين كانت خطط الآخرين ونصائحهم تؤدي به الى اسوء العواقب رأيتة دؤباً على تصحيحها وتقويم اعوجاجها. وكان [بروتوس] على ما يبدو متسرعاً في معركته الأخيرة التي قدر لها ان تكون المعركة الحاسمة التي يتوقف عليها كل شيء. ولما أخفق فيها لم يحم عليه واجبه في تدبّر العلاج، بل ادركه اليأس التام وتخلّى عن كل شيء ولم يتحدّ سوء الحظ، ولو بالقدر الذي فعله [يومبيي]، في حين كان جيشه سليماً تقريباً واسطوله يسيطر على البحار سيطرةً تامة. ان جريرة [بروتوس] الكبرى هي انه لم يتورع عن نقع يده بدم [قيصر] الذي انقذ حياته اولاً ثم قبل شفاعته في صدقانه كلهم فعفا عنهم اكراماً له. مثل هذا لا يمكن ان ينسب الى [ديون]. لقد كان من اسرة [ديونيسيوس] وكان صديقاً له. نفعه وخدمه خدمات جليظة. ولم يناصره العداء الا بعد ان طرده من بلاده واساء الى زوجه وصادر املاكه، اذ ذاك اعلنها حرباً مشروعاً عادلة صريحة.

ولنتحول الآن الى وجه مقارنة أخرى.

ان اعظم مجد نالاه، نجم اصلاً عن بغضتهما الاستبداد والشرّ هذا البغض في [بروتوس] لم يكن مشوباً بعاطفة شخصية، اذ لم يكن بينه وبين [قيصر] خصومة او عداة. ولكنه عرض نفسه للأخطار توكياً لحرية بلاده. امّا [ديون] فما أعلن الحرب الا بعد ان جرح مشاعره وهذا ما تجده في رسالة لافلاطون، يقول فيها لقد شنّ حرباً على [ديونيسيوس] لأنه طرد من البلاط ولم يتركه مختاراً. زد على هذا ان المصلحة العامة وصلت حبل بين [بروتوس] و[يومبيي] وازالت العداء الذي كان اولهما يضمّره للثاني، وجعلته في الوقت نفسه عدواً ل[قيصر] ولذلك كان العدل هو معيار صداقات [بروتوس] وعداواته.

كان [ديون] مخلصاً في خدمة [ديونيسيوس] عند تمتعهم بالخطوة لديه ولما لم يعد موضع ثقة منه، ثارت ثورته واحتكم الى السلاح. لذلك لم يثق احدٌ بان [ديون] سيرّ بوعده، وكان سائر الناس يشكون في انه سيحلّ محلّ [ديونيسيوس] في تفرده بالملك وطغيانه حال تغلبه عليه. ولم يكن اصدقاؤه انفسهم بمنجى عن هذه الشكوك، فقد توقعوا انه سيموّه استبداده باتخاذ عنواناً لحكمه لطيف الوقع لا يورث رهبة في النفس كلقب الطاغية. اما [بروتوس]

## أوجه المقارنة بين ديون وبروتوس

هناك مواقف نبيلة لا تخصي في خلق هذين الرجلين. ومما يستحق الذكر منها بالدرجة الأولى هو وصولهما قمة المجد، بوسائل بسيطة محدودة تكاد لا تذكر. والارجحية تكون [لديون] اذا اخذنا بسبيل المضاهاة. فقد كان يجاهد وحيداً لا شريك له، كما كان [لبروتوس] شريكه [كاسيوس] فهذا وان لم يكن مساوياً له في السجايا والمناقب الا انه ساهم بقدر كبير في مجهودات الحرب بجراته وخبرته ونشاطه. وهنا من يعزو اليه المجهود كله من بدايته الى نهايته، فيقولون ان [بروتوس] لم يشأ ان يتحرك. وان [كاسيوس] هو الذي دفعه ضد [قيصر] في حين كان [ديون] صاحب الفكرة والمنظم. ولم يقتصر مجهوده على توفير السلاح والسفن والجنود، وانما على تعبئة الانصار والموالين ولم يعتمد كبروتوس على جمع الأموال وتجنيد الرجال بالحروب والقسر وانما انفق على الحرب من حُرّ ماله مستخدماً رزقه ومدار عيشه في منفاه اداة لتحرير بلاده. اصف الى هذا ان [بروتوس] وكاسيوس] بعد هروبهما من روما لم يجدا الراحة والطمأنينة لانهما كانا قد حكما بالموت ولما لوحقا الجأتهما الضرورة الى رفع السلاح والمقامرة بحياتيهما دفاعاً عن نفسيهما اكثر منه دفاعاً عن بلادهما ونجد ديون من ناحية أخرى يتمتع برغد من العيش في منفاه، كما ينعم بالسلامة والراحة الا انه خاض الأهوال وركب الشدائد انقاذاً لصقلية فحسب.

وعليك ان تلاحظ ايضاً ان تحرير الصقليين من نير [ديونيسيوس] وتحرير الرومان من حكم [قيصر] لم يكونا بمستوى واحد. فالولهما كان مستبداً لا شائبة في استبداده لم يكن لآثامه وشروره بحق الصقليين حدّ. ومع ان سلطة [قيصر] المطلقة نكبت الناس في اولى مراحل تكوينها وابتلتهم بشتى المحن ولاسيما الذين وقفوا في وجهها، الا انها خففت من غلوائها بعد ان ثبتت أسسها وحققت انتصارها ولم يعد باقياً منها غير اسمها ومظاهرها. واذا نظرنا الى العلل والادواء التي كان يشكو منها المجتمع والحكومة في تلك الفترة، فيمكن القول ان الحكم الفردي المطلق. كان هبة سماوية تدخلت كما يتدخل ارق الأطباء والطفهم في معالجة مرض عضال. ولذلك عمّ الأسى سواد الشعب بصورة لا شعورية عندما قتل [قيصر] وتعاضم

فاعداؤه انفسهم يقرون بان هدفه الأول والأخير كان إعادة نظام الحاكم الجمهوري السابق للشعب الروماني.

ولو طوينا كشحا عن كل ما اتينا لذكره آنفاً فان المؤامرة التي دبرت للقضاء على [ديونيسيوس] لم تكن بمستوى تلك التي نسجت ضد [يوليوس قيصر]. فلم يكن ثم قريب او صديق الا عاب على [ديونيسيوس] حياة الخمول واللهو التي يعيشها بين الخمر والنساء والقمار. في حين كان يحتاج الى بطولة وإباء وعزة لكل نفس تتبنى فكرة القضاء على [قيصر] الذي تشيع مواهبه وعبقريته الرهبة والجلال. لقد كان سلطانه وسعده بله اسمه فحسب يقض مضاجع ملوك البارثيين والهند.

ما وقعت انظار الصقليين على [ديون] الأ واسرعوا ينضمون اليه بالالوف لمقارعة [ديونيسيوس] في حين استمد الاصدقاء قوةً من شهرة [قيصر] وصيته بعد مماته. ان اسمه وحده رفع من قدر ذلك الذي اتخذه لقباً لنفسه، فنقله من صبيٍّ غرّ غير معروف الى زعيم الرومان الأواحد بزمن قصير جداً. لقد استخدمه ضدّ خصومه كما تستخدم الرقية، حتى ضدّ [انطوني] بالذات. وان اعترض احدهم بقوله ان [ديون] عانى الكثير من المشاق والأخطار ليحقق نصره على الطاغية، وان [بروتوس] نال من [قيصر] مأربه وهو اعزل لايحميه احد؛ فنحن نرى في ذلك تدبيراً دقيقاً وتنظيماً محكماً يتسم بالحدق ان تنال رجلاً جيد الحراسة منيع الجانب وهو اعزل ومن دون حماية. انه لم ينقض على [قيصر] ولم ينفرد به ولا ظفر به في قلة من اتباعه، وانما توصل الى ذلك بأناة واحكام خطة اقتضته وضع الثقة التامة في عدد كبير من الرجال لم ينمّ عنه واحد منهم والامرسيان سواء اتمتع [بروتوس] بموهبة الفراسة وتقديم الرجال الافاضل. واما انه جعلهم كذلك بمجرد وضع ثقته فيهم والعكس يصدق على [ديون] فإما انه كان اخطل الحكم على الرجال باعتماده على ارادتهم واما انه جعلهم كذلك بمجرد وضع ثقته فيهم فأنقلب صالحهم طالحاً. كل افتراض من هذين يصلح ان يكونا موضع تفكير للمتأمل العاقل. ان افلاطون نفسه لم يشفق على [ديون] في حكمه اذ قال انه اساء اختيار اصدقائه، فقد خانوه وغدروا به.

زد على هذا انه لما قتل [ديون] لم يحرك احدٌ ساكناً للثأر له، في حين وجد [بروتوس] بين اعدائه زعيمهم [انطوني] يتكفل بتشجيعه تشجيعاً فحماً. واتخذ [اوكتافيوس قيصر] ايضاً التدابير اللاتمة للمحافظة على جلال قدره. ففي [ميلان] الواقعة في بلاد الغال الألبية. اقيم تمثال من البرونز له. فلفتت نظر [اوكتافيوس] اليه دقة صنعه وقرب الشبه بينه وبين صاحبه، فتوقف. وبعد ان سمع اقوالاً كثيرة استدعى ولاة الأمر في المدينة فمثلوا بين يديه. فقال لهم:

- ان مدينتكم نقضت احكام المعاهدة. فهي تاوي عدواً.

فانكر هؤلاء تلك التهمة بشدة، واخذوا يتبادلون نظرات الحيرة، وقد غمض عليهم مراده. وهنا استدار [اوكتافيوس قيصر] نحو التمثال وقال مقطباً:

- اسمحوا لي! اليس هذا عدونا الذي ينتصب هنا؟

فأضطربوا ولم يحضرهم جواب. ولكن [اوكتافيوس] عاجلهم بابتسامة واثنى على مواطنيهم الغاليين الذين اظهروا اخلاصهم لاصدقائهم حتى عندما تنزل بهم المصائب وامر بان يبقى التمثال كما كان.



أراتوس  
ARATUS

بدأت احوال مدنية [سيكيون Sicyon] تسوء وسادتها الفوضى عمها والاضطراب منذ خروجها من يد الحكم الدوري Dorie الارستقراطي النزيه (دالت دولته واستظهر الغوغائيون بمنازعاتهم الشخصية فتعاقب على المدينة سلسلة من الفتن والثورات). وهكذا راحت تنتقل من يد مستبد الى يد مستبد آخر، حتى مقتل [كليون Cleon]. فأنتخب [تيموقليدس Tim-oclides] و[كلينياس Clinias] لحكمها. وهما رجلان حسنا السمعة رفيعا المقام بين المواطنين. فبذت احوال الجمهورية متجهة نحو الأمن والاستقرار. ثم توفي [تيموقليدس] ووُثب [ابانتيداس Abantidas] ابن [پاسياس Paseas] على [كلينياس] فقتله فخلاله الجو واستبد بالحكم فأهلك عدداً من اقربائه واشياعه ونفى بعضهم. وهم ايضاً بقتل ابنه [اراتوس] الذي كان عند مقتل ابيه طفلاً لايتجاوز السابعة. الا ان الصبي خرج من وسط الفوضى التي سادت وقتذاك وانضم الى الهاربين وراح يتجول في انحاء المدينة على غير هدى مرتعباً وجللاً شريداً، وتشاء الصدفة ان دخل خلسة منزل اخت [ابانتيداس] التي هي زوج [پروفانتس Prophantus] أخ [كلينياس] واسمها [سوسو Soso]. عرفت هذه المرأة بطيبة القلب. وقد اعتقدت بأن العناية الالهية هي التي قادت [اراتوس] الى بيتها، فعمدت الى اخفائه في منزلها. وعندما جن الليل بعثت به الى [ارغوس].

بهذا كتبت [الاراتوس] السلامة. وطوت نفسه من البداية الى النهاية على حقدٍ وكره جارف بالاستبداد والمستبدين كانا يشتدان بمرور الزمان. ونشأ بين اصدقاء ابيه ومعارفه في [ارغوس] وتلقى ثقافة حرة وكان جسمه صحيحاً قوياً فاتخذ المصارعة هواية، وتدرّب في غيرها حتى اتقن ممارسة الالعاب الخمس ونال بعض تيجان التفوق. وتماثله في الواقع تبرز تكوينه الرياضي، ولم يكن استخدامه ادوات الرياضة لتخفي رجاحة عقله وجلال سيمائه. ولم يدرس فني البلاغة والخطابة محتجاً بأنها لاتناسب رجل السياسة، الا انه كان اقوى عارضةً مما يظنه الكثيرون واذا حكمنا من التعليقات التي خلفها. وقد كتبت بأسلوب مهمل غير منمق مستعجل ولم ينتق تعابيره وانما استعمل اول ما خطر بباله منها.

وبعد مرور فترة من الزمن وثب [دينياس Dinias] و[ارسطوليس Aristoteles] على [ابانتيداس] فقتلاه، وكان معتاداً الحضور في الساحة العامة لسماح مناقشاتهم ومشاركتهم فانتهزا فرصتهما ونفذا مؤامرتهم فيه هناك. فخلفه في الحكم والده [پاسياس]، ماعتم ان اغتيل بيد [نيكوكلس] الذي تفرد بالحكم ولقد قيل انه يشبه [پرياندر Periander] ابن [كيسيلوس Cypselus] شهباً غريباً، كما قيل ان [اورونتس Orontes] الفارسي، يشبه [الكميون] ابن [امغياروس Amphiaraus]. وكالشبه بين [هكتور] وبين ذلك الشاب

اذكر يا بوليقراتس Polycrates ان خرسيبوس Chrysippus] الفيلسوف، كان قد اقتبس مثلاً من امثال القدماء السائرة بعد تحويره. واعتقد ان ما دفعه الى هذا هو ما توهم فيه من خشونة شديدة، فهذب فيه وجعله كالآتي:

«مَنْ مادح الآباء، غير اكرم الابناء؟».

الا ان [ديونيسيودورس Dionysiodorus] الترويزي اثبت خطأه في ذلك واعاد قراءته الاصلية الصحيحة هكذا:

«من مادح الآباء، غير أفسد الابناء؟»

ويشرح المقصود فيقول ان المراد منه هو كم افواه اولئك الذين تجردوا عن كل المؤهلات، ومنعهم من الاحتماء بفصائل اسلافهم، واستعلاتهم على غيرهم بمدح ابائهم. ولله در [پندار] الشاعر اذ يقول:

انه ذلك الذي يرث بحكم الطبيعة  
روحاً نبيلةً عن اسلافه

هو الذي جعل حياتك نسخة صادقة من اصول اسرتك. اقول ان امثالك يغتبطون كثيرون عندما يُذكرون بأنبل واشرف اسلافهم عن طريق حديث الآخرين عنهم. او يحدثهم هم انفسهم. ان امثالك لا يستغلون فوائد الثناء الذي يستحقه الآخرون لأنهم يفتقرون اليه لضعه شأنهم. الا انهم يضيغون مآثرهم الى مآثر اجدادهم فترتفع منزلتهم باعتبارهم اصلاً لاخلاقهم ولنسلهم. ولذلك ابعث اليك [ياپوليقراتس] بما كتبتته من سيرة احد اجدادك الأعلين ومواطن من مواطنيك - وهو [اراتوس] الذي لا تقل انت عنه مكانةً وسلطاناً. لا لأنك بحاجسة الى معلومات عنه وعن مآثره، بل ليكون ابناك [پوليقراتس وپيشوكلس] واقفين على مثل من تاريخ اجدادهما، قراءة وسماعاً. مثل يجدر بهما ان يحتذياه ويسيرا على نهجه. فمن الأثرة وحب النفس لا من حب الفضائل ان يتصور الإنسان بانه سبق الى الوصول الى الفضيلة والصلاح.

اللقيديمي الذي تقاطر الناس لرؤيته ومزقوه ارباً وطناً باقدامهم.

حكم [نيكوكلس] هذا، اربعة اشهر، وارتكب خلالها شتى انواع الموبقات واقدم على المحرمات، وكاد يترك المدينة فريسة في ايدي الايتوليين. في ذلك الزمن بلغ [اراتوس] مبلغ الشباب، وكان موضع تقدير لعراقة اصله ولسجاياه العالية غير الاعتيادية لروحه الوثابة الصلبة. ولأصالة رأيه مما لا يناسب سنه. فاتجهت انظار المنفيين اليه وبنوا الآمال عليه. ولم يكن [نيكوكلس] بغافل عنه فقد أخذ يتجسس عليه ويتابع حركاته وسكناته سرّاً لا خوفاً من محاولة جريئة واسعة النطاق يقوم بها للاطاحة بحكمه. وانما لشكوك ساورته بانه يرأس الملوك الذين كانت تربطهم بالوده روابط صداقة ومعرفة. في الواقع انتهج [اراتوس] هذا السبيل لكنه من [انتيفونس] إعراضاً وقلة اهتمام ومماثلة بعد العهد الذي قطعه له. كما اتضح له ان الآمال التي بناها على مصر ومساعدة بطليموس لا يمكن ان تتحقق في المدى القصير. ولذلك قرر القضاء بنفسه على الطاغية.

واول من افضى اليه بسرّه، [ارسطوماخس] و[اقديلس Acdelus]. واولهما احدى منفيي [سيكيون] وثانيهما فيلسوف اركادي من [ميغالوپوليس]، رجل عملٍ وحمية، وصديق [اركيسلاوس] الاكاديمي في اثينا. فحبذا له الفكرة وانضم اليه ثم اتصل بالمنفيين الآخرين فأنضم اليه نفر قليل منهم خجلوا من الظهور امامه بمظهر اليأس من النجاح. اما الاغلبية فقد حاولت رده عما اعتزمه ووصفوه بالمتهور القليل التجربة. والجريء الى حدّ الطيش.

وفيما هو يعمل لا نشاء قاعدة انطلاق له في [سيكيونيا] يشنّ منها الحرب على الطاغية. وصل ارغوس أخٌ ل احد المنفيين المدعو [كزينوقلس Xenocles] هارباً من السجن. فقام اخوه بتعريفه له. واصفاً له ذلك الجزء الذي تسلقه من السور، قائلاً انه بمستوى الأرض من الناحية المواجهة للمدينة كما انه يجاور ارضاً صخرية مرتفعة وانه يمكن الصعود اليه بالسلام. فأسرع [اراتوس] بارسال [كزينوقلس] وتابعيه [سيوثاس Seuthas] و[تخون Technon] لالقاء نظرة على السور. فاذا كان تسلقه ممكناً جازف بالعملية وقامر بكل شيء لانها افضل من الاشتباك في صراعٍ طويل الأمد بين انسان محدود الموارد وبين طاغية مستبد. او شنّ حرب تتحكم منها القوة والعدة، وعاد [كزينوقلس] ورفيقاه بعد ان قسّاسا ارتفاع الجدار فأفادا بأن تسلق هذا الجزء من السور ليس مستحيلاً ولا عسيراً. الا ان الاقتراب منه سرّاً فيه صعوبة كبيرة. لوجود مجموعة من الكلاب الصغيرة الجسم النباحة التي لا شبه بشراستها، يملكها بستاني منزله قريب من السور. ففرّ رأيه على الخطة في الحال.

ولم يكن تجميع السلاح والاستعداد للحملة ليثير تقولاً وشكوكاً في ذلك الزمن لأن قطع

الطرق، واعمال النهب الصغيرة كانت من الأمور اعتيادية تمارسها الجماعات بعضها ضد بعض في كل مكان. اما موضوع السلام وادوات التسلق فقد قام [يوفرانور Euphranor] احد المنفيين وهو صانع ادوات، بعلمها على ملأى من الناس لان مهنته كانت ترتفع به عن المظنة. واما حاجته من الرجال فقد مدّه كلّ من اصدقائه في [اراغوس] بعشرة من العدد القليل الذي يملكونه، وسلّح هو ثلاثين من اتباعه وخدمه واستأجر من [كزينوفيلوس Xenophilus] زعيم رؤساء قطاع الطرق عدداً قليلاً من الرجال، زاعماً له انه سيغزو بهم اراضي [سيكيون] لينهب خيول الطاغية الخاصة. وارسل معظم الرجال قبله شراذم قليلة العدد الى برج [وليغنتوس Pol-ygnotus] وامرهم بانتظاره هناك. وارسل ايضاً [كافيسياس] مع اربعةٍ بسلاحٍ خفيف لدخول منزل البستانيّ عند حلول الظلام بوصفهم مسافرين وان يحتالوا على المبيت فيه، وما ان يتمكنوا من البستاني حتى يتحجزوه هو وكلابه. اذ لم يكن ثم وسيلة لتأمين الطريق غير هذه. اما ادوات التسلق فقد صنعت بشكل يمكن تفكيكها وتركيبها عند الحاجة. فوضعت في صناديق وارسلت مسبقاً في عربات. وفي اثناء ذلك ظهر بعض جواسيس [نيكوكلس] في ارغوس. وقيل ان مهمتهم هي مراقبة [اراتوس] خفية، فاحتال على خداعهم بان نزل في بكور اليوم التالي الى الساحة العامة واطهر نفسه لأكبر عدد من الناس وتحدث الى كثير من اصدقائه، ثم قصد الساحة الرياضية وهناك دهن جسمه بالزيت ودعا الى منازلة عدد من الشبان الذين اعتاد عشرتهم والشرب معهم. ثم ارسل خدمه الى السوق فاحدثوا ضجةً وجلبوا انتباه المارة بما حملوه من الاكاليل وابتاعوا من مشاعل وقصدوا المغنيات والراقصات اللاتي اعتدن احياء الليالي للاتفاق معهن، ولم يفت ذلك الجواسيس الذين كانوا، يراقبون كل شيء، وانطلت عليهم الخدعة وايقنوا ان [اراتوس] في شغل شاغل عن [نيكوكلس] بحفلاته فتضاحكوا وقالوا:

- لعمركم! أرايتم أجن من [نيكوكلس]. ان يتم طاغية وسيداً مثل هذه المدينة المنيعه، وأمراً مطاعاً لكل هذه القوات يخشى شاباً متتهتكاً متلافياً ينفق القليل الذي يكاد لا يكفيه ستر الخلة في منفاه، على اللهو والمجون النهاري لا الليالي!

واقتنعوا بما رأوا واستنتجوا وعادوا الى بيوتهم.

الأ ان [اراتوس] خرج من منزله بعد تناول الفطور مباشرة واجتمع بجنوده في برج [بوليغنتوس] وسار بهم الى [نيميا Nenea]. وهناك فاتحهم ولأول مرة بما في نفسه وكشف لهم عن غايته الحقيقية وبذل لهم شتى الوعود وقطع لهم العهود بالعطاء الجمّ ثم تقدم من المدينة وابلغ كلمة السرّ وهي «ابوللو الظافر» وحرص ان يستفيد من نور القمر وهو في سراه

فلا يغيب الأ ويكون قد بلغ البستان المجاور للسور. وتمّ ذلك فعلاً. وكان في استقباله [كانيسياس] الذي اعلمه انه لم يستطع احتجاز الكلاب لأنها هربت قبل ان يتسنى القبض عليها. غير انه تمكن من البستاني وحبسها. وهنا ساد رجال الحملة القلق وهبطت معنويات غالبيتهم. فأخذ [اراتوس] يقوي عزائمهم. وتعهد بأن ينكص على الاعقاب ان اثار الكلاب ضجةً. وارسل امامه حملة السلالم بقيادة [اقديلوس] و[مناسيتيوس Mnasitius] وسار في اثرهم متثاقلاً. وهنا بدأت الكلاب تنبح نباحاً شديداً وتتابع خطى [اقديلوس] وزملائه. على انهم بلغوا السور وثبتوا السلالم دون حادث او عقبة. ولما باشر اول الرجل بالتوقل، بدأ أمر الحرس القديم يقوم بجولته التفقدية الأخيرة ويده الناقدوس. تمهيداً للتبديل الصباحي. وسمع المهاجمون جلبة الحرس المقتربين بانوارهم فالتصقوا بالسالل فلم ينتبه الهم أحد إلا ان الخطر من افتتاح امرهم زاد بدنو الحرس الصباحي لتسلم الحراسة من البديل، على انه مرّ بهم دون ان ينتبه اليهم. فأسرع [مناسيشيون] و[اقديلوس] الى اعتلاء السور، وسيطروا على المداخل والمخارج، وارسلوا [تحنون] الى [اراتوس] يستعجلونه القدوم.

كانت المسافة قصيرة بين الروضة والسور والبرج الذي قام كلب ضخّم على حراسته. لم يسمع الكلب وقع اقدامهم من بلقاء نفسه اما لأنه كان بليداً بطبعه او لانه بات تعباً في جولات النهار، لكن نباح كلاب البستاني ايقظه، فبده يهرّ ثم ينبح رداً على الكلاب، بعدها اطلق نباحاً شديداً عند مرورهم به ثم تعالى النباح وتعاضم حتى ان الديدبان الذي كان بمواجهته، نادى وليّه ليتأكد من سبب نباحه المتواصل. وليستفسر منه عما اذا استجد شيء. فأجاب صاحب الكلب بالشيء هناك. وان سبب نباح كلبه هو سقوط انوار الحرس عليه ورنين نواقيسهم. وشدد هذا من عزيمة جنود [اراتوس]. وقد ظنوا ان صاحب الكلب هو رفيق لهم يعرف مقدماً بخطتهم وانه يعمد الى تغطية عملياتهم. وراح الوهم بهم الى ان ثمة شركاء وانصاراً لهم من أهل المدينة. ولكنهم وجدوا صعوبة شديدة في تسلق السور فضلاً عن الوقت الطويل والجهد الذي تستلزمه. فقد أخذت السلالم تتأرجح بهم وتهتزّ. فلجأوا الى الرفق في معالجتها، وأخذوا يتسلقونها واحداً واحداً. كان الوقت يمضي سريعاً، لان الديكة بدأت تصيح واهل الريف الذي اعتادوا جلب سلعهم الى سوق المدينة، يوشكون ان يصلوا فعجل [اراتوس] بالصعود وكان قد سبقه الى اعتلاء السور اربعون فقط، ثم انتظر قليلاً حتى انضم الى الاربعة نفر آخر وبقي الآخرون خارج السور، لم ينتظر [اراتوس]، وتقدمهم الى قصر الطاغية ودار الحكومة حيث مهاجع الجنود المرتزقة. وهناك فاجأهم بسرعة خاطفة فأسروهم جميعاً ولم يقتلوا منهم احداً. ثم اسرع نبئ انصاره واصدقاءه في المدينة فحفوا اليه مسرعين من كل

صوب وبدأت خيوط الصبح تنفرط وامتلاً الملعب بالجهور وقد ساد التوتر للانباء المتضاربة التي أخذت تطرق اسماعه، ولجهله بحقيقة ما يحدث. وبينما هم في هذه الحال تقدم منادٍ عمومي واعلن قائلاً: ان [اراتوس] ابن [كلينياس] قد دخل المدينة وهو يدعو المواطنين الى استعادة حريتهم.

وما ان تأكدوا ان الحلم البعيد الذي ساورهم قد تحقق، حتى اندفعوا زرافاتٍ ووحداً الى منافذ قصر الطاغية لاشعال النار فيه وسرعان ما تصاعدت النيران الهائلة وسرت في ابهائه فأصبح شعلة واحدة من اللهب شوهدت من مدينة [كورنث] وراح اهلها يضربون اخماساً باسداس عما يجري في [سيكيون] وفكروا في ارسال نجدة. وهرب [نيكوكلس] سرّاً من المدينة بنفقٍ يمتد تحت الأرض. وتعاون رجال اراتوس مع اهل المدينة على اخماد النار وبهذه الوسيلة اقدموا على نهب كل ما في القصر ولم يعترض [اراتوس] على هذا بل زاد عليه بتوزيع ممتلكات الطاغية على الجميع ولم يفقد في هذه العملية الجريئة رجلاً واحداً و شاء الحظ كذلك ألا تراق قطرة دمٍ من الأهلين.

اعاد [اراتوس] ثمانين منفياً كان [نيكوكلس] قد ابعدهم، وما لا يقل عن خمسمائة آخرين نفاهم من سبقه من الطغاة فقضوا سنيماً طويلاً مبعدين عن اوطانهم، حتى امتد النفي ببعضهم الى خمسين عاماً، وعرضهم الفقر بناهه. وأدقح بعضهم. ولهذا كانوا يريدون استعادة املاكهم ومنازلهم بكل سرعةٍ وهو ما أخرج موقف [اراتوس] كثيراً. فقد كثرت المنازعات وعمت الفوضى مدينة صارت المدن الاخرى تغبطها لزوال حكم الاستبداد وشروق شمس الحرية عليها. وهي في الوقت نفسه مطمح انظار [انتيفغونس] فلم يجد مندوحة من ضمها الى الحلف الأخائي، وان كان اهلها دوريين أصلاً وبذلك اتخذوا المواطنة الأخائية وان لم يكن هؤلاء في ذلك الحين قوة يعتد بها او ذوي مكانة موموقة في بلاد الاغريق. كان معظمهم يعيش في بلدان صغيرة، ولا تتميز ارضهم بالخصوبة او السعة. ويكاد الساحل كله يكون خالياً من ميناء وهو جرف صخري برّمته. ومع ذلك كله فلطالما ضربوا بشجاعتهم الفائقة امثلة لسائر الاغريق عندما يتحدون وينتظمون تحت قيادة محنكة موجهة وقلما عد الاخائيون جزء من القوات اليونانية حتى جاء زمن لم تكن قواتهم تضاهي قوة مدينة اعتيادية الحجم إلا ان حصافتهم وتماسكهم وتخلصهم من رذيلة التحاسد وحبك الدسائس واطاعة الفضلاء والاكارم منهم والتسليم بالقيادة مكنتهم من المحافظة على استقلالهم وحريتهم وهم محاطون بمدن كبيرة وملوك يقودون جيوشاً قوية بل اهلتهم للقيام بدور المنقذ والمحرر لكثير من الاغريق.

وكان اراتوس مثلاً رائعاً لرجل الدولة. فقد تميز بعقل راجح وانكار للذات كما انه كان دوماً

يقدم المصلحة العامة على مصلحة الخاصة، ويجعل من الحيز العام مبدئاً وشريعة في صداقاته وخصوماته ولذلك كان عدواً كريماً سمحاً أكثر منه صديقاً وفيماً. يتكيف بحسب الظروف السياسية في هذا المجال وكان شديد الكره للطغاة والمستبدين ولذلك وضع نصب عينيه احلال التآلف بين شعوب الاغريق وتأخي مدنهاهم وتحرى الوصول الى الاجماع في التصويت على القرارات في الجمعيات العامة والمجالس المحلية.

وكان يشكو الضعف في السلاح والقلة في الرجال. لكنه كان يحقق بالسياسة والبراعة بالتعامل مع المدن والامراء ما يعزز تحيقه بالقوة والحرب. وقد نجح والحق يقال في كثير من الاعمال التي لم يكن لها اي حظ من النجاح على ان ترك كبيراً من المشاكل السهلة كما يبدو - بدون حل او معالجة لأنه كان ضعيف الثقة بنفسه. والذي يلاحظه المرء ان ثم حيوانات ضعيفة نهاراً لا تبدو قوتها الا في الليل، لرقه اخلاط أعينها التي لا تتحمل ضياء النهار، وشبيه بهذا نوع من البراعة والحكمة البشرية، لا يمكنها البروز والنجاح في العلانية. وانما تحقق غاياتها وتصل الى اهدافها في الخفاء والسرية. وهو نقص عقلي ان وجد في ذوى الكفاءة فسببه فقرهم في الفلسفة. عقل كهذا هو أشبه بثمره فجة من ثمار الفضيلة لا تكشف عن نضوج صحيح.

بعد ان دخلت [سيكيون] في اتحاد مع الأخائيين. تولى [اراتوس] قيادة في صنف الخيالة فاحبه ضباطه الامرون لما تميز به من اطاعة للأوامر، فقد كان مستعداً كاي جندي لتلقي اوامر الجنرال الآخائي وتنفيذها مثل اي مواطن [دايني Dynae او ترياري Triraea] مع انه ساهم بعدد كبير من الخيالة في قوات الحلف او اي مواطن من مواطني مدن اصغر من هاتين شأنًا. واهداه الملك خمسة وعشرين تالنتاً. فوزعها على المحتاجين من مواطنيه واستخدمها لافتداء الأسرى منهم.

واصبح المنفيون العائدون معضلة. وقد صعب ارضائهم واسكانهم وظلوا مصدر ازعاج لواضعي اليد على ممتلكاتهم. وباتت [سيكيون] على قاب قوسين من الفوضى والانقسام الداخلي. ولم يعد لاراتوس أمل الا بمساعدة يتلقاها من [بطليموس] فقد رحل اليه يطلب المال منه، ليفض النزاعات المالية في داخل المدينة. وابحر من موثونه Mothone، فيما يلي [ماليا Malea] وهو طريق مباشرة لاوقف فيها. الا ان الملاح جوبه بريح قوية وامواج عالية مندفعة من البحر فلم يقو على توجيه سفينته في الطريق المنتوى وحاد عنه الى الساحل بعد معاناة كثير من الأهوال وجنح الى [اندارس Andras] وهي ارض عدوة من ضمن املاك [انتيفونس] كانت له فيها حامية عسكرية. فأضطر [اراتوس] الى ترك السفينة حال بلوغها

الساحل، ونفذ الى داخلية البلاد وليس معه غير تابع واحد يدعى [تيمانثوس Timanthes]. فأخفيا نفسيهما في غابة كثيفة واستراحاً ليلة واحدة. وبعد مرور حين من الوقت على رسو السفينة اقبل فائد الحامية وسأل عن [اراتوس] فضللته الخدم بقولهم انه قصد جزيرة [يوبيا Euboea]. فأعتبر السفينة وحمولتها غنيمة شرعية واحتجز كل من كان على ظهرها. اما [اراتوس] فبعد ان قضى اياماً في ضيق شديد ساقته اليه الصدفة الطيبة سفينة رومانية القت مراسيها في البقعة التي استقر فيها. واتخذ منها موضع استكشاف فيختفي فيها احياناً ويخرج منها أحياناً. وكانت وجهة السفينة سورية. فاتفق مع الريان على انزاله في [كاريا] وصعد اليها ولكنه لاقى من المصاعب ما لا يقل عن تلك التي لقيها في رحلته الأولى وبلغ مصر من [كاريا] وقابل الملك الذي كان يعطف عليه كثيراً ويخصه بالتفاته، لان [اراتوس] الحبير في الفنون اليونانية سبق له اهداء الملك عدداً من المنحوتات والصور، وكان شديد التدقيق في انتقاء اروعاها واغربها وارسالها اليه، لاسيما رسوم [بامفيلوس Pamphilus]، و[ميلانثوس Melantheus].

كانت اللوحات السيكيونية اشهر اللوحات واندرها، لأنها الرسوم الوحيدة التي لا تتغير الوانها مطلقاً. واپلليس Apples] نفسه قصد المدينة بعد ان ذاع صية واصبح من الاعلام. ودفع التالنتاً واحداً وهو رسم الدخول في عضوية جمعية الرسامين لا للاستفادة من خبرتهم وعلمهم وهو ما لا يحتاجه، بل ليكون له شرف الانتماء الى نقاباتهم لا غير. ولما حرر [اراتوس] المدينة انزل كل رسوم الطغاة الا أنه تردد كثيراً في انزال رسم [اريستراتوس Aris-tratus] الذي عاصر فيليب المقدوني. فهي من اعمال [ميلانثوس] وتلاميذه، وتمثله بالقرب من عجلة حربية وقد ركب فوقها تمثال للنصر. وكان [اپيللس] نفسه قد اشتغل فيها كما ذكر لنا [پولمين] الجغرافي. كانت لوحة نفسية رائعة جداً فعز على [اراتوس] ان يتخلى عنها، ورغب في ابقائها لقيمتها الفنية الا ان دافع الكره للطغاة تغلب عليه فأمر بانزالها. الا ان [نياكلس Neacles] الرسام وهو من اصدقاء [اراتوس]، قيل انه توسل به وهو يبكي للبقاء عليها، ولما وجد مساعيه لا تؤدي الى شيء قال له:

- لا خير في ان تواصل نضالك ضد الطغاة. لكن فليكن نضالك هذا قاصراً عليهم. ودع العجلة وآله النصر على حوالهما وسأجد الوسائل الكفيلة بطمس معالم صورة اريستوترس في اللوحة.

فوافق [اراتوس] على ذلك، ومسح [نياكلس] صورة الطاغية من اللوحة ورسم في مكانها نخلة ولم يجرأ على اضافة شيء آخر من مخيلته. وقيل ان قدمي [اريستوتراتوس] في

الصورة ظلت ظاهرة لأنها كانت مختفية وراء العجلة فغفل الرسام عن ازلتها.

لهذا السبب ارتفعت مكانة [اراتوس] عند الملك. وبعد ان ازداد هذا معرفةً به تضاعف حبه له. واعطاه مائة وخمسين تالنتاً للتخفيف عن ضائقة المدينة، نقل منها اربعين معه، عند ابحاره الى [البيلوپونيس] اما الباقي فقد قسمه الملك اجزاء وارسله تباعاً اليه في اوقات مختلفة.

انه لشيء رائع حقاً. لقد أمن [اراتوس] لابناء وطنه هذا المبلغ الكبير من المال لاصلاح حالهم. في حين كان جزء قليل منه يكفي لتخريب ذمة اي قائد او زعيم، ولتجعلهم على استعداد للغدر بمواطنيهم خيانة بلادهم. ان ابداع ما في هذا العمل هو ان يستخدم هذا المال لاحلال الوئام والصفاء بين الأغنياء والفقراء وسيادة الاستقرار والطمأنينة ربوع البلاد.

أما الجانب العادل في خلقه وهو الذي أثار أعظم الاعجاب به، فقد تجلى عند اختياره حكماً مطلقاً مفوضاً بغض النزاعات على الاراضي التي تعود رقيتها للمنفيين العائدين، فقد ابى قبول هذه المسؤولية وحده ويادر الى ضم خمسة عشر مواطناً آخرين لهذا الغرض. وحقق النجاح في تسوية هذا النزاع المعقد واحلال الود والسلام بين مختلف طبقات السكان بعد كثير من المتاعب والمصاعب. وبلغ في اكرامه والثناء عليه، من سائر الأهالي، حتى ان المنفيين اقاموا له تمثالاً برزياً نقشوا عليه هذه الابيات:

ان مشوراتك ومآثرك وبراعتك العسكرية

في سبيل الأغريرق، تعدى صيتها اعمدة هرقل

ونحن يا [اراتوس] اهدينا صورتك؛ صورة

الذي انقذنا - الى الآلهة التي ارسلتك

لتنقذنا من المنفى، وتفيدنا الى موطننا

بفضائك وعدلك اللذين ترفل [سيكيون]

بنصحهما الى يومنا هذا. مع الثروة التي يتمتع

بها الجميع على السواء، ومع القوانين التي يطيعها الجميع.

وقد أمن [اراتوس] من حسد ابناء جلدته بتحقيقه هذه الأمور. فقد شعروا بالمنافع التي حققها لهم، فحرصوا على وجوده الا ان [انتيجونس] الملك كان شديد القلق من نواياه. ولذلك فكر في ان يضمه الى حلفه فان فشل عمد الى تشكيك [پتليموس] فيه. وفي غضون ذلك

اظهر له كثيراً من المودة واخذ يتقرب منه. ولم يعباً [اراتوس] كثيراً بما يفعله [انتيجونس] لأجله فمن ذلك انه قرب للآلهة في [كورنث] وارسل الى [اراتوس] جانباً من قرايبينه. وانتهز العيد فصرح بين جميع كبير من المدعوين قائلاً:

- ظننت ان هذا الشاب [السيكيوتي] محب فحسب للحرية ولابناء وطنه. لكني صرت اعده الآن خبيراً باخلاق الملوك مقدرراً أفعالهم في الماضي. كان يتجاهلنا ويضع آماله في جهات بعيدة؛ معتمداً على ثروات مصر، بعد سماعه الكثير عن قصورها وفيلتها واساطيلها ولكنه وجد كل هذا مجرد ابهة فارغة، ومظاهر تمثيل كاذبة بعد ان رآها عن كذب فعاد البنا، واما من ناحيتي فأنا ارحب به من كل قلبي وانوي استخدامه في اعظم المهام واني لأمركم ان تعتبروه صديقاً وحليفاً.

التقط المبعوض والنمامون هذه الاقوال وتسابقوا على ابلاغها لپتليموس، فكتبوا له الرسائل الطوال مسندين فيها الى [اراتوس] شتى الاتهامات والافتراءات. فأرسل [پتليموس] يعاتبه ويؤنبه. ان كثيراً من الحسد والشك ونية السوء يتخلل علاقات الامراء والعظماء وصدقاتهم. لأنها اكثر الصداقات اطلاقاً وتعرضاً للحسد.

في تلك الاثناء كان [اراتوس] قد انتخب جنرالاً للأخائيين لأول مرة. فأجتاح اراضي [لوكريس Locres] و[كاليديون Calydon] وهما مما يلي أخائياً. ثم انجد البويوتيين بعشرة آلاف جندي. على انه لم يدركهم بنفسه الا بعد ان انتهت معركة خيرونيا بهزيمتهم امام الايتوليين وخسارتهم [ابيوقريطس Aboecritus] و[بويوتارخ Boeotarch] وألفاً من الرجال وبعد هذا بسنة واحدة وعلى اثر انتخابه جنرالاً للمرة الثانية قرر الاستيلاء على [قلعة كورنث Acrocorinthes] لا لكونها ذات اهمية للسيكيونيين او الاخائيين بل لأنه وجدها فاتحة لتحرير كل اليونان من حكم الاستبداد الذي يجثم على كل شبر فيها بمجرد طرده الحامية المقدونية منها. وواتى الحظ [خارس] الآثيني في تحقيق النصر على قواد الملك بمعركة. فكتب الى اهالي آثينا يقول «ان نصره هو توأم لنصر مراثون!» ولذلك فيجب ان يعد عمله هذا صنواً لعمل [پيلوپيداس] الثيبسي و[تراسيبولس Thrasybulus] الآثيني اللذين تمكنا من القضاء على الطاغيتين. على انه يتفوق عليهما من ناحية واحدة وهي ان معركته لم تكن مع اغريق وانما ضد سيطرة اجنبية. ان البرزخ الذي يرتفع بين البحار كالجرف الساحلي هو مفتاح كل بلاد اليونان الجنوبية تقف عقبة كؤوداً وتقطع [البيلوپونيسس] تماماً عن اي تماس مع الاجزاء الباقية واذا ما عززت بحامية قوية فيصبح مرور السلاح والرجال والنقل البحري والبري من قبيل المستحيلات ومن يسيطر على تلك القلعة هو سيد البلاد كلها. ولذلك لم يكن [فيليب]

الشباب يمزح حين اطلق على [كورنث] اسم «اغلال اليونان». وكان هذا الموقع والحالة هذه، مطمح انظار الجميع، وقبله المنافسة بين الملوك والطغاة. وفي مقدمتهم [انتيفغونس] الذي كان امامها اشبه بالمحب المتيم الواله. وانشغل ذهنه بخطط الاستيلاء عليها ولازمته فكرة المفاجأة لأنه كان يائساً من الاستيلاء عليها بهجوم عسكري ولذلك عمد كمل قيل الى دس السم لصاحبها [الكساندر] مخلفته زوجه نيقيا Nicaea في حكم تلك القلعة، فأسرع [انتيفغونس] يتخذ ابنه [ديمتريوس] طعاماً للوصول الى مرماءه، فمنها بزواج ملكي فخم فحياة سعيدة مع ابنه الشاب فراق لها الأمر ووقع في نفسها موقعاً حسناً لاسيما وقد تعدت سن الشباب ووافقت وتزوجته إلا أن القلعة بقيت في يدها وظلت حاميتها القوية تحافظ عليها. وتظاهر [انتيفغونس] بعدم الاهتمام واحتفل في [كورنث] بالزواج واقام للزوجين المآدب ومجالس اللهو كأنه خالي الذهن منصرف انصافاً تاماً الى المرح واللهو لفترة من الزمن. وكانت ساعة الصفر هي بدء غناء [امبيويوس Amboeueus] على خشبة المسرح. وكان [انتيفغونس] برفقة [نيقيا] وقد نقلت على كرسي ملكي مزين، وهي تكاد تطير فرحاً بما تلقى من حفاوة وتكريم، وليس عندها اية فكرة بما بيت للقلعة.

وما لبث [انتيفغونس] حتى ودع الموسيقى وحفلة الزواج وخف بأسرع ما يسمح له عمره الى حصن [كورنث] فوجد المداخل محكمة الإغلاق في وجهه. فدق بعصاه امر بفتح الباب، قلم يسع الحراس إلا أن يفعلوا ذلك وهم في حيرة من امرهم. وبهذه الطريقة استولى على الموقع. ولم يستطع كبح جماح عواطفه الجائشة بالفرح فقد نسي وقاره وتقدم عمره، ونسي طول معاناته تصاريف الدهر وتقلبات الحظ. وخرج الى الشارع مظهرًا انبساطه، واخذ وهو واقف في الساحة العامة متوجاً باكاليل الزهر وبين يديه الضاربات والنافخات في الناي يدعو المارة الى مشاركته في افراحه. تلك هي طبيعة العاطفة النزقة الخالية من التحفظ تذهب العقل اكثر مما يذهبه الخوف والأسى.

هكذا استولى [انتيفغونس] على قلعة كورنث ووضع فيها حامية من جنوده المؤتمنين وجعل [پرسیوس Persæuse] الفيلسوف حاكماً مدنياً لها. وكان [اراتوس] قد حاول في زمن صاحبها [الكساندر] الاستيلاء عليها، ووضع خطة لذلك، إلا أنه عدل بعد ان تحالف [الكساندر] هذا مع الأخائيين. إلا أن دخولها الآن في املاك [انتيفغونس] دفعه الى تجديد المحاولة بخطة جديدة اليك هي:

كان يوجد في كورنث اخوة اربعة من السوريين، احدهم المدعو [ديوقليس] كان احد عساكر الحامية، اما الثلاثة الباقون فقد لجأوا الى [سيكيون] بعد ان سرقوا ذهباً من الملك. وكان ثم

صراف يتعامل [اراتوس] معه بحدود مهنته اسمه [ايغياس Aegias] قصده هؤلاء الاخوة فباعوا منه جزءاً من الذهب المسروق. أما الباقي فقد أخذ احد الاخوة الثلاثة وهو المدعو [ارغينوس Arginus] يصرفه بالمفروق تباعاً الى الصراف [ايغياس] وبذلك اصبحا صديقين حميمين، ومرة انجر بهما الحديث الى قلعة كورنث فقال [ارغينيوس] انه لاحظ عند صعوده اليها لزيارة أخيه بأن هناك شقاً جانبياً بوجه الصخرة يؤدي الى جزء من السور اقل ارتفاعاً من سائر الاجزاء الأخرى، فعقب [ايغياس] ممازحاً.

- اني لا عجب من فرط حكمتك! لقد اقتحمت خزائن الملك لأجل الحصول على مقدار ضئيل من الذهب. في حين انك تستطيع ان تكسب مالا طائلاً لو شئت بعمل ساعة واحدة لا اكثر. وتعلم ايضاً ان العقاب واحد على السرقة والخيانة العظمى وهو الموت.

فضحك [ارغينيوس] وقال له انه سيفاتح [ديوقليس] بالأمر (ذلك لأنه لم يكن يثق باخويه الآخرين ثقة تامة) وعاد بعد ايام قليلة واتفق مع [اراتوس] على اصطحابه الى ذلك الجزء من السور، حيث لا يبلغ الارتفاع اكثر من خمس عشرة قدماً. وتعهد له ان يفعل كل ما يطلب منه بالتعاون مع اخيه [ديوقليس].

ووافق [اراتوس] على ان يدفع لهم ستين تالنتاً في حالة النجاح. أما اذا فشلت العملية وخرج الفريقان سالمين فانه سيمتدح كل واحد منهم منزلاً وتالنتاً واحداً. ثم انه وضع الستين تالنتاً امانةً عند [ايغياس] لأمر [ارغينوس] وشريكه. ولم يكن [اراتوس] يملك هذا المبلغ ولم يكن يريد ان يشير التساؤل بالاستقدانة من الآخرين فارتهن صحافه الثمينة وحلي زوجته عند [ايغياس] مقابل هذا المبلغ. لقد بلغ من سمو الخلق والغيرة على اشرف المقاصد ان عمد الى الانفاق على المشروع من جيبه الخاص، فبذ [فوكيون] و[ايبامنداس] اللذين سمع بأنهما افضل الاغريق واعدلها لأنهما رفضا اعظم الهدايا ولم يخونا واجبهما لقاء المال. وبذلك تحمل عواقب المغامرة كلها لأجل الآخرين الذين ظلوا يجهلون أمرها. ولم يسع الجميع اخفاء اعجابهم بانكار الذات والسخاء بهذا المبلغ الكبير ثمناً لمجازفة محفوفة بالأخطار، وبذل كل ما لديه لنيل فرصة التعرض للموت بالنزول بين الاعداء في دجنة الليل. غير طالب مكافأة على ما بذل غير الأمل بالنجاح المشرف.

كانت المغامرة بحد ذاتها خطيرة، ولكن خطرها تضاعف كثيراً بخطأ ارتكب من البداية. فقد ارسل [اراتوس] تابعه [تخنون] الى [ديوقليس] ليستطلع السور معاً. وكان [تخنون] يجهل شكل [ديوقليس] إلا أن [ارغينيوس] وصفه له وصفاً دقيقاً يتعذر معه ان يخطئه. ذكر له انه اجعد الشعر، اسمر اللون أملط. فذهب [تخنون] الى المكان المعين وظل ينتظر مقدم

[ديوقليس] و[ارغينيوس] في ظاهر المدينة امام موضع يقال له [اورنس Ornis] واتفق ان [ديونييسيوس] الأخ الأكبر مَرَّ به وهو واقف (ولم يكن يدري شيئاً عن المسألة انه كان يشبه اخاه ديوقليس شبيهاً غريباً) فتطلع اليه [تخنون] فوجد الأوصاف منطبقة عليه تماماً فاستوقفه وسأله هل له معرفة بارغينيوس؟ فأجابته انه أخوه فأيقن [تخنون] انه يكلم [ديوقليس] لا غيره فلم يجد حاجة الى التأكيد من اسمه او طلب دليل آخر ومدّ اليه يده مصافحاً وشرع يتحدث اليه وي طرح الأسئلة حول ما اتفق عليه مع [ارغينيوس]، وكان [ديونييسيوس] أشدّ مكرماً من ان تفوته فرصة الافادة من الالتباس. فتظاهر بفهم ما يقول واتجه نحو المدينة وهما يتحدثان دون ان يخالجه [تخنون] اي شك. ولما اصبحا قريبين من الباب هم [ديونييسيوس] بالقبض عليه الا ان الصدف حكمت بان يدركهما [ارغينيوس] فأنكشفت له الخدعة ولاح له الخطر فأشار على [تخنون] بالفرار ودار كلاهما على الاعقاب واطلعا ساقيهما للريح حتى وصلا الى [اراتوس] وقصصا عليه الأمر، فلم يخالجه اليأس، وانما ارسل [ارغينيوس] الى [ديونييسيوس] فوراً واغراه بمبلغ من المال لقاء سكوتة كما نجح في جلبه الى [اراتوس] وما ان اصبح تحت رحمته حتى بادر الى شدّ وثاقه واحتجزاه في غرفة واقاما عليه حراسة قوية واخذوا يستعدان للعملية الكبرى.

بعد ان تمّ كل شيء، أمر جنوده بان يظلوا شاكي السلاح طول الليل واختار منهم اربعمائة لا يعلمون شيئاً عما هم مقدمون عليه الا قلة. وسار بهم حتى الأبواب القريبة من هيكل [جونوا] وكان الوقت منتصف الصيف والقمر بدرأً والليل صافية الأديم لاتشويها قطعة غيم وكان الخطر من بريق الصفائح والدروع في ضوء القمر، الذي سيجتذب انظار العدو ويكشف المهاجمين وما ان شارف الرتل الأول القلعة حتى زحف الضباب من البحر فغطاهم وغطى القلعة نفسها وما جاورها. فأفتقد المهاجمون الأرض ونزعوا احذيتهم لأن ذلك يخفف كثيراً من وقع اقدامهم ويثبتهما اثناء التسلّق. واخذ [ارغينيوس] سبعة من الشبان تنكروا بزي المسافرين وبلغوا الباب دون ان يستترعي بهم الانتباه، وقتل الناطور والحراس بينما ثبتت السلاالم على الأسوار. وعجل [اراتوس] باصعاد مائة من رجاله وامر الباقيين بالتسلّق ثم صعد هو وسحب سلاله وسار مع رجاله في قلب المدينة قاصداً القلعة، وقد كاد يطير فرحاً لبقاء امره سرّاً ولفرط وثوقه الآن بالنجاح، وكانت المسافة بينه وبين القلعة واسعة عندما تبين اربعة من الخفراء الليليين قادمين وبأيديهم المصابيح لكنهم مروا بهم دون ان يفتنوا اليهم فقد كانوا يسبحون في ظل القمر لا في نوره. الا انهم توضحوهم عندما توجهوا نحوهم مباشرة، فأنسحب رجال [اراتوس] وتواروا خلف بعض الجدران في باحات البيوت وكنوا للخفراء ثم وثبوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة وفرّ رابعهم وهو مصاب بجرح سيف في رأسه، يهتف ان العدو

قد دخل المدينة، فنفع في الابواق وهبت المدينة من رقادها وعلا الضجيج وامتلأت الشوارع بالناس وهم يهرجلون واضيئت الأنوار في المدينة وفي القلعة. وسمعت جلبة واصوات مختلطة في كل الانحاء.

في الوقت نفسه كان [اراتوس] يعمل بهمة على توكل الصخور المؤدية الى القلعة فعانى مشقة وابطأ وحاد عن الشقّ الصخري العميق الذي كانت تخفيه الاطناف من الجانبين وتتخلله المنعطفات والالتواءات الكثيرة وهو متجه الى القلعة، ولكن الغيوم انحسرت فجأة عن وجه البدر بقدرة قادر فانارت للرجال أشقّ جزءٍ من الشعب وبلغ [اراتوس] الناحية المنشودة من السور. حتى اذا تم ذلك زحفت الغيوم ثانية وحجبت نور القمر.

اما الثلاثمئة الذين تركهم [اراتوس] في معبد [جونوا] خارج المدينة، فقد دخلوا المدينة بعد ان استيقظ الناس وانيرت الاضواء ولم يعلموا شيئاً عن وجهة [اراتوس] برجاله المائة ولم يعثروا لهم على اثر فانسلاوا بهدوءٍ وتجمعوا كلهم تحت جرف صخري بارزٍ مستترين بظله الكثيف وظلوا هناك حائرين قلقين. وفي تلك الاثناء هوجم رتل [اراتوس] بالمقدوفات ونشب القتال بينهم وبين الحامية وتناهت اليهم الاصوات وضجة المعركة من فوق ولذلك كانت مختلطة غامضة صعب عليهم تعيين اتجاهها لان الصدى كان يصدر من كل جهة. وادركت المدافعين عن المدينة الحيرة ولم يدروا بالضبط مركز الهجوم. فساق [ارخيلاس] جنوده نحو القلعة واخذوا يطلقون الصيحات الراجعة وينفخون في الابواق بشدة، وقصدهم مباغثة رتل [اراتوس] من الخلف. ومروا بالثلاثمئة الكامنين، فخرج هؤلاء من وكرهم وحملوا عليهم وقتلوا بعضهم فالتقوا الرعب في نفوس البقية فهربوا، فطاردوهم حتى دحروهم وشتتوا شملهم في ارجاء المدينة. وأقبل في اعقاب ذلك [ارغينيوس] ليعلمهم بأن [اراتوس] مشتت بك مع العدو في قتال عنيف فوق الاسوار، وان العدو يدافع دفاعاً عنيداً وان [اراتوس] في حاجة الى مدد سريع. فطلبوا منه ان يتقدمهم دون تأخير، وساروا مطلقين الصيحات العالية فسمعها رفاقهم وارتفعت بها معنوياتهم. وانعكس نور القمر على اسلحتهم الصقيلة وهم يسيرون في رتل طويل فبدوا للعدو اكثر من عددهم الحقيقي وضاعف الصدى من حجم صيحاتهم. ومختصر القول انضم الرتل الى جماعة [اراتوس] ودفعوا بالعدو الى الوراء حتى تمّ لهم الاستيلاء على القلعة واسر الحامية. وانبلج الصبح عن نصرٍ كاملٍ لهم والقت الشمس باسعتها على اسياد القلعة المجدد. وفي تلك الاثناء وصل القسم الأكبر من جيش [اراتوس] قادماً من [سيكيون] واستقبلهم الكورنثيون بفرح عظيم عند مداخل المدينة وعاونهم في اللقاء القبض على اشياح الملك.



بعد ان وضع [اراتوس] الامور في نصابها هناك. نزل الى الملعب وكان ثم عدد لا يحصى من الجمهور احتشد لسماع اقواله ولرؤيته.

فأنتظم الجنود الاخائيون في صفين متقابلين على طول ممشى المسرح وتقدم [اراتوس] وهو في شكة سلاحه ودروعه وقد بدت امارات الاجهاد والاعياء واضحة عليه وغلبت على البشر والفرح الذي كان يملأ قلبه. فأعتلى المسرح واطلق الجمهور هتافاً عظيماً مشفوعاً بالتهاني الحارة. امسك اراتوس رمحه بيده اليمنى واسند عليه جسمه مثنياً ركبته قليلاً وظلّ واقفاً بهذه الصورة فترة من الوقت وهو يستمع الى هتافاتهم وصيحاتهم بصمت، ويصغي الى عبارات التعظيم والاعجاب بشجاعته وتوفيقه، حتى هدأت الضجة وارهفت الآذان فأفتح خطابه اليهم باسم الأخائيين حول عملياته الأخيرة، مزيناً لهم التحالف مع الاخائيين، ثم اعاد اليهم مفاتيح ابواب مدينتهم التي حرموا منها منذ عهد [فيليب] الملك. وأطلق سراح [ارخيلوس] قائد حامية انتيغونس الذي وقع في اسره. واما [ثيوفراستس] الذي رفض ترك موقعه فقد أمر بقتله. وهرب [پيرسيوس] الى [Cenchreae] عند استسلام القلعة. وقيل انه كان يتحدث مع احدهم بعد مرور زمن على هذه المعركة - فقال محدثه في سياق الكلام: «ان العاقل وحده، هو القائد الحقيقي». فأجاب [پيرسيوس].

- أجل، فليس هناك مبدء فلسفي بعجبي قدر ما يعجني مبدء [زينو] هذا. الا اني اهتديت الى رأي اصلح بفضل هذا الشاب السيكيوني.

هذا ما عزاه كثير من الكتاب الى [پيرسيوس].

ثم سيطر [اراتوس] على معبد [جونو] وميناء [ليخيوم Lechaum] وفي هذا الميناء استولى على خمس وعشرين سفينة من سفن الملك وخمسائة حصان واربعمائة من السورين الذين باعهم عبيداً. ووضع الحلف الاخائي حامية في قلعة [كورنث] قوامها اربعمائة جندي وخمسون كلباً مع خمسين مدرباً لها.

يعظم الرومان [فيلوپومين] ويسمون به «آخر الأغرقي». اعنى انه لم يبق بينهم رجل عظيم بعده. وانا اسمي استيلاء [اراتوس] على قلعة [كورنث] بأخر مآثر الأغرقي. فهذه العملية جديرة بان توضع في مصاف أعظم ما حققوه في ميادين الحرب والسياسة سواء بالجراءة التي اتسمت بها او بنتائجها واثارها: فما عثم الميغاريون ان ثاروا على [انتيجونس] وانضموا الى [اراتوس] ودخل [الروزينيون والاپيداريون] في الحلف الأخائي. واتيح له لأول مرة ان يدخل [آتيكا] ويبحر الى سلاميس ويجتاحها. ثم يوجه القوة العسكرية الأخائية الى كل مكان

كانها طائر حبيس انطلق من سجنه يتنسم انسام الحرية. ويعث الى الآتينين كل حرأسره دون طلب فدية عنهم تمهيداً لسبيل انضمامهم الى الحلف. وأقنع [پتليموس] بمخالفة الأخائيين.

ومنح [اراتوس] امتيازاً لم يعط لغيره وهو الجمع بين القيادة العليا البحرية والبرية. وعظم قدره لدى الحلف ومارس سلطناً عظيماً. فكان ينتخب جنراً بين سنة وأخرى بصورة مستمرة لأن دستورهم لم يكن يسمح ببقاء الجنرال سنتين متتاليتين او اكثر. على انه كان هو القائد العام عملياً وسواء في ذلك اكان يتقلد المنصب أو لا يتقلده، اذ كان في مشوراته وآرائه فصل الخطاب. لقد ادركوا ان أعز أمانيه هي منعة الأخائيين واتساع نفوذهم. لقد وجد ان المدينة الواحدة، ضعيفة عادة، لا تقوى على حفظ كيانها ودرء الاخطار عن نفسها الا بالتحالف مع غيرها على المعونة المتبادلة في مجال المصلحة العامة اي كاعضا الجسم الحي الذي لا يقوى على التنفس والعيش الا بالتعاون والنمو الطبيعي. فاذا انفصلت الاعضاء بعضها عن بعض تحللت وفسدت كما يحلّ الدمار بالمدن عندما تنقسم على نفسها في حين انها تنمو وتزدهر وتنعم بالرفاء عندما تتحد وتتبادل المنافع مع الاقليم الأخائي الذي تحكم اراؤه الكل، كأنها اعضاء في جسم كبير.

لقد ألم [اراتوس] ان يرسف اهل [اركيثا] في اغلال العبودية، في حين تنعم المدن المجاورة بحرياتها وقوانينها الخاصة فراح يتداول في أمر القضاء على طاغيتهم [ارسطوماخس]. وكان مشوقاً الى تسديد دينه لتلك المدينة التي آوته وهو طريد، وربته حتى استوى رجلاً. وذلك باعادة حررتها. وضمها الى الحلف الأخائي ولم يكن يعوزه الرجال الشجعان المستعدون لهذا العمل. وفي مقدمتهم المنجمان [ايسخيلوس Aeschylus] و[خارمينيس Charimenes]. وكان هؤلاء الثائرون بحاجة الى الاسلحة، لأن الطاغية منع حمل السلاح داخل المدينة وفرض عقوبات شديدة على المخالفين. فاعد [اراتوس] مقداراً من السيوف القصيرة في مدينة [كورنث] واخفاها في سروج وبراذع خيول النقل التي تحمل السلع الاعتيادية الى [اراغوس]. الا ان [خارمينيس] افضى بالأمر الى احد الاشخاص. الأمر الذي استاء له [ايسخيلوس] وجماعته، فقاطعه وانصرفوا لاتمام العمل وحدهم. فثارت ثورة [خارمينيس] وانطلق بسورة من غضبه فأخبر عنهم في الوقت الذي كانوا يهمون بالوثوب عن الطاغية في الساحة العامة. وافلح معظمهم في النجاة ولجأ الى كورنث. ولم تمر فترة من الزمن على هذا حتى وثب فريق من عبيد [ارسطوماخوس] عليه واغتالوه. فقبض [ارستوبوس Aristoppos] على ناصية الحكم وكان أكثر من سلفه طغياناً وشرأ. فعياً [اراتوس] ما امكنه من الأخائيين اللاتقين للخدمة واسرعوا لنجدة المدينة وهم واثقون من استعداد الأهالي للانضمام اليهم. ولكن

نعود فنقول: قام [اراتوس] بعدة محاولات سرية وعنلية للقضاء على [ارسطيوس] اثناء عمله على تحرير [ارغوس] فكان نصيبها الفشل. ونذكر منها محاولته اقتحامها. فقد ركز السلاالم وتسلق الاسوار بفتنة قليلة من الجنود، وتمكن من قتل الحفراء الذين اعترضوا سبيله واحتل الاسوار كلها بعد الجهد الجهد، إلا أن نور النهار ادركه فحشد [ارسطيوس] كل قواته واطلقها عليه، وجلس الاهالي يرقبون القتال بهدوء تام كأنهم محكمون محايدون في مسابقة العاب وكأن القتال ليس في سبيل حريتهم بل حفلة العاب نيمية Nemea كان العرف قد منحهم امتياز توزيع الجوائز على الفائزين فيها. وقاتل [اراتوس] قتالاً شديداً واصيب فحذه بطعنة رمح لكن ظل في مكانه صامداً يرد هجمات العدو المتوالية حتى جن الليل فواصل القتال اثناءه حتى رجحت الكفة. ولم تعد تخالجات الطاغية فكرة غير الهرب. وكان قد احتاط من قبل فحمل الى السنن القسم الاكبر من امواله. ولكن [اراتوس] كان يجهل الأمر. وكان يشعر بعطش قاتل، واعجزه جرحه عن مواصلة القتال، فلم يرد بدأ من الانسحاب بجنوده من المدينة، ثم انه انقض على [ارغوليس] ونهبها.

وفي معركة أخرى ضارية مع [ارسطيوس] بالقرب من نهر [خاريس] اتهم بانه انسحب من القتال وبذلك فاته النصر وكان على قاب قوسين منه لأن قسماً من جيشه استظهر تماماً على العدو وانطلق يحدّ وراء المنهزمين وابتعد مسافة كبيرة، إلا أن [اراتوس] كف عن القتال وتراجع الى معسكره بدون انتظام من دون ان يُضايق او يلقي عنقاً من العدو المواجه له، وانما لخوف شديد انتابه ولعدم ثقة بالنجاح. وعاد الجناح المنتصر من جيشه بعد ان عمل فتكاً في المنهزمين. وظهروا حنفاً واستياء وقالوا:

- انا قتلنا من العدو اكثر بكثير مما قتل منّا. ومن حقنا ان نقيم نصيباً تذكاريّاً لانتصارنا.

فامتلاً [اراتوس] خجلاً، واعتزم معاودة القتال في سبيل اقامة النصب. وفي اليوم التالي بكر في الخروج وصف جيشه للقتال إلا انه تبين ان العدو قد عزز جيشه بوحدة جديدة وبدت معنوياته افضل من اليوم السابق. فلم يجرأ على القتال وانسحب وارسل يقترح هدنةً لدفن القتلى.

مع هذا كله فقد استطاع ازالة آثار هذه الغلطة الفادحة من الأذهان بدائه السياسي، وحسن تصرفه مع الرجال والجنود. ثم انه ضمّ مدينة [كليوني Cleomæ] الى الحلف الأخائي. وأحيا الالعب (النيمية) فيها باعتبارها احقّ تاريخياً بهذا الشرف، واكثر ملاءمةً. واقام [الاركيث] الالعب نفسها في مدينتهم في الوقت نفسه. وتسبب هذا في اول خرق لمبدأ الأمان والحصانة المتعارف عليه. والمسلم به لكلّ قادم للمسابقات على الجوائز. اذ اخذ

[اراتوس] كان مخطئاً في حسابه، فقد طال بهم حكم الاستبداد فتعودوه ورضوا به، ولم يتحرك احد منهم لنصرتة فأضطر الى العودة معرضاً الأخائيين الى تهمة ارتكاب اعمال عدوانية في وقت السلم. ورفعت عليهم القضية امام [المانيتيين] فلم يحضر [اراتوس] مجلس التحكيم، وفرض عليه تعويض [لارسطيوس] قدره ثلاثون [مينا]. وساور الطاغية خوف عظيم من [اراتوس] وازداد له بغضا وراح يعمل على اهلاكه، فوجد في شخص [انتيغونس] الملك ظهيراً. وباتت حياة [اراتوس] في خطر عظيم فقد انتشر المؤثرون به يتحينون الفرصة لاغتيااله إلا ان اخلاص ابناء قومه بعامتهم واشرافهم وزعمائهم وحرصهم عليه وعلى سلامته، يسر له ان يتجنب مكائدهم ويقف على خططهم ويسمع باذان عديدة وينظر باعين كثيرة الى كل ما يقولون ويفصلون. ولايسعني هنا إلا ان احيد قليلاً عن موضوع البحث لأصف حياة الطاغية، وحكمه الاستبدادي الكريه، واين حقيقة الابهة والعظمة التي اشتهرت بها الحكومات المستبدة والحياة الخاصة التي كان ارسطوس مضطراً اليها.

كان [انتيغونس] صديقه وحليفه، وكان لديه عدد كبير من الجنود فضلاً عن الحرس الشخصي. ولم يترك عدواً له في المدينة على قيد الحياة، ومع هذا كله كان مضطراً الى جعل ثكنة حرسه في رواق الاعمدة المحيط بمنزله. وكان يصرف جميع خدمه بعد انتهاء العشاء مباشرة ويغلق الأبواب عليهم ويحكم رتاجها. ثم يصعد زحفاً على قدميه الى عليّة صغيرة مع مخطيته، ويدخلها من باب في ارضيتها. ويعد ولوجهما يغلق هذا الباب ويضع الفراش فوقه وينام النوم المتوقع لمن هم في حالته هذه: نوم متقطع خفيف يكتنفه الخوف والهواجس ثم ان امّ مخطيته تقوم بسحب السلم من باب العلية بعد اغلاقه وتأخذه الى غرفةٍ وتقفل عليه بابها. وفي صباح اليوم التالي تأتي الأم بالسلم وتثبته في موضعه وتنادي الطاغية الشجاع العظيم فينزل زاحفاً مثل حيوان يمشي على اربع وهو يخرج من حجره. تلك هي حياة [ارسطيوس]. اما [اراتوس] فلا يحيا بفضل القوة التي يمارسها ويديرها، وانما بقوة فضائله، وبسلطة القانون الذي منحه القيادة والأمر دون ان يخشى شيئاً، ينام ويصبح كغيره ويلبس ما يلبسه الآخرون مجرداً عن الابهة والفخفة، وبقي ابدأ عدواً لدوداً للطغاة، مدافعاً عن المصلحة العامة. تاركاً نسلأ شريفاً ابياً مازال يتمتع باحترام الاغريق حتى يومنا هذا. لاينكر ان بعض اولئك الذين سكنوا القلاع واتخذوا لأنفسهم حرساً واحتموا وراء المزاليج والابواب المحكمة واعتدوا بصنوف الاسلحة لحماية انفسهم، قد نجوا بارواحهم، لكنها نجا شبيهة بنجا الأرنب من قبضة الصيادين. افتلوا من الموت الا انهم عاشوا مشردين بلا اسرة او بيت يأويهم، وماتوا مجهولين لايعرف لهم قبر يزار وتذرف الدموع عليه.

الأخائيون يقبضون على القادمين الى [ارغوس] لمشاهدة الالعاب، ويبيعونه عبداً. الى هذا الحد كان [اراتوس] قد بلغ في عداته للطغاة.

ادرك [اراتوس] بعد قليل، ان [ارسطيوس] يبيت [لكليونى] شراً الا انه كان متردداً في تنفيذ محاولته خوفاً من وجوده في [كورنث] فتفتق ذهن [اراتوس] عن خطة بارعة، واعلن التعبئة رسمياً وجمع جيشه وامر الجنود ان يتزودوا بارزاق تكفيهم عدة ايام، ثم تظاهر بالزحف عن [كنخريي] تاركاً [كليوني] دون حماية ليحمل [ارسطيوس] على الاتجاه اليها متوهماً ان [اراتوس] قد ابتعد مسافة لاتمكنه من العودة لانقاذها. وهذا ما وقع فعلاً فقد خرج [ارسطيوس] من [ارغوس] يقصد [كليوني]. الا ان [اراتوس] اتجه الى [كورنث] فوصلها غسقى ووضع ربايا على طول الطرق المؤدية الى كليوني، ثم زحف بالآخائيين لمفاجأة [ارسطيوس] فساروا باحسن نظام وبسرعة شديدة ولم يفتن الطاغية الى الامر ولم يشعر بتقدمهم او حتى بوصولهم [كليوني] وانتظامهم بنسق المعركة. حتى اذا انجلى الصبح، فتحت ابواب المدينة ونفخ في الابواق وانقض [اراتوس] على العدو وهو في عقله بصياح عظيم وبشدة فالحق بهم هزيمة سريعة وراح يجد في اثرهم معقباً طريفاً كان يعتقد ان [ارسطيوس] سيفضل سلوكه وهو يمتاز بكثير من المنعطفات. ولكن المطاردة انتهت في [ميكييني Myce-nae] اذ وثب [تراغييسكوس Tragiscus] الكريتي على [ارسطيوس] وقتله، كما ذكر لنا [دينياس Dinias] وقتل من الجنود ألفاً وخمسائة ومع ان [اراتوس] حقق نصراً بهذا دون ان يخسر جندياً واحداً فانه لم يفلح في الاستيلاء على [ارغوس] ولم يمكنها من حريتها لأن [اغياس Agias] و[ارسطوماخوس] الاصغر دخلا المدينة على رأس قوات الملك وقبضا على ناصية الحكم. على انه ابطل بنصره هذا مزاح وسخرية أولئك الذين دأبوا على الزلفى والتملق للطغاة بقولهم: ان الجنرال الأخائي يصاب عادةً بأسهال عندما يترتب عليه خوض المعركة. وان نفي بوق الحرب يصيبه بدوارٍ وتهافتٍ. وانه بعد تنظيمه الصفوف واعطاء كلمة السر لبدء القتال، اعتاد ان يسأل اركانه وضباطه هل ان وجوده ضروري الآن بعد ان اصبحت المعركة محتومة؟ ثم يتركهم ويمضي فيجلس بعيداً وينتظر ما يسفر عنه القتال.

في الواقع كانت هذه الحكايات تجد لها صدى في النفوس بصورة عامة، ومال الفلاسفة ايضاً الى تصديقها حتى انهم عندما يأخذون بمناقشة احتمال حصول سرعة في دقات القلب، وتغيّر لون الوجه وانخفاض درجة حرارة الجسم عند الخطر بسبب الخوف أو اية علة عقلية، أخرى فانهم كانوا دائماً يضرّبون [باراتوس] مثلاً لذلك الجنرال المحنك البارح الذي تبدو عليه هذه الانعكاسات في وقت المعركة.

بعد ان تخلص [اراتوس] من [ارسطيوس] على هذه الشاكلة، شرع يفكر في كيفية التخلص من طاغية ميغالويوليس المدعو [ليدياديس Lydiades]. كان هذا الرجل بطبعه طيب الخلق، فيه نبل واستقامة لم يسلك هذا السبيل السيء في الحكم بالدوافع التي كانت لدى الطغاة الآخرين من جشع وتبذل وفجور وحب السيطرة وانما لأنه كان مشوقاً الى الشهرة والمجد، فانساقته عاطفته الفتية بمظاهر التكريم والاجلال الذي يؤدي له، وباستحسان افعاله والشناء على مظاهر استبداده. الا انه نبذ كل مظاهر السلطان بعد فترة قليلة من توليه الحكم المطلق وعزف عن الأبهة واعبائها. وأثر حياة الهدوء والاستقرار، ودفعه خوفه من اراتوس، الى اختيار افضل السبيل. فأولاً تخلّص من عاملي الكره والخوف بالاستغناء عن الجنود والحرس. وثانياً بعث في طلب [اراتوس] وهناك تنازل عن الحكم لابناء قومه واعلن ضمّ مدينته الى الحلف الاخائي فاستحسن الاخائيون عمله النبيل وسارعوا بانتخابه جنراً لهم وهنا هزته الحمية فأعترزم ان ينجز من المآثر مما لم ينجزه [اراتوس] واقدم على خطوة لم تكن الضرورة تدعو اليها وأعلن الحرب على اللقيديمين الامر الذي لقي معارضة شديدة من [اراتوس] حتى ظنّ انه يعارضه حسداً. واختير [ليديادس] جنراً مرة أخرى رغم انف [اراتوس] الذي كان يعارض في ذلك ويحاول اسناد المنصب الى آخر، لأنه كان ينتخب بين سنة وسنة كما اوردا ذكره. ولكن [ليديادس] انتخب للمرة الثالثة اي صار يتداول المنصب مع [اراتوس]. ولما تمكن اعلن عداة الصريح وكثرت اتهاماته له امام الاخائيين، ظلماً وتحاملاً، فما لبث هؤلاء ان ادركوا حقيقة أمره فلم يعيدوا انتخابه ونبذوه واحتقروه. وتبين الناس الفرق بين الحقيقي والمزيف من الفضائل؛ وتذكروا به قصة [ايسوب] عن الوقواق اذ سأل العصفير مرةً، لماذا تطير عنه وتتحاشاه دائماً. فأجابته: لأنها تخاف ان ينقلب يوماً ما صقراً. كذلك كان في طغيان [ليدياديس] شك في ان التغيير الذي طرأ عليه مؤقت.

ونال [اراتوس] مجداً مؤثلاً آخر في الحرب الايتولية. فقد قرر الاخائيون الاغارة على الايتوليين من حدود [ميغارا]، وتقدم [اغيس] ملك اللقيديمين بجيشه لنصرتهم وتشجيعهم على الاستمرار في القتال. فاحجم [اراتوس] عن المعركة وتحمل بصبرٍ كثيراً من اللوم والسخرية وعيّر برخاوته وجبنه، ومع هذا كل لم يتزحزح عن قراره ولم يحمله على العدول عما وجده مصلحة عامة. فترك العدو يجتاز [غيرانيا Geranea] الى [الپيلوپونيسس] دون ان يتعرض له. وما ان وردت الانباء بأنهم انقضوا فجأة على [پيليني Pellene] واخذوها حتى انقلب حال [اراتوس]، واصبح رجلاً آخر ولم يعد يطبق انتظاراتاً وتأخيراً في تعبئة كل قواته بل زحف على العدو بما كان لديه من العسكر وانقضّ عليهم وكان قد اختل نظامهم وتفشت

الفوضى في صفوفهم على اثر نجاحهم. اذ ما ان دخلوا المدينة حتى تفرقوا في احيائها ودخلوا المساكن وثار القتال والشجار فيما بينهم على الغنائم والأسلاب واخذ الضباط والقادة يجرون وراء النسوة والبنات ويضعن فوق رؤوسهن خوذهم الحربية. ليتبين كل واحد غنيمته فيما بعد ويمنع الآخرين من حيازتها. هكذا كانوا عندما بلغتهم الانبياء بقرب انقضاض [اراتوس] عليهم. فسادهم الذعر وركبهم الهلع. وأضوا بمواجهة الخطر المائل قبل السماع به وتلك هي عاقبة الفوضى. فاشتبكت طلائع منهم عند مداخل المدينة وضواحيها بالأخائيين فأنكسرت واندفعت لاتلوي الى الداخل لتثبت الرعب في أولئك الذين كانوا يحاولون تنظيم صفوفهم لاسنادهم.

وقد اتفق في تلك الاثناء ان احدى الأسيرات وهي بنت وجيه من وجهاء المدينة يدعى [إبيغيتس Epigetes] تمتاز بالفطنة والجمال والقوام الفارع الأهيض؛ جاء بها قائد وحدة من المقاتلين الى هيكل (ديانا) واجلسها هناك بعد ان ألبسها خوذته المريشة بوصفها غنيمته. لما سمعت الضجة نهضت واسرعت الى الخارج مستطلعةً ووقفت عند باب الهيكل تراقب سير القتال من الأعلى وعلى رأسها الخوذة المريشة، فبدت للناس مخلوقاً غير انسى والقت المزيدي من الرعب في قلوب الغزاة. فقد حسبوها الربة متجلببةً فخانتهم الشجاعة واستسلموا. ويحدثنا الپليلينيون بان تمثال ديانا لايمس عادةً ولاينقل من موضعه، وان قضت الضرورة الماسة بذلك فتقوم الكاهنة برفعه، وفي اثناء ذلك يغض الحضور بابصارهم ويديرون وجوههم الى ناحية أخرى. لأنهم يعتقدون ان النظر اليه شؤم، وجالب للنحس، وانه يصيب الاشجار التي تعترض طريق مروره بالعقم فلا تعود تؤتي ثمرأً. ويزعمون ان الكاهنة حملت هذا التمثال في ساعة المعركة تلك ورفعته امام وجوه الايتوليين الغزاة، فاطارت صوابهم واعمتهم. الأ ان [اراتوس] لاينوه بشيء من هذا في تعليقاته. بل يقول انه هزم الايتوليين واختلط الحابل بالنابل في المدينة وجرى قتال الرجل للرجل حتى قتل سبعمائة منهم واجبر الباقون على ترك المدينة والفرار.

واشتهرت هذه المعركة وعدت من ابرز الوقائع وقام [تيمانثس Timanthus] برسم لوحة للمعركة ووفق في تصوير دقائقها وتفصيلها فابعد واجاد.

وتألف اتحاد مناويء للحلف الأخائي يضم شعوباً وحكاماً كثيرين فاسرع [اراتوس] يفاوض [الايتوليين] المغلوبين ويعرض عليهم صداقته. وضمن مساعدة [پانتاليون Pantalion] ابرز شخص فيهم واعظمهم نفوذاً. ووفق الى الصلح ثم الى حلف معهم غير انه اضرب بسمعة الأخائيين وجلب لنفسه الخزي والعار بسبب رغبته في تحرير الآثينيين. فقد تجاهل الهدنة بينه

وبين المقدونيين وحاول الاستيلاء على [پيريوس]. غير انه ينكر ذلك في تعليقاته ويلوم [ارغينوس] مساعده في الاستيلاء على قلعة [كورنث]. فيقول انه هاجم [پيريوس] من تلقاء نفسه ودون امرٍ منه. فتقطعت حبال السلالم به وبرجاله ولوحق وتخرج مركزه، فاستجار باراتوس هاتفاً باسمه وكأنه موجود معهم فخدع اعداءه وبذلك كتبت له النجاة، لكن هذا العذر لايبذو معقولاً، او مقبولاً، فليس في وسع [ارغينوس] وهو انسان بسيط ومواطن سوري، ان يخطط من ذات نفسه لعملية عسكرية واسعة النطاق كهذه دون ان يكون [اراتوس] وراءه يهيه له الوسائل ويعين له الزمن. اضف الى هذا كله، ان محاولاته الاستيلاء على [پيريوس] لم تعد سرأً ولم تقتصر على اثنتين او ثلاث بل كثرت وكان منها اشبه بالمحب المعنيد يكرر محاولات الوصال ولا يثنيه عن عزمه تكرار الفشل. بل كانت الخيبة حافزاً على القيام بتجربة جديدة وبالمزيد من الاقدام يشجعه في ذلك اقتترابه من النجاح اكثر فأكثر بعد كل محاولة ومرة اضطر الى الفرار بمن معه من سهول تسالي، فأصيب بخلع في ساقه واضطر الى معاناة عدة عمليات جراحية بالمبضع ليستقيم أمره. وظل مدة طويلة عاجزاً عن السير وكان يحمل في محفة اثناء الحرب.

ووافي [انتيفونس] الأجل فخلفه في ملكه ابنه [ديميتريوس] وهنا زاد شوق [اراتوس] الى تحرير أثينا، وكان أيضاً يستهين بالمقدونيين على العموم ولا يأبه بقوتهم. على انه لاقى هزيمة بالقرب من [فيلاشيا Phylacia] على يد [بيش] أحد قواد [ديميتريوس] وعلى اثر الهزيمة انتشرت اشاعة قوية عن قتله او اسره. فأرسل [ديوغينيس] حاكم [پيريوس] رسائل الى [كورنث] يأمر بها الأخائيين هناك باخلاء المدينة لأن «اراتوس قد قضى نحبه». وتشاء الصدف ان يكون [اراتوس] فيها عندما وصلت تلك الرسائل. فأعيد الرسل الى سيدهم بعد ان أشبعوا هزواً وسخرية. والانكى من هذا كله ان [ديميتريوس] ارسل سفينة خاصة لنقل [اراتوس] اليه مكبلاً بالاغلال! وخرق الآثينيون المتزلفون كل الحدود المعقولة عندما ورد نبأ موته وضفروا الاكالييل على رؤوسهم ابتهاجاً وتيمناً. وحمل [اراتوس] وهو في سورة من الغضب على [آتيكا] وتوغل فيها حتى بلغ [الاكاديمي] نفسها ولكنه توقف وهدأت نفسه ولم يقدم على عملٍ عدواني آخر. على ان الاثينيين ادركوا فيما بعد قيمة فضائله عندما حاولوا بعد موت [ديميتريوس] استعادة حريتهم واستنجدوا به. ولم تكن السنة سنة قيادته وكان طريح الفراش يشكو العلة. فلم يخبى ظن المدينة به في وقت الضيق وامر بان يحمل في محفة وهو مريض ونجح في اقناع الحاكم [ديوغينيس] بتسليمه للآثينيين كلاً من [پيريوس] ومونيخيا وسلاميس وسونيوم [Sunium] لقاء مائة وخمسين تالنتاً تدفع له. وتبرع [اراتوس]

بعشرين منها. وعلى اثر ذلك انضمّ [الايجينون Aegintans والهرميونيون Hermionians] الى الأخائيين. ودخل القسم الأكبر من اركاديا في الحلف الأخائي. وتعاضمت قوة هذا الحلف مساعداً الايتوليين وياشغال المقدونيين في حروبهم الداخلية، وفي قتالهم مع جيرانهم، حتى بلغت اوجها الآن [اراتوس] لم يتخلّ عن فكرته الأولى وهي القضاء على الطغاة. وعيل صبره من بقاء الاستبداد يخيم على مدينة [ارغوس] القريبة. فأرسل يطلب الى [ارسطوماخوس] طاغيته باعادة الحرية اليها وضمها الى الحلف الأخائي مقتدياً [بليدياديس] وقال له ناصحاً:

- خبير لك ان تختار لنفسك منصب جنرال الشعب عظيم، بكل ما يخلعه عليك من شرف ومكانة، على ان تكون طاغية مستبد في مدينة واحدة، بكل ما يتضمن ذلك من بغض واخطار.

فوقعت الرسالة، في نفسه موقعاً ايجابياً وطلب من [اراتوس] ان يبعث اليه بخمسين تالنتاً ليفي ما بذمته من اجر للجنود.

فشرع في جمعها. الآن [لبليدياديس] الذي كان جنرالاً للحلف في تلك السنة، اراد ان يعزى الفضل في هذا له مدفوعاً بشد طموحه. فأخذ يغتاب [اراتوس] ويشكك [ارسطوماخوس] فيه قائلاً انه عدو لدود للطغاة لايلين جانبه، واقنعه بان يوكل اليه امر الاتفاق مع الأخائيين عنه ويترك وساطة [اراتوس]. الآن الأخائيين اتوا بالبرهان الدافع على مبلغ حبيهم لاراتوس ومكانته العظيمة عندهم وثقتهم به، عندما اندفع بسورة من غضبه يعارض في اقتراح ضمّ [ارسطوماخوس] الى الحلف فأسرعوا كلهم الى رفض الطلب، ولما هدا واسترضي وحيد الطلب صوتوا حالاً بقبول بارغوسيين والفلياسيين Phliosions في الاتحاد الأخائي. وانتخبوا [ارسطوماخوس] جنرالاً للمسنة التالية.

وبات [ارسطوماخوس] يتمتع بكثير من الثقة والتقدير لدى الأخائيين وهذا ما شجعه على فكرة غزو [لاقونيا] فأرسل يستقدم [اراتوس] من اثينا لهذا الغرض، فكتب اليه [اراتوس] محاولاً جهده ان يحمله على نبذ الفكرة فقد كان يخشى كثيراً دخول الأخائيين في نزاع مع [كليومينس] الذي كان شجاعاً سريع الصعود في مراقي السلطان والبأس. الآن [ارسطوماخوس] قرّر المضيّ قدماً في حملته، فلم يسع [اراتوس] الاّ الرضوخ والمشاركة فيها. وكان هذا سبباً في ان يحول بين [ارسطوماخوس] وبين خوضه معركة مع [كليومينس] عندما واجههما هذا في [فالانتسيوم Phallantium]. فاستهدف الى اتهام لبليدياديس ونشبت بينهما معركة انتخابية فاز فيها [اراتوس] بمنصب الجنرال برفع الأيدي للمرة الثانية عشرة.

في هذه السنة عانى [اراتوس] هزيمة [ليقيوم] على يد [كليومينس] فهرب وهام على وجهه ليلاً وظن انه قتل وانتشر هذا النبأ للمرة الثانية في طول اليونان وعرضها. واكده الناس، الاّ انه اعاد تنظيم قواته، ولم يخلد الى الهدوء ولكنه استخدم اشاعة موته بخير ما يمكن فقد انقضّ بدون سابق انذار على [المانتينيين] حلفاء [كليومينس] واحتل مدينتهم ووضع فيها حامية، ومنح حقوق المواطنة للاجانب فيها فأمن فوائد جمّة للأخائيين المقهورين يصعب حصولهم عليها فيما لو كانوا هم المنتصرون. واغار اللقيديميون ثانية على اراضي [ميغالوپوليس] فتقدم اراتوس لنجدة المدينة. الاّ انه لم يتح [لكليومينس] فرصة جرّه الى القتال واستفزازه. كذلك لم يفلح [الميغالوپوليون] في جرّه الى المعركة مع الحاحهم الشديد عليه. لم يكن [اراتوس] مستعداً كلّ الاستعداد لخوض معركة فاصلة، فقواته اقل عدداً من قوات خصمه، كما انه كان يواجه خصماً جريئاً بشخص القائد الشاب. في حين كان هو قد تخطى حدود الاقدام وبلغ الطموح الذي يستوجب كبحة وعدم التفريط بالمجد الذي فاز به بالتزام حدود التأنّي والتبصر في حين كان [كليومينس] خصمه يريد الوصول اليه بالمزيد من الاقدام والاندفاع.

قامت المشاة الخفيفة بهجوم من المدينة فأجبروا [اللقيديميين] على التقهقر حتى معسكرهم. الآن [اراتوس] لم يتقدم برجاله وانما ريض في مجرى ماء جاف يعترض الطريق الى المعسكر. ومنع الجنود من العبور. فأشتد غيظ [لبليدياديس] لما يحدث. وانهال على [اراتوس] لوماً وتقريعاً، وناشد الخيالة الانضمام الى المطاردين في المطارده لثلا يفلت النصر المحقق من ايديهم. وقال انه مقدم على المخاطرة بحياته في سبيل بلاده وان عليهم ان لايتخلوا عنه وعزز قواته بكثير من الكّماة الذين لبوا نداءه ثم كرّ على ميمنة العدو وهزمها وراح يطاردها مطاردة عنيفة ملقياً بجانب الحذر تاركاً حماسه وامله بالمجد تعزبه بالتقدم في ارض وعرة تغطيها النباتات واشجار الفاكهة وتعترضها سواق عريضة. وهنا اصطدم بقوات [كليومينس] فخرّ صريعاً وهو يقا تل قتال المغاوير في اشرف معركة عند عتبة بلاده. وفزعت البقية الى الجزء الأكبر من الجيش فأوقعت الاضطراب والخلل في صفوف المشاة الثقيلة وادت الى هزيمة الجيش كله.

وجه اشد الاتهام الى [اراتوس] اذ شك في انه غدر [بليدياديس]. وارغمه الأخائيون المنسحبون على مرافقتهم الى ايغيوم وهو ساخطون عليه اشدّ السخط. وهناك عقدوا مجلس حرب وقرروا فيه ان لايمدوا [اراتوس] بعد الآن بمال وان لا يؤجر له جنوده، وفرضوا عليه ان يدفع من جيبه اجور جنوده ان رغب ان يشنّ حرباً.

هذه الاهانة اصابته بألمٍ شديد حتى فكر في اعادة اختام المنصب والاستقالة من القيادة العامة. إلا انه عاد فعدل عن رأيه ووجد الصبر أخلق به. وزحف في الحال مع الأخائيين الى [ارخومينس] واشتبك بمعركة ضد [ميغوستونس Megistonus] زوج أم [كليومينس] وانتصر عليه وقتل ثلاثمائة محارب ووقع [مغيستونس] في الأسر.

انتهت قيادة سلفه وقد جرت العادة ان يتسلم هو القيادة للسنة التالية، ولكنه رفض قبولها عندما دعي لتسلمها. فأنتخب [تيموكزينس Timoxenus] في محله. ولم يكن سبب رفضه حنقه على الأهلين كما زعموا، بل للظروف السيئة التي تمر بها احوال الأخائيين. [فكليومينس] فأعاد الآن بغزوهم غزوات بسيطة خفيفة الأثر كما كان يفعل قبلاً بوصفه قائداً مقيداً بأوامر سلطة مدينته. بل صار يغير عليهم بوصفه صاحب الأمر والنهي غير المسؤول امام احد بعد ان فتك بالايغور، ووزع الأراضي، ومنح خلقاً كثيراً من الاجانب المقيمين حقوق المواطنة اللقيديمية، وبهذا دخلت خصومته مع الأخائيين صفحة جديدة خطيرة، بدأها بالمطالبة لنفسه بالقيادة العليا.

لامناص لنا هنا من توجيه اشد اللوم الى [اراتوس] فقد بدا كالربان الهيب المتردد في وقت هبوب العاصفة وهياج البحر لقد تخلى عن الدقة في حين كان واجبه يقضي عليه بالتشبث بها شاء الركاب الخلاص ام أبوا. أما اذا كان يعتقد بان حالة الأخائيين لايرجى لها امل، فكان يجب عليه ان يسلم الأمر الى [كليومينس] ولا يدع [البيلوپونيسس] تقع مرة أخرى في يد الحاميات المقدونية الهمجية، وان يحتل قلعة كورنث الجنود اللاليريون والغاليون. زد على هذا ان أولئك الذين جعل همه التغلب عليهم وسحقهم بالقوة او بالسياسة واغرقهم بالاهانات والانتقادات في تعليقاته عاد ينصبهم حكماً على المدن تحت راية العنوان الفخم «الحلف الأخائي». في حين ابى ذلك على [كليومينس] الذي كان طاغية مستبداً في الواقع إلا انه منحدر من النسل الهيراقليدي العريق، وسپارطه موطنه حيث يحق لكل مواطن مهما حمل ذكره ان يتولى القيادة قبل ان يتولاها افضل المقدونيين، ان كان ثم من يقيم وزناً لشرف المحتد اليوناني. ثم ان [كليومينس] طالب بقيادة الأخائيين معترماً ان يعطي شرف اللقب حقه برد فضل حقيقي للمدن الاغريقية. في حين رفض [انتيجونس] قبول منصب الجنرال بصلاحيات مطلقة في البر والبحر، إلا اذا تمت الموافقة على اطلاق يده في قلعة كورنث. مثله في ذلك مثل صياد [ايسوب]. انه لم يشأ ان يعتلى ظهور الأخائيين الذين انحنوا له وقدموا اقفيتهم للضرب بارسالهم السفراء اليه واصدار المراسيم الشعبية، فقد ابى إلا ان يسرجهم ويشكمهم باخذ رهائن منهم ووضع حاميات في مدنهم!

استنفذ [اراتوس] كل طاقاته في الكلام ليوضح الضرورة التي لجأته الى ذلك. إلا ان [بوليبوس Polybius] يقول ان [اراتوس] كان قد اتصل سراً [بانتيغونس] قبل ان تلوح هذه الضرورة بوقت طويل، اذ كان يوجس خيفة من [كليومينس] ويخشى اندفاعه. وكان قد نجح كذلك في اقناع اهالي [ميغالوپولس] بالضغط على الأخائيين لالتماس العون من [انتيجونس] لأنهم أكثر تعرضاً لويلات الحرب من سواهم. وكان [كليومينس] لاينفك ينهب لادهم ويعيث فيها سلباً.

ويكتب [فيلارخوس Phylarchus] الشيء نفسه (وهو ليس بثقة لولا تأييد [بوليبوس] لروايته - لأن الحماسة كانت تغلب عليه كلما اتى الى ذكر [كليومينس] بكلمة، حتى لكأنه يترافع عنه في محكمة وليس يكتب تاريخاً فيهب في الدفاع عن هذا، ويسرف في قدح [اراتوس].

واستعاد [كليومينس] كانتينيا من يد الأخائيين، واصاب [اراتوس] بهزيمة نكراء بعد قتال شديد بالقرب من [هيكاتويوم] فعم السخط عليه حتى ان الاخائيين ارسلوا الى [كلومينس] في الحال، يطلبون منه المجيء الى [ارغوس] لتسلم قيادة الحلف العليا. وسمع [اراتوس] بقدمه وكان يخشى العاقبة فأرسل اليه يشير بأن لا يأتي ومعه اكثر من ثلاثمائة رجل كما يفعل الاصدقاء والحلفاء. وان شك في أمر بيت له فهو مستعد لوضع رهائن بين يديه. إلا ان [كليومينس] عد هذا السلوك اهانةً وقفل راجعاً وارسل الى الاخائيين رسالة حفلت بالعتاب والاتهام [اراتوس] وكتب [اراتوس] من جهته رسائل ضد [كليومينس] تضمنت اقيح الشتائم واقذع الاوصاف ولم تنج زوجتا المتقادين ولازواجهما من تلك الاهانات المتبادلة. وعلى اثر ذلك ارسل [كليومينس] منادياً للأخائيين، باعلان الحرب. ولما فشل في الاستيلاء على [سيكيون] بسبب الخيانة وكان اقرب اليها من جبل الوريد - انسحب الى مسافة قصيرة وانقض على [پليني] واستولى عليها عنوةً. وعجل بالاستيلاء على [پنتاليوم Pentallium] و[فينيوس Pheneus] واسرع الارغوسيون للانضمام اليه بملء رغبتهم ورضي [الفلياسيون] بحاميته في مدينتهم. ويمتصر القول لن يبق للأخائيين حليف من كل المنضمين اليهم مؤخراً واحدقت الغوضى والضجة باراتوس من كل جهة ورأى سائر البيلوپونيسس يهز قبضة متوعداً، والمدن ثائرة عليه بتحريض المحرضين الذين بدأت اصواتهم ترتفع بالثورة. في الواقع لم يبق ارض لم تطأها الثورة. ولم يعد موضع واحد فيه استقرار او رضا بالوضع الراهن. حتى ان السيكيونيين والكورنثيين اتصلوا سراً [بكليومينس]، بعد ان ضاقوا ذرعاً بالوضع السائد وحنوا الى الانفصال عن الحلف والاستقلال بأموهم. وكان [اراتوس] يملك سلطة مطلقة في

فرض العقوبات الرادعة فنقد احكام الموت بمن وقع بيده من السيكيونيين، وذهب الى [كورنث] وفرض ما ارتاه من العقوبات. فثارت الخواطر وتغيرت مشاعرهم على الأخائيين وملوا حكمهم. وأجتمعت جموعهم الزاخرة في هيكل [اپوللو] وارسلوا بطلب [اراتوس] وقد قرروا فيما بينهم ان يقبضوا عليه او يقتلوه قبل اعلان الثورة. فجاء يقود زمام حصانه وكأنه خالي البال لا يشك في أمرٍ. فنهض عدد منهم وانهاالوا عليه لوماً وصبوا عليه الاتهامات صباً؛ فلم يبذ عليه اي تأثير من الصراخ والزعيق في وجهه وقوفاً وان يجلسوا و اشار الى الواقفين بالباب ان يدخلوا. وبعد ان سار الهدوء سار بكل ثبات الى الباب وخرج كأنه يريد ان يسلم زمام حصانه لاحد الواقفين وبعد ان ابتعد عن الجمع بمسافة متحدثاً الى الكورنثيين الذين يلقاهاهم بشكل اعتيادي ومن غير اكرات ويطلب فيهم التوجه الى هيكل [اپوللو] حتى بلغ القلعة دون ان يفظنوا الى قصده وهنا اعتلى صهوة حصانه واوصى [كليوپاطر Cleopater] أمر الحامية باليقظة والحذر والحرس على الواجب، ثم اطلق العنان له متجهاً الى سيكيون ومعه ثلاثون جندياً لا غير. تاركاً الباقين يتدبر كل منهم أمره. وبعد قليل ذاع خبر فراره، فأسرع الكورنثيون يجدون في اثره ولكنهم عجزوا عن اللحاق به. فبادروا الى استدعاء [كليومينس] ودفعوا اليه بمدينتهم. وقال [كليومينس] لهم ان أعظم غنيمة كان بإمكانهم الفوز بها، هي [اراتوس] الذي تركوه ينجو بجلده وتقاطر اهالي (اكنتي)<sup>(١)</sup> لموازية ووضعوا مدنهم تحت تصرفه، فباشر ببناء الأطم وخطوط من المتاريس حول قلعة كورنث.

على ان [اراتوس] يبلغ [سيكيون] بسلام فاجتمع حوله الأخائيون كافةً وصوتوا على انتخابه جنراً مطلق الصلاحية. فبادر الى حماية نفسه بحرس شخصي من مواطنيه.

ها قد مرّ على [اراتوس] ثلاثة وثلاثون عاماً وهو يعمل في الحياة العامة مع الأخائيين زعيماً اوحد لا ينازعه احد في سلطانه، ولا في الثقة التي وضعت فيه. تراه الآن وحيداً منبوذاً من الجميع، لاحول له ولا طول، تتقاذفه الأهواء وتحقق به الأخطار في سفينة بلاده النخرة المتكسرة. رفض الايتوليون معاونته في وقت الضيق عندما اتجه اليهم والآثينيون الذين احبوه واحترموه حيل بينهم وبين مساعدته بتدخل [يوقليدس وميكيون Micion] اللذين امتنعا عن تعزيز قواته. الا ان [كليومينس] ابي مصادرة ما كان يملكه من عقار وملك في كورنث. ولم يدع احداً يمد يده اليه بل استقدم اصداقاه ووكلاءه وطلب منهم ان يأخذوا على أنفسهم مسؤولية الاشراف على امواله وان يقدموا له حساباً عنها. وارسل اليه في السرّ زوج امه [فيغوستونس] و [تريپيلوس Tripylus] فعرضاً عليه الكثير، ومنه مكافأة تقاعدية سنوية

(١) Acte: هو الاسم القديم لآتيكا. وتعنى بالاغريقية «ارض الساحل».

قدرها اثنا عشر تالنتاً اي ضعف ما عرض عليه [پزليموس] لقاء سعيه له بانتخابه قائداً للأخائيين وان يشارك في السيطرة على قلعة كورنث. فكان جواب [اراتوس] ان الظروف ليست خاضعة لسلطانه، وانما هو الذي يخضع لسلطانها. وعدّ [كليومينس] هذا الردّ مراوغة وتهرباً فغزا اراضي [سيكيون] ودمرها تدميراً بالسيف والنار، ثم القى الحصار على المدينة طوال ثلاثة أشهر، صمد لها [اراتوس] بعزم لا يلين، ونفسه تنازعه في دعوة [انتيغونس] لنجدته لقاء تنازله له عن قلعة كورنث، فهو الشرط الوحيد الذي يقبله هذا الملك.

واجتمع الأخائيون في [ايغيوم] وطلبوا حضور [اراتوس] وكان وصوله محفوفاً بأعظم الخطر، فقد ضرب [كليومينس] معسكره امام [سيكيون] تماماً ولا بد من اختراقه لبلوغ المدينة والحّ عليه السيكيونيون ان يبقى حيث هو قائلاً انهم لن يسمحوا له بتعريض نفسه للخطر الاكيد والعدو مستريص بع على الأبواب والمداخل والتفت النسوة والاطفال حوله يتباكون ويتشبهون به كأبٍ ونصير، فطمأنهم وشجعهم على قدر ما امكنه واعتلى ظهر جواده مع عشرة من اصداقائه وابنه الذي كان وقتذاك فتىً يافعاً. اتجه الى الساحل فوجد سفناً راسيةً على مبعده من اليابسة فصعد اليها واجر متجهاً نحو [ايغيوم] لحضور الاجتماع. وتقرر هناك طلب معونة [انتيغونس] وتسليم قلعة كورنث له مقابل ذلك وارسل [اراتوس] ابنه وآخرين ليكونوا رهائن لدى الملك المقدوني. فثارت ثائرة الكورنثيين عليه حتى انهم نهبوا ممتلكاته وصادروا عقاره، وقدموا منزله هديةً لـ [كليومينس].

وكملت استعدادات جيش [انتيغونس] ويات متأهباً للقتال وكانت عدته عشرين الفاً من الرجاله والفاً وثلاثمائة فارس مقدوني. فخرج [اراتوس] واعضاء المجلس الى عرض البحر لاستقباله، فبلغ بيكي Pegæ دون ان يعلم به العدو. ولم يكن كبير الثقة بانتيغونس والمقدونيين وكان يدرك ان مجد هذا الملك قد بني على حساب الخسائر التي اوقعها بهم، كما لم يكن ناسياً ان شهرته السياسية الأولى بنيت على خصومته السابقة لانتيغونس. ولكن للظروف احكاماً، والحاجة القصوى، وتصلب رأس وسيد كل من نسميهم حكاماً جعله يغامر بكل شيء.

لما انبىء [انتيغونس] بقدوم [اراتوس] وصحبه، خرج لاستقبالهم ونحيبتهم بصورة اعتيادية، الا انه خصّ [اراتوس] بالتكريم من البداية، فقد وجده راجح العقل اهلاً للثقة. فقربه واجعله من جملة اخصّ عشرائه. وقد جمع [اراتوس] الى اصالة الرأي وجيد المشورة في المسائل العامة، طيب المعاشرة وحسن المجلس في اللقاءات الخاصة ومناسبات الأتس واللهو. وما ادرك الفتى انتيغونس هذه الخصال فيه وموافقها لمشاركه الملكية حتى القى اليه بثقله

واعتمده في أمور المقدونيين فضلاً عن أمور الاخائيين وبهذا تحققت نبوءة الآله فيه بما كشف له في احدى قرايينه في الماضي. فقد روي انه كان قد ضحى من زمن بعيد فوجدوا في كبد الأضحية كيسيين من الصفراء يغلفهما غشاء ذهني واحد ففسر هذه الظاهرة كاهن بقوله ان صداقة متينة العرى ستشدد ما بينه وبين الد أعدائه عما قريب، فأستخف بالتفسير ولم يأبه به لأنه كان قليل الأيمان بكلام المشعبذين والعرافين كبير الاعتماد على منطقته وتحليله العقلي للأمر.

بعد ان حالفهما التوفيق في الحروب التي خاضها، واصبحت الأمور على ما يرام أقام [انتيفغوس] مزديبة عظيمة في [كورنث] دعا اليها عدداً كبيراً من الضيوف ووضع مجلس [اراتوس] الى جانبه مباشرة ثم انه شعر بقشعريرة فطلب غطاءً وسأله الايشعر هو أيضاً بالبرد فقال [اراتوس]:

- أجل فالدنيا باردة جداً.

فأشار عليه [انتيفغوس] بان يقرب منه مقعده ولما اقبل الخدم بالغطاء القوه عليهما معاً، وعندها تذكر [اراتوس] الاضحية وقول العراف فأنشأ يضحك واخبر الملك بالقصة. على ان هذا حدث بعد مرور زمن طويل مما نحن فيه. وهكذا تبادل الملك و[اراتوس] عهد الاخلاص في [بيغي] وزحفاً على العدو واشتبكا معه في عدة وقعات عند مشارف المدينة. وكانت مواقع [كليومينس] منيعة والكورنثيون يدافعون عن مدينتهم دفاعاً جيداً وفعالاً. وفي ذلك الوقت ارسل اليه صديقه ارسطوطيليس [Aristoteles] الأرغوسي يخبره سراً بان سيجمل ابنا مدينته الارغوسيين على الثورة ان قدم اليها شخصياً مع وجدة عسكرية، فأطلع انتيفغوس على ذلك واخذ معه الفأ وخمسائة رجل وابحر في زوارق سارت به على محاذاة الساحل في الوغاز حتى [ايبداورس] [Epidaurus] الا ان الأرغوس لم يصبروا حتى وصوله وهبوا ثائرين بصورة مفاجئة وانقضوا على جنود [كليومينس] فلاذ هؤلاء بالقلعة. وعلم [كليومينس] بما حصل وخشي ان يقطع عليه خط الرجعة باستيلاء خصمه على [ارغوس] فترك قلعة [كورنث] واسرع ليلاً لتجدة رجاله هناك. وسبق [اراتوس] في الوصول وقضى على الفتنة. ووصل اراتوس برجاله، ثم ما لبث ان زحف [انتيفغوس] بجيشه، فأنسحب [كليومينس] الى [مانثينيا]. وهنا عادت كل المدن الى حظيرة الحلف الأخائي واحتل [انتيفغوس] قلعة كورنث، وانتخب اهل ارغوس [اراتوس] جنرالاً، وحملهم على ان يقدموا كل يملكه الطغاة والخونة هدية لانتيفغوس.

وأما عن [ارسطوماخوس] الطاغية، فقد شد على المخلعة وعذب، ثم اغرق في البحر قرب

مدينة [كنجزي]. وكان هذا العمل البربري سبباً في توجيه اشد الانتقاد [اراتوس] لأنه وافق على قتل انسان بدون وجه حق، قتل رجلاً خلافاً لاحكام القانون - كان صديقاً حميماً له. ولم يعرف عنه الا الطيب وكرم الأخلاق. نزل بمساعي [اراتوس] نفسها عن سلطاته الاستبدادية بملء اختياره عليه. فقالوا انه تنازل عن كورنث [لانتيفغوس] بأسهل مما تنازل عن قرية مقدونية في [اورخومينس] بعد ان حاصروها هم وفتحوها. واتهموه بانهم حملهم على اصدار قرار يحرم عليهم الاتصال باي ملك او مكاتبته الا بموافقة انتيفغوس. وانه ارغمهم على تقديم مواد الاعاشة للجنود المقدونيين وصرف اجورهم. وانه اضطرهم الي اقامة القرايين وتنظيم المواكب والألعاب تكريماً لانتيفغوس وان مواطنيه سبقوا الى استقبال هذا الملك ودعوه الى النزول ضيفاً في منزل [اراتوس] فاختموا سنة كريمة وارغموهم على تكرارها. كل هذه عدت اخطاء ارتكبها [اراتوس] شخصياً؛ وكأنهم غفلوا عن الحقيقة المعروفة وهي انه من العسير كبح جماح سلطة الملك. فما ان وضعت الأجنة في يد [انتيفغوس] حتى انطلق بقوة ذلك السلطان الملكي دون توقف. واصبح السيد المطلق على الحرية التي لاتعود قط مأمونة العواقب عند استعماله لها.

في الواقع كان ثم الكثير مما يقلق بال [اراتوس]. كما ظهر من مسألة التماثيل. فقد اعاد [انتيفغوس] اقامة تماثيل طغاة [ارغوس] وازال تماثيل كل فاتحي قلعة كورنث إلا تماثيل [اراتوس]. ولم يستطع هذا ان يقنعه بخلافه رغم محاولته. وما ألمه ايضاً معاملة الأخائيين للماثيين بعد استيلائه على مدينتهم بمساعدة [انتيفغوس] فقد اعملوا السيف في رقاب ابرز المواطنين وارفعمهم مقاماً. واما الباقيون فبعضهم بيع في سوق النخاسة، وبعضهم كبل بالاغلال وارسل الى مقدونيا ليكون رقيقاً واما لزوجات المقدونيين واولادهم وجمعوا كل الأموال من المدينة المفتوحة فوزعوا ثلثها فيما بينهم ودفعوا بالثلثين الباقيين الى المقدونيين ليتوزعوها فيما بينهم ايضاً. قد يمكن تبرير هذا العمل بمبدء المقابلة بالمثل؛ ولكن اليس من الهمجية ان يقوم اخوان مواطنون من شعب واحد ودم واحد بهذه الأعمال فيما بينهم وهم في فورة من الهياج والجنون؟ ان الضرورة على حد قول [سيمونيوس] تجعل هذا العمل مستطاباً ومغتفراً، اذ لا جناح في ان تتاح للعواطف الحانقة المكروب متنفس لشفاء غليلها. الا ان الدفاع عن سمعة [اراتوس] في الموقف التالي غير ممكن باي وجه من الوجوه. لا من ناحية منطقية ولا بحكم الضرورة، فقد وهب [انتيفغوس] المدينة للارغوسيين بعدما اقدم على تلك الأفعال، فقرر [اراتوس] بعد انتخابه مؤسساً جديداً لها ان يعيد تأهيلها فأصدر بحكم منصبه العسكري مرسوماً يقضي بابطال أطلاق الاسم القديم عليها، وسمّاها [انتيفغونيا] وهو ما



يطلق عليها الآن. ولذلك يمكن القول بأنه كان السبب في طمس معالم الذكرى الغابرة لمانتينيا الجميلة وحملها الى يومنا هذا اسم مدمرها وجزار اهلها.

تحققت هزيمة [كليومينس] التامة في معركة طاحنة بالقرب من [سيلاسيا Sellasia] فترك سپارطة وهرب الى مصر. وبعد ان اظهر [انتيجونس] لاراتوس كل آيات الود والصدقة، بادر الى الانسحاب بجيشه الى [مقدونيا] وهناك اقعه المرض الشديد، فأرسل ابنه [فيليب] الى البيلوپونيس وهو فتى لم يطر شاربه واوصاه بان يعتمد كل الاعتماد على مشورة [اراتوس] وان لا يتعامل مع المدن الا عن طريقه ولا يتصل بالأخائيين الا بوساطته فأستقبله [اراتوس] ومحضه النصيحة واحسن توجيهه وقام على تهذيبه واعاده الى [مقدونيا] وهو يحمل له قدراً كبيراً من الحب والاحترام. وقلبه مفعم بالرغبة والطموح الى القيام بدور نبيل في بلاد الاغريق.

لما قضى [انتيجونس] نحبه، حاول الايتوليون التدخل في شؤون [البيلوپونيس] مستهينين بالأخائيين. لما رأوهم عليه من قلة الحيلة والاعتیاد على الاعتماد على غيرهم للدفاع عنهم والاحتماء بقوة المقدونيين، واستسلامهم الى حياة الكسل والراحة. فاغاروا على اراضي [پاتري Patrae] و[ديمه Dyme] ونهبوها اثناء زحفهم، وغزت جحافلهم مسينه واعملت فيها تخريباً. فبلغ الغضب [باراتوس] اقصاه، ووجد [تيموكزينس] جنرال تلك السنة متردداً يضيع الوقت سدى. لأن مدته كانت توشك على الانتهاء وكان هو سيخلفه، فما كان منه الا واستبق الأجل المقرر بخمسة ايام، لیتمكن من نجدة المسينيين فحبذ الأخائيين الذين كانوا يكرهون الحرب ولا يعرفون كيف يستخدمون السلاح فلحقت به الهزيمة في [كافيي Ca-phyae]. لقد باشر الحرب باندفاع وحماسة فأنتهى بنقيضهما اذ فترت حرارته وادركه الجزع وضیع كثيراً من الفرص المواتية التي كانت ستمكنه من خصومه. وتركهم يسرحون ويمرحون في [البيلوپونيس] ويشيعون الفوضى فيها من اقصاها الى ادناها ويرتكبون كل انواع المحرمات والجرائم. وهكذا اسقط في يد [اراتوس] واضطر الى الاستنجاد بالمقدونيين ثانية، وبهذا دعي [فيليب] وجرراً للتدخل في شؤون اليونان وكان الأمل فيه ان يظهر لطفاً وليناً واستعداداً للعمل وفقما يريدون بسبب حبه وثقته باراتوس.

لكن الملك كان واقعاً آنذاك تحت تأثير [اپلليس Apelles] و[ميغالياس Megaleas] وغيرهما من رجال البلاط الذي اوغروا صدره على [اراتوس] وقضوا على مكانته لديه. فانحاز [فيليب] الى الحزب المناوئ له في أخائياً، وساند مرشحه [اپيراتوس Epiratus] لمنصب الجنرال، فكان بذلك موضع سخرية الأخائيين واحتقارهم، اصف الى هذا ان الأمور لم

تسر معه سيراً طيباً لافتقاره الى معونة [اراتوس]، وسرعان ما ادرك خطأه فصالح [اراتوس] واعتمد عليه اعتماداً مطلقاً، فاستقامت له الأمور، وحسنت احواله وعادت مكانته وسلطته الى سابق عهدها. وبذلك اثبت [اراتوس] انه خير قيم على الحكم الملكي كما كان خير قيم على الحكم الديمقراطي. فقد أخذت أعمال الملك وتصرفاته تنحو منحى عقلية [اراتوس] وطباعه، وتظهر طابعها الأصيل. مثال ذلك معاملته الرقيقة للقيدين، بعد ان اثاروا سخطه وغضبه بتصرفاتهم. والعطف الذي ابداه لأهالي كريت (مما ادى الى خضوع الجزيرة كلها لحكمه في ايام قلائل). وحملته على الايتوليين والنصر الساحق الذي حققه. كل هذا رفع من مكانته وصيته، بفضل مشورة [اراتوس]. وهو ما زاد من حسد اتباع الملك له. وقد وجدوا من المعتذر ان يتغلبوا عليه بحبك الدسائس من خلف الستار. فراحوا يوجهون اليه الإهانات، ويسبئون اليه علناً في مجالس شربهم ومآدبهم، بكل فظاظة وصفاقية. حتى انهم قذفوه مرة بالحجارة عندما خرج بعد العشاء قاصداً خيمته، فاستاء [فيليب] من هذا العمل وفرض على الفاعلين غرامة قدرها عشرون تالنتاً. فلم يكفوا وظلوا يثيرون الفتن ويعرقلون الأمور. فبطش بهم.

الا ان انتصاراته ودوام نجاحه وازدهار احواله أخذ يصيبه بالعجرفة والغرور، فبطر وبدأت الرغبات الجامحة تتفجر في رأسه وتخرج اشطاءها. واندفعت ميوله السيئة فكسرت كل الضوابط المصطنعة التي كانت تقيدها وتحبسها. وما مرّ عليه زمن حتى تبدت طباعه الحقيقية ووضح خلقه الأصيل. وكان اول فعله هو استغلال وجوده ضيفاً في بيت [اراتوس] الأبن، فأغوى امرأته واعتدى على شرفها سراً ولذلك ظل الأمر مستوراً مدة طويلة. ثم ازداد خشونة وتحكماً في معالجة شؤون الاغريق العامة. فمتّ تصرفاته على انه يريد التخلص من رقابة [اراتوس] لينطلق على رسله دون ضابط. وقد تأيد ذلك [اراتوس] في مسألة المسينيين. فقد ثارت الفتنة فيما بينهم وتأخر [اراتوس] قليلاً في السير بالنجدات اليهم، فسبقه فيليب الى المدينة بيوم واحد واخذ يورث نار الشقاق بينهم بدلاً احمادها. اذ سأل زعماء المسينيين الاشراف كلاً على حدة: هل ان قوانينهم تكفل لهم السيطرة على عامة الشعب؟ ثم انفرد بالزعماء الشعبيين وسألهم هل ينوون البقاء مكتوفي الايدي امام مضطهديهم فنفي في الجهتين روح التحدي والعداء، وحاول القواد القاء القبض على زعماء الشعب، فهاجم هؤلاء القواد على رأس الجمهور وقتلوا منهم زهاء مائتين. بعد ان ارتكب [فيليب] هذه الجريمة النكراء راح يعمل جهده لاختضاع المسينيين لمشيئته التامة وفي تلك الاثناء وصل [اراتوس] واظهر سخطه على هذا العمل لفيليب وللمسينيين أيضاً. كما انه اعز الى ابنه بأن يؤنبه ويقرعه. ويبدو انه كان ثم علاقة حب بين هذا الشاب وبين [فيليب] وفي هذه المناسبة كان احد

تعبير اللوم والتأنيب التي وجهها اليه قوله انه ما عاد يبدو في عينه أجمل الرجال بل اقبحهم بعد هذا العمل المنكر. فلم يردّ عليه [فيليب] بكلمة واحدة وان بان عليه الغضب الشديد وبدا وكأنه يهيمّ بالاجابة، وقاطعه عدة مرات بصيحات عالية اثناء ما كان يتكلم. أمّا [اراتوس] الأب فقد ظلّ ساكناً كأن الامر لا يعنيه في شيء. كسياسي مطبوع يمتاز بالمقدرة على كظم الغيظ وضبط النفس. ومدّ اليه يده وسار به الى خارج الملعب وقصداً معاً [الايثوماتس Ithomatas] للتقريب الى چوبتر والقاء نظرة على الموقع اذ كان منيعاً يشبه قلعة كورنث، يتعذر اقتحامه ان عزز بحامية، ويظلّ صامداً لأي هجوم من ايه ناحية. وبعد ان قرب [فيليب] وتسلم احشاء الثور بيده من الكاهن، عرضها على [اراتوس] مرةً وعلى [ديمتريوس الغاري] مرةً وسألها ما الذي يجب عمله بخصوص القلعة حسبما استخلصا من دلائل في الاضحية؟

أ يحتفظ بها أم يعيدها للمسيانيين؟

فضحك [ديمتريوس] واجاب:

- ان كان صدرك يضمّ روح منجم، فأعدها اليهم، وان كان يضم روح ملك فعليك ان تقبض على الثور من قرنيه معاً.

مشيراً الى [الپيلوپونيس] التي ستكون طوع امره ان هو اضاف الى ملكه قلعة [ايثوماتاس] الى جانب قلعة كورنث. وظلّ [اراتوس] صامتاً برهة من الزمن، فالتفت اليه فيليب وسأله عن رأيه فقال:

- هناك جبال عديدة عظيمة في كريت. وفي [بويوسيا وفوكيس] صخور منيعة لاتعدّ. وثم قلاع وحصون مشهورة لاتحصى في داخلية [اكارنانيا] وعلى سواحلها. وكل سكان هذه الأمصار يطيعونك ويدينون بالولاء لك مع انك لم تستول عنوةً على اي موقع من هذه البلاد. ان اللصوص وحدهم يكمنون في الصخور والجرف. وامنع قلعة يحرزها الملك هي الثقة والولاء. فهذان فتحا لك البحر الكريتي، وهذان يجعلانك سيد [الپيلوپونيس] وبمعوتتهما - وانت بعد شاب ستكون قائداً للحصن الاول وسيداً للقلعة الثانية.

كان فيليب قد اعاد الاحشاء الى الكاهن واراتوس مسترسل في حديثه. وبعد هذا جذب يده قائلاً:

- تعال اذن ولنتبع هذا السبيل.

كأنما احسّ بان [اراتوس] ارغمه على التخلي عن المدينة.

ومنذ ذلك الحين اخذ [اراتوس] ينأى عن بلاط [فيليب] ويتهرب بالتدريج من صحبته. ولما تهيأ للزحف على [اپيروس] وطلب منه ان يرافقه اعتذر ولازم منزله خوفاً من ان يناله العار بمشاركته في اعماله. ولما لحقت به الهزيمة الشنعاء مع الرومان وخسر اسطوله، وبالفضل الذريع الذي لاقت خططه، عاد الى [الپيلوپونيس] وحاول مرة أخرى ايقاع الخلاف بين المسيانيين، فلم يفلح، فأعلنها حرباً عليهم وهاجمهم وراح يخرب بلادهم، فوقعت القطيعة التامة بينه وبين [اراتوس] وانكره صديقاً بعد ان اصبح على علم بما لحق ابنه من عار بسبب صلة فيليب بامرأته لقد تألم كثيراً ولكنه أبقى الأمر سرّاً ولم يطلع عليه ابنه اذ لا فائدة في اعلامه بما ناله من ضرّ ان كان عاجزاً عن الثأر لنفسه. يقوم [فيليب] في الواقع مثلاً لأغرب واعظم تحوّل خلقي. فبعد ان كان ملكاً لطيفاً. وشاباً عفواً محتشماً انقلب رجلاً فاسقاً وطاغية من اقصى الطغاة وأكثرهم استبداداً. وهذا في الحقيقة لا يعد انقلاباً، بل انكشافاً لطبع أصيل عند سنوح الفرصة الملائمة للميول الشريرة التي كانت مقيدة بالخوف من الظهور وعمل النفاق على سترها مدة طويلة. ولذلك كان احترامه [لاراتوس] في مبداء الأمر ينطوي على كثير من الخوف والرغبة، وآية ذلك ما فعله به في الأخير. فقد مرّ رأيه على التخلص منه بقتله، اذ كان يشعر بان وجود هذا الرجل يحدّ من حريته وسلطانه. وانه لا يستطيع ان يتصرف تصرف الملوك والطغاة طالما بقي [اراتوس] حياً. الا انه لم يكن يجسراً على الفتك به علناً. ولذلك أمر [توريون Taurion] احد ضباطه المقربين بأن يدس له سمّاً، بغيا به ان امكن. فتقرب [توريون] من [اراتوس] حتى نال ثقته. ودس له سمّاً لا يشبه سموم كما القوية السريعة التأثير، بل من تلك التي تسبب في اول الامرحمى خفيفة، ثم سعالا جافا، ثم تحدث الموت بصورة بطيئة. وما ادرك [اراتوس] ما حل به. وكان من العبث ان يصرح بما حصل، فأثر احتمال الامر بصبر وصمت، وبدا وكأن ما ألمّ به وعكة بسيطة اعتيادية. ولم يبدر منه شيء يدل على ما يكنه قلبه الا مرة واحدة فقد بصق دماً بمحضر من صديق له كان يعودده. فلاحظ الصديق ذلك واستغرب وسأله عما به فقال [اراتوس]:

- هذا يا [كيفالون Cephalon] أجر محبة الملوك.

ووافاه الاجل في [ايغيوم] وهو في منصب الجنرال للمرة السابعة عشرة. ورغب الاخائيون بدفنه هناك وعمل موكب تشييع رسمي له وتخليده بنصب يليق بحياته الحافلة الا ان السيكيونيين احتجوا بشدة معتبرين دفنه في بقعة اخري غير موطنه كارثة وطنية. واقنعوا الاخائيين بأن يسلموه لهم. وكان ثم قانون قديم يمنع دفن اي شخص داخل اسوار مدينة [سيكيون]. كذلك كان هناك ثم نفور قوي لبواعث دينية - من دفن الجثث في المدينة. لذلك

ارسلوا وفداً الى دلفي ليستخيروا الكاهنة البيثينية Pythoness فأجابتهم بما يلي:

سيكيون التي كثيرا ما انقذها

تقول «اين ستثوي رفاة اراتوس؟»

ان التربة التي لاتستقر عليه بلطف

والتربة التي تشعر تحته بضيق

ستكون ملعونة في الارض والبحر والسماء

ولما عاد الرسل بهذه النبوءة سرّ الاخائيون بها كثيراً الا ان سرور السيكيونيين كان اعظم. فقد نزعوا الحداد ونبذوا مظاهره، وبدوا وكأنهم في عيد وفرح عام واسرعوا بنقل الجثمان من [ايغيوم] الى المدينة بما يشبه الموكب الديني وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وانتظموا صفوفاً بشبابهم الناصعة البياض. وساروا بالغناء والرقص حتى بلغوا به موضعاً رحباً اختاروه ليكون مشوى اخيراً لمؤسس مدينتهم ومنقذها. وظل الموقع الى يومنا هذا يعرف بالاراتيوم نسبة الى اسمه. واليه كانوا يتقدمون سنوياً بقربانين اولهما في يوم ذكرى انقاذه المدينة من حكم الطاغية، ويتفق مع الخامس من شهر [ديسيوس Daesius] الذي يسميه الاثينيون [آنتستريون Anthesterion] ويطلقون على هذا القربان اسم [سوتيريا Soteria]. اما المناسبة الثانية ففي يوم ميلاده. ومازال هذان القربانان عالقين بالاذهان. ويقوم براسيم اولهما كاهن [جويتير سوتر] ويقوم براسيم ثانيهما كاهن [اراتوس] بعد ان يحيط جبينه بعصابة بيضاء مشوبة باللون الارجواني. وتنشد الترانيم على نغم القيثارة، ينشدوا مغنو الاعياد الباخوسية. ويقود الموكب رئيس الالعاب ويسير وراءه الصبيان ثم الشباب ثم المستشارون وهم يتقلدون عقود الزهر، ويلحق بالركب سائر المواطنين وعامتهم. وقد دخلت مظاهر قليلة من هذه المراسيم في الطقوس الدينية وعدت جزءاً لا يتجزأ منه الآن ولا يمكن اغفالها او الاستغناء عنها في الايام المخصصة. الا ان القسم الرئيس منها بطل استعماله بتقادم الزمن وغير ذلك من الطوارئ.

ذلكم هو حديث التاريخ عن حياة وافعال [اراتوس] الاب. اما عن [اراتوس] الابن فقد عمد [فيليب] الشرير اللثيم بطبعه، المتطرف في استخدام سلطته، الى دسّ عقار سام له، لم يقتله بل افقده الرشد، فراح يقوم باعمال غريبة لاثمت الى العقل بصله، ويشبع رغبات مخجلة وبيته في بيداؤ النزوات. ومات وهو في عنفوان شبابه. وكان موته نعمة ونهاية لشقائه اكثر منه مصيبة له ولأهله. على ان فيليب دفع ثمناً غالياً لغدره باصدقائه طول حياته، فبعد ان

قهره الرومان اضطر الى وضع نفسه تحت حمايتهم فجردوه من كل ممتلكاته وصادروا سفنه كلها عدا خمساً منها. وفرضوا عليه غرامة قدرها الف تالنت، وتسليم ابنه رهينةً. وتعطفوا عليه فسمحوا له بحكم [مقدونيا] وملحقاتها. فواصل قتل انبل رعيتته والفتك بذوي قرياه فملاً المملكة ارهاباً وشرأ حتى مقتته الناس. ولم يبتسم له الحظ بعد كل ما حل به من محن وكوارث إلا في حالة واحدة، وهو انه اعقب ابناً عظيم المناقب رفيع الاخلاق. لكنه حقد عليه حسداً وغيرةً لما نال من الرومان من التكريم والتشريف فأمر بقتله. وترك مملكته لـ[برسيوس] ابنه من الحياطة [غناثينيون Gnathenion] وهو الذي قاده [پاولوس اميلIOS] اسيراً في موكب نصره. وبه كانت نهاية سلالة [انتيجونس] الملكية. في حين ان نسل [اراتوس] ظل حتى يومنا هذا متواجداً في كل من [سيكيون] و[پليني].

١٩٧٢/٣/٣

آرکسترا

**ARTAXERXES**

465\_424

## الاقاليم الساحلية.

ومرّ الزمن على وفاة [داريوش] وحل موعد رحلة [ارتخششتا] الى [پاسارگادي -Pasar-gadae] ليقوم كهنة الفرس باتمام مراسيم تنصيبه. كان ثم هيكلاً لربة محاربة يمكن تشبيهها بـ[مينرفا]، تحتم التقاليد على الامير الملكي الذي سيتوج ملكاً ان يمر به بعد ان يخلع حلته الملوكية ويلبس الرداء الذي كان [كورش] الاول يرتديه قبل ان ينصب ملكاً. ويقضي العرف ايضاً ان يأكل سلّة من التين، وعصير شجر الصنوبر [ترپنتين Turpentine]، ثم يشرب كأساً من اللبن الرائب. هذا كل ما عرف عن المراسيم المتبعة، ولا احد يدري ان كان هناك المزيد الا من يحضرها. وكان [ارتخششتا] يوشك على اقتبال تلك الطقوس حين اقبل عليه [تيسافرانس] مع احد الكهنة الذين علموا كورش في شبابه ولقنوه الآداب الفارسية والنظم المتبعة والفلسفة المجوسية. ولذلك كان متوقفاً منه ان لايسر ان ارتقى العرش شخص آخر غير تلميذه، فصدقه في اسناد اي تهمة لكورش ليس محل شك والحالة هذه. ذكر هذا الكاهن لارتخششتا، ان [كورش] كامن له داخل المعبد وانه سيثب عليه ويغتاله وقتما ينزع ثيابه. ويؤكد بعض الكتاب ان كورش قبض عليه بعد الاتهام مباشرة، بينما يزعم آخرون انه دخل المعبد وعثر عليه مترصداً بالقرب من الكاهن. فهرعت اليه امه قبل ان ينفذ فيه حكم الموت وشبكته بذراعيها وشدته اليها بجذائل شعرها والصقت عنقه بعنقها. وهكذا نُجحت في انقاذ حياته بتوسلاتها وضراعتها الحارة، فعفا عنه وبعث به الى مركزه السابق، فسافر وهو حاقداً ولم يذكر نجاته من الموت قدر ما كان يذكر القبض عليه. ان حقه هذا جعله اكثر تحرقاً وتطلعاً الى العرش.

قيل انه اعلن العصيان على اخيه لانه لم يسمح له بنفقات كافية لطعامه اليومي. ان هذا التعليل سخيف من اساسه. إذ لو سلمنا جدلاً بأن [ارتخششتا] كذا ممسكاً لايصرف له ما يكفيه فان امه كانت كفيلة بكل ما يحتاجه من اموالها الخاصة. على ان الالوف المؤلفة من الرجال الذين كان يجندهم وينفق عليهم [كما يذكر لنا كزبنفون] هو دليل كاف على غناه. لم يكن [كورش] يجمع قواته في صعيد واحد. وانما يوزعهم في ثكنات عديدة لانه اراد ان يخفي نواياه. وبث وكلاءه في كل الاقاليم لتجنيد المرتزقة الاجانب متذرعاً بمزاعم شتى. وكانت امه [پاريساتس] التي تعيش مع اخيه الملك - تسعى في الوقت ذاته لتبديد كل شك يساور الملك بخصوصه، كذلك حرص [كورش] على ان تكون رسائله اليه حافلة بعبارات الولاء والاخلاص وكان احياناً يطلب إنعاماً. واحياناً كان يبادل [تيسافرانس] الاتهام كأن حسده وغيرته مركزان في هذا الشخص فحسب. زد على هذا طول الأناة الذي يمتاز به طبع

امتاز ارتخششتا الاول على جميع ملوك الفرس باللطف ونبل النفس. ولقب بذى اليد الطويلة لأن يمناه كانت اطول من يسراه. وهو ابن (احشويرش Xerxes). اما ارتخششتا الثاني الذي اقص سيرته الآن، والمعروف «بالحسن الذاكرة» فهو حفيد ارتخششتا الاول، من بنته (پاريساتس Parysatis) التي انجبت لداريوش اربعة ابناء بكرهم ارتخششتا ثانيهم (كورش) وثالثهم (اوستانس Ostanes) ورابعهم (اوكستاترس Oxtathres). وسمي بكورش تيمناً بكورش الاول الذي اشتق اسمه على ما يقال من الشمس واسمها باللغة الفارسية (كورش). وكان اسم ارتخششتا بالاول [ارسيكاس Arsicas]. ويقول [دينون Di-non]، بل كان يدعي [اورسيسيس Oorses]. ولكن ليس من المحتمل ان ينسى [قطسيساس Ctisias] اسم الملك الذي عاش معه كطبيب خاص في بلاطه له ولزوجه وامه واولاده (وان كان قد حشا كتبه بخليط متنافر من الاساطير الخرافية التي لايرضى بها العقل السليم ولا تستقيم مع المنطق).

اظهر الابن الثاني كورش، منذ حادثته صلابة، وروحاً وثابة، يعكس ارتخششتا الذي كان الين منه جانباً واروق روحاً في كل شيء. تزوج بنتاً جميلة فاضلة نزولاً عند رغبة ابويه. وابقاها في ذمته ضد رغبتهم ايضاً! فقد قتل [داريوس] الملك، اخاها وهم يقتلها كذلك. الا ان زوجها ارتخششتا القى بنفسه على قدمي امه باكياً متشفعاً واقنعها بعد لايء بان ان يعدل عن قتلها وعن فكرة فصلها عنه. على ان [كورش] كان الابن الاثير المدلل عند امه. ولذا كانت تفضله على سائر اخوته في تولى العرش بعد ابيه. فلما حضرت الوفاة زوجها استدعته من الساحل فأسرع الى البلاط ينهب الارض نهياً وكله امل بتوليته العرش بمساعيها. وكانت لدى [پاريساتس] حجة قوية لتعزيز ادعائه بالعرش، استخدمها [احشويرش] في ما مضى لنفسه بناء على نصيحة [ديماراتوس]. والحجة ان [پاريساتس] انجبت له بكره [ارتخششتا] : ارسيكاس] عندما كان زوجها مواطناً عادياً، في حين انها انجبت له [كورش] عندما كان ملكاً. الا انها لم تفلح في مساعيها مع [داريوش] واعلن بكره ملكاً فاتخذ له اسم [ارتخششتا] بدلاً من اسمه الاول. وظل [كورش] ساتراً على [ليديا] وقائداً لجيوش

الملك، مما كان يتوهمه الكثيرون رحمةً وتسامحاً. وهو في الواقع كان يبدو في بدء ملكه، شبيهاً بارتخششتا الاول في رفته ولطفه وانفتاحه على الناس وكرمه الشديد في عطائه وهباته. ولم يكن يلحظ في عقوباته اثر للتشفي او لذة انتقام وكان سرور من يقدم له هدية يفوق سرور اولئك الذين يتقبلون هداياه لكياسته ورقة اسلوبه في تقديمها. ولم يؤثر عنه انه تلقى هدية مهما صغرت قيمتها الا وتقبلها بحفاوة ولطف. ولنا مثل من ذلك الرجل [اومسيس] الذي قدم له رمانة كبيرة الجرم فقال المهدي له:

- قسماً مبيثراً، لو وضع في رعاية هذا الرجل بلدة صغيرة، لجعلها مدينة عظيمة.

ومرة كان في جولة تفقدية في انحاء المملكة والناس يتبارون في تقديم الهدايا له. ووجد بعض الشغيلة الفقراء انه لا يملك ما يقدمه له. فهرع الى ضفة النهر واعترف بكفيه ماءً وقدمه له، فسراً ارتخششتا بذلك سروراً عظيماً وارسل اليه قدحاً ذهبياً والف داريي [darie]. وكان [اقليدس] اللقيديمي يذبح عنه بعض التعليقات السليطة الصريحة فأرسل اليه احد قواده ليبلغه بالآتي:

- انك مأذون بقول ما تريد لي. ولكن تذكر بأن لي ان اقول واعمل ما اريده لك.

وكان مرة في رحلة قنص فتقدم منه [تريبازوس Teribazus] و اشار بأن رداءه الملكي قد تمزق. فسأله الملك عما يرى عمله في هذا الشأن فقال [تريبازوس]:

- إن سرك فلتستبدل بهذا الثوب آخر وتمنحه لي.

فعمل الملك بما قاله وعقب:

- اني اهبك الثوب ياتريبازوس. ولكنني اطلب منك الأ تلبسه.

الا ان تريبازوس لم يعياً بهذا التنبيه، ولم يكن رجل سوء الا انه كان قليل التبصر خفيف العقل. فما ان وجد الحلة الممزقة بين يديه حتى سارع في ارتدائها وزاد عليها زينة الملك من القلائد والعقود الذهبية والحلي النسائية فذهل الجميع لأن العمل مما يخالف العرف والتقاليد. الا ان الملك ضحك وقال:

- اذنت لك ان تتزين بالحلي بوصفك امرأة. واذنت لك بارتداء الثوب الملكي بوصفك مهرجاً.

وكان التقليد لا يسمح بجلوس احد على مائدة طعامه غير امه وزوجته الشرعية. وكانت الاولى ترتفع عنه في مجلسها اما الثانية فتليه. الا انه خرق العادة بدعوة أخيه [اوكساتريس داوستانس]. وكان احب منظر عند الفرس هو عرية امرأته [ستايزا] فقد كانت ترفع سجفها دائماً لتسمح للمواطنين بالسلام عليها والاقتراب منها، وهذا ما اكسبها محبة الناس.

على ان المشاغبين والمتصيدين الذين لا صبر لهم على الاستقرار ولاهم لهم الا إثارة الفتق اخذوا يصرحون بأن الزمن بحاجة الى رجل مثل [كورش] لانه رجل مقدم ومقاتل ممتاز، يحب اصداقاه ويخلص لهم. وان سعة رقعة الامبراطورية تتطلب حتماً اميراً مغامراً جريئاً. ولم يكن اعتماد [كورش] قاصراً على اتباعه في الاقاليم التي يحكمها دائماً كان يعتمد أيضاً على كثير من المواليين له في البلاد الشمالية القريبة من قاعدة الملك. ولذلك اعلن الحرب عليه، وكتب الى اللقيديمين يطلب منهم العون والرجال مؤكداً لهم انه سيعطي الرجل منهم حصاناً، والخيال منهم عربة. ومن ملك حقلاً فسيعطيه قرية، ومن كان صاحب قرية فسيؤمره على مدينة. ومن تطوع في جيشه فسيُدفع له اجره بالوزن لا بالعدد. وتكال [كورش] المديح لنفسه بلا حساب. فقالوا انه اشجع واكثر اقداماً واكثر وقوفاً على الفلسفة من اخيه، واعمق اطلاعاً في الدين المجوسي وان بوسعه ان يشرب ويتحمل مقداراً من الخمر اكثر مما يتحملة اخوه. واكد [كورش] ان اخاه بلغ حداً كبيراً من الجبن وان ليس فيه الكثير من الرجولة ولا يستطيع الجلوس على صهوة جواده في رحلة صيد، ولا على عرشه في ساعة الخطر.

بعد ان تلي كتاب [كورش] هذا على اللقيديمين. ارسلوا [القضيب] الى [كليارخوس] يأمرونه باطاعة اوامر [كورش] في كل شيء. وعلى الاثر زحف بجموعه الكثيفة من البرابرة لقتال اخيه. الا ان مرتزقة الاغريق لم يكونوا يزيدون عن ثلاثة عشر الفاً. واخفي عنهم السبب الحقيقي للحملة فكان يزعم مرة سبباً. ثم يزعم مرة سبباً آخر، الا ان الغرض الاصيلي ما عتم ان انكشف واسرع [تيسافرنس] الى الملك ليطلعه على الامر شخصياً. فهاج البلاط وماج وانصب اللوم كله على ام الملك وحام الشك حول بطانتها ووجهت اليهم اصابع الاتهام وكانت [ستايترا] اكثرهم حزناً واشدهم عتاباً ولوماً لام الملك فراحت تذكرها بتعهداتها وبتوسلاتها التي استخدمتها لانقاذ المتأمر على حياة اخيه «...كي يقذف بنا في أتون حرب ويشير المتعاب لأخيه». فزاد بغض الام [ستايترا]، وكانت حقوداً لا يعرف قلبها معنى الصفع في سورة غضبها ومجال نقيمتها. فبدأت تداعب فكرة القضاء على حياتها. وبما ان [دينون] يقول انها نفذت فعلتها هذه اثناء الحرب، وان [قطسياس] يقول ان ذلك تم بعد ان وضعت الحرب اوزارها، فسأمسك الآن عن سرد الحكاية وارجئها الى حين عملاً بزعم ثانيهما اذ ليس من المعقول ان يجهل التاريخ وكان موجوداً بشخصه هناك، وليس ثم من سبب يدفعه الى تحوير تاريخ الحادثة عمداً عند ايرادها. وان كان يحيد احياناً عن الحقائق ويسرح في اجواء الخيال.

كانت الانباء والاشاعات تهبط على [كورش] وهو يتقدم بجيشه حثيثاً، مصورة له حيرة الملك وعكوفه عن دراسة الموقف. وعدم توفر نية القتال الفوري لديه، بل الانتظار في عقر

داره حتى تتجمع قواته من كل ارجاء مملكته.

كان الملك قد حفر في السهل، خندقاً عظيماً عرضه ستون قدماً وطوله لا يقل عن ثمانين ميلاً. ومع هذا فقد ترك [كورش] يجتازه دون ان يحرك ساكناً. ولم يعترض سبيله الى مدينة بابل. ويروى ان [تريبازوس] كان اول من وجد في نفسه الجرأة ليذكر الملك بواجبه في القتال، والمحافظه على ميديا وبابل وسوسة. ووضح له محاذير بقائه مختفياً في [پرسيس] في حين يبلغ جيشه اضعاف اضعاف ما لدى خصمه وان عدداً لا يحصى من الحكام والقادة الذين يفضلون [كورش] في مجال السياسة والحرب، طوع امره. فقرر الملك القتال وخرج على رأس تسعمائة الف مقاتل مدرب، فذبّ الرعب في قلوب العدو، وفوجيء وكان يزحف بثقة نفس واستهانة ومن دون نظام واسلحته في وضع لا تمكنه من استخدامها حالاً، حتى ان [كورش] عجز عن تنظيم صفوفهم في نسق المعركة بسبب الفوضى والضجيج. وكان جيش الملك يسير بصمت وهدوء وانتظام تام جعل الوحدات اليونانية تقف مشدوهة لحسن الضبط. فقد كانوا يتوقعون الجلبة والهرجلة والفوضى والفجوات الكبيرة بين السرايا والوحدات في مثل هذه الحشود الضخمة من الجنود. ووضع الملك الصفوة المختارة من عجالاتها امام فلانكسه الخاص المواجه للوحدات الاغريقية حتى يخترق صفوفهم بهجوم عنيف صاعق قبل ان يطبقوا عليه من الجانبين.

لقد تناول كثير من المؤرخين هذه المعركة بالوصف. ومنهم [كزينفون] الذي ابدع واجاد حتى انه حملنا على الاعتقاد باننا نراها بأعيننا، لا كأنها حدث من احداث الماضي. ولقد كان من الدقة في ايراد التفاصيل ان قارئه لا يسعه الا ان يشعر وكأنه يشارك في مراحل المعركة فعلاً ويكابد احوالها بكل ما في ذلك من العواطف. لذلك كان من السخف ان احاول عرض وصف اوسع واكثر شمولاً وسأعمد الى ذكر كل ما يستحق التسجيل مما اغفله.

يطلق على اسم الموقع الذي التحم فيه الجيشان اسم [كوناكسا Cunaxa] ويبعد زهاد خمسمائة فرلنگ عن مدينة بابل. قبل بدء المعركة طلب [كليارخوس] من [كورش] ان يبقى في المؤخرة لئلا يعرض نفسه للخطر. وقيل ان جواب [كورش] كان كالآتي:

- ما هذا الذي تقترحه يا كليارخوس؟ اتريد مني انا الذي اطعم بالامبراطورية ان أعد غير جدير بها؟

واذا كان [كورش] قد ارتكب خطأ فاحشاً في اندفاعه الى قلب الخطر دون ان يقيم لسلامته وزنا، فإن خطأ [كليارخوس] لا يقل عنه ان لم يكن اشدح - عندما رفض توجيه الوحدات

الاغريقية الى القسم الرئيس من الجيش العدو حيث موقع الملك. فقد اسند ميمنته الى النهر خوفاً من حركة التفاف. وكان الاجدر به البقاء في موطنه وعدم الخروج للحرب، ان كان يريد لنفسه السلامة بالدرجة الاولى او ان ينام بهدوء وامان! وها هوذا بعد ان قطع مسافة عشرة آلاف فرلنگ من الساحل؛ مختاراً غير مجبر بقواته الشاكية السلاح لوضع [كورش] على العرش، تراه يعمل الفكر لانتقاء مواقع تساعد على دخول المعركة باطمئنان وراحة، لا على حماية من اجره للدفاع عنه والحالة هذه اشبهه بذلك الذي دفعه الخوف من الخطر الحالي الى التخلي عن الهدف الحالي من القتال؛ فخان واجبه وضيع الغرض من حملته. لقد اتضح من اولى صفحات المعركة ان الوحدات التي التفت حول الملك كانت عاجزة عن صد هجوم اغريقي كاسح ولو فعلت تلك الوحدات ذلك لانهزم ارتحششتا او قتل وكتب النصر [لكورش]. فضلاً عن نجاة من الموت وظفره بالعرش.

ان حذر [كليارخوس] الذي اسفر عن خيبة [كورش] ثم هلاكه كان ادعى الى اللوم والنقد من تهور [كورش] واندفاعه. ولم يكن الملك نفسه ليختار او يتمنى موقعاً للاغريق يهاجمهم فيه باقل ما يمكن من المجازفة كذلك الموقع الذي اختاروه هم بعيداً عنه وعن مقاتليه، لقد كر الملك عليهم ولم يعلم باندحاره امامهم. وكذلك لم يعلم [كورش] بالنصر الذي ناله [كليارخوس] ولذلك لم يستفد منه ومات وهو يجهل الامر. وكان [كورش] يدرك جيداً ما يجب عمله فأمر [كليارخوس] ان يأخذ هو ورجاله موضع القلب. فأجابته [كليارخوس] انه لن يقوم الا بأفضل شيء فأتلف بذلك كل شيء.

تمكن الاغريق من دحر البرابرة وهم جاثمون في مواضعهم حتى اثنخوا فيهم قتلاً وطاردهم بنجاح الى مسافة بعيدة. وكان [كورش] ممتطياً جواداً من الاصائل الا انه جامع لا يسلس قياده اسمه على قول قطسياس - [پاسكاس]، فتوجه اليه [ارطاكيرسيس Artageres] قائد [القادوسيين Cadusians] وهو يعدو هذبا وصاح به:

- يا أظلم الناس واكثرهم حمقاً يا عار الاسم الشريف [كورش]، أجتئت الى هنا تقود شرّ الاغريق في شرّ حملة، تسلب نفائس الفرس؛ معتزماً قتل سيدك واخيك، سيد عشرة آلاف عشرة آلاف خادم كلهم افضل منك؟ انك ستفقد رأسك هنا قبل ان يتسنى لك ان تصيب لمحة من وجه الملك.

قال هذا وسدد اليه طعنة رمح الا ان زرده القوي رداً الطعنة فلم يصبه. ولكن شدة الطعنة جعلته يرتد الى الخلف. وعندما الوى [ارطاكيرسيس] عنان فرسه قذفه [كورش] بحرية فغاب نصلها في عنقه باعلى لوح الكتف. واتفق الجميع ان مقتل [ارطاكيرسيس] كان على يد

كورش. واما عن مصرعه هو نفسه، فلما كان [كزينفون] قد خصه بعبارات قليلة لاتفي الموضوع حقه فمن المناسب ان نورد هنا ما قاله كل من [دينون] و[قطسياس].

يؤكد [دينون] ان [كورش] كرّ على حرس ارتخششتا كرة عنيفة بعد قتله [ارطاكيرسيس] فجرح حصان الملك، وارغم على الرحيل وهنا اسرع [تيريپازوس] يرفعه على سرج حصان آخر وهو يقول له:

- اذكر ايها الملك هذا اليوم فهو ليس باليوم الذي يمكن ان ينسى.

وهمز [كورش] جواده وحمل على [ارتخششتا] فاسقطه ارضاً. فعصف الغضب بالملك عند الهجمة الثالثة وصاح ان الموت لاجدر به من هذا وحمل على [كورش] الذي كان يندفع بعنف وجنون بوجه السلاح الموجه اليه كالاغمى، فطعنه الملك برمحه وتوالت عليه الطعنات فخرّ صريعاً بيد الملك كما يقول فريق، ويبد جندي من [كاريا Caria] كما يدعي الآخرون - الذين يزيدون قائلين بأن الملك كان قد كافأه على هذا بمنحه امتياز رفع ديك ذهبي على رمحه والسير به امام الصف الاول من الجيش في كل حملة. وسبب ذلك ان الفرس يلقبون رجال [كاريا] بالديكة لانهم يزينون خوداتهم بالريش.

ودونك الآن رواية قطسياس بعد اختصارها وحذف بعض التفاصيل:

بعد ان خرّ [ارطاكيرسيس] صريعاً بيد [كورش] ادار جواده نحو الملك، وفعل هذا فعله واطبق احدهما على الآخر دون ان يتبادلا كلمة واحدة. الا ان [اريئوس Ariaews] تابع [كورش] فوقّ رمحا نحو الملك فأخطأه، فخذف الملك اخاه برمح فلم يصيبه بل اصاب [ساتيفرنس Satiphernes] وهو انسان نبيل ومخلص لكورش - فصرعه. وسدد [كورش] الى الملك فاخترق سنانه درعه ونفذ في صدره مقدار عقدتين، فهوى الملك على الارض لشدة الضربة. فتبدد شمل من كان يحف به وتفرقوا. ولكنه قام من سقطته وبقلة من رجاله [ومن بينهم قطسياس] شق طريقه الى نشز من الارض غير بعيد فجلس هناك ليصيب بعض الراحة. اما [كورش] الذي كان في قلب جيش العدو فقد جمع به حصانه وجرى به مسافة بعيدة ولم ينجح في كبجه. وانتشر الظلام ولم يعد من السهولة ان يتعرف عليه، كما ان اتباعه تعبوا في البحث عنه، واسكره النصر وملاؤه ثقة بنفسه فاندفع بين جنود الملك وهو يردد بالفارسية باعلى صوته:

- افسحو السبيل ايها الاوغاد، افسحوا.

فانشقت صفوفهم له والقوا بانفسهم تحت قدميه، الا ان قلنسوته سقطت عن هامته

وانكشف امره فلاحق به شاب فارسي يدعى [ميثريداتس] واصابه بطعنة رمح في احدى صدغيه بالقرب من عينه من غير معرفة بهويته. فانبتق الدم الغزير من وجهه ودارت به الارض فسقط على الارض فغمى عليه وظل حصانه منطلقاً يجري على رسله في ميدان القتال. ولكن رفاق [ميثريداتس] اختطفوا غطاء سرجه الذي سقط عن الحصان وهو مضرج بالدماء. ولما اخذ [كورش] يعود الى صوابه حاول حفيديان له ان يركبه حصانا آخر لنقله الى موضع امين. فعجز عن الركوب وفضل السير فأسندوه وسار متحاملاً على نفسه وهو يشعر بدوار وضعف شديدين. على انه كان واثقاً بأنه انتصر. اذ كان يسمع وهو سائر - جماعات الفارين وهي تهتف باسمه وتحييه بتحية الملوك - مستعطفة مسترحمة. وفي تلك الاثناء التحق بركبه جماعة من [الكاونيين Caunians] وهم اناس فقراء معدمون انضموا الى جيش الملك خدماً واتباعاً في المعسكرات ليقوموا باحقر الاعمال - فساروا في ركاب [كورش] مع اتباعه بمحض الصدق معتقدين انهم من جنود الملك، ولكنهم مالبثوا ان تبينوا خطأهم من الصدار الاحمر الذي يلبسونه فوق دروعهم. لان اتباع الملك كانوا يلبسون الصدار الابيض، فأسرع واحد منهم يسدد طعنة رمح الى كورش من الخلف دون ان يعرف هويته، فأصابه بجرح تحت الركبة وفتح العرق فسقط كورش، وسقطته اصطدم صدغه المجروح بصخرة فشججه فلفظ انفاسه.

تلك هي رواية [قطسياس] يسردها على مهل، ويتباطأ في احداث الموت فيها. حتى كانت اشبه بالسلاح ذي الحد المثلوم!

وفي اثناء مرور [ارطاسيراس Artasyras] وهو واحد من عيون الملك - بجثة [كورش] استرعى نظره الخصبان وهم يندبون ويعولون فسأل احد معارفه منهم:

- من هو هذا الذي تندبونه يا پارسيكاس؟

فأجابه:

- اما ترى يا ارطاسيراس؟ انه سيدنا [كورش].

فأدركه العجب، وعزى الخصي وطيب خاطره وطلب منه المحافظة على الجثة. واسرع وهو ينهب الارض نهياً الى ارتخششتا الذي كان قد قطع الامل تماما كما كان يشعر بالأم شديدة من الجرح الذي اصابه والعطش الشديد. وكادت الدنيا لاتسع من الفرح وهو يبلغه بموت [كورش] فأسرع الملك الى الموقع حالا. ثم توقف وعدل عن رأيه وارسل عدداً من اتباعه لما سمع ان جنود الاغريق يكتسحون كل ما يعترض سبيلهم وهم في سورة المطاردة. فذهب



ثلاثون رجلاً وبأيديهم المشاعل ليتحققوا من الامر. وبدأ ارتحششتا وكأنه يلفظ انفاسه من حرقه العطش فأنطلق حاجبه [ساتي بارزانس Sati Barzanes] يبحث له عن شربة ماء اذ لم يكن في تلك الناحية شيء منه. ومصدر الماء بعيد بمسافة كبيرة عن معسكره. وبعد طويل بحث لقي احد الكاونيين الفقراء خدم المعسكر ومعه مقدار من الماء الآسن الموحل في جراب جلدي لاتزيد سمعته عن اربعة ليترات فأخذه منه وجاء به الى الملك. وبعد ان شربه كله سأله هل الماء طيب؟ فقال الملك:

- قسماً بالآلهة جميعاً لم اجد خمراً او ماءً الذ واصفى وانقى من هذا. وإن خاب سعبي في معرفة من اعطاك ايا ومكافأته، فأطلب من السماء ان تسعده في حياته وتجعله غنياً.

وعاد الرجال الثلاثون وسيمائهم تطفح بالبشر والسعادة، يؤكدون له موت [كورش]. فارتفعت معنوياته ايضاً بتجمع الجنود حوله. ووصل الى حيث وضع جسد اخيه، وكانت التقاليد تقضي بفصل الرأس او اليد اليمنى. فأمر الملك ان يؤتى اليه بالرأس ولما جيء به امسكه من شعره الكثيف المسترسل وعرضه على الجميع وهو بين مصدق ومكذب يعتزم الفرار. فاعترتهم الدهشة وسارعوا باعلان ولائهم واجتمع في وقت يسير سبعون الفاً من الجنود حوله ودخلوا المعسكر معه.

يؤكد [قطسياس] انه خرج معه الى الحرب اربعمائة الف مقاتل. الا ان [دينون] و [كزينفون] يقولان ان جيشه كان اكثر عدداً من هذا بكثير، ولا يحسب فيه من لم يدخل المعركة. اما عدد القتلى بموجب التثبيت الذي ارسل لارتحششتا فقد كان تسعة آلاف على حد قول [قطسياس]. لكن عدد القتلى الحقيقي لم يكن يقل عن عشرين ألفاً.

ويزعم [قطسياس] انه كان ضمن وفد ارسل الى الاغريق مع [فيلانوس Philanus] الزاكنشي وهو كذب صريح. فگزينفون يعلم جيداً ان [قطسياس] يسكن في البلاط وقد ذكره في اماكن كثيرة، من تعليقاته ولا ريب في انه اطلع على كتاباته. فلو انه كان من اعضاء الوفد ولو انه انتدب حقاً لنقل الرسالة الخطيرة مترجمةً لما اغفل گزينفون ذكره بالتأكيد منوها باسم [فيلانوس] وحده. ولكن يبدو ان [قطسياس] مبتلى بحب الظهور الى درجة الافراط، كما انه كثير التشيع والمالأة للقيديين ولكلياخوس. ولذلك عمد الى حشر نفسه في حكاية السفارة، منتهزاً الفرصة هنا ليكيل المديح جزافاً [لكليارخوس] و[سپارطة].

بعد انتهاء المعركة بعث ارتحششتا بهدايا نفيسة لابن [ارطاكرسيس] الذي صرعه [كورش] وخلق مثلها من النعم والهبات على [قطسياس] والآخرين. وعثر على الكاوني

الذي سقاه الماء. فأنقذه من فقره ورفع من مكانته وجعله غنياً. واما عن العقوبات التي انزلها بالتمردين فقد كان ثمّ انسجام وتوازن بينها وبين الجرائم التي ارتكبوها. فحكم على [ارياكس Arbaces] الميدي الذي انحاز الى [كورش] اثناء القتال ثم عاد الى صفوف الملك بعد مصرعه حكماً يدل على فرط ما تحلى به من جبن وخنوة، لا بوصفه خائناً ذا خطورة. فقد امر ان يركبوا على ظهره عاهرة من العواهر العاديات فيسير بها هكذا في الساحة يوماً كاملاً. وكان ثمّ آخر انضم الى العدو، ولكنه عاد واخذ يتبجح كذبا بانه قتل اثنين من العصاة. فامر ان يغرز في لسانه ثلاثة دبائيس. ولجل ان يظهر ويثبت في اذهان الناس انه قتل [كورش] تم على يده، وليحملهم علي الايمان بذلك. ارسل بهدايا فاخرة الى [ميشريدات] اول من اصابه بجرح وامر حاملي الهدايا اليه ان يقولوا له عند تقديمها «انه الملك قد شرفك واكرمك بهذه الهدايا لانك عثرت على غطاء سرج كورش وجنته به».

وطالب ذلك الكاري الذي قضى علي [كورش] بعد اصابته بجرح في مأضه، بالمكافأة، فبعث اليه بهدايا كثيرة وامر حامليها اليه ان يقولوا له: «ان الملك يهديك هذا مكافأة اخرى على الانبياء السارة التي ابلغتها له. فإن اول مكافأة كانت لاول من حمل النبأ وهو [ارطاسيراس] وانت الذي أكدت له موت [كورش]».

وانسحب [ميشريدات] راضياً ولكنه كان حانقاً في سره. الا ان الكاري السيء الحظ كان قاصر العقل، فقد تغلب عليه الضعف البشري وبهرته الهبات السنوية التي بسطت امامه واغرته نفسه على المطالبة بالاكثر وطمع باشياء اخرى أرفع مما تناسب مقامه. فلم يتنازل بقبول الملك بوصفها مكافأة على ابلاغه نبأ مصرع [كورش] بل صاح مستنكراً واستشهد بالناس واحتج قائلاً انه هو وحده قاتل [كورش] وانه حرم من شرف العمل ظلماً. ولما بلغ الملك ما قاله استشاط غضباً وامر في الحال بقطع رأسه الا ان ام الملك الذي كانت موجودة اذ ذاك قالت له:

- أرجو ان لايعمد الملك الى التخلص من الكاري الحقير بهذه الطريقة السهلة. وليدفعه الي لاذيقه العقاب الذي يلاءهم لسانه الطويل.

فأسلمه الى [اريساتس] فأمرت الجلاذ بأن يشده الى دواب المخلعة عشرة ايام ثم يقتلع عينيه ويصبّ نحاساً ذائباً في أذنيه حتى يموت.

وبعد فترة قصيرة قضى علي [ميشريدات] باشنع ميتة لارتكابه الغلطة نفسها فقد دعى الى وليمة كان يحضرها عدد من خصيان الملك، ووالدته. فأقبل يختال في حلّة فاخرة وحلى

ذهبية مما اهداه الملك. ثم اديرت كؤوس الخمر وبدأ أقرب الحصيان واوسعهم نفوذاً في البلاط عند الملكة، يتحدث اليه قائلاً:

- ان هذا الرداء الفاخر الذي خلعه عليك الملك لا يثمن يا ميشريدات وتلك القلائد والأ ساور نفيسة جداً، وسيقف هذا لا قرين له. لقد اصبحت فأنت قبلة الأنظار كأفة بما حبيت من سعادة واقبال.

فردّ عليه وهو نشوان بفعل الخمر: ما قيمة هذه الاشياء يا [سپاراميزس Sparamizes]؟ حقاً اني برزت في يوم الامتحان ذاك. وبرهنت للملك بأني استحق انفس وأعلى من هذه الهدايا.

فابتسم [سپاراميزس] وقال: اني لا احسدك على نعمتك يا ميشريدات. ولكن لما كانت الخمر والصرحة تسييران جنباً الى جنب كما يقول الاغريق. فأسمعني ايها الصديق عن ما أثرتك المجيدة وعملك الباسل في العثور على بعض الأغطية التي سقطت من ذلك الحصان وكيفية مجيئك بها الى الملك؟

سأله وهو يعلم الحقيقة. الا أنه قصد ان يطلق لسانه امام الحاضرين بإثار كبريائه بعد ان حلّت الخمر عقده واعجزته عن ضبط اقواله فلم يخف شيئاً وانشأ يقول: تحدث بما شئت حول اغطية السرج وغير ذلك من التوافه! اني اقول لك بصراحة، ان يدي هذه هي التي صرعت [كورش]. لم اذف برمح طائش كما فعل [ارطاگيرسيس]، فقد كانت طعنة صادقة تلك التي سدتها اليه لم يكن بينها وبين عينه الا شعرة، فنفذت الى صدغه واسقطته ارضاً. ان طعنني هي الطعنة القاتلة.

اطرق الحاضرون برؤوسهم وسكنوا وكأنهم على ثقة من نهاية ميشريدات ومن المصير الفاجع الذي ينتظره. وقال صاحب الدعوة: اي صديقي [ميشريدات] دعنا نأكل ونشرب الآن، ونحترم يمين أميرنا وحسن حظّه، ولنمسك عن الخوض في حديث هو اخطر مما يناسبنا.

وانهي [سپاراميزس] الى [اريساتس] بما سمعه، فأطلعت عليه الملك الذي لم يخف غضبه الشديد. لأن ما قال [ميشريدات] هو تكذيب، واصبح اعظم مآثرة له واسنى موقف في انتصاره معرضاً للضياح. فقد كان يريد ان يوهم الجميع فرساً واغريقاً بأن النزال الشخصي الذي وقع بينه وبين أخيه بقي كذلك حتى الأخير دون تدخل خارجي وانه كان ثم ضربات وطعنات متبادلة وان الضربة التي تلقاها جرحته، اما الضربة التي سدّها فقد ادت أمانت خصمه. ولذلك حكم على [ميشريدات] بالموت بطريقة الزورق المزدوج، ويتم هذا على النحو التالي:

يؤتى يزورقين متماثلين تماماً فيمدوا المحكوم في واحد وهو مستلق على ظهره ثم يطبقون عليه الزورق الثاني بشكل يجعل رجليه ويديه ورأسه خارج هذه العلبة المحكمة، وبقيّة جسده داخلها، مثل السلحفاة. ويطعمونه وان رفض الاكل ارغموه على ذلك بوخز عينيه. وبعد ان يأكل يصبون في فمه مزيج الحليب والعسل ويرشون به وجهه ثم يقفون وجهه بمواجهة الشمس دائماً، فتزحف عليه جموع الذباب والهوام حتى تغطي وجهه وتخفيه، ويقذف بفضلات جسمه داخل الزورق المزدوج فتسعى الدواب والحشرات وكل انواع الدود الى تلك الفضلات المتفسخة المتعفنة وتجذب سبيلها الى امعائه فتنهش جسمه وتتلفه. وعندما يزول الشك في موت المحكوم يرفع الزورق الاعلى ويتبين ان لحمه قد نهش نهشاً وحشود من الحشرات البشعة المنظر وهي مشغولة بالتهام ما تبقى منه وقد تكاثرت وتوالدت في الداخل.

بهذه الطريقة قضي على [ميشريدات] بعد سبعة عشر يوماً من العذاب الشديد.

اما [ماساباطس Masabates] خصي الملك الذي قطع يد [كورش] ورأسه فقد بقي الهدف الأخير لانتقام [پاريساتس] الا انه كان حذراً واعياً فلم يتح لها فرصة النيل منه. وأخيراً توصلت اليه بنصبها الفخ الآتي:

كانت امرأة ذكاء ودهاء وحذق في مسائل كثيرة، وقد عرفت بكونها من أمهر لاعبي النرد. وكثيراً ما لاعبت به الملك قبل الحرب. بعد ان انتهت الحرب وصالحته، راحت تزامله في كلّ تسلياته، وعادت الى ملاعبته بالنرد كالسابق واصبحت موضع ثقته حتى في شؤون حبه وسعت جهدها الى ان لاتتركه منفرداً بزوجه [ستاتيرا] فقد كان بغضها لها لا يعدله بغض، كما انها كانت تكره ان تنافسها امرأة في نفوذها عند الملك. وفي ذات يوم شعر [ارتحششتا] بحاجة الى ما يسليه ويروح عن نفسه، فزينت له امه لعبة نردٍ معها وارهنّت بألف [داركي] وتعمدت الخسارة ودفعت له الرهان بالذهب، ثم تظاهرت بأنها تأثرت من الخسارة وطلبت منه انه يتيح لها فرصة الثائر والحت ان يكون موضع الرهان خصياً فوافق، الا انهما اتفقا على ان يستثنى كل واحد منهما خمسة من اعزّ خصيائه وان يختار من يريده من الباقيين اذا ربح وبدأ اللعب فيما بينهما وبذلت أقصى جهدها واستخدمت كلّ حذقها وساعدها الحظ ففازت عليه. واسرعت تطلب منه [ماساباطس] الذي لم يكن بين الخمسة المستثنى فدفق به اليه، فأمرت فوراً - وقبل ان يشك الملك في الموضوع - بسلخه حياً وتعليقه على ثلاثة اقطاب ونشر جلده على ثلاثة اقطاب أخرى. فسخط عليها الملك سخطاً شديداً وكان يجنّ غضباً عندما سمعها تضحك وتقول مازحةً:

- ما اسعدك واريح بالك، مادام ازعجك أمر خصي شائب وغد إلى هذه الدرجة، في حين اني فقدت الف [داركي] ولم اتأثر وبقيت ساكنة قانعة بخطي.

وانحى الملك باللائمة على نفسه لأنه خدع على هذه الشاكلة إلا انه أثر السكوت واخفاء الأمر، بعكس [استاتيرا] التي اخذت تناصبها العدا من زمن - فقد زاد حقها عليها بسبب هذه الفعلة التي خرقت بها كل مبادئ العدل والانسانية، وضحت بصديق الملك المخلص وخصيه اكراماً لذكرى ابنها [كورش].

عذر [تيسافرنس] بـ [كليارخوس] والقواد الاغريق الآخرين بعد ان حلف لهم الايمان وتعهد بالآ يسسهم ضرراً. اذ قبض عليهم وارسلهم مصفدين الى الملك. يقول [قطسياس] ان [كليارخوس] طلب منه مشطاً وانه سرّ كثيراً عندما اجابه الى سؤله وقام له بهذه الخدمة. واهداه خاتماً على سبيل الذكرى وليكون عهداً لاقربائه واصدقائه في سبارطة. وكان نقش الخاتم يمثل رقصة كارية Carya. ويحدثنا [قطسياس] ان زملاء [كليارخوس] الأسرى، كانوا يسرقون جزءاً من علاوة الارزاق التي حُص بها ولايعطونه سوى القليل. فعالج [قطسياس] الأمر وحسن من جراته. وأمر ان توزع مخصصات الجنود والأسرى الباقين لوحدهم. وقال انه فعل ذلك بسعي وتدبير [پريساتس]. ويذكر [قطسياس] في هذا المجال أنها أمرته ان يضع في داخل قطعة من لحم الخنزير كانت ضمن طعام [كليارخوس] اليومي، سكيناً حتى لا يكون مصيره رهناً بارادة الملك وقسوته ولكن قطسياس احجم عن ذلك خوفاً واستجاب الملك لمساعي امه ووعدها مقسماً بأن يبقي على حياة [كليارخوس] إلا انه ما لبث تن قضى عليه رفاقه كافة بتحريص من ستاتيرا وابقى على [مينون] وحده. يقول [قطسياس] ان [پريساتس] أخذت منذ ذلك اليوم تتريص [بستاتيرا] واعدت لها سماً زعافاً. بقصد القول انها اكراماً لذكرى [كليارخوس] راحت تأتمر بحياة ملكة شرعية هي أم ولادة عهد الامبراطورية. ولكن هذا لايمكن ان يكون دافعاً يقبله المنطق والعقل. ومن الواضح ان هذا الجزء من رواية [قطسياس] ما هو إلا تأبين وتشجيع تكريمي لجنازة كليارخوس. لقد اراد منا ان نصدق بان جشته وحدها سلمت من تمزيق الكلاب ونهش الطيور عندما نفذ حكم الموت بكل قادة الحملة، اذهبت ريح شديدة دففعت كميات كبيرة من التراب فوق الجثة فحجبتها عن الحيوانات. ثم سقطت فوق هذه التربة ثمرات، فأنيبت روضة جميلة من الاشجار الضليلة. حتى ان الملك نفسه أيدي اسفه لما فعل، لأنه استنتج من ذلك انه قتل بشخص [كليارخوس] رجلاً خصته الآلهة بحبها!

كانت [پريساتس] منذ البداية تكره كنتها وتضمهر لها حسداً وغيره فقد وجدت ان

خطواتها عند زوجها [ارتحششتا] متأت من الحب والثقة؛ وهما اقوى عوامل الثبات فيها. في حين ان خطوتها عنده مبعثه احترامه وتقديره لها كام. فقرّ عزمها على السعي لاهلاكها، وهي على معرفة بأنها تقوم بأخطر مجازفة متصورة. كان ثم من بين وصائفها امرأة تدعى [جيجيس Gigis] اختصتها باكبر الثقة، وهذه هي التي عاونتها في اعداد السم كما يروي لنا [دينون]. أما [قطسياس] فيزعم انها كانت مطلعة على الموضوع لا أكثر، وقد تمّ خلافاً لرأيها. واتهم [قطسياس] [بيليتارز Belitaras] بأنه الفاعل الأصلي. لكن [دينون] يذكر ان [ميلانتاس Melantas] هو الذي قام بدس السم بدأت المرأتان تتزاوران وتتناولان الطعام معاً كالسابق ومع ان حدة التحاسد والتباغض قد خفت الى حد ما فيما بينهما إلا انها ظلتا تتبادلان الحذر والخوف فلا تأكلان من صحاف مختلفة بل تتناولان الطعام من صحفة واحدة دائماً. وكان ثم طير صغير الجرم يكثر في بلاد فارس فقط، ولا يوجد في احشائه غائط، بل هو كتلة من الشحم ولذلك اعتقدوا ان هذا الحيوان الصغير انما — بالهواء والندى وهم يسمونه [رينتاسس Rhyntaces]. يؤكد لنا [قطسياس] ان [پريساتس] قطعت هذا الطائر الى نصفين بسكين لوثت احد وجهيها بنقيع السم فأكلت هي الجزء الذي لم يلوثه السم وقدمت [لستاتيرا] الجزء المسموم. إلا ان [دينون] ينفي هذه الحكاية ويقول ان [ميلانتاس] هو الذي قطع الطير واعطى [ستاتيرا] القسم المسموم فأصيبت بتشنج وكابدت الآماً رهيبه وادركت وهي في نزاعها الأخير بانها مسمومة ووجهت شك الملك الى امه، وكان يعلم حق العلم من اية طينة جبلت ويعرف ما طبعت عليه نفسها الشريرة. فيبادر فوراً باجراء التحقيق وقبض على كل وصائفها وخدام منزلها المكلفات بشؤون الطبخ واعداد المائدة وسلمهن الى الجلادين لتعذيبهن. إلا ان [پريساتس] اخفت [جيجيس] وابقته معها في الدار مدة فأمرها بتسليمها إلا انها امتنعت. واخيراً رغبت هذه الوصيفة في العودة الى بيتها وكان الوقت ليلاً. وعلم الملك فأرسل من كمن لها وقبض عليها وأمر بقتلها.

ان عقوبة الموت المفروضة على المجرمين تنفذ في بلاد فارس قانوناً على الشكل الآتي وصفه: هناك صخرة مسطحة يستقر عليها رأس المحكوم فيدق رأسه ويهشم بصخرة اخرى حتى يسحق الوجه والرأس الى شظايا وقد طبقت على [جيجيس] إلا ان ارتحششتا لم يقل شيئاً لأمه ولم يلحق بها اذى لكنه ابعداها الى مدينة بابل وهو ما لم تكن تكرهه. وحلف ان لايقرب تلك المدينة مادامت حية.

هذا ما كان من امر شؤون الملك المنزلية وآل بيته.

فشلت مساعي [ارتحششتا] وخابت محاولاته في أسر حملة الاغريق التي حاربت مع

كورش. ولم تكن رغبته في ذلك تقل عن رغبته في التغلب على [كورش] والمحافظة على عرشه. لقد كتبت النجاة لسائر جنود الحملة رغم انهم خسروا قوادهم وانتشروا في بلاد الاغريق يذيعون حقيقة أمر الملك الفارسي ويقولون انه غنى جداً، لا يلحقه بشر بترفه وكثرة نسائه، إلا أن ما تبقى ان هو الى مظاهر جوفاء لاتخفي تحتها شيئاً. وعندما دبت الحمية والشجاعة في نفوس الاغريق جميعاً واستهانوا بقوة البرابرة ولاسيما اللقيديين الذي خيل لهم ان الوقت قد حان لتحرير ابناء وطنهم المساكين من عبوديتهم للفرس في آسيا. وان يضعوا حداً للاضطهاد والمعاملة السيئة التي يلقونها. فجهزوا اولاً جيشاً، وسلموا قيادته الى [ثيمبروين Thimbroin]، ثم الى [ديركيليداس Dercyllidas]. ولكنهم لم يحققوا شيئاً يذكر. وأخيراً سلموا القيادة للملكهم [اغيسيلوس] الذي انزل قواته في آسيا واخذ النجاح تلو النجاح يحالفه اذ دحر تيسافرنس في معركة طاحنه واطلق الثورة في عدة مدن. وكان ارتحششتا يدرك سبباً غير الحرب لمعالجة ذلك. فعمد الى ارسال [تيموقراطس Timo-crates] الروديسي الى بلاد الأغريق بمقدار كبير من الذهب وأمره باغراء زعماء المدن وتوزيع هذه الأموال عليهم دون حساب او تردد. وان يعمل على اثاره حرب اغريقية تكون سيطرة هدفاً لها. فأتبع [تيموقراطس] تعليماته فهبت أكثر المدن تناصب [سپارطة] العداة وعمت الفوضى كل [الپيلوپونيسس] واستدعى مجلس الايغور [اغيسيلوس] من آسيا. وقد روى انه قال لاصدقائه وهو يتهباً للعودة ان ارتحششتا قد طرده من آسيا «بثلاثين ألف رام» يشير بذلك الى النقش الذي يرى على قطعة النقد الذهبية الفارسية فهو يمثل رامى قوس.

وطهر [ارتحششتا] البحار من اللقيديين وكان اسطوله معقود اللواء للاميرالين [كونون Conon] الأثيني، و[فارنا بازوس]. كان [كونون] بعد معركة [ايغوسپوتامي Aegospoto-mi] قد سكن قبرص. لا لأنه كان يحرص على سلامته، بل انتظاراً منه للاحداث. ولم يكن بأقل أملاً من أولئك الذين ينتظرون تغييراً في اتجاه الريح البحرية. وكان يدرك ان مؤهلاته وبراعته في حاجة الى القوة. وان قوة الملك تحتاج الى توجيه رجل ذكي. فأرسل اليه بتفاصيل خطة قام باعدادها، واوصى الرسول بان يسلمها الى الملك يداً بيد ان أمكن، وان يستخدم لذلك وساطة [زينو] الكريتي أو [پوليقريطس Polycritus المندي Mandaen] (اولهما معلم رقص، وثانيهما طبيب) فلم يجدهما فأتصل بقطسياس الذي قيل انه تسلم رسالة [كونون] ودس فيها عبارة ترجو الملك «ان يبعث بقطسياس مع رده لانه سيكون ذا فائدة في الاقاليم الساحلية» إلا أن قطسياس ينفي ما عزي اليه ويقول ان الملك انابه من تلقاء نفسه ليقوم بهذه المهمة. على اية حال استظهر [ارتحششتا] على اللقيديين في معركة [كيندوس] البحرية

وكان [فارنا بازوس وكونون] يقودان اسطوله. وهكذا قضى على سيادتهم البحرية وانحاز الاغريق كلهم الى جانبه وقيل أن عهد السلام الشهير الذي ابرم فيما بينهم المعروف «بسلم انتاقليداس» كان من اقتراحه. وانتاقليداس [Antaclidas] هذا هو ابن ليون السپارطي. كان احد خاصة الملك ومن يعتمد عليهم. فاوض اللقيديين واقنعهم بعقد معاهدة يتنازلون فيها عن كل حق لهم في المدن الاغريقية الآسيوية وكل ما جاورها من الجزر للملك فلا يعارضون سلطته عليها. وبذلك احل السلم بين الاغريق، اذا كانت كلمة السلم النبيلة تصح لوصف عمل هو في الواقع عار على الاغريق وغدر بهم. انها في معاهدة اشنع واقبح من اية معاهدة يملها غالب في الحرب على مغلوب. ومع ان [ارتحششتا] كان شديد المقت للسپارطيين ويعتبرهم اشد الشعوب صلافة ووقاحة، إلا انه خصّ [انتاقليداس] بكثير من التكرم وقرّب اليه عندما زاره في بلاده. وبلغت حظوته عنده انه نفع قلادة زهر في انفس واندع عطر وبعث بها اليه بعد العشاء، وكانت التفاته أثار الدهشة في انفس الجميع. في الواقع انه كان شخصاً جديراً بهذه المعاملة من ارتحششتا وبارازه هذه الهدية النفيسة، بعد أمر مكر ب[ليونيداس] و[كاليركرا تيداس Callicratidas]، لمصلحة الفرس. فقد هتف واحد منهم لا ادري ايهما - قائلاً:

- ما اتعس حظ اليونان، بعد ان اصبح السپارطيون ميديين!

فأجاب [اغيسيلوس]:

- كلاً، بل الميدين هم الذين اصبحوا سپارطيين.

ولم تغن دقة الجواب ولم تمسح عار النتيجة. فما لبث اللقيدييون ان فقدوا سيادتهم على اليونان بهزيمتهم في - [ليوكترا Leuctra] على انهم اضاعوا شرفهم قبلها بالمعاهدة التي ابرموها. وقد ظلّ انتاقليداس يتمتع بالحظوة لدى الملك فيدعوه بالصديق والضيف العزيز حتى معركة [ليوكترا] التي مرغت كبرياءهم في التراب واذلتهم، وجعلتهم في حاجة كبيرة الى المال وارسلوا [اغيسيلوس] الى مصر، وانتاقليداس الى ارتحششتا ليطلب ما لا يكفيهم ادنى حاجتهم. فاهين [انتاقليداس] واحتقر، ولم يبت طلبه فعاد الى بلاده خائباً ليكون موضع هزاء واهانة خصومه. ودب في نفسه الخوف من صولة الايغور. فأعلن اضراباً عن الطعام حتى مات. وزار ايسمينياس [Ismenias] الثيبي وبيلوپيداس اللذان انتصرا في موقعة [ليوكترا] البلاط الفارسي ولم يقدم ثانيهما على ما يحط من مكانته وسمعته خلال زيارته، أمّا ايسمينياس، فقد طلب منه الانحناء الى الملك وفيما هو يفعل سقط خاتمه على الارض فانكب معفراً وجهه ليتناوله، فبدا وكأنه يقوم برفع فروض الولاء والطاعة. واطهر الملك رضاً وسروراً

بالخدمة التي اداها له [تيماغوراس Timagoras] الذي ارسل له انباءً هامةً بوساطة امين سره [بيلوريس Beluris] بعشرة آلاف (داركي). وعلم انه مريض وانه اشير عليه بشرب حليب البقر فاستاق اليه ثمانين بقرةً حلوباً وارسل اليه معها سريراً واثاثاً له وخدمًا لنصب السرير وترتيبه لأن الاغريق لا معرفة لهم بمثل هذه الأمور ولا يملكون الحذق الكافي لصنع مثل هذا الاثاث. وكذلك ارسل رجالاً لحمله الى ساحل البحر وهو مستلق عليه بسبب ضعف بنيته. وعلينا ان نذكر ايضاً الحفل الذي اقيم له في البلاط. كان من الفخامة والروعة بحيث دفع [اوستانس] اخ الملك الى التوجه اليه بالقول الآتي:

- لاتنس يا تيماغوراس Timagoras المائدة الفخمة التي جلست اليها هنا؛ انها لم تفرش لك عيشاً.

وهو لاشك تعريض بخيانتته اكثر مما هو تذكير له بكرم الملك. والواقع ان الآثينيين حكموا على [تيماغوراس] بالموت لارتشائه.

وازاء الكثير من الاساءات والأذى الذي الحقه ارتحششتنا بالاغريق فإنه ارضاهم في مسألة واحدة، وهي انقاذهم من طغيان [تيسافرنس] اخبت اعدائهم وابغضهم الى قلوبهم. فقد انقد فيه حكم الموت. كانت [باريساتس] قد شجعتته على اتخاذ هذا القرار وأيدت التهم التي ادين بها. لأن الملك لم يبق مقيماً على خصامه معها. فقد انفث غضبه بعد وقت وجيز وصالحها وارسل يستقدمها اليه مستفيداً من ذكائها وشجاعتها وحسن مشورتها. ولم يعد بينه وبينها اي سبب للنفرة واخذوا يتعاونان في شتى الامور ويتبادلان وجهات النظر دون شكوك. وعملت هي جهدها لارضاء الملك والترويح عنه بتيسير كل ما يشتهي ويهفو اليه قلبه، ولم تعد تعيب عليه اي شيء يقدم عليه. وبهذا زاد نفوذها عنده وقوي وسلطانها عليه حتى صار يلبي كل ما تطلب منه. وادركت انه يهيم حبا [باتوسا] احدى ابنتيه. الا انه كان يخفي عاطفته هذه ويقمعها خوفاً من امه بالدرجة الأولى الا اذا صدقنا روايات بعض الكتاب - الذين يزعمون انه أطفأ نار رغبته منها سرراً. ما ان شكت [باريساتس] بحقيقة الأمر حتى اخذت تظهر للفتاة كثيراً من الودّ وراحت تبالغ في وصف فضائلها وسجاياها وجمالها له، ومجمل القول فانها راحت تزين له الاقتران بها واعلانتها حليلاً شرعية، خلافاً للمبادئ الحلقية والقوانين المتعارف عليها بين الاغريق. لأن الملك عند الفرس هو مصدر القانون بارادة الآلهة، وهو القاضي الأعلى والحكم في ما هو خير وما هو شر. واكد بعض المؤرخين ومنهم هيراقليدس [الكومي Cuma] انه لم يكتف بالزواج من هذه الأبنة، بل تزوج ايضاً بنته الثانية [اميتريس Ameitris] التي سيرد ذكرها بين آن وآخر في السباق. الا انه كان شديد التعلق باتوسا حتى

انه لم ينفر منها قط عندما اخذ الجذام ينتشر في انحاء جسمها وانما راح يبتهل الى [جونو] لأجلها. والى هذه الرّبه وحدها دون سواها كان يصلي ويقدم لها فرائض العبادة ببسط يديه على الارض. وحذا كل ساتراب حذوه وتنافسوا مع اصدقائه في رفع التقدّمات اليها حتى اكتظ الطريق اليها بالنفائس والذهب والفضة والخيل والارجوان من الهدايا الى مسافة ستة عشر فرلنگ الممتدة ما بين معبدها والبلاط الملكي.

وارسل [فارنابازوس] و[ايفيقراطس Iphicrates] على رأس حملة الى مصر ولكنه لم ينجح في حربه هذه بسبب الخلاف الذي نشب بين القائدين. وفي حملته على القادوسيين Ca-dusian تولى القيادة بنفسه واعر بثلاثمائة الف راجل وعشرة آلاف فارس على اراضيهم الجبلية التي يتعذر اقتحامها. الى جانب الضباب الكثيف الذي يخيم عليها دائماً وجذبها وقلة ثمارها فهي لاتغلّ اي نوع من الغلة كالقمح، ما عدا التفاح والكمثرى وغيرها من انواع الفاكهة وعليها فقط يقتات هذا الشعب الجسور الذي رضع حب القتال والحرب منذ نعومة اظفاره. فاحدقت الاخطار بحملته، ووقع في ضيق شديد وعضهم الجوع بنايه اذ لم يكن ثم طعام يصلح لجنوده مما تنبت تلك الأرض ولم يجد وسيلة لنقل الارزاق من مكان آخر فعمدوا الى ذبح حيوانات اثقالهم. وبلغ ثمن رأس الحمار ستين دراهماً. واقفرت مائدة الملك مما يغري بالأكل. واستهلكت الخيول الأ القليل. وهنا تفتق ذهن [تريبازوس] عن حيلة انقذ بها الملك وجيشه. كان حظّ تريبازوس عرضة للتغير المفاجيء عند الملك. فيبدو حيناً مقرباً منه حائزاً رضاه، ليجفوه وينفر منه بعدها فييهوى به جدّه الى الحضيض وهكذا أختلف نجمه بين صعود وافول بسبب بسالته ويسبب تهريجه والأعيبه. وكان في ذلك الوقت في اسوء حال من الاهمال والجفوة عندما تقدم باقتراحه: يحكم القادوسيين ملكان كل منهما يعسكر بقواته فوق مرتفع بعيد عن الآخر. مثل [تريبازوس] امام الملك وافضى اليه بخطته فوافق عليها. فأرسل ابنه الى احد الملكين وقصد الثاني منهما بنفسه وانطلت الخدعة التي عملاها. فقد اكد كل واحد منهما الى هذين الملكين بان صاحبه قد اوفد سفيراً الى ارتحششتنا يطلب عقد معاهدة صداقة وحلف لنفسه. فان كان حكيماً فعليه ان يسبق زميله ويتصل بالملك قبل ان يعقد هذا الحلف على حسابه. وانه [اي تريبازوس او ابنه] سيعاونه وسيسعى له في ذلك عند الملك. فصدق الملكان كذبة الأب والابن كل من تأمر الآخر. ولذلك بعث كل واحد منهما بسفير، برفقة الرسولين المزعومين تريبازوس وابنه.

استغرقت هذه العملية وقتاً ولذلك شك في تريبازوس وابنه، وفوتح الملك بهذه الوسواس، وكان اليأس والندم من وثوقه به قد بدأ يتسرب اليه، فبدء يعير اذنأ صاغية للواشين

الحاسدين. غير ان الأب والأبن عادا أخيراً، وكل منهما برفقه مندوب قادوسي. فأعلنت هدنة وسلام وعاد [تريبازوس] الى الوطن مع الملك وهو يختال بالحظوة التي نالها وبالمقام الذي ارتفع اليه عند الملك. لقد اثبت [ارتخششتا] بحملته الخطرة هذه، ان الجبن والخنوة لايتأنيان من ترف العيش ونعمته كما يظن الكثيرون، بل من آثار الطبع الفاسد الوضع الذي يحركه سوء الرأي وخطئه. اذ بصرف النظر عما كان يرتديه الملك من نفيس الثياب والذهب والحلى الفاخرة مما لا تقل قيمته عن اثني عشر الف تالنت، لم يجد اي معرة في مشاركة اصغر جنوده رتبةً تعبهم وكدهم. فقد كنت تراه وقد شد كنانته الى جنبه وامسك بترسه يقود جيشه سائراً على قدميه تاركاً حصانه جانباً، يجوس المسالك الوعرة ويهبط الشعاب الحادة. وكان عمله هذا يشيع في نفوس الجنود الراحة ويشد من عزائمهم. في حين كان وجهه الباسم وقوته التي لايعتريها وهن تجعل لجنوده اجنحة وتخفف اعباء السير عنهم. وبلغ معدل ما كانوا يقطعونه في اليوم الواحد مائتي فرلنگ.

ووصل الجيش الى قصر من قصور الملك الريفية، امتاز بحدائقه الزهراء وجنانه البديعة النظام. وكان يقع وسط اقليم قاحل ماحل لا ترى فيه نبثاً ولا شجراً وكان البرد شديداً لايحتمل فأطلق جنوده يحتطبون لأنفسهم ما شاؤوا دون قيد او شرط من اشجار الحدائق ولم يستثن حتى اشجار السرو والصنوبر الثمينة. وكانت اشجاراً ساقعة مهيبه فترددوا ونكصوا عنها، فما كان من الملك الا ان تناول فأساً واهوى بضرباته على اكبرها واجملها منظراً فحذا الجنود حذوه واشعلوا نيراناً عظيمة وقضوا ليلتهم في راحةٍ ودفء. على ان الملك مني بخسائر في اشجع رجاله لم تكن بالقليلة، كما فقد كل خيوله. واخذ يشك في ان فشله وسوء حظه افقده مكانته عند الشعب واشاع فيه الاحتقار له واوجس خيفة من نبلائه بصورة خاصة فأوقع بهم مذبحه. قتل بعضهم بدافع الخوف وبعضهم بسورة من غضب. ان الخوف في الواقع هو اشد حافزاً للامراء الى البربرية وسفك الدماء. اما الثقة فتدفع الى الرحمة والعطف وصفاء القلب من الشك ولذلك نجد اشد الوحوش ضراوة اقلها الفة، واكثرها نفرة خوفاً واسرعها اثاراً اما الحيوانات الراقية والاكثر نبلاً مما تجعلها شجاعته موضع ثقة، فهي اكثرها تجاوباً للألفة والصدقة مع البشر.

بلغ ارتخششتا من العمر عتياً، ليجد ابنه يتنافسان على عرش مملكته ولكل منهما حزيه المؤلف من اشراف مملكته ومقربيه. اما المحايدون العقلاء فكانوا يرون ان الحكمة والعرف يقضيان بتولي الابن الاكبر سناً وهو [داريوس] مثلما تسلم [ارتخششتا] نفسه الملك بوصفه الابن البكر. وكان الأخ الاصغر [اوخوس Ochus] العنيف الحاد المزاج، مسنداً من عدد كبير

من رجال البلاط. الا ان امله الاكبر كان [باتوسا] اخته التي منّاها بالزواج ويجعلها شريكاً له في الملك ان هي استطاعت اقناع ابيه باعلانه وليّ عهده. في الواقع كان ثم اشاعات بوجود علاقة صميمة فيما بين الاخوت وأخيها وهو ما كان موضع جهل من الملك. وكان [ارتخششتا] يريد اختيار الوقت المناسب ليقتضي على أمل [اوخوس] في الملك، لئلا ينجم عن محاولته الشبيهة بمحاولة عمه - نزاع قد يؤدي الى الحرب وخراب المملكة. وسنحت له الفرصة بعد قليل فبادر الى اعلان [داريوس] ولياً للعهد وكان له من العمر خمسة وعشرون عاماً، وسمح له ان يعتمر بالقلنسوة الطويلة كما يسمونها وهي شعار الملك. وقد جرى العرف ان يطلب ولي العهد الجديد طلباً ممن أعلنه وريثاً لعرشه. وحتم التقليد ان يجاب طلبه هذا مهما كان شريطة ان يكون ضمن مقدراته ومجال سلطانه. وكان مطلب [داريوس]، [اسپاسيا Aspasia] وهي احب واثمن محظيات عمه كورش، وكانت في حينه من نساء الملك وهي فوكية Phocae الولادة، أيونية الموطن ولدت لابوين حريين ونالت تهذيباً حسناً. ويروى ان كورش كان جالساً للعشاء يوماً فجيء بها اليه لاول مرة مع فتيات آخر فأجلسن بالقرب منه فأنشأ يمازحهن ويعابثهن ويباسطن الحديث ورفع الكلفة تماماً في مغالته لهن. الا ان اسپاسيا لم تجارده في عيشه وظلت واقفة صامتة وابت التقدّم من كورش عندما استدناها؛ فلما همّ حجابها باستخدام القوة صاحت بهم.

- من يضع يده على سيندم.

وبدت جافة خشنة الطبع سيئة السلوك الا ان تصرفها هذا احدث أطيّب الاثر في نفس كورش فضحك وقال للرجل الذي اتى بالفتيات.

- بالتأكد ان هذه الفتاة هي الوحيدة من كل من جئت به فهي تمتاز بخلق طاهر نبيل ولم يمر عليه زمن طويل حتى كان اهتمامه قاصراً عليها وزاد كلفه بها — على سائر نسائه ولقبها بالعاقلة وكانت من بين الاسلاب عندما قتل لاشك ان الملك استاء كثيراً لطلب ابنه هذا. لأن حرص البرابرة على نسايتهم وموضع متعتهم معروف. والموت هو عاقبة كل من تعرض لهن باي شكل من الاشكال، ولا يقتصر التعرض على التقرب او لمس مخفية من محظيات الملك بل يعتبر من قبيل التعرض تقدم الركب او سبق العربات التي تقلهن اثناء رحلة. ولذا ازعجه طلب [داريوس] كثيراً مع انه لم يستنكف عن الزواج ببنته [اتوسا] اطفاء لشهوته متحدياً كل النواميس، ومع انه كان يملك ثلاثمائة وستين مخفية كلهن آيات في الجمال. فأعتذر لابنه قائلاً ان من يطلبها ليست امه بل حرّة. وان من حقها ان تختار فان رضيت به فهي له والا فليس من حقها ارغامها. قال هذا وارسل

يستدعي [اسپاسيا] التي لم تتردد في اختيار [داريوس] خلافاً لما توقعه الملك منها. فلم يسعه الاً التخلي عنها تحت حكم التقليد المتبع. الا انه لم يصبر وانتزعها منه بعد زمن بحيلة، بان كرسها كاهنة لـ[ديانا اكبثانا] التي يسمونها [آيناتس Anaitis]. حتى تقضي بقية حياتها بعيدة عن الرجال وفي حالة العفة التامة، وكان يظن ان انتقامه هذا الذي يتسم بالاعتدال ويختلط فيه الجد بالهزل، لن يؤثر في ابنه كثيراً. فخاب فأله اذ كان حنق الإبن شديداً وسواء أنجم عن غرامه الشديد باسپاسيا أم عن شدة وقع الإهانة والتحقير. وادرك [تريبازوس] ما يعتمل في نفس الفتى فسعى لتأريث هذا الحقد لانه وجد الالهانة شبيهة بما ناله في المناسبة التالية:

وعد [ارتحششتا] بتزويج [اپاما Apama] بنته من فارنابازوس وبتزويج ابنة أخرى له تدعى [رودوغون Rhodoguna] من [اورنتس Orantes] وبتزويج بنت ثالثة اسمها [امستريا Amestria] من [تريبازوس] الا انه نكل عن وعده لهذا الأخير واتخذها لنفسه زوجاً. على انه اراد ان يعوضه عن ذلك فعقد له على صغرى بناته [اتوسا] الا انه وقع في حبها كما اسلفنا فتزوجها. فاضطغن له وحقد عليه حقداً شديداً. وكان [تريبازوس] معروفاً بنقلب الالهواء والتهور وبعده عن الهدوء. وسواء اوجد نفسه مقرباً من الملك أم من المغضوب عليهم فتراه بعيداً عن الاعتدال في اي من الحالتين ان استدني تواقح وطغي بصورة لا تحتمل. وان تجوفي وابعد لا يستسلم ولا يسالم، بل تجده ثائراً عنيفاً. فكان ناراً تسعّر نار الأمير، ما يفتأ بحثه على العمل ويدفعه بعباراته الثائرة كأن يقول له:

- من العيب ان لايهتّم ذوو القلائس الطويلة بأمورهم على الوجه الصحيح: واني لأراك قصير النظر مافون الرأي ان كنت ضامناً ارتقاءك العرش، ولديك أخ يتطلع الى هذا المركز الأسمى وبيحث عن السبل المؤدية اليه في اجنحة الحريم ومخادع النساء وابوك ذو المزاج السريع التقلب، والطبع النزف الذي جعله يتخطى اقدس القوانين الفارسية واكثرها حرمةً حباً بفنائة آيونية ليس من المحتمل قط ان يكون مخلصاً في اهم عهد قطعته.

وزاد على ذلك قوله:

- ليس من حق اوخوس ان يصل الى التاج ولا ضرار عليه ان لم يصله وليس من حقه ان تنزل عنه او تهمل أمر المحافظة عليه. فاوخوس مواطن بسيط من الرعية، وبامكانه ان يعيش بهدوءٍ وهناءٍ وليس ثم ما يخشى منه. ولكنك انت الذي نودي بك ملكاً امامك طريقان لا ثالث لهما. اما ان تقبض على صولجان الملك فعلاً او ان تخاطر بحياتك في سبيل ذلك.

اثارت [داريوس] هذه الأقوال. ولاشك ان [سوفوكليس] لم يتعد الحقيقة حين قال:

ان سبيل الاقناع بما هو خاطيء سهل وسريع

ذلك لأنه ممهد بارادتنا. ومعظمنا يميل الى شرٍ بسبب بعده عن الخير وجهله به. وفي هذه القضية كانت حجة [تريبازوس] قوية ومادة اقناعه لا يأتيتها فشل بسبب سعة رقعة الامبراطورية والغيرة التي يشعر بها [داريوس] من اخيه، ولم تكن [ثينوس] بعيدة ايضاً. فهناك خسارته [اسپاسيا] مما يجب ان يدخل في الحساب. وهكذا اسلم [داريوس] مقاديره لتريبازوس واصبح طوع امره. وازداد عدد المؤتمرين الملتفين حولهما. وأطلع احد الخصيان على ما يدبر في الخفاء فأبلغ الملك بتفاصيل الخطة المرسومة لتنفيذ المؤامرة وتتم باقتحام مخدعه ليلاً وقتله وهو نائم. لم ير ارتحششتا ان يستهين بخطر كبير كهذا، ولا ان يثق بوجوده لان الدليل كان ينقصه، او ان الدليل لم يكن من الضعف بحيث يستدعي اهمال المسألة ولذلك قام الملك بالخطوات التالية: أمر الخصيي ان يواصل الاجتماع بالمؤتمرين ويلازمهم ولا يدعم يغيبون عن مراقبته. ثم عمل فتحة في جدار مخدعه خلف سريره ووضع عليها باباً يفتح ويغلق ووضع سجادة فوقه ليخفيها. وونت ساعة التنفيذ وابلغه الخصي بالموعد الذي قرره المؤتمرون لتنفيذ عملية الاغتيال فانظرهم وهو مستقلق على سريره ولم يغادره الا بعد ان تبين وجوه مهاجميه وعرفهم واحداً واحداً. ولما اخترطوا سيوفهم وتقدموا نحوه، رفع السجادة ودلف الى الغرفة الصغيرة واحكم رتاج الباب واطلق صيحة. ولما تأكد القتل انهم انكشفوا وان الملك لم يعد في متناول يدهم، اسرعوا بالخروج من حيث اتوا وحشوا [تريبازوس] ورفاقه على الهروب بعد افتتاح مؤامرتهم فهربوا كلاً في سبيل. الا ان حرس الملك كانوا في اعقابهم فأدركهم وقتل منهم عدداً كبيراً واطبقوا على تريبازوس وقذف برمح من بعد فصرعه. اما [داريوس] فقد احيل مع اولاده الى المحاكمة. وعين الملك قضاةً مدنيين للنظر في قضيته. ولكونه غائباً فقد اتهم بالواسطة وامر كاتبته بتدوين رأي كل قاضٍ وجليه اليه. وبعد ان أجمعت الآراء على موته اخذه الضباط الى غرفة قريبة، واستدعي الجلاد فجأةً وبيده الموس التي يستخدمها ارباب صنعته عادة في حز رؤوس المحكومين ولكنه ارتاع واحجم وانكفأ. الى الورا عندما تبين [داريوس] واراد ان يترك الغرفة وقد خانتته قواه. الا ان القضاة الذين كانوا واقفين بباب الغرفة، حالوا بينه وبين الخروج وهددوه وتوعده فعدا وقبض على شعر رأسه وجر وجهه الى الارض بيد وقطع رقبته باليد الأخرى. ويؤكد بعضهم ان الحكم صدر بحضور ارتحششتا وان [داريوس] بعد ان ادين بالجرم المشهود انطرح على قدمي أبيه مستعظفاً مستغفراً. وبدلاً من العطف عليه نهض غاضباً واختلط سيفه وصار يضربه به حتى قتله. ثم خرج الى القصر وتوجه بالدعاء الى الشمس قائلاً:

- اذهبوا يا أيها الفرس بسلام وأعلنوا لآخوانكم رعاياي عن القوة التي صبّ بها اهورمزدا انتقامه على فاعلي الشر والأثم.

تلك كانت عاقبة المؤامرة. وكبرت آمال [اوخوس] وعلل نفسه بنفوذ [اتوسا] إلا أنه كان يخشى اخاه [آريا أسپس Ariaspes] الذكر الوحيد الباقي من النسل الشرعي لآبيه خلافة. وكذلك كان يخشى [آرسام Arsames] احد ابناء ابيه غير الشرعيين. وكان [آريا اسب] محطّ انظار الفرس وكانوا يرغبون في ان يملك عليهم لا لأنه اكبر سنًا من [ارخوس] بل لأنه امتاز عنه بلطفه وعدالته وسموّ خلقه، إلا أن [ارسام] كان اصلح لتولي الحكم لرجاحة عقله. كذلك كان [اوخوس] يعلم انه المفضل عند ابيه. فأخذ ينصب لآخويه هذين الفخاخ وكان غدره لا يقل مطلقاً عن قوته فاستخدم الأخيرة ضدّ [آرسام] واستخدم الثاني ضدّ [آريا ايب]. ودفع خصيان ابيه والمقربين الي ان يختلقوا اقوالاً على لسان الملك وينقلوها الي [آريا اسب] كقولهم ان الملك اصدر الاوامر بانزال انواع النكال به وذاقته شرّ ميتة. ينقلون اليه هذه الاكاذيب يومياً ويهمسون بها في اذنيه بوصفها أسراراً. وقالوا له ان الملك ينوى الفتك به وشيكاً وان الضربة لاتلبث ان تهوى عليه، حتى اطاروا صواب الفتى المسكين وملأوا رأسه اوهاماً وهواجس فعمد الي سمّ كان قد هيأه فشربه تخلصاً من حالته. وعلم الملك باسباب موته فبكاه وتحسّر عليه وحزن حزناً صادقاً. وخالجه الشكّ في هوية من دفعه الي هذا المصير إلا ان شيوخوته وضعفه حالاً بينه وبين تحري الادلة والبراهين. وزاد تعلقه [بارسام] بعد موت هذا الابن ووضع فيه كل ثقته وجعله أمين سرّه ومستشاره، فلم يطق [اوخوس] صبراً عليه واستخدم [ارپاطس Arpates] ابن [تريبازوس] لقتل أخيه. ولم يكن ارتحششتا اذ ذاك غير انفس تصعد وتهبط ولما ابلغ بمصير [ارسام] لم يحتمل الصدمة ومات تحت وطأة الحزن وله من العمر اربعة وتسعون عاماً. حكم منه اثنتين وستين سنة، كان فيها حاكماً معتدلاً يميل الي الرأفة ولاسيما اذا قورن بابنه اوخوس الذي فاق جميع اسلافه في القسوة وسفك الدماء.

١٩٧٢/٣/٨



گالب

GALBA

(Servius Sulpicius)

5-69

اشهر. مثلهم في ذلك الممثلين يظهر أحدهم على خشبة المسرح فلا يلبث أن يخلى موضعه للتالي وهكذا.

ذلكم هو الانتصاف الوحيد المدخر للمضطهدين. فليس ثم عدالة وقصاص ينزل بساحة مضطهديهم أقوى واشد من ان يشاهدوهم وهم يذبحون بعضهم بعضاً. وكان أوّل من أكد لهم وعلمهم الفائدة من تبديل الأباطرة فنال أعدل الجزاء على ما قدمت يداه، هو ذلك الذي اساء الى عهد نبيل قطعه بالأجر الذي دفعه لتحقيقه، فانحرف بالثورة ضد [نيرون] الى ما هو اشبه بالخيانة العظمى.

ساعت احوال [نيرون] وبلغت حدّاً لايرجى منها اي صلاح وعلم أنّه ينوي الفرار الى مصر. كما ذكرنا سابقاً، فأنتهز كلّ من [نمفيديوس سابينوس Nymphidius Sabinus] قائد الحرس، وتغليينوس [Tigellinus] الفرصة واقنعا الوحدات العسكرية بالمنادة بـ(غالبا) امبراطوراً. كأنما اصبحت دولة [نيرون] في حكم الزوال، لقاء وعدٍ بدفع سبعة آلاف وخمسمائة درهم لكل واحدٍ من افراد الحرس، او الجند الپرييتوري (كما كانت تدعى) والـف ومائتين وخمسين درهماً لكل جندي من الوحدات المرابطة في الخارج. وكان مجموع المبالغ التي تعهدا بتوزيعها مما يستحيل ان يجمعها احد الا اذا لجأ الى الظلم والوحشية في جبايتها، والى الاستمرار في جمعها حتى يوم القيامة. اعنى ان يمارس قسوة واستبداداً يفوقان ما مارسه [نيرون] نفسه بمراحل، على ان هذه الوعود احدثت اثرها واسرعت [نيرون] الى حتفه، ثم ما لبث ان الحقت به [غالبا]. قتلوا اولهما بأمل قبض المكافأة التي وعدوا بها وقتلوا الثاني بعد قليل لأنهم لم ينالوها. ثم بحثوا عمن يستطيع شراء المنصب الشاغر بهذا الثمن، وارتكبوا اثناء بحثهم هذا سلسلة متوالية من اعمال العنف والغدر حتى نالوا مطلبهم. ولو شئنا الدخول في التفاصيل لاقتضانا ذلك مجلداً كاملاً. ولكني وسأكتفي هنا بما يفني بغرضي أعني سأقصر كلامي عمّا فعله القياصرة، وما عانوه.

هناك اجماع على ان [غالبا] هو أغنى من تولى منصب الامبراطور. والى جانب شرف كونه من اسرة [سرقيني Servii] فخر بصلته نسبه مع [كاتولوس Catulus] اعظم الرومان قدراً واعلاهم سجاياً وخلقاً، وان كان قد استسلم لاغراء الآخرين حين طمع بالسلطة والمنصب. ويمت [سولپيچيوس غالبا Sulpicius G.] ايضاً بصلته قرابة الى [ليشيا Livia] امرأة [اغسطس قيصر]، التي سعت له عند زوجها فعينه بروفنصل. وأثر عنه حسن القيادة في جرمانيا. والكفاءة في ممارسة الوظيفة نفسها في ليبيا، فنال سمعةً طيبة هناك، قلماً نالها سلف. الا ان اسلوب عيشه الهاديء وعزوفه عن اسباب الترف وشئى المظاهر الباذخة حطّ من قدره عند

اعتاد الفيلسوف [ايفيقراطس Iphicrates] القول: من الأفضل ان تستخدم الجنود المرتزقة الذين لا يهتمهم من الدنيا غير المال والملاذ، فهم اكثر اقداماً واقوى مراساً من الآخرين لأن القتال سبيلهم الوحيد للوصول الى ما يشبع رغباتهم. على ان الكثرة ترى غير هذا وتقول ان تركيب الجيش هو اشبه بتركيب جسم الانسان عندما يكون في حالة الصحة فان اعضاءه كلها تطيع اوامر الرأس وتسير على هدية بانتظام، ولا يعمل كل منها على هواه ويحدثنا الرواة مصداقاً لهذا، ان [پاولس اميلیوس] تسلم قيادة القوات المرابطة في مقدونيا، فراعاه ما وجد بينهم من الفضول والتدخل في شؤون لا تعنيهم وكثرة الكلام الى حدّ الوقاحة، حتى لكأن كل واحد منهم قائّد. فاصدر امراً يومياً جاء فيه «فلتكن ايديكم على استعداد ولترهفوا نصال سيوفكم، امّا الباقي فاتركوه لي». وافلاطون نفسه لم يكن يؤمل من اي حاكم داهية او جنرال موهوب خيراً ان لم ينل من جنوده الثقة والطاعة والانسجام (يرى ان فضيلة الطاعة كفضيلة الحكم لا تتوفر الا في الخلق النبيل الذي يدعمه التهذيب الفلسفي، فتتحالف القوى الفاعلة مع ارق الأحاسيس واكثرها انسانية)، بوسع هذا الفيلسوف ان يورد دعماً لمبدئه هذا مختلف الأحداث المحزنة. ولاسيما تلك التي عقب موت [نيرون] عند الرومان حيث تضافرت البراهين على ان ليس ثم افطع وافجع من القوة العسكرية حين تنطلق من عقالها فتصول وتجول في الامبراطورية دون رادع من العقل، ولا رقيب موجّه ان [ديمواديس Demuades] بعد وفاة الاسكندر الكبير شبه الجيش المقدوني [بالسيكلوب Cyclops] التي اقتعلت عينها الباصرة لما اقدموا عليه من فوضى وتخريب. الا ان الكوارث التي انزلها الجيش بالحكم الروماني هي أشبه بحركات العمالقة giants الذين هاجموا السماء يعتموها التشنج مرة، وينتابها الانسباط مرة أخرى، ثم تنطوى على نفسها وتنسحب، وذلك حسب اهواء اولئك الذين نودي بهم اباطرةً فضلاً عن اطماع الجنود وجشعهم ومواقاتهم. فلقد كانوا يقتلعون القواد واحداً بعد الآخر كما يقتلعون اظافر الانامل.

قال [ديونيسيوس] عن حكم [الفيرييين Phereans] هازناً «لقد كان حكمهم تراجيدياً» ذلك لم يستمتعوا بالحكم غير استقبال مالا يقلّ عن اربعة اباطرة خلال مدة تقل عن عشرة

صيرورته امبراطوراً وافسح المجال لتعزى اليه صفة البخل. وهي سمعة ظل لها من الحقيقة، كان انتظام حياته وزهده مسؤولين عنها. اناط به [نيرون] حكم اسبانيا وهو يجهل كيف يحتاط لنفسه ويحذر من آثار سمعته الطيبة وشهرته العظيمة. كما ساد الاعتقاد بأن مباشرته الشؤون العامة ستتم بالحذر والتوجس بسبب مزاجه اللطيف وشيخوخته.

وفيما كان عمال [نيرون] الطغاة يعيشون بمقدرات الأمصار وينفذون اوامره بقسوة ووحشية، ظل [غالبا] مكتوف اليدين لا حول له ولا قدرة على وقف تلك الأعمال الا التخفيف والتشجيع المعنوي للمنكوبين، بمشاركتهم آلامهم والتسرية عن المحكومين الذين تصدر الاوامر ببيعهم عبيداً ونشرت نشرات هجاء ونقد بحق [نيرون] ووزعت وتليت جهاراً في كل مكان فلم يمنعها. الا انه في الوقت نفسه لم تبدر منه بادرة سوء بحق وكلاء نيرون وعماله. وقد ازداد الناس به تعلقاً لحياده وعطفه. ولطول بقائه حاكماً لافليمهم. فقد كان له ثمانية اعوام في الحكم عندما بدأ [يونيوس فنديكس Junius Vindex] قائد القوات الرومانية في بلاد الغال بعصيانه على [نيرون] ولقد قيل ان رسائل بهذا المأل وردت الى [غالبا] قبل ان يذّر قرن العصيان وينقلب الى تمرّد علني، والظاهر انه لم يكتثر بتلك الرسائل، الا انه لم يخبر [نيرون] بأمرها كما فعل الضباط الآخرون والقادة الذين وصلهم مثلها، فلم يساهموا في التمرّد، مع انهم انضموا الى الانقلاب فيما بعد واعترفوا بانخداعهم مثلما اعترفوا بانهم خدعوه. واخيراً أعلن [فنديكس] الحرب وكتب الى [غالبا] يحثه على تولي السلطة العليا، وبذلك يمنح رأساً مفكراً لهذا الجسم القوي، ويعني به الاقاليم الغالية التي يحميها مائة الف مقاتل كامل العدة والسلاح ويقول له ان باستطاعته فضلاً عن هذه القوات تعبئة اكثر من مثل هذا العدد عندما تدعو الحاجة. فعرض [غالبا] الأمر على انصاره واصدقائه فرأى بعضهم ان الانتظار أجمل به وان الافضل هو مراقبة تطور الموقف في روما من هذا الانقلاب وما ينجم عنه من آثار. الا ان [تيطس فينيوس] قائد الحرس الپريتوري هبّ متسائلاً:

- ما معنى هذا التدقيق والحذر يا غالبا؟ ان مجرد المداولة في بقائنا على ولائنا [لنيرون] أو شق عصا الطاعة عليه، هو بحد ذاته عصيان. ان نيرون هو عدونا. وليس من الحكمة ان نحبس انفسنا عن معونة [فنديكس] والا يجب ان نبادر الى شجب عمله فوراً ونزحف لقتاله لأنه يرغب في ان تتولى انت حكم الرومان بدلاً من ان يستمر [نيرون] في طغيانه.

وعندئذ اصدر [غالبا] بياناً أعلن فيه موعداً لتسلمه زمام الحكم التجرري، وكانت الشائعات والدعاوات السابقة له قد احدثت اثرها الكبير في جمع الناس حوله واعدت الأذهان

لتبني الانقلاب. فلما ظهر في دار القضاء هتف الناس له وحيوه بلقب الامبراطور بلسان واحد. الا انه ابى قبول ذلك في حينه، ثم أخذ بعدها يقترح في نيرون ويندد بأفعاله ويأسف على الأفاضل والخيرين الذين اهلكهم. ثم قدم نفسه لخدمه بلاده لا بلقب [قيصر] او [امبراطور] بل باسم «وكيل الشعب الروماني ومجلس شيوخه».

كان [فنديكس] بعيد النظر في دعوة [غالبا] لمنصب الامبراطور، وهذا ما شهد به نيرون نفسه، فقد كان يحتقر من شأن [فنديكس] ولا يهتم بالغالبين قلامة ظفر، ولا يشغل نفسه بهم. ولكن الأمر كان مختلفاً من جهة [غالبا] وقد شاعت الصدفة ان يردّه نبأ انتفاضة عليه وهو خارج من حمامه يهيم بتناول فطوره، فرفس المائدة وقلبها عاليها سافلها حقاً. ولكن نفسه طابت عندما صوت مجلس الشيوخ على اعتبار [غالبا] عدواً لروما. فأخذ من الأمر مادة للتفككة وبث الثقة في نفوس المواليين له:

- تلك فرصة ذهبية لي انا الذي كنت في امس الحاجة الى غنيمة كالغنيمة الغالية التي ستقع بين يدي اسلاباً شرعية. امّا املاك [غالبا] فبوسعي استعمالها او بيعها حالاً بعد ان أعلن عدواً لنا.

واسرع بعرض احوال [غالبا] للبيع. فلما سمع هذا وضع الحجز على جميع ما يملكه [نيرون] في اسبانيا ووجد له مشتريين متحمسين للشراء. واصبح عدد القائمين ضدّ نيرون كثيرين، وانضموا كلهم تقريباً الى جانب [غالبا] ما عدا [كلوديوس ماچير Clodius Macer] في افريقيا، و[فرجينوس روفوس Virginius Rufus] قائد القوات الجرمانية في بلاد الغاليين. فقد رفضا الانضمام اليه على انهما لم يتفقا على رأى واحد. فكلوديوس الذي يدري ما ادى به الجشع والقسوة من قتل واغتصاب، كان يتجاذه عاملان: اعتزاله القيادة، او البقاء فيها. امّا [فرجينوس] الذي كان يقود أقوى الفرق الرومانية. فقد حظي منها بلقب الامبراطور عدة مرات وكثر الحاح الجنود عليه بقبول اللقب فأعلن قائلاً انه لم يقبل لنفسه هذا اللقب الرفيع ولم يدع أحداً يفعل ذلك. الا من يختاره مجلس الشيوخ.

كل هذا أقلق [غالبا] كثيراً. ولكن الجنود تغلبوا على ارادتي [فنديكس] و[فرجينوس] بالضغط والحث فأرغموهما على دخول معركة ضارية وجد [فنديكس] نفسه الطرف الخاسر والسيف يعمل في رقاب عشرين الفاً من جنوده الغاليين فقتل نفسه. وانتشرت الانباء في سائر البلاد بأن الكل قد اجمعوا على [فرجينوس] بعد ان نال هذا النصر الساحق، فان رفض فسيشدون ازر [نيرون]. فركب [غالبا] همّ عظيم وكتب الى [فرجينوس] يدعوه الى الانضمام اليه مخافة ان يدبّ الانقسام في الامبراطورية ومحافظة على حرية الرومان. ثم

انسحب هو واتباعه الى [كلونيا Clunia] المدينة الاسبانية نادماً على تنطعه وتزمتته، ناشداً الهدوء والراحة مفضلاً الجمود على التحرك للقيام بواجبه وفقما تملي عليه الظروف. وكان الوقت صيفاً عندما جاءه رسول من روما، قبل الغسق بقليل. وهو روماني حرّ يدعى [ايجيلوس Icelus] قطع المسافة من روما بسبعة ايام فقط. وتوجه الى موضع الذي انزوى فيه [غالبا] ودفع جانباً الخدم الذين اعترضوا سبيله الى غرفته ودخل عليه ليبلغه ان نيرون قد أختفى ولا احد يعلم محله. وان الجيش بالدرجة الأولى ثم عامة الشعب ومجلس الشيوخ بالدرجة الثانية قد أعلنوه امبراطوراً ولم يذع نبأ القضاء على حياة نيرون إلا بعد فترة طويلة من اعلانه امبراطوراً. ثم استطرده يقول:

- على اني أقتنع باشاعة موته، حتى ذهبت بنفسى وشاهدته جثة هامدة فأطلقت اليك لابلغك الأمر.

فأرتفعت معنويات [غالبا] ثانية، وتقاطر الناس الى منزله وهم مؤمنون بنبأ الرسول وان كانت رحلته بسبعة ايام يصعب تصديقها. ومرّ يومان على وصوله، وجاء [تيطس ميثيوس] يحمل انباءً أخرى من المعسكر تؤكد النبأ الأول وتحوى تفاصيل الاوامر التي اصدرها مجلس الشيوخ. فرفع [غالبا] من مكانته وقلده اسمى الرتب. اما الرجل الحر الذي جاءه باول الانبياء فقد شرّفه [غالبا] بالختام الذهبي وعمد هو الى تغيير اسمه فأصبح يعرف بـ [مارشيانوس Marcianus] وعُدّ اول الاحرار الرومان. إلا ان الأمور في روما لم تستقر. فقد استأثر [نمقيديوس سابينوس] بالسلطة كلها دون ان ينزل عن شيء منها لغيره ومارسها بصورة فجائية لا بلطف أولين. فكرّ [نمقيديوس] ان [غالبا] العجوز الذي اناف على الثالثة والسبعين، لن يمتد به العمر ليحمل الى روما واهن القوى بمحفة. وكان جنود العاصمة يحبونه منذ زمن طويل، بسبب اهتمامه وتحافهم بالهدايا، في حين ان الوعد بالمكافأة الذي قطعه لهم [غالبا] جعلهم يعتبرونه مديناً لهم. فوجه [نمقيديوس] اهتمامه بمصلحته الخاصة. وأمر صاحبه وزميله [تجيلينيوس Tigellinus] ان يعيد السيف الى قرابه وبدأ يقيم الولائم والحفلات ويدعو رجال الحكم السابقين من قناصل وقواد اليها. باسم [غالبا]. وجمع عدداً كبيراً من الجنود في المعسكر ليقترحوا الطلب من [غالبا] بان يعينه حاكماً عاماً<sup>(١)</sup> مدى الحياة دون شريك يقاسمه السلطان. واتبع مجلس الشيوخ سبيل الاغراق في تكريمه، وتوسيع صلاحياته مما جعله بغيضاً مخوفاً حتى من أولئك الاعضاء الذين املوا عطفه واحسانه

(١) Prefect: في روما القديمة يعتبر هذا اللقب صفة لمختلف الرتب العسكرية والمدينة ويلقب به الحكام وذوو السلطة الاجرائية.

واعتبروه منقذاً فكانوا يتسكعون امام منزله يومياً. وخصّوه بامتياز اعطاء قراراتهم صيغة التنفيذ بتصديرها باسمه وبهذا بلغوا به نهاية الصلافة والعجرفة. وعندما ارسل القنصلان رسلهما الى الامبراطور بقرارات مجلس الشيوخ مع الدبلوماسية<sup>(٢)</sup> المختومة بالاختام التي كانت السلطات الادارية تنتظرها في كل مدينة يجرى فيها تبديل عربات الرسل وخيولهم. فيستحث الرسل للاسراع جهد طاقتهم، استاء جداً لأنه لم يسأل عن وضع ختمه، ولم يكلف جنوده بالمهمة، واخذ يفكر في الانتصاف لنفسه من القنصلين. إلا ان غضبه انفضأ بعد ان اعتذرا له واكداً ولاءهما. ولم يتدخل باي شكل عندما اخذ الجمهور يتصيّد اتباع [نيرون] ويضربون كل من وقع منهم بايديهم حتى الموت ارضاءً لهم. وممن لقي حتفه بهذه الطريقة المصارع [سبيكلوس Spiculus] الذي ديس تحت اقدم تماثيل نيرون في الفورم، وانزلت التماثيل وسحبت فوق جثته. وطرحوا [اپونيوس Aponius] أرضاً واشبعوه ضرباً ثم جرّوا عربات مثقلة بالحجارة فوقه، وهو احد الذين مدت اليهم العامة باصابع الاتهام عن كثير من الجرائم. ومزقوا كثيرين غيرهما تمزيقاً وكان بعضهم بريئاً. وتمادى الناس في ذلك حتى ان [مورسيكوس Moursicus] عضو الشيوخ وهو رجل فاضل عظيم القدر صرح في المجلس قائلاً يخشى ان لا يطول بهم الزمن حتى يتمنوا عودة [نيرون].

بلغ [نمقيديوس] نهاية جبروته؛ فلم ينف ما اشيع عنه بانه ابن [كايس قيصر] خليفة [طيريوس] الذي كان معروفاً عنه بأنه عشيق امه في مطلع شبابه. وكانت ام [نمقيديوس] من الجميلات المعدودات، وهي ابنة كالليستوس Callistus احد عتقاء قيصر وكانت تمتهن الحياطة. وواضح بأن علاقة [كايس] بالأم [نمقيديا] كانت في زمن متأخر بحيث لا يمكن قط ان تعزّز ادعاه هذا بسبب مقبول. ولقد شك في انه قد يدعي ايضاً ببنوة المصارع الشهير [مارشيانوس Martianus] الذي اغرمت به [نمقيديا]، للشبه الكبير بين الاثنين. ومع اعترافه بأمومة [نمقيديا]، تراه يعزو سقوط [نيرون] لنفسه وحده ويعتقد ان كل ما ناله من ثروة وجاه وسلطان لا تكفي لايفاءه حقّه (وزاد على هذا كله، انه ارسل يستقدم [سپورس Sporus] ومازالت النيران تشتعل في جثمان نيرون واتخذة صاحباً، وعامله معاملة الزميل مع اسم پوپيا Poppæa<sup>(٣)</sup>) وانما كان يجب ان يتولى منصب الامبراطور. ولم يكن يعدم انصاراً له في روما، يعلمون لهذه الغاية في السرّ، فضلاً عن عدد من النساء المتنفذات، واعضاء من

(٢) Diploma: لغوياً «رسالة مختومة ومغلقة». وفي عهد الجمهورية تصميم او نشرة رسمية تتضمن توصية تعطى المسافرين من قبل الحكومة لتسهيل سفرتهم وفي عهد الامبراطورية صارت الكلمة تطلق على الوثيقة الحكومية التي تصدر بمنح امتيازات للاشخاص الموجهة اليهم. والشك ان المقصود هنا هو المعنى الأخير.

(٣) زوج نيرون.

مجلس الشيوخ، وارسل الى اسبانيا [جيليانوس Gellianus] احد اصدقائه لمراقبة الامور عن كتب.

على ان امور [غالبا] استقامت بعد موت [نيرون] وباتت على خير ما يرام. خلا موقف [فرجينوس روفوس] المتردد. فقد ظلّ معلقاً موزع الفكر بين ان يعمل وفق نصيحة من يزين له الاستيلاء على السلطة لنفسه بعد ظفره [بثنديكس] وخضوع جزء كبير من الامبراطورية الرومانية له، اعني بلاد الغالين باسرها التي بدت وكأن الثورة تتمخض فيها وانها على حافة الانفجار، فضلاً عن الجيش العظيم الذي يتولى قيادته. لم يكن هناك صنو لفرجينوس في الواقع سمعةً واسماً وشهرةً، فقد اضطلع بمهمة مزودجة الخطورة وهي انقاذ الامبراطورية من أهول استبداد، وانتشالها من مخاطر حرب غالية سيئة العواقب. على ان ظلّ متمسكاً برأيه الأول فأبقى لمجلس الشيوخ سلطانه في انتخاب الامبراطور. لكن الجنود زادوا من الحاحهم وضغطهم عليه بعد موت [نيرون] وخيروه بين تولي الحكم، وبين البطش به ودخل تربيبيوس خيمته مخترباً سيفه لتنفيذ ذلك. ثم أعلن [فايوس فالينس Fabius Valens] احد قادة الفرق ولاءه لغالبا، ووردته رسائل من مجلس الشيوخ تعلمه بقراره انتخاب [غالبا] امبراطوراً. وعندها وبعد لأي وتمكن من اقناع الجيش بقبول الأمر الواقع والمناداة بغالبا امبراطوراً. وسلم قيادته ل[فلاكوس هورديونيوس Flaccus Hardeonius] خلفه المرسل من [غالبا] طوعاً ورحل لمقاولة [غالبا] وهو قادم الى روما وقام على خدمته، إلا ان [غالبا] لم يشح عنه بوجهه ولم يظهر له التفاتاً كثيراً. ان شعور [غالبا] بالاحترام منعه من اظهار استيائه منه، وغيره اصدقائه من [فرجينوس] ولاسيما [تيطس فينيوس] ضده عن القيام بواجب التكريم له. كان [تيطس] مدفوعاً الى مناصبة العداة بدوافع حسد شخصية تهدف الى الحيلولة دون صعوده في مدارج السلطة. وبهذا عاون روح فرجينوس الحارسة على انقاذه من المخاطر التي تجابهه غيره من القادة وتقودهم الى نهايات مفعجة. فأمن له حياة هادئة وشيخوخة هنيئة مستقرة.

استقبل [غالبا] وقد مجلس الشيوخ بالقرب من مدينة [ناربو Narbo] الغالية. وبعد التهنئة طلبوا منه الاسراع الى روما لأن الشعب هناك ينتظره بفارغ الصبر. وكان [غالبا] يحادثهم بكل احترام وتواضع، وارسل اليه [نمغيدوس] الأثاث الملكي والخدم الذين كانوا يقومون بخدمة [نيرون] في ولائمه. فلم يستخدم شيئاً منها ولم يقربها واكتفى بما لديه. فأطلق اللسنة بمدحه والثناء عليه ووصفه بالحكيم اللبيب المرتفع عن متاع الدنيا وعيشها. إلا ان [فينيوس] اشار بأن هذه الاساليب الرفيعة والحياة المتجردة عن الفخفة والحافلة بروح

البساطة قد تفسر بأنها مجرد تظاهر مقصود لا بذاته بل لخطب ود الشعب. فهو احجام لا طائل تحته عن اطلاب المجد الحرّي به. فأقنعه واغراه باستعمال اثاث نيرون في ولائمه التي باتت فهي لا تخلو من الأبهة والمظهر الملكي واخذ الشيخ الهرم يستسلم بالتدريج [لثينوس] ويعمل بمشورته [فينيوس] هذا، لم يكن يعرف للجنش حدوداً. كما لم يكن يعيداً عن الشبهات في علاقاته الجنسية فقد عرف عنه في اول حياته ايام شبابه عندما كان يخدم بأمرة كالفيسوس سابينوس Calvisius Salbinus انه ادخل زوج قائده وهي امرأة هلوك شديدة السبق الى المعسكر خلصة وهي متكرة بثياب جندي ليلاً. وقبض عليه وهو نائم معها في الجزء الذي يطلق عليه الرومان [پرنچيپيا Principia] (٤) فزجه [كايوس قيصر] في السجن ولم ينقذه من شديد العقاب إلا وفاة هذا القائد. وذكر ايضاً عنه ان [كلوديوس قيصر] دعاه مرةً للعشاء، فأختلس من المائدة كأساً فضيئة. وابلغ قيصر بالأمر. فدعاه ايضاً في اليوم التالي وأمر خدامه بالآ يضعوا امامه صحيفة من الفضة بل طبقة فخارياً. وجعل قيصر الأمر أدعى الى التندر والتفكهة منه الى المواقفة الجنائية. إلا ان الاعمال التي ارتكبها بدافع من طمعه سببت واثارت مشاكل خطيرة واذى قتلاً محزناً لما اتسعت سلطته وكان [غالبا] في قبضته.

وزاد قلق [نمغيدوس] بعودة [جيليانوس] من اسبانيا. وكان كما اسلفنا قد ارسله ليكون له عيناً على [غالبا] ورقبياً على اعماله، فقد علم منه ان [كورنيليوس لاکو Cornilius Laco] عين قائداً للحرس الپريتوري. وان [فينيوس] هو اقرب المقرين من [غالبا]. وانه [اي جيليانوس] لم يسمح له بالدنو من غالبا، فكيف بمبادلته الكلام على انفراد. فقد وضعت عليه رقابة شديدة شلته تماماً. فلم يكن من [نمغيدوس] إلا ودعا ضباط الجيش الى اجتماع وخطب فيهم قائلاً: ان [غالبا] شيخ فاضل، حسن النية إلا انه سلب الارادة، وهو لا يعمل بوحى ضميره. وان [فينيوس] و[لاكو] يسيئان النصح له. وهناك خوف كبير من احتكار السلطة التي كان [تيجيلينوس] يمارسها على جنوده قبل ان يفتن هؤلاء للأمر ولذلك فهو يقترح عليهم ارسال وفدٍ من المعسكر الى [غالبا] يعلمه بأنه سيلقى مزيداً من الترحيب والحفاوة عند وصوله، ان اقصى هذين الشخصين عن دائرة خاصته ومستشاريه. (كان من الحقم والقحة ان ترسم القواعد واسلوب العمل لقائد محنك، ولاسيما حول من يختار من اصدقاء، ومن يبعد من مستشارين، كأنه شاب غرٌ حديث العهد بالحكم وممارسة السلطة)

(٤) يطلق هذا الاسم على موضع من المعسكر حيث تنصب فيه خيم القائد العام وضباطه وقواد الفرق والتربيينين وحيث تلقى فيه الخطب فهو اشبه بمقر عام.

ووجد [نمغيدوس] مساعيه في هذا السبيل لم تؤت الثمرة المنشودة، فلجأ الى طريقة أخرى وكتب له شخصياً عدة رسائل تفوح منها رائحة التهديد، والانذار بسوء العاقبة. منها قوله ان العاصمة بعيدة عن الاستقرار، وان الهدوء مفقود. ومنها ان [كلوديوس ماچير] اعترض سفن القمح من افريقيا واحتجزها. وان الفرق المعسكرة في جرمانيا بدأت تتململ وتميل الى التمرد، وانه سمع بما يشبه ذلك فن سوريا واليهودية. فلم يأبه [غالبا] به ولم يقيم وزناً لحكاياته تلك. ولذلك قرر [نمغيدوس] ان يقوم بمحاولته. فنصح [كلوديوس چلسوس Clodius Celsus] الانطاكى وهو رجل عاقل وصديق مخلص له. بان يعدل عن نيته، قائلاً انه مخطيء اذ ليس هناك حي واحد من احياء روما يستقبل به قيصرًا. على ان معظم انصاره كانوا يستهينون ويستصغرون شأنه. ومن بينهم [ميثريدات] ملك الپونطس الذي قال ساخراً: «ما ان ير هذا الرجل الأصلع الكثير التجاعيد في روما، حتى يجد اهاليها ان اختياره قيصرًا لهو عين العار والحزي.

وتقرر أخيراً أن يؤتي بنمغيدوس الى المعسكر في حدود منتصف الليل للمناداة به امبراطوراً، إلا ان [انطونيوس هونوراتوس Antonius Honoratus] أوّل التريبونين، جمع ليلاً كل من كان تحت أمرته. وأخذ يتهمهم ويتهم نفسه بكثرة التقلب وأفن العقل وفساد الرأي. والتذبذب غير المبثني على هدف او اقامة وزن للأهلية والكفاءة وقال ان شيطاناً رجيماً يدفعهم الى الانتقال المفاجيء من رأي الى رأي. وختم كلامه بقوله هذا:

- لا شك ان جرائم [نيرون] تبرر الى حد ما اعمالكم السابقة. اما الآن فما دفاعكم وما تبريركم لغدركم بـ [غالبا] الفتك بأمرام لدم زوج سفكه؟ ام لاحاقه العار بالسلطة الامبراطورية فوق خشبة المسرح وبين الممثلين؟ اننا لم نتخل عن [نيرون] مع هذا كله، الى ان اقنعنا [نمغيدوس] نفسه بان [نيرون] كان الباديء بالتخلي والفرار الى مصر. افينبغي لنا والحالة هذه ان تُرسل [غالبا] الى الابدية للتسرية عن طيف [نيرون] او علينا ان نخلع أحد اعضاء اسرة [ليقيا] لنجعل من ابن [نمغيديا] امبراطوراً، كما كان الحال مع ابن [اغريپينا]؟ ان اردنا ان تكون عادلين مقسطين فيجدر بنا الانتقام لموت نيرون واطهار الاخلاص والوفاء باحتفاظنا بغالبا.

بعد ان انتهى هذا التريبون من كلامه، اتفقت كلمة الجنود على العمل برأيه واخذوا يحثون بعضهم بعضاً على الولاء للامبراطور. وحصلت موافقة الاغلبية الساحقة، وفيما هم يتداولون في الأمر سمعوا ضجة وصيحة عظيمة. قيل ان [نمغيدوس] ظن الجنود يتربصونه بفارغ الصبر، وقيل انه عجل بالقدوم ليتخذ الأهبة للقضاء على اية معارضة وكسب المترددين الى

جانبيه، فخف مسرعاً الى المعسكر بكثير من النور المشاعل، وهو قابض على خطاب كتبه له [چنگونيوس چارو Cingonius Varro] كان قد استظهره، لالقائه على الجنود. إلا انه وجد ابواب المعسكر موصدة، وشاهد عدداً كبيراً من الجنود متقلدين الاسلحة يخفرون السياج فساوره خوف، على انه دنا وسألهم عن الخبر وعمن امرهم يتقلد السلاح. فسمع هتافاً عاماً بحياة [غالبا] امبراطورهم. فتقدم منهم وراح يهتف معهم وامر القادمين معهم بان يحذوا حذوه إلا ان الحرس لم يسمح له بدخول المعسكر الا مع نفر قليل. فلم يجتز المدخل الا وقذف برمح فادراه عنه [سپتيميوس Siptimius] بترسه وكان يسير قدامه. إلا انه هوجم بالسيوف، فهرب فلحقوا به الى مضجع الجنود وهناك فتكوا به. ومن ثم سحلوا جثته. ثم احاطوها بحاجز وعرضوها على الانظار في اليوم التالي ولما بلغ [غالبا] نبأ القضاء عليه امر فوراً باستئصال شافة انصاره واشياعه الباقين الذين لم يقتلوا انفسهم وكان من بين القتلى [چنگونيوس] كاتب الخطاب و[ميثريدات] الذي ورد ذكره. وعلى اية حال فقد كان هذا عملاً ينطوى على ظلم واعتساف جرى خلافاً للقوانين، ولم يلق تحبباً وان كان جزءاً وفاقاً فلم يجر العرف ان تنتزع حياة اناس من ذوي المكانة دون محاكمة، في وقت كان الجميع يتوقعون تبديلاً اساسياً في الحكم يختلف عن الحكم السابق؛ وشعروا انهم اخذوا بالعود والمعسولة والكلمات الطيبة. وما زاد في الطين بله قتل القنصل پترونيوس تربيانوس Petronius Turpilianus الذي ظل مخلصاً لنيرون! في الواقع ان ازاحة [ماچير] من افريقيا وقيام [فالينس] بازاحة [تربيونوس] و[فونتيوس Fontius] من المانيا، كان له ما يبرره، فهؤلاء لا يؤمن جانبهم، لأنهم قادة عسكريون مؤسرون على قوات مسلحة، وجنودهم طوع أمرهم. ولكن ما الذي دعا الى حرمان الشيخ الأعزل [ثورپيليانوس] من حق الدفاع ومحاولة تبرئة نفسه؟ واخذ الناس يتساءلون هل سيطبق حقاً ولو جزء من العدالة والمساواة اللتين وعد بهما الناس. الى مثل هذا النقد عرضت [غالبا] تلك التصرفات الالقانونية.

لم يبق بين [غالبا] وروما غير خمسة وعشرين فرلنكا عندما اعترضته حشود من البحارة لايجمع بينها نظام، فاحاطت به اثناء مسيرته، كان هؤلاء قوام فرقة عسكرية شكلها [نيرون]. وهم الآن يطلبون من [غالبا] بكل خشونة وغلاظة تأييد قرار التشكيل. فأحدثوا خللاً عظيماً وهرجاً ومرجاً وسدوا عليه السبل ومنعوا مستقبل الامبراطور الجديد من الوصول اليه والتسليم عليه وعلا ضججهم وصراخهم مطالبين لفرقتهم بالأعلام والشعارات وتخصيص مقرات لها. فاستمهلهم [غالبا] الى وقت مناسب ففسروا كلامه بالرفض فزادوا تطاولاً ووقاحة وراحوا يقتفون اثره وهم يصرخون وجرده بعضهم السيوف. فلم يسع [غالبا] الا

ان يأمر خيالاته بالهجوم عليهم، ففعلوا وشتتوا شملهم ولم يصمد واحدٌ منهم وسقط هناك كثير من القتلى وقضى على عدد مماثل في اثناء المطاردة. وهكذا اقترن اول دخول لغالبا بحادث مشؤوم. اذ سار خائضاً الدم ومتخطياً جثث القتلى. وراح الناس الذين احتقروه قبلاً الشيوخوته ينظرون اليه الآن برعب وتوجس.

وكان اول خطأ فأحش وقع فيه هو محاولته اظهار الفرق بين سفاهة نيرون وتبذيره الاموال، وبين امساكه وحرصه على الأموال العامة. فقد تجاوز تقديره واقتصاده وابتعاده عن الفخفة كل حدٍّ معقول، فلما عزف [كانوس Canus] العازف المشهور اثناء عشاء، عبّر عن استحسانه بان طلب ان يؤتى له بحقيبة. ثم أخذ يضع فيها قطع ذهبية فيها وقال ان ما اعطاه هو من حبيبه لا من خزينة الدولة. وضيق من حدود المخصصات الكبيرة التي كان [نيرون] قد منحها للمصارعين والممثلين ومن لف لفهم، وانزلها الى العشر، ومع ان ما سبق واعطي لهؤلاء كان بمجموعه صغيراً وهم من ينفق دخله اليومي باسرع مما يتسلمه لحياة الترف والتهتك التي ترغمهم عليها صناعتهم. فقد امر باجراء تحقيق مع من باع واشترى منهم وطلب اعادة الفرق بين مخصصاتهم الحالية وبين ما تسلموا قبلاً واثار مشاكل لا حد لها. وانداحت عملية استعادة الاموال فشملت رقعة واسعة، ومست عدداً كبيراً من الاشخاص فاساءت كثيراً الى سمعة [غالبا]، واثارت كره الناس لثينيوس الذي جعل الامبراطور يبدو للناس كزاً بخيلاً وضيع النفس، في حين كان هو نفسه ينفق الاموال بدون حساب. ويضع يده على كل ما يستطيع ويبيع لاي مشترٍ تطبيقاً لوصية هسيود الذي يشير علينا بأن نشرب ولا نستبقي شيئاً...

من فم الزق حتى قرارته

و[ثينيوس] الذي وجد امبراطوره شيخاً هماً واهناً، راح يسعى ليجمع اول ثروة له وآخرها. دون رادع او رقيب.

وساءت سمعة [غالبا] من ناحيتين. اولاهما اطلاق يد [ثينيوس] في ارتكاب اسوء الاعمال. وثانيتها بايقافه الاجراءات العادلة والصحيحة التي كان قد أمرها بها او بتشويهها. كانزاله العقاب باشياع نيرون. فعندما قضى على اشرارهم من أمثال [هيليبوس Helius] و[بولقليطس Polycletus] و[پتينوس Petinus] و[پاتروبيوس Patrolius] استحسن الشعب عموماً هذا العمل وايدته تأييداً تاماً وراحوا يهتفون للامبراطور وهم يسحلون جثثهم سحلاً في الفورم، فكان منظرٌ يشفى القلوب الكليمة وموضع الرضى من الآلهة نفسها. ثم اجمعوا بصوت واحد على ان الآلهة والبشر يطلبون على السواء اجراء حكم العدالة بحق

[تجللينوس] اصل كل البلاء ومؤسس الطغيان ومرشده. الا ان هذا الرجل كان قد اتخذ احتياطاته بشكل هدية ووعد [ثينيوس]. اما [تورپليانوس] المسكين فلم يسمح له بانقاذ حياته مع ان جريمته الوحيدة هو انه لم يخن [نيرون] ولم يظهر كرهاً له الا ان هذا الذي عمل نيرون ما عرفه به التاريخ ثم تخلى عنه وغدر به، ذلك الذي كان محرضه على الفساد والى أقصى حدود الفساد، سمح له بانقاذ حياته ليكون مثلاً حياً على مقدرة [ثينيوس] على ان يفعل ما يريد. او اعلاناً بان الغني المستعد للدفع لن ييأس في حصول على ما يريد. وعلى اية حال تملكت الناس رغبة شديدة في رؤية [تجللينوس] وهو يساق الى النطع. وظلوا يواصلون طلبهم في كل مكان حتى في المسرح، وفي ميدان السباق؛ الى ان اسكتهم مرسوم امبراطوري يعلن بان [تجللينوس] لن يعيش طويلاً لأنه مبتل بداء الصدر، ويرجو المرسوم منهم ان لا يحاولوا جعل عهده يبدو حافلاً باعمال القسوة والاستبداد. وهكذا ضحك على الجمهور الناقم واسكتته.

واقام [تجللينوس] وليمة فخمة، وضحى للآلهة شكراً على خلاصه. وترك [ثينيوس] مائدة الامبراطور بعد العشاء واخذ معه ابنته الأرملة ليسمر مع [تجللينوس] فأسرع هذا يقدم شكره لها، مع هدية من المال تبلغ مائتين وخمسين الف درهم ثم التفت الى كبيرة مخطباته فطلب منها ان ترفع من جيدها قلادة نفيسة وطوق بها جيد بنت [ثينيوس]. وقد قدر ثمن هذا العقد في حينه بمائة وخمسين الف درهم.

ولم يعد ثم مجال للاتيان بالاعمال النافعة والمعقولة مثل ذلك معاملته للغاليين الذين شاركوا [قنديكس] في عصيانه. فقد اعتبر الرومان الغاء الجزية عنهم ومنحهم حقوق المواطنة الرومانية لا مظهراً من مظاهر رافة [غالبا] بل ربحاً مالياً [ثينيوس]. وبهذا اصبحت جماهير الشعب تنظر الى الحكم نظرة نفرة. الا ان الجيش ظل محافظاً على الهدوء ترقباً للأعطيات التي وعد بها وكانوا يعللون انفسهم على الأقل بجزء منها يساوى ما كان نيرون يعطيهم ان لم يتسير الكل. ولما سمع [غالبا] فيما بعد انهم بدأوا يتظلمون قال بعجرفة الجنرال الأمر: انه لم يتعود شراء الجنود بل دخولهم الخدمة تطوعاً فسمعوا ما قاله واشتد غضبهم عليه وكرهوه. فلم يقتصر على غشهم، وخداعهم في آمالهم، بل اختط بقوله هذا سابقة سيئة لبتبعها خلفاؤه. على ان النار التي كانت كامنة في فؤاد روما لم تستعر بعد لأن ما تخلف فيها من الاحترام لشخص [غالبا] خفف من غلوائها، وأخر ضرامتها. ولم يجد الجنود علّة ظاهرة للتحرّك، ولكن ثورتهم ظلت مستترة تحت نعمتهم المتصاعدة على ان القوات الجرمانية التي كانت بامرة [فرجينوس] وهي الآن بقيادة [فلاكوس] ركبته الخيلاء

وشعرت بروح التفوق بعد المعركة الظافرة التي خاضتها ضد [قنديكس]، ووجدت أنها لم تكن شيئاً كثيراً منها فاشتدت نغمتها على ضباطها وعصيت اوامرهم. ولم يكون لتقييم وزناً لأمرها [فلاكوس] بسبب مرضه وابتلائه بالنقرس المزمن فضلاً عن كونه رجلاً قليل الخبرة.

وحدث في احد الاعياد حيث العادة ان يتوجه الضباط بالتهانيء للامبراطور وتمني الصحة والسعادة له، ان أخذ الجنود عامة يجأرون بالشكوى ويتذمرون. ومضى الضباط في مراسيم الحفل وطلبوا منهم المشاركة فأجابوا «انه لا يستحق ذلك» (يقصدون الامبراطور).

واخذ ترد [غالبا] رسائل حول هذه الأمور من وكلائه بعد ان ظهرت الشكاوى نفسها من جنود الفرق المعقود لوائها لـ [فيتيلوس] فذب فيه القلق وبدء الخوف من سقوط سمعته يشيع في نفسه لاسبب شيخوخته وحده بل لأنه لم يخلف وريثاً من صلبه. فقرر أن يتبنى شاباً حسن الخلق والمؤهلات، ويعلنه خليفة له، وكان يوجد آنذاك شاب يدعى [ماركوس اوتو] وهو شاب طيب الأصل، الا انه عرف منذ حادثته بانه من أكثر شباب روما تهتكاً وفجوراً وترفاً، وكما خلع [هوميروس] على [پاريس] في عدة مواضع لقب «حبيب هيلين الجميل» فخلد اسم المرأة وجعل اسمه ملحقاً بها كأن ليس لپاريس ما يمتاز به غير هذا، كذلك كان الأمر [بأوتو] فقد انحصرت شهرته في روما بوصفه «زوج پومپا» ارملة [نيرون] التي اغرم بها هذا عندما كانت زوجاً [للكرسپينوس Crispinus] ولما كان [نيرون] في ذلك الوقت يخشى أمه ويخلص لزوجه الأولى فقد استخدم [اوتو] ليكون وسيطاً له الى قلبها في السر. فقد كان نيرون لاوتو خلاً لصيقاً به. اذ قربه منه تطرفه واغراقه في اللهو وكان يبدو عليه السرور والانشرائح حتى عندما يقسو عليه في التندر والمزاج ولا يبخل عليه بالحرية في وصفه بالبخل والتقتير وما الى ذلك دون ان ينزعج منه. ومرة تعطر [نيرون] يعطر غالى الثمن وخص [اوتو] بشيء قليل منه فما كان من [اوتو] الا ان دعا نيرون الى منزله في اليوم التالي وأمر بانابيب فضية وذهبية تمذ في المجلس ليحرق فيها نفس العطر الثمين ويضخ كل زاوية من الحجرة كالماء! واما بخصوص [پومپا] فقد كان يعمل لأجل [نيرون] في مبدء الأمر لئلا حظوة لديه. فباشر باغرائها ليوقعها في حبه حتى نجح في تفريقها عن زوجها وجاء بها الى منزله زوجاً له. ولكنه لم يرض بان يشاركه فيها احد بعد ذلك واحفظه ان ينافسه [نيرون]. اما [پومپا] فكانت على ما يقال مسرورةً بهذه الغيرة، تراها احياناً تمتنع عن [نيرون] حتى عندما يكون [اوتو] غائباً. اما لتزيد من شوقه اليها وحذراً من تطرق الملل منها اليه. اما لأنها على ما يقال كانت تكره فكرة الزواج بامبراطور مع رغبتها في ان تبقى له عشيقه. ولذلك ظل [اوتو] يعيش في خطرٍ مقيم. ومن العجيب حقاً ان ينجو في الوقت الذي عمد [نيرون] الى قتل اخته

وزوجه تمهيداً لهذه الزيجة. الا ان صداقة سينيكا كبحتة. فبمسعاه ورجاءاته رضي [نيرون] بارساله بمنصب [پريتور] الى [لورتانيا Lurtania] على ساحل البحر المحيط. فكان محبوباً من الاقاليم لحسن تصرفه واهتمامه بشؤون الاهلين الذين كانوا على معرفة تامة بان المنصب الذي يتقلده انما هو حجة وتغطية لإبعاده عن روما.

ولما شقّ [غالبا] عصا الطاعة على [نيرون] كان [اوتو] اول من انضم اليه من حكام الاقاليم واسرع اليه يحمل كل ما جمعه من الذهب والفضة اقداحاً وأنية وموائد ووضعها تحت تصرفه لصهرها وصكها نقوداً. وقدم له أيضاً ما يملك من خدم وحشم مدرين على خدمة الملوك. وكان مخلصاً له في كل الشؤون الأخرى. وأعجب [غالبا] بمهارته في تصريف الشؤون العامة. ويتفانيه في خدمته وتعلقه به حتى انه ركب معه في نفس العربة التي اقلته الى روما طوال الرحلة التي دامت اياماً عديدة. فأصبح بهذا وبلازمته الطويلة. من أخلص اصداقاً [ثينيوس] ايضاً، لكثرة ما تحفه من هدايا ولطلاوة حديثه، ولاسيما لأنه سلم له بالمكانة الأولى عند غالبا وارتضى لنفسه المقام الثاني. ولكنه — في اجتنابه قالة السوء، وتحاشي الحسد وحافظ على سمعة طيبة بمساعدته كل من يقصده من ذوي الحاجات دون اطلاب ففقد او مكافأة لنفسه ولاسيما العسكريون منهم، فقد توسط لتعيين الكثير منهم في مناصب قيادية اما بالامبراطور رأساً او عن طريق [ثينيوس] او عن طريق عتيقين لغالبا عظيمي النفوذ في البلاط هما [ايچلوس Icelus] و[آسياتيکوس Asiaticus]. وحرص ان يدفع بمناسبة كل دعوة يقيمها لتكريم لغالبا قطعة ذهبية لكل جندي في الكتيبة القائمة بواجب الحراسة كمظهر من مظاهر ذلك التكريم للامبراطور، في حين كان في الحقيقة يعمل على تحطيم سمعته وتجريده من شعبية عند الجنود بهذا الضيع. قليل الميل الى اختيار [اوتو] ان لم يكن لسبب غير سبب ايلولة ثروته اليه وهو الشاب المعروف باسرافه وبذخه، وبانه غارق في ديون تبلغ خمسة ملايين دراخماً. ولذلك لم يعط [ثينيوس] جواباً وسكت واعلن نفسه قنصلاً، وعين [ثينيوس] زميلاً له وكان الجميع يتوقعون انه سيعلن عن حليفته في مطلع العام الجديد وكان الجيش يرغب في [اوتو].

أعلنت القوات المرابطة في جرمانيا عصيانها وهو مازال يقلب وجوه النظر في هذه المسألة. وعمّ السخط الشديد الجنود كافةً لأنه نكل عن وعده لهم ولم يعطهم المكافأة الكبرى التي كانوا يترقبون لها منذ تنصيبه. وأخذوا يذكرون باهتمام كبير الطردة المهينة التي نالها [فرجينوس روفوس]، ومكافأة الغالبيين على تمردهم، والعقاب الذي انزله عن رفض مشاركة [قنديكس] في خطته، حتى بدأ وكأنه [غالبا] لايقرب فضل احد غير فضل [قنديكس] فقد



اكرم ذكراه باقامة المهرجانات الرسمية كأنه وصل الى مركزه الامبراطورية بمسعا. هذا الاقوال كانت تدور علناً بين اوساط العسكر عندما حل اليوم الأول من السنة الجديدة او «الكالند» كما يسميه الرومان. فجمع [فلاكوس] الجنود لتأدية القسم السنوي التقليدي بالاخلاص للامبراطور فتمردوا واخذوا ينزلون تماثيل [غالبا] ويسحقونها، ثم اقساموا يمين الاخلاص لمجلس الشيوخ والشعب الروماني وتركوا الاجتماع. وخاف الضباط والمسؤولون الفوضى وكانوا يتوقعون عصياناً لا يبقوا ولا يذروا فبرز احدهم واستوقف الجنود وراح يحدثهم بالآتي:

- ماذا سيكون من أمرنا أيها الأخوة في السلاح ان لم نختر لنا جنراً آخر، او لم نحفظ بجنرالنا الحالي؟ ان التخلي عن [غالبا] فحسب لا يعنى غير شق عصا الطاعة وعصيان الاوامر ومن العيب ان نؤمر علينا [فلاكوس هوردونيوس] وهو لا أكثر من صورة منسوخة عن [غالبا]. الا ان [قيتيلليوس] قائد القوات المرابطة في جرمانيا السفلى لا يبعد عنّا غير مسيرة يوم واحد. وقد تولى ابوه منصب [جنسور]، ثم انتخب قنصلاً ثلاث مرّات. وكان اشبه بالامبراطور المزالمل [لكلوديوس قيصر]. وقد قدم [قيتيلليوس] اسطع دليل على كرمه وطيبه نفسه بالفقر الذي يعيبه عليه الآخرون. الا فلنختره امبراطوراً للجميع اننا ادرى باختيار رجلنا من الاسبان. واللوزيتان.

فوافق فريق منهم على هذا الاقتراح ورفضه آخرون الا ان احد حملة الاعلام انسل خارج المعسكر وقصد [قيتيلليوس] الذي كان يستضيف جماعة كبيرة من اصحابه في تلك الليلة. وتفشى الخبر بين جنوده فشاع الأمر، وركب [فابوس فالينس] قائد احدى الفرق في صباح اليوم التالي على رأس عدد كبير من الخيالة، وحيّاً [قيتيلليوس] بتحية الامبراطور. وكان الى تلك اللحظة يبدو عازفاً عن المنصب، ويعلن ان الخوف يتملكه دائماً من الاضطلاع بالسلطة ومسؤولياتها. الا ان الخمر والطعام الفاخر الذي تناوله جرّاه وبث فيه الاقدام كما يقال، فبدء يرضخ ويتقبل فكرة تنصيبه امبراطوراً. واتخذ اسم [جرمانيكوس] الذي اقترح عليه الا انه اعتذر عن قبول لقب [قيصر]. واسرع جنود [فلاكوس] ليحشوا بالقسم الذي ادوّه باسم مجلس الشيوخ، وعادوا ليقسموا يمين الاخلاص والولاء [لقيتيلليوس] الامبراطور. وحلفوا ان يطيعوا اوامره كافة. فأعلن امبراطوراً بصورة رسمية في المانيا. ولما ابلغ [غالبا] بذلك وجد ان ارجاء اجراءات التبرني لم يعد له معنى. وكان يعلم ان بعض اصدقائه يحبذون [دولابلاً] ويضغطون عليه. واما الأغلبية الساحقة فكانوا يريدون [اوتو] ولم يكن كلاهما يعجبه. وفوجيء الجميع دون سابق انذار بارساله في طلب [بيزو] ابن [كراسوس وسكريبونيا Scribonia] اللذين قتلا بأمر من نيرون وكان هذا شاباً حسن الاخلاق بصورة عامة، الا انه

امتاز بسجنتين: الاستقامة، والجدّ الصارم. وسار [غالبا] الى المعسكر لاعلانه قيصرًا وخلفاً له في المنصب الامبراطوري. إلا ان عدداً من المخاريق ظهر له وهو في اول الرحلة ثم تكررت هذه الظواهر في مفتاح خطبته في الجنود. وكان يقرأ حيناً ويرتجل حيناً.

ان هزيم الرعد المتواصل، وزخات المطر الشديدة التي نزلت على المدينة والمعسكر معاً كانت دلائل قوية على ان القوى السماوية لا تنظر بعين الرضى والارتياح الى عملية التبرني هذه، وانها تراها سيئة العقبي. واطهر الجنود ايضاً علائم السخط العظيم. عندما تلقوا خطابه باوجسه عابسة، لأنه لم يوزع عليهم شيئاً من المال حتى تلك الساعة. على ان الحاضرين الذين كانوا يتطلعون الى [بيزو] ويسمعون صوته لم يسعهم الا الاعجاب بضبط النفس الذي تجلّى فيه بقلة تأثير هذا التكريم العظيم عليه فقد بدأ غير مكترث به او شاعر بخطورته. اما سحنة [اوتو] فلم تكن لتخفي مشاعر المرارة والحق والخيبة. لقد كان المرشح الأول المنتظر وكان على قاب قوسين او أدنى. وها هو الآن ينحى جانباً باهمال وعدم اكتراث وانقابه شعور فجائي بأن [غالبا] ينفر منه ويضم له سوء، فأمتلاً خوفاً ورعباً، وعاد الى منزله تصطخب في رأسه شتى العواطف. كان يخشى [بيزو] من جهة، ويكره [غالبا]، ويحقد على [قينيوس] من جهة أخرى. وهاهم السحرة الكلدانيون واخصهم بالذكر [پتليمائوس Ptolemæus] لا ينصحونه بنبد آماله والتخلي عما رسمه، فقد اصرّ هذا العراف على نبؤته التي سبق وتنبأ لوتو بها ايام نيرون وهي ان [نيرون] لن يقتل [اوتو] بل سيسبقه الى الآخرة وان [اوتو] سيعيش حتى يتولى منصب الامبراطور. فلأن الشق الأول من النبوءة قد تحقق؛ لا سبيل الى تكذيب الشق الثاني او لعل أولئك الذين رثوا لحاله سراً وايدوا اسفهم الصادق لحظّة العاثر وسوء الجزء الذي ناله من [غالبا] كانوا اكبر محفز له ومنهم تلك المخلوقات الحقيرة امثال [نمفيديوس] و[تجلينوس] الذين هبطت منزلتهم بعد هذه الاجراءات واصبحوا في حكم المنبوذين. راحوا الآن ينشطون لاثارته واخذوا يجسمون له الاهانة التي لحقت به ويحتنونه على الانتصاف لنفسه.

ومن بين هؤلاء قام اثنان بدور كبير في الاحداث التالية. وهما قيستوريوس [Veturius] «الايوسيوس» و[باربيوس Barbius] «التسّراروس»<sup>(5)</sup> وهما من الموكلين بواجبات السعاة والاستطلاع) فقد انطلقا مع [اونوماستوس Omomastus] عتيق [اوتو] الى المعسكر لاستمالة الجيش وشراء من يمكن شراؤه بالمال واغراء من يمكن اغراؤه بالوعود. ولم يكن ذلك

(5) Optio: لغة هو الضابط المرافق للقائد، أو المساعد. و Tesserarius: هو في اللغة العسكرية الرومانية: ضابط مهمته تسلّم «البطاقة Tessera» التي بدون عليها كلمة السرّ (كلمة الليل) وينقلها الى الوحدات.

بالأمر العسير فقد فسدت الذمم وارتخت النفوس منذ زمن بعيد ولم يكن المرء ليجتاج الألى ذريعة مقبولة. ولولا ذلك لما توصلوا الى مرامهم بايام اربعة فحسب (تبدء من اجراءات التنبني وتنتهي باغتتيال غالبا). لقد اتموا خلال هذه الفترة القصيرة ما انطلقوا في سبيله وانجزوا مهمة التحريض والإثارة حتى خلفوا ترمداً شاملاً. وفي اليوم السادس لعملية التنبني وهو «الثامن عشر السابق لشباط كما يطلق عليه الرومان تمّ القضاء على [غالبا]. ففي صبيحة ذلك اليوم ضحّى في [الپالاسيوم] بمحضر من اتباعه وانصاره. فأخرج الكاهن [اومبريجيوس Umbricius] الاحشاء وانشأ يتكلم بشكل واضح، لا مبهم كما جرت العادة وقال: هناك دلائل تنبيء باضطراب عظيم وشيك. وهناك فخاخ خطيرة تنصب للامبراطور مستهدفةً حياته. هكذا اشارت الآلهة باصبع الاتهام الى [اوتو] وكان واقفاً خلف [غالبا] مباشرةً يسمع كل ما يقال ويرى كل ما يشير اليه الكاهن في الأضحية. فأخذت الوانه تتغير من فرط خوفه وهلعته وفضحت أساريره كل ما اضمره في قلبه وفي تلك الاثناء وصل معتوقه [اوماستوس] وقال له ان رؤساء البنائين قد حضروا وهم ينتظرونه في المنزل. وكانت هذه العبارة المصطلح عليها وتعني ان يذهب [اوتو] لمواجهة الجنود وفسر الأمر للسامعين بأنه كان قد ابتاع منزلاً قديماً وهو يريد عرض ما وجد فيه من عيوب على البائعين ثم رحل. وبعد بما ان مرّ كان يدعى «دار طيبيريوس» دخل الفورم ووقف في البقعة التي تنصب فيها عمود مذهب حيث تلتقي عنده كل الطرق المؤدية الى روما من ايطاليا. وهنا استقبله على ما يقال ما لايزيد عن ثلاثة وعشرين شخصاً - وحيوه بلقب امبراطور. ان رغد العيش وترفه وان اثره على جسم [اوتو] الا ان تأثيرهما على روحه وعقله كان قليلاً، فهو بطبعه جريء القلب لا يتطرق اليه الخوف عندما تحدد به الأخطار. الا انه احجم عن الذهاب الى المعسكر مع ذلك فحال الجنود الحاضرون دون ترده واحاطوا بكرسيه وقد انتضوا سيوفهم وامروا حملته برفعه والتقدم الى المعسكر، وسمع وهو يردد لنفسه عدة مرات «اني رجل ضائع».

كان استغراب الناس الواقفين هناك اكثر من قلقهم بسبب هذا العدد الضئيل من المتجمهرين القائمين بالانقلاب. ولكن العدد اخذ يزداد. بما كان ينضم من الناس وهو يسير في الفورم، ثلاثاً واربعاً. فاتجهوا الى المعسكر بسيوف مشرعة وهم يهتفون له باسم [قيصر] ولم يعترض [مارچيالياس Martialis] التريبيون الخفر دخوله المعسكر، فقد ذكروا انه لم يكن على علم بالمؤامرة مطلقاً ولكن الدهشة استولت عليه وخاف أن يعترض سبيله، وبعد هذا لم يبد احد اية مقاومة فقد عمد المؤتمرون الى الاحاطة بالذين لم يعلموا شيئاً عن المسألة وكانوا يروحون ويغدون في ارجاء المعسكر على رسلهم، خائفين وجلين، ثم اقنعوا باعلان الولاء [الأوتو]،

ووصلت هذه الانباء فوراً الى [غالبا] وهو في [الپالاسيوم] يقوم بتقديم القرابين مع الكهنة فلم يسع الأقل قابلية لتصديق المخاريق منهم، الا العجب لتحقيق النبوءة بهذه السرعة الخاطفة وبدأت الجماعات الكبيرة من مختلف الناس تولي هاربةً من الفورم وانتضى [قينيوس ولاقو] وبعض عتقاء [غالبا] سيوفهم واحاطوا به وتقدم [بيزو] فتكلم الى الحرس القائم بالخفارة، ثم ارسل [ماريوس چلسوس Marius Celsus] وهو من الشجعان المعدودين، لاستقدام الفرقة الليرية المرابطة في ما يدعى بالقاعة الفيسانية Vipsanian لتقوم بواجب الحماية.

وسأل [غالبا] انصاره هل يفضلون خروجه ام بقاءه حيث هو؟ فأشار عليه [قينيوس] بالبقاء، الا ان [چلسوس ولاقو] اخذا يلدحان عليه في الخروج وانحيا باللوم والتأنيب على [قينيوس]. الا ان اشاعة جديدة انتشرت بسرعة خاطفة تقول ان [اوتو] قتل في المعسكر. ثم اقبل المدعو [يوليوس اتيكوس Julius Atticus] وهو رجل ذو شهرة ومكانة في اوساط الحرس. اقبل بعدو منتضياً سيفه وهو يصيح انه قتل عدوً [قيصر] واندفع يشق طريقه بين الجموع وتقدم من غالبا بسيفه الدامي. فسأله [غالبا]:

- ممن تلقيت اوامرك؟

فأجابته انه الواجب الذي أملى عليه ذلك، وانها التبعة التي حملها له قسم الولاء. فصاح الجمهور استحساناً وهتفوا له غالبا. وجلس [غالبا] على كرسيه ونقل محمولاً الى الهيكل للتقريب الى [چويترا] ولاظهار نفسه للملا. وما ان وصل الفورم حتى وجد نفسه امام الفريق المعادي، وان الريح التي قذفت به تغير اتجاهها الآن. فقد سيطر [اوتو] على المعسكر تماماً. واخذ بعض الناس يحثه على العودة من حيث أتى، وبعضهم يشجعه على السير قدماً، كما يحصل عادةً في امثال هذه الأزمات. وطلب بعضهم منه ان يتحلّى بالبسالة والاقدام واوصاه بعضهم الآخر بالحذر والشك. وبينما كانت الكرسي تميل به ذات اليمين وذات الشمال كأنها تطفو فوق الامواج وهي تهتز به. ظهرت قطع الحياالة وأعقبته وحدات المشاة الثقيلة قادمة من ميدان [پاولوس] وهي تهتف بصوت واحد.

- فليسقط هذا الرجل المنحط.

وعندها بدأ الجمع المحتشد يصد لا يتفرق هارباً بل يحتل الأروقة والمواضع المرتفعة من الفورم، كأنهم يستبقون الحصول على اماكن للنظر منها الى مشهد طريق وما ان اسقط [ايتيليو Atillius Vergilio] أرضاً احد تماثيل [غالبا] حتى كان ذلك اشارة للقتال فوجهت رشقة من الحراب الى محفة [غالبا] ولما أخطأت هوفها تقدمت القوة وهاجمته

بسيوفها من مسافة قريبة فلم يثبت احدٌ للدفاع عنه ولم يبدو مقاومة الا [سمپرونوس دینوس Sempronius Densus] قائد المائة. رجل واحدٌ من بين تلك الألوف المؤلفة التي رأت شمس ذلك اليوم، يقوم بعمل مجيد، جدير بسمعة امبراطورية الرومان لم يكن هذا الضابط مديناً بفضل لغالبها، الا انه حاول الدفاع عن المحفة فرجع اولاً غصن الكرم التي يستعملها قواد المائة عادة لتصحيح مشية الجنود، وصاح بالمهاجمين منتهراً وامرهم بأن يسكوا ايديهم عن امبراطورهم ولما اطبقوا عليه امتشق سيفه ودافع عنه مدة طويلة ثم سقط بعد اصابته في ساقيه.

وهوجمت محفة [غالبا] في موضع يسمى [لاكوس كورتیوس Lacus Cortius]. فسقطت عليه الضربات وهو ممدد وعليه درعه، فمد لهم عنقه وقال:

- إطنعوا، ان كان في ذلك مصلحة الرومان.

واصيب بعدة طعنات في ساقيه وذراعيه وأخيراً اجهزوا عليه بطعنة في عنقه كما ذكر معظم الكتاب سددها جندي من الفرقة الخامسة عشرة يدعى [كاموريوس Camurius]. الا ان فريفاً يذكر بان [ترنيتوس] هو الذي قتله، ويذكر آخرون [ليكانيوس Lecanius] ويقول آخرون ان [فابيوس فابولوس Fabius Fabulus] هو الذي قام بقطع رأسه وحمله ملفوفاً بطرف معطفه. لأن ابقاه مكشوفاً يجعله عرضة للخطف. ولم يسمح مرافقه بابقاء غنيمه مستورةً وطلب منه ان يعرضها للأنتظار ليشهد الجميع بطولته، فركزه على سنان رمح ورفع رأس ذلك الشيخ الهرم الوقور الذي كان قبل لحظات حاكمهم العادل وقنصلهم وكاهنهم الأعلى واخذ يعدو به مثل باخوسي ماجن، ويديره ويرقصه في الهواء والدماء تشخب منه وتقطر على قناة الرمح. ولما جاؤا به الى [اوتو].

- أيها الرفاق الجنود. لن يكون هذا شيئاً ما لم تأتونني برأس [بيزو].

فجيء اليه برأس الشاب بعد برهة وجيهة. وكان [بيزو] قد انسحب بعد ان أصيب بجرح، فعقبه المدعو [موركوس Morcus] حتى معبد [قيستا] وهناك اجهز عليه، كما قتل [تيتوس فينيوس] بعد ان اقرّ علناً باشتراكه في المؤامرة ضد [غالبا] حين صاح بقاتليهم انكم تقتلونني خلافاً لرغبة [اوتو]. وعلى اية حال فقد احتزوا رأسه ورأس [لاكو] وجاؤا بهما الى [اوتو] طمعاً بجائزة على حدّ قول [ارخيلوخوس]

عندما تجد ستاً او سبعمائة من الجثث على الأرض

تسمع آلافاً وهي تصيح، انه انا، انه انا الذي قتلهم

ولذلك غمس عدد كبير من الناس الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل - ايديهم وسيوفهم في الدم المهراق وأقبلوا يعرضونها على انظار [اوتو] وقدموا طلبات خطية بالتعويض والمكافأة، وتمّ تشخيص هويات ما لا يقل عن مائة وعشرين منهم من تواقيعهم. فتعقبهم [فيستيلىوس] وقتلهم جميعاً.

وأقبل [ماريوس چلسوس] الى المعسكر فجويه بصيحات الجنود التي ادانته بالانتصار لغالبها وطالبوا بقتله، وهو مالم يكن برغبة [اوتو] على ان خوفه من الاجابة الباقية بالرفض جعله يصرح بانه سيحجم الآن عن قتله حتى يستخلص منه معلومات هامة كثيرة. وسلمه الى المكلفين بوضعه تحت الحفظ.

وجمع [اوتو] مجلس الشيوخ فوراً... فاذا هم غير اشخاص الأمس او كأنهم بدلوا الآلهة التي يحلفون بها. فقد اسرعوا يقسمون [لاوتو] القسم الذي اداه هو لغالبها وحث به. وخلعوا عليه لقبى [قيصر واغسطس] وجثت القتلى مازالت في ارضها الفئولية ملقاة في الساحة العامة. أما ما كان من الرؤوس المقطوعة. فعندما انتفت الحاجة اليها وملئها الانظار، عرض رأس [فينيوس] للبيع فاشترته بنته بألفين وخمسائة دراهم. وتوسلت [فارينا Varenia] بهم فأعطي لها رأس زوجها [بيزو] دون مقابل. امّا رأس [غالبا] فقد دفعوا به الى خدم [پاتروبيوس] فعبثوا به وكالوا له شتى انواع الاهانات والتعدي. ثم القوه في الموضع الذي جرت العداة التي ترمى اليه جثث من يقتل بأمر الامبراطور ويعرف باسم [سسيروم Sesse-rium]. وقام [ارجيوس Argius] عتيق [پرسكوس هلفيديوس Prescus Hervidius] باذن خاص من [اوتو] بحمل جثة سيده ودفنه ليلاً.

بهذا نأتى الى نهاية سيرة [غالبا]. الرجل الذي لاتجد صنواً له من الرومان الا القليل، في الغنى او النبيل. لقد فاق بهذين كل رجال عصره. وعاش وهو يتمتع بأعلى منزلة من الاحترام وحسن السمعة خلال حكم خمسة اباطرة. واستقط [نيرون] بشهرته وسمعته أكثر مما كان عامل القوة والعنف مسؤولاً عن ذلك. وكان الرأي العام ينظر الى من نحى منحى نيرون في الحكم اما بأنهم استحقوا المنصب الامبراطوري، واما انهم فرضوا انفسهم عليه وهم لا يستحقونه امّا [غالبا] فهو الوحيد الذي عُرّض عليه المنصب وقرر قبوله وسمح ل[اندكس] بأن ينتقض بأسمه ولا أكثر. فأعطى صفة «الحرب الاهلية لما كان يعرف قبلها بالتمرد، بمجرد وجوده، ذلك الشخص الذي عدّ جديراً بالسلطة، ان المنصب هو الذي انقاد اليه، وليس هو الذي انقاد الى المنصب. لقد اراد ان يقود اولئك الجنود الذين اغراهم [مغبيديوس وتجلينوس] بالمال على الطاعة، بالطرق التي سبق ل[سچيبيو] و[فابريچيوس] و[كاميلوس] ان اتبعوها في قيادة

العسكر الروماني في سالف العصور. ولكن كبر سنه في الواقع جعل الجنود والوحدات العسكرية، تنظر اليه نظرتها الى حاكم عتيق الطراز صلب العود. أمّا من الجهات الأخرى، فباستسلامه لرأي [قيتيوس ولاكو] والعتقاء المقربين، فقد نزل الى مستوى نيرون فيما كان يخصّ به عشراءه وندماءه وخلائئه. ولذلك لم يترك وراءه من كان يتمنى دوام حكمه، وان كان الأسف لموته عميقاً.

١٩٧٢/٥/٢٦

اوتو

**OTHO**

**(Marcus Salvius)**

32 – 69

ليخلق لحيته ثم ذبح نفسه بالموسى.

وبهذا ارض [اوتو] الرومان وشفى غليلهم. امّا هو فقد أظهر عدم اهتمام بتعقيب من ألحق به الأذى في الماضي. ولم يرفض في مبدء الأمر تلقيب الناس له في المرسح بـ[نيرون] ولم يتدخل عندما عرض بعضهم تماثيل هذا العاهل لأنظار الجمهور. ويقول [كلوقثيوس روفوس Cluvius Rufus] ان الرسائل الرسمية الموجهة من الامبراطور، الى اسبانيا كانت اولاً تمهر بتوقيع [اوتو نيرون] ولكن ما ان ادرك ان ذلك يجرح مشاعر اخبار المواطنين، حتى حذف اللقب.

ولما بدأ يجرى التعديل في نظام الحكومة على هذه الوتيرة اخذ الجنود المرتزقة يتذمرون وحاولوا تشكيكه في نوايا الاشراف لينزل بهم العقاب، ولا ندري أكان يدفعهم في هذا حرصهم على سلامته او لرغبتهم في اثاره حرب او اشاعة الفوضى تحت هذا الزعم؟ فلما أمر [اوتو] [كرسپينوس Crispinus] بسوق الكتيبة السابعة عشرة من [اوستيا]، راح هذا يتهياً لذلك بعد حلول الظلام وكدّس الاسلحة في عربات النقل، صاح بعض مشيري الفتن ودعاة الشغب ان [كرسپينوس] يتأمر ويبيت خيانة وان مجلس الشيوخ يدبر امراً بليل ضد الامبراطور وان هذه الاسلحة ستخدم هذا الغرض. وما انطلقت هذه الصيحة حتى وجدت لها افواهاً تتلقفها ونفوساً تؤمن بها وتتبناها فثارت عواطف الجماهير وتفجرت براكين عنفهم فأستولى فريق منهم على العربات ووثب فريق على [كرسپينوس] فقتله مع قائدين من قواد المائة اعترضوا سبيلهم، ووزع السلاح على الغوغاء ونظموا صفوفهم مشجعين بعضهم بعضاً للوقوف الى جانب [قيصر] واتجهت جموعهم الى روما. وسمعوا ان ثمانين شيخاً يتناولون عشاءهم على مائدة [اوتو] فاندفعوا الى القصر قائلين انها خير فرصة للقضاء على اعدائه دفعة واحدة وانذرت المدينة بأن الجنود على وشك تطويقها وساد الاضطراب نفوس من في القصر، وتصاعد غضب [اوتو] الى اقصاه، وكان القلق ينهشه على الشيوخ الذين كان بعضهم قد سحب زوجاته. كذلك شعر بأنهم صاروا ينظرون اليه بشك وقلق من اعينهم الشاخصة اليه بصمت وفزع. فطلب من امراء الحرس ان يخرجوا الى الجنود ويعملوا على تهدئتهم. في حين اعز للمدعوين بالنهوض وترك القاعة والخروج من باب آخر. وما أن أخلى المكان حتى اندفع الجنود وهم يصرخون:

- أين هم اعداء [قيصر]؟

فأعتلى [اوتو] معقده وحاول معهم اثاراً بالمنطق، وتارة بالضراعة بالدموع الصادقة حتى تمكن بعد لايء من صدهم عما اعتموه.

في صباح اليوم التالي خرج الامبراطور الجديد الى الكابتول وقدم القرابين، ثم امر باحضار [ماريوس چلسوس] وحيّاه وتلطف معه ورجا منه ان ينسى اتهامه اكثر مما يتذكر اخلاء سبيله. فأجابه [چلسوس] بخير ما يمكن ان يقال في ذلك الطرف وشكره موضحاً بأن تهمة نفسه يجب ان تكون عاملاً في رفع سمعته لأنها الاخلاص [لغالب] الذي لم يكن مديناً له باي فضل خاص. واعجب الحاضرون بموقف الرجلين وهتف الجنود لهما.

وفي مجلس الشيوخ، تكلم [اوتو] بالطف واحب لهجة. وكان مقررأ ان يبقى قنصلاً لما فضل من السنة الا أنه تنازل عنها [لثرجينيوس روفوس] ولم يعزل أحدأ من القناصل الذين سماهم [غالبا ونيرون]. ومنح الترقيات للمستحقين والمبرزين ورفع المتقدمين بالعمر من الشيوخ الى منصب الكهنوت واعاد بقية املاك الشيوخ المصادرة غير المباعة التي وضع نيرون يده عليها ونفاهم ثم الغى غالبا اوامر نفيهم. فبدء الأمل يداعب نفوس الاشراف ورؤساء الشعب بحكم زاهر باسم من مطالعه. بعد الخوف الذي امسك بخناقهم، الى حد اعتقادهم بأن قوى منتقمة آلهية قد استولت على الامبراطورية وليس مخلوقات بشرية مثلهم.

ولم يرفعه في نظر الشعب الروماني شيء قدر ما رفعته عدالته في معالجة أمر [تجلينوس]. كان هذا الشخص في الواقع قد بدء يستوفي قصاصه لقاء ما جنت يداه، فقد لازمه الخوف من العقاب الذي الحت روما بطلبه، وأخذت الأسقام التي لايرجى شفاؤها تنخر في جسمه، دعك من افراطه الأثيم في تعاطي الفحش مع العاهرات والساقطات منذ نعومة اظفاره حتى لفظ بينهن آخر أنفاسه على حد ماثور القول. هذه الاعمال في عرف افاضل الناس هي اشد عقاب يمكن ان ينزل بالبشر. انها عدة ميتات في الواقع. لكنها على اية حال كانت مبعثاً للسخط العظيم عند الناس، وقد ملأهم غيظاً رؤيته نور النهار حتى تلك الساعة وهو المسؤول عن قتل الكثير مباشرةً والاكثر تسبياً. ولذلك أمر [اوتو] بجلبه وكان يتهياً للفرار وقد اعد بعض السفن للاقلاع به من الساحل بالقرب من [سينويسا Sinuessa] محل سكنه. فأدركه السعاة فحاول ارشاء الضابط بمبلغ كبير من المال ليخلي سبيله ولايحول دون فراره ولما وجده مصراً قدم له هدية ثمينة كأنما هو غير مهتم بالأمر ورجا منه ان ينتظر قليلاً

وفي اليوم التالي قصد المعسكر ووزع مكافأة قدرها ألف ومائة وخمسون دراخما لكل جندي. ثم شكرهم واثنى على غيرتهم وحرصهم على سلامته. ثم ذكر لهم أن هناك من يتآمر عليه من بينهم. هؤلاء الذين عابوا عليه رحمته وتساهله، ولم يكتفوا بهذا بل سلكوا اسوء السبل ليعبروا عن اخلاصهم الزائف له. ولذلك فهو يريد منهم ان يعاونوه لانفاذ حكم العدالة في هؤلاء النفر. فأعلن الجميع تضامنهم وموافقتهم على حكمه. فأكتفى بتنفيذ حكم الموت باثنين فقط كان يعلم أن موتها لن يكون موضع أسف عند جندي واحد في الجيش كله.

لم يكن ينتظر أحد من [اوتو] مسلماً كهذا، إلا أن الناس اختلفوا في تعليقه فبعضهم كان يعتبره منة منه وفضلاً. وبعضهم عده سبيلاً اندفع فيه بحكم الضرورة لتأمين مساندة الجنود له عند نشوب الحرب. فقد وردت في حينه ابنا تشير الى ان [فيتيلوس] قد تسلّم زمام السلطة واتخذ لنفسه لقب الامبراطور. وتعاقب السعاة والرسل باناء انتفاضات أخرى جديدة، على ان فريقاً من السعاة حملوا انباء تفيد بأن الفرق العسكرية المرابطة في بانونيا Pannonia وداماسيا Dalmasia وموسيا Moesia بجنودها وضباطها مقيمة على ولائها له. وما مرّ وقت قصير حتى وردته رسائل تأييد من [موشيانوس Mucianus] و[قسپاسيان Vespa-sian] وكلاهما يقود جيشاً جراراً أولهما في سورية وثانيهما في بلاد اليهودية، يؤكدان فيها وقوفهما الى جانبه بصورة اكيدة. ان الاطمئنان الذي ثبتته هذه الرسائل فيه، رفعت من معنوياته وحمّسته فكتب الى [فيتيلوس] يحذره من مغبه اعتدائه على السلطة وتخطيه حدود صلاحياته ويأمره بالتزام واجبات منصبه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال مع مدينة ليعيش فيها طول حياته عيش رغد وراحة. فردّ [فيتيلوس] بجواب فيه لطف ومجاملات مبطنة ثم سرعان ما انتقلت مراسلاتهما الى المهاترة والمغاضبة وتبادل التهم المخجلة والشتائم القبيحة، ولم يكونا كاذبين بها. انما من السخف والحمق ان يهاجم احدهما الآخر ويتهمه بالجرائم التي لم يتعفف كلاهما عن ارتكابها فعلاً. اذ يصعب والحق يقال أن يجزم المرء باي منهما أكثر سفاهة وتخنثاً، وايهما اشد جهلاً بالقيادة، واكثرهما اغراقاً في الاستدانة لفرهما في الماضي؟

أما عن المخاريق والظواهر السماوية التي حصلت في تلك الفترة فقد ذكر عنها الكثيرون دون ايراد اصولها، او التثبت في تفاصيلها فقد روي بعضها باشكال مختلفة. على ان ثم خارقة واحدة رآها الناس كافة بأعينهم. وهو ما حصل لتمثال ربة النصر القائم فوق عربة الكابتول. فقد شوهدت الأعنة تسقط من يد الربة كأنها لم تعد تقوى على شداها. وثم خارقة أخرى حصلت لتمثال [كايس قيصر] القائم في جزيرة [التيسير] فقد دار على نفسه وصار

يواجه الشرق بعد ان كان يستقبل الغرب دون ان يحدث هزة ارضية أو تهبّ عليه ريح. وقيل ان ذلك وقع في الزمن الذي بدء [قاسپسيان] وحزبه بالتمنخض والعمل علانية. ثم وقع حادث آخر عدّه الناس نذير شؤم وهو ارتفاع منسوب ماء التيسير وطغيانه. لقد وقع هذا في موسم ارتفاع مناسيب الانهار المعتاد الى اقصى ما تبلغ من ارتفاع، إلا ان زيادة الماء في التيسير والطوفان الهائل الذي نجم عنه والحزاب الذي احدثه في المستلكات لم يعرف شبيهه له من قبل. لقد طغى الماء على جزء كبير من المدينة ولاسيما سوق القمح فأحدث قحطاً لايام عديدة.

وعندما وردت الانباء بأن قائدي [فيتيلوس]؛ وهما [كايچينا وفالانس] قد بسطا سيطرتهم على الألب. ارسل [اوتو] [دولابلا] (وهو پاتريشي كان الجيش يشك في ان له مآرب شريرة) الى بلدة [اكوينوم Aqiumum] لامر لم تعرف حقيقته وقد يكون بسبب الخوف منه او لعله أخرى. زاعماً أنه أرسله لث روح المقاومة والشجاعة في النفوس. ثم اختار القادة والحكام الذين سيرافقونه شخصياً الى الحرب. وممن عين [لوشيسوس] أخوا [فيتيلوس]. ولم يخصّه بفضل او بيد له جفاء إلا انه اتخذ اشد التدابير حزمًا لسلامة زوج [فيتيلوس] وامه، وبدد كل ما قد تشعران به من خوف وهاجس وعين [فلاقيوس سابينوس Flavius Sabi-nus] أخوا [قسپاسيان] حاكماً لروما اما اكراماً لذكري [نيرون] الذي كان قد أسند اليه هذا المنصب ثم عزله عنه [غالبا]، اما اظهاراً لثقتة [بقسپاسيان] اخيه.

وعند وصوله [بركسيلوم Brixillum] وهي مدينة ايطالية قريبة من نهر [پو]. قرر البقاء هناك وعين لقيادة الجيش كلاً من [ماريوس چلسوس] و[سوتونيوس پاولينوس Suetonius Paulinus] و[سپورينا Spurina] وهم رجال عركتهم الخبر وبلتهم التجارب واشتهر أمرهم. إلا أنهم عجزوا عن تنفيذ ما يجب تنفيذه للروح المتمردة الفوضوية التي سادت افراد الجيش. فقد ابوا ان يطبعوا امراً غير صادر من الامبراطور المختار من قبلهم. ولم تكن حال جيش العدو بافضل من ذلك. فالانضباط عندهم مفقود والأوامر لاتطاع والجنود تتملكهم روح الزهو والعجرفة والتمرد على القادة لعين السبب. إلا أنهم كانوا أكثر تجرية ومراناً وتعودا على العمل الشاق اما رجال [اوتو] فقد جردهم رغد العيش وقلة التدريب من الرجولة واصيبوا بالرخاوة لانغماسهم في الملاذ وارتباد الملاعب والمراسح والحفلات في العاصمة. والى جانب محاولة تغطية قصورهم وضعف همهم بالتواقح والمظاهر الزائفة. فقد تظاهروا وتعمدوا التنصل من واجباتهم لا لعجز فيهم، بل لأنهم كانوا يترفعون عنها. وكاد [سپوريتا] يفقد حياته ويمزق ارباً، لأنه حاول ارغامهم على اداء واجباتهم، فأهانوه واسمعوه من هجر القول واتهموه بالكيد [لقيصر] واضمار السوء والخيانة له واقتحم بعض السكارى خيمته ليلاً

وطلبوا منه نفقات رحلة الى الامبراطور ليقدّموا شكوى ضده!

على ان ما لقوه في [پلاچنسيا Placentia] من تحقير وازدراء اسدى في حينه خدمة طيبة له ولقضية [اوتو]. فقد تقدم رجال [فيتيلليوس] من الاسوار واخذوا يعيرون رجال [اوتو] القائمين على حراسة الابراج ويسخرون منهم فلقبوهم بالراقصين والمثليين والمهرجين والمتفرجين الكسالى في الالعب الاولمبية. والمستجدين في فنون الحرب، ممن لم يسبق لهم ان شاهدوا ميدان قتال، والجبناء الذين كان نصرهم الوحيد هو قطع رأس [غالبا] الشيخ الأعزل. والكارهين مواجهة الاعداء الحقيقيين... هذه الأهانات ملأت نفوسهم حنقاً فجتوا تحت قدمي [سپورينا] متوسلين به ان يصدر اليهم اوامره بالانقضاء على اعدائهم وأكدوا له أنهم لن ينثوا عن مكان الخطر ولن يتقاعدوا عن اي واجب. وكانوا عند كلمتهم فقد شنت قوات [فيتيلليوس] هجوماً عنيفاً على المدينة مستخدمة عدداً كبيراً من آلات الحصار والثغر فصدها المدافعون بشجاعة وردوها على اعقابها بعد ان كبدها افدح الخسائر، وبذلك ضمنوا سلامة مدينة شريفة هي من اجمل وازهى المدن الايطالية.

وظهر جلياً ان ضباط جيش [اوتو] كانوا أطيب معاملة للسكان كبارهم وصغارهم من ضباط [فيتيلليوس]، وكان من قواده [كايجينا] الذي تميز بفظاظة في الطبع، وسلطة لسان. لا يتصف بسلوك الرجل المهذب ولا يتكلم بلغته. غطريس غريب الهيئة عملاق يرتدي دائماً اثواباً باكامام وسراويل على الزي الغالي عندما يحضر مجالس موظفي الرومان وحكامهم. وكانت زوجته تلازمه في مسيراته العسكرية فتمتطي جواداً وهي في حلة فاخرة، يحف بها حرس من الخيالة المنتقاة. أما زميله الجنرال الآخر [فايبوس فالنس] فقد كان طمّاعاً جشعاً لا يشبع من المال الذي ينهبه من العدو، او يهدى اليه او يرشى به او يسرقه من اصدقائه وحلفائه. وذكروا انه كان يتعمد البطء في تقدمه (حتى انه لم يدرك المعركة التي سلف ذكرها) ليتاح له وقت كافٍ للسلب والنهب وهو في طريقه. الا أن بعضهم يلومون [كايجينا] في هذا بقولهم انه استعجل الهجوم قبل وصول [فايبوس فالنس] لأنه اراد ان يستأثر بالنصر، وقد ارتكب أيضاً عدة اخطاء أخرى ثانوية. فكاد يلحق الدمار التام بالحملة كلها لاشتباكه مع العدو في ظروف غير ملائمة.

اندحر [كايجينا] في [پلاچنسيا] فأطلق للانقضاض على [كريمونا] المدينة الكبيرة الغنية. وفي الوقت عينه زحف [آينوس غالوس Annius Gallus] للانضمام الى [سپورينا] في [پلاچنسيا] ولكنه علم قبل وصوله ان الحصار رفع عنها، وان [كريمونا] تتعرض الآن للحصار فاتجه اليها لانقاذها وعسكر بالقرب من العدو، وكانت تعزيزاته من الضباط مستمرة

على مدار اليوم ووضع [كايجينا] كميناً قوياً من المشاة الثقيلة في ارض وعرة كثيفة الشجر واصدر أمراً لخيالته بالتقدم والتعرض للعدو حتى اذا استنفرت انسحبت خيالته ببطء واستدرجتهم الى الكمين. الا ان احد الهارين كشف الخطة للعدو فقام [چلسوس] بالتصدي للخيالة بقوات كبيرة من فرسانه واخذ يعقب المتقهقرين بكل حذر، الى ان نجح في تطويق كل القوات التي وضعت في الكمين والحق بها هزيمة نكراء ولو وصلت المشاة التي بعث في طلبها من المعسكر في الوقت المناسب لاسناد الخيالة لحلت الهزيمة التامة بكل جيش [كايجينا] على اية حال. الا أن حركة [پاولينوس] كانت في غاية البطء حتى انه اتهم بالحذر غير المتوقع من قائدٍ مثله ذي دراية وسمعة طاهرة.

لذلك اثار الجنود حفيظة [اوتو] عليه فاتهموه بالخيانة وفخروا ملء افواههم بالنصر الذي حازوه قائلين انه لم يكن كاملاً بسبب خطل قادتهم واخطائهم. ومع ان [اوتو] لم يصدق كل ادعاءاتهم الا انه لم يعترض على ما قالوا. ولذلك عين اخاه [تيتيانوس Titianus] مع أمر الحرس [پروكولوس Proculus] اولهما قائداً رسمياً وثانيهما قائداً فعلياً، وانزل رتبة [چلسوس وپاولينوس] الى مستوى المستشارين وجردهما من كل سلطة اجرائية. وكان العدو في الوقت نفسه يشكو الفوضى، والتناحر قد مزق صفوفه تمزيقاً. ولاسيما قطعات [فالنس] عندما علمت بهزيمة جنود [كايجينا] في الكمين. واجتاحتها سورة من الغضب الشديد لأنه لم يتح لها المشاركة ولو في اشتباك واحدٍ دفاعاً عن العدد الكبير من اخوانهم الجنود الذين قتلوا في تلك المعركة. ولقي [فالنس] الأمرين في تهدئة عواطفهم الا أنهم عادوا فقدفوا خيمته بالرماح فما كان منه الا وترك معسكره وذهب الى [كايجينا].

وانتقل [اوتو] الى [بديراكوم Bidriacum] وهي بليدة لا تبعد كثيراً عن [كريمونا] ودخل المعسكر وامر باجتماع لمجلس الحرب وفيه اقترح [پروكولوس وتيتيانوس] شن الهجوم فوراً لاستغلال معنويات الجنود العالية بالنجاح الذي حققوه، وقالوا ان الواجب يقضى بأن لا يضيع الوقت مع الفرصة المواتية وان تستثمر أقصى حالات القوة التي بلغوها الآن دون انتظارٍ لمقدم [فيتيلليوس] من بلاد الغال. وخالفهما [پاولينوس] بقوله، انهم يواجهون الآن كل ما لدى العدو من وحدات عسكرية. وانه لا يملك اي احتياطي فلو ان [اوتو] تريت وتانى ولم يتسرع وفضل ان يختار ساعة المعركة بنفسه لا ان يقبل بالموعود الذي اختاره العدو فمن المتوقع ان تصل نجدات من [موسيا وپانونيا] لاتقل عدداً عما لديه الآن من قوات. ومن المحتمل جداً ان الجنود وهم الآن على درجة كبيرة من الحماسة قبل وصول هذه النجدات، سيكونون أكثر تحمساً واندفاعاً بعد وصولها. كذلك ليس هناك اي خطر عليهم من تأخير المعركة لأن اقواتهم



تكفيهم. في حين ان العدو وهو في ارض غريبة لن يلبث ان يشكو من نقص ارزاقه. وكان هذا من رأي [ماريوس چلسوس] ايضاً. اما [انيوس غالوس] فلم يكن موجوداً في مجلس الحرب بسبب السقطة عن ظهر حصانه وخضوعه لعلاج الجراحي. فأستخرج رأيه كتابةً فنصح [اوتو] بانتظار الفرق العسكرية القادمة من [موسيا]. على ان الامبراطور لم يعمل بهذا الرأي واخذ برأى من حبذ الدخول في المعركة فوراً.

بُرر هذا القرار باسباب عدة، وكان ابرزها هو هذا: ان الجند الپريتوري كما كان يطلق عليه. وهو الذي يقوم بواجبات الحرس الامبراطوري، ضاقوا ذرعاً بالانضباط العسكري الذي بدء يفعل فعله في نفوسهم وما كانوا يطبقونه لاعتيادهم حياة النعمومة والتسلية فحنوا الى عيشهم الرغد البعيد عن سمة الحرب بين ملاعب روما ومراسحها. ولذلك ارادوا التعجيل في خوض المعركة متصورين بأن النصر التام سيكون الى جانبهم في اول الهجوم. ويبدو ان [اوتو] نفسه لم يكن قوي الارادة حازماً كما يجب في مواجهة كل الاحتمالات. ولم يدعه طبعه المخنث يتحلى بالصبر. كما ان قلة مرانه وتجربته جعلته يغفل حساب الخطر فكان شديد الخوف عند مواجهته له وفعل طبق ما فعله الجبان الرعديد اذ أغمض عينيه وترك مصيره في كفة القدر وقذف بنفسه من الجرف الى أسفل. هذا ما اورده بتفصيل [سكوندس Secundus] المنطقي امين سره. وقد يقول لك آخرون انه لوحظ تقارب كبير بين افراد الجيشين وتفاهم حول انهاء النزاع بالاتفاق على انتخاب افضل الموجودين من القادة لمنصب الامبراطور. وان لم يتمكنوا طلبوا اجتماع مجلس الشيوخ ومنحوه صلاحية الاختيار. ومن المحتمل جداً ان يكون هذا هدف ذلك الفريق الواعي المتزن من افراد الجيش الذي لم يجد في اي من الامبراطورين المتنازعين على السلطة الجدارة والخبرة والاهلية لتسئم المنصب فهما في الواقع لايتمتعان عنده باي احترام أو مكانة. لم يكن هناك مشبه للمصائب والشورور التي تجرعهما الرومان بسبب احترايبهم وقتسالمهم بعضهم بعضاً لأجل المدعو «سلا» أو «ماريوس» او من عرف باسم «قيصر» و«پومپي». وهاهم اليوم يتجرعونها مجدداً لتدفع الجمهورية الرومانية مصاريف طيش [فيتيلليوس] وجشعه. ونفقات تفسخ [اوتو] وخنوثته. ولقد ساد الاعتقاد ان تفكير [چلسوس] كان ينمو هذا المنحى فأخذ يمد في حبل الزمن ويؤجل القتال بعل التسوية المنشودة تحقق، في حين كان [اوتو] يستعجل الأمور ويندفع ليحول دون الوصول الى اتفاق.

عاد [اوتو] الى [پركسيلوم]، فكانت عودته غلطة أخرى لأنه جرد المقاتلين من الدافع الحقيقي لحسن البلاء واجادة القتال للظفر بالتقدير الذي كانوا يطمحون اليه، منه، كما قضى على كل احترام يشعرون به تجاهه. ولأنه كذلك اضعف الجيش بسحب بعض الوحدات الممتازة

المخلصة وضمها الى حرسه من صنفى الخيالة والمشاة.

وفي تلك الاثناء حصل اشتباك على نهر [پو] بينما كان [كايچينا] يمد جسراً فوقه فقد هاجمه رجال [اوتو] فأحبط هجومهم. وبينما كانوا يحملون زوارقهم بخشب المشاعل وكميات من الكبريت والقار، هبت ريح النهر على تلك المواد التي كانوا يهيئونها لاستخدامها ضد العدو فقدحت فيها ناراً، وخرج منها دخان ثم تصاعدت السنة اللهب فدبّ الذعر في الرجال وعمتهم الفوضى. واخذوا يهرجلون في داخل القوارب فأختل توازنها واصبحوا تحت رحمة عدوهم بشكل يدعو الى الضحك والرتاء. وهاجم الجرمان مصارعي [اوتو] في جزيرة صغيرة وسط النهر وهزمهم بعد ان فتكوا بعدد كبير منهم.

كل هذا اغاظ الجنود المعسكرين في داخل [بديراكوم] وملأهم شوقاً الى المعركة. فخرج بهم [پروكولوس] من المدينة وسار الى موضع يبعد عنها خمسين فرلنكا، فضرب فيها خيامه، بقصر نظر فاضح وجهل مطبق بالفنون العسكرية فقد أخذ الجنود يشكون شحاً في الماء في حين كان الفصل ربيعاً والسهول المجاوره تحفل بالغدران والنهيرات الدائمة الجريان على مدار السنة وفي اليوم التالي قام بمسيرة لا تقل عن مائة فرلنك واقترح الاشتباك بالعدو، لكن [پاولينوس] عارض في ذلك بقوله ان الانتظار أخلق بهم. وليس من الحكمة ان يدفع جنوده الى خضم المعركة بعد ان ساروا هذه المسافة الطويلة مع حيوانات نقلهم وخدم المعسكر والأثقال. في حين كان العدو منتظم الصفوف متهيئاً للمعركة بسلاحه وفيما كان القادة يتناقشون في هذا الأمر، قدم ساع نوميدي من مقر [اوتو] يأمرهم باستعجال القتال وعدم اضاءة الوقت. فأنهى بذلك النقاش واتفق الجميع على الهجوم وبدأوا بالحركة. فأدركت [كايچينا] الدهشة العظمى لعمل لم يتوقع صدوره من عدوه وغادر موقعه على النهر واسرع الى المعسكر. وكان معظم جنود [قالنس] قد استعدوا بسلاحهم وتلقوا كلمة السر منه. وأخذت الفرق تتجمع في مواقعها بينما تحركت تشكيلات الخيالة الى الميدان.

وسرت اشاعة بين جنود [اوتو] لا أساس لها، تفيد ان ضباط العدو سينفصلون وينضمون اليهم. حتى خيل لهم ان الأمر حقيقة فبادروا يحيون العدو المتقدم ويرسلون اليه عبر الخطوط عبارات الود، ودعوهم بالاخوان والرفاق عند اقتراب الجمعين. الا ان الرد كان جافاً مهيناً. فركبتهم الخيبة وهبطت معنوياتهم. كما شك الجنود المتأخرون في اخلاص الصفوف الأمامية للسلوك الودّي الذي ابده للعدو. فكان الاضطراب يسود اول كرة لهم على العدو. وجرت كل صفحات المعركة بدون خطة او نظام. فقد اختلط حملة الانتقال بالمقاتلين وخلقوا فوضى عظيمة، واحدثوا تخللاً وانفصلاً بين الوحدات. وارغمت طبيعة الأرض بحفرها وسواقيها العديدة

كثيراً من الوحدات على كسر صفوفها والدوران حول هذه العقبات، فصارت تقاتل بدون نظام وعلى شكل وحدات متفرقة قليلة العدد. اللهم إلا فرقتين احدهما تعود [لثيتيلوس] وتدعى «بالشهباء»، والأخرى [لاوتو] وتدعى «المساعدة» فقد خرجتا الى ارضٍ سهلة واشتبكتنا بشكلٍ نظاميٍّ ردحاً طويلاً من الزمن. كان رجال [اوتو] اشداء شجعاناً إلا أنهم لم يسبق لهم خوض معركة. أما رجال [ثيتيلوس] فقد خاضوا معارك كثيرة، إلا أنهم لم يعودوا شباباً فقد انهك تقدم السن قواهم. ولذلك كرت عليهم فرقة [اوتو] كرة عنيفة واجبروهم على التقهقر واغتمنوا منهم نسرا. وقتلوا كل رجال الصف الأمامي تقريباً، حتى عصف الغضب والخزي بالمتقهقرين فصمدوا وردوا الهجوم وقتلوا [اورفيديوس Orfiduis] قائد الفرقة واخذوا عدة اعلام. وسار [فاروس الفينوس Varus Alfenus] على رأس جنوده الباتافيين Batavia وهم سكان جزيرة في الراين واشتهروا بأنهم أفضل فرسان الجرمان فأنقض بهم على المصارعين الذين عرفوا بالبسالة والبراعة إلا أن قلة من هؤلاء أدوا واجبههم. لكن الأغلبية ألوت باعنة خيلها الى النهر وانقضت على بضع كتائب هناك، فعزلت نفسها عن سائر الجيش ولم يقف احد موقفاً مخزياً كموقف الحرس الپريتوري فقد ولوا الادبار قبل ان يلتحموا بالعدو وشقوا طريقهم خلال الصفوف الصامدة منهم فنشروا الفوضى. مع هذا كله فقد وفقت قطعان عديدة [لاوتو] في دحر اعدائهم الذين صمدوا لهم وفتحو ثغرة في صفوفهم ونفذوا منها الى معسكرهم دون ان يتمكن منهم المنتصرون.

ولم يجرؤ [پروكولوس] و[پاولينوس] على دخول المدينة مع الجنود وانتحيا جانباً وتحاشيا ثورة الجنود الذين القوا كل اللوم عليهما بالهزيمة. ولكنهم سمحوا [لأنيسوس غالوس] بدخول المدينة فباشروا بتنظيم الوحدات المشتتة. وبيث في نفوسهم الشجاعة بقوله ان المعركة لم يتقرر مصيرها بعد، وان النصر في اكثر مواقعها هو بجانبهم وجمع [ماريوس چلسوس] الضباط وحثهم على المجاهدة في سبيل الوطن.

ولو كان [اوتو] يتحلّى باي قدرٍ من الشجاعة، لكفّ عن القتال بعد ان سفك هذا القدر الكبير من الدم الروماني. ولاسيماً وله في [كاتو] و[سچيبو] اسوة فقد أتهما بأنهما هدرا حياة عدد كبير من اشجع الرومان في افريقيا ولم يقبلا الاستسلام لقيصر بعد معركة [فرساليا] اتهما بذلك مع ان حرية روما كانت في كفة القدر. لا يسلم احد من غدر الدهر الخؤون وتقلبات الحظ إلا ان هناك سجيّة مميزة للافاضل منهم، لا سبيل للحظ في نكرانها وهي أنهم يستخدمون عقولهم ويعلمون بهدي منها عندما تكبو بهم الاقدار ويقلب لهم الحظّ ظهر المجنّ. هذه الفكرة كانت تسود ضباط جيش [اوتو] فأخذوا يسبرون غور الجنود فوجدوا أنهم

يرغبون في السلام مثلهم. وعلى اثر ذلك اصدر [تيتيانوس] أمراً بارسال وفد مفاوضة واتفق ان يتألف الوفد من [چلسوس] و[غالوس] و[قالنس] و[كايچينا]. وانطلق الاولان لمقابلة الطرف الثاني. فاستوقفهما في الطريق جماعة من قواد المائة واعلموهما ان جنودهم يتحركون نحو [بديراكوم]. إلا ان قائديهم قد اتابوهم للقدوم اليهما بشروط الصلح والسلام. فاعرب [چلسوس وغالوس] عن رضاهما وطلبنا منهم العودة معهم الى [كايچينا] ففعلوا وساروا سوياً إلا ان [چلسوس] تعرض للخطر، عندما اقترب من حرس المقدمة وكانوا من الخيالة التي لحقت بها خسائر جراء فشل كمين [كايچينا] كما مرّ بيانه فما ان تبينوه حتى أطلقوا صراخاً وهجموا عليه إلا ان قواد المائة تولوا حمايته، وانتهزوا ضباطهم وصاحوا بهم حتى ردوهم عنه. وخرج [كايچينا] ليرى سبب الضجة وعمل على تهدئة الحال وحيّاً [چلسوس] تحية الصديق وضمه الى ركبه المتقدم نحو [بديراكوم]. على ان الندم خالط [تيتيانوس] لارساله وفد الصلح وعزز الاسوار بحرس موثوقين واستنهض همم الجنود الآخرين ليشدوا ازهم. إلا أنهم حيوا [كايچينا] ورجاله عند اقترابهم بودّ ولطف ولم يصدر منهم عمل عدائي. وبادر بعضهم الى فتح ابواب المدينة وخرجوا لاستقبال القادمين واختلطوا بهم دون كلفة. وأخذ الفريقان يصافح احدهما الآخر وتبدلت عبارات التهانيء وتسابقوا الى اداء يمين الولاة والطاعة [لثيتيلوس].

هذا ما يورده معظم من كان موجوداً في القتال. إلا أنهم يقرون بأن الاضطراب والفوضى التي سادت وفقدان النظام حال دون التأكد والأطلاع على التفاصيل دقائق الأمور. ولما شددت الرجال الى ميدان القتال بصحبة [مستريوس فلورس Mestrius Florus] وهو من القناصل السابقين وكان في معية [اوتو] وقتذاك مجبراً لا مختاراً. وجّه اهتمامي الى معبد عتيق وقال لي موضحاً:

- كنت اتمشى بعد انتهاء المعركة في هذا الطريق فلاحظت كدساً من الجثث تعلو بعضها بعضاً حتى تبلغ بمستوى سطح المعبد الذي تشاهده الآن. فتساءلت كيف حصل هذا ولم اهتمد الى الحقيقة، ولم يفدني احدٌ بجوابٍ شاق. فالعادة في الحرب الاهلية ان أكثر القتول لا تسقط خلال المعركة، وانما بعدها. اذ لاتقبل دخالة جنود الفريق المغلوب لأن المنتصرين لايجتنون اية فائدة من الأسرى إلا ان سبب تكديس الجثث هنا لم يجد له اي تعليل.

وكما يحصل دائماً في مواقف كهذه، وردت [اوتو] شائعات غير مؤكدة عن نتائج المعركة. ثم وصل بعض الجرحى العائدين من الميدان رأساً واعلموا بالحقيقة الواقعة. وليس لنا ان نعجب عندما نعلم ان اصدقاءه وانصاره اخذوا يشجعونه، ويستنهضون همته، ويحثونه على

نبذ اليأس جانباً. إلا أن العجب الكبير هو ما أظهره جنوده من شعور بالتفاني والتضحية. فقد وقفوا جميعاً الى جانبه، ولم يدر احدٌ ظهره اليه مستقبلاً العدو، او مظهرأ اية رغبة في التفاوض مع المنتصر لأن الفشل بات حليف قادتهم بالعكس تماماً، فقد تجمعوا امام بابه وهتفوا له وحيوه بلقب الامبراطور عندما برز لهم واستلموا يده، والقوا بأنفسهم على الأرض وراحوا يتوسلون ويضرعون باعين باكية، ليقف الى جانبهم ولايتخلى عنهم لاعدائهم وان يتصرف كما يشاء بمصائرهم واراوحهم التي ستبقى ملك يمينه ما ظلَّ فيهم نفس يتردد. كان صدق عواطفهم وحماستهم عاممةً حقيقية. وبرز جندي بسيط من الكتل المتراصج وانقضى سيفه ووجه الى [اوتو] العبارات التالية:

- امتحن اخلاصنا بهذا يا قبصر. ليس بيننا رجل الا ويطاعن في سبيلك كما أظعن الآن.

قال هذا وغيب نصل سيفه في احشائه.

ومع هذا كله فقد وقف [اوتو] كئيباً صامتاً. ثم تلفت متطلعاً فيهم بوجه صارم يشع منه الحزم والعزم وقال:

- أيها الجنود الرفاق. ان هذا اليوم الذي يقدم لي هذه الأدلة الصادقة على حبكم، لهو افضل واسمى من ذلك اليوم الذي بايعتموني فيه امبراطوراً. فلا تأبوا عليّ اذن سعادةً ارفع من هذا شأناً، وهي ان استرخص حياتي للمحافظة على ارواح هذا العدد الكبير من الرجال الشجعان. فلنسمحوا لي في هذا على الأقل أن أكون جديراً بالامبراطورية، أعني ان أموت فداءً لها. وفي رأبي ان العدو لم ينل حتى الآن نصراً تاماً، ولم يريح معركة فاصلة، ليس خفياً عنيّ ان جيش [موسيا] الذي يتجه الآن الى البحر الادرياتيّ، لا يبعد كثيراً عنا. وان آسيا وسورية ومصر والفرق التي تقاتل اليهود هي معنا. ومجلس الشيوخ يقف الى صفنا، ونساء العدو واولاده هم تحت رحمتنا، لكن معركتنا مع الأسف، ليست معركة دفاع عن ايطاليا، كتلك المعارك التي جرت ضد [هنيبعل اوپيروس]، أو قبائل الچمبري. فهاهنا الرومان يقاتلون الرومان، والامر سواء أكتب لنا النصر او مُنينا بالهزيمة فيبلادنا هي التي ستعاني النتيجة واننا لنرتكب جرماً فالنصر سيتم على حساب امتنا كائنا من كان الغالب. كونوا على ثقة -واكرراً هذا- كونوا على ثقة بأنني قادر على موت بشكل اشرف مما انا قادر على الحكم. ولست افهم قط كيف يسعني تقديم خدمة كبيرة لبلادي بانتصارٍ احزّه، مثلما اخدمها موتي في سبيل اشاعة السلام والاتحاد وانقاذ ايطاليا من مثل هذا اليوم السيء النقيبة.

وأقبل عليه الجميع يحاولون صده عما اعتزمه بالرجاء والضراعة فلم يتزحزح عن موقفه. واستأذن من اصدقائه، وطلب الشيوخ الحاضرين ان يعجلوا بالرحيل وكتب بذلك للغائبين منهم. ووجه الى المدن رسائل يرجو فيها ان يقدموا لهم كل التسهيلات والتكريم عند مرورهم. ثم استدعى ابن اخيه [كوجيوس Cocceius] وكان بعد حدثاً. وطلب منه يطرح كل خوفٍ جانباً لأن اسرة [ثيتيلليوس] وزوجه وامه عوملن معاملة طيبة جداً لم تختلف عن معاملته لذويه وقال له:

- ان ما منفي عن تبنيتك الى هذا اليوم هو رغبتني في ان تشاركني السلطة فيما لو كتب لي النصر، وان لا تشاركني سوء حظي أن كتبت لي الهزيمة.

واستطرد يقول:

- انتبه يا بني الى كلماتي الأخيرة هذه: لاتنس بفرط اهمالٍ، ولا تتذكر بكثير حماسة ان عمك كان [قبصراً].

وأخذت الضجة تعلقو تدريجياً بين الجنود في الخارج. فقد اخذوا يتوعدون الشيوخ ويتهددونهم عندما بدأ هؤلاء يستعدون للرحيل فخرج الى الجنود مرة أخرى. وقد ظهرت عليه امارات الصرامة والغضب وفارقه لينه وركته وراح ينهرهم بجفاء ودالة ذي السلطان. وأمر المتسببين بالشغب ان يتركوا الموضوع حالاً فاطاعوا ولم يتمرد عليه احد منهم.

كان الوقت مساءً، فشعر بعطشٍ وشرب بعض الماء، ثم تناول خنجرين. وبعد ان تفحص نصليهما بدقة ترك احدهما جانباً ودس الثاني تحت ابطه داخل طيات ثوبه، ثم استدعى خدمة وفرّق عليهم بعض الأموال لا مسرفاً ولا قانتاً كأن المال لا يعود له اصلاً. وأخذ يعين الاعتبار استحقات كل واحدٍ عند تقرير مبلغ عطائه وبصورة يتمثل فيها العدل والقسطاس. وبعد ان فرغ من ذلك صرفهم وقضى بقية ليله يغط في نوم عميق حتى ان ضباط خفر الليل كانوا يسمعون شخيرته. وفي صباح اليوم التالي استدعى عتيقاً له كان مكلفاً بتنظيم سفر الشيوخ فسأله عن احوالهم وعن سلامتهم فطمأنه قائلاً ان حاجاتهم قد امتت جميعاً وهم لا يشكون شيئاً فقال [اوتو]:

- فأنصرف اذن، وأظهر نفسك للجنود، او سيقطعونك ارباً ان بقيت معي، لأنهم سيظنون بأنك ساعدتني على قتل نفسي.

وما ان انصرف هذا، حتى ركز اوتو خنجره بصورة عمودية امامه وقبض عليه بكلتا يديه والقى بنفسه على النصل فخرجت روحه باهة واحدة فقط تعبيراً عن الاحساس بالالم الفجائي،

وسيطاً لهم الى الجرمان الذين لقوا منه في الماضي ما لا يحبون. فتسلل خفية من بابٍ سريّ وافلت فلم يسعهم الاّ اعلان ولائهم [لقيتيلليوس] فعفا عنهم. وانظموا الى وحدات كايچينيا.

١٩٧٢/٦/٩

أو تنبيهها لأولئك الذين كانوا ينتظرون في الخارج وما أخذ اتباعه يصعدون الحسرات معبرين عن حزنهم. حتى سرت المناحة في المدينة كلها وامتلأت بالنذب والعيول واسرع الجنود فاقتحموا الباب وهم يصرخون صرخات شديدة وقد غلب عليهم للأسى وراحوا ينحون على انفسهم باللوم لأنهم قصروا المحافظة على حياة انتزعت في سبيل المحافظة على ارواحهم. وظلوا هناك ولم يتخل عن الجثة أحداً اطلاقاً لنجاته أو خوفاً من دنو العدو بل اقاموا محرقةً جنازيةً وبعد أن أجروا ما يجب اجراؤه على الجثمان حملوه الى المحرقة واصطفوا كأنهم في عرض عسكري، وهم بكامل سلاحهم وكانوا يتزاحمون على شرف حمل النعش ورفعته، والقى بعضهم بنفسه امام الجسد واخذ يلثم الجرح، وامسك آخرون بيديه وركع البعيدين منهم على الأرض ساجدين له، كمظهر من مظاهر التجلة والاحترام. وكان ثم بعض من قتل نفسه بعد اشعاله المحرقة، ولم يكونوا خاصةً له او مدينين له بفضل خاص او اعتبار شخصي له او يخشوا انفسهم من المنتصر لأمرٍ ما، ان ذلك ليثبت بصورة واضحة انه ما من ملك شرعي او غير شرعي شيعٍ بمثل هذه العواطف الصادقة الجياشة التي اظهرها هؤلاء الجنود [لاوتو] فاطاعوه حتى في الساعات الأخيرة، ولم يمت حبههم له يموتهم وظل يبدو جليلاً في البغض المميت الذي حفظوه لخلفه كما سيأتي تفصيله.

ووضعوا بقايا [اوتو] في جدثٍ واقاموا فوقها نصباً لايشير اي تساؤل او عداًء أو حسدٍ بحجمه او فخامته او بالكتابة التي نقشت عليه وانا نفسي شاهدته في پركسيليوم. كان بناءً عادياً نقشت عليه العبارة التالية:

«الى ذكرى ماركوس اوتو».

مات وهو في الثامنة والثلاثين بعد ان حكم ثلاثة اشهر تقريباً وحسنت ذكرى موته أكثر مما ساء ذكر حكمه. فمع ان لم يكن أفضل سلوكاً وعيشاً من [نيرون] الاّ انه مات بصورة انبل من موته.

حنق الجنود على [پولليو Pollio] وهو واحد من قائديهم اذ ذاك. لأنه اراد منهم ان يقسموا في الحال بين الاخلاص [لقيتيلليوس]. ولم يحاولوا اعتراض سبيل الشيوخ الذين كانوا قد تخلفوا عن البقية حتى تلك الساعة. الاّ أنهم اورثوا [فرجينوس رفس] قلقاً وانزعاجاً حين الحوا عليه بتولي السلطة وقصدوا منزله بمجموعهم وهم مدججون بالسلاح وابتدأوا بالالتماس والرجاء ثم انقلبوا يلحفون ويشدون عليه النكير بقبول لمنصب الامبراطوري. او بأن يكون وسيطاً بينهم وبين [لقيتيلليوس] وجنده. ولكنه - وهو الذي رفض ان يكون قائداً لهم ابان انتصارهم وجد من الحمق ان يقبل بذلك بعد ان غلبوا على أمرهم، كما انه كان يكره ان يرسل